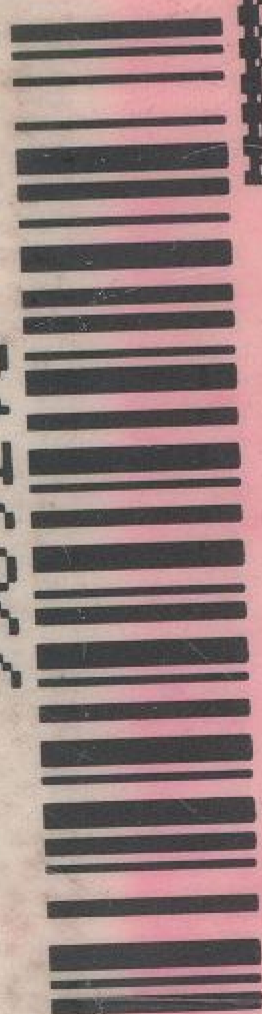
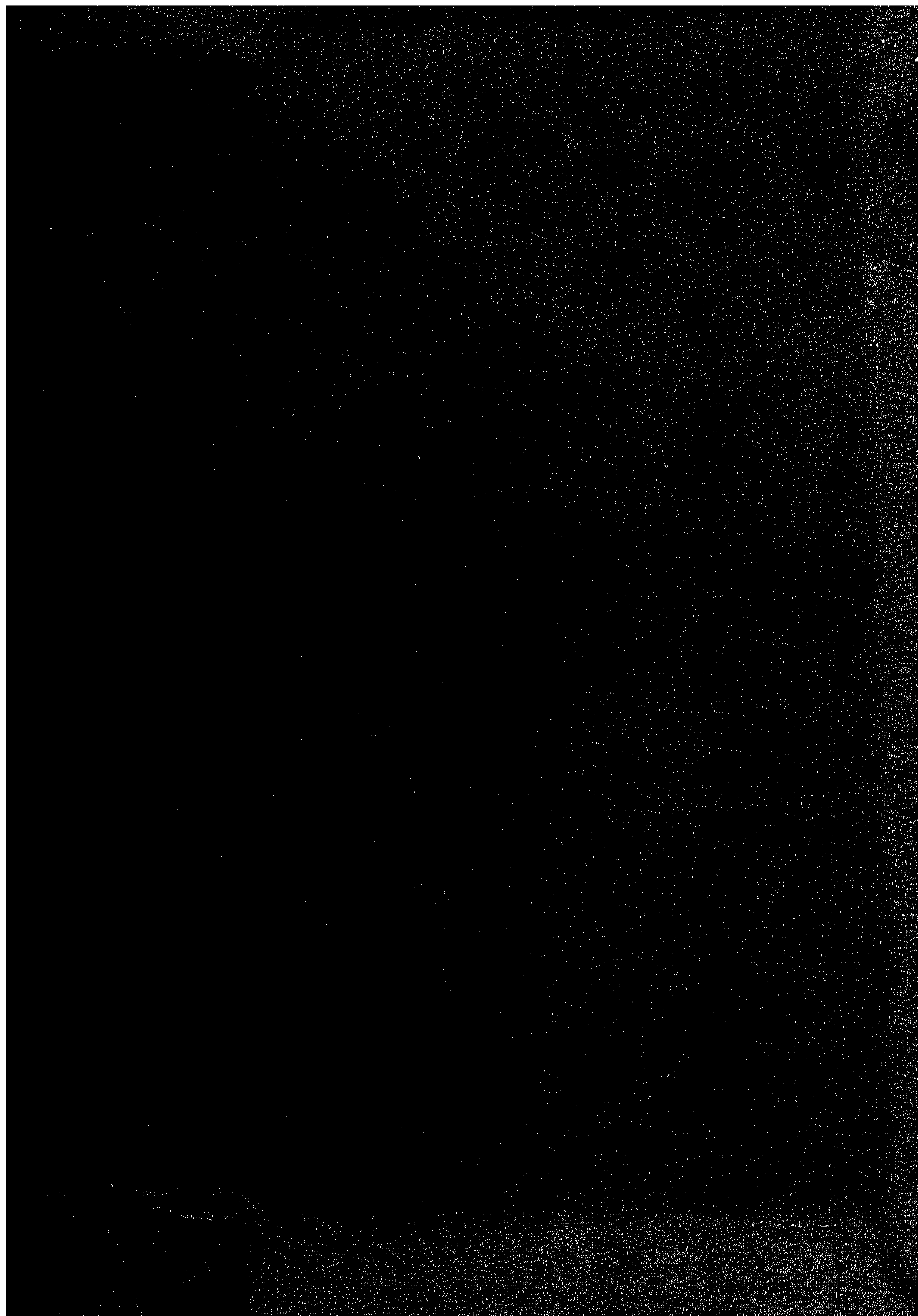
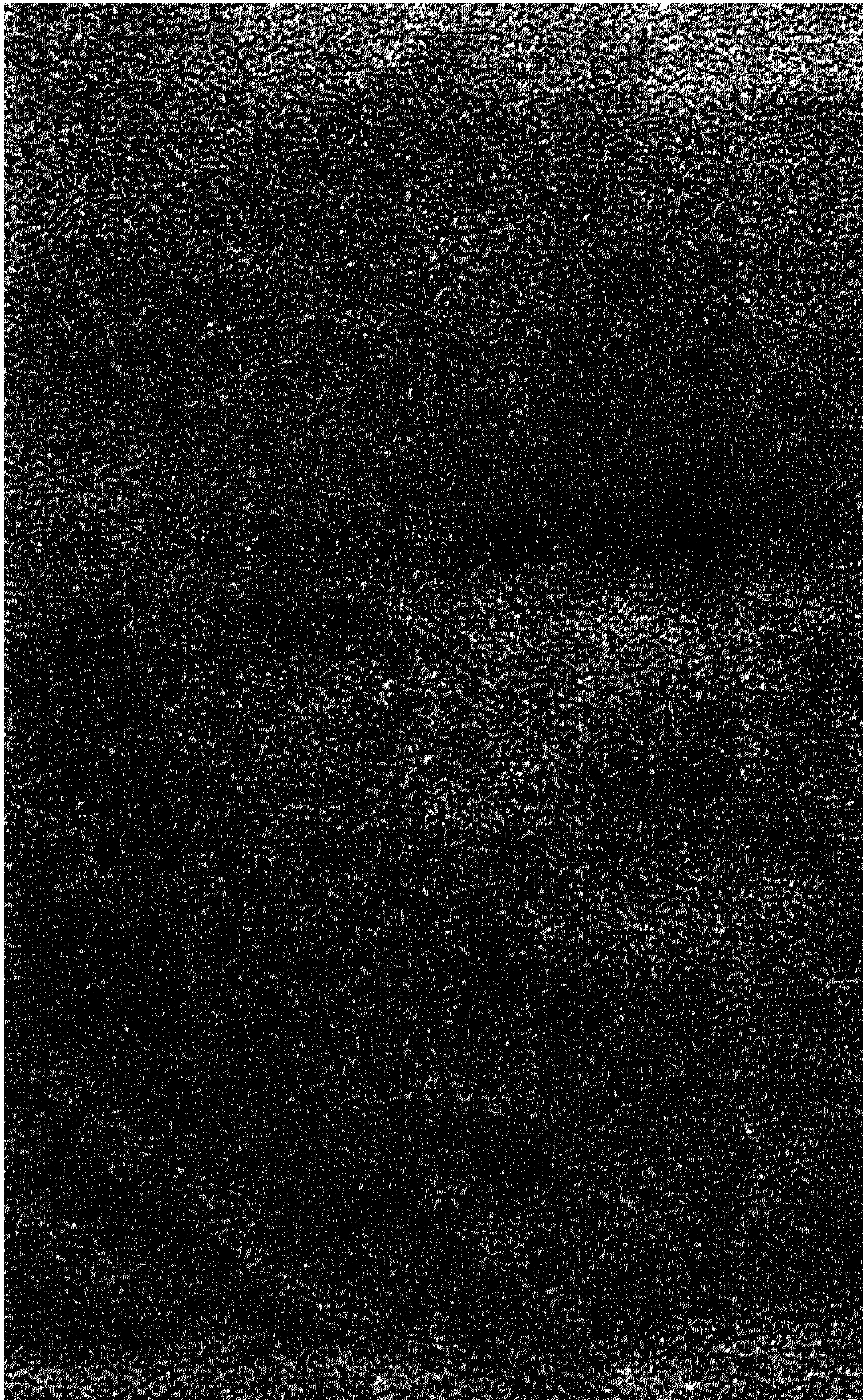








كتاب الهلال

أزمة الشباب

د. نعمات أحمد فؤاد



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: كمال النجمي

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٨٦ - ربيع الثانى ١٤٠٣ - فبراير ١٩٨٣

No. 386 - February 1983

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى - ١٢ عددا - فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادى • وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان خمسة جنيهات مصرية أو مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج• م• ع• بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب •

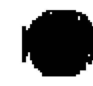
كتاب الهلال



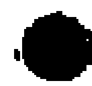
سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــــــلاف بريشــــــة
الفنــانة سميحة حســنين

أزمة الشباب



تأليف
الدكتورة نعمات أحمد فؤاد



دار الهلال

مقدمة

أزمة الانسان المصرى والشباب المصرى ليست أزمة أقليمية محلية بل هى جزء من أزمة عالمية يعانى منها الانسان فى كل مكان فكبار المفكرين فى العالم على اختلاف فى جنسياتهم علماء وفلاسفة ومؤرخين يجمعون على وجود أزمة (١) .

قد يراها كل منهم من زاوية أو يعزوها الى هذا السبب أو ذاك ولكنها موجودة وان اختلفت بواعث وأسباب ونتائج من بيئة الى أخرى .

فالمؤرخ العالمى أرنولد توينبى يرى الحرب والطبقات عاملين يتهددان الانسان الحديث وحضارته ، وعنده أن الحرب والطبقات داء المدنيات جميعا . وعنده المخرج من هذا الداء أن نقيم البناء الدنيوى الخارجى على أسس من الدين . وحين يعدد أهداف المدنية الغربية ويجعلها ثلاثة : السياسة .. والاقتصاد .. والدين الذى يراه أهمها جميعا (ليس من شك فى أن الهدف الدينى من بين هذه الأهداف الثلاثة أهمها جميعا فى النهاية) فالسياسة كما يقول لا تحقق النجاة بالسيادة المطلقة

(١) اقرأ كتاب « آراء فلسفية فى أزمة العصر » تأليف ادرين كوخ ـ ترجمة محمود محمود .

فى الدول الاقليمية . او بحكم الاستبداد الذى لا يلين والذى تتولاه حكومة عالمية مركزية .

وهى لا تتحقق فى الاقتصــــاد بالمشروعات الفــردية غير المقيدة او بالاشتراكية غير المخففة .

لقد أفلسـت حضارة الغرب بكل التكنولوجيا أن تحقق لانسانه السعادة لانها اعتمدت على الذهن وحده فأجدبت الروح من طول الاهمال .. ان ازدياد المعـرفة كما يقـول رادا كريشنان حكيم الهند ، دون أن يقابله نمو فى الحكمة الدينية انما يزيد مخاوفنا من الموت ، وثقافتنا العلمية لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البشرية . لقد سيطرنا على قوى الطبيعة وتحكمنا فى البحار وغزو الفضاء . ولقد زدنا من الانتاج وحاربنا المرض ونظمنا التجارة وجعلنـا الانسان سيدا على بيئته ، ولكن سيد الارض لا يستطيع على الرغم من هذا أن يعيش مطمئنا فهو يختبىء فى باطن الارض تارة ، ويلبس الاقنعة يتقى بها الغـــارات تارة اخرى . ان مخاوف الحروب تطارده فهو يعيش فى حالة من الشك دائمة . ولا يمكن أن تكون هذه الحضارة المهددة بالحرب . والمندفعة بقوة الآلة هى آخر ما يصل اليه الانسان من كفاحه ، وما لم تكن بلهاء مكفوفين أو ضعاف العقول راضين عن أنفسنا ، فسوف نعرف أن التنظيم العملى لا يفى بما تتطلبه روح الانسان .

حتى اينشــتين عالم الطبيعة العـالمى يعلن أن الغــرب كسب الحرب ولكنه لم يكسب الســلام لقد وعد ميثـاق الاطلنطى العالم بالتحرير من الخوف (ولكن الخـوف ازداد كثيرا منذ انتهاء الحرب .. وقد وعد العالم التحرر من

الفزو غير أن المجاعة تهدد اليوم أجزاء كبيرة من العالم ، في حين أن اجزاء اخرى تمرح في رغد العيش . وعد بالحرية والعدالة بيد انا شاهدنا ولا نزال نشاهد ، المنظر الأليم . منظر جيوش « التحـرير » تطلق النيران على شعوب تطالب باستقلالها وبالمساواة الاجتماعية ، وتؤيد في تلك الشعوب ذاتها ، بقوة السلاح،الاحزاب والاشخاص الذين يصلحون لخدمة اغراض أصحاب المنفعـة كما أن مشكلات الحدود ، والتنازع على السلطان ، وان تكن من الامور البائدة ، لا تزال تغطى على المطالب الاساسية ، مطالب الرفاهية والعدالة) .

ويعزو اينشتين أزمة الانسان الحديث فيما يعزوها اليه من أسباب الى الصلة الحاضرة بين الفرد والجماعة ؛ فلقد بات الفرد أشد ادراكا من أى وقت سبق لاعتماده على الجماعة ، بيد انه لا ينظر الى هذا الاعتماد باعتباره ميزة ايجابية ، او رباطا عضويا ، أو قوة وقائية ، بل انه لينظر اليه باعتباره عاملا من العوامل التى تهدد حقوقه الطبيعية . بل وكيانه الاقتصادى) ثم يؤكد أن هـذه العلاقة التى تربط الفـرد بالمجتمع على الرغم من هـذا تتدهور شيئا فشيئا) وكل الكائنات البشرية مهما يكن مركزها في المجتمع ـ تشكو هذا التدهور المستمر . انهم يحسون ـ وهم سجناء أنانيتهم على غير علم منهم ـ أنهم يعيشون فى قلق ، وعزلة ، محـرومين من استمتاعهم بالحياة استمتاعا سـاذجا بسـيطا لا تعقيد فيه . ولا يستطيع المرء أن يجد للحياة معنى على الرغم من قصدها ومخاطرها الا اذا كرس نفسـه للمجتمع) .

وهو يؤمن بقيمة الفرد بل يرى ان كل شيء له قيمة في المجتمع ، ماديا كان أو معنويا أو خلقيا يمكن أن يرد عبر الاجيال المتعددة الى بعض الافراد المبدعين فاستخدام النار ، وزراعة النباتات والآلة البخارية ... كل ذلك كان من اكتشاف رجل واحد .

ان تقدم المجتمع بغير الافراد المبدعين المستقلين في تفكيرهم لا يمكن تصوره كتقدم الفرد دون تربة المجتمع التي تغذيه .

وكما يرى توينبي المخرج او النجاة في الدين ، يرى اينشتين ان العالم الحقيقي لا يجحد الدين بل ان الدين بما فيه من كونية شاملة ، وايمان بوحدة الوجود هو الذي يحفز العلماء على العطاء ويمدهم بطاقة الصبر على عناء البحث العلمي (ولا يستطيع أن يدرك تمام الادراك مصدر الالهام لهؤلاء الرجال ، ومصدر القوة التي تجعلهم يثبتون على تحقيق أغراضهم على الرغم من ضروب الفشل العديدة التي تصادفهم لا يستطيع أن يدرك ذلك الامر الا من كرس حياته لمثل هذه الاهداف انه الشعور الديني الكوني الشامل وحده الذي يمد المرء بمثل هذه القوة .

قال أحد المعاصرين . ان العالمين في العلم الجادين في عصرنا هذا المادي هم وحدهم الذين يتصفون بالتدين العميق) .

ويرى الفيلسوف المفكر « برتراند راسل » ان أحد الاخطار الكبرى في عصرنا الحاضر ، هو الخوف العام من الذكاء ــ وهو يقصد الذكاء الشديد . (الذي يكسب

صاحبه القيادة فى عصابة لصوص) كما يقول . وهو يعزو هذا الى قوة الآراء العسكرية التى انحدرت الينا من الازمنة السحيقة ، والتى تسيطر فى الحقيقة على العالم الآن فالقوتان العظميان تتسابقان فى الاسلحة المدمرة الفتاكة فهما دولتا حرب لا سلام وقوتهما عسكرية لا حضارية انسانية . . .

هذا هو العالم الأول أما العالم الثالث فتسيطر عليه ولكن بصورة أخرى النظم العسكرية والآراء العسكرية .

فان أردنا كما يقول برتراند راسل أن نحيا حياة سعيدة بالوسائل الفنية الحديثة وهى خليقة أن تحقق لنا قدرا كبيرا من السعادة (فلا مناص لنا من نبذ بعض الآراء والاستعاضة عنها بغيرها ، فنستعيض بالمساواة عن حب السيطرة ، ونستعيض بالعدالة عن حب الانتصار ونستعيض بالذكاء عن الاعمال الوحشية ، ونستعيض بالتعاون عن المنافسة ويجب ان نتعلم النظر الى الجنس البشرى كأسرة واحدة وننمى مصالحنا المشتركة باستخدام مصادر الثروة الطبيعية استخداما ذكيا ، ونسير مجتمعين نحو الرفاهية ، لا منفردين نحو الموت والدمار .

ان التغير العقلى المطلوب شاق عسير ولا يتم بين عشية وضحاها ولكن اذا أدرك المربون الحاجة اليه ، واذا نشأ الصغار كمواطنين فى هذا العالم ، لا كمواطنين فى عالم المقاتلين الذين يعيشون على النهب والسلب ، أمكن تحقيق التغيير المنشود خلال جيل واحد) .

ويكشف برتراند راسل فى غير مواربة واقع الحال

بين الغرب والشرق ويعرى الدفين من باطن الغرب . يقول برتراند راسل « ما أيسر أن تنتشر مساوىء الغرب : القلق والروح العسكرية والغضب ، واعتقادنا الجازم فى الآلة . أما أفضل ما فى الغـــــرب روح البحث الحر . وادراك الظروف التى تؤدى الى الرفاهية العامة والتحرر من الخرافة فان الدول القوية فى الغرب تصرف الشرق عن التحلى به » .

وهى كلمات لها ابعادها البعيدة ، وعلى الشباب المصرى والعربى أن يتدبرها ويستوعبها جيداً ليختار لنفســه لا ليتلقى ما يريده له الغرب فى محاولة تطويع وتتبيع .

وبعد فهذه صورة لما يعانيه ويفكر فيه العالم اليوم .. ونحن حين نتكلم عن أزمة الانســـان المصرى أو الشـــباب المصرى والعربى فلسنا بدعا فى الخلق ولسنا كلنا فى الهم شرق كما يحلو للكثيرين أن يرددوا ولكن كلنا فى الهم غرب وشرق فى وقت واحد . وان كنا نقاسى أقسى وأقصى ، بما يجتمع علينـــا من أسبابنا وأسبابهم ممـــا سيفصله هذا الكتاب .

د . نعمات أحمد فؤاد

مشكلة الشباب
أو أزمة الإنسان

لا أزعم لنفسي ان اتكلم عن أزمة الانسان العربي لأن ازمة الشباب تختلف من بلد الى بلد ومن بيئة الى بيئة ولأن مثل هذا البحث يقوم على احصاءات وأرقام لا تتوفر لى الا في بيئتى ولأن مثل هذه الدراسة تقوم على عدامل تاريخية واجتماعية ونفسية وثقافية وحضارية افدر عليها أصحاب المشكلة انفسهم لعامل المعايشة والارتباط والرابطة .

وهذه العوامل نفسها هى التي جعلتني أقصر الدراسة على أزمة الانسان المصرى . ومع هذا ففير قليل من الخطوط العامة يشترك فيها ، معه ، الانسان العربي . فنحن مهما تباعدت بلاد ، في الدين والفصحى أخوان وفي الجرح والآلام اخوان وفى المعاناة والمصير اخوان .

ومن المشاكل التي تنسحب على انسان وطننا العربي الكبير مشكلة الحضارة الحديثة فهى مع تقدمها الفائق في الوسائل الا أن الوجه الآخر منها فادح الثمن ومن هذا : سرعة التغير .

سرعة التغيير :

يقول الفن توفلر : « اننا نعيش اليوم في النصف الثاني

من تاريخ الانسانية . ولا يوازى ذلك الا انتقال الانسان من حالة البربرية الى حالة الحضارة . وفى هذا القرن نجد ان الحالة العامة للحياة وسرعة التحرك فيها وحتى حس الانســـان بهذه الحياة من زوية مفاهيمه عن الزمن والجمال والفضاء والعلاقات الاجتماعية تتعرض لهزات عنيفة » (١) .

يقول روبرت أوبنهايمر الفيزيائى المشهور : « ان عالمنا اليوم عالم جديد . وقد تغيرت فيه مفاهيم عدة مثل وحدة المعرفة وطبيعة المجتمعات الانسانية ونظام المجتمع ونظم الافكار ، لا بل ان مفهوم المجتمع نفسه والثقافة قد أصابهما التغيير ولن يعود أى من هذه المفاهيم الى ما كان عليه فى الماضى . فالجديد جديد لا لأنه لم يكن موجودا في الماضى بل لأن تغييرا فى النوعية قـد طرأ عليه . والشىء الجديد اليوم هو كثرة الجدة وتغير معيار التغير نفسه ومداه لدرجة ان العالم من حولنا يتغير بينما نسير مشوارا . والحصيلة انه لا تمر تغيرات صغيرة فى عمر الانسان المعاصر ولا يضطر المرء لمجرد تعـديل ما تعلمه فى صغره .. بل ان ما يحـدث لا يمكن وصفه الا بأنه انقلاب ضخم » .

ويقول الفن توفلر : « وبوسع المرء ان يأخذ فكرة عن حجم التغير ومداه من أن نصف كمية الطـــاقة التى استهلكها الانسان فى تاريخه الطويل قـد استهلك فى القرن العشرين » .

---

(١) راجع كتاب « العلم ومشكلات الانسان المعاصر » للاستاذ زهير الكرمى . ص ٢٨٦ .

ويقول كينيث بولدينج : « لقد استخرج الانسان من المناجم بعد سنة ١٩١٠ كمية من المعادن تعادل الكمية التي استخرجها منهـا قبل هـذه السنة والى بدء الخليقة » .

ويقول ماكس ويز : « فى مـدى العقـد أو العقـدين القادمين سيكون مفهوما لدى الناس بعامة أن التحدى الرئيسى للمجتمع فى الولايات المتحدة الامريكية لن يكون مركزا حول انتاج السلع ، ولكن حول الصعوبات التى تواجه هذا المجتمع والفرص المتاحة له فى عالم يتسـارع فيه التغيير وتتكاثر فيه مجالات الاختبار » .

« ولقد كان التغير دوما جزءا من بيئة الانسان ، ولكن الذى تغير الآن هو معدل هذا التغير ، ومن المتوقع ان يكون مستقبلا أسرع وأسرع مؤثرا بمعدله هذا تأثيرا مضاعفا فى كل منحى من مناحى الحياة ، بما فى ذلك : القيم الشخصية .. والمستوى الخلقى .. والمعتقدات رغم بعد كل هذه عن التكنولوجيا .

وسيكون التغير متسارعا بشكل يجعل محـاولة تفهمه ، العمل الاساسى فى ذلك المجتمع شغله الشاغل » .

ويعتبر ماكس ويز عام ١٩٥٠ نقطة تحول وتاريخا اعتباريا لبدء هذا التحول . ويشير الى انه من عام ١٩٥٠ حتى اليوم يعيش فعلا ربع مجموع البشر الذين عاشوا منذ أن خلق الله الانسـان قبل مليون سنة ويعيش ٩٠٪ (تسعين) من العلماء الذين أنتجتهم الانسانية .

هنـاك أكثر من مائة ألف مجلة علمية وتكنولوجية متخصصة تنشر بحوالى ٦٠ لغة . ويتضاعف عدد هذه المجـلات كل خمس عشرة سنة . وبالرغم من ضـيق

التخصص صار من الصعب ان لم يكن من المستحيل على العالم أو التكنولوجى أن يتابع قراءة كل ما يستجد فى ميدان تخصصه الضيق . ومثل هذا الامر يمثل مشكلة حقيقية ...

ومن الواضح ان لهذه الحالة انعكاسا على المجتمع برمته .. ذلك أن كل كشف علمى وكل جديد فى هذه المجلات العلمية له أثر وانعكاس على المجتمع وحياة الانسان .

هذا اذا انتبه أما اذا لم ينتبه فهنا تتفاقم المشكلة اذ يتعرض لصدمات التغير وصدمات المستقبل وما ينتج عن ذلك من مآس وويلات .

ماذا يجرى فى عالمنا ؟ نسمع جواب المتقدمين أنفسهم :

يقول الرئيس الفرنسي ديستان : « لقد بدأنا نعيش الآن فى دنيا غير سعيدة ، بل وتعيسه ، انها دنيا غير سعيدة ، لانها لا تعرف الى أين هى ذاهبة . ولانها تخمن انها لو قدر لها أن تعرف ، فانها سوف تكتشف انها تتجه الى كارثة . ان هذه الدنيا غير السعيدة هى التى يجب أن يقودها السياسى الآن ، ان الازمة العالمية الحالية مزدوجة ، فهى ليست مجرد قلق عابر .. ولكنها فى الحقيقة ترمز الى تغير دائم .. وهكذا فاننا سوف نرى خلال السنوات القليلة القادمة نوعا من السقوط والتدهور فى أوربا .. بينما دول أخرى سوف تتجه الى أعلى .. وبشكل ما ، فان هذا هو الانتقام الذى نتوقعه ضد أوربا القرن التاسع عشر ! » .

ويقول الكاتب (أندريه مالرو) « اننى بدأت أفقد

أيمانى فى انه يوجد الآن عصر من النهضة .. لاننى اؤمن بأنه اذا استمرت أزمتنا الانســـــانية بغير حل ، فان نهضتنا الثقافية مستحيلة .. ان هذه الحضارة التى بدأت مع نابليون هى الآن فى أزمة ، ما فى ذلك شك » .
شباب اليوم يعيش عصر الحضـــاره الحديثة ويتمتع بوسائلها البراقة ولكن الحضارة الحديثة تقترن بـ :

الاسلحة الفتاكة :

التى تهدد الانسان بالدمار .. وأشـــد ما يكون هـذا التهديد وقعا على نفوس الشـــــباب المتفتحة للحيــاة الشغوف بها .

فكما هزت سيطرة الآلة القرن الثامن عشر .

وهزت الحــروب الضــارية القرن العشرين وخاصة الحرب العالمية الاولى والثانية ، تهز شباب النصف الاخير من هذا القرن الحروب الساخنة والباردة بين المعسكرين الشرقى والغربى وما يتبع هذا من سباق الاسلحة الفتاكة التى تتهدد الانسان بالدمار .

اجهزة التجسس العلمية :

التى تحرم الانسان من حياة خاصة يحياها وتحرمه متعة الستر والسر ولقد بلغ الامر بالدول التى تسمى نفسها متقدمة ان انتهكت حرمة أفرادها الى النخاع حتى ليسمى باكارد المجتمع الامريكى : المجتمع العارى فى كتابه The naked society. Pelican 1926

التلوث :

تضخم الصناعة أدى الى تلوث الهواء فى المدن وتلوث الافكار بالاعلان .

الشعارات :

كانت الازمات قبلا مشاكل اقتصادية ـ ولكن بعد ازدهار الصناعة واتساع الانتاج وتوسع الاستهلاك ـ اصبحت نفسية . وثقافية وانتقلت صيحات التمرد من العمال الى الشباب بصفة عامة والطلبة والمثقفين بصفة خاصة .وأدى هذا كما يقول الدكتور حازم الببلاوى (١) الى ظهور شعارات جديدة مثل « ثورة الشباب » و « الثورة الثقافية » وغير ذلك .

للوطن العربى كما يقول مصدر قوة هائلة ممثل فى حجم سكانه الذى يتعدى حاليا المائة وسبعين مليون نسمة وينمو بمعدلات مرتفعة نسبيا ينتظر أن توصله لقرابة الثلاثمائة مليون عند مطلع القرن القادم .

ويترتب على هذه الزيادة فى عدد السكان ارتفاع نسبة العرب من سكان العالم الى قرابة خمسة بالمائة فى عام ٢٠٠٠ .

عائدات النفط :

توصلت فى الاقطار العربية السبعة الاعضاء فى منظمة

(١) أنظر بحث « التنظيم السياسى فى المجتمع التكنولوجى الحديث » للدكتور حازم الببلاوى مجلة « عالم الفكر » المجلد الاول العدد الاول (ابريل ـ مايو ـ يونية) ١٩٧٠ .

الاقطار المصدره للبترول (الامارات ـ الجـــزائر ـ السعودية ـ العراق ـ قطـــر ـ الكـويت ـ ليبيا) ٥٥ بليونا من الدولارات سنة ١٩٧٥ أى حوالى اثنى عشر ضعفا لقيمتها سنة ١٩٧٠ ٠

ومما يدعو للألم ان زيادة العوائد المالية هذه قـد أدت ـ فى أغلب الحـالات ـ الى زيادة تبعية الاقطـار العربية النفطية للدول الغربية المصنعة ـ نتيجة لزيادة استيراد الاولى من الثـانية ٠ بل نشـأ شـكل جديد من أشكال التبعية بسبب توظيف الجزء الاكبر من الفوائض النفطية فى الدول الغربية المصـنعة عن طريق اعادة تدويرها فى اقتصاديات تلك الدول . وأحيانا فى صورة استثمارات قليلة الجدوى .

تعميق التبعية للدول المصنعة :

(طورت القوى الاستعمارية فى اشـكال مقنعة للاستعمار بحيث تبقى على الاستقلال السياسى صوريا مفرغا من مضمون حقيقى وتقوم اسـاسا على آليات للتبعية الاقتصادية) .

والادهى التبعية الثقافية التى تمس الجذور .

١٩٧٤ :

عام ١٩٧٤ يمثل منعطفا حاسما فى تاريخ التبعية العربية . اذ شهد هذا العـالم عـودة النفـوذ الامريكى مسيطرا على المنطقة .

الامتداد المسلح « من خلال اسرائيل » :

مشكلات التنمية : ان الدارسين للدول النامية يعدون

من مشاكلها (عمليات الامتداد المسلح ، والحصار الاقتصادى ، وحصار الاسلحة ، والتمييز العنصرى ، وغيرها من وسائل الضغط على المجتمعات النامية ، أو على الاقليات الحضارية فى نفس الحضارة) (١) .

وقد عانى الانسان المصرى من العوامل الثلاثة الاولى اى :

الاعتداء المسلح .

وحصار الاسلحة .

والحصار الاقتصادى .

الامية على الساحة الكبيرة :

(حوالى ثلثى العرب الكبار كانوا ما زالوا يجهلون القراءة والكتابة والحساب فى منتصف السبعينات . وفى الواقع أن نسبة الامية فى البلدان العربية أعلى بكثير عن المتوسط العالمى الذى لم يتعد ثلث السكان فى عام ١٩٧٥) (٢) .

على أن التعليم (يجب أن يمتد الى التعليم الوظيفى والحضارى الذى يمكن الانسان من المشاركة بفاعلية فى الانتاج والنشاط العام فى مجتمعه لتبين لنا خطورة ظاهرة الامية ، انعكاسا لضعف التحصيل التعليمى فى الوطن العربى) .

(والقوى البشرية العربية على ضعف قدرتها الحالية :

---

(١) كتاب (التمسير الحضارى وتنمية المجتمع) ص ٣١٤ .

(٢) بحث « التنميه العربية بين الامكانات والهدر » للاستاذ نادر الفرجانى . مجلة المستقبل القريب . العدد ٢٤ لسنة ١٩٨١ .

غير مستقلة بالدرجة الكافيه في انشـــطة انتــاجية فعاله » .

العنف :

ويعزو أرنولد توينبى ظاهره العنف فى العصر الحديث الى انسحاق الفرد وضياعه فى صخب الآلة وآلية الحياة الاجتماعية .

وان كان جاردنر لا يؤيد ادانة العصر فالقضية عنده قضية الانسان الذى جبل على الاعتقاد بأن الماضى استأثر بالخير كله حين يعج الحاضر بالشر والآثام .

ويعقب عليهما الدكتور محمــد جــواد رضــا (١) بأن العنف وراءه الحالة الاقتصادية عسرا أو يسرا ففى الاولى يدفع الحرمان والفقر الى العنف وفى الاخـــرى يدفع الرخاء الى التنافس والاستئثار مما يسمم حياة الانسان الطبيعية . مستندا الى رأى لاستاذين فراى Fry وهاجارد Haggard فى كتاب Anatomy of Personality

الغزو الحضارى :

لقد أدى التــلازم الذى يقيمه تصور الحضـــــارة الصناعية بين مستوى الحياة وبين التقدم التكنولوجى الى خلق ما يسميه بعض الكتاب الاجتماعيين الغربيين انفسهم « بالغرور الحضارى » .

سواء عند الخبراء الذين يعملون فى المجتمعـــات النامية ، **أو عند الدول المعنية نفسها (٢)**

---

(١) ظاهره العنف فى المجتمعات المعاصره . مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس العدد الثالث .

(٢) كتاب (التعبير الحضارى وتنميه المجتمع) للدكتور محيى الدين صابر ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ .

الوهم الحضارى :

هو الانماط السلوكية المتبادلة التى تنتهجها الحضارات المختلفة فى مراحل تماسها واحتكاكها المباشر ، تعبيرا عن طبيعة العلاقات المتصورة بينها .

تمزق الانسان بين حضارته وحضارة الآخرين :

طبيعة الصراع بين الحضارات الغالبة والمغلوبة وتمزق انسان الدول النامية بين قيمه الموروثة والمحببة وبين مقتضيات ومتطلبات الحضارة الصناعية .

والنتيجة ليست فى صالحه اذ (لا يمكن تفادى وقوع التغيير الحضارى فى هذا العصر الذى اتسعت فيه المواصلات الفكرية والمادية ، وصارت نطاقا يلف العالم كله) . ص ٣١٧ كتاب التغير الحضارى وتنمية المجتمع. مشكلة العصر لا فى مصر وحدها بل فى الشرق خاصة هو زحف أمريكا أو الحضارة الصناعية على انسان الحضارات الانسانية .

معركة الانتقال او الصراع الحضارى أو زحف الحاضر المستقبلى على الماضى العميق الجذور فى النفوس .

انها مشكلة الاختيار .. وهذا الاختيار محنة وهو العقبة الاولى. هذا الحاضر الجديد لا يحتمل الاوجود اجديدا، فلا مكان فيه للقديم ، ولا مكان فيه كذلك لنصف الجديد !! فنصف الجديد هو نصف القديم !! ص ٣٣١ . ولو واتت الوسائل المادية ، وأسعفت الخبرات الفنية ، تخاصم الجديد والقديم ، وجاء شيء هجين فيه من الجديد سمته وشكله ، ومن القديم مضمونه ومعناه ، وفات القديم الذى كان يربط

المجتمع ، ويمسك ببنيانه ، ولم يقم الجديد الذى يحل محله، ويقوم مقامه . ص ٣٣١ .

(وهكذا لابد لهذه المجتمعات من أن تدفع ثمن التنمية الاقتصادية والاجتماعية المكتوبة عليها فى هذا العصر ، فى كل المستويات ، وفى صور كثيرة : ولابد أن يتحمل ذلك جيل من أجيال هذه المجتمعات ، ويسهم فيها) . ص ٣٣٢ .

مشكلة الاختيار :

تقوم على بعض الحقائق الحضارية مثل :

● النسبة الحضارية (ما هو حضارى فى مكان قد يكون شاذا فى مكان آخر) .

● التكامل الحضارى (استحالة فصل الانماط والسمات الحضارية فصلا وظيفيا عن النسق الكلى للحضارة) .

تلكؤ حضارى :

من الضرورى ان نفرق جليا كما يقول ستيوارت تشيز بين :

١ ـ الاختراعات المادية .
٢ ـ السلوك البشرى المترتب على هذه الاختراعات .
٣ ـ السنن الحضارية ونظم المعتقدات .

وتدخل المخترعات عادة فى الحضارة على مرحلتين : أولا ، يغير الناس سلوكهم اليومى ليوائم المشروع الجديد ، فاذا كان نافعا كالاذاعة بالراديو حدث التغيير بسرعة متوسطة فى عشر أو خمس عشر سنة . ثم بعد ذلك

يأخذ الناس بعد ذلك بزمن طويل فى تغيير سننهم ونظم اعتقاداتهم ، مراعاة للاختراع ، وتدبيرا للوسائل التى تراقب تأثيره فى مصلحة المجتمع . والوقت الذى يمر بين المرحلة الاولى والمرحلة الثانية يعرف بالتلكؤ الحضارى . وهو اصطلاح ابتكره « أوجبرن » ، ويمثل جزءا حيويا من الفكرة الحضارية ، مبدأ من أهم المبادىء فى العلم الاجتماعى بكامله وأنفعها (١) .

وهنا يكون التمسك بالتراث تماسك فى وجه الحضارة الصناعية .

الخوف على التراث :

أو العصر الذهبى او الكبرياء القومية للمجتمعات النامية كما يقول الدكتور محيى الدين صابر وهى المرحلة الراهنة التى نعيش فيها ، مرحلة الحيرة بين المتطلبات الحيوية للقوميات الناشئة ، بين التقدم الاقتصادى والمعرفة العلمية والقدرة التكنولوجية ، وبين القيم والانماط الحضارية القديمة التى تمثل التراث القومى ، والطابع الحضارى الذى يرتبط بالامجاد القديمة التى تتخذ صورة مقدسة وتنقلب مثلا أعلى ، ولا تعدم أمة فى التاريخ مثلا أعلى كان لها .

فالنزعات القومية والوطنية التى تثور فى هذه المجتمعات هى رد فعل ومقاومة ورفض لقبول تقويم الحضارة الغربية لحضاراتها ، ولطريقة حياة شعوبها .

---

(١) اقرأ كتاب (الدراسات المثلى لنوع الانسان) تأليف ستيوارت نشميز ـ ترجمة : محمود ابراهيم الدسوقى .

ان مشكله النميه هى ان (المجتمعات النامية تريد ان تجمع بين مثاليات الماضى الذهبى ، وبين مزايا التكنولوجيا الحديثة) (٢) .

(وفى المجتمع العربى لا تخطىء ان تجد الامثال فى كثير من ألوان السلوك القومى ، وفى القـــــرارات السياسية ، وفى الايديولوجيـات ، وفى الآثار الادبية والفنية ، وكلها تحمـل طابع الاعتزاز بالتراث العـربى ، وبأمجاده ، واستعادة تاريخه الحضارى فى مواقعهــا الجغرافية التاريخية) ص ٣١٣ .

محنة الاختيار بين التحديث والتاصيل :

واجبنا ان لا نخلط بين النمو الحضـارى المتـكامل الاصيل والثابت من ناحية والاشكال المشاهدة للتحديث، دون ادخال تغييرات عميقة فى المجتمعات . من ناحية اخرى .

مشكلة الثقة بالنفس او عقدة الخواجه :

استلهام الماضى والامتداد به مع تطـويره واستيعاب المعاصرة .

التباين الواسع بين الاجيال .

الشتات النفسى :

بين القديم الأصيل والجديد الافرنكى .
بين قيمة العمل اليدوى وعائده .
وبين الوظيفة المنظرية .

ومن آثار حضارة الصناعة وتقدم العلم يعانى أنسان العصر وخاصة الشباب من :

الاغتراب :

وهى مشكلة فجرها سنة ١٩٥٦ كتاب كولن ويلسون Colin Wilson « اللامنتهى » . The outsider

والغريب نفسيا حين يبحث كما يقول جوركى فى مقدمة الشريد عن مكان مريح فلا تجده يحز الالم فى نفسه ويتلاشى هذا الرجل اما فى صلح زرى مع مجتمع ببغضه أو تماطى المخدرات والانتحار

أو ظهور المذاهب العبثية واللامعقول .

ولكن لماذا نحن غرباء فى وطننا ؟

هزتنى أنة ألم ، ورنة حزن أرسلها الدكتور حسين مؤنس فى مقاله : « غريب فى وطنى » . واذا كان مثل هذا الرجل المعلم الاستاذ ، وفى هذه السن ، غريب فى وطنه أو هذا احساسه فانها لدلالة تستوجب الوقوف عندها طويلا .

العالم غريب فى وطنه لانه افتقد القيم الاصيلة .

والأمى غريب فى وطنه .. فكما أن المعرفة قربى ورباط ووثاق فان الجهل وحدة وغربة وانغلاق .

الواجد غريب فى وطنه لان حكم الهوى سيف مسلط على الرقاب .

والفاقد المطحون غريب فى وطنه لأن الفقر فى المال ، فقر فى كل شىء كما يقول المازنى أستاذنا .

وأهل الخبرة غرباء فى وطنهم لان المطلوب والمرغوب أهل الثقة من حملة القمـــاقم ، وعازفى الدفوف ، والكتبة الاوركستراليين .

حتى الفلاح الصقنا بالارض ، وأشدنا نعلقا بهـــذا التراب وارتباطا ، عرف الهجرة والنزوح بأحجـــام جماعية .. ويبدو أن هجـرة ما يربو على مليونين من الفلاحين المصريين الى العـــــراق ، فى تقدير بعض الاخصائيين ، كارثة لم ندرك ، بعد ، ابعادها .. وكان الفلاح اذا انتقل الى القرية المجاورة بكى على حنين الناى وشبابة الربابة وهو يقـول « وأنا كل ما أجول التوبة يابوى ترمينى المجادير » .

الريف كله غريب فى وطنه بعد ان زحف اليه ، وعليه ، التحديث والتغريب ، شـــــكلا لا موضوعا .. ومظهرا لا مخبرا فتغير نمط استهلاكه وتغير نمط حياته تغيرا زائفا مسخ طبيعته دون أن ينهض به فى محاولة نماء للجذور المعرقة فى القدم .

والقاهرة عاصمة العواصم غدت غريبة فى وطنها بعد ان غدت ، قبلا ، كرنفالا عجيبا فى البناء ، والزى ، والتعليم ، وأسلوب العيش وأسلوب التفكير .

هى غريبة ومعالمهـا الـكبرى غريبة مرتين كحديقة الازبكية التى هجرتها أشجارها النادرة (٨٠٠ ثمانمائة شجرة) وكشك الموسيقى والبركة .. وجثم على صدرها جبل من الطوب لبوليس النجدة لا تجـد من ينجـدها منه ..

حتى الهرم بكل رسوخه وشموخه ، باعوا هضبته يوما ليتحول الى « لاساس فيجاس » أخرى كما قال الافاقون حين ظفروا بالصفقة السمينة والثمينة .

والنيل كاد يتغرب حين هموا بنقله تكارما وتخابلا .. ومن الخبل ما قتل .

ماذا بقي لا يرزح تحت وطأة احساس الغــربة ؟ اذا استثنينا اثنين : الشمس .. والسماء . فشمسنا كما هي ساطعة .. وسماؤنا بصفائها ، رائعة . والسر ان الشمس والسماء بعيــدين عن أيدينــا والا كان مسهما التغيير أو التدمير .

كل شيء تاه في الزحام .

الانسان .. والمعنى .. والقيمة .

كل شيء ضل طريقه .. حتى الضلال ضل طريقه حين تجاوز حده ، وفقد رشده فتغول وتجول غير عابيء يصنع ما يشاء بعد أن غاض الحياء .

كان المريون عندما يفتربون ، يتعزون بقولهم (غربة ومروحين) هل تصدق هذه القولة ، الآن ؟ هل المفتربون منا (يروحون) حقا ويرتاحون ويأوون الى دارهم ؟ الى الوطن الام أم ينتقلون من غربة الى اغتراب ، عذابه انكى واشد مضاضة على النفس .

حتى التاريخ .. تاريخنا غدا غريبا على الناشئة بعد ان مسخ ، وشوهت الحقائق .

حتى الشارع المصرى غدا أعجميا بعد الانفتاح الشوبسى فانتشرت فيه الأسماء الاجنبية .

عندما كنت طالبة يخطو صباى على دروب القــاهرة كانت أسماء المعالم رسمية وشعبية مصرية خالصة بل يحس الانسان ، العمــد في مصريتهــا .. في أبعــد الاشياء عن الســـياسة او الوطنية فنجد بقالة النيل الازرق ونادى وادى النيل وأحسب ان هــذا امتــداد للنهضة الاقتصـــادية التى أرسى قواعدها ، المصرى طلعت حرب فبنك مصر يتوسط القاهرة وشركاته جميعا

سـهل باسم مصر أولا ثم الصفة الفنيه للشركة ثانيا فالشركة المصرية للملاحة وشركة مصر للطيران وشر مصر للغزل والنسيج .. الخ .

ومصرية الاسماء أيضا امتداد للكشوف الاثرية التي بلت كنـوز توت عنخ آمون والاعتزاز بالمصرية ومصرية الاسماء أيضا . امتداد للثورات المصرية ضد المستعمر ثورة ١٩ وثورة ١٩٣٦ وكانت الجامعة مركز اشعاع وكان الازهر مصدر مقاومة تخرج منه المظاهرات . **وكان للأزهـر** راى . وكان للجـــامعة رأى ، وكان للشباب فى كلا الحرمين راى . وكان للشعب رأى هو الرأى العام ... وما أكثر ما أعتدل به الميزان واستقام المائل حتى القصـة المصرية ولدت فى هذه البيئة .. وهذا الجو مما أعان كما يقول محمود تيمور على يقظة الوعي بكلمة مصر .

القصة كانت أحداثها وأبطالها وأسماؤها وموضوعاتها ، مصرية صميمة . كان يستحيل فى هذا الجو المشحون بالقومية والوطنية أن يجرؤ أحد ولو كان أجنبيا أن يطلق الاسماء الغريبة والغربية على كل صغير وكبير فى حياتنا بل كان الاجانب يتوسلون للعيش بيننا وراء الاسـماء المصرية . فأورزدى باك اسمه الذائع بيننا عمر أفندى .. ونماذج أخرى تخرج من الاسماء العربية القحـة والاجنبية السافرة بالاسـماء التاريخية خاصة الفرعونية فتوجت أعمالها بأسماء ايزيس وأوزوريس – حوريس – رمسيس – توت عنخ آمون – سيتى – احمس .

عندما كان الانفتاح نابعا منا اقتصـــادا على يد طلعت حرب ، وعلمـا على يد الجـامعة المصرية ، ودينا على يد الازهر ، وجذورا على يد المجمع اللغوى ، وتاريخا على

يد التنقيب عن الآثار ، وهبـــات قومية على يد دعاة الاستقلال عندما كانت حياتنا جدا ترتفع فيها القيم ، جدت الاسماء .. وعندما صارت حياتنا للنهب والسلب، رتعت الاسماء كمن رتعوا .. وغدونا فى عصر الانفتــاح انغازى والبوتيكى ٠٠ كل الاســـماء أجنبية وأصـــحابها مصريون ٠٠ بل المحزن أن هؤلاء يحرفون أسماءهم العربية بل الشعبية لتبدو أجنبية مثل : عليش عليشكو ، وقرنى كرونيك ، وسيدهم سيدان ٠٠ هات يا زمان ٠

كان قدماء المصريين من اعتزازهم بهذا التراب يقولون ان الشـمس فى مصر ، غيرها فى أى مكان .. ولكننا قلبنا النظرية ففى العصر التركى ، كل كبير فى عيننا « عثمانلى » وفى الاحتلال الانجليزى « الافرنكة » ، وفى عصر الانفتاح وهو بصورته الاستهلاكية الامتصاصية أشد ألوان الاستعمار وبالا ، نقول على البراق (مستورد) أما ما ينبع من مصر فهو (بلدى) . وكان أولى بنا لو وعينا ، أن تكون كلمة (بلدى) تاجا لكل رائع غال .

أليست غربة موجعـــة ؟ على الوجـــدان المصرى الصادق ؟ نحن نشخص الداء لاننا نعيشه ونحس وخز الالم ولكن لا نريد أن نكون المريض الذى يجأر بالشكوى وينفس فى كلمة (آه) تند عن شفتين مقهورتين .. اننا نريد معرفة السبب وهو عندى :

غياب الديمقراطية .. وحين يغيب النور الكاشف ، ترتع الفوضى وتختفى السببية وتفقد الاسماء مدلولاتها وتغترب القيم المضيئة .

علما بأن الديمقراطية ليست تجربة أو هبة او فضلا

وفطرة قطـــــرة انها حق كامل وطبيعى للشعب ليست موضوعا للمقارنة على سبيل التيه أو التمويه وكما تكون الديمقراطية صـــــمام الامان للشعب . يكون القهر المضروب والصمت المطلوب . صمام أمن ـ مؤقت ـ للجناة والعتاه . والبغاه . ومقتالى المعـــانى الشريفة والاشياء الجميلة فى حياتنا فلا تعود حياة نتفياها بل تغدو أياما نقضيها ، ومرارات نتجرعها حين يحتسى الآخرون الامانى والعرق كأسا دهاقا .

غياب الديمقراطيـة ايذان للهـــوام والفـيران البشرية فتخرج من جحورها الانتهـــازية والوصولية والسلب والنهب والقمع والاختطاف والاعتساف وقطع الطرق او البلطجة النفوذية . ليس لشىء قاعدة بل قصارى الامر سباق محموم لا تهم فيه الوسيلة أو مقاييس الاخلاق والضمير وهنا تهتز القيم وتختل المقـاييس ، وينتاب اليأس والشك . النفوس بل يزلزلها ويسقط أثناء هذا من يسقط من ضعف المقاومة أو هول الصراع بين الخير والشر فى النفس البشرية ... أما من عصم ربك فانه يحس الاغتراب . والغربة فى الوطن أقسى وأقصى الوان العذاب .

هناك فى التـاريخ الوان من الاغترب كالذى احسه الانبياء والمصلحون وأصحاب الدعوات ، كان يدفعهم الى الهجرة أو الرحلة ولكن الى حين . هاجر الرسول ليحيا .. ثم عاد ليكون العود أحلى اذا جاء نصر الله والفتح ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

ورحل الشيخ محمد عبده وجمـال الدين الافغـانى

وأصدرا فى باريس « العروة الوثقى » ولكن ..

احتمال الأذى ورؤية جانيه
غذاء تضوى به الاجسام

ويعانى الشباب من :

فتور العلاقات الانسانية :

فى عصر ملىء بالتكالب والصراع والانعزالية والانانية .

الشك :

بدلا من أن يقود الاكتشافات العلمية الى الايمان بالخالق الاعظم ، جرفت كثيرا من النفوس الى منزلق فضاع أصحابها حين نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

وعانى انسان العصر من الضياع .

أزمة الشباب والتقدم العلمي :

حتى فى حالة اجتهاد الانسان المصرى (الشاب) فان زميله فى الأمم المتقدمة يستطيع من خلال الوسائل المعينة ، كالعقل الالكترونى أن يحقق نتائج اضبط وأسرع وأشد ابهارا .

(فى الحقيقة يصعب على المرء كما يقول الاستاذ زهير الكرمى أن يتصور كيف يمكن أن يتحقق كثير من الانجازات الضخمة الحديثة فى ميادين العلم والتكنولوجيا بدون العقول الحاسبة الالكترونية . وقد أصبح من المعروف ان عقلا حاسبا الكترونيا يستطيع أن ينجز فى ساعة من الزمن ما لا يستطيع عدد من العلماء انجازه فى سنة عمل متواصل) .

كما مكنت العقول الحاسبة الالكترونية العلماء وغيرهم من متابعة موضـــــوعات بعينها فى ميـدان بحثهم أو اختصــــاصهم دون حاجة لقراءة مئات الصفحات من المقالات والابحاث المنشورة فى دوريات ومجلات علمية . فكل المعلومات التى تنشر تختزن فى عقـــول الكترونية خاصة . وعندما يريد باحث أن يطلع على احدث ما نشر في موضوع اهتمامه أو فى زاوية محددة منه فان بوسعه أن يطلب من العقل الحاسب الالكترونى ذلك فيقدم له الحاسب ما يشاء فى فترة وجيزة ، وبذا لا يوفر الباحث الوقت فقط ، بل يكون بمقدوره أيضا أن يركز جهـــده وتفكيره على الموضوع والفكرة بصورة افضل) . صفحة ٢٩٠ .

ومما يزيد فى تعقيد المشكلة المعقدة أصلا ويجعـل الانسان اعجز من ان يواجه كل هذه المتغيرات فى حياته وبيئته ، أو أن يجارى سرعة حدوثها ، ان فى الانسان دافعا قويا يدفعه الى مقاومة التغيير) ص ١٩١ .

ادبى وعلمى :

(كما يزيد من حدة المشكلة ان العلم والتكنولوجيا يتقدمان ويتطوران بسرعة مذهلة ، بيما الادب والشعر والموسيقى والفنون وعلم الاجتماع والسياسة والاقتصاد أو ما يعرف بالدراسات الانســانية ما زالت تسير فى تقدمها وتطورها سير السلحفاة نسبيا ، مما خلق فى المجتمعات المعاصرة حالة من التضاد بين ثقافة العـــلم والتكنولوجيا من جهة ، وثقافة الدراسات الانسانية من

أخرى ــ وهى الحالة التى اسماها « س . بى . سنو » اسما ذاع وانتشر وهو « الثقافتان » .

(ومن الحيوى كما يقول الاستاذ الكرمى ان تمتزج الثقافتان فى الانسان الواحد عالما كان أم أديبا . وقد ذهبت مثلا فى الاوساط المثقفة المقولة بأن الاديب الذى لا يعرف القانون الثانى من قوانين لديناميكية لحرارية ليس أهلا لان يسمى أديبا .

ومن هنا كانت دعوة « سنو » ــ سى . بى . سنو ــ لهذا المزج فى مناهج الدراسة حتى الجامعة . وهى الدعوة التى لاقت قبولا فى العالم المتقدم وبدأت المدارس والجامعات تطبيقها فعلا . فصار على الطالب الذى يتجه لدراسة العلوم والهندسة والطب أن يأخذ مقررات معينة فى الدراسات الانسانية ، وكذلك صار لزاما على الطالب المتخصص فى أية دراسة انسانية أن يدرس مقررات فى العلوم البحتة والتطبيقية .

وهذه الدراسات والمقررات يجب أن لا تكون مجرد مقررات يمر بها مرور الكرام ، بل يجب أن تحور وتطور بحيث تهدف الى خلق الوعى الثقافى الانسانى فى العالم التكنولوجى وخلق الوعى الثقافى العلمى وأساليب التفكير والبحث العلمى وأثره على المجتمع فى الاديب الفنان والفيلسوف المفكر .

ولكن مناهجنا لا تتابع التطور فى العالم ولا تواكبه . انها مشغولة بالخطب العنترية التى لا يكتبها أصحابها .

التعلم :

وهناك التغييرات التى تتصل بالوضع التعليمى المدرسى

وغير المدرسى وارتفاع عدد المتعلمين والمتخصصين وزيادة التقدم التربوى عامة مع ان هذه الزيادة لم تكن دائما زيادة نوعية بل فى كثير من الاحيان أصبحت زيادة كمية مع مظاهر كثيرة للضعف فى النوعية والاثر (١) .

الشباب :

لا يتلقى تعليما على وجهه المثمر لزيادة عدد الطلاب مع قلة الوسائل ، واذن فالنتيجة واضحة وحاسمة ، وهى :

شباب لم يسلح بالتدريب العلمى الصحيح ، يوضع أمام طرق كثيرة العراقيل ، فماذا يصنع الا أن يلجأ أصحاب الحيلة منهم الى الوصول بطرق أخرى غير طرق الكفاءة العقلية والعمل المنتج . المعهد القومى ص ٦٢ .

اسر النظريات :

حياتنا الفكرية بصفة عامة تتحرك فى اطار تقليدى بجعل الاسبقية للمبدأ النظرى الموروث على التجربة العملية الحية كما يقضى المنهج العلمى .

مرجعنا فى الصواب والخطأ هو عبارات محفوظة عن صفحات الكتب قديمة كانت تلك الكتب أو جديدة لا ما تتكشف عنه تجربة الواقع الفعلى .

ملاك الامر نصوص تحفظ .

استيعاب التكنولوجيا :

— فى جميع الجوانب الفنية يكون الحكم لاصحاب التخصص العلمى أو المهنى .

(١) تقرير معهد التخطيط القومى ، ص ٤٩ .

ويتحتم :

ـ اسناد العمل الى من يحسنونه بغض النظر عن أى اعتبار آخر .

ـ حساب النتائج الاقتصادية والاجتماعية هو وحده أساس الاختيار بين البدائل . ص ٦٧ المعهد . فهل نفعل ؟

نظرتنا الى العلم على انه يقيني تعوق الاجتهاد واعادة النظر فيه :

(لا يزال الفهم السائد بين العامة وبعض الخاصة ، انه مجموع من الحقائق اليقينية النهائية .. وان العلماء يطورون العلم عن طريق اضافتهم الى هذا المخزون وليس عن طريق اعادة النظر فيها) المعهد ص ٧١ .

ويعانى الشباب من : الشكلية التسطيح .

المسألة ليست لتعديل الملكية الزراعية أو تعميم مياه الشرب ومحو الامية ، بل انه يتطرق بعمق الى معنى الحياة والمسلك والسلوك والعقائد ويزاوج بينها (أو يستبعد منها) الاثر التكنولوجي الحاضر والمستقبل ويقيسها بالنظر الى الموارد الطبيعية المحدودة والمتجددة والى العادات والتقاليد والفلسفات القائمة أو المستحدثة) ص ٥٣ .

الامية :

ـ ليس القراء والكتابة وحدها . هناك :

ـ الامية الثقافية .

ـ الامية الدينية .

الجامعة :

ـ التتبيع على مستوى الاساتذة .

ـ التجهيل على مستوى الطلبة .
الشباب فى مصر خاصة تلتقي عليه حربان ..
حرب من الخارج :
روسيا : تتسلل الى الدين والتراث .
أمريكا : بحوث علمية تجسسية .
عن السكان .
توزيع الموارد .
خصائص تيلة القطن المصرى .
نتائج الابحاث لا تبقى فى مصر بل تذهب الى أمريكا .
حرب من الداخل :
الاعتداء عليه بالشعارات .
بالاعلام السخى . والمسخر .
بالمانشيتات العريضة .
باجهزه الدعاية الاوركسترالية .
بالمسلسلات .
بالاغانى البلهاء .
بالمطولات المقررة والمكررة .
بالحشدية وسوقه قطيعا فى المواكب والزفات .
بالخوف .
بالضيق حتى سجن عمره فى الطوابير .
غدت الجمعية جزءا من يومه وغده .
والامام الشافعى يقول (لا تستشيروا من ليس في بيته دقيق فان عقله غائب) .
الاعتداءعليه من القوى العاملة التى تطوح به :
فى غير موضعه .
فى غير تخصصه .
فيغدو لقى ملقيا بلا دور .

ان الرقى أن يكون لكل انسان دور لا يغنى غناء أحد فيه .
ليس الرقى الادوات الحديثة .
ومن العجيب ان الحكومة تدقق فى الاختيار عند دخول الجامعة ثم تطوح الخريجين كيفما اتفق بعد هذا .

التوترات الاجتماعية :

التوترات الاجتماعية ويحسها أكثر المثقفين الذين يرون البعد الثالث لزحف أمريكا الاقتصادى والصناعى والثقافى .

(وقد صور تقرير لجنة اليونسكو عن التوترات الاجتماعية فى الهند هذه المشكلة تصويرا دقيقا حيث ذكر فيما يتعلق بالمساعدات الامريكية للهند هذه الملاحظات :

ان الهند تريد ، فيما يبدو ، رفع مستوى حياتها . وهى تحب المساعدات الفنية ورءوس الاموال الامريكية ، ولكنها فى الوقت نفسه ليست على استعداد ان تقبل نماذج الحضارة الغربية جملة وتفصيلا دون مناقشة ، فهى تؤثر أن تلتقط وأن تختار العناصر الحضارية التى ترتضيها وتناسبها ، بدلا من الاقبال الكامل على التقاليد الغربية التى تنبع من نمط الحضارة الصناعية) ص٣٠٨ .

فاستعمال الهندى كما يقول Morris لنفس التراكتور الذى يستعمله الامريكى ، واستنباته لنفس البذور التى يستنبتها ، ليس معناه ان يهدم نفوذ

التأثير الحضاري القديم ، ويجعل من الرجل الهندي رجلا أمريكيا (١) .

هجرة الكفايات :

« فقد الشركات مهارات تجارية وصناعية مهما قيل عنها من الناحية الوطنية فقد كان لها دورها الكبير في دفع عجلة الانتاج والتصدير . وقد هاجر الى الخارج الوف من اليونانيين والأرمن والايطاليين والمصريين كان كل منهم مدرسة تؤثر فيمن حولها وتدرب العاملين فيها وقد أنشأوا مثل هذه المدارس في بيروت وأثينا ومونتريال وغيرها) (٢) .

يعاني الشباب من الروتين ..

ـ جمود الروتين .

ومركزية المصالح والوزارات .

« فطالت الاجراءات وتأخرت ساعة الفصل وصعبت الدراسة العميقة للموضوعات . لان للطاقة البشرية حدودا . فانعدمت الثقة وضعفت الشخصية وماتت روح المسئولية وانحصرت الخبرة والتكوين الفني في أشخاص قليلين فتوقف النمو الاداري) ص ٢٣

اللوائح :

اللوائح ضرورية لتحديد العمل وتوجيه مساره ولكن تخلف اللوائح يقتل العمل والعامل .

---

(١) Morris E. Opler
The Problem of Selective Culture in Progress Under developed Areas. P. 126

(٢) د. سعد أبوالنجا في كتب (ولكن كيف) ص ٣٥ ـ ٣٦ .

واللوائح الحكومية :
عتيقة بالية معقدة غامضة .

كثيرة ومطولة يتعذر الالمام بها حتى لقد سار فى كل مصلحة او قطاع اخصائى معروف ستفتى فيها دون سواه .

جامدة متحجرة تفترض فى كل عامل انه غير امين فتحيط تصرفاته بشتى القيود . وتفترض انه جاهل فتحيط عمله بشتى الاجراءات التى تحركه دون تصرف .

تجسيمنا الخطأ وتجريمنا المخطىء :

وراء هروبنا من المسئولية . .
تعدد الامضاءات على مقشة للنظافة .
نسينا الحديث : من عمل فأخطأ فله أجر ومن اصاب فله أجران) فى عملية تشجيع للمبادرة فى العمل وفى عطف على خطأ التجريب .

اهل الثقة واهل الخبرة :

لابد من بث روح الاستقرار فى نفوس الناس بافهامهم ان الاصل فيهم جميعا أنهم أهل ثقة الا حين يثبت غير ذلك فلا فضل لمصرى على مصرى الا بالكفاية .

لقد مضي على قيام الثورة (ثلاثون) عاما ولا يمكن ان تبقى الثورة نظاما دائما من أنظمة الحكم) .

الى متى عزلة المثقفين وعزلهم ؟

لا يمكن أن يستمر أسلوب أهل الثقة وأهل الخبرة حيث يسود الجهل والعشوائية والمزاجية .. لا يمكن أن يستمر هذا الى يوم القيامة والا قامت القيامة قبل موعدها .

اختناق الابداع :

(الابداع لا يمكن أن يزدهر الا فى مناخ من الحرية يشجع اقتحام المستقبل بكل ما يحمل من صعاب ومخاطر وما يتطلبه من تحديات التغيير) . تقرير معهد التخطيط القومى ص ٧٠ . فهل مناخنا يزدهر فيه الابداع ؟

الزحام :

الشباب يعانون من الزحام .

كانت مصر مثلا فى أوائل القرن العشرين عشر ملايين وفى سنة ١٩٥٢ عشرين مليونا . طبعا قفز هذا الرقم سنة ١٩٧٦ الى ٣٦٫٦٢٦٫٢٤٠ . أما التعداد الرسمى (١) بالقاهرة سنة ١٩٠٧ فكان ٦٦٠٫٠٠٠ ستمائة وستين ألفا والآن يربو على عشرة ملايين . ندع الارقام الى المعنى .

لقد جعلت اليابان من العدد عدة وهو فى مصر شدة لأن الفرد اذا لم توفر له الدولة حقه من التعليم والصحة والعمل فهو محكوم عليه بالقتل الادبى والانسانى بل محكوم على مجتمعه بالقتل . فان محنة حرق القاهرة لم يقترفه مثقف أو انسان مهذب أو أب مسئول أو موظف له عمله .. بل ارتكبه **الزائدون عن الحاجة وعن العدد** ممن تقذف بهم الارحام الى الشارع أفواها مفتوحة بلا انتماء فلا مكان لها فى البيت الضيق أو فى المدرسة المكدسة او فى العمل .. الخ . والكائن اذا اقتصر على فم مفتوح فهو لعنة تحيق ان لم يجد ما يأكله ، عصف بكل شىء .. فشريعة الشارع هى شريعة الغاب .

(١) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء (التعداد العام للسكان والاسكان ١٩٧٦) .

فائض النسل معناه الحرف الطفيلية التي تبدأ من الاعمال التافهة وتتدرج منها الى تاجر شنطة فصاحب بوتيك فصاحب ملهى فتاجر رقيق .. الخ . أو زبال فتاجر خردة فمنتج سينمائي يهدم القيم بالترخص والابتذال .. لانه أصلا لا يعرف الفن أو حرمته .

تسود المجتمع على أثر الانفجار السكاني الحرف الطفيلية في حين تكون حاجته ملحة الى الصناعات والحرف النافعة التي عاشت فى بلدنا على قيم تقليدية واصول وقواعد .. منها ان كل حرفة لها معلم وصبيان يتعلمون عليه ومنه ولكن تدخل الحكومة بقوانين التأمين جعلت أصحاب الصناعات يرفضون الصغار تخففا من أعباء تأمينهم فيتلقفهم الشارع وصناع الجريمة .

قوانين قوانين :

هل من قانون يؤمن الزوجات حتى لا تتكثر المراة بالاولاد استشعارا للطمأنينة ؟ واثباتا وتثبيتا للوجود .

ان الكفالة الشاملة فوق طاقة أى حكومة فضلا عن انها تشيع التواكل والبطالة المقنعة وتقتل الطموح والتنافس وانتاج الافضل .

هل من قانون للقوى العاملة أو الخاملة التى تملأ المكاتب بالموظفين حتى العاشرة صباحا ثم الشوارع حتى آخر النهار والليل .

والانفجار السكانى ظاهرة عالمية بل أن الدز هكسلى يعتبرها زيادة مفاجئة فسكان القرن الاول الميلادى كما يقول كانوا (يقدرون بمائتين وخمسين مليونا ، على حين ان عدد السكان اليوم وهو ثلاثة آلاف مليون نسمة

يقدر له ان يضاعف فى اربعين عاما فقط وترتب على هذا التفجر البشرى نمو فظيع فى كبريات المدن وكان من نتيجة ذلك أن ملايين من أطفالنا لا يعلمون شيئا عن الطبيعة : لا يعرفون كيف يكون القمح فى حقوله ولا كيف تكون شجرة الفاكهة ، بل ان ملايين لم يروا فى حياتهم بقرة الا فى الصورة) .

مشكلة الزواج :

ومشكلة الزواج التى تعسرت لظـــروف الاقتصـــاد والاسكان ونظرته الى المرأة مما حرمه العيشة الطبيعية الناعمة عيشة الزوجية كما يقول الاستاذ أحمـد لطفى السـيد (١) وفرض عليه عيشة العزوبية المشوهة غير الطبيعية .

تخلف القرية :

وكلنا ينتمى أولا الى قرية من القرى .

انفصام الاسرة أى أبنـــاء المدينة عن أبناء القرية فى الاسرة الواحدة .

اصلاح القرية : لذاتهـــا .. لحقها .. ثم من أجل العاصمة .. ان حل مشاكل القـــاهرة يبدأ من الريف والا استمر الزحف على القاهرة واستحكمت اختناقاتها مهما تعددت الكبارى والانفاق .

الشباب والدولة :

وهنا تستحكم مشكلات الشباب .

انه يعانى من : تهديد الســـياسة للادارة أو خوف الادرة من السياسة .

(١) المنتخبات ، ص ١٤٩ .

(النظام الاداري يستند الى النظام السياسي كما يستند الباب الى الحائط . فاذا التصق الباب باطاره وأبى أن ينفتح .. فقد تكفى ضربة قوية لفتحه) .

الرقابة :

على الانسان المصري في المواقع الصغيرة حين نصاب بالصمم والخرس فى المواقع الكبيرة والخطيرة .

(لقد ثبت ان حوادث السيارات فى أثناء الحرب بسبب الظلام فى الشوارع قلت ، لان السائقين كانوا يحتاطون فى القيادة . وثبت ان متوسط أعمار المرضى بالسكر اعلى من السنوى العام للأعمار بسبب احتياطهم فى الاكل . فالرقابة عمل سيكولوجى قبل أن تكون عملا ماديا . وليس الغرض منها ضبط المخطىء أو المختلف بقدر ما هو تفادى الخطأ والاختلاس) ص ٣٢ .

يقول المهندس سيد مرعى فى كتابه (لكى نربح المستقبل) ان الدول النامية (تعود مشكلاتها الى افتقارها الى التنمية وعدم توفر رءوس الاموال او التكنولوجيا الحديثة . وبالتالى الى عدم وجود الجهاز الانتاجى المتقدم اللازم لتشغيل الموارد المعطلة ، ومن الضرورى أن ننبه هنا الى ان المشكلات التى تعانى منها البلاد النامية مشكلات تعود الى ذات البنيان الاقتصادى ، وهو ما يعنى أن علاجها يتطلب تغيير هذا البنيان نفسه وخاصة عن طريق خلق الجهاز الانتاجى المتقدم) ص ١١٨ .

لم يذكر الانسان ولم يذكر استغلال النفوذ مما اختلت معه القيم والمقاييس واهتز معه الانسان والمجتمع وبالتالى يتطلب تغيير بنيان آخر وليس البنيان الاقتصادى وحده .

لماذا تقدمت اليابان وهى لا تمتلك موارد زراعية أو

معدنه ذات قيمة اقتصـــاديه كبيرة ؟ لماذا تقدمت اليـــابان وعدد سكانها ١٠٠ مليون (مائة) لا أربعون مليونا يتخذون شماعة للفقر والتخلف باسم الانفجار السكانى ؟

ضعف المشاركة الشعبية :

يمكن ارجاع هذه الظـــاهره كما يقول الاستاذ نادر الفرجانى الى فقدان الجماهير العربية للثقة فى العقائد الاجتماعية والسياسية التى تبنتها الانظمة العـــربية خلال العقود الثلاثة الماضية للأسباب الآتية :

١ ــ التفاوت الكبير بين المعلن والواقع .

٢ ــ تفاعل زيادة ضغط الظـــروف الاقتصـــادية على الناس . مع زيادة انماط استهلاكية مستوردة من خارج المنطقة لا تمثـــل بالضرورة حاجات أساسية فى بلدان الوطن العربى . مما أدى الى انصراف النـــاس لتدبير شئونهم المعاشية فى اطار نسق قيم فردية يقوم عـــلى تعظيم الممتلكات المادية الخاصة .

٣ ــ تدنى الاحساس بالانتماء ومعاناة الاغتراب ، فى اقسى صوره وهى احساس المواطن بالغربة على أرضه . مما يعنى غياب الحـــافز الاهم للاستجابة الاجتمـــاعية الاقتصادية فى دفع مشروع قومى للتنمية .

٤ ــ قمع المعارضة وضرب الارهاصات الديمقـــراطية التى كانت تلوح فى أفق بعض البلدان العربية .

انحدار القيم :

ان تحولا خطيرا فى القيم قد ظهر فى حياتنا ابان الفترة الاخيرة وذلك لان طرق الاختيار فى مجال السلوك الفعلى قد طرا عليها تغيير حاد ملحوظ . .

ومن هـذا أمثلة العـزوف عن العمل ما دام الدخل مضمونا بغيره .

الاسـتخفاف بالاتقان حتى اذا عمـل طالما كان الكسـب متساويا بين حالتى الاتقان والاهمال .

فضلا عن الجوانب المدمرة من رشـــوة واختلاس وانحراف وغير ذلك .

الانحلال الخلقي في المواقع الكبيره :

ورد فى المجلد الثالث من التقرير عن مؤتمر جرائم الرشوة والاختلاس والانحراف الادارى (المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية) ما يفيـد بأن جرائم الاختلاس فى السنوات الثـلاث من ١٩٥٠ ـ ١٩٥٢ (٥٠ ـ ٥١ ـ ٥٢) لم تزد عن سبعين حالة ، حتى اذا ما جاءت سنوات الستينات قفزت الى نحو أربعمائة حالة فى كل سنة على حدة .

ثم جاء السبعينات لتمضى فى طريق الزيادة (راجع ص ٢١٩ من التقرير المذكور) .

وان نسبة من اختلسوا مبالغ كبيرة كانت أكبر جدا من نسبة المختلسين لمبالغ صـغيرة : ليست بالضرورة بل الرغبة الجامحة في النجاح غير المشروع على أساس ان النجاح مقياسه قوة المال كما يقول التقرير .

وكذلك كان من المغريات للاختلاس ضعف الرقابة وعدم التعرض للخطر .

نسبة المختلسين لضعف الرقابة ٤٠٪ .

نسبة المختلسين لضرورة العيش ١٣٪ .

وأوضح التقرير ان التعقيدات المكتبية (البيروقراطية) قد ساعدت على نجاح المختلسين فى اتمام عملياتهم فى ظلام الثنايا الكثيرة التى تتخلل الطريق .

قدرة الذين استطاعوا الوصول الى مراكز السلطة والنفوذ ، واستطاعوا الوصول الى أهدافهم فى الثراء السريع ، وعجز الباقين .

فكانت النتيجة المحتومة لذلك العجز ان يلتمسوا طريق الوصول الى الهدف عن غير الطريق المشروع ، الذى هو الانجاز الحقيقى بالعمل ، أى انهم أرادوا الطيران الى أهدافهم من فوق رءوس العاملين ، فكانت حالات الاختلاس وحالات الرشوة وغيرهما من أمثلة الانحراف) .

تقرير معهد التخطيط القومى ، ص ٦٠ .

الاعتداء الفوقى على المال العام :

وقوع السوق فى قبضة المحتكرين الذين يوجهون الاقتصاد توجيهـا يتفق مع منافعهم الشخصية بغض النظر عن المنفعة القومية .. الى آخرما هو معروف من الآثار السيئة التى تصيب البنيان الاجتماعى حيثما انتشرت الرشوة وسهل الاعتداء على المال العام . المعهد القومى ، ص ٦٢ .

وقد تعرت نماذج صارخة عندما أتيح الكشف عنها ولا يزال وراء الاكمة ما وراءها .

لماذا حدث الدمار؟

لماذا حدث الدمار يومى ١٨ ، ١٩ يناير ١٩٧٧ الذى سموه فى محاولة هروب من الحقيقة انتفاضة حرمية ؟ مع ان اللصوص العتاة مطمئنون لا ينتفضون ولايحزنون.

لماذا حدث الدمار ؟ سببان رئيسيان :

١ ــ فقدان القيم لانتشار الانتهــــازية والاستغلال وسيطرة النفوذ .

٢ ــ فائض النسل طالما لا يقابله فائض فى الموارد يجعل من العود عدة لا شدة .

وقد تكلمت عن الزيادة السكانية يأتى بعدهما السبب الظاهر والمكشوف أي الايدى التخريبية التى دبرت .

هذه الايدى حتى قبل أن تكتشف كان سير الاحداث يشير اليها . وقد تعودنا ان ندرك السبب فى كل محنة، متأخرا . وقد آن الاوان أن نتعمق الامر اكثر ...

ان الوحل لا يعيش الا فى مستنقع .

وان السوس لا ينخر الا فى جذوع منخوية .

وان الايدى التخريبية لا تعمل عملها الا فى مجتمع يفتقد القيم الحقيقية للدين وللوطن . مجتمع يزيد أفراده عن امكاناته . مجتمع يفتقد القدوة والمثل الاعلى .

أما القيم فرسالة البيت والمدرسة والمسجد والكنيسة.

ندع قليلا البيت الآن فان الامام الشافعى يقـــول :

« لا تستشيروا من ليس فى بيته دقيق فان عقله غائب » . كما أشرت سابقا .

والبيت المصرى عقله ليس فى حالة غياب فقط ولكنه فى حالة غيبوبة أيضا .

نتجه الى المدرسة اذا أردنا علاجا جذريا من الاساس .
هل تدخل مصر وجدان الطفل المصرى عن طريق المدرسة ؟

هل تغرس المدرسة فيه الانتماء ؟

أبدا .. ان الوطنية فى مناهجها نشيد يحفظه الطفل لينساه .. أو خطبة سياسية ! ولا تقرر الخطب الحكومية فى أى بلد من بلاد العالم المتقدم أو المتخلف الا عندنا .

ان الوطنية (انتماء) يغدو فيه القلب المصرى متعلقا بكل ذرة تراب فالشارع ملكه ، والمركبات العامة ملكه . والكبارى ملكه .. والاعتداء عليها اعتداء عليه .. عندئذ لا يفلح معه تحريض مغرض ، أو اغراء مأجور ، واستهواء شعارات مدفوعة .

نأتى الى الدين الحنيف ماذا تعلم المدرسة والبلاغة واللغة هى المقررة على أطفال الاعدادى ومن دونهم .. ان الدين سلام فى النفس وسلام مع الناس .
والدين عمار فى النفس وتعمير للحياة .

ليس من الدين التحطيم والاعتداء والايذاء .. الدين يحترم الملكية مع صيانتها بالتكافل الاجتماعى فالقادرون فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم والدين ليس البر عنده أن نولى وجوهنا قبل المشرق والمغرب (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين

وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب . وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين في الباساء والضراء وحين اليأس أولئك الدين صدقوا ، وأولئك هم المتقون) .

والدين يحترم العامل بقدر العمل ببسط الرزق لمن شاء ويقدر .

والدين يأمر بالشورى والمجادلة الحسنة .

والدين يحترم العقل والتفكير فريضة اسلامية . فالتبعية العشوائية مهانة لصاحبها والغاء لعقله ووجوده .

فلو ان المدرسة المصرية أرست هذه القيم الدينية فى النفوس صغارا ، لصعب على التضليل والتكفير ، قياد أصحابها كبارا .

هذه القيم رسالة المسجد والكنيسة انفتاحا بالدين ، بدلا من قوقعته فى الطقوس والنصوص الخاصة حين تلتقى الاديان جميعا عند الخير والبر والرحمة .

بقيت كلمة ليست أقل خطرا ...

من الدين أيضا القدوة الحسنة .

ومن الدين مشاركة الجموع فى همومها والاحساس بها ، واحترام مشاعرها ، والوفاء بحقوقها السياسية والاجتماعية .

ومن الدين حكمة القصاص من العابث والمنحرف والمستغل مهما كانت صلاته أو صفاته حتى لا يصبح

التسيب قاعدة والفهلوة شطارة ، والنهب فرصة فييأس الامين والجاد والكادح . لا يقرأ الناس فى الصحف الاجنبية ما يذهل ثم يرون الفاعل يملى له .

تفشى العيوب وتفاقمها :

(الرشوة والاختلاس والاهمال والتغيب عن العمل بلا مبرر واللامبالاة بالنسبة الى الصالح القومى العام وضعف التعليم وانسداد الطريق المشروع امام المتعلمين وما يجرى هذا المجرى من ظواهر ، مما يقوم بيننا اليوم ويؤثر فى تقدمنا وانتاجنا لم يكن دائما بمثل القوة التى هو عليها اليوم ، وشاهدنا فى ذلك ، البحوث الكثيرة التى أجريت فى هذه الميادين ودلت على ارتفاع نسبتها ارتفاعا مفاجئا فى السنوات الاخيرة (راجع تقارير المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، فضلا عن بحوث كثيرة أجراها طلاب الدراسات العليا فى الجامعات . نظم الاسعار والاجور التى تفرضها سلطة مركزية تؤثر فى سلوك الافراد ونظرتهم الى الحياة وتحصر تطورهم وتفكيرهم فى قنوات معينة دون غيرها) . المعهد القومى، ص ٥٦ .

بمعنى هل هناك توازن أمثل بين حرية الفرد (الفكرية والاقتصادية والاجتماعية) وبين مقتضيات التماسك الاجتماعى ؟ .

تجميد الامة : الوصاية على الامة .. سلطة الفرد .

أى اهدار الجهود المتخصصة والصادقة فرد واحد

، له حق القبول او الرفض فى عالم السياسة وفى عالم الافكار وفى عالم السلوك والاخلاق والعيب .

ولا غرابة كما يقول تقرير معهد التخطيط القومى (أن نرى بين أيدينا اليوم مئات البحوث العلمية فى موضوعات مختلفة من شئون حياتنا الاجتماعية والاقتصادية ، لكنها توضع كلها فوق الرفوف ، لنترك مجرى الامور الفعلية مرهونا بصاحب الحق فى رسم الطريق .

صنع القرار :

استئثارالحاكم بكل شيء بينما القاعدة كما يقول المركز القومى للبحوث هى (أن ينحصر الرأى السياسى فى اختيار « الاهداف » ثم يترك للمهنيين والحرفيين بعد ذلك كل ما يتصل بالوسائل المحققة لتلك الاهداف) . معهد التخطيط ، ص ٦٧ .

يعانى الشباب من :

الطوطمية السياسية :

(كل نظام يزعم لنفسه خلودا وأبدية يصعب تبريرها ، وعليه فكل النظم المعاصرة تضطهد العلوم الاجتماعية ، وتضيق عليها بطريقة او بأخرى ، عندما تمس هذه العلوم مصالح وهياكل هذه النظم) ص ٧٢ .

التى يصفها ف . ج . روتلز برجر بأنها (الادارة التى ترى ان أكبر تقدمة تقدمها لاولئك الذين يعملون لها هى زيادة الاجور . وترى الادارة انها تعـول ، ولا تيسر فحسب طريقة للعيش ، وان الجماعات غير الرسمية فى المصنع اما رديئة واما غير موجودة ، وان السلطة جميعها تأتى من القمة ولا يسمح بقرارات تصدر عن القاع .

ادارة كهذه تخـــرب الانسان حين تترك المجتمع مخلوقات بشرية مضطربة النفوس مخيبة الآمال كما يقول ج . روتلز برجر فى مجلة هارفارد .

يقول روتلز برجر : « لعل أهم الاشياء جميعا هو ان نمط المدير المنتظر سيكون عليه أن يتعلم التمييز بين عالم المشاعر وعالم الحقائق والمنطق (١) .

يعانى الشباب من :

الخطب العنترية :

ازدواجية قاتلة بين القول والعمل فالخطب العنترية تتغنى بالوطن ثم تداس المصالح الوطنية وتقدم قرابين حسبة واحتسابا تطوعا واختبارا .

---

(١) كتاب (الدراسة المثلى لنوع الانسان) لواهه ستيوارت تشير . ص ٢٠٤ .

أى التضليل والتدجيل .

والصحافة تتولى التدبيج .

والاذاعة والتليفزيون ـ الالحاح بالصوت والصورة والايحاء الذى يخرج من التلميح الى التصريح فيردد الابواق ان الشعب يستقبل أو يفرح أو يهنىء .

فلا يجد الشعب بدا من المداراه .

يقول الدكتور حامد عمار : (ومثل هذا التكيف السطحى ضرورة من ضرورات البقاء فى ظروف متغيرة لا ضابط لها ولا مقدر لعواقبها . ولعل أتفه الامثلة على ذلك ما كان يقوم به المحتسب أيام الدولة المملوكية مثلا من مناداة الناس بالاحتفال بشفاء السلطان من مرض كما حدث عندما عوفى السلطان الناصر محمد بن قلاوون من كسر فى يده !! حيث استمرت الزينات أسبوعا كاملا وظلت الجوقات بالبشائر تضرب والطبول تدق ولم يبق أمير الا عمل فى بيته فرحا) ! على حد تعبير صاحب السلوك .

كذلك نادى المحتسب باقامة الزينات عندما شفى السلطان الغورى من رمد ألم بعينيه وقد أسهب المقريزى فى وصف الاحتفال بهذه المناسبة ص ٩٠ .

حقيقة كان على الشعب أن يفرح حين يراد له أن يفرح ، وأن يحزن حين يقضى عليه باصطناع مراسم الحزن .

الارتجال فى القرارات والمشروعات .

العشوائية الدون كيشوتية وعود وعود .

يعانى الشباب من : كثرة القوانين حتى غدا .. لا يؤمن بها .. لا يعمل بها .. يجد سعادته فى مخالفتها .

النفاق :

الفردى فيقول شخص المفروض فيه أنه غنى عن النفاق ، عن الحاكم (الحكمة أهه) .

الجماعى توقعه الهيئات كنادى هيئة تدريس جامعة عزيزة قام رئيسه يقول للحاكم : انت الحكم والتاريخ ولكن الاساتذة الحقيقيون أسقطوه فى انتخابات النادى .

من أسفل الى أعلى : الموظفون للحاكم

من أعلى الى أسفل : بالاقطاعيات بالجوائز التى تعددت وضوعفت قيمتها المادية .. الخ .

ظاهرة التواكل :

(اختلاط النظم الغربية « الاقتصاد الحر » بالنظم الاشتراكية الشرقية « الاقتصاد الموجه » أدى الى ظاهرة التواكل والاعتماد المتزايد على الدولة أو السلطة فى توفير متطلبات الحياة) تقرير معهد التخطيط القومى ، ص ٥٥ .

(لن يكون المجتمع منتجا كما يقول الدكتور حامد عمار الا اذا أتاح الفرصة للفرد لكى يصل الى أقصى مايستطيعه من استخدام امكاناته ومهاراته وتنميتها فى كل ما يتصل بعلاقته بالاشياء وبالافكار وبغيره من الناس . ولابد أن يستمد النمو مادته من هذه الاشياء الثلاثة معا والا

يقتصر على ناحيه منها دون الاخرى والا يقلل من شأن واحد منها فلا تعطى قدرها فى عمليات تنمية الشخصية المنتجة .

وعلاقة الانسان بالاشياء هى الجانب الذى لم يلق تقديرا يتكافأ مع قيمته فى نمو الشخصية وحياة المجتمع نتيجة للظروف الاقتصادية والاجتماعية التى عاشت فيها البشرية واقتران العمل اليدوى بحياة الرقيق والمستضعفين والعمل الفكرى بحياة السادة والاحرار .

(ان التنميه فى جوهرها كما يقول الاستاذ نادر فرجاني فى بحثه الذى أشرت اليه هى عملية تحرير ونهضة حضارية شاملة تقتضى الانعتاق من شبكة علاقات السيطرة التبعية التى تربط البلدان المصنعة ببلدان العالم الثالث والعمل على اقامة بنيان اجتماعى - اقتصادى - سياسى جديد متوازن كفء ويحمل فى طياته بذور استمراره وتطوره باطراد . ولا يعنى هذا الانكفاء على النفس أو الاكتفاء الذاتى . وانما العمل على الدخول فى علاقات التعاون الدولى بندية . وتعبئة وتوظيف الطاقات الذاتية فى اقامة البنيان الاجتماعى - الاقتصادى السياسى الجديد بهدف اشباع الحاجات الاساسية ، مادية ومعنوية ، لجماهير الشعب كأولوية أولى ثم الى رفع مستوى حياة الناس باطراد) ص ٢٢ .

وطاقات البشر فى اى مجتمع هى ، فى التحليل النهائى ، المورد الاول والاهم .

بناء البشر القادرين على الاضطلاع بالمهام التنموية .

أما اذا تركت الطـــاقات البشرية عـاطلة بل حجمت ولجمت فان كبر حجم السكان يتحول الى عامل ضعف ينخر فى بنية المجتمع .

ان من أهم الاشياء كما يقـــول ستيوارت تشيز (ان يستطيع عامل فى نهاية يوم أو أسبوع أو سنة أن يشير الى شيء ما يمكن أن يكـون فخـــورا به ·· الى شيء يحتفظ فيه بمعنى الابتكار . فليس فى ذلك بحال من الاحوال دلالة على ان هناك غريزة من غرائز الحذق ، بل فيه اعتراف بأن العامل وهو يتبين شخصه فيما صنع ، من دون وعى ، يحس بالرضا .

وفى وسط هذا العذاب يعانى الشباب من .

افتقاد المسجد معنى مع كثرة المساجد مبنى :

الوعظ الاجوف الذى لا يعمل به قائله وخير الواعظين من اتعظ بكلامه .

التغير بالامثلة السلوكية المجسدة التى تدل على ما ندعو اليه وذلك لا يكون الا عن طريق القـــدوة المحسـوسة فى اشخاص القادة ·

***

وهكذا نجد أنفسنا نقف أمام أزمة لا تجدى فيهـــا الحلول المسطحة أو الافقية لانها مشكلة لها جذورها عمرها عشرون سـنة من الانفلاق والارتجال واستهواء الجماهير ، ان الشباب العابث والمتفسخ نتيجة :

— تعليم تلقينى عاجز ، دعائى دفع بالوف الخريجين الى الشارع فى انتظار التعيين ·

— فراغ قاتل يفترس حتى الموظفين من الشـــباب لاعتبارات منها :

ـ قلة ساعات العمل الوظيفى .
ـ روتينية العمل ورتابته .
ـ مكتبية العمل .
ـ عدم تحقيق الذات .
ـ احساس دفين بعدم الكرامة التى يوفرها الحى .
ـ تحميله الامانة أى المسئولية .. العمل الناجح .. احترام الغير .

ـ حكم الفرد الذى نجم عنه : اختفاء الرأى المتخصص والحر .. خوف رأس المال المحلى من المصادرة .. والحراسة والتأميم .

وحيث قلت المشروعات لم يبق الا الحكومة والقطاع العام امام جيوش القوى العاملة فكان على الخريجين فى كل سنة أن ينتظروا دورهم ثلاث سنوات يرتدون فيها الى الامية :

ـ بنسيان ما تعلموه .
ـ انطفاء شعلة الحماس فى نفوسهم .
فاذا وضعوا فى عمل أدوه بلا رغبة .
ـ الامتثال للتعيين العشوائى الذى كثيرا ما يتعارض مع تخصصاتهم وميولهم فيورثهم المرارة والشعور بالغبن الذى يولد السخط .

العمالة الزائدة :

فى كل مصلحة أى البطالة المقنعة فالشباب المعين طاقاته معطلة ومرتبه متواضع فهو ينفس عن شحنة الطاقة وشحنة الضيق والتبرم باللهو الرخيص او غير الرخيص .

الاندفاع الاستهلاكي :

ان تغير النمط الاستهلاكي ونوعية هذا التغير وسرعته ومداه مؤشرات الى تغيرات حضارية تحدث ببطء لا نراه ، أو بسرعة تذهلنا ولكننا في الحالين لا نملك التوقف .. التوقف عن المواكبة أو التوقف عن التفكير فالمسألة ليست سلعا تباع وتشترى ولكنها أعمق من هذا بكثير .. انها محاولة تغيير اجتماعي وسياسي مرسوم ومحسوب .. فلم يعد الغرب الحديث جيوشا ظاهرة تستفز المشاعر ولكنه يتزيا في أثواب عدة ، ويتخفيا أهدافا بعيدة .. فالاستنزاف العقلي ، والتحويل الاجتماعي ، والتطور الشكلي ، والتحديث المظهري ، والتأثير الفكري .. كلها عمليات تسير جنبا الى جنب في محاولة « تغريب » أمم الحضارة القديمة وبلبلتها وذبذبة مسارها بحيث تقف على الاعراف لا تنطلق فتحيا ، ولا يسقط فتموت ، فان الامم العريقة تحمل قوة في ذاتيتها تجعلها اذا أريد بها شر أو أريد لها الموت ، تنتفض انتفاضة قوية تعود معها فتية من جديد . وهذا يخيف أعداءها مهما بلغت قوتهم وبلغ ضعفها . فيعوقون مسيرتها دون أن يميتوها ويمسخون سحنتها دون أن يشعروها وفي حالة الاغماء القومي التي نعيشها لاحت انتفاضة للتشخيص كأنها ذماء من روح ، أو نسيس في قلب مجروح .

بعيدا عن الشعارات الخاوية والبالية من كثرة الاستعمال الاجوف الامتصاصي ، يتذكر المثقفون بعد طول صمت ، أمانة في أعناقهم أن يقفوا وراء مصر بالدرس المخلص والعمل الذي يستهدف خير الانسان

المصرى .. عمل ينتعه من القاع الى شرف القمة ، ويرفعه من الوهاد الى ذروة القيمة .

تغير النمط الاستهلاكى للأسرة المصرية على مر العصور واثر هذا على النمط الحضارى للانســــان المصرى .. ظاهرة .

موجة عارمة وغامرة تكتسح الحياة المصرية من الوان الاستهلاك المستحدثه تحاصر الانســــان المصرى فى طعامه وشرابه وأثاث بيته وطابع مدينته .

الشراب :

كوكا كولا — بيبسى كولا — سفن اب — ميراندا والبقية تأتى شوية شوية شويبس أهى جاية ، ان شركة السفن أب رأسمالها ٢ مليون جنيه جمعت قبل أن تبدأ ٧ ملايين جنيه باسم تأمين للصـــناديق والزجاج الفارغ وممن ؟ من أصحاب الجلاليب والاكشاك الصغيرة . يحدث هذا ونحن بلد الليمون والبرتقال والكركديه والخروب .. الخ .

لقد كانت مصر قبل الاحتـــلال البريطانى لا تعرف الشاى فأشاعه الانجليز ومن ورائهم الشركة الشرقية ، فى الحياة العصرية .. الريف والحضر حتى غـدا مشروبا رئيسيا تدعمه الحكومة !!

وغدا تدعم المشروبات التى اتى بها زميله الامريكى .

وهذه وتلك تمثل نهبا اقتصاديا لمصر — هل احصينا ما يخرج من مال مقابل هذا كله ؟

أما بند هذا السيل من المشروبات فلعل الاحصاء يعطينا بعدا جديدا لهذا النهب .. ونفرح فقط بمئات الوظائف التافهة التى لم تقدم أى علم أو تكنولوجيا لمصر ؟؟ والتى تلحق بها مجموعة موظفين لزوم الشركات وتفخر بها هيئة الاستثمار .

ان فرنسا مثلا قلما تشرب الشاى وقلما تشرب الكوكاكولا .

ولكننا والحق يقال نلبى فى حماس شديد كل جديد مع أن مصر فى عصور قوتها من طبعها التحفظ والحفاظ .. حتى مع الاديان واللغات اعتزازا بشخصيتها .

ان من طبيعة الاشياء أن يتبع المغلوب ، الغالب ولكن مصر قديما استطاعت تتبيع حتى الغالب لها فعبد الرومان فى غلبتهم السياسية « ايزيس » لا فى مصر فحسب بل فى روما نفسها .

مثال فقط :

لقد تكلمت مصر اللغة العربية بعد ثلاثة قرون من الفتح العربى ولكنها مصرتها بل وضعت قاموسها الاكبر « لسان العرب » من عشرين جزءا .

ولكن مصر اليوم لا أدرى الى أين تسير .

العمارة :

البيت المصرى تخلت عنه تقاليده التى كانت تربطه ببيئته وطبيعتها فى البناء والاثاث ، بل والعادات .

لقد اتسمت العمارة فى مصر بامتزاج الطبيعة والدين

فيها منذ مصر القديمة التى سمى العامود المعمارى فيها « العمود النباتى » من ولع المصرى ببيئته وطبيعة مصر . لقد كانت أرض المعبد كأنها جزء من الحقل والاعمدة فيه نخيل من حجر أو سيقان اللوتس .

ومن البيئة ، المناخ وتأثيره .

ولهذا كانت العمارة فى مصر القديمة ومصر الاسلامية لها أقباء تتكسر عليها أشعة الشمس العمودية عندنا .

وكانت تبنى باللبن وهو مادة محلية فضلا عن أنه تكييف طبيعى يناسب جونا .

وكان للبيت أو المبنى فتحات ضيقة فى أعالى الجدران لوهج النور وشدة الحرارة ثم تحقيق الذاتية والصون .

ولكى يمسح الفنان الملل عن الجدران الواسعة ملأها بالنقش والنمنمة فى مصر الفرعونية ، وبالمعلقات فى مصر الاسلامية ولكن المدينة المصرية اليوم وخاصة القاهرة اعرق العواصم معماريا ، غدت كرنفالا فى العمارة : والزى ، وانماط السلوك ، ولغة الحديث ، بل ومناهج التعليم .

عمارات علب الكبريت ذات السقوف المسطحة فى بلاد الشمس ، ثم واجهات الالمنيوم والزجاج التى لا تصلح الا للبلاد الباردة التى تتلهف على الشمس من ناحية وتحرص على استبقاء الحرارة داخلها من ناحية أخرى .

نستورد هذه الانماط من كل بلد دون أن نفكر فى الفروق الشاسعة بيننا وبين بيئات أصحابها ودواعيهم . ونستورد منها بألوف الملايين كل ما تحتاجه هذه الانماط والطرز من أسمنت وحديد ومكملات ومرفهات وتكييف !

وكأن كل عماره تدق فى بلدنا هى مضخة تضخ مالنا . وهو عرقنا الى خارج البلاد .

ونظل سادرين .. ويظل الاستنزاف والضياع ! وكأن القاهرة برج بابل .

توسعنا رأسيا بلا ضوابط .

وتوسعنا أفقيا بلا تخطيط .

حتى المدن الجديدة وكانت فرصة لبعث الشخصية المصرية ، قامت هى الاخرى ، عشوائية ارتجالية .

فى مصر الفرعونية التقت الصحراء بالمدينة فى منف وفى مصر الاسلامية التقى النهر بالمدينة فى الفسطاط والقطائع والعسكر والقاهرة .

وقد نص حرم الانهار فى مصر الاسلامية أن يبعد البناء عن النهر الف ذراع افساحا للرؤية وصونا للنهر من التلوث وتحقيقا للبيئة النهرية والجمالية .

ماذا نرى الآن .. امتدادا خازوقيا على النيل !

وشغبا معماريا أو واغشا معماريا فى القاهرة لا يستثنى من هذا جلال التاريخ فى منطقة الاهرام أو الفسطاط أو القاهرة المعزية ! ماذا نرى ؟

- قبحا معماريا حول السلطان حسن .
- المنشآت التجارية المتاخمة لمعبد الاقصر
- المبانى التى تعترض طريق الكباش وهدم الآثار التى تعترض مجموعات الطوب ، الدخيلة !

وعشوائية العمارة لا تجنى على الجيل الحالى وحده ، بل على أجيال قادمة .

اننا بلد الاديان وجداننا دينى وكان الظن بنا أن يقف هذا الوجدان وراء التصميم المعمارى كما فعل أسلافنا

الذين نصوا أن يكون سور البيت فى ارتفاع قامة الرجل راكبا جملا حتى لا يجرح الفضول فى الطريق العام ، حرمة المساكن .

لقد طبق الغرب ما استوقفه من عمارتنا بل ان أمريكا اليوم بدأت تأخذ بأسلوب الحديقة الداخليــة والافنية والنافورات ، حين تركنا نحن الافنيـــــة والقباب التى تتناسب مع الشمس العمـــودية كما تتناسب الاسطح المثلثة فى البيوت الانجليزية مع الامطــار والثلوج .. كلاهما توزيع على الجانبين .

نستطيع أن نمتد فى الصحراء بطرازنا نحن .

فى محاولة تغيير نظام التعليم تغييرا جذريا يجب أن يشمل هذا التغيير لا المنــاهج فحســب بل مبنى المدرسة نفسه فيكون مبنى متفقا مع بيئتنا متسقا مع تراثنا المعمارى دون أن يقلده ولكن فى رؤية جديدة له . وبهـــذا يتشرب النشء ذوقهم القومى .

بقيت كلمة عن المساكن سابقة التجهيز :

اتضح انها بها عيوب كثيرة اذ أنها اقتضتها ضرورات الحرب العالمية الثانية لتغطية الايواء بعد التدمير . وقد استحدثت أوروبا اليوم أســـاليب تكنولوجية متطورة فوردت الينا هذه النماذج المختلفة عندما استغنت عنها !!

وهى فضلا عن نمطيتها وتقيدها بشكل جامد فان التكلفة الفعلية لهـــا ، اتضح انها أعلى من تكلفة النظم التقليدية فى البناء الذى يقوم فى الموقع مباشرة حين تصب حوائطها فى المصنع ثم تنقل بعد أن تجف الى

الموقع ويضاف الى التكلفه مصاريف النقل وعادم النقل اي ما تتعرض للكسر أثناء النقل .

الاثاث :

نتكلم ببساطة عن صالونات لوى كانز ولوى سيز .

انه اختلال المفاهيم .. سوء فهم للتقـــدم والتخلف يجعل شعوب الحضارة القديمة التى يدعوها الآن محدثو النعمة ، العالم الثالث ، العالم الثالث هذا يغيب عنه الوعى ويخطئه التوفيق حين يحصر التقدم والتخلف فى الوسائل والموضة .. والاندفاع الاستهلاكى او حتى حجم الدخل .

ليس بالدخل وحده تقاس الحضاره :

فدول البترول تحقق أعلى دخل فى العالم .. ومع ذلك عندما تقاس بنوعية الحياة المادية مقارنة بالغير ، لا تجدها فى رأس القائمة .

من السهل قياس دخل الفرد ، و لكن هل يمثل مقياسا حقيقيا لمجتمعا متحضر ؟

لقد جرت محاولة لقياس مادى يتكون من عناصر أهمها :

---

(١) أوضحت الجداول الاحصائية أن عدد الوحدات السكنيه المطلوبه لتغطية احتياجات الاسر فى الحضر ٣٫٥ مليون وحده · كما قدر المطلوب لواجهه التقادم والاحلال حتى عام ٢٠٠٠ بنحو ٨٠٩ الف شقة ·
لواجهة التقادم والاحلال حتى عام ٢٠٠٠ بنحو ٥٨٩ ألف شقة ·

متوسط العمر المتوقع للفرد ـ نسبة المتعلمين ـ معدل وفيات الاطفال وهى مؤشرات حضـــارية ناطقة الدلالة على مدى التقدم فى مجال نوعية الحياة المادية المحققة ، وقد خرج البحث بهذه النتيجة .

من بحث للدكتور على خليفة الكوارى عن « حقيقة التنمية النفطية أو حالة اقطار الجزيرة العربية » (١) جدول عن ترتيب أقطار الخليج العربى فى العالم بالنسبة لمتوسط الدخل الفردى والرقم القياسى لنـوعية الحيـــاة المادية (أوائل السبعينات) هذا الجدول يجب أن نقف عنده طويلا :

القطـر	متوسط الدخل الفردى		الرقم القياسى لنوعية الحياه المادية	
	دولار	الرتبة بالنسبة لبقية دول العالم	٪	الرتبة بالنسبة لبقية دول العالم
الامارات العربية	١٤٣٦٨	١	٣٤	١١٣
الكويت	١٣٧٨٧	٢	٧٤	٦٣
قطـــر	١١٧٧٩	٣	٣١	١١٦
السعودية	٣٥٢٩	٢٥	٢٩	١٢٠
البحرين	١٣٧٠	٤٦	٦١	٧٦
العـــراق	٩٩٩	٦١	٤٥	٩٣

(١) مجلة المستقبل العربى ص ٢٧ .

وهناك جدول عن تطور متوسط الدخل الفردى فى مصر . خلال الفترة ١٩٧٥/٦٠ بالاسعار الثابتة يشير الى أن دخل الانسان المصرى عام ١٩٧٥ ٦٧ر٤ جنيها ، والمصدر هنا : الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء .

ترى أين نحن فى جدول (الرتب) بين دول العالم ؟

أيا كانت هذه الرتبة ، فنحن بسابقة الحضارة يجب ان نعى أن القيمة فى داخل الانسان لا فى خارجه .. نفسه لا ما يملك من متاع لا سيما اذا كان هذا المتاع ليس من صنعه بل مجلوبا من عند الآخرين آلات وسيارات وأثاثا ورياشا وزيا بل وطعاما .

وهذه احصائية أخرى ، نحصرها فى الشاى ، كمثال :

عام ١٩٧٢ كنا نستهلك ١٤ر٢٠٠ طنا .

وفى عام ١٩٧٨ تقول الاحصائية اننا استهلكنا ٣٦ر٨٠٠ طنا أى ضعفين ونصفا .

ولا أحاج هنا بالكليشيه التقليدى « الانفجار السكانى » فنحن لم نتضاعف ما بين سنة ٧٢ ، سنة ٧٨ ، ضعفين أو ضعفا واحدا . ان المسألة هنا الانفجار الاستهلاكى » .

ففى الاثاث استكمالا لما سبق ، اتجهنا الى الانتاج الكمى والنمطى فاذا بنا نستورد الماكينات ومعها التصميمات الاجنبية حتى الخامات التى تستخدم فى صناعة الاثاث أصبحت معادن وبلاستيك أو نايلون . خامات لا تصلح على الاطلاق لمناخ مصر .

ومكاتب التصميم فى هذه الشركات مغلولة يدها بعقود صارمة بالتزام تصميم معين دون أدنى تعديل .

وقد لاحت بادرة خير أخيرا تتمثـــل فى الرفض التلقائى لانتـــاج هذه الشركات . ان احدى شركات الانفتاح تعرض ثلاث حجرات بـ ١٢٠٠ جنيه مع جودة الصنع .

ومع هذا نعانى كسادا فى المبيعات يبلغ حجمه ٢ مليون جنيه .

لقد كان المنزل المصرى ، وحده فى باب الاشياء .. كان الاثاث جزءا من عمارة البيت حتى ليسميه الدارسون « الاثاث الدفين » والحضارة المصرية فى عصور الريادة والسيادة طابعها بساطة الاستاذية واكتمـال النضوج وعمق التكوين .

حتى الخبز الصق الطعام بالاسرة المصرية تغير نمط استهلاكه .

كان يوم الخبز جزءا فى حياة الاسرة المصرية .

وكان الفرن جزءا من البيت المصرى .

وفي ذلك اليوم تلتقى نســـاء الاسرة وبناتها ويتعـاون على « اخراج » الرغيف .

والأمر ما يقول العالم كله « خبز » .

وتسمية مصر « العيش » .

النعمة .

كانت صناعته فى البيت ، امتـــدادا لعصور مصر فيها .

كان يمثل حبا ، وشكرا ، وعطاء .

والمثل الشعبى يقول « من عنده العيش وبله عنده الهنا كله » .

ولعل هذا السر فى حرصنا القديم على العيش . كانت الكسرة تقع على الارض يحنو عليها المصرى ويرفعها بين يديه ويقبلها وجها وظهرا بل يمس بها جبهته فى استغفار .

ماذا يحدث الآن ؟

ملايين الارغفة التى تدعمها الدولة بملايين الجنيهات تذهب الى الدجاج والحيوانات « والبوظة » .

مع عماير المدينة وخاصة الشواهق برزت استحالة اعداد الخبز العائلى وبرز مع هذه الظاهرة « سوق العيش » . ومع الانفجار السكانى ورخص الرغيف وعوامل أخرى ساء الرغيف شكلا ولونا ونوعا فتشتريه الاسرة ولكن كثير منه يذهب الى الدجاج والحظائر .

ويدخل هذا فى باب الهدر الذى غدا بدوره ظاهرة فى أكثر مناحى الحياة المصرية .

يقول الدكتور سمير طوبار :

« الاسراف والفاقد فى ميزانية الاسرة ينشأ عنه انخفاض فى مستوى معيشتها وتضاءل مدخراتها ، ويترك ذلك انعكاسات على زيادة الطلب فى السوق ونقص مصادر التمويل وينتهى بقصور جهاز الانتاج المحلى عن الوفاء بمتطلبات هؤلاء الافراد واستيراد العديد من السلع .. ومن ثم زيادة العجز فى ميزان العمليات الجارية .. وزيادة العجز يؤدى الى انخفاض قيمة العملة المحلية وبالتالى ارتفاع فى الاسعار ويتعقد الامر فى اختلاط السبب بالنتيجة ، ويصعب على ضوء هذا

اقتراح الحلول المناسبة » (١) .

وتبع هذا التغيير فى النمط السلوكي والحضـــــارى ، تغيير آخر استهلاكى فى باب الخبز وهو الاقبال على الرغيف الابيض كالرجل الابيض .

شاع أكل العيش « الفينو » مع أن خبزنا البلدى أصح منه ، وخبزنا الريفى « البتاو » أصح منهما .

الملبس :

وانسحب تغيير النمط الاستهلاكى على الملبس بعد أن بدات تغمر أسواق الدول النامية بكميات رهيبة من الخيوط الصناعية وملابس مختلفة الاشكال والانواع والرسومات والالوان الزاهية للاستهواء .

أصبحت الاسرة المصرية تلبس الالياف الصناعية بعد عزوف أوروبا عنها الآن اذ أثبتت الدراسة بالكليات الهندسية المتخصصة فى تكنولوجيا النسيج أخطارها . فهى تفتك بجلد الانسان نتيجة الحرارة الاستاتيكية المتولدة منها على سطح جسم الانسان .

وهذه الدراسات تقول بوجود هواء ساخن محصور بين سطح الخامة الداخلى الملاصق جسم الانسان وبين الهواء البارد الضاغط على السطح الخارجى للقماش فيكون الضغط الخارجى أقوى فتلتصق الخامة بالجسم وهى بلا مسام أو ثغور .

هذا بينما يناسبنا القطن فى الجو الحار لسرعة امتصاصه للعرق وسرعة تبخيره الماء .. والقطن يتحمل

(١) كتاب (التضخم فى مصر) بحث (أساليب الانتاج فى مصر ومشكلة التضخم) ص ٢٧٣ .

اثر ضـــوء الشمس المباشر فلا يتـوبر أو يتســـاقط منه اجزاء .

نحن بحاجة الى انتاج ما نستهلكه لا استيراده فانهم انما يصدرون الينا ما باتوا فى غنى عنه بل ما يزهدون فيه أو يتجنبونه بدءا من النايلون وانتهاء بالنوويات .

حتى الادوية كثير منها انصرفوا عنه واستعاضوا عنه بغيره مثل « الانترو فايفورم » .

والآنية التيفال التى تحمسنا لها حماسا شديدا ثبت ضررها الآن .

مبيد الـ د . د . ت تبين خطره على البيئة الزراعية كلها :

الانسان والحيوان والنبات .

نحن بحاجة الى استيراد وســـائل الانتــاج لا ناتجه من المواد الاستهلاكية . لقد أنتجت اليابان الموتور اولا ، وفى الاصل كان الموتور .

والموتور هو الذى يدير الآلة سيارة كانت او ثلاجة او غير هذا .

يقول الاستاذ عبد الرحمن الشاذلى :

« ان الانفــــاق الاســـــتهلاكى يؤدى الى التضخم الحميد » (١) .

ويقول د . صلاح الدين نامق فى بحثه عن « التضـــخم النقدى وارتفاع الاسعار » :

ان المراجع الاقتصادية فى كل من انجلترا وامريكا ذكرت « ان الرغبة القوية من جانب المستهلك فى طلب

---

(١) كتاب (التضخم فى مصر) .

السلع والخدمات والتى تتضمن كذلك رغبته فى الاقتراض للانفاق كانت دائما عاملا مؤثرا على الاقتصـــاد القومى فى تضخم الاسعار منذ نهاية الحرب العـــالمية الثـــانية حتى اليوم » (١) .

ان التقليد قتل للذات ومسخ للآخرين .

لست ضد التطور والنمو فان ميزة مصر الاولى انها أول بلد بنى لنفسه شخصية ظلت تتطـــور وتنمو عبر العصور فى تواصل وبلا انقطاع ومع وجود النكسات والهزات والكوارث .

انفتحت على ما عند الغير واخذت منه وأعطته .. ونمت به ونمته فالبلد الواعى كالانسان يتغذى بما فى الثقافات كلها توســـيعا للوعى وتعميقا للاصالة ومددا للخلق .

الاصالة أن يتعرف السائح على تراثنا ليس من خلال المتاحف فحسب بل من حياتنا المعاصرة .

ان التقدم يقاس بأن المجتمع اذا غاب فيه فرد لا يملأ مكانه أحد .. هذا معناه ان كل انسان فى مثل هــذا المجتمع له شخصية متميزة .. له قيمة .. انسان عنده الرغبة أن يحقق أمل الحياة فيه .

والتخلف أن يعدم الانسان المسئولية . ويسلم او يطلب التبعية .. أن يسلم الانسان نفسه لانسان مثله يطعمه ويسقيه ثم يدفنه فى النهاية .. فرد فى قطيــع وراء الراعى .

حتى التبعية الفكرية .
والتبعية الصناعية .
والتبعية الحضارية .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢ .

نوع من الاسر الخفى بل هى اشد ضررا او اضرارا من التبعية السياسية أو العسكرية .

نستطيع فى الادب والفن والصناعة ان نطوف بالعالم كله ونرى ونتعلم ويتسع وعينا ونهضم ونتمثل دون أن نفقد خاصيتنا الاولى أى نطوف بالكيان المصرى فينا .

فليست المعاصرة عزوف كامل ومتعمد عن المألوف .

وليس التجديد رموزا سطحية .

وليست الجدة قلب الصورة دون عطاء حقيقى .

وليس التقليد علاقة تطور أو طلاء .. لان الطبيعة غنية لا تستعمل ورق كربون بل تخلق وتجدد دائما .

والاخطر من هذا ان التقليد فى الوسائل نتيجته الحتمية تعميق التبعية للدول المصنعة . لقد تطور الاستعمار بحيث غدت دوله « تبقى على الاستقلال السياسى صوريا مفرغا من مضمون حقيقى وتقوم أساسا على آليات للتبعية الاقتصادية » (١) .

اننا نتكلم عن تغير النمط الاستهلاكى للأسرة المصرية ومتى ؟ فى عصر الحضارة الحديثة وهى حضارة وسائل بالدرجة الاولى . الانسان وطبيعة الانسان ولكن مخاوفنا تتركز فى نوعية هذا التغير ومعدله وتأثيره فى كل منحى من مناحى الحياة .

يقول الدكتور محمد خليل برعى :

وقد شهدت الفترة من ١٩٧٣ الى ١٩٧٥ طفرة كبيرة فى الانفاق الاستهلاكى الخاص منه والعام ، اذ زاد الانفاق الاستهلاكى من ٣٥٠٤ مليون جنيه سنة ١٩٧٣ ،

---

(١) مجلة المستقبل العربى العدد ٢٤ ١٩٨١/٢ بحث الاستاذ نادر فرجانى .

مكونا حوالى ٩٢ ٪ من الدخل المحلى الاجمالى الى ٤٦٢٤ مليون جنيه سنة ١٩٧٥ ، مكونا حوالى ٩٩ ٪ من الناتج المحلى الاجمالى . ولقد كان للقطاع العائلى النصيب الأكبر فى أحداث مثل هذه الزيادة اذ زاد الاستهلاك العائلى من ٢٤٢٧ مليون جنيه الى ٣٣٢٧ مليونا فيما بين هاتين السنتين ، وهى زيادة تفوق كثيرا التغير الذى حدث فى الناتج المحلى الاجمالى وبذلك ارتفعت نسبة الاستهلاك الجماعى من ٦٥ ٪ الى ٧٢ ٪ (١) .

الاندفاع الاستهلاكى :

« له انعكاسه الواضح على سلوك الافراد وشدة تطلعهم الى اقتناء وسائل الحياة المادية الحديثة فى الملبس والمسكن والترفيه والحياة حتى أنهم فى انفاقهم يقدمون الكثير من هذه المتطلبات الثانوية على ضرورات الحياة مثل الغذاء أو الصحة أو التكسب أو ضمان الشيخوخة أو المرض » (١) .. لا سيما أن مواد الطعام والشراب مدعومة . وهنا يشكل الدعم ، دون أن يقصد واضعوه ، جزءا من المشكلة .. وقد أحست الحكومة بهذا فأثارت موضوع الدعم سنة ١٩٨١ !! ما الذى ايقظ الحكومة فجأة ؟

ومع الاندفاع الاستهلاكى .
ضعف الجهاز الانتاجى .

(١) اقرأ بحث (دور القطاع الخارجى فى موجة التضخم الحالية فى مصر) من كتاب (التضخم فى مصر) ص ٤٦٩ ــ ٤٧٠ .
(٢) أنظر تقرير معهد التخطيط القومى ص ٥٤ .

وضعف القيمة .

وهنا تسود الوصولية وتختل المقـاييس وتهتز القيم وتشيع السخرية من كرائم عزيزة كالاتقان والتفـوق والاخلاص والضمير . ومن هنا يزول العجب الذى قـد يكون ارتسم للوهلة الاولى أن أعزو مشكلة الشباب فيما أعزوها اليه من أسباب الى تغير النمط الاستهلاكى فى مصر وأثره على الحضارة والانسان . فليس حديثا عن التجارة ولكنه قلق على الحضارة التى تعنى عمر أمة وعطـاء اجيالها ومقـومات شخصيتها وطابعها . تمثله الماديات كالمعنويات .

أعيد السؤال الحائر مرة اخرى :

لماذا أثير موضوع الدعم فجأة سنة ١٩٨١ ؟

لابد أن هناك مشكلة !!

ولابد أن تكون للمشكلة جـذور .. أى أسـباب أساسية .

وفى معرض الاسباب يتحدثون عن مظاهر الاسراف والضياع فى الاسرة المصرية .

أى أسرة مصرية ؟ ان أسر القـاعدة العريضـة تعيش فى حال ابسط ما توصف به انها تستوجب ، فى نظر الحكومة ، الدعم .

القاعدة مدعومة .. وللدعم حديث عريض .

لعل المقصود بالاسراف « العـائلة المصرية » باعتبار ما كان ـ حيث القصـور والموائد والمواكب وأحـدث الوسائل فى حياة كل يوم وباسراف بل سفه .

بل تسرف (العائلة المصرية) فى تبديد الاسرة المصرية، بتبديد انتاجها بل بتبديد الانسان نفسه .. فمن واقع البيان المالى لوزير المالية سنة ١٩٨٠ فى مشروع الميزانية العامة للدولة ان مجموع الاجور والمرتبات ١٣٣٧ مليون جنيه لموظفى الحكومة .. يخص اليوم أربعة ملايين ونصف (٤٥٦٫٥ ألف جنيه) .

كم من أيام كانت تهدر فى مناسبات شتى ليبدو الشعب كما تقول المانشيتات أنه خرج عن بكرة أبيه أو اخيه لست أدرى للتملى من « الطلعة » أو التمتع بالروعة أو .. !!

أعود الى التساؤل مرة أخرى ؟

لماذا أثير هذا الموضوع ؟ لأبد أن هناك مشكلة .. ولابد أن تكون للمشكلة جذور .

ما الذى أيقظ الحكومة فجأة ؟

الدعم أصبح حملا عليها .

وهذا معناه ان ليس هناك تنمية بالمفهوم العريض لهذه الكلمة .

معناه ان ليس هناك استثمار انتاجى .

الفئات التى تستحق الرعاية يترجم هذا الى دعم .. فاذا بالطبقات الفقاعية أى التى ظهرت فجأة على سطح المجتمع وينقصها الفهم .. العلم .. القيم تنفق فى الاستهلاك .. فاذا بها تمتص جزءا من الدعم .

قصة عجيبة ! تشترى الحكومة : السكر .. الارز . « الدقيق لتدعم ضرورات الفئة المتواضعة أو القاعدة

المريضة فاذا بالعمولات تصب فى جيوب الفقـــاعات وهؤلاء فيما ينفقون ؟

يقول الكتاب الاحصائى السنوى للجهـــاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء (١) فى بيـــان جملة الواردات

ان المستورد بند لؤلؤ ، أحجار كريمة ، حلى ، كانت فى : سنة ١٩٧٤ . ٢٥٥ ألف فأصبحت فى سنة ١٩٧٨ : ...٨٧٥٠٠ر٦ ستة ملايين وثمانمائة وخمســـة وسبعين الفا !!!

وهذه طبعا فقاعات نساء القصور التى وصف أشباها لهن ، شوقى :

الروايات من الدلال الناهضات من الغــرور
أو الروايات من الاموال المتخمـات من القصــور

أما الفقاعات الرجالى فهم ينفقون على « الفيديو » وشارع الهرم . وهكذا يساوى الدعم :

مستهلك — ومستهتر .

وهنا ينحط الفن والادب والموســيقى .. ويكتسح عدوية فى الفناء من واقع ارقام المبيعات لان الذوق قبل هذا كله انحدر ، والمتذوق تغير .

وما دمنا نتكلم عن الاسرة فمن الطبيعى ان نتكلم عن العامل الرئيسى فى حياتها وهو الدعم .

لقد بدأ الدعم من ٧٠ سبعين مليون جنيه وانتهى الى ...٢ الفى مليون جنيه ووراءه ، سار كل شىء فى هــذا المنحنى نفسه .

من مشروع موازنة (٢) سنة ٨١ ، ٨٢ المقدم لمجلس

---

(١) الكتاب ١٩٥٢ — ١٩٧٩ يوليو سنة ١٩٨٠ .
(٢) التقدير العام للجنة الخطة والموازنة ص ٦ .

الشعب نجـــد توزيع الالفى مليـون جنيه على الوجه الآتى :

١٤٧٣ مليون جنيه دعم الســـلع التموينية أى دعم الاستهلاك المعوى ! فى حين نجد ان كل ما يصرف على الخدمات ، ٣٢٦ مليونا تشمل الخــدمات الصحية ، والاجتماعية والدينية أى تبلغ ٢٢ ٪ تقريبا ، و ٨٧٢ مليون جنيه للتعليم والبحـوث والشباب أى ٥٣ ٪ تقريبا .

التنسيب هنا الى دعم الطعام .

أما اذا كان التنسيب الى مجمـوع الانفاق العام على الطعام والشراب وهو ٧٣٠٥ مليون جنيه كما جاء فى صفحة ٣١ من تقرير لجنة الخطـــة والموازنة لـكان ما يصرف على التعـليم والبحوث والشـــباب يوازى ١٠ر٥ ٪ مما ينفق على الطعام والشراب . وما يصرف على الخـدمات الصحية والاجتماعية والدينية ٤ر٥ ٪ مما ينفق على الطعام والشراب . وهى نســـبة تصيب بالدوار .

ولا يختلف كثيرا عن هذه الارقام ما جاء فى المجلد الاول عن « الاستراتيجية العـــامة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ــ اغسطس سنة ١٩٧٧ وفقا للخطـــة الخمسية لوزارة التخطيط » .

والمحصلة الاخيرة أننا نعيش ولا نحيا . وليس من يعيش كمن يحيا .

ويقترن رخص ســـعر المدعـومات بالاسراف فى استهلاكها بل يغرى باهدارها اهدارا فيرمى الخبز والارز مع القمامة .

هل يرمى أحد اللحم ؟ بالطبع لا .

وهنا يكون العلاج ليس بزيادة الدعم .. ولا بزيادة النصح والارشاد والخطب المنبرية والا كنا نعالج النتيجة لا السبب أو نضع العربة أمام الحصان .

ويغدو الترشيد فى الانفاق كالترشيد فى تحديد النسل الذى زادت ببركته نسبة المواليد على الرغم من الملايين التى تنفق على تنظيم الاسرة الذى لا يمل النظر حوله .

وحين تكفل الدولة للفرد ، الخبز والمزاج أى السكر والشاى ، فالفائض ينصرف الى ، ويصرف على ، السجاير والمخدرات التى يعلن فى ابتهاج شديد ، عن ضبط ما قيمته مائة مليون جنيه منها .. بين الحين والآخر .. اذن ما ثمن غير المضبوط ؟

وفى ص ٣٦ من بيان لجنة الخطة والموازنة فى مجلس الشعب .. واستنادا الى الجدول المعدل لنمو حجم الاستهلاك العائلى أى الاسرى نجد أن :

اللحوم والاسماك والبيض « البروتين » ١٠٦٩ مليون جنيه أى ٤٠ جنيها للفرد — فى السنة طبعا .

ونجد ان البيرة والسجاير والمعسل ؟! ٤٨٠ مليون جنيه أى ان استهلاك الفرد ٤٨ جنيها باعتبار المستهلكين ١٠ مليون بواقع ربع السكان — وهو يمثل نوعية معينة من الرجال — دون أغلب النساء والشيوخ ودون الاطفال .

فى عام ١٩٧٥ قدر متوسط الاستهلاك الفردى فى مصر بما يعادل ٣٥٤١ وحدة حرارية منها ٩٠ وحدة بروتين يشكل البروتين الحيوانى فيه ١٥ ٪ بينما فى

الدول المتقدمة يزيد المحتوى الحيـــوانى للبروتين فى غذاء الفرد فيهـــا عن ٤٠ ٪ من اجمـــــالى الوحدات البروتينية المستهلكة للفرد (١) .

معنى هذا اننا ليس عندنا عادات صحية .

ومعناه اننا لا نعرف كيف نأكل .

ليس عندنا فن الحياة ـ وأترك هـذا جانبا الآن فله بعد مقام عريض .

أقول للمرة الثانية أن المطبخ المصرى آفة من آفات الشخصية المصرية مادام هذا أسلوبنا فى الطعـام من حيث الكم والكيف .

لقد جنى علينا فى سائر البلا العربية تقريبا المطبخ التركى بدسمه ولذائذه التى تحمل فى ثناياها من أمراض المعدة والكبد الكثير . ويترجم اعجابنا بهذا المطبخ ، المثل الشعبى « حط السمن على الرمل ، يتاكل » .

وفى بيان تطور أنماط الاستهلاك في الريف والحضر من واقع تحليل الاهمية النسبية للانفاق الاســـتهلاكى « حضر وريف واجمالى الجمهورية » ببحثى ميزانية الاسرة ٦٤/٦٥ ، ٧٤/١٩٧٥ (٢) .

« ان نسبة استهلاك الزيوت والدهون زادت من ١٨ر٢

---

(١) اقرا بحث (بعض جوانب سلوك المستهلك فى مصر وعلاقته بالتضخم) للدكتور حاتم القرنشاوى .

« كتاب المؤتمر » العلمى السادس (التضخم فى مصر أساليب ووسائل مواجهته) ص ٣٨١ ـ ٤١٢ من الكتاب .

(٢) الجمعية المصرية للادارة المالية ـ المؤتمر العلمى الســادس ـ (التضخم فى مصر وأساليب ووسائل مواجهة آثاره) ـ بحث الاستاذ الدكتور محمد الطب (تطور العلاقة بين الدعم والتضخم والاستهلاك) .

الى ٩ر٥ ٪ فى الريف ، ومن ١٢ر٢ ٪ الى ٤ ٪ فى الحضر بينما انخفضت نسبة استهلاك الالبان ومنتجاتها من ٧٨ر٧ ٪ الى ٣٧ ٪ بالريف ومن ٦٦ر٥ ٪ الى ٣ر٤ ٪ بالحضر » .

***

ويتصل بهذا « ان مجموع الانفاق الاستهلاكى الذى تجمع عنه بيانات ميزانية الاسرة بالعينة يشـــمل حاليا ٩٨ر٥٪ من مجموع أنفاق الريف « وكان ٥٧ر٧٪ سنة ٦٥/٦٤ كما يشمل ٩٨ر٤ بالحضر وكان ٩٧ر١٧ ٪ سنة ٦٥/٦٤ » ومعروف أن باقى النسبة يمثل تحـــويلات شخصية وهذه النتيجة تتفق مع تحليل البنك الدولى فى دراسة عن ١٩٧٦ المقدمة لوزارة التخطيط » .

ولا شك ان الاسرة المصرية تعرضت لهزات حضارية واجتماعية أو على الاقل تغيرات فى الجانبين بفعل هجرة بعض أفرادها للعمل فى الخارج أو فى الداخل بمعنى الانتقال من الريف الى الحضر حيث ارتفعت نسبة الحضر من اجمالى السكان من ١٩ ٪ فى بداية القرن الحالى الى ٤٤ ٪ فى عام ١٩٧٦ . كمـــا تعرضت الاسرة المصرية لالحاح الاعلانات ، أو انتقال الاسرة فى السلم الاجتماعى من درجة الى درجة ، أو اغراء المعروض من السلع ، أو التقليد ، أو حب المظهريات .

ولا ننسى أن الاسرة المصرية المطحونة دائما فى خلفيتها او قابع فى أعماقها احساس مزمن بالحرمان .

نأتى الى معدل حصة الفرد من مجمل الانتاج الوطنى على أساس الاسعار الحالية . . وهنا نجد أنه بالدولار :

١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٧٩
٣٨٦	٥٤٦	٣٦٨

وان اجمالى الدخل القومى بملايين الدولارات :

١٧ر٤٣٠ (سبعة عشر مليارا وأربعمائة وثلاثون مليونا) سنة ١٩٧٧ .

٢٣ر١٧٧ (ثلاثة وعشرين مليارا ومائة وسبعة وسبعون مليونا) سنة ١٩٧٨ .

١٦ر٣٥٠ (ستة عشر مليارا وثلثمائة وخمسون مليونا) سنة ١٩٧٩ .

والمصدر : دائرة الشئون الخـــارجية فى الولايات المتّحدة (١) .

ومعنى هذا اننا فى ذيل القائمة .. قائمة الدول العربية .

اما فى جدول الاهرام الاقتصـــادى عدد سبتمبر سنة ١٩٨١ فقد ورد أن نصيب الفرد من اجمالى الناتج القـومى بالدولار فى سنة ١٩٧٩ ، ٤٨٠ وبنسبة نمو ٣ر٤ ٪ سنويا .

ومعنى هذا ان الانسان المصرى طاقاته معطلة ، وطاقات بلده معطلة أيضا .

وهنا يتحرك ضمير الانســان المصرى المدرك للمعنى الخافى وراء هذه الارقام .

ان هذا الشعب لا يريد أن تطعمه الحكومة لان هـذا

(١) مجلة عالم التجارة . عدد أغسطس سنة ١٩٨١ ص ٧٥ .

الاسلوب يميته ولا يحييه ويقتل ارادته حين يخضعها أو يتبعها .. اننا نطالب برفع الانسان المصرى باطلاق طاقاته وازالة المعوقات النفسية من طريقه .. يوم يملك الكلمة والقرار .. يوم يملك الطموح وتحقيق الذات .. يوم يعفى من الشعارات والمانشيتات .. عندئذ يعود اليه الانتماء وتعود اليه ارادة الحياة على أرضه فيزداد انتاجه من سعادته به ويرتفع دخله فيحيا حياته بنفسه بغير حاجة الى يد تمتد اليه .

يتحدثون ويبدأون ويعيدون عن ، وفى ، الانفجار السكانى . وهذا الانفجار لن يتوقف ما دام المجتمع المصرى تعيسا يشقى بالجهل والفقر والاعانة ، ان العلم متعة وتحقيق ذات .

واليسر يعنى المستوى الطيب والعادات الحسنة والترف العقلى بعد المادى ممثلا فى الكتاب والمسرح والسينما والصحيفة والثياب والرحلة وسواها .

فاذا تحقق هذا على مستوى القرية والمدينة قضينا على النمو السكانى من الداخل (ترييف القاهرة) أى زحف الريف على القاهرة ، وأوقفنا النزيف للمون بهجرة العقول الى الخارج . والداءان تعانى منهما لقاهرة حتى باتت على شفا الهاوية . وكل اصلاح فيها يزيد المشكلة تعقيدا لان الاصلاح الذى لا يتناول الريف يزيد عامل الجذب الى المدينة .

لماذا لا تهاجر الاسكندرية أو المنصورة الى القاهرة ؟ لان فيهما اكتفاء ذاتيا يغنيهما عن الهجرة بآلامها النفسية والمادية .

ان المرأة المتعلمة والعاملة تحدد نسلها بنفسها لعامل الوقت ولانها تحقق ذاتها بأسلوب آخر أرقى .

اما الجاهلة قعيدة البيت فهى تتوسل بالانجاب تحقيقا للذات واستبقاء للزوج ، واستدرارا للاهتمام ساعات من العمر عند الولادة وعند السبوع . ثم مشغلة للوقت والطاقة .

وما الضرر مادام رغيف العيش وان كان لايؤكل بمليمات معدودة والشاى والزيت والسكر وخرقة القماش ، شرحه .

ولكن الانسان عندما ترتفع قيمته ، ترتفع معها رؤيته فلا يفرح بالاعانة بل يرفضها اعتزازا بالقدرة واحتفاظا بالكرامة .

ان البدوى البدائى حينما أراد أن يهجو انسانا ، قال :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فانك انت الطاعم الكاسى

أى المطعوم المكسو .

وبعض المؤرخين يفسر التكايا التى فتحها صلاح الدين بأنها عملية الهاء للناس عن الاشتغال بسياسته .. ماذا يريدون .. كل شيء مكفول لهم فى التكية .

نريد اعادة حساباتنا فى محاولة تصحيح لها .

نريد محاولة بناء جادة للانسان المصرى .

لا يمتص أحد ، بعد اليوم ، همومه ومشاكله بالكلام والاعلام والاحلام .

والحل ؟

يكمن الحل عندى :

زيادة الانتاج وتشجيع الادخار .

لامتصاص الفائض من الدخل ضمانا لعدم تسربه فى السلع الاستهلاكية .

ضمان استمارية العرض :

حتى تختفى العجلة فى الاقتناء قبل النفاد الذى يحاول أصحاب السلع ، الايحـــاء به ، وحتى تختفى اللهفة على الشراء وأهم عندى من هذا وذاك :

رفع كفاءة الريف :

وتوفير الحياة اللائقة بآدمية الانسان ، فيه ، حتى يرضى به ، ويرضى عنه أهله فلا يخلفونه الى المدينة وهنا تتغير نوعية استهلاكهم ويكونون عبئا على كل شىء فى المدينة :

الانتاج أى الاستهلاك بالتالى .. والمواصلات والسكن ... الخ .

العناية بزراعة القمح والذرة :

لان رحلة الرغيف فى الريف قديما من طحن وخبز كانت تجعله عزيزا كأى شىء يعمله الانسان بيديه ويرى نفسه فيه . أما وقد غدا الريف يســـتورد الرغيف محليا ، أى يشتريه جاهزا فقد هان اذ انقطعت العلاقة بينه وبينه فأصبح من السهل على الريفية أن ترميه او تبثه للدجاج وهى التى كانت تحافظ على « الكسرة » بل تقسم بها . وقد فصلت هذا ، قبلا .

أى تربية جيل جديد من جديد بعد أن نجرى تغييرا جذريا فى مناهج المدرسة وبرامج الاذاعة أو معظمها وأسلوب الكنيسة والمسجد .

وهذا الجيل اذا وفقنا فى تنشئته سيربى بدوره جيلا آخر وهكذا وان لم نبدأ ستكر الايام وتمر الاعوام وراء الاعوام كما مضت ثلاثون عاما انتهت بنا الى ما نحن فيه .

ويوم يزيد الانتاج باستغلال النواحى البكر بالدراسة المتخصصة لا الفهلوة ، وتنتعش الصناعة والزراعة ، وتزيد الدخول ، وترتفع القدرة ، وترتفع المنفعة الحدية للانسان المصرى ، فانه خير له ، وأجدى عليه .. خير له أن يكسب ويشترى غالبا من أن يكون عاجزا شبه معدم ، قاصرا ينتظر الدعم أى « حسنة » من الحكومة .

الحل مرة أخرى

ـ حملة دعائية موسعة لمحو الامية بحيث تغدو عملا مقدسا يقبل عليه المواطنون ممن منحهم الوطن نعمة العلم ، تطوعا واحتسابا .

ويقبل عليه الشباب بكل فئاته :

ـ الذى ينتظر التعيين .

ـ المعينون ممن يعمل نصف يوم .

على أن يكافأ مكافأة سخية ليبذل أكثر وتتوفر لديه الرغبة والحماسة .

وتزكى الحماسة بالحوافز الاخرى كالجوائز :

ـ لمن يعلم أكبر عدد .

ـ ولمن يعلم احسن .

ـ نشر الوعي بمصر وتعريف الشباب ببلده تعريفا مشبعا والوسيلة .

ـ أفلام تسجيلية مدتها ربع ساعة تعرض على دور العرض السينمائى قبل كل فيلم .

ـ متاحف فى عواصم الاقاليم من مكررات الآثار .

ـ الاذاعة والتليفزيون وثلاثة أرباع حجمها ترفيهى ونحن لم يقتلنا الجد لنكون فى حاجة الى كل هذا الترفيه . ويجب أن يحل محل كثير من البرامج الترفيهية برامج ثقافية ووطنية سهلة التناول فى أسلوب مشوق .

ـ بعث شخصية البلد وفنونها واشاعتها فى جميع وسائل الحياة كالنسيج والادوات ، والعمارة والاسماء العامة وكل ما يحيط بالانسان المصرى .

ان العلم طريق الحب الصحيح :

ـ احترام عقله بعدم فرض الشعارات عليه وأثقاله بها .

ـ تحقيق ذاته بالعمل الحقيقى المناسب والمتناسب مع مؤهله .

ـ تبصيره بجهود الشباب فى الدول المتقدمة للاقتداء والحفز وهذا خير من الخطب أو الاوامر أو الوعظ والارشاد .

ـ تعريفه بالحجم الطبيعى للحقائق الداخلية والخارجية أن يعرف نفسه ويعرف عدوه بلا مبالغة أو تهوين .

ـ رد غربته النفسية بأن يحس أن له مكانا حقيقيا فى بلده بالرأى الحر الآمن والجهد المبذول له مثل :

الامن النفسى . التعليم . الصحة . الخدمات الاجتماعية .

والجهد المبذول منه مثل : العمل .. البناء .. الدفاع .

ـ القدوة ومجالها البيت ولكنها مفقودة فى البيت فى الوقت الحاضر ، والوسيلة :

عرض النماذج المشرفة عليه فى الاذاعة والتليفزيون ..

فى المدرسة .

فى المعبد : كنيسة كان او مسجدا .

ترشيد الفراغ :

ـ بالنادى .

ـ بالساحات الرياضة .

ـ بالرحلات الجماعية .

ـ احترام الانسان خاصة من الدولة فهناك موظفون يتخذون من مواقع المسئولية مناطق نفوذ ... ويتسلطون .

***

هذا على المدى القصير والسريع .

أما على المدى الطويل فان تربية الشباب تبدا من البيت ثم المدرسة والمعبد كنيسة كان أو مسجدا .

ففى البيت يتعلم :

ـ القيم .

ـ اسلوب الحياة .
ـ مستويات السلوك .
ـ احترام النفس واحترام الناس .

وفي المدرسة وهذا يحتاج لدراسة منـــاهج التعليم الحالية دراسة شاملة برؤية جديدة ليتعلم النشء فى المدرسة :

ـ طرائق التفكير .
ـ معانى الكفاح .
ـ معنى المجتمع .
ـ حماية المال العام .

وفى المعبد يتعلم :

ـ النظرة الواسعة الى الدين .
ـ المحبة والتسامح ليسقط التعصب من عينه وعمله .
ـ نظرة مصر الحضارة الى الدين .

وقد أثبت الشباب المصرى أنه عندما يحسن تنظيمه وتوجيهـــه وزرعه نفسيا ، يرتفع الى مســتوى أعظم المسئوليات . والمثل عندنا ٦ أكتوبر فالذى عبر شباب اشترك فى اعداده :

ـ العلم الحديث .
ـ حسن الادارة .
ـ الابوة فى المعاملة بانتفاء الاوامر الكالحة المستعلية .
ـ الايمان بالله . . الايمان بالوطن . . الايمان بالهدف . . الايمان بنفسه .

على أن عيوب الشباب التى نشكو منها لم تكن موجودة فى العشرينات عند قيام بنك مصر مثلا وشركاته وفى عصور ازدهار الاقتصاد الوطنى فقـــد كانت الشركات والمؤسسات تطلب الى كليات الجامعة دفعـــات معينة

وتبدأ فى تدريبها قبل التخرج بعام لتنفتح بها على أثر تخرجها .

ومشكلة الشباب اليوم حلها فى :

أ ـ الانفتاح الاقتصادى الانتاجى الذى يستوعب الشباب على كافة المستويات .

٢ ـ تعمير سيناء واغراء الكثيرين باستيطانها والعمل فيها .

٣ ـ قيام صناعة السياحة . والسياحة بمفهومها الحديث علم .. وفن .. وصناعة لا فندقة أو استجداء بالآثار .

وهناك دول لا تملك من التاريخ والمواقع أو المزايا الطبيعية نصف ما نملك وحققت من السياحة دخلا خياليا بل انتقلت بالسياحة من دولة متخلفة الى دولة غنية متقدمة كأسبانيا مثلا .

وصناعة السياحة تعنى :

ـ حماية الآثار .. مهابة الآثار .. العلم بها .. فنادق .. أدلاء متعلمين بل مثقفين .. فندقة .. طرقا معبدة .. صناعة أغذية .

ـ الصناعات المحلية التقليدية « خان الخليلى » .

كل هذا يحتاج طاقات واعدادا بشرية تمتص جموع الشباب على كافة المستويات خاصة اذا أتيح للقطاع الخاص أن يعمل فهو قائم على المنافسة التى تظهر العناصر الممتازة والجادة وهنا تختفى العمالة السلطانية التى تضمن القبض الشهرى فى جميع الاحوال .

والآن بعد طرح المشكلة .. مشكلة الانسان المصرى .. أتساءل :

هل للشباب دور فى بلده ؟

يعانى الشباب اللامعقول الذى يعيش فيه بلا جواب
هل له دور وهل أى شىء حوله له دور ؟

ويسأل نفسه أكثر من مرة :

التليفزيون مثلا :

حقا المفروض أن التليفزيون جامعة الشعب ومرآته التى يرى فيها وطنه .. ماضيه وحاضره .. فنونه وعلومه وصناعاته .. مدنه وقراه .. آراءه وأفكاره .. مطالبه واحتياجاته .. موقعه بين بلاد العالم .. ما عند الآخرين أيضا للتعلم أو التفوق أو المواكبة .

هذا هو المفروض ولكن التليفزيون لا يتجه ، الا اذا استثينا بضعة أيام ـ لا يتجه الى الشعب بل يوجه اليه فهو يعيش على حساب الشعب ولكنه لا يعمل لحسابه .

ولكن .. لماذا التليفزيون بالذات ؟

وهل تؤدى الجامعة دور الثقافة ؟ بعد أن غدت جهازا للطاعة ؟ تفرض عليها الاعداد الفلكية دون أن يؤخذ رأيها عن طاقة الاستيعاب عند المكان والانسان ؟ والنتيجة تجهيل على مستوى الطلبة ، وتعتيم على مستوى الاساتذة فلا الطلبة يستفيدون .. ولا الاساتذة يفيدون

فى هذه الكشافة الطلابية .. ويبدو ان الفائدة العلمية ليست مطلوبة فقد كان سعيد باشا والى مصر بعد عباس يقول أن الشعب الجاهل أسلس قيادا من الشعب المتعلم .. وكم من سعيد يحكم مصر !

التعيس وحده هو الشعب المصرى .

هل تؤدى الصحافة دورها ؟ وفى كل يوم حيلة لتقليمها وتسطيحها وتتبيعها ! ماذا تقول المانشتات فى الصفحات الاولى ؟ لقد أحصيتها على امتداد بضعة أعوام فوجدت عجبا وخرجت من الحصر ، بحسرة على عصر التفاهة الذى نعيش فيه .. ليست عبارة عابرة بل انى سأتخذها عنوانا لكتاب هو مسح شامل لما صارت مصر اليه فى السياسة والفن والادب والعلم والاقتصاد أقصد الاقتراض .

مسح شامل للمنافقين الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم . نحن الشعب نسجل .

مسح شامل للمسرحيات التى شاهدها وكابدها الشعب المصرى خارج المسرح .

***

لقد غدت الصحافة ، الوجه الآخر للعملة فالتليفزيون، بالمسلسلات التى تحاصر الانسان المصرى ، يمتصه ليلا ، والصحافة تمتصه نهارا بالقانون ٨٣ ثم بعلاوات الموظفين وكأنها هبة سنية ثم بالعباقرة الذين ظهرت عليهم فجأة أعراض الكتابة رجالا ونساء .. وفى يوم وليلة شغلوا ، كالمتنبى ، الحياة والناس .

حتى العلماء امتصوا بالايام الموسمية والفئوية والجوائز الالفية .

وفى اثناء هذا تمر فى الزحام المصطنع والمصنوع ، القضايا المصيرية كمياه النيل لاسرائيل ، والمفـــاعلات النووية التى تخلص منها أصحابها وباعوها لنا بالملايين ، ودفن النفايات النووية للنمسا فى مصر ، لتصير مهد الحضارة مقلب زبالة نووية ، وبيع الاراضى للأجانب وهم يهود تحت جنسيات أخرى أو سافرين لزوم التطبيع ، والتيسيرات والتسهيلات والتشهيلات ، والاستثمارات والمليارات ، ونكبات الآثار وويلات الاستعمار الجديد .

هل يؤدى رجل الدين دوره ؟

رفض الشيخ محمد الانبابى شيخ الازهر فى أواخـر القرن التاسع عشر مقابلة كرومر فسعى اليه كرومر فى قريته ووقف ببابه فلم يتحرك الشيخ فى جلسته ولم يكترث بكرومر أو حتى يصافحه !! فحدثه كرومر فى هذا فكان رد رجل الدين الحقيقى الذى يمثل السلطة الروحية للأمة :

ـ أنت محتل لبلادى ودينى ينهانى عن تعظيمك .

ماذا حدث عند زيارة كارتر لمصر ؟

سعى كبار رجال الدين الى المطار لينتظموا فى صفوف الانتظار !!! وكم سـعوا الى المطـارات والمزارات ... الخ ..

ـ هل تؤدى المدرسة دورها ؟ وهى تبدىء وتعيد فى خطب مصنوعة ـ لم يكتبهـا أصحابها ـ كأنهـا روائع الـكلم ؟

ــ هل تؤدى الاغنية دورها ؟ وقد غدت سقيمه كاذبة تافهة ولم يتورع صاحبها أن يتبوق تارة ، ويلبس غير ثوبة تارة أخرى ؟

ــ هل يؤدى المسرح دوره ؟ وقد أدركته حكمة شهر زاد فسكت عن الكلام المباح فى الصباح والليل على السواء بعد أن صحا صحوة مشهودة فى الستينات ؟

ــ هل تؤدى المجالس الكثيرة ، الغفيرة ، الوفيرة ، دورها ؟

ــ هل يؤدى المثقفون دورهم ؟ ومصر أمانة فى أعناقهم .. مصر التى غدت نهبا مباحا ، وحرما مستباحا ، وكنزا مضيعا ! ..

هل يؤدى المثقفون دورهم أم هم ينظرون ثم يغمضون العين على القذى ، ويسكتون الضمير على الاذى والجريمة من كل نوع وحجم .. ويمضون .. بل أحيانا يصطنعون البهر بالجهل ويقولون بأفواهم ما ليس فى قلوبهم .. ولو وجد الحق فيهم نصيرا أو سمع بينهم صوتا جهيرا ، لا رعوى الباطل أو عوى فى خلاء .. وفى الحالين تميد الارض تحت قدميه ويتبين الرشد من الغى .

وهذه الفئة من المثقفين التى تخلت عن واجبها رئاء السلطة ، أو ابتغاء المنفعة ، أو اشتهاء المال ! حسابها ، كزمرة الباطل ، عسير يوم يكتب التاريخ فى غير تزييف أو تحريف . كم من علامة استفهام حائرة شقية ؟ ماذا يقول الصبر ؟

ليس لها من دون الله كاشفه .

لقد تقامأ كل شيء حتى غدت القماءة طبعا وطابعا .. للتقية ، أو التكية ، أو البلية ... ومن البلاء والابتلاء ، انفصام الاحساس فيظهر انسان شيئا ويبطن نقيضه .. ومن البلاء احتمال الاذى ورؤية جانية وهو غذاء تضوى به الاجسام مهما تعـــددت الجمعيات ووردت الدجاج والتجارات الاخرى ..

وحين تختل المقاييس وتغتال القيم ويطحن الانسان ويهون ، لا يبقى تليفزيون أو غير تليفزيون ..

وهنا تضيع الكلمات لان كل شيء ، ضاع .

كنت أحاضر فى الاسكندرية .. وطوف الحديث بعد المحاضرة وطاف فاذا بهموم الشباب تفيض همهم الكبير مصر والانسان المصرى . وقال أحـــدهم وهو مدرس بجامعة الاسكندرية حاد الذكاء ، عميق الاطلاع : ما رأيك فى جمعية للرفق بالانسان . وضحك بعض الحاضرين وقد حسبوه يمزح . ولكنى لم أضحك بل سرحت طويلا .. ان يسخر الشباب المصرى هذه السخرية المرورة فذاك مؤشر الى أعباء ثقال يرزح تحتها .. أعباء نفسية قبل أن تكون مادية تدفع بعضهم الى الهجرة وتمـــلأ البعض احساسا بالغربة النفسية على أرضه ، وتحمل البعض على هذه الكلمة الحزينة .

ان شبابنا متوقد الذكاء ، بعيد الطموح ، ولكنه سائر فى الزحام مسلوب الارادة ، فاقد الاختيار كالجموع حوله ، لا تحترمه القوى العاملة التى تطوح به فى أى مكان رضى أم أبى ، ولا تحترمه الصحيفة التى يقرؤها ، حتى حين تزعم انها ملكه .. ملك الشعب .. فهى تمن

عليه بالعلاوة وكأنها فضل لأحد وهى تزيف ارادته فتنسب اليه ما لم يفعله وما لا يؤثره ، هى تسمى له الاشياء بغير أسمائها ، وهى تهين ذكاءه بالمبالغات ، وتبدد ماله فى المانشتات ، وتضيع وقته فى التفاهات ثم تبدىء وتعيد بلا جديد .

وتأتى الاذاعة مسموعة ومرئية فتسلط عليه المسلسلات لتمتص ما أبقته الجمعيات وطوابيرها من طاقته ووقته ، وتلهيه عن واقعه .

ويركز الاعلام على الدورى والكأس لينفس كربه ، ويغذى حب الانتماء البديل فيه ، ويشيع شهوة الجدل والمناقشة ويحدد مسارها .. ـ الكرة فقط ـ وقديما كان صلاح الدين يفتح التكايا ليغرى الناس بالارتخاء عن العمل وعن الكلام كما أشرت . وبعد ثورة ١٩ أنشأ الاستعمار شركة الاسطوانات لتنشر بين الناس الاغانى التافهة بعد ان عانى من وطنية نشيد سيد درويش .

ثم يرى فى الافلام أو الاحلام أساليب أخرى للعيش والحياة فيدرك انه يعيش ولا يحيا لو جاز ان الرغيف المخلوط بالتراب ، والشارع المملوء بالعذاب ، والمرافق المتهرئة ، تسمى عيشا .

الانسان المصرى يفتقد الاحترام ، ويفتقد الصدق ، ويفتقد الانتماء ، ويفتقد الاختيار ، ويفتقد الكتاب والصحيفة ، ويفتقد الحديقة والساحة والموسيقى .. يفتقد المسكن الصحى والمناخ العلمى .. يفتقد القدوة .. الجامعة الحقيقية بعد أن غدت جامعاتنا تعمد الى تعليب الطلاب فى المدرجات والمعامل فلا يستفيد الطالب علما ولا يعرف أستاذا فالاختناق العددى المفروض فرضا

لا تقوم معه صلة بين طالب وأستاذ ، وهى أهم سمات الحياة الجامعية .

فاذا تخرج على هذه الحال التعسة فانه يفتقد العمل المقصود ، ويفتقد الفراغ المصقول ، ويفتقد الكثير من مقومات الحياة الكريمة حتى غدا الانسان ينشد جمعية كجمعيات رعاية الحيـــوان وأصبح الشباب المصرى نهبا لمختلف الدعوات هروبا من واقع شقه تشبثا بفد برتجيه أو هكذا شبه له .

أعرفتم لماذا ينــادى الشـــاب الذكى المثقف بجمعيـه تستهدف الرفق بالانسان ؟

لقد استعرضت مشكلة الشباب فى خطوط عريضة وكثيرة يحتاج الرئيسى منها الى تفصيل أكثر مثل :

محنـــة الثقافـــة

ان الانسان ليصيبه الدوار حين يجـد نفسه عاش عصرا ألفيت فيه يوما بقرار واحد ، فى وقت واحد ، وزارة الثقافة ووزارة البحث العلمى ، ووزارة التعليم العالي .

دوار أن تلغى هذه الوزارات حين تقوم وزارات أخرى ليست من الثقافة أو العـلم ، وليست للثقـــافة أو العلم .

دوار أن تنضم وزارات القيم الى وزارة القراءة والكتابة أى التربية والتعليم .

وكم أميين بين الذين يقرءون ويكتبون .

ويطفو من محظوظي الادبى هذان البيتان :

بالعلم والمال يبنى الناس ملـــكهم
لم يبن ملك على جهــــل واقلال

هذا بيت .. أما الآخر فهو :

لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم
ولا سراة اذا جهالهم ســـــــادوا

وأصمت قليلا أو كثيرا .. وأســـمع ما بينى وبين

نفسى صوت الصمت بعد أن عجز صوت الكلام ، أو احتبس صوت الكلام .

فى النصف الاول من القرن العشرين تحدينا الاستعمار بالجامعة .

وفى النصف الثانى من القرن العشرين تبعنا الجامعة لوزارة التربية والتعليم أى انها آلت الى مدرسة بعد الثانوية .

فى النصف الاول من القرن العشربن كانت ترتفع فى حياتنا أعلام كل منهم مدرسة وجامعة ووزارة للثقافة دونها الوزارات وهواتها .

كان يعيش بيننا : العقاد ولطفى السيد وطه حسين والمازنى وأحمد حسن الزيات وحسين هيكل ومنصور فهمى ومصطفى عبد الرازق والعبادى وعبد الوهاب عزام والخولى وأحمد أمين وعبد الحميد بدوى وعبد العزيز فهمى ومصطفى مرعى أمد الله فى حياته .

كانوا أعلاما فى الثقافة .

وكانوا اعلاما فى الكرامة .

وكانوا أعلاما فى الحرية .

وكانوا أعلاما فى الرأى .

وكانوا أعلاما فى الريادة الفكرية .

كانوا يمثلون حياتنا النفيسة . واليوم لم يعد أحد بمثل هذه الحياة النفيسة لاننا نعيش ولا نحيا .

ليس رثاء لوزارة الثقافة وقتئذ فلم تكن هناك ثقافة أو وزارة لها . لقد كانت النصف الاول من اللافتة النحاسية اى وزارة الاعلام . واعلام فى باب واحد فقط .. مقرر ومكرر نتجرعه .

ليس رثاء لوزارة الثقافة وقتئذ التى كان معظم كبار المسئولين فيها ممن لا يمتون الى الثقافة من بعيد أو قريب بل لهم « ميادين » أخرى .

ليس رثاء لوزارة الثقافة فقد كانت قائمة ولها كرسى وثير فى استاد الوزارات ووكلائها ثم سرقت لوحات معبد دندرة ...

● وهدد الدمار معبد الكرنك بسبب بحيرة السد العالى ..

● ونصلت الالوان فى الدير البحرى .

● وبيعت هضبة الاهرام بكل ثقلها التاريخى والحضارى .. ولما كشف تقرير لجنة الخبراء ، المحتالين العالميين الذين دافع عنهم ثلاثة وزراء محترفون، وألغى المشروع ، عندما أهتز الضمير العالمى ، تثاءبت وزرة الثقافة وفركت عينيها ثم أصدرت حياها الله فرمانا بأن الهضبة منطقة آثار . وابتسم العالمون فى مرارة أو ضحكوا .. ولكنه ضحك كالبكاء . كأنها عرفت لتوها .

● كانت وزارة الثقافة قائمة وسرق متحف محمود خليل مرات .

● كانت وزارة الثقافة قائمة وبنى الكوبرى الذى يجتاح جزءا من أرض المتحف . وأهم من هذا يهدد بالاهتزازات المتحف كله بالدمار .

● كانت وزارة الثقافة قائمة واحترقت الاوبرا بنفائسها وفيها مركز اطفاء وعلى بعد خطوات منها المركز الرئيسى لمطافى القاهرة !

الامجاد كثيره ومريرة تشكل فصولا فى مأساة الانسان المصرى والشباب المصرى .

والآن ببقية أمل فى البلد الجريح ماذا نحن فاعلون ؟

نريد تخطيطا للثقافة مدروسا ثابتا يشترك فيه من أعطوا الثقافة عطاء حقيقيا لتكون لنا سياسة ثقافية ثابتة لا تخضع لاهواء كبير أو سلطة من السلطات .

نريد تخطيطا علميا كاملا للآثار فلا يسافر متجولا . الا المكرر وليس النادر والنفيس يعرض للمخاطر والتقليد كما حدث لقناع توت عنخ آمون .

لقد رفضت ألمانيا أن تعير مصر نفسها ، رأس نفرتيتى ، وفى مقابل مجموعة من الآثار طلبت عرضها بها !! وكان الرد أن أقصى عن منصبه أستاذ الآثار ورئيس الهيئة !! وقتئذ .

نريد حراسة مكثفة حول كل أثر باعتباره أغلى من المال فلا يحرس معبد دندرة خفير مرتبه الشهرى بضعة جنيهات ثم تسرق اللوحات من الجدران بهدوء ودراسة وتكتيك شأن الآمن غير المعجل .

نريد تسجيلا علميا لكل نقش وخط .

نريد حرما لكل أثر هو ما نسميه البيئة الاثرية فلا تقف الجمال والحمير الى جوار الهرم الاكبر ، وتزاحمه كافتيريا تتناثر زجاجاتها الفارغة على الارض حوله .

نريد بيئة أثرية حول هرم دهشور فلا تقام المصانع بمداخنها فى أرضه ..

نريد حلا علميا عاجلا للنكبة التى نسميها بحيرة السد العالى التى يمحو البخر الناجم عنها ألوان الدير

البحرى وتهدد مياهها معبد الكرنك الذى ارتفع منسوب الماء فيه .

نريد تخطيطا علميا للثقافة يرعى فنون خان الخليلى التى تنقرض وتندثر .. تخطيطـــا يرعى فنون مصر التقليدية ويخرج فيها الاجيال جيلا بعد جيل .

نريد تخطيطا علميا شاملا للثقافة يأبى أن تكون مصر مهد الحضارة بعلومها وفنونها وعقـائدها ، مقلب زبالة نووية للنمسا أو لغيرها .. والنمسا مساحتها ٨٣ر٨٥٠ كيلو مترا مربعا وعدد سكانها ثمانية ملايين أى بمعدل ٨٩ شخصا للكلو متر المربع بينما نجد مساحة الوادى او الشريط الاخضر الـذى نعيش عليـــه اذا استثنينا الصحراوين ٣٥ر٥٠٠ ك . م اى بكثافة ٧٣٢ شـخصا للكيلو متر المربع .

والدراسات التحليلية والتفصيلية التى قام بها معهد التخطيط القومى بشأن التنمية الاقتصادية والاجتماعية تقول : ــ الاهرام ١٩٧٨/٧/٢٥ ــ « أن هناك ما يربو على عشرين مليونا من السكان سيزيدون فى العقـدين القادمين يحتاجون الى تدبير فرص عمل ومصادر رزق وخدمات متنوعة وأن البديل المطروح لعلاج ذلك هو حتمية الخروج من وادى النيل ودلتاه الى الصحراء الشرقية التى تمثل ٢٨ ٪ أو الصحراء الغربية التى تمثل ٦٨ ٪ من مساحة مصر أو الاتجاه لكليهما » .

وقد أشار العـالم الدكتور فاروق الباز باستثمار الصحراء المصرية .

فكيف يتسنى هذا كله . فى حالة دفن النفـايات

النووية ؟ التى أثبتت الدراسات الذرية العلمية خطورتها؟ فصلا عن الاعتبار الحضارى والقيمى .

نريد تخطيطا علميا للثقافة يستهدف تعميق الوعى بدور مصر الحضارى وعطائها الحضارى وانجازاتها انحضارية تعميق الوعى بالتاريخ المصرى بمعاليه ومآسيه على السواء فان أقوى عطاءات مصر ، انما هى الشخصية المصرية نفسها .. الشخصية المصرية التى استطاعت أن تستوعب الهزيمة والنصر .. العزة والقهر ، العسر واليسر ، الالم بعذاباته ، والقيد بجراحاته استوعبت مصر هذا كله واستقبطت مصر هذا كله وظلت بكل الجلال ، مصر .

نريد تخطيطا علميا للثقافة يعمل على خلق واشاعة « اسلوب شخصية » كنا فى القرن الماضى نسمى كل ما يروق « عثمانلى » وفى القرن الحاضر نسمى ما يبهر « مودرن » أما الشيء النابع من جذورنا فى الريف والحضر فهو « بلدى » نستعلى عليه ونعرض عنه ونزهد فيه .. أقولها وأكررها بقدر ما تحز فى نفسى .

نريد « أسلوب شخصية » يتميز بين ألف أسلوب .

نريد « أسلوب » فى الفن وفى المبانى التى يجب أن توافق عليها هيئة علمية فنية تمثل فيها كليات الهندسة والفنون الجميلة ، وفى الصناعات وفى النسيج وفى الزى .

أسلوب شخصية يعلن عنا ويترجم أعماقنا يستند الى قاعدة من ماضينا وينطلق من حاجات حاضرنا حاملا مستقبلية فى حلقة كاملة متكاملة .

ان المعاصرة وعى بالماضى واحساس بالحاضر واعداد واستعداد للمستقبل .

المعاصرة استقطاب لاحسن مافى الماضى فى محاولة اضافة خصبة اليه تكون بدورها ركيزة للمستقبل فتتواصل الاجيال في عطاء يتجدد ولكنه يحتفظ بطابع معين هو سمة له ومذاق خاص وأسلوب شخصية .

نريد تخطيطا علميا للثقافة يجعل الاجهزة العاملة في الحقل القومي تتفياه وتتوخاه وتترسمه دون سيطرة ادارية أو تبعية روتينية .

فالاذاعة والتليفزيون تحت أى اسم من الاسماء يجب أن يكون تركيزها الاكبر والاهم على مصر ورسالتها بحدودها لا الجغرافية فحسب ولكن المعنوية من دين وعلم وفن .

لقد عشنا زمنا لا نذكر سينا حتى فوجئنا باجتياح العدو لها .

لا أنكر ان هناك دراسة موسعة معمقة قام بها المجلس الاعلى للعلوم ١٩٦٠ هى موسوعة سينا .

دراسة لسينا ولكن هذه الدراسة لا يدرى بها أحد لان الصحافة والاذاعة كلاهما مشغول بأشياء زائلة .

التركيز على مصر هو وحده الذى يهم الناس لانها وجودهم واسمهم وترابهم .

التركيز على مصر بالكلمة والكاميرا والصوت كل محافظة بالتوالى يجب أن تدخل وجدان المواطن المصرى من خلال الشاشة والميكروفون ليتعرف كل منا الى كل شبر من أرضه .

وبعد هذا سموا التخطيط المنشود وزارة او هيئة أو غير هذا من أسماء فقد شبعنا عناوين براقة حتى

غدا العزف على الالقاب - موسيقى القرب لاتطرب الذوق الفنان أو العلم الدارس .

في مساء الاحد ١٩٧٨/١٢/١٧ سمعت محاضرة كبيرة من الانسان العالم المغفور له الدكتور محمود فوزى . كان الموضوع عن الثقافة فى بناء الانسان .. فى محاولة جاهدة تطب لاحد الجروح الكبيرة فى أعماق الانسان المصرى بالذات .

وطوف الدكتور محمود فوزى فى محاضرته وطاف . وألح الى البــــلاد التى انتصرت على الامية فى الشرق والغرب .

وقد فجرت هذه المحاضره مناقشات كثيرة اشترك فيها اعلام الفكر من الحاضرين .

وانتهت المحاضرة وانتهى معهــا اليوم ولـكنى أعيش فيها ...

نحن نتمتع بأميتين .

١ ــ أمية غير المتعلمين أى الجهل بالقراءة والكتابة عند الغالبية الساحقة .

٢ ــ أمية المتعلمين أى ضحالة الثقافةوسطحيةالقراءة؛ شكلا وموضوعا من تخفف وتعجل واجتزاء . لقد سمى الاستاذ أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة ، أدب الاربعينات « أدب السندوتش » فماذا عساه يسمى ما نحن فيه اليوم ، لو كان بيننا .

أمية المتعلمين التى تفتقد العمق والاصالة والموضوعية والشمول .. تفتقد فن التــذوق وفن الرؤية ، وفــن التعامل مع الاشياء والقيم ، وفن الحديث ، وفن البحث وفن التلقي وفن الكيف وأخيرا فن الحياة .

نحن نعيش ولا نحيا . و « نحن » هذه تنسحب على المتعلمين والمثقفين فضلا عن الاميين بالطبع .

والمقاييس الدالة كثيرة .. لقد تتبعت العناوين الرئيسية فى الصحف على امتداد عام فوجدت عجبا لا أريد تفصيله في هذه السطور فهو موضوع ذو مؤشرات عدة الى الخواء التعس الذى نعيش فيه يستحق ان تفرغ له الكتابة ويفرد الحديث وقد امتد بى التحليل الى أجهزة الاعلام الاخرى من اذاعة وتليفزيون وهيئة الاستعلامات محصلة هذا كله مجتمعا ومتفرقا له دلالات تستوقف الدارس طويلا .

فاذا اضفنا الى هذا مناهج المدرسة المصرية واسلوب التعليم فيها ، ووسائله ، اكتمل التشخيص وعرف السبب الكامن وراء ما نشكو منه من انبهام الرؤية ، وانعدام الهدف ، وافتقاد الذاتية ، وسيادة الشعارات وما يتبع هذا من تجوف فى المعنى ، وتخوف من الرأى ، وخلاء من القيمة ، وخواء فى الشخصية هيهات أن تملأه الاغانى التافهة الكاذبة ، وما أشبه من هوان .

سأتناول فى البداية أشهر الاميتين وهى جهل القراءة والكتابة .. هذه نستطيع أن نتغلب عليها اذا جعلنا من المسجد والكنيسة مركز اشعاع فعز المسيحية يتمثل فى « موعظة الجبل » ، وعز الاسلام يتمثل فى الآية الكريمة « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » .

هذه الآية فاصلة بين عهدين ونقطة تحول كبرى فى

تاريخ الاسلام الذى احترم الانسان يوم دعا الى العلم ، والتفكير والرأى والشورى والاخوة الانسانية .. حتى الرسول نفسه وصفه القرآن بأنه رجل من رجالنا .. وانما جاء فضله من صنع الحياة على أرضه ، واثرائها بقيم الحق والعدل والخير والضمير . جاء فضله لانه كان عفا شفا ، وعلى خلق عظيم وفى الذروة من طهارة اليد والنفس والقول والعمل حتى لقب بالصادق الامين .

وليس كالصدق والامانة ، قياسا وعلامة عند تقييم الرجال فى ميزان الرجولة ، وتوصيف البطولة ، وحساب التاريخ .

ليس الدين ، الطقوس والنصوص على أهميتها ووجوبها ولكن الدين فى جوهره هداية قلب ونور عقل ، وسلام نفس ولملمة شتاتها . وليس كالعلم طوقا للنجاة ، وأسلوبا للحياة ، ومرقاة ـ اذا صح ـ الى ذرى القيمة فى العمل والتصرف والسلوك .

أن يقوم المسجد والكنيسة بالتعليم فى غير الجمعة والاحد فيه شفاء للناس من الجهل والتعصب ، والتقاء لابناء الامة على هدف ، وصفاء للضمائر والاعمال والغايات . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

ان يقوم المسجد والكنيسة بالتعليم ، فرض كفاية ، وزكاة نعمة ، وضريبة وطن وقف وراء الاديان وعلم الانسان ، وخلق الحضارة وزكاها وأهداها .

يأتى دور الدولة التى تقذف بالصبيان والبنات الى المدارس الثانوية بلا تمييز ، ثم الى الجامعة ثم الى الشارع ، حتى تقوم القوى العاملة بالقائهم بدورها

كيفما اتفق فى دور الحكومة ومصالحها لا للعمل بل لتعويق العاملين ، ان وجدوا ، وفى هذا هدر للطاقة .. واهدار لانسانية الانسان مرتين : مرة حين يتقاضى أجرا بلا عمل ، ومرة أخرى حين يحرك من خارجه ويعمل غير ما يريد بلا حب بلا فن .. بلا خلق .. بلا تحقيق ذات ...

ألم يحن الوقت لتخديم هذه الطاقات الشابة فى محو الامية بمرتبات كاملة منذ تخرجها الى أن يتم تعيينها فى مجالات تخصصها ؟

يأتى دور المحافظات والمحافظين ...

ولو أنى أومن بأن هذا الدور لن يكون له فاعلية حقيقية الا يوم أن يكون هذا المنصب بالانتخاب لا بالتعيين ليعطى المحافظ وقته وتفكيره لاصحاب الفضل الحقيقيين من الناخبين ودافعي الضرائب فلا ينصرف همه الى غيره مما شهدناه من مآسى التقامؤ والامتهان والتنافس فى دق الطبول .

لتكن منافسه بين المحافظات فى محو الامية بالجهود الشعبية والادارية فى وقت واحد ... منافسة يشترك فيها الكتاتيب والمساجد والكنائس والقاعات والساحات الشعبية .

ان الكتاتيب أرخص تكلفة فالكتاب حجرة أو حجرتان ولايستأدى الطفل أو أهله ملبسا خاصا أو كراسة أو أدوات حديثة .

والكتاتيب لها فى نفوس أهلنا فى الريف مكان وذكر عاطر فهى التى علمت طفولة طه حسين وأم كلثوم ورفاعة الطهطاوى وعلى مبارك .

والكتاتيب حين تحتشد لتحفيظ القرآن الكريم وتحتفل

بجدول الضرب فتروى الوجدان وتصقل اللسان وتدرب الطفل على الحساب والاعداد .

وليس بالقليل هذا فان بين خريجى الجامعات اليوم من لا يقيمون جملة ولا يحسنون صنعا . ومن الوسائل :

التعيين فى الحكومة فى الوظائف الصغرى اليدوية يشترط القراءة والكتابة ثم يمتد هذا الى القطاع الخاص .

الترقية فى الوظائف تشترط شهادة بمحو امية عدد مفتوح ليكون مجالا للمنافسة على الترقيات .

منح الجوائز للمستجيبين من متعلمين ومعلمين .

تجنيد طلبة المدارس الثانوية والجامعات فى العطلة الصيفية لهذا الفرض وبأجور مجزية بل مغرية ، ليعلموا الكتابة والقراءة ، ويتعلمون معانى كثيرة منها نعمة العمل ولذة الكسب وملء الوقت وقيمة الخدمة العامة ، والانتماء الحقيقى للوطن بالجهد والتضامن والاضافة الخلاقة .

فتح مراكز لتدريب وتعليم الحرف المختلفة للنساء والرجال ثم تقديم الآلات والوسائل لمن ينجح فى هذا على أن يشترط للقبول فى هذه المراكز القادرين بسهولة على القراءة والكتابة . وبهذا نمحو أميتين فى وقت واحد :

- أمية القراءة والكتابة .
- الامية الحرفية وقد غدونا بعد هجرة العمالة الفنية ، فى أشد الحاجة الى البدائل القادرة أو التى تؤدى .

أن توضع خطة مدروسة للاذاعة والتليفزيون تتفيا

اهتمامات هذا الشعب ومصالحه . فان التعليم والتوعية المثمرة لا الدعائية ، بالصوت والصورة أشد جذبا وأسهل تناولا ، وأقدر على الوصول والتغلغل فى أماكن العمل والتواجد سواء فى البيت أو خارجه .

لقد غزا الترانزستور الحقل والمصنع والمتجر لم تبق الا المادة التى تقدم من خلاله وسائل كثيرة للقضاء على الامية ذكرت بعضا منها ولكن أهمها جميعا :

الارادة .

والصدق .

والايمان .

هذه الصفات الثلاث تعين على العمل المكثف فى صمت

وبذل ونقاء يترفع على التشدق ، ويستعلى على التظاهر والمتاجرة ، ويأبى رثاء الناس واشتهاء المدح وابتغاء المنافع .

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .
(وكفى بالله وكيلا) .

أما ثانية الاثافى وثالثتهما فهى أمية المتعلمين . حين كانت أوربا تتسابق فى الفتك من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩١٨ كانت الهند تشغل الدنيا ببساطة وسماحة غاندي ، وشاعرية تاجو ر .

ان الهند تعرف الثقافة بلفظة « سنسكريت » أى « التطهير » والتغيير وايقاد الحماسة والتهذيب وتحقيق الكمال ، ان كلمة « اليوجا » معناها النظام .

اننا اذا أنظرنا الى تمثال هندى وآخر مصرى ، نجد خطا مشتركا هو الاستقرار ولسكينة ، غير أن نظرة

التمثال الهندى الى الداخل وكأنه يريد أن يعرف الكون من خلال نفسه ولكن نظرة التمثال المصرى الى الخارج ليعرف الكون والماوراء .

كانت النظرة المصرية شغوفا بالطبيعة .

لقد كان الكاتب المصرى يملك انماطا من الكراسى ولكن جلسته فيها تجميع الكيان .. ضم الجسم لينطلق القلب والعين فى الافق .

هل نعرف الطبيعة ؟ لنعرف معنى الكون الشامل ؟ مرقاة الى معرفة قدرة الله ؟

ليس شاعرية أو رومانسية ولكنها دعوة الدين نفسه الى النظر فى خلق السموات والارض والنفس والآفاق .. وهل الوصول الى القمر الا كشف من كشوف الطبيعة ؟ ولكننا ، مدارسنا فصول مغلقة وبيوتنا حجرات مغلقة ، وأفكارنا تبعا لهذا آراء مغلقة .

يقول الدعاء الهندوكى :

يا رب اغفر لى خطاياى الثلاث :
عبدتك فى مكان وانت فى كل مكان
وناديتك باسم وتعاليت عن كل اسم
ورأيتك فى صورة وانت خارج كل صورة

ويذكرنى هذا بفقيه الكتاب الذى كان يحفظ الصبيان هذه الجملة يأمر واحدهم أن يقف ليقولها ثم يجلس ليقولها آخر :

الله موجود فى كل الوجود .

وكان الصغار السذج يعجبون من « سيدهم » وما دروا أن هذه الجملة يقف وراءها فيوض من المعانى فهى تشير فيما تشير اليه ، الى مافى الكون من :

نظام شامل ـ قدسية ـ لا محدودية ـ ولو سرنا فى هذا النور لتغيرت علاقتنا بكل انسان .. بكل شىء .. الى أرفع وأكرم وأصفى .

هل نعرف فن الكيف ؟

نحن نحب الضخامة ، أثاثنا مثقلات ، طعامنا ثقيل على المعدة والجيب معا .. حديثنا أطناب ، كتابتنا ولوع بالمقدمات والحواشى حتى احتجنا الى التلخيص وتلخيص التخليص كما يعرف المشتغلون بالتراث .. لقد شكلت مصر قديما الخشب أجمل ما يكون التشكيل لانه كان قليلا عندها فأحالت فقر الكم الى غنى الكيف . ولكن الامم فى عصور ضعفها تتكثر بالفضول فتتزيد ولا تقول ، وتسهب ولا تؤدى لانها تعيش فى دوامة من همومها .

هذا فضلا عن أن الحضارة الحديثة على نقيض الحضارة القديمة .. الحضارة الحديثة كم لا كيف .

ناطحات السحاب بناء .

ولكن الهرم عمارة .

أى بناء حلت فيه القيمة وسكنت .

الهرم يشغل الفضاء بالكم ولكنه فى الوقت نفسه يشغل الارض بالكيف ، ويشغل التاريخ بالتسجيل ، ويشغل الناس بالتفكير .

أما ناطحة السحاب فهى ديناصور العصر الحديث .

ولكن روعة الخلق فى النملة بدقتها الجسمية والتنظيمية . أكثر منها فى الديناصور الضخم . وكذلك روعة الخلق فى الاناء المصرى حتى فى عصر ما قبل الاسرات حين يختزن الصمت فى جمال وروعة ، فى نضارة القلب البشرى لم يعله سأم الحضارات .

وأحس الادب بهذا والفن رادار لا يخطىء ، فالكاتب

الامريكى جيمس دورت يقـــول فى روايته « العدو »
« بدأت أهتم بتأثير صور كتب الاغريق وكتب الرومان وغيرهم بعد ذلك بالمبانى وعمارة الماضى . واذ رأيت كيف كانت الابنية القديمة جميلة التناسق . شـعرت بذلة شديده مبعثها أن مبانى عصرى واضحة التخلف » .

هل نعرف قيمة لفن :

هل نحترم المسرح ؟ هل نسمع الموسيقى ؟ هل نقدس الكلمة فلا نريقها فى غير موضعها ؟ هل نترشف الصمت والنور والظلال ؟ هل نتذوق الجمال ؟ هل نعرف الجدل موقف اختيار لا شهوة انتصار ؟ هل نتخلص من الصخب فى الالوان والاصوات ؟ هل ترشد مناقشتنا وترق فى التعبير وتدق من الموضوعية فلا تغـدو والالفاظ (بنج بنجيه) يضل فيها المنطق وتغيبك الحكمة ؟

هل نستهدى قيمنا الاصيلة ؟

هل نعرف قيمنا كشعب ؟

لا أحسب . ولو كنا ندرك معنى كلمــــة « شعب » لفكرنا لانفسنا وتحركنا بأنفسنا وتصرفنا بحساب وطالبنا بالاسباب ومنحنا بقدر ، وصنعنا الكلمة والقرار ، ولكننا منذ كيلوبطرة ، كما يقول شاعرنا شوقى ، شعب طيب يوحون اليه . وينطلى كل شىء عليه فى أحيان كثيرة . وكم جراحات تنوشه من كل جانب حتى أثخنتـــــــــه الجراح . . .

والمكدودون لا تثريب عليهم فقد كان الامام الشافعى يقول لا تستشيروا من ليس فى بيته دقيق فان عقله غائب كما أشرت . وهؤلاء المطحونون كما تنبىء طوابير الجمعية ليس فى بيتهم دقيق أو خلافة . . .

ولكنى ألوم المثقفين المعجبين بذكاء النعامة ، والمولعين

بالاقنعة ، والمكتفين بالفرجة ، والسائرين فى الزحام .
ومن هؤلاء المتعلمين من يصفون الخاطئة بأنها « امرأة ليل » . وقد يكون الجوع هو الذى ساقها الى الهاوية . . وينسون أن الرجل الذى يداجى فى الرأى ، ويداهن فى القول ، ويتاجر بالتراث « رجل ليل » لانه يبيع مالا يباع.
واذا كان هذا يجرى ، ونحن ندرى أو لا ندرى ، فهل نحن مثقفون ؟
ان الثقافة أسلوب شخصية .

من الثقافة ، الارتفاع فى الحديث ، والامتناع عن الترخيص ، والموضوعية فى التفكير والتعبير ، والقصد فى القول حفظا للوقت وحفاظا على النفس .
من يقرأ صحفنا فى النصف الثانى من القرن العشرين يجدها تعيد سيرة شعراء العباسيين ، حتى تشابهت الى حد التطابق أحيانا ، فى العناوين والمضامين فتستطيع احداها أن تغنى عن سائرها .
وشعراء العباسيين هؤلاء ، كانوا فى عصرهم صحافته السيارة . وقد ملأوا الادب العربي مدحا أى كذبا ونفاقا حتى كان بعضهم ينتقل بالقصيدة من ممدوح الى آخر بعد أن يبدل الاسماء ! وأساء هؤلاء الشعراء الى أمتهم مرتين :
الاولى : حين أهدوروا قدرها بعدم الاختيار الاكرم . لم يقفوا الى جانبها يطبون لآلامها ويغنون أشواقها هى بل اختاروا السلطة طمعا فى المال أو المنافع مما لا يقاس فى ميزان التاريخ بالقيم الحقيقية التى تبقى ويشرف بها صاحبها ولا يهون .
والثانية : حين وصموا أمتهم بالملق والنفاق فان الفنان

عنوان شعبه بما يمثل الفن من جوهر الشعوب ووجودها النفيس .

لا أنكر أن الادب العربى به روائع كثيرة ولكنه أيضا به مدائح ملوكية كثيرة أى فضائح خلقية .. فليس فضيحة أفدح من أن يتبوق انسان أى يصيح بوقا . ان المرء كما يقول رسولنا الكريم ، بأصغريه قلبـــــه ولسانه ولكن « البوق » يعكس تفكير انسان آخر لا تفكيره ، ويتكلم بلسان آخر لا تعبيره .. انسان مثله ولـكنه يتقامأ له ويتصاغر حتى يصير صغيرا وتكون « المســافة » أو الفرق بينهما كبيرا ..

هؤلاء الشعراء الابواق يقفون فى طابور طويل فى تاريخ الادب العربى . ولم يسلم من هذه التبعيــــة ، المتنبى على كبرياء يزعمها لنفسه . ولو كان كبيرا ما أراق شعره على أعتاب سيف الدولة ثم على أعتاب كافور وهو يعرف عنه ما يعرف حتى قال فيه يوما بعد أن أعيـاه تحقيق غرضه الذى نافق من أجله :

لا تشتر العبد الا والعصــا معه
أن العبيد لانجاس مناكيـــــــد
نامت نواطير مصر عن ثعالبهـا
فقد بشمن وما تفنى العناقيـد

وكان الملوك أو أسيادهم أيا كانوا يعرفون أنهم أرقاء ، لا شعراء ولا أدباء ... يعرفون أنهم اذلاء .. شعراء ركاب ، وكتاب زفة ووسائل زينة للعهود ، وحريم السلطان .. كل ســــلطان .. لا يقيم لهم حر ، وزنا ولا يحفل بهم تاريخ ، ولا يبقى منهم شىء لانهم لم يقولوا شيئا يبقى .

فكثيرا ما يقسو المجتمع كما اشرت على امراة ليل قد يكون الجوع دفعها الى اقتراف الاثم ولكن على المجتمع أو أغلبه ينسى أن هناك رجل ليل أيضا .. ينسى أن بيع الهوى وبيع الولاء واحد .. انه بيع نفس وكرامة فى الحالين . انه بيع ما لا يباع .

ولكن الملوك أو أسيادهم كانوا يبقون على المداحين بل يغمرونهم بالمال لانهم كانوا يقومون بالدعاية لهم . فهم مجلات ذلك العصر ..

ولا يضير الادب العربى أن تسقط عشرات القصائد اراقها أصحابها على الابواب وأراقوا معها آدميتهم فلم يرتفع بهم فن ولم يشرف بهم ذكر وان نظموا القوافى أو حبروا السطور حين خلد « البوصيرى » بقصيدة واحدة تعطرت بذكر الرسول حبا وكرامة لا طمعا أو هلعا او نفاقا .

لقد هاجم الجاحظ فى « البيان والتبيين » أدب النفاق كما هاجمه العقاد والمازنى وشكرى أعمدة « مدرسة الديوان » فى مطلع القرن العشرين ثائرين على الهوان ان يكون الشاعر أو الكاتب نديما لكبير ، أو سميرا فى مجلس ، أو بوقا لملك ، أو ظلا لآخرين تحت مختلف الاسماء .

وحين يعم النفاق ، ينتفى الصدق .. ثم يتضخم الكذب فيغدو مانشيتات عريضة كالمارشات العسكرية وقد يحس أصحابها ثقلها فيكسرون الملل بتلوين هذه المانشيتات فتطلع علينا مرة خضراء ومرة صفراء ومرة بنفسجية ولكن الحقيقة تظل بعد هذا مرة المذاق .. وهكذا يقضى النفاق على الصدق والمعانى الحلوة والاشياء الجميلة فى الحياة وتفقد المسميات أسماءها ومدلولاتها .

وحين تصل الامور الى هذا الحد ، يحس الانسان أن كل شيء ضاع أو ، تاه ...

وبين التيه والتمويه تختل المقاييس ، وتهتز القيم ، لان النفاق يتبعه الوصولية والتبعية فيهون النجاح لان طرقه ملتوية ، والثقة فيه معدومة .

نحن نتحدث كثيرا كما قلت مرة عن المرافق المتهرئة ، وعن الشوارع المتحفرة ولا شك أن تخريب الأرض مما يحزن والذى يحزننى أكثر هو تخريب « الانسان » المصرى .

لشد ما يروعنى النفاق الشديد الذى يسود الخطاب فى كل وزارة وكل ادارة وكل مكتب من مكاتب الحكومة حتى كأن كلا منها « حرملك » أو حريم السلطان كما أشرت كل واحدة تترضاه وتتزين له !

هل نحن تحررنا من الخوف حقيقة ؟!

لا أصدق طالما نخلع الالقاب جزافا ، ونرفع السلطة من أى نوع ومستوى فوق حجمها الحقيقى .

ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. هيهات أن نتغير ما دمنا لا نحترم أنفسنا ولا نقتصد فى الكلام ، ولا نمل الهتاف ولا نكل من دق الطبول .

ويروج النفاق حيث الامعان فى المادية ، والخلو من القيمة مما يجعل أى انسان ينافق من يملك له النفع المادى .. ولا ينهض هذا عذرا عند أحرار النفوس فالافغانى ترفع على الملوك وهو فقير لانه عامر النفس بالقيمة الحقيقية .. الدين والفكر والعلم ، ولانه زاهد فيما بأيديهم بل كانوا هم الذين يخشونه ويتلمسون رضاه . فقد طلب شاه الفرس الى سلطان تركيا التوسط له عند الافغانى فقال العالم : (قد عفوت عن شاه العجم . قد

عفوت عن شاه العجم) !

زار الخديوى اسماعيل مع السلطان عبد العزيز الأزهر فاذا برجل يمد رجله ، وظل يمدها ولم يغير ، جلسته .. ففزع الخديوى وأرسل اليه أحد رجاله بصرة لكى يفعل ما يفعله المستقبلون فقال «الرجل» لرسول الحاكم.

– ان من يمد رجله لا يمد يده .

ما سر هذه الظاهرة التى تشقينا ؟ انه مرض عبادة البطولة يمثله تعلق القرية بالمشيخة .. ان الشيخ تعمله القرية ثم تصدقه وبعد أن يستقر له الامر فى مفهوم الناس ونفوسهم يأخذ وضعا ممتازا فيأكل الاحسن بمزاج الناس ، ويعيش أحسن برضا الناس ، وقد ينتبه واحد فيطلق المثل « رزق الهبل على المجانين » ولكن حكمته تضيع فى الزحام .

لقد كرم الله الانسان حين اصطفاه على الملائكة وفى هذا دعوة الى تكريم الكيان واحترام الذات . ومن هنا يكون النفاق كفرا بالمعنى الدينى والاجتماعى فما معنى « اياك نعبد واياك نستعين » ان لم تكن العبادة لله وحده ، واللياذ به وحده .

كيف نصلى بهذه الآية ثم نتخذ من دونه أربابا ؟

ان نحتاج فى أواخر القرن العشرين أن نجدد دعوة مدرسة الديوان ، ونردد ما نادى به العقاد والمازنى وشكرى من احترام الذات ، والارتفاع على القماءة أى النفاق .. نكسة .

أن الاستقلال لا يتجزأ .. فاذا كان هوانا تبعية أمة لامة ، واحتلال دولة لدولة ، فان هوانا بالقدر نفسه تبعية انسان لانسان،ومسخه فيغدو مطية له، وقلما ولسانا.

أن الانسان : موقف وسلوك .

ولهذا أرى النفاق ، محنة .

محنة النفاق

لماذا النفاق ؟

لابد من مواجهة حقيقية لمعوقاتنا . لقد سئمنا قولهم المعاد « بناء الانسان المصرى » .

جملة غدت شعارا فى طوفان الشعارات .

هذا الانسان كان بناء باذخا من عمل ألوف السنين .. ما الذى خربه وحوله أنقاضا ؟

سؤال نقف عنده قبل الشروع فى البناء من جديد حتى لا يتعرض مرة أخرى للهدم والتحطيم .

الانسان المصرى يفتقد الضمان والامان فى عمله وعلى نفسه .. لهذا يدارى مرة ويرائى مرات ، تقيه أو هروبا. يقول الاستاذ أحمد لطفى السيد فى « المنتخبات » .

« هذه الرذيلة .. رذيلة الرياء يستخدمها بعض الناس وسيلة للنجاح فى الحياة وهى حقيقة وسيلة نافعة فى البلاد الاستبدادية التى يتوقف نجاح الفرد فيها مهما كان كفئوا على رضا السلطان وأعوانه ، وأنه لا شىء يرضى السلطان الا العبادة ، وما الرياء الا ضرب من ضروب تلك العبادة .. فالذى يرضى أن يبيع نفسه عمدا ليشترى بثمنها قوتا يعيش به ، استبعد عليه جدا أن يكون حافظا للصورة التى خلقه الله عليها .. صورة الحرية .

وما مثل هذا النجاح بريائه الا كمثل الــذى ينجح فى الحصـــول على الثروة من طريق السرقة ، فبئست الوسيلة ، وبئست الغاية » .

ثم يقول :

« الرياء مرض من امراض النفس .. ذلك المرض اذا لم يعالج بالتربية تتضاعف أعراضه شيئا فشيئا حتى تموت فى النفس خاصة الذاتية ، خاصة الشخصية » .

جاء في « العقد الفريد » لابن عبد ربه الاندلسي .. عن زياد عن مالك قال : قال النبى « ص » « اياكم والشرك الاصفر . قالوا : وما الشرك الاصغر يا رسول الله ؟ قال الرياء » .

والدكتور احمد أمين فى « قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية » يقف عند لفظة « المداراة » ويقول : والمصريون يتقنونها فمن أمثالهم «ارقص للقرد فى دولته» وقد عرض أستاذنا أحمد أمين الألفــاظ الملق والنفاق قائلا : « هى كثيرة فى اللغة الشعبية مثل : رب البيت ــ سعادتك ــ عزتك ــ محسوبكم .. الخ .

وعلل هذا بقوله « وربما كان من أسباب كثرة ما يقع عليهم من ظلم الحكام والعسف بهم » .

وفي كتاب « الشعب المصرى فى أمثاله العــامية » للاستاذ ابراهيم أحمد شعلان فصل من الشعب المصرى والحكام » يستهله بقوله :

« لقد كانت العــلاقة بين المصرى وحاكمه على مدى التاريخ علاقة يتحكم فيها أسلوب الشك وعدم الثقـــة المتبادلة فلم يجد المصرى فى حاكمة الا القوة الغاشمة التي انقضت عليه لتسلبه حقه فى المعيشة الحرة والحياة

الكريمة .. وهذه القوة التى لا قبل له بهـا ولا يستطيع بوسائله المحدودة أن يواجهها ، والتاريخ يسجل كثيرا من الانتفاضات التى كانت تنتهى دائما بالفشل وازدياد سطوة الحاكم وعنفه . ان هذه الصورة طوال التاريخ دفعت بالمصرى الى تقديس حياته الخاصة فى أسرته » .

معنى هذا أن سببا من أسباب ارتباط المصرى بأسرته انها تعويض عن الحياة العامة التى يحاصرها الحاكم .

يقول الاستاذ العقاد فى كتابه « سعد زغلول » :

« المصرى علاقته بالحكومة على الاغلب الاعم هى علاقة عداوة مريبة أو مهادنة محتملة لم تبلغ أن تكون علاقة ود يحرص عليه أو ضمان يحميه الا فى الندرة التى لا يقاس عليها . ومن ثم كان محافظا ومتحفزا للتغيير فى وقت واحد ، أو كان محافظا فى مسلكه الذى يدور على أصول الاسرة وعلاقات الرحم متمردا فى مسلكه من ناحية الشئون السياسية والمسائل الحكومية » .

وهنا يتداعى الى الذهن ما حكاه الجبرتى عن حوادث سنة تسع وتسعين ومائة وألف عن فتنة عربان البحيرة واستعانتهم بمراد بك الذى ركب معهم فلما رشاه خصومهم انقلب عليهم وأوسعهم قتلا وتنكيلا ونهبا .

ويجىء المثل الشعبى « السلطان اللى ما يعرفش السلطان » ترجمه ممرورة لهذه التجربة وأمثالها .

والمصرى يعرف انه مسلوب منهوب بالقوة الغاشمة التى كان المفروض فيها أنها قامت لحمايته فيقول « حاميها حراميها » .

وينفس عن نفسه كعادته فيقول ساخرا « اذا كانت الشطارة بالقوة كان الثور ياخذ باشا » .

لقد أعطى الجبرتى صورة بغيضة للعساكر وما يفعلونه مع العامة فقال فى حوادث سنة سبع عشرة ومائتين وألف « تسلط العسكر على خطف النـــاس وسلبهم وقتلهم وخصوصا فى أواخر هذه السنة حتى امتنعت الناس عن المرور فى جهات سكنهم الا أن يـكونوا فى عزة أو منعة وقوة » .

وهنا يعلق المؤلف « والمصرى يكره الحاكم فى كل صوره حتى أدناها » .

والشعب المصرى فى قرارة نفسه يتألم من سـلوك المداراة التى تنقلب نفاقا بغيضا فيدافع عن نفســـه بالاضرار يتفاداها ويطلق المثل :

« اسجد لقرد السوء فى زمانه ، وداريه ما دام فى سلطانه » .

أو :

« اذا دخلت فى بلد تعبد العجل حش وارمى له »

ويترجم الموال الشعبى هذه الحـال النفسية فيقول الموال :

حكمت على السبع راح للكلب عند الـكوم
لما صحا الكلب قال له السبع صح النوم
أنا اسألك يارب يا مجرى بحـور العـوم
ترجـــع السبع يخطـــــر زى عاداته
وترجع الكلب ينبش فى تراب الــكوم

كم حكمت الاقدار على الشعب المصرى ولكن الله كانت رحمته تتدخل فى اللحظة المناسبة .

وترجع السبع يخطر زى عاداته .

ان الشعب المصرى ، بعد الله ، هو الباقى . انه يعرف

هذا جيدا ويلقي فيه العزاء .

ويأخذ النفاق صورا شتى فيتفنن عباد الوظيفة من المصريين وطلاب المصالح فى عملقـــة القزمية بصور شتى .

ويكذب المنافق ويكذب حتى يصدق نفسه بل يرفع عقيرته بالغناء بعد أن يلحن النفاق والكذب .

ويخلع المنافقون الالقاب الفضفاضة على من بيدهم السلطة من كل لون وحجم . ومن يقرأ كتاب « لغة الادارة العامة فى مصر فى القرن التاسع عشر » ، يجد العهد العثمانى قد أسهم اسهاما بالغا فى عملية الالقاب الوهيبة حتى ان السلطان استهل فرمانه الصادر فى ٧ رجب سنة ١٢٨٩ ــ ١٨٢٧/٩/١٠ على الوجه التالى مخاطبا الخديوى اسماعيل وهو الذى يدين له بالولاء !!

« الدستور الاكرم والمشير الافخم المحترم ، نظام العالم ناظم الامم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب ، متمم مهام الانام بالرأى الصائب ، ممهد بنيان الدولة والاقبال ، مشيد أركان السعادة والاجلال ، مرتب مراتب الخلافة الكبرى ، مكمل ناموس السلطنة العظمى ، المحفوف ــ بصنوف عواطف الملك الاعلى ، خديوى مصر الحائز رتبة الصدارة الجليلة بالفعل ، ونيشاننا العثمانى الهمايونى المرصع ، والنيشان المجيدى من الدرجة الاولى ، وزيرى سمير المعالى اسماعيل باشا أدام الله تعــالى اجلاله وضاعف بالتأييد اقتداره واقباله » ص ٤٣٠ .

ترى ماذا يقول الخديوى اسماعيل للسلطان ؟

لقد تعثرت اللغة في الالقاب حتى غدت مشــكلة لم تستطع الوقائع المصرية أن تغفلها فكتبت فى ١٥ ربيع ١٢٩٨ هـ ــ ١٨٨١/٢/١٤ م عن « مشكلة الكتابة » .

ولكن الشعب المصرى مهما كانت اسبابه ، يحمل وزر هذه الوصمة التى تلطخ صفحته النقية الحافلة بجلائل الاعمال والانجازات . الشعب المصرى ذو الطبيعة المؤمنة العريقة فى التوحيد .

والموحد لا يشرك مع الله أحدا فالامر له وحده و « الذين يتخذون من دونه اربابا لايخلقون ذبابا ولو اجتمعوا له . وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنفذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » .

شهد الفضل بن الربيع وزير الخليفة الرشيد ، عند القاضى أبى يوسف فرد شهادته فعاتبه الخليفة ، وقال : لم رددت شهادته ؟ قال لانى سمعته يوما يقول للخليفة أنا عبدك ، فان كان صادقا فلا شهادة للعبد ، وان كان كاذبا فكذلك ، لانه اذا لم يبال فى مجلسك بالكذب فلا يبالى فى مجلسى ، فعذره الخليفة . وانما رده القاضى أبو يوسف لما فى كلام هذا الوزير من اذلال نفسه وطاعته لاجل الدنيا .

هذا حين قبل القاضى اياس بن معاوية شهادة عبد العزيز بن صهيب وحده ! وعبد العزيز محدث وثقة احمد بن حنبل ، كان عبدا مملوكا وأبواه مملوكين ، ولكن القاضى اياس اعزازا للعلم واكبارا للعلماء ، تجاوز عن رقّ عبد العزيز بن صهيب لعلمه مع أنه لا شهادة لرقيق ، وقبلها منه وحده والشهادة لاثنين اذ رأى القاضى أن فضل العلم وصدق العالم يغنى عن العدد والحرية .

***

ان النفاق كمرض نفسى واجتماعى له أبعاد كبيرة الخطر :

فجناية النفاق على الديمقراطية .
وجناية النفاق على المجتمع .
وجناية النفاق على الارادة .
انعكاسات وبيلة معوقة تستأدى المواجهة المباشرة .

عندما كثر المال فى بلاط الدولة التركية كان للسلاطين حريم فى القصور ، من النساء والغوانى ، وحريم خارجها من أنصاف الرجال المرتزقة والهتافين والمداحين وحاملى القماقم والمؤمنين على كلام أمير المؤمنين ولو كان خطأ .

الحريم الاول نساؤه يتزين له ويزين له كل شىء ابتغاء مرضاته . .

الحريم الثانى رجاله يقولون له ما ليس فيه وما لا يدعيه ! رئاء هواه أو اتقاء غضبه .

نساء ليل ورجال ليل سواء بسواء .

ويضيع الشرفاء فى المولد ولكن بعد أن تخرس الضجات وتتوارى الامعات وتختفى القماءات والقمامات ويسكن الرقص من كل نوع تسفر الحقيقة كالشمس من وراء الغمام والقتام .

ولكن الشمس قد يتأخر ظهورها ويطول الليل والمعاناة فى ليل الظلام والظلم ثقيلة مرهقة ممزقة ولكنها ككل ليل له آخر .

وفى هذه الاثناء تلجأ الشعوب الى الرمز فى الادب والتورية فى النكتة ، والقصص لانه قادر على رسم الشخصيات والنفوس من خلال أبطاله الخياليين كالمفروض وهم فى الواقع أبطال المأساة الحقيقية بأسماء رمزية .

وتتفشى هذه الظاهرة في الشعوب التى ابتليت بحكم الفرد ، أو منيت بالديمقراطية المزيفة . وهنا تتسع حلبة الرقص على الحبال وتسود البهلوانية والوصولية والانتهازية .

وحين تختفى القيم الحقيقية ، يشقى الانسان ـ يشقى حين يفقد الصحيفة الشريفة ويفتقد الكلمات الصادقة في المكان الصحيح ، لان الاوضاع مقلوبة والمقاييس مختلة، وكدابو الزفة يدفعونه من أمام ووراء فى غير حياء . « اذا لم تستح فاصنع ماشئت » . وهؤلاء يصنعون مايشاءون وما يشاء لهم سادتهم . انهم يصنعون كل شيء .. بأجر .. وأحيانا بغير أجر أيضا .

من يهن يسهل الهوان عليه

ما لجرح بميت ايلام

وأخشى أن تحق علينا هذه القولة فالثقافة عندنا اعلام ، والاعلام عندنا بخور وزور وباطل .

والباطل دولة وألقاب وشارات .

والحقوق وعود وسراب وشعارات .

والمقدسات ممرغة فى سوق البيع والشراء .

والصحف المملوكة للشعب أو المفروض .. مانشيتات شاعرة .

والخطط خطب مرسلة .

والميزانيات بنود مجهلة .

والمشروعات هبات سنيه .

والاستثمارات أسرار خفية .

كل شيء ضاع .. ضاعت الكلمات .. ضاعت الايام .. ضاعت الارض .. ضاع التاريخ ..

الهرم نفسه كاد يضيع .

ضاع كل شيء بأى شيء .

ويشقى انسان العصر حتى يكاد يحسد انسان العصر التركى الذى ننعته بأبغض الصفات .

ان الانسان المصرى لشدة حبه لارضه ، يشقى حين تضيع الارض .

ولكنه يشقى أكثر حين تضيع قيمه التى عاش عليها لانه يعلم علم اليقين انه سيسترد الارض .

يعلم انه الباقى وكل غزاته زائلون .

ولكن حين تضيع القيم والمعانى والمقدسات ، تغدو حياته بلا أشواق .. بلا مذاق . بلا نفيس يحرص عليه .. بلا ، رفيع ، يعتز به ويعتد .

ترى لماذا يكون بيننا ذوات مصونة لا تمس ولو مست هى كل مصون ؟ لماذا ؟

كل انسان يخطىء ويصيب والكمال لله وحده « والعصمة لا تكون الا لنبى » كما يقول الشاعر الطيب الذى يبدو انه لا يدرى أن الانبياء أيضا وجه اليهم التوجيه فى بعض المواضع . ولو كانوا معصومين ما احتاجوا الى الكتب السماوية التى أنزلها الله عليهم لتحكم دعوتهم وترشد بها رسالاتهم .

لابد أن يخضع كل انسان للمساءلة والنقد فالانسان بطبيعته يطغى أن رآه استغنى كما وصفه القرآن الكريم . ان اتقان العمل الواحد امارة كفاية وفضل فلماذا نصر

على ان كل مدير أو وزير أو أى رئيس عمل ، هو الاول والآخر والظاهر والباطن سبحانه أو سبحان الله واستغفر الله الذى لا يوصف بالكمال سواه .

ان الذى يعرف كل شيء لا يتقن شيئا .

والذكي يعرف هذا ويعرف معه كذب قائله وسامعه .

والغبى وحده هو الذى ينخدع عن نفسه . وقد علمنا التاريخ أن الاغبياء يسقطون من حالق متأثرين بغرورهم وقصائد المنافقين .

لقد ولى فاروق عرش مصر صبيا نقيا أبيض الصفحة وأحببناه . وكان فى وسعنا أن نصنع منه شيئا كبيرا ومن أنفسنا معه ، ولكننا لم نلبث أن خلعنا عليه الالقاب بالجملة ولم يكن وهو سليل الملوك ، فى حاجة اليها ولكنها مصيبتنا مع كل من يتولى أمرا .

ملأنا اذن فاروق بالاولويات فهو العامل الاول وهو المعلم الاول وهو الفنان الاول ، وهو العالم الاول ، وهو الملك الصالح ، وأخيرا زعم زاعم منا انه يمت الى النبى عليه السلام فكانت القاضية .

فى ذلك الوقت وحين الزعم الكبير ، كان فاررق قد انحرف فعلا ، وكثرت غزواته الليلية والنهارية ، ولكنه وجدنا نقول هذا فأرسل ذقنه وأمسك بالسبحة من باب الضحك على الذقون .

قلنا له ما لا يدعيه ! ولما ذهب ألصقنا به وبأسرته ما لم يأته .. فعل هذا كل خسيس ما بين يوم وليلة .

نظمنا الشعر عقودا وفبركنا الاغانى لفاروق وغير فاروق كاذبة رخيصة خادعة مخدوعة .

ان الذين رأوا منا الغرب ، لمسوا الفرق بين ذاتية الانسان عندهم وعندنا .

هناك لا يسمع سامع تسبيحا ولا نهلبلا ولا تهويلا .. ان الاتقان والصواب هو القاعدة وما عداه شاذ .. فمن يقم بواجبه فى أى موقع يستمر ، فيه فى هدوء منه ومن حوله . أما من يقصر فانه يحاسب ويسمع أصواتا من كل جانب تقول له قف : من أنت ؟

فى بلاد الديمقراطية الحقة ، الانسان هو الانسان له حرمته وله احترامه كبيرا أو صغيرا غنيا أو فقيرا .. حاكما أو محكوما . فلا يمسخ انسان نفسه بمدح آخر ، ولا يتصاغر ليمجد آخر ..

ومن هنا كنا ندخل أى بلد ونقيم وقتا يطول أو يقصر فلا نعرف أسماء الحكام والكبراء ولا نرى صورهم ، ومع هذا نشيد بهم شعوبا عرفت قدر نفسها واحترمت انسانيتها .

هذا هو سر تقدمهم .. معرفة الحدود والتزامها .. معرفة وجوه الكلام ومتى يتكلم القائل ومتى يعف ومتى يصمت عن كبرياء ..

احساس بالمسئولية ينسحب على الكبير والصغير .
تقديس للحق والواجب .

حساب عن العمل لا يفلت منه كبير أو صغير يعصم من الزلل ويعمل له كل امرىء حسابا .

لان كل انسان بلا استثناء يحاسب ، وتضعه الصحافة الحقيقية أمام الرأى العام ، لا ترتكب الكبائر ولا تقترن الخطايا فى غفلة الزمان أو الانسان ..

مصر والتحدى الحضارى

لقد تكلمنا عن التراث والمعاصرة وتمزق الحضارات القديمة بينهما وأعنى بالدرجة الاولى الانسان المصرى لا سيما وأن الاشهر الاخيرة تقترن بحديث يتردد عن « التحدى الحضارى » المزمع بين مصر واسرائيل . وكم يظلم مصر من يعقد هذه المقارنة وان توافر حسن النية . ان المقارنة الحقيقية بين مصر والغرب الذى قامت اسرائيل به . وتعيش عليه فى السلم والحرب وبغيره لا تكون .

ان مصر أمة واسرائيل دولة وكم بين الامة والدولة من فروق ومقومات وخصائص .

اسرائيل دولة عمرها ثلاثون سنة ومصر أمة قبل التاريخ بألوف السنين فآثار مصر المشهودة والمعروضة فى قاعة العصر الحجرى بالمتحف ، تزخر بأدوات الزينة مما يشهد بتفوق حضارى ورفه حضارى يرتفع على مرحلة الضرورة . معنى هذا ان مصر بلغت مستوى الاناقة الحضارية منذ عشرين ألف سنة . ومعنى هذا أيضا تحضير حضارى وسعى حضارى قبل هذا بآلاف السنين فقاعة العصر الحجرى بالمتحف تقول أن عمر مصر الحضارى

المعروف الى الآن ثلاثون الف سنة لا سبعة آلاف كالشائع بيننا • أو قل أن السبعة آلاف هى التاريخ المكتوب فقط وقد تظهر الكشوف فى المستقبل امتدادات أقدم فى الزمن وأبعادا أطول تؤكد أن النفس المصرية من يومها لم تكن ركيكة تتوسل بالبدائيات بل رقيقة تنشد الزينة وتتحلى وتتعطر •

نفتح الآن كتاب « الفكر اليهودى » الذى يعتزون به والذى ألفه دكتور هرش حاخام انجلترا ، ونقله الى العربية الدكتور الفريد يلوز وطبع فى مصر . فى هذا الكتاب الذى جمعوا فيه كل ما يروقهم يقول ان تاريخ اليهود اربعة آلاف سنة « ولم يقل أمة اليهود » . على ان هذا الرقم ضعف الحقيقة .

واليهود فى كتبهم ومنها « الفكر اليهودى » ومنها تراث اسرائيل الذى أخرجته اكسفورد فى سلسلة التراث ومنها رسائل داجوبرت د . ريونر الذى ترجمته ورددت على مزاعمه ، كتبهم جميعا تركز على التوراة على انها مفخرتهم الكبرى . وهذه التوراة يصفونها ، هم أنفسهم ، بانها « صرح أدبى بحت » وضع خطين تحت كلمة « بحت » . بينما تراث مصر منذ أقدم عصورها عمارة ونحت ونقش وأدب وموسيقى وهندسة وطب وكيمياء يشهد بها هذا الهرم والتحنيط والمعابد والمسلات وتسابيح أخناتون الذى سجل « جيمس هنرى برستد » محاكاة المزامير اليهودية لها فى كتابه « فجر الضمير » كما سجل نقل سفر الامثال عن مصر وسجل سبق مصر ، فى كتابة الوصايا ، اليهود بالف ومائتى سنة .

واصالة مصر فى الفنون والعلوم بلغت حد « الاسلوب الخاص المميز » والاسلوب قمة الشخصية • هذا الاسلوب

المصرى يدرس فى جامعات الغرب المتحضر اليوم .
تراث مصر زراعة كانت صناعة عصرها وكشفه الجديد. فمنذ بداية العصر الحجرى كان اهالى مرمدة بنى سلامة والفيوم أول زراع فى التاريخ .
وتعلمت مصر من الزراعة الرسم والتلوين .
وتعلمت مصر من الزراعة الحرية لان الزراعة معناها الفائض الذى يحرر الانسان من معدته ليتفرغ لاعمال أخرى .
وتحررت مصر من الخوف والحاجه واكتسبت الرخاء النفسى .
وعلمت الزراعة ، مصر ، الفضيلة فبدون الوفرة يتهدد الجوع الاخلاق .
واعطتها الوفرة نعيم الاحساس وطمأنينة الرضا فشكرت .
واعطتها الوقت فتأملت واهتدت الى المنعم خطوة خطوة . ووصل بها النضج الى التجريد فتصورت الاله فى روعة فائقة حتى قبل اخناتون مما سجلته اللوحة المأثورة عن عصر امنحتب الثالث والموجودة الآن فى متحف لندن .
وعلمت الزراعة مصر ، صناعات شتى . ومتحف العلوم فى لندن يشير الى أن جميع الصناعات تبدأ بقدماء المصريين : النسيج ـ الفخار ـ الزجاج ـ الورق (البردى) الذى اشتق من اسمه اسم الورق فى اللغات الاوربية .
ويشهد بسبق مصر « كابارت » و « توينبى » و « ديورانت » وغيرهم .
لقد الف الفريد لوكاس كتابا عن « المواد والصناعات

عند قدماء المصريين » ترجم فى أكثر من ٨٠٠ صفحة كبيرة .

قد يتكثر اليهود بأسماء لامعـــــة مثل « اينشتين » و « فرويد » .. الخ ولكن هذه الاسماء تحمل جنسيات موطنها الاصلى وفخرها يحسب له اولا بينما الحضارة المصرية لا تعرف انتماء لغير مصر .

وقد عاشت مصر على التاريخ أمة بينما تشتت اليهود فى الامم حتى القرن العشرين . والحضارة تساوى : الانسان + المكن + المقومات الخاصة + الحضور الطويل المتميز والواضح الاثر .

وحين تفرق اليهود فى الامم تقوقعوا فى « الجيتو » وكانوا يؤثرون من الاعمال ما يتصل بالتجـارة والربح والبورصة ، فلم تعرفهم الزراعة والصناعة والانتـاج والاضافة ، انهم مقيمون على أهبة الرحيل . وهنـا يطبقون نظرية « ما خف حمله وغلا ثمنه » .. بينما مصر انجازاتهـا معـابد ومساجد مستقرة فى الارض استقرار الآمن السـعيد . وبعض هذا حلم المصريين القدماء بالخلود وعملهم الموصول من أجله ان جنة المصريين مصر خالدة . لقد نقلوا صور العيش فى واديهم على جدران معابدهم وقالوا بالبعث والحياة الاخرى والجنة والنار والثواب والعقاب والميزان والحساب قبل الاديان. ومن شرف هذا المكان ان جاءت الاديان السماوية فعززت ما وصل اليه بالفطرة السليمة وبالدفع الحضارى معا .

واليهود فى « التيه » لم تتصل لهم حضارة بينما تميزت حضارة مصر « باستمرارية » . قد يتغير الطراز ولكن الروح واحدة . ان اساتذة العمـارة الغربيين يعتبرون

مسجد السلطان حسن هرما اســـلاميا . وتستطيع أن تتبين وحدة الروح فى شموخ البناء وأسـلوب المدخل الضيق الذى ينفتح على النور فى صحن المســجد كبهو الاعمدة فى المعبد . يضاف الى هذا مقابلة الميضة فى المسجد ببحيرة الاغتسال فى المعبد ، والمحراب لقـدس الاقداس ، أن القبة الاسلامية هرم ترفق الفنان المصرى المسلم فى بنائه من سماحة الدين الجديد فاســـتدار الخط فى يده بعد صلابة وثبات .

« الاستمرارية » فى حضارة مصر تترجمها الصلة بين المسلة والمئذنة وبرج القاهرة . ان كتاب تراث اسرائيل لا يخرج بهذا التراث عن التأثير الادبى والفكرى كتأثير اليهود فى المسيحية والاسلام وأوروبا ولكنه لم يذكر لهـذا التراث دورا محددا فى علم أو فن .

وكم عانت المسيحية ثم الاسلام من « الاسرائيليات » بينما دور مصر فى المسيحية ثم الاســلام دور جـامع وحاسم .

ان اليهود يعترفون فى كتاب الفكر اليهودى بانهم كانوا هدفا للاضطهاد من سائر الشعوب فلم ينعموا بالتســامح الدينى الا فى الاندلس فى ظل الحضارة الاســلامية . وهذه شهادة للاسلام ولمصر معا . فان الحضارة الاسلامية قامت بالدرجة الاولى على أكتاف مصر وفارس من دول الحضارة القديمة التى دخلت فى الاسلام . لقد بدات هذه الحضارة صفحتها بترجمة علوم مدرسة الاسكندرية وقام بالترجمة اليســـاطرة واليعاقبة الذين كانت مصر مرباهم العلمى .

وكم عمرت خزائن بغـــداد بنفائس الاســـكندرية مما نقلتها عنهم أوربا عن طريق الاندلس أو ابان الحروب

الصليبية مما يشكل ركيزة الحضارة الاوربية الحديثة .

كانت مصر قاعدة الاسـلام الكبرى أمدته بالبيئة الجديدة القوية القـادرة على البناء والانشاء والخلق بسابقتها فى صناعة الحضارة . امدته بالمال ، والرجال ، وشخصية الحضور ، والوقفة الحـاسمة فى السلم والحرب .

وكما مصرت مصر المسيحية فصيرتها فيها دون غيرها « قبطية » حملت مصر رسـالة الاسلام فجمعت الحديث ، وفسرت القرآن ، ورتلت الآذان ، وحفظت العربية فى المحنة ، وكتبت قاموسها الاكبر « لسان العرب » من عشرين جزءا ، وهى التى لم تتكلم العربية الا بعد القرن الثالث الهجرى .

ان الذكى ينحو فى تقييم منافسه الى وضـعه فى حجمه الحقيقى بدون تهوين أو تهويل . والحجم الحقيقى لاسرائيل على الرغم من سبقها اليوم فى حضارة الاله ، لا يقارن بحجم مصر مكانا أو مكانة لا يقارن بالقاهرة أو الاسكندرية منفردتين .

لا تقارن اسرائيل بمصر ، القـادرة اذا تخففت من لمعوقات المادية والنفسية ، على الانطـلاق والخلق التفوق . مسار تاريخها يشهد بهذا . وآخر تحدياتها قوف جيشها فى عصر محمد على على ابواب الآستانة تتى أزعج الطرق ، أوربا فتكاثرت عليه فى موقعـة نافارين حماية لنفسها قبل السلطان .

فعلت مصر هذا كله ، قديمـا وحديثا ، بطاقاتهـا خاصة بينما اسرائيل لا تقف على قدميها بل ترتكز الى ريكا كى لا تسقط وترتكس على الغرب حتى لا تموت .

ان مصر قادرة على التحدى .. قدرة يحسب لها الف حساب حتى فى محنتها . لم تعرف مصر حائط المبكى بل كانت تواجه المحنة بأسلوبها الحضارى . تترك للقانون معاقبة الجانى ، وتترك للزمن من ينجو من العقاب فيتآكل حين تستدير هى تعيد البناء .. بناء المدن بالعلم ، وبناء الانسان بالدين . لان البناء والانشاء والعلم والدين والفن قيمها الرفيعة التى عاشت عليها منذ القدم .

يجب أن يلقن هذا الانسان المصرى والشباب المصرى حتى يعرف نفسه .

نشر المصرى الدكتور رشاد منير شكرى فى كندا مقالا بالفرنسية بعنوان « يجب احياء الفكر الفلسفى فى مصر القديمة .

فى مجال الرد على حملة ضارية يشنها اليهود فى أمريكا وكندا تستهدف انتحال كل انجاز حضارى لشعوب الحضارات القديمة وخاصة مصر فى عملية تأثير مرسوم ، على الرأى العام هناك ...

وهنا يصبح توضيح الحقيقة وابرازها ، فرضا ..

أن دراسة علم الاديان المقارن ، خير مقارنة بين مصر واليهود فى : الانسان ، والمكان ، والزمان أى عمر الحضارة التى يعتد ويعتز بها كلاهما على تفاوت فى القدر والمقدار .

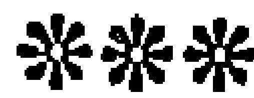
التراث اليهودى الذى يدل به اليهود على أوربا وامريكا عمره الف سنة ممتدة ما بين ١٢٠٠ ق . م ٢٠٠ ق . م . وهذا التراث يتمثل فى العهد القديم وهو

يضم الوصايا العشر والامثـال ومزامير داود والقصص ونشيد الانشاد وغير هذا .

والمعروف من تراث مصر ، ثلاثون الف سنة كما أشرت وقد تكشف الكشوف فى المستقبل عن ابعاد أخرى لتراث مصر .

على ان تراث اليهـود الحديث نسبيا ، أى الالف عام ، يستمد من مصر كثيرا ، ويقتبس من مصر كثيرا .. وموسى ولد وعاش وتعلم فى مصر . ويعده كثر من علمائهم ، مصريا وفى مقدمتهم « فرويد » .

اما ما أخذه اليهود من مصر فقد سجله لنا ، « ارمان » الذى قدم فى ١٢ يونية ١٩٢٤ الى المجمع العلمى البروسى بحثه الكبير « مصدر مصرى لأمثال سليمان » كما نشر السـير وليزبدج ، قبله ، سنة ١٩٢٣ « تعـاليم أمين ـ ام ـ أوبه » الحكيم المصرى الذى عاش قبل الميلاد بألف سنة أى وقت كتابه العهد القديم . هذا عطاء « الانسان » فى مصر .



أما المكان فقد كان منشأ اليهود فى الصحراء فهم أهـل بداوة وغارة حتى معبودهم القديم « يهوه » كان كما يقول الدكتور فؤاد حسنين فى كتابه « التوراة » ، متطبعا بطباع الصحراء وسكانها الـذين يعيش كثير منهم على السلب والنهب والسطو على الاقاليم المجـاورة . كانوا يقرنون به الظواهر الطبيعية من رعد وبرق ومطر وزلازل وبراكين كما وصفوه بأبعض الصفات مثل قولهم « يبس العشب ذبل الزهر لأن نفخة يهوه هبت عليه » و « اذا

اكتسح طاعون البلاد فما ذلك الطاعون الا « يهوه » سائرا فى الارض شاهرا سيفه قاتلا كل من يجده » .. مؤذ .

فصورة « يهوه » اله اليهود الصحراوى صورة بغيضة مخيفة مرعبة .. حتى طقوسهم له ، يصفها الدكتور فؤاد حسنين ، بأنها كانت « حقيرة مزرية لا تتفق واخلاق امة راقية » . وقد قدم الدليل مقززا منفرا .

كان هذا وضع اليهود ، فى بداوتهم ، سنة ١٤٠٠ ق . م . وحين كانوا يهيمون فى الصحراء أو يسطون على الحضر ، كانت الحضارة المصرية فى أوج ازدهارها . كانت مصر فى هذا التاريخ قد فرغت ، من زمان ، من بناء الشوامخ الثلاثة أهرام الجيزة وما يتصـــــل بها من علوم الهندسة والرياضيات والفلك والجيولوجيا والادارة .. وفنون الكتابة والنقش والرسم والتلوين .. وعقيــدة الخلود والبعث والثواب والعقاب والجنة والنار ...

كانت مصر قــد كتبت متون الاهرام ، ووصلت الى التوحيد وعرفت الله الواحد الاحد ، وكتبت المسرحية والقصة ونظمت الشعر ، وعزفت الموسيقى ، وغنت وترنمت وغزلت ونسجت وشكلت الاناء فيه الحس الصافى للشكل ، بل شـــكلت الزمن نفسه يوم قسمته شهورا وأياما واهدت الى الدنيا التقويم الشمسى سنة ٤٢٤١ ق . م .

كانت مصر قد عرفت « الضمير » ومعــانى الخير والعدل ، وفاقت مقاييسها الخلقية ، الوصايا العشر قبل أن تكتب الوصايا العشر بألف ومائتى سنة .

كانت مصر قد ارتفعت من الرحمة الى اوج يقول فيه

المصرى عند الحساب :

أنا لم أختطف اللبن من فم الرضيع
أنا لم أتسبب فى بكاء أحد .
أنا لم اطفىء شعلة فى وقت الحاجة اليها !!
أنا لم أعترض على ارادة الله

***

اما المكان فقد عبر اليهود الصحراء ثم نهر الاردن ونزلوا فلسطين وهى وطن الكنعانيين اهلها الاصليين . وهنا ارسل حاكمها من قبل فرعون حاكم مصر رسالة يشكو اليه نزوح قبائل تسلب وتنهب تدعى « ابيرو » أو « عبيرو »[1] وهذه الرسالة كشفت عنها التنقيب فى تل العمارنة .

حتى لغتهم لم تكن العبرية ، لانهم لم يكونوا أمة ذات لغة . انهم الى اليوم خليط من الشعوب والامم والاجناس، كانت لغتهم لهجة من الآرامية أقرب ما تكون الى العربية . اما العبرية المعروفة لنا فقد كانت لغة الكنعانيين اى الفلسطينيين الاصليين .. وعنهم أخذها اليهود اى القبائل المهاجرة من الصحراء عبر الاردن ، بعد ان استقرت فى فلسطين .. ثم انتحلوها كغيرها لو جاز أن تنتحل البلاد أيضا ، وكل شىء جائز عندهم ،على أن كلمة « عبريين » تعنى البدو أو اللصوص المرتزقة كما وصفهم أعداؤهم فى كنعان ، اشارة الى طبيعتهم كرعاة متخلفين حضاريا بالنسبة لهم . كما يقول كتاب « اليهود » للدكتور جمال حمدان .

---

(١) المعنى اللغوى لكلمة عبريين المرتزقة أو اللصوص وقد اطلق عليهم هذا اللفظ حاكم فلسطين المصرى .

هذا حين كانت مصر كما وصفها القرآن وهو فوق الهوى والقومية ، وصف القرآن مصر بأنها :

« ربوة ذات قرار ومعين » .

وانها « جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة » .

وأنها « ملك وأنهار تجرى » .

وانها « أمنية المتمنى وفيها سؤل السائلين » .

***

هل عرفت نفسك أيها الانسان المصرى . أيها الشباب المصرى .

أنا لا أقول لك أيها الاصيل « أعرف عدوك » بعد أن تداخلت المعانى والصفات .. **واختلطت علينا العداوات** والصداقات .. ولكنى أقول لك اعرف نفسك .. اعرف مصرك لترفع رأسا ما انحنى الا خشية لله لا خوفا من سواه . ولا أحاج هنا بالمنافقين فهؤلاء فى رأيى كفار بالمعنى الدينى والمعنى القومى فى وقت واحد .. فالذى يؤمن بالله ، لا يشرك به أحدا والذى يحب مصر ينتمى اليها وحدها .. **عز ، بها الانتماء ، وحق لها ، الفداء .**

ويدعى « بيجن » بعد هذا بناء الاهرام !! مع أنهم بالدليل العلمى لم يكن لهم وجود تاريخى وقت بناء الاهرام ، لان اليهود وانبياءهم وكتبهم .. كل هذا واكب اواخر الدولة الوسطى الفرعونية وأوائل الدولة الحديثة خاصة ما بين ١٨٠٠ ــ ١٢٠٠ ق . م .

من اجل هذا كله استحكمت عقدة اليهود من مصر فحاولوا الترويج للحضارة الاغريقية فى عملية سرقة الكاميرا من حضارة مصر حتى لا تنشر تفاصيلها وعطاياها وينشر معها الاصول التى أخذوا منها أو الينابيع المتدفقة

التى شهدت الواردين من كل جنس ودين .

واليهود كما يتضح من تاريخهم الذى أوردته ، سلسلة من التيه والشتات فاذا استقروا فى بلد ، دل « الجيتو » عليهم فأحاطتهم الريب والشكوك يؤكدونها بأفعـالهم فيحيق بهم ويحق عليهم العذاب .

ويرتفع حائط المبكى للاسقاط .. وعندما يرقأ الدمع، يشيعون فى نفوس الامم عقدة الذنب ليتقاضوا الثمن فى صورة ما .

لم يكن اليهود ، امة ، قط حتى النصف الاول من القرن العشرين . وبالتالى لم يعطوا حضارة كحضارات مصر والصين والهند قديما أو الحضارة الاسـلامية فى القرون الوسطى . ولهذا يغالون كثيرا فى قيمة العهد القديم بعد أن حرفوه بالتبديل والتغيير .

على أن « اينشتين » الذى ولد من ابوين يهوديين شديدى العقيدة فى الدين كما قال عنهما ، نبذ الدين وهو فى صباه (لانه اقتنع من قراءاته فى الكتب العلمية الشائعة بأن قصص العهد القديم ليست صادقة) (١) .

ومع هذا « يقول داجوبرت ريونز » فى رسـائله (٢) « هناك أمر واحد فقط هو الذى يقـاوم البلى وأعنى به الكتاب .. تقول الاسـطورة : ان الكتاب الاول هو التوراة . وهو الشهادة الوحيـدة التى أسلمها الله للانسان » .

---

(١) اقرأ كتاب (آراء فلسفية فى ازمة العصر) تاليف ادرين كوخ — ترجمة محمود محمود .

(٢) كتاب « رسائل الى ولدى » تاليف داجوبرت ريونز — ترجمة د. نعمات أحمد فؤاد .

انهم لا يعترفون بأى دين ولا بأى شىء حين يشترط
الاسلام الايمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وقد آمنت مصر بالمسيحية .

واعتنقت مصر الاسلام .

ووقفت وراءهما فى السلم والحرب .

كما لم يفعل أحد لان حضارتها دينية قبل الاديان .

وستظل مصر حمى للاديان والقيم .

والانسان الى آخر الزمان .

ومن شرفنا أننا انسانيون .

واننا مؤمنون .

واننا مصريون .

وأن يعرف هذا الشباب المصرى .

هل للمشـــكلة حلّ ؟

والآن بعد طرح المشكلة مشكلة الانسان المصرى بعامة والشباب المصرى بخاصة فى عملية مواجهـة حقيقية ومباشرة تستقصى الجذور غاية ما يستطيع الصدق فى القلب المصرى على ان الكلمة الاخيرة لم تقل بعد وهذا شأنها فى أى اجتهاد انسانى أى ان المشكلة التى فجرها هذا البحث تقبل المزيد بل أتمنى على الله أن يأخذ كل مختص بعدا من الابعاد ويمتد به عمقا وطولا حتى تتجمع لدينا خبرات شتى قد تعين على الحل الجامع أو حتى ترسم طريقه . ليست مشكلة سهلة انهـــا مستفحلة متشعبة ومزمنة أيضا .

أما من ناحيتى وقد كتبت ما كتبت عن معايشـــة لهـا واحساس بهـــا مؤرق شاغل ، فانى أطرح الحل فى خطوط :

اطلاق حرية الصحافة :

لتحقيق حرية التعبير وحرية الآراء وكشف الفساد فى حينه ومحاسبة الجانى كائنا من كان ، وأيا كان ، ومهما كان .

تغيير نظام التعليم تغييرا جذريا :

يعتمد على التفكير والتجربة والاختيار والاستعداد الطبيعي حتى يستطيع كل انسان أن يعطى عطاءه كاملا فكل ميسر لما خلق له . أما التلقين التعميمى فانه تبديد للوقت والمال وللانسان أيضا حيث يجرح غير المستعد للأسلوب النظرى السائد الآن ويضيع مال الدولة الذى الطبيعية ...

تنفقه عليه في غير مكانه وقد يبيغ فى الدراسة العملية او الفنية لو اكتشفت قدراته ووضعت فى بيئتها

هكذا ، ويضيع فيما يضيع ، وقت الطالب ذوى الاستعداد : اذ عليه أن ينتظر الآخرين ويخضع لتفاوت المستوى .

ايجاد عمل حقيقى لكل انسان باستغلال الطاقات الكامنة للبلد وفيها الكثير البكر .

تعمير سينا بتوفير حاجات الانسان فيها أولا حتى يطمئن الى النزوح اليها .

ترشيد الفراغ : بملئه هوايات وقدرات ورحلات داخلية وخارجية وأعمال فنية ورياضات ومتع محببة تبنى الجسم والعقل معا كما أشرت .

ترشيد معنى التدريس ومعنى الوطن ومعنى الوطنية .

ترشيد دور الحاكم والمحكوم .

علمية القرار وجماعة القرار فلا ينفرد به شخص كائنا من كان فالرسول خير الخلق جميعا امر بالشورى فى اكثر من موضع .

احترام التخصص . ليس وقتا للفهلوة والاحتكارات العائلية .

المساواة الشاملة بسيادة القانون حقيقة لا شعارا .

الغاء القوانين الاستثنائية وفى مقدمتها قانون الطوارىء

قانون العيب أى محاسبة ذات تريد عنوة أن تكون فوق المساءلة والحساب لترتع .

اصلاح الريف . واحترام آدميته وتحقيق ولو الجزء الادنى منها .

رفع كفاءته للحد من النزوح الى المدينة .

والا انهارت المدينة كالريف بدلا من أن يرتفع الريف كالمدينة .

اى تحضير الريف بدلا من ترييف المدينة .

بدلا من :

الفهلوة وانتفاء العلمية .

الاخذ بالاعتبارات الآتية :

الناحية التكنولوجية .

الناحية البشرية .

بنك المعلومات .

وكلها جوانب فى تشخيص المشكلة .

العلاج لا يملكه راى واحد أو فرد واحد .

ولكن يبقى بعد هذا أو قبل هذا .

تصفية حساب الماضى حتى يطمئن الناس الى القصاص .

انه لا شيء يجدى ان لم يحدث تغيير جذرى .

حتى لا نرمم جدارا متصدعا . .

او يلتئم الجرح على نغل .

بمعنى آخر ان تصفى أولا « الحالة » اركز على هـذا تركيزا شديدا ولا اكف .

يحاكم كل مستغل أو فاسد مهما كان موقعه ليستعيد الناس ايمانهم بالقانون .

بالعدل .

بالنظام .

حتى لا يتكرر الاستغلال والفساد .

حتى يمكن محاسبة الصغير دون احساس بالقهر لان محاسبة الكبير تخلق جوا من الاقتناع وحقيقة الردع .

احترام الانسان .

المواءمة من ناحية بين علمه وكفاءته ، وبين نوع العمل الذى يسند اليه . من ناحية اخرى بعد العمل ، رفع كفاءته فيه بالتدريب العملى .

توفير الاطمئنان له بتأمينه ضد الحوادث وتأمينه قبلا ضد الاجهـاد الذى كثيرا ما يكون سـببا غير منظـور للحوادث .

والاجهاد الذى أعنيه العضوى والنفسى والمعنوى .

احترام الانسان حتى المعوق ان التعويض الحقيقى ان يشعر أنه لم يفقد دوره فى المجتمع .

وقد يقول قائل : معوقين فى حديث عن الشباب أقول نعم فان الحروب الثلاثة انما خاضها الشباب وبالتالى

وبلاتها وقعت على الشباب الذى هو دائما وقود الحروب فى أى بلد لا مصر وحدها .

لقد تكلمت عن تغيير نظام التعليم تغيرا جذريا والآن اتكلم عن :

تطوير التعليم بحيث يشمل فى جميع المراحل وفى جميع التخصصات قــــدرا مشتركا من التعريف بالبلد وجوهر شخصيته في عملية تأصيل للانسان فى أى موقع وعملية التقـــاء نفسي يربط المصرى بالمصرى يجعل من التعاون والتجاوب بينهما حرمة ترعى واحساس ضمير بل أن نظرتي فى هذه الاشارة تمتد الى علاقة الانســـــان بالاشياء هذه العلاقة حين تكون حميمة فانها ترتفـع على التحطيم والتخريب والتبديد وهنا ننجو من الهــــدر والفاقد والخردة التى تلحق عندنا ، التجـديد بسرعة مذهلة .

تنويع الثقــــافة وتخطى مرحلة « علمى وأدبى » أو ما يسمونه الثقافتين وقد تخطت أوربا هذه المرحلة التى يجب أن نتجاوزها بدورنا حتى لا نشغل بغير موضوع وحتى تكمل شخصينا بالعلم والفن معــــا لينعكس على أسلوب التصرف والسلوك بعد أن يكون قد انعكس قبلا على أسلوب التفكير .

اعرف ان المرأة عنـــدنا تعمل وتشارك وتتعلم طبعا وتشغل مكانا فى المدرسة والمعهد والجــامعة والمصنع والمتجر فوق مكانها الفــريد فى البيت اعرف هذا كله ولكنى أريد أن ينظر الى المرأة نظرة أكثر اهمية واحتراما وأريد من المرأة نفسها ان تنظر الى نفسها نظــرة اكثر

اهمية واحتراما بتوسيع وتعميق دورها على الساحتين العامة والخاصة فهى فى البيت ليست مجرد أنثى تحمل وتلد بل هى الاستاذ الاول الذى يصنع الانسان من خلال أبنائها وما تشربه نفوسهم من قيم ومفاهيم وهى التى تصنع اقتصادنا قبل أصحاب النظريات والتنظير لانها موجهة الاستهلاك والموجه ان لم يكن فاهما عالما رشيدا هدم كل شيء .

المفروض أن أطمح الى أن تكون المرأة عارفة بأصح ألوان الطعام وأكرمها للأسرة فى وعى متطور .. لقد جعلت انجلترا فى محنتها أثناء الحرب العالمية الثانية وزيرا للطعام .. ان المطبخ المصرى آفة من آفات الشخصية المصرية .. وهذا المطبخ نفسه يستطيع أن يكون أداة من أدوات الحل .

يجب أن تكف المرأة عن طلب المساواة وأن ترتفع فوقه فطلب المساواة اعتراف « بالدونيه » ولكن تحقيق الذات وحجم الانجاز هو الذى يرفع صاحبه ويكسبه الاحترام والمكان بل الترجيح والتفضيل .

يجب أن تكف المرأة نفسها عن تفضيل ابنها الولد على أخته البنت فلا تطلب من ابنتها خدمة أخيها بالشكل الذى يوحى بالتبعية ولا تطلب منها الامتثال لأوامره بل تطلب منهما معا التواد والتعاطف والتعاون والحنان المتبادل والصداقة أى المشاعر الحقيقية التى تجعل لشهادة الميلاد مدلولا ومضمونا وكيفا .

يجب أن تكف المرأة عن حصر لعب البنت فى «العروسة» صغيرة والدعاء لهـا « بالعدل » صبية كأن الزواج

والاولاد « مأمورية » مطلوبة منها . ان الزواج والاولاد مطلبان فى الحياة السوية ولـــكن الى جانب حاجات وحاجات للروح .. الى جانب متطلبات ومتطلبات للعقل .. الى جانب أساسيات أخرى للجسم نفسه .

يجب ألا تستغل خارج البيت أو تستنفذ داخله بل تعاون مع الرجل فى المجالين بنصيب محسوب وهنـا أعود الى المطالبة بتغيير جذرى فى النظرة اليهــا .، بالتعاون الراقى معها فى المجالين لتشيع الانسانيات فى الحياة ليحيا الانســان لا ليعيش فقط وكم بين من يعيش ومن يحيا .

وتفصيل هذا احترام وجودها وحقوقها فى العمــل وتقاسم الاعباء معها فى البيت ما دامت خرجت للعمل والخروج للعمل ليس تكاه أو حجة تتذرعها ولكنه ضرورة ملحـــة فى عصر ارتفعت تكاليف الحياة وتعقــدت وسائلها .

وبعض التخفيف عنها الى جانب المشاركة العملية ، تخديم الآلة لاراحتها وتوفير جهـدها ووقتها وان كان تشغيل الآلة نفسه عبء غير قليل خاصة اذا كانت الآلة مما يحرص الانسان على استعماله بحساب دقيق حين يكون الاستعمال السيىء يربك الآلة وأصحابها .

من رعاية المرأة تعميم نظام حضانة العمل حتى لا يبدد انشغالها على أبنــائها ، تركيزها فى العمـــل وتواجدها فيه . وتكون هذه الحضانات ، على تكاملهـــا رمزية التكلفة .

ومن رعاية المرأة توفير وقتها فيكون انتقالها الى العمل على حساب العمل أو تحقيق رغبتها فى مكانه .

جزء من الحل حصر المشروعات التى بدىء فيهـــا ولم تتم مما يخرب الوجدان المصرى والوصول به الى عدم الايمان بعمل أو نتيجة أو بشيء على الاطلاق جزء من الحل حصر القوانين وتصفيتها حتى يستوعبها الناس أو نخرج بهم من تيه الغدة القانونية التى أصبنا بها .

جزء من الحل السـكف عن التصريحات والدعائيــات والوعود والمظهريات لان آثارها عكسية وأحيــانا مدمرة حين تهز الثقة وتقطع الجسور بين الحاكم والمحكوم .

جزء من الحل اشراك المعنيين ، فيه اشتراك الناس فيه فهم أولا وأخيرا المقصودون به . وان لم يشعروا انه نابع منهم بلا استعلاء أو املاء فلن ينفذوه .. ولو نفذوه لن يحرصوا على اجادة الاداء التى تأتى من الحب .. من الاقتناع .

ردوا غربة الانسان المصرى انه مغترب على أرضـه اغترابا نفسيا وحضاريا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا.

انه صاحب المشكلة ويجب أن يكون صاحب الحل أى أن يكون له « حضور » مشهود .

جزء من الحل « السرعة » فيه فلم يعد لدينا وقت لكى نضيعه لقد حلت أوربا مشكلاتها فى العصور الوسطى أى ابان تخلفها على مهل حيث لا استعمار يهددها ولا قوى تفتح أفواهها لاحتوائها ولا عجلات رهيبة تشـــدها اليها وتتبعها لمسيرتها ...

بل على العكس واكب النهوض فيهـــا تطلعها الى الاستعمار فما ان وقعت عينهـــا على خيرات الشرق لسبب التجارة او الحروب الصليبية حتى انكبت عليهـا تجمع فى سعار محموم ما تستطيع فأعطى هذا بعدا غنيـا

لنهضتها أعانتها ودعمتها وصقلتها حتى صار لها بريق يخطف الابصار خاصة في القرن التاسع عشر .. أيضا في عين الشرقيين أنفسهم .

جزء من الحل المسح الشامل لمشاكلنا .

مع التنسيق بينها في التشخيص والعلاج حتى لا نعالج عضوا على حساب عضو في الجسم الواحد جزء من الحل ، استهداف المدى البعيد فيه فلا تضيق النظرة بالاقتصار على ما تحت أقدامنا لنواجه المشكلة بعد قليل كأننا محلك سر بل تعالج المشكلة في اطار شامل من حيث المكان والزمان فلا نبني لنهدم بحجة الاستكمال أو الاستدراك كما يحدث في العمارة وفي الطرق وفي نواح شتى .

جزء من الحل احترام التخصص لا المقاولات فيشتغل بالغذاء ، بناء ، ويشتغل بالوفاء تاجر ويشتغل بالعلم ادعياء . الخ .

جزء من الحل المواجهة الحقيقية للمشكلة فلا نعزو كل صغيرة وكبيرة الى الخارج وندرجها في عداد المستورد ليست مشاكلنا في شارع الشواربي .

ان مشاكلنا في صميم القرية والمدينة بل الكنيسة والمسجد بما عليها من مسئولية ترجى .

جزء من الحل بل معظمه احترام حريتنا فليست المشروعات أو المشاكل محاسيب فيحرم نقدها لان هذا المشروع أو ذاك ، طرح فلان او امتياز لعلان فاننا لم نخلص من الامتيازات الاجنبية لنرسف في اغلال الامتيازات العائلية أو المحلية .

الحل انتقال جذري في أسلوب الحل اى اسلوب

التفكير . نحن لا نستطيع أن نمضى طويلا فى حالة التهويم والتهويل والتهوين والغضب المفاجىء والنقد الجامح أو المدح المنسجم ثم تظل المشكلة كما هى نريد أن يتم اذا أردنا التغيير الى أفضل أن نتناول المشكلة بتفكير علمى موضوعى يبدأ بتحديدها فى تجريد وتحييد ثم تحليلها ثم علاجها على أساس من المعلومات الدقيقة وعلى المدى الطويل لا المسكنات وعلى أساس ثابت لا متغير بتغير الاشخاص أو النظم .

جزء من الحل حساب كافة التوقعات حتى لا يكون مكانا للتعلات او المعاذير الفجائية .

جزء من الحل احتياط البدائل حتى لا يتعثر التنفيذ فى منتصف الطريق ويعلق الى أن تشكل لجان تنعقد وتنفض بلا نتيجة هذا اذا شكلت ...

ولكن وجود البديل يتفادى الارتباك ويؤمن المسار .

جزء من الحل الالتزام بوقت محدد للانجاز تتحدد معه المسئولية بما ينبعها من حساب .

جزء من الحل تحديد نوعية الاداء وكفاءته فلا يسطح الاداء أو يعمم أو يعوم أو يجتزأ فيه بالدونية أى بأدنى ما يمكن من مجهود « تسديد خانة » و « التفويت » الخ هذه العبارات المتخاذلة ويهبط تبعا لها ، كل شيء له قيمة حقيقية .

ويتصل بهذا :

نظام دائم دائب للاشراف والمتابعة والتسجيل والتقييم والتقويم حتى يمكن التصحيح فى الوقيت المناسب له أمانا من التراكمات .

بعباره أحرى : بلدنا بحناج الى اعاده صياغة انهـا ارادة التغيير .

اعادة صياغة بعض مواد الدستور وفقا لمصالح الامه ، وحقها في السيادة ممثلا في وجـوب أحزاب حقيقية ومعارضة حقيقية . واستقلال حقيقي للقضاء . وحرية حقيقية للصحافة . أي حذف ما أقحم عليها ارضاء لأهواء فردية .

اعادة صياغة الجامعة فلا تفرض عليها اعداد أو مناهج ولا تبتلى بتلويث النفوس الشابة وغسيل العقول . قال لى أستاذ جامعي كبير ان ضعف المسوى الجامعي ليس سببه الوحيد كثرة العدد وتخلف الوسـائل وضعف الاستاذ ، ولـكنه بالدرجة الاولى اهـدار القيم . كان الاستاذ يعطى عطاءه كاملا لطلاب يقدرون له هذا العطاء . . والعطاء محبة . . هل يستطيع الاستاذ أن يحب طلابه ، وبينهم ، وليس كلهم ، الخرابات النفسية والاخلاقية أى كتاب التقارير ؟ وكيف السبيل الى تمييز الخبيث من الطيب :

غامت الرؤية وغابت الفروق .

اعادة صياغة المدرسة ومناهجها المسطحة والعقيمة . كانت مصر القديمة تسمى المدرسة « بيت الحيـاة » فى عملية ربط بين الواقع المعاش والنظرى المسطور .

هل مدرستنا الحاضرة وثيقة الصلة بالحياة خارجها ؟ أم أن جدرانها الاربعة فيها الكفاية بما وراءها من أسلوب تلقين لا تفكير ، وتركيز على « الانتباه » لا التأمل ؟

هل يخرج الطالب من المدرسة او يتخرج فى الجامعة يعرف شيئا ولا اقول ، كل شيء عن بلده وقومه وماضيه

وحاضره ومستقبله والدنيا المحيطة به ؟ هل تستهدف المناهج وصله بالحياة والتراث وطرائق التفكير ؟

اعادة صياغة المفاهيم فيحترم الاختصاص من أى نوع ودرجة فانه لا يوجد الانسان الواحد الذى يفهم فى وقت واحد الاقتصاد والزراعة والصناعة والسياحة والسياسة والفن .

اعادة صياغة اللغة اليومية ذاتها فالادب غير النفاق ، والمجاملة غير الكذب البغيض ، والرؤية الفـــردية غير الرعاية والتوجيه والعلم الراسخ .

الله وحده هو العليم .

أما العلماء ممن خلق فقد أوتوا من العلم قليلا .

اعادة صياغة دور الكنيسة والمسجد . فان الاديان من الرسوخ بحيث لم تعد بحاجة الى وعاظ ولـكن الى نماذج عالية فى فهم الدين .. ان الانسان من الدين يقف أمام نور يضىء روحه ونفسه ويكيف قيمه ومفـــاهيمه ويوجه سلوكه الى الاعماق الزاخرة بالحقيقة فى عزها الباذخ فينفذ الى جوهر الآيات فيؤمن عن صدق وتصديق .. وعندئذ لا يتطامن ولا يداجى ولا يتقاماً بعد ان عرف أن « العزة لله ولرسوله وللمؤمنين » .

تعساء أولئك الذين لا ينفذون الى المعانى الحقيقية للدين وان صلوا وصاموا .

اعادة صياغة الاعلام المشغول بالمسلسلات والتسالى والشرائط الخضراء والاغانى البلهاء ليكون اعلام الانسان المصرى :

ترابه ـ أقاليمه ـ صناعاته ـ انجازاته ـ حاجاته ـ مطالبه ـ ريفه ـ مدنه ـ مدرسته ـ جامعته ـ آلامه ـ

آماله ـ مطامحه ـ مخاوفه ـ حقوقه ـ مستقبله .

اعادة صياغة مفهوم الثقافة لنعرف قيم الدقة والصدق والموضوعية والسببية ، والباقى ، والزائل .

اعادة صياغة القاهرة : لابد من اعادة صياغة مدينتنا وعاصمتنا القاهرة .. فتخضع تصاريح ـ البناء لموافقة نقابة المهندسين وكلية الفنون الجميلة حتى لا تتناقض الطرز المعمارية ، وحتى لا تتناقض الحاجة الى كوبرى مع الحاجة الى المتحف .

يجب أن تعود الى القاهرة حديقة الازبكية ولا تمس البقية الباقية من المساحات الخضراء بالحدائق الأخرى .

يجب أن تعود الى القاهرة الاوبرا ..

يجب أن يعود الى القاهرة الهدوء بمنع الميكروفونات ونقل مسار الاتوبيسات الى خط دائرى يحيط بالعاصمة ثم تستقل الاحياء بمواصلاتها الداخلية .. فهى مهما بلغت محدودة وقاصرة على مرافق الحى .

يجب أن يعود الى القاهرة ، التنفس الطبيعى وذلك بالعناية بالريف والاقاليم ورفع الخدمات بالقرى والنجوع والمدن حتى لا يهجرها أهلها الى القاهرة التى تعانى الهجرتين :

الهجرة الداخلية اليها من المكدودين المطحونين .

والهجرة الخارجية منها للكفاءات العالية أولئك الذين يضيق طموحهم بالمعوقات النفسية والمادية فيها .

وبدون تحسين الريف لن تحل مشاكل القاهرة . وأحد الوسائل لا كلها : الميزانية المركزية فتصرف حصيلة

ضرائب كل اقليم على شئونه فلا تدفع محافظة الضرائب ، لتتمتع أخرى بها .

ان القاهرة اقل العواصم الكبيرة خضرة . للاعتداء المستمر والعداء النشيط للحدائق والاشجار واستبدال غابات الكبريت الصخرية أى العمارات الجديدة بها ، تلك العمارات التى لا يرى أصحابها والمرخصون لهم بالبناء ، الصحراء الواسعة · أن أجمل ضواحى القاهرة كانت قطعة من هذه الصحراء قبل أن تعرف البارون امبان ·

اعادة صياغة الاجازات وانصاف الاجازات فتقتصر على الاعياد الدينية حتى تنصرف تكاليفها الباهظة غير المنظورة الى ما يعود بالنفع على الناس فى معاشهم وسكناهم ومرافقهم . ومثل الاجازات فى الهدر والهذر، الاحتفالات التى تزيد المهموم هما وكمدا .

ان البيت أولى من الجامع نفسه عند الحاجة . أليس كذلك ؟

اعادة صياغة القصور الملكية الى ما كانت عليه أو بعض ما كانت عليه لا من أجل الملوك ولكن من أجل مصر أعنى أن تكون متاحف مصرية كما فعلت فرنسا بقصر فرساى والتويلرى وكما تفعل سائر الدول المتحضرة لقد اندلعت حرب أهلية فى أسبانيا ولكن القصر الملكى فى مدريد لم يمس وهو الآن متحف يدر على أسبانيا الملايين .

ينظر ولا يرى من يظن هذا الشعب غافلا عما جرى ويجرى حوله . . ان صمته طويل ولكن غضبته مروعة . وان صبره ثقيل ولكن هبته مفزعة . . .

تاريخه كله يشهد بهذا ولكن من الذي يريد أن يقرأ التاريخ ؟

بين النظرية والتطبيق

مشكلة الشباب شخصتها عن احساس عميق بها لان الشباب أبنائى فى البيت وطلابى فى الجامعة . والامل المرجى والمدخر لامتهم .

ولم اكتف بالتشخيص بل طرحت حلولا بعضها فصلته تفصيلا . ومن الحلول الجذرية

« تغيير المناهج » وهو يحتاج الى تفصيل مستفيض لم أشأ أن أبسطه فى موضعه حتى لا يطغى على النقاط الاخرى أو ينقطع به التسلسل والسياق .. ولكنه جدير بالتلبث عنده والوقوف والتغيير الذى أراه ضرورة ماسة يشمل :

- المناهج الدينية ..
- المناهج التاريخية والتربوية او ما يسمى « التربية القومية » .

فى لجنة (المناهج الدينية) بوزارة التربية والتعليم التى تضم صفوة يمثلون الوزارات المختلفة والقطاعات المختلفة الشديدة الارتباط بالتعليم فى مصر ، طرحت بحكم عضويتى ، رؤية موضوعية كانت موضعا لدرس جامع . رأيت فى حفظ القرآن الكريم ، أن نأخذ بمبدأ «الاختيار» لا التتابع . فى الاختيار نبدأ بآيات الطبيعة : الجميلة

حرفا ووصفا ٠٠ الجميلة معنى وصورة ٠ مثل (والشمس وضحاها ٠ والقمر اذا تلاها ٠ والنهار اذا جلاها ٠ والليل اذا يغشاها والسماء وما بناها والارض وما طحاها ٠٠)

ومثل (والضحى والليل اذا سجى ٠٠) ٠

وفى هذه السورة توجيه الى الدماثة أسلوبا للحياة دون وعظ أو ارشاد ٠٠ (فأما اليتيم فلا تقهر ٠ وأما السائل فلا تنهر ٠)

آيات الاخلاق :

ومن الدماثة . مراعاة شعور الناس ٠

(يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ٠)

ومن الدماثة : غض الصوت عند الحديث .. وعدم الخيلاء عند المشى ٠٠ وعدم التنابز بالالقاب (واقصد فى مشيك واغضض من صوتك) ، (ولا تمش فى الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا ٠)

ومن الدماثة . أدب الجدل (وجادلهم بالتى هى أحسن)

ومن الدماثة ، الترفع عن الاساءة بل مقابلة السيئة بالحسنة ٠

(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ٠)

(وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ٠)

اذن الخطأ جهل يصححه العلم والتبصير ٠٠ وهو أمـل للمخطىء يرده الى الصواب

آيات الرياضة : وما يفسرها مثل :

(والعاديات ضبحا فالموريات قدحا ٠ فالمغيرات صبحا ٠ فأثرن به نقعا) . وما فيها من التنويه بالخيل وركوبها . وهى رياضة وفروسية ٠ ويأتى الحديث فيقول : (الخيل معقود بنواصيها الخير) ٠ ثم قول عمر رضى الله عنه :

(علموا أولادكم السباحة قبل الكتابة فانهم قد يجـدون من يكتب لهم ولكنهم لن يجدوا من يسبح عنهم ٠)

فالقرآن الكريم يضع القاعدة والمثال .. والرسول يهدى به .. ويهدى اليه .

ثم يترك التطبيق ٠٠ والقياس ٠ انهما من شئون دنيانا التى نحن بها ، أعلم ٠

الاختيار الهادف هو الذى يغرى بالحفظ لا التتـابع ٠٠ ثم :

الكيف لا الكم ٠٠

ففى فاتحة الكتاب وحدها من الرحمة .. والكرامة ما يبنى ، الانسان .

بسم الله الرحمن الرحيم ..

له الصفات الحسنى جميعا ولكنه اختار أن يسـتهل بالرحمن الرحيم ٠٠ الرحمة التى تشـمل الحيـوان والكائنات ٠ وقصة القطة التى حبستها صـاحبتها فلا هى

اطعمتها ولا هى أطلقتها فكانت من أهل النار .. هـذه القصة واردة فى الادب الاسلامى ..

ومن الرحمة في الاسلام : التعاطف

لقد احتضن الاسلام الفقير والمسكين وعطف الوجدان الانسانى عليهما .

جعل لهما حقا فى الصدقات المفروضة . وجعل لهما حقا فى الغنيمة ،

جعل لهما حقا في المال اذا اقتسمه أربابه بمحضر منهما .. جعل لهما كفارة اليمين .

جعل لهما فدية الافطار فى نهار رمضان .. جعل لهمـا كفارة اعتداء المحرم على الصيد هذا غير الزكاة .

كل هذا فى هدوء ولطف مدخل الى نفوس الاغنيـــاء والفقراء على السواء . وهنا يبطل عمل التيارات العنيفـة وأثرها .

الاسلام جوهر لا شكل :

انه أكثر الاديان تنويها بكرامة الانسان واحتراما لارادته وحريته فى التفكير والعمل . « وهديناه النجدين » ... ويجىء الحديث فيقول الرسول عليه السلام لمن استفتاه مرة بعد مرة : (استفت قلبك وان أفتوك وأفتوك وأفتوك) .. اعلاء للارادة والضمير . انه دين العزة والكرامة . (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) . حتى كلمة (عبد) فيه (أى فى الدين) ، قمة الحرية .. لان عبد الله ينتفى معها أن يكون عبد لغيره ممن خلق من عبيده الآخرين .

فى العبادات التنويه والتركيز على جوهر الدين :

التقوى الحقيقية   عطاء الوجه بشرا

وعطاء اللسان لفظا عذبا

وعطاء الاذن حسن استماع وهو لون من الكرم .. انه استقبال رأى .. وعطاء اليد فى غير من أو أذى ...

وعطاء الضمير عدلا مع الخصوم ا ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا .. اعدلوا هو أقرب للتقوى .)

الصلاة فى الاسلام ، صلة بين العبد وربه ..

والوضوء وضاءة نفس قبل أن يكون غسل الوجه واليدين . رأى عمر رضى الله عنه ، رجلا يطأطىء رأسه فى الصلاة فعلاه بالدرة قائلا : « ارفع رأسك ان التقوى فى الصدر » ..

سماحة الاسلام وعالميته :

انه الدين الذى انفرد بالاعتراف بالاديان الاخرى .

ليس فى الاسلام عصبية أو نعرة جنسية . وصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، منهم :

بلال الحبشى ـ أبو رافع القبطى ـ وسلمان الفارسى .

ومصر فى الاسلام وفى أقوال الرسول والصحابة ، كنانة الله فى أرضه وهنا مدخل فى الوحدة الوطنية فى لباقة ودماثة تستل التعصب .

المسيحية من بيت لحم بفلسطين ..

والاسلام من الجزيرة العربية .

الدين صلة بين المرء وربه ، لا جنسية .

ليس المسيحيون من اخوة الوطن . بالمسـيحية . فلسطينيين .

وليس المسلمون فى مصر ، بالاسلام عربا .

ولكننا جميعا مصريون آمن بعض بالمسيحية .. واعتنق الآخرون ، الاسلام .

وهذه ميزة ومفخرة للاسلام أن يعتنقه أهل البلاد الاخرى، والشعوب صاحبة الحضارة كمصر وفارس دليل عمقـه وسموه وآسره وملاءمته روح الانسان .

وهى ميزة للعرب أنفسهم أن يكون الدين الذى نزل على أرضهم ، دينا عالميا والا لو كان المسلمون فى بلاد الارض عربا استوطنوا هذه البلاد ، لأصبح الاسلام دينا محليا خاصا .. وهذا يخالف ما أراده الاسلام .

(ان الدين عند الله الاسلام) وفى الحديث (بعثت الى الناس كافة) .

ولم يخص قوما بعينهم بل مضى أبعد من هذا بقـوله : (ليس لعربى فضل على أعجمى الا بالتقـوى .) .. فى تفسير للآية الكريمة (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) .

يكفى أن يربط بيننا وبين العرب :

دين .. ولغـة .. وآمال .. وآلام .. وجوار .. والتقاءات تاريخية على مر الزمان .

وحتى لا تنتكس التربية الدينية التى ننشـدها فى

المدرسة ، اقترح ، امتدادا لها فى الحيـــــاة ، أى خارج المدرسة ، أن :

يكون المسجد جامعا وجامعة :

وذلك برفع مستوى الوعاظ باختيار المستويات الثقافية العالية . واعظ المسجد يجب أن تكـــون له قدرات الرائد حتى يحبب المسجد الى النفوس والعقـــول ٠٠ من مختلف المستويات ٠٠ والاعمار ٠

ترشيد وسائل الاعلام خاصة السمعية والبصرية خاصة التليفزيون بما له من استهواء وتأثير .

نحن لا نمنع المتعة والترفيه ولكن على أن يتحقق هذا فى غير اسفاف فيعنى العرض بـ :

● ألوان الفنون الجميلة

● الافلام العصرية الغنية المضمون ٠٠

● حضارات الشعوب ترديدا للاية : (فامشـــــوا فى مناكبها) ٠٠

● عجائب المخلوقات فى البر والبحر :

عالم البحار ـ عالم الحيوان ـ عالم النمل ـ عالم النحل ـ عالم الافلاك .

● روائع الغناء لا تفاهات ملحنة ٠٠

● الافلام التاريخية ..

وأخيرا :

الحجاب : ترسيخ المفهوم الواسع الافق للدين فى شأن ،

الحجاب .. أباح الاسلام الوجه والكفين وهنا تتحدد المسئولية فقد يخفى الحجب الكامل سيئات لا تعيش فى النور .

انى أخشى أن يكون وراء التزمت وكثرة التحريم والتحليل والتقييد ، يد خفية تكيد للاسلام ، بالتنفير منه .

ان المرأة ليست جسما مجردا يشغلنا التفكير فيه فنحجبه حجبا كاملا أو جزئيا وفقا لحجم نظرتنا الى « الاثارة » فيه !!

ان المرأة عقل وضمير فقد ناط بها الاسلام مسئولية دينية ودنيوية لا ينهض بها انسان مكبل أو تام الاخفاء .

أعطاها الاسلام حق المبايعة للرسول عليه السلام والمبايعة فرع من فروع استقلال النساء فى المسئولية والرأى والاختيار السياسى .

حدث هذا فى القرن السابع الميلادى ، حين تكافح المرأة فى العصر الحديث للحصول على حق الانتخاب فى الشرق والغرب . وعد حصولها عليه فى البلاد التى أقرته تقدما ورقيا .

منح الاسلام ، المرأة ، من الحقوق ما لم تسلم ، لها به ، أوربا . والى اليوم .

منحها حق الاحتفاظ باسمها بعد الزواج وجعل موافقتها . شرطا فى صحة هذا الزواج . وفى استطاعتها التصرف فى مالها دون ولاية من أبيها أو أخيها أو زوجها.

ومنح الاسلام ، المرأة ، حق المجادلة ، الحسنة بالطبع أى ابداء الرأى والرفض أو القبول (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) .

وفى التاريخ الاسلامى اقترنت الاحكام والروايات بالسيدة عائشة أم المؤمنين ، واقترنت الرعاية والحماية والبذل والتشجيع بالسيدة خديجة رضى الله عنها . واقترن الادب والشعر والنقد بالسيدة سكينة صاحبة المجالس الادبية الذواقة البصيرة ، واقترن العلم بالسيدة نفيسة رضى الله عنها التى كان الامام الشافعي أحد الائمة الاربعة أصحاب المذاهب يفخر بتلقيه العلم عنها .

وقد ذكر الحافظ بن عساكر أن من شيوخه بضع وثمانين امرأة .. كما ذكر الخطيب البغدادى فى الجزء الثالث عشر من تاريخ بغداد ، عددا كبيرا من النساء العالمات وتحدث عن مجالسهن العلمية .

وذكر الحافظ الذهبى فى كتابه (ميزان الاعتدال) (1) « كثيرات من اللواتى درسن الحديث . بل ولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، الشفاء بنت عبدالله المخزومية قضاء الحسبة . وقال الامام أبو حنيفة بجواز توليها القضاء فى غير « الحدود » ..

وقال ابن جرير الطبرى بجواز توليها القضاء عامة .

لقد شاركت المرأة المسلمة فى : الدعوة .. وفى الجهاد

(1) ج ٢ ص ٣٩٥

·· وفى الهجرة ·· وفى الابتلاء ·· وفى الرأى ·· وفى العلم ·· وفى الرواية ·· وفى الاجتهاد ·

فهل مثل هذه يحكم عليها بالخفاء أو الاختفاء ؟

ان هذه المسئوليات جميعا لا تتم الا فى بيئة واضحة كاملة الاهلية ·

يجب أن يربى النشأ على الحقائق والوضوح وأن نعلمه جوهر الدين لتبصر رؤيته ، ويرشد سلوكه ·

ان الدين حرية وعدل وخير وجمال .

. . . .

ويتصل بالدين تعليم اللغة العربية فهى لغة دينية ولغة قومية فى وقت واحد وهي جزء من شخصيتنا وكياننا · هذه اللغة نعلمها بأسلوب عقيم ·· لهذا :

لابد من هزة عنيفة للمدرسة المصرية .

حين كان ابنى فى السنة الاولى الثانوية ، استهل المدرس العام الدراسى ··

فى حصة اللغة العربية (الادب والنصوص) بقصيدة جاهلية للاعشى . . ولا ذنب له فمقرر السنة الاولى الثانوية للصغار الصاعدين من المرحلة الاعدادية ، يبدأ بثلاث عشرة قصيدة من الشعر الجاهلى ! وبعض هذا قول الاعشى شاعر القصيدة الاولى فى المقرر :

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم
منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا

لقــــوا ململمـــــة شـــهباء يقــــدمها
للموت ، لا عاجز فيهـــــا ولا خرف

لمـا أمالـوا الى النشـــــاب أيديهـم
ملنـــا ببيض فظـل الهـــام يقتطف

ولا تسل عن قصيدذ المرقش الاكبر أو المثقب الاكبر او المثقب العبدي أو امرئ القيس التى (تنوء بالكلكل) وتبتلى الصغار بأنواع الهموم (لنبتلى) ..

أيحفظ أولادنا فى سن التفتح هذا الكوم من الشــــعر الجاهلى مع أن أصحاب هذه البيئة أنفسهم ودعوا هذه الالفاظ وغدوا يقولون (من أجل عينيك عشقت الهوى) .

يحفظ أولادنا فى سن التأثر والانطباع :

له أيطلا ظبى ، وســاقا نعــامة
وارخاء سرحان وتقريب نتفــل

وبعد أن يستحموا فى عرقهم يعــــرفون النتيجة ومضمونها أن أمرئ القيس يصف حصانه !! ومتى ؟ منـذ خمسة عشر قرنا .. !!

وما دمنا بصدد القديم فلنبدأ بالترتيب . ان مصر لهـا تاريخ وتراث وأدب قبل الثلاثة عشر قرنا بألوف الســنين لماذا لا نبدأ فى تعليم الادب المصرى القـــديم ثم بالادب الهلينى أى اليونانى الرومانى فى مصر لان مصر كيفتــه واشتركت فى وضعه ، ثم الادب القبطى ، ثم الادب العربى المصرى الاسلامى ـ وهنا نلمح عصوره كلها بما فيهاالجاهلى ـ ثم الادب الحديث ؟

ان أوربا تبدأ باللاتينية باعتبارها الام التى تفرعت منها لغاتها ، ثم تأخذ فى تعلم لغتها الحاضرة انجليزية كانت أو فرنسية .. الخ . وهى تحتفل احتفالا خاصـا بالادب اليونانى من أجل المسرح • بل ان جامعة القاهرة علمتنـا النقد اليونانى والمسرح اليونانى وأعلامه والفلسفة اليونانية ومدارسها • أما ما عند مصر من هذا فلا يعـرفه الطالب المصرى لانه أصلا لم يخطر على بال المدرسة أو الجامعـة المصرية !!

لا بأس بالشعر الجاهلى فى دوره من الترتيب التاريخى، بل فى دوره من الترتيب الجمالى • فأولى من حصان امرىء القيس ، وأجمل وأشف ••• قول الادب المصرى القديم فى مخاطبة الاله :

أنت الينبوع العذب

الذى يروى الظمأ فى الصحراء

مفرح لمن يلوذ بالصمت •••

أو قول اخناتون :

(انت الذى تنفخ فى الفرخ وهو مضغة فى بيضته فتهبه الحياة . أنت الذى تتم خلقته فينقر البيضة وهو فى باطنها . فاذا خرج منهـا جعل يصىء بقوة تامة وهو يجرى على قدميه سـاعة يخرج . انت خلقت الارض خلقتها وحدك لا شريك لك كما شئت وعلى ما اردت ... الارض بما فيها من بشر وأنعام وسـائمة وكل ما دب فوق ظهرها على قدميه وطار فى جوها بجناحيه ، وجميع الاقطار من الشام وكورش وربوع مصر .. (سبحانك)

احللت كل انسان فى موضعه وقضيت له حاجته كفلت له رزقه وجعلت لكل أجل كتابا . وقد اختلفت السنتهم كما اختلفت صـــورهم وألوانهم سبحانك جعلتهم أمما مختلفة) .

مثل هذا الرحيق يترك لا يتعلمه الصغار لانه اصلا لم يدريه الكبار حين يقابل (برستد) ما قالته مصر قبل الميلاد بآلاف السنين ، بأقوال مماثلة لشارلس مورجان فى كتــابه (الينبوع) سنة ١٩٣٢ وفرجيل وسبنسر ؟!

(مفرح لمن يلوذ بالصمت)

ألا يتعلم الصغار من هذه العبارة البســـيطة أن الصمت صوت غنى موح وأن الصمت غير السكوت فقد يسكت الانسان ويسمع الضوضاء داخله لان نفسه منفوشة كالعهن، مشتتة كالحيرة ؟

ومن آداب السلوك :

(لقد أعطيتك لأمك التى حملت بك ، وقد تكبدت فى فى حملك ثقلا عظيما وضعته بغير عون منى .. وظلت ثلاثة أعوام ترضعك . فلما أرسلت الى المدرسة كانت تحمــــل الخبز والشراب من بيتها لاستاذك كل يوم .. لقد شببت الآن واتخذت لنفسك زوجا وبيتا . فارع طفلك وربه كما ربتك أمك . واحذر أن تفعل شيئا يؤذيها حتى لا ترفـــع يديها الى الاله فيسمع شكواها) .

أين المدرسة المصرية من هذا كله ؟ انها لا تزال ، كمــا رأينا ، تبدىء وتعيد فى (قال الشاعر يفخر) ثم رصــــة أبيات فى العنجهية .. و (قال الشاعر يمدح) ثم رصة أبيات فى التزلف والقماءة والنفاق .

ان الفخـــــر ليس لونا من الادب ، ولكنه لون من قلة الادب ٠

وان المدح ليس الامتنان ولكنه الامتهـــان والتردى الى الحضيض والحطيط ـ لو جاز هذا التعبير ـ ٠

لقد احترم الله الانسان ، وفضله ، حين حمله المسئولية دون الملائكة ومن هنا يكون المدح والنفاق ، كفــــرا بالمعنى الاجتماعى ، والدينى ٠

وعرفت مصر الادب التعليمى التهذيبى وهـو أمر طبيعى فى بلد توسل بالحكمة وعرف الكتابةوصنع أوراقها واشتق من نباته البردى اسم الورق فى اللغات الاوربية الى يومنـا هذا ٠ فلفظة Paper من البردى ٠

(اذا كنت فى جماعة جلست فى بيت رجل أكبر منـك فتناول ما يعطيه وضعه بين يديك وانظر الى ما أمامك) ٠

وعن مصر أخذ سفر الامثال هذه الحكمة فقال :

(اذا جلست تأكل مع متسلط فتأمل ما هو أمامك تأملا) سفر الامثال ٢٣ : ١

كما نقل سفر الامثال كثيرا ، عن تعاليم امنموبى مثل :

(لا تستصحب رجلا غضوبا ولا تلحن فى محادثته) .

ومن ورائه سفر الامثال يقول : (لا تستصحب غضوبا ومع رجل ساخط لا تجىء) ٢٢ : ٢٤ .

وفى الادب المصرى القديم أقدم صورة لقصة سـندريلا وقدمها الصغيرة وسائر أحداث القصة المعروفة ٠

وفى الادب المصرى قصص على لسان الطير والحيوان تشير الى الضعف الانسانى وعيوب البشر وتأتى فى السياق، الحكمة والمعانى السامية .

كتبت مصر هذا قبل كليله ودمنه ومتى ؟ قبل لافونتين .

أما قصة سنوحى فان الكتاب العالميين يعدونها ذروة من الادب العالمى ، كما يدخلون فى عداد الاداب العالمية أغانى الحب المصرية بما فيها من وصف للطبيعة ، طبيعة مصر، وطبيعة النفس الانسانية حتى قيل ان عليها طابع « هين » .

ترى هل كان الشاعر الالمانى معجبا بأدب قدماء المصريين، فان وصفه لمرض الحب مطابق تماما لوصف الشاعر المصرى القديم القائل :

عندما أشاهد عينيك .. حينئذ تتلاشى كل أحزانى وآلامى .

ان الادب المصرى يتحتم أن يكون جزءا من النصوص التى تعلمها المدرسة المصرية .. يجب أن يعرف الطفل المصرى أدبه القديم فهو جزء من تراثه وعطائه وشخصيته وكم لمصر القديمة فى باب الادب .

ان مصر مؤمنة حضارتها دينية .

ومصر فنانة انجازاتها الرائعة كنوز منشورة .

ومصر اديبة

اديبة بالمواعظ وآداب السلوك ، والامثال ، والحكم الخالدة .

اديبة بالمقالات والرسائل .

أدبية بالقصص القصيرة حتى ليسود الاعتقـاد بين علماء الاثار أن مصر هى موطن القصة القصيرة .

أدبية بالاناشيد والتسابيح .

أدبية بالاغانى التى نظمتها .

أدبية بالتمثيليات والمسرحيات . ان مصر هى صاحبة أول بحث فلسفى وأول مسرحية فى آداب الدنيـا هى مسرحية منف التى يحتفظ بها متحف لندن . والتى كتبت قبل الدراما اليونانية بنحو ثلاثة آلاف سنة . « كتبت ٣٤٠٠ ق . م » . انها محاولة لتفسير أصل الاشياء .

لقد تدرجت الدراما الاغريقية فى التكوين حتى بلغت مرحلة النضوج اما الدراما المصرية الاولى « مسرحيـة منف » فقد وجدت كاملة ناضجة لم يعرقل سير الاحداث فرق المغنين كما فى الدراما الاغريقية .

وعرفت مصر أدب السخرية كالذى سجلته رسـالة حورى الى أمنموبى .

ومن الطريف أن السخرية المصرية صـالت وجالت وتهكمت من الحرف المختلفة ولكنها عند الكتابة وقفت خاشعة من عمق ايمانهم بالكتابة حتى جعلوا لها آلهـة سموها « سيشات » وزوجوها من اله الحكمة مـن احساسهم بما بين الكتابة والحكمة من علاقة ذهبية .

قصة الملاح الغريق :

ذلك الانسان المصرى « فى كل عصر » الذى هبت عليه العـاصفة والذى حطمت الامواج شراعه وحملته الى الشاطىء،وقذفت به هو نفسه الى الشاطىء « لا رفيق لى قلبى ، راقدا فى غابة لا احتضن الا الفراغ » مما تاثرته

الاوديسة بعد هذا فجعلت يوليسيس يركب سفينة فى البحر ، يثير زيوس فى وجهها العاصفة أيضا فتتحطم السفينة ولا يبقى الا قطعــة خشب وهنا يناقش الملاح الاغريقى قلبه أى انه « رفيقه » تماما كالملاح المصرى .

ولم تقتصر المحاكاة على يوليسيس فقد حاكى دانتى ايضا ، الملاح المصرى ، فى قوله :

« ما أعظم سرور من يقص ما وقع له حين ينجو من كارثة حلت به ! »

انها بعينها كلمة الملاح الفريق .

وقصة السندباد البحرى فى الادب العربى هى بعينها قصة الملاح الفريق . بل ان « ديورانت » فى « قصــة الحضارة » يعتبرها أقدم صورة من صور قصة روبنسن كروزو .

وقصة حاسب كريم الدين فى الف ليلة وليلة هى بعينها القصة المصرية « الملاح الفريق » .

وتأثر « بألف ليلة » الاداب الاوربية الى حد بعيــد وخاصة الادبين الفرنسى والانجليزى .

وقد رسم الادب المصرى صورة منمنمة للصحراء فى قصة « سنوحى » ورسم صورة ملونة للبحر فى قصــة « الملاح الفريق » وفى الاثنتين رقرق الاديب المصرى ، الحنين ، الى مصر ، نشيدا ، والشوق الحانا .

ان أولّ درس يتلقاه الطفل المصرى فى النحو :

ضرب زيد عمرا !! ليعرف الفاعل والمفعول..والمرفوع والمنصوب .. وعمرو المسكين باعتباره المضروب دائمــا يبدو وكأن جسمه تبلد .. ففى كل عام يضرب هو ، ومن

زيد فلا يدفع عن نفسه أذى ولا يكل ولا يمل !! ان الذى كل ومل الصغار فى حصة اللغة العربية .. وبعد هـذا كله يخطئون فى الكتابة والاعراب حتى بعد أن يتخرجوا من الجامعة !!

وهنا نخشى الغرق أو نستشعر الذنب حين نجـد المدرسة الانجليزية تقرر كتابا فى اللغة الانجليزية ، عنوانه ، ليس « النحو والصرف » أو « الادب والنصوص ولكن « تنمية القدرات » ... فى هذا الكتاب قطعـة تحكى أن احد الاغنياء أراد أن يسخر من النقاد فأقـام معرضا للوحات رسمها هو كيفما اتفق بلا خبرة أو علم فى الخطوط والالوان .. ثم انتظر آراء النقاد وتعليقاتهم وكان قد مهر كل لوحة عشوائية باسم فنان مشهور ..

واستعرض النقاد اللوحات واستعرضوا فى الوقت نفسه عضلاتهم الفنية .. فمضوا يسهبون فى الحديث عن التيارات الفنية والاساليب الفنية وما يمتاز به فلان وما يبدعه فلان من الاسماء المنحولة على اللوحات .. والرجل يسمع ويملكه العجب والغيظ والسخرية فى آن واحد .. حتى اذا فرغوا من الفرجة وأفرغوا ما فى محفوظهم من كليشهات نقدية قال كلمته المأثورة « ان النقاد لايعرفون دوما ما الذى يتحدثون عنه » .

بعد هذه الحكاية الطريفة المغلفة بالفلسفة والسخرية وضع الكتاب تمرينات مختلفة عن القصة كيف يكتبهـا الطالب فى عبارة من عنده فى حدود ثمانين كلمة . وتمرينا آخر يقوم على مافيها من تعبيرات جديدة او غريبة أو صعبة وتمرينا يعطى مجموعة من الاجابات على

سؤال واحد ليختار الطالب أصحها ، وموضوعا انشائيا ورسالة ، ومعاني ألفاظ .

والكتاب مملوء بالموضوعات الشيقة المتصلة بالحياة والسلوك والنفس الانسانية ولهذا يحبون لغاتهم حبا يعين على اتقانها ويحمل على الاعتزاز بها .

من الموضوعات الطريفة فى هذا الكتاب : رقم « ١٠٤٨ » .. يقول : الحقائق « ليست حقائق العلم أو الحياة ولكنه عنوان جاد لقصة هازلة او ساخرة . فقد ارسلت صحيفة مندوبا لها الى الصين ليغطي افتتاح قصر كبير وأبرق الرجل الى رئيس التحرير أن القصر يصعد اليه بمئات السلالم فطلب اليه رئيسه أن يحدد عدد الدرج بدقة . وهنا بدأ الصحفى بعد السلالم فقبضوا عليه وأودعوه مستشفى المجانين .. ويثبت لهم جاهدا انتماءه الى العقلاء فيفرج عنه . وهنا يذهب الى القصر ويبدأ فى عد الدرج من جديد تحقيقا لرغبة رئيسه فى الجريدة وفى كل مرة يقبضون عليه عندما يصل فى العد الى الرقم ١٠٤٨ » .

موضوع اسمه « غير مذنب » يسخر من الجمارك

موضوع اسمه « أعظم كوبرى فى العالم »

موضوع اسمه « طعام رجل ، سم لاخر » يتحدث عن اطعمة الشعوب المختلفة وقصص انسانية عميقة .

من خلال هذه الطرائف الحافلة بالمعلومات يعلم الناس غيرنا لغاتهم بلا افتعال « عركة » بين زيد وعمرو . فهل نعى هذا الدرس ؟

هل تعلم المدرسة المصرية **الادب الشعبي** وكيف نحترمه بما هو محصلة خبرة طويلة بالحياة والاحياء ؟

هل تعلم المدرسة المصرية **الفنون الشعبية ؟**

فى مؤتمر الدراسات العربية الذى عقد ببيروت سنة ١٩٥١ قال المغفور له الدكتور أحمد زكى : « انه لو خير بين أشياء كثيرة يعطاها العرب ، ما اختـــار المال أو الاستقلال ولكن التعليم . »

ولا احسب انه يقصد التعليم القائم اليوم فى المدرسة المصرية والمدرسة العربية بأساليبها ووسائلها ..

لنقارن : كيف يعلمون اللغة الانجليزية وكيف نعلم اللغة العربية .

والحديث لايزال عن السنة الاولى الثانوية .

ان مقرر اللغة الانجليزية موضوعات نابعة من صميم الحياة وعلى أعلى مستوى فى البحث والتأصيل ولكن من خلال عشرين قصة تجذب بالتشويق والصورة .

وليس بالكتاب واحدة للملكة أو لغيرها .. ولكن :

امثلة شعبية انجليزية وأمثلة تقابلها من الشعـــوب الاخرى ليكتشف الطالب انعكاسات كل بيئة على أمثالها ولغتها وتفكيرها وأسلوبها فى الحياة . وليكتشف الطالب اكثر أن الانسان هو الانسان فى كل مكان خاصة فيمـا يتصل بعواطفه ومخاوفه وآلامه مما تصوره أصـــدق تصوير الاداب الشعبية فى محاولة تقريب بين اللغـــة الشعبية ولغة الكتابة حتى لا يتكلم التلميذ لغة فى بيته ولغة فى الفصل .

موضوع آخر : وقفة عند اصل الكلمات الشائعة واصل الاصطلاحات الرمزية ..

موضوع اخر : الالفاظ التى تبدو متشابهة أو متماثلة

وبيان مابينها من فروق دقيقة في محاولة لارهاف الحس واحساس الدقة ... والحضارة هى الفروق .

وفيما بين هذا وذاك سؤال فى النحـو على فترات متباعدة ليبدو النحو جزءا من كتاب جميل . عنـدنا يستقل النحو بكتاب حتى يسهل اجتنابه كما يظهر .

موضوع آخر : كيف تبدأ كتابة القصة يعطيك عـدة استهلالات جذابة .

موضوع عن الشيكات وكل مايتعلق بها تسليحا للحياة

موضوع الخطابات خطاب العمل وخطاب الصـداقة وخطاب الرد وخطاب الطلب مما نفتقده فى دروس اللغة العربية ثم فى الحياة العامة وطبعا لا نتعلمه فى حصـة الجغرافيا .

هذا عن المناهج الدينية واللغوية والادبية . أمـا المناهج التاريخية والقومية التى يجب أن تكون رسالتها رسم صورة حقيقية نابضة لمصر فهى بدورها تحتاج الى هزة قوية .. مثلا : مصر الدين والفن هل نعرفهـا

مثلا : ريادات مصر الحضارية هل نعرفها ؟

كم من اسئلة كبيرة لا تجيب عليها المدرسة المصرية ثم تحكم بالرسوب على الصغار الذين لا يجيبون على الاسئلة الصغيرة !!

وأخيرا .. متى نبدأ ؟

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٦١٧ ـ ١٩٨٣

الترقيم الدولى ٣ ـ ٠١٩ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ
الصفاه ـ ص٠ ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

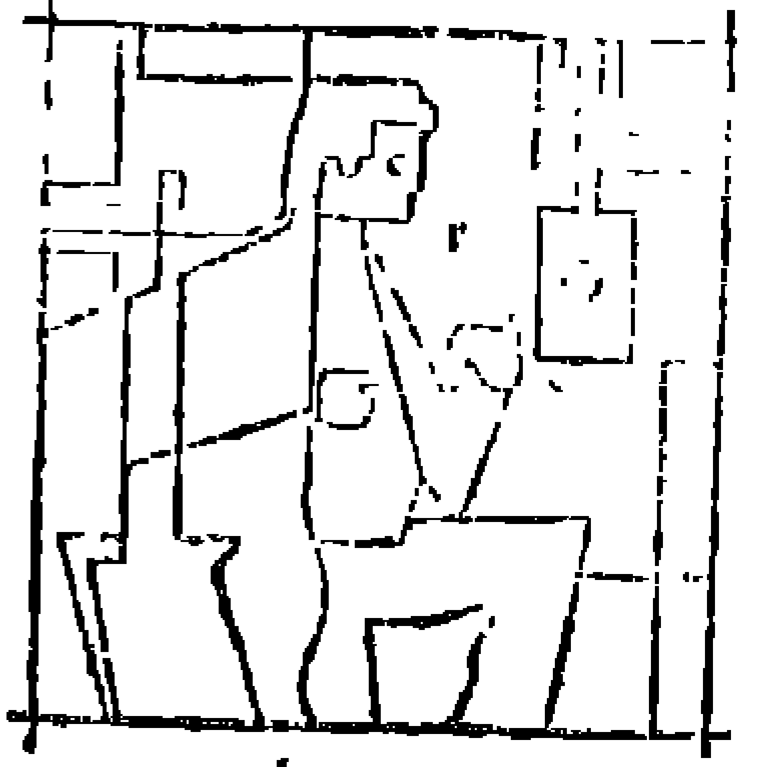
جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : GULF ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : Miguel Maccul Cury B 25 de Marc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL

اسعار البيع للاعداد العادية فئة ٣٠٠ مليم :

سوريا ٤٠٠ ق٠س اديس ابابا ٥٠٠ سنتنا لبنان ٥٠٠ ق٠ل باريس ٨ فرنكات الاردن ٥٠٠ فلس لندن ٨٠ بنى الكويت ٥٠٠ فلس ايطاليا ١٢٠٠ ليرة العراق ٥٠٠ فلس سويسرا ٤ فرنكات السعودية ٦ ريال أثينا ٥٠ دراخمة السودان ٣٥٠ مليما فينا ٣٥ شلن تونس ٦٥٠ مليما فرانكفورت ٣ر٥ مارك المغرب ٨٠٠ فرنكا كوبنهاجن ١٠ كرونات الجزائر ٦٥٠ سنتيما استوكهولم ١٤ كرونة الخليج ٤٥٠ فلس كندا ٢٥٠ سنت غزة ٨٠ ليرة البرازيل ٣٥٠ كروزيرو الصومال ٥٠ بنى نيويورك ٢٥ سنت داكار ٤٠٠ فرنكا لوس انجلوس ٣٠٠ سنت لاجوس ٦٠ بنى استراليا ٣٠٠ سنتا اسمرة ٥٠٠ سنتا هولندا ٤ فلورين اليمن الشمالية ٥٠ بنى



هـذا الكتاب

المشكلة التى يتحدث عنهـا الجميع من بعيـد أو قريب وفى ذهن المتحدثين اعتبارات شتى تتحكم فى الحقائق المجردة فجاء هذا الكتاب يواجه المشكلة مواجهة حقيقية جريئة لا تعـوزها الارقام والاحصاءات فى مواضعها •

فجر هذا الكتاب اسباب المشكلة ومنها :

● التحديث •• أى المعاصرة والتراث •

● التغريب •• أى تتبيع دول الحضـــارات القديمة للغرب فى محاولة تغيير الجلد وهز الأصالة فى عملية غزو حضارى يورث الشك والشتات النفسى واغتراب الانسان على ترابه وفى أرضه •

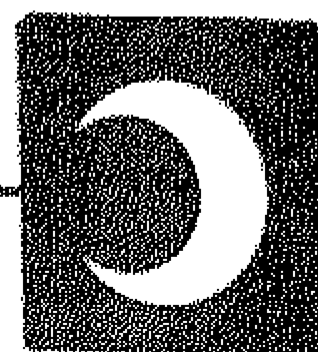
الانحلال الخلقى فى المواقع الكبيرة ، والاعتـــداء الفوقى على المال العام ، وافتقاد القدوة •

وطرح الكتاب الحل بالجرأة نفسها متناولا :
المسجد ـ الكنيسة ـ الجامعة ـ الصحافة ـ مناهج التعليم •

وموضوعات أخرى دقيقة وخطيرة •

أكبر كثيرا من حجمه ، هذا الكتاب •

٣٠ قـــرشـــا



سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلال

الأزهر بين السياسة وحرية الفكر

الدكتور محمد رجب البيومى

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمي

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٨٧ – جمادى الاولى ١٤٠٣ – مارس ١٩٨٣

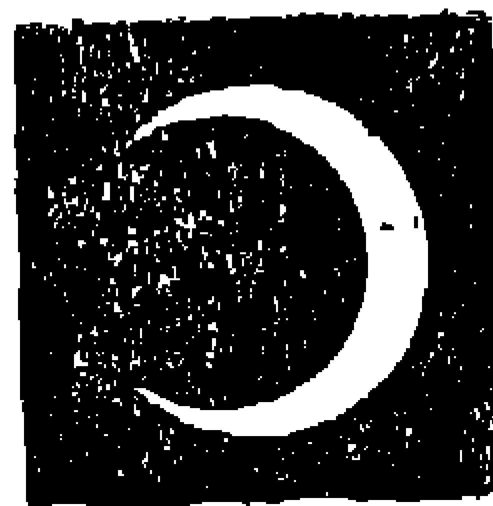
(No. 387 — March 1983)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادي . وفي بلاد اتحادي البريد العربي والافريقي وباكستان خمسة جنيهات مصرية أو مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفي سائر أنحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشـــــة
الفنـانة سميحة حسـنين

الأزهر

بين السياسة وحرية الفكر



تأليف

الدكتور محمد رجب البيومى



دار الهلال

تقـــديم

من قرابة نصف قرن ، ونحن نقـرأ فى الصـــحف عن ضرورة الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر ، فتعقد لجان ، وتعد اقتراحات لانجاز هذا الاحتفال الرائع ، ثم يمضى الوقت دون تنفيذ ، ولكننا اليوم نرى دعوة جادة صـــادقة لهذا الاحتفال ، ونرى اهتماما مشهودا ، يؤذن بالجدية المثمرة ؛ لذلك أردت تسجيل المآثر التى سجلها التاريخ ونســيها الناس ، فتحدثت فى ايجاز عن نضال الأزهر بين السياسة وحرية الفكر ، لأن قوما تابعوا عن عمد الارجاف المغـرض بالأزهر ، فحاولوا أن يطمسوا زعامته السياسية الواضحة لحاجات فى نفوسهم ، وتعدوا ذلك الى رميه ظلما بمناهضته الفكر الحر ناسين أن الأحرار من زعماء الأمة قد تربوا فى مهده ، ونشئوا بين أحضانه ، وفى هذه الصــفحات من روائع أعمالهم ما يقدم الدليل الناهض والبرهان الصريح ، أما حرية الفكر الصحيح فقد كان الأزهر بأعلامه الكبـــار موئلها المانع ، وحصنها الحامى ، ومن حق الأزهر أن ينكر جريئا ما يراه باطلا بجانب رسالة الاسلام التى يقـوم على حفظها ، ولكن هذا الحق قد وجد من أعداء الاســـلام من يفسره على غير وجهه ، فجاء هذا الكتاب ليدعو الى الحـق بالحكمة الصادقة ، والأثر الشاهد وليعلن فى وضوح كيف

كان الأزهر الشريف لسان الصدق الصريح ، وكيف تجرأ مناوئوه على الحقيقة حين وصفوه بما ليس فيه ، بل كيف كانوا أعداء الحقيقة وهم يتظاهرون بالدفاع عنها مرائين ، واذا استطاع هذا الكتاب أن يجلو موقف الازهر بين السياسة وحرية الفكر بما لا يدع مجالا للبس ٠٠ فقد شارك مشاركة مخلصة فى الاحتفال بهذا العيد المجيد ٠٠

د ٠ محمد رجب البيومى

— ١ —

ازدهر مجد الأزهر بعد انتهاء الدولة الأيوبية ، حيث رأى الظاهر بيبرس أن يعيد الى المسجد الكبير دوره الدينى والثقافى من جديد ، فأقيمت به الصــــلوات ، وانتظمت الدروس ولا ننكر أن المدارس المجاورة بالمساجد القاهرية كانت تشاركه حينئذ في دوره المجيد ، اذ أن حلقات العلم قد امتدت في أكثر بيوت الله ، لوفرة من نبغوا من العلماء، مصريين ووافدين ، حيث كانت مصر بعد سقوط الخـلافة ببغداد شرقا ، وكارثة الأندلس غربا مصبا زاخرا لأمواج تتدافع الى الكنانة ناشدة الامن والنجاة ، وفى هؤلاء من له فى العلم قدم ذات رسوخ ، فرأوا فى مصر موطنا رحيما يسبل عليهم رعايته وتقديره اذ أن الاسلام وطن حقيقى لكل مسلم ، ومصر كعبة الاسلام الحاضنة لأبنائه على مدى العصور ، وبازدهار الحركة العلميـة فى العصر المملوكى كثرت المؤلفات المســـتوعبة فى كل فن ، والموســـاعات الجامعة لكل علم ، ولست فى هذه الصـــفحات مـؤرخا للنهضة العلمية في زمن المماليك (١) فلذلك مجال شاسع برز فيه نفر من كبار الباحثين ، ولكنى أتحدث عن بطولة

---

(١) المقصود المماليك البحرية والبرجية ، أى التركمان والجركس ، أما مماليك العثمانى فسيجىء الحديث عن عهدهم ..

نفر من كرام العلمـاء حملوا أمانة الحق ، اذ جهروا بالصدق ، وكافحوا الباطل مكافحة من يعلم دعوة الاسلام الصريحة للأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فكانوا قادة شعوب ، ومصابيح ليل ٠

ونحن نعلم أن الحاكمين من المماليك كانوا كل شيء في الدولة ، وكان أتباعهم من الأمراء ورؤساء الجند لايتقيدون بدستور يلزم ويلجم ، اذ يكفى أن يكون الأمير موضـع الرضا من السلطان حتى يبطش ويقهر ، ويفـرض الاتاوة كما يشاء ، بل ان تهب المتاجر ، وسلب الأموال ، وتفتيش منازل من يتوهم لديهم الثراء للاستيلاء على كل مايجدونه من مدخرات ، كان ذلك كله يمضى طبيعياً دون اعتراض ، وكأنه أمر مشروع ! أقول دون اعتراض من السلطان ومن بيدهم الأمر ، اذ أنهم فى أكثـر الأمور كانوا محـرضين موجهين ، فكيف يحرصون بعد ذلك على احقـاق الحـق ، ونصرة المظلومين ؟ فى هذا الجو القاتم الخانق كان رسالة علماء الدين فى احقاق الحق تواجه من الصعوبات القاسية أشق ما تواجه رسالة حق مجردة من السلاح ! وكان العالم فدائيا بالمعنى الدقيق ، لأنه يصدع بأمر الله بين جبـابرة مارقين ٠

نعرف جيدا أن للعصر المملوكى في مصر حسناته ، فهو الذى دفع التتار عن بلاد الاسلام بعامة اذ أنزل بهم أقوى الهزائم الماحقة بعد أن زحفوا كالسيول السـاحقة ، تدمر ما تأتى عليه وبعد أن حولوا ممالك الشرق أطلالا تنعق فى آفاقها الغربان والبوم ،كما نعرف أن أبطال هذا العصر قد أنهوا الهجوم الصليبى ، وقطعوا دابره قطعا لا رجعة بعده فأعادوا الى البلاد استقلالها الزاهر ، كما نعـرف أن من

السلاطين من رصد الأوقاف الكثيرة على وجوه البر والاحسان وتشجيع الدروس الدينية وبناء المساجد واحياء العلوم والآداب ! ولكن ذلك كله يضيع سدى أمام احتقار الحاكمين لأفراد الشعب اذ يغصبون أموالهم كما يشاءون دون اكتراث ، كما لا يحاولون اشراكهم فى رأى ، أو الاستماع الى نصيحة مخلصة يبديها صادق غيور ، فاذا قاموا بتعمير مسجد أو بناء مستشفى فانهم لا يفعلون ذلك لأنه حق واجب بل ليكونوا متفضلين محسنين فحسب . وفرق بعيد بين أن يتعلم الانسان لأن من حقه الطبيعي أن يتعلم فى وطنه ، وأن يعالج المريض لأن من حقه أن يعالج ، وبين أن يتعلم ويعالج احسانا وتفضلا من الحاكمين ، هذا الى غير ما ابتلى به الشعب من فرض الضرائب الفادحة ، وانتشار الأوبئة الماحقة ، وجفاف النيل فى سنوات تتعاقب فتحدث من المجاعات الناجعة ما تقشعر لهوله الأبدان حين تقرأ ما دونه المؤرخون من فظائع القحط ، وأهوال الجوع ، وانتشار الغلاء ، والشر يدفع الى الشر ، فقد جلبت هذه المجاعات مختلف الأوبئة القاتلة ، فانتشر الطاعون ، ودفن المئات من الموتى فى اليوم الواحد ! وتجرأ العصاة من شذاذ العربان وقطاع الطرق ، فنهبوا ما وقعت أيديهم عليه من القوت الضرورى لأناس يكتفى أحدهم بالكسرة اليابسة فى اليوم الطويل !! والسلاطين والأمراء من وراء ذلك كله يبطشون بلا وازع ويحكمون بلا قانون ، فاذا استطاع علماء الأزهر من المدرسين والقضاة أن يقفوا أمام الطغيان مطالبين بانصاف الرعية فهم أبطال مناضلون .

وقد كان من حظ العلماء فى مطلع هذا العصر أن يظهر بينهم رائد مثالى يصدع بالحق وهو العز بن عبد السلام

وتاريخه السياسى أنبه من أن يدل عليه وقد بسطت طرفا منه في غير هذا المكان (١) ، اذ قدر عليه أن يحمل راية الحق في وجوه مخالفيه مهما أفزع سلطانهم ، وامتد جبروتهم ، كما قدر عليه أن يعيش حقبة حرجة من أصعب الحقب في تاريخ الاسلام ! وأى حقبة أشد هولا من زمن الهجوم التترى والزحف الصليبى ، والاندحار الاندلسى، ولعل مما أفزعه أن يعيش فترة في دمشق ليرى صاحب أمرها يصالح الصليبيين ، ويستنصر بهم على أخيه الملك المسلم ، ثم يحدق بعينيه فيشهد جنود الفرنجة يشترون السلاح من مسلمى دمشق ليحاربوا به اخوانهم فى الدين!! أيجوز أن يسكت عن هذه المآثم كما سكت سواه ؟ انه ليخطب فى المسجد منددا بمن يتخذ أعداء دينه أولياء ، ومحرما بيع السلاح لصليبى يحارب الاسلام . وكانت النفوس هائجة ، والأعصاب متوترة ، فأحدث صيحة أفزعت الحاكم الضال ، وحاول أن يبطش بمن ندد به ، ولكن باطله السافر كان أعجز من أن يقف فى وجه العز داعية الحق ، وكل ما استطاعه أن حمله على الهجرة الى مصر ، فرحل اليها مستريح النفس ليواصل دعوته الحرة ، وليصطدم بأقوى سلطان عرفه العصر المملوكى وهو الظاهر بيبرس اذ خالف أمره حين هم بفرض الضرائب على الشعب الكادح ، وجواريه ونساؤه وغلمانه وأشياعه من الأمراء والجند يملكون من قلائد الذهب وحلى الفضة ما يكفى بعضه لاعداد الجيش وتهيئة السلاح ، وانتصر الرجل بعون الله فى أولى معاركه انتصارا دفعه الى معارك مماثلة كللت بتوفيق الله ! وضربت للعلماء مثلا باهرا فى

---

(١) علماء فى وجه الطغيان للمؤلف (٦٤ ــ ٧٠) .

العزة الاسلامية ، والحرية المثالية حتى رأينـــا من هؤلاء الأماثل من ينهجون نهجه في شموخ واعتزاز ، ولا يتسع المجال للاحاطة بمواقفهم البارزه ، ولكننا نكتفى ببعض الأمثلة التى تصور دور علماء الدين فى مجابهه الطغيان ، ولن نعتمد على روايات ضعيفة،أو أخبار مرجوحة،ولكننا سنستدل بما سطره مؤرخو العصر مجمعين على حدوثه دون أن يشذ واحد منهم بتشـــكيك يوقع بعض الريب ! واذا اجمع المؤرخون على تأييد هذه الأحداث ، فذلك ما يســوء قوما يؤذيهم أبلغ الايذاء أن تذاع مآثر العلماء فيخضــعون الرءوس محزونين .

― ٢ ―

مات العز بن عبد السلام فنهض بعده من كبار العلمــاء من يحذو حذوه بل من يعيد دوره فى معضلات أيامه بأعيانها فقد ظن الظاهر بيبرس أن انتقال العز بن عبد الســلام الى جوار ربه ، يبيح له أن يســـتحل ما حرمه العز حين نطق باسم الشريعة الاسلامية فاشتد فى جمع الضرائب والمكوس حتى جرد كثيرا من التجار من أموالهم ، وســلط أعوانه من العسكر يغصبون ويسلبون دون مراعاة لوجه العدالة ، بحجة أن الدولة ذات أعداء وأنها تتهيأ لحرب تتطلب الســلاح ، وقد زاد هؤلاء الناهبون بغيا على بغى حين سلطوا سياطهم وأدوات تعذيبهم على الناس كى يستخلصوا ما يزعمون أنه مستتر لديهم من الأموال فاضطر الامام الورع محيى الدين النووى أن يكتب الى السلطان بما شاهده من ظلم الجباة وارهاق الناس وعسف العمال من رجال السلطان ، مقررا أن ما أمر به السلطان جنوده عسف وظلم ، وأن الدوله لن تصان بغير العدالة والانصاف ، وكان الظاهر يخطىء وجهة

نظره الى النووى اذ ظنه شابا يتطلب حسن السمعة بين الناس بما يواجه به السلطان ، وأن العز ذو أشياع يسيرون خلفه ، ويبذلون أرواحهم فداءه •

أما محيى الدين فقد نجم من الأرض فجأة ، وعلى الظاهر أن يأخذ على يديه قبل أن يصير ذا شأن ! ذلك ما ظنه الظاهر فلجأ الى التهديد ورد على الشيخ بكتاب يحمل الانكار والتوبيخ ، وأنه يتدخل فيما لا يعنيه حين يدافع عن قوم بخلاء أشحة لا يعرفون سبيلا للخير ، وبالغ السلطان في تهديده موعدا منذرا ، ومخوفا من بطشه الكاسح اذ لا يسمح لأحد أن يقف في وجهه وهو صاحب الأمر والنهى فى مصر والشام ، وقد ظن أن المسألة قد وقفت عند هذا الحد ، وأن النووى سيحبس لسانه فلا ينطق ، ويمنع قلمه فلا يكتب ، ولكنه ينتظر أمدا غير بعيد فيجد محيى الدين النووى يرسل له الرد الواضح الصريح دون تهيب اذ يقول فى صراحة واعتداد •

« أما تهديد الرعية بسبب نصحيتنا ، وتهديد طائفة من العلماء فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه ، وأى حيلة لضعفاء المسلمين في الناصحين للسلطان ولهم ! ولا علم لهم به ، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه مايلام عليه ، وأما أنا فى نفسي فلا يضيرنى التهديد ، ولا أكثر منه . ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان فانى أعتقد أن ذلك واجب على وعلى غيرى ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى ، فانما هذه الدنيا متاع ، وأن الآخرة هى دار القرار ، وأفوض أمرى الى الله ، ان الله بصير بالعباد ، وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول الحق حيثما كنا ، وألا نخشى فى الله لومة لائم » •

جاء الخطاب الى الظاهر ، فأوقعه فى حيرة لأنه يعتقد فى اعماقه أن كلام الرجل صائب فهو يعرف تمام المعرفة بطش الجباة وقسوتهم ، وتأتيه أنباء السلب والتعذيب فيصم أذنيه عنها ! وقد قام النووى بواجب النصيحة الاسلامية متبعا أمر ربه الذى يسأله السلطان النصر ، ويترجى تأييده فى حوالك الخطوب ، وكان فى السلطان استجابة للخير فجمع الجباة وأشار عليهم بالرفق والملاينة ، وحذرهم غضب العلماء ، ولكن الحاجة ـ بعد ـ الى المال لا تنفد ، فالسلطان يقيم المشروعات ويعطى الهبات ، ويعيش أتباعه فى بذخ مفرط ، ولابد من فرض الضرائب دائما ، بل لابد من سلب التاجر لأن الضرائب حق اذا حددت بقدر ، وقيدت بزمن ، أما اذا كانت عملا مستمرا لا تحديد معه فى قدر أو زمن فهى نهب صريح ، وقد انتهز السلطان بادرة سفره الى تأديب بعض العصاة ، ومحاربة من هجموا على أطراف الدولة من الأعداء فأعلن أنه فى حاجة الى المال ، واستفتى بعض العلماء فى ذلك بحجة أنه ذاهب الى نصرة الاسلام فأجابوه . ولكن محيى الدين يمتنع من الفتوى ، فتسرع الظاهر وعقد اجتماعا عاجلا لأصحاب الوجاهة من الأمراء والقضاة ليناقش النووى فى امتناعه ، ليظهره فى صورة المخذل عن قتال الأعداء ، ومجالدة الكفار ، وانعقد الجمع الحاشد وصاح السلطان بالشيخ : لماذا لا تجيز أن تجمع الأموال من المسلمين لننفقها فى الجهاد كما أجاز ذلك زملاؤك الأئمة والقضاة ؟

فدهش السلطان دهشة مفاجئة حين سمع النووى يقول : كلنا نعرف أن لديك ألف مملوك ، كل مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جارية ، لكل جارية

بصيب من الحلى ، فاذا أنفقت ذلك كله ، وبقيت مماليكك بالثياب الصوف بدلا من الحوائص ، وبقيت الجـــوارى بثيابهن دون الحلى ، فهنا ـ فقط ـ أجيز لك أخذ المال من الناس !

صرخ الظاهر فى انفعال : أخرج من بلدى اذ لا يجوز أن تساكننى فى دمشق فقال النووى : ومن أدراك أنى ساقبل المقام لديك لابد من الرحيل ثم انسحب من المجلس فسـار وراءه نفر من العلماء ، ووجم الســـلطان حين نظـر قوما يسيرون مع الشيخ ! فتذكر العز بن عبد الســلام ، وآثر الانقياد ٠

ـ ٣ ـ

لا زلنا فى العصر المملوكى نرسم بعض الأدوار المجيـدة لعلماء الاسلام من رجال القضاء ومدرسى المساجد ، اذ ليس الأزهر وحده حينئذ هو المسجد الجامع ـ وأمامنا الآن فقيه شجاع من طراز العز والنووى هو العلامة الفقيه القـاضى الورع ابن دقيق العيد ، وقد نشــأ عزوفا عن المناصـب البراقة ، مؤثرا للبحث العلمى وحده : ولكن تهالك الأمراء عن التدخل فى شئون القضاة ، وخضوع بعض الضـــعفاء لمآربهم الظالمة دفعه الى أن يقبل منصب (قاضى القضاة) وأن يجمع نوابه من قضاة الأقاليم ليحذرهم أن يستجيبوا لغير ما يؤذن الحق ، وقد كتب منشورا دوريا ، يحرم أن يحيد القاضى قيد شـعرة عن حق الله ، ثم جاء الدور عليه شخصيا حين وجد نائب السلطنة الأمير (منكوتمر) يغتصب الأموال بغيا دون حق ، ويحتال لذلك بما لا يخفى على مثل ابن دقيق العيد ، وقد رفعت اليه قضية خلاصتها أن تاجرا كبيرا من التجـــار مات وترك وراءه ثروة كبيرة ، فـرأى

سنكوتمر أن يدعى أن لهذا التاجر شقيقا عينه بنفسه ليكون الوارث فى الظاهر ، ثم ليستولى الأمير على الميراث من بعد ، لقاء مكافأة يسيرة ! ورفع الأمر الى ابن دقيق العيـد ظانا ان الحيلة ستنطلى عليه ، واختار أحد كبار خاصيته ليبلغ القاضى رغبته فى التعجيل دون تأجيل ، وجاء الرســـول يبالغ فى التطلف ، وليبلغ ابن دقيق أن الأمير (منكوتمر) مهتم بانصاف الأخ الشقيق ، وأنه يشهد بنفسه أنه أخوه وعلى القاضى أن يثبت هذه الأخوة ليأخذ كل ذى حق حقه ! ولكن ابن دقيق قال للرسول : وما قيمة شهادة (منكوتمر) فقال مأخوذا : هو عندنا وعندكم عدل يا مولاى ؟ فضحك ابن دقيق مستهزئا وقال سبحان الله ! هو عندكم عدل !! ثم أنشد قول الشاعر :

يقولون هذا عندنا غير جائز ومن أنتم حتى يكون لكم عند!

وقال أبلغ الأمير أن ذلك احتيال !! ولكن الأمير طامع ، والميراث كبير ، فعاود الوساطة ملحـا ، فجمع ابن دقيـق قضاة القاهرة ، وقال : أشـــهدكم أنى عزلت نفسى باسم الله . قولوا للسلطان يول غيرى ! ولزم بيته وانتشر الخبر بين الناس ، ووصلت الضـــجة الى السلطان فجمع نائبه موبخا وقال : لقد تسببب فى سوء السمعة ! ماذا أقـول للناس وقد اعتزل ابن دقيق ! ثم أرسل اليه محلفا أن يعود الى عمله ، وليس لنائبه معه أى كلام !

وتم ما أراد ابن دقيق ، فرجع نائبه الى القضاء ! وأرسل الى جميع نوابه فى ديار مصر ألا يستجيبوا الى غير الحق ، وأنه وقف موقفه من الأمير ليضرب لهم المثـل ، وعليهم أن يعرفوا أن المنصب زائل ، وأن الله مطلع ، وأن متاع الحياة

الدنيا قليل ! وأن الآخرة هي دار القرار ·· وكانت رجة عاليه الدوى بين الناس !!

ـ ٤ ـ

أما ثورة قضاة المذاهب جميعا على الحاكم ، فتتمثل في قضية ذات رنين ، شغلت المجتمع المصرى أمدا طويلا وتدخل فيها السلطان الرهيب (قانصوه الغـــورى) تدخلا غير مشروع اذ حكم بنفسه بما يخالف فتوى العلماء ، ثم بادر بالتنفيذ ظالما غير منصف ، وذلك لا ينقص قدر هؤلاء الذى عارضوه وجابهوه ، ثم لم يجدوا الاستجابة من جبار يركب رأسه دون استحياء ·

لقد نمي الى (صاحب الحجاب) وكان يقوم بمهمة مدير الأمن ، أن رجلا من الناس يأتى ببيت صديقه في غيبته ، وأنه على صلة منكرة بزوجته ، فراقب الحــاجب المنزل ، وداهم العاشقين وما زال بهما ضربا وتبريحــا حتى أقــرا بالفاحشـــة ، فحملهما على حمارين ـ كالعادة حينئـذ في التجريس ـ وطيف بهما على الناس ووراءهما حشـــد من الرعاع لتعلن فضيحتهما على الناس ، وفرض عليهما ضريبة فادحة أدياها ، وكان من المنتظر أن يقف الأمر عند هـــذا الحد ، ولكن السلطان الغورى علم بما كان ، فحول المسألة الى القضاء ! ونظر القــاضى المختص ، وناقش المتهمـين ، فعرف أن اقرارهما كان بالاكراه تحت سياط ظالمة ، وعلى ذلك فلا حد ، ثم أخذ رأى زملائه فأجابوا جميعـــا بأن الرجوع في الاقرار يسقط حد الزنا ،ولكن قانصوه الغورى لأمر في نفسه صمم على أن يرجم المتهمان ، ودعا علماء مصر وقضاتها الى مجلس خطير تصدره بنفسه ! وكان العلمــاء على بينه من مكيدته، فأجمعوا على أن يقولوا كلمة حق دون مبالاة ، وفى مقدمتهم شيخ الاسلام زكريا الأنصارى ، وهو

مع سنه العالية ذو رسوخ وايمان وعـــزيمة ، ولم يشـأ الغورى ان يترك النقاش حرا يجرى على سنن مستقيم فيدلى كل عالم برأيه دون ارهاب ، ولكنه تنمر محتدا ، وصاح بشيخ الاسلام فى مبدأ الاجتماع يقول غاضبا :

ـ كيف يا شـــيخ زكريا ، يضـــبط رجل فى منزل عشيقته ، ويقر بالجـريمة ، ثم يتراجع فتقرون أنتم بالرجوع ؟

فسكت زكريا الأنصارى كمن يريد أن يهدىء السلطان قليلا حتى يراجع نفسه فلا يشتط ، فقلب الغورى عينيه فى الحاضرين ، وقال لهم ماذا ترون ؟ فأنبرى أحد القضاة يقول : للمعترف بالزنا أن يرجع عن اعترافه ، وقد كان رسول الله يراجع المعترفين فيقول لأحدهم : لعلك كـذا ، ولعلك كذا ، ليفسح السبيل ويدرأ الحد بالشبهات !

فاحمر وجه الغورى ، وتوقدت عيناه غضـــبا ، وصرخ يقول : أنا ولى الأمر ، ولى الحق فى اصدار الحكم بالرجم ، وليس لكم أن تقفوا أمامى باسم الدين !

وظن الحاكم المستبد أن قوله هذا سيقطع كل اعتراض ولكنه فوجىء بمن يصيح به من القضاة قائلا : لك الحق أن تصدر الحكم اذا كان متفقا مع الشرع ، فان أصررت على رجم المتهمين ، فأنت مذنب وعليك ديتهما .

ارتج المجلس ، وهاج الأمراء من المـــاليك ، وتطـور أحمقهم فهجم على القاضى الجرىء ، وسحبه من ثيابه وأجبره على الخروج ، وأزبد السلطان مرعدا ، واتجه بحديثه الى شيخ الاسلام زكريا الأنصارى يقول له : ما رأيك أيهـا الشيخ .

فقال زكريا : الرجوع بعد الاعتراف يســقط الحق ،

وجمهور الأئمة على ذلك دون خلاف .

فتبسم الغورى تبسم المستهزىء وصاح متهكما ! أهذا عا يرضي ذمتك يا شيخ الاسلام ، فقال الشيخ زكريا في قوة ، ويرضى ذمم العلماء جميعـــا ، وأولهم امام المذهب وساكن مصر الشافعي رضيالله عنه ، وذمته فوق التجريح .

لم يتحمل الغورى سطوة الحق ، وخرج عابسا ، ودعا بالمتهمين فأمر برجمهما وأصدر قراره بتشريد القضاة الى أماكن نائية مع الاعتـــداء بالضرب على من جهـر بالحق ، فاشتعل غضب العامة ، ولزم الفقهاء بيـــوتهم متذمرين ! وكانت قطيعة واجبة أمام متعسف يركب عواه ، ويتدخل في القضاء دون مبرر ! ولم تمض أيام حتىفوجيءبهجوم خصمه السلطان سليم الأول على مملكته فهرع للدفاع ! ودارت الدائرة عليه فالقى مصرعه ، حين تلاقى ظالم جبـار بظالم جبار في مرج دابق ! ولكل شر انتهاء .

هذه صفحة من بطولات العلمـاء في أســـود عهـــود الاستبداد ، ولها نظائر كثيرة يجدها القارىء فيما يلى هذا الباب .

فى العصر العثمانى

زاد انحدار الأحوال سوءا فى العصر العثمانى ، لأن السلطة فى العصر المملوكى كانت فى يد طائفة واحدة هى المماليك ، ولكنها صارت فى يد فريقين متنابذين فى العصر العثمانى ، هما سلطة تركيا ويمثلها الوالى المختــار من الآستانة وسلطة المماليك ، وهم ينظرون بعيــن الكراهيــة والحقد الى الوالى ، ويحاولون البطش به اذا أنســوا من الدولة العثمانية انصرافا عن الشئون المصرية اذ كان حالها كما وصفه الأستاذ محمد فريد أبو حديد بقوله :

« وبلغ الاضطراب معظمه فى أوائل القرن الثامن عشر ، اذ كانت الدولة العثمانية تعالج ما أصابها فى اســمها وكيانها ، وتتلفت الى عدو مخيف وهو روسيا هبط عليها من شمال البحر الاسود . فى حين كانت النمسا تطعــن جانبها من ناحية الغرب ، فكانت لا تستطيع أن تمد يدا الى ممثلها فى مصر ، لتنصره على الأمراء المماليك الذين ظلوا مع مضى السنين والقرون لا ينسون ذكرى موقعة (مرج دابق) ولا يغيب عن أذهانهم أن سليما العثمانى قد عدا على دولة أسلافهم المجيدة فاغتصبها ونقل عنها ما كان لها من عــز وعظمة ، وأصارها الى ما صارت اليه من التبعية والصغار ، فكانوا اذا رأوا ضعف الدولة واشتغالها بما أصــابها فى

أوربا لا يتركون الفرصة، ولايدعونهاتفلت من أيديهم بغير أن يستعيدوا شيئا من الامر الذى سلب من أسلافهم منذ قرنين » .

هذا النزاع بين ممثلى الدولة العثمانية وأمراء المماليك . كان ذا أثر سيىء على الشعب ، لان الوالى اذا اشتد أزره بمعاونة من قد ترسلهم تركيا من جنود الحملات التأديبيه لأمراء المماليك ! هذا الوالى ينتهز موضع قوته فيحاول الاثراء بما يفرضه من الضرائب والمكوس ، وقد تأتيه أوامر سلطانية من الآستانة تدعو ، الى جمع الأموال فينتهز الفرصة للغضب غير المشروع ليرضى دولته بقسط مما يجمع مدخرا القسط الكبير لنفسه ، لأنه يعرف جيدا أن مدته فى مصر لا تتجاوز العام أو العامين ولابد أن ينقلب الى أهله ذا ثراء بما سلب ، اذ كان من سياسة الدولة ألا تهمل واليا أكثر من أمد محدود كيلا يشتد قوته فيحاول الاستقلال بالبلاد ، أما أمراء المماليك فيفتحون عيونهم جيدا الى مقدرة الوالى فان أنسوا منه الضعف ، وتراخت الدولة عن اسعافه لما يدهمها من الأحداث فى أوربا فانهم يستأسدون ويعلنون جبروتهم ، ويرسلون عيونهم الى التجار وأصحاب الثراء متلمسين من تظهر عليه آثار النعمة كى يسلبوه كل خير ! وتلك حال محزنة حقا ، لأنها تجعل الشعب الأعزل بين شقى الرحى . وقد تكالب عليه الشر من شمال ويمين ! ولكنه مع ذلك لم يهن ولم يتضعضع ، ووجد فى علماء الأزهر من أخذوا بناصره ، ومن قادوا غضباته المتوالية فعبروا عن سخطه فى مواجهة الوالى تارة وفى مغاضبته الأمراء تارة أخرى ، وتاريخ الجبرتى ملىء بأحداث رائعة تكتب بالذهب حين تسجل كفاح علماء الأزهر فى هذا الليل

الحالك ذى الارهاب! ومع أن كتاب الجبرتى قد تعددت طبعاته وانتشرت نسخة فى الشرق وترجماته فى الغرب فان من يكتبون تاريخ مصر بعين الهوى المغرض يحاولون أن ينسوا كل ما ذكره هذا المؤرخ المنصف عن كفاح العلماء فى وجه الطغيان ، وكأنهم يتشعرون راحة نفسيه حين ينتقصون الشعب ويرونه بمعزل عن أحداث عصره، بل يسرهم كل السرور أن يعلنوا أنه كان صاغرا مستكينا يرحب بالضيم ، ولا يرى وجها للمطالبة بحقه المشروع فى العدالة والانصـــاف ، ومنهم من يفترض الفرض الكاذب ويراه حقا صريحا يحاول تعليله بأنك مماثل ، وذلك حين يزعم هؤلاء المغرضون أن طبيعة الشعب المصرى أن يستكين لأنه تعود الذلة منذ أجيال ، ولأن دينه يفرض عليه الرضا بالقدر خيره وشره ، وذلك باطـل صريح ، لأن الشـــعب المصرى فى حكم الطولونيين والفاطميين والأيوبيين والمماليك لم ينظر للحاكم على أنه دخيل أجنبى ، ولكنــه نظـر اليه باعتباره مسلما يحكم شعبا مسلما فرضى به ! بدليل أنه أعلن الثورة الهائجة على نابليـون فيما بعد وعده دخيـــلا أجنبيا لا طاعة له ، بل أن نابليون قد عرف ذلك حق المعرفة وتظاهر بالاسلام وأدعى اعتناقه ليسكت الغضب الثائر ، فلم ينخدع الشعب اليقظ بشىء مما كان ! أما الرضـــا بالقدر دون أخذ للأهبه وتحفز للكفاح فليس من الاســلام فى شىء ، وتاريخ هذا الدين منذ ظهر نوره فى مكة سلسلة من النضال الباسل ، والوقوف أمام الطغاة ، حتى استطاع أبناء الحنيفة أن يسيطروا على القارات الثلاث فى أقل من قرن واحد ! فكيف ــ بالله ــ يقال انه دين تخاذل وانكسار الا اذا أعمى الفرض العيون فضلت طريق الصواب .

ويطـــول القول لو حاولنا أن نتبع ما ذكره ابن اياس والجبرتي من بطولات العلماء أمام الطغيان فلابد من اختيار وقائع ذات دلالة بارزة ، لتكون بشـجاعتها النادرة مثـلا للأمثلة كثيرة ! وسنلم بنماذج من كفاح العلماء للفريقين المتنابذين فريق الأمراء وفريق الولاة ، ليكون الدليل صريحا ملموسا لا يقبل أدنى مراء .

ونختار الشيخ أحمد الدردير العالم الورع الشـجاع وشيخ شيوخ المالكية في عصره وصاحب الحواشي الشائعة بين الازهريين ، لنكتب صفحة من كفاحه المتواصل ، اذحمل أمانة الجهاد ، وقاد الأمة الى حقها دون نكوص ، ولم يخضع لعوامل الاغراء من قوم يظنون المال والمنصب مما يحرص عليهما ورثة الأنبياء الحقيقيون ، ولكن الحقيقة السـافرة قد بددت هذه الظنون .

ذكر عبد الرحمن الجبرتي في أحداث شهر جمادى الأولى من سنة ١١٩١ هـ (١) أن بعض الأوقاف الخاصـة بطلبـة العلم بالأزهـر من فريق المغـاربة الذين تركوا بلادهـم روسعتهم مصر بأوقافها ومسـاجدها ودورها وعلمائها . بعض هذه الأوقاف كانت هدف اعتداء ظالم من أحد الأمراء الكبار ويدعى يوسف بك ، فاضطر المستحقون أن يلجئوا الى القضاء فحكم لهم بما يستحقون ، وعز على الامير الظالم أن يمتثل لأمر القضاء فرفض الحكم ، وزاد فدفع شـيخ المغاربة الى السجن جزاء مطالبته بالحق ، وفوجىء الطلاب بما نوى الأمير من شر ، فاتجهوا الى أسـتاذهم الدردير ، فلم يظن أن الأمير جاد في تهديده ، وكتب اليه خطابا رقيقا يسأله أن يترك الطالب دون اعتقال ، وما كاد خطاب الشيخ

(١) الجزء الثاني من تاريخ الجبرتي ص ٨ .

يصـــل الى الأمير على يدى طالبين من طلابه ، حتى هـاج وزمجر ، وأمر بالقبض على الطالبين اللذين يحملان الرسالة وزجرهما زجرا عنيفا وفاه بما لا يليق .

قال الجبرتى « ووصل الخبر الى الشيخ الدردير وأهل الجامع . فاجتمعوا فى الصباح وأبطلـوا الآذان والدروس والصلوات . وأوصدوا أبواب الجامع . وجلس المشايخ بالقبلة القديمه ، وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء ، وأغلق أهل الأسواق متاجرهم » .

اضطر الأمراء الى أن يحســـموا الشر حين رأوا علماء الأزهر يلتفون حول الدردير ويقودون حركة مقاومة ناجحة فأرسلوا الى يوسف بك فأطلق المسجونين ، ونادوا بالأمان، انفتح الحوانيت ، ولكن شغبا تجدد بين الطـلاب وبعض الخصوم ، فقامت معركة دموية ضـــاعت فيها أرواح من الفريقين ، واستفحل الشر ، وزاد الهرج ، فتزعم الدردير ثورة الانتقام ووقف وراءه التجار وطوائف البلد ، فخاف الأمراء أن تصل الأنباء الى السلطان وأن يعجل بالانتقام ، واجتمعوا للتشاور فأرســلوا أحد كبرائهم الى الشـــيخ السادات فحذرهم من مواجهة العلماء، ودعا بمن يرسله إلى الثائرين كى يحضروا من يمثلهم ، والشـيخ الســـادات ضامن كفيل ، وبعد رد وأخذ اجتمع الفريقان فى مسجد المؤيد ، وخضع الأمراء الى ما طلبه الشـــيخ الدردير من الرجوع الى الحق ، وأن يبتعد أتباع الأمراء عن المرور بحى الأزهر اذ هم مبغوضون منبوذون ، وكتبوا كتبا تشــــهد بالصلح وعدم الاعتداء وانتهت المسألة بانتصار الدردير .

يقول الأستاذ محمود الشرقاوى تعليقـــا على هـــذا الموقف .

« لم يكن فى هذه الفترة من تاريخ مصر من يستطيع أن يقف مثل هذا الموقف مع أحد من المماليك، ولا مع تابع من أتباع المماليك ، ولم يكن أحد من العامة ولا من الخاصة مستطيعا فى هذه الفترة من تاريخ مصر ، أن يرد مبعوثا بعث به يوسف بك ، أو أن يصيح من فوق المنبر بالدعاء على المماليك ، أو أن يكتب الى أحد منهم كتابا ينبهه فيه الى أمر يقضى بعدم التعرض لأهل العلم ومعاندة الحكم الشرعى »

الى أن قال الأستاذ الشرقاوى (١) « ولا يظن ظان أن أهل الأزهر كانوا فى غضبتهم نفعيين تحركهم الرغائب والمصلحة الخاصة ، حين يغضبون فى أمر أوقافهم اذ أن فيما يذكره الجبرتى فى صفحات كثيرة من تاريخه ما يظهرها على أن أهل الأزهر كانوا يغضبون أشد الغضب فى أمور الله لا لمنفعتهم الخاصة » .

وما توهمه الأستاذ الشرقاوى رحمه الله ممتنع ، لأنه يعرف جيدا أن الدردير وعلماء الأزهر لم يثوروا لانقطاع أرزاقهم ! ولكن الطلاب من المغاربة قد لجئوا اليهم فوجب عليهم أن يأخذوا بناصرهم ، فالامر ليس أمر الاساتذة، ولكنه أمر نفر من الطلاب ، بدليل أن الشيخ الدردير قد تابع مواقفه النضالية فى ظروف لم تكن أسبابها ترجع الى أحد من أبناء الأزهر ، بل الى نصرة الحق المهتضم على أيدى الغاصبين .

ففى بعض أيام الأول سنة ١٢٠٠ هـ قام طاغية من طغاة المماليك ، ومعه طائفة من جنوده باقتحام دار آهلة رآى عليها معالم الثراء فنهبا وأخذ ما فيها عنوة ، فجزع الناس وتجمعوا طوائف ، واتجهوا الى الأزهر الشريف ، فقابلوا الشيخ الدردير فغضب غضبا شديدا ، وقال أنا معكم ولابد

(١) مجلة الازهر المجلد ١٩ ص ٢٦١ .

من الانتقام ، ثم أوصد أبواب الجامع الازهر، وصعد المؤذون الى المآذن يضجون ويدقون الطبول ، وتلك وسيلة الاعلام آنذاك لاذاعة الخبر الكريه ، فانتشر الناس من كل فج حتى ملأوا الأسواق ، وأوصدت المتاجر ، وخرج علماء الأزهر ، وعلى رأسهم الدردير ، وقال لابد أن نسير الى بولاق حيث يسكن هؤلاء الأمراء ، ولابد من نهب بيوتهم وسينصرنا الله عليهم أو نموت شهداء ، وفزع شيخ البلد ابراهيم بك فأرسل الوفود الى الدردير ، وطلب أن يرسل قائمة بجميع ما نهب حتى يرده ، وقد كان .

ولم تكد تمضي مدة يسيرة ، حتى جد حادث مماثل في طنطا ، اذ كان أحمد الدردير يزورها في المولد الأحمدى ، فجاء كاشف الغربية وفرض على النـاس ضرائب ثقيلة لا طاقة لهم بها، ثم استاق كثيرا مما أمامه من ابل وماشية وعروض تجارة غير عابيء بضجيج العامة وصراخ النساء ، فركب الشيخ الى الكاشف ووراءه حشود الناقمين وناداه لائما مهددا ، وخرج الناس عن طورهم فضربوا من بالمنزل ورجموا أهله بالطوب وقامت فتنة كبيرة فتراخى الكاشف وفزع يطلب الصلح معتذرا عما كان ، وسـافر الدردير غاضبا الى القاهرة فأذاع ما رأى وسـارع الى ابراهيم بك يعلمه بما كان ، فأخذ يبدى اعتذاره والشيخ ثائر لا يهدأ .

لقد كان علماء الأزهر لسان الشعب حقا ، واذا غابت صحيفة جهاد هؤلاء من أخبار ابن اياس والجبرتى فقد سـجل التاريخ عار الأبد على قوم يظلمون فيستكينون ، ولكن الله قد حفظ لهذا الوطن العزيز أبطاله الكبار فحملوا أمانة الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكـر وهم بازاء همج

لا يعرفون للكرامة معنى ! فالأمير من المماليك قد نشأ على حب نفسه فحسب وقد خيل اليه أنه كلما ازداد مالا وأتباعا وعبيدا علا صيته وتمهدت الامور الى رآسته الكبرى . ومن أين يأتى الثراء الا من عرق الشعب الكادح فلينهب المتاجر ، وليقتحم المنازل ، وليسرف فى العدوان ! غافلا عن انتقام الله ! وقد كان الانتقام الساحق فى الحملة الفرنسية حين حصدت فلول الأمراء فى أول لقاء .

ونترك الشيخ الدردير الى عالم كبير هو الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ العلماء ، فقد كان يملك أرضا فى بلبيس ، وجاءه أقاربه يعلنون أن محمد بك الألفى قد داهم البلدة ، وأخذ ما وقعت يده عليه وفرض الضرائب الباهظة ، فاستاء الشيخ ، وعمد الى الموقف المعتاد حيث عطل الدراسة بالأزهر ، وصعد المؤذنون على المآذن فأعلموا الناس بما جد من خطر ، فتركوا متاجرهم وتعطلت الأسواق ، ثم تزاور الشيوخ ، وتناقش العامة فى الطرقات حتى تم الاتفاق على الذهاب الى بيت الشيخ السادات ، وهو قريب من بيت ابراهيم بك كبير المماليك لوقته ، ونظر فرأى الضجة ، وانتهى اليه سخط العلماء ومن ورائهم العامة على مايكابدون من البغى ، وجاءه الطلب الصريح من قادة الأزهر بضرورة رفع الجور واقامة الشرع ، وابطال المكوس الجائرة ، فاتصل بالناقمين كالمهدد ، فقوبل بهجوم لا عهد له به ، واحتج بكثرة نفقات الأمراء ، فجابهه العلماء بأن النفقة لا تأتى عن طريق السلب والأمير لا يكون أميرا لأنه يأخذ ويسلب بل لأنه يعطى ويمنح ، فاذا كان غاصبا ناهبا فهو قاطع طريق لا أمير ، وتأزم الموقف وقد رجع العلماء جميعا الى الجامع الأزهر واعتصموا به دون أن يفارقوه الى منازلهم

واستمرت المتاجر موصدة ، والأسواق معطلة والصيحات الناقمة ترتفع من المآذن ، واتصل الأمراء بالوالى العثمانى فأخذوا يتشاورون ثم جاءوا جميعا يعلنون خضوعهم الى مطالب علماء الأزهر اذ يبطلون الضرائب المستحدثة ويمتنعون عن مصادرة الأموال . ونهب المتاجر ، وجاء قاضى القضاة فكتب وثيقة بذلك على الامراءلتكون موضع الالزام فسجلت حقوق الانسان فى وطنه اذ يعيش حرا آمنا على نفسه وأهله وماله ، وقد وقعها الوالى والقاضى والأمراء ، وحفظها علماء الأزهر لتكون موضع الاحتكام .

يقول الأستاذ محمد فريد أبو حديد معلقا على هذه الأحداث :

« ونحن اذا بحثنا حال فرنسا قبل ثورتها لا نستطيع أن نرى من بوادر ثوران النفوس فيها أكثر مما بدا فى أواخر القرن الثامن عشر فى مصر ، فان فرنسا ظلت على ما كانت عليه من سوء الحكم ومن العبث بالحريات الى أواخر ذلك القرن ، لا بل ان سوء الحكم فيها قد زاد فى أواخر ذلك القرن عما كان فى وسطه ، فكانت أفاعيل لويس الخامس ، وخليلته المشئومة فى أواخر ذلك القرن جديرة بكل حنق وغيظ . ولكن الفرنسيين لم يثوروا عند ذلك . وانما كانت ثورتهم فى أيام الملك الطيب الذى جاء فى عقبه » .

ونحن ننقل حديث الكاتب عن فرنسا ، لا لنتخذ منها القدوة ، بل لنقول للناس ان الظلم منتشر فى كل مكان وأن العاصمة التى تسمى اليوم مدينة النور كانت ليلا ترزح الأهوال فى دياجيره بالأمس ، فالذين يحاولون انتقاص المصريين حين قهرهم الظلم فى عصر من الأعصار

عليهم أن يعلموا أن هذا الظلم من طبيعة البشر لا يختص به قوم دون قوم أو موطن دون موطن ! واذا ظلمت وثرت على الظالم فقد حفظت كرامتك ! وهـــذا ما قام به علماء الأزهر فى غياهب الأحداث .

فاذا تركنا أمراء المماليك الى بعض مظـــالم الولاة من الأتراك ، فاننا نجد علماء الازهر لم يكسنوا عما يرونه من ضيم ، وصحف الجبرتى تسجل لهؤلاء فى مقاومة الولاة بطولات ذات مجد ، ومنها ما حدث فى عام ١١٤٨ هـ حين أرسل السلطان العثمانى من يعلن أمره العالى بابطال بعض ما يصرف فى بعض وجوه الخير من مرتبات ، وقد قرىء الامر على من حضر من العلماء فى اجتماع عقد لذلك فبدت الدهشة على الوجـــوه اذ كيف توقف نفقات المساجد والمستشفيات ، وقد رأى القاضى التركى دلائل الغضب فقال : هذا أمر السلطان وهو واجب الطاعة اذ لا يعصى أمير المؤمنين !!

فقام العالم الأزهرى الشيخ سليمان المنصورى محتدا ، وهو يقول للقاضى ماذا تقول يا شيخ ؟ أمر السلطان ينفذ اذا كان يتجه وجهة الخير ! وهذه المرتبات قدأحدثهانائب السلطان لضرورة يراها ، وأمر نائب الســـلطان كأمـره تماما ، فلماذا نلغى أمر النـائب مع نفعه ، ونطيـع أمـر السلطان مع ضرره ! هـــذه النفقات مما جرت به العـادة وتداوله الناس ورتبوه على المساجد والأسبلة ووجوه الخير فاذا بطلت بطلت هذه الشرائع ، وأمر السلطان لا يسلم فيما يخالف الشرع !

وناصر الحـــاضرون من يتكلم فى جـرأة ، حتى بطل المشروع .

وثانية أخرى من هذا الوادى ! فقد جاء أمر السلطان

بضرورة جمع المال لايفاد كتيبة من جنود تركيا لتحارب المماليك في الصعيد! واجتمع مجلس من العلماء وذوي الرأي لاقتراح الوسائل لجمع المال ، فقام الشيخ العروسي كبير علماء الازهر لوقته وجهر بمعتقد الشعب الصريح في العثمانيين والمماليك حين قال : ماذا يهمنا من نزاعكم مع الامراء سيروا اليهم أما أن تغلبوهم أو يغلبوكم فلن يعود علينا شيء!! وكان هذا القول أكبر من أن يحتمل اذ أن معناه الصريح أن العثمانيين ظلمة كالامراء ، وأن الشعب بمنعزل عن الفريقين ، وهو قول صحيح لامرية فيه ولكن الجهر به في اجتماع رسمي يحضره حسن باشا القبودان قائد الجيش العثماني ومبعوث السلطان الى مصر ، يدل على أن الصبر قد نفذ ، وأن المسألة لا تتطلب الاحتمال ، كما يدل على أن الحق يجد أنصاره من أفذاذ العلماء .

وفي كلام الجبرتي حديث طويل عن مظالم مراد الطاغية ومجابهة العلماء له ، وفيما تقدم ما يغني عن التطويل بذكره لأن الرجل ظالم بغيض ..

الأزهـــــر
والغزوة الفرنسية

كان الأزهـر وحده هو جامعـة الثقـافة المصرية حين تعرضت البلاد للغزو الفرنسى بقيـادة نابليون ، ومعنى ذلك أن علماءه كانوا ذوى التوجيه الهـادف ، والزعامة القائدة بين الجمهور ، ولئن كانت الثورة العرابية بزعامة أحمد عرابى الأزهرى الباسل وثورة سنة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول الأزهرى الغيور فان هاتين الثورتين قد جمعتا فى قيادتها المخلصة أبطالا مصريين لا ينتمون الى الأزهـر ولكنهم يشاركون رجاله حبهم لمصر وعملهم على انقاذ البلاد من براثن الطغاة ! أما الزعامة الموجهة أثنـاء الاحتـلال الفرنسى فقد خلصت لعلماء الأزهر ورجاله ! أقـول ذلك لأن بعض الكاتبين عن المقاومة المصرية أثناء هذا الاحتلال الغاشم قد أجهد نفسه اجهادا شـديدا ليبعد بالعمـل النضالى عن الازهر ورجاله ! وليذهب به الى شخص واحد لا نكاد نجد له ذكر افعالا لدى الصادقين من مؤرخى هذه الحملة ! وهذا هو الظلم الصريح المجابه لضوء الشمس فى رائعة النهار ، لينكر أشـعتها التى تضىء الرحاب وتملأ شعاب الكون ! واحترام الكلمة يلزم الكاتبين فى ميـدان التاريخ أن يبعدوا بأهوائهم الشخصية عن قدس الحقيقة، فليس التاريخ قصة تلفق فى متاهات الخيال ولكنه وقائع

ذات شهود وأبناء ورواة ومؤرخين ! ولن يصنع الذكاء الخارق شيئا ذا بال فى طمس هذه الحقائق . اذ أن الذكى مهما بالغ فى اقتداره الاحتيالى سيجد من يفوقه ذكاء ويزيد عليه غيرة وحمية فى نصرة الحقيقة ولابد أن ينكشف احتياله اذا تجلت الحقائق دون لبس ، وفى ذلك خزى لمن مارى ودلس عن غرضه ، ليشبع رغبة ذاتية ترضى حاجة فى نفس يعقوب .

لسنا ننكر - شهد الله - جهود المواطنين فى كل مكان لأن الثورة على الاحتلال قد عمت أرجاء البلاد ، ونهض فى كل اقليم بحرى وقبلى من قاد المعارك فى شراسة ، ومن جمع الناس من خلفه ليجابهوا الزحف الفرنسي، وقد شهد كتاب فرنسا أنفسهم ببطولة هؤلاء العزل من الأحرار الذين كانوا يهجمون على المدافع فى الريف مستشهدين وليس معهم غير العصى والهراوات ، كل ذلك مدون مسطور فيما كتب الشرقيون والغربيون معا !! فاذا جاء كاتب ذو غرض يسير بالأحداث سيرا معوجا ، فقد ضل الطريق .

قدمت الحملة الفرنسية فى عصر أسود ، اذ كان الطاغيتان ابراهيم ومراد يحكمان البلاد حكما رهيبا لايعرف معنى العدل ، وكلاهما جاهل لا يعرف شيئا من أمور السياسية الدولية ولا يظن الدنيا تجمع قوة أقوى من قوة المماليك الذين يتبعونه ، هذا الى تهور مراد وبطشه وسفكه للدماء دون مبرر حتى ترك كثير من الفلاحين أرضهم وحملوا أطفالهم الى حيث لا يعلمون ، وقد تعلل نابليون بما حاق التجار الفرنسيين من مظالم على يد مراد لأنه أثقلهم بالمغارم الفادحة فى القاهرة والاسكندرية ورشيد ، اذ كانت لهم متاجر رابحة فى هذه البلاد فوالى مراد استنزافها

ومصادرتها ، حتى شكت فرنسا صنيعه الى الدولة العثمانية وقامت تركيا بتحذيره فلم يهتم !! أقـول تعلل نابليـون بذلك أمام الشعب المصرى ليبدى ستارا خادعا فحسب، لأن احتلال مصر كان سياسة ضرورية فى رأيه ليقف أمام انجلترا موقف من يسـيطر علىَ مسـتعمراتها فى الشرق ويحول دون اتصالها المطرد بهذه المسـتعمرات ، كما أنه متنفس لفرنسا كى تشعر بامتدادها الاستعمارى على نحو يرضى غرورها الجشع ، وحين علم مراد بالغزو الفرنسى استهزأ به ، وظن القادمين فلولا مرتعشة ترجف من سطوة المماليك ، وقد عبر بذلك لقنصل النمســا حين قال ان الفرنسيين (فستق) للأكل لا للحرب ! ثم جمع لمقاومتهم جيشــا ضم اثنى عشر ألفا منهم ثلاثة آلاف من المماليك وتسعة آلاف من الفلاحين والعرب الذين لا يعرفون بدائه القتال ! ولا نسرف فى وصف هده المعركة الأليمة ، فقد انتصر نابليون واحتل البلاد ..

نزل القائد القاهرة واثقا مفتخرا ، ومال الى الكياسـة فأعلن حبه للشعب المصرى ، وقد جاء لينقذه من بطش المماليك والعثمانيين ، فهو يحب الاسلام ويقدر شريعته ، ثم أنشأ ديوانا لحكم مصر جعل أعضاءه عشرة من كبـار العلماء ليوهم الشعب أنهم الحاكمون ، وجاءت مناسـبة المولد النبوى فاحتفل به احتفالا باهرا ، كما احتفل بوفاء النيل احتفالا مماثلا يفوق ما عهد فى أيام مراد ، اذ أطلق المدافع ، وزين السفن بالمصابيح ، وأظهر ابتهاج جنده بما يشاهدون ! وظن بعد ذلك كله أن الأمر استقر ، وأن الريح ستجرى رخاء فى مقبل أيامه .

اخذ ابطال المقاومة يتجمعون ، وكان الأزهـر محلهـم

المحاربين . فكدسوا الأسلحة في أروقته وزواياه حتى اذا استوثقوا من قوتهم صعد المؤذنون ينادون بالجهاد على المآذن ، وفي مذكرات نابليون ما يثبت أن لجنة بالأزهر كانت تسمى لجنة الثورة وأن رئاستها كانت للشيخ السادات ، وأن علماء الأزهر كانوا يطوفون بالشوارع محرضين ، كما قدرت المصادر الفرنسية عدد الذين تجمعوا بالأزهر تحت قيادة علمائه بخمسة عشر ألفا ! وقد التقى بهم الجنرال ديبوى فقتلوه حين أطلق عليهم الرصاص يقول الأستاذ محمود الشرقاوى (١) ٠

« ثم جاء اليوم الثانى وقد أصبح الأزهر مقر القيادة يعج بالثائرين ، وأحيطت جميع الشوارع والمنافذ الموصلة اليه بالمتاريس ، كما أخذت القيادة الفرنسية أهبتها لتحطيم الثورة وقمعها ، وطلب القائد الجديد (بون)الى نابليون أن يأذن له فى اتخاذ أقسى الوسائل صرامة مع الأزهر وقيادة الثورة فيه ، وكان الفرنسيون قد نصبوا مدافعهم الثقيلة على التلال والأماكن العالية التى تحيط بالقاهرة ، فلما أصبح الصبح كانت آلاف كثيرة قد دخلت القاهرة قادمة لنصرة الثورة فيها من البلاد المجاورة لها ، وكان الثائرون قد اتصلوا بأهلها ، وأوقفوا على أبواب المدينة حرسا منهم يأذن لهم بالدخول ، ويوجههم الى أماكنهم لتعزيز الثورة ، فقدم من الجيزة وقليوب والزيتون والمطرية والقبة والمرج خلق كثير ٠

لم تكن الثورة شيئا يسيرا اذن ، وحسبك أن تعلم أن الثائرين قد بارحوا الجامع الأزهر الى مقر القيادة الفرنسية بالأزبكية ، ومقر القيادة هو عرين الأسد الذى تحوطه

(١) تاريخ مصر فى القرن الثامن عشر ص ٥٢ .

القذائف ذات الهول ، والرصاص ذو النفاذ ، ولكن الأبطال قد تسلقوا احدى المآذن القريبة من المقر وأخذوا يرسلون وابلا من الرصاص ، ودهش الفرنسيون لهول المباغتة ، فجاوبوا الثائرين نارا بنار ، ولكن المهاجمين أصروا على الضرب وواصلوه في شجاعة غير متوقعة ، فسقطت الشرفات وانهارت الجدران ، وكان الانتقام رهيبا اذ تجمع الفرنسيون ليقتحموا المسجد ، وليصعدوا الى المئذنة وليلسطوا المدافع على كل من يجدونه ! حتى النساء اللاتى كن يقدمن الذخيرة للثائرين فذهبت أرواحهن مع الذاهبين .

ولم يهدأ نابليون بعد أن تحطم المسجد مبنى ومئذنة ! بل اتجه تفكيره الى المسجد الاكبر ، الى الجامع الازهر فحول الكتائب الزاحفة اليه ، فواصلت الضرب الصاعق من الظهر الى الليل ، ثم اتسع ميدان التحطيم الى حيث شمل مناطق الغورية والفحامين والصنادقية والكحكيين وباب زويلة ! وكأن المراد ان يهدم كل حي يتصل بالازهر من قريب أو بعيد ، وهي روح انتقامية تصور ما يعتلج فى نفوس الغزاة من الحقد والتشفي ، وما يضطرم بها من الغليل ، واذا أردت وصفا لبعض ما كان على لسان الغزاة أنفسهم فاستمع الى ما دونه (ريبو) عن هذه المعركة ، ونقله عبد الرحمن الرافعى (١) .

« أوشك الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب ، فتدفن تحت أنقاضه الجماهير المحتشدة به ، وأصبح الحى المجاور من الأزهر صورة من الخراب والتدمير ، فلم تجد الا بيوتا مدمرة ، ودورا محترقة ، ومات تحت الانقاض آلاف من

---

(١) تاريخ الحركة القومية جـ ١ ص ٢٩٧ .

السكان الآمنين ، كان يسمع لهم أنين موجع وصيحات مرعبة »[1] .

ان الذين يصفون الشعب المصرى بالاستكانة والرضى بالاحتلال ، يجب أن يقرءوا ما دونه قادة الفرنسيين أنفسهم عن ثورة هذا الشعب ، ليعرفوا أن هؤلاء الذين أنهكهم حكم المماليك لم يسكتوا عن التضحية بأرواحهم فى معركة يعرفون جيدا انها غير متكافئة الاقران ، بل تقول انهم آثروا الاستشهاد المحقق على حياة يرى فيها الاجنبى شامخا باحتلاله ، فخورا بغزوه فجمعوا كل ما قدروا عليه من وسائل الدفاع ، ورموا بأنفسهم فى فوهة الموت ليريحوا عواطفهم أن تستفز برؤية دخيل بغيض ! وهل تكون الشجاعة في أبهر صورها غير شجاعة انسان غيور غضوب يؤثر الموت على الحياة حين يرى تحكم العدو فى نفسه وأهله وذويه ! ولو كانت الاستكانة صفة حقيقة لهذا الشعب المفترى عليه ، لآثر الخضوع ، ونابليون يعده الأمانى ، ويشاركه احتفالاته الدينية ، ويعلن حبه للدين الاسلامى ، ويؤلف مجلس الحكم من كبار العلماء ! ويمنع ما عهد فى المتاجر والاسواق أيام المماليك من السلب والنهب والاغتصاب ! ويبدأ فى تنظيم الشوارع ، ونظافة المسالك بما لم يعهد من قبل ! كل ذلك لا يساوى ذرة واحدة من ذرات الكرامة المستباحة ، ولان يزن ذبابة فى ميزان الحرية المنشودة ، والاستقلال المراد ، وما يقال عن القاهرة يقال عن المقاومة المستبسلة فى كل صقع على أيدى أناس بررة من ذوى النخوة المثالية ، ولسنا بصدد التاريخ للحملة الفرنسية حتى نستفيض فى تسجيل بطولاتهم الرائعة ، ولكننا نشير اليها مستدلين على روح العزة

الإسلامية التى تملأ نفوس الشعب المصرى ، وترتفع به عن دركات المذلة والهوان .

وحين سكتت أفوه المدافع بعد أن أحدثت بشائع التخريب ، وفظائع التدمير ، اتجه نابليون الى الجامع الأزهر ، وعواطفهم تلتهب سخطا وغيظا ، وقد أبيد من فيه من المقاتلين ، فلم يجدوا انسانا يتحرك ، ولكن كيف يشفون غليلهم منه ، وهو خلاء من العلماء ، قفر من الطلاب بلقع من المجاهدين الثائرين ، لئن فاتهم أن ينتقموا من القاطنين فلينتقموا من الجدران والأعمدة والنوافذ والمنابر ، لقد دخلوا المسجد الحرام راكبى الخيول شاهرى السلاح ، وأخذوا يتخطرون في صحنه الواسع ، ثم ربطوا خيولهم بقبلته ، وداهموا الأروقة وخزانات الكتب ، ومصابيح السقوف ، وقناديل الاضاءة ، ونهبوا ما وجدوه ذا نفع من الأوانى والقصاع والودائع والمدخرات ، أما الكتب فقد نثرت على الأرض لتلتهمها النيران ! وأما المصاحف وهى أعز شىء فى الأزهر فقد ديست بالنعال ! لا أقول ذلك توهما أو جريا مع الخيال ، ولكنى أرجع الى الجبرتى وأجد يصور الكثير مما أعجز عن استيفائه ! والعجز عجز شعور يكتوى بالحسرة ، واحساس يلتهب بالغيظ لا عجز قلم يكتب ، وورق يسود ، فما أهون ما يجرى القلم سابحا مسطرا ، ولكن المجال الرهيب يعقل كل جامح سباق ! ولا يجب أن نقول أن نابليون قد عثر على أسماء الزعماء فأعدم منهم ثمانين بطلا فدائيا نجا من القنابل ليواجه الانتقام وفيهم خيرة العلماء والتجار والصناع ووجوه البلاد وأعيانها ممن زحفوا من الأقاليم النائية ناصرين مسعفين ! وقد قال المسجلون للأحداث ان الاعدام كان يتم على فترات

بحيث يفاجأ المصريون فى الصباح برؤوس ترمى فى الطريق لتكون عبرة لمن اعتبر ، وهو عمل تسأل عنه ما تسمى بثورة الحرية والاخاء والمساواة في فرنسا ، وهى شعارات زائفة يكذبها الواقع الصريح ، ولا تعدم بين ذيول الناس من يتشدق بها ، وهو يعلم دواهيها الراعبة فى كل بلد محتل ، ولكن الآذان صم والعيون فى عماء .

ثارت القاهرة مرة ثانية فى عهد كليبر ، وأوجز ما يقال فى هذه الثورة أنها كانت حريقا التهم الأحيـاء الشعبية جميعها ، اذ كانت مبعث الثورة الممتد الى كل الجهات الأربع من الأزهر الى بولاق وأبو الريش ، ولا يستطيع أحد أن يملك دموعه وهويقرأ ما سطره الجبرتى متحدثا عما شاهد من الأهوال ، بل أن الفرنسيين أنفسهم قد أبدوا الدهشة لما تم بعد أن سكتت المدافع وهدأت النيران ، يقول المسيو « جولان » بصدد ذلك .

« وقع الهجوم العام على القاهرة يوم ٢١ ابريل وكان هولا هائلا شاملا جميع الحارات ، فصبت المدافع قنابلها على المدينة الثائرة ، ودوى صوت الضرب فى كل مكان وظل اطلاق القنابل والرصاص متواصلا طوال الليل ، وشبت الحرائق فى جهات متعددة ، وأخذت النيران فى كل لحظة تلتهم المنازل بعضها اثر بعض ، وأحدثت النار من الخرائب والحرائق ما لم يحدث مثله منذ بدىء الحصار ، وقد قتلنا عددا كبيرا من الناس فى تلك الموقعة .

وقد لاحظت أن الحصار أضر بالقاهرة أكثر مما كنت أتصور ، فقد عم الخراب أحياء بأكملها ، وتمثل لنا شبحه المخيف بالأزبكية ، وأثرت فى نفسى صورته المفزعة ، فليس فى الامكان أن تخطو خطوة الا على كثبان من الخرائب

والأتربة ، وكانت رائحة العفونة تنبعث من الرمم المدفونة تحت الردم ، وزاد في هذا المنظر فظاعة أن الجنود مدفوعين بفكرة النهب كانوا ينبشون الجثث من تحت الأنقاض والخرائب ، فكلما أظهروا جثة زاد المنظر هولا وفظاعة » (١) .

وقد ظن كليبر أن الشدة ستعقب له راحة البال ، ولم يستشعر ندما على استفحال النقمة ، وتمادى الطغيان ، بدليل أنه اباح لبعض عملائه أن يهدموا ما يشاءون من المنازل إذا امتنع ساكنوها عن سداد الضرائب ! ومن أين ؟ وقد نهبوا كل ما وقعت أيديهم عليه ! ولكن الموت قد ترصده من حيث لا يحتسب اذ وفد على الأزهر سليمان الحلبي وقد كان طالبا به من قبل ، يعرف الكثيرين من أساتذته وطلابه، ولم يكن التحريض من خارج مصر كافيا لاشعال روح الانتقام في صدره ، بل أن الذى ضاعف اشتعالها ثواؤه بالقاهرة ثلاثين يوما يجتمع بالطلاب والأساتذة ويسير في الشوارع والطرقات فيرى الخرائب الخاوية تنعى أصحابها وتبكي من ثووا تحت أنقاضها من الشهداء ، فأقدم على اغتيال كليبر وقد تمهد الطريق أمامه لمشيئة أرادها الله ، لأن مثل هذا القائد الأجنبي الطاغية لا يسهل الوصول اليه في قصر يحوطه الحراسون المدججون بأفتك سلاح ، بل لا يستطيع شاب واحد أن يطعنه بخنجر لا يملك سواه ! وقد تم مصرعه في لحظات ودار التحقيق ليثبت اتهام اربعة من طلاب الأزهر كانوا دائما في رفقة الحلبي قبل أن يقدم على الانتقام ، وقد أعدم الأزهريون بقطع رءوسهم ، واحراق

(١) من تاريخ الحركة القومية للرافعي جـ ١ ص ٨١٠ بتصرف قليل .

جثثهم ، ثم وضعت رؤوسهم على العصى الغليظة ليطاف بها فى الاحياء .

واتجهت الريبة الى كل أزهرى ، فكان الشيخ من الطلاب لا يأمن على نفسه أن تتخطفه الجنود دون ذنب سوى أنه أزهرى ، لذلك تقدم شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشرقاوى ومعه الشيخان الصاوى والمهدى الى الجنرال مينو الحاكم الجديد كي يأذن باقفال الأزهر كيلا يكون موضعا للانتقام، اذ لا يؤمه غير الطلاب والأساتذة والمصلين ، فأجاب مينو طلبة القوم ، وسمرت الأبواب بعد أسبوع واحد من مقتل كليبر ، وظل الأزهر موصد الأبواب حتى رحلت الحملة الفرنسية الى وطنها غير مأسوف عليها من انسان ..

ولا يتسع المجال لذكر من تعرضوا للبلاء قتلا وارهابا من أبناء الأزهر ! حتى الذين لا يقدرون على التنفيذ لمرض يعوقهم ، ومن هؤلاء الشيخ سليمان الجوسقى اذا كان شيخا لزاوية العميان ، وكان حريصا على أن تنجو البلاد من هؤلاء المستبدين ، فأخذ يلقى دروسه الوطنية داعيا الى الثورة ، ومستشهدا بما قام به السلف من فدائية نادرة فألهب النفوس ، وتحقق لذوى الأمر من الحاكمين دوره الكبير فى اشعال الثورة الاولى ، وشهد الخونة أنه كان يخطب الجمهور مشجعا ابان العاصفه ، وأنه رغم فقد البصر كان ينتقل من مكان الى مكان دون قائد ليشعل الحمية فى الصدور يقول الأستاذ الكبير محمد فهمى عبد اللطيف بعد حديث مشبع عن جهاد سليمان الجوسقى « ووقف الشيخ سليمان فى انفعال وقوة ، وأخذ يصرخ والدموع تنحدر على خديه هاتفا : والله ما قام عمود هذا الدين الا بالجهاد ، ولا أزهرت شجرة الاسلام الا بدماء الشهداء ولقد خاض رسول

الله الحرب حتى شج وجهه ، وكسرت رباعيته ، وفى سبيل الله استشهد سادتنا من الصحابة والتابعين فلعنة الله علينا ان كنا من القاعدين بعد اليوم ..

وبعد أن وصف الكاتب ثورة الأزهر وانتقام البغاة قال :

« وأصبح الصباح وكانت القوات الفرنسية كلها تجمعت فى حى الأزهر وفى جميع الأحياء التى عضدت الثورة ، وأخذوا ينهبون الدور ، ويبحثون عن السلاح فى كل مكان، ثم أخذوا يبحثون عن الشيوخ الذين تزعموا الثورة واعتقلوا الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ اسماعيل الشبراوى ، وحبسوهم فى بيت البكرى أياما ثم ذهبوا بهم الى القلعة .

وقصد الشيخ السادات ، ومعه بعض كبار المشايخ بالأزهر الى القائد الفرنسى ، وطلبوا منه العفو عن المعتقلين فأمهلهم بعض الوقت ، وفى كل يوم كانوا يذهبون اليه متشفعين فيمهلهم حتى يستقر الأمن ، وبعد مدة خمسة عشر يوما انكشفت الحقيقة فى صنع الاستعماريين فقد وجدت جثث الشيوخ الخمسة وراء سور القلعة ، بعد أن قتلهم الفرنسيون ومثلوا بهم أشنع تمثيل ، ذلك لأنهم ارتكبوا أشنع جرم فى حق أبناء المدينة الفرنسية حين طالبوا بحق أمتهم فى الحياة والحرية (١) .

والذين ذهبوا شهداء من أمثال هؤلاء فى حاجة الى أن تكتب قصص بطولاتهم فى روايات أدبية تظهر روعة الفداء وعظمة التضحية ، وتصور حقبة من الزمن كانت على قصرها موضع اضطرام متأجج فى الصدور والميادين معا : والذين لم

(١) مجلة الازهر : المجلد الثامن والعشرون ص ٨٥٣ .

يرزقوا الشهادة من المناضلين قد قاسوا محنا كثيرة سطرتها الصحف بايجاز يحتاج الى أطناب كاشف ، واحصار هؤلاء المجاهدين من العلماء فوق الطاقة ولكننا نشير الى رجلين بارزين منهما ، هما الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ السادات !

أما عبد الله الشرقاوى ، فقد كان شيخ الأزهر لعهد الحملة الفرنسية ، وقد عمل رؤساؤها على ارضائه بكل سبيل ، فانتخبوه رئيسا للديوان ، ولكن حكمته المجربة أوحت اليه أن يعارض بالتى هى أحسن ، ليستطيع أن يكسب الخير لبلاده من أسهل طريق ، وقد أخذ ذلك عليه بعض المتحمسين ، ولكننا نعلم أن لكل انسان نظرته المختلفة باختلاف التجربة والسن والحيطة ! وشيخ كعبد الله الشرقاوى قد اعتقد أن الماء فى سهولته اليسيرة يطفىء النار المشتعلة ، فآثر أن يكون ماء يجتث الجذور الضاربة فى باطن الأرض دون أن يكون نارا لا تتجاوز ما ظهر فوقها من الجذوع ! على أنه رغم هدوئه الحازم لم يملك نفسه ساعة الغضب ، فقد احتفل نابليون ببعض المناسبات ، ورأى أن يكرم الشرقاوى فأهداه الشارة الفرنسية ووضعها على كتفه ، وهى ترمز الى علم مثلث اللون ، فهاج الشيخ ورمى بالشارة على الأرض وجعلها تحت قدمه ! وغضب نابليون اذ أهان الشيخ رمز بلاده ، وقال انه لا يصلح لرئاسة الديوان ، وقد خرج عبد الله دون انتظار وبعث اليه القائد مسترضيا كى يسكته عنه ، ولكنه رد فى عنف .

وحين ثارت القاهرة ثورتها الثانية تحقق القائد أن الثائرين يبيتون فى منزل الشيخ ، وأنه يوغر صدورهم ، وقد واجهوه بذلك فلم ينكر ، وقال ان بيته مفتوح دائما

للمسلمين! وحين قتل كليبر أثبت أحد الشهود أنه زار منزل الشرقاوى وبات به بعض الليلات ، ولم ينكر الشرقاوى ، وقد كادوا يهمون به لولا أنهم تخوفوا العاقبة حين يشيع فى الملأ أن شيخ الاســـلام قد قتل ! وقد قــرئت أوراق التحقيق فى مقتل كليبر ، فذكر اســم الشرقاوى بين من حامت عليهم الظنون ، وقد أخذ بالذنب من دونه ، وتحاموه مغيظين .

أما الشيخ الســـادات ، فقد كان ذا منصــب روحى ، وصاحب نفوذ كبير فى المصريين ، وقد هادنه الفرنســيون كما هادنوا عبد الله الشرقاوى ، وتحقق الفرنســيون من دوره المؤثر فى اشتعال الثورة الأولى ، وهم كليبر باعدامه ، ولكن نابليون أشار بالتغاضى عنه كيلا يزداد الضرام ، وبعد الثورة الثانية ثبت دور السادات بما لا يقبــل الشــك ، فتعرض للتعذيب والسجن بمرأى من أتباعه وسجن بالقلعة وكانوا يدفعون به الى الطريق حافيا مكشــوف الرأس ، وفرضوا عليه ضرائب فادحة لا سبيل الى جمعها ، وزادوا بأن ضربوه بالعصا أياما متوالية أمام زوجاته وأولاده، ثم هاجموا دوره ونهبوا ما بها من المتاع ، وســـجنوا زوجته دون جرم ، ومات ابنه وهو سجين دون أن يراه ، وقد قيل لهم انه يضــــع الذهب فى باطن الأرض بدار الكبرى ، فحفروا كل موضع منها ، ولم يجدوا شيئا ! وقد ســـجن أربع مرات دون أن يتراجع عن عداوته الشرسة للأعـداء . ثم ذهبت الحملة الفرنسية فاسترجع عزه الغائب ، بعـد أن أدى ضريبة الوطن تضحية وافتداء .

ان على الذين يكتبون تاريخ الحركة القومية أيام الغزو

الفـــرنسي أن يعلموا أن الحق أبلج ، وأن مـؤرخي أوربا أنفسهم قد انصفوا علماء الازهر انصافا لايعرف الغرض، واذا جاء اليوم من يحاول أن يطفيء هذه التضحيات الباسلة فان الحق يصدمه بما سجله التاريخ فى الوثائق والمصادر واليوميات •

فى عصر محمد على

حين انقشع بلاء الحملة الفرنسية عن مصر ، كان على الساسة أن يبدلوا مســـيرتهم فى الحكم ، وأن يعلموا أن المخلصين من أبناء الوطن هم الذين دافعوا عنه ، وأن أرواح الآلاف فى القاهرة والوجه البحرى والوجه القبلى قد ذهبت رخيصة هينة فى سبيل الاســـتقلال ، وأن هؤلاء الذين ضحوا بكل شىء فى حاجة الى اطمئنان نفسى ، ليواصــلوا سعيهم فى الحياة زراعة وتجارة وصناعة ، ولكن الساسة من الولاة والمماليك لم يفكروا فى شىء من ذلـك ، فالوالى العثمانى قد جلس فى القلعة ليواصل طريقة أســلافه فى الفطرسة والاستغلال واستنزاف ما تبقى من مواد الثروة فى البلاد ، والمماليك الذين هربوا مدحورين بعد واقعة امبابة ، وطارت فلولهم الى الصعيد والشام قد رجعوا مسرعين لينهبوا الغنيمة الباردة ، وكأنهم هم الذين ضحوا بأرواحهم فى الثورات المتتابعة بالقاهرة والأقاليم ، وقــد رأينا رئيسهم الطاغية مراد يهرب بأتباعه الى الصعيد ، ثم يحاول استرضاء نابليون بالاستجابة الى كل ما يطلب ، فكشف عن جبن جزوع ، وعن مهانة مسفة كان الموت أفضل منهما بكثير ، أجل ، كان على الساسة أن يبدلوا مسيرتهم

،مام تضحيات هذا الشعب المناضل ، ولكن الروايه القديمه قد أعدت للتمثيل ، وتهيأ للوالى التركى أن يقـوم بالدور الأول وقد جاء من الآسـتانة متغطرسـا متكبرا ، وكأنه اشترى ضيعة بماله الخاص يتصرف فيها كما يريد ! وكيف والشعب المتحفز المقتدى بعلمائه الكبار من شيوخ الأزهر قد شب عن الطوق وآلى على نفسه أن يدفع مظاهر الضيم والاستبداد ، لقد استعان الوالى (أحمد خورشيد) وقـد جاء الى البلاد سنة ١٨٠٥ بفريق ممن يسمون بجند الولاة ليداهموا المنازل والمتاجر وينهبوا الاموال،وتكررت حملات جنوده الباطشين دون رحمة أو ارعواء ، ولكن علماء الأزهر قد قرروا المقـاومة وانضم اليهم الزعيم المصرى الشهير (السيد عمر مكرم) فألفوا جماعة تمثل الشعب ، واتجهوا الى القلعة ليعلموا الوالى بما يرتكب جنوده من عسف ! وكان الرجل الغشوم على جهل بما يقدح فى النفوس من غضب ، لانه لم يكن يظن فى نفسـه ان ما يقوم به من البطش مدعاة غضب ؛ بل انه حق مفروض لكل من جاء واليا على مصر من الآستانة ! ولك أن تتصور غضبه على المجتمعين ، حين صاح بهم من انتم ؟ أنا وكيل مفوض من السلطان ! البلاد بلاد السلطان أفعل ما أشاء وأعزل وأولى من أشاء !

هنا بدت الانتفاضة الثائرة اذ تجمع الشعب خلف علمائه وزعمائه ، وجاء نائب الوالى ليرقب هذا التجمع فهـاج من رآه ، واندفع فريق من العامة فرموه بالحجارة ، وكاد يهلك لولا أن عجل بالفرار ، ولم يسكت القوم بل لجأت الجماهير الى بيت القاضى وكان تركيا ولكنه لم يؤيد الوالى الباطش ، ودارت مشـــاورات هادفة رمت الى عزل الوالى وتخليص الوطن من فساد جنوده ! ولم يكن (أحمد خورشيد) يظن

أن مصريا واحدا له الحق في أن يطالب بعزله ! ولكن ذيوله قد نهضوا اليه يعلنون ان الزعماء مصممون على القتال، وأن وراءهم طوائف الشعب تذكى الوقود لتشعل النيران ! فآثر أن يعمل الحيلة ، وكتب الى القاضي التركى يدعوه الى التفاهم مع من يتزعمون الملأ من العلماء وكان السيد عمر مكرم حذرا فعلم أن مكيـــدة تدبر ، ورفض أن يذهب مع العلماء الى الوالى وجاهره بوجوب عزله ، وصـــعق الوالى فصاح (أنا مولى من السلطان ! عندى أوامر شريفة ، وكتب منيفة فكيف أعزل من الفلاحين) لقد دقت ساعة الصــفر فتجمع الشعب بطوائفه يقيمـــون المتاريس ، ويحملـون الاسلحة ، ويستعدون لمهاجمة الولاة من جنود خورشيد، وقد بدءوا بحصار القلعة ، وذهب القــاضى التركى حين هاله الأمــر الى الوالى فقــال له : أن نحو أربعين ألفــا من المصريين يحملون السلاح أمام القلعة ويريدون أن تغادروا البلاد ، ولو فعلتم ذلك لنجوتهم ، ولو تماديتم لا آمن أن يقتحموا القلعة وأن يفتكوا بهم ومعكم الاهل والاولاد ! وجاء الليل فضربت الطبــول حول القلعة ، وأوقــدت المشاكل ، وسمع دوى الرصاص .

لقد كان الجنود من اتباع الولاة أهل جبن وخور فهم يهاجمون اصحاب المتاجر فى الاسواق ويقتحمون المنازل لينهبوا العزل فى استبداد ، ولكنهم أمام تجمع الطوائف الكثيرة ، قد أحسوا رعبا هالعا ، وخوفا مزعجا ، فلم يســـتطيعوا المقاومة ، ونظر الوالى فوجد نفسه فى وضع لا يحسد عليه، فهو محــاصر من كل مكان ، واذا نفــد الزاد والشراب من القلعة فلن ينقذه أحد ، بل انه لا يأمن الوثــوب الكاســح قبل أن ينفد الطعام والشراب فارسل كبير رجاله ليجتمع

مع السيد عمر مكرم ، وليقول له كيف تخالفون كلام الله عز وجل وهو القائل فى كتابه « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم » فقال له بعض الحاضرين من العلماء فى حدة أولو الأمر هم العلماء الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وليسوا الولاة الذين يبطشون وينهبون ويسرقون ! واذا كان الوالى يستشهد بكتاب الله فليطع أوامره ، وليعلم أنه فقد ولايته حين خالفها وعصى الله !

تأزم الأمر ، وظن خورشيد أن الثورة عليه تشمل القاهرة وحدها ، وأن رجال الأقاليم قائمون على طاعته ، وفى استطاعته أن يرسل الى قليوب من يحضر الجموع من هناك لينقذوه من حصار الفلاحين (صيانة لعرض السلطنة كما يقول ، ولكن رسله لم تجد المستجيب حتى نفد الطعام والماء من القلعة ، وطارت الأنباء الى تركيا فجاء مرسوم صريح بعزل الوالى ، لأن أمورها السياسية لا تتحمل الالتفات الى مصر ، ولو كان لدى أحمد خورشيد مسكة من حزم لعجل بالتسليم بعد مرسوم السلطان ، لأن معتمده الوحيد فى النقاش الجدلى مع الثائرين أنه معين بأوامر شريفة من السلطان وأن الفلاحين لا يملكون معه شيئا ، فاذا سلم الناس على سبيل الجدل بهذا الكلام فقد جاء المرسوم السلطانى بعزله ، وسقطت كل حجة يتذرع بها أمام الناس .

ازدادت الحوادث شدة ، فطلب العلماء من رسول السلطان أن يصعد الى خورشيد بالقلعة وأن يجبره على النزول قبل أن يداهم بالانقضاض ، وتيقن الرجل الخطر ، فأعلن التسليم ، وكان من مآثر عمر مكرم أنه آواه

، ستضاف أهله ومماليكه وجواريه فى منزله آياما حتى يتمكن من الرحيل فى سلامة ! ومكث الوالى بمنزل الزعيم خمسة أيام آمنا على نفســه وأهله حتى هيئت له ســبيل الرحيل ، واذ ذاك هدأ الشعب ، وفتحت أبواب الدراسة بالأزهر ، لأن العلماء قد عطلوا التدريس وجمعوا الطلاب فى حشود الشعب ليكون مثار عزيمة وداعية تنشيط ، وقد أدوا واجبهم فى اذكاء الحماسة والهاب المشاعر حتى جنوا الثورة المشتهاة .

ولكن ماذا بعد عزل خورشيد ؟ وأى رجل يلى أمر البلاد ؟

يقول الجبرتى بعد أن ألم بشذور من هذه الأحداث على طريقته الخاصة فى كتابة اليوميات : « فلما أصبحوا ـ أى العلماء وأعيان القاهرة ـ اجتمعوا ببيت القاضى ، وكذلك اجتمع الكثير من العامة فمنعــوهم من الدخــول الى بيت القاضى ، وقفلوا بابيه ، وحضر اليهم سعيد آغا والجماعة، وركب الجميع وذهبوا الى محمد على ، وقالوا له : لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ولابد من عزله من الولاية ، فقال : ومن تريدونه يكون واليا ، قالوا له لا نرضى الا بك وتكون واليا علينا بشروطنا ، لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ، فامتنع أولا ، ثم رضى ، وأحضروا له كركا وعليه قفطان . وقام اليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى فألبســاه له ، وذلك وقت العصر ، ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة ، وأرسلوا الى أحمد باشا الخبر » (١) .

والحق أن محمد على كان يرقب الأحداث من بعد ، ويمهد لنفسه بسلوك خاص لايلحظه أحد ، فهو يعرف تنــازع العامة مع الجنود من الأتراك ، اذ دأب هؤلاء على اقتحام

(١) الجبرتى حـ ٣ ص ٣٥٠ .

المنازل والأسواق والمزارع ونهب ما تقع أيديهم عليه ، كما دأب الوالى وأمراء المماليك على الاغضاء عنهم، فكان محمد على يتصل بالعلماء والتجار ويعلن استنكاره لما يرى من المظالم ، ويدعوهم الى الكتابة الى لسلطان رأسا ليضع حدا لهذه الأهوال ، ثم يأتى الى الجند فيقول لهم أنا منكم . ويشجعهم على ما يصنعون ليزداد الغضب ، وتشتعل الحقود ، وقد نقص النيل ، وانقطع الخير وحلت مجاعة قاصمة ،والوالى وأمراء المماليك وجنود العثمانيين لا يقومون بجهد ما فى انعاش الاقتصاد وتعمير الأسواق وكان عليهم أن يظهروا ما أدخروه من خزائن القمح والغلال الى الأسواق وأن يمنعوا الاحتكار ويقفوا دون غلاء الاسعار ، ولكنهم تركوا الامر فوضى ، فاجتمع العلماء بالأزهر واحتشد من ورائهم العامة حتى النساء دخلن الى المسجد الجامع يلطمن الوجوه وقد صبغن وجوهن بالنيلة السوداء اعلانا لما يكابدون من جوع ، وما يغمر البلاد من قحط ، وانتهز محمد على الفرصة فأرسل مبعوثا الى العلماء بالأزهر ليبلغ الناس ما قرره من تخفيف الضرائب ، وتيسير الأقوات ، واكتسب بذلك رضا المجتمعين ، وشاع النبأ فى الملأ فرضى به الناس .

ثم رأت الدولة العثمانية ايفاد وال جديد هو موسى باشا على أن ينتقل محمد على الى ولاية سلانيك وقد فهم محمد على أن المراد زحزحته من مكان يحاول الاستقلال بحكمه ، فجمع العلماء وأخذ يتزلف لهم حتى جمعهم على رأى واحد ، هو الاصرار على بقائه لأنه الذى يستطيع أن يقف أمام المماليك وذوى الفساد والطغيان ، فكتبوا بذلك الى السلطان ، وزاد محمد على فاقترح على العلماء أن يقابلوا قبطان باشا رئيس

البعثة العسكرية التركية ليحـوزوا موافقته حين يعلنـون اصرارهم على بقاء محمد على ليكون لسانهم لدى السلطان ، ورأى أن يستميل هو الآخر قبطان باشا فأرسل اليه هدية ثمينة من الذهب الخالص ، وتم الأمر على ما يريد ، فرجع الوالى المختار كما جاء ولم يترك محمد على البلاد الى سلانيك

أما المماليك ، فقد كانوا شوكة فى سبيل الاستقرار ، وقد بدأ بمعاهدتهم على الوفاق والسـلام مسـتجيبا الى رغباتهم ، وخدعهم بما يسمى (عهد الدم) اذا كان يجرح يده ويجرح يد معاهده من أمراء المماليك ويمص كل واحد دم الآخر ليحل من نفسه محل من اختلطت دماؤهمـا فى الكيان الواحد ، فلا سبيل الى الانتفاض ! وقد بحثت عن أصل تاريخى لعهد الدم هذا فلم أعرفه فيمـا سـبق من العصور ، وليس من اختراع محمد على ، ولكن الظاهر أن العثمانيين قد ابتدعوه فشاع ! أما نتيجة هذا العهـد فهى مذبحة المماليك بالقلعة حين قتل منهم ما يزيد على الألف ، وتتبع محمد على من بقى فى القاهرة والأقاليم ، وأسر النساء والأطفال واحتل القصور والدور .

وقد كانت حملاته العسكرية ، ومؤسساته المعمارية فى حاجة الى مال كثير ، فعمد الى أن يسلك مسلك المماليك فى مصادرة الأموال ، ومضاعفة الضرائب ، وسلب المحصول الزراعى دون أن يبقى للفلاحين ما يأكلون ! وهو أمر هاج هائجة العلماء فتقدموا اليه يذكرونه بالعهد الذى أخذوه عليه يوم أن نصبوه واليا ، فأسرها بنفسه ساعة الاجتماع، ووعد خيرا ، وفى طريق عودتهم الى المنازل بادر باعتقالهم، وأمر بنفى السيد عمر مكرم الى دمياط ! وقد كان صاحب

الكلمة الاولى فى تعيينه وكان يتملقه حينئذ أمام العامة ويقول له : يا والدى ! والسيد عمر أزهرى تعلم فى الجامع الشريف حتى وصل الى درجة العلماء ، ولكنه لم يشتغل بالتدريس فى الأزهر بل انصرف الى تثمير أرضه فى بسطة عيش ووجاهة محل ، والتف حوله الناس اذ عين نقيبا الأشراف ، أقول ذلك لان بعض الكاتبين لم يشيروا الى أزهريته بل ظنوه ثريا وجيها فحسب ، وليس له صلة بالأزهر ، والحق أن الأزهر قد تولى تثقيفه حتى صار به زعيم الشعب ! فاذا ذكر جهاده المخلص فهو حلقة فى سلسلة النضال الأزهرى دون نزاع .

فرغ محمد على من المماليك بعد المذبحة ! وفرغ من العلماء حين اعتقل نفرا ، ونفى من البلاد نفرا آخر ، وقد ظن أنه قطع كل لسان ، وأخمد كل معارض ، ولم يدر أن الله قد هيأ له عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ الأزهرى النابغة يرصد طغيانه ويسجل تجبره فى صحف تقرأ على الناس ، اذ كانت يوميات الجبرتى مما يعشقه العامة ويتداولونه يوما بيوم ، حتى ضاق الباشا بناقده، فأصلاه ضروبا من الاهوال كان أشدها على نفسه اغتيال ولده الأوحد ، ويقول كثير من الباحثين أن الجبرتى نفسه قد مات مقتولا بمكيدة من الباشا ، وقد بسطت ذلك فى فصل تاريخى ذى براهين (١) .

اخذ الجبرتى يشهد شهادة الحق فيما يراه بعينه بالقاهرة ، وما يفد الى سمعه من أبناء الاقاليم على ألسنة

---

(١) من صفحات التاريخ للدكتور محمد رجب البيومى ص ٩٨ ومابعدها تحت عنوان (هل مات الجبرتى مقتولا) .

اصدقائه العدول ، فذكر أن محمد على ألفى الديوان العام الذى انشأه نابليون وجعل عضاءه من العلماء ليسهموا بالرأى فى شئون البلاد ، ومهما كان الديوان خاضعا لرئاسة الحاكم فوجوده شىء ضرورى لأنه ينقل وجهة النظر المخالفة وان لم يؤخذ بها ، كما يحد شره الحاكم حين يجد أموره مكشوفة تطرح للبحث دون نقاب، وفى تاريخ هذا الديوان ما يدل على فاعليته اذ أبطل امورا منكرة كانت موضع الاستياء ، وحين التزم محمد على بالعدالة فى وثيقة تعيينه امام الشيخ الشرقاوى والسيد عمر مكرم كان معلوما أنه سيخضع للشورى ، وأن الديوان رمز لهذه الشورى المشتركة بين كبار العلماء والمخلصين ، ولكن محمد على لا يريد أن يقف أحد فى طريقه ، وقد احتج بأن الاعباء كثيرة ، وأن اجتماع الديوان يشغله ! وذلك خداع مكشوف لأن مناقشة الامور المعقدة مما يساعد على حلها ، والباشا يجتمع بخاصته وأصحاب هواه فى كل وقت ، أفيكون اجتماع الاسبوع شاغلا عن جلائل الاعمال ! هذا ما لحظه الجبرتى وسجله فى وضوح واستيفاء .

وناحية أخرى تنحو هذا المنحى المفرض فى سلوك محمد على ، وذلك أنه حرص على أن يكون جميع مستشاريه من غير المصريين ، فانك تجد نائبه أجنبيا وكذلك من يسيرون دفة الامور من أمثال باغوص بك مستشار التجارة ، وكرابيت الارمنى مدير الجمارك ، وسليمان اغا السلحدار منفذ الاحكام ومحمود بك الخازندار مستشار المالية ومصطفى اغا كرد المحتسب ، ومن لا نستطيع حصر اسمائهم لكثرتها ! افلا يكون بين

هؤلاء رجل مخلص كالسيد عمر مكرم أو عبد الله الشرقاوى وهما صاحبا مجده ، ومؤثلا عرشه ؟

يقول الجبرتى عن بعض هؤلاء الاجانب فى حوادث سنة ١٢٣٥ هـ (انهم ترأسوا ، وعلت أسافلهم ، ولبسوا الملابس الفاخرة ، وركبوا البغال والرهوانات ، وأخذوا بيوت الاعيان التى فى مصر القديمة وعمروها وزخرفوها، وعملوا فيها بساتين وجناين ، وذلك خلاف البيوت التى لهم بداخل المدينة ، ويركب (الكلب) منهم وحوله وأمامه عدة من الخدم والقواسة يطردون الناس من أمامه ومن خلفه) .

ويصف بعض مظالم سليمان أغا السلحدار فيقول « كان يتمم عمائره فى أسرع وقت لعسفه وقوة مراسه على أرباب الاشغال والموانة ، ولا يطلق للفعلة الرواح ، بل يحبسهم على الدوام الى باكر النهار ، ويوقظهم من آخر الليل بالضرب ، ويبتدئون فى العمل من وقت صلاة الفجر الى الغروب حتى فى شدة الحر فى رمضان ، واذا ضجوا من الحر والعطش احضر لهم السقا ليسقيهم » .

كما واجه الجبرتى محمد على بكثير من فظائعه المنكرة حين دون مثل هذه الحادثة فى حوادث شوال سنة ١٢٣٤ هـ « كان الباشا ــ أى محمد على ــ بجهة الاسكندرية ، لحفر ترعة الاشرفية ــ المحمودية ــ فأمر حكام الجهات بجمع الفلاحين للعمل ، فكانوا يربطونهم بالحبال قطارات ، وينزلون بهم فى المراكب ، وتعطلوا عن زروعهم فى بلادهم ، وقاسوا شدة بعد رجوعهم فى المرة الاولى ، ومات الكثير منهم من البرد والتعب ، وكل

من سقط أهالوا عليه من تراب الحفر « ولو فيه الروح » ولما رجعوا الى بلادهم للحصيد ، طولبوا بالمال ، وزيد عليهم عن كل فدان حمل بعير من التبن وكيلة فول ، وأخذ ما يبيعونه من الغلة بالثمن الدون ، والكيل الوافر، ثم يجيء الطلب للعودة الى الشغل فى الترعة ، ونزح المياه التى لا ينقطع نبعها من الارض ، وهى فى غاية الملوحة ، والمرة الاولى كانت فى شدة البرد ، وهذه المرة فى شدة الحر ، مع قلة المياه العذبة فينقلونها بالروايا على الجمال مع بعد المسافة » .

ولكى يكون الجبرتى منصفا نجده سجل لمحمد على ما راقه من اصلاحاته فهو يعترف بهمته فى انشاء مصانع البارود ، وسبك المدافع ، وصنع القنابل ، وتشييد السفن ومدارس الهندسة والطب ومصانع نسج القطن والحرير والصوف والجوخ واعدد المخارط والسندالات والمناشير والآلات الغربية التى يوجد أمثالها فى الغرب ! كما جمع أربعة آلاف غلام من أولاد البلد ليشتغلوا تحت أيدى المهرة من الاجانب ويتعلموا الصنعة ، ويأخذوا أجرا يوميا وقد عرفت « دار السد » بأنها مجمع صناعى للعمال تتسع لعشرة آلاف عامل ، كما أجبر الناس على زرع شجر التوت على ضفاف الترع والأنهار ، واستقدم اللبنانيين ليعلموا الفلاحين تربية دودة الحرير فدعا ثلاثين أسرة من لبنان ووزعها على المديريات البعيدة ، فكانت النتيجة ممتازة شجعت على مضاعفة الاشجار فأثبت الباحثون أن مائة وخمسين ألفا من العمال برعوا فى نسج الحرير وهيئوه للتصدير .

لقد وقف الجبرتى فى وجه الطاغية موقف القاضى

العادل ، فكان الازهرى الذى دون الوقائع بلسان الحق ، دونها برهبتها المستنكرة أحيانا كثيرة ، وبهجتها المحبوبة حينا قليلا ، وهو يعلم أنه يتصدى لدكتاتور لا يرحم ! وجبار لا يعدل ، ولكن ارتياح نفسه وهدوء ضميره كان خير جزاء وأوفى ثواب .

الأزهر
وإرهاصات الثورة العرابية

لم ينهض بعد وفاة الجبرتى من يسجل اليوميات بطريقته المستوعبة ، لذلك كان عهد عباس الاول ومن وليه ذا ضباب ، ولست أعنى بذلك أن التاريخ لم يعلم عنه شيئا فقد سجل الكاتبون شرقا وغربا ما يعطى بعض الدلالات النافعة ، ولكن الاستيعاب المتسلسل على النحو المعهود فى عصر الحملة الفرنسية وعهد محمد على لم يكن من نصيب هذا الزمن ، ومما أغفله المؤرخون ما قام به نفر من العلماء دأبوا على أن يجهروا بالحق ، ولم يخل منهم زمن منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يخلو منهم عصر عباس الأول ومن وليه من خالفيه .

على أننا نجد فى سير ابراهيم الباجورى وحسن العدوى وعبد السلام المويلحى وهم من علماء الازهر الكبار ، فالأول شيخ شيوخه ، والثانى علم بارز فى علمى الحقيقة والشريعة ، والثالث تلميذ حلقاته ، وربيب اساتذته ، أقول نجد فى سير هؤلاء مواقف حرة ، تدل على كفاح الطغيان والجهر بالحق ، والاعتداد بالله وحده، وفى الحرص على تسجيل ما نعلمه من هذه المواقف الرائعة ما يمضى بالسلسلة مطردة فى حلقاتها المتتابعة ،

وانى لاعلم ان لدى غيرى من الباحثين بعض مافاتنى ، فاذا كتب كل باحث ما لديه فقد وجد الكثير .

نعلم أن « عباس الأول » قد أوصد المدارس والمصانع والمستشفيات ، وعفى على آثار التقدم الناهض فى عهد محمد على ، وقد قيل فى تعليل ذلك أنه استجاب الى رأى القنصل الانجليزى لتظـــــل مصر فى حاجة الى مستوردات انجلترا ، ولئن تحقق ذلك فى اغلاق المؤسسة الحربية ومصانع النسيج والغزل ، ومدارس التعليم ، فما علة اغلاق المستشفيات ، وتشريد الاسر الكثيرة من مزارعها ، واهمال وسائل الرى والتثمير ! ان السبب يرجع الى تصور حاكم مستبد يرى أن تظل البلاد بعيدة عن كل تقدم حضارى كيلا يقف فى وجهـــه من ينادى بالعدالة والمساواة .

ولم يكن عباس بقادر على أن يوصد أبواب الازهر فلا تنتظم به حلقات الدرس اذ وقع فى روعة أن فى ذلك محاربة الله وحده ، وهو القادر على أن يأخذه أخذ عزيز منتقم ، لذلك كان يفد الى الازهر فى خشوع ، ثم يهيأ له كرسى من الخشب ليستمع الى ما يلقى اســـــتماعا صوريا ، لأن دروس المنطق والتوحيد والاصول والبلاغة والنحو حينئذ ليست مما يســهل تحصيله فى جلوس ساعة أو ساعتين ، ولعـــله كان يراقب سير الدراسة فحسب ليعرف هل يخوض الخائضون فى حلقــاته فى غير حديث العلم ، وليطمئن على أن النقد لا يتطرق اليه فى حلقات هذا المسجد الوحيد ، وقد بقى وحدة منارة العلم والتوجيه .

هذه النظرة المهادنة الى علماء الازهر لم تجعل شيخ

الازهر الاكبر يغضى عن قول الحق أمام عباس ، وشيخ الازهر هو العلامة الاصولى الفقيه المحدث الشيخ الجليل ابراهيم الباجورى وحواشيه العلمية على شروح العلماء فى فنون كثيرة ذائعة مشتهرة تدل على فضله الكبير ، وقد وصل الى علمه أن عباسا يضطهد بعض الاقباط (١) من المصريين زاعما بذلك أنه ينصر الاسلام ، فرأى الشيخ الاكبر أن يواجهه بالحق فيما يجور ، فذهب الى لقائه وأخبره بحكم الاسلام فى الذمى والمعاهد ، وقرأ عليه آيات القرآن وأحاديث الرسول ، واستشهد بوقائع مأثورة عن الخلفاء من أمثال أبى بكر وعمر وعلى ! وقد وجد منه ترددا وشكا ، فانتقل من الماضى الى الحاضر ، فذكر أن الفرنسيين يحتلون الشعب المسلم فى الجزائر كما سبق أن احتلوا مصر ، ولئن جاءهم أن مصر تضطهد ابناء دينهم ، فلابد أن يقوموا بالمثل ، فيكون الباشا بعمله هذا مسيئا الى أبناء دينه ، وقد استجاب عباس بعد أن سمع كلام الشيخ ! واستجابة عباس هنا ذات دلالة حاسمة على قوة اقناع الشيخ الباجورى لان الباشا جبار يركب رأسه ، وقد اضطهد نفرا من أبناء الاسرة الحاكمة ، وهم أهله وذووه ، وأخذ الوصوليون يتقربون اليه بالوشاية الكاذبة عن هؤلاء ، فاذا استطاع شيخ الاسلام أن يصده عن ظلم المواطنين من الاقباط فقد نجح فى مسعى حميد وثانية نذكرها للشيخ الكبير مع رجال الحكم فى عهد عباس (٢) ، فقد عرف أن طلاب الازهر فى عهده كانوا يعفون من الخدمة العسكرية لانقطاعهم الى

(١) من صحائف التاريخ للمؤلف ص ١٣٥ .

(٢) كنز الجوهر فى تاريخ الازهر ص ١٩٢ ، للشيخ سليمان الحنفى .

طلب العلم ، وقد أراد نفر من مشايخ القرى أن يبطل هذا الاعفاء فأوحوا الى رجال الأمن أن أكثر النازحين الى الازهر لا يرغبون فى علم أو دين ، ولكنهم يبتعدون عن الخدمة العسكرية بحجة الانتساب الى الازهر ، وفوجىء اساتذة الازهر ذات صباح بمن يهاجمون الطلاب ، ويقبضون عليهم كى يلتحقوا بالجيش ! وكان ذلك فى عهد سعيد باشا ، واتصل الامر بشيخ الازهر العلامة الباجورى فتقدم الى المسئولين ونهرهم فى غضب ! وهددهم بالثورة العلنية حين يدعو الجموع الى ذلك ، ورأوا اصرار الشيخ الغاضب ، فانسحبوا مخذولين ! ولم تكن الخدمة العسكرية حينئذ حماية للوطن بعد أن أغلقت المصانع الحربية ولكنها كانت وسيلة لتهيئة من ينفذون أوامر البطش ، ومن يتحكمون فى الفلاحين ناهبين غاصبين ، وطلب العلم حينئذ أولى وأرشد .

ونترك عباسا وسعيداً الى اسماعيل ! فنذكر موقفا رائعا لعالم جليل صدع بالحق أمامه فى اعتداد ، والموقف مشتهر ذائع كتب عنه الاستاذ عباس محمود العقاد فصلا جيدا فى مجلة الهلال ونقله بعض كتب المطالعة للمدارس عنه ، وقد أسنده العقاد الى العالم الكبير الشيخ حسن العدوى ، ولكن الاستاذ الشيخ محمد سليمان وهو أول من سجله من الكتاب فى مؤلفه الحافل (من أخلاق العلماء) (١) لم يحدد اسم ذلك البطل الصريح ، فلعل لدى العقاد فى تحديد اسم الشيخ العدوى ما جعله يجزم به عن يقين .

قال الأستاذ محمد سليمان عن محدثه الكبير ببعض

(١) من أخلاق العلماء ص ١٠٠ ط أولى .

التصرف اليسير : لما وقعت الحرب بين مصر والحبشة ، وتوالت الهزائم على مصر لوقوع الخلاف بين القواد والجند ضاق صدر الخديو اسماعيل لذلك ، وركب يوما مع شريف باشا ، وهو محرج ، فأرد أن يفرج عن نفسه ، فقال لشريف باشا ، ماذا تصنع حينما تلم بك ملمة ، فقال شريف : أعمد الى صحيح البخارى لأسمعه من عالم طاهر الفم ، فيفرج الله عنى ، فارتاح الخديو لما سمع ، وطلب من شيخ الازهر أن يقرأ نفر من العلماء صحيح البخارى فى القبلة رغبة فى النصر ؟ وقرىء البخارى دون أن يحدث ما يرجو الخديو من الانتصار فهاج هائجه وجمع العلماء ليقول : اما أن الذى تقرءونه ليس صحيح البخارى ، او انكم لستم كعلماء السلف الصالح ، لان الله لم يدفع بتلاوتكم شيئا فسكت العلماء دون رد ، ولكن شيخا فى آخر الصف صاح به : « منك يا اسماعيل ، فاننا روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر او ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » فوجم العلماء، وانصرف الخديو صامتا ! ولم يمض غير وقت يسير حتى حضر شريف باشا وطلب القائل ليذهب معه الى الخديو ، فقابله فى أدب وجلس امامه على كرسى مماثل. وابتدأ اسماعيل يقول : وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء ؟ فقال العالم الحر فى صراحة : يا أفندينا أليست المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون يبيح الربا ؟ أليست الخمر مباحة ؟ أليس الزنا برخصة ؟ فكيف ننتظر نصر السماء ؟ سكت الخديو حائرا ثم قال فى أسف : وماذا

نصنع ؟ وهذه مدنية الاجانب وقد عاشرونا ؟ قال الشيخ : اذن فما ذنب البخاري ؟ وما حيلة العلمـــــاء ؟ فأطرق اسماعيل مفكرا ، وقال : صدقت صدقت : ثم رجع الشيخ الى زملائه وقد يئسوا منه كأنما ولد جديد (١).

لا يغيب عن القــــارىء أن اسماعيل كان يحكم دون دستور ، وأن كلمة منه تقذف بالآمن الى مهب الخطر ، وانه تعرض لسماع ما لا يتصور أن يواجه به ذات يوم ، فاذا تجرأ عالم على مجابهته بما لا يحب ، فتلك شجاعة لا تقف عند حد ، اذ لا يأمن على دمه أن يسيل .

أما عبد السلام المويلحي فقد قرأ في الازهر على كبار شيوخه اذ كان من أســـاتذته الأعلام الأشموني والسقا والبحراوي وقد اســــتمر في الدراسة حتى أجيز له بالتدريس ! والاجازة حينئذ لن تكون الا بعــد مجلس علمي حاشد يقرأ فيه المتقدم للاجازة درسا على مسمع من كبار العلماء ، حيث يوجه كل عالم سؤالا أو أسئلة تظهر معدن هذا الممتحن ، وقــد كان هــذا المجلس من الشدة والدقة بحيث لا يطمح اليه غير من وثق في نفسه أكبر الوثوق ، وكم زيد عنه من نبغاء لم يبلغوا الدرجة المنشودة لدى أساتذتهم الكبار ! نقول ذلك لأن عبد السلام المويلحي بعد أن أجيز بالتدريس ، ترك الازهر الى الاعمال التجارية الواسعة بعد وفاة والده حتى أصبح كبير تجار القــــاهرة ، وقد تتلمذ في الوطنية على جمــال الدين الافغاني ، ففهم الصحيح من معاني الحكم الدستوري العدالة والمساواة ، حتى اذا صار عضـــــوا بمجلس

---

(١) من أخلاق العلماء ص ١٠٢ .

شورى النواب تزعم معارضة الحكومة الناطقة بلسان الخديو ، وأعلن المخالفة التامة لكل استبداد يأخذ طابع الشورى المظهرى ، وأنقل عن كتابى (من صفحات التاريخ) بعض ما يشير الى هذا الموقف مع ايجاز لامح (١) :

لقد تقدم رئيس الحكومة مصطفى رياض باشا الى مجلس الشورى يعلن شكره للمجلس على ما أبدى من نشاط ! ثم يتلو الامر الصادر بحله لانقضاء مدته المقررة، وظن أن أمر الخديو لا يحتمل النقاش ، ولكنه فوجىء بعبد السلام المويلحى يقول :

ـ لا أدرى معنى لشكر الحكومة ، فاننا لم نقم بعمل الى الآن يكون له شبه فائدة تعود على البلاد ، فما هى المآثر التى سنتركها وراءنا لتشكرنا الحكومة فيما لو فرضنا المستحيل وانفض المجلس !

فذعر رياض وعاجل يصيح :

ـ ماذا تقول حضرتك ؟! مستحيل أن يفض المجلس ؟! كيف يكون مستحيلا وقد أمر به سمو الخديو ؟! أفاهم أنت مسئولية ما تقول ؟! ..

ـ فرد عبد السلام المويلحى بكل ثقة : أنا فاهم جيدا ما أقول ، وأقدر مسئوليته دون انكار .

دهش رياض واتجه الى النواب يصيح : أتوافقون على هذا الكلام ؟

فارتفعت الاصوات من كل جانب بموافقة المويلحى ، وصاح أحد النواب : أنا موافق على ما قاله المويلحى وما سيقوله من بعد ؟

(١) من صفحات التاريخ ص ١٣٩ للمؤلف .

فانفجر رياض يصيح : أنتم عصاة ، وتقدم عبد السلام المويلحى يقول :

ـ لا تغضب يا باشا ، لقد ظهر لك موافقة اخوانى لأقوالى ، وهم جميعا يعرفون مسئولية ما يقولون ، أما امر الخديو بحل المجلس فمبنى على غلطة واضحة ، لان الحكومة تستند الى مضى ثلاث سنوات من بدء انعقاده مع أنه لم ينعقد الا بتاريخ ١٨٧٨/١٢/٢٦ فلم يمض عليه غير عام واحد ، فكيف أصبحت المدة ثلاث سنوات .

فأجاب رياض متلجلجا : ان مدة انعقاد المجلس هى من بدء النطق الكريم الذى صدر من مولانا الخديو فى حفلة طنطا !

فعاجله المويلحى يقول : مالنا وحفلة طنطا يا باشا ! ما مقدار رسميتها الآن ؟ عزومة شرفها سمو الخديو وتناول فيها الطعام ولم يدون بها أى حوار قانونى ، تكون بعد ذلك ابتداء للانعقاد ! ما هذا ؟! ..

خرج رياض عن طوره وقال : اذن أنتم بعمائمكم وقفاطينكم تقلدون نواب فرنسا !

فارتفعت أصوات الاحتجاج الغاضب من كل مكان ! وتقدم عبد السلام المويلحى ليقول لرياض :

ـ أعلم يا باشا ان أهل وطنك ليسوا بأقل شعورا بما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات من نواب فرنسا ، والمسألة ليست مسألة ثياب تلبس ، ولكنها مسألة عقول وأفهام ! ونحن جميعا قرأنا فى الازهر الشريف علوم المنطق والبلاغة والمناظرة والجدل ! فلسنا كما تتوهم !

وكانت فرصة تركت للشيخ الصباحى أحد علماء الازهر وعضو مجلس الشورى أن يقول : أن رياض باشا تعلم فى الاورطة العسكرية وجاء يفتخر !

لم يجد رياض بدا من الانسحاب ، فأسرع بالخروج ، وقدم استقالته فسقطت الوزارة بقوة المعارضة ، وزعامة المويلحى .

لقد كان هذا الازهرى الجرىء أول معارض دستورى شهدته مصر فى اول برلمان مصرى ! وحسبه ذاك !

دور الأزهـــــر
فى الثورة العـــرابيـــة

كانت الثورة العرابية ثورة شعب يهب مطالبا بحريته مستردا كرامته السليبة ، وان بدأ بها الجيش المضطهد فأعطى انطباعا مبدئيا بأن الثورة ثورة جيش ، ولا ننكر أن الضباط الاحرار بقيادة الزعيم البطل أحمد عرابى قد هبوا مدافعين عن اضطهادهم وسوء ما يلقون من معاملة الرؤساء ، ولكنهم لم يطالبوا بحقهم وحده ، بل طالبوا بحرية الشعب جميعه ، ووجدوا من التأييد الشـــعبى الساحق ما جعل الثورة ثورة شـــعب بأثره ، فاذا كان اضطهاد المصريين بالجيش سببا مباشرا لاندلاع الثورة العرابية فان ســـوء الوضع السياسى فى مصر قد أرث الحريق فانتشر فى كل مكان .

يقول الاستاذ عبد الرحمن الرافعى فى تحليل الاسباب الدافعـــــة الى هذه الحركة الواثبة : فى كتابه الرائع « الثورة العرابية » .

لم يكن ثمة عدل ولا قانون ، ولا قضاء ينصف المظلوم ، ويعطى كل ذى حق حقـــــه ، ولا حرية ولا مساواة ، ولا ضمانات قانونية تكفل للناس حقوقهم وحياتهم ، وكان الضرب بالكرباج شائعا يتخذه الحـــكام وسيلة لتحصيل

الاموال ، او أداة للقسوة والتعذيب ، حقا أن رياضا أمر بابطاله ، ولكن أوامره فى هـذا لم تنفذ تنفيذا تاما وبقي الكرباج فى كثير من النواحي أداة للحكم ، وكانت السخرة مضروبة على البلاد ، ولم تكن مقصورة على المنـــافع والاعمال العامة ، بل كانت تستخدم لاستصلاح أطيان ذوى السلطة والجاه من الحكام والامراء ، وكان النفى الى أقاصى السودان عقوبة يعانيها الكثيرون لمجرد الشبهة أو النكاية ، ولم تكن المظالم مقصورة على طبقة دون أخرى بل كانت عامة يعانيها العامة والخاصة ، ولم ينج من شرها الا من تشملهم رعاية أولى الامر ، على أن هـذه الرعاية لم تكن مضمونة البقاء ، بل كثيرا ما تنقلب غدرا لغير ما سبب سوى أهواء الطغاة وتقلباتهم » .

ولسنا بصدد البحث التفصيلي فى أسباب هذه الثورة ولكننا نتحدث عن دور الازهر فى نصرة الحق حين أيد الثورة واشترك فيها ، وتعرض لمصاعب كثيرة ، وقد كان زعيم الثورة أحمد عرابى أحد أبناء الازهر الذين نشأوا فى الريف المصرى بالشرقية فى أسرة متدينة ، اذ كان والده من علماء الازهر قضى عشرين عاما من عمره يتلقى علوم الدين واللغة والمنطق فى رحابه حتى صار موضع الافادة والتوجيه ، وحين بلغ ولده أحمد عرابى الخامسة أرسله الى مكتب القرية فحفظ القرآن وألم بالمبادىء التـامة للكتابة والقراءة والحساب فى جو دينى أزهرى ثم التحق بالازهر الشريف فدرس به مبادىء الفقــه والنحـو ، وصادف أن أمر الوالى سعيد بالتحاق أولاد المشايخ فى القرى بالعسكرية فترك أحمد عرابى الازهر الى الحربية وانتظم فى سلك الاورطة السـعيدية المصرية بقناطر فم البحر ثم توالت الايام فأتم تعليمه العسكرى وعين بعـد

امتحانه فى درجة (بلوك أمين) ومنها الى (ملازم ثان) حتى انتهى الى ما انتهى اليه من نظارة الحربية وزعامة الثورة التى نسبت اليه وعرفت باسمه ولا ريب أنه انتفع كثيرا مع زملائه الاحرار بما بعثه جمال الدين الافغانى فى الشعب المصرى حين أخذ يجمع طلاب الازهر حوله ليعطيهم الى جانب دروس المنطق والحكمة والتاريخ دروس الوطنية الصادقة ، وليشرح لهم مساوىء الاستعباد الداخلى والاحتلال الاجنبى ثم يشجعهم على الكتابة فى الجرائد لينشروا فى الشعب المصرى روح النقمة على الاضطهاد ، فطلعت الصحف المختلفة بمقالات متتابعة لتلاميذ جمال الدين تبعث ضوءه فى كل مكان ، وبعد أن كانت هذه الجرائد مقصورة على الاخبار المحلية والمدائح الخديوية ، وتنقلات الوزراء والحكام أخذ أمثال محمد عبده وابراهيم اللقانى وعبد الكريم سليمان وسعد زغلول وابراهيم الهلباوى وجميعهم من طلبة الازهر يتحدثون عن حرية الشعب ، وسلطة الحاكم ، وتدخل الاجنبى ، ويدعون الى تأليف حزب وطنى سياسى ، وتمكين مجلس شورى النواب من حقه الدستورى ، وبذلك أصبحت الجرائد مدرسة سياسية يديرها من بعيد جمال الدين ، ويقوم بالتدريس فى فصولها تلاميذ الازهر ونجباؤه ، ومن ينضمون اليهم من خيرة المثقفين ، ولعل أظهرهم جميعا هو الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله ، اذ لفت الانظار بمقالاته الجريئة فى صدر الأهرام ثم اختاره رياض باشا للقيام على تحرير الوقائع المصرية فجعلها منارة للتوجيه الدينى والارشاد السياسى ، وأخذ ينتقد كبار المسئولين من الوزراء

وحكام الاقاليم ، ورؤساء الادارات اذا رأى فى تصرفاتهم ما يوجب النقد ، حتى ضجروا من هذا الصوت الجديد، فطالبهم محمد عبده بالرد على النقد بدل الضجر والاحتجاج ! يقول الاستاذ محمد عبده بعد حديث مفيد عن رسالته بالجريدة الرسمية .

« لم يضيع رئيس التحرير ـ يعنى نفسه ـ فرصة فى انتقاد نظارة المعارف ، وسير التعليم ، واظهار معايير التربية وما يجب أن يؤخذ به من وسائل الاصلاح، فغضب لذلك ناظرها (ع . ا . باشا) وكان بطىء الحركة ، خامد الفكر ، بعيدا عن الاحساس بحاجة الوقت فاشتكى الى رياض باشا من احتفاء الجريدة الرسمية به ، وتنقيبها عن مواضع الخال فى أعمال نظارته ، فلم يسمع له ، بل أجاب بأن الحق أولى بالتأييد ، فان كان ما ذكرته الجريدة غير صحيح فما على الناظر الا اقامة الدليل على ذلك ، وهى مستعدة لنشره فسكت ، لان ضوء الحقيقة كان هو المرشد للمنتقد فى سبيل انتقاده » (١) .

واذن فقد تعبأ الشعور الوطنى بما كتبه العلماء فى الجرائد ، وما أذاعوه فى المجالس حتى قامت الثورة فكانوا جنودها الاوفياء ، ولسنا هنا بصدد تدوين أحداثها المثيرة ولكننا نشير فى ايجاز الى بعض المواقف الهامة لأبناء الازهر فى هذه الانتفاضة الواثبة لينكشف الحق الصريح .

انتشر الوعى الوطنى ، وأحس الخديو أن القوة

---

(١) مذكرات الإمام محمد عبده (كتاب الهلال) ص ٩٥ .

الحقيقية ليست معه ، لأن الذين يملكون رايه من سفراء انجلترا وفرنسا وبعض الشراكسة والاتراك يلقون تيارا جارفا من أنصار الحركة العرابية ، لا سيما والحكم فى أيديهم ، لان وزارة محمود سامى البارودى وزارة وطنية، ووزير حربيتها قائد الثورة احمد عرابى ولا خلاص من الازمة الا بسقوط الوزارة ، وهذا ما اشار به سفير الدولتين الدائنتين ، انجلتر وفرنسا ، ولم تكن الاشارة شفوية هامسة بل تعدت المشورة الى الطلب الرسمى فى مذكرة تطلب ابعاد أحمد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى الى أى جهة من جهات القطر خارج القاهرة، ويتبع ذلك سقوط وزارة محمود سامى البارودى وتعيين وزارة موالية للأجانب والتصر ! وكان المنطق الطبيعى أن يرفض أحمد عرابى وجميع أعضاء مجلس الوزارة هذا المطلب التعسفى ، ولم يكونوا وحدهم فى الرفض حيث اجتمع قادة الرأى من العلماء والكتاب معهم للتداول، ثم صمموا على المقاومة الصريحة للاستبداد ، وجاء الشيخ محمدعبده فوضع قسما وطنيا أداء الجميع ، ليمثل عهدا أمام الله بالاخلاص للوطن ، ثم تطورت الامور فاستقالت وزارة البارودى وأصبح الضباط وجها لوجه أمام مؤامرة محكمة من الاعداء ! وهنا يؤدى الازهر دوره الوطنى الرائع حين يجتمع شيخ الازهر العلامة الانبابى مع فريق من كبار العلماء أمثال الشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوى والشيخ أبو العلا الحلفاوى ليتشاوروا فى المأزق الحرج ، ولينتهوا الى وجوب تأييد الثورة العرابية بكل ما يملكون ، فدعوا الى عقد اجتماع

عام في ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ م حضره كبار العلماء ممن تقدم ذكرهم مع كبار الضباط والنواب والسياسيين من أمثال شريف باشا ليدرسوا طلب الخديو فى ضرورة قبول المذكرة الانجليزية الفرنسية ، ودار البحث الصريح في جو عاصف مليء بالحذر والاشفاق من التآمر والغدر، ورأى الخديو أن يباغت الحاضرين بوجوده ظانا أن تأثيره الشخصي سيحدث بعض الانقسام في الرأى ما بين مؤيد ومعارض ولكن طلبه عصمت باشا استمع الى رغبة الخديو في ضيق ، حين رأى قبول المذكرة الاجنبية ، والخضوع التام لما تمليه فرنسا وانجلترا ، فهب واقفا ليخاطب توفيقا بقوله الصريح : اننا مطيعون لجناب السلطان العثماني وللجناب الخديوى ، ولكن لا يسهل علينا تنفيذ ما بالمذكرة الاجنبية اذ لا حق لانجلترا وفرنسا في التدخل فى شئوننا الخاصة ، دون الرجوع الى الباب العالى ، ونحن متمسكون بقيادة أحمد عرابى ، وقام الشيخ محمد عليش شيخ المالكية بالازهر وندد بالتدخل الاجنبى ، فذكر أن الوطن لا يثق بغير أبنائه المخلصين ، وان أحمد عرابى هو ممثل البلاد وزعيمها الصادق ، وتطلع الخديو فى وجوه العلماء فرآهم على اتفاق تام ، وأن ما قاله الشيخ محمد عليش صادف منهم الارتياح ، وحين لم يستجب الخديو الى ما قرره المجتمعون من رفض المذكرة بادر طلبه عصمت بالانسحاب دون استئذان وتبعه شيخ الازهر ورفقاؤه من كبار العلماء ومن ورائهم القواد والضباط ! وأصبح الموقف سافرا لا يحتاج مواربة أو مداراة ، فقد عرف الخديو أن الشعب قد

دبت فيه روح اليقظة ، وأن عرابى باشا لا يقف وحده ، وأن الازهر من أكبر مؤيديه ، فاستعان بانجلترا وفرنسا من جديد ، ورأت انجلترا الفرصة سانحة لتثبيت أقدامها ، وتحقيق مطامعها الاستعمارية القديمة قد أخفقت حملتها السابقة فى عهد «محمد على» على رشيد ، فأرسلت اسطولها الى الاسكندرية ليضربها بالقذائف وليحتل جنودها أماكن متعددة منها ! وماذا يستطيع الاحرار غير المقاومة المستميتة أيا كانت العاقبة ، وقد اطمأن الخديو الى حماية الاعداء فأصدر أمره باقالة عرابى ، واجتمع المؤتمر الوطنى للمرة الثانية فى ٢٢ يولية ١٨٨٢ ، وقام الامام محمد عبده بالقاء كلمة مستفيضة تسلسل الاحداث وتثبت خيانة للخديو للثورة ، وتابعه على الروبى باشا احد ابطال الثورة فألقى كلمة مماثلة ، وأمام هذه الحقائق السافرة أصدر علماء الازهر فتواهم الجريئة بمروق الخديو وخيانته منذ التجائه الى عدو البلاد مما يوجب عزله وادانته ، وقد وقع على الفتوى كل المجتمعين من علماء الازهر ، ونذكر منهم الشيخ محمد الانبابى شيخ الجامع الازهر والشيخ عبد الله الدرسنارى ، والشيخ محمد عليش والشيخ يوسف الحنبلى والشيخ عبد الهادى الابيارى والشيخ محمد الأشمونى ، والشيخ خليل العزازى . والشيخ مسعود النابلسى ، والشيخ محمد القلماوى ، والشيخ زين المرصفى ، والشيخ حسين المرصفى ، والشيخ سليم القلعاوى ، والشيخ عثمان مدوخ ، والشيخ عبد الرحمن السويسى ، والشيخ أبو العلا الخلفاوى ، والشيخ احمد الخشاب ، والشيخ عبد القادر الرافعى والشيخ عبد القادر الدليشانى ، وما انتهى الاجتماع حتى قامت

حركة الدعوة الى الجهاد يحملها شباب الازهر مقتديا بكبار علمائه ، وقد بذل الشيخ محمد عبده وعبد الله النديم وعبد الهادى الابيارى وهم من حملة القلم وأرباب اللسان جهدا بارعا فى العمل على جمع الكلمة ، ومهما تكن النتيجة قاسية فانها شهدا لله كانت مشرفة وضيئة ناصعة لشعب أعزل رفض الذلة والهوان وحارب بيده وجسمه حديد العدو وناره ، فعلم الناس جميعا ، أن الاحتلال لم يتكرس الا بالخيانة والتواطؤ والا بعد أن فنيت آلاف الارواح دفاعا واستشهادا ، وفى هذا أبلغ رد على من يحاولون الاستخفاف بهؤلاء الابطال الكماة الذين زاروا مندفعين الى القذائف الحامية دون مبالاة ، حتى تناثرت الاشلاء فى التل الكبير شاهدة بالكرامة ، ناطقة بالاستبسال ، فجعلت الهزيمة شارة فخار ، ووسام اباء، وهذا ما عناه الشاعر الوطنى الكبير الاستاذ فخرى ابو السعود حين قال فى معركة التل :

أعد ذكر ماضى النيل للجيل منشدا
فما أعذب المجد الأثيل المرددا
نتيه بماضينا القديم تفاخرا
وأحر بأن يروى الحديث فيحمدا
ولم ار يوم التل عارا وسبة
ولم اره الا أغر مخلدا
انخجل أن قمنا نذود عن الحمى
ويسحب أذيال الفخار من اعتدى
تدفق من عبر المحيط مهددا
فما حفلت آباؤنا من تهددا

وقالوا شباة السيف دون عدونا
وان يك عرض البر والبحر ازبدا
اباء تليد المجد قر له رضى
وقر له عظم الفراعين ملحدا (١)
فيا من رأى أبناء مصر اذا انبروا
الى غول الاستعمار صفا مجردا
على حين ماجت خيله وسفينه
ولم يبصروا في الشرق والغرب مسعدا
سلام على شهم تولى زمامها
أعف الورى قصداً وانقاهموا يدا
جريرته أن رام مصر عزيزة
وشاء لها أن تستقل وتسعدا
ستذكره مصر الفتية ما ابتغت
لدى الحق عهدا أو لدى المجد موعدا
عسى ذكرنا رغم الهزيمة احمدا
سيبعث فينا للغنيمة أحمدا

وبعد انتهاء الثورة تعرض زعماؤها للمحاكمة ، فكان نصيب العلماء فادحا اذ منهم من سحب على وجهه واقتيد الى العدوان على كبر السن ووهن العظم فمات بعد أن عذب ورمى به فى مستشفى بدائى وهو شيخ المالكية الشيخ محمد عليش رحمه الله ، ومنهم من عذب وصودرت أمواله ودياره ثم رمى به الى المنفى السحيق ، ومن هؤلاء العلماء الابطال الشيخ عبد الرحمن عليش وقد نفى الى الآستانة الشيخ عبد القادر الدليشاني

(١) أى العظم فى اللحد ، وتقرأ « ملحدا » بفتح الحاء .

ومحمد عبد الجواد القاياتي واحمد عبد الجواد القاياتي ومحمد عبده وقد نفوا الى بيروت ومحمد الهجرسي وقد نفي الى مكة المكرمة ويوسف شرابه وقد نفي الى مكة مع تجريدهم من الرتب والالقـــاب والمناصب وعلامات الشرف ! وهي أزياء خارجية لا قيمة لها عند العقلاء ، لأن هؤلاء العلماء الافاضل لم يجردوا من كرامتهم وعلمهم وشجاعتهم فظلت كلها باقية تضفى عليهم الآلاء السعادة وطمأنينة النفس ، وراحة الضمير ! وقد أبدت محاكمات العلماء خوارق باهرة حار لها أعوان الاستعمار أنفسهم ، وفغرت أفواههم دهشا واستغرابا ، وسأنقل عن كتابى « من صحائف التاريخ » (١) موقفا رائعا لعالم باسل أزهرى جرىء هو الشيخ حسن العدوى قد مهدت له بكلمات يسيرة تكشف عن مناسبته اذ أقول « خيم على مصر ظلام ظالم حين دخل توفيق القــــاهرة ، مدججا بالحراب الانجليزية ، ومن فوقه العلم البريطانى يرمز الى احتلال بغيض يزهق الانفس ، ويحرج الصدور ، وقد انقلب المسرح فجأة فأصبحت الادارة والرياسة فى أيدى خونة مرتشين تفيض أردانهم بالنتن الموبق ، وتسيل اكفهم بالمال الحرام ، وقد شاعت السخرية المريرة أن تقيم للأبطال من احرار الوطن محاكمة ارهابية تقتص من الكرامة والحرية والعـــزة ، فتسوق محمود سامى البارودى وأحمد عرابى وعبد العال حلمى وطلبة عصمت، ومحمـــود فهمى وعلى الروبى ومحمد عبده الى أقفاص الاتهام مكبلين مصفدين ، وتقـــدم للاوغاد الخونة من جواسيس الاســـتعمار وأذناب القصر كسلطان وخنفس

---

(١) من صحائف التاريخ للمؤلف ص ١٣٦ .

والطحاوى أوسمة المجد ونياشين النباهة ، وذهب المعز، فأى حق رفع ؟ وأى باطل يقام ؟

جاء دور الشيخ حسن العدوى فى المحاكمة ، وقد خيم الارهاب فى كل زاوية ، وأخذ الطغيان بكل خناق ، وتعاهد الخونة على أن يذلوا كبرياء هؤلاء الاباة ، متوهمين أن الشجاعة ستذوب فى ساحة البطش فتنكس رءوسا كانت مرفوعة ، وتخفض أصواتا طالما جلجلت بالزئير وينظر القاضى متشامخا الى الشيخ الوقور ، وقد وقف أمامه فى ثبات واقدام يصبح به ـ أأنت وقعت على المنشور ؟

فيقول الشيخ حسن العدوى : أى منشور تريد ؟

ـ المنشور الذى يقضى بعزل الخديو عن أمر البلاء .

فيرتفع صوت الشيخ الجرىء : لو جئتم بمنشور جديد يقضى بعزله لوقعته فورا دون تأجيل لقد خان توفيق وطنه واسلامه !

وترتج المحكمة ارتجاج الباطل امام زلازل الحق ، ويصيح القاضى متسائلا فى حيرة : أسمعتم ما يقول ؟

فيزأر الشيخ ثانية : الخديو خائن خائن !

وينظر القوم بعضهم الى بعض ـ وأكثرهم مصريون للاسف ـ فيجدون قطرات الخجل تملأ وجوههم الشاحبة، وتمتمات الحيرة تعقد ألسنتهم فما يجدون ما ينطقون ؟ وقد وقف المحامى الانجليزى (برودلى) موقف الاعجاب من الشيخ ، ثم رنا الى أصنام المحكمة الجالسين مجالس القضاة كالساخر المستهزىء ، وكأنه يقول لهم : هل تجرؤون أن تكونوا مثله هل تجرؤون ؟

بعد الاحتلال الإنجليزى

حين أخفقت الثورة العرابية وداهم الاحتلال البلاد عمر الأمة المصرية شعور بالحزن الفاجع ، وشعر كل مواطن أنه فقد أعز شىء لديه ، وكان شعور الانسان بينه وبين نفسه وبينه وبين خلطائه ممن يبدى لهم سريرته شعور من رجع الى داره بعد أن دفن خير أحبائه ، فقد مات خيرة الشباب نضرة فى المعارك غير المتكافئة . ونفى سادة المصريين وكبار علمائهم الى حيث لا يراهم أحد ، وأصبح الخونة سـادة يلون المناصب ، ويتحكمون فى رقاب الاحرار وأراد الله أن تعم النقمة نفراً من الأذناب الذين خانوا البـلاد ، حيث رأوا من المحتلين أنفسهم من ازدروهم اذ عرفوا قيمتهم الحقيقية الهابطة فى دنيـا الشرف والامانة والفداء ، ولنا أن نشهد بسلطان باشا الذى ساعد على الخيانة مسـاعدة غادرة ، حين وشى بالعرابيين الى أعدائهم ، وقاد كتائب الانجليز ليدلهم على الطرق نحو التل الكبير وكفر الدوار لينازلوا الاحرار من الثائرين ، ثم أخذ يكاتب مشايخ العرب ليجمعهم فى صف واحد أمام الوطنيين ، وكذلك بذل الجهد الجاهد في استمالة ضعفاء النفوس من العمد والاعيان وقليل

ما هم ، ثم حظى برضا الخديوى توفيق عقب انتهـــاء المعارك ، وأخذ يبدى من الفطرسة والاستعلاء ما دل على حقد أسود ، ولؤم بغيض ، ثم كانت كارثة مروعة حين انتدب الى الاشراف على الشواطىء ومراقبة مياه النيل فى الوجه القبلى أيام الفيضان ، انتدبه المحتلون الى هذا العمل بعد أن ظن أنه سيرأس مجلس النظار ، وسيكون الرجل الثانى بعد الخديوى محمد توفيق ، وقد صدع بالامر على غيظ وحاول لقاء المعتمد البريطانى فلم يجـد لديه بارقة احترام ! فزاد همـــــه وتضاعفت أمراضه وأدركه الندم ولكن بعد ماذا ؟

وقد نفى علماء الازهر مع المبعدين ، فما وهنوا ، بل كان منهم من ضاعف العمل لمحاربة الاحتلال وهو منفى عن البلاد ، وتلك جرأة ممتازة ، لان الذى يقوم بمناهضة الاحتلال ومعاندة الخديوى وهو مبعد عن مصر ، ستسوء سمعته لدى الحاكمين ، وسيصرون على ضرورة ابتعاده الدائم ، دون أن يجد من يشفع له فى العودة الى البلاد ونذكر من هؤلاء الاستاذ محمد عبده فقد نفى الى بيروت، فلم يسكت ، بل واصل المعارضة الفاضبة لأعداء الاسلام والمصريين ، ثم رأى أن يغادر بيروت الى باريس ليجتمع مع أستاذه جمال الدين الافغانى فيعيدا ما بدءا به من مناهضة الاحتلال ، ولك أن تتصور جهاد غريبين فقيرين لا يملكان شيئا ذا بال ثم همـا بعد ذلك يصـدران مجلة العروة الوثقى لمحاربة الاحتلال ، ويقابلان أســـاطين الساسة من الوزراء والنواب ويكتبان فى الصحف العالمية منددين بفظائع الاستعمار فى كل بلد اسلامى دون ابطاء

بل سافر محمد عبده الى انجلترا نفسها ليصـــارع الاستعمار فى عقر داره ، وقد كتب فى صحيفة (البال مال) يقول فى صراحة سافرة مخاطبا الانجليز (١) :

« اننا نرى انتصاركم للحرية انما هو انتصار لما فيه مصلحتكم ، وان عطفكم علينا كعطف الذئب على الحمل ، وقد قضيتم على عناصر الخير فينا لـكى تكون لـكم من ذلك حجة للبقاء فى بلادنا ، فلم لا تغادرون مصر ؟ لقد علمتمونا شيئا واحدا هو التضامن فى مطالبتكم بالجلاء ، شـــكونا من الاتراك لانهم أجانب عن أوطاننا ، وأردنا لبلادنا اصلاحا وتقدما كتقدم الاوربيين فى طريق الحرية لكننا نعلم أن بمصر الآن ما هو شر من استبداد الحكام ، وشر من ظلم الاتراك أن لنا رجاء واحدا وهو أن تغادروا بلادنا الى غير رجعة .

ولما سأله محرر الصحيفة عن الخديو توفيق : قال ان توفيقا أساء الينا ابلغ السوء لأنه مهد لدخولكم بلادنا، وانضم أيام الحرب الى أعدائنا . ولا يمكننا أن نشعر ازاءه باحترام !!

نقل الاستاذ العقاد هذا الرأى الجرىء ثم عقب عليه بقوله (٢) :

« قال هذا وهو لا يبالى أن يظل منفيا عن بلاده أبدا ، لأنه لن يعود على غير رضا الخديو صاحب الســـلطة الشرعية ، ورضا المحتلين أصحاب السلطة الفعلية ، وقد

---

(١) محمد عبده للاستاذ عباس محمود العقاد ص ١٨٢ .
(٢) محمد عبده للاستاذ عباس محمود العقاد ص ١٨٣ .

بقى فعلاً غير مأذون بالعودة بعد انقضاء الموعد المحدد لنفيه وهو ثلاث سنوات » .

عاد الامام الى مصر فأدرك ان واجبه الاول أن يكون قائدا للتربية الصحيحة فى البـــلاد ، اذ أن سيطرة الاحتلال لا تسمح للشعب الاعزل بالمقاومة السريعة ! ولابد أن ينشأ جيل ناهض يعتنق مبادىء الحـــرية والكرامة والاستقلال ، وقد مات توفيق ، وجاء ولده عباس ، وكان شـابا يتطلع الى الخــلاص من قبضة الاستعمار ، ولكنه فوجىء بأغلال تعض يده وتكبل قدمه فلم يستطع شيئا ، ورأى أن يتصل بأصحاب الرأى ليساعدوه على المسير ، وكان فى طليعة هؤلاء الاستاذ محمد عبده ، وقد أخلص له المشورة ، ودعاه الى اصلاح الازهر والاوقاف والمحاكم الشرعية ، وهى الجهات الثلاث التى بعدت عنها سيطرة الاحتلال لأن اتصـالها بالدين الاسلامى جعل لهـــا حساسية خاصة لدى قوم من المستعمرين لا يريدون أن يتدخلوا فى أمور لا يكسبون شيئا من ورائها . ثم هم لا يخسرون شيئا أيضـا ، اذا تركوا للحاكم الشرعى أن يصلح ما يراه معوجا فى دائرته المحدودة ، ولو كان عباس الثانى صادق النية فى الاصلاح لسارع الى تنفيذ ما أشـار به الاستاذ الامام ، ولكنه أراد أن يكون ذا مصلحة شخصية فحسب ، حين يولى أمور الازهر أناسا يأتمرون بأمره دون قدرة على المعارضة الناصحة ، والمجاهرة الصريحة ، وحين يجعل أعضاء مجلس الازهر وسيلة لـــكسب مادى خطير يرسم له الخطط ويدبر له طرق الاحتيال ، وهذا ما عارضه الامام

فى قوة صريحة ! لقد كان للخديو أرض زراعية فى احدى جهات الشرقية وللأزهر بالجيزة أرض بنائية تباع الاولى بالفدان ، وتباع الثانية بالمتر وان تساوتا معا فى المساحة العددية ، فشاء أن يستبدل أرض الازهر بأرضه وهى لا تبلغ فى قميتها الشرائية ما يساوى واحدا من الثلاثين اذا قيست بأرض الازهر فأوعز الى بعض مساعديه من أعضاء مجلس الاوقاف أن يتقدم باقتراح المبادلة بحجة أن المساحة متكافئة ، وظن ان منزلته العليا ستمنع كل اعتراض ، ولكن الاستاذ الامام مع نفر من المخلصين قد رفض المبادلة واعلن أنها اعتداء على أوقاف الازهر ، وأن على الخديو ان يدفع للأزهر الفرق المالى الكبير بين الصفقتين وقدره عشرون ألفا من الجنيهات اذا أراد الاستبدال ، وعشرون ألفا فى ذلك الزمن مبلغ خطير ندرك قوته الشرائية اذا علمنا أن ثمن الفدان الواحد حينئذ كان لا يتجاوز ثلاثين جنيها ! وضاق الخديو بصراحة الامام ، وهدد من تابعوه !

ثم شاء أن يتدخل فى شئون الازهر ليحرم نابها من العلماء أن ينال رتبته ، حين يوعز بمنح الرتبة الى احد خاصته من العلماء ممن لا يصلون الى مستواها ! مريدا بذلك أن يصل صاحبه بهذا المنح الى عضوية المجلس الاعلى لشئون الازهر فينضم الى مساليه ، ويصبح الخديو ذات أصوات راجحة يدير بها المجلس كيف يشاء مهما عارضه عالم صريح الرأى كالاستاذ الامام ، وهى مسألة مشتهرة كتب عنها مؤرخوا محمد عبده باسهاب ،

ولكن الدكتــــور أحمد أمين لخصها بايجـــاز سريع فقال (١) :

« وحدث ان خلا مكان لكسوة التشريفة فى الازهر ، فأراد الخديو أن يشغله الشيخ محمد راشد مفتى المعية (الخديوية) ولم يكن تنطبق عليه اللائحة الموضوعة فأوعز الشيخ محمـــد عبده بعدم تنفيذ ذلك الامر ، واعطـاء الكسوة للمستحق،وزاد الطين بله ، أن العلماء لما اجتمعوا عند الخديو فى التشريفات كلم لخديو شيخ الجامع فى غضب وتوبيخ ، فرد عليه الشيخ محمد عبده فى حدة : « اذا شاء أفندينا أن تكون كساوى التشريفات بمقتضى ارادته الشخصية فليصـــدر بذلك قانونا ينسخ هذا القانون » فلما سمع الخديو هذا الرد احمر وجهـــه ووقف ، ايذانا للحاضرين بالانصراف . وآلى على نفسه أن يحرج المفتى ويكيد له حتى يخرجه من منصبه ، وينتقم من فعلته » .

ومن يومها والدسائس المنكرة اللئيمة تتابع الامام ، وقد انحطت هذه الدسائس الى درك من القذارة والدناءة لا يطرق على بال ، ولعل أكثرها مدعاة للدهشة أن تلفق صورة للامام مع بعض حسناوات أوربا فى موضع شائن ، وأن تنشر فى الصحف مع حملات التشهير ، لتلقى فى روع العامة أن الامام لا يلتزم بآداب الاسلام ، وقد سارع الشيخ الى القضاء فعين الخبير الفنى الذى أصدر رأيه بتلفيق الصورة ! كما صادف أن أفتى الامام بجواز لبس القبعة لمن يعيش فى بلاد الغرب فأعد الخديوى كتيبة من

(١) زعماء الاصلاح فى العصر الحديث للدكتور أحمد أمين ص ٣٢٠ .

منافقيه ليرجفوا بالامام ويعلنوا جهله وكفره ! مع ان الخديو يلبس القبعة فى فرنسا وانجلترا ! ولكنه ينسى ذلك تشفيا وانتقاما من امام مخلص يدعو الى الاصلاح ! ولا يفيض فى تسلسل مواقف الامام من طغيان عباس ! لان ما أشرنا اليه مقنع كاف .

نتتقل الى دور الطلبة أنفسهم فى مقاومة الاحتلال ، والحق أن جميع طلاب المدارس العالية كالحقوق والهندسة والطب ودار العلوم وكذلك طلاب المدارس الثانوية والفنية ، قد أعلنوا غضبهم على الاحتلال ووجدوا فى جريدة اللواء التى يصدرها الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل متنفسا لاقلامهم ومشجعا لحركاتهم الوطنية ، وقد قام المرحوم الاستاذ عبد الرحمن الرافعى بتدوين كثير من مواقف هؤلاء الناهضين ، اذ كان طالبا بالحقوق ، ومعاصرا لما دون فهو ينقل عن عيان ماثل لا عن سماع يروى أو تاريخ يقرأ ، على أن جنازة مصطفى كامل قد أظهرت روح الطلاب اظهارا أفزع المحتلين ، اذ رأوا عن يقين ان سياستهم فى أخذ الشبيبة بالشدة ومحاولة اقصائهم عن العمل الوطنى قد عادت بالاخفاق الذريع ، حتى ريئنا السير غورست يهرع الى الخديو عباس مستنكرا هائجا ، وقد قال له فى حدة « اذا كانت افكار الطلبة بهذا الشكل فماذا يكون منهم عند تقلدهم الوظائف العامة » (١) .

ومع وجود اشارات كثيرة للنشاط الازهرى فى الكتب التى أرخت هذه الفترة ، فان مما يؤسف الباحث

(١) مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ ص ١٤٢ لاحمد شفيق باشا .

المحايد ألا يجد محـــاولة جادة لتتبع هذا النشاط !
ولا نتهم من تصدوا لتاريخ هذه الحقبة بتعمد الاهمال ، ولكننا نقول انهم فى كلياتهم المدنية لم يستطيعوا الالمام بهذا النشاط كما لمسوه عيانا فى كلياتهم ، ونحن بمراجعة صحف هذا العهد نجد أن جريدة اللواء قد نشرت بتاريخ ٢٥ يناير سنة ١٩٠٩ مقالا كبيرا يتحدث عن اضراب الطلاب بالازهر اذ رفضوا العودة حتى تجاب مطالبهم الاصلاحية ، وعقدوا عدة اجتماعات كثرت فيها الخطب الحماسية التى لم تقف عند حدود الاصلاح التعليمى بل تجاوزته الى المناداة بالحـــرية والاستقلال وقد هاج الخديو عباس متأثرا بما رأى اذ كان يظن ان حركة محمد عبده الاصلاحية قد ماتت بموته وأن الذين يسيطرون على الطلاب من مناوئى الاستاذ الامام قد عفوا على كل أثر تركه ! وها هو ذا يجد تعاليم محمـــد عبده تذيع وتمتد ، وتصبح موضع الاتفـــاق التام من الشبيبة الازهرية . فاضطر الخديو الى تأليف لجنة برعاية وكيل الجامع الازهر الشيخ محمد أبى الفضل الجيزاوى للبحث فى أسباب الاضراب . وحاول أعضاء اللجنة أن يطمئنوا الطلاب بالوعود المعسولة ، ولكنهم لم يجدوا لديهم غير الكلام فقط . فألفوا اللجان الداعية لمواصلة الجهاد ، واتصلوا بالحزب الوطنى فوجدوا من أعضـــائه ومن جريدته « اللواء » كل تأييد ، اذ دأبت الجريدة الوطنيـــة على نشر أخبار الطلاب فلفتت أذهان زملائهم الطلاب فى المدارس العالية الى ضرورة تأييدهم وتجمع فى نادى المدارس العليا حشد غفير من الطـلاب يعلنون تأييدهم

لحركة الاصلاح الازهرى ، ويدعون الى مظـاهرة عامة تسجل هذا التأييد فى صورة حماسية لا تقبل الشك ، وقد قامت بالفعل هذه المظاهرة الرائعة فى ٢٧ يناير سنة ١٩٠٩ حيث تقدم طلبة الازهر الجموع المحتشدة فى صفوف متوالية الى ساحة عابدين هاتفين . ودعوا الى اجتماع عام فى الغد بحديقة الجزيرة يضم جماهير كثيرة من طلاب المدارس العالية ، ولم يتخلف أحد فى الموعد المحـدد بل زاد عدد المتظاهرين فى غدهم زيادة ملموسة . وقد توجهوا بعد أن ألقوا خطبهم الثائرة فى حديقة الجـــزيرة الى دار اللواء هاتفين بحياة الحزب الوطنى ، واصطدم البوليس بهم اصطداما تبودلت فيه ضربات العصى ، وقذائف الحجارة ، وأذكر أن مجلة كلية الآداب (١) بالمنصورة نشرت فصلا قويا مؤيدا بالمراجع الدقيقة يشير الى ما كان من أمر هذه المظاهرة الازهرية الخطيرة ، وقد مهدت له بتوطئة جيدة عن مكايد الاحتلال البريطانى ، وخطط غورست ودنلوب فى اجهاض التعليم بمصر ، ثم أوجزت ما قام به الطلاب فى مختلف المدارس من مظاهرات حماسية واجتماعات سياسية متعـاقبة ، ورأت أن تفيض فى حديث المظاهرات الازهرية فتحدثت عن دوافعهـا وخطواتها المتتالية يوما بعد يوم ، الى أن قالت مستندة الى مصادرها الصادقة ومن بينها مذكرات الزعيم سعد زغلول (٢) .

---

(١) بالعدد الاول من مجلة كلية الاداب بالمنصورة مايو (ص ١٢٥ ، ١٥٢) بحث تاريخي واف أعده الدكتور الفاضل على بركات تحت عنوان (دور الطلبة المصريين فى الحركة الوطنية قبيل الحرب الاولى) .

(٢) مجلة كلية الاداب ص ١٣٥ .

« واذا كانت تحركات طلبة الازهر قد بدأت حول بعض المطالب الخاصة بالازهريين فانها سرعان ما تحولت الى حركة ذات طابع سياسى اذ اتجهت هذه الاضرابات الى هجوم على الخديو وطالب « الازهريون » بأن يكون للأزهر السيطرة على أوقافه التى كان يتلاعب الخديوى بمقدراتها فى اطار تبعيتها للأوقاف .

وازاء تفاقم الاحوال تم اجتماع خاص فى قصر عابدين ضم الخديو وشيخ الازهر الشيخ حسونة النووى ورئيس النظار ، وناظرى المعارف والحقانية ، وفى هذا الاجتماع تقرر رفض كل طالب أو عالم يمتنع عن تحصيل الدروس، مع ايقاف كل من يريد منع غيره من مواصلة الدراسة وأمام هذا الموقف ، وأمام تشديد الحراسة ، قرر الكثير من الطلبة اخلاء الازهر والعودة الى منازلهم وقراهم .

وفى أول فبراير اجتمع مجلس الأزهر الأعلى برياسة الخديو وأصدر قرارا بحرمان الطلبة من دخول الازهر فيما عدا طلبة السنتين الاولى والثانية ، والطلبة الاجانب الذين لم يثبت اشتراكهم فى هذا الاضراب ، وايدت جريدة اللواء موقف الطلبة الذين نفذ صبرهم لسوء الادارة ، والاستبداد الذى يمارس تجاه الازهر ، واتخذ الحزب الوطنى من اغلاق الازهر مبررا للهجوم على بطرس غالى شخصيا ، وقد فوت الطلبة على الحكومة ضرب حركتهم حين تضامن الذين سمح لهم بالدراسة فى الاضراب مع اخوانهم الممنوعين من العودة للدراسة ، وانبثقت منهم لجنة الاتحاد الازهرى الفرعية ، وهى التى اخذت على عاتقها مسئولية قيادة التحركات الطلابية » .

وطبيعى أن يتأزم الموقف وأن يميل الخديو للتشدد ، فيستقبل شيخ الازهر حسونة النواوى وتنكل الحكومة بالطلاب على يد بعض صنائعها الاذيال فتعتقل مائة وعشرين طالبا ، وترغم مئات على الرحيل الجبرى الى مواطنهم الاصلية فى القرى ، وتمنع العلماء من الصلاة بالازهر !!

ولكن سعد زغلول رحمه الله يعارض ذلك كله ويجمع معه عددا من الوزراء مطالبين بالعفو التام عن الطلاب ، والاسراع فى اصدار قانون الاصلاح ، ويستجيب الخديو مضطرا ويهدأ الطلاب ويبدءون دروسهم ثانية ولكن قانونا آخر يعاجلهم دون مبرر ، يمنع اشتراك الطلاب فى المسائل الوطنية ، ويحرم عليهم الكتابة فى الصحف! وطبيعى أن يثور عليه الطلاب وأن يؤيدهم زملاؤهم طلاب المدارس العليا ! فتلجأ الحكومة الى اصدار قانون المطبوعات ، وهو الطامة التى أشعلت النار فى البترول ، فهاجت الصحف وتجددت المظاهرات وكثر التصادم الدموى بين الطلبة والبوليس ، ليصدق قول شوقى فيما بعد :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

هذه اشارات موجزة تدل على غيرها ، ولعلها تجد من يتهيأ لتأريخها تاريخا منهجيا الآن هذه الحقبة المظلومة تحتاج الى انصاف عادل يقوم به محقق امين .

الأزهـــــر
يقود ثورة سنة ١٩١٩

تحدثت الصحف اليومية جميعها باسهاب عن ثورة سنة ١٩١٩ ، فوالت الصفحات وراء الصفحات فى سرد أحداثها ووقائعها بمناسبة مرور نصف قرن عليها ، وكان عجيبا أن يغفل دور الازهر فى هذه الثورة اغفالا لا ندرى الباعث عليه ، الا ما ندر من أسطر ضئيلة لا تصور الحقيقة الكبيرة ، مع ان الثورة بدون جهاد الازهر تفقد الرائع الجليل ، ولا أقـــول ذلك تزيدا وادعاء ، بل أرجع الى ما ذكره الاستاذ محمود العقاد فى كتابه الشهير عن زعيم الثورة ، حيث أعلن أن سعد زغلول نفسه فوجىء بالمظاهرة الكبرى التى انبعثت من الازهر فأحدثت الشرارة الاولى فى الشعب ثم اندلع لهيبها فى سائر المدن والقرى وقد نص العقاد صراحة ص ٢٢٦ وما بعدها على أن الثورة فى بدايتها لم يكن لها تنظيم من الوفـد ولم يكن على رأسها مدبر مسئول عن رجال السياسة الرسمية ! حتى لقد تعجب سعد رحمه الله فى معتقله حين واتته الانباء بمظاهرات الازهر !! ولكن ما أغفلته الصحافة هذه الايام قد عرفه الناس جميعا وأشاد به شوقى حين قال فى قصيدته الشهيرة :

المعهد القـــدسى كان ندبة
قطبا لدائرة البـــلاد ومحورا
ولدت قضيتها على محـرابه
وحبت به طفلا وشبت معصرا
وتقدمت تزجى الصفوف كأنها
جاندارك فى يدها اللواء مظفرا

ولم يكن احتضـــان الازهر لثورة سنة ١٩١٩ حدثا غريبا على تاريخه أو شيئا بعيدا عن رسالته فى محاربة الطغيان ، اذ أننا نعرف أن الثورة الاولى للشعب المصرى فى عهد الحملة الفرنسية كان زعماؤها الوطنيون جميعا من علماء الازهر ومن يلوذ بهم من التجار والاعيان ، وكان الشباب الفدائى فيها من طلبة العلم بالازهر الشريف ! وانت حين تقرأ تاريخها المنصف تلمس هـذه الحقيقة الـكبيرة فى كل سطر تقرؤه فاذا انتقلت الى الثورة الثانية تجد زعيمها البطـــل احمد عرابى ربيب الازهر وتلميذ حلقاته ، وتجد أكثر اعوانه المخلصين ، وموجهيه الصادقين من رجال الازهر وقد ظل توفيق مكينا فى كرسيه لدى الشعب حتى لفظـــه قرار الشيخ الانبابى بخلعه وفتـوى الشيخ عليش بمروقه ، وحين أحبطت الثورة الباسلة كان صفوة المعاقبين سجنا ونفيا وتشريدا! من علماء الازهر وابطاله وفى مقدمتهم الامام محمد عبده رضى الله عنه اما الثورة الثالثة فلا نقول ــ فقط ــ ان زعيمها الشعبى سعد زغلول هو ابن الازهر وتلميذه بل نعلن أن الازهر كان صاحب الدور الرئيسى فيها بما

قام به من أحداث خطيرة تحيفها الكاتبون اليوم دون مبرر معقول ، فرأيت أن اشير اليها فى هذا المقال .

لقــد تحدثت الصحافة عن انتهاء الحرب العــالمية الاولى وسجلت الوثائق المتبادلة بين وزارة الخــارجية فى لندن ودار الحماية فى مصر بشأن ما تقدم به الزعماء من المطالبة بتقرير المصير ثم ما تهددهم به اللورد اللنبى من قمع وانتقام ، ولن نفيض فى شىء من ذلك بل نخلص منه الى أن احباط الدسائس البريطانية لم يكن ليتم بدون نشاط الازهر ووعيه الوطنى ، فقد أراد اللورد كيرزن وزير الخارجية البريطانية أن يسعى بالفساد بين عنصرى الامة فزعم أن الاقباط يؤيدون الاحتــــلال ويعارضون الثائرين وأن الثورة حركة هوجاء يقوم بها الرعاع والغوغاء من المتطرفين ، فسعى اســــاتذة الازهر وعلى راسهم مصطفى القاياتى ومحمود أبو العيون وعبد ربه مفتــاح ومحمد عبــد اللطيف دراز وعلى سرور الزنكلونى الى كنائس الاقباط يجمعون الكلمة ويوحدون الصف ، ودخل القمص سرجيوس الازهر بأمر الشيخ القاياتى ثم اعتلى منبره ليتحدث مع المتحدثين ، كما رأى علماء الاسلام من واجبهم أن ينهضوا لتشييع جنــــازة من يستشهد من المسيحيين كما يشيعون جنائز الشهداء من المسلمين دون تفريق ! وقد ارسل الشيخ ابراهيم سليمان قصـــائده الوطنية داعيا الى الاتحاد الاخوى فى أراجيز سهلة قامت مقام الاناشيد الحماسية وقد ذاع منها هذا البيت على كل لسان :

الشيخ والقسيس قسيسان
وان تشأ فقل هما شيخان !

وبهذه الخطوة الحاسمة من رجال الازهر سقطت حجة وزير الخارجية البريطاني ، واضطر الى أن يلفق كلاما آخر يبرر فيه وجود الاحتلال البريطاني ، بعد أن أصبح حديث التعصب الديني لدى المسلمين مهزلة مفضوحة ينكرها الواقع الصريح !

هذا موقف رائع للأزهر يذكرنا بموقف آخر لا يقل عنه روعه في العمل على وحدة الصف ، ذلك حين أرجف المعتمد البريطاني بأن الموظفين لا يوافقون جميعا على الثورة المصرية مستندا الى أن أقلية قليلة من الموظفين لم تضرب مع المضربين اذ واصلت العمل في أحلك أيام الثورة عن رهبة لا عن رغبة فاستنكر رجال الازهر أمر هذه القلة ، وقامت مظاهرة كبرى يحمل علمها الشيخ محمد الطنيخي رحمه الله ليتقدم آلاف المتظاهرين من شباب الازهر وطلاب المدارس ورجال الامة متجهين الى أماكن العمل في كل ادارة كي يجمعوا الموظفين على كلمة سواء ، وقد تعرضت المظاهرة لرصاص الاحتلال دون أن يستشعر رجالهـــا الخوف وسقط عشرات المصابين ، وهوجم حامل العلم ورفقاؤه فلم تزل لهم قدم وواصلوا الثورة هاتفين وما انتهى اليوم حتى تحقق المرجـــو من المظاهرة فاتفق الموظفون جميعا على الاضراب ، بل لقــد هال المحجمين أن يشذوا عن اخوانهم فكفروا عن انفسهم بالالتجاء الى الازهر والانخراط في سلك الفـدائيين ! واصبح الصباح فاذا الاضرب سائد عام .

هذان موقفان رائعان للأزهر في احبـــاط الـــكيد الانجليزي فاذا انتقلنا بعدهما الى الالمام ببعض الروائع الدائمة للأزهر في الهاب الثـــورة ، واذكاء الوطنيـة فاننا نجـــد ما لا نستطيع الاحاطة به في مقـــال موجز

يعتمد على التركيز ! وحسبنا أن نختار للقــــارىء من الاحداث ما يشير الى النظائر والاشباه .

لقد اعتقل ســعد ورفاقه فى ٨ مارس سنة ١٩١٩ ، فلم يكد الازهريون يتناقلون النبأ حتى سرت فى نفوسهم روح الغضب الناقم ، وتتابع خطباؤهم على منبره العالى يلهبون الحماسة ويدعون الى العمل الفورى من أجــل البلاد ، ثم خرجوا يومى ٩ ، ١٠ مارس فى مظاهرتين رنانتين كانتا الاوليين فى تاريخ الثورة فأخذوا يطوفون الاحياء هاتفين بسقوط الحماية ، ومن فوقهم رصاص الانجليز يتقــــاطر دون أنه يستطيع ارهابا وتخويفا للثائرين ، وقد ذكر الاستاذ أمين الخولى وكان من الطلاب حينئذ ـ كما جاء فى كتاب مواقف حاسمة ص ٤٨٩ ـ أن [illegible] الازهر قد صاغوا للثورة شــعارا عفويا هتفوا به جميعا حين نادوا فى مظــــــاهرتهم الاولى بقولهم « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » فحددوا مطالبهم فى عبارة موجزة تتسم بالوضوح الصريح ، وقد ريع المعتمد البريطانى لما حادث تابرق لخارجية لندن بأنباء المظاهرة ، وبان له بوضوح أن ما زعمه للخارجية من قبل بأن حركة سعد طائشة لا تبلغ مبلغ حركة مصطفى كامل قد ثبت بطلانه الصريح بمظاهرتى الازهر ! هاتان المظاهرتان اللتان كانتا بعيدتين كل البعد عن أدنى تأثير للوفــد السياسى كما ذكر مؤرخ سعد ! بل ان أحد زعماء الوفد حينئذ قبل الانشقاق وهو عبد العزيز فهمى ثار على المتظاهرين فى غضب ، وأعلن أن المسألة ليست لعب أطفال وصاح بالجموع دعونا نعمل فى هدوء ولا تزيدوا النار اشتعالا ، وقد ذكر العقاد فى وضوح صريح ! واذا كان سعد قد

عجب لحدوث المظاهرتين اللتين لم يكن يتوقعهما واذا كان عبد العزيز قد استنكر المظاهرات أشد الاستنكار فالازهر وحدة المسئول عنها ، فهو صاحب الفضل الاول فى ايقاظ المصريين للمطالبة بحقوقهم ، وفى الجراءة الساحقة التى ضرب بها المثل الناس حين واجه رصاص الانجليز فى غير مبالاة ! وقد سجل الاستاذ الرافعى أن أول شهيد للثورة كان نجل أحد علمـــــاء الازهر ممن يشتغلون بالمحاماة الشرعية ثم تتابع بعده الشـــــهداء من شتى الطوائف والطبقات ! وقد حدثت فى المظاهرة الثانية خارقة عجيبة لأحد شباب الأزهر ، غفل عنهـــا الذين يمثلون الصحف اليوم بيوميات السياسيين ومذكرات الخارجية البريطانية ومقابلات اللنبى وملنر وتأليف وزارات رشدى ووهبة وسعيد وزيور مما لاكته الاسماع واشـــتهر خبره لدى القريب والبعيد من القراء دون أن يذكروا للوطن بطولاته الرائعـــة فى تسلسل مطـــرد يشفعه التحليل المسهب والتشريح المطيل ! واذا كان التاريخ لعهدنا هذا يسهب فى دور الرسميين ويقتضب روائع الشعبيين فماذا قدمت الصحافة اذن يا قوم من الجـديد ، وفيم شغل القراء بوثائق ذائعة يعرفها أكثر الدارسين ، هذه الخـــارجة العجيبة لا يزال يذكرها من عاصروا الثـــورة وقد كان الازهريون يتناقلونها فى مجالسهم كاحـدى الاساطير حتى سجل حقيقتها الواضحة عن مشاهدة وعيان الاستاذ محمـد على غريب بجـريدة الاخبـــــار الصـادرة فى ١٩٦٩/٣/٢١ فقال ما نصه أذكر ان الانجليز نصبوا مدفعا أمام الازهر وصوبوه الى قلوب الآلاف من المتظاهرين وكان يدير المدفع جندى انجليزى سرعان ما تقدم منه

شاب أزهرى بكل جرأة وشجاعة ـ بل ان الوصف بالجرأة والشجاعة لا يكفى ـ فان هذا الشاب الازهرى قد اندفع الى الجندى البريطانى وضربه على رأسه فأوقعه أرضا ، ثم استولى على المدفع ولكن ماذا عسى أن يصنع به ، لقد اخذ يديره يمينا وشمالا دون أن يعرف كيف يطلقه الى أن اخترقت رصاصة من أحد الانجليز رأسه فسقط ، « كان هذا فى المظاهرة الثانية كما تناقل الرواة ، تلك التى أصدر القائد العام للقوات البريطانية قراره بمنع المظاهرات عقبها فى ١١ مارس سنة ١٩١٩ مع تهديد كل متظاهر بالمحاكمة على وجه السرعة المستعجلة » ! ولكن المظاهرات تنتشر وتزيد دون اكتراث بمحاكمة أو تهديد ! وقد أنشأت السلطة محاكم عسكرية فى القاهرة والاقاليم وأخذت تصدر الاحكام الجائرة بالاعدام والسجن المؤبد ، فكان ذلك الشطط فى التنكيل زيتا يضاف الى الوقود الملتهب فيتزايد الحريق ويمتد الى شتى الآفاق ، واذا كان من الانصاف أن نذكر أن الوطنيين فى كل مكان بعد أو قرب من القاهرة قد أعلنو الثورة الصاخبة على العدو فان من الانصاف أن كثيرا من طلبة الازهر قد رجعوا الى أقاليمهم فى القرى والعواصم يخطبون ويقودون ويشرحون القضية الوطنية فى غيرة وايمان فقالوا ما لا تستطيع الجرائد أن تقوله فى عهد الحماية وحققوا قول شوقى الذائع فى تأثيرهم القوى ونفوذهم الكبير .

هزوا المدائن كهفها ورقيمها
أنتم لعمر الله أعصاب القرى

وقد ثبت أن المظاهرة الصاخبة الكبرى فى طنطا التى أسفرت عن مجزرة وحشية قام بها رصاص العدو قد خرجت بدءا من المعهد الدينى يتزعمها طلاب الجامع الاحمدى ، كما كانت مظاهرات الاسكندرية وليدة معهده الازهرى . واذا كان المرحوم يوسف الجندى قد استقل بزفتى بعض الوقت متحديا سلطة الاحتلال بالقاهرة وذكر له المؤرخون ذلك فى اعجاب واكبار فان من الواجب أن نذكر أن الاستاذ الشيخ عباس الجمل العالم الازهرى المعروف قد صنع هذا الصنيع عينه بالمنيا فأعلن استقلالها عن الحماية ورفع لها علما تحريريا خاصا ، وجمع زعماء الاقليم تحت لوائه مكافحا ! وتسائلنى بعد ذلك لماذا يحرص الكاتبون على تخليد صنيع الاستاذ يوسف الجندى ثم يتجاهلون صنيع الشيخ عباس الجمل فلا تجد الجواب المقنع الصريح ، واذا كان الحق لا يعدم أنصاره فاننا نذكر أن الاستاذ محمد صبيح قد سجل ذلك الفخر لصاحبه فى كتابه مواقف حاسمة مع مواقف أخرى للوطنيين .

وقد هال انجلترا ما رأته من عنف الاضرابات واشتداد المظاهرات فأصدرت أمرها بالافراج عن سعد ورفاقه فى ١٧ ابريل وظنت أنها بذلك تسكن العاصفة . ولكن الازهر اثبت للنـاس جميعا أن المسألة ليست مسألة زعماء واشخاص بل ان الموقف يتلخص فى شعاره الذى هتف به وهو الاستقلال التام ، فما كاد سعد يطلق من عقاله حتى نظم الازهريون مظاهرة رنانة تحدث عنها الشيخ محمود أبو العيون فى ذكرياته السياسية عن الثورة بمجلة المصور عام ١٩٥١ فكان مما قال

« وفى ١٩١٩/٤/١٧ أفرج عن سعد وصــحبه فقامت مظاهرة كبرى اشتركت فيها طوائف الامة من ازهريين وموظفين وقد بدأت من الازهر ومضت تخترق شوارع القاهرة وفى مقدمتهـــــا الازهريون حتى وصلت الى عابدين وكنت أنا ومصطفى القاياتى فى مقدمة المتظاهرين نحمل علما واحدا ، ولما وصلنا ميدان الاوبرا وامتلأ بنا سمعنا طلقات الرصاص تنبعث من شبابيك سورالازبكية، وتوجه نيرانها الينا على غير انتظار ، وسرعان ما رأينا الدماء تجــرى ونظرت فلم أجد من اخــوانى الا الشيخ عبد ربه مفتاح والشيخ القــاياتى والرصاص يمر بيننا حتى أصابت العلم فأحرقته ، وبينما نحن فى هــذا الجو ســمعنا من ينادينا يا قاياتى يا أبو العيون ارحموا انفسكم ولا تعرضوها للقتل ، ولكننا سرنا وراء المتظاهرين واجتزنا المكان والرصـــاص يدوى من خلفنا ، وظهورنا معرضة له ، ثم تشتتت المظاهرة وعادت فالتأمت فى شارع عابدين بعد جامع الكخيا » .

ووالى الشيخ ابو العيون حديثه عن ثورة الازهر وعن اعتقاله مع زملائه الازهريين ثلاثة أشهر فى رفح ، ثم عودتهم لاستئناف الجهاد بما لا نستطيع بسطه لكثرته ، واذا كان الشيخ أبو العيون قد ذهب الى ربه دون أن يجد من ينصفه من الباحثين فانى وفيته حقه فى مجال آخر (١) ونحن نعلم محاولة اللورد ملنر وزير المستعمرات الانجليزية حين قدم مشروعا يراه أساسا للمفــاوضة . ونقطة لتحديد العــلاقات المصرية الانجليزية محـــاولا

(١) الجزء الاول من النهضة الاسلامية للمؤلف .

أستمالة بعض السياسيين بما يخدع به الأغرار من هؤلاء ! وقد كان يوقع الفرقة بين الوطنيين لولا أن أصدر المفتي الاكبر الشيخ محمد بخيت المطيعي فتواه بمقاطعة لجنة ملنر وقد وصمت بالخيانة كل من تحدثه نفسه بمفاوضة الاستعمار بعيدا عن زعماء مصر المناضلين . وهي فتوى مجلجلة طرب لها سعد زغلول في أوربا وابرق الى المفتى الاكبر بقوله فى اعجاب ان فتواه جديرة بأن تصدر عن أكبر مفت للاسلام فى عصرنا الحديث ! وهكذا رجع اللورد بالخيبة بعد كلمات معدودة سطرها ازهرى امين .

لقد اعتقد المحتلون ان الجامع الازهر مهد الثورة ، ومجمع التقاءات رجالها ، وموضع التدبير والقيادة وزادهم ضيقا وحنقا ما شاهدوه من قيام طلبة الازهر بتوزيع المنشورات الثائرة على جميع السفارات والقنصليات الاجنبية اذا كانوا يحرصون أشد الحرص على كتمان الحقائق الوطنية واخفائها عن الاجانب ثم راوا أن المنشورات الثائرة لا تقف عند السفارات المحايدة وحدها ، بل تغزوا دار الحماية البريطانية مهددة متوعدة وموقعة بامضاءات رجال الشرطة الوطنية اذا أن الشيخ مصطفى القاياتى رحمه الله بادر بتأليف بوليس مصرى من طلبة الازهر والمدارس العليا ، تكون مهمته المحافظة على النظام اثناء المظاهرات منعا لما قد يحدث من تخريب يتعمده أعوان الاحتلال تشويها للحركة الفدائية الثائرة ، بحيث كان كل شرطى وطنى يضع على ذراعه قطعة حمراء كتب عليها ما يدل على انتمائه

لبوليس الامن الوطنى بالازهر ، وكان من سلطة هـذا النظام أن يتعقب من تسول له نفسه ممـالاءة الاحتلال ليقوم بأسره وتقديمه الى هيئة المحاكمة التى يرأسها الشيخ ابو العيون والتى كان مقرها مسجد المؤيد ، وقد بلغ من نفوذ هذه الهيئة أن من تحكم عليه بالخيانة من متهميها كان يسقط سقوطا يلحق العار بأسرته وعارفيه، وقد ذكر الشيخ أبو العيـون فى مذكراته بالمصور أن احد هؤلاء قد لزم بيته ، وسعى أهلوه الى الشيخ بما يثبت براءته من ادعاء كاذب فاستأنف أبو العيون نظـر القضية وحكم ببراءته فكان المصريون يهنئونه مغبطين ويحضنونه مقبلين ! فياله تاريخا مجيدا فقد المؤرخين .

اجل عرف المحتلون سيطرة الازهر ونفوذه فأغلقوا أبوابه ووضعوا الحـراس الشداد من جنودهم امامه مسلحين ببنـادقهم ومدافعهم كى يمنعوا الجمهور من الاحتشاد حول منبره والاجتماع فى رحابه ! ولكن الشمل كان يلتئم رغم أنوفهم اذا اهتدى الازهريون الى باب خلفى يصلون اليه من زقاق ضيق رهو المعروف بباب الجوهرية تجـاه الزاوية المشهورة بزاوية العميان ! فأخذوا يتسللون منه فرادى وجماعات حتى اذا التأم الشمل خرجوا يتظاهرون فى صخب ثائر بحيث يفاجأ الحراس بحشودهم المتراصـة تندفع الى الميدان وهم حائرون ، ثم لم يعدموا بعد البحث الجاهد على من يدلهم على الباب الخلفى فأوصدوه . ولكن الحيلة لا تعدم وجها للنفاذ مهما كبدت الازهريين شتى الصعاب ، ففكروا فى شارع ضيق يسمى الآن بدرب الحلقة وبينه وبين الازهر

بيوت كثيرة ، وأخــذ يستأذنون أصحابها فى دخول المنازل ثم الصعود على سطوحها والتنقل بسلالم خشبية تصل ما بين الســقوف حتى تنتهى الى سطح الازهر متعرضين الى أخطار هائلة تكلف الثائر حياته لو فقد انتباهه لحظة فزلت به القـدم ! وقد فصــل الاستاذ الطنيخى هذا الموقف الرائع فى مقال صادق نشره بمجلة الازهر ربيع الآخر سنة ١٣٧٥ هـ والرجوع اليه ممـا يفيد ، ولم يهدأ للثائرين بال ، فظلوا فى حركة نشيطة لا يقر لها قرار ، حتى عصف الخـلاف بوحدة الزعماء فانشق عن الوفد من يعرفون بالاحرار الدستوريين ، وفرح المحتلون والقصر بهذا الانشــقاق ، وظنوا انهم وجدوا من يرتكزون عليه فى تفريق الجهود ، وانفضاض الشمل ، ولما كان سعد هو العقبة الاولى امامهم فقـد بادروا باعتقاله ثانية مع رفاق آخرين وارسلوا كتائبهم فى كل ميدان لقمع من تسول له نفسه أن يتظـــاهر ويحتشد ! ولكن الازهر ! حيا الله الازهر ! قد افسد تدبيرهم الظـالم اذا ما كاد نبأ الاعتقـــال يدوى فى الجمهـــور دوى الرعد ، حتى هرع الالوف الى صحن الجامع ينظرون ما ستقوم به الهيئة التنفيذية للثائرين ! وقد خطب أبو العيون والقـــاياتى وابو شادى ودراز ومحجوب ثابت معلنين استئناف المظاهرات ، ثم بادر الشيخ مصطفى القـاياتى بتأليف لجنة جديدة للوفـد تقوم مقام المعتقلين كان هو احد اعضائها البارزين ، ولم يأل المحتلون جهدا فى تعقيب المتظاهرين وتسليط قانون الاحكام العرفية الجائر على رقابهم ! فقدموا الى المحاكمة جماعات ، وقد سيق الى قسم الازبكية عشرات الازهريين

يجدوا أحكاما تعسفية تفرض عليهم غرامات باهظة لا قبل لهم بدفعها ، فتألفت في الحال جماعات مخلصة برئاسة الشيخ القاياتي تجمع التبرعات لانقاذ المواطنين جميعا من عمال وتجار وأزهريين وقد جلس الشيخ القاياتي يحصي ما تجمع ثم يوازن بين ما يطلب من غرم وما نقص من مال ، وكان مشهدا يستدر الاعجاب حين خلع بعض الطلاب لباسه الخارجي لتباع في مزاد وطني يسعف المسجونين ! فيا لله كيف نغفل هذه الروائع لنسهب كثيرا في مفاوضات ملنر وتصريح كيرزون وتملأ الصحف بصور وزراء ومديرين كان بعضهم أصناما تتحرك في يد الاحتلال ! ان قيادة الازهر للثورة المصرية يتطلب مؤرخا منصفا يختصها بالتحليل ، ولا أدعي لنفسي اني أستطيع أن اقوم بمهمة هذا المؤرخ النزيه ، ولكني ألفت النظر الى تدوين هذا التاريخ الشعبي الحافل متأثرا بمقال رائع كتبه أستاذي العالم الجليل محمد الغزالي في العدد الأخير من لواء الاسلام متعجبا لاغفال دور الازهر وكل دور اسلامي في حركات التحرير لدى من ينكرون ضوء الشمس من رمد ، حتى لقد صدق عليهم قول المتنبي :

ومن يك ذا فـم مر مريض
يجد مرا به المـــاء الزلالا

موقف الأزهر
من كتاب الإسلام وأصول الحكم

ما رأيت موقفا ظلم فيه الازهر عن عمد مقصود كما ظلم في موقفه من كتاب الاسلام واصول الحكم ، لقد هوجم الازهر ظلما في مواقف كثيرة من اعداء يبغضون رسالته ويضيقون بقيادته ، ولكن ما هوجم به الازهر في هذه القضية كان من افتراء والبهتان واختلاق المتاعب بحيث يضيق له صدر الحليم اذ كل ما وجه اليه من الاراجيف وليد حقد موغل على الحق ، وغرض صريح من الباطل وكان من فداحة الامر أن الذين قاموا باختلاق الاراجيف الكاذبة قوم يتشدقون بدعوى الحرية وانطلاق الفكر والخلوص من الجمود ومحاربة الرجعية ، وهى عبارات تجد استهواء من الغافلين الذين لا يدركون كيف يسمى الكذب صدقا والخيانة امانة ، والسفسطة فكرا والتطاول نقدا ، وأسوأ ما في الموقف كله أن يتصدى للهجوم من لا يعرف شيئا عن حقائق الاسلام ، وهو فيما بينه وبين نفسه فحسب كاتب كبير يقود حرية الرأى ولكنه عند الدارسين دخيل لصيق يهرف بما لا يعرف

وقبل كل شيء اعلن ان صاحب القضية الاستاذ على عبد الرازق رحمه الله باحث جاد اجتهد فأخطأ ، اجتهد

ى أصل من أصول الاسلام التى قام عليها بناؤه فلم
ل حظا من التوفيق ، وكان على الازهر أن يعلن للناس
طأ المجتهد ، فى أصول الاسلام بالدليل الناهض والحجة
واضحة ، وكان على الاستاذ أن يستمع الى الحجة
ناهضة فى تواضع واذعان ، ولكن نفرا ممن يسيئهم أن
ظهر الحق فى قضية اسلامية تمس أصلا من اصوله
د تعاووا من حوله ، وأخذوا يبذلون الجهد الجاهد
ى تأييده وتسفيه معارضيه ، حتى خيل اليه أنه على
ق ، والرجل بشر لا يدعى الكمال ، ولا يدعيه له أحد،
كان فى طور الشباب المندفع ، فوجد من تأييد المغرضين
دفعه الى العناد بل ما دفعه الى الاستعلاء ! والاستعلاء
ميد كريم اذا كان على الباطل ، أما أن يحاول عالم
حث أن يستعلى على الحق ، وأن ينظر شزرا الى من
دونه اليه فذلك غير الطريق المستقيم .

لو أن البحث العلمى سار فى هذه القضية على وجهه
هادىء المطمئن لظهر الحق سريعا لذى عينين ، ولأدرك
لخطىء خطأه دون لجاج ، ولكن أعداء الفكرة الاسلامية
يريدون للحق أن يظهر ولابد أن يلتمسوا من البهتان
كاذب ما يحول بين الناس وبينه ، لقد اعترف الاستاذ
ى عبد الرازق انه بدأ يكتب كتابه عن الحكم فى الاسلام
ذ سنة ١٩١٥ م حين عين قاضيا بالمحاكم الشرعية فى
صر ، اعترف بذلك فى مقدمة الكتاب ص (ف) من
طبعة الثالثة سنة ١٩٢٥ ، كما اعترف (٢٥) من هذه
طبعة بأنه يكتب هذا الكلام ، والخلافة الاسلامية قائمة
ى تركيا لم يفكر فى الغائها أحد والخليفة القائم حينئذ

هو السلطان محمد الخامس ! هذا ما اعترف به الرجل صراحة فى كتابه اعترافا صريحا لا يقبل الريب ، ومعنا أنه اجتهد فى مسألة الخلافة قبل أن تسقط على يد مصطفى كمال بسنوات كبيرة ، وأن الغاء الخلافة لم يكن دافعه الى بحث قضية الاسلام وأصول الحكم ! ولكن الذين يؤيدونه بالباطل لا يريدون أن يسمعوا هذا الاعتراف الصريح اذ يرون أن يعلنوا للعامة أن الكتاب قد ألف بعد سقوط الخلافة وأن الملك فؤاد قد طمع فى أن يكون خليفة ، وأن الازهر يحـــاول أن يؤيد الملك لا أن يؤيد الاســــلام ، وأن الباحث الجرىء على عبد الرازق قد تصدى للملك بكتابه ، والملك لا يؤيده غير الرجعيين من علماء الازهر !! فيالله كيف تخلق الاراجيف خلقا ، وكيف يذكر صاحب الكتاب صراحة ما ينكر هــذه الاراجيف ويقتلعها من الاساس ، ثم يصر عليها من يؤيدونه بالباطل ليوحوا الى العامة أن علماء الازهر مأجورون ، وأن الملك يحركهم حيث يريد ، ولنفرض أن الملك كان ذا هوى فى الخلافة فهل يمنع ذلك علماء الازهر أن ينطقوا بالحق فى قضية تمس أصلا من أصول الاسلام حين يرون أحد علماء الازهر يخطىء فى اجتهاده ، ويعلن على النــاس ما يخالف هذه الاصول وهو فى رأى الناس جميعا عالم من علماء الازهر وقاض من قضاة الشرع الاسلامى ، وله من منصبه ودرجته العلمية ما يفتن الناس بقوله ! لقد نشر الاستاذ على عبــد الرازق كتابه بصفته الدينية فوجب أن يقول علماء الازهر رأيهم فيما ينسبه أحد ابنائهم الى دينهم الحنيف ، ولو سكتوا عن ذلك لكا

آثمين ، ثم ان الكتاب قد وجد من الدوى والضجيج ما جذب الانظار اليه ، اذ تكاتف أعداء الفكرة الاسلامية على تأييده ، أفيسكت علمـــاء الازهر حينئذ خوفا من ارهاب المتشدقين بعبارات الحرية والكرامة وائتمار الرجعية ! ثم أتكون الحرية فى أن يجهز المخطيء بخطئه فيؤيده المبطلون ثم لا تكون الحرية فى أن يقوم الازهر بتصحيح الخطأ بما يملك من الصواب ؟ فاذا فعل ذلك فهو عدو الحرية ووكر الرجعية وصنيعة الحاكم فى منطق هؤلاء .

ان أعجب العجب أن يظهر خداع هذه الاكاذيب بما لا يقبل اللجاج ثم يصر عليها بعض من يؤرخون لهذه القضية حتى بعد أن انقطع دويها وسكت نجاحها ، وذهب الملك فؤاد ومن بعده ! فيكتب الاستاذ أحمد بهاء الدين فصلا فى كتابه « أيام لها تاريخ من ص ١٥٣ الى ص ١٧٣ » ، يدور حول هذه الاراجيف وكأنها حق لا شبهة فيه ويقول بصريح العبارة « أدرك القصة ـ قصة الخلافة ـ الاذناب وتجار الدين فبدأوا يبثون الدعوة للخلافة الجديدة التى علقوا بقيامها شرف الاسلام ، والمدركون لهذه المؤامرة لا يتكلمون ، لا أحد يستطيع أن ينطق بكلمة ضد فؤاد ، ولا أحد يجسر على أن يحصب كهنة الدين بحصاة !!

ثم يقول بعد صفحات من الكتاب « لم يكد يخرج الى النور حتى هبت فى وجهه الزوابع من جميع الاتجاهات ، الملك واذنابه لان الكتاب فيه حملة هائلة على الملوك ، وتحطيم شامل لحلم الخلافة البراق ! ورجال الدين

ثاروا لانهم رأوا فى هـذا المنطق ما يزعزع سلطانهم ، ويعقل منافعهم فى الاتجار بالدين ، ويكشف عن حقائق هذه العمائم الضخمة التى لا ترتفع الا لنستتر وراءها الظلم والاستبداد » .

هذا بعض ما قاله الكاتب بعد انتهاء العاصفة بثلاثين عاما !! وانى لأسأله أين سلطان رجال الدين الاسلامى الذين يخافون عليه ؟ أكان فى الاسلام كما فى الكنيسة سلطان لرجال الدين ؟ ومتى كان ذلك لهم فى مصر حين صدر الكتاب ! أليس شيخ الازهر وهو رئيس هؤلاء موظفا يولى ويعزل كسائر الموظفين فأين سلطانه اذن ؟ ومتى اتجر الازهريون بدينهم ؟ وفى أى قضية عاصرها الكاتب .

لا أحب أن أستطرد ، ولكن الحقيقة أن مناقشة علماء الازهر للكتاب لم تكن بوحى الملك فؤاد ، لان المؤلف نفسه اعترف بأنه كتب الكتاب قبل أن يفكر أحد فى سقوط الخلافة من ناحية ولأن الكتاب ملىء بالخطأ الفقهى فى أمس القضايا بالاسلام فوجب أن يصححه المختصون ! أما الذى يؤاخذ عليه الكاتب وأمثاله فهو أنهم يتورطون فى الحديث عن قضية لا يفهمون أصولها ، واحترام هؤلاء لنفوسهم يوجب عليهم أن يتكلموا فيما يعلمون ، وأن يبتعدوا عن الحديث فيما يجهلون !
يقول الباحث الاستاذ الدكتور ضياء الدين الريس رحمه الله « حين استمع الى حديث اذاعى يدور هذا المدار من نفر لا يعلمون عن الحق شيئا !!

« والذى بدأ من المناقشة أن احد المتحدثين ردد نفس الخطأ الذى وقع فيه واذاعه اكثر الذين تعرضوا للكتاب

وصار شائعا كأنه الحقيقــة ، وهو ان المؤلف الشيخ وضع هذا الكتاب وقصد به أن يكون هجوما على الملك فؤاد ، واحباطا متعمدا لمسعاه فى الخلافة مع أن هذا غير صحيح ، وهو خطأ محض ، لأن الـكتاب بدىء فى تأليفه سنة ١٩١٥ أى قبل مجىء الملك فؤاد الى الحكم كما ينص على ذلك المؤلف فى المقدمة ، وقد أخطأ الذين أشادوا بمواقف الشيخ فى ذمه للملوك ، وحملته عليهم، اذا ظنوا انه يقصد الملك فؤاد وأمثاله من الملوك ، مع ان الحقيقة لو راجعوا نص الكتاب وفهموه ان الشيخ انما كان يهاجم خلفاء المسلمين الذى اعتبرهم ملوكا وسماهم كذلك حتى أن هجومه شمل الخليفة الاول للاسلام وهو أبو بكر الصديق ووصفه بأنه أول ملك فى الاسلام وبديهى أن الشيخ ـ أو من وضع الكتاب لم يعرف الفرق بين الخلافة والملك » (١) .

والدكتور الريس باحث متخصص ، وكتابه « النظريات السياسية الاسلامية » قــد ناقش كتاب الاستاذ على عبد الرازق مناقشة ، كانت موضع اعتداد المفكرين ؛ اذ كشفت عوار هؤلاء الذين يصفقون لما يجهلون ، مع انتفاخ متفطرس يصلون به الى درجة التورم المتفجر .

لقد كان الازهر موضوعيا حين ناقش أفكار الكاتب مناقشة علمية تعتصم بالدليل ، وأصدر تقريرا مفصــلا نقاط الخلاف ، وقد نشر التقرير فى الصحف اليومية ردا على ما روجه المزيفون عن اوهام الكتاب ، ثم دفعت الغيرة بعض الفضلاء فنشر التقرير فى كتاب مستقل طبعه بالمطبعة الوطنيــة بالمنصــورة سنة ١٣٤٤ هـ على حسابه الخاص ووزعه مجانا على القراء ، واليه ارجع

(١) مجلة الثقافة العدد (١٩) ابريل سنة ١٩٧٥ م .

فيما اسجل من نقاط أحاول ايجازها ما استطعت لان الاصل يشمل ثلاثا وأربعين من الصفحات .

ا ـ قال المؤلف : « ان الشرعية الاسلامية شريعة روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ ، وأن الدنيا من أولها الى آخرها وجميع ما فيها من أغراض وغايات اهون عند الله من أن يقيم على تدبيرها غير ما ركب فينا من عقول ، واهون على الله من أن يبعث لهـــا رسولا وأهون عند رسل الله من ان يشغلوا بهـــا وينصبوا لتدبيرها » .

وجاء فى التقرير مخلصا : أن المؤلف يشطر الدين الاسلامى شطرين ، فيلغى منه شطر الاحكام المتعلقة بامور الدنيا ويضرب بآيات الكتاب وسنة رســول الله عرض الحائط ، فهو يصادم آيات مثل قول الله « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وقوله « وانزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله » ، وقوله « وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع اهواءهم » ، وقوله « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى اهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، وقوله « لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم » ، واستطرد التقرير الى ذكر آيات كثيرة مشتهرة شملت صحائف ١٢ ، ١٣ ١٤ ، مما هو ذائع لدى المسلمين ، كما ذكر من احاديث الرسول ما ينص على تطبيق الآيات دون لبس .

ب ـ قال المؤلف : « وظاهر أول وهلة ان الجهاد لا يكون لمجرد الدعوة الى الدين ولا لحمل الناس على

الايمان . واذا كان الرسول قد لجأ الى القوة والرهبة فذلك لا يكون فى سبيل الدعوة الى الدين ، وابلاغ رسالته الى العالمين ، وما يكون لنا ان نفهم الا انه كان فى سبيل الملك ! » .

وجاء فى التقرير ملخصا : علم من كلامه هذا أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبى صلى الله عليه وسلم كان فى سبيل الملك لا الدين ، وجوز أن تكون الزكاة والجزئية والغنائم فى سبيل الملك ايضا وجعل ذلك خارجا عن حدود رسالته اذ لم ينزل به وحى ولم يأمر به الله تعالى ، والشيخ بذلك يصادم صريح الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وينكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة فقد قال الله تعالى : فقاتل فى سبيل الله ، وقال تعالى : فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، وقال تعالى : وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وقال تعالى : واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وقال تعالى : خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وقال تعالى فى بيان مصارف الزكاة : انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين ، وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، وقال تعالى : قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وقال : واعلموا انما غنمتم من شىء بأن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

جـ ـ قال المؤلف : « انك اذا تأملت وجدت ان كل ما شرعه الاسلام وأخذ به النبى المسلمين لم يكن فى شىء كثير او قليل من أساليب الحكم السياسى ، ولا من أنظمة الدولة المدنية ، وهو بعد اذا جمعته لم يبلغ ان يكون جزءا يسيرا مما يلزم لدولة مدنية من اصول سياسية وقوانين » .

وجاء فى التقرير : ما زعمه الشيخ مصادم لصريح القرآن فقد قال الله تعالى : انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، وقال تعالى : ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ، وقال تعالى : فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا ، وقال تعالى ، اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا .

د ـ قال المؤلف : « ان دعوى اجماع الصحابة على وجوب اقامة امام عادل ، لا تجد مساغا لقبولها على حال ، وليس لها من دليل صحيح ، وان حظ العلوم السياسية فى العصر الاسلامى كان سيئا حيث لم تجد من يبحثها على وجهها ، وان مقام الخلافة منذ زمن الخليفة الاول كانت عرضة للخارجين عليه » .

هذا موجز ما قاله الرجل ، والرد عليه يتطلب اشباعا، لان النص القرآنى والحديث النبوى وحدهما يتطلبان ما بعدهما من مناقشة أحداث الخلافة الراشدة فى العهد الاول ، وقد رد تقرير هيئة كبار العلماء دعوى انكار الاجماع ردا صريحا اعتمد على التواتر الشائع الذى

لا ينكره أحد ثم على نصوص جلية من كتب الاصول والتشريع تستند الى احداث البيعة الاولى لابى بكر ، كما ذكر التقرير ما روى عن مسلم من حديث حذيفة وقد جاء فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له « تلزم جماعة المسلمين وامامهم » فقال حذيفة : وان لم يكن لهم امام فقال الرسول ، فاعتزل كل الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت : كما ذكر ما رواه مسلم من قوله عليه السلام : من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية ، وما رواه مسلم من قول النبى صلى الله عليه وسلم ! انما الامام جنة ، يقاتل من ورائه ويتقى به ، فان أمر بتقوى الله عز وجل وعدل كان له بذلك أجر ، وان أمر بغيره كان عليه منه .

هـ ــ قال المؤلف : « والخلافة ليست فى شىء من الخطط الدينية ، كلا ولا القضاء ، ولا غيرها من وظائف الحكم ، ومراكز الدولة ، وانما تلك كلها خطط سامية صرفة لا شأن للدين بها ، فهو لم يعرفها ولم ينكرها ولا أمر بها ، ولا نهى عنها ، وانما تركها لنا لنرجع فيها الى أحكام العقل ويجارب الامم وقواعده السياسية » .

وجاء فى التقرير : أن انكار القضاء قياسا على انكار الخلافة باطل لان المعروف فى كل الكتب الفقهية أن القضاء من فروض الكفايات ، وقول المؤلف انه ليس خطة دينية باطل ومصادم لآيات الكتاب العزيز . مثل قوله تعالى : فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت

ويسلموا تسليما ، ومثل قوله : انا انزلنا اليك الكتاب لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائبين خصيما واستغفر الله ، ان الله كان غفورا رحيما ، ومثل قوله : فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق .

و ـ قال المؤلف : « لم توجد بعد الرسول زعامة دينية . والذى يمكن تصور وجوده هو نوع من الزعامة جديد ، ليس متصلا بالرسالة ولا قائما على الدين فهو اذن نوع لا دينى » .

وجاء فى التقرير : ان هذه جراة لا دينية لان زعامة ابى بكر كانت من صميم الدين اذ لابد للاسلام ممن يقوم به ، وقد بايع الصحابة أبا بكر رضى الله عنه على انه القائم بأمر الدين فى هذه الامة ، وقد قام به خير قيام ، ومثله فى ذلك بقية الخلفاء الراشدين والذى يطعن فى مقام النبوة يهون عليه أن يطعن فى مقام أبى بكر واخوانه.

هذه أهم النقاط التى ناقشها تقرير هيئة كبار العلماء وواضح ان المناقشة كانت تعتمد على الدليل المباشر من الكتاب والسنة ، لان مجال التحليل العقلى ، والاستطراد الفكرى والاشباع التاريخى مما لا يتسع له تقرير يكتب للعامة والخاصة معا ، لان صحف ذلك العهد قد شغلت الجمهور بكتاب الاستاذ على عبد الرازق شغلا لا فكاك منه حتى صار بعض أحاديث العامة فى الطرقات والمقاهى ، ولابد ان يقرأ كل من يعرف القراءة ليهتدى الى راى ، وقد اظهر كبار العلماء كتبا مستفيضة لمناقشة الكتاب مناقشة تفصيلية تشيع رغبة القارىء المتخصص

نذكر منها كتاب الشيخ محمـد بخيت المطيعي وكتاب السيد محمد رشيد رضا وكتاب السيد محمد الخضر حسين وكتاب الشيخ محمد الطاهر عاشور ومقـالات الشيخين الكبيرين محمـد شاكر ويوسف الدجوى فى الصحف اليومية ، وكل ذلك قد أوضح ايضاحا لا مزيد عليه ، ثم توالت فيما بعد بحوث قوية ورسائل جامعية. تشبع هذا الموضوع اشباعا لا غاية بعده لقائل .

ولنا أن نقول لهؤلاء الذين يتهمون علمـاء الازهر بالوصولية والرجعية فى موقفهم من كتاب الشيخ على عبد الرازق ، نقول لهم أكنتم تطلبون أن يسكت العلماء عن أمر فقهى أصولى يمس أصلا أصيلا من قواعد الدين فلا يجوز لهم أن يقولوا للمخطىء أخطأت وهو عالم أزهرى بعد منهم ، وخطؤه راجع اليهم ، واذا سكتوا كما تريدون أفيستحقون ان يقوموا على رعاية الدين فى أكبر هيئة علمية انشأها القانون لتدافع عن مقررات الاسلام ، ام أكنتم تطلبون منهم أن يسارعوا الى تأييد الباطل ليكونوا موضع الرضا ممن يشايعون الالحاد لحاجة من حاجات نفوسهم المريضـة واذ ذاك يكون العلمـاء تقدميين متطورين !! ولنفرض أن الدفاع عن الخلافة قد صادف هوى من نفس الحاكم ، أفيكون كل ما صادف هذا الهوى مرفوضا منكرا وان كان هواه مع الحق الصريح ، وهل تتغير الاحكام الثابتة مراعاة لاعتقاد زيد ، وانكار عمرو ! اننا نسائل محكمة الرأى العام بعد أن اتضحت الامور على وجه لا يقبل اللبس ؟ ايكون من دافع عن نصوص القرآن الصريحة ، وأحاديث النبوة الصحيحة وصوليا

مدلسا رجعيا يتهم فى أخلاقه وسلوكه ، ثم يكون من يحاول تحطيم الاصول الشرعية صادقا مؤمنا حر لا يجوز أن يناقشه أحد واذا تجرأ عالم على نقاشه فهو انتهازى مأجور ! أى ارهاب هذا ، وممن ؟ من قوم ينتفخون بدعوى حرية الفكر ، ونزاهة الضمير !!

على أن الاستاذ على عبد الرازق رحمه الله قد أدرك أخيرا بعض ما تسرع فيه ، فحاول الرجوع عنه وأعلن ذلك فى مجلة رسالة الاسلام « العدد الثالث من السنة الثالثة » وقد صدر فى شهر رمضان سنة ١٣٨٠ هـ يولية سنة ١٩٥٩ ، اذ قال تعقيبا على مقال كتبه الدكتور احمد امين فى هذه المجلة ، قال الاستاذ على عبد الرازق ما نصه :

« قرأت بحثا قيما لحضرة صاحب العزة الاستاذ الدكتور أحمد امين ، جاء فى صدره أنه كان يتجادل معى فقلت ان دواء ذلك ان نرجع الى ما نشرته قديما من ان رسالة الاسلام روحانية فقط . ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل ، وقد وقفت امام نظرى كلمة « رسالة روحانية » ولم تشأ أن تمر من غير أن تثير ذكرى قديمة لهذه الكلمة معى فقد زعم الباحثون اننى فى ذلك البحث قد جعلت الشريعة الاسلامية شريعة روحانية محضة ، ورتبوا على ذلك ما طوعت لهم أنفسهم أن يفعلوا ، اما انا فقد رددت عليهم أننى لم اقل ذلك مطلقا لا فى هذا الكتاب ولا فى غيره ، ولا قلت شيئا يشبه هذا الراى او يدانيه ، اسوق هذا الحديث ليذكر الاستاذ الكبير ان فكرة روحانية الاسلام

لم تكن لى رأيا ، يوم نشرت البحث المشار اليه ، أنى رفضت يومئذ رفضا باتا أن يكون هذا رأيى .

هذا تراجع صريح ، لان الاستاذ على عبد الرازق قد قال فى ص ٦٩ من كتابه « ان ولاية الرسول على قومه ولاية روحية منشؤها ايمان القلب ، وولاية الحاكم ولاية مادية تلك زعامة دينية وهذه زعامة سياسية » .

ولا أفيض فى نقل ما يشبه هذا القول ، واذكر أنى كتبت بمجلة الثقافة (١) مقالا خاصا بهذا التراجع فليرجع اليه من شاء .

هذا موقف الازهر من كتاب الاسلام واصول الحكيم أيكون بعد ذلك كله موقفا رجعيا يتحدى حرية الفكر ؟

---

(١) مجلة الثقافة العدد ٥٢ يناير ١٩٧٨ .

الأزهر
وأيام طه حسين

اسف المنصفون اسفا شديدا حين شاهدوا حلقات الايام تعرض عرضا مغرضا مريبا على شاشة التليفزيون حيث تتجافى الحقيقة الى مبالغات زائفة تهدف الى تشويه ما يتصل بالدين من مكاتب تحفيظ القرآن الكريم أولا ، ومن موقف الازهر من صاحب الايام ثانيا ، وهو تشويه يهز المعانى النبيلة فى نفوس من يعرفون لرجال الدين مكانتهم اللائقة بهم ، لا سيما وهم فى حقيقة امرهم برءا مما يقذفهم به المفترون ، اذ حملوا أمانة العلم فى الحلقات الدراسية ، وثاروا على المستعمرين ثورة عاتية كان مصدرها الدائم أزهرهم الشريف ، وسنناقش فى هدوء موقف هؤلاء الذين شاءوا أن يمسخوا الحقائق، لا لشىء سوى أنهم لا يتقيدون بمنطق العدل ، وأن القائمين على الاخراج المسرحى لا يلتزمون بالحق الواقع، بل لا يكادون يحسون له ادنى التزام .

ان فقيه الكتاب كما صوره الدكتور طه حسين ، ليس الصورة العامة للفقيه ، ولا يخلو الامر من أحد شيئين ، اما ان يكون شاذا فى انانيته فهو لا يمثل طائفته . واما إن يكون الدكتور طه قد بالغ فى تشويه سمعته ليبرىء

نفسه من اهمال الحفظ ، وترك التلاوة ، حتى نسى كتاب الله ! ونحن اليوم نعرف تمام المعرفة أن اختفاء ففيه الكتاب قد ساعد على الامية العلمية ، وجعل طالب المدرسة وطالب الازهر الذى لا يحفظ كتاب الله أقل منزلة فى لغته وثقافته ودينه وعربيته من زميله الحافظ لكتاب ربه ، ماذا أريد أن أقول ؟ انى أعرف ان ضياع اللغة العربية على ألسنة من يلتزمون العامية فى أحاديث الاذاعة وبعض مقالات الصحف ، فاذا حاولوا التزامها تقاذفتهم الاخطاء ، وتعاورتهم العجمة ، ان ضياع اللغة على هذه الصورة كان من بعض أسبابه ابتعاد المتحدثين عن حفظ كتاب الله ، ولو انتشرت كتاتيب تحفيظ القرآن كعدها السابق ما انحدر مستوى التعليم فى عصرنا الراهن عما نعهد من قبل ، ولو كان لدى المشرفين على حلقات الايام التزام أدبى بمشكلات الدولة الثقافية ما تجاوزوا الواقع الى مبالغات تدعو الى التنفير من حفظة كتاب الله ، وهم بين شيئين اما انهم لا يعرفون اتجاه الامة نحو ضرورة اعادة هذه الكتاتيب . فهم منقطعون عن رصد التيار التعليمى فى مصر ، واما انهم يقراون ما تكتبه الصحف من ضرورة قيام هذه الكتاتيب بدورها الثقافى ، ويريدون محاربة هذا الاتجاه ، اذ يساعد على انشاء جيل مثقف يقيم لسانه . ويحفظ لغته ودينه ، وأكثرهم عن ذلك كله بمنأى بعيد .

اما موقف الدكتور طه حسين من الازهر ، فاننا سنجعل ما كتبه بنفسه فى الايام قاضيا بيننا وبينه . سنأخذ من أقواله التى سجلها هو بمحض اختياره

ما يدل على انه جابه الازهر بالانتقاص والتشهير ، وملأ الصحف هجاءا منكرا لأستاذته وقد عفوا عنه فلم يكافأ بما يستحق ، ثم شاء صاحب الايام أن يواصل هجومه عليهم دون مبرر معقول ، وقد بدأ وهو الطالب الناشيء بالتشهير بهم ما استطاع ، وسجل ذلك على نفسه ليكون شاهدا ناطقا بمقطع الرأى فى غرابة موقفه ، فكيف يكون الازهر قد ظلمه وضاق به ؟ وهو المتحرش المهاجم الجرىء ؟!

فى الجزء الثانى من كتاب الايام فصل يكشف نفسية الدكتور طه حسين ، ويفسر سلوكه الهجومى فى مجتمعه تفسيرا سافرا لا يقبل ادنى شك ، فقد سطر الفصل السادس عشر من الايام ليقول ما ملخصه أنه رجع الى قريته للمرة الاولى بعد انتسابه للازهر فلم يجد من حفاوة الاستقبال وبشاشة الترحيب ما يجده اخوه الكبير ، بعد رجوعه المتكرر من اغترابه فى القاهرة طالبا للعلم ، مبرزا بين قرنائه ، وقد غاظه هذا الاهمال ، فجعل يهاجم الناس فى أفكارهم ، فاذا تحدث فقيه الكتاب مثلا فى شيء من العلم وثب عليه واتهمه بالجهل ، واذا قرأ والده بعض المأثورات هز راسه وقال عن قراءته أنها عبث لا غناء فيه ، واذا تحدث الناس عن علم القاضى بالمحكمة الشرعية قال طه : انه أعلم من القاضى بالشرع ، وأفقه منه بالدين . وأحق منه بالقضاء ! كل ذلك ولم يقض فى الدراسة غير سبعة أشهر !! واذا تحدثت العامة عن ولى شهير فى اقليمه رفع الطالب الناشيء صوته بما يدل على المعارضة الشديدة ! ثم أنهى الدكتور

طه تفصيل ذلك كله بقوله ص ١٢٨ من الفصل السادس عشر :

« وعلى كل حال فقد انتقم الصبى لنفسه ، وخرج من عزلته ، وشغل الناس فى القرية والمدينة بالحديث عنه ، والتفكير فيه وتغير مكانه في الاسرة ، مكانه المعنوى أن صح هذا التعبير ، فلم يهمله أبوه . ولم تعرض عنه امه وأخوته . ولم تقم الصلة بينهم وبينه على الرحمة والاشفاق ، بل على شيء أكثر وآثر عند الصبى من الرحمة والاشفاق » .

هذا الذى كتبه الدكتور عن نفسه يفسر سلوكه المهاجم للأزهر فى جميع مراحل حياته ، فقد اتسع له صدر الازهر ، وتقبله مدرسوه ببشاشة وعطف . ولكنه كان يريد أن يلفت الناس له . فاصطنع الخلاف . وآثر الشقاق . وفزع الى الصحف ليهاجم من يعلمونه . وماذا يبتغي بعد ذلك كله منهم ؟ وقد آذاهم بالباطل دون انصاف وسنعرض شذورا مما قاله هو وسجله على نفسه ، ليرى اتساع الصدر الرحب لدى كثير ممن قسا عليهم دون مبرر .

لقد استمع الطالب الى مدرس النحو يشرح قول المؤلف « وعلامة الفعل قد » قال طه : « وقد اتقن صاحبنا ــ اى طه نفسه ــ ما اثير حول هذه الجملة البريئة من الاعتراضات والاجوبة ، وأتعب شيخه حوارا وجدالا . حتى سكت الشيخ فجأة أثناء هذا الحوار . ثم قال فى صوت حلو لم ينسه صاحبنا قط ، ولم يذكره قط الا ضحك منه ورق له : « الله يحكم بينى وبينك يوم

القيامة » قال ذلك فى صوت يملؤه السأم والضجر . ويملؤه العطف والحنان . وآية ذلك انه بعد أن أتم الدرس . واقبل الصبى ليلثم يده كما كان الطلاب يفعلون . وضع يده على كتف الصبى ، وقال له فى هدوء وحب : شد حيلك ، الله يفتح عليك !

فالصبى يحاول الاعتراض المجحف بعد سبعةأشهر فقط من انتسابه للأزهر وهى مدة لا تتيح له مهما كان عبقريا ان ينازل شيخا قضى فى العلم والتدريس أكثرمنأربعينعاما!! ومن المعلوم ان سبعة أشهر لا تجعل الطالب يحصل مضمون متن الاجرومية فى اتقان . ولكن طه يعترض ويسرف حتى يصيح شيخه « الله يحكم بينى وبينك » ومعنى ذلك أن الاستاذ يتوجه الى من يعلم حقيقة اللجاج ليثنى هذا المكابر عن اسرافه لم ينتقصه الشيخ . ولم يغضب عليه وقد اتسع المجال للتبرم . ولكن طه لا يرعوى بل يحاول اثارة أساتذته . وهم راحمون . فاذا تحدث عنهم فى هذا الفصل اخذ يصفهم بالغيبة والنميمة والدس . وينقل اقوال الطلاب عنهم . وقد نسى أن الازهر مجتمع انسانى يجمع امثال طه . وأمثال من هم على نقيضه ! فاذا وجد الصالح فقد وجد معه الطالح ، ففيم اللجاج فى أمور مشتهرة ، لا يخلو منها مجتمع من مجتمعات الحياة ؟ ومن قال أن العلماء ملائكة لا يخطئون !

كان طه مع هذا التهجم ومقابلة الاساتذة بما يغيظهم موضع عطفهم ، يتحدث انه ارسل للامتحان الاول ذات مرة ، ليعلو قدره أن نجح ، ويزيد عطاؤه من الجراية ، قال طه ما نصه : « وارسل الى الامتحان ذات مساء ،

ومعه كتاب الى الممتحن فلما ادخل الفتى على الممتحن حياه ، واخذ منه الكتاب فنظر فيه ، ثم ألقى عليه سؤالا ورد الفتى جواب السؤال خطأ او صوابا ، لم يدر ، ولكن الممتحن قال له انصرف يا علامة !! فانصرف راضيا ـ ص ١٤٨ » فماذا تقول فى شعور الاستاذ نحو الطالب الضرير ، لم يرهقه فى شىء وقال له انصرف يا علامة !! « لانه يرى مثله موضع العطف ، وهو أولى من سواه بالعطاء ، فنال الفتى ضعف ما يأخذ من الجراية ، ونال خزانة فى الرواق للابسه وكتبه بعد هذا الامتحان الهين ؟ .. والطالب بعد لجوج عنيد يعارض الاساتذة ويسرف فى التهكم والاستنكار !

والشيخ بخيت المطيعى من كبار فقهاء عصره ، وقد رشح لمشيخة الازهر أيام كان طه فى عامه الثانى من الطلب . هذا الفقيه الكبير لا يثبت لمناظرته فى الفقه طويلب صغير ، لم يكد يكمل عامه الدراسى لان دروسه فى الاصول والمنطق والفقه والتوحيد ، وتصدره لدرس التفسير بعد الاستاذ الامام مما يجعل كل مناقش يقدر الخطو لقدمه قبل أن تزل ، ولكن طه يقول عنه « وكان الفتى ـ يريد نفسه ـ ربما جادل الشيخ فأطال الجدال. وتصايح الطلاب من جوانب المسجد الحسينى أن حسبك فقد نفد القول ، فأجابه الشيخ فى غنائه الظريف : لا والله لا نقوم حتى يقتنع هذا المجنون ، ولم يكن بد للمجنون من أن يقتنع ، فقد كان هو أيضا حريصا على أن يدرك القول قبل أن ينفد » ص ١٥٠ .

وقد تكرر الهجـــــوم على الشيخ بخيت مرات فى

الايام ! وطبيعى ان نقاش طه بعد عام واحد من انتسابه للأزهر لامثال الشيخ بخيت لا يتطلب ايضاح الحق ، فمهما كان معتزا بعقله ، فهو لم يبعد عن الشاطىء فى مسائل الفقه ، ولكن الفقيه الاصولى يفسح صدره ويصد المتضايقين من الطلاب ويقول فى ابتسام : لا والله حتى يقتنع هذا المجنون ! وأنا أسأل محبى الدكتور طه من طلابه : أكان الدكتور الكبير وهو عميد كلية الآداب يأذن لطالب فى القسم الابتدائى أن يقاطعه فى المحاضرة حتى يضيق طلابه ويتصايحوا منكرين !! ولو حصل ذلك حقيقة هل يصبر الدكتور على الفتى الناشىء ويدعه يسترسل فيما يجهل دون انكار ؟

لقد تعرض الدكتور مرات الى الشيخ بخيت كما قلنا ، وذكر فى ص ١٦٢ أنه مع نفر من أصدقائه « لم يكونوا يسمعون للشيخ كما كان يسمع له غيرهم من الطلاب ، وانما كانوا يسمعون ليضحكوا منه ، وليقيدوا عليه أغلاطه ، وكانت كثيرة اذا اتجهت الى اللغة ، والادب ، وليشنعوا عليه بهذه الاغلاط بعد الدرس ، وليعرضوا هذه الاغلاط على شيخهم المرصفى فيقدموا اليه مادة جديدة للتشنيع على أساتذته وزملائه من الشيخ » .

ثم زاد طه فى اغتياب الاساتذة وفى التهجم على كبار العلماء ، وعلى أعضاء مجلس الازهر ، بالذات تهجما سافرا امام الطلاب فى ساحة الازهر ، حتى تطايرت الانباء اليهم اذ ذهب احد الطلبة الى الشيخ الاكبر فأخبره بما قال طه ورفقاؤه عن اعضاء مجلس الازهر

الاعلى . ومنهم الشيخ بخيت ، والشيخ محمد حسنين العدوى ، والشيخ راضى ، وكانوا جميعــا فى ادارة الازهر حين بعث الشيخ الاكبر يستقدم هؤلاء الشاتمين الهازئين . فيحضرون الى مجلسه ليستمعوا ما قال عنهم الطالب ، قال طه ص ١٦٩ :

« وكان هذا الطالب ماهرا حقا . فقد أحصى على هؤلاء الفتية كثيرا جدا مما كانوا يعيبون به الشيوخ . ومما كانوا يعيبون به الشيخ بخيت ، والشيخ محمـــد حسنين . والشيخ راضى ، والشيخ الرفاعى ، وكانوا جميعا حاضرين ، فسمعوا بآذانهم آراء هــؤلاء الفتية فيهم ، وشهد طلاب آخرون بصدق هذا الطالب فى كل ما قال ، وسئل الفتية فلم ينكروا مما سمعوا شيئا ، ولكن الشيخ لم يحاورهم ، ولم يداورهم ، وانما دعا رضوان ــ كاتبه ــ فأمره أن يمحوا أسماء هؤلاء الطلاب الثلاثة من الازهر ، لانه لايريد مثل هذا الكلام الفارغ » .

ثم قال طه بعد كلام متصل : « ثم لم يلبث أن يتبين الفتى وتبين معه صاحباه ان شيخ الجامع الازهر لم يعاقبهم ، ولم يمح أسماءهم من سجلات الازهر ، وانما أراد تخويفهم ليس غير » ص ١٧٣ .

فماذا يرى القارىء فى سلوك الشيخ الاكبر وزملائه الكبار ، أمام طلاب جاهروا بانتقاصهم ورموهم بالجهل وحب المنصب والرياء والجمود (وأقر الطلاب بما قالوا دون انكار) ثم مال هؤلاء الكبار . حقا الى العفـــو والاغضاء ، لم يمحوا أسماءهم ولم ينكروا مقامهم فى الازهر ، ورأوا فيهم ما يرى الآباء أمام نزق الابناء !

غضب وغفران ؟ اما والله لو جرؤ طالب على انتقاص الدكتور العميد ما احتمل بقـــاءه معه في الجامعة ؟ وما حديث الدكتور زكي مبارك معه بمنسى مجهول ؟ وهو استاذ مثله ؟ فأين هو من هؤلاء الاعلام ! اننا ننقل هنا ما خطه الدكتور بقلمه فلا سبيل الى الانكار !

ونأتى الى سقوط الدكتور طه حسين فى امتحـان العالمية بالازهر ! هذا الرسوب الذى عده السطحيون ظلما صريحا للطـــالب الشهير ، وباطلا متعمدا دبره الشخ بليل ، فاذا حللنا أحداثه تحليلا صريحا وجدناه نتيجة طبيعية لا محيد عنها ولا منصرف ، اذ أن الطالب طه حسين قد انصرف ــ كما قال عن نفسه ــ عن دروس الازهر انصرافا تاما حين فتحت ابواب الجامعة المصرية لمثله ، ولنظرائه من عاشقى الطريقة الحديثة فى التعليم ، فهو اذن بعد انقضاء أربع سنوات من عمره بالازهر لم يشأ أن يستفيد من دروسه شيئا وخص دروس الجامعة بكل اهتمامه وكان حينما يفرغ من دروس الجامعة لا يلم الا بدروس المرصفى فى الادب واللغة نائياعن دروس المنطق والفقه والاصول والتوحيد والوضع والتفسير والحديث نأيا تاما لا اتصال من بعــده ، بل ان الصحف اليومية قد اتسعت لقلمه كى ينقـــد دروس الازهر الشريف واساتذته نقدا متكررا تدفعه الى ذلك نفسه الناقمة ــ لا لشيء سوى الدوى والاشتهار ــ من ناحية ، ويدفعه الشيخ عبد العزيز جاويش الى قسوة الهجوم المتكرر على الشيوخ من ناحية ثانية ، حتى عرف القاصى والدانى كراهة الطالب للازهر والازهريين وبعد انقضـــاء عشر

سنوات عليه منذ التحاقه بالازهر شاء ان يتقدم لنيل العالمية ! وطبيعى أن يستعد طالب هذه الاجازة لهـا فيتسلح بمعرفة كتبها المعقدة وفهم موادها العلميـة ، لان نيل العالمية بالنسبة لكل طالب ــ لا بالنسبة لطـه حسين وحده ــ كان فى ذلك الحين أمرا شاقا عسيرا ، بحيث لم يكن يحصل على النجاح غير اربعة طـلاب فى العام الواحد ، على حين يتقدم من هؤلاء عشرون طالبا فأكثر ، فالاختبار دقيق . والمواد متعددة ذات صعوبة والاساتذة الممتحنون من كبار العلماء فى الازهر ، وممن لا يعلو على آرائهم رأى يوجه أو يشير . وقد تهيـأ الدكتور طه للامتحان وهو لا يجيـد غير علوم العربية وحدها ، انه يجيد النحو والصرف والبلاغة واللغـة والادب ، ولكن هناك علوما صعبة عويصة لم يجلس الى الاساتذة كى يستظهرها أو لم يلم بمضمونها ويصل الى ما يبلغه طريق الفوز فى امتحانها ، هناك التوحيد والفقه والاصول والمنطق والحديث والتفسير والوضع والمقولات، ولكل علم أبوابه الصعبة ولابد أن ينجح الطالب فى العلوم جميعها بحيث لو رسب فى مادة واحدة لاستحال عليه أن يظفر بالشهادة ! جاء الطالب الى لجنة الامتحان يسبقه تاريخه الاليم فى سب الازهر والازهريين ، واحتقاره الصريح لـكل ما يدرسون ويتناولون من أساليب الشرح والتقرير ، وهو بعد لا يعلم فى غير دروس العربية شيئا غير ذى بال ! لقد كان عليه حين أراد ان يظفر باجازة الازهر أن يستوعب علوم الازهر أما أن يتعالى على هذه العلوم ثم يشنع على أصحابها فى الصحف والمجتمعات ، ويرى من حقه ان يظفر بالنجاح فيها دون تعمق فهذا

ما لا يرتضيه منصف !! قد يكون الدكتور صادقا فيما بينه وبين نفسه حين يميل الى التهوين من شأن هذه العلوم ، ولكن كان عليه ألا يتقدم الى الامتحان فى علوم لا يعتقد فى جدواها ، ولا يؤمن بالقائمين على تدريسها اما أن يسب وينقد ثم يطلب النجاح دون استعداد ، فاذا تعذر عليه واصل الهجوم والتهكم ، وكتب مقاله الشهير « ساعة بين العمائم واللحى » فهذا ما لا يرضاه منصف محايد ، يضع الامور موضعها الصحيح .

لقد كان الدكتور زكى مبارك أقرب الى الحق ، وآثر للانصاف من الدكتور طه حسين ، اذ تقدم الدكتور زكى مبارك لنيل أجازة العالمية مباهيا بمكانته المشتهرة فى الادب والصحافة واللغة ، وانعقدت هيئة امتحان برياسة الاستاذ ابراهيم الجبالى رحمه الله . وكان الجبالى على علم بمنزلة الطالب الممتحن . فقابلته . اللجنة بالابتسام المشجع ، وعرض عليه الشيخ الجبالى أن يختـــار هو ما يريد أن تناقشه اللجنة فيه من أبواب الفقه والاصول والمنطق والتوحيد فتحير الطالب ثم اختـــار فى قلق ما رغب فيه ، فأخذت اللجنة تسأله فيما اختار ، مترفقة تسأله فى الاصول فلا يجيب ، وفى المنطق فلا يرد ، وكذلك فى الفقه والتفسير حتى اعترف بنفسه انه لم يلم بعلوم الازهر ، وخرج ليكتب مقاله . ذاكرا أن علوم الازهر هذه لن تفيده ، وأن الرسوب من حقه اذ لم يجد ميلا الى استيعابها ، اين موقفه من موقف طه حسين !!

ثم ماذا ؟

لقد تعرضت الحلقات التليفزيونية الى قضية الشعر

الجاهلى لتحمل على الازهر وزرا لم يكتسبه ، حين سورت علماءه فى وضع منكر يدين بالوصولية ، ويهادن فى أمور الدين ابتغاء عرض الدنيا ، ومع أن كتاب الايام لم يلم بقضية الشعر الجاهلى ، وكان المعقول أن تقتصر الحلقات على ما جاء بالكتاب ، فان المشرفين على الاخراج شاءوا أن يتحدثوا من لدن أنفسهم عن قضية الشعر الجاهلى حديثا يوهم المشاهد أنهم ينقلون عن طه حسين: فعرضوا شيخا أزهريا يتشدد فى ضرورة مؤاخذة الدكتور طه ، ثم يتراجع حين يلوح له المسئولون بعرض زائل من أعراض الحياة ، وذلك محض افتراء صارخ لم يقل به أحد ، واذا أراد القارىء أن يعرف موقف الازهر من قضية الشعر الجاهلى فليعلم أنه موقف كل مسلم يغار على كتاب الله . كما سنبين ذلك فى المقال التالى !! فماذا كان ينتظر المسلمون فى بقاع الارض من الازهر الشريف حين يرون أستاذا جامعيا لا يطمئن الى حقائق القرآن ، بل يعلن شكه فى هذه الحقائق على مئات من الطلاب المسلمين فى الجامعة ثم ينتقل بقوله الى آلاف القراء حين يصدر باطله الصريح فى كتاب يتداوله الناس ! ماذا كان ينتظر المسلمون من رجال الازهر غير ان يقفوا فى وجه من يشك فى حقائق كتاب الله ، ويحاول أن يزلزل عقائد الشبيبة الاسلامية فى الجامعة ؟ أكانوا ينتظرون ان يسكتوا عن هذا الافك الجرىء ليرضوا أعداء الاسلام ، أم أنهم ينتظرون أن يهب العلماء فى طليعة المستنكرين لما أريد من الطعن فى حقائق القرآن ؟ أليس من العجب أن يثور البرلمان وأن يثور أساتذة المدارس الثانوية والابتدائية ، وأن يثور

ارباب الاقلام فى الصحف اليومية على من ينكر صدق الحقائق القرآنية ثم يراد بعلماء الازهر ان يلجموا أفواههم فلا تتكلم ، وأن يمنعوا اقلامهم فلا تنطق ، ليرضوا طائفة من الملحدين يسرهم أن يتزعزع الاسلام فى نفوس معتنقيه ! لقد قام علماء الازهر بواجب الدفاع عن القرآن تأدية لفريضة محتومة أناطها الاسلام بأعناقهم اذ كانوا حملة شريعته ومفسرى قرآنه ، ورسل هدايته الى الناس ! ولم يكن من بينهم من تراجع عن موقفه لينال منصبا دنيويا حقيرا كما شاء المخرج أن يفترى على الشرفاء بغيا دون حق ، ولو علم هذا المتجرىء على الاطهار أن علماء الازهر هم الذين أوقدوا ثورة سنة ١٩١٩ وفتحوا صدورهم لنيران المدافع حين تزعموا الثورة المصرية اثناء اعتقال سعد وصحابته حتى كان منبر الازهر أداة الاعلام خلال هذه الثورة العظيمة وحتى اشتهر اسماء خطبائه الكبار من أمثال على سرور الزنكلونى ومحمود أبى العيون ومحمد عبد اللطيف دراز، ومصطفى القاياتى وابراهيم سليمان ومن لا نحصى من هؤلاء الاطهار ممن جاوزوا القول الى العمل فألفوا اللجان وجمعوا الاموال وطبعوا المنشورات وقادوا المظاهرات ثم تلقفتهم ظلمات لسجون فوجدوا من تلاميذهم من حملوا الراية ، وواصلوا الجهاد ! لو علم هذا المتجرىء على الاطهار كم بذل هؤلاء الاخيار من نفوسهم وأموالهم ودماء أبنائهم فى نصرة الحرية ، ما اخرج هذا المشهد الآفك الذى ابتكره خياله الضال ، ليؤذى حملة القرآن! فكان من الآفكين المفترين ، وانى احذر هؤلاء البغاة ان

يعودوا لمثل هذا التخرص الكاذب على العلماء مرة ثانية لان الايغال فى الباطل لن يترك دون ثأر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

« ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا ، والآخرة والله يعلم وانتم لا تعلمون » صدق الله العظيم .

الأزهـــــر
وكتاب الشعر الجاهلى

لا اريد فى هذا الفصل ان اتجنى على احد ، ولـكن الاخلاص للحقيقة يوجب أن نؤرخ الاحداث دون محاباة او تحامل ، وقد كان من قدر الدكتـــور طه حسين ان يصبح أستاذا بالجامعة يدرس الادب العربى ، والادب العربى بشـعره ونثره ميدان رحيب الانحـاء متعـدد الشعاب ، ولدارسه أن يجول فى كل منحى من مناحيه دون ملامة تلحقه ، حتى ولو أخطأ ، لان الخطأ سيجد من يتناوله بالتصويب ، ولو أن الدكتور طه حسين خالف كل معروف مشتهر من قضايا الادب الجاهلى فى كتابه الذى أحدث الضجيج ، ما احتج عليه الازهر فى شىء ، وما اندفع الى خصومته أزهرى يعلن الاحتجاج ،وقصارى ما كان يحدث ازاء خطئه ان يقوم ناقد غيور فيعرض رأيه المخالف فى مقال بجريدة ، أو أن يكسر على نقده الادبى بعض المؤلفات المستقلة ، وتمضى الريح رخاء بليلة ، اذ أن النقد الادبى امر طبيعى لا يهيج جمهورا ، ولا يدفع الى قضاء ومحاكمة ، ولا يشغل نوابا ووزراء وشعبا ، لو ان الدكتور طه حسين خلص فى بحثـه عن الشـعر الجاهلى لقضايا الادب وحـدها ما اتجه اليـه الازهر

بالنقـد الشـديد ، ولـكن الرجل ترك الادب الذى يؤلف فيه الى الحـــديث عن شخصيتين تاريخيتين نبويتين أثبت القرآن وجودهما ، ونسب اليهما رفع القواعد من البيت فى مكة ، ليعلن انه لا يجزم بمـــا جاء فى كتاب الله ، ولم يكن الدكتور يخـاطب علمــاء يعرفون موضع الخطأ من الصواب ، فيردونه عن تسرعه، ويحكمون عليه بالخطأ الصريح ، ولكنه كان يخاطب طلابا ناشئين ، يسمعون الطعن فى أخبار القرآن ، وكأنه كتاب بشرى ألفه انسان كالدكتور يخطىء ويصيب ! ثم ينشر ما كتب على الناس جميعا ! ويتضح بما لا يقبل الشك أن الدكتور قد تورط فى تبنى افتراءات خصوم الاسلام ، لان هذا الرأى بذاته قد ساقه مبشر خصيم فى كلام لا يمت الى البحث النزيه بشىء ! وقد ثار الطلاب انفسهم على ما سمعوا ، وانتقلت الثورة الى الصحف اليومية ، وقام نفر من كبار علماء الازهر بالرد على هذا التهجم ، ونادوا بضرورة اقصـــاء قائله عن التعليم الجامعى ! ونحن نعرف أنباء الجامعات الرسمية العريقة فى أوربا وامريكا ، ونعرف ان اساتذة هذه الجامعات قد أوتوا أكبر نصيب من حرية الفكر واستقلاله ، ولكننا ما سمعنا عن أحد من هؤلاء أنه هاجم الانجيل فى كتاب يفرضه على الطلاب ، ويجعله موضع الدراسة والامتحان! قد يشذ احد الاساتذة برأى خاص يعلنه بعيدا عن المحيط الجامعى ، ولا يحمل طلابه عبء فهمه واستظهاره ، ولكن لا يجوز لاستاذ ما ان يهاجم مقدسات دينه مدعيا انه يبحث !! فاذا هاجم الدكتور طه حسين كتـــاب الله

صراحة ، وهب المفكرون من ذوى الغيرة الدينية لمقاومته! افيسكت الازهر ؟

ان كتاب الشعر الجاهلى يقـــوم على فكرة ليست بجديدة ! هذه الفكرة هى دعوى الانتحال فى هذا الشعر، وقد ثبت لدى الدارسين أن نقاد العرب من لدن عهد ابن سلام الجمحي الى عصرنا هذا قد قالوا بانتحـــال كثير من القصائد ؛ وللاستاذ مصطفى صادق الرافعى فصل رائع فى الجزء الاول من كتـــابه عن تاريخ الادب العربى أشبع هذه الناحية بما لا مزيد عليه ، وقـــد قوبل الكتاب عند صدوره باحتفال رائع ، وقد أفاد منه الدكتور طه حسين اذ أشاد به فى بعض ما كتب ! فلو أن الدكتور طه قصر حديثه على الانتحال ما أوجد هذه الفرقعـــة الصاخبة ، ولكن الدكتور قد بالغ فى دعوى الانتحال مبالغة تابع فيها المستشرق الانجليزى مرجليوث ، حيث نقل اكثر أدلته دون أن يعزو اليه شيئا مما أخذ عنه ! واذا كان الاسراف فى ادعاء الانتحـــال منقود منقود ، فما كان ذا خطر يسبب هياج الناس بعامة ، والازهريين بخاصة ، ولكن ترك القضية الى أشياء تمس كتاب الله، وتلصق بالبحث الصاقا دون داع علمى قد أوقد الصدور وحق لكل ذى غيرة اسلامية أن ينهض مدافعا عن كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! فمن الملوم حينئـــــذ ؟ من جاء بالعيب ، أم من قـــام بالمـــلامة والاستهجان !

لقد نسى بعض المغرضين عن عمد ، محـــور الضجة التى نشأت عن كتاب الشعر الجاهلى ، وذهب بعـــد

انقضاء نصف قرن على دويها المزعج الى القـــول بأن الازهريين قد ناهضوا الحرية الفكرية ممثلة فى الدكتور طه حسين ، بل الى القول بأن الذين عارضوا الدكتور طه حسين ، كانوا أذنابا لبعض الساسة من الحاكمين ، وذيولا للقصر الملكى ، وهكذا نفترى الاراجيف الظـالمة لتشوه الحقائق أمام المعاصرين أنفسهم ، لان من زامنوا هذه القضية لا يزال بعضهم على قيد الحياة وقد عرف ما كان كما كان ، واذا امتد التدليس الى احداث التى رؤيت راى العين ، فماذ نصنع بأحداث الزمن البعيد !

واذا كانت قضية الشعر الجـاهلى قد وصلت الى النائب العام ، ففحصها الرجل الكبير فحص القـانونى العادل مستعينا بخبراء ذوى نزاهة من الدارسين ، فان الرجوع الى ما دونه الرجل فى محضره يغنى كل غنـاء فى كشف الحقائق دون تزييف .

قرأ النائب العام كتاب الدكتور ، وفحص ما قدم اليه من الشكاوى بسببه ، ولخص ما يمكن أن يكون موضع اتهام فى هذه النقاط .

أولا : أن المؤلف كذب القرآن فى ما قال عن ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة السلام حين قال فى ص.٢٦ « للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل وللقرآن ان يحدثنا عنهما أيضا ، ولـكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى ، فضلا عن اثبات هذه القصـة التى تحدثنا بهجـرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها ، ونحن مضطرون الى ان نرى فى هذه القصة

نوعاً من الحيلة فى اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الاسلام واليهـودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى ، فهى حديثة العهد ، واستغلها الاسـلام لسبب دينى وسياسى أيضا ، فيستطيع التاريخ الادبى واللغوى الا يحفل بها عندما يريد أن يتعـرف أصـل العربية ونستطيع أن نقول ان الصلة بين اللغة العـربية الفصحى التى كانت تتكلمها العدنانية ، واللغة التى كانت تتكلمها القحطانية ، كالصلة بين اللغة العربية وأى لغة أخرى من اللغات السامية ، وأن قصةالعاربةوالمستعربة، وتعلم اسماعيل العـربية من جرهم كل ذلك احاديث أساطير لا خطر له ولا غناء فيه .

هذا هو الاتهـام الاول ، وهو صريح فى تـكذيب القرآن ، واذا كان هدف المؤلف أن ينتهى الى أن العدنانية غير القحطانية ، فقد كان فى وسـعه أن يترك حديث القرآن عن ابراهيم واسماعيل ، وأن ينـأى عن وصم الاسلام بالاحتيال ، ثم يعالج الموضوع علاجا يعتمد على نصوص ثابتة توحى باختلاف العدنانية عن القطحانية ! ولكنه لم يجد نصوصا تسعفه فى ذلك وزعم مدعيا أن لديه هذه النصوص ، ولكنه كان يتسع فى الفـروض الخيالية دون وثيقة ما ، بل انه نقل عن اعداء الاسلام ما افتروه دون تحقيق فى مسألة ابراهيم واسماعيل ، اذ أن بعض المبشرين وقع مقاله باسم « هاشم العربى » ليرى الناس أنه عربى غير دخيل ، وقد نص فيها على ما ردده الدكتور نافلا مدعيا ! وكل ذلك ذاع واشتهر ،

وأول من أعلنه الاستاذ عبد المتعال الصعيدى (١) ، كما سجله الاستاذ محمد الخضر حسين فى كتـــابه الذى نقض (٢) به كتاب الدكتور ، وقد وجه الاستاذ محمـــد طاهر نور رئيس نيابة مصر سؤالا صريحا عن هـــذا النقل فقال الدكتور طــه ، اننى افترضت ذلك ولــكنى أخبرت ان هذا الفرض موجود فى بعض كتب المبشرين بعد أن ظهر كتابى ! وتوافق المبشر مع الدكتور عجيب، اما النقل عنه فأعجب ، اذ أن المبشر صـــاحب هـــدف مقصود حين يطعن فى القرآن دون تحقيق ، ومع استتار بعصمه من الخزى حين ينكشف افتراؤه ، ولكن الدكتور يحاضر الطلاب به مجاهرا ، ويطبعه فى كتاب ينشر على الناس متحديا ، وكأنه حق صريح .

أما مبلغ اعتقاد الدكتور فى آرائه الادبية فيتضح مداه مما سجله محضر للتحقيق الذى أجراه رئيس النيــابة معه ، ونحن ننقل منه هذا الحوار .

س : هل يمكن لحضرتكم تعريف اللغة الجـــاهلية الفصحى ، وهى لغة حمير ، وبيان الفرق بين لغـــــة حمير ، ولغة عدنان ، ومدى هذا الفرق ، وذكر بعض أمثلة تساعدنا على فهم ذلك .

ج : قلت ان اللغة الجاهلية فى رأيى ورأى القــدماء والمستشرقين لغتان متباينتان على الاقل ، أولاهما لغة حمير ، وهذه اللغة قد درست الآن ووضعت لهـا قواعد النحو والصرف والمعاجم ولم يكن شىء من هذا معروفا

(١) كتاب القضايا الكبرى فى الاسلام ٣٩٩ للصعيدى .
(٢) كتاب نقض الشعر الجاهلى ص ٧٠ للخضر حسين .

قبل الاستكشافات الحديثة ، وهى مخالفة للغة الفصحى التى سألتم عنها مخـــالفة جوهرية فى اللفظ والنحو والصرف ، وهى الى اللغة القديمة أقرب منها الى اللغة العربية الفصحى ، وليس من شك فى ان الصلة بينها وبين لغة القرآن والشعر كالصلة بين السريانية واللغة العربية ، اما يراد النصوص فيحتاج الى ذاكرة لم يهبها الله لى ، ولابد من الرجوع الى الكتب المدونة فى هـذه اللغة .

س : هل يمكن لحضرتكم أن تبينوا لنا هذه المراجع او تقدموها لنا ؟

ج : أنا لا أقدم شيئا .

س : هل يمكن لحضرتكم أن تبينوا الى اى وقت كانت اللغة الحميرية موجودة ، ومبدأ وجودها ان أمكن .

ج : مبدأ وجودها ليس من السهل تحديده ، ولكن لا أشك فى أنها كانت معروفة تكتب قبل القرن الاول من المسيح ، وظلت تتكلم الى ما بعد الاسلام ، ولكن ظهور الاسلام ، وسيادة اللغة القرشية قد محا هـذه اللغة شيئا فشيئا كما محا غيرها من اللغات المختلفة فى البلاد العربية وغير العربية وأقر مكانها لغـة القرآن .

س : هل يمكن لحضرتكم أن تذكروا لنا مبدأ اللغـة العدنانية ولو على وجه التقريب ؟

ج : ليس من السهل معرفة مبدأ العـدنانية ، وكل ما يمكن أن يقال بطريقة علمية ، هو أن لدينا نقوشا قليلة جدا ، يرجع عهدها الى القرن الرابع للميلاد ،

وهذه النقوش قريبة من اللغـــة العدنانية ، ولـكن المستشرقين يرون أنها لهجة نبطية ، واذن فقد يكون من احتياط العلم أن نرى أن أقدم نص عربى يمكن الاعتماد عليه من الوجهة العلمية الى الآن انما هو القرآن . حتى سنكتشف نقوشا أكثر وأظهر مما لدينا .

س : هل تعتقدون حضرتكم أن اللغـــة سواء كانت الحميرية او العدنانية كانت باقية على حالها من وقت نشأتها أو حصل فيهـــا تغيير لسبب تمـادى الزمن والاختلاط .

ج : ما أظن أن لغة من اللغات تستطيع أن تبقى قرونا دون ان تتطور ويحصل فيها التغيير الكثير (١) .

هذا بعض ما جاء فى محضر التحقيق النيابى ، ويظهر منه بوضوح أن الدكتور لا يملك دليلا حاضرا على بعـد العدنانية عن الحميرية ، وأن ما رتبه على ذلك من اختلاق قصة ابراهيم واسماعيل لا يمت الى الحقيقة العـلمية بصلة ! وقد كان فى وسعه أن يهتف عاليا باختـلاف الحميرية عن العدنانية دون أن يثور عليه أحد اذا ترك النص القرآنى بمنأى عن توهينه ، ولكنه فعل !

والثانى من بنود الاتهـام فى صحيفة رئيس النيابة العامة أن الدكتور أنكر القراءات السبع المجمع عليهـا ، فزعم انها ليست منزلة من الله تعالى ، وأن العـــرب قرأتها كما استطاعت لا كما أوحى الله بها الى نبيه .

---

(١) نقلا عن كتاب (موقف النقد الادبى من الشعر الجاهلى ص ١٠١) للدكتور محمد رجب البيومى .

والكلام فى القراءات بحث علمى لا يضر الكاتب أن يخطىء فيه ، لانه لم ينف به أن القرآن من عند الله ، ولكنه يريد أن يثبت اختلاف اللهجات فى اللغة الواحدة كما أراد من قبل أن يثبت اختلاف العدنانية عن الحميرية ! لينتهى الى التشكيك فى الشعر الجاهلى ، واختلاف اللهجات اذا تحقق لا يؤدى الى ما يريده من النتيجة ، لان اللهجة هى طريقة اداء الكلمة الى السامع مثل امالة الفتحة والالف أو تفخيمها ، ومثل تسهيل الهمزة أو تحقيقها ، ولا تلازم بين اختلاف اللغات واختلاف اللهجات ، فقد تكون اللغة متحدة ، واللهجة مختلفة ، واذا كان ذلك كذلك فلا يوجب اختلاف اللهجة أن تكون اللغة مختلفة ! وكان على الدكتور الا يتعرض للقراءات بشىء ، لان القراءات لا صلة لها بالشعر الجاهلى الذى يشكك فيه ، ولكنه أراد الاثارة عمدا .

والثالث من بنود الاتهام انه ذكر النسب النبوى بما يوحى بالاستخفاف اذ قال فى ص ٧٣ من كتاب الشعر الجاهلى « ونوع آخر من تاثير الدين فى انتحال الشعر واضافته الى الجاهلين هو ما يتصل بتعظيم شأن النبى من ناحية أسرته ونسبه فى قريش ، فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون من صفوة بنى هاشم ، وأن يكون بنو هاشم صفوة عبد مناف ، وأن يكون بنو عبد مناف صفوة بنى قصى ، وأن تكون قصى صفوة قريش ، وقريش صفوة مضر ، ومضر صفوة عدنان ، وعدنان صفو العرب ، والعرب صفوة الانسانية كلها ! وهذا الكلام على وجهه المسرود مريب سيىء ، ولم يكن

الشك فى الشعر الجاهلى بحاجة اليه ، اذ لا يوجد لدينا شعر يثبت أفضلية عبد مناف وقصى ومضر وعدنان حتى نقول انه مختلق ! فلماذا أخذ المؤلف فى سرد هذه السلسلة دون داع ان المسلمين جميعا يعتقدون ان محمدا افضل خلق الله ، ويصدقون ما جاء به وما قاله وما زاد عن ذلك لا يعبئون به ! فكيف يأتى تأثير الدين فى انتحال الشعر اذا ثبتت اصالة العنصر النبوى ورفعته وطهارته! ان أكثر القبائل الجاهلية تفتخر بأرومتها ، وأصالة معدنها ، بحيث لا يقاس ما قيل فى قريش عامة ببعض ما قيل فى تميم أو أسد او طيىء ! فلم يسكت الدكتور عن فخر هذه القبائل بأصولها ، ولا يعده سببا للانتحال، ثم يحاول أن يستخف بقبيلة النبى الكريم لأمر اذا ثبت على سبيل الجدل الفرضى فلن يخدم قضيته الادبية فى قليل أو كثير ! ان مما يعزينا عن هذا التقحم البغيض ان الدكتور قد رجع عن ذلك كله حين كتب فصولا من السيرة الطاهرة تغنت بمحمد الرسول الامين ، وسجلت رفعة عنصره الكريم .

أما الاتهام الرابع فان الدكتور انكر أن للاسلام اولية فى بلاد العرب وانه كان دين ابراهيم الحنيف وذلك حين قال ص ٨١ من كتاب الشعر الجاهلى « وشاعت فى العرب أثناء ظهور الاسلام وبعده فكرة ان الاسلام يجدد دين ابراهيم ، ومن هنا أخذوا يعتقدون ان دين ابراهيم هذا كان دين العرب فى عصر من العصور ، ثم أعرضت عنه لما اضلها المضلون ، وانصرفت الى عبادة الاوثان » .

ويعزينا حين نسجل هذا الهراء ان الدكتور قد رجع

عنه فى محضر التحقيق النيابى اذ ذكر فى المحضر انه لا ينكر أن الاسلام دين ابراهيم ، فاستغلوا هذا الاقتناع وأنشأوا حوله بعض القصص والاخبار .

والسؤال الباقى بعد ذلك كله هل ورد فى الشعر الجاهلى الذى يحاول الدكتور انكاره شيء يتعلق بالاسلام ودين براهيم حتى يلجأ الى تسطير ما يخالفه الواقع ؟ واذا كانت الاجابة بالنفى لا بالاثبات فلماذا يترك موضوعه الاصلى ليهيج المشاعر دون داع ! الا اذا كان المراد ان يحدث الضجيج .

هذا بعض ما تضمنه كتاب الشعر الجاهلى ، مما دعا علمـــــاء الازهر الى الثورة اليه ، وقد ثبت أن جميع ما تورط فيه الدكتور من آراء مؤذية قد نقلت عن غيره، وانى لاتساءل كيف يكون تصحيح الحقائق محاربة لحرية الفكر ؟ من ناحية الازهر ، وكيف يكون تشويه الحقائق استجابة لحرية الفكر من ناحية الدكتور ومؤيديه ؟ حتى نرى فى كل حين كاتبا يدعى أن الازهر قد هاجم كتاب الشعر الجاهلى لانه يرفض الجديد الحى ، ويتمسك بالقديم البالى ! فى حين ان الازهر بعلمائه وكتابه يناقشون القديم والجديد معـــا ! ويأخذون ما فيهما من الخير ويدعون ما بهما من الشر ! بدليل ان كتب الدكتور طه الخـــالصة للادب من مراجع الازهريين فى دراساتهم بل ان أدب الدكتور طه نفسه كان محور دراسات فى رسائل الماجستير والدكتوراه ، وقد انصفه الباحثون مصيبا ، ونقدوه مخطئا ، واذا كانت حرية الفكر شيئا غير ذلك ! فأى شيء تكون ؟

الأزهـــــر
والسـلام الـديـنى

ـ ١ ـ

ردت بعض الصحف اليومية قولا قديمـــا للـكاتب الفرنسى « موريس جودفرى دى موبين » يذهب فيه الى أن الازهر بمصر لا يسهم ايجابيا فى السلام الدينى ! وانا أعرف ان صاحب هذا القول المسرف قد أصدر كتابا سماه « النظم الاسلامية » حشاه بأخطاء كثيرة نسبها الى الاسلام خطلا دون صواب . فاذا نسب للازهر هذا الراى الجائر فليس من المستغرب . لان من المستغرب فعلا أن ينصف الازهر من لا ينصف الاسلام .

وواضح ان الازهر يمثل الاسلام فى كل راى يبديه . فاذا دعا الاسلام الى الســـلام الدينى فهى الدعوة التى يحتضنها الازهر ويلتزمهـا اى التزام . وليس . رأى الاسلام فى السلام الدينى بعيدا عن كاتب يعالج شئون المسيحية والاسلام فى باريس . وينقل عن الامام محمد عبده رضى الله عنه آراء كثيرة سردها فى كتاب « الاسلام والنصرانية » كما يعرف سلفا ما كتبه الاستاذ الامام فى رده على المسيو هانوتو مبينا دعوة الاسلام الى السلام . ومؤاخاة العلم . واحترام الرأى المخالف ! فبالله كيف

يتحدث مؤلف النظم الاسـلامية حديث من لا يعرف الاسلام وقد تفرغ للبحث عن الشئون الاسلامية حتى غد متخصصا فيها لدى معشره . وها هو ذا يتحدث عن الازهر دون دراية . ولا نعذره فى خطئه المعرض . لان رأى الازهر فى السلام الدينى ذائع مشتهر فى اوربا وامريكا أذاعه شيخه الاكبر الامام محمد مصطفى المراغى فى مؤتمر الاديان ببروكسل عام ١٩٣٦ . وأذاعه فى باريس عالم من المع علماء الازهر ونابغيه وهو الاستاذ الدكتـور محمـد عبـد الله دراز فى مؤتمر الاديان سنة ١٩٣٩ . وما زال ممثلو الازهر يعلنون فى كل مؤتمر يلتمس فيه النفع ! افتكون محاضرات مؤتمر الاديان فى باريس بعيدة عن كاتب متخصص ، يتحدث عن الشئون الاسلامية . ويفرد المؤلفات الخاصة بها . ثم لا يأذن لنفسه أن يلتفت الى ما يدور حول تخصصه العلمى فى وطنه . بل الى ما قيل فى امور يتصدى للبحث عنها مصدرا رأيه النهائى ! واذا كان ما قيل عن السلام الدينى والازهر مما لا يقنعه فلماذا لا يرد عليه بالمنطق الصائب لنعرف أن للرجل أبعادا شاسعة يجهلها الباحثون أما أن يصدر الحكم عاريا عن أسبابه وغلافلا عما قاله الفاقهون شأنه فهذا هو الجور الصريح .

وقد يكون من المفيد أن نلقى بعض الضوء على ما قاله الامام المراغى والدكتور دراز فى موقفيهما الجهيريين . لان ما قالا منذ اكثر من اربعين عاما يدل على ان الازهر لا يلبس اردية مختلفة تتنوع وفق الاتجاهات المتعارضة . بل يلتزم بمنطق الاسلام فى مواجهة الاحداث ، وآية

ذلك ان رجال الازهر اليوم يقولون عن اعتقاد ما قاله أسلافهم الفاقهون » ، لا لأن اللاحق يقلد السالف ، بل لأن المصدر واحد لا يختلف وهو القرآن الكريم .

― ٢ ―

انتشر التبشير بمصر فى الثلاثينات انتشارا اساء الى القائمين به ممن لا يراعون حرية العقيدة فى بلد اسلامى يرعى روابط الانسانية والوطنية ، وبحثت الهيئات الاسلامية أسباب هذا الاعتداء الصارخ على حريات المعتقدين وفى مقدمتها مشيخة الازهر فأدركت اصابع الاستعمار المحركة للمهزلة المنكرة من وراء ستار، فانبرت الاقلام المؤمنة تفضح ما استتر من الدسائس ، وتدين قوما يتظاهرون فى الخارج بالدعوة الى سلام الاديان . ويقيمون المؤتمرات الداعية لهذا السلام ثم جاءت الدعوة الى شيخ الازهر ليمثل الاسلام فى مؤتمر بروكسل . ولو كان الاستاذ الاكبر أسير عاطفته الشخصية وحدها لرفض الدعوة من قوم ينضم اليهم من يكيد فى الباطن . ويتظاهر بالمودة فى العلن . ولكن الامام المراغى قد اهتبل الفرصة ليدعو باسم الازهر الى سلام دينى حقيقى . وليوجد أرضا مشتركة يقف عليها دعاة الاديان المختلفة غير متنابذين ، وهو فى ذلك يصدر عن دين أمر دعاته أن يهدو الانسانية بالحكمة والموعظة الحسنة ، فاذا كان جدال فبالتى هى أحسن ، وقد استعان الاستاذ الاكبر بثقافة العصر الحضارية ، ومقررات العلوم الانسانية حين اشار فى بدء كلمته الى فكرة الزمالة بين المتدينين فكرة طبيعية . وهى ليست

نظرية فلســـفية بل حاجة ضرورية ، تولدت فى النوع البشرى ومع الشعور بهذه الزمالة فان أسباب التفرق ايضا لهـا موجباتها الضرورية اذا أن الانسان لا يسير بالعقل وحده حتى تنحسم أموره مع المخالفين على وجه حاسم صريح . ولكنه يخضع لغرائز قاهرة تضطره الى مجانية المنطق فى بعض الاحيـــان ولذلك كان الاخاء الانسانى العالمى أمرا ميئوسا منه . ما دامت هنـاك شهوات تمليها الفريزة . ولن يقدر التقدم العلمى على التغلب على هذه الشهوات المتأصلة ، واذا أمكن بعامل من العوامل أن تخبو جذوة تلك النار المنبعثة من قوى الطبيعة فى الانسان فانه لا يمـــكن ان تنطفىء تلك النار .

والتدين ــ في رأى الاستاذ الاكبر ــ أصيل فى كل نفس . ولا بحجة الا غشاوات عارضة تنقشع أمام النظر البصير وفى هذا التدين ما يهبط بقوى الغرائز الهائجة ، فيخف من شرورها الكثيرة فالشعور الدينى اذا عمق وتأصل قل من أسلحة الانانية والتجبر ، ورفع الانسان الى ما فوق الاعتزاز باللون والدم والجاه والطبقة . ودعا الى طمأنينة وسكينة تهونان الرزايا والاحزان . وبعد أن يحكم الامام المراغى فى مرارة على ما ارتكب من المآسى بسبب الخلافات الدينية . والدين منها براء . عمد الى ايضاح رأى الاسلام فى السلام الدينى فقال(١).

وهذا ما جعل اغتباطى بهذا المؤتمر عظيما ، فانه فضلا عن سعيه لبحث عن الوسائل الموصلة لتحقيق المثل العليا

---

(١) مجلة الازهر . المجلد السابع ص ٦٥ .

للانسانية . وهى الزمالة العالمية بين افراد النوع الانسانى وامه . فانه بهذا السعى يحقق غرضا أساسيا من الاغراض التي سعت اليها الاديان . وعنى بها الاسلام الذى أدين به . فقد نبه القرآن على وحدة الابوين الموجبة للتعارف والتعاون والتناصر . والمبعدة عن التناكر والاختلاف . ولم يقم وزنا لشرف المولد ، وكرم الجنس ووضع معيارا التفضل لم يعرفه الناس من قبل . وهو تقوى الله فى القرآن الكريم « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم » وفى القرآن الكريم « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » .

ثم تحدث الامام المراغى عن الزمالة المنشودة بين رجال الدين . داعيا الى الوئام الحقيقى . وقد اضطرالى أن يدين فى وضوح ما يرتكبه المبشرون من منكرات حين يلجئون الى ديار الاسلام . ليغروا الضعفاء بالمال والمنصب والعقار كى يتركوا دينهم دون اقناع ثم وضع النقط على الحروف حين قال :

« ومما يثير العجب ويضاعف الالم ان أهل الاديان يحشدون جهودهم لمقاتلة بعضهم بعضا مقاتلة أسرفوا فيها وجعلتهم ضعفاء أمام عدوهم المشترك وسلكوا طرقا فى التناحر مخالفة لأبسط قواعد المنطق . مما جعلهم سخرية أمام العلماء والفلاسفة . وجعل كل جهودهم عقيمة النتائج فقد تركوا التأثير على الانسان من ناحية

عقله الذى هو موضع الشرف . وموطن العزة والـكرامة واستعملوا طرق الاكراه والاغراء بالمال وغيره من الوسائل وركن بعضهم الى القوى المادية للدول . وقـد نسوا أن الايمان لا يحل القلب . بالاكراه . وأن العلم لا ينال الا بالدليل . ونسوا أن العدو جاد فى انزالهم من مكانهم . اللائق بهم وأن شرور العالم تغمر الانسانية وتطفى على ما بقى فى النفوس من هيبة واحترام للنظم الالهية . وكان عليهم بدل ذلك كله أن يتعـاونوا على درء الخطر . وأن يحاربوا هذه الشهوات الجامحة وهذه الاباحية التى يئن منها العقلاء » (١) .

ثم ختم الاستاذ الاكبر كلمته باقتراحات هادفة تدعو الى عدم تنمية الشعور الدينى بالضغائن والاحقاد . وتوجيه الوعظ الدينى الى الطريق الانسانى المجمع لا الفرق ، وجعل الدعاية الدينية قائمة على أسـاس عقلى محض يدعمه حب الحقيقة . واستشهد بما يؤيد فكره الناصح بأصول اسلامية من آيات القرآن مثل قوله تعـالى : « افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وقوله عز وجل « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

وقد قوبلت كلمة الامام المراغى بما هى جديرة به من الاحتفاء وليس لدعى بعدها ان يعلن أن الازهر يقف فى وجه السلام الدينى تحرصا دون برهان .

— ٣ —

اما الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله فان قراءه

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠٨ .

الكثيرين يعرفونه باصابة القول وجزالته وجدته . وأشهد انه ما قرأ له عارفوه مقالا أو كتابا واستمعوا الى محاضرة علمية من محاضراته الا انتفعوا بالجيد الطريف الزاهر . فهم فى دوحة مورقة ذات ثمر وظل ونسيم وقد أحسن الازهر اختياره ليمثل شيخه الاكبر فى مؤتمر الاديان بباريس حين انعقد سنة ١٩٣٩ . فألقى محاضرة هادفة قال عنها السير فرنسيس رئيس المؤتمر : ان كلمة الازهر هى الكلمة الرئيسية . وقد وافق الحاضرون بالاجماع على اقتراحين قدمهما الشيخ دراز للمؤتمر فكان فوزه الباهر فوزا للسلام الحقيقى كما ينادى به مسلم داعية غيور . وقد بدأ الدكتور محاضرته متسائلا عن سر العداوة والشحناء اللتين تعمان عالم اليوم ، وألمح الى أثر المادية فى التراحم على الاستلاب والغزو والاستعمار . وقد رأى فى الدين مرفأ النجاة . وهو يعلم ان رجال الدين يتنازعون كما يتنازع الماديون . وقد أعمل فكره ليجمعهم فى جبهة واحدة ينتفى معها النزاع ، وقال فى توضيح ذلك (١) .

غير أنا اذا رجعنا الى الاديان نلتمس منها المعونة . هالنا ما نراه من اختلافها اختلافا طالما كان من أسباب الخصومات والحروب بدل ان يساعد على حسن التفاهم والتقريب بين القلوب . فهل نستطيع أن نجد من وراء هذا الاختلاف وحدة مشتركة فى المبادىء والمطامح تصلح أن تكون محورا لتقرير السلام بين معتنقيها . وتسهيل تعاونهم على الخير المشترك للجميع . هذه

---

(١) مجلة الازهر • المجلد العاشر ص ٥٣٣ •

هى النقطة الاساسية التى تدور عليها اعمال المؤتمر ، وهذا هو الاشكال الذى يحاول المؤتمر أن يجد له حلا .

اما أنا ـ أى الشيخ دراز ـ فأميل الى أن يكون الحل على أساس الفصل فى الاديان بين ناحيتها الاجتماعية وبين نواحيها الاخرى . وأعتقد أن افتراق الاديان فى عقائدها وشعائرها وكثير من تعاليمها لا يمنع أن تلتقى من الوجهة الخلقية عند قاعدة واحدة هى أساس التعاون المطلوب . وذلك انها كلها تأمر بالعدل والاحسان . وتنهى عن الظلم والعدوان . وكلها تسوى فى هذه المعاملة الدنيوية بين أتباعها وبين أعدائها ، لقد نادى الاستاذ اذن بالحل العملى ، بعيدا عن الغوص الجدلى فى مشكلات لا تصل الى نتائج ، وبعيدا عن التظاهر بالعمق النظرى تظاهرا يعود على القائل بالمباهاة دون أن يفيد المجتمع الانسانى شيئا ذا بال ، وقد ساعد الاستاذ اطلاعه المقارن الشامل على أن يتحدث عن الديانات المختلفة من هندية وبوذية ويهودية ومسيحية واسلامية حديثا واعيا بصيرا ليأخذ من كل دين دعوته الى السلم المتسامح فيعتدها حجر الزاوية فى لقاء هذه الاديان ، وكان من الطبيعى أن يفصل رأى الاسلام نظريا وعمليا فى قضية السلام العالمى فيرى أن دعوة الاسلام الى الائتلاف قد قامت من الناحية النظرية على دعامتين اولاهما من طريق توحيد الغاية وذلك بدعوة الناس جميعا الى عبادة رب واحد ، وثانيتهما من طريق التوفيق بين وسائل هذه الغاية حين ارجع القرآن الكريم الشرائع السماوية الى أصل واحد ، ودعا الى الايمان بجميع الرسل والانبياء وكتبهم

المنزلة « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واســـــحاق ويعقوب والاسباط . وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » بل ان الاسلام نفسه ــ فى اصطلاح القرآن الكريم ــ اسم مشترك يضعه كتاب الله على لسان انبياء الله قبل محمد ، فيقول فى شأن ابراهيم « اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » ويقول فى شأن يعقوب « اذ قال لبنيه ما تعبـدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واســماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون » ومضى الباحث يستعرض نظائر هذه الآيات .

أما الوجهة العلمية فالاسلام قد حذر من مناوشة مخالفيه أو مضايقتهم ما داموا مسالمين ، فاذا تركوا السلم الى الحرب فان الاسلام يدعو الى اعداد القوة دون أن يغفل الانصات الى دعوة المهادنة حيث تثمر خيرها دون عنت وارهاق ، فاذا لم تثمر وئاما يحفظ الارواح كان على المحارب المسلم أن يحصر القتال فى اضيق نطاق يقول الله تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقـــاتلونكم ولا تعتـــــدوا ان الله لا يحب المعتدين » (١) .

وفى ختام كلمته البـــارعة استخلص الاستاذ نتائج ثلاثا تنحصر فى أن الاديان ــ أولا ــ يجب من الآن أن تكون سبب وفاق ووئام لا مدعاة نزاع وخصام . كمـا ان السبب ــ ثانيا ــ فى الخصـــومات الدينية هو

---

(١) مجلة الازهر : المجلد العاشر ص ٥٣٧ .

الانحراف عن الدين لا أتباعه أما العلاج الحتمى ــ ثالثا ــ فهو العناية بين رجال الاديان جميعا بالجانب الخلقى العام لنمو العاطفة الدينية لدى المتدينين جميعا فيعيشون فى سلام .

هذا بعض ما يمكن تلخيصه من كلمة الدكتور دراز ، فاذا ضمت الى كلمة الامام المراغى وقد ترجمتا معا الى الفرنسية ووزعتا على المؤتمرين من شتى ممثلى الاديان فى الشعوب والقارات . فليس لأحد من المتحدثين عن الازهر أن يصمه بمجافاة السلام . بل ان المنصف ليقدر لممثليه تسامحهم الانسانى حين اغضوا عن اتهام خصومهم بما ارتكبوه فى ديار الاســـلام شرقا وغربا من اعتداء صارخ على الحرية الدينية ، وفى وسعهم أن يستشهدوا بما ذكرته الصحف الاوربية نفسها من هذه الفظـــائع المخجلة ، لان الحق لا يعدم أنصاره حتى من بين مناوئيه ولكن داعيتى الازهر قد أسدلا الستار على ما كان، طمعا فى أن يميل الميزان الى الاعتدال . وارتقابا ليوم تنفع فيه النصيحة المخلصة ، والدعوة الصادقة فتغنى عن عناء كثير .

ــ ٤ ــ

وبعــد :

افيكفى فى وقتنــا العصيب أن يــكون السلام بين الاديان هو المطمح الامثل ، أم يجب أن تمتد بالسلام السلبى الى تعاون ايجابى امام ما يتهــدد الايمان من خطر شيوعى يزحف الى كل مكان .

ان الذين ينكرون عالم الغيب مرتكنين على شبه تتسم بسمات العلم دون أن تؤسس على يقين جازم ، فى حاجة الى من يعارضهم بسلاح العلم نفسه ليثبت أن الايمان بالله حقيقة مكينة ؛ لها أثرها الحى فى طمأنة النفوس ، وبعدها عن الهواجس المريبة ذات الفزع والاضطراب ، ثم أن دعاة الالحاد يجـــدون طريقهم سهلا هينا لانهم ينفون كل التزام جزائى فى ارتكاب الموبقات ، اذا لم يقدر لها أن تذاع على ملأ من الناس ، والنفوس بطبيعتها تميل الى التحلل من القيود فهى الى دعوات التحلل اسهل مقادة وألين عريكة مما يجعل الماديين يسبحون مع التيار العـــام ، أما دعاة الايمان فيحاولون اقامة السدود المنيعة أمام الاهواء ويدعون الى قوة الارادة وشدة لحسم نفوسا يسوءها أن تكبح بلجام ، فطريقهم شاق وعر وعليهم أن يتعاونوا متساندين ليعلموا كلمة الله ، واذا كنا نرى دعوات الالحاد تمتد وتتسع بحيث تحتل معاقل جديدة على فترات متعاقبة ، فاننا نهيب برجال الاديان أن يحموا أوطانهم من الزحف الراصد . واذا كنا بالامس نركن الى الاغضاء عمن يحاربون الأيمـــان استخفافا بأثرهم فقد أثبتت الايام أنهم يتقدمون وراء خطة مدروسة ، ويقفون جميعا متأهبين للانقضاض ،ولن تندحر جموعهم الا اذا قوبلت باعصار كاسح يستأصل الجـذور الثابتة فى الارض ، ويضع مكانها بذور الحب والايمان .

الأزهـــر وحريّة الفكـــر

أراد الاستاذ توفيق الحكيم أن يجمع ما لديه من خطابات شخصية وقصاصات صحفية فى كتاب خاص يكون شاهدا على جهاده الادبى فى عمره الحافل ، فأصدر ما سماه « وثائق من كواليس الادباء » وللأستاذ ان ينشر ما يشاء ، ولكن ليس له أن يجبر الناس على أن يفهموا الحقائق على غير وجوهها الصحيحة ، كما يلوح ذلك فى كثير مما كتب ، اذ شاء أن يجعل نفسه نصيرا للحرية والفكر ، وهو ادعاء سنعرف مقدار حقيقته فى نهاية هذا المقال ، وقد كنت أوثر أن أغض عنه اولا انه تحرش بالازهر فى صفحات من كتابه ، تحرشا لا يستند الى واقع قائم ، فندد بما زعم من تدخله المتكرر فى شئون الفكر مستندا الى وهم لا أساس له ، وقد ثبت له عن يقين ان الازهر لم يناهضه فى شىء ، ولكنه سود ماسود وكأن الوهم المتخيل أصبح حقا واقعا ، اذ بلغه ـ كما ادعى ـ أن الاستاذ الاكبر محمد مصطفى المراغى رحمه الله قد اعترض على ما جاء بكتابه « يوميات نائب فى الارياف » خاصا برجال القضاء الشرعى ، فاهتبل هذه السانحة دون ان يتأكد من صحتها ثم أدلى بحديث ينعى

فيه على الازهر تدخله المتكرر فيما سماه بشئون الفكر، وكأنى بالفارس المضطهد وقد سره أن يظهر فى صورة المدافع عن الحرية فاندفع الى رد الهجوم المتخيل ليعلم الناس انه أحد ضحايا الرأى الحر ، والفكر الجرىء ، وقد شاء أن يقرن الاسلام بالمسيحية ، والازهر بالكنيسة ، كما يفعل أعداء الاسلام ظلما دون عدل ، فقال فى حماسة :

« وقد آن الاوان لنواجه الامر فى صراحة فيما يتعلق بتدخل الازهر المتكرر فى شئون الدولة الفكرية ، وأن نتدبر من الآن الخطر الذى يهدد حرية الكتابة ، وخطر التأليف ونهضة العلوم اذا سيطر على الحياة الفكرية فى هذا البلد العصرى يمثل هذه الروح ، فالمعروف عن ظلام القرون الوسطى أن الكنيسة كانت هى التى تتحكم فى عقول المفكرين مما أدى الى شل حركة العلوم والفنون ، فلما جاءت عصور النور ، وتم فصل الكنيسة عن الدولة استطاعت الحضارة أن تزدهر هذا الازدهار الذى يسود العالم اليوم ، فلا شك اذن عندى أن مستقبل مصر متوقف على ضمان حرية العقل والافكار الضرورية لكل نهضة حقيقية » (١) .

وقد توالت الصفحات فى كتاب الاستاذ الكبير لتثبت له الحقائق ان الاستاذ الاكبر لم يتدخل فى شىء يتعلق بكتابه ، وكان عليه بعد ذلك أن يرفع هذه الصفحات الظالمة من الوثائق لانها بنيت على افتراء باطل ، ولكن الكاتب أثبتها فى اصرار ، لم نسى انها دعوى كاذبة فقال

---

(١) وثائق من كواليس الادباء للاستاذ توفيق الحكيم ص ١٢٠ .

فى نهايتها معقبا « هذه الاحاديث والاخبار المنشورة فى صحف ذلك العهد تتعلق بأزمة الحياة الفكرية التى تعرضت لهـــا لما رأيت من خطورتها على نهضتنـــا العقلية (١) .

وقارىء هذا الكلام يظن أن الاستاذ قد تعرض حقا لازمة فكرية ، كما يظن ان الحياة الفكرية فى مصر بنوع عام قد تعرضت لهذه الازمة بسبب تدخل الازهر !؟ وكل ذلك خطأ لا يقوم دليل واحد على صحته لدى من يزنون الاشياء بميزانها الصحيح ، ولا نحب أن نمضى بالحديث الى آفاق شاسعة تخرج بنا عن نطاق الاستاذ توفيق الحكيم الى سواه ، بل نحب فى هذا المقال ان نبين ان الاستاذ توفيق الحكيم تحرش بالازهر فى مناسبات كثيرة دون أن يكون صاحب حق فى هذا التحرش ، كما نحب أن نذكره ببعض مانسيه من بطولة الاستاذ الاكبر فى مواجهة العدوان المحتل بجبروته وطغيانه ، ليعلم من المدافع الحقيقى عن الكرامة الانسانية فى ميدانها الاصيل :

١ – يقول الاستاذ توفيق الحكيم ص ١٢٠ « ان الانتصار الذى تم (للأزهر) فى حظر كتاب (جان دارك) قد شجع على الاستمرار فى هذه الخطة » ، ولكى يكون القارىء على بينة من موقف الازهر الصائب من قصة جان دارك وموقف الاستاذ توفيق الحكيم المخطىء منهما نوجز الحديث عنها فيما يلى :

لقد قررت كلية الآداب منذ اربعين عاما تدريس قصة

(١) وثائق من كواليس الادباء للاستاذ توفيق الحكيم ص ١٢٩ .

جان دارك لبرنارد شو الكاتب الانجليزى الذائع ، فقرأها الطلاب ورأوا فى بعض ما جاء بها من الحوار على لسان احد الاشخاص طعنا فى نبى الاسلام ، فتحمس الطلاب المسلمون لكرامة نبيهم العظيم ، وطالبوا المسئولين بعدم تدريس القصة ، وكتبوا عن ذلك فى الصحف ، فاهتم وزير المعارف بالامر ، وتحدث كبار علماء الازهر يؤيدون الطلاب وفي طليعتهم الامام المراغى والاستاذ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين ، ولكن الاستاذ توفيق الحكيم شاء أن يدعى الحرية ـ حيث لا خوف على حريته هو من أحد فكتب ينتقد الطلاب الذين ثاروا لكرامة نبيهم ، والازهر الذى قام بواجبه فى تأييد الطلاب ، وقال فى ادعاء غريب بعد أن تساءل فى دهشة عن فزع الطلاب (١) .

« أن الكتب التى عالجت المسيحية وتعرضت للمسيح بالطعن والتجريح تطبع وتنشر فى أوربا المسيحية دون أن يخشى أحد على كيان المسيحية ، ذلك ان الجميع يعلمون أن الاوان قد فات للخوف من مثل هذه الصيحات ، وان المسيحية التى عاشت عشرين قرنا لا يهدمها عشرون كتابا ، كذلك نستطيع أن نقول فى الاسلام ان هذا الدين المتين الذى عمر نحو أربعة عشر قرنا وثبت لاحداث الزمان وشاهد دولا تدول وعروشا تزول ، وشعوبا تولد ، لا يمكن أن يتعرض للخطر أمام كتاب يؤلف ، أو عبارات تقال ، ان هذا الفزع منا لاكبر مسبة لدين عريق عميق ، كذلك يدهشنى أن ينشأ الفزع فى جامعة عصرية ،

(١) مجلة الرسالة العدد ٢٩٨ ، ١٩٣٩/٣/٢٠ م .

يؤمها شباب قد قطع مراحل الطفولة والصبا الاول ، وانغرست فى قلبه العقيدة الحارة فلا خوف عليه الآن من مناقشة المسائل المتعلقة فى جو الحرية » .

هذا ما قاله الاستاذ توفيق الحكيم ، وهو كلام ظاهر البطلان لدى صغار الطلاب ، فضلا عن أصحاب الاقلام من المفكرين ، وقد تعرض لدحضه احد طلبة كلية اللغة العربية بمجلة الرسالة حين كتبه الاستاذ منذ اربعين عاما وهو صديق الاديب الفيور أحمد عبد الرحمن عيسى ، فسأل الاستاذ فى قوة (١) : اى برنامج من برامج التعليم فى أوربا قررت فيه كتب تطعن فى المسيح ، وتجرح سيرته ثم قررت على الطلاب فى الجامعة وفرضت عليهم فرضا لتكون من اسس ثقافتهم الرسمية ؟! ان انجلترا حرمت دراسة نظريات علمية بالجامعات احتراما لشعور الجماهير حين مست بعض أصول المسيحية ولكنها لم تحرمها خارج الجامعة ، فللكتاب ان يتحدثوا عنها كما يشاءون ، ولكن ليس لأحد أن يقرر على الطلاب ما يغرس فى نفوسهم الشكوك !؟ وسؤال الاستاذ الصديق يدل على أن الكاتب الكبير لا يفرق بين تدريس كتاب يقرر غصبا على الطلاب ، وكتاب يؤلفه انسان ليقدمه للقراء دون أن تفرضه الجامعة فرضا دون اختيار !؟ وازيد على ماكتب الصديق فأتساءل لماذا تكون أوربا والمسيحية دائما وجهة الكاتب الكبير فى المقارنة ، كما قارون الآن بين الجامعة المصرية وجامعات اوربا ، وبين المسيحية والاسلام

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٢٩٩ ، ١٩٣٩/٣/٢٧ م .

فيما نقلناه عنه ، وكما قارن بين الازهر والكنيسة في حديثه بالمقطم !؟ ان هذه المقارنة توحي ان الاستاذ يعتقد ان الاسلام كالمسيحية ، وأن رجال الاسلام يملكون من التحكم في المصائر والعواقب مثل ما كان يملك القساوسة في الكنيسة ، وهي مقارنة تسيء الى الاسلام ، اذ تحمل عليه أوزارا لم يقترفها حماته ولا تمت الى أصل من أصوله ، وهذا ما عناه الاستاذ الدكتور محمد البهي حين قال في الرد على دعوى الاستاذ توفيق الحكيم (١) .

« ان الازهر لا يطلب سلطان الكنيسة في القرون الوسطى ، وانما يؤدي مهمته الروحية فوق مهمته العلمية وهي المحافظة على الأمة وعلى شبابها المثقفين ، وشيخ الازهر لا يجد من حرية البحث الجامعي اذا ما حاول ان ينزع الامة من تحكم فئة تدعي لنفسها من الالقاب الثقافية ما تشاء مستغلة جهل الشعب ، وعدم سمو المستوى العلمي فيه » ثم قال الدكتور البهي : « حددوا الالفاظ قبل استخدامها ، وضعوا المقارنة بين نهضات الامم على أسس صحيحة ، وتخلوا قبل كل شيء عن عقيدة وجوب تقليد الغرب ، أما الايمان أولا بوجوب تقليد الغرب في خيره وشره ، ثم الزام القارىء بنتائج مايسمى « البحث » المبني على هذا الايمان فذلك هو هدم حرية التفكير ، والتحكم الذى هو أقرب الى تحكم الكنيسة في القرون الوسطى » .

فاذا تركنا ما كتبه الاستاذان الدكتور البهي ، وأحمد عبد الرحمن عيسى ، الى ما كتبه غير الازهريين فاننا

---

(١) مجلة الازهر : المجلد العاشر ص ٢٢١ سنة ١٩٣٩ م .

نجد الكاتب الغيور الاستاذ محمد احمد الغمراوى يفرد للرد على كلام الاستاذ توفيق الحكيم مقالا ممتازا بالرسالة (١) تحت عنوان (أما لهذا الليل من آخر) قال فيه : أن الذى يقرأ كلام توفيق الحكيم يظن أن الطلبة قد اكرهوا اكراها على ترك القصة المقررة ، ولكنهم لم يكرهوا فى شىء بل دفعتهم غيرتهم الدينية من تلقاء أنفسهم الى رفض هذا الهجم وأبلغوا شكواهم الى العميد ، فلم يفعل شيئا ، فاهتم بالامر شيخ الازهر ووزير المعارف ، فاذا كانت هذه قيامة ـ كما تصور الحكيم ـ فمن الذى أقامها !؟ أمن طلب تغيير الكتاب أم من فرض على الطلاب شيئا يمس جوهرهم الايمانى فلفظوه ؟؟ وأزيد على كلام الاستاذ الغمراوى فأتساءل هل تضمنت القصة نقاشا علميا وتحليلا فكريا فيما تعرضت فيه لنبى الاسلام ، أو هو حوار على لسان بعض الاشخاص لم يعن فيه بتقرير الحقائق !؟

على أن ما يتباهى به الاستاذ الحكيم من الدعوة الى الحرية الفكرية ليس أبا عذرته ، بل سبقه اليه كل مفكر اسلامى درس أصول هذا الدين الحنيف ، والاستاذ المراغى الذى لم يرض لكاتب موقفه من القصة ، ونسب اليه انتقادا مفترى على بعض ما جاء فى « يوميات نائب فى الارياف » قد خطب أكثر من مرة فى طلاب الازهر ليعلن لهم رأى الاسلام فى تقرير حرية الفكر . وليرد

(١) مجلة الرسالة العدد ٢٩٩ ، ١٩٣٩/٣/٢٧ م .

على من يخافون من تدخل الازهر فى شئون الكتابة كما وهم الاستاذ الحكيم ، فقال رحمة الله من حديث مستفيض (١) .

« ان الناس فى مصر يخشون خطر الازهر على الحياة العامة فهم يقولون أن الازهر اذا قوى واشتدت عزيمته يدخل فى الحياة الاجتماعية فيكدر هذه الحياة ، اذ يحظر حرية الفكر ، ويقف حجر عثرة فى طريق الافكار العلمية الحرة ، هذا ما يقوله الناس ، أما الحياة الفكرية فلا أظن بحال أن الازهر حظر عليها ، لان الازهر يساير أسلافه من العلماء الاجلاء ، ومن الائمة الذين كان عندهم من سعة الصدر ما احتمل هذه المذاهب المتعددة التى تقرؤها فى علم الكلام ، وقد حمى الاسلام أديانا تخالفه؛ وحمى علماء الاسلام مذاهب غير صحيحة واجتهدوا فى ان يردوا عليها بالدليل ، فليس الازهر من المعاهد التى تكره حرية الرأى ولكن الازهر يكره شيئا واحدا هو تعمد الاستهزاء بالدين ، وتعمد الاستهزاء بأئمة المسلمين ، يكره هذا ، ويكره أن يشكك العامة فى دينهم ، وان يشكك النشء فى عقائدهم ، أما الآراء العلمية فى حدود العلم ودائرته فانها تدرس فى المعاهد الكبرى دون ان يخطر للأزهر ببال أن يقاومها » .

فاذا تركنا موقف الاستاذ الحكيم من قصة برنارد شو وثورة الطلبة فى كلية الاداب على بعض ما جاء بها خاصا بنبى الاسلام صلى الله عليه وسلم الى موقفه من رسالة

(١) مجلة الازهر : المجلد العاشر ص ٫ و ٫ من الجزء الرابع سنة ١٩٣٩ .

« القصص ألفنى فى القرآن » فاننا نجد المفكر الكبير يتسرع فى مؤاخـــذة الازهر ومن ساروا سيره فى معارضة الرسالة دون أن يعرف حدود المسألة ، وكان له فى تسرعه الاول ما يدعوه الى التؤدة فى الاعتراض ، فقد ظن المسألة مسألة حرية رأى ، لا مســألة فوضى جامعة ، وكان فى تجربته السابقة عبرة عاصمة ، حتى لا يقع فى خطأ يضطر الاستاذ العقاد الى أن يصححه له ، كما يضطر عميد كلية الآداب أن يوضع للجمهور أن الذين يتدخلون فى شئون الجامعة ليسوا على شيء من الدراية العلمية تؤهلهم لهذا التدخل . وموجز القصة أن أحد الطلاب تقدم لنيل الدكتوراه برسالة تبحث فى « الفن القصصى للقرآن » وقد عرضت الرسالة للفحص فرفضها الاستاذان احمــد امين ، واحمــد الشايب وقال عنهـــا الاستاذ أحمد أمين فى تقــــريره العلمى « وقد وجدتها رسالة ليست عادية ، بل هى رسالة أساسها أن القصص فى القرآن عمل فنى خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار ، من غير التزام لصدق التاريخ ، وأن محمداً فنان بهذا المعنى ، وعلى هــذا كتبت الرسالة من أولها الى آخرها » (١) .

ومن حق الاستاذان الفاحصان أن يرفضا كلاما يريان بطلانه ، ولكن الاستاذ المشرف على الرســالة قد أيد الطالب ، ولم ينتظر الحكيم حتى يقرأ الرسالة ، بل أرسل صيحته المضرية فى احترام حرية الفكر ، وخالف

---

(١) مجلة الرسالة : العدد ٧٤٩ ، ١٩٤٧/١١/١٠ م .

الجامعة فيما أتجهت اليه من رفض الرسـالة !؟ ومن البديهى أن الجامعة لا تستطيع أن تمنح الدكتـوراه لطالب مخطىء ، فلها الحرية كل الحـرية أن تقـول للمخطىء : أخطأت ، ولكن هذا البديهى ينكره الاستاذ توفيق ويسير فى ركب المندفعين باكيا على حرية الرأى حتى يضطر الاستاذ العقاد أن يأتى بعصا موسى فتسكت المعارضين جميعا حين قال (١) :

« حرية الرأى مكفولة لكل انسـان ، ولكن لا حرية بغير تبعة ، فـكل ذى رأى مسئول وحـده عن رأيه ، وعليه وحده أن يحمل جميع تبعاته وليس له أن يلقى التبعات على غيره ، لأن حريته تنتهى عند انتهاء التبعة التى يحملهـا باختياره ، فلا اختيار له فى حريات الآخرين !؟

من حق الباحث أن يبدى ما يشاء فى حدود القانون وليس من حقه أن يحمل غيره «يريد الجامعة» على تزكية رأيه وترويجه أو الاذن بأجازته ونشره ولا سيما اذ يكون ذلك الغير هيئة رسمية مفروضة بقوة الدولة على جميع أبناء الامة كالجامعـات المصرية وما جرى مجراها فالجامعة المصرية جامعة حكومية ، ومعنى انهـا جامعة حكومية : أن الزامها لطلابها هو الزام يقوم به القانون وتحميه الدولة وليس فيها للطالب أو ولى أمره خيار . . . فليس لأحد ان يطلب من هذه الجامعة أن تجيز دروسا تحتاج الى احتمال تبعة ، وليس له أن يلقى عليها تبعاته وينتظر منها أن تقرها وتزكيها ، وهو يزعم

---

(١) المصدر السابق .

أنه حر فيما يصنع وأنها هى المقيدة أمامه فلا حرية لها ، فى رفض هذا الصنيع .

وقد سبقتنا الى النظام الجامعى أمم كثيرة .. فلم نسمع قط أن أحدا تقدم الى جامعة أكسفورد مثلا ببحث فى ميلاد السيد المسيح هل كان مولدا طبيعيا أو كان مولد خارقة واعجاز !؟ ولم نسمع قط أن أحدا تقدم الى جامعة السوربون ببحث فى تدوين الاناجيل ، هل هى من كتابة الرسل أو كتابة آخرين معلومين أو مجهولين !؟

والجامعات الانجليزية تدرس من تواريخ الاديان وتدرس المقابلة بينها ، فلم نسمع قط أنها اجازت لصاحب رأى أن يطلب منها اقرار اقول من الاقوال يخالف ما تلتزمه أمام جميع المتعلمين .

الى أن يقول الكاتب الكبير الاستاذ العقاد : « ليس بعالم ولا مستحق لامانة العلم من لا يقدر ولا يميز بين ما يقرره باسمه ، وما يطلب من المشرفين على التعليم أن يقرروه ، وقلما يعنينى هنا أمر رسالة بعينها وانما يعنينى توضيح الحد الفاصل فى مسألة الحرية . وهو حد منسى على ما نرى فى حسبان بعض المبتدئين ، بل بعض الادباء المعدودين !؟

ولو لم يكن هذا الحد محتاجا الى التذكير فى مرحلتنا هذه من الحياة الفكرية لما رأينا رجلا كصديقنا الاستاذ توفيق الحكيم ينساه وهو ينقد الجامعة المصرية لانها رفضت تبعة تلقى عليها ، وليس من حقها أن تقبلها باسم الدولة ، وليس من مقتضى رفضها أن تحول بين

طالب من الطلاب ، أو مدرس من المدرسين وبين اعلان ما يراه بغير واسطتها اذا شاء » .

***

بلغ العقاد فصل الخطاب فى ايضاح الحق ودحض الباطل وسكت الاستاذ الحكيم فلم يستطع الرد عليه فى شيء ! وقد أثبت كلام العقاد أن الذين ينقـــدون الجامعة ويتباكون على الحرية الفكرية لا يعرفون مهمة الجامعة من ناحية ولا يعرفون حدود الحرية الفكرية من ناحية ثانية ، فأولى بهم السكوت !؟

***

وبعد .. فتظـــاهر الاستاذ توفيق الحكيم بالحرص على الحرية والغيرة عليها وتقرير ذلك عن نفسه فى كثير مما كتب وقال ، لم يكن مما يعنينا أن نكشفه على وجهه الصحيح لو لم يحاول أن يتنقص من أعلام كبار ، هم فى الحقيقة أنصار الحرية الحقيقيون ، فالامام المراغى قد جاهر على رؤس الاشهاد بحياد مصر فى الحرب العالمية الثانية معلنا أن مصر لا ناقة لها ولا جمل فى حرب الانجليز والالمان ، وقد قامت الدنيا وقعدت وأبرق السفير البريطانى وأرعد فى وقت كان هو الحـــاكم الفعلى بمصر ، فلم يتراجع الشيخ الاكرم عن قـوله ، وحينما اتصـــــل به رئيس الوزراء فى منتصف الليل (حسين سرى) مذعورا من تهديد السفير ومحـــذرا الشيخ الاكبر من أن يعـــود لمثـــل ما قال ، ضحك الشيخ متهكما ، وقال له يا حسين نسيت من انت ؟ أنا أستطيع أن أقيلك بخطبة واحدة من فوق منبر الازهر

أو منبر الحسين (١) ، ولكن الاستاذ توفيق الحكيم اعترف بنفسه أنه عاش غائب الوعى عشرين عاما لا يعى فظائع الطغيان والكبت والقهر ، وظل يمدح ويقرظ حتى غاب المعتدى وأمن المؤاخذة فأصدر كتابه « عودة الوعى » لينتقد من دعا الى اقامة تمثال له ظانا أن من جاء بعده سيحذو حذوه حتى اذا انكشف المستور ، صاح صاحبنا : لقد عاد الوعى ، ومضى يجمع من قصاصات الصحف ما يحمل تعريضا أليما بزعيم كبير من زعماء الكرامة الابية ، والرجولة الحقة ، ولم يسأل نفسه أين أنا منه ؟ بل أين العصا من السيف ؟

(١) الشيخ المراغى بأقلام الكتاب ص ١٩٥ المطبعة المنيريه .

عالم أزهري
يدعو إلى السلام العالمي

في أوائل سنة ١٩٤٦ م بعد أن اخترعت القنبلة الذرية ، وكثر الحديث عن مصائبها الهائلة ، ورأى الناس بأعينهم فظائعها الرهيبة في اليابان ، كتب أحد رؤساء الاديان مقالا قويا تحت عنوان : « يجب أن تختار الانسانية بين الخوف من الله ، والخوف من القنبلة الذرية » ، وجعل اهداءه لفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله ، وكان شيخ الازهر حينئذ ، وله من المكانة العلمية والجلال الديني ، والنظر الفلسفي ما يستطيع به أن يفهم مغزى المقال فهما ايجابيا يدفع الى العمل قدر الطاقة لانقاذ البشر من هاوية الفناء المتربص ، وكان الشيخ حكيما رزينا ، فعمل على ترجمة المقال الى العربية ، وأمر بنشره في مجلة الازهر ، بالمجلد السابع عشر في الصفحات ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ثم اجتمع بذوي البيان من أعضاء هيئة كبار العلماء بالازهر ليدعوهم الى التفكير فيما كتبه صاحب المقال ، ولابداء الرأي من وجهة عقلية تقنع كل قارىء مهما كان مذهبه الديني ، ومعتقده السياسي ، وموقفه الجغرافي ، ليستطيع صوت الدين العاقل أن

ينقذ البشرية من أعاصير الرعب وزعازع الفـــزع ، وقد شاء الله أن يلقى الشيخ الاكبر ربه قبل أن يجد من كتابات الكاتبين ما يعلن وجهة نظر الازهر ، فذهب الموضوع بذهابه . ولكن عالما كبيرا من أعضاء جماعة كبار العلماء هو الاستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة ذو الرأى الحر ، والقلم البليغ ، كان قد احتفل بالموضوع وشغل ذهنه المفكر ، فأخذ يدون خواطره فى أوراق متناثرة ، وكان موقفه من الدقة البالغة بحيث آثر التريث المتئد ، آخذا فى حسابه أنه يخاطب الناس جميعـا بمنطق العقل وحده ، فلا مجال الى الاستشهاد بالنصوص الدينية التى يؤمن بها فريق دون فريق ، ولا الى عرض أحداث خاصة لا تمثل القاسم المشترك بين ذوى الافهام من أبناء البشر كافة ، حتى استطاع أن يخرج كتابه الرائع « انقاذ البشر من أن يفنوا بعضهم بعضا بالحرب الذرية » وكان الظن بمفكرى العالم العربى فضلا عن جميع المفكرين قاطبة أن يعطوا للكتاب ما يستحقه من التحليل والنقد ، ولكن العجب العاجب أن يهمل الكتاب فى حياة صاحبه ، وبعد أن لقى ربه سعيدا بما قدم من جهاد فى شتى ميادين الاصلاح العلمى والاجتماعى ، على حين ترى الصحف من يومية وأسبوعية وشهرية حافلة بتحليل كتب معاصرة تنحو منحى الاستاذ ، كتبها نفر من مفكرى أوربا وأمريكا ، فلاقت استهواءا جاذبا لدى قوم منا يتلقفون كل غريب بالاحتفاء والتنويه ويعرضون عما يقوله علماؤهم دون أن يقرءوه ! ولعلى أرضى ضميرى الناقم حين أتحدث عن دعوة شيخنا

الكبير الاستاذ محمد عرفة رحمه الله فى هذه السطور .

بدأ الاستاذ كتابه بالحديث عن الحياد الايجابى ، بين الكتلتين المتصارعتين فذكر أن الناس يلهجون به ، ويؤيدونه فى مقالات عاطفية ، وندوات خطابية دون أن يقيموا له فلسفة نظرية تجمع الادلة المقنعة على ضرورته، على حين نرى لكل من الشيوعية والراسمالية فلسفتها المدعمة بالآراء والارقام والاحداث ، فاذا شئنا أن نؤيد هذا الحياد ، فلابد من ارتكازه على نظر فلسفى يقف به أمام ما ينازعه من المذاهب ، وفى هذا النطاق يؤلف الاستاذ كتابه ، والحق أن ما كتبه المؤلف لا يقف عند النظر الفلسفى وحده ، لان الفلسفة تخاطب العقل ، وتنأى عن مؤثرات العاطفة ، وكل دعوة يتوجه بها صاحبها الى الناس لابد أن تخاطب العقل والعاطفة معا ، فلو قصر المؤلف كثيرا من قرائه الذين لا يصبرون على حديثه على الاقناع الفلسفى وحده لخسر غموض الادلة وتشابكها ، وهكذا وفق الله الكاتب لان يكون مفكرا ذا بيان ناصع ويمتع ويستميل .

حدد الكاتب وجهته الهادفة حين اعلن انه لا يتحاكم مع رؤساء الدول المتنافسة الى الدين ، اذ يرى فيهم من يجحده ويراه الهية ينخدع بها الصغار وقد شبوا عن الطوق فلا ينخدعون . كما انه لا يتحاكم الى الضمير اذ يرى فى هؤلاء من يقولون ان الضمير من وحى البيئة والتربية وانه قد يطمئن الى الشر اذا حسنت لديه بواعثه وغاياته فيظن فيه الخير كل الخير ، كما انه لا يتحاكم الى المثل العليا لانها فى رأى كثرتهم مظنة

التبديل والتغيير ، فما يكون رائعا جليلا فى عهد من هذه المثل يكون سخيفا مبتذلا فى عهد آخر ، واذا كان الكاتب لا يتحاكم الى الدين او الضمير أو المثل العليا فانه يتحاكم الى المنفعة وحدها ! لان الفريقين من المتصارعين يهدفان الى المنفعة العاجلة ، ويخططون لها فى كل خطواتهم ، فاذا كانت المنفعة هذه هى وسيلة الاقناع لدى الكاتب ، فلابد أن يستجيب له من ينشدونها فى كل اتجاه ! وها هو ذا يثبت لهم بالمنطق الصريح أن القنبلة الذرية ستذهب بكل ما يملكون فلا نفع من ورائها حين يتحطم بها الغالب والمغلوب .

وقد أعلن الاستاذ ايمانه بالانسان ، وبما يتجه اليه من جوانب الخير لو استمع الى صوت الطبيعة فى نفسه ، واستلهم الفطرة التى تهديه سواء السبيل ، ولكنه قد حاد عن الحق حين أصاخ الى صيحات باطلة أخذت تزين له الشر عصرا بعد عصر حتى نسى طبيعة الخير ، واصبح يرى ان العدل ما تنتجه القوة ، فاذا استطاع الوحش أن يصرع ضحيته فهو عادل فى قتلها لان القوة قد أمكنته من فريسته الضعيفة ، لقد وجد هذا المنطق الظالم فى كل عصر ، وجد فى عهد الاغريق واعتنقه السوفسطائيون وبذلوا جهودهم فى تأييده بخوادع الادلة ، ومن الحق أن نقول انه وجد المعارض ممثلا فى سقراط وتلاميذه ، ولكنه لم يعدم على كر الايام مؤيديه لان حب الغنائم والافتراس مما يدعو أصحابه الى التمسك بسفسطات تقدم لهم تبريرا سطحنا لما يرتكبون ، وقد جاءت الاديان لتقيم العدالة على قسطاس سوى لا يميل ، ولكن ذوى الشر

قد اصموا آذانهم عن هواتف الخير ، ووجدوا من كبار الكتاب من يؤيد اتجاههم الظالم وكأنه يؤيد حقـــــا لا مرية فيه .

يقول الاستاذ محمد عرفة ص ١٢٩ « لقد اعتقـد الساسة ان ما يأتون من امتلاك الشعوب والسيطرة على اراضيها وثرواتها عدل ليس فيه ظلم ، لان العدل هو منفعة الاقوى . وما يفعله الاقوى فى سبيل وجوده أو فى سبيل وجود أفضل فهو عدل ليس بظلم » .

وبهذا الاعتقاد كان الاستعمار بطولة لدى المستعمرين، فاذا قاومت الدول الضعيفة من تريد استعمارها فقهرتها الامة القوية بالحديد والنار فهذا حق لا عيب فيه ، ومن هنا تسابقت امم أوربا على متلاك أفريقيا وآسيا ، وأدى هذا الوضع الى تناحر بين القـوى والضعيف ثم الى تناحر بين الاقوياء طمعـــا فى الاستلاب حين ترى أمة اوربية ان نصيبها أقل من نصيب جارتها !! لقد أصبح النزاع بين قوى متكافئة تملك جميعها القنبلة الذرية : واصبح خطر الابادة متوقعا بين حين وحين !

فقد يرى المعسكر الشرقي أن بلاده فسيحة الارجاء وان دول المعسكر الغربى ضيقة مكتظة ، فاذا تكافأ التدمير من المعسكرين ، فسيبقى للمعسكر الشرقى ما يعتمـد عليه ! وقد يخطىء احد الفريقين تقدير صاحبه ، ويظن انه سيبدا بالهجوم فيبادر هو الآخر الى ان يتغذى به قبل ان يأكله ، وتنفجـر القنبلة فتقـابل بالمثل ، وقد تسقط القنبلة خطأ حين تحملها طائرة من مكان الى مكان فتحدث خطرا يقابل بالمثل ممن ظن الخطأ متعمدا فيحدث

الفناء ، وقد ترزق احدى الدولتين رئيسا متشائم النظرة سيىء الرأى فى الحياة والاحياء فيبدأ الهجوم الذرى دون نظر الى العواقب ، ويقابل صنيعه بالمثل فترجف الراجفة ، وكل ذلك يدعو الاستاذ عرفة الى أن يقول فى ص ٥٥ :

« ليس الحاجز بين البشر وفنائهم بالقنبلة الذرية حصينا ، بل فيه ثغرات بهذه الاحتمالات المفروضة ، وان واحدة منها لتدك العالم دكا ، وهكذا تقوم الساعة ويفنى البشر » .

ان العلاج الحاسم لا يكون بالوعظ وحده ، ولكنه يتغلغل فى رأى الكاتب الى البحث عما سبب هذه الآراء العدوانية وأصلها فى النفوس هذا التأصيل ، واذا كان المؤلف قد أشاد بسقراط حين واجه السوفسطائيين وانكر مذهبهم فى البطش والاستعلاء ، فقد كان عليه أن يأخذ على أفلاطون وأرسطو انكارهم للمساواة بين البشر ، لان انتشار المذاهب اليونانية فى العالم الاوربى كان مدعاة البطش الظالم ممن يظنون انفسهم أرقى من سواهم ، وقد رات اوربا فريقا من المفكرين ينكرون حق البشرية فى الحرية الشاملة ويدعون الى أن يستعبد القوى الضعيف ، وقد بلغوا فى اقوامهم مكان الرئاسة العلمية والتوجيه الفكرى حتى صاروا اصحاب مذاهب ذائعة فى السياسة والاجتماع ، وانتشرت آراؤهم انتشارا ساعد على الظلم والعدوان ، وقد تعرض المؤلف الى هذه الآراء منددا مفندا فنقل ما كتبه الفيلسوف الاجتماعى (مونتسكيو) فى روح القوانين حين قال :

« اذا كان على أن أدافع عن حقنا المكتسب في اتخاذ الزنوج ذوى البشرة السوداء عبيدا ، فاننى أقول ان شعوب اوربا ، وقد أفنت سكان أمريكا الاصليين لم يكن امامهما الا ان تستعبد شعوب أفريقيا ، لكى تستخدمها فى استصلاح ارجاء أمريكا الشاسعة ، وما شعوب افريقيا الاجماعات سوداء البشرة من اخمص القدم الى قمة الرأس ذوو انوف فطس الى درجة يكاد يكون من المستحيل أن يرثى لها ، وحاشا لله ان يكون قد أودع روحا ـ أو على الاخص ـ روحا طيبة فى جسد حلك السواد » .

وهذا قول يهوى بمكانة صاحبه العلمية ، لو نزعت الغشاوات عن العيون ، كما يدل على تحجر انسانى يجعله صخرة صماء لا تنبض بعاطفة ما ، ومثله لا يجوز أن يكتب عن روح القوانين ، فيتصدر مقعد التحليل والتشريح ، وقد فقد نور البصيرة ، ورقة الاحساس !

واذا كانت ألمانيا قد اعتقدت مذهب القوة ورأت فى نفسها استعلاءا شامخا ، يدفعها الى منافسة استعمارية تجعلها ذات نفوذ سياسى واقتصادى يفوق نفوذ انجلترا المستعمرة الاولى ـ وقت ذاك ـ فى العالم فشنت حربين عالميتين كبيرتين أخذت أولاهما سبعة ملايين من النفوس وجاوزت الاخرى هذا العدد فأضافت مليونين جديدين، اذا كانت ألمانيا كذلك فان اعتناق مذهب القوة الذى بشر به فلاسفتها المتكبرون قد كان سبب كارثتيها المتتابعتين فى مدى يقل عن نصف قرن ، فلولا دعاة القوة الفاشمة ما ظهرت النازية فى ألمانيا ، وما انتقلت عدواها الى ايطاليا لتظهر الفاشية مواخية لها فى طريق

التدمير والهـلاك ، لذلك تحدث المؤلف عن « نيتشة » فيلسوف النازية ، وعن دعوته الباطشة الى استئصال كل ضعيف بحيث لا يبقى الا القوى ! ونقل عنه هـذه الاقوال الآثمة :

« ان الضعفاء والعجزة يجب أن يفنوا ، فهذا اول مبدا من مباىدء حبنا للانسانية ، ويجب أن نعلم ان من أشد الرذائل حبنا للضعفاء والعاجزين اذ الخير فيما يعلى شعور القـوة وارادة القوة ، والشر كل الشر فيمـا يصدر عن الضعف » .

وقد كانت المانيا اول من اوذى بهذه الآراء ، ولكنها دفعت الثمن غاليا حتى انكشفت عنها غشـاوة الدجل الفوضوى الآثم ، ولو رزقت قادة حصفاء لتجنبوا مآرقها الدامية ، وأدركوا أفن هذه الداعية الاهوج ! وقد كانت حياته الخاصة التى انتهت بالجنون مايدفع الى مراجعة أقواله : ولكنها صادفت هوى لدى من يريد استعباد الامم فاستعبده هواه ، وخسر نفسه ودولته ، ولحقته لعنات اللاحقين .

ولم يبعد نيتشة عن « لينين » فى شىء فكلاهما يدعو الى استئصال العامة لينعم نفر محدود بالمال والجاه ، وقد ذكر الاستاذ محمد عرفة رسـالة كتبها الزعيم الشـيوعى لينين الى مكسيم جوركى الاديب الروسى يقول فيها : « ان هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشىء ! وانما الشىء الهام أن يصبح الباقى شيوعيين » !

واذا كان المؤلف قد تحدث عن المعسـكر الشيوعى المتربص بالعالم أجمعه ، يثير دفائنه ويبعث أحقاده ،

ويجعل بأسه مسلطا على نفسه ! فان الكاتب قد أخطأ تقدير الشيوعية حين قال عنها : ص ٥٣ .

« ان العقيدة الشيوعية أصبحت عند معتنقيها دينا ، ففيها ما فى العقيدة الدينية من حماس واندفاع وفداء ، وقد يخطىء فهم ذلك المعسكر الغربى ، ويقيسه على نفسه فاذا هو يرى خصمه يقتحم المخاطر ، ولا يحسب حساب الربح والخسران وانما يحسب حساب الفداء والتضحية أو تقدم العقيدة » .

نقول ان الكاتب رحمه الله قد أخطأ تقدير الشيوعية حين قال انها تنزل منزلة العقيدة الدينية فى حماس معتنقيها ! لقد كان ذلك متوهما متخيلا لدى من يصدقون الشعارات ، ولكن التجربة الواقعية بعد الحرب العالمية الثانية أوضحت أن الشيوعية استعمار جديد ، يؤلب الطبقات ليحتل أماكن النفوذ ، وليستنزف الثروات ، ولا يقدم للأمم المستنجدة به غذاء أو كساء أو تمدنا بل يقدم السلاح المدمر بيد ، ليعتصر ثمنه بيد أخرى من دماء الضعفاء ! ولو كانت الشيوعية عقيدة ذات حماس عاطفى لوقف الشيوعيون جميعا فى جبهة واحدة ، ولكن استبداد موسكو الدكتاتورى واغتصابها المادى قد كشفها أمام أصدقائها ، فحاربها تيتو فى يوغوسلافيا ، وانتفضت عليها الصين بحيث أصبحت تراها العدو الاول ، وهاجمتها الاحزاب اليسارية فى أوربا !! وبذلك ظهرت موسكو فى ثوبها المستعمر بحيث لا تدعو الى مذهب اقتصادى الا لتخدع به الفريسة حتى تقع وتصبح سهلة الازدراد ! ولعل المؤلف لم يكن يتصور

هذه الفجـــائع حين كتب مؤلفه ، اذ انتهى منه قبل ان تتناكر الوجوه ويفتضح الخداع .

على أن الاستاذ محمد عرفة كان صادق النظـرة ، صائب الفكرة حين تحدث عن خداع الشيوعية ، وفساد أسلحتها أمام التطور الاقتصادى فى المعسكر الغربى ، فقال فى وعى أمين : ص ٨٤ .

« أن كارل ماركس لم يكن من غرضه أن يديل الشرق من الغرب ، وانما أن يديل الضعفاء من الاقوياء ، والعمال من أرباب الاموال فآخى لهم آخية لا يقطعها المهر الارز ، والتقطتها روسيا ، ونجحت بعض النجاح ... ولكن الغرب بحنكته وبصره بالامور ، ومسايرته للزمن ، سبق فأعطى العمال ما يبتغون ، وأصبح العمال يوازنون بين العامل فى الغرب ، والعــــامل فى روسيا فيجدونه فى الغرب أنعم بالا ، وأرغد عيشا ، لان العامل فى روسيا كان عليه أن يعمل ليلحق بالغرب فى تقدمه وثروته فبدا مرهقا ، وأقل نصيبا فى الحياة) ومعنى هـــذا ان بريق المساواة الاقتصادية لم يعد جاذبا لقوم يجدون انفسهم من ذوى الرفاهيـــة على حين يرون أصـــحاب المذهب الشيوعى مقيدين فى آرائهم ، منخفضين عنهم فىمستواهم المعيشى !! فكيف ـ بالله ـ يفرون من السعة الى الضيق، ولهم عيون تنظر ، وعقول تفكر وتحكم !

وما كتبه المؤلف الكبير تحت عنوان « على من تقع التبعة » تبعة الواقعة اذا وقعت ! والدمار اذا تبع انطلاق القنبلة الذرية الحاصدة للأرواح والمتاجر والمزارع وكل متطلبات الحياة اقول ان ما كتبه المؤلف فى هذا الفصل دقيق عميق حيث يلقى بالتبعية على العلمـــاء العبـــــاقرة الذين اكتشفوا سر القنبلة لتضر الناس

لا لتنفعهم ، وكان عليهم أن يمضوا بجهودهم العلمية الى حيث يفيـــدون ويخصبون ويبرئون ، ثم على رجال السياسة ليجلبوا لهم صيتا مدويا فى العالم دون نظر الى خراب الامم وفناء الشعوب ، ثم على رجال الحروب الذين أصبحوا آلات متحـــركة فى أيدى الساسة والمتصدرين للزعامات عن انتفـــاخ متورم يحتاج الى استئصال ، ثم على الامم الخاضعة للســادة المتصدرين بحيث أصبحوا لا يملكون الاعتراض بل يســاقون كمــا تساق النعاج ! على هؤلاء الاربعة من الطوائف تقع تبعات الحرب الذرية ، وقد أفاض الكاتب الـكبير فى تحديد تبعات هؤلاء بما لا يقبل الجدل من منصف يرى الحق فيذعن اليه فى استسلام منطقى ، اذ ليس بعد الحق غير الضلال .

ومن الابواب الجيدة التى تحدث عنها الاستاذ محمد عرفة ما كتبه عن القومية وخطرها ، فقـد كان المؤلف انسانا كل الانســان فى نظرته الرحيمـــة ، وأحكامه العادلة ، اذ أن اعتناق القومية قد جعل الدولة انانية شرهة ترى النفع لها دون غيرها ، بل تجد من اسباب التفوق أن تقهر غيرها لتستولى على ثرواتها ،وتستعبد افرادها ، واذا كان البشر قد تطوروا فى النـــاحية الاجتماعية من الاسرة الى القبيلة الى القرية الى المدينة الى الامة وهى التى تتمثل فيها القومية فان من الواجب ان تتطور القومية الى انسانية عادلة رحيمة ترى الكذب والغدر والخيانة نقيصه عامة تشين العـدو والصديق والقريب والبعيـــد ، لا أن يصبح الغــــدر مشروعا مع دولة دون دولة كما نرى فى عالم السياسة اليوم !!

اذ يجب أن يبقى ولاء الانسان لأخيه الانسان مهما كان من غير أبناء جنسه ولونه ولغته ودينه فانه مع ذلك كله أخوه ، وكلكم لآدم وآدم من تراب .

وقد كان المؤلف متواضعا كل التواضع حين قال فى خاتمة كتابه : ص ١٢٦ .

« ان بعض من يقرءون كتابى هذا سيشعرون بخيبة أمل بعد قراءته ، لانهم كانوا يقدرون شيئا يشبه المعجزة أو السحر ينقذ العالم قسرا من الحرب الذرية ولكنهم رأوا مقدمات ونتائج وعللا وأسبابا واشارة الى العلة وموضعها والى الدواء الذى يزيلها وهذا شىء موكول الى رؤساء الدول » .

ونحن نقول للرجل الفاضل ، ان عليك الا البلاغ ، ولست صاحب أداة تنفيذية حتى تجبر الناس على اتباع ما تذهب اليه ، وحسبك أن رأيت الداء فدللت عليه وحللت بواعثه ، وحددت دواءه ، وما عليك ان تلزم المريض بالدواء ! فلن يكلف الله انسانا بما لا يطيق ! وأرجو أن ألتقى مع الباحث الجليل فى مقال تال يكشف عن بعض جهاده العلمى الدءوب .

حـــق مشـــروع

في بعض الاحيان تشعر أن عراكا قد نشب في غير معترك ، وأن ضجة قد افتعلت دون سبب معقـول ، فتعجب كثيرا لأناس يتناضلون في غير ميدان ، ويزداد عجبك حين ترى من هؤلاء المتناضلين من له اسمه الرنان، ودويه الكبير ، وكان الاولى بمن يحتل هـذه المكانة المرموقة أن ينأى بنفسه عن أن يتكلم في غير موضوع .

لقد كتب مدرس للتاريخ بالازهر مقـالا في جريدة يومية عن صوم رمضان خالف فيه الحقائق الفقهية المتفق عليها ، ووقع المقال باسمه وبأنه مدرس في احدى الكليات الازهرية ، وقرأ الناس المقال في أنحاء بعيدة وقريبة من العالم الاسلامى ، فاتصلوا بمشيخة الازهر متسائلين عن حقيقة هذا الرأى الذى يشجع على ترك فريضة من فرائض الاسلام التى لا سبيل الى انكارها ، فليت شعرى ماذا يكون موقف الازهر ؟

لقد بادر علماؤه بكتابة ردود شافية على المقال ، ولكن الجريدة التى نشرت المقـــال ، أخذت تجمع الردود لتقتطف منها بعضا وتترك بعضا ، كمـــا أخذت تنشر مقالات مفرضة لاناس يدافعون عن الكاتب ويبكون على

حرية الفكر ، لتصور هذا المخطىء فى صور الفقيه العالم المجدد ! حتى التبس الحق بالباطل امام الناس ! فليت شعرى مرة ثانية ماذا يكون موقف الازهر ؟

لقد شادت مشيخة الازهر أن تدعو الكاتب ليناقشه علماؤها مناقشة فقهية ، وليظهروا له فداحة خطئه ليرجع عنه صريحا فيريح ويستريح ، ولكن الكاتب ابى أن يحضر ، وقال أقوالا تسىء الى أساتذته الذين تصدروا لنقاشه وشجعته الصحف المغرضة على التمادى فأخذت تنعى على حرية الفكر ، وتصم من يريدون أن يحقوا الحق ويبطلوا الباطل بالرجعية والجمود ، فليت شعرى مرة ثالثة ماذا يكون موقف الازهر ؟

واغرب ما يدهشك أن الذين يبكون على حرية الفكر يعرفون ان الكاتب مدرس تاريخ لم يدرس من مسائل الفقه الاسلامى غير ما درسه طالب القسم الثانوى بالازهر فقط ، فهو اذن غير عالم من علماء الفقه الاسلامى ! ولا يجوز له أن يتصدر الافتاء فى أمر لا يعلم عنه غير ما يعلم العامة فحسب ! ونحن ننكر على غير المتخصص فى الطب أن يقوم بعملية جراحية ، وننكر على غير المهندس أن يقوم بتصميم معمارى لعمارة أو جسر على النيل ، وننكر على غير الصيدلى أن يهيىء دواء من عقاقير يجدها بين يديه ، لا نجد أحدا من العقلاء يرضى لغير الطبيب والمهندس والصيدلى أن يزاول ما لا يعرف من الامور ، ولكننا نجد نفرا من هؤلاء العقلاء يشجعون غير المتخصص فى الفقه الاسلامى أن يهرف بما لا يعرف ، ويتجمعون لتأييده ، وكأنهم يؤيدون الحق الذى لا شبهة فيه ، وهم حين يتنادون بالحرية يجهلون

مدلولها ، ولا يعرفون أنهم يخاصمونها حين يدعون الى الفوضى العارمة اذ يمارس كل انسان ما لا يحسن ، ومن هؤلاء من لا يجهل حدود الحرية وضوابطها ، ولكنه يشجع المخطىء على خطئه لحاجة فى نفسه ، فاذا قيل له قف عند حدك انحنى على علماء الازهر باللوم والتثريب ؟

لقد كان من كبار المدافعين عن خطأ الكاتب الدكتور طه حسين ! ومثله فى ذكائه الالمعى لا يجهل أن الكاتب يتحدث فى غير ما يعلم ، وأن للحرية حدودا تنتهى اليه، ولكنه كتب بجريدة الجمهورية مقالا كبيرا أعلن فيه أن صاحب الفتوى اذا كان مخطئا فلا مؤاخذة على الخطأ فوق أنه مجتهد والمجتهد المخطىء له اجر واحد ، والمصيب له اجران ، واستشهد بقوله تعالى « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم »، كما استند الى مبدأ التيسير ورفع الحرج ، وكأنه فقيه لا اديب واطرد به القول فذكر ان مؤاخذة المخطئين فى آرائهم مبدأ لم يكن يعرفه المسلمون من قبل ولم يكونوا يأخذون به ، وأن على العلماء فى الازهر ان يأخذوا صاحبهم بالرفق واللين معرضا بهم فى أمورهم أبعد الناس عنها ثم استعدى الحكومة كى تقف محاكمة الكاتب حذرا من الفتنة !

وقد رد على الدكتور نفر من شباب العلماء ، ففندوا ما قال تفنيدا صريحا ذا حسم ، ومن هؤلاء فضيلة الاستاذ الدكتور محمد سعاد جلال الذى نرجع الى مناقشة الصائبة حين قال (١) عن العنصر الاول من

(١) مجلة الازهر ـ المجلد ٢٦ ص ١،١٢٦ .

عناصر الدفاع التى تقدم بها الدكتور طه حسين ! ان الزعم بأن الخطأ على الاطلاق ليس فيه مؤاخذة غير صحيح واقعا وقانونا ، فان الناس فى الخطأ رجلان ، رجل يزاول عمــــلا مشروعا له كالفقيه المتخصص ، والطبيب المؤهل ، يفلت الصواب عن أحدهما فى بعض أمره ، ويقوم الدليل المعتبر على نفى الاهمال والتقصير، وسوء النية عن كليهما ، فترتفع المؤاخذة عنهما قانونا وشريعة ، ولو تكلف أحد غير مختص فأبدى رأيا أدى الى سوء العــــاقبة لاستوجب المؤاخذة حين ادعى ما لا يعرف فسبب الضرر ، ليس الخطأ على الاطلاق معفوا من جملة المؤاخذة ، ولكنه خطأ المتخصص حين يجتهد فيزل عن غير عمد .

أما قول الدكتور أن المسلمين لم يسبق لهم مؤاخــذة المجتهدين من المخطئين ، فقول مردود صاحب الفتــوى الذى تحدث عن الصوم دون علم ليس مجتهدا ، وليست لديه وسائل الاجتهاد ، وقد حدد علماء الاصــول فى كتبهم المتداولة ، ومعروف ان الاجتهاد انما يكون من أصحابه الاصــلاء فيمــا لا يصطدم مع نص قاطع ، أو اجماع ثانيا ! وفتوى صاحبنا تصطدم بالنص ، وتعارض الاجماع فهى ابتداع لا اجتهــاد ، وقد عزر عمر بن الخطاب من يبتدع فى أمور لا يعلمها ! فالمؤاخذة حينئذ مشروعة ولها سوابق مدروسة !

واذا كان الدكتور قد نصح لشيخ الازهر أن يرفق بصاحب الفتوى قبل الشروع فى محاكمته ، فان الشيخ الاكبر قد فعل ذلك قبل أن يطلب محاكمته ، اذ دعا الكاتب الى النقاش فى لجنة علمية دون محاكمة لنبين له خطؤه

الذى لم يقف عند نفسه بأن تعداه الى الأزهر جميعا اذ وقع المقال بما يثبت انتماءه الى احدى كلياته ! ولكن الكاتب قد اشتط ورمى اساتذته بأنهم كرجال الكهنوت وانه لا يعترف بهم ! فماذا يريد الدكتور من الازهر بعد ذلك ! أبريد أن بكست عن اهدار فريضة نسب اليه التهاون بها ، وتساءل الناس عن صحة هذه النسبة الى الى الازهر وأرسلوا برقيات الاحتجاج !

هذا بعض ما ساقه الاستاذ محمد سعاد جلال ، واتفق فيه مع غيره فى مقالات ذاعت ورنت ، لان الموضوع قد شغل الناس وقتا طويلا ، اما لجنة المحاكمة الازهرية فقد الفت لتحق الحق ، وكانت المناقشة بمحضر رجال القضاء من وزارة العدل لتأخذ صيغتها العادلة وكان مع الكاتب محامود الدين يدافعون عنه فى مجلس النقاش وسنلم بخلاصة ما دار فى المحاكمة ليرى القارىء أكان الازهر مشتطا يحارب الحرية ، أم منصفا يدعو الى الحق بعد أن تعذر عليه أن يأتى الكاتب للنقاش معه دون محاكمة حين استمع لمن اغووه وصدوه ، ولا أصدق من محضر المحاكمة الذى وقع عليه المجتمعون من ازهريين وحكوميين ، اذ هو الصورة المطابقة ، وعنه ننقل ما كان (١) .

ان المدعى عليه لم يجادل فى أن هذا المقال قد صدر منه ويتضمن ما يلى :

١ ــ قوله : ومن هنا رخص الله فى الافطار لمن يؤذيهم الصوم ولو قليلا من الأذى .

(١) مجلة الازهر ــ المجلد ٢٧ ص ٦١ .

٢ ـ قوله : فمن يشق عليه الصوم أو يضايقه فان له أن يفطر ويطعم كل يوم مسكينا ، فان لم يجد فلا جناح عليه أن يفطر ولا يطعم .

٣ ـ يدعو الكاتب المفطرين لعذر الى المجاهرة بالافطار .

٤ ـ يضلل العامة بذكر احاديث توهم القراء انها ادلة شرعية على ما ادعاه من اباحة الفطر لادنى اذى مع أن هذه الاحاديث واردة فى السفر والجهاد فى سبيل الله .

٥ ـ أفتى المفطرين بعذر بأن عليهم الفدية ، وسكت عما يجب عليهم من القضاء ، ليوهم الناس أن القضاء غير واجب .

٦ ـ استعمل آية شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن فى غير موضعها تضليلا للناس .

٧ ـ قال ان شريعة الصوم لم تفرض الا على من شغف به ، وقدر عليه ، ممن يؤدونه دون برم أو ضجر .

وهكذا كله مخالف لما دل عليه الكتاب والسنة ، ولاجماع المسلمين من لدن الصحابة الى اليوم ، ومن قال به غير قائم بأمانة العلم الذى درسه ، ولا بمؤتمن على القوامة على أبناء المسلمين ، ليبصرهم فى أمر دينهم ، ويتضح ذلك من نقض ما قال بالدليل :

١ ـ قوله : ان الله رخص فى الافطار لمن يؤذيهم الصوم ولو قليلا من الاذى ، يؤدى الى هدم ركن الصيام ، والغاء فريضته ، لان الصوم لا ينفك عن

المشقة ، فهو تكليف ذو الزام وحقيقة الصوم هى حبس النفس عن مألوفها ، وذلك مما يشق عليها ، واذا كان الله قد رخص فى الافطار لمن يؤذيهم الصوم ولو قليلا ، كان كل صائم قد رخص الله له فى أن يفطر ، ومعنى ذلك أن الصوم ليس فرضـا على كل مكلف بل هو امر جوازى لا وجوبى ، وقد فهمت ذلك من المقال صحيفة انجليزية تصدر بالهند ونشرت مقالا تحت عنوان « صيام رمضان غير واجب كما يرى أستاذ مصرى » .

٢ ـ قوله : « من يشق عليه الصوم أو يضايقه فان له أن يفطر ويطعم كل يوم مسكينا فان لم يجد فلا يحتاج عليه أن يفطر » يتضمن امرين ، الامر الاول : ما افاده الاتهام السابق من أن كل من شق عليه الصوم او ضايقه فليس عليه أن يصوم ، والثانى : انه جعل الواجب على من افطر لما اعتبره عذرا أن يطعم عن كل يوم مسكينا ، وسكت عن وجوب القضاء ، والسكوت فى معرض البيان يفيد الحصر ، وهذا مخالف لما أجمع عليه الفقهاء من وجوب القضاء على كل من افطر لعذر يرجى زواله ، ومناف لصريح قول الله « ومن كان منكم مريضا او على سفر فعدة من أيام اخر » وكيف يعقل أن يوجب الله القضاء على المريض والمسافر مع وضوح عذرهمـا ، ولا يوجبه على من افطر لعذر دون عذرهما من كل وجه ، وهو على التحقيق ليس بعذر أصلا ، وسكوته عن القول بالقضاء قد يكون جهلا للأمر الذائع ، والجاهل لا يصح له أن يفتى ، وقد يكون تلبيسا على الناس ، وهذا افحش واسوء .

٣ ـ دعوته المفطرين بعذر الى المجاهرة بالافطار ، واعتبارها شجاعة ايمان ، وقــوة دين ، هذه الدعــوة مخالفة لما اجمع عليه سلف الامة من ضرورة التستر عن الناس على من يفطر بعذر صحيح حرصا على حرمة الشهر ، واحتراما للتقاليد الدينية ، وبعدا عن مظــان التهم ، فليس اذن مايدعو اليه من المجاهرة سنة حسنة، ولكن بدعة وضلالة .

٤ ـ ضلل الكاتب العامة بأحاديث ساقها فى غير مساقها ليوهم أنها أدلة شرعية على ما ادعاه من اباحة الفطر الأدنى اداة اذى من غير امانة فى النقل ، ولا تحر فى الحقائق مع تحريف فى الادلة بالزيادة والحذف عن عمد مقصود ، لان الاحاديث التى ذكرها جميعها قد وردت فى اباحة الفطر للمسافر ، وعنون لها جامعو الاحاديث بعنوان يدل على ذلك ، وتطبيق هذا على الذين يؤذيهم الصوم ولو أقل أذى تلبيس على القراء .

هذا ـ الكاتب مثلا ـ ذكر حديث أنس رضى الله عنه هكذا « وعن أنس رضى الله عنه قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فمنا الصائم ومنا المفطر ، فلا الصــائم يعيب المفطر ، ولا المفطر يعيب الصائم ، ومن قرأ هذا الحديث بهذا السياق يفهم منه أن المقيم فى بلده لو افطر ولو من غير عذر لم يكن فى فعله ما يعاب به مع ان الحديث فى صحيح البخارى هكذا « عن أنس رضى الله عنه ، كنا نسافر مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم » والحديث فى صحيح مسلم هكذا « سئل انس عن صوم رمضان فى السفر فقال : سافرنا مع رسول الله فى

رمضان فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم » والحديث فى تيسير الوصول بهذا النص « عن انس رضى الله عنه ، كنا نسافر مع النبى صلى الله عليه وسلم فمنا الصائم ، ومنا المفطر ، فلا الصائم يعيب على المفطر ، ولا المفطر يعيب على الصائم » فحذف كلمة « نسافر » وهى موضع الاستنباط من الحديث دليل على قصد الاتهام والتدليس .

واستشهد التقرير بنص آخر من الحديث النبوى تصرف فيه الكاتب بما يوجب الابهام وذلك غير سبيل الباحثين ، ولا نطيل بذكره .

٥ ـ افتى المفطرين بعذر بأن الذى عليهم هو الفدية ، وسكت عن وجوب القضاء وذلك منابذ لصريح النص القرآنى .

٦ ـ استشهد الكاتب بالآية الكريمة « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » استشهادا يدل على انه لا يعرف مدلولات الالفاظ ، ولا طرق استنباط الاحكام ، اذ ليس بها بيان لحكمة مشروعية الصوم من قريب أو بعيد ، وهو يسوقها لذلك ، وانما هى تتضمن أمورا هى الاخبار بأن القرآن نزل فى شهر رمضان ، وايجاب الصوم على من شهده ، واباحة الفطر لمن كان مريضا أو على سفر مع ايجاب القضاء عليه ، وحكمة جواز الافطار للمريض والمسافر ، فكيف يفهم من النص الواضح غير ما ينطق به في جلاء .

٧ ــ قال الكاتب ان الصوم لم يفرض الا على الشفوف(١) به القادر عليه ، الذى يؤديه بدون برم أو ضجر ! ومعنى ذلك ان من لم يستوف هذه الشروط الثلاثة فلا يجب عليه الصوم ، واجماع المسلمين منعقد على أن الصوم واجب على المسلم المستطيع ، برم به أو لم يبرم ، ضجر او لم يضجر ، شغف أم لم يشغف لصريح قوله عز وجل « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ثم ان هذا القول مناقض لقوله فى أول كلامه ان الغرض من الصوم هو تعويد النفس الصبر على المكاره ، وقوة الاحتمال فى النوازل ، فأين اذن الصبر وقوة الاحتمال بعد أن أباح الكاتب الافطار لمن يحس القليل من الاذى ؟

أما التمسك بقاعدة التيسير ورفع الحرج مما اشار اليه الكاتب ، والمع اليه الدكتور طه حسين أيضا ــ فقد بين الفقهاء مواضع التيسير ورفع الحرج بما لا يتطرق اليه الاحتمال ، وقد وضح التقرير معنى الحرج والتيسير بما يشفى الفليل ، وبما نطيل كثيرا او استوعبناه هنا ، وقد شغل صفحات هامة من مجلة الازهر هى (٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠) من المجلد السابع والعشرين ، فمن اراد الاستقصاء المتتبع المستوعب فقد عرف المصدر الذى أنقل عنه ليجد ما يشبع من الدليل .

ثم ذكر التقرير فى خاتمته أن الكاتب لو سلك مسلك الباحثين فى الاجتهاد او ترك قولا واخذ يقول ولو كان مرجوها لاعتبر ذا رأى علمى ، ولكنه سار على غير هدى ، وخالف النصوص الصريحة والاقوال المجمع عليها دون

(١) هذا ماجاء بالتقرير ، والافصح المشغوف .

استناد ما ، وحرية الرأى التى يدعيها ويتشدق بها من ايدوه توجب عليها أن ينزل عند رأى الجهة الادارية التى يتبعها فيحضر أمام لجنة التحقيق التى شكلت لمناقشته كى يقرع الحجة بالحجة ويناهض الدليل بالدليل باسطا وجهة نظره فى جلاء ، ولكنه أبى ذلك ، وأصر على موقفه فى الامتناع .

ثم قرر مجلس المحاكمة حضوريا بعد ما تقدم بأن يبتعد بالكاتب عن وظيفة التدريس الى وظيفة اخرى كيلا ينقل عدواه الى الطلاب !

فاذا أراد القارىء رأيا صريحا فى محاكمة الكاتب ، وقرار المجلس ، فاننا ننقل له رأى محاميه الذى تولى الدفاع عنه أمام المجلس ليعلم الناس جميعا كيف دار النقاش فى حرية وأمانة ونزاهة ، وكيف اعترف بذلك محامى الكاتب وهو الاستاذ على أيوب وزير المعارف الاسبق اذ كتب عقب المحاكمة مقالا بجريدة الاخبار ، قال فيه (١) :

« لم أجد أنا وزملائى المحامون من الشيوخ الاجلاء وأعضاء مجلس التأديب تجهما أو انقباضا وكانت ابتسامات التشجيع وايماءات الرضا تطالعنا منهم دائما، وكان حسن الاستماع مع الحلم والاناة يهون على الدفاع من دقة الموقف وثقل العبء !

وقد اشترك فى ادارة المناقشة الاستاذ زكى شرف وكيل وزارة العدل ، وأحد أعضاء المجلس ، فأعاد لنا

---

(١) أعادت مجلة الازهر نشر المقال بالمجلد ٢٧ ص ٧٢ تحت عنوان (شهادة) .

ذكرى مجالسه بالقضاء حيث يتجلى ما يزدان به هـذا القاضى من نفاذ البصيرة ، وأصـالة الرأى ، وصفاء الذهن ، واشترك الاعضاء الآخرون فى المناقشة ، فلم نجد فى أحد منهم تعنتا أو صلفا أو خشونة ، وتبدت منهم رغبة صادقة فى اقامة العدل واحقاق الحق .

وقد أسفت للسرية التى فرضها النظـام على مثـل هذه المحاكمات ، فليت الكاتب حوكم علنا ، وعلى مشهد من الناس ، اذن لتبين للجمهور أن أعضاء المجلس لم يكونوا قضاة تفتيش ، ولم يكونوا ممن يكرهون حرية الرأى أو يضيقون بها ، أو ممن يزعجهم الرأى الطليق من كل قيد كمـا أن المجلس لم ينعقـد ليصدر قرارا مبيتا ، أو حكما مفروضا صدرت به الاوامر من قبل ، وقد يكون مجلس التأديب أخطأ أو أصاب ، فهذا أمر لم يقل فيه القضاء الادارى كلمته بعد وحسب السـادة أعضـاء المجلس أنهم استهدفوا الحق ، ولا شىء غير الحق ، وبذلوا فى سبيله غاية الجهـد ، فلهم أجرهم عند الله وهو نعم الاجر .

هذا بعض ما قاله الاستاذ على أيوب ، وهو محامى الكاتب الذى تقدم بدفوع شكلية وفرعية رفضها مجلس التأديب بالدليل الملزم ! أتكون شهادته تلك كافية لاسكات من يدعون أن حرية الفكر قد وئدت فى الازهر بحيث لا يجد أزهرى منفذا لقول جرىء !! ولا أدرى لم تكون الجرأة عندهم محمودة اذا صادمت الحق الصريح !

الخاتمة

بين السياسة وحرية الفكر

ينطق الأزهر باسم الاسلام فيما يقوم به علماؤه المخلصون من أعمال هادفة ، حين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فى ثقة وايمان ، وفى الصفحات الماضية الماع الى بعض ما تحملوه من أعباء حين واجهوا الطغيان السياسى ، والارهاب الفكرى فصدعوا لكلمة الحق دون مواربة أو استخذاء .

والنضال عن حرية الوطن لا يختلف عن النضال عن حرية الفكر ، لان الاحتلال السياسى لا يجد متنفسه الفسيح الا حين تلجم الافواه ، وتكمم الاقلام ، وحينئذ يسود الصمت القاتل لتمثل خلفه مشاهد الاستبداد ، وليصبح الطغاة آمنين على انفسهم ، يمارسون عدوانهم المنكر ، دون أن تزعجهم صيحات الاعتراض ، ودون أن يجدوا من يهتف بدعوة الاسلام الى محاربة الفساد سياسيا وفكريا ، وما كان للأزهر أن يستكين ، وقد ناداه القرآن بقول الله عز وجل « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

ان نور الحرية السياسية ونور الحرية الفكرية ينبعان من مشكاة واحدة ، فلن ترى مناضلا سياسيا صادق الوطنية الا وهو نصير للحرية الفكرية ، ولن تجد مدافعا عن الرأى الحر الا وهو عدو للاستبداد السياسى، والطغيان الاستعمارى ، وقد يكون المناضل عن الناحيتين زعيم واحد يؤدى قسطه السياسى فى مواجهة المستبد وقسطه الفكرى فى نصرة الحقيقة ! وهكذا كان الصفوة من علماء الازهر يحاربون الفساد فى شعبتيه دون أن يحسوا افتراقا فى المنهج ، أو تشعبا فى الطريق ، وقارىء الصفحات السابقة يلمس هذا التواؤم المتسق فى وضوح سافر ، دون أن يحتاج الى من يضع له الخطوط العريضة تحت السطور ، ليجذب انتباهه الى معنى قوى يخاف أن يخفى عليه فى سرعة القراءة ، لان الامر من النصوع بحيث لا يخفى على متأمل دقيق .

وهذا الكتاب فى نصفه الاول يصور وقفات ساطعة لأعلام الازهر فى مجابهة الطغيان السياسى ولعل مما يزيد من تقديرها الامين ، أنها قرعت الاسماع ، فى أحلك عصور الاستبداد والسياسى ، كالعصر العثمانى ، حين فقدت البلاد استقلالها وحريتها ، وحرص الولاة من الاتراك على أن يخمدوا كل صوت ينادى بعزة مصر ! بل حرص هؤلاء على أن يئدوا التعليم وأدا لا رحمة فيه ، ولكن علماء الازهر وحدهم ظلوا من الناحية التعليمية ، يواصلون جهدهم الدراسى عن طواعية ، دون أجر مادى تنفقه الدولة على المعهد العلمى الوحيد ، بل كان العلماء يتعلمون طلابا ، ثم يتصدرون للتدريس شيوخا ، دون أن يمنحوا من الدولة مليما واحدا ، كان العلم فريضة

محتومة يقوم بها علماء الازهر ابتغاء وجه الله ، ثقة منهم ان الازهر وحده مصدر الاشعاع للعالم الاسلامي في هذا العهد المضطرب ، وأن عليـــه أن يعلم من يفد اليه من شتى البلاد الاسلامية ، ليجعل من الوافدين رسل علم يتفقهون في الدين ، وينذرون قومهم اذا رجعوا اليهم ، هذا من الناحية التعليمية أما من الناحية السياسية فقــد كان علماء الازهر ألسنة الشعب المصرى حين تهب العواصف، وتمتد أطماع الولاة والممـــاليك الى المتاجر والمســاكن والحقول ناهبة مغتصبة ، هنا يتجمع الشعب في الازهر ليبلغ شيوخه ما نزل عليه من بلاء ، وهنـــــا يتحمس الشيوخ لمحـاربة الطغيـان فيقودون الجموع الى مقر الحاكم ، طالبين أن يعود الحق الى نصابه ، وأن يقصر المعتــدى عن عدوانه ، وفي مواقف سليمان المنصورى احمد الدردير ، وعبد الله الشرقاوى ونفر ممن ألمعنا الى جهـادهم الباسل ، ما يدل على زعامة أصيلة لرءوس الازهر في مواجهة الباطل ، وتتكرر هذه المواقف بتكرار الأحداث ، فنرى في عهود الحملة الفرنسية وعصر محمد على وعهد اسماعيل وزمان الثورتين العـرابية والمصرية ما قام به الازهر من توجيه سياسى ، لم يقصر على القول، بل امتد الى الفعل ، فناضل الشيوخ ، وتعرضوا للقتل وللسجن وللنفى وللعزل ، ولكن ذلك كله كان مصدر فخر واعتزاز لمن جاهر بالحق وواجه العــــاصفة ، فأراح ضميره ، وأرضى ربه ، وضرب المثل للنـــــاشئة ، كى يسيروا على الدرب في قوة ، واثقين بسلامة اتجاه ، وعظمة المآل .

فاذا تركنا النضال السياسى الى النضال الفـكرى ،

فاننا نجد جهد الازهر كان أشق وأصعب لان سيطرة الاستعمار ، قد مكنت لبعض الغلاة من عاشقى الثقافة الغربية ان يهاجموا أصولا اسلامية قام الازهر على حمايتها ، بل ما أنشىء الازهر منذ بدء حياته الا ليذود عنها ، فصدرت كتب تمس المقررات الاسلامية فى أصولها الصميمة مدعية سعة الافق وشمول الثقافة ، وتغلغل النظر ، ومواكبة الحضارة ، ومؤاخاة الرقى الفكرى ، فكان لابد للأزهر من أن يقرأ هذه الكتب ، وأن يقوم بتفنيد ما يراه موضع التفنيد ، ولم يفسح معارضوه صدورهم للراى المخالف ، بل ذهبوا الى اتهام العلماء بالرجعية والتخلف ، وضاقوا بمعارضة الازهر ضيقا يدل على أنهم يكرهون الحرية الفكرية اذا اتجهت غير ما يتجهون ، وعاشق الحرية الصادق ، هو من لا يقصرها على نفسه وحدها ، بل يراها ملكا خالصا للناس جميعا ، فلكل دارس أن يفصح عن رأيه فى جهارة وسطوع ، وقد سلك الازهر سبيل الحق فى نقض ما يراه مخالفا لمقررات الاسلام ، فأخذه الرعد من كل مكان ، وامتنع معارضوه أن يقارعوا الحجة بالحجة والمنطق بالمنطق ، واندفعوا الى سخرية ماكرة ، وتهكم مسخف ، ولو أخلصت النيات ، لسار الجدل فى طريقه الهادىء دون أسفاف ، وقد مضت الايام ، فتمحصت الحقائق ، وذهب الزبد جفاء ، وبقى ما ينفع الناس ، ورجع كثير من المغالين عن شططهم ، فسلكوا فى بحوثهم وجهة مطمئنة ترضى الازهر ، فاعترف لهم بسلامة العودة ، وحسن العقبى ، ولنا أن نثق فى عدالة السماء حين اخذت بناصر الحق وبددت سحب الباطل ، فسفرت الحقيقة دون

حجاب ، وقد عرض هذا الكتاب لبعض ما ناضل به الازهر فى حومة الرأى ، فجلا وجهة نظره فى صدق ، وترك للقارىء أن يتأمل فى حيدة بعض ما دار من العراك، وكنت آمل أن يتسع المجال لمناقشة قضايا مماثلة ، ولكن الحيز المحدود يحول دون الكمال ، ولعل المستقبل القريب يسمح بالعودة الى الاستيعاب فى كتاب آخر ، لتنتظم الحلقات فى سلسلة وافية تدنى البعيد .

أما دور الازهر فى الدعوة الى السلام العالمى ، ولقاء الاديان على صفاء تحتمه أمانة العقيدة ، وتسمو الهدف، فقد كشف المؤلف عن حقائق صريحة فى هذا المجال ، ولعل فى تسجيلها ما يؤكد أهميتها البالغة وما يدعو رجال الاديان فى شتى البلاد أن يتعاونوا تعاونا تاما فيما بينهم ، لينقذوا الانسانية مما يتهددها من أخطار الشقاق ، وليقفوا أمام دعاة الحروب ، ومخترعى الاسلحة المدمرة وقفة من ينذر بالخطر الماحق وهو على وشك الوقوع .

أما الصفوة من أعلام الازهر ممن ترددت مواقفهم الرائعة فى هذا الكتاب ، فقد استحقوا خلود الذكرى بما قدموه من نضال ، وهم بعد قدوة حسنة للناشئة فى دور العلم على اختلاف فروعه ، اذ تجاوزوا القول الى العمل فنزلوا الى الميدان مجاهدين ، وحسب هذا الكتاب أن يكون حافزا على اقتفاء الاثر الصالح ، داعيا الى السعى الحميد ، وذلك كله هدف رشيد .

الأزهر في عيده الألفي

ألفَ عـام يا سرعـةَ الأيـّام
كيف يحصي مـداك بالأعـوام ؟
سوفَ يبقَى الإسلام ما بقى الدّ
هرُ وتبقى منـارةَ الاسـلام
سيظلُّ القـرآن فى أبد الـكو
ن شـفاء لـكل داء عِقـام
هو وحيُ الرّحمـن قام على تفسـ
ـيرهِ منك صـفوةُ الأعـلام
شرحوه ففـاضَ نورا عليهـم
فيضانَ العقـول بالالهـام
قـورنوا بالزمخشـرى وبالفـر
اءِ والفخرِ ، والرءوس العظـامِ

سيظل الحديثُ بالأزهر المعمو
رِ وَرْدًا منضّرَ الأكمَام
حيث أشْياخُه رواة ثقات
كلّ حَبْرٍ له مَكان الإمَام
سبَروا غَوْرَ مُسلم والبخار
ىّ وما فى الصحاح من أحكام
سوفَ تَبقى شريعةُ الله نَهجا
أوحَديًّا عليه سيرُ الأنام
يفتديهَا فى مصر كل فقيهٍ
رائم بالقياس أسمَى مَرام
يفقهُ النّص حينما يُصدر الفتـ
ـوَى أمينا فى النقضِ والإبرام
لغةُ الضّاد ألبِستْ بكتاب
اللهِ أبهَى ما شَفّ من هندام
عشق الأزهر المبينُ فنون
القولِ فيها بخَافق مُستهام
ويحَ أعلامِه الألى منحُوها
كلّ ما يملكونه من حُطام

بذَلوا النـورَ من عيـونٍ كـليلا
ت وضَـحوا بقـوةِ الأجسـامِ
درسُـوا فنَّهـا اشتِقـاقا ونَحوا
وبيـانا يُنـيرُ وجهَ الـكلام
إن ذكرتَ الخليلَ فى مسجدِ البصـ
ـرة فاذْكرْ بالأزهـر ابن هشَـامِ
قَرنوهُ بسـيبويه كِلا القطبـين
يَرعى تُراثَـه ويُحـامى
لا لجـاهٍ ومنصب بل لوجْـهِ
اللهِ ما أَعْـربا من الإعجَـام
خالِد خالد على الأيـام إذْ
مضَى من تاريخِـه ألفُ عَـامِ
حفَلتْ بالخطوب تلْقَى من الأزهـ
ـر جُهـدَ المناضِل البَسَّـام
سُحُب غالتِ السَّـنا وادلهَمَّتْ
مرْعِـدات بكلِّ خطب جسَـام
فسُيُول التتـارِ تغمرُ بغـدا
دَ وجيشُ الصَّـليب ملء الشّـامْ

وعيونُ المـــوحّدين تدجّـــت

لا تَـــرى النورَ فى مثَـــارِ القتام

أينَ طِـب الأيمانِ يُسعف فى الرَّو

عِ نفُوســـا تهددت باجـــترام

صلصلَ الأزهــــرُ الشريف مرنّا

هاتِـفـــا بالليــوثِ فى الآجَــام

وترامَى آشـــياخَه فى زُحُــوف

خلفَ عزِّ الدين بنِ عبــد السّلام

يقرءونَ القرآن يُؤذن بالنصـــرِ

ويَفْرِى فى الروع فَرْى الحسَام

يُرســلون السّهــام فى مُهج الأ

عـــداء خواضـــةً وراء السّهَام

يذكــرون الأمجـــادَ من يوم بَدر

فتُؤَجَّ الذكرى أجيــجَ الضرام

كُن شَهيـــدا كحَمزة لا تُسوِّف

مُحجمـــا فالبلاءُ فى الإحجَـــام

خصمكَ المُعتــدى عليك فأقْــدم

كل نصـــر يُتـــاح بالاقـــدام

حُوصِرَ الهاجمـون فاندحر البَغْى
وآل الهجـومُ لاستسـلامِ
وتَجَلَّى السـلام فانبعَـث الأز
هـرُ يرعى أشـباله فى سَلامِ
أوغل الدارسون فى العلم لا يثنيهم
وعنـه زُخـرف الأوهـام
فاذا الأزهـر الشريفُ شروح
تترامَى مثلَ السَّـنا المُترامِى
فجـواب يُتـاح غـب سؤال
وجَـواب يُفْضِى إلى استفهـامِ
وصـيال بالرأى رنَّ صَـداه
كـرنينِ التَّـكبيرِ بالإحرامِ
فاقرأ المَوسُـوعات فى مدّها الزا
خـر تشـهد: نفائسَ الأفهَـام
كلٌّ موسـوعة بأجزائهـا العشـ
ـرين صُبحُ الأعشَى وبدرُ التِّمام
لا أوالى التقـريظَ فالنّاقِـدُ الصا
دِقُ قدْ يَنتحى شـعاب السَّلامِ

رُبَّ متن دهَاهُ إيجازه السكز
بشرحٍ يُفضى إلى الإبهَام
رَفَدتْه شُروحه وحواشيه
بَفيض يتيح مَضغَ الكلامِ
وتوالَى المُعقبون عليه
يتبارون فى لَهيب حَمام
واستطالُوا بالجنس والفصْل
والرسم وسلوا رماحهم لالتحَام
ذاكَ عَهد مضى وأقبلَ عَهد
فاضَ فيه الأسلوبُ فيض الغمام
تجدُ القَول واضِحا كقوافى
الشِّعر تَمْضى فى رقّة وانسجام
تقرأ البابَ مثلَما تقرأ القصّةَ
ما بينَ بدئها والخِتَام !
إيه مهدَ الاباء يستشرفُ العِـ
زّ ويأبَى معيشةَ المستضَام
أَوَحتم" عليكَ فى كلِّ عَصْر
صرعةُ البغى واندحارُ اللئّام ؟

تفجـــأ الهــول راسخَ العزم صبَّا

را وترمى حِمــامَه بحِمــام

حارَ نابليـونُ انتصـارا بأوربَّـــا

ولاقَى لديك شـرَّ انهِـــزام

زأَر الأزهر الشـريفُ فهـاجتْ

كالبراكـين ثائِــراتُ الأنــام

ماثَنَــاها قذف القَنــابل بل زَا

دَ لهيبَ النفــوسِ بَرْح اضطرام

أَحرقوا الدورَ والمساجدَ لــكنْ

أشعلوا فى الورى لظَى الانتِقـام

وكما أقدموا بخِــزى تـــوارو١

وعليهم مــذلةُ الإرغَــــام

وتوالَى الزمانُ لا الفــكرُ سَاه

لا ولا العــينُ هوَّمَت فى منـامِ

كلَّ جيـل يمضى ليخلف جيِـــلا

مستطيلا بعِــزَّة الاســــلامِ

يبعثُ الأزهــرُ النجيبُ دارِكـــا

بهُمَـام يشدُّ أزر همــــام

خطبـــاءُ المســاجِـد اتَّخذوا المنـ
ـبَرَ أقْوى وســائِلِ الأعــلام

رفعـــوا الرّاية الشريفـــة لمَّـــا
أســـقطتْها صحـــافةُ الأقــزام

تخذوا المنبر الحصـــينَ عرينـــا
جَلْجَلتْ منه زأرة الضِّـــرغام

لن يمـــلَّ الإمـــام منهم زئـــيرا
بدفـــع التّـــائهين نحوَ الأمَـــام

محمد رجب البيومى

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٢٢٢٣ ــ ٨٣

الترقيم الدولى ١ ــ ٠٢٣ ــ ١١٨ ــ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلة الأزهر

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص٠ ب رقم ٢١٨٢٢ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury. B. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406. Sao Paulo. BRASIL.

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٣٥٠مليما :

سوريا ٥٥٠ ق٠س ، اديس ابابا ٥٠٠ سنتا ، لبنان ٥٥٠ ق٠ل ، باريس ٨ فرنكات ، الاردن ٥٥٠ فلس، لندن ٨٠ بنس ، الكويت ٦٠٠ قلس، ايطاليا ١٢٠٠ ليرة ، العـراق ٦٠٠فلس ، سـويسرا ٤ فرنكـات ، السعودية ٧ ريال ، أثينا ٥٠ دراخمةالسودان ٦٠٠ مليما ، فيينـا ٣٥ شـلن ، تونس ١٠٠٠ مليـم ، فرانكفورت ٣٫٥ مارك ، المغرب ١٠٠٠ فرنك ، كوبنهـاجن ١٠ كـرونات ، الجزائر ١٠٠٠ سنتم ، استوكهولم ١٤ كرونة ، الخليج ٤٥٠ فلس ، كندا ٢٥٠ سنت ، غزة ٨٠ ليرة ، البرازيل ٣٥٠ كروزيرو ، الصومال ٥٠ بنى، نيويورك ٢٥٠ سنت ، داكار ٤٠٠ فرنكا ، لوس انجلوس ٣٠٠ سنت ، لاجوس ٦٠ بنى ، استراليا ٣٠٠ سنتا ، آسمرة ٥٠٠ سنتا ، هولندا ٤ فلودين اليمن الشمالية ٥٠ بنى .

هـذا الـكتـاب

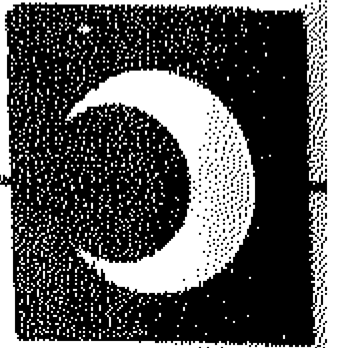
يصدر هذا الكتاب بمناسبة احتفال مصر والعالم الاسلامى بالعيد الألفى للأزهر الشريف ، ليتحدث عن نضال الأزهر فى مكافحة الطغيان السياسى ، وتأييد الحرية الفكرية بأدله تاريخيــة مستمدة من أوثق المصادر ، وفى ضوء تحليل كاشف ، يبسط القضية ، ويناقش البرهان •

وقد تتبع ـ الكتاب ـ الحركات السياسية للأزهـــر فى مختلف عهوده ، فألمح الى جهود العلماء فى العصر المملوكى ، وبسط ما خفى من عراكهم فى العصر العثمانى ، وأرخ للحمـــلة الفرنسية فى ضوء ما قام به الازهر من مكافحة للغاصب ، كما صور دور الازهر فى اختيار حاكم جديد حين تولى محمد على أمر البـلاد بإرادة علماء الازهر ، مفصحا عن موقفهم منه ومن خلفائه حين استبدوا بالأمر ، وخرجوا على ارادة الأمة ، أما الثورتان المصريتان ثورة عــرابى وثورة سعد زغلول فقد تحدث عنهما الكتاب مصورا جهد الأزهر فى جمع الكلمة ، وحشد الأمة ، ومناجزة المحتل مما يراه القارىء فى وضوح •

وفى المجال الفكرى أبرز الكتاب جهود الأزهر فى محاربة ما يمس الأصول الاسلامية من أفكار وافدة ، وكيف حمل راية الدفاع المخلص مستعينا بالرأى المدعم ، والدرس المستوعب ، ومستهزئا بمـــا ادعاه خصومه من تخرصات ، حتى بدت الحقائق ممحصة ، فاستنار الطريق •

ولم يغفل الكتاب دور الأزهر فى الدعـوة الى الســلام الدينى ، والتقاء الأديان على تعاون وصفاء ، ومنابذة الحروب المهلكة ، وتحريم الأسلحة الفتاكة صيانة للبشرية ، وحفظا لكرامة الانسان ••• كل ذلك يجده القارىء سلسا سهلا فيما بين يديه من هذه الصفحات •

٣٥ قــرشـــا



كتاب الهلال

سلسلة
ثقافية
شهرية

٢٢ يوليو

أطول يوم في تاريخ مصر

جمال حماد

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمي

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الاداره

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشره خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٨٨ ـ جمادى الثانى ١٤٠٢ ـ ابريل ١٩٨٣

No. 388 — Abril 1983

الاشتراكات

قيمه الاشتراك السنوى ـ ١٢ عددا ـ فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادى . وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان خمسة جنيهات مصرية او مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشره دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

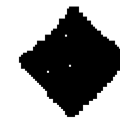
كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشـــــة
الفنــانة سميحة حســنين

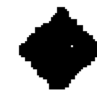
يوليو ٢٣

أطول يوم في تاريخ مصر



بقلم

جمال حمّاد



دار الهلال

تقديم

هناك سؤال يطرح نفسه على الدوام منذ أن عرف الانسان الكتابة وتعلم تدوين الاحداث والوقائع التى تهمه وهو من الذى يكتب التاريخ ؟ هل يصلح معاصرو الحدث الكبير لكتابة تاريخه ؟ أم لأنهم عاصروه ونشأت بينهم وبينه علاقات وتكونت لهم بحكم ذلك آراء وميول وأهواء لا يصلحون لكتابة تاريخه بصورة محايدة وموضوعية ؟

على الناحية الاخرى فلو تركنا تاريخ الاحداث الهامة فترة طويلة من الزمن وتركنا مهمة تدوينها وتسجيلها للأجيال القادمة التى لم تعاصرها فلابد أن تتوه كثير من التفصيلات والمواقف الصغيرة كما أن مهمة المؤرخين والمحللين للشخصيات التاريخية سوف تزداد صعوبة فلا يستطيعون تقدير مدى تأثير الطبائع والنزعات الشخصية لهؤلاء على تصرفاتهم العامة وقراراتهم المصيرية بسبب الفترة الزمنية البعيدة التى تفصل بينهم وبين أصحاب هذه الشخصيات .

هذا ولم يحظ حدث تاريخى فى تاريخنا المعاصر بمثل ما حظيت به ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من اهتمامات الكتاب والمؤرخين والمحللين ولكن الامر الذى يؤسف له ان كثيرا مما سجل عن هذه الثورة بعيد عن الموضوعية والروح الحيادية بسبب انعكاس الميول والاهواء الشخصية والانتماءات المذهبية والعقائدية الى بعض ما نشر عن هذه الثورة فبينما حرص بعض الكتاب على نفاق الحكام من أبناء هذه الثورة الى الحد الذى جعلهم يعتبرون ان تاريخ مصر

وكفاح شعبها من اجل حريته انما يبدا فجر ٢٣ يوليو ٥٢ متناسين ماضى مصر المجيد وملحمة الكفاح الرائعة لأبنائها عبر السنين نجد ان البعض الآخر من هؤلاء حرصوا على التركيز على سلبيات هذه الثورة والتهجم بكل عنف وضراوة على قادتها وقراراتهم الثورية متناسين ايجابياتها وما حققته لمصر والأمة العربية من مكاسب عظيمة وانجازات رائعة .

نعود بعد ذلك الى الموضوع الذى يهمنا فى هذا الكتاب وهو تسجيل حقيقة ما جرى ليلة ٢٣ يوليو ٥٢ اذ أن هذا الحدث التاريخى الخطير لم يتم تدوينه بعد بالدقة الكافية والأمانة الواجبة رغم مئات الكتب التى نشرت عن الثورة ويرجع السبب فى ذلك الى وجود بعض أبناء هذه الثورة فى مقاعد الحكم وانفرادهم طوال الثلاثين عاما الماضية بمراكز القوة والسلطة مما لم يتح الفرصة بالطبع للكتاب والمؤرخين لتسجيل الأحداث والوقائع بأمانة وتجرد وحياد . ولقد وجدت أن الفرصة قد تهيأت امامى الآن لتسجيل وتحليل أحداث تلك الليلة الخالدة بصفتى أحد الذين أسهموا فى صنع بعض وقائعها وباعتبارى شاهدا من شهود عيان دون أن أخشى أن أتهم بالتحيز والممالأة لحاكم أو صاحب سلطة أو أن أتعرض لبطشه وانتقامه ولذا فان هدفى من هذه الدراسة التحليلية الموضوعية لن يكون سوى ذكر الحقائق والوصول الى أدق الأسرار اذ أن حقيقة ما جرى ليلة ٢٣ يوليو لا يهم مصر وحدها بل يهم الأمة العربية بأسرها . وأرجو أن يكون الله قد وفقنى فى تحقيق غرضى وهدانى الى ما أبتغيه وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

جمال حماد

الوضع السياسي في مصر
صباح ٢٢ يوليو

ماذا قالت الصحف ؟

كان يوما عاديا لا يكاد يختلف عن غيره من ايام شهر يوليو الحارة ولو ان درجة حرارة القاهرة لم تتجاوز معدلها الطبيعي وهو ٣٥ درجة ـ ولم تكن حرارة الجو هي السبب فيما كان يعانيه أبناء مصر وقتئذ من ضيق في الصدور وتثاقل في الانفاس بل كان مرجعه هو ذلك الغضب الجارف الذى اجتاح نفوس الشعب من فرط ما يراه من عبث واستهتار بمقاديره فأضحت النفوس مثل بركان مكبوت لا تنتظر الا الاشارة لكي تنطلق الحمم من اعماقها محطمة في طريقهـــا كل من تسبب في اذلال الشعب وهوانه . واستقبل المصريون صحف الصباح ببرود وقلة اكتراث رغم ما كانت تزين به صدر صفحاتها من عناوين عريضة حمراء حفلت بعبـــارات التشويق والاثارة فان أنباء تغيير الوزارة التي كانت الى عهد قريب مجالا لاثارة الاهتمام ومدعاة لاحتدام النقاش بين المواطنين وسببا في ارتفاع معدلات توزيع الصحف أصبحت اليوم امرا لا يثير غير الحسرة والخوف من المستقبل بعد أن تعاقبت على الحكم ثلاث حكومات في أقل من ستة أشهر وادرك الناس أن لعبة تغيير الوزارات باتت هواية جديدة

الليكهم العابث لا تدانيها سوى هوايته المعــروفة فى لعب القمار التى ينكب عليها كل ليلة حتى الصباح .

وكانت المؤامرة قــد بدأت بأحداث حريق القــاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ التى أدت الى اقالة الحكومة الوفدية التى كانت قد الغت معـــاهدة ١٩٣٦ وشجعت حركة الـكفاح المسلح ضد جيش الاحتــلال فى منطقة قنــاة السويس .

واسندت الوزارة عقب ذلك الى على ماهر باشا الذى لم تعمر حكومته سوى ثلاثة وثلاثين يوما وخلفتها وزارة احمد نجيب الهلالى باشا التى لم تستطع الاستمرار فى الحكم سوى أربعة اشهر . وأخيرا شـــكل حسين سرى باشا وزارته التى طالع المصريون فى اليوم الســــابق نبأ تقديم استقالتها بعد ثمانية عشر يوما فقط من توليهــا الحكم . وقرأ الشعب فى استغراب الامر الملكى بقبول استقالة حسين سرى باشا فقد كان جافا عنيفا فيه اتهام لحسين سرى بأنه هرب من الموقف ولم يـكن الشعب يدرى أن الملك كان قد أعد أمرا غير ذلك الامر الملكى الذى نشر يحــوى شتائم صريحــة الى رئيس الوزراء المستقيل لولا رجاء مدير الادارة العامة بالقصر الــذى شاركه فيه حافظ عفيفى باشا رئيس الديوان الملكى . ولم تثر صورة أحمد نجيب الهلالى باشا التى توسطت الصفحات الاولى من الصحف تحت عناوين بارزة بتكليفه بتأليف الوزارة الجديدة .. لم تثر اى اهتمام فى نفوس القراء كذلك لم يعبأوا كثيرا بأسماء الوزراء المرشحين للوزارة والذين نشرت صورهم حول صورة رئيس الوزراء الجديد وكان أغلبهم من أعضاء وزارته السابقة .

وعلى العكس كان الانطباع لدى الرأى العام هو الدهشة والاستنكار اذ كيف يقبل الهلالى تأليف وزارة جديدة ولم يمض سوى عشرين يوما على تقديم استقالته ؟ لقد قادته سياسته التى أعلنها وهى اتخاذ التطهير طريقا للتحرير الى طريق مسدود اثر اصطدامه بالحاشية الفاسدة التى قاومت سياسة التطهير التى تهدد كيانها فى الوقت الذى وصلت فيه الحالة السياسية والاقتصادية الى أحط درجاتها . وكان رئيس الوزراء يعتمد على تدعيم رئيس الديوان لوزارته لدى الملك ليمكنه الوقوف امام دسائس الحاشية واذا به يكتشف ان رئيس الديوان لم يقابل الملك اكثر من مرتين خلال ثلاثة أشهر وان الحلقة الوحيدة للاتصال بالملك هى الشماشرجى محمد حسن . وانكشفت الوزارة امام الشعب كوزارة معادية للدستور باصدارها قرارا بحل مجلس النواب الوفدى فى ٢٤ مارس ٥٢ ثم بتأجيل الانتخابات الى أجل غير مسمى أملا فى وهم كالسراب بذل الهلالى فيه جهده ولكنه فشل فى تحقيقه فشلا ذريعا وهو أن يتمكن من تشكيل حزب جديد يضم اليه العناصر الوفدية الصالحة .

وذاعت فى ذلك الوقت شائعة ـ ثبت فيما بعد عدم صحتها ـ ولكنها وقتئذ زلزلت الثقة التى كانت لا تزال فى النفوس وهى قصة المليون جنيه التى دفعها المليونير أحمد عبود للملك فاروق عن طريق بعض رجال الحاشية ثمنا للتخلص من وزارة الهلالى .

واخذ الناس يتساءلون فى صباح ٢٢ وهم فى حيرة .. ما الذى جد على تلك الاوضاع التى ارغمت الهلالى

على تقديم استقالته منذ أقل من ثلاثة اسابيع ؟ هل تغير الملك العابث أو تغيرت نزواته الماجنة وحاشيته الفاسدة ؟
اذا كانت الاوضاع والامور هى هى فكيف يقبل الهلالى ان يهبط الى هذا الدرك الوخيم فى مقابل حكم فقد هيبته وهان شأنه على الناس ؟

ونشرت الصحف فى أمكنة بارزة أول تصريح ادلى به رئيس الوزراء الجديد للصحفيين فى صالون منزله الخاص بالمندرة بالاسكندرية فى منتصف الليل وقد ذكر لهم فيه تكليف الملك له بتأليف الوزارة وانه قد بدا العمل للنزول على الارادة الملكية الكريمة وعبر الهلالى للصحفيين عن امله فى اتمام تأليفه الوزارة اليوم « الثلاثاء » .

كما نشرت الصحف تحت تصريح رئيس الوزراء بيانا من رئاسة الديوان الملكى بتحديد بعد ظهر الثلاثاء ٢٢ يوليو موعدا لتشرف دولة الهلالى باشا واصحاب المعالى وزرائه لرفع فريضة الشكر على اسناد مناصبهم اليهم ولحلف يمين الولاء والاخلاص لجلالة الملك والوطن .

ولم يكن ذكر الولاء للملك قبل الوطن يثير اى استغراب فى مصر وقتئذ فهذا ما جرى عليه العرف وما كان يحتمه البروتوكول لدى مختلف الطوائف والهيئات بالدولة وهذا ما كانت تعلنه الشعارات المرفوعة وفى مقدمتها شعار الجيش « الله . الملك . الوطن » الذى يرجع سبب تحويره بهذا الشكل وتقديم الملك على الوطن الى الفريق ابراهيم عطا الله باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش فى الاربعينات كوسيلة لنيل الحظوة والتزلف للملك .

وكانت أهم الانباء الخارجية التى نشرتها صحف ذلك اليوم هى قرب وصـــــول الوفد السودانى برئاســة عبد الرحمن المهدى باشا لاجراء مباحثات مع الحكومة المصرية لايجاد حل مصرى سودانى لمشكلة السودان التى كانت العقبة الكأداء فى كل المفاوضات المصرية البريطانية .

وكان المهدى قد ارسل وفده الى القاهرة من قبل بناء على دعوة من نجيب الهلالى أثناء وزارته الاولى وأجرى الوفد السودانى مباحثاته مع الهلالى دون التوصل الى نتيجة مرضية وبعد استقالة الهلالى تم الاتفاق بين المهدى ورئيس الوزراء الذى خلفـــــه وهو حسين سرى على الحضور الى القاهرة لاستئناف المباحثات ولمـا تحـدد موعد قدوم المهدى باشا على رأس وفده كان حسين سرى قد ذهب وتقررت عودة الهلالى ... وعندما حل الموعد لم يجد وفد المهدى لا حسين سرى ولا الهلالى ... هكذا كان عمر جميع وزارات الاحتضار مثل عمر الزهور .

واحتلت أنباء افتتـــاح الدورة الاوليمبية الخامسة عشرة فى هلسنكى بفنلندا جانبا من اهتمام الصحف اذ كانت مصر تشترك فيها ببعض الفرق الرياضية ويبدو ان المحسوبية كان لها دخل فى اختيار اللاعبين والاداريين مما حدا بمجلة روز اليوسف الى ابراز النبأ التالى .

« تكية هلسنكى — ان الرياضة فى مصر تماثل تماما السياسة فقد سافر الى هلسنكى وفى الطـــريق اليها أفواج أخـرى .. الاداريون مبسـوطون واللاعبـون فى انشراح كامل وسر هذا الانبساط هو ان تكية هلسنكى ضمنت لهم جميعا صيفية مباركة ــ أما البركة فانها لن تحل أبدا بهذا البلد » .

ونشرت الصحف نبأ قيام حركة ارهابية فى المانيا الشرقية تمهيدا لتحويلها الى دولة سوفييتية تابعة لروسيا ـ وكان أحد الانباء التى استرعت الالتفات هو مطالبة الغرب حكومة اسرائيل باعادة وزارة خارجيتها من القدس التى تل أبيب ـ ويبدو ان هذه المطالبة سوف تبقى أبد الدهر .

ولم يكن فى الانباء الداخلية ما يستحق الاهتمام سوى الاعلان عن افتتاح سنترال باب اللوق فى أول أغسطس واعلان حكمدارية بوليس الاسكندرية حالة الطوارىء بالمدينة وكذا اجتماع الهيئة السعدية برئاسة ابراهيم عبد الهادى باشا وبحثها الموقف السياسى الداخلى والخارجى ثم انباء المحاكمات وعن مثول بعض المتهمين فى حريق ٢٦ يناير أمام المحكمة العسكرية العليا المشكلة من ثلاثة من المستشارين واثنين من كبار ضباط الجيش وأخيرا بعض التفاصيل عن حادث سقوط قطار دمياط بالقرب من طنطا .

اصطياف الزعماء والكبراء

أثار نبأ صغير نشرته جريدة المصرى صباح ٢٢ يوليو لمراسلها فى باريس كوامن الشجون فى نفوس القراء فقد قراوا ان رفعة حسين سرى باشا وسعادة الدكتور محمد هاشم باشا (زوج ابنته ووزير الداخلية فى وزارته) قد حجزا لنفسيهما شقتين منذ أيام فى أحد الفنادق الكبرى فى اكس ليبان . وكان سر الاسف هو أن معظم زعماء مصر ورجالاتها قد تركوها فى تلك الآونة العصيبة

للاصطياف بالخارج والترويح عن النفس فقد نشرت مجلة المصور خبرا تحت عنوان « الوفد يسافر » جاء فيه « سافر ثلاثة من أقطاب الوفد الى أوربا خلال اسبوع واحد الرئيس مصطفى النحاس باشا والسكرتير العام للوفد فؤاد سراج الدين باشا والسكرتير المساعد محمود سليمان غنام باشا .. وقبل ذلك سافر الى لبنان أقطاب الوفد عبد الفتاح الطويل باشا ومحمد الوكيل باشا والدكتور محمد صلاح الدين باشا وكأنما الوفد كله يعيش فى الخارج .. خارج مصر » .

وكان القراء قد طالعوا فى اليوم السابق نبأ قيام محمد حسين هيكل باشا رئيس حزب الاحرار الدستوريين برحلة الى الخارج مع استعداده للعودة فى اى وقت يتطلب عودته .

وفى مجلة الجيل الجديد طالع القراء نبأ سفر الباخرة الايطالية اسبريا من ميناء الاسكندرية فى طريقها الى فينيسيا بايطاليا وعلى ظهرها عدد كبير - ذكرت المجلة اسماءهم - وكانوا من ألمع شخصيات المجتمع ترافقهم عائلاتهم وسياراتهم .

وكان باقى الزعماء والسياسيين الذين لم تسعدهم ظروفهم بالسفر الى الخارج يمضون الصيف فى الاسكندرية بعيدا عن حر القاهرة اللافح وكانوا ينزلون عادة فى فندق سيسيل أو سان استفانو حيث يجلسون فى شرفة الفندق المطلة على البحر فى حلقات للنقاش والسمر ويتناولون الوضع السياسى المتردى فى البلاد بتعليقاتهم الساخرة وكانت اشهر تلك الحلقات تعقد فى

فندق سيسيل بمحطة الرمل ويتصدرها فيلسوف الجيل احمد لطفي السيد باشا .

هكذا كانت الاسكندرية تتركز في أرجائها مظـــــاهر الحركة والنشاط السياسي يوم ٢٢ يوليو فالملك فاروق وأسرته وحاشيته ينعمون باقــامة هنيئة وعيشة رغدة ما بين بلاج قصر المنتزة الساحر وابهائه الفخمة وغرفه الوثيرة التي تزينهـــا اجمل الثريات والتحف وما بين حدائقه المنبسطة الخضراء التي تكاد تحسبها قطعة من الجنة ـــ واني للملك الفارق في لهوه أن يعلم انه بعد أيام قلائل فقط سوف يطرد من هذا النعيم !!

وكانت المكاتب بقصر المنتزه تموج بالحركة استعدادا لقدوم رئيس الوزراء الجديد ووزرائه الذين تحددت لهم الساعة الرابعة موعداً لحلف يمين الولاء لصاحب العرش بينما كان الاستاذ محمد ثابت سكرتير عام مجلس الوزراء والاستاذ صلاح الشـــــاهد تشريفاتي رئاسة الوزراء منهمكين في اجراء الاتصالات التي يطلبها رئيس الوزراء وفي اعداد دار الوزارة ببولكلي لاستقبال الرئيس والوزراء عقب أداء اليمين الدستورية ليحتلوا مكاتبهم ويبداوا في تصريف أمور البلاد .

وعلى العكس كانت القــاهرة عاصمة البـلاد يظللهـــا الهدوء وتخيم عليها السكينة فقد ابتعدت عنهـا الاضواء ونأت عنها مظاهر الحركة والنشاط فالقصور الملكية مغلقة لا يسمع فيها الا صوت الحراس على الابواب الخارجية البعيدة ودور الوزارات شبه خاوية فالوكلاء وكبـــــار الموظفين من المحظوظين يحتلون مكاتبهم في دار الوزارة ببولكلي ويتمتعون بقضــــاء الصيف بالاسكندرية على

حساب الدولة ويتقاضون بدل سـفر مجزيا يكفل لهم تمضية فترة ممتعة فى الصيف مع أسرهم .

والقيادة العامة للقوات المسلحة التى تقع فى ثـكنات قصر النيل (مكان فنـدق الهيلتون والجامعة العربية حاليـا) كانت هى الاخرى تشكو فراغها وعزلتها فان انتقال الفريق محمد حيـدر باشا الى الاسكندرية كان يعنى اصابتها بالشلل فى الوقت الذى تدب فيه الحياه والنشاط فى مكتب القائد العام داخل ثـكنات مصطفى باشا الذى تملؤه بمجرد وصوله هيئة مكتبه والسكرتارية الخاصة به .

وبسبب اصطياف الملك وحكومته بالاسـكندرية خلت القاهرة يوم ٢٢ من أى مسئول ذى سلطان من رجالات الدولة كان فى امكانه اتخاذ القرار ولديه الصلاحيات لاصدار التعليمات الفورية لمواجهة أى موقف طارىء .. اذ أن مركز السلطة بكل ثقله فى الاسكندرية ولا توجد وسيلة لمعرفة حقيقة ما يجرى بالعـاصمة واصـدار التعليمات بشأنها للمرءوسين الا عن طريق التليفون . وكانت وسيلة عقيمة أثبتت فشلها خاصة وان شخصية المتحدث اليهم لم يكن بالامكان التأكد منها مما أدى الى وقوع عدة مواقف هزلية .. وهكذا أثبتت الوقائع ان وجود الملك والحكومة بالاسـكندرية كان عاملا هاما فى نجاح الحركة فان بعدهم عن مسرح الاحداث أدى الى انفلات زمام الموقف من أيديهم عنـدما حانت السـاعة الحاسمة .

ولم يكن بالقـاهرة فى هذا اليوم من يمـكن لجوء السلطة اليه سوى رجلين تركزت خلالهمـا جميع

الاتصالات بين الاسكندرية والقـاهرة بحكم منصبيهما وكان الاول هو الفريق حسين فريد رئيس هيئة أركان حرب الجيش الذى يقع مكتبه بالدور الثانى بمبنى رئاسة الاركان بكوبرى القبة (مقر وزارة الدفاع حاليا) ـ وكان الرجل الثاني هو اللواء أحمد طلعت حكمدار بوليس القاهرة والذى يقع مكتبه بديوان المحافظة القديم بباب الخلق .

وكان منصب حكمدار القاهرة وقتئذ من الاهمية الى حد انه كان المنصب التالى مباشرة لوزير الداخلية وكان يتبع الحكمدار جميع قوات البوليس بالقاهرة علاوة على فرقة الامن المدرعة وهى الفرقة التى تشكلت بعد حريق القاهرة من رجال أشداء مسلحين جيدا لقمع اى شغب مهما بلغت قـوته أو شـدته وكانت تعد وقتئذ القـوة الضاربة الوحيدة لدى البوليس .

الرجل والبطل

فى صباح يوم ٢٢ يوليو طالع القراء فى اهتمام شديد الكلمة التى نشرتها جريدة الاخبار بقلم الكاتب الكبير كامل الشناوى فى عموده اليومى « وجهة نظر » والذى كان يقع بالصفحة الاولى للجريدة على مسافة شديدة القرب من صور الهلالى ووزرائه . اثارت كلمة كامل الشناوى الكثير من التعليقات وتساءل بعض الضباط الاحرار هل نما الى علم الكاتب الكبير شىء عن ذلك السر الخطير الذى يطوونه بين صدورهم ؟ وكان عنوان الكلمة مثيرا وملفتا للأنظار فقد كان « أين الرجل » ؟ وكان اهم ما تضمنته .

تروى الاساطير أن « ديوجنيس » حكيم اليونان خرج من داره يوما وفى يده مصباح وظل يطوف بشوارع أثينا باحثا عن شيء على ضوء مصباحه ودهش أهل أثينا عندما رأوا حكيمهم يحمل مصباحا فى ضوء النهار والشمس مشرقة وسألوه ماذا تصنع يا ديوجنيس ؟ فقال ابحث عن رجل !! وكان سائلوه من الرجال ومع ذلك فهو يبحث عن رجل .

وما أشبه مصر اليوم بديوجنيس ... فهى تحمل مصباحها فى يدها ليل نهار تنقب عن رجل ... لكن المصباح سينضب زيته وتحترق ذبالته وينطفىء قبل ان تجد مصر هذا الرجل فانها تبحث عنه بين طائفة من الساسة تجاوزوا مرحلة الرجولة وعبثا تحاول أن تعيدهم الى هذه المرحلة ..

لتدع مصر مصباحها ولتبحث بلا مصباح فى صفوف الشعب عن الرجل الذى تنشده » .

ولم يكن هناك وصف لما كانت تنشده مصر فى ذلك اليوم أصدق مما حوته تلك الكلمة القصيرة المعبرة ولا شك أن كامل الشناوى كان يعبر يومها عن نبض الشعب فلم تكن مصر فى حاجة الى رجل فى تاريخها الطويل أشد من حاجتها اليه فى ذلك اليوم وكان الكاتب فى أعلى درجات الحكمة والصدق حينما دعا مصر الا تبحث عن رجلها المنشود بين طائفة الساسة وانما بين صفوف الشعب ومن عجب أن الرجل المنشود كان موجودا بالفعل بل وكان متأهبا للعمل فى نفس اليوم . كان الرجل الذى تبحث عنه مصر شابا فى الرابعة والثلاثين من عمره أسمر اللون بارز الملامح معتدل القوام قوى

العزيمة ولم يكن من رجال السياسة أو محترفيها فقد كان يرتدى الملابس الكاكيه اللون التى تدل على انتمائه الجيش ـ ولم يكن ثريا كمعظم السياسيين فلم يكن يملك سوى مرتبه البسيط الذى يتقاضاه من الجيش . ولم يكن يملك جاها أو نفوذا فرتبته العسكرية لا تؤهله لذلك وكان يعيش عيشة متواضعة بعيدة كل البعد عن حياة الرفاهية ولم يكن يستطيع أن يصطاف مع أسرته ولو بالاسكندرية فقد كان ذلك ترفا لا تتحمله موارده المحدودة ولم يكن منتميا لحزب من الاحزاب ولا لهيئة من الهيئات اذ كان ولاؤه مكرسا للقضية التى عاش طوال عمره من اجلها ... قضية تحرير الوطن ولم تكن عليه سيطرة او وصاية من أحد سواء من داخل مصر أو خارجها .

ورغم ضعف شأنه ورقة حاله كان قلبه عامرا بالامل فى مستقبل مشرق لوطنه مليئا بايمان راسخ بأنه الرجل الذى اصطفته العنـــــاية الالهية لتغيير تلك الاوضـــاع الكريهة التى كانت ترزح مصر وقتئذ تحت وطأتها وانه مع ذلك النفر القليل من زملائه سوف يتمكنون بفضل ايمانهم من حمل الامانة واداء الرسالة وانقاذ مصر من محنتها .. كان الرجل المنشود هو المقدم أ . ح جمال عبد الناصر الذى لم يكن احد من الشعب فى صباح ذلك اليوم يعرفه او سمع عنه ولم يكن هو وحده الرجل الذى عناه كامل الشناوى فى كلمته ولكنه كان فقط تجسيدا حيا لما كان يعنيه فقد كان كل فرد من الضباط والجنود الأحرار فى ذلك اليوم هو الرجل بل هو البطل .

وكان عبد الناصر وزملاؤه على موعد مع القدر فى تلك الليلة ... كانوا يعلمون انهم امل مصر الوحيد فى نيل

حريتها فان كل السبل الاخرى قد اغلقت فى وجهها .. ان ابناء مصر قد سجلوا بدمائهم اسطورة كفاح خالدة منذ نبت المستعمر اقدامه فى وطنهم وشهد عام ١٩١٩ ذروة كفاحهم فى سبيل حريتهم ولكن الثورة انتكست ولم تحقق النتائج المنتظرة منها .. وادرك ابناء مصر ان خطورة المستعمر لا تكمن فى جيوشه الحـــاشدة او حرابه المشرعة وانما فى اولئك العملاء الذين ارتبطت مصالحهم ببقائه وعلى رأسهم ذلك الملك العميل الذى اصبح عرشه مستقرا بحمايتهم منذ عهد الخديو الخائن توفيق .

واضحى طريق الكفاح الشعبى ميئوسا منه فقد كان الجيش هو أداة البطش والارهاب فى يد الملك يقمع بها كل محاولة لتغيير الاوضاع أو المطالبة بالحريات ..

وكانت خطة عبد الناصر وزملائه فى ذلك اليوم ان ينزعوا عن الجيش ولاءه للملك ليصبح عن جدارة جيش الشعب وكان تعبير عبد الناصر اصدق وصف لما حدث حين قال : « كنا نحن الشبح الذى يؤرق به الطاغية احلام الشعب وقــد آن لهــذا الشبح أن يتحول الى الطاغية فيبدد أحلامه هو » .

كان عبد الناصر يمثل جيل الضباط الوطنيين الذين تخرجوا فى الكلية الحربية فى نهاية الثلاثينات وبداية الاربعينات وكانوا يوم ٢٢ يوليو فى رتبة المقدم أو الرائد وكان معظم شباب هــذا الجيل من الضباط قد علقوا آمالهم فى بادىء الامر على حزب الوفد باعتباره الحزب الذى قاد حركة الــكفاح الشعبى ضد الاحتلال البريطانى والذى وقف فى صـــلابة وحزم ضد تسلط الملك وعبثه

بالدستور . لكن ذلك الامل لم يلبث أن خبا عقب حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الـــذى حاصر فيه الانجليز قصر عابدين بدباباتهم وارغم فيه السفير البريطانى الملك على تكليف زعيم الوفد مصطفى النحاس بتشكيل وزارة وفــدية . لقد أدت مظاهرة السفير البريطانى العسكرية ودعايات احزاب الاقلية الى الاساءة للوفد وأصبح حادث ٤ فبراير نقطــة سوداء فى تاريخه يطعنه عن طريقهـــا أعداؤه ويلطخون بها صفحة كفاحه الناصعة . وترك حادث ٤ فبراير فى الجيش تأثيرات بعيدة المدى أدت الى التفاف ضباط الجيش حول الملك الذى نجح وقتئذ فى الظهـــور بصورة البطل المناضل الذى جابه وحده سطوة الاستعمار علاوة على ما احس به الضباط من شعور بالمهانة بعد ذلك الحادث الذى أحسوا انه عدوان على شرفهم العسكرى ولذا كانت النتيجة الحتمية هى ابتعـــاد ضباط الجيش عن الوفد .

غير ان حقيقة الملك لم تلبث ان انكشفت بعد قليل عن مخلوق ماجن استباح الاموال والاعراض وغرق فى بحر من شهواته ونزواته الطائشة ولم يتورع فى سبيل الاحتفـــاظ بعرشـــه وسلطانه من أن يبيع نفسه وبلاده للشيطان . وكان هذا الشيطان انجليزيا أحمر الوجـــه يحكم مصر من مقر السفارة البريطـــانية بقصر الدوبارة ويدعمه أكثر من ثمانين ألف جندى بريطـــانى يحتلون منطقة قناة السويس . ووقع الضباط الشبان فى حيرة بالغة فالامل الذى كانوا يعلقونه على انتصـــار الالمان فى الصحراء الغربية ودخولهم مصر وطرد الانجليز منها لم يلبث ان زال بعـــد هزائم الالمـــان وانسحابهم من شمال

أفريقيا .. والامل فى التحرير عن طريق الملك والاحزاب السياسية القائمة سرعان ما تبين للضباط انه ضرب من الوهم والخيال فالكل يتناحر ويتصارع لا فى سبيل التحرير ولكن فى سبيل الوصول الى الحكم والسلطان .

اخذ الضباط بعد هذا اليأس المرير يبحثون عن ملجأ يمارسون فيه نشاطهم الوطنى فلم يجدوا أمامهم سوى الجماعات الجديدة التى بدأت تظهر على مسرح السياسة المصرية والتى كانت تحاول وقتئذ اجتذاب الجماهير بمبادئها المتطرفة سواء اليمينية أو اليسارية .

الجيش بين اليمين واليسار

كانت أشد الدعوات نجاحا فى اجتذاب الضباط هى جماعة الاخوان المسلمين فانها بتنظيمها الهرمى الذى يقف المرشد العام على قمته وبجناحها العسكرى الذى يضم العسكريين وبجهازها السرى للقيام بالعمليات الخاصة وبجماعاتها المسلحة من الفدائيين — كل هذا وجد فيه الضباط شيئا غير بعيد عن النظام العسكرى الذى اعتادوه .. وعلاوة على ذلك كان للمرشد العام الشيخ حسن البنا مقدرة فائقة على اجتذاب الجماهير وعلى ضم الضباط الى الجماعة من خلال احاديثه عن علاقة الدين بالوطن ورسالة الاخوان المسلمين فى توعية الناس بدينهم ومحاربة الفساد والانحلال الخلقى وحاجة الوطن الى المواطن القوى المؤمن .

وكان من الطبيعى أن ينضم الى صفوف الجماعة نخبة كبيرة من ضباط الجيش كان فى مقدمتهم ثمانية من

أعضاء اللجنة التأسيسية للضباط الاحرار وهم جمال عبد الناصر وعبد المنعم عبد الرءوف وعبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين وعبد اللطيف البغـدادى وحسن ابراهيم وخالد محيى الدين وصلاح سالم ـ وبعضهم عقد البيعة مع الاخوان بالصورة العادية والبعض الآخر ومنهم عبد الناصر وعبد المنعم عبد الرءوف وكمال الدين حسين وخالد محيى الدين عقدوا البيعة مع عبد الرحمن السندى المسئول عن الجهاز السرى فى غرفة مظلمة بالصليبة بحى طولون حيث أقسموا على المصحف والمسدس على طاعة الله والالتزام بقيادة الجماعة فيما لا معصية فيه .

ويعترف خالد محيى الدين بهذه الحقيقة رغم انضمامه بعد ذلك الى اليسار فيقول : « كنت ضمن المجموعة التى انضمت للجهاز السرى للاخوان برئاسة عضو مكتبهم عبد الرحمن السندى والتى كانت مكونة من جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين ومنى ، وقد حلفنا على المصحف والمسدس ليلا » وازدادت اواصر الصلات بين عبد الناصر والاخوان المسلمين وخاصة بعد تعرفه الوثيق بالرائد محمود لبيب عام ١٩٤٤ وهو احد العسكريين السابقين الذى تشرب بالخبرة العسكرية الالمانية عندما هاجر الى المانيا فى شبابه وكان المرشد العام قد كلفه بالاشراف على الجناح العسكرى بالجماعة فأصبحت اتصالات الضباط بالجماعة تتم كلها عن طريقه. واسهم عبد الناصر فى تدريب افراد الجماعة على استخدام السلاح وخاصة اثناء الاعداد لحرب فلسطين عام ١٩٤٨ وازدادت صلاته بالجماعة الى الحد الذى حمل ابراهيم عبد الهادى رئيس الوزراء الى استدعائه الى

مكتبه برفقة الفريق عثمان المهدى رئيس هيئة أركان حرب الجيش فى ٢٥ مايو ١٩٤٩ عقب العودة من حرب فلسطين لتحذيره من نشاطه مع جماعة الاخوان المسلمين . وكان انضمام عبد الناصر الى جماعة الاخوان المسلمين مجرد مرحلة مؤقتة من مراحل كفاحه المرسوم لتحقيق الامل الذى يراوده والذى كرس حياته من اجل تحقيقه فلم يلبث ان نجح فى اجتذاب مجموعة من ضباط الجيش المنضمين مثله الى صفوف الاخوان وشكل منهم فى سبتمبر ١٩٤٩ نواة التنظيم الذى عرف فيما بعد باسم تنظيم الضباط الاحرار والذى انفصل منذ ذلك التاريخ عن صفوف الاخوان ولم تعد للجماعة عليهم أية وصاية او توجيه .

وعندما اصبح انضمام الضباط الى تنظيم الاحرار لا علاقة له بمبادىء الاخوان المسلمين انضم اليه الكثيرون من مدارس فكرية ومذاهب مختلفة تباينت من أقصى اليمين الى اقصى اليسار ، ورغم هذا الاختلاف العقائدى فقد كانت تجمعهم وحدة الهدف الوطنى الذى تمثل فى المبادىء الستة التى أعلنت فى منشورات الضباط الاحرار .

وكان اصرار عبد الناصر وأعضاء لجنة القيادة التى سميت باللجنة التأسيسية على عدم خضوع التنظيم لوصاية أو توجيه احد من خارج الجيش سببا فى اسقاط عضوية المقدم عبد المنعم عبد الرءوف العضو الثانى بعد عبد الناصر من المؤسسين للتنظيم وذلك قبل قيام حركة الجيش بثلاثة اشهر لالتزامه وارتباطه بجماعة الاخوان المسلمين ومحاولته نقل ولاء بعض الضباط

الاحرار . ورغم اخراج المقدم عبد المنعم عبد الرءوف من قيادة التنظيم حرص عبد الناصر على الاحتفاظ بصلات وثيقة وصداقات شخصية مع بعض اقطاب الاخوان المسلمين كما حرص على ان يظل التعاون قائما بينهما أملا فى مؤازرة جماعة الاخوان المسلمين لحركة الجيش عند قيامها وكان ذلك هو السبب الذى دفعه للاتصال بالاخوان لاخطارهم بموعد الحركة قبل أيام من قيامها طلبا لتأييدهم كما سيرد بالتفصيل فيما بعد وكانت جماعة الاخوان هى الهيئة المدنية الوحيدة التى اخطرت بموعد الحركة عن طريق عبد الناصر شخصيا .

وعلى الرغم من اتصالات عبد الناصر الوثيقة باليمين ممثلا فى جماعة الاخوان المسلمين فقد حرص فى نفس الوقت على تدعيم صلته باليسار عن طريق خالد محيى الدين زميله فى لجنة القيادة - وكان خالد محيى الدين قد ترك جماعة الاخوان المسلمين وانضم عام ١٩٤٧ الى منظمة اسكرا اليسارية بعد قراءته بعض الكتب الماركسية ... وفى عام ١٩٥٠ انضم عن طريق أحمد فؤاد (رئيس مجلس ادارة بنك مصر فيما بعد) الى منظمة يسارية اخرى هى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) وقدم خالد محيى الدين زميله أحمد فؤاد الى جمال عبد الناصر الذى عقد معه صلة شخصية وثيقة .

وكان لمنظمة (حدتو) قسم خاص بالجيش تديره لجنة مكونة من احمد فؤاد المسئول الثقافى والرائد احمد حمروش المسئول السياسى وشوقى فهمى حسين

المسئول التنظيمي - ووافقت لجنة الجيش بالمنظمة على عقد صلة تنظيمية مع الضباط الاحرار وأصبح احمد فؤاد هو المسئول عن ذلك .

وكان قسم الجيش فى (حدتو) يشترك مع عبد الناصر فى كتابة منشورات الضباط الاحرار وكما ذكر احمد فؤاد : « أصبحت (حدتو) بعد حريق القاهرة فى ٢٦ يناير هى الجهة التى تقوم بطبع وتوزيع المنشورات وأذكر اننى قدمت لجمال عبد الناصر الاهداف الستة بناء على طلبه ونزل بها منشور » وكان قسم الجيش بحدتو يضم بعض الضباط الاحرار الذين اشتركوا فى حركة الجيش مثل القدم يوسف صديق والملازم أول آمال المرصفى والنقيب المهندس احمد جمال علام .

هذا ولم يحدث خلاف بين لجنة القيادة بتنظيم الضباط الاحرار وبين خالد محيى الدين قبل قيام الحركة بسبب اتصالاته اليسارية مثل ما وقع مع عبد المنعم عبدالرءوف بسبب صلاته بالاخوان .. ذلك الخلاف الذى انتهى باخراجه من اللجنة قبل ثلاثة أشهر فقط من قيام الحركة .

ولا يرجع ذلك الى التعليل الذى حاول أحمد حمروش ان يقنعنا به وهو ان منظمة حدتو كانت تجند الضباط أولا لتنظيم الضباط الاحرار فاذا استكملوا مواصفات الدخول لتنظيم (حدتو) عرض عليهم الانضمام لقسم الجيش بحدتو ولذا لم يحدث تناقض بين الضباط الاحرار والضباط الشيوعيين ... هذا التعليل يخالف المنطق ويجافى الواقع ، ومن مذكرات يوسف صديق وخالد محيى الدين يتضح أنهما انضما الى التنظيمات

اليسارية اولا قبل انضمامهما الى الضباط الاحرار كما انه من غير المعقول ان يسخر التنظيم اليسارى امكانياته لتجنيد الضباط لحساب تنظيم الاحرار بدلا من تجنيدهم مباشرة فى قسم الجيش بالمنظمة وهو الامر الطبيعى . لكن السبب الحقيقى فى موقف خالد محيى الدين هو ان المجال لم يكن مهيئا امامه لاغراء الضباط الاحرار بتحويل ولائهم الى المنظمة اليســــــارية فلم يكن احد من هؤلاء الضباط وقتئذ يقبل او يهضم الفكر الشيوعى ولذا لم تجد لجنة قيادة الاحرار اية خطـورة على التنظيم من نشاط خالد محيى الدين اليســــــــارى اما فى حالة عبد المنعم عبد الرءوف فقد كانت الخطورة محققة فان دعوة الاخوان وقتئذ كان لها بريقها وجاذبيتها بالنسبة للضباط وكان عدد لا يستهان به من الضباط الاحرار من أصل اخوانى مما كان يسهل معه تحويل ولائهم مرة اخرى الى الجماعة . وقد بذل عبد المنعم عبد الرءوف محاولات عديدة لاقناع زملائه اعضاء لجنة القيـــــــادة بضرورة ربط التنظيم بجماعة الاخوان المسلمين ولكن أعضاء اللجنة لم يقتنعوا بالمبررات التى قدمها زميلهم لتنفيذ هذا الاقتراح الذى كان كفيــلاً بوضع التنظيم تحت وصاية الاخوان المسلمين .

ولذا لم تجد لجنة القيادة بدا من إبعاده اتقاء لخطره.

لكن مجريات الحوادث اثبتت ان علاقة عبد الناصر بالاخوان كانت أقــوى واشـــد ارتباطا وان اعتماده على مؤازرتهم كان يفوق كثيرا اعتماده على (حدتو) فلم يهتم بابلاغ المنظمة اليسارية بموعد الحركة او طلب تأييدها مثل ما فعل مع الاخوان المسلمين ــ رغم علاقته الوثيقة (بحدتو) واشتراكها معه فى كتابة وطبع المنشورات ــ

ولولا قيام احمد حمروش باخطار المنظمة بموعد الحركة بمبادره شخصية منه وبلا تكليف من عبد الناصر لما علمت (حدتو) بأية معلومات عن حركة الجيش قبل قيامها .

لقاءات نجيب الهلالى

فى صباح ٢٢ يوليو شهد منزل نجيب الهلالى باشا بالمندرة بالاسكندرية نشـــاطا غير عادى ونزل صاحب الدولة من غرفة نومه مرتديا بدلة بيضـــاء أنيقة الى صالونه الخاص بالدور الاول فى العاشرة صباحا . وكان كتلة من النشاط ويبدو على اساريره المرح والانشراح وهو فى طريقه لمقابلة أعضاء وزارته الذين كلف الاستاذ صلاح الشاهد تشريفاتى الرياسة فى مساء اليوم الســـابق بالاتصال بهم ودعوتهم الى الحضور لمقابلته وكان ذلك عقب تكليفه بتأليف الوزارة .

ولم يفاجأ صلاح الشاهد بهذا النبأ بل واخبر رئيسه انه قد عرف الامر من قريبته أصيلة هانم والدة الملكة ناريمان عندما قالت له ان الرجل النظيف آت الى الوزارة وذكر انه قال لها ان شروط الهلالى للخروج من صومعته وقبول الوزارة هى تطهير الحاشية من المفسدين فردت بأن الملك قد قبل ذلك . ولم يلبث المنزل الهـادىء أن تحول الى خلية نحل فقد أخذ الوزراء يتوافدون على البيت فى الوقت الـذى علت فيه أصـوات الصحفيين بالخارج وهم يحتجون على جنود الحراسة الذين كانوا يحاولون منعهم من الدخول .

واستقبل الهلالى باشا من أعضــــاء وزارته الاولى الباشوات عبد الخالق حسونة ومرتضى المراغى ومحمد

كامل مرسى وطراف على وزكى عبد المتعال ومحمد المفتى الجزايرلى وراضى ابو سيف راضى ومحمد رفعت وفريد زعلوك وطه السباعى وتم الاتفـــاق معهم على دخـولهم الوزارة الجديدة .

وكان الهلالى قد استدعى جميع أعضاء وزارته الاولى للاشتراك معه فى تشـــكيل الوزارة ما عـــدا محمود غزالى وصليب سامى كما استبعد نجيب ابراهيم الذى اشترك فى وزارة حسين سرى باشا قائلا انه لن يتعاون مع وزير جلس الى جوار كريم ثابت فى مجلس الوزراء .

واستقبل الهلالى بعد ذلك الوزراء الجدد وهم حسن كامل الشيشينى المرشح وزيرا للزراعة والدكتور سيد شكرى المرشح وزيرا للصحة وكان الهلالى قد بحث فى اليوم السابق عن اسمى وزيرين قبطيين ليدخلا الوزارة فرشح المحيطون به المهندس يوسف سعد لوزارة الاشغال والاستاذ مريت غالى لوزارة الشئون البلدية والقـروية ورحب الهلالى بالترشيح واستقبل الوزيرين القبطيين .

وكانت تعليمـــات رئيس الوزراء لاعضـــاء وزارته أن يلتقوا جميعا قبل الساعة الرابعة فى صالون قصر المنتزه لحلف اليمين امام الملك .

ودعى الهلالى بضع مرات الى التليفون ليتحدث الى حافظ عفيفى رئيس الديوان الملكى وكانت المكالمات تتسم بروح الود والصداقة فان الهـلالى كان شديد الاطمئنان الى تعاون حافظ عفيفى معه كمـــا كان بالغ الثقة فى كفاءته ونزاهته وحسن نواياه .

وعندما زاره حافظ عفيفى فى منزله فى اليوم السابق وابلغه أن الملك يكلفه بتأليف الوزارة الجـديدة وحاول الهلالى الاعتذار محتجا بأن المؤمن لا يلدغ من جحر واحد

مرتين رد حافظ عفيفى : « لقد تغيرت الاوضاع ووعد الملك بأن يلتزم حدوده والا يمكن غير المسئولين من شئون الحكم » .

وهكذا كان الهلالى فى ذلك الصباح كما وصفه من شاهدوه أسعد ما يكون الانسان .

وفى الوقت الذى كان فيه الهلالى مشغولا بلقاءاته مع وزرائه فى منزله بالاسكندرية كان العمل فى قيادات الجيش ووحداته بالقاهرة يسير سيره المعتاد دون ان يبدو فى الافق أى نذير لشىء غير متوقع فالفريق حسين فريد أقبل الى مكتبه بكوبرى القبة مبكرا نشطا كعادته كل صباح ومضى يصرف الامور بصرامته المعروفة بينما أخذ مدير مكتبه العقيد أ . ح عبد العزيز فتحى فى عرض الاوراق والمذكرات الهامة عليه وهو يذيلها بعد قراءتها بتأشيراته الموجزة الدقيقة .

وقبل أن ينصرف مدير المكتب أمره رئيس الاركان باستدعاء اللواء محمد نجيب لمقابلته على الفور . وكان محمد نجيب وقتئذ مديرا لسلاح المشاة ورئيسا لمجلس ادارة نادى الضباط الذى صدر القرار بحله يوم ١٦ يوليو ٥٢ بناء على ضغط الملك على الفريق محمد حيدر القائد العام .. وعاد عبد العزيز فتحى بعد قليل لينبىء رئيسه بأن اللواء محمد نجيب قد حجز بكشف المرضى فى منزله منذ أيام وسأله ان كان يود أن يطلبه له على التليفون فهز الفريق حسين فريد رأسه وأخبره فى اقتضاب أنه يريده شخصيا فان التليفون لا يصلح فيما يريده من أجله وأشار الفريق بيده فبادر مدير مكتبه بالانصراف .

ماذا كان يريد حسين فريد يا ترى من اللواء محمد

نجيب فى ذلك اليوم .. هل كان يريد أن يخطره بأن يهيىء نفسه للسفر الى الصعيد فان قرار تعبينه قائدا المنطقة الجنوبية بمنقباد على وشـــك الصدور ... هل كان يريد أن يسأله عن سر مقـــــابلته للدكتـــور محمد هاشم وزير الداخليـــة فى حكومة حسين سرى باشـــا المستقيلة يوم ١٨ يوليو فى شقته بالزمالك بعد منتصف الليل والتى رصدها رجال المباحث ... أم كان يريد أن ينصحه بدافع من الزمالة أن يقلل من نشاطه واتصالاته لانه موضوع تحت رقابة المباحث ؟ ..

الواقع ان سبب هذا اللقاء الذى لم يتم سيظل سرا مجهولا الى الابد .

وكانت الحركة فى معســـــكرات الجيش بهاكستيب والعباسية والماظة تجرى على منوال العمـــــل اليومى فالجنـــود فى طوابيرهم خلف مدافعهم وأسلحتهم تحت اشراف ضباطهم وقد علت الاصوات ونشطت الحركات وتتابعت النداءات . أما القادة ومديرو الاسلحة والادارات فقد ظلوا فى ذلك اليوم فى مكاتبهم يقـــابلون زوارهم ويردون على المكالمات التليفونية ويوقعـــون على الاوراق الهامة التى قدمهـــا لهم ضباط أركان حربهم والبعض منهم اخذوا يمرون على وحداتهم ويلقون على مرؤسيهم من الضـــباط اوامرهم وتعليماتهم وكان بعضها يتعلق بموضوعات هامة واجراءات يريدون منهم تنفيـــذها فى اليوم التالى .. ولكن من كان من هؤلاء القادة يتخيل ان شمس اليوم التالى لن تطلع عليـــه الا وهو رهين الاعتقال ؟ من كان يظن أن هذا الهـــدوء الشامل فى معسكرات الجيش سوف تعقبه العاصفة التى ستقتلع كل هذه الاوضاع والمفاهيم البالية .

أسباب التعجيل بموعد قيام حركة الجيش

شائعتان تعجلان بموعد قيـــام حــركة الجيش

كانت النية معقودة لدى لجنة القيادة فى الضباط الاحرار على القيام بالحركة عام ١٩٥٥ - وذلك ما صرح به جمال عبد الناصر بنفسه بعد الثورة - وقد قدرت هذه المدة على أساس مرور ست سنوات على بدء تشكيل التنظيم لتكون الفرصة قد تهيأت لاستكمال بنائه فان عملية انشاء تنظيم سرى بالجيش تمتد خلاياه داخل مختلف الاسلحة والوحدات لم تكن أمرا هينا فى وجود أجهزة متعددة للأمن مثل المخابرات الحربية والبوليس السياسى وأجهزة الملك الخاصة بالامن كما ان أجهزة المخابرات الانجليزية والامريكية لم تكف عن نشاطها فى الآونة الاخيرة بحثا عن الضباط الاحرار .

وفوجىء التنظيم وهو ما زال هشا غير متكامل بأحداث حريق القاهرة فى ٢٦ يناير التى انتهت بنزول الجيش الى الشوارع لاعادة الامن والاستقرار الى العاصمة - وضاعت من التنظيم فرصة ذهبية باستغلال انتشار قوات الجيش فى أرجاء العاصمة للاستيلاء على السلطة بضربة واحدة ودون مغامرة أو جهد . وانقسم الرأى بين أعضاء لجنة القيادة .. فريق يرى ضرورة استغلال

فرصة وجود الجيش فى قلب العاصمة وظروف منع التجول ليلا للقيام بالحركة على الرغم من عدم استكمال التنظيم قوته اذ انه من المستبعد أن تسنح فرصة مماثلة فى المستقبل اما الفريق الآخر ومن بينه عبد الناصر فقد كان يؤثر عدم التحرك فى هذه الآونة لان التنظيم اضعف من ان يقوم بالضربة المنتظرة . وحسم عبد الناصر الامر بعد اللقاء الذى أجراه مع اللواء محمد نجيب فى مكتبه برئاسة المشاة الذى حضره معه اثنان من أعضاء اللجنة هما عبد الحكيم عامر وصلاح سالم كما حضره احد ضباط التنظيم وهو الرائد أ . ح جمال حماد أركان حرب سلاح المشاة وقتئذ - وفى هذا اللقاء حذر محمد نجيب من عواقب القيام بأى تحرك فى هذه الفترة التى يتربص فيها الاستعمار بالوطن بعد الغاء معاهدة ١٩٣٦ واقالة الحكومة الوفدية فقد يستغل الفرصة ويزحف بقواته الى القاهرة بحجة المحافظة على الامن وحماية ارواح الاجانب وهى الحجة التى يتذرع بها على الدوام لتنفيذ مآربه . واتجه تفكير لجنة القيادة بعد ذلك الى التعجيل بموعد الحركة الذى تحدد عام ١٩٥٥ ليأتى مبكرا ثلاث سنوات عن ميعاده واختير شهر نوفمبر ١٩٥٢ موعدا للقيام بالحركة وكان السر فى ذلك ان البرلمان الوفدى كان من المفروض اجتماعه فى هذا الشهر بقوة الدستور فى حالة عدم دعوته من قبل الملك . فاذا حدثت مخالفة دستورية كما كان منتظرا فان حركة الجيش عندئذ تكون لحماية الدستور ولذا تضمن تأييد الشعب . وكانت هناك ثلاثة عامل أدت الى زلزلة الوضع السياسى وتحطيم صورة الملك امام الشعب تحطيما لا يمكن جبره مما شجع لجنة القيادة على اتخاذ قرار التبكير

بالحركة ثلاث سنوات .. أولها قضية الاسلحة الفاسدة فقد أثبتت أن الملك يسرق هو وحاشيته ولو على جثث الضحايا وثانيها كانت مأساة زواج أخته فتحية من رياض غالى وتجريدها هى وأمها نازلى من لقبيهما وبذا انكشف للشعب جو الانحلال الذى تعيش فيه الاسرة المالكة اما ثالثها فكانت مؤامرته الاخيرة مع الانجليز باحراق القاهرة واقالة الحكومة الوفدية فقد كانت طعنة دامية للكفاح الوطنى ضد الانجليز ودمغته أمام الشعب بالخيانة وأجبرته على تأليف وزارات متعاقبة لا عمر لها ولا سند لها من الشعب أو الدستور عرفت باسم وزارات الاحتضار وأدى ذلك كله الى ضياع ثقة الشعب فى حكومته وأصبح الوضع فى الداخل أشبه بأوراق الخريف لا يحتاج الا الى هزة بسيطة يسقط بعدها هشيما تذروه الرياح .

وعجل فاروق باشعال المعركة بينه وبين الضباط مبكرة أربعة أشهر عن موعدها فقد اصدر الفريق محمد حيدر ارضاء له قرارا بحل مجلس ادارة نادى الضباط فى ١٦ يوليو عقابا رادعا للضباط على جرأتهم وتطاولهم على قائدهم الاعلى خلال اجتماع الجمعية العمومية بناديهم بالزمالك وكان الفارق الزمنى بين اجتماع النادى وقرار الحل شهرا واحدا بالضبط .

وبادرت اللجنة التأسيسية للضباط الاحرار الى التقاط القفاز الذى قذف به الملك فى وجه ضباط الجيش واجتمعت يوم ١٧ يوليو للنظر فى الموقف وحضر الاجتماع عبد اللطيف البغدادى لاول مرة بعد انقطاع دام

ستة اشهر احتجاجا على قرار اللجنة السابق بعدم التحرك عقب أحداث حريق القاهرة .

ولقد ثبت ان اللجنة قد اجتمعت ثلاث مرات خلال ايام ١٧ ، ١٨ ، ١٩ يوليو وحضر اجتماعاتها جميع أعضائها الموجودين بالقاهرة ومعهم عبد الحكيم عامر الذى كان يعمل برئاسة الفرقة الاولى برفح ويمضى بالقاهرة اجازة ميدان كما ثبت ان التفكير اتجه أولا الى اختيار يوم ٥ اغسطس موعدا لقيام الحركة وبرر خالد محيى الدين ذلك الاختيار بسببين أولهما خشية امتناع البنوك عن صرف مرتبات الضباط والجنود وثانيهما ـ وهو الاهم ـ انتظار وصول القوة الاساسية لكتيبة مدافع الماكينة الاولى من العريش والتى كانت مقدمتها قد وصلت هاكستيب يوم ١٣ يوليو بقيادة المقدم يوسف منصور صديق قائد ثانى الكتيبة .

وكان مقررا أن تلعب هذه الكتيبة الدور الاول بين وحدات المشاة لما تتمتع به من قوة نيران كثيفة .

لكن هذا الموعد ٥ اغسطس تم تقديمه كما نعلم الى ليلة ٢٣ يوليو واذا رجعنا الى المذكرات والاقوال التى نشرت لمعرفة متى حدث على وجه التحديد هذا التغيير الذى عجل بموعد قيام الحركة نحو اسبوعين لوجدنا كثيرا من التضارب فالبغدادى يروى ان ذلك تم خلال اجتماع لجنة القيادة يوم ١٨ يوليو واللواء محمد نجيب يروى ان ذلك تم خلال مقابلته لعبد الناصر وعبد الحكيم عامر فى غرفة الطعام بمنزله صباح يوم ١٩ يوليو بعد ان اخذهما اليها من الصالون الذى كان يجلس فيه الصحفى المعروف محمد حسنين هيكل والمقدم جلال

ندا عندما ادرك انهما يريدان ان يسرا اليه بشيء خاص — وعندما اخبراه بأن الموعد هو ٥ اغسطس وبررا له ذلك بالسببين السابق ذكرهما ضغط على عبد الناصر للتعجيل بموعد الحركة لان الجهات المسئولة عرفت اعضاء اللجنة وقد علم محمد نجيب بذلك من الدكتور محمد هاشم وزير الداخلية عندما استدعاه الى منزله بالزمالك يوم ١٨ يوليو ودامت المقابلة الى ساعة متأخرة من الليل .

أما خالد محيى الدين فيروى ان موعد الحركة لم تتحدد بالضبط الا خلال الاجتماع الذى عقد بمنزله ظهر يوم ٢٢ يوليو وحضره أعضاء مجلس القيادة .

ومن تضارب هذه الاقوال تتضح لنا الصعوبة فى تحديد الوقت الذى تقرر فيه العدول عن قيام الحركة فى ٥ أغسطس والتعجيل بها لتكون ليلة ٢٣ يوليو .

واذا ضربنا صفحا عن الاقوال التى أوردناها والتى قد يكون الخطأ قد شاب بعضها بسبب طول المدة واحتمال النسيان واعتمدنا على تحليل الاحداث والوقائع تحليلا منطقيا لامكننا فى النهاية أن نصل الى أقرب ما يمكن الى الصواب من ناحية تسلسل الاحداث .

ان صدور القرار بحل مجلس ادارة نادى الضباط يوم ١٦ يوليو كان ناقوس الخطر الذى أيقظ اعضاء لجنة القيادة فبادروا الى الاجتماع يوم ١٧ يوليو بعد أن أحضروا زميلهم الغائب عبد اللطيف البغدادى ليكتمل عقدهم وانضم اليهم عبد الحكيم عامر الذى كان بالقاهرة فى اجازة ميدان .

وعقدت اللجنة ثلاثة اجتماعات متوالية فى أيام ١٧ ، ١٨ ، ١٩ يوليو جرت فيها مناقشة الاقتراحات المعروضة

امام اللجنة للرد على قرار حل مجلس ادارة النادى ، وكان الاقتراح الاول هو القيام بعملية اغتيالات واسعة النطاق لثلاثين شخصا من السياسيين المصريين على أن يتم ذلك فى يوم واحد . ثم عدل عن هذا الاقتراح الدموى وتم الاخذ بالاقتراح الثانى وهو القيام بحركة عسكرية ليكون تغيير الاوضاع جذريا ولتكون للتضحية ثمارها . وخلال هذه الاجتماعات وكانت أعصاب أعضاء اللجنة لا تزال هادئة نوقش قرار حل مجلس الادارة الذى كان يعنى فى الواقع أن الملك وقائده العام محمد حيدر قد قررا انتهاج سياسة أكثر تشددا وحزما ازاء الضباط الاحرار الذين يثيرون المتاعب فى الجيش كما يعنى بوضوح ان الملك قد بدأ المعركة . وازاء هذا الموقف وعلى ضوء مناقشة العوامل المؤثرة قررت اللجنة تحديد يوم ٥ أغسطس موعدا لقيام الحركة . ولا يمكن من الوجهة المنطقية ان نتصور أن تعدل اللجنة عن قرارها وتسارع بالتعجيل بالحركة نحو خمسة عشر يوما الا اذا كانت هناك أسباب جوهرية قد جدت على الموقف أو ان هناك قوة ضاغطة قد طرأت فجأة فاضطرت اللجنة الى هذا التعجيل مضحية فى سبيل ذلك بالفترة التى كانت خصصتها لاتمام الاستعدادات داخل الاسلحة واخطار أكبر عدد من الضباط الاحرار ليعود من قام منهم بالاجازة وأخيرا وهو الاهم أن تكون القوة الضاربة من المشاة وهى الكتيبة الاولى مدافع ماكينة والمسلحة بستة وأربعين مدفع ماكينة فيكرز قد وصلت من العريش . فاذا أمعنا التفكير فى العوامل التى طرات على الموقف بعد يوم ١٩ يوليو لخرجنا بالحقائق التالية :

أولا ــ قدم حسين سرى رئيس الوزراء استقالته يوم ٢٠ يوليو ــ وكان معروفا أن حسين سرى يعلم بحالة السخط الموجودة بالجيش ومن أجل ذلك رشح اللواء محمد نجيب وزيرا للحربية ولكن فاروق رفض ذلك واستمرت سياسة حسين سرى فى محاولة التهدئة فدعا الدكتور محمد هاشم وزير الداخلية اللواء محمد نجيب الى مقابلته فى منزله بالزمالك يوم ١٨ يوليو ودامت المقابلة الى ساعة متأخرة من الليل ، وكان الفرض منها معرفة أسباب تذمر رجال الجيش وما هى مطالبهم ــ وباستقالة وزارة حسين سرى تكون السياسة التى اتبعها فى محاولة استرضاء الجيش قد فشلت لانها لم تجد استجابة من الملك .

ثانيا ــ بمجرد تقديم حسين سرى استقالة وزارته علمت المصادر المطلعة ان نية الملك متجهة الى قبولها وتكليف نجيب الهلالى بتشكيل وزارة جديدة ــ ولم يكن شخص نجيب الهلالى فى ذاته يشكل أية خطورة على الضباط فقد كانت رغبته واضحة هو الآخر فى محاولة استرضاء ضباط الجيش عندما عقد النية فى وزارته الاولى على اسناد وزارة الحربية الى محمد نجيب وتم الحصول على موافقته فعلا لولا رفض الملك للتعامل مع عرابى رقم ٢ على حد قوله .

ثالثا ــ كان النبأ الذى أدى الى انزعاج الضباط الاحرار والذى أثار ثائرتهم هو انتظار تقلد اللواء حسين سرى عامر مدير الحدود وخصم الضباط الاحرار اللدود منصب وزير الحربية ولم يكن ذلك يعنى سوى تحدى الملك للضباط وبدء سياسة انتقامية .

رابعا ـ اقترن نبـــأ قرب تعيين حسين سرى عامر وزيرا للحربية بنبأ آخر أثار القلق فى نفوس أعضاء لجنة القيادة على وجه الخصوص وهو ان اجهزة الملك الخاصة بالامن تمكنت من كشف أسماء ١٢ ضابطا من بينهم معظم اعضاء لجنة القيادة نفسها ـ وان الغـــرض من تعيين حسين سرى عامر هو التنكيل بهؤلاء الضـــباط بشتى الوسائل من طرد من الخدمة أو اعتقال أو تشريد .

هكذا دب الاضطراب والقلق فى نفوس أعضاء لجنة القيادة فالخطـــر الذى كان فى دائرة الاحتمال أصبح وشيكا داهما واحسوا بأنهم هم أنفسهم معرضون فى أية لحظة للاجراءات الانتقامية من الخصم العنيد ـ وغدا الامر بمثابة صراع مع الزمن أو سباق الموت بين لجنـــة القيادة وغريمها حسين سرى عامر .

وكان السؤال الذى يدور فى ذهن اعضاء اللجنة هل سيتمكنون من الفـداء به قبل أن يتعشى بهم ـ ولم تكن هناك اجابة لهذا السؤال سوى التعجيل بقدر ما يستطاع بسرعة الحركة ولذا عدل بالطبع عن الموعد الاصلى وهو ٥ اغسطس وجرت محاولة لتكون الحركة ليلة ٢٢ يوليو ليتم تحطيم الوزارة الجديدة بما فيها وزير الحربية قبل اداء اليمين الدستورية ولما تعذر ذلك تحددت ليلة ٢٣ يوليو أى بعد ســـاعات قلائل من اداء الوزارة اليمين الدستورية حتى لا تتاح أية فرصة لوزير الحربية لاصدار اى تعليمات أو أوامر يسبق بها ضربة الضباط الاحرار التى كانت تعد وتتئد فى عناية وكتمان لتهوى على راس الافعى فتسحقها سحقا .

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن بعد ان استعرضنا

العوامل السابقة هو ان نصل الى المصدر الذى استقت منه لجنة القيادة المعلومات الخطيرة التى بدلت تقديراتها وكذا وقت توصلها لهذه المعلومات كي يمكننا استقصاء امر هذه الانباء والحكم بعد مناقشتها وتحليلها عما اذا كانت انباء صحيحة أم كانت مجرد شائعات ؟ لقد ثبت ان اول تبليغ وصل الى لجنة القيادة كان عن طريق اللواء محمد نجيب حينما زاره عبد الناصر وعبد الحكيم فى منزله صباح يوم ١٩ يوليو فقد أخبرهما بنبأ اكتشاف السلطات المسئولة أسماء اللجنة التى تتكون من اثنى عشر اسما وكان مصدر النبأ موثوقا به فقد جاء عن طريق وزير الداخلية نفسه خلال زيارة محمد نجيب له فى منزله فى الليلة السابقة مباشرة .

وكان التبليغ الثانى الذى أثار الاعصاب بلا شك وادى الى تصميم عبد الناصر على التعجيل بالحركة بأقرب وقت ممكن هو تلك المحادثة التليفونية التى تمت يوم ٢٠ يوليو بين الصحفى المعروف أحمد ابو الفتح رئيس تحرير المصرى من الاسكندرية وبين شقيق زوجته الرائد ثروت عكاشة أحد الضباط الاحرار البارزين بسلاح الفرسان فى منزله بالقاهرة وكان يتناول الغداء عنده وقتئذ المقدم حسين الشافعى زميله فى السلاح والتنظيم . وعن طريق هذه المحادثة علم ثروت عكاشة ان حكومة حسين سرى قد قدمت استقالتها وان نجيب الهلالى قد كلف بتشكيل الوزارة الجديدة وان اللواء حسين سرى عامر سوف تسند اليه وزارة الحربية وان اثنى عشر ضابطا ينتظرهم السجن والتشريد وكانت تلميحات أحمد ابو الفتح توحى بضرورة التحرك السريع لان الموقف لا يحتمل التأخير .

ولم يعد هناك مجال للبحث او النقاش فان الاحداث هى التى فرضت نفسها بعد أن اصبح الموضوع مسألة حياة أو موت بالنسبة للتنظيم فما كاد ثروت عكاشة وزميله يبلغان تلك الأنباء الى عبد الناصر اللذين توجها اليه مباشرة عقب الحديث التليفونى حتى أصدر التعليمات لهما باعداد قوة سلاح الفرسان الضاربة على الفور حتى تصدر لهم أوامر التحرك . والتزم ضباط سلاح الفرسان الاحرار ثكناتهم يوم ٢١ يوليو لم يغادروها منذ ذلك اليوم كما صدرت التعليمات الى الضباط الاحرار في باقى الاسلحة بعدم مغادرة بيوتهم يوميا بعد الساعة الثالثة ظهرا الى حين ان تصدر لهم الاوامر النهائية .

وهكذا ووفقا لتسلسل الاحداث لابد أن نعتبر ان المعلومات التى أوصلها ثروت عكاشة الى جمال عبد الناصر نقلا عن احمد أبو الفتح يوم ٢٠ يوليو كانت هى العامل الاساسى فى التعجيل بقيام الحركة وفى تغيير الموعد السابق تحديده بمعرفة لجنة القيادة وبدأ عبد الناصر منذ هذه اللحظة يمسك بزمام المبادرة بنفسه ويتخذ القرارات المصيرية كموعد القيام بالحركة ليلة ٢٢ يوليو ثم تأجيله بعد ذلك ٢٤ ساعة ليصبح ليلة ٢٣ يوليو فان الوقت لم يعد يسمح باجتماع اللجنة القيادية والاستماع الى مناقشاتها الطويلة والموقف اصبح فى حاجة الى قائد واحد فقط يحسم الامور ويصدر التعليمات ولذا لم تعقد اللجنة اجتماعا آخر عقب يوم ١٩ يوليو وانفرد عبد الناصر منذ ذلك الحين بالقيادة والتوجيه وحينما اجتمعت اللجنة ظهر يوم ٢٢ يوليو بمنزل خالد محيى الدين كان اجتماعها لمجرد تلقى الاوامر التنفيذية للتحرك والتى القاها المقدم

زكريا محيى الدين ولم يكن وقتئذ من أعضاء اللجنة كما شاركهم الاجتماع من خارج اللجنة ابراهيم الطحاوى وعبد المنعم أمين وحسين الشافعى ـ ولا يعنى انفراد عبد الناصر بالقيادة والتوجيه ان صلاته بأعضاء لجنة القيادة قد انقطعت فى الايام الاخيرة فقد كان دائما على اتصال وثيق بهم ويخبرهم بالموقف اولا بأول ولكن ذلك كان يتم معهم فرادى أو مجموعات صغيرة بقصد التشاور ولكن المقصود ان اللجنة مكتملة العدد وباختصاصاتها لم تنعقد بعد يوم ١٩ يوليو حتى نجاح الحركة اذ ان اجتماع يوم ٢٢ يوليو بمنزل خالد محيى الدين لا يعتبر اجتماعا خاصا باللجنة فقد حضره أربعة من خارجها ويمكن اعتبار الحاضرين فى هذا الاجتماع بمثابة مجموعة الاوامر وقد قدموا لتلقى تعليمات التحرك من القائد كما هو المتبع فى فن التكتيك الحربى .

والحقيقة ان أسلوب جمال عبد الناصر الذى اتبعه خلال تلك الفترة فى تحمل المسئولية والانفراد باصدار القرارات كان يتمشى تماما مع طبيعة شخصيته وفى حبه للرئاسة رغم ما كان يكلفه ذلك من عناء .. وقد كان طبيعيا بعد أن شعر عبد الناصر بأنه يمارس فعلا سلطاته كرئيس للجنة القيادة أن يحس بالقلق عندما أخذ زكريا محيى الدين ـ وهو أقدم منه فى الرتبة ـ يقرأ خطة العمليات على الحاضرين فى اجتماع يوم ٢٢ يوليو بمنزل خالد محيى الدين قبل ساعات من قيام الثورة فعلى اثر انتهاء زكريا من قراءة الخطة قال : كويس على بركة الله ثم وضع الورقة التى كان يقرأ منها الخطة

فى جيبه وانصرف وهنا التفت عبد الناصر الى بعض زملائه الموجودين وقال معلقا على تصرف زكريا :

ــ الحكاية مش اقدمية .

هل كانت هناك فعلا قائمة باسماء ١٢ ضابطا ؟

ان اول مرة تردد فيها ان الملك لديه قائمة بأسماء ١٢ ضابطا من الاحرار كان يوم ٥ يوليو فقد ذكر الاستاذ موسى صبرى ان حافظ عفيفى رئيس الديوان حضر الى مكتب حسين سرى رئيس الوزراء وهو ممسك بورقة صغيرة فى يده وأخبره ان الملك له طلبات عنده أولها ابعاد ١٢ ضابطا من الجيش وثانيها حل مجلس ادارة نادى الضباط ... ولما سأله حسين سرى عن أسماء هؤلاء الضباط اجاب حافظ عفيفى بأنه لا يعرفهم وانه سمع ان حيدر باشا يعرفهم جيدا ــ ولما استفسر حسين سرى من رئيس الديوان عن صاحب الخط الذى كتبت به مطالب الملك فى الورقة التى يمسكها لانه ليس خط الملك اجابه بأنه خط الشماشرجى عزيز . وعلى اثر هذا اللقاء حضر الفريق حيدر الى مكتب حسين سرى وكان من الطبيعى أن يسأله عن أسماء الضباط الذين يطلب الملك ابعادهم وكانت المفاجأة ان حيدر باشا نفى علمه بهذه الاسماء .

لقد ظل موضوع هذه القائمة بأسماء الضباط يتردد منذ ثلاثين عاما حتى رسخ فى الاذهان كقضية مسلمة دون ان يحاول أحد مناقشته أو يبحث عن مدى صحته . . لقد كان المفترض ان يكون اول شخص لديه هذه الاسماء

هو الفريق حيدر لانه القائد العام الذى سنوكل اليه مهمة ابعاد هؤلاء الضباط ولكن الفريق حيدر كما رأينا أنكر امام رئيس الوزراء معرفته بهذه الاسماء ولا يمكن بالطبع ان نتخيل ان الفريق حيدر كان ضـــــالعا مع الضباط الاحرار وانه أخفى هذه الاسماء فانه أول من يعلم ان هذه القائمة لو كانت وصلته حقا فان أجهزة الامن لديهـا عدة صور أخرى تحتفظ بها لنفسها كما ان نسخة منها لابد أن تكون قد أرسلت الى السراى اظهارا لنشاط هذه الاجهزة ومدى ولائها واخلاصها للملك .

وينبغى ألا يغيب عن بالنا مدى ما كان يعانيه الفريق محمد حيدر فى هذه الفترة من ضعف مركزه وتقلص سلطاته بسبب غضب الملك عليه لعجزه عن كبح جماح الضباط الذين يثيرون المتاعب فى الجيش ووصل غضب الملك عليه الى الحد الذى جعله يبادر حسين سرى رئيس الوزراء فى أول لقـاء معه بعد أن حلفت وزارته اليمين الدستورية يوم ٢ يوليو ويطلب منه أن يعتبر حيدر غير موجود بالجيش أى مفصولا ــ واستمهله حسين سرى بعض الوقت ليبحث موضوعه ، وفى يوم ٥ يوليو قابل الفريق حيدر رئيس الورزاء حسين سرى فى مكتبه عقب زيارة حافظ عفيفى ونقل رئيس الوزراء الى حيدر بالطبع مطلبى الملك فى ابعاد الضباط وحل مجلس ادارة النادى اللذين قرأهما عليه رئيس الديوان أثناء مقابلته له .

وحينما اتصل الفريق حيدر بالسراى يوم ١٠ يوليـو امهلوه خمسة أيام لتنفيذ مطالب الملك والا اعتبر نفسه مستقيلا ــ وبادر الفريق حيدر قبل انتهاء المهلة باصدار

القرار بحل مجلس ادارة النادي استرضاء للملك واملا فى استعادة مركزه ونفوذه السابقين .

والسؤال الآن هو اذا كان لدى الفريق حيدر حقا قائمة بأسماء الضباط المطلوب ابعادهم فلماذا لم يبادر بتنفيذ مطلب الملك فى ابعادهم وهو يعلم ان ذلك المطلب جاء فى الاهمية الاولى وفقا لترتيب الطلبات فى الورقة التى كان يمسك بها حافظ عفيفى فى الوقت الذى سارع فيه بتنفيذ المطلب ذى الاهمية الثانية وهو حل مجلس ادارة نادى الضباط .. وكان حيدر يعلم بلا شك ان أمله فى استعادة مكانته لدى الملك رهين بتنفيذ مطالبه والاستجابة الى رغباته .. لا شك ان نتيجة هذه المناقشة لابد أن تصل بنا الى حقيقة لا مجال لنكرانها وهى ان قائمة أسماء الضباط لم يكن لها وجود حقيقى .

بقيت نقطة أخرى هامة وهى انه اذا صدقنا حقا انه كانت هناك قائمة تضم أسماء الضباط كما ذكر واذا صدقنا ان الاسماء المدونة بها ظلت سرا مجهولا الى حين قيام حركة الجيش فى ٢٣ يوليو ٥٢ فما هى أسباب عدم عثور أى انسان على دليل واحد يؤيد وجود هذه القائمة بعد قيام الحركة ؟ لقد وضعت الثورة يدها على جميع المستندات والوثائق والتقارير فى مختلف أجهزة الدولة بما فيها أجهزة الامن ولقد نشرت عشرات الكتب والمذكرات عن العهد الماضى بكل دقائقه وأسراره ولقد مثل عشرات من السياسيين من مختلف رجال الاحزاب وكبار المسئولين فى العهد الماضى امام محاكم الثورة سواء أكانوا شهودا أم كانوا فى قفص الاتهام وأدلوا باعترافات خطيرة وأسرار مثيرة عن كل ما يتعلق بالعهد

الماضي وكل هؤلاء وأولئك لم يتطرق واحد منهم الى ذكر قائمة أسماء الضباط الذين قرر الملك التنكيل بهم رغم ان هذا الموضوع أصبح ينشر فى الكتب والمراجع كحقيقة مؤكدة دون أن يحاول أحد مناقشته أو تمحيصه . ورأيت أن أستقصي هذا الامر بنفسي علنى أصل الى هدفى وهو مجرد معرفة الحقيقة فذهبت الى واحد من الذين كان لديهم المقدرة على ازالة الغموض والكشف عن الاسرار وهو السيد زكريا محيى الدين نائب رئيس الجمهورية السابق فقد كان بحكم وضعه كعضو فى مجلس قيادة الثورة ثم برئاسته لجهاز المخابرات العامة خير من كانت لديه الفرصة للاطلاع على قائمة الاسماء التى تردد ذكرها كثيرا ــ ان كان لها وجود حقيقى ــ ولقد أسعدنى ان التحليل المنطقى الذى سردته اتفق فى نتيجته تماما مع ما انبأنى به السيد زكريا محيى الدين وهو انه لم يعثر على أثر لمثل هذه القائمة ولم تصله أية معلومات بصحة هذه الواقعة .

منصب وزير الحربية فى وزارة الهلالى

ان الشائعة الثانية التى كان لها أثر خطير فى التعجيل بقيام الحركة كانت ذلك النبأ المثير عن انتظار اسناد وزارة الحربية الى اللواء حسين سرى عامر وانه سيعين خصيصا لتصفية موضوع الضباط الاحرار بالجيش والقضاء على شوكة أولئك الضباط الذين تحدوه جهارا فى انتخابات نادى الضباط .

واذا ناقشنا حقيقة هذا النبأ الذى ذاع وملأ الاسماع

قبل الحركة وكان له دوى هائل لاتضح لنا انه كان مجرد شائعة لا سند لها من الواقع فلقد ثبت بما لا يقبل الشك ان نجيب الهلالى لم يدر فى خلده مطلقا سواء فى وزارته الاولى أو الثانية اسناد منصب وزير الحربية الى حسين سرى عامر ولم يتردد هذا الاسم بتاتا فى محيط المقربين الى الهلالى والذين كانوا يعاونونه فى ترشيح الوزراء وعلى العكس فان الضابط الوحيد الذى رشحه نجيب الهلالى فى وزارته الاولى ليكون وزيرا للحربية كان اللواء محمد نجيب وقد كلف الاستاذ صلاح الشاهد بالاتصال به لمعرفة رأيه وعندما وافق محمد نجيب على الاشتراك فى الوزارة اتصل الهلالى برئيس الديوان الذى لم يلبث أن ابلغه برفض الملك الذى وصف اللواء محمد نجيب بأنه عرابى رقم ٢ وكان ذلك هو سر اسناد وزارة الحربية الى مرتضى المراغى بالاضافة الى وزارة الداخلية .

وعندما بدأ نجيب الهلالى فى تأليف وزارته الثانية بالاسكندرية مساء يوم ٢١ يوليو اثر تكليفه بذلك وضع أمامه على منضدة صغيرة كشفا بأسماء الذين رشحهم لدخول الوزارة وكان يجرى الاتصال التليفونى بهم عن طريق الاستاذ صلاح الشاهد لمعرفة رأيهم ـ وكان يضع علامة (صح) بجوار اسم الوزير الذى تم الاتفاق معه على الاشتراك فى الوزارة ـ وقد تمكن المصور الخاص بمجلة المصور بفضل براعته من أن يسجل بعدسته صورة هذا الكشف الذى كان يعد من أسرار رئيس الوزراء وقتئذ ـ ونشر هذا الكشف بمجلة المصور يوم ٢٥ يوليو ٥٢ بعد قيام حركة الجيش تحت عنوان « شهدنا مولد الوزارة الجديدة » والذى يهمنا فى هذا المقام انه

بمراجعة الكشف المنشور بالمصور نجد ان مرتضى المراغى كان موضوعا أمام اسمه (وزير الداخلية والحربية) .

وهذا الكشف هو بلا شك وثيقة دامغة اذ انه اول ما دونه نجيب الهلالى كمشروع لتأليف وزارته بمجرد تكليفه بذلك ولا نجد لاسم حسين سرى عامر أثرا فى ذلك الكشف مما يدل بوضوح على ان اسمه لم يخطر على بال نجيب الهلالى ولم يكن قط من المرشحين للوزارة .

حقيقة حدث تغيير فى اللحظة الاخيرة قضى باسناد وزارة الحربية الى العقيد اسماعيل شيرين زوج الأميرة فوزية أخت الملك وأن يكون مرتضى المراغى وزيرا للداخلية فقط ، وكان هذا التغيير بناء على رغبة الملك وكاد ذلك يؤدى الى عدول الهلالى عن تأليف الوزارة فى اللحظة الاخيرة ـ ولكن تحت الحاح من كانوا وقتئذ حول نجيب الهلالى قبل رغبة الملك على مضض ـ ولكن ما علاقة ذلك كله بموضوع حسين سرى عامر ؟

الصراع الخفى بين الفريق حيدر وحسين سرى عامر

اغفل المؤرخون ذلك الصراع الخفى الذى اشتدت حدته فى العام الاخير قبل حركة الجيش والذى كان يدور بلا هوادة بين الفريق محمد حيدر القائد العام واللواء حسين سرى عامر مدير سلاح الحدود والذى يفسر بلا شك كثيرا من الاسرار ويجيب عن عديد من التساؤلات وعلامات الاستفهام التى كانت تثير الحيرة فى ذلك الوقت .

كان حسين سرى عامر رجلا طموحا لا حد لآماله

ومطامعه وقد استطاع بعد عودته الى سلاح الحدود فى منصب وكيل عام السلاح عام ١٩٥١ بعد أن برأه القضاء فى قضية الاسلحة الفاسدة أن يزيح مدير السلاح اللواء محمد نجيب بعد فترة قصيرة وأن يتولى هو رئاسة سلاح الحدود .

وكانت وسيلته لتحقيق طموحه هى صداقته الشخصية لاثنين من أقرب المقربين الى الملك وهما حلمى حسين سائقه الخاص ومحمد حسن خادمه الخاص . وكان الثلاثة يمضون سهراتهم بفندق الكونتننتال فى جو من البذخ وكان حسين سرى عامر حريصا على اغراق صديقيه بهداياه الثمينة التى كان يجلبها من مختلف المناطق الصحراوية التى كان يعتبرها مملكته الخاصة . وكان لاحدى هذه الهدايا تأثير خاص لا على الصديقين فقط بل على الملك نفسه وهى صندوق كبير ملىء بذلك النوع من الاحياء المائية « الاستاكوزا » كان يصل بطائرة خاصة من الفردقة كل يوم أربعاء مع الحرص على أن تظل الاستاكوزا عائمة فى كمية كافية من المياه المالحة لتصل الى القاهرة وهى على قيد الحياة . وكان سر شغف فاروق بهذه الهدية ما كان يعتقده فى تأثيرها على تقوية وتنشيط رجولته . وعن طريق الاستاكوزا عرف حسين سرى عامر كيف يحصل على الرضاء الملكى السامى الى الحد الذى جعل الملك يمنحه الترقية لرتبة اللواء ويعينه مديرا لسلاح الحدود ويبعد اللواء محمد نجيب عن منصبه ليفسح له مكانه مما كاد يحمل محمد نجيب على تقديم استقالته ، وامتد طموح حسين سرى عامر الى ذلك المنصب المرموق الذى يتولاه الفريق حيدر ففدزهدبعد

عليل فى منصب مدير الحـدود الذى ضاق عن اطماعه ووعده صديقاه بأنهمـا عن قريب سيزيحان له الفريق حيدر كما أزاحا من قبل محمد نجيب ليتولى منصب القائد العام للقوات المسلحة .

وبدأت الحملات العنيفة ضد الفريق حيدر تنبعث لاول مرة من داخل السراى ولم يكف السائق الخاص والخادم الخاص اللذان كانا يقابلان الملك كل يوم تقريبا عن نقد تصرفات حيدر واتهامه بالعجز والضعف أمام الضباط وانه شاخ وهرم وأصبح مظهره الصارم وتكشيرته الحادة لا يخيفان طفلا صغيرا وان المنصب فى حاجة الى قائد ملىء بالحيوية والشباب من طراز حسين سرى عامر .

وانعكست هذه الحملة بالطبع على مشاعر فاروق تجاه حيدر فبدأت معاملته له تتغير وأبعده عن دائرة المقربين اليه ، وشعر الفريق حيدر بتغير المعاملة وفكر جديا فى الاستقالة ولكن بريق المنصب والحـاح المحيطين به أثنياه عن عزمه وبدأ حيدر يشكو سوء ما يعـانيه الى المقربين منه وغير المقربين الى الحد الذى دعاه الى مصارحة اللواء محمد نجيب بما يعانيه ولم يكن محمـد نجيب صديقا أو مقربا له ولكنه كان نوعا من التنفيس عما يطويه فى صدره من هموم فقال له فى مرارة عنـدما جاءه محتجا على تنحيته عن منصب مدير الحدود ليحل مكانه حسين سرى عامر :

ـ انت لا تعرف صلة حسين سرى عامر بالملك .. ده اقرب له منى .. أنا مضى على ثلاثة أسابيع لا استطيع فيها مقابلة الملك .

وجاءت انتخابات نادى الضباط وسط ذلك الجو من الشقاء الذى كان يعيش فيه حيدر وكانت الاحداث التى وقعت بمثابة نجدة من السماء جاءت لحيدر على غير انتظار ففي الوقت الذى قررت فيه الجمعية العمومية للضباط اسناد منصب الرئاسة الشرفية للنادى الى الفريق حيدر رفضت باصرار وعناد الموافقة على ضم مندوب سلاح الحدود الى مجلس ادارة النادى .

وكان حيدر محبوبا من الضباط وهذه حقيقة لا يمكن نكرانها فقد كان دائما يلبى مطالبهم ويحاول أن يحصل لهم على ما يستطيع من امتيازات لرفع مستواهم المادى . واشتدت ثورة الملك على حيدر التى كان يذكيها حلمى حسين ومحمد حسن وضغط على حيدر بضرورة تمثيل سلاح الحدود فى مجلس الادارة فقد خرج الموضوع عن اطاره الطبيعى واصبح بمثابة اهانة شخصية لحسين سرى عامر .

وضغط حيدر بدوره على محمد نجيب ومجلس الادارة ولكن ذلك لم يكن من سلطة المجلس فدعيت الجمعية العمومية للانعقاد لعرض الامر عليها .

وبسبب أحداث حريق القاهرة لم يعقد الاجتماع الا يوم ١٦ يونيو فى حديقة نادى الضباط بالزمالك وكان اجتماعا مشهودا اعتبره بعض المؤرخين أخطر اجتماع عسكرى منذ الثورة العرابية فان ما قيل وما حدث فى هذا الاجتماع افصح بما لا يدع مجالا للشك أن الملك فقد سيطرته على الجيش وان الجيش أسقط ولاءه للملك وان

الثورة العارمة ضد الملك قد خرجت من اطار السرية الى حيز العلنية .

هكذا جرت منذ البداية أحداث نادى الضباط التى كان الفريق حيدر يظهر علانية امتعاضه منها وتبرمه بها فى الوقت الذى كان فيه باطنه يهتز طربا وارتياحا لهذه الإهانات والتحديات المتتالية التى يكيلها الضباط لمنافسه وغريمه حسين سرى عامر والتى كان يأمل أن يكتشف الملك بعدها حقيقة أمره ومدى عداء الضباط له ولكن الاحداث لم تلبث ان تفاقمت بصورة لم تكن يتوقعها حيدر ولم يكن يريدها فقد انفلت زمام الموقف وانتقل الضباط من مرحلة تحدى حسين سرى عامر الى مرحلة تحدى الملك نفسه وشعر حيدر بأن الارض بدأت تميد تحت قدميه فقد توقع اشتداد الحملة ضده داخل السراى بعد هذه الاهانات الجارحة التى لحقت بالملك ؛ وكان شعور حيدر فى محله فقد اشتد سخط الملك عليه الى الحد الذى جعله يطلب من رئيس وزرائه حسين سرى فى أول لقاء معه يوم ٢ يوليو أن يعتبر حيدر مفصولا من الجيش . وتلقى حيدر طلبات الملك الخاصة بالجيش يوم ٥ يوليو عن طريق حسين سرى رئيس الوزراء وليس عن طريق الملك مباشرة كما كان الحال دائما بقصد الامعان فى اذلاله وعندما اتصل حيدر بالسراى يوم ١٠ يوليو (واغلب الظن ان اتصاله كان مع حافظ عفيفى رئيس الديوان) اعطى مهلة خمسة أيام فقط لتنفيذ مطالب الملك والا اعتبر نفسه مستقيلا .

وكان حلمى حسين ومحمد حسن قد استغلا الظروف

الاخيرة أحسن استغلال فزادا من ضغطهما على الملك لتنحية حيدر وتعيين الرجل القوى حسين سرى عامر ليعيد الانضباط والنظام الى الجيش وكاد هذا الضغط يؤتى ثماره فعلا فقد كانت المهلة المعطاة لحيدر تنتهى فى منتصف يوليو وكان اعتقاد رجال السراى أن حيدر لا يمكن أن يغامر بفقد مكانته بين الضباط ويقدم على حل مجلس ادارة النادى وانه ازاء ذلك اما أن يقدم استقالته أو تنتهى المهلة بلا نتيجة فيحيله الملك الى المعاش .

وتأهب حسين سرى عامر ليحتل المنصب الخطير الذى تاقت اليه نفسه منذ زمن وراودته احلامه فى كيفية الانتقام من هذا النفر من الضباط الذين أمعنوا فى اهانته وتحديه فى انتخابات النادى وفى اجتماع الجمعية العمومية وعلى رأسهم غريمه السابق اللواء محمد نجيب ... وكان اطمئنانه كاملا فى أن تعيينه وحلفه اليمن أمام الملك ليست الا مسألة أيام قلائل ولذا أجرى اتصالا تليفونيا من الاسكندرية مع أركان حرب الحدود بالقاهرة المقدم فؤاد الدجوى (صاحب محاكمات الدجوى الشهيرة فيما بعد) وكان من المقربين اليه وأمره أن يرسل له على وجه السرعة بزته العسكرية الجديدة الموجودة بمنزله مع مبلغ مائتى جنيه من المصروفات السرية وتأهب المقربون اليه لتهنئة القائد العام الجديد. لكن الفريق محمد حيدر خيب آمال الذين ائتمروا به وضغطوا عليه بموضوع حل مجلس ادارة النادى كوسيلة لارغامه على الاستقالة فلقد بادر حيدر تحت تأثير ما وقع عليه من ضغوط الى اصدار قراره بحل مجلس ادارة النادى فى آخر يوم من المهلة

وهو يوم ١٦ يوليو رغم ما يعلمه من سوء وقعه على الضباط وما سوف يؤدى اليه من فقده لمكانته بينهم بعد ما بذله من جهد للحصول على حبهم ولكن الرجل كان مغلوبا على أمره وسيف التهديد بطرده وشماتة أعدائه به كانا مسلطين على رأسه .

وادى قرار حل مجلس ادارة النادى الى عكس ما كان يتخيله المتآمرون على الفريق حيدر فقد كان من المستحيل ان يصدر قرار الحل ثم يحيله الملك الى التقاعد فى اليوم التالى أو حتى بعد فترة زمنية قصيرة اذ أن ذلك سوف يكون معناه أن حيدر يعاقب على الخطأ الذى ارتكبه باصدار قرار حل مجلس الادارة مما سوف يدفع الضباط الى المطالبة بتصحيح الاوضاع وعودة مجلس ادارة النادى المنحل .

واسقط فى يد حلمى حسين ومحمد حسن بعد ان فشلت خطتهما فشلا ذريعا وماذا ينتظر من عقلية سائق وخادم مهما علا شأنهما .

وجاءت استقالة حسين سرى وتكليف نجيب الهلالى بتأليف الوزارة وظن حلمى حسين ومحمد حسن ان فرصة تعويض رجلهما قد حانت بعد أن طار منه منصب القائد العام فى اللحظة الاخيرة فأخذا يهمسان فى اروقة السراى بالامنية التى يتوقان لتحقيقها وهى اسناد وزارة الحربية الى حسين سرى عامر واعتقد ان هذا هو سر الشائعة التى انتشرت بدون أساس عن انتظاره تقلده الوزارة .

ولا يستبعد أن يكون الرجلان قد فاتحا الملك نفسه فى

هذا الترشيح او فاتحا حافظ عفيفى فقد كان لرجال الحاشية دالة عليه وما واقعـــــة حمله ورقــة بخط الشماشرجى عزيز ليبلغها لرئيس الوزراء حسين سرى بصفتها مطالب للملك الا دليــــلا على ضعفه واستكانته لرجال الحاشية .

ولكن الظروف لم تكن مواتية على الاطلاق فلم يجرؤ الملك او حافظ عفيفى على مفاتحة الهلالى بهذا الامر فان نجيب الهلالى كان قد قدم هذه المرة وهو يستعرض عضــلاته ويفرض شروطه مقدما بعد أن أيقن بعد لجوء الملك اليه لتأليف الوزارة عقب عشرين يوما فقط من تقديم استقالته ان الملك قد غدا فى غاية الضعف والهوان وان هذه هى فرصته الوحيدة لفرض شروطه ومحاولة اكتساب شعبية بين الجماهير فلم يسمح للملك ان يتدخل فى تشكيل وزارته كما اعتاد أن يفعل مع رؤساء الوزارات ورفض اجابة طلب الملك الوحيد باسناد وزارة الحربية الى زوج اخته اسماعيل شيرين وكاد يعدل عن تأليف الوزارة لولا الحاج رئيس الديوان وتوسلاته له ، واشترط الهـلالى اخراج أفراد الحاشية الفاسدين واضطر الملك الى مجاراته ووعده بتلبية مطلبه فى المستقبل ولم يكن بالطبع جادا وانما كانت مناورة منه ريثما تتألف الوزارة فلقد تردت الاوضاع السياسية والاقتصـــــادية بالبلاد ووصلت الى احط درجاتها وكان فاروق يظن ان وزارة الهلالى قــد تكون حلقة النجاة لانقاذه من تلك الامواج الثائرة التى تحدق به من كل جانب ولكن فرصة الانقاذ كانت قد ولت

وكانت عجلة القدر تدور بأسرع مما قدر الملك أو توقع الهلالى .

اوضاع القوات بالقاهرة

كان معسكر هاكستيب الذى يقع أقصى شمالى القاهرة يضم رئاسة الفرقة الثانية المشاه ـ وكانت الفرقة المشاه وقتئذ تعد أقوى تشكيل مقاتل بالجيش المصرى ولم تكن مصر تملك وقتئذ الا فرقتى مشاه احداهما الفرقة الاولى التى تقع رئاستها فى رفح وتتمركز قواتهـا فى شمالى سيناء فى مواجهة اسرائيل ويقودها اللواء أ . ح محمد ابراهيم سيف الدين ـ وكانت الفـرقة الثانية بالقاهرة تحت قيادة اللواء عبد الرحمن مكى وكانت تضم ثلاثة ألوية من المشاة بالاضافة الى الاسلحة المعاونة . وكان اللواء الاول المشاه رابط فى معسكر هاكستيب منذ قدومه من الاسكندرية فى مايو ١٩٥٢ . وكان اللواء السابع تحت قياده العميد أ . ح رشدان محمد رشدان يعسكر بكتائبه الثلاث فى ثكنات العباسية القريبة من رئاسة الجيش بكوبرى القبة أما اللواء السادس المشاة تحت قيادة العميـد أ . ح محمود حمزة فكانت كتائبه فى بادىء الامر متمركزة فى منطقتى حديقة الازبكية والمعـرض الزراعى أى فى قلب العاصمة منذ سدور الاوامر اليه بالنزول الى شوارع القاهرة مساء يوم ٢٦ يناير ٥٢ عقب حريق القاهرة لاعادة الامن والهدوء اليها وتوزعت سراياه وفصائله منذ ذلك اليوم فى الشـوارع لحراسة البنوك والسفارات والمرافق العامة .

وفى أوائل مارس ٥٢ وبعد استتباب الامن وعودة النظام عادت معظم وحدات اللواء الى معسكراتها بألماظة. وفى ١١ يوليو ٥٢ تم عودة جميع وحدات اللواء الى ثكناتها في منطقة الماظة وهى الثكنات التى كان يشغلها من قبل لواء الاساس .

ومن واقع تحرك الوحدات ليلة ٢٣ يوليو يتضح لنا أن الوية هذه الفرقة الثلاثة لم تشترك منها اى وحدة فى حركة الجيش أى انه لم يكن ضمن ضباط هذه القوة الضاربة الضخمة أى ضابط ينتمى للضباط الاحرار بل ان أحد هذه الالوية وهو اللواء السابع المشاه بمعسكر العباسية كاد قائده ينجح فى تجميعه تمهيدا للتحرك به القضاء على الحركة تنفيذا لتعليمات الفريق حسين فريد لولا تدخل الرائد أ . ح جمال حماد أحد الضباط الاحرار وأركان حرب سلاح المشاة وقتئذ. كما سيرد فيمابعد. والعمل الوحيد الذى جرى لصالح الحركة من جهة هذه الفرقة قام به الرائد عبد القادر مهنا من رئاسة اللواء الاول بهاكستيب واقتصر على اعداد عدد من عربات نقل الجند تحركت من هاكستيب خالية بدون جنود ضمن قوة المقدم يوسف منصور صديق مع بعض أعمال محدودة السيطرة على المعسكر عاونه فيها الملازم اول فؤاد المهداوى .

ومن المفارقات التى تدعو الى التأمل ان قوات المشاه التى اشتركت فى الحركة كانت كلها وحدات قدمت من العريش ووصلت القاهرة خلال شهر يوليو فقط ولعب الحظ دورا كبيرا فى وجودها واشتراكها . فالكتيبة ١٣

لم تصل الى معسكرها بالعباسية الا فى أوائل يوليو ٥٢ وكانت الكتيبة فى طريقهـا الى السودان بعد ان تركت جميع أسـلحتها الثقيلة وعرباتها بالعريش حيث كان معسكرها ووصل أفرادها بأسلحتهم الشخصية فقط فقد صدرت التعليمات بسبب عجز الميزانية ورغبة فى توفير اجور الشحن والنقـل أن تترك كل من كتيبة العريش والسودان الاسلحة الثقيلة والعربات فى مكانها على أن يتم تبادلها عند وصول كل منهما الى معسكر الكتيبة الاخرى وكان مقدرا الا تبقى الكتيبة ١٣ بالقاهرة الا لفترة محدودة ريثما يتم تجهيزها واعـدادها للسفر بالمظهر اللائق الى الخرطوم .

أما وحدة المشاة الثانية التى اشتركت فى الحـركة فقد كانت مقدمة الكتيبة الاولى مدافع ماكينة التى لم تصل من العـريش الى معسكرها بهاكستيب الا قبل الحركة بعشرة أيام فقط ـ وكانت مهمة هذه المقدمة هى اعداد المعسكر لباقى الكتيبة من النواحى الادارية وكان ينتظر وصول القـوة الاساسية للـكتيبة يوم ٢٦ يوليو وهى وحدة تتميز بقوة نيران عالية فهى مسلحة بعدد ٤٦ مدفع ماكينة متوسط (فيكرز) ولم تكن مقـدمة كتيبة مدافع الماكينة التى كان يتولى قيادتها المقدم يوسف صديق بقوة مناسبة للاشتراك فى حركة الجيش فهى قوة ادارية لا يتجاوز عدد أفرادها ستين جنديا مسلحين بالبنادق فقط ويتكون معظم جنـودها من الحرفيين كالطباخين والنجارين والخبازين ولذا لم يـكن جمـال عبد الناصر يعلق عليها أهمية تذكر بل كان يتطلع فى أمل

الى وصول باقى الـكتيبة من العريش ولم يكن قد بقى سوى أيام قلائل على ذلك وهذا هو السبب فى انه كان يريد تأجيل القيام بالحركة حتى ٥ أغسطس لولا ان الاحداث أرغمته على التعجيل بالقيام بها دون انتظار وصول هذه القوة المرهوبة الجانب .. ولذلك لم يخصص لمقدمة الكتيبة الضعيفة القوة والتسليح سوى دور ثانوى فى خطة العمليات وهو أن تكون قوة احتياطية للقوة المخصصة للاستيلاء على مبنى رئاسة الجيش بكوبرى القبة ــ وشاء الله أن يضع سره فى أضعف خلقه فقامت القوة الصغيرة بدور خطير كان يفوق قدرتها وتسليحها وعوضت الشجاعة والاقدام نقص القوة والتسليح كما سيرد فيما بعد .

واذا كان تنظيم الضباط الاحرار لم ينجح فى ضم عناصر مؤثرة من وحدات الفرقة المشاة المتمركزة بالقاهرة فانه قد لاقى النجاح فى ضم عدد لا يستهان به من ضباط المشاة الذين لا ينتمون لتشكيلات الفرقة وقد قام هؤلاء بأدوار هامة ساعدت الحركة على النجاح .

وكان الوضع فى سلاح الفرسان يدعو الى الثقة والاطمئنان فقد نجح التنظيم فى ضم عدد كاف من ضباط سلاح الفرسان الى الحد الذى جعل حسين الشافعى وثروت عكاشة يبثان الطمأنينة فى نفس عبد الناصر عند لقائهما به يوم ٢٠ يوليو ــ اثر مكالمة أحمد أبو الفتح التليفونية لثروت عكاشة ، ويؤكد ان له ان القوة الضاربة لسلاح الفرسان على أهبة الاستعداد لتنفيذ خطة التحرك .. وكانت هذه القوة تتشكل من الآلاي المدرع

الاول (٤٨ دبابة) وآلاى السيارات المدرعة (٤٨ سيارة مدرعة) علاوة على الكتيبة الميكانيكية التى كانت تحت سيطرة خالد محيى الدين وهى تتكون من وحدات مشاة يحملها عربات نصف جنزير .

وكان سلاح المدفعية يضم بدوره عددا كبيرا من الضباط الاحرار انتشروا فى مختلف وحدات مدفعية الميدان والمدفعية المضادة للطائرات والمضادة للدبابات ومدفعية الفرقة المدرعة ومدرسة المدفعية ومركز تدريب المدفعية، وكان الفضل فى نجاح التنظيم فى تجنيد هذا العدد من الضباط الاحرار بالمدفعية يرجع الى جهود الرائد كمال الدين حسين عضو اللجنة التأسيسية والمدرس وقتئذ بكلية أركان الحرب . أما سلاح الفرسان فيعود الفضل فى وفرة عدد الضباط الاحرار فى وحداته الى جهود ثالوث القيادة وكان يتكون من حسين الشافعى وثروت عكاشة وخالد محيى الدين .

واذا كان التنظيم لم يصادف نفس القدر من النجاح مع ضباط الالوية المشاة الثلاثة بالقاهرة فان هذا يرجع الى عوامل تتعلق بطبيعة توزيع وحدات المشاه وعدم تجمعها فى معسكرات واحدة مثل وحدات المدفعية والفرسان كما يعود الى طبيعة الخدمة بالقاهرة التى لا تبيح للضباط فرصة الاقامة الدائمة بالميسات مثل ما يجرى عليه الحال بالمناطق الخارجية مما يساعد على توثيق روابط الصداقة بين الضباط ويهيىء لهم الفرصة للمصارحة بالافكار وتبادل الاسرار ولهذا السبب فشل التنظيم تقريبا فى تجنيد عناصر فعالة من ضباط الفرقة الثانية المشاة بالقاهرة بمختلف تشكيلاتها رغم ضخامة عددهم الذى لم يكن يقل عن

اربعمائة ضابط فى الوقت الذى نجح فيه نجاحا ملحوظا فى تجنيد ضباط المشاة فى الوحدات التى تخدم خارج القاهرة مثل الكتيبة ١٣ مشاه والكتيبة الاولى مدافع ماكينة اللتين كانتا تخدمان بمنطقة العريش واللتين شاءت ارادة الله أن تصل معظم عناصرهما الى القاهرة فى انسب الاوقات .

وقد أحس عبد الناصر بذلك النقص الخطير الذى يعانيه التنظيم بين وحدات الفرقة الثانية المشاه فحاول سد ذلك الفراغ فى اللحظة الاخيرة وعهد الى صديقه عبد الحكيم عامر يوم ٢٢ يوليو بجس نبض العقيد عبد الواحد عمار قائد الكتيبة ١٨ من اللواء السادس ومحاولة ضمه ليتولى قيادة هذا اللواء ليلة الحركة . وكان الرجل صادقا مع التنظيم ومع نفسه فرغم وطنيته المعروفة وشخصيته الانضباطية القوية اعترف لعبد الحكيم ان المغامرة أقوى مما تتحلمها أعصابه ولكنه أبدى استعداده لقيادة اللواء السادس وضمه الى الحركة صباح يوم ٢٣ يوليو فى حالة نجاح خطة الحركة واتمام السيطرة على رئاسة الجيش والمنطقة العسكرية وقد تم الاتصال به فعلا بعد النجاح وتولى الرجل قيادة اللواء السادس فى الصباح وضمه الى القوات المشتركة فى الحركة بعد ان نحى العميد ا . ح محمود حمزة عن قيادة اللواء .

هذا ولم يقتصر نشاط التنظيم على تجنيد ضباط الاسلحة المقاتلة فحسب فقد حاول مد نشاط الى الاسلحة الادارية الاخرى ولكن نجاحه كان محدودا وكاد يقتصر

على ضباط سلاح خدمة الجيش الذين كانت الحركة فى أشد الحاجة اليهم لاعداد اللوارى وعربات النقل وتزويد المركبات بالوقود مما ساعد القـوات على التحرك الى الاماكن المخصصة لها . وكان للرواد مجـدى حسنين وابراهيم الطحاوى ومعروف الحضرى دور كبير فى نجاح حركة التنظيم داخل سلاح خدمة الجيش .

الوضع فى الطيران والبحرية

كان سلاح الطيران أحـد الاسلحة الرئيسية بالقوات المسـلحة وكان مندوبوه باللجنة التأسيسية للضباط الاحرار ثلاثة هم قائد الجناح جمال سالم وكان يتولى قيادة مطار العريش وقائد الجناح عبد اللطيف البغدادى وقائد الاسرا ب حسن ابراهيم . ولم يكن هؤلاء يعتمدون على الاعداد للثورة داخل سلاحهم على انشاء الخـلايا الرئيسية أو الفرعية وانما كان اعتمادهم على الاتصالات الشخصية التى كانت تربط بينهم وبين ضباط الطيران وكان من أبرز هؤلاء الطيارين المقدمون وجيه أباظة وعمر الجمال ومحمد شوكت والرائد محمد صادق القرموطى. وكانت هذه الصلات تكفى كما قدروا لتنفيذ الطيـارين للواجبـات التى سوف توكل اليهم عقب نجـاح الحركة خاصة وان عمل الطيـارين لن يبدأ قبل طلوع الصباح وستكون الصورة أمامهم قد وضحت والحركة قد صادفها النجاح .

هذا ولم يكن لتنظيم الضباط الاحرار أى مندوبين أو ممثلين داخل السلاح البحرى ويرجع السبب فى ذلك

الى عدم وجود زمالة السلاح بين ضباط الجيش وضباط البحرية فقد كا نالضباط البحريون يتخرجون فى الكلية البحرية بالاسكندرية ويمضون مدة خدمتهم فى القاعدة البحرية بالاسكندرية أو على ظهر القطع البحرية مما لم يتح الفرصة أمامهم لانشاء صداقات بينهم وبين ضباط الجيش على عكس الحال بالنسبة لضباط الطيران فقد كانوا يتخرجون في بادىء الامر فى الكلية الحربية ثم ينضمون بعد ذلك الى سلاح الطيران لاستكمال تدريبهم كطيارين مما أتاح الفرصة لايجاد رابطة الزمالة فى السلاح بينهم وبين ضباط الجيش .

وعلاوة على ما ذكر لم يكن هناك داع يستوجب تجنيد أحد من ضباط البحرية فى تنظيم الضباط الاحرار اذ لم يكن هناك فى خطة العمليات اى دور يتعلق بالسلاح البحرى وكان المنتظر أن ينضم ضباط البحرية الى الحركة بمجرد نجاحها وان يأتمروا بأوامرها وقد تم ذلك فعلا .

هل سيطيع الجنود ضباطهم ؟

كانت النقطة الوحيدة التى تثير القلق قبل قيام الحركة هى مدى نجاح الضباط الاحرار فى السيطرة على جنودهم المحدودى الثقافة والمدارك وقتئذ والذين ليس لديهم أية فكرة عن تنظيم الضباط الاحرار عندما يطلبون منهم التحرك تحت قيادتهم ساعة الصفر للاشتراك فى حركة مسلحة ضد رؤسائهم من كبار قادة الجيش

بل واقتحـام مبنى رئاسة أركان حرب الجيش واعتقال من يصادفونه من اصحاب الكابات الحمراء الذين تعودوا ان يروهم فى سياراتهم الفارهة التى تخفق على مقدمتها اعلام القيادة بينما تزين صدورهم صفوف من الاوسمة المتعددة الالوان واعتادوا الا يسمعوهم الا وهم يرعدون بأصواتهم العالية عندما يلقون عليهم التعليمات والاوامر فى حدة وصرامة أو وهم يوقعون الجزاءات القاسية عليهم بمجرد اقل هفوة يرتكبونهـا .. ألا يكفى هـذا لترويع هؤلاء الجنود وبث الخوف فى نفوسهم ؟ ولم يكن أشد الناس تفاؤلا يتخيل ان يستجيب الصف ضباط والجنود الى ضباطهم الاصاغر عندما أيقظوهم من رقادهم عنـد منتصف الليل للقيام بالتحرك بهذه الصورة التى فاقت كل تقدير .

لقد اثبت الواقع ان الضباط الاصاغر الشبان تمكنوا من السيطرة على وحداتهم وتحـريكها بسهولة تامة وان جنودهم كانوا شعلة من الحماس والوطنية عندما أدركوا أن تحـــركهم هذه المرة لا لضرب الشعب وقمع ارادته لحساب الحكام كما كان الحال من قبل بل لضرب جلاديه وجلاديهم على الســواء فان الجيش جزء لا يتجزأ من الشعب .

كانت الاستجابة مذهلة واتضح ان الضباط الاصاغر بحكم اتصالهم المباشر بالجنود كانوا أقدر على النفاد الى قلوبهم واكتساب ثقتهم ومحبتهم مما سهل عليهم مهمة اعدادهم للتحرك ثم قيادتهم لتنفيذ الواجبات المكلفين بها

بعكس الحال تجاه القادة المتعجرفين الذين ثبت انهم لا يكنون لهم أى روح ودية فلمـــا حانت لحظة الحسم انحاز الجنود بلا تردد الى جانب قادتهم الشبان الذين يشاركونهم آمالهم وآلامهم ولم يترددوا فى شهر سلاحهم فى وجه القادة الكبار البعيـــدين عن عواطفهم ولم يكن عجيبا بعد هذه الحقيقة أن نرى الجنود وهم يقتحمون ببنادقهم وسونكياتهم مكتب الفريق حسين فريد رئيس هيئة أركان حرب الجيش أو أن نرى اللواء عبد الرحمن مكى قائد الفرقة الثـانية وهو واقع فى الاسر فى حراسة جندى بسيط من فرقته .

اتصالات عبد الناصر
السرية بالإخوان المسلمين

ثبت بمـــــا لا يقبل الشك انه لم يكن لدى أحد من الاحزاب السياسية أو التنظيمات الوطنية علم مسبق بموعد حركة الجيش المنتظرة سوى قيادة جماعة الاخوان المسلمين فلقد حرص عبد الناصر على اجراء عدة اتصالات مع بعض قادة الجماعة وأنبأهم بموعد الحركة وطلب منهم مؤازرة الجماعة ومساعدتها .

ويروى صلاح شادى ضابط الشرطة السابق واحـد أقطاب الاخوان تفاصيل المقابلات التى جرت بهذا الشأن قبيل أيام من قيام حركة الجيش وقد تمت كلها فى منزل عبد القادر حلمى أحد كبار الجماعة والذى يذكر صلاح شادى هذه التفاصيل نقلا عن مذكراته .

كانت المقابلة الاولى يوم ١٨ يوليـــــو بناء على طلب عبد الناصر وقد تمت فى الحـادية عشرة مساء وحضرها معه كمال الدين حسين وعبد الحكيم عامر وحضرها من الاخوان عبد القـــادر حلمى وحسن العشماوى وصالح ابو رقيق واخبرهم عبد الناصر أن أمورا خطيرة قد حدثت اذ أن أسماء قيادة الضباط الاحرار قد عرفها البوليس

السياسى ولذلك فقد تقرر الاسراع فى القيام بالحركة وسيكون ذلك خلال عشرة يام وسأل عما اذا كان الاخوان موافقين ومستعدين للقيام بدورهم الذى سبق الاتفاق عليه وتحمل المسئوليات بعد اتمام الحركة وطلب ردا سريعا ولكن أعضاء الاخوان أفهموه انه لابد من اخذ راى المرشد العام المستشار حسن الهضيبى فهو صاحب الكلمة ونظرا لانه فى الاسكندرية فان الرد يحتاج الى ٤٨ ساعة للسفر لاستطلاع راى المرشد ـ وانصرف جمال عبد الناصر وزميلاه على موعد جديد بعد عودة الذين سيسافرون للقاء المرشد بالاسكندرية .

وسافر اربعة من قادة الاخوان للقاء المرشد لهذا الغرض وهم عبد القادر حلمى وصالح أبو رقيق وفريد عبد الخالق وحسن العشماوى واتفق على بقاء صلاح شادى فى القاهرة لانتظار عبد الناصر فى الميعاد المحدد فى حالة تأخر الاخوان الاربعة عن العودة من الاسكندرية .

وعندما حضر عبد الناصر للمرة الثانية فى الموعد وهو ٢٠ يوليو قابل صلاح شادى وحده وتأجل اللقاء الى يوم ٢١ يوليو حتى يعود الذين سافروا للقاء المرشد .

ويستأنف صلاح شادى روايته نقلا عن مذكرات عبد القادر حلمى فيقول ان الاخوة الاربعة عرضوا الموضوع على المرشد العام فوجه اليهم عدة استفسارات أهمها مدى تمسك هؤلاء الضباط بالاسلام ومد ىاخلاصهم فى قولهم بالعمل على تطبيق احكام الشريعة الاسلامية وهل تم الاتفاق فى وضوح وصراحة على هذا الامر ؟ وهل

اتفق على المشاركة الكاملة بين الاخوان والضباط الاحرار فى الانقلاب والمسئولية ازاءه والتعاون فى تنفيذه بعد نجاحه ؟ وفى النهاية أعطاهم المرشد موافقته المشروطة بالامرين السابقين كما أعطاهم الحق فى الاتصال بالاخوان لتنفيذ التعليمات التى تترتب على قيام الانقلاب فى الوقت المناسب والمشاركة فيه بمن فيهم ضباط الاخوان فى الجيش لتنفيذ ما يصدر اليهم من تعليمات من قيادتهم . وعندما عاد الاخوة الاربعة من الاسكندرية عرفوا الموعد الجديد الذى حدده صلاح شادى للقاء عبد الناصر يوم ٢١ يوليو .

وحضر عبد الناصر وحده مبكرا بعد ظهر يوم ٢١ يوليو والسرية والاحتياط نقلت سيارته الاوستن من أمام منزل عبد القادر حلمى الى شارع خلفى كما نقل عبد الناصر نفسه الى غرفة داخلية ليتمكن صلاح شادى من حضور اجتماع عقد بصفة عاجلة فى صالون المنزل بناء على طلب المقدم عبد المنعم عبد الرءوف والرائد أبو المكارم عبد الحى اللذين حضرا بصحبة حسين كمال الدين مسئول الاخوان عن منطقة القاهرة وعبد الرحمن السندى رئيس الجهاز السرى للاخوان . وفى هذا الاجتماع ذكر الضابطان أنهما قد شعرا بتحركات غير عادية للضباط الاحرار داخل الجيش ولما سألا الدكتور حسين كمال الدين وعبد الرحمن السندى لم يجدا عندهما معلومات بهذا الشأن ولذا جاءا للاستفهام من صلاح شادى عن هذا الموضوع وانصرفا دون أن يدريا أن عبد الناصر بالداخل على بعد أمتار قليلة منهما .

وكان صلاح شادى بالاتفاق مع اخوانه الاربعة الذين سافروا الى الاسكندرية قد اتفقوا على انه ليس من المصلحة الكشف فى هذه الآونة عما جرى من اتصالات بين عبد الناصر والاخوان ولذا حرص صلاح على عدم الادلاء بأية معلومات للضابطين بالرغم من ان المقدم عبد المنعم عبد الرءوف كان حتى ثلاثة اشهر فقط عضوا باللجنة التأسيسية للضباط الاحرار .

وعندما تكامل عدد الاخوان الاربعة عقد اجتماعهم بعبد الناصر وشرح له عبد القادر حلمى وجهة نظر المرشد العام بالتفصيل وقد صدق عبد الناصر علي جميع تحفظات المرشد واكد قبولها وانه سبق الاتفاق عليها بينه وبينهم وذكر لهم انه تأكد له اليوم ان اسمه قد عرف لدى البوليس السياسي لذلك فقد اتفق على قيام الحركة فى خلال يومين على الاكثر وانه سيعرف الاخوان بالموعد . وقبل انصراف عبد الناصر استأذن صلاح شادى من الاخوة الموجودين لينفرد به وتم ذلك لفترة قصيرة انصرف بعدها عبد الناصر ـ وابلغ صلاح زملاءه انهما تذاكرا فى هذا اللقاء عهدهما السابق على المبادىء والاهداف التى بايعا الله عليها قبل الاقدام على هذه الخطوة المصيرية واشهدا الله على هذا العهد بقراءة الفاتحة .

وليست لدينا اية اسباب تدعونا الى الشك فى صحة هذه الواقعة التي رواها صلاح شادى فان الدلائل والبراهين كلها تؤيد صدقها .. حقيقة هناك بعض اختلافات بين ما رواه وبين ما ورد فى مذكرات بعض

الذين كتبوا عن واقعة اتصال الضباط الاحرار بالاخوان المسلمين لطلب تأييدهم لحركة الجيش سواء كان هؤلاء الكتاب من الضباط الاحرار أو من الاخوان المسلمين ولكن هذه الاختلافات تقتصر على الشكل فقط دون المضمون كأسماء الاشخاص الذين جرى معهم الاتصال او توقيت اللقاءات اما جوهر الواقعة نفسه فلم يقدم أحد على انكاره .

لقد اعترف معظم أعضاء اللجنة التأسيسية للأحرار بحدوث الاتصال بين التنظيم والاخوان المسلمين عقب اجتما عاللجنة يوم ١٨ يوليو والذى استقر فيه الراى على ضرورة الاسراع بالحركة ـ وكان الدافع للاتصال هو التأكد من مؤازرة الاخوان للحركة ولكى يسهم متطوعو الاخوان مع قوات الجيش للسيطرة على طريق السويس والتصدى للقوات البريطانية اذا ما حاولت الزحف الى القاهرة لاخماد الحركة . وقد ثبت ان القيام بالمؤازرة وتدعيم الحركة قد تما فعلا بدليل اشتراك عدد من الاخوان المسلمين بعد قيام الحركة فى حراسة بعض المنشآت العامة والسفارات وأماكن العبادة خشية اندساس عناصر من العملاء بين الجماهير التى غمرتها الفرحة لارتكاب أعمال تخريبية على غرار حرائق يوم ٢٦ يناير ٥٢ مما قد يتيح الفرصة للقوات البريطانية للتدخل بحجة حماية الاجانب واعادة الامن والاستقرار وهى الذريعة التى تذرعت بها بريطانيا منذ سبعين عاما لاخماد الثورة العرابية . وما دام هذا التعاون قد تم بهذه الصورة فلا يمكن عقلا ان يحدث دون تنسيق مسبق وبدون الحصول

على موافقة المرشد العـام شخصيا وكان فى تلك الفترة موجودا بالاسكندرية لان جماعة الاخوان المسلمين كان اهم ما يميزها وقتئذ الانضباط التام بين افرادها وعدم الخروج على تعليمات القيادة .

وهناك نقطة أخرى تؤيد صدق رواية صلاح شادى عن اجتماع يوم ٢١ يوليو بعد الظهر بين عبد الناصر وقادة الاخوان بمنزل عبد القادر حلمى وهو اننى بعد مراجعـة دقيقة لاقـــوال ومذكرات جميع الضباط الاحرار التى نشرت بمن فيهم أعضاء اللجنة التأسيسية اتضح لى أن احدا منهم لم يشر الى اى لقاء قد تم بين عبد الناصر وبين واحد منهم فى الفترة التى ذكر صلاح شادى أن المقابلة قد جرت خلالها ، أما ما ذكره كمال الدين حسين فى مذكراته بمجلة المصور فى عددها الصادر يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٧٥ عن واقعة ذهابه مع عبد الناصر صباح يوم ٢٢ يوليو الى السيد صالح أبو رقيق والتى قال فيها بالنص « واخطرناه حسب اتفاقنا المسبق بموعد الثورة بهدف كسب تأييدهم لثورتنا كما اتفقنا معه على أن تقوم قوات من متطوعى الاخوان بالمعاونة مع وحدات الجيش للسيطرة على طريق السويس لصد اى هجوم انجليزى محتمل ان يتحرك نحو القاهرة صباح يوم الثورة » .

فان هذه الاقوال التى لا يتطرق الينا الشـــك فى صحتها تؤيد تماما كل ما ذكره صلاح شادى فان الاخطار بموعد الثورة حسب الاتفاق المسبق يعنى حدوث اتصالات ولقاءات سابقة قد جرت وتم فيها الاتفاق على ضرورة اخطار الاخوان بموعد الثورة كما ان طلب التأييد من

الاخوان لحركة الجيش والاتفـــــاق على قيام متطوعى الاخوان بالتعاون مع وحــدات الجيش لصد أى هجــوم انجليزى محتمل لا يمكن من الوجهة المنطقية أن يوجــه الى الاخوان قبل ساعات معدودة من قيام الثورة والا كيف يتصور أحد أن يتمكن الاخـــوان من تجميع المتطوعين واعدادهم بما يلزمهم من سلاح وذخيرة لمقــاومة الجيش الانجليزى واصدار التعليمات الخـــــاصة بهذه العملية المصيرية التى تتطلب الكثير من الجهد والاعداد فى مثل هذا الوقت القصير ؟ وهل يملك صالح أبو رقيق ـ مهما كان وضعه فى الاخوان ـ أن يبت فى مسألة لهــا كل هذه الاهمية والخطورة وحده دون الرجوع الى قيادة الجماعة والمرشد العام ؟

ان أقوال كمال الدين حسين تثبت بطريق غير مباشر ما ذكره صلاح شادى عن لقاءات عبد الناصر بقادة الاخوان فى منزل عبد القادر حلمى وتثبت الاتصال الذى تم بين قادة الجماعة فى القاهرة ومرشدها العام فى الاسكندرية لعرض ما دار فى هذه الاجتماعات والحصول على موافقته لمؤازرة الاخوان للحركة ـ ولم يكن هناك بعد الاجتماع الاخير الذى جرى بعد ظهر يوم ٢١ يوليو اى موضوع معلق بين الاخوان وقيادة الاحرار سوى اخطار الاخوان بموعد الحركة على وجه التحديد .

وقد تم ذلك كمـــا قال كمال الدين حسين صباح يوم ٢٢ يوليو أى عندما استقر الرأى نهائيا على موعد الحركة وليس هناك غرابة فى ابلاغ الموعــد الى صالح أبو رقيق فانه كان واحدا من الاربعة الذين سافروا الى الاسكندرية للقاء المرشد العام وكان أحد شهود الاجتماع

الذى جرى يوم ٢١ يوليو بمنزل عبد القادر حلمى والذى تم فيه اخطار عبد الناصر بموافقة المرشد والشروط التى اشترطها للتعاون والتى قبلهـــا عبد الناصر .. ومن الطبيعى بعد أن تم الاتفاق مع قادة الاخوان على جميع التفصيلات ان يوكل تلقى الاخطار عن موعــد الحركة من عبد الناصر الى واحد من الرجال الذين شهدوا الاجتماع الاخير اذ لا وقت ولا داعى لعقد اجتماع موسع جديد ما دام كل شىءقد تم بحثه والاتفاق عليه ولم يبق سوى أن يتولى مندوب الاخوان الذى علم بالموعــد النهائى ــ وكان هو صالح أبو رقيق ــ ان يخطر قيادة الجماعة به لوضع المخطط المتفق عليـــه مع عبد النـــاصر موضع التنفيذ .

هذا وقد كان مقدرا أن تقوم حركة الجيش ليلة ٢١/٢٢ يوليو ٥٢ وفى آخر لحظة تأجل موعد قيامها ٢٤ ساعة لتكون ليلة ٢٣ يوليو ويذكر جميع من أرخوا للثورة هذه الحقيقة دون ان يحاولوا دراسة أسباب التـأجيل رغم ما لهذا الامر من أهمية بالغة .

وقد استوقف نظرى ان بعض من كتبوا من الاخوان المسلمين ذكروا ان السر الحقيقى فى التأجيل يعود الى تأخير وصول موافقة المرشد العام من الاسكندرية على تأييد الحركة ومؤازرتها ــ ومن رواية صلاح شادى يتبين لنا ان عبد الناصر عندما حضر الى لقــاء صلاح شادى يوم ٢٠ يوليو أخطره ان المندوبين الاربعة لم يحضروا بعد من الاسكندرية وضرب له موعدا جديدا للقاء وهو يوم ٢١ يوليو (اى بعد ٢٤ ساعة) ــ ومن هذا الواقعة جرى

الربط بين تأجيل موعد الحركة وتأجيل موعد المقابلة للحصول على موافقة المرشد العام وكلاهما قد تأجل لمدة ٢٤ ساعة .

ويذكر عبد اللطيف البغدادى فى مذكراته انه تقرر تأجيل التنفيذ لمدة ٢٤ ساعة ليتم للجنة التأسيسية دراسة الخطة التفصيلية للتنفيذ وتحديد مهمة كل وحدة من الوحدات العسكرية التى ستساهم بدور فى الانقلاب ودور كل ضابط سيشترك بها وكذا لابلاغ جمال سالم وصلاح سالم وانور السادات الموجودين بمنطقة العريش ورفح بالموعد الذى حددناه للتنفيذ .

ورغم هذا التحليل السليم للبغدادى والذى حذا حذوه فيه بعض من أدلوا بأقوالهم من الضباط الاحرار وهو ايضا يتمشى مع ما ذكره اللواء محمد نجيب فى مذكراته على الرغم من ذلك لا يمكننا استبعاد التعليل الذى ساقه بعض الاخوان المسلمين لتبرير التأجيل حتى ولو اعتبرناه على أضعف الفروض كان عاملا من العوامل التى حفزت عبد الناصر على اتخاذ قرار التأجيل بالاضافة الى العوامل الاخرى التى ذكرها عبد اللطيف البغدادى ومن ايدوه فى وجهة نظره .

لقد ثبت من أقوال ثروت عكاشة ان ضباط الفرسان كانوا جاهزين والتزموا ثكناتهم لم يغادروها منذ يوم ٢١ يوليو وكانوا ينتظرون التحرك ليلة ٢٢/٢١ يوليو فلما وصل اخطار تأجيل التحرك لمدة ٢٤ ساعة انطلق ثروت عكاشة الى الآلاى الاول المدرع ليجد جميع الضباط الاحرار فى الانتظار وكانوا كما ذكر فى حالة رغبة

عارمة فى الخروج على متن دباباتهم لتنفيذ الخطة وتغيير الاوضاع واحس ثروت عكاشة عنــدما أعلن عليهم قرار التأجيل بأنهم قد صدموا ولكنهم كظموا غيظهم .

ويؤيد هذا الـــكلام النقيب توفيق عبده اسماعيل الاركان حرب الفنى للآلاى الاول دبابات فقد ذكر ان أحد عشر ضابطا من الاحرار كانوا بالآلاى يوم ٢١ يوليـــو جاهزين للتحرك ولما أبلغهم ثروت عكاشة بتأجيل الحركة يوما أبلغوه بأنه اذا لم يتم التحرك فى اليوم التالى أى ليلة ٢٣/٢٢ يوليو فانهم سيتحركون وحدهم .

ويتناول هذا الموضوع بالدراسة العميد أ . ح مصطفى ماهر رئيس مركز دراسات التاريخ العســكرى السابق خلال بحثــه القيم عن الجيش المصرى وثورة ٢٣ يوليــو والذى ألقاه فى ندوة الجيش المصرى بالــكلية الحربية فيقول : « فى يوم ٢١ يوليو أصدر جمال عبد الناصر تعليماته بتأجيل الموعد يوما ليكون ليلة ٢٣/٢٢ يوليــو وازعج ذلك ضباط الفرسان اذ كان وجــودهم المستمر فى المعسكر امرا يثير الشبهات وبرر عبد الناصر التأجيل للفرسان بأن المدفعية غير جاهزة وبالنسبة للمدفعية بأن الفرسان غير جاهزة والحقيقة ان الجميع كانوا مستعدين ولا يعلم أحد سبب التأجيل » .

هذه العبــارة التى استخلصها العميد مصطفى ماهر من اقوال عشرات من الضـــــباط الاحرار الذين أدلوا بشهاداتهم أمام لجنة تسجيل تاريخ الثورة تؤيد ما ذكرته من أن سبب التأجيل يمكن أن نعزوه الى أكثر من عامل واحد قد يكون من بينها انتظار وصول موافقة المرشــد

العام للاخوان المسلمين من الاسكندرية لضمان مؤازرة الجماعة وتأييدها لحركة الجيش قبل قيامها .

وحتى تكون دراستنا دقيقة ينبغى أن نعيد تصور الاوضاع التى كانت موجودة فى تلك الآونة أى قبل قيام الحركة ونفكر بتعمق فيما اذا كانت معاونة الاخوان المسلمين للحركة وقتئذ ضرورية أم لا ؟ .

لقد كان الخوف من التدخل البريطانى وزحف القوات البريطانية على القاهرة موضوعا يثير بلا شك القلق والاضطراب فى نفوس الضباط الاحرار بصفة عامة اذ ان معناه اعادة مأساة معركة التل الكبير واحتلال الانجليز للقاهرة وفشل حركة الجيش بنفس الطريقة التى فشلت بها ثورة عرابى عام ١٨٨٢ - ولم يكن هناك للحقيقة والتاريخ أى حزب أو جماعة سياسية فى مصر فى هذه الآونة لديهم الامكانيات للتصدى للقوات البريطانية الى جانب الجيش سوى جماعة الاخوان المسلمين فقد كانت وقتئذ قوة شعبية منظمة ومتماسكة ولديها جماعات عديدة من المتطوعين المدربين والمزودين بالسلاح والذين سبق أن أثبتوا شجاعتهم خلال حرب ١٩٤٨ بفلسطين واثناء معركة الكفاح المسلح ضد الانجليز فى منطقة قناة السويس بعد الغاء معاهدة ١٩٣٦ - ولا جدال فى أن عبد الناصر بذل كافة جهوده لضمان وقوف هذه القوة الشعبية الى جانب حركة الجيش بمجرد قيامها لتؤازره فى الداخل ولتسهم الى جانب الجيش فى الدفاع عن العاصمة فى حالة تفكير الانجليز فى ارتكاب حماقة التدخل .

هذا ولم يكن عبد الناصر بحكم طبيعة شخصيته التى تؤثر الصمت والكتمان يقوم بمصارحة زملائه اعضاء اللجنة التأسيسية بتفاصيل كل ما يقوم به من اتصالات أو لقاءات أو تصرفات ويكفى للتدليل على ذلك انفراده بتخطيط وتنفيذ حادث محاولة اغتيال اللواء حسين سرى عامر مدير سلاح الحدود يوم ٨ يناير ١٩٥٢ دون التشاور مع اللجنة التأسيسية للضباط الاحرار وأشرك معه فى التنفيذ كلا من حسن ابراهيم عضو اللجنة وكمال الدين رفعت وحسن التهامى من الضباط الاحرار وقد أدى ذلك الى وقوع مناقشة عنيفة بينه وبين عبد اللطيف البغدادى خلال اجتماع اللجنة بلغ من عنفها وحدتها ان طالب عبد الناصر اعادة طرح الثقة به كرئيس للجنة .

ان أعضاء اللجنة كانوا يعلمون قطعا بأن عبد الناصر كان يجرى اتصالات مع الاخوان وكانت هذه الاتصالات تجرى بمعرفتهم وتأييدهم لكن حقيقة هذه الاتصالات وسر ما يدور فى اللقاءات لا شك ان عبد الناصر كان يحتفظ بالكثير منها لنفسه ولم يكن ضالعا معه فى اجراء الاتصال بالاخوان من أعضاء اللجنة سوى كمال الدين حسين وعبد الحكيم عامر .

وعلاوة على ذلك فقد سبق ان ذكرنا أن عبد الناصر انفرد وحده باتخاذ القرارات وعقد اللقاءات فى الايام الثلاثة التى سبقت قيام الحركة مباشرة بعد آخر اجتماع للجنة القيادة يوم ١٩ يوليو ــ وخلال هذه الفترة القصيرة من ناحية الزمن بذل عبد الناصر من أجل التحضير والاعداد للحركة جهودا فوق طاقة البشر فقد كان الدينامو الذى

لا يهدأ ولا ينام يركب سيارته الاوستن الصغيرة ويذرع شوارع القاهرة طولا وعرضا مرتديا البنطلون والقميص والعرق يتصبب على جبينه الاسمر ليتأكد من ان جميع الحلقات قد ربطت ببعضها ويطمئن بنفسه على استعداد كل سلاح أو وحدة من التى ستشترك فى الحركة ويحاول سد أية ثغرة فور حدوثها ولا يجد الزمن الكافى للنوم أو لتناول طعامه البسيط .

ان هذه الايام الثلاثة كانت من اهم الفترات بالنسبة لنجاح الحركة بل كانت العامل الاساسى فى ذلك النجاح وان كان هناك فضل للضباط الاحرار فى ان الاوضاع قد تغيرت فى مصر وعلى ان الجيش قد قام بحركته الخالدة فان صاحب هذا الفضل فى المقام الاول هوجمال عبدالناصر ولم تكن العملية سهلة ولم تكن نسبة النجاح تتعدى ٢٠ ٪ ولكنه مع رفاقه لم يخافوا ولم ينكصوا على أعقابهم وقد صور عبد الناصر حقيقة المشاعر التى كانت تخالجه خلال هذه الايام فى خطاب له بمناسبة العيد العاشر للثورة فقال : « لو كنا قعدنا نحسب العملية بورقة وقلم كنا نجد ان النجاح احتماله ضعيف ولكن كل واحد من الضباط الاحرار اللى اشتركوا فى الثورة كان بيقول اذا ما استطعنا ان احنا ننجح فى القضاء على هذا الظلم وعلى هذا الاستعباد فليس أقل من ان نضحى ونثبت للأجيال القادمة ان الجيل اللى كان عايش عام ١٩٥٢ مارضيش يسكت على الظلم ولكنه قام وقاتل حتى استشهد » بقيت نقطة أخرى ينبغى ان نناقشها قبل أن نختم هذا الموضوع وهو أن انتباه لجنة القيادة كان مركزا على الدفاع عن طريق السويس ـ القاهرة ضد احتمال

التقدم البريطانى من منطقة قناة السويس لمحاولة اخماد الحركة ومن اجل ذلك طلبت معــونة متطوعى الاخوان للتعاون مع الجيش للسيطرة على طريق السويس . والامر الذى يثير الدهشة ان لجنــة القيادة لم يحاول أحد من اعضائها خلال بحث احتمال تدخل الجيش البريطانى أن يثير احتمال تقدم القوات البريطـــانية على طــريق الاسماعيلية ــ القاهرة مع ان هذا الطريق لا يختلف عن مثيله طريق السويس من حيث عاملى الوقت والمسافة كما يقول العســـكريون وان تركيز الدفاع على طريق السويس عند مشــارف القاهرة لابد ان يغرى الجيش البريطانى ــ اذا كانت لديه نية للتقدم ــ على استخدام الطريق الآخر الخالى من الدفاعات وكان وصول هــذه المعلومات الى قيادته أمرا محتما من طلعــات الاستطلاع الجوى . لا ندعى ان ذلك الخطأ يرجع الى عدم كفــاءة أعضاء اللجنة فكلهم كانوا من الضباط الممتازين ومن بينهم أساتذة فى كلية أركان الحـــرب ولكن يبدو ان بحث احتمال تدخل الجيش البريطـــانى اما انه لم يدرس الدراسة الكافية ولم تبذل له العناية الواجبة واما انه لم يؤخذ أثناء الدراسة مأخذ الجد على اعتبار انه احتمال مستبعد فقد كانت لدى اللجنة معلومات موثوق بصحتها بأن بريطانيا قد ضاقت ذرعا بهذا الملك العربيد الذى فقد سمعته فى كازينوهات القمــار وملاهى أوربا وان الرأى العام البريطانى سوف يثور ضد حكومته اذا ما حاولت اراقة قطرة دماء واحدة من جندى بريطانى لتحافظ له على عرشه واعتقد ان الاحتمال الثانى هو الارجح .

الذين هربوا والذين لحقوا بالقطار

لم يكن المقدم عبد المنعم أمين منتميا لأى حزب او هيئة سياسية ولكنه كان ضابطا معروفا بوطنيته منذ شبابه فعندما كان فى المدفعية المضادة للطائرات بمرسى مطروح عام ١٩٤٠ وكان عندئذ برتبة النقيب حاولت القيادة البريطانية ردا على سياسة حكومة على ماهر بعدم اشتراك مصر فى الحرب ان ترغم القوات المصرية التى كانت تحتل مواقع دفاعية حول مرسى مطروح أن تخلى دفاعاتها وتعود الى القاهرة على ان تترك مدافع الميدان والمدافع الماكينة المتوسطة التى كان يقوم عليها النظام الدفاعى وقتئذ . وكانت حجة البريطانيين هى شدة حاجة القوات البريطانية الى هذه الاسلحة التى من دونها يختل نظام الدفاع عن مرسى مطروح ما دامت القوات المصرية لن تشترك فى قتال القوات الايطالية عند اجتيازها الحدود .

وكان لعبد المنعم أمين موقف مشرف مع باقى الضباط الشبان فى رفض ترك سلاحهم والتهديد بالقتال حتى

الموت قبل تسليمه مما أجبر الانجليز على الرضوخ وترك القوات المصرية تعود بسلاحها .

وخلال حرب فلسطين سافر عبد المنعم أمين كعضـــو فى لجنة لشراء أسلحة من سويسرا ولكن اللجنة أهملت رأيه كخبير واعتمدت على المهربين الذين اشتروا للجيش المصرى مدافع ماكينة هوتشكس من التى استخدمت فى حملة السودان عام ١٨٩٩ كمـــا اشترت بنصف الاعتماد المخصص لشراء الاسلحة قنابل يدوية .

واثارته هذه التصرفات فاتصل بعد عودته باحسان عبد القدوس وزوده ببعض المستندات التى ساعدته فى حملته الصحفية المعروفة على الاسلحة الفاسدة كما ادلى عبد المنعم امين بشهادته امام النيابة والمحكمة فى هـــذه القضية . وفى اجتماع الجمعية العمومية بنادى الضباط بالزمالك يوم ١٦ يونية وأثناء عرض موضوع تمثيل سلاح الحدود بمجلس ادارة النادى وكان معروفا للضباط ان ذلك قد تم بايعاز من الملك لفت عبد المنعم أمين الانظار بكلمته الجريئة التى أعلن فيها انه لا يجوز لاحد ان يفرض ارادته على الضباط .

وكان طبيعيا أن تتجه اليه انظـــــار تنظيم الضباط الاحرار وقد تحدث كمال الدين حسين عن قصة انضمامه فقال : « كنا نفكر قبل الثورة فى اشراك بعض كبـــار الضباط ذوى رتبة المقدم او ما فوقها الى التنظيم بشرط أن يكونوا من أصحاب المـــاضى الوطنى النظيف ولديهم الاستعداد للعمل معنا وكان هذا التفكير يخدم حركتنا كاجراء تكتيكى فى تحريك الوحدات ليلة الثورة ومن هنا

رشحت لجمال عبد الناصر اسم عبد المنعم امين من ضباط المدفعية المضادة للطائرات وذهبت اليه برفقة عبد الناصر فى منزله بالجيزة صباح يوم ٢٢ يوليو وفاتحناه فوافق الرجل بلا أدنى تردد وفى المساء اجتمع معنا فى منزل خالد محيى الدين » .

وليس هناك أى تناقض بين ما ذكره كمال الدين حسين وبين ما رواه عبد المنعم أمين نفسه عن قصة انضمامه سوى تحديد موعد الزيارة التى أدت الى انضمامه للضباط الاحرار فقد ذكر عبد المنعم امين ان كمال الدين حسين حدثه تليفونيا صباح يوم ٢١ يوليو وأخبره انه سيمر عليه فى البيت مساء اليوم نفسه واستطرد قائلا : « وفى العاشرة مساء جاء برفقة عبد الناصر وناقشنا موضوع التحرك وتحدثنا طويلا واتفقنا على الخطوط الأساسية للثورة وأهدافها وفى المقدمة اسقاط الملكية ثم حددنا موعدا جديدا ظهر اليوم التالى ٢٢ يوليو فى بيت خالد محيى الدين بمصر الجديدة » .

ويمكن الحكم بأن الموعد الاقرب الى الواقع هو الذى ذكره عبد المنعم أمين فان زيارة خطيرة مثل تلك الزيارة الحافلة بتبادل الافكار والاتفاق على الخطوط الاساسية للثورة لا يمكن أن تتم الا فى وقت ملائم حتى يمكن اقناع عبد المنعم بالانضمام الى هذه المغامرة التى قد تقوده الى حتفه . ولا يمكن أن نتصور ان الوقت اللائم الزيارة هو موعد العمل الرسمى الذى يفترض ان يكون الضباط خلاله فى وحداتهم ـ وقد ثبت بالقطع ان عبد الناصر وكمال حسين كانا فى وحدتهما . وهى كلية

اركان الحرب بمنشية البكرى يشتركان مع باقى زملائهما ومنهم المقدم زكريا محيى الدين فى تصحيح أوراق امتحان طلبة الدفعة الجديدة التى سبق أن عقد لهم اختبار تمهيدا لاختيار الناجحين منهم ليلتحقوا بالدراسة بالكلية .

كما ان أمر اشراك عبد المنعم أمين بالتنظيم والذى كان محل تفكير من عبد الناصر وكمال الدين حسين كاجراء تكتيكى فى تحريك الوحدات ليلة الثورة لم يكن يصح أن يتأخر تنفيذه الى صباح يوم ٢٢ يوليو أى قبل ساعات معدودة من تحريك الوحدات اذ كان هناك بلا شك احتمال لرفض عبد المنعم امين الاشتراك فى الحركة ولم تكن هناك فرصة فى هذه الحالة للاتصال بضابط آخر تتوفر فيه الشروط المطلوبة وهى قدم الرتبة والاستعداد للعمل والماضى النظيف وهى شروط لا تتوفر الا فى عدد محدود بالطبع .

اما السبب الحقيقى الذى دفع عبد الناصر الى العمل على اشراك عبد المنعم امين الى الحركة فلا يرجع فقط الى ما ذكره كمال الدين حسين فهناك سبب آخر هام وهو الفراغ الذى نشأ فى سلاح المدفعية أثر رفض المقدم محمد فوزى الاشتراك فى الحركة وبالتالى انسحابه من التنظيم .

وكان المقدم محمد فوزى يقود تنظيم الضباط الاحرار بالمدفعية وقد قطع شوطا طويلا مع جمـــال عبد الناصر وكمال الدين حسين وكان الاعتماد عليه كبيرا فى قيادة وحدات المدفعية ليلة الحركة بالنسبة لقدم رتبته مما يكون

حافزا للضباط على التحـــرك خاصة وان معظم ضباط المدفعية الاحرار كانوا من الضباط الاصـــاغر من رتبتى نقيب وملازم . وما كاد المقدم محمد فوزى يخطر بالتأهب والاستعداد قبل موعد الحركة بثلاثة أيام حتى تخلى عن واجبه حيال التنظيم ونكص على عقبيه مؤثرا السلامة عن التورط فى مغامرة غير مأمونة العواقب .

وكان الوضع يستلزم وجـود رتبة كبيرة فى المدفعية لمؤازرة كمال الدين حسين ليلة الحركة خاصة وانه رغم صلاته الوثيقة بالضباط كان بعيدا وقتئذ عن وحدات المدفعية بالقـــاهرة فقد كان يعمل مدرسا بكلية أركان الحرب وكان قبل ذلك يعمل فى رفح اركان حرب مدفعية الفرقة الاولى .

ولم يكن البكباشى محمد فوزى هو الوحيد من الضباط الاحرار الذين تخلفوا عن القيام بواجبهم فقد تخلف مثله عدد من الضباط الاحرار من أسلحة مختلفة منتحلين شتى الاعذار ووصل الامر الى أن احدهم جاء بعد نجاح الحركة وهو فى شدة الخجل مبررا سبب عدم حضوره فى الموعد المحدد للاشتراك فى الحركة بأن زوجته ما كادت تراه يهم بمغادرة البيت ليلا مرتديا ملابسه العسكرية حتى أمسكت به وزعقت بالصوت فى بئر السلم فاضطر الى العودة حرصا على عدم افتضاح أمر الحركة .

وكان تخلف بعض الضـــباط مفاجأة لزملائهم لفرط ما كانوا يظهرونه من شجاعة واندفاع بل والضغط على قيادة التنظيم بضرورة التحرك الفورى وآلا اضطروا الى التحرك وحدهم فلما حان الجد وحلت الساعة الحاسمة

اتضح ان هؤلاء ليسوا على مستوى الموقف وان أعصابهم أضعف من أن تتحمل تلك المغـــامرة ولو كانوا يتحلون بالايمان مثل زملائهم الذين اشتركوا لما دب الى قلوبهم الخوف ولما اجتاحهم الذعر كما حدث لهم .

وقد علق كمال الدين حسين على هؤلاء بقوله « الذين هربوا ــ وكما هو الحال فى كل الحركات عندما يجد الجد تخلفت القلة وقامت الاغلبية الســـاحقة بواجباتها ومن هؤلاء الذين هربوا من تولى بعــد فترة من الثورة أكثر المناصب حساسية فى ادارة شئون البــلاد » . وكان يقصد باشارته المقدم محمــد فوزى فلقد تخلف ساعة الجد كما رأينا وكافأته الثورة بعد ذلك بتوليته منصب من أهم مناصب الدولة وهو منصب وزير الحـــربية والقائد العام للقوات المسلحة .

وفى الوقت الذى تخلف فيه هذا النفر الذى خانته شجاعته وأعصابه من ضباط التنظيم كشفت ساعة الجد عن معدن رجال شجعان سارعوا بالانضمام الى الحركة قبل قيام الثورة بساعات رغم عدم عضويتهم فى التنظيم من قبل ورغم علمهم بأن ما يقدمون عليه هو مغامرة قد تكلفهم حياتهم ولــكنهم لم يترددوا وكان ايمانهم أقوى من أى شعور بالخـــوف من النتائج وفى مقدمة هؤلاء المقــدم عبد المنعم أمين كما رأينا والعقيد أحمد شوقى . وقصة انضمام العقيد أحمد شوقى قائد الكتيبة ١٣ قصة مثيرة تدل على مقدار ما كان يتمتع به هذا الرجل من شجاعة ووطنية . كانت الكتيبة ١٣ كما سبق أن ذكرنا قد وصلت القاهرة فى أوائل يوليو ٥٢ لتمضى فترة قصيرة بها يتم

فيها تجهيزها واستكمال ما ينقص من معـداتها تمهيدا لسفرها بالمظهر المشرف الى الخرطوم .

ونظرا لعدم توفر مكان لايوائها فى معسكرات هاكستيب والعباسية بسبب اكتظاظها بالوحدات فقد أسندت مهمة ايجاد معسكر لائق بها قبل وصولهـا من العريش الى الرائد جمـال حماد أركان حرب سـلاح المشاه وأحد الضباط الاحرار البارزين فى هذا السلاح وكان قد سبق انتخابه عضوا بمجلس ادارة نادى الضباط ممثلا لسلاح المشاة بأغلبية كبيرة .

وبعد جهد شاق وبحث طويل أمكن لجمال حمـاد العثور على معسكر مهجور فى مكان ناء غير مطروق بثكنات العباسية يدعى « معسكر دودج » ويبدو من اسمه انه كان مخزنا لعربات الجيش البريطانى من هذا الطراز قبل جلائهم عن القاهرة وبقى المعسكر محتفظا بالاسم .

وكان السر فى خلو المعسكر وعدم اشغاله هو عدم وجود اية مرافق به فتم الاتفاق مع ادارة الاشغال العسكرية على تزويد المعسكر بالمرافق اللازمة واستكمال النقص فى مبانيه القليلة بانشاء جناح بداخله من الخيـام وبهذه الوسيلة أمكن استقبال الكتيبة عند حضورها وتم ايواؤها بهذا المعسكر وكان اختيار جمال حماد لهـذا المعسكر البعيد عن الانظار لايواء الكتيبة ١٣ عملا يدل على التوفيق وحسن الحظ فلقد كان ذلك من العـوامل التى ساعدت الكتيبة على اعداد سراياها للتحرك فى ساعة الصفر ليلة الحركة فى حرية وأمان ولم يستطع أحد من قادة الجيش الذين أرسلهم الفريق حسين فريد يذرعون معسكرات

العباسية طولا وعرضا وينقبون عن أى بادرة تثير الشبهات ان ينجحوا فى الوصول الى « معسكر دودج » لتطرقه وبعده لعدم امكان الوصول اليه الا من طريق غير مطروق يمر خلف معسكر العباسية بجوار أرض تدريب الخيالة وهكذا استطاعت الكتيبة ١٣ وهى القوة الوحيدة التى تحركت ليلة الحــــركة من معسكر العباسية أن تقــوم باعـــداد سراياها للتحرك بسلامة وهـــدوء وبدون أى تدخل من أحد .

وكان العقيد احمد شوقى يكثر من زياراته لزميله جمال حماد بمكتبه برئاسة المشاه لاخطاره بما ينقص الكتيبة من معدات أو مهمات ليعـــاونه باتصالاته فى استكمالها عن طريق القيادات والادارات المختصة برئاسة الجيش . ونتيجة لتلك الصلة الجــديدة تولدت بين الضابطين عـــلاقة وطيـــدة من الصداقة والثقة سمحت لهما بتبادل الاحاديث وانتقاد بعض الاوضاع السيئة فى الجيش بحرية وصراحة .

وكان جمال حماد قبل أيام قلائل على قيام الحركة قد علم أن الكتيبة ١٣ هى وحـــدة المشــــاة الرئيسية التى ستقوم بالتحرك ليلة ٢٣ يوليو وكان بالكتيبة عـــدد من الضباط الاحرار يكفى لتحركها وتنفيذ المهام الموكولة لها ولكن وجود قائد الكتيبة الاصلى على راس كتيبته عند القيام بالحركة كان من وجهة نظر حماد امرا لابد أن يثير الحماس ويبث الاطمئنان فى نفوس جميع الضـــــباط والجنود وكانت شخصية احمد شوقى المحبوبة ووطنيته الصادقة التى انعكست على احاديثه قد بعثت الامل فى

نفس زميله جمال حماد بأن يتمكن من تجنيده ومن ضمه للحركة قبل قيامها ليتولى بنفسه قيادة كتيبته .

وفى صباح ٢٢ يوليو حضر أحمد شوقى الى مكتب زميله برئاسة المشاة اثر دعوته للحضور لامر عاجل وكان جمال حماد قد هيأ الامر واعتزم مفاتحته هذا الصباح اذ انها آخر فرصة أمامه لضمه الى صفوف الضباط الاحرار وانتاب أحمد شوقى شىء من الدهشة وهو يرى زميله لا يدعوه للجلوس بمكتبه كالعادة بل قاده مباشرة الى مكتب اللواء محمد نجيب المجاور لمكتبه وكان المكتب خاليا لوجود محمد نجيب فى منزله محجوزا منذ أيام بكشف المرضى وجلس احمد شوقى على الاريكة المواجهة للمكتب بينما جلس زميله الى جانبه بعد أن حرص على اغلاق باب الغرفة جيدا من الداخل .

ولم يضع جمال حماد وقته فلم يكن قد بقى أمامه وقت ليضيعه واختار أن ينفذ الى الموضوع عن طريق اثارة قضية كانت الشغل الشاغل لضباط الجيش وقتئذ وهى القرار الذى صدر بحل مجلس ادارة نادى الضباط ولم يكن قد مضى على صدور القرار سوى أيام قلائل ـ وكان التجاوب رائعا فقد انطلقت الشتائم من فم أحمد شوقى كالقذائف تسب الملك والقائد العام وكل من تسبب فى اصدار هذا القرار .

وكان من الطبيعى أن ينتقل جمال حماد الى الخطوة الثانية فصور لزميله الحالة السيئة التى بات فيها اللواء محمد نجيب رئيس مجلس ادارة النادى المنحل

فرقابة المباحث تطارده وتترصد حركاته والتهديد بنقيه الى منقباد ليتولى قيادة المنطقة الجنوبيه يطرق مسامعه كل يوم مما حدا به الى ملازمة البيت والدخول بكشف المرضى رغم انه سليم معافى حتى يبعد عن هذا الجو الخانق الذى يحيط به .. وسرعان ما أنتج الحديث ثماره بشكل غير متوقع فقد وقف أحمد شوقى فى غضب وانفعال وأخرج مصحفا من جيبه ووضع كفه اليمنى عليه مقسما انه لا ينتظر سوى اشارة من اللواء محمد نجيب كى يزحف بكتيبته على الفور .

وطلب جمال حماد من أحمد شوقى عنوان منزله ورقم تليفونه ودونهما فى ورقة صغيرة وساق له الرجاء الا يغادر منزله بعد ظهر ذلك اليوم اذ ربما يتصل به لأمر هام .

وكان عبد الحكيم عامر فى القاهرة يمضى أجازة ميدان وجرفته أحداث الايام الاخيرة من جهة الاعداد للحركة وتعدد اللقاءات وتجهيز خطة التحرك عن الالتفات الى حقيقة غابت عن باله وهى ان اجازته تنتهى يوم ٢١ يوليو . واتصل أركان حرب الفرقة الأولى المشاة برفح والتى كان يعمل عبد الحكيم برئاستها لاخطار رئاسة المشاة ان عبد الحكيم عامر قد تغيب بدون اذن عن وحدته . وخشى جمال حماد أن يثير هذا الامر شكوك الرئاسات فى سر غياب الرائد عبد الحكيم اذ أن ذلك لم يكن شيئا مألوفا بين الضباط خاصة وهو ضابط أركان حرب ويعمل برئاسة الفرقة .

ولم يجد وسيلة لانقاذ الموقف سوى محاولة ادخال عبد الحكيم عامر بكشف المرضى وسرعان ما دون اسمه على النموذج العسكرى المعد لذلك وأسرع الى المستشفى العسكرى بكوبرى القبة ومن حسن الحظ انه التقى بالطبيب الذى كان يبحث عنه وهو العقيد طبيب صلاح فوزى ـ وكان جمال حماد قد تعرف بهذا الطبيب عن طريق اللواء محمد نجيب فقد صادفه بمنزله عندما استدعاه محمد نجيب ليقوم بالكشف الطبى عليه ويحجزه بكشف المرضى فقد كانت تربطه به صلة صداقة . وكان صلاح فوزى يعرفه الجميع بصوته الجهورى وجراته التى لا حد لها ، وشعر جمال حماد بالخجل ينتابه وهو يقدم النموذج الطبى للطبيب فقد كان المريض غائبا والامر مكشوفا وحاول ابداء بعض كلمات الاعتذار ولكن الطبيب لم يدعه يسترسل وبادر بحجز عبد الحكيم عامر فى كشف المرضى وذيل النموذج بتوقيعه . وهكذا حجز الطبيب كلا من نجيب وعامر فى كشف المرضى دون أن يعلم بالدور الهام الذى سيلعبه كلاهما بعد ساعات ولكنه كان يعلم بالتأكيد حقيقة واحدة هى ان الضابطين متمارضان . والتقى جمال حماد بعد قليل بعبد الحكيم عامر بمنزله بالعباسية وصادف عنده ثروت عكاشة وكانت مناسبة طريفة اذ أن الثلاثة علاوة على انتمائهم للأحرار كانوا أبناء دفعة واحدة . وعاتب جمال حماد صديقه عبد الحكيم لعدم حرصه فى أمر غيابه بعد انتهاء أجازته وأخطره بأنه قد أمكن حجزه بكشف المرضى بمنزله وان اشارة رسمية قد أرسلت من رئاسة المشاة

الى قيادة الفـــرقة برفح بذلك . وابتسم عبد الحكيم محتجا بأن ذلك يعنى عدم قدرته على مغادرة البيت فهو مريض وخروجه الآن فيه مخالفة للقانون وأخذ يمزح مع صديقه قائلا انه لم يكن هناك داع لتغطية مسألة غيابه لأنهما فى صباح اليوم التالى اما سيكونان معا فى قيادة الجيش أو سيكونان مع باقى الزملاء فى غياهب السجن وان اضافة جناية الغياب بدون اذن الى قائمة الادعاءات الاخرى التى ستوجه اليه والتى عقوبتها الاعدام مسألة لا تقدم ولا تؤخر وضحك الصديقان من الاعماق .

واستطاع جمال حماد فى هذا اللقاء القصير أن يقنع عبد الحكيم عامر بمدى الاهمية التى يعلقهـــا على تولى أحمد شوقى قيادة كتيبته فى تلك الليلة ــ وبعد اتصال تليفونى قصير دار بين جمال حماد وزميله أحمد شوقى فى منزله تم الاتفاق على موعد للقاء بعد الظهر .

وفغر أحمـــد شـــوقى فاه من الدهشـــة وهـــو يرى عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وجمال حمـــاد والنقيب جمال القاضى يدلفون الى صالون منزله بمصر الجـديدة بالقرب من ميدان روكسى فى الموعد المحدد فقد كان يظن ان الذى سيزوره هو جمـــــال حماد بمفرده ولم يجل بخاطره ان يصحبه فى زيارته هذا العدد من الضباط خاصة وان معرفته بهم كانت سطحية .

وجلس جمال حماد مع زملائه فى الصالون وقد استبد به القلق فقد خشى أن يعـــدل أحمد شوقى فى حضور هؤلاء الضباط الغرباء عنه عمـــا ذكره له فى الصباح برئاسة المشاة فيصبح موقفه حرجا أمام زملائه . وبينما

كان الزائرون يتناولون شرابا مثلجا استرعت أنظارهم صورة ضابط كبير بملابس الشرطة معلقة على الحائط داخل اطار أنيق وسأل جمال حماد مضيفه عن صاحب هذه الصورة وأصيب الحاضرون بالوجوم حينما رد أحمد شوقى فى براءة : « ده خالى اللواء أحمد طلعت » وكان اللواء طلعت يتولى وقتئذ حكمدار شرطة القاهرة وكانت له شهرة مدوية فى أعمال الاعتقالات وقمع المظاهرات وكانت تحت قيادته المباشرة فرقة الامن المدرعة وهى القوة الضاربة الوحيدة التابعة لوزارة الداخلية وقتئذ .

وثارت المخاوف فى نفس جمال حماد خشية أن يكون قد قاد زميليه عبد الناصر وعبد الحكيم عامر الى كمين محكم وأن يكون كل سهر الليالى الماضية فى الاعداد للحركة قد ضاع هباء وأن يجدوا أنفسهم جميعا بعد قليل رهن الاعتقال واشتدت حيرته فى التصرف الواجب ازاء هذا الموقف وهل من الصواب أن يفاتحوا أحمد شوقى فى الانضمام للحركة بينما خاله اللواء أحمد طلعت هو العدو الاول لها ، وأحس أحمد شوقى من جو الصمت الثقيل الذى ساد الصالون بحقيقة ما يدور فى أعماق ضيوفه من خواطر القلق والانزعاج اثر معرفتهم صاحب الصورة وقرابته الوثيقة له .. ولم يلبث ان قطع حاجز الصمت بقوله : « أنا فاهم سبب حضوركم وعارف انكم دلوقت خايفين منى لكن أرجو ان تطمئنوا انى فى سبيل بلدى مستعد أعمل أى حاجة حتى ولو قلتولى اقبض على خالك » . وانزاح كابوس القلق الذى كان قد

خيم على جو الصالون ازاء هذه الكلمات التى تفيض بالوطنية ودخل عبد الناصر فى الموضـــوع مباشرة دون مقدمات وعرض على أحمد شوقى الاشتراك فى الحركة فوافق على الفور دون تردد ودون أن تكون لديه فكرة عن موعدها .

وكانت مفـــاجأة كبيرة لاحمـــد شوقى حينما سأل عبد الناصر مستفسرا عن موعد الحركة وأجابه بأنهـــا ستكون بعـــد ست ساعات فقط . ولا شك ان معـــادن الرجال لا تظهر على حقيقتها الا فى أوقات الجد وفى مواجهة الاخطار وكان ثبات أحمد شوقى وهو يتلقى هذه المفاجأة عظيما ويدل على شجاعة وايمان كبيرين وجلس فى هدوء وثقة وهو يتلقى تعليمات التحرك الخـــاصة بالكتيبة ١٣ . . وكانت أصوات أفراد أسرته وضحكاتهم تصل الى أسماع الضباط الجالسين بالصـــالون وغاب جمال حماد فى لجة من التفكير العميق وهو يستمع الى اصوات هذه الاسرة السعيدة ويسأل نفسه فى حيرة هل يا ترى ســيكون هو السبب غدا فى ســعادة هذه الاسرة عندما يجـــدون رجلهم وقـــد دخل التاريخ أم سيكون سبب شقائهم وموضع لعناتهم عنـــدما يجدون رجلهم فى أعماق السجن وفى طريقه الى ساحة الاعدام . . ان الفرق بين المصيرين جد قصير فهو لا يزيد على ست ساعات . .

وزارة الهلالى تحلف اليمين الدستورية

فى الساعة الرابعة الا خمس دقائق بعد ظهر ٢٢ يوليو دخل نجيب الهلالى يتبعه وزراؤه الى قاعة كبرى بقصر

المنتزه استعدادا لحلف اليمين الدستورية أمام الملك . وكانت القاعة أشبه بالمتاحف لفرط فخامتها وقد فرشت بالسجاد العجمي وتدلت في سقفها أجمل الثريات الكهربائية من الكريستال وكانت القاعة مدهونة باللون الاخضر وكل ما فيها من أثاث أو تحف أخضر اللون .

ومرت الرابعة ولم يدخل الملك حتى دقت الساعة الربع بعد الرابعة ورأى الوزراء رئيس الديوان يدخل ويتوجه الى الهلالى ويهمس فى أذنه ويقوم الهلالى ويسير متوجها مع رئيس الديوان الى غرفة مكتب الملك وظل الوزراء ينظر كل منهم الى الآخر ولا يقول أحد منهم شيئا . وفى الساعة الخامسة دخل الهلالى القاعة وتوجه الى حيث جلس مرتضى المراغى وجلس بجانبه وتنهد ودار بينهما الحديث التالى :

المراغى : خيرا ..

الهلالى : انك تعرف ان مرسوم تعيينك وزيرا يتضمن انك وزير داخلية وحربية .

المراغى : نعم اعلم ذلك .

الهلالى : لقد استدعانى الملك كما تعلم وطلب منى أن أصرف النظر عن تعيينك وزيرا للحربية اكتفاء بوزارة الداخلية .

المراغى : ليس فى ذلك من بأس وكم كنت مرهقا من الجمع بينهما لكن لى سؤالا :

لقد علمت منك انه قد وافق على المرسوم الذى قدمته اليه فما الداعى لهذا التعديل الآن ؟

الهلالى : لانه يريد أن يعين زوج أخته اسماعيل شيرين .

المراغى (بغضب) : ان اسماعيل شيرين ضـابط احتياطى فكيف يقفز الى رتبة وزير ؟ اذا كان الملك يريد ضابطا فعنده على الاقل مائة لواء .. لماذا لم يعين حيدر أو حسين فريد أو محمد نجيب .

الهلالى : انه مصر على تعيين اسماعيل شيرين .

المراغى : ألم أقل لك انه لا فائدة أرجوك أن تدعنى أنصرف .

الهلالى : أرجوك ن تبقى ستكون فضيحة لو خرجت لقد وعدته بقبول دخول اسماعيل شيرين ، هل تريد أن تفضحنى ؟

وكانت الدموع تترقرق فى عينيه فسـكت مرتضى المراغى الذى نقلنـا من مذكراته نص الحديث السابق وقال : اعتقد ان أكبر خطأ ارتكبته فى حياتى هو قبولى لذلك الوضع ولا أزال نادما عليـه حتى الآن .. وظل الهلالى ووزراؤه جالسين حوالى الساعة بالصالون حتى وصل اسماعيل شيرين وهو مرتد ملابس التشريفة ليحلف مع أعضاء الوزارة اليمين .

وفى السادسة تماما دخل الوزراء الجدد قاعة الملك بعضهم قبل يده وبعضهم لم يقبلها . لم يقبلها نجيب الهـلالى وطه السباعى وزكى عبد المتعال وسيد شكرى ومريت غالى وطراف على وبعد أن أقسموا اليمين قال الملك :

ـ أتمنى لكم التوفيق ولو انه فيه واحد منكم من اللى كتبوا العريضة اياها ولم يعتذر .

وكان يشير بذلك الى طه السباعى .

فقال نجيب الهلالى : يا مولاى لقد كان وزيرا معى فى وزارتى السابقة وأقسم يمين الولاء .

ولم يعتـــــذر طه السباعى بل وقف ينظر الى الملك السابق فى تعجب .

ويقول الاستاذ موسى صبرى ان هذا يقطع فى الدلالة على ان الملك لم يكن جادا عندما قبل شروط الهلالى فهو يطلب الاعتذار من رجل وقع عريضة يحتج فيهــا على تدخل الوسطاء وغير المسئولين . وقصـــــة تغيير وزير الحربية فى اللحظة الاخيرة ليكون اسماعيل شيرين بدلا من مرتضى المراغى يرويهـــا لنا الاستاذ صلاح الشاهد تشريفاتى رئاسة الوزراء وقتئـــذ بطريقة أخرى تخالف ما ذكره مرتضى المراغى فى مذكراته . وكم يثير هــذا الاختلاف فى الوقائع من أولئك الذين كانوا قريبين من مسرح الاحداث حيرة المؤرخين .

يقول الاستاذ صلاح الشاهد : طلب منى نجيب الهلالى كتابة أسماء المرشحين الذين وقع عليهم الاختيار لاصدار المرسوم الملكى بتعيينهم وزراء وبالفعل أعد المرسوم من الادارة العربية لرفعه الى القصر وأرسل فعلا .. وعاد عفيفى باشا بالمرسوم دون توقيعــــه من الملك وسأل الهـــلالى باشا عن سبب عدم ادراج اسم اسماعيل شيرين ضمن الوزراء وزيرا للحربية برغم ان الملك موافق على تعيينه .

فبدت الدهشة على وجه الهلالى وقال :

ـ مين قال انى أريده وزير حربية .

فقال حافظ عفيفى .

ـ لقد أخذت رايك وأنت مدحته .

فرد الهلالى :

ـ لقد سألتنى عن شخص معين دون الوظيفه .. يا حافظ باشا وزير الداخليـة مرتضى المراغى هو وزير الحربية .

فقال حافظ عفيفى .

ـ لقد فهمت خطـأ ورفعت الى الملك موافقتكم على تعيينه وزيرا والحل الوحيد هو أن أقدم استقالتى .

وهنا حاول كل الموجودين بصالون الهلالى اقناعه بالموافقة كى تمر الازمة خاصة وان الملك أجاب كل مطالب الهلالى من تطهير وابعاد الحاشية ورضى الهلالى دون ان يقتنع .

ويروى لنا الاستاذ صلاح الشاهد رواية غريبة لم يذكرها أحد غيره عن اسماعيل شيرين الذى حاول ان يرفض تعيينه وزيرا للحربية وحاول وهو يقبل يد الملك والدموع فى عينيه أن يقنع فاروق بان انقاذ العرش لن يتأتى الا باسناد الوزارة الى زعيم حزب الوفد مصطفى النحاس باشا فان البوادر تدل على قرب حدوث انقلاب فى الجيش سوف يطيح بالعرش ـ وعرض اسماعيل شيرين على الملك أن يكلفه بالذهاب على ظهر طائرة خاصة لاحضار مصطفى النحاس من أوربا فى ساعات زاعما بأن الشعب عندما يرى زعيمه بين صفوفه سوف يهتف الملك والعرش . وكان الملك مترددا وكان يخشى سطوة النحاس بين جماهير الشعب وقبل الملك فى

النهاية واستعد اسماعيل شيرين للسفر ولكن الداهية حافظ عفيفى تدخل لدى الملك لمنع اســماعيل شيرين من تنفيذ اقتراحه بحجة انه شاب لم ينضج بعد وانه قليل التجربة فى الحيــاة السياسية ولو دعى النحاس لرئاسة الوزارة لشارك بنفسه في خلع الملك واقتنع الملك ولكن اسماعيل شيرين كان على صواب فقد كان العرش فى خطر وكأنه كان يقرأ الغيب فى كتاب مفتوح .

من الذى أسس تنظيم الضباط الأحرار عبدالناصر أم السادات؟

لماذا تكونت الجماعات السرية بالجيش ؟

كان أول عهد الشرق الاوسط بالانقلابات العسكرية فى اكتوبر عام ١٩٣٦ حينما قام اللواء بكر صدقى رئيس أركان حرب الجيش العراقى بانقلابه الذى كان فاتحة للحركات العسكرية التى انتشرت فى هذه المنطقة والتى كانت تستهدف تغيير الاوضاع السياسية بالقوة .. وقبل قيام حركة الجيش فى مصر « فى ٢٣ يوليو ٥٢ » وقعت فى سوريا ثلاث انقلابات عسكرية متعاقبة قادها حسنى الزعيم ثم سامى الحناوى ثم أديب الشيشكلى . هذا وقد تعرض الجيش المصرى بعد نشوب الحرب العالمية الثانية لعدد من المؤثرات السياسية جعلت ضباطه الشبان يتجهون الى العمل السياسى . وتحرير مصر من الاحتلال كان هو الاساس الذى تركزت عليه أفكار الضباط الوطنيين بعد ان أثبت لهم الواقع ان معاهدة ١٩٣٦ لن تؤدى الى الاستقلال الحقيقى . وكانت مصر وقتئذ تعج بالالوف الحاشدة من جنود انجلترا

ومستعمراتها من شتى الملل والالوان ، الوافدين من مختلف انحاء الامبراطورية وتعرض الشعب المغلوب على امره لابشع الاهانات من جنودهم السكارى الذين كانوا يرتكبون الفظائع كل يوم فى شوارع القاهرة والاسكندرية حتى باتت شوارعهما بعد الغـــروب مقفرة خاوية على عروشها . وكان الضباط الشبان الذين كانت الاوامر تفرض عليهم ارتداء زيهم العسكرى نظرا لظروف الحرب يشاهدون هذه المناظر الاليمة ويرون بأعينهم اعتداءات الجنود البريطانيين على الاهالى وهم يكادون يتمزقون من الغيظ والغضب . ولم يكن ذلك هو مصـــدر متاعبهم الوحيد فقد كانوا يعانون داخل الجيش من السيطرة البريطانية التى تمثلت فى البعثة العسكرية — وكانت قيادة الجيش المصرى قد تمصرت عقب معاهدة ١٩٣٦ وتخلص الجيش من السردار الانجليزى الفريق سفنكس وضباطه ولكن السياسة البريطانية لم تتخل عن قبضتها الحديدية على الجيش فأرسلت بعثتها العسكرية لتعمل فى الظاهر على تطـــوير الجيش وتحديثه بينما كان واجبها الحقيقى هو العمل على اضـــعاف هذا الجيش والحيلولة دون تقدمه فان بقاء الاحتلال البريطانى فى مصر كان رهينا بعدم مقدرة هذا الجيش على حماية قناة السويس وفقا لنصوص المعاهدة بين مصر وبريطانيا فكيف يتخيل احد أن يعمل ضباط البعثة الانجليز على زوال الاحتـــلال البريطانى ؟ هذه الحقيقة لم تغب عن فطنة الضباط الشبان الذين أدركوا ما يهدف اليه الضـــباط الانجليز من حرمان الجيش المصرى من كل ما تتطلبـــه

الجيوش الحديثة من أسلحة ومعدات علاوة على مايبدونه من عجرفة وسوء فى المعاملة ، فكان ان وقع الصدام المتوقع بين الطرفين .

وعندما تولى على ماهر الوزارة عام ١٩٣٩ قبيل اعلان الحرب مباشرة عين الفـــريق عزيز المصرى رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش وكان معروفا بعدائه الشـــديد للانجليز كما عرف عنه الاعجاب الشديد بالعســكرية الالمانية ونظرياتها الحربية المتطـورة وبدأ عزيز المصرى ينتهج سياسة اصـــلاحية للنهوض الحقيقى بالجيش وادخال النظم الحديثة الى تشكيلاته المتخلفة واخذ ينتقد علانية البعثة العسكرية البريطـانية وسياستها فى بيع السلاح القديم لمصر بأبهظ الاثمان فوصفها بأنهـا بعثـة تجارية وليست عسكرية .

ووجد الضباط الوطنيون فى قائدهم الجـديد الامل الذى توقعوا على يديه الخلاص مما يعانونه من متاعب وآلام .

لكن الانجليز وجدوا فى عزيز المصرى خطرا يهدد تبعية الجيش المصرى لهم ويؤثر على سيطرتهم على مقاديره .. فاستخدموا وسائل ضغطهم على رئيس الوزراء على ماهر حتى ارغموه على تنحيته عن منصبه .

وكما تعلق الضباط الشبان بعزيز المصرى وهو على رأس الجيش بحماسته ووطنيته كان ابعاده عن الجيش عام ١٩٤٠ عن طريق الانجليز سببا فى أن يزداد ارتباط الضباط بشـــخصه وتعلقهم بأفكاره . وكان الرجل بشخصيته الاســـطورية وجاذبيته الفذة هو المرشح

الطبيعى الذى هيأه القدر ليقود الضباط المصريين الشبان الى العمل السياسى حتى اعتبروه الاب الروحى لهم ، وسرعان ما أخذوا يسعون فرادى وجماعات الى بيته بالمطرية يستمعون اليه وهو يحدثهم عن انفسهم باعتبارهم الوسيلة الوحيدة لخلاص مصر . هذا هو الجو الذى كانت تعيش فيه مصر فى بداية الاربعينات وهذا هو المجال الذى وجد الضباط الشبان أنفسهم يعملون من خلاله – وكان من الطبيعى ازاء مشاعر الغضب المزوج بالغيظ التى كانت تكاد تشتعل فى نفوس الضباط الوطنيين بالجيش لفرط ما كانوا يعانونه من سيطرة الاستعمار أن يبدأ بعض الضباط الشبان العمل السياسى فى الجيش بانشاء جماعات سرية تضم زملاءهم من رفاق الدفعة والسلاح للاسهام فى العمل الوطنى .. وكانت هذه الجماعات رغم تفرقها وعدم ارتباطها ببعضها يجمعها هدف واحد مشترك وهو العمل على مقاومة الانجليز ومحاولة القضاء على الاحتلال البريطانى غير ان أسلوب عمل هذه الجماعات كان يختلف حسب طبيعة ظروفهم وطريقة تفكيرهم .

من كون الضباط الاحرار ..
السادات أم عبد الناصر ؟

لم يسبق لتنظيم سرى داخل اى جيش ان ذاع صيته ودانت له الشهرة فى الداخل والخارج مثل ما جرى لتنظيم الضباط الاحرار الذى أنشأه جمال عبد الناصر فى سبتمبر ٤٩ عقب عودة الجيش المصرى من حرب فلسطين ... ولا شك ان السبب فى ذيوع شهرة هذا

التنظيم وعلو مكانته انما يرجع الى انه التنظيم الوحيد الذى تمكن من تحقيق الهدف الـكبير الذى شـكل من اجله وهو تغيير الاوضاع البالية التى كان ينوء منهـا الشعب المصرى مستخدما فى ذلك القوة المسلحة بعد ان عجزت القوى الشعبية عن احداث هذا التغيير بوسائلها فلم يصبح هناك مفر من استخدام قوة الجيش لفرض ارادة التغيير وتم ذلك بالفعل ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

ولم يكن أمر تكوين عبد النـــاصر لهذا التنظيم عام ١٩٤٩ مثار خلاف أو جدل فقـد ظل حقيقة مؤكدة منذ ٢٣ يوليو ٥٢ لا يمارى فيها انسان ... الا ان الامر قد اختلف منـذ عام ١٩٧٨ فقد اصـــدر الرئيس انور السادات كتـــابه « البحث عن الذات » الذى تضمن معلومات جديدة تماما جعلت الحقيقة التى آمن بها الناس طوال ربع قرن كقضية مسلمة موضع شـــك ومجـالا للبحث والنقاش .

وهذا ما دفعنى الى أن أقوم مخلصـــا بهذا البحث الدقيق لا استهدف منه ســوى الوصـول الى الحقيقة مجردة من كل زيف لان هذا الموضوع لا يهم مصر وحدها بل يهم الامة العـــربية بأسرها . ان الامانة التاريخية تقتضى منى استخدام الاســـلوب العـلمى فى كشف الحقـــائق مدعمة بالادلة والمستندات وتحليلها تحليلا منطقيا للوصـول الى النتائج الســليمة .. ويهمنى ان انوه اننى لا ابتغى من وراء اظهـــار الحقيقـة اية اغراض شخصية ولا اقصد منها الاشادة بأحد أو الاساءة الى احد اذ ان من سأتناولهم فى البحث قد باتوا فى ذمة الله والتاريخ ولا انتظر من احدهم نفعا ولا ضرا.

ماذا قال السادات ؟

ذكر الرئيس الراحل أنور السادات فى الصفحة ٣٠ من كتاب « البحث عن الذات » انه أنشأ عام ١٩٣٩ أول تنظيم سرى من الضباط وكان ضمن أعضائه عبد المنعم عبد الرءوف وكان يعتبر الرجل الثانى بعده وعبد اللطيف البغدادى وحسن ابراهيم وخالد محيى الدين واحمد سعودى وحسن عزت والمشير أحمد اسماعيل الذى كان يحضر الاجتماعات دون مشاركة سياسية فقد كان رجل عسكرية كرس حياته لعمله وتخصصه .. وانه نظرا لاعتقاله فى صيف ١٩٤٢ فقد تسلم جمال عبد الناصر هذا التنظيم فى أوائل عام ١٩٤٣ عقب عودته من السودان .. ويتضح لنا مما ذكره السادات فى الصفحة ١١٣ من نفس الكتاب أن عبد الناصر لم يكن عضوا بهذا التنظيم من قبل وانه عقب نزوله بكتيبته من السودان ووصوله الى مصر فى أواخر عام ١٩٤٢ اتصل به عبد المنعم عبد الرءوف (الذى تولى القيادة بعد دخول السادات المعتقل) لضمه الى التنظيم واستجاب عبد الناصر على الفور ولم يكن من الصعب عليه بعد ذلك أن يزيح عبد المنعم عبد الرءوف عن طريقه وأن يتولى هو قيادة التنظيم بدلا منه .

هذا ولم يترك لنا أنور السادات اية فرصة كى يتجه بنا الظن الى أن التنظيم الذى أنشأه كان تنظيما آخر خلاف الضباط الاحرار فعلى الرغم من انه لم يذكر

هذا الاسم صراحة فى الصفحة ٣٠ كما رأينا واقتصر قوله على انه أنشأ تنظيما سريا من الضباط الا انه سرعان ما عاد ليؤكد لنا الاسم الذى يعنيه بطريقة صريحة فذكر انه تنظيم الضباط الاحرار وكان ذلك فى صفحتى ٣٨ ، ٤٣ من « البحث عن الذات » وهو فى معرض الكلام عن أحداث جرت فى عامى ٤١ ، ٤٢ قبل اعتقاله ـ وهذه العبارات التى كتبها السادات فى كتابه عام ١٩٧٨ تكشف لنا بمنتهى الصراحة والوضوح عن معلومتين هامتين وجديدتين على كل من قراهما أو سمع بهما ـ الاولى ان المؤسس الحقيقى لتنظيم الضباط الاحرار الذى اشعل ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ هو أنور السادات وليس جمال عبد الناصر كما كنا نعلم والثانية أن تنظيم الضباط الاحرار قد أنشىء عام ١٩٣٩ وليس فى أواخر عام ١٩٤٩ كما كان الجميع يعرفون . . وقبل أن نضع هاتين المعلومتين الجديدتين موضع البحث والدراسة يجدر بنا أن نعود قليلا الى الماضى لنتوقف عند نوفمبر عام ١٩٥٤ اى قبل ربع قرن من صدور « البحث عن الذات » فقد سبق للسادات أن أصدر فى ذلك التاريخ كتابا سماه « صفحات مجهولة » أصدرته دار التحرير للطبع والنشر (العدد ٨٤ كتب للجميع) ثم عاد أنور السادات وأصدر نفس الكتاب ولكن بعنوان آخر عام ١٩٥٧ هو « أسرار الثورة المصرية » ـ أصدرته دار الهلال (العدد ٧٦ يوليو ١٩٥٧) ونظرا لان الكتابين هما كتاب واحد لذلك سوف نتخذ كتاب « اسرار الثورة المصرية » مادتنا فى البحث لضمان توحيد الصفحات ـ واذا عقدنا مقارنة بين ما ورد فى كتابى « اسرار الثورة المصرية » و « البحث عن الذات » فيما يتعلق بتنظيم

الضباط الاحرار لوجدنا البون شاسعا فان أوجه التعارض بينهما لم تقتصر على أمور ثانوية لا أهمية لها وانما تعدتها الى أمور جوهرية لا يمكن اغفالها .. كما ان طريقة عرض المعلومات مختلفة أشد الاختلاف فشتان بين المعلومات الصريحة التى ذكر بها أنور السادات انشاءه للتنظيم عام ١٩٣٩ وأسماء الأعضاء وكيفية انضمام عبد الناصر للتنظيم لاول مرة عقب نزوله من السودان على يدى عبد المنعم عبد الرءوف ثم توليه القيادة عام ٤٣ . شتان بين ذلك الوضوح الشامل وبين تلك الالغاز المبهمة التى نطالعها فى كتاب « أسرار الثورة المصرية » كلما تطرق حديث السادات الى ناحية التنظيم ... ولنبدأ الآن فى قراءة ما دونه لنا فى ذلك الكتاب . وتبدأ القصة بمجموعة من الملازمين الشبان تخرجوا فى الكلية الحربية عام ١٩٣٨ واجتمعوا للخدمة معا فى « منقباد » بمحافظة أسيوط ونجد ان المجموعة أخذت تلتف حول شاب من بينهم يمثل الشخصية الصعيدية الكاملة وكان هذا الشاب هو جمال عبد الناصر الذى استحوذ بخصاله واتزانه على اعجاب واحترام زملائه . وأضحى هو لهذه المجموعة بمثابة الرائد فهو الذى رسم لافرادها رسالتهم الكبرى فى مقاومة الانجليز وشهدت تباب الشريف حيث معسكر المناورات عهدا مقدسا ربط مجموعة صغيرة من الشباب الصغار ، وفى بداية الاربعينات تشتت شمل المجموعة ونقلوا جميعا من منقباد وكان حظ السادات النقل الى سلاح الاشارة بالمعادى بينما نقل عبد الناصر الي السودان — ولم يصرح لنا السادات قط وهو يؤرخ

احداث الاربعينات بأية عبارات تبين لنا ان تنظيما سريا قد تشكل ولكنه يوحي للقارىء طوال الوقت بأن هناك تنظيما قائما له شأن وله كيان ـ ويبدو ذلك واضحا عند الحديث عن لقاءاته بالشيخ حسن البنا رئيس جماعة الاخوان المسلمين والفريق عزيز المصرى الاب الروحى للضباط فهو لا يلتقى بهما عام ١٩٤٠ بصفته الشخصية ولكن بصفته مندوبا عن تشكيل الاحرار وهكذا يظهر لنا هذا الاسم لاول مرة في الصفحة ٥٢ من الكتاب اذ قال بصدد اللقاء الذى هيأه له حسن البنا مع عزيز المصرى « كان على أن ارجع الى تشكيل الاحرار قبل المقابلة وكان على أن أعود اليهم بعد المقابلة .. فلابد من الحذر .. ان أى شك يحوم حولى قد يذهب بتشكيل الاحرار كله » .

ويزيد السادات من قناعتنا بوجود هذا التشكيل عندما أجاب عن سؤال للشيخ حسن البنا فى الصفحة ٥٨ من الكتاب بأنه لا يعمل وحده وان هناك تشكيلا معينا موجودا وان البلد لن تتخلص من الاستعمار الا بانقلاب عسكرى يقوم به رجال الجيش .

وعندما أراد السادات التعليق على حادث ٤ فبراير ٤٢ ذكر ان التشكيل لم يكن قد توقع هذا الحادث ولم يشعر به عندما وقع وعندما طاش صواب ضباط الجيش ـ بسبب الحادث ـ كان التشكيل قد بدأ في التفكير . ولا يشك احد ممن يقرأ ما ورد بالصفحة ٦٦ فى أن التشكيل قد وصل الى مرحلة متقدمة من التخطيط والتنظيم والقوة فلقد أجرى التشكيل تقديرا للموقف على طريقة العسكريين لبحث خطة الرد على

الانجليز وكان القرار كما ذكر السادات « صممنا على ان نضع خطتنا لـكى تأتى ضربتنا للانجليز محكمة ودامية فى الوقت نفسه قـررنا كذلك ان تنأى خطتنا فى هـذه المرة عن أى صلة بالاخوان المسلمين » وينتابنا الشعور ـ بعد قراءة هذه الصفحة أيضا ـ بأن التشكيل قد بلغ أوج قوته عند اقتراب الجيش الالمانى من العلمين الى الحد الذى استطاع به انشاء ورشة كاملة لصنع المسدسات بدأت تخرج السلاح فعلا كما استطاع أفراده تحضير البارود تحضيرا علميا وعندما وصل روميل الى العلمين وضع التشكيل خطة واحدة سريعة لابادة الانجليز أفرادا وجماعات عند أنسحابهم وكان جانب من الخطة يحـدد تفاصيل العمل العسكرى الداخلى والجانب الاخر يرسم خطة الاتصال بالالمان .

ولكن القدر كما ذكر السـادات كان فى نفس الوقت يضع خطة أخرى وترك السادات حـديثه عن التنظيم جانبـا وبدأ يروى لنا بالتفصيل قصة اتصـال الجـاسوسين الالمـانيين ابلر وسـاندى به كى يصلح لهمـا جهازهما اللاسلكى المعطل تلك القصة التى انتهت فصولها بطرد السـادات من الجيش فى ٨ أكتوبر ٤٢ . ولم تتوقف عجلة الاحداث عن الدوران بعد طرد السـادات من الجيش ثم اعتقاله عام ٤٢ فقد عاد عبد الناصر من السودان وتفهم من سياق الـكلام انه عاد لـكى يمـارس التوجيـه فى التشـكيل فهـو يرى فى (الصفحة ١٠٦) انه من المصلحة للتشكيل والثورة عدم استمرار العمل المنظم الا بعد استكمال أسباب النجاح ووسائله .

هذا ما تضمنته المرحلة الاولى من كتاب « أسرار الثورة المصرية » عن كل ما يخص التنظيم من معلومات .. تلك المرحلة التى بدأت بالعهد المقدس بجوار النار الموقدة فوق تباب الشريف بين مجموعة أصدقاء منقباد عام ٣٩ وانتهت بطرد السادات من الجيش فى أكتوبر ٤٢ .

ومن تحليلنا للمعلومات التى أمكن لنا استخلاصها خلال تلك المرحلة من الكتاب والتى تتعلق بذلك التشكيل الذى كان السادات يظهره لنا من بعيد دون أن يحاول أن يكشف لنا الستار عن شىء من أسراره أو يطلعنا على أى جانب من خباياه على عكس الطريقة التى اتبعها عندما كتب عن التنظيم فى « البحث عن الذات » والتى اتسمت بالصراحة والوضوح .

ان عشرات الاسئلة لابد أن تثور بعد قراءتنا المرحلة الاولى من « أسرار الثورة المصرية » .. تلك المرحلة التى تهمنا فى بحثنا فى الدرجة القصوى اذ أنها المرحلة التى قال السادات فى « البحث عن الذات » انه أنشأ فى بدايتها تنظيم الضباط الاحرار والتى قال انه فى نهايتها جرى اعتقاله وتم لجمال عبد الناصر تسلم التنظيم عقب عودته من السودان .

هنا نتساءل : هل كان للظروف التى صدر فيها الكتاب دخل فى هذا الغموض ؟ لقد صدر الكتاب كما نعلم فى وقت كان فيه عبد الناصر رئيسا للجمهورية فهل كان لهذا الوضع تأثير على السادات كمؤلف ؟

لقد كان فى وضع عبد الناصر بالطبع وهو فى قمة السلطة ما يحتم على السادات أن يلتزم الحذر البالغ

تجنبا للمتاعب ومن هنا جاء كل ما يتعلق بالتنظيم سطحيا ومبهما ويعتمد على الايحاء دون التحديد وعلى التعميم دون التخصيص .

ولكن الدنيا ما لبثت أن تغيرت ـ وسبحان مغير الاحوال ـ فقد توفى عبد الناصر عام ١٩٧٠ وأتى السادات الى قمة السلطة ثم صدر له كتاب « البحث عن الذات » عام ١٩٧٨ . وليس هناك أى مجال للمقارنة سواء فى طريقة الكتابة أو أسلوب عرض الموضوعات بين الكتابين اللذين أصدرهما السادات رغم ان الفارق الزمنى بينهما لا يزيد عن ٢٠ عاما .

مناقشة بالمستندات لاقوال السادات

ذكر السادات كما رأينا فى البحث عن الذات الهيكل الذى تكون منه تنظيمه ويتضح منه انه كان مكونا بصفة اساسية من خمسة ضباط طيارين وواحد من ضباط الجيش ـ وقد استبعدنا أحمد اسماعيل لانه كان يحضر الاجتماعات دون مشاركة سياسية وبذلك انتفت عنه صفة العضوية .

وفيما يتعلق بالضباط الطيارين نجد أن الحيرة تنتابنا فان أسماءهم التى أوردها السادات ضمن تنظيمه هى نفس الاسماء التى ذكر عبد اللطيف البغدادى فى (الصفحة ١٢) من مذكراته الجزء الاول انهم قد شكلوا معا تنظيما سريا بين ضباط الطيران والجيش لمقاومة الاحتلال البريطانى وكان ذلك فى بداية عام ١٩٤٠ .. وذكر لنا البغدادى أيضا فى (الصفحة ١٣) ان أنور

الســــادات انضم الى تنظيم الطيران بناء على ترشيح صديقه حسن عزت عضو تنظيم الطيران .

وهكذا يحدث التعارض امامنا منذ اللحظة الاولى بين التنظيمين فكل منهما يدعى انه الاصل وان الطرف الآخر عضو فيه .

ونتيجة لتحكيم العقل والمنطق فى هذا الخلاف يتضح لنا أن تكوين مجمـــوعة الطيران كان امرا طبيعيا فقد تشكلت من أربعة ضباط طيارين برتبة الملازم تجمعهم وحدة العمل فهم يعملون فى مطار الماظة الحربى كمـا تجمعهم وحدة السكن فهم يقطنون شقة واحدة فى مصر الجديدة ــ وكان الضباط فى تلك الآونة يمضون الجانب الاكبر من وقتهم فى وحداتهم لا يغادرونها الا فيما ندر بسبب ظروف الحرب وحالة الطوارىء المعلنة بالبلاد مما أدى الى توثيق عرى الصداقة وازدياد الروابط بين زملاء السلاح الواحد . . فاذا طبقنا نفس المعيار على مجموعة السادات لادركنا فى الحال مدى مجافاتها لقواعد المنطق اذ ما الذى دفع السادات الى تشــــكيل مجموعته من ضباط طيارين لا توجد بينه وبين معظمهم صلات صداقة قديمة أو زمالة فى السلاح علاوة على انهم يعملون فى مطار الماظة الجوى بينما هو يعمل فى سلاح الاشارة بالمعادى أى يفصل بينه وبينهم ما لا يقل عن ثلاثين كيلو مترا ــ وكان المفروض ان ظروف الحرب وحالة الاستعداد فى الجيش والبعد بينه وبينهم فى مكان العمل كفيلة بأن تحول تفكيره لتقوده الى الاتجاه المنطقى السليم نحو زملاء سلاحه ورفاقه من ضباط سلاح الاشارة بالمعادى

الذين يمضي معهم معظم أوقاته والذين لابد ان تكون قد قربت بينه وبينهم ظروف الحرب واخطار الغارات الجوية علاوة على صلات العمل اليومية وعلى فرض ان الفرصة لم تكن مواتية للسادات لتجنيد ضباط سلاح الاشارة فى تنظيمه ـ رغم ما فى هذا الفرض من استحالة ـ أفهل غاب عن فكره زملاؤه السابقون أصدقاء منقباد الذين نقلوا أيضا الى القاهرة مثل ما نقل هو الى سلاح الاشارة ؟

ولا شك ان العهد المقدس الذى أقسموه مما فوق تباب الشريف فى منقباد كان فرصة سانحة لتجنيدهم فى تنظيمه دون أى جهد أو مشقة وكان من بينهم بعض أبناء دفعته الذين زاملوه وكان منهم زكريا محيى الدين (نائب رئيس الجمهورية فيما بعد) وحمدى عبيد (وزير الادارة المحلية فيما بعد) .

ولكن الغريب فى الامر ان السادات لم يحدثنا اطلاقا عن ضم أى ضابط من الذين كان المفترض أن يكونوا أول من ينجذبون الى تنظيمه اما بحكم زمالة السلاح كضباط سلاح الاشارة واما بحكم زمالة الدفعة بالكلية الحربية او زمالة الخدمة فى منقباد أو روابط العهد المقدس فوق تباب الشريف .

من اذن من الضباط نستطيع أن نقرر عن قناعة انه كان ضمن تنظيم السادات عام ٣٩ ؟ ان الضباط الطيارين الذين ذكر أسماءهم فى تنظيمه يتضح من مراجعة مذكراتهم وشهاداتهم المنشورة أنهم جميعا أنكروا انضمامهم فى هذه الآونة الى اى تنظيم خلاف تنظيم الطيران مما يجعلنا نستبعد أسماءهم . أما ضابط الفرسان خالد محيى الدين فاذا تغاضينا عن حقيقة

صارخة وهى انه عندما ذكر السادات اسمه ضمن تنظيمه عام ١٩٣٩ لم يكن قد تخرج بعد فى الكلية الحربية فكيف نتغاضى عما ذكره خالد محيى الدين نفسه من أن أول صلة له بأحداث السياسة كانت فى صيف عام ٤٢ عندما عين حرسا على الطيار حسن عزت بعد اعتقاله مع السادات فى ميس سلاح الفرسان فى قضية الجاسوسين الالمانيين فى أغسطس ٤٢ (أى بعد انقطاع صلة السادات بتنظيمه) وان حسن عزت هو أول من ربطه بالسياسة ولذا نضطر الى استبعاده هو الآخر من التنظيم .

لم يبق اذن من الاسماء التى أوردها السادات فى « البحث عن الذات » سوى عبد المنعم عبد الرءوف وله قصة :

تخرج عبد المنعم عبد الرءوف فى الكلية الحربية عام ١٩٣٨ فهو من نفس دفعة السادات وعين ضابطا طيارا بسلاح الطيران وعرفت عنه الاستقامة والصلاح وصدق الوطنية ـ وقد حذا عبد المنعم حذو الكثيرين من الضباط الشبان المتحمسين الذين اجتذبتهم شخصية عزيز المصرى فبدأ يتردد على منزله بالمطرية وتولدت نتيجة لذلك رابطة قوية من المودة والثقة الى الحد الذى جعل عزيز المصرى يصارح عبد المنعم برغبته الملحة فى السفر الى بيروت ويسأله المعونة وكان عزيز المصرى يهدف من وصوله الى بيروت أن يساعده عملاء الالمان بها على السفر الى العراق للمساهمة فى ثورة رشيد عالى الكيلانى التى قام بها ضد الانجليز .

واستطاع عبد المنعم بدوره اقناع زميله ودفعته حسين ذو الفقار صبرى للاشتراك فى نقل عزيز المصرى الى بيروت بطائرة من السلاح الجوى المصرى بحكم وجود حسين ذو الفقار فى سرب المواصلات .. ولكن المغامرة التى وقعت يوم ١٦ مايو ٤١ لم يتيسر لها النجاح فان حالة الاستعجال سببت فى أن يغلق الميكانيكى مفتاح الزيت بدلا من أن يفتحه مما أدى الى هبوط الطائرة اضطراريا بالقرب من قليوب .. ورغم اختفاء عزيز المصرى والطيارين لمدة ٢١ يوما فى حى امبابة عند أحد أصدقاء عبد المنعم تمكن البوليس من القبض عليهم يوم ٦ يونيو ٤١ .. وأجرى التحقيق معهم بعد اعتقالهم وقدموا للمحاكمة واستمروا معتقلين حتى أفرج عنهم فى مارس ٤٢ فى عهد حكومة النحاس . ولم يعد عبد المنعم عبد الرءوف الى سلاح الطيران بطبيعة الحال بل نقل الى الجيش وانضم لقوة الكتيبة الثالثة المشاة بمنشية البكرى بالقاهرة وهناك جمعته الاقدار بضابط شاب تعرف عليه لاول مرة ولعب بعد ذلك دورا خطيرا فى مجرى حياته .. وكان ذلك الضابط هو جمال عبد الناصر الذى كان يعمل وقتئذ مساعدا لاركان حرب الكتيبة الثالثة وكان من ضمن قوة الكتيبة التى نقلت من الصحراء الغربية الى القاهرة فى مارس ٤٢ وهو نفس الشهر الذى أفرج فيه عن عبد المنعم وانضم فيه على قوة الكتيبة هو الآخر .. يجدر بنا الآن وبعد حدوث اللقاء الاول بين عبد الناصر وعبد المنعم عبد الرءوف فى مارس ٤٢ بعد الافراج عنه والذى تم فى مقر الكتيبة الثالثة بمنشية البكرى

بالقاهرة أن نستعيد ما ذكره السادات عن دعوة عبد المنعم عبد الرءوف لعبد الناصر للانضمام الى التنظيم بمجرد عودته من السودان فقد قرأنا فى البحث عن الذات فى هذه المناسبة تواريخ شديدة الاختلاف تحتـــــاج الى تمحيص ودراسة وبحث .

متى عاد عبد الناصر من السودان ؟

لقـــد حرص أنور الســـادات فى أكثر من موضـــع من كتابه « البحث عن الذات » على أن يسجل بدقة ملحوظة ان عودة عبد الناصر من السودان كانت فى ديسمبر ١٩٤٢ ولا يمكن احتمال الخطأ فى ذكر ذلك التاريخ فقد أورده ثلاث مرات فى (الصفحات ٣٠ ، ٤١ ، ١١٣) . ولـــكن واقع الامر يخالف ذلك فقد عاد عبد الناصر من السودان قبل التاريخ الذى ذكره السادات بأكثر من عام . ونظرا لما لهذا الموضوع من أهمية حيوية فى البحث الذى نجريه لانه يوضح لنا حقائق فى غاية الخطورة لذلك ينبغى علينا الا نقرر حكما فى ذلك الاختلاف الا اذا كان مؤيدا بالدليل القاطع .

ان أول دليل نستند اليه بشـــأن التاريخ الصحيح لعودة عبد الناصر هو ما أورده السادات نفسه فى كتابه « أسرار الثورة المصرية » فقد ذكر فى (الصفحة ٣٦) بالحرف الواحد : « وقد تختفى من بيننا أسماء فى كثير من الاوقات كمـــا اختفى اسم جمال عبد الناصر عامين كاملين بين ديسمبر ٣٩ وديسمبر ٤١ اذ كان فى هـــذه

الفترة قد نقل الى السودان » . وهكذا يقرر السادات في وضوح ان عودة عبد الناصر من السودان الى مصر كانت فى ديسمبر ٤١ .

أما الدليل الثاني فهو ذلك الخطاب الذى أرسله عبد الناصر الى صديق له يعلق فيه على حادث ٤ فبراير ٤٢ الذى أثاره كما أثار زملاءه ضباط الجيش وقد أورد عبد الناصر فقرات من هذا الخطاب فى (الصفحة ١٥) من كتابه « فلسفة الثورة » وهو قاطع الدلالة على أن عبد الناصر كان موجودا فى مصر أثناء وقوع حادث ٤ فبراير ٤٢ ولم يكتب الخطاب الذى ذكرناه الا نتيجة الغضب الذى تملكه من جراء ذلك الحادث الذى أهان كرامة البلاد . وان ما ورد فى الصفحات من ١٧٠ الى ١٧٢ من كتاب « أسرار الثورة المصرية » عن واقعة اتصال الشهيد وجيه خليل بكل من عبد الحكيم عامر وعبد الناصر عقب حادث ٤ فبراير ٤٢ للقيام بأعمال ارهابية واسعة النطاق يجزم بوجودهما وقتها فى مصر .

أما الدليل الثالث الذى فيه فصل الخطاب ولا مجال بعده لنقاش أو جدل فهو ملف الخدمة العسكرية الخاص بعبد الناصر . ويحمل هذا الملف الرقم ٢٤٣٤ وقد استخلصنا منه البيانات التالية :

● فى مارس ١٩٤٠ سافر ضمن قوة الكتيبة الثالثة بنادق مشاة للعمل فى بور سودان فالخرطوم وجبل الاولياء وظل بالسودان حتى عادت الكتيبة الى القاهرة وتم تجمعها فى معسكر «كمبرا» بامبابة فى نوفمبر ١٩٤١ .

● نقل عبد الناصر مع كتيبته الثالثة من معسكر

« كمبرا » بامبابة الى الصحراء الغربية يوم ٨ ديسمبر ١٩٤١ .

● فى ٤ مارس ١٩٤٢ عاد جمال عبد الناصر مع كتيبته الثالثة من الصحراء الغربية الى القاهرة ـ واستقرت الكتيبة بقشلاق منشية البكرى .

● فى نوفمبر ١٩٤٢ اختير للعمل مدرسا بالكلية الحربية .

ويتضح مما قرأناه فى الملف الشخصى لعبد الناصر انه وصل القاهرة فى النصف الاول من نوفمبر ١٩٤١ وانه أمضى عام ١٩٤٢ بأكمله فى مصر ما بين الصحراء الغربية والكتيبة الثالثة والكلية الحربية بالقاهرة . ولم يمض هذا العام كما ذكر السادات فى السودان .

وقد يثور التساؤل وما أهمية عودة عبد الناصر فى أواخر عام ٤١ أواخر عام ٤٢ الى مصر أفلا يكون ذلك التأخير فى تاريخ عودته قد حدث بنوع الخطأ او النسيان وجل من لا يسهو والجواب الذى اسجله للحقيقة والتاريخ ان ذلك التأخير لم يحدث خطأ فان وراءه تدبيرا محكما وسببا فى غاية الاهمية .

لو ذكر السادات فى « البحث عن الذات » التاريخ الصحيح لعودة عبد الناصر من السودان وهو نوفمبر ٤١ فى الوقت الذى يعرف فيه الناس انه لم يقبض عليه فى قضية الجاسوسين الالمانيين سوى فى أغسطس٤٢ حيث وضع فى الايقاف فى ميس سلاح الفرسان بكوبرى القبة الى حين صدور قرار بطرده من الجيش فى ٨ أكتوبر ٤٢ (وهذان التاريخان اعترف بهما السادات فى الصفحتين ٨٩ ، ١٠٧ من أسرار الثورة المصرية) ـ لو ذكر السادات

التاريخ الصحيح لانتابت الناس الدهشة ولتساءلوا : وكيف لم تتم أية لقاءات بين السادات وزميله عبد الناصر فى القاهرة عقب عودته من السودان طوال المدة التى أمضاها الاخير فى مصر قبل اعتقال السادات (من نوفمبر ٤١ حتى أغسطس ٤٢) وهى مدة لا تقل عن تسعة أشهر منها قرابة نصف عام قضاها عبد الناصر بالكتيبة الثالثة بمنشية البكرى بالقاهرة .. وكان السادات باعترافه يخدم فى نفس الفترة التى حددناها كضابط اشارة بكتيبة اشارة سلاح الحدود بالجبل الاصفر بالقاهرة كما ذكر فى (الصفحة ٤٤ من البحث عن الذات) وكان اللقاء بالطبع سهلا متيسرا خاصة وان البيت الذى كان يقطن فيه السادات وقتئذ كان فى كوبرى القبة أي على مسافة شديدة القرب من قشلاق الكتيبة الثالثة بمنشية البكرى بل هو فى طريق ذهابه وايابه من عمله .

واذا كان ذلك هو السؤال الاول فان السؤال الثانى الذى لابد أن يفرض نفسه علينا هو أن نتساءل عن سر عدم دعوة السادات زميله وصديقه عبد الناصر الى الانضمام الى تنظيمه الذى أنشأه عام ٣٩ والذى كان قد مضى عليه وقتئذ ثلاث سنوات .

ولم تكن العلاقة بين عبد الناصر والسادات تسمح بتجاهل أى منهما للآخر كما انها لا تسمح للسادات باستبعاد صديقه عن التنظيم فلقد كان عبد الناصر هو المركز الذى التأمت حوله مجموعة أصدقاء منقباد كما ذكر السادات نفسه وقد كان دوره مع زملائه بمثابة الرائد والموجه فهو الذى رسم للجماعة رسالتها الكبرى

فى مقاومة الانجليز وهو واحد من الذين أقسموا العهد المقدس فوق تباب الشريف بمنقباد ايذانا بالرابطة الوثيقة التى غدت تربط أفراد الجماعة ببعضهم البعض وتبدو هذه الامور بوضوح شديد فى الصفحات من ٣٠ الى ٣٦ من كتاب « أسرار الثورة المصرية » .

ولو كان السادات قد سجل فى كتابه أى ذكر لحدوث مثل هذا اللقـــاء بينه وبين عبد الناصر أو انه دعاه للانضمام الى تنظيمه خلال المدة التى أمضياها معـــا بالقاهرة قبل اعتقـــاله لما استقام الامر ولتصدع بنيان القصة التى رواها فى البحث عن الذات عن التنظيم الذى أنشأه عام ٣٩ والذى تسلمه عبد الناصر من عبد المنعم عبد الرءوف فى أوائل ١٩٤٣ .

والآن دعونا نتصور ما الذى كان متوقعا أن يكتبه لنا السادات فى « البحث عن الذات » لو افترضنا انه سجل لنا اللقاء الحقيقى الذى تم بينه وبين عبد الناصر ولكن فى الظروف التى ذكرها لنا عن انشائه تنظيم الضباط عام ١٩٣٩ – أن نتيجة هذا اللقاء لن تخرج عن احتمالين :

اما أن يذكر لنا السادات ان عبد الناصر لبى دعوته وانضم عضوا عاديا الى التنظيم مثل غيره من الاعضاء لان منصب نائب رئيس التنظيم لم يكن هو الآخر شاغرا فقد كان يتولاه وقتئذ عبد المنعم عبد الرءوف ، وبالطبع كان السادات أول من يعلم ان أحدا لن يصدق هذا القول لان ذلك يتناقض مع شخصية الرجل تناقضا تاما ولن نبرهن على ذلك بما نعرفه بعد ٢٣ يوليو ٥٢ فقد يكون فى ذلك تحامل وظلم وانما يكفى أن نرجع الى أيام الخـدمة فى

منقباد لنرى شخصية عبد الناصر وهو ما زال ضابطا صغيرا برتبة الملازم وكيف استطاع أن يقوم بدور الموجه والقدوة لباقي الملازمين الذين يخدمون معه وبعضهم كان من دفعته والبعض كان أقدم منه فى الرتبة مثل السادات وزكريا محيى الدين وحمدى عبيد .

أما الاحتمال الآخر الذى أمام السادات فهو أن يذكر لنا ان عبد الناصر لبى دعوته وانه قام بتسليمه قيادة التنظيم ولكن فى هذه الحالة تضيع على السادات الفرصة التى ينشدها لاثبات انه منشىء التنظيم ورئيسه فان عبد الناصر الذى كان فى منقباد بمثابة الرائد قد أضحى بمجرد عودته من السودان هو الرئيس والقائد .

اذن ماذا يكون الحل للخلاص من ذلك الموقف المعقد ... فى الواقع ان السادات أمكنه الافلات من تلك الحيرة بذكاء يحسد عليه ـ ولم يكن الامر يستلزم أكثر من تغيير بسيط فى تاريخ عودة عبد الناصر من السودان الى مصر ليصبح فى أواخر عام ٤٢ بدلا من أواخر عام ٤١ .

بهذا التعديل استقام الامر وأضحى التسلسل منطقيا لا تشوبه شائبة ولا يدعو الى حرج وارتباك فالامر الطبيعى انه بعد دخول السادات المعتقل فى صيف عام ٤٢ أن يتولى القيادة من بعده نائبه والرجل الثانى فى التنظيم عبد المنعم عبد الرءوف وعندما يعود عبد الناصر من السودان فى ديسمبر ٤٢ ينجح عبد المنعم فى ضمه الى التنظيم (دون أى تدخل من السادات بالطبع بحكم وجوده بالمعتقل) ثم لا يجد عبد الناصر صعوبة فى ازاحة

عبد المنعم عبد الرءوف وتولى القيادة بدلا منه ويتسلم التنظيم فى أوائل عام ٤٣ .

بهذا التسلسل المنطقى المحكم أورد السادات فى (الصفحة ٣٠)من « البحث عن الذات » هذه التواريخ الثلاثة المتعاقبة فى دقة واتقان بالغين وفى سطر واحد فقط اذ قال بالحرف « لم ألجأ الى الخلايا السرية للدفع بهذه الثورة المسلحة لبلوغ أهدافها كما فعل عبد الناصر بعد عودته من السودان فى ديسمبر ١٩٤٢ وتسلمه التنظيم فى أوائل سنة ١٩٤٣ بعد إعتقالى فى صيف عام ١٩٤٢ » .

وهناك ملاحظة أود أن أذكرها قبل أن أنتقل الى النقطة التالية فى البحث وهى تتعلق بالكيفية التى امكن بها لعبد الناصر ازاحة عبد المنعم عبد الرءوف دون أية صعوبة وتوليه قيادة التنظيم بدلا منه كما ذكر السادات فانه على فرض صحة هذه الواقعة فان السادات لم يفسر لنا الوسيلة التى تمكن بها عبد الناصر من ذلك وهو العضو الجديد فى التنظيم على الرغم مما كان يتميز به عبد المنعم وقتئذ عن عبد الناصر من حيث مؤهلات القيادة فهو أقدم منه فى الرتبة وأرسخ منه قدما فى التنظيم فهو الرجل الثانى بين المؤسسين وقد أمضى به نحو ثلاث سنوات ثم هو بعد ذلك القائد الذى تولى قيادة التنظيم بمجرد غياب القائد الاصلى .

موقف عبد المنعم عبد الرءوف من السادات

لم يكن عبد المنعم عبد الرءوف فى الفترة التى ذكر

السادات انه تولى خلالها قيادة التنظيم من بعده فى حالة تسمح له بمزاولة أى نشاط سياسى سواء بطريقة علنية أو سرية فقد تم الافراج عنه فى مارس ٤٢ بعد قضائه نحو عشرة أشهر فى السجن اثر مغامرة هروبه المعروفة مع عزيز المصرى وحسين ذو الفقار التى سبق ان ذكرنا أمرها — وعندما ألقى القبض على السادات فى أغسطس ٤٢ فى حادث الجاسوسين الالمانيين لم يكن قد مضى على عبد المنعم وهو يمارس حريته الا قرابة أربعة أشهر .

وخلال هذه الشهور الاربعة ثبت ان السادات قد قطع به صلته تماما وكف عن زياراته له وهو أمر طبيعى بعد أن أدى حادث عبد المنعم مع عزيز المصرى الى ذلك الدوى الهائل فى كل أرجاء مصر ولم يكن الافراج عنه يعنى افلاته من مراقبة المباحث مما دفع الكثيرين من معارفه ومنهم السادات الى تجنب الاتصال به ولكن ذلك التصرف أغضب عبد المنعم من صديقه كما يتضح من أقوال السادات فى الصفحة (١٠٧) من أسرار الثورة المصرية « عندما أفرج عنه (يقصد عبد المنعم عبد الرءوف) لم أشأ أنا أن أتصل به فى شىء كنت أخشى عليه ان تثور حوله شكوك جديدة وكنت أريد له فترة من الراحة بعد المحاكمة والسجن والاعتقال ولكن يبدو ان عبد المنعم أساء فهمى حينذاك فقد غضب فى نفسه وتضايق وعرفت فيما بعد » .

ان ما ذكره السادات عن تولى عبد المنعم عبد الرءوف قيادة التنظيم من بعده عقب اعتقاله مسألة فيها نظر فاننا قد رأينا كيف أن السادات نفسه وهو رئيس

التنظيم ـ كما يقول ـ قد آثر قطع اتصالاته مع عبد المنعم حتى لا تثور حوله شكوك جديدة فهو موضوع بلا شك فى القائمة السوداء لدى سلطات الامن ورقابة المباحث اللصيقة تحيط به من كل جانب . اذن فهل يتمشى مع المنطق أن يغامر عبد المنعم مرة أخرى فى ظل ما يعانيه من أوضاع سيئة ليتولى قيادة تنظيم سرى تم اعتقال رئيسه ؟ .. ولماذا يفعل ذلك وهو قد رأى بنفسه كيف تباعد عنه هذا الرئيس اثر الافراج عنه ليبعد عن نفسه الشبهات ؟

بقيت نقطة أخرى هامة وهى ان السادات لم يذكر لنا فى كتابه ان عبد الناصر وعبد المنعم كانا يخدمان معا فى كتيبة واحدة وهى الكتيبة الثالثة عقب الافراج عنه اذ أن ذكر هذه الحقيقة كان يؤثر بلا شك على مجرى الاحداث كما كتبها فى « البحث عن الذات » فما أورده فى كتابه يشير لنا بأن عبد المنعم اتصل بعبد الناصر بمجرد نزول كتيبته من السودان لضمه الى التنظيم ولم يكن وقوع اختيار عبد المنعم عليه اعتباطا بل كان بناء على علة وضحها لنا السادات فى (الصفحة ١١٣) من كتابه وهى أن عبد الناصر كان ضابطا ممتازا وذكر بأن هذه هى القاعدة التى أرساها ـ اى السادات ـ بأن لا ينضم الى التنظيم الا المتميز فى عمله .

هذا ولم تكن فى مقدرة عبد المنعم وهو ضابط طيار ضم حديثا الى الجيش ان يحكم على درجة كفاءة اى ضابط بالجيش وقتئذ كما لم تكن الظروف المحيطة به تسمح له بمزاولة اى نشاط سياسى سرا او علانية

وبالتالى فلم يكن فى استطاعته أن يتولى قيادة تنظيم سرى أو أن يضم اليه عضوا جديدا مثل عبد الناصر ولم يكن فى حاجة الى الاتصال بعبد الناصر لضمه الى التنظيم بمجرد عودته من السودان لان عبد الناصر كان أولا يخدم معه فى نفس الكتيبة وثانيا لان عبد الناصر كان موجودا فى مصر منذ تسعة أشهر .

المرحلة الثانية من الكتاب

وبعد أن استعرضنا ما ورد فى المرحلة الاولى من كتاب « أسرار الثورة المصرية » فى الجزء الاول من بحثنا وهى المرحلة التى انتهت بطرد السادات من الجيش عام ٤٢ واعتقاله نجد من المفيد أن نلقى بنظرة على المرحلة الثانية من الكتاب كى يمكننا استكمال بحثنا دون أى قصور أو نقصان وذلك توخيا منا للوصول الى الحقيقة التى لا ننشد سواها وقد كنا نود لو ان السادات اقتصر فى تسجيله لتاريخ التنظيم على المرحلة الاولى من الكتاب .. اذ اننا رغم اختلافنا معه فى وجهات النظر فاننا نعترف بأنه كان يكتب عن أحداث عاصرها بنفسه وانفعل بها وجدانه ولذا كان التسلسل فى هذه المرحلة ـ رغم ما شابه من غموض ـ تسلسلا منطقيا لا نشعر فيه باضطراب أو بفقدان للرؤية على عكس الحال فى المرحلة الثانية التى كان يؤرخ فيها لتطور التشكيل بعد اعتقاله فقد كان يكتب نقلا عن روايات لافراد آخرين ويبدو انه جمع هذه

الروايات دون أن يمحصها أو يرتبها من ناحية التسلسل الزمنى أو المنطقى .

ان أولى المفاجآت التى تصادفنا فى المرحلة الثانية من الكتاب نجدها فى الصفحة ١٨٣ اذ يقرر فيها السادات دون أى لف أو مداراة ان أول تكوين فعلى للضباط الاحرار كان عام ١٩٤٤ - اذن عن أى تشكيل كنا نقرأ منذ بداية الاربعينات حتى بلغنا عام ١٩٤٢ ووصل الامر بالتشكيل الى حد انشاء ورشة المسدسات وتحضير البارود ووضع خطة محكمة لابادة الانجليز أفرادا وجماعات عند انسحابهم ؟ أو لم يكن التشكيل أيضا يحمل نفس الاسم « تشكيل الاحرار » ؟

ونقرأ بعد ذلك عن اللقاء الذى تم بين عبد الناصر والسادات فى سبتمبر ٤٥ عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية والغاء الاحكام العرفية وكان السادات قد هرب من المعتقل فى أكتوبر ١٩٤٤ وظل مختبئا هاربا لمدة عام كامل حتى سقطت الاحكام العرفية .

ويروى السادات فى (الصفحة ٦٩) من « البحث عن الذات » الظروف التى كان يعيشها فى هذه الفترة بعد سنوات من التشرد والحرمان بلا عمل ولا دخل فيقول بالحرف « فى تلك الفترة لم يكن عندى أى عمل وكانت الخمسة مليمات بالنسبة لى عملة صعبة فكنت أسير على الاقدام يوميا من منزلى بكوبرى القبة الى العتبة أى اكثر من ٢٠ كيلو لأنى لا أملك ٦ مليمات أجرة الترام » .

وفى اللقاء الذى جرى بين عبد الناصر والسادات الذى تم بعد الغاء الاحكام العرفية والذى اشرنا اليه من قبل يسترعى التفاتنا ان السادات رغم ظروفه المعيشية

القاسية وما كان عليه من فاقة وحرمان كان لايزال منشغلا بالامور السياسية وانه اتفق مع عبد النـاصر على انشاء تشكيلين أحدهما شعبى ، يتولاه السـادات والثانى عسكرى داخل الجيش ويتولاه عبد الناصر بنفسه وينظمه تنظيما جديدا على أن يعمل التشكيلان جنبا الى جنب كل بوسائله وكل بخططه .

ولكن هذا الاتفـاق الذى تم كمـا هو موضح فى (الصفحة ١١٢) من « أسرار الثورة المصرية » لم يؤت ثماره فان التشكيل الشعبى الذى جرى الاتفاق مـع عبد الناصر على تعاونه مع التنظيم العسكرى يتضح لنا من (الصفحة ٧٠) فى « البحث عن الذات » انه لم يكن الا جمعية سرية كونها السـادات مع حسين توفيق ، وكانت مهمتها اغتيال رجـال السياسة المصريين الذين يساندون الانجليز وقتها .

وبدأت الجمعية السرية عملها بتدبير اغتيال مصطفى النحاس زعيم الوفد يوم ٦ سبتمبر ١٩٤٥ وكان يوافق للأسف الاحتفال بذكرى المولد النبوى وتدخلت عناية الله ففشل تدبير الجمعية ونجا مصطفى النحـاس وكانت المحاولة الثانية التى دبرتهـا الجمعيـة ونجحت فيهـا هى قتل أمين عثمان وزير المالية فى عهد مصطفى النحاس فقد أطلق عليه حسين توفيق الرصاص يوم ٦ يناير ٤٦ وقتله . وألقى القبض على حسين توفيق فى نفس اليوم ووضع فى سجن الاجانب وتبعه السادات فى ١٢ يناير وبقى السادات فى السجن رهن المحاكمة ٣١ شهرا حتى صدر الحكم بتبرئته فى أغسطس ١٩٤٨ .

واستمر السادات فى كتاب « أسرار الثورة المصرية » فى سرد أحوال التنظيم وتطوره ولم يكن معايشا لهـذه

الاحداث او على اطلاع بخفاياها وكيف يمكن ذلك وقد كان خلال هذه الفترة نزيل الزنزانة ٥٤ فى سجن قره ميدان كمــــا ذكر فى « البحث عن الذات » . وكانت النتيجة ان جاء تسلسل الاحداث كما سبق ان ذكرت مرتبكا وتماســــكها مفقودا لانه اعتمد فى كتابته على روايات الغير الذين تتباين وجهات نظرهم وأفكارهم . وليس أدل على ذلك من أن السادات بعد أن قرر لنا فى وضوح وحسم تكوين تشكيل الاحرار عام ٤٤ عاد بعد ذلك الى استخدام لفظ « مجموعة » كلمــا تحدث عن التشكيل والمعروف ان مرحلة المجمــــوعة تسبق مرحلة التشكيل أو التنظيم .

ونقرأ فى الصفحة ١٨٥ عن نشـــــاط مجموعة من الاصدقاء كانت مهمتهــا خلق رأى عام واع بين ضباط الجيش ليستطيع هذا الرأى العـــــام تحريك الجيش واستقرت المجموعة على خطة بعيدة المدى وبرنامج مرسوم للوصول الى الهدف الكبير .. ونعود ونقرأ فى صفحتى ١٩٣ ، ١٩٤ كيف قررت هذه المجموعة عام ٤٧ نبذ العلنية وتكوين جهاز سرى داخل الجيش يناط به جمع اشتراكات وطبع منشورات ومعــاونة أسر الضــباط الذين يلحقهم الاذى .

وهنا تثور أسئلة عديدة فان تنظيم الضباط الاحرار الذى تكون عام ٤٤ ـ كما ذكر السادات ـ لم يكن بالطبع الا تنظيما سريا داخل الجيش لانه ليس من المعقول تكوين تنظيم علنى للضباط والا تعرضوا للمحاكمة والطرد من الخدمة فكيف يفكر أفراد المجموعة الذين هم من أفراد

هذا التنظيم السرى أن يكونوا جهازا سريا داخل الجيش .. أي تكوين جهاز سرى داخل التنظيم السرى .

وأخيرا وبعد هذا الرحلة الطويلة الشاقة وصل بنا السادات الى خاتمة المطاف والى المرحلة الحقيقية لتكوين الضباط الاحرار ومن عجب انه ضرب صفحا عن كل ما ذكره من قبل من معلومات وتواريخ متناقضة .

وفى الصفحات من ٢٠٧ الى ٢٠٩ من كتاب « أسرار الثورة المصرية » نجد الحقائق المجردة الآتية التى تروى لنا تكوين التنظيم :

● فى هذا العهد عادت القوات المصرية من فلسطين ودعى عبد النـاصر لمقـابلة ابراهيم عبد الهادى رئيس الوزراء برفقـة الفريق عثمان المهدى رئيس هيئة أركان حرب الجيش لتحذيره عن نشاطه مع الاخوان المسلمين (والمعروف ان هذه المقابلة كانت فى ٢٥ مايو ٤٩) .

● بدأنا فى تكوين القاعدة وفى الايام التى تلت ذلك فرغ جمال من وضع أساس التنظيم كله .

● اختار جمال للتشكيل اسم الضباط الاحرار وظهر الاسم لاول مرة .

● وضعت أهداف التشكيل وطبعت وتم توزيعها فعلا على الضباط الاساسيين فيه .

النتائج التى نستخلصها من البحث :

اولا ــ يمكن الجزم بأنه لم يتم تكوين تنظيم سرى ــ يستحق أن يطلق عليـه هذا الاسم ــ داخـل الجيش

المصرى الا تنظيم الضباط الاحرار الذى أنشاه عبد الناصر فى سبتمبر ٤٩ عقب عودة الجيش من حرب فلسطين وهى حقيقة اعترف بها السادات فى نهاية كتاب « أسرار الثورة المصرية » كما رأينا كما اعترف بها جميع الضباط الاحرار دون استثناء سواء فى كتبهم أو مذكراتهم التى نشرت أو فى أقوالهم التى أدلوا بها أمام لجنة تسجيل ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ .

ثانيا — ان ما ذكره السادات عن انشائه أول تنظيم سرى للضباط عام ١٩٣٩ وكان يقصد به تنظيم الضباط الاحرار كما رأينا قول لم نستطع اثباته فعلاوة على عدم امكان الاهتداء الى أسماء ضباط اعترفوا بانضمامهم لهذا التنظيم فان السادات نفسه قد اعترف فى أكثر من موضع فى كتابه « أسرار الثورة المصرية » ان عبد الناصر هو الذى شكل أول تنظيم سرى داخل الجيش وان اسم الضباط الاحرار قد ظهر لاول مرة فى عام ١٩٤٩ .

وهذا القول ينطبق أيضا على ما أطلق عليه اسم تنظيم الطيران بينما هو لا يزيد على كونه مجموعة ضمن المجموعات التى تكونت فى أوائل الاربعينات من الضباط لمقاومة الانجليز وكان الجيش يزخر بعشرات منها كما سبق أن ذكرنا .

ثالثا — ان قصة انضمام عبد الناصر الى تنظيم السادات عن طريق عبد المنعم عبد الرءوف بعد عودته من السودان ثم تسلمه التنظيم فى أوائل عام ٤٣ .. هذه القصة لم تظهر ولم تنشر الا بعد وفاة عبد الناصر .

رابعا — ان أقصى ما يمكن ان نتصوره عن نشاط السادات السياسى فى مطلع الاربعينات انه تمكن من

تجميع بعض الضباط الاصدقاء حوله فى مجموعة وكانوا يناقشون فى اجتماعاتهم الاوضاع السياسية فى البلاد ويفكرون فى الوسيلة التى يمكنهم بها مقاومة الانجليز ــ وكان الجيش المصرى وقتئذ يموج بعشرات من هذه المجموعات فى مختلف الاسلحة والوحدات ــ هذا ولم نتمكن من الاستدلال على الاسماء التى كانت فى مجموعة السادات وقتئذ ــ فان الاسماء التى ذكرها تأكد لنا نتيجة للبحث الى انهم لم يكونوا ضمن مجموعته ــ ولم يذكر لنا السادات أية أسماء أخرى كما لم نسمع أو نقرأ عن أى ضابط ذكر انه كان فى تنظيم أو مجموعة السادات وهو أمريثير الدهشة والاستغراب ولا نستطيع أن نحدد فى هذا المجال سوى اسمين يمكن ان نقتنع بأنهما كانا على اتصال وثيق به خلال السنوات الاولى من الاربعينات وهما عبد المنعم عبد الرءوف وحسن عزت

وان كانت علاقة السادات قد ساءت بكليهما بعد ذلك فان عبد المنعم عبد الرءوف كما ذكر البغدادى فى مذكراته كان هو الوحيد ضمن أعضاء لجنة القيادة الذى اعترض على ضم أنور السادات الى هذه اللجنة عندما رشحه عبد الناصر فى نهاية ١٩٥١ عقب عودته الى الجيش .

كما ان السادات نعت حسن عزت بأوصاف سيئة فى الصفحة ١١٠ من « البحث عن الذات » فى معرض الحديث عن عملهما المشترك فى أعمال المقاولات عام ٤٩ اذ قال :

« عرفته على حقيقته (يقصد حسن عزت) واشمأزت نفسى منه ومن السوق والعمــل به فتركته وفى جيبى ١٢٠ قرشا وكان لى عنده ٣٠٠٠ جنيه من نصيبى من عملية الزقازيق ولكنى لم أطلبها منه » .

خامسا ــ انحصر نشاط السادات السياسى فى بداية الاربعينات فى اجراء بعض المقابلات والاتصـــالات وكان أهمها ما أجراه مع حسن البنا رئيس الاخوان المسلمين والفريق عزيز المصرى وكان يذكر لهما انه يمثل تشكيلا كبيرا فى الجيش وانه يهدف الى القيام بثورة مسلحة واقامة حكومة عسكرية ولم تكن هــذه الاقوال بالطبع الا ضربا من المبالغة والافراط فى الخيال .

سادسا ــ ان العبرة فى اطلاق اسم تنظيم لا تتحقق من مجرد اطلاق هذا الاسم على مجموعة من الافراد وانما العبرة الحقيقية هى نجاح هؤلاء الافراد فى تحقيق الاهداف التى تم تكوين التنظيم من أجلها .

فاذا طبقنا هذا المبدأ على تنظيم السادات فانه يمكننا الجزم بأنه لم يتمكن من تحقيق اى أهداف ذات قيمة وبناء على ذلك تنتفى عنه صفة التنظيم ويصبح فى أحسن الاحوال مجرد تجمع لعدد من الافراد .

● ربط أنور الســـادات بين تنظيمه وبين حادث هروب عزيز المصرى وزميليه الطيــارين الذى سبق لنا ذكره ويتضح ذلك مما أورده فى الصفحات من ١٠٠ الى ١٠٢ « اسرار الثـــورة المصرية » وفى الصفحتين ٣٨ ، ٣٩ « البحث عن الذات » ــ كما حاول عبد اللطيف البغدادى أن ينسب تدبير هذا الحادث الى تنظيم الطيران كما ورد

فى حديثه لمجلة الشرق الاوسط الصادرة فى ١١ مارس عام ١٩٨٢ ولكن اوراق التحقيق الرسمية فى الحادث ومذكرة النائب العام وقتئذ عبد الرحمن الطوير بك تثبتان أن هذا العمل تم عن طريق تجنيد عزيز المصرى للطيارين بجهده الخاص دون أن يكونا تابعين لأى تنظيم سرى بالجيش .

● فى ٢٩ يونيو ٤٢ حاول الضابط الطيار احمد سعودى الاتجاه بطائرته الى مرسى مطروح بغرض تزويد القيادة الالمانية بالمعلومات والصور الخاصة بالقوات البريطانية فى مصر ولكن الطيار المصرى لم يتمكن من الوصول ويبدو ان طائرته اسقطت بواسطة الدفاع الجوى الالمانى ظنا منها انها طائرة بريطانية .

وعلى الرغم من أن تنظيم الطيران صرح بأنه كان وراء هذه المحاولة كما ذكر البغدادى فى صفحتى ٢١ ، ٢٢ من مذكراته كما ان الطيار أحمد سعودى كان واحدا من هذا التنظيم كما وضحنا من قبل ـ الا ان السادات حاول أيضا نسبة هذا العمل الى تنظيمه . وذكر لنا اتفاق التنظيم على ارسال مندوب منه الى روميل فى العلمين لاخطاره بشروط التنظيم للتعاون معه فى مقابل أن تنال مصر استقلالها وقال فى الصفحة ٤٣ من « البحث عن الذات » ما يلى :

« كانت هذه هى شروط المعاهدة التى أمليتها وحملها المرحوم الطيار احمد سعودى على طائرة هرب بها من القاهرة الى العلمين وأنا عندى ٢٢ سنة بعد أن عرضتها على اخوانى وحازت قبولهم ولم يكن عبد الناصر معنا فقد

كان فى السودان كما ذكرت » ولا يمكن أن نتصور بالطبع أن يحمل الطيار سعودى معه الى القائد الالمانى الفيلد مارشال روميل شروط معاهدة يقترح عقدها معه ضابط صغير الرتبة والسن بالجيش المصرى اذ لا يمكن أن يكون القائد الالمانى الذى سمى ثعلب الصحراء ، لفرط دهائه ومهارته بهذه الدرجة من الطيبة والسذاجة .

ومن العجيب أن يذكر السادات اسم عبد الناصر فى هذا المقام رغم انه لم يكن له أدنى علاقة بالموضوع ولكن يبدو انه كان يريد أن يؤكد للقراء فى كلّ موقف حدث فى عام ٤٢ أن عبد الناصر كان وقتئذ فى السودان ولكن حادث أحمد سعودى وقع فى ٢٩ يونيو ١٩٤٢ ولم يكن عبد الناصر فى السودان بل كان يخدم وقتئذ فى الكتيبة الثالثة المشاة فى منشية البكرى وعلى مسافة شديدة القرب من منزل السادات .

من يقود الثورة
فؤاد صادق أم محمد نجيب؟

لم يكن فى امكان جمال عبد الناصر أو فى مدى قدرته بحكم وضعه وسنه ورتبته أن يتولى قيادة حركة عسكرية شاملة يقوم بها الجيش المصرى عام ٥٢ يعلن فيها تمرده على الملك والحكومة ثم لا يلبث أن يسقط هذه الحكومة بعد أقل من ٢٤ ساعة على تأليفها ويرغم الملك على مغادرة البلاد قبل أن تنقضى اربعة أيام على موعد الحركة .

ولم يكن احتلال مقر رئاسة الجيش بكوبرى القبة الذى كان يحرسه بضعة جنود مسلحين بالبنادق أو ضرب الحصار حول المنطقة العسكرية الممتدة من العباسية الى الماظة أو احتلال دار الاذاعة بشارع الشريفين واستوديوهاتها بشارع علوى الذى قامت به قوات الحركة ليلة ٢٣ يوليو ــ لم يكن ذلك كله كفيلا بنجاح الحركة أو كافيا لتهيئة الفرصة أمامها لاتمام السيطرة الفعلية على قوات الجيش بأكملها فان الضباط الاحرار الذين اسهموا فى التنفيذ الفعلى للحركة لم يزد عددهم كما قدره عبد الناصر نفسه على تسعين ضابطا كان ثلثاهم وفقا للاحصاء الفعلى من الضباط الاصاغر من رتبتى النقيب

واللازم وهذه النسبة لا تزيد على ٤ ٪ من مجموع ضباط الجيش الذين كانوا فى الخدمة الفعلية وقتئذ ـ كما ان الوحدات التى اشتركت لم تكن تشكل الا نسبة صغيرة من أسلحة الجيش وتشكيلاته ووحداته المنتشرة فى مختلف المناطق العسكرية .

ولو كانت قوات الحركة قد صادفت فى طريقها مقاومات جدية أو وقع بينها وبين وحدات أخرى من الجيش أى صدام واشتباك مسلح لتغير وجه التاريخ ولتعرضت الحركة للفشل فربما قد انقلب الامر الى حرب اهلية كان الشعب المصرى أول من سيصطلى بنارها هذا بخلاف ما كان متوقعا حينئذ من تدخل الجيش البريطانى فى منطقة قناة السويس .. ذلك التدخل الذى لم يكن سيبقى احتمالا واردا كما كان التقدير قبل الحركة بل كان سيضحى واقعا محتما لتجنى بريطانيا ثمار هذا الانقسام فى صفوف الجيش المصرى كما كان عادتها فى اقتناص الفرص واغتنام الاسلاب .

لقد كانت الخطة تعتمد على نجاح الطليعة التى تحركت من قوات الجيش تحت قيادة الضباط الاحرار لاحتلال الاهداف العسكرية المرسومة بالخطة وهى منطقة المعسكرات بالعباسية والماظة واحتلال الهدف المدنى الوحيد فى قلب العاصمة وهو دار الأذاعة الذى كان سيلقى من واحد من استديوهاتها البيان الاول الموجه من قائد الحركة الى الشعب المصرى اعلانا عن تمرد الجيش على صاحب السلطة الشرعية فى البلاد . وكان الامل فى نجاح الحركة بعد ذلك معلقا على انضمام باقى الجيش

الى تلك الطليعة التى تحركت من صفوفه تعبيرا عن ارادته ليصبح الجيش من هذه اللحظة كتلة واحدة وراء قائد الحركة فى مواجهة سلطة الملك والحكومة .

ان جمال عبد الناصر بفضل قوة شخصيته وصفاته المميزة وحركته الدائبة بين الضباط الاحرار تمكن من اقناع زملائه أعضاء لجنة القيادة التى تتولى قيادة التنظيم السرى بانتخابه رئيسا لهم بالاجماع ولكن العمل السرى يختلف تماما عن العمل العلنى وشخصية عبد الناصر التى كان لها وزنها فى تنظيم يعمل أفراده تحت الارض لم يكن لها ذلك الوزن بالمرة فى المجال العلنى على مستوى الجيش فما هو الا مقدم أركان حرب غير معروف الا فى دائرة محدودة من الضباط بحكم زمالتهم له فى الدفعة او السلاح وبالجيش مئات ممن يحملون نفس رتبته ومؤهلاته ـ وكان نجاح الحركة فى ساعاتها الاولى ـ وهى احرج فترة فى مسارها ـ متوقفا على انضمام باقى الضباط على رأس وحداتهم الى صفوف الحركة ولكن كيف يتوقع ذلك لو كان قائدها يحمل اسما غير معروف وميوله وأهدافه غير واضحة وما الذى يدفع هؤلاء الضباط الى المقامرة بمستقبلهم للانضمام الى حركة كان لا يزال نجاحها فى باطن الغيب ليعرضوا أنفسهم لخطر الاعدام فى حالة الفشل كى يتبعوا هذا المقدم الذى لا يتميز بشىء عن اقرانه ويسلموا له طواعية بالزعامة ويبايعوه قائدا للحركة ؟

ثم ان الامر ليس مقصورا على تأييد الجيش فحسب فلا ينبغى اغفال الشعب الذى لابد من كسب تأييده وثقته ليقتنع بأنها حركة شاملة يقوم بها الجيش بأكمله

تحت قيادة قائد له شهرته فى صفوف الجيش وشعبيته بين الجماهير وانها ليست مجرد مغامرة عسكرية يقوم بها بعض الضباط الشبان بدافع من تهورهم واندفاعهم تحقيقا لشهرة يحصلون عليها أو أملا فى مطالب شخصية يحققونها .

هذه هى وجهة النظـــر التى أقنع بها عبد الناصر زملاءه أعضاء لجنة القيادة بضرورة اسناد قيادة الحركة المزمع القيـــام بها الى ضابط كبير الرتبة له شهرته وشعبيته داخل الجيش وخارجه ليتسنى تكتل الجيش والشعب من ورائه بمجرد اذاعة البيان الاول للحركة .

ووافقت اللجنة على رأيه ولم يكن بين كبار ضباط الجيش من تتوفر فيه الشروط المطلوبة سوى ثلاثة أسماء الفريق عزيز المصرى واللواء فؤاد صادق واللواء محمد نجيب .

وبدأت الاتصالات بعزيز المصرى ولكن الرجل آثر أن يظل أبا روحيا للثورة فقط وكان له عذره فقد كان فى الحلقة السابعة من عمره ومضى عليه نحو اثنى عشر عاما خارج الجيش ... وكان التسلسل الطبيعى هو اجراء الاتصال بعد ذلك باللواء فؤاد صادق وهو القـائد الذى عرف بشـــجاعته وثباته فى ميدان القتال بفلسطين عام ١٩٤٨ حينما كان قائدا عاما للقـــوات المصرية اثناء الحرب وهو القائد الذى استحوذ على محبة الضـــباط واعجابهم فقد فرض هيبته على اليهود فى فلسطين كما فرض إحترامه على الرئاسات بالقاهرة وكان يتمتع بشهرة

داخل الجيش وخارجه وبالتالى تتوفر فيه جميع الشروط .

هل عرضت قيادة الحركة على فؤاد صادق حقا ؟

ان كل الروايات التى نشرت عن هذا الموضوع اقتصرت على القول بأن قيادة الحركة عرضت على اللواء فؤاد صادق ولكنه رفض الفكرة أو اعتذر عن قبولها ولم يذكر لنا واحد من هؤلاء الكتاب أية تفصيلات تحدد متى تم هذا العرض وكيف جرى أو يحاول التعليق على هذا الامر رغم اهميته .

والرواية الوحيدة التى ذكرت لنا وقائع محددة عن هذا الموضوع هى التى أوردها أنور السادات فى كتابه « قصة الثورة كاملة » وقد تولت دار الهلال اصدار هذا الكتاب فى طبعتين (العدد ٦٤ عام ١٩٥٦ والعدد ٧٥ عام ١٩٥٧) كما أعادت دار القاموس الحديث فى بيروت طبعه واصداره فى أوائل السبعينات — وسيكون العدد ٧٥ الصادر عام ١٩٥٧ من دار الهلال هو المرجع لنا عند الاشارة الى الصفحات .

فى هذا الكتاب يروى لنا السادات فى الصفحات من ٦٨ الى ٧٠ قصة اتصال تنظيم الضباط الاحرار باللواء فؤاد صادق لمعرفة نواياه واكتشاف حقيقته .

واختير لهذه المهمة الرائد صلاح سالم احد اعضاء لجنة القيادة الذى توجه لمقابلة الرجل فى بيته . ولم يحدد لنا السادات موعد تلك المقابلة رغم ما فى ذلك

الامر من اهمية بالغة ولكنه ذكر لنا بعض المعلومات التى امكن عن طريقها تحديد موعد المقابلة تحديدا قاطعا .

لقد جرت المقابلة كما ذكر عقب تقديم الفريق عثمان المهدى استقالته من منصب رئيس هيئة أركان حرب الجيش كما روى لنا انه بعد هذه المقابلة تم تعيين اللواء حسين فريد فى ذلك المنصب وخلال المقابلة كان اللواء فؤاد صادق لا يزال ضابطا بالجيش ... من هذه المعلومات يمكن أن نجزم بأن المقابلة قد تمت خلال شهر نوفمبر ١٩٥٠ ففى هذا الشهر قدم الفريق محمد حيدر القائد العام للقوات المسلحة استقالته من منصبه تنفيذا لطلب النائب العام محمد عزمى من السلطات استبعاده من ذلك المنصب حتى لا يؤثر على مجرى التحقيق فى قضية الاسلحة الفاسدة وفى نفس الوقت احيل الفريق عثمان المهدى الى الاستيداع لنفس السبب .

ووصف لنا السادات فى كتابه بالتفصيل قصة المقابلة ـ التى استطعنا تحديد تاريخها ـ على لسان الرائد صلاح سالم لانه لم يكن حاضرا ولذلك فان مسئولية الوقائع التى وردت فيها تقع على عاتق صلاح سالم وحده خاصة وان الكتاب سبق نشره عام ٥٦ واطلع عليه صلاح سالم بالطبع قبل وفاته . والآن لنقرأ ماذا قال السادات:

« ذهب صلاح اليه فى بيته وقال له ان الراى العام بين الضباط فى الجيش يرشحه لتولى منصب رئيس هيئة اركان حرب الجيش وقال له صلاح ان هؤلاء الضباط يمكنهم مساعدته لكى يتولى هذا المنصب فهم قوة ولهم نفوذ كبير وظل صلاح يحدثه عن هذا الراى

العام لهؤلاء الضباط فى الجيش حتى اقتنع فؤاد صادق وآمن بأنه سيعين رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش .

وأثناء الحديث دق جرس التليفون ورفع فؤاد صادق السماعة وكان المتكلم هو النقيب مصطفى كمال صدقى وكان مصطفى على صلة ما بالقصر فى ذلك الوقت وقال مصطفى كمال لفؤاد صادق ان مرسوم تعيينه رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش سيوقعه مولانا فى الصباح .

وظهرت على فم اللواء فؤاد صادق ابتسامة غريبة ونظر الى صلاح نظرة ذات مغزى ثم قال وهو لا يزال يمسك بسماعة التليفون : « بتقول ايه يا مصطفى ؟ زعق شوية » وأشار فؤاد صادق لصلاح سالم أن يقترب منه واقترب صلاح وقرب أذنه من التليفون كما طلب منه اللواء فؤاد صادق وسمع صلاح النقيب مصطفى صدقى يتحدث عن مرسوم تعيين فؤاد صادق الذى سيصدر فى اليوم التالى ثم وضع فؤاد صادق سماعة التليفون .

فى تلك اللحظة عرف صلاح شخصية فؤاد صادق فالرجل شعر بعد أن بلغه مصطفى صدقى بأمر تعيينه أن الرأى العام للضباط فى الجيش والذى حدثه عنه صلاح سالم لم يعد يعنيه .

وقد كشف فؤاد صادق عن شخصيته امام صلاح فجأة فبعد ان كان قد أبدى استعداده لتحقيق كل رغبات الضباط وحماية مصالحهم والوقوف الى جانبهم انقلب فجأة ـ وبلا مقدمات ـ بعد ان عرف ان هؤلاء الضباط لن يكون لهم دخل فى تعيينه فقد عين والحمد لله .. ان اللواء فؤاد صادق كشف عن حقيقة معدنه

عندما قال لصلاح بعد مكالمة مصطفى بالحرف الواحد . اذا كنت بقيت رئيس اركان حرب الجيش قده بمجهودى انا ... وبدراعى انا وسأعمل على اقامة النظام الكامل فى الجيش وصمت لحظة ثم عاد يقول لصلاح المذهول :

ــ لازم تفهم انت والضباط اللى معاك اللى بقوله ده .. لانى سأنفذ القانون وأنصحك انك واللى معاك تدوروا على مصالحكم ومستقبلكم ومستقبل أولادكم أحسن » .

وعاد صلاح الى رفاقه يحدثهم بما دار بينه وبين فؤاد صادق المرشح الثانى لقيادة الحركة وكانت مفاجأة للجميع كما ذكر السادات . اما لماذا لم يعين فؤاد صادق رئيسا لهيئة اركان حرب الجيش وعين بدلا منه فى اللحظة الاخيرة حسين فريد فلذلك قصة ثانية لعب فيها تشكيل الضباط الاحرار ــ كما كتب السادات ــ دورا حاسما .. والفقرة الاخيرة تستحق منا وقفة للتأمل قبل ان نبحث فى تفاصيل المقابلة نفسها ــ فالمدهش ان يتمكن تشكيل الضباط الاحرار خلال ساعات الليل من استبدال اسم فؤاد صادق فى المرسوم الملكى ليصبح اسم حسين فريد قبل أن يوقعه الملك فى الصباح . والاكثر منه عجبا ان تجرى هذه العملية داخل السراى وكأن الحكومة لا دخل لها بالموضوع مع ان الوضع الطبيعى ان الحكومة هى التى كانت تعد المراسم الملكية المتضمنة الاسماء التى يتقرر تعيينها فى المناصب الكبيرة بعد الحصول على موافقة الملك وكان اعداد هذه المراسم من اختصاص الادارة العربية برئاسة مجلس الوزراء وكان دور الملك مقصورا على تذييل هذه المراسم بتوقيعه . ولم تكن حكومة الوفد التى كانت بالحكم وقتئذ

يمكنها أن تتغاضى عن رفع أحد الاسماء من مرسوم أعدته بعد الاتفاق مع الملك لتفاجأ باسم آخر يوضع فى اللحظة الاخيرة فى مثل ذلك المنصب الخطير .
ولم يكن معقولا من جهة أخرى أن تقترح حكومة الوفد او توافق من الاصل على تعيين فؤاد صادق لهذا المنصب الذى ذكر السادات ان مرسوم تعيينه كان موجودا فى السراى منتظرا توقيع الملك فى الصباح فقد كان الود مفقودا بين فؤاد صادق وحكومة الوفد بعد أن صرح برايه فى معارضة مبدأ الدفاع المشترك الذى كان محور المفاوضات بين حكومة النحاس والانجليز مما جعل الحكومة تعتبر ذلك منه موقفا عدائيا ضدها وكادت تقدم على احالته المعاش لولا تدخل النائب العام محمد عزمى الذى أفهم المسئولين ان ذلك سوف يضر بالتحقيق فى قضية الاسلحة الفاسدة ضررا بالغا لان فؤاد صادق هو الشاهد الاساسى فى هذه القضية ويخشى اذا هو أحيل الى المعاش أن يفهم باقى الشهود ان هذا عقاب على شهادته . وحدث ما كان متوقعا من الحكومة ازاء فؤاد صادق فما كاد الامر يصدر بتعيين اللواء حسين فريد فى نوفمبر ١٩٥٠ حتى رد اللواء فؤاد صادق على ذلك بتقديمه طلبا باحالته على الاستيداع املا فى تغيير الأوضاع فى المستقبل اذا ما تغيرت وزارة الوفد التى كانت تقف فى طريق تعيينه فانتهزت الحكومة الفرصة وقررت احالته على المعاش .

هذه الحقيقة التى أوردناها والتى تثبت ان حكومة الوفد لا يمكن أن تكون قد تقدمت الى السراى بمرسوم

تعيين فؤاد صــادق رئيسا لاركان حرب الجيش تهــدم قصة صلاح سالم من أساسها وتسقط بالتالى كل ما نسج من حولها وكل ما ترتب عليها وكان يكفينى هذا لاثبات عدم صحة هذه الرواية الا أن الامانة التاريخية تقتضى منى مناقشة الوقائع التى نقلت على لسان صلاح سالم عما جرى خلال هذه المقابلة لان لذلك أهمية كبيرة فالامر يتعلق بسمعة قائد مصرى شجاع قاد القــوات المصرية أثناء الحرب بحكمة ومهارة ونجح فى اكتساب ثقة ومحبة ضباطه وجنوده . وقد كان المنتظر اولا قيامنا بهــذا البحث الدقيق ان تنقل القصة التى نشرها السادات فى كتابه « قصة الثورة كاملة » بحذافيرها للأجيال القادمة وتسجل فى التاريخ كما هى اذ أن المؤرخين فى المستقبل لم يعاصروا هــذه الاحداث بالطبع ولم تتح لهم الفرصة لمعرفة حقيقة الشخصيات التى سيكتبون عنها وكان فى ذلك ظلم فادح يحيق باللواء فؤاد صادق وتاريخه ويظهره بصورة تدل على النفاق والانتهازية والرجل منهما براء .

ان الاسلوب الذى رويت به تصرفات فؤاد صادق فى المقابلة يهبط بمستوى عقلية فؤاد صادق وتفكيره الى الدرك الأسفل فكيف يتصور من رجل عرفت عنه الفطنة والدهاء وكان بالطبع خير من يعرف أسلوب الحكم فى مصر وطريقة تولى المناصب الرئيسية . . كيف يتصور أن تصل به السذاجة الى الحد الذى جعله يصدق على الفور ما أنبأه به صلاح سالم من أن الرأى العام فى الجيش يرشــحه لتولى منصب رئيس اركان حرب الجيش وان الضباط يمكنهم مساعدته فانهم قوة ولهم نفوذ كبير ــ

ويصل به فرط الاقتناع بكلامه الى الحد الذى جعله يؤمن بأنه سيعين لا محالة فى هذا المنصب ويبدى استعداده ـ كرد للجميل ـ لتحقيق كل رغبات الضباط وحماية مصالحهم والوقوف الى جانبهم .

الم يحاول فؤاد صادق أن يسأل زائره عن أى رأى عام يتحدث ومن هم هؤلاء الضباط ذوى القوة والنفوذ ؟ ومنذ متى يتم التعيين لمثل هذه المناصب بترشيح الضباط واختيارهم ؟ هل ينطلى مثل هذا الكلام على فؤاد صادق الداهية الاريب الذى عركته الحرب والتجارب ؟

ولم يكن الجو مناسبا لتنظيم الضباط الاحرار فى هذه الفترة لاجراء مثل هذا الاتصال فلم يكن قد مر على تكوين التنظيم سوى عام واحد فقط ولم يكن قد استطاع الوقوف على أقدامه بعد ، أو أحس به ضباط الجيش واذا كان موعد الحركة قد تحدد ليكون عام ١٩٥٥ كماسبق ان أوضحنا فلماذا هذه العجلة فى البحث عن قائدللحركةالتى يزمع القيام بها بعد خمس سنوات ومن ذا الذى كان يضمن عمره حتى يحين الموعد أو يضمن ماسوف تكون عليه الاوضاع عند حلول ذلك الميعاد . ولم يكن صلاح سالم نفسه فى وضع يسمح له بالحديث مع فؤاد صادق بهذه الطريقة فعلى فرض انه كانت له أهمية ما فى عهد الفريق حيدر بحكم سعيه الدائب للتقرب منه واظهار اخلاصه له ، فان هذه الأهمية قد زالت فى الوقت الذى جرت فيه هذه المقابلة اذ ان الفريق حيدر قد تنحى عن منصبه . . . وبهذه المناسبة وما دام منصب القائد العام للقوات المسلحة قد

أضحى شاعرا هو الآخر فلماذا لم يفكر صلاح سالم فى ان يكون ترشيح الرأى العام بالجيش لفؤاد صادق ليتولى منصب القائد العام بدلا من منصب رئيس أركان حرب الجيش ما دام قد اعتبر نفســـه ممثلا للضباط ومتحدثا باسم الراى العام فى الجيش .. وكان صلاح سالم يعلم بلا شك ان الرجل كان أحق الناس وأجدرهم بشغل هذا المنصب.

ننتقل بعد ذلك الى قصة التليفون الذى تصادف ان علا رنينه فى نفس اللحظة التى اقتنع وآمن فؤاد صادق فيها بأن الضباط سيعينونه رئيسا للأركان ونطالع فى عجب محــادثة مصطفى كمال صدقى التليفونية التى بشر فيها فؤاد صادق بأن مرسوم تعيينه سيوقعه مولانا فى الصباح . ان هذه المحادثة أشبه بما يجرى فى الافــلام السينمائية فالمصادفة عجيبة ولكن الاغرب منها هو ذلك التصرف الصبيانى الذى ادعى صـــلاح سالم ان فـؤاد صادق قد سلكه ليسمع صلاح بنفســـــه البشرى التى زفهـــا له مصطفى وكل من عرف فؤاد صـــادق لابد أن يستنكر نسبة هذا التصرف الصغير اليه فقد كان أهم ما يميزه الاتزان والوقار .

وعلاوة على ذلك فقد كان من المستحيل أن يصدق فؤاد صادق اى نبأ ينقله له مصطفى صدقى عن أمور تجرى فى السراى فقد كان يعلم جيدا مدى تدهور العلاقة بين مصطفى والسراى وقتئـــذ للأسباب التى سنبنها فيما يلى والتى كان الكثيرون من المطـلعين على بواطن الامور يعلمونها عن يقين .

علاقة مصطفى كمال صدقى بالحرس الحديدى

كان النقيب مصطفى كمال صدقى ضابطا بسلاح الفرسان واشتهر بالشجاعة والتهور الحاد وقد القى القبض عليه مع مجموعة من الضباط فى يوليو ١٩٤٧ فى القضية التى عرفت بقضية الاتفاق الجنائى لضباط الجيش والتى اتهم فيها هو ومجموعة من زملائه على رأسهم المقدم رشاد مهنا بالتآمر على قلب نظام الحكم وقد تم للسلطات القبض على هذه المجموعة التى كانت تتكون من خمسة عشر ضابطا وثلاثة من الصولات .

وعقب الافراج عن هذه المجموعة بعد احالة الفريق ابراهيم عطا الله رئيس هيئة أركان حرب الجيش الى المعاش نجح الدكتور يوسف رشاد الطبيب الخاص لفاروق فى تجنيد مصطفى كمال صدقى فى الجهاز السرى الذى كونه للقيام باغتيال أعداء الملك والذى عرف باسم الحرس الحديدى . واشترك مصطفى صدقى فى عمليات الحرس الحديدى الارهابية والتى بدأت بمحاولة اغتيال مصطفى النحاس زعيم الوفد يوم ٥ ابريل عام ١٩٤٨ الذى هاجمته مجموعة من أعضاء هذا الحرس بعربة من عربات القصر الملكى أحضرها النقيب عبد الله صادق ضابط المطافىء بالقصر وكان يقودها النقيب حسن فهمى عبد المجيد واشترك فى المحاولة عبد الرءوف نور الدين وسيد جاد ويوسف حبيب وانهال الرصاص من رشاشاتهم على ظهر مصطفى النحاس والذى كان واقفا على بعد مترين منهم فقط ولكن العناية

الالهيـــــة أنقـــــذته من الموت . ولم يـكف الملك عن تصميمه على قتل النحاس فأرسل مجموعة أخرى من الحرس الحديدى كانت مكونة من مصطفى كمال صدقى وعبد الرءوف نور الدين حيث قاما بتفجير سيارة معبأة بالديناميت فى الشارع الملاصق لبيته وتحت نافذة غرفة نومه وقد نجا النحاس من هذه المحاولة الجهنمية المدبرة لقتله بما يشبه المعجزة .

الا أن الشقاق لم يلبث ان دب بين الملك ومصطفى صدقى بسبب العلاقة التى نشأت بينه وبين السيدة ناهد شوقى بكير أو ناهد رشاد زوجة الدكتور يوسف والتى كان الملك على صلة بها أيضا فى نفس الوقت . وقد ثارت غيرة الملك عندما تبين له من مسلك ناهد رشاد معه واعتذارها عن حضور الحفلات التى كانت تدعى اليها باعتبـــارها وصيفة بالسراى ان ذلك يرجع الى علاقتها بالنقيب مصطفى كمال صدقى وقد كشفت المراقبة التى وضعها الملك على ناهد ومصطفى أنهما كانا يلتقيان فى منزلها ومنزله مرات عديدة مما أحس الملك معه بطعنة فى كبريائه وأصدر أمره للدكتور يوسف رشاد بطرد مصطفى صدقى من الحرس الحديدى .

وبدأت حرب شعواء بين الطـــرفين شن على اثرها مصطفى صدقى هجوما عنيفا سافرا على الفريق محمد حيدر بدأ عام ١٩٥٠ بمناسبة قضية الاسلحة الفاسدة على صفحات مجلة روز اليوسف وانتقـد فيهـا كذلك الاوضاع القائمة فى الجيش وقدم الى المحاكمة بمجلس عسكرى وانتهى الحكم عليه بالتكدير (وهو جزاء يوقع

على الضباط) واعترض مصطفى عام ١٩٥١ على تفكير بعض وحدات الجيش فى تقديم هدايا للملك بمناسبة زواجه على أساس أن أبناء الشهداء احق بهذا المال وبعد عودة الملك من شهر العسل فى سبتمبر ٥١ نشر مصطفى فى جريدة الاشتراكية مقالا عن الثورة العرابية .

وقد صدرت الاوامر بنقل مصطفى الى سلاح الحدود وابعاده خارج القاهرة بايعاز من الملك حتى لا يعاود علاقته بناهد رشاد فتم نقله الى العريش والواحات البحرية وتم اعتقاله يوم ٧ يناير ٥٢ متهما بالشروع فى قتل آللواء حسين سرى عامر مدير سلاح الحدود تلك المحاولة التى اتضح فيما بعد أن مرتكبها هو جمال عبد الناصر بالاشتراك مع حسن التهامى وحسن ابراهيم وكمال رفعت .

متى رشح فؤاد صادق فعلا ؟

نعود مرة أخرى الى قصة اللواء فؤاد صادق لاستئناف البحث الذى بدأناه عن حقيقة قصة تعيينه رئيسا لأركان حرب الجيش . لقد رشح اللواء فؤاد صادق ليتولى منصب رئيس هيئة أركان حرب الجيش بالفعل ولكن قبل التاريخ الذى حدده أنور السادات فى كتابه بعام كامل وقد روى لى القصة الحقيقية السياسى الوطنى المخضرم الاستاذ مصطفى مرعى وكان وزيرا فى وزارة ابراهيم عبد الهادى عام ١٩٤٩ .

عقب توقيع الهدنة مع اسرائيل فى ٢٤ فبراير عام ١٩٤٩ وعودة الجيش المصرى من فلسطين وكان فؤاد صادق قد نال فى نهاية الحرب شهرة مدوية فى الوقت الذى ظهر فيه عثمان المهدى الذى كان يتولى رئاسة الاركان بالنيابة بمظهر العجز والتخاذل خلال سير العمليات الحربية بفلسطين فكرت حكومة ابراهيم عبد الهادى فى ترشيح فؤاد صادق ليتولى منصب رئيس هيئة أركان حرب الجيش وأمكنها الحصول على موافقة الملك وهنأ رئيس الوزراء بنفسه فؤاد صادق بالمنصب الذى تقرر أن يتولاه وأعدت الحكومة المرسوم الملكى بالتعيين وأرسلته الى السراى ليوقعه الملك .. ولكن القدر تدخل فى اللحظة الاخيرة فقد حدث أثناء وجود المرسوم بالقصر تحت التوقيع أن وقع انقلاب حسنى الزعيم فى سوريا وتدخل الوشاة والحاسدون وعلى رأسهم الفريق محمد حيدر وزير الحربية والذى كان يخشى من تضخم قوة ونفوذ فؤاد صادق الى هذا الحد كى يمنعوا صدور المرسوم الملكى بعد ادخال الروع فى قلب الملك بأن فؤاد صادق لن يلبث حتى يحذو حذو حسنى الزعيم وعدل الملك عن توقيع المرسوم وكادت تحدث أزمة وزارية بسبب ذلك الموقف فقد أصرت الحكومة على قرارها وأصر الملك على الرفض وانتهت الازمة برضوخ الوزارة لضغط الملك وصدر مرسوم آخر بتعيين عثمان المهدى فى يوليو عام ٤٩ رئيسا لاركان حرب الجيش ـ وحاول ابراهيم عبد الهادى ترضية فؤاد صادق بأن عرض عليه منصبا مدنيا كبيرا ولكن الرجل رفض فى اباء وشمم .

بقى السؤال الذى لم تتم الاجابة عليه بعد وهو هل

عرضت قيادة الحركة على فؤاد صادق حقا ؟ ان قناعتى الشخصية ان ذلك الامر لم يحدث على الاطلاق فان شخصية فؤاد صادق لم تكن الشخصية التى يسعى عبد الناصر وراءها للاتيان بها على راس حركة الجيش واعتقد ان هذا لم يكن رأيه وحده بل كان يشاركه فيه بعض زملائه من أعضاء لجنة القيادة ومنهم عبد الحكيم عامر . ان اسم فؤاد صادق لم يكن فى الامكان استبعاده عند عرض أسماء القادة المرشحين لقيادة الحركة فقد كان اسما لامعا تتوفر فيه كل المؤهلات المطلوبة ولا جدال فى ان بعض أعضاء لجنة القيادة كانوا يؤمنون بأنه أصلح الاسماء وأصلبها عودا لتولى قيادة الحركة والوقوف فى وجه الملك ولكن عبد الناصر ــ رغم اقتناعه بهذه الحقيقة ــ لم يكن يرحب باشتراك فؤاد صادق فى هذا الامر لاسباب لا تتعلق بكفاءته بقدر ما تتعلق بقوة شخصيته فان الموجب والموجب يتنافران ولا ينجذبان لبعضهما البعض ، ان القصة التى روها السادات فى كتابه على لسان صلاح سالم تبين لنا بالبحث انها أو هى من خيوط العنكبوت ولا يستبعد أن تكون من تأليف صلاح سالم لصرف أنظار لجنة القيادة نهائيا عن التفكير فى ترشيح فؤاد صادق لقيادة الحركة . ان القائد الصارم الشديد المراس الذى يشبه الجواد المشاكس والذى يصعب قيادته او توجيهه لا يمكن أن يكون هو الرجل الذى يبغيه عبد الناصر ليتولى قيادة حركة الجيش والذى يريد منه أن يقنع بأن يكون هو الاسم الظاهر أمام الملأ بينما تبقى جميع الخيوط فى يده ــ وبالقطع لم يكن هذا الرجل هو اللواء فؤاد صادق .

محمد نجيب .. هل كان قائدا للحركة أم كان خيـــال المآتة ؟

كانت كل الشروط والمواصفات المطلوبة متوفرة فى اللواء محمد نجيب ، فقد كانت له سمعة طيبة بين ضباط الجيش اذ اشتهر بالشجاعة فى حرب فلسطين وجرح ثلاث مرات وطلب له اللواء فؤاد صادق قائد القوات المصرية بفلسطين عام ٤٨ ترقية استثنائية ولـكن الفريق محمد حيدر عارض فى ذلك ولكنه منح نجمة فؤاد الذهبية مرتين تقديرا لشجاعته ـ وكانت واقعة اخراجه من منصب مدير سلاح الحدود ليتم تعيين اللواء حسن سرى عامر رجل السراى مكانه ، سببا فى ذيوع شهرته فقد اجتذبت هذه الواقعة انظار الضباط اليه وشعروا بتعاطفهم معه وكاد محمد نجيب يقدم استقالته بل وكتبها فعلا ولكن بعض الضباط الذين كان يثق بهم أقنعوه ان هذا الموقف يضيف رصيدا للملك فعدل عن الاستقالة وقبل أن يكون مديرا لسلاح المشاة بعد مقابلة تمت بينه وبين الفريق حيدر فى مكتبه ورفض منصبا شرفيا عرضه عليه حيدر وهو وكيل وزارة لشئون الحدود واختار سلاح المشاة نظرا للعدد الكبير الذى تضمه من الضباط ولانتشارها فى مختلف المناطق وكان ذلك فى منتصف عام ١٩٥١ .

ولم يلبث محمد نجيب ان امتدت شهرته الى النطاق الشعبى فى أواخر عام ١٩٥١ حينما اشتعلت معـــركة انتخابات نادى الضباط اذ ان الرأى العام داخل الجيش

وخارجه كان يتتبع انباءها باهتمام شديد فقد احس الجميع انها بمثابة صراع سافر بين الضباط الوطنيين وبين عملاء السراى من قادة الجيش وعلى راسهم حسين سرى عامر مدير سلاح الحدود وقتئذ .

وكان ترشيح محمد نجيب نفسه لرئاسة مجلس الادارة قد تم بالاتفاق بينه وبين تنظيم الضباط الاحرار الذى خاض المعركة كوسيلة لاختبار مدى قوته وتأثيره على الرأى العام بين الضباط وكانت هذه خطوة شجاعة من محمد نجيب بلا شك وقد وضح خالد محيى الدين هذه الحقيقة فى حديثه الذى نشر فى صحيفة الاهالى فى ٢٦ يوليو ٧٨ حين قال : « وعندما قررنا دخول معركة الانتخابات لنادى الضباط تطوع محمد نجيب ليرشح نفسه وليكون الواجهة التى تتحرك جماعتنا فى اطارها وليتحمل المسئولية تجاه السلطة عن هذه المعركة وعن نتائجها وكانت هذه خطوة شجاعة أكسبت نجيب احترامنا وثقتنا » .

واستغل التنظيم اسم محمد نجيب أحسن استغلال فوضع اسمه على رأس قائمة مرشحى الضباط الاحرار تلك القائمة التى تولى حسن ابراهيم طبعها على الرونيو بأعداد ضخمة داخل السلاح الجوى بمعاونة بعض ضباط الصف ـ وتم توزيعها فجأة على اعضاء الجمعية العمومية لنادى الضباط فى الاجتماع الذى عقد يوم ٣١ ديسمبر ١٩٥١ بقاعة السينما بالعباسية (بجوار بوابة المعسكر التى كانت تواجه كلية الشرطة وقتئذ) . وكانت الجمعية العمومية التى تمثل جميع ضباط الجيش قد

دعيت للانعقاد لمناقشة التعـديلات المقترحة فى قانون النادى . ولم يكن عدد الضباط الاحرار المنتمين للتنظيم والذين حضروا اجتماع الجمعية العمومية يتجاوز بأية حال نسـبة ١٠ ٪ من مجموع الضباط الحاضرين الذين بلغ عددهم وقتئذ ٤٥٥ ضـابطا . ولم يـكن فى امكان الضـباط الاحرار بعددهم القليل السيطرة على جـو الاجتماع ولـكنهم استطاعوا بفضل تكتلهم توجيه الرأى العام فى القـاعة الى الوجهة التى رسموها من قبـل وساعدهم على ذلك وجود المقدم رشاد مهنا الـذى كان مرشحا عن سلاح المدفعية والذى كان حاضرا الاجتماع .

وكانت المناقشات قد احتدمت فى القاعة بعد اصرار أعضاء الجمعية العمومية على عدم تمثيل سلاح الحدود بمندوب فى مجلس الادارة اسوة بباقى الاسلحة ممـا دعا الضباط الذين يمثلون الحـدود فى الاجتماع الى الانسحاب من القاعة احتجاجا على ذلك .. واشـتدت الجلبة بصورة مزعجة وعلت الاصوات عنـدما استأنف الضباط مناقشة باقى المواد المطلوب تعديلها وفشلت اللجنة المنوط بها ادارة الجلسة فى السيطرة على الموقف وكانت برئاسة العميد جلال صبرى وسكرتارية العقيد عبد الله رفعت الى حد كاد معه يفشل الاجتماع وتضيع فرصة الضباط الاحرار فى انتخاب مرشحيهم .. وهنا صعد المقدم رشاد مهنا الى المنصة الرئيسية وتحدث فى الميكروفون الى الضباط متجاهلا اللجنة التى لم تلبث بعد قليل ان سلمت له زمام ادارة الجلسة ـ وهى مرغمة ـ وكان لشخصية رشاد مهنا تأثير سـاحر على الضباط

ولعبت لباقته وحسن تصرفه دورا فعالا فى اعادة الهدوء الى القاعة حتى انتهت مناقشة باقى التعديلات بسلام فنزل رشاد مهنا من المنصة ورفعت الجلسة لاستراحة قصيرة ثم لم تلبث ان عادت للانعقـــاد لاجـراء عمليـة الانتخاب لمجلس الادارة التى كانت محور اهتمام الجميع وموضع تركيز الجهود .

هذا ولم يترك التيار الوطنى الجارف الذى ساد جو قاعة الجلسة مجالا للفصل بين الضباط المنتمين لتنظيم الاحرار وبين باقى الضـــباط الحاضرين الذين كانوا يشـاركونهم نفس اتجاههم الوطنى فالتقى الجميع على قائمة الضباط الاحرار التى كان يتصدرها اسم محمد نجيب والتى اعتبرت الاسماء التى تضمها هم مرشحو العناصر الوطنية بالجيش .. ولم يكن أحد من الضباط الاحرار الذين حضروا الاجتماع ـ فيما عدا أفراد قلائل ـ يتصـــور ان رشاد مهنا غير منتم للتنظيم بل كان الجميع يعتقدون انه أحد أقطابه المعـدودين وكان ذلك الاعتقاد بالاضافة الى طبيعة الدور الهام الذى لعبه خلال الاجتماع سببا فى فوزه بعضوية مجلس ادارة النادى عن سلاح المدفعية بأكبر نسبة من أصوات الضـــباط الناخبين اذ زادت هذه الاصـوات على تلك التى حازها اللواء محمـد نجيب نفسه ـ رغم شعبيته المعروفة ـ بخمسة وخمسين صوتا ، ولكن محمد نجيب بدوره فاز برئاسة مجلس الادارة بجدارة تامة فان المرشحين الثلاثة الذين كانوا ينافسونه على الرئاسة لم يحصلوا مجتمعين الا على حوالى ١٥ ٪ من الاصـوات التى حازها محمد

نجيب . وفازت قائمة الضباط الاحرار فوزا ساحقا لفت اليه انظـــار الجميع واصبح مجلس الادارة يضم خمسة من الضباط الاحرار هم المقدم زكريا محيى الدين والمقدم حمدى عبيد والرائد جمال حماد وقائد الاسراب حسن ابراهيم والنقيب أمين شاكر .

كما ضم المجلس مجوعة من الضباط الوطنيين كان من ابرزهم المقدم ابراهيم حافظ عاطف عن سلاح المدفعية والمقدم المتقاعد جلال ندا عن المحاربين القدماء .

ومما يستلفت النظـــــر أن يـكون من ضمن الذين سقطوا سقوطا فاحشا فى الانتخابات قـائد الجنـاح جمال سالم من السلاح الجوى (عضو مجلس قيادة الثورة فيما بعد) وقـد حصل على ٥٢ صوتا والمقدم محمد فوزى من سلاح المدفعية (وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة فيما بعد) وقد حصل على ٣٧ صوتا وهى نتيجة تدل على مدى ضعف شعبيتهما وقتئذ بين ضباط الجيش .

وكانت معركة انتخابات النادى ونتائجهـــا الباهرة فرصة هيأها القدر لاعداد محمد نجيب للدور الذى قدر له القيام به بعد أقل من سبعة أشهر من وقوعها فقد استأثرت باهتمام دوائر الجيش وطوائف الشعب لما أحاط جو الانتخابات من عوامل التحدى والاثارة واهتمت الصحف اليومية بابراز نتائجها فى اعـدادها الصادرة صبيحة ليلة الانتخابات اى فى أول يناير ٥٢ كما نشرت

نبا فوز اللواء محمد نجيب برئاسة مجلس الادارة بعناوين بارزة .

وهكذا توفرت فى محمد نجيب فى أوائل عام ٥٢ افضل الصفات التى تؤهله لقيادة حركة عسكرية ناجحة يقوم بها الجيش فقد أصبح ـ بالاضافة الى ما يتمتع به من سمعة وشهرة ـ حائزا على ثقة الضباط مما يضمن معه سرعة انضمام باقى الجيش الى القوات التى ستقوم بالحركة بمجرد الاعلان عن قيامها تحت قيادته .

وقد عبر عن ذلك خالد محيى الدين فقال : « عندما بدأنا الاعداد للتحرك ضد النظام كان أول ما يشغلنا نحن الضباط الشباب ضرورة اختيار شخصية كبيرة السن ذات احترام نقدمها للأمة وبشكل طبيعى اتجهت أفكارنا نحو محمد نجيب فان شجاعته أكسبته احترامنا وثقتنا » .

كما عبر البغدادى عن ذلك ايضا فى الصفحة ٥٥ من مذكراته فقال : « كان الرأى بيننا قد اتفق على ضرورة اختيارنا لاحد الضباط من ذوى الرتب العالية ومن ذوى السمعة الحسنة فى الجيش ومن المعروفين لدى المدنيين من الشعب للاشتراك معنا فى القيام بالانقلاب وتولى قيادته لاننا جميعا أعضاء اللجنة التأسيسية من ذوى الرتب العسكرية الصغيرة والرأى العام ربما لا يقتنع بنا عندما يعلن عن الانقلاب وأسماء قادته . ونحن سنكون فى أشد الحاجة الى ثقة واطمئنان الشعب خاصة فى المراحل الاولى من الانقلاب ، ومحمد نجيب كان قد عرف للراى العام أثناء المعركة الانتخابية لمجلس ادارة نادى الضباط

وكان معروفا ايضا لدى ضباط الجيش من انه قد قاتل بشجاعة فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وجرح مرتين » .

وعلاوة على هذه الميزات المرموقة فى محمد نجيب كانت له صفات شخصية أخرى هى التى رجحت كفته على كفة اللواء فؤاد صادق عند الموازنة بينهما لاختيار قائد الحـركة وهى نفسها التى صـادفت هوى فى نفس عبد الناصر وشجعته على اختياره دون سواه .. وكانت هذه الصفات هى مفتاح شخصية محمد نجيب وأبرزها طيبة القلب وسلامة النية وصفاء الطوية وسرعة الثقـة بالغير وتصديقه مع امعان فى التواضع بلا تكلف وعزوف طبيعى عن استخدام اساليب المكر والدهاء .. وهـذه الصفات التى أكسبت شخصية محمـد نجيب بساطة طبيعية وجاذبية لا تقاوم كانت هى سر قوة ذلك الرجل وفى نفس الوقت كانت هى سر ضعفه

وكان عبد الناصر يتوق الى قائد من هذا الطراز المرن فى معاملاته والناجح فى اجتذاب الناس ليضمن سرعة استجابة الجيش والشعب للحركة مع التأكد فى الوقت نفسه انه سوف يسهل عليه توجيهه والسيطرة عليه فى المستقبل لتبقى جميع خيوط السلطة فى قبضته .. وكان أخوف ما يخافه أن ترغمه الظروف على قبول قائد من طراز فؤاد صادق اذ كان يخشى أن يستأثر وحده بالقوة والسلطان بعد نجـاح الحركة ولا يستبعد أن يطيح فى غمرة فوزه ونشوة انتصاره بضباط لجنة القيادة الذين اختاروه وآزروه فتطحنهم الثورة فيمن تطحنه كما هى

عادة الثورات فى أكل ابنائها وليست عبر التاريخ عنا بعيدة .

هذا وقد تعددت الاقوال واختلفت الروايات فى حقيقة الدور الذى لعبه محمد نجيب بالنسبة لحركة الجيش الى الحد الذى ضاعت فيه الحقيقة . وعلى ذلك فان مسئوليتنا — نحن المعاصرين — فى كتابة التاريخ تفرض علينا أن نؤديه كاملا ونروى الحقيقة دون أى تحيز أو تحريف .. ان موقف الكتاب ووسائل الاعلام فى مصر من محمد نجيب فى عامى ٥٢ و ٥٣ عند بداية الحركة ثم موقفهم منه بعد تنحيته من منصبه فى ١٤ نوفمبر ٥٤ هو مثال واضح على مدى ما يسهم به الكثيرون بفضل الرغبة فى نفاق الحكام وتغليب الاهواء الشخصية فى تشويه التاريخ وخداع الاجيال القادمة .

لقد حظى محمد نجيب فى بداية حركة الجيش بما لم يحظ به أحد من قبله من تركيز واهتمام وسائل الاعلام فى مصر وخارجها ونسبت اليه من المناقب الجليلة والخصال المثالية وأضفيت عليه من هالات البطولة وصفات العظمة ما لم تشهده مصر من قبل الى الحد الذى جعله يتحول فى نظر الشعب المصرى الى شخصية أسطورية وجعل الجماهير لا تتمالك نفسها كلما رأته من التصفيق الشديد له والهتاف المدوى باسمه والتكالب فى شبه جنون على سيارته وافتتن رجال الثورة أنفسهم بالزعيم القائد الذى صنعوه فسايروا الشعب فى حبه والاعجاب ببطولته الى الحد الذى جعلهم يخاطرون بحياتهم ويحيطونه بأجسادهم فوق رفارف سيارته ليصدوا عنه طوفان الشعب الجارف كى تتمكن سيارته

من شق طريقها بين مئات الالوف المحتشدة من جماهير الشعب فى حله وترحاله . وكانت خطبهم واحاديثهم كلها تمجيدا لعظمته والاشادة بروعة قيادته الى الحد الذى جعل أحدهم وهو أنور السادات يضع اسم محمد نجيب على رأس أعظم عشرة رجال فى العالم فى استفتاء أجرته مجلة المصور فى العدد ٤٩١ الصادر فى ٨ مايو ٥٣ اى أن محمد نجيب كان فى نظر السادات وقتئذ هو اعظم رجل فى العالم .

ولم يتخلف عبد الناصر نفسه عن اعلان تأييده واظهار اعجابه ففى أثناء زيارة لمحمد نجيب لقرية بنى مر وقف عبد الناصر وسط أبنـــاء قريته وبين مئات من اهله وعشيرته يعلن ايمانه بمحمد نجيب قائلا :

« باسم أبناء هذا الاقليم أرحب بك من كل قلبى واعلن باسم الفلاحين اننا آمنـــا بك فقد حررتنا من الفزع والخوف وآمنا بك مصلحا لمصر ونذيرا لاعدائها .

سيدى القائد .. باسم الفلاحين أقول سر ونحن معك جنودك فقد حفظنا أول درس لقنتنا اياه وهو ان تحرير مصر وخروج قوات الاحتلال عن بلادنا واجب حيـوى وأصبحت أملا فى أن تحقق مصر حريتها على يديك .. ان مصر كلها تناصرك للقضاء على قوات الاحتلال » .

ولكن مطلع عام ٥٤ شهد حالا غير ذلك الحال ورأى صورا غير تلك الصور فقد اشتعل الصراع بين محمد نجيب ومجلس قيادة الثورة وعلى راسه عبـد الناصر ذلك الصراع الذى بلغ ذروته فى مارس ٥٤ وأخيرا اختتمت الرواية فصولهـا فى ١٤ نوفمبر ٥٤ بتنحية

محمد نجيب عن منصب رئيس الجمهورية ووضعه رهين الاعتقال فى استراحة ريفية نائية بضاحية المرج شمال القاهرة حيث بقى بها طوال ثمانية عشر عاما .

وسرعان ما حدث التغير الهائل والتحول الرهيب فى مقالات الكتاب وأجهزة الاعلام وحتى فى كتابات المؤرخين واشتد التنافس بينهم ـ لا فى تمجيد نجيب كما كان الحال عليه من قبل ـ ولكن فى سلبه كل ما أضفى عليه فى الماضى من صفات العظمة وآيات البطولة وفى طمس معالم كل ما قام به من اعمال جليلة سواء فى خدمة جيشه أو وطنه ووصل الامر فى الاستخفاف بشأنه الى حد تصوير دوره فى قيادة الحركة بأنه كان اشبه بخيال المآته وانه كان فى منزله لا يعلم شيئا عما يدور حوله من أحداث طوال شهر يوليو ٥٢ وقد صور السادات هذه الصورة الساخرة بقلمه فى الصفحتين ٨٠ ، ٨١ من كتابه « قصة الثورة كاملة » فقال : « كان (نجيب) مثل اى رجل فى مصر وفى مثل سنه مثل أبى وأبيك .. كان موظفا يجلس الى مكتبه من الصباح حتى الظهر وليس فى ذهنه أى شىء عن العدالة الاجتماعية أو عن الاستغلال والاستبداد ومحنة الاستعمار .. كل الذى كان يشغل باله فى عام الثورة عام ١٩٥٢ هو نفس الشىء الذى كان يشغل بال اى موظف كبير فى مثل سنه ربما علاوة او ترقية » .. لقد شكك الكثيرون فى حقيقة دور محمد نجيب حتى خيل للبعض ان الرجل الطيب المسن كان راقدا فى فراشه ليلة ٢٣ يوليو ينعم بالنوم الهنىء وتداعب خياله أحلام العلاوات والترقيات

عندما ايقظوه من رقاده قبيل الفجر ليزفوا اليه النبأ العظيم وهو انه قد أصبح فجأة وبقدرة قادر بطلا لحركة وقائدا لثورة وان العربات المدرعة فى طريقها اليه لتعود به الى مبنى رئاسة الجيش ليدخل بها دخول الظافرين .

هل يصدق هذا مع رجل أمعن فى تحدى الملك - دون أى خوف أو وجل - حتى اضطره الى التدخل شخصيا لحل مجلس ادارة النادى الذى كان يرأسه ؟ هل يصدق هذا مع رجل بلغ علو مركزه وقوة شعبيته بين الضباط الى الحد الذى جعل كلا من نجيب الهلالي وحسين سرى يرشحه وزيرا للحربية فى وزارته كوسيلة لتهدئة الجيش لولا رفض الملك خشية من أحمد عرابي رقم ٢ على حد قوله ؟ هل يصدق هذا مع رجل استدعاه سرا وزير الداخلية وأقوى رجل فى وزارة حسين سرى وهو الدكتور محمد هاشم لمقابلته في منزله يوم ١٨ يوليو ودامت المقابلة حتي ساعة متأخرة من الليل ليعرف منه أسباب تذمر الجيش ومطالبهم ؟ وأخيرا هل يصدق هذا مع رجل توجه اليه عبد الناصر وعبد الحكيم عامر بنفسهما صباح يوم ١٩ يوليو لابلاغه بموعد قيام الحركة .

وقد حاول السادات تكريس ذلك الاعتقاد بأن محمد نجيب كان بمثابة خيال المآتة فى عباراته التى أوردها فى الصفحة ١٠٧ من كتاب قصة الثورة كاملة عندما قال : « والذى لم ينشره اللواء نجيب فى الاهرام هو حقيقة ما فعله بعد اتصال المراغى والهلالى به ليلة ٢٣ يوليو .. انه كان فى منزله .. لا يرى شيئا ولا يعلم

شيئا ثم فى الساعة الثالثة صباحا اتصل بجمال فى مبنى القيادة وبعد ان كان كل شىء قد تم وأصبح الجيش تحت سيطرة الضباط الاحرار .. وقد رد جمال على سؤال نجيب بأن وضح له الموقف كله وبلغه ـ لأول مرة ـ ان فى الجيش تنظيما اسمه الضباط الاحرار وان قيادة ذلك التنظيم قد سيطرت ـ الآن ـ على جميع القوات المسلحة فى جميع أنحاء البلاد . قال جمال لنجيب بالحرف الواحد فى تلك الساعة من صباح ٢٣ يوليو شارحا له الحكاية : ـ الضباط الاحرار قاموا بالثورة الليلة والثورة نجحت والمنطقة العسكرية محاصرة واحنا عايزينك تيجى حنبعت لك عربية تجيبك وهكذا عرف نجيب ـ لاول مرة ـ حكاية الضباط احرار » .

ورأيى انه لكى يمكن الحكم على هذا الامر حكما سليما ـ بعيدا عن الاهواء والتحيز ـ ينبغى علينا الا نخلط بين موضوعين رئيسيين وقع الكثيرون نتيجة للخلط بينهما فريسة للبلبلة والاضطراب وهذا الموضوعان هما :

أولا ـ متى عرض على محمد نجيب قيادة الحركة ؟

ثانيا ـ متى أخطر محمد نجيب بموعد الحركة النهائى ؟

متى عرض على محمد نجيب تولى قيادة الحركة ؟

لا يمكن من الوجهة المنطقية أن نصدق ان حركة عسكرية تدبر ويخطط لها فى الخفاء تخطيطا سليما قبل قيامها بفترة طويلة ثم لا يتم الحصول على موافقة القائد الذى أختير لقيادتها قبل وقت كاف من قيامها

او يؤجل ذلك الامر الخطير ليتم فى اللحظة الاخيرة بطريقة عفوية وقبيل بضع ساعات فقط من اذاعة بيان باسم هذا القائد موجها الى الشعب المصرى عن طريق الاذاعة .

هل يعقل أن يقبل انسان تحمل هذه المسئولية الخطيرة التى قد تطيح بعنقه بمجرد حديث تليفونى دون أى اتصال او تمهيد سابقين ؟ وماذا كان سيغدو عليه الموقف يا ترى لو كان محمد نجيب قد رفض هذه الدعوة الخطرة لتولى قيادة حركة عسكرية لا يعرف أهدافها أو حقيقة نواياها بل يجهل كذلك الاشخاص القائمين بأمرها وأهم من ذلك كله أنه لم يكن فى مقدرة احد فى مثل هذه الساعة أن يتكهن بنتائجها وعواقبها المحتملة .. ان القائد الذى يقدم على مثل هذه المغامرة في مثل تلك الظروف لابد أن يكون متمتعا بشجاعة أسطورية . ماذا كان يا ترى تصرف عبد الناصر لو افترضنا عزوف نجيب عن تلبية هذه الدعوة ولديه كل المبررات التى تسمح له ـ وقتئذ ـ بالاعتذار ما دام قد أوقظ من النوم وهو لا يدرى شيئا ليشرح له فى التليفون لاول مرة ان هناك تنظيما اسمه الضباط الاحرار وان ذلك التنظيم قد قام بتمرد مسلح ضد السلطة الشرعية فى البلاد .

ترى ما هو الداعى الذى استوجب تأخير الاتصال بمحمد نجيب لعرض قيادة الحركة عليه قبل قيامها بوقت كاف بينما كانت جميع الظروف مهيأة لهذا الاتصال .. واذا كانت قيادة التنظيم قد أرسلت فى أواخر عام ٥٠ الرائد صلاح سالم الى اللواء فؤاد صادق ـ كما ذكر

السادات فى كتابه « قصة الثورة كاملة » لسبر غوره واكتشاف نواياه بعد التفكير فى اختيـاره قائدا للحركة وكان محددا لها وقتئذ عام ٥٥ أى ان الاتصال قد جرى قبل خمس سنوات من قيامها فلماذا يؤجل الاتصال فى هذا الشأن بمحمد نجيب ويترك للحظة الاخيرة علمـا بأنه لا وجه للمقارنة بين علاقة عبد النـاصر والضباط الاحرار السطحية الواهية بفـؤاد صادق وبين علاقتهم الوثيقة القوية بمحمد نجيب .

لقد كان عبد الحكيم عامر أركان حرب محمد نجيب عندما كان يتولى قيادة اللواء العاشر الضارب بفلسطين وقد توطدت العلاقة بينهما مدة الحرب الى الدرجة التى جعلت عامر يقول لصديقه عبد الناصر : « لقد عثرت فى محمد نجيب على كنز عظيم » .. وعندما ترك محمد نجيب سلاح الحدود ليكون مديرا للمشاة وجد عبدالحكيم عامر الى جانبه فى رئاسة المشاة وعمل فترة تحت قيادته قبل نقله الى رئاسة الفـــرقة الاولى برفح ـ وكان عبد الناصر خلال ذلك لا تنقطع زياراته لصـديقه عامر ولمدير السلاح نجيب فقد كان يعمل وقتئذ مدرسا بكلية اركان الحرب بمنشية البـكرى على مسافة قريبة من رئاسة المشاة بالعباسية .

وعندما بدأت معركة انتخابات نادى الضباط اخـذت العلاقة تزداد توثقا بين نجيب الذى رشح نفسه لرئاسة مجلس الادارة بالاتفاق مع قيادة التنظيم وبين عبد الناصر الذى حمل أمانة الاتصال به نيابة عن زملائه . وكان نجيب يدير المعركة ـ بحكم وضعه ـ من رئاسة سلاح

المشاة وبصورة علنية بينما نزل عبد الناصر بكل ثقل التنظيم ليعاونه فى المعركة بطريقة سرية ... وعندما أعلنت النتائج وتم فوز قائمة الضباط الاحرار هذا الفوز الساحق كان ذلك هو ثمرة التعاون المشترك بين النشاط العلنى والنشاط السرى .

هل كان يمكن اتهام محمد نجيب بالغباء والغفلة حتى نتصور انه بعد كل ما دار فى معركة الانتخابات وبعد أن كشف عبد الناصر أوراقه أمامه بهذه الصورة خلال تعاونهما المشترك أثناء المعركة وبعد ان رأى بعينيه مئات من النسخ المطبوعة سرا لقائمة المرشحين فى الانتخابات والتى وزعت على أعضاء الجمعية العمومية للضباط وقد تصدرتها عبارة « مرشحو الضباط الاحرار » ... بعد كل هذا هل كان محمد نجيب فى حاجة الى من يشرح له الامر ويبلغه لاول مرة فى الساعة الثالثة صباحا يوم ٢٣ يوليو بأن فى الجيش تنظيما اسمه الضباط الاحرار .. أحد أمرين اما ان اللواء نجيب كان فى حاجة الى طبيب عيون أو انه كان مصابا بتخلف عقلى — وعلاوة على ما ذكرناه من تعليل منطقى فان خالد محيى الدين قد أمدنا بالدليل المادى الذى لا يمكن نقضه فقد روى ما يلى فى معرض حديثه عن ثورة ٢٣ يوليو فى صحيفة الاهالى فى ٢٦ يوليو ٧٨ تحت عنوان « نحن ومحمد نجيب » : « لفترة طويلة كان عبد الحكيم عامر أساسا وجمال عبد الناصر أحيانا على علاقة بمحمد نجيب وكانا يسلمان له منشورات الضباط الاحرار — ولقد يقول البعض ان محمد نجيب لم يشترك فى الاعداد للثورة

وهذا صحيح لكننا يجب أن نعترف له بشجاعة الموافقة على مشاركتنا فى تحمل المسئولية عما قد يقع من نتائج لقــد عرف بالموضوع وأخبرناه بعزمنـا على التحرك وبعزمنا على تنصيبه قائدا للحركة ـ وبعد أن نجحت الثورة قررنا ضم نجيب الى المجموعة القيادية » .

وهذا الكلام يوضح لنا أن محمد نجيب كان على اطلاع تام على نشاط الضباط الاحرار السرى الى الحد الذى جعلهم يسلمونه منشوراتهم دون خوف أو حرج كمـا يثبت لنا بجلاء ان قيادة الحركة قد عرضت عليه وانه قبلها وكان ذلك قبل وقت من قيامها بلا شك كمـا اعترف خالد أيضا بشجاعة نجيب فى المشاركة وتحمل مسئولية النتائج .

وبالاضــافة الى أقوال خالد محيى الدين كشف لنـا يوسف منصور صديق كذلك عن كثير من الحقائق فى مذكراته التى عنونها باسم « ليلة عمرى » فعلى اثر انضمامه للضباط الاحرار فى أكتوبر ١٩٥١ عندما كان يعمل قائدا ثانيا لـكتيبة مدافع الماكينة الاولى المشاة بالقنطرة شرق تم لقاؤه بعد فترة من انضمامه للتنظيم مع عبد الناصر بكلية أركان الحرب بالقاهرة وكانت هذه أول مرة يتعرف فيها عليه وكان يوسف أقدم فى الرتبة من جمال ولذا سأله عن الضباط الذين يعملون فى قيادة الحركة فكان جمال يؤجل ويسوف ويقول انه سيعرفهم فى الوقت المناسب . واســتطرد يوسف صــديق فى مذكراته قائلا :

« ولما الححت عليه أخبرني أن أقدم ضابط هو اللواء محمد نجيب فاسترحت لهذا الاسم الذى كنت أكن له كثيرا من الاحترام والحب لما يمتاز به من صفات وسمعة طيبة بين ضباط الجيش وكانت تجمعنى به صلة الجوار فى السكن حيث كنا نسكن فى بيتين متقاربين فى حلمية الزيتون .

وكانت جيرتى للواء محمد نجيب فى السكن تتيح لى فرصة زيارته فى كل مرة أنزل فيها الى القاهرة وبطبيعة الحال أخبرته بانضمامى لصفوف الضباط الاحرار وقد لاحظت اننى كلما سألته عن أى شىء بخصوص العمل أو التنظيم كان يحيلنى الى جمال » .

لقد اصدر مجلس قيادة الثورة بيانا اثر استقالة نجيب فى فبراير ٥٤ ذكر فيه أنه لم يخطر بوقوع الاختيار عليه لقيادة الثورة الا قبلها بشهرين فقط الا أن محمد نجيب نفى ذلك ورد فى الصفحة ١٢١ من مذكراته « كلمتى للتاريخ » قائلا : « هذا أمر يجافى الحقيقة تماما لاننى توليت قيادة تنظيم الاحرار فعلا بعد حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ٥٢ وجميع الخطوات التى تمت بعد ذلك كانت بموافقتى أو بأمر منى وأنا الذى حددت موعد قيام الثورة ولم أوافق على اقتراح عبد النـاصر وعبد الحكيم عامر بتأجيله الى ٥ أغسطس » .

ولا نستطيع بالطبع أن نقبل هذا الكلام من نجيب كحقيقة واقعة اذ أن العلاقة بين نجيب وتنظيم الاحرار لا يمكن أن تكون قد بلغت الحد الذى جعل محمد نجيب يتولى قيادة التنظيم وأن تكون جميع الخطوات قد تمت باذنه وموافقته كما ذكر فان الثابت تاريخيا أن عبد الناصر

قد استمر رئيسا منتخبا لهذا التنظيم الى حين نجاح الحركة فى ٢٦ يوليـــو فى طرد الملك فاروق من البلاد وعندئذ تنحى طواعية عن مكانه فى القيادة لمحمد نجيب كما ان الثابت تاريخيا أن محمد نجيب لم يحضر قط أية اجتماعات عقدتها لجنة القيادة قبل قيام الحركة ولكن يمكن مما قرأناه أن نستخلص حقيقة واحدة لا جدال فيها وهى أن محمد نجيب قد تمت مفاتحته بصورة مباشرة عن طريق عبد الناصر فى امر قيادته للحركة فى الفترة التى أعقبت حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ٥٢ وانه قد قبل القيام بهذا الدور .

ويتأكد لنا هذا مما أورده يوسف صديق فى مذكراته فان التاريخ الـذى يحتمل أن يـكون قـد قـابل فيه عبد الناصر بكلية أركان الحرب بعد حضوره من القنطرة شرق والذى أخبره فيه جمال بأن لواء الحركة معقود لمحمـــــد نجيب ينطبق على الفترة التى أعقبت حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ٥٢ ــ ومما يؤيد صحة ذلك التاريخ واقعة اللقاء الذى تم فى مكتب محمد نجيب برئاسة سلاح المشاة بالعباسية عقب حريق القاهرة والذى سبق الاشارة اليه ــ ذلك اللقاء الذى حضره مع عبد الناصر زميلاه فى لجنة القيادة عبد الحكيم عامر وصلاح سالم وواحد من ضباط التنظيم هو جمال حماد أركان حرب سلاح المشاة وقتئذ ــ وقد تم هذا اللقاء كما أوضحنا على اثر انقسام لجنة القيادة على نفسها ما بين فريق يدعو الى القيام بالحركة على الفور منتهزين فرصة انتشار قوات الجيش فى شوارع العاصمة وظروف منع التجول ليلا وبين فريق كان عبد الناصر من ضمنه وكان يرى أن قوة الضباط

الاحرار اضعف من أن تقوم بالحركة المنتظرة في هــذه الآونة لعدم استكمال التنظيم عناصر قوته . وكان رأى محمد نجيب هو الذى حسم الموقف ورجح الرأى الثانى بعد أن حذر من عواقب تدخل القوات البريطانية فى قناة السويس والتى كانت تتحين الفرصة للتدخل عقب الغاء معاهدة ١٩٣٦ .

بأى صفة كان محمد نجيب يتحدث الى الضباط الذين حضروا ذلك الاجتماع ؟ ومن أى منطلق جرى تحذيره لهم بالكف عن التفكير فى التحرك فى هذه الآونة ؟ ليس هناك الا اعتبار واحد فقط يعطيه ذلك الحق عليهم وهو يقينه بأنهم قد عهدوا اليه بقيادة حركتهم المنتظرة .

متى علم محمد نجيب بموعد الحركة ؟

لا ينبغى أن نعلق اهمية كبيرة على حقيقة الوقت الذى علم فيه محمد نجيب بموعد الحركة فان العبرة بالنسبه للرجل ليست هى متى عرف ذلك الموعد بقدر ما هى متى عرضت عليه القيادة وقبلها ولقد ثبت ان ذلك الامر لا يمكن بحال من الاحوال أن يكون قد تعدى أوائل فبراير ٥٢ أى قبل قرابة ستة أشهر من موعد قيام الحركة . ولم يكن اخطار محمد نجيب بموعد الحركة على وجه التحديد مستطاعا الا قبل قيامها بأيام قلائل فان التفكير الفعلى فى القيام بالحركة لم يتم الا خلال الاسبوع السابق لهــا مباشرة على اثر صدور القرار بحل مجلس ادارة نادى الضباط اما تحديد الموعد النهائى لها فان ذلك لم يحدث الا يوم ٢٠ يوليو كمــــا سبق أن اثبتنا على اثر مكالمة احمد أبو الفتح التليفونية لشقيق زوجته ثروت عكاشة

من الاسكندرية فحددت ليلة ٢٢/٢١ فى بادىء الامر تم تأجل الموعد بعد ذلك ٢٤ ساعة . ومن استقراء الاحداث التى جرت خلال يومى ٢١ ، ٢٢ يوليو نجد أن الغالبية العظمى للضباط الاحرار لم يعلموا بالموعد النهائى الا يوم ٢٢ يوليو ذاته بسبب ضيق الوقت من جهة وحفاظا على سرية الحركة من جهة أخرى وكانوا مكلفين بالبقاء فى بيوتهم منذ ٢١ يوليو اعتبارا من الساعة الثالثة بعد الظهر لحين صدور الامر لهم بالتحرك . أما ضباط لجنة القيادة الثلاثة الذين كانوا موجودين فى سيناء وهم أنور السادات وصلاح سالم فى رفح وجمال سالم فى العريش ، فقد أوفد اليهم عبد الناصر زميله حسن ابراهيم بالطائرة الى العريش صباح يوم ٢١ يوليو حيث أخطرهم بالموعد النهائى للحركة .

وقد روى لنا محمد نجيب فى الصفحة ٣١ من مذكراته واقعة زيارة الصحفى المعروف محمد حسنين هيكل رئيس تحرير آخر ساعة وقتئذ والمقدم جلال ندا الذى كان يعمل محررا عسكريا بدار أخبار اليوم لمنزله صباح يوم ١٩ يوليو لسؤاله عما تم فى مقابلته مع الدكتور محمد هاشم وزير الداخلية التى جرت فى الليلة السابقة مباشرة تلك الزيارة التى أدهشته . واستطرد محمد نجيب قائلا : « وأثناء جلستنا فوجئت بحضور المقدم جمال عبد الناصر والرائد عبد الحكيم عامر على غير موعد ولما وضح من حركتهما أنهما يريدان أن يسرا الى بشىء ما أخذتهما من الصالون الى غرفة الطعام المجاورة ولكن بعد أن طلب هيكل أن أقدمه لهما وكان لقاؤه الاول لهما ، وفى هذه الجلسة تحدد موعد الثورة .

وكان جمال وعبد الحكيم يريدان ان تكون الحركة يوم ٤ أغسطس لسببين :

اولهما : اكتمال وصول الكتيبة ١٤ مشاة الى القاهرة فى حركة التنقلات العادية (يبدو ان الذاكرة هنا قد خانت محمد نجيب فان الكتيبة التى كانت مقدمتها قد وصلت الى القاهرة فعلا وكان عبد الناصر يترقب وصول قوتها الاساسية من العريش كانت الكتيبة الاولى مدافع ماكينة وكان ينتظر وصولها يوم ٢٦ يوليو ٥٢ ـ ولم يكن للكتيبة ١٤ مشاة أى دور فى التنقلات) .

وثانيهما : هو أن يكون الضباط الاحرار قد حصلوا على مرتباتهم فى أول الشهر .

ورفضت السببين فان القوات التى كانت معنا تعتبر كافية لانجاز مهمتنا وليس هناك مبرر للتأجيل من أجل استلام المرتبات .. وحسمت الامر بتوضيح الخطر الذى يهددنا جميعا والذى لمح به وزير الداخلية فى جلستى معه الليلة الماضية واتفقنا على أن تحركنا يجب أن يتم خلال أيام محدودة حتى نحقق عنصر المفاجأة » .

وليس فى رواية محمد نجيب ما يتناقض مع مجرى الاحداث وفقا للتسلسل الزمنى الذى سبق أن أوردناه عند بحثنا عن اليوم الذى تم فيه تحديد الموعد النهائى للحركة فان ما ذكره نجيب لزائريه جمال وعبد الحكيم عن وجهة نظره فى ضرورة الاسراع بالحركة بعدما استشفه من أخطار تحدق بها خلال لقائه مع الدكتور محمد هاشم وزير الداخلية كان حافزا لعبد الناصر بلا شك لاعادة تفكيره فى الموعد . وكان واحدا من العوامل الرئيسية التى جعلته يعدل عن قرار لجنة القيادة السابق بتحديد يوم ٥

اغسطس موعدا للحركة وتقديمه نحو أسبوعين ولم يتأكد قراره بالعدول الا بعد لقاء ثروت عكاشة به يوم ٢٠ يوليو حينما أبلغه مضمون الحديث التليفونى الذى دار بينه وبين احمد أبو الفتح ، كما سبق أن أوضحنا .

ولقد أيد البغدادى فى مذكراته رواية نجيب عن زيارة عبد الناصر وعامر لبيته يوم ١٩ يوليو كما أيدها أنور السادات فى كتابه « قصة الثورة كاملة » ولكنهما قررا أن عبد الناصر لم يتمكن من اخطاره بموعد الحركة بسبب تواجد محمد حسنين هيكل وجلال ندا فى صالون منزله وان كان ذلك السبب فى جهل نجيب بموعد قيام الحركة حتى تم الاتصال به تليفونيا عقب نجاح المرحلة الاولى . ولم يقدم لنا البغدادى ولا أنور السادات تعليلا منطقيا واحدا يدعونا الى عدم تصديق رواية محمد نجيب عن معرفته موعد الحركة من عبد الناصر وعبد الحكيم يوم ١٩ يوليو فانه ما داما قد اتفقا مع نجيب فى حدوث هذه الزيارة وما داما قد سلما بالفرض الذى أجريت من أجله وهو اخطار نجيب بموعد الحركة فهل يتمشى مع المنطق أن يعدم عبد الناصر الوسيلة ـ مع ما اشتهر عنه من ذكاء ـ لاخطار محمد نجيب بما يريد لمجرد وجود زائرين عنده فى صالون المنزل ؟ .. وسواء صدقنا رواية نجيب عن أخذ ضيفيه الى غرفة الطعام المجاورة للصالون حيث خلا الجو له معهما للحديث وهى الرواية التى أكدها لى المقدم جلال ندا احد شهود هذا الاجتماع أم استنتجنا أنه قد تم تحـــايله على الموقف بوسيلة أخرى قد تكون عن طريق التحدث معهما بحرية أثناء مرافقته لهما عبر حديقة المنزل وهما فى الطريق الى الباب الخارجى لتوديعهما

كما كانت عادته فى توديع زائريه فان النتيجة واحدة وهى ان حديثـــا قد تم تبـــادله بين نجيب وزائريه عبد الناصر وعبد الحكيم وان هذا الحديث كان يتعلق بلا شك بموعد الحركة المنتظر .. ان عبد الناصر الذى عرفناه لم يكن هو ذلك الشخص الذى يعود من مثل هذه المهمة خائبا لسبب تافه يمكن أن يجد عشرات الحلول للتحايل عليه ولم تكن المهمة بسيطة لبتخلى عنها بهذه السهولة فلقد جاء بنفسه ليخطر القائد أن عليه أن يتأهب فان موعد الضربة المنتظرة قد حان وان الامر لن يتعدى اياما قلائل بأية حال .

وربما كانت أكثر الروايات التى قصد بها النيل من دور محمد نجيب هى الرواية التى ذكرها أنور السادات فى كتابه قصة الثورة كاملة فى الصفحتين ٨٥ ، ٨٦ والتى تقول :

« لقد كان اللواء نجيب فى بيته لا يرى شيئا ولا يسمع شيئا بل ولم نكن قد فاتحناه حتى ذلك الوقت بمسألة قيادته للثورة ... لقد كان كل شىء يعد له لكى يدخل من أبواب التاريخ كنا جميعا نمهد له الطريق فى تلك الايام نحـو الخلود كنا نواصل ليلنا بنهارنا لـكى يخرج من بيته وهو لا يعلم ويقال له .. أنت زعيم . رقابنا ومصائر أطفالنا وزوجاتنا .. كل هذا لكى يصبح اللواء الذى فى بيته على رأس الدولة وهو لا يعلم . لنتأمل اذن فى هذا الوضع التاريخى العجيب وليتأمل معنا العالم كله فى كيف يصبح الرجل ــ أى رجل ــ زعيما وقائدا لثورة شعبية فى أربعة أيام .. فى غمضة عين أليس هذا شيئا أشبه

بالسحر ! .. ألا يذكرنا هذا بمصباح علاء الدين وخاتم سليمان والعملاق الذى يخرج من القمقم ليقول : شبيك لبيك عبدك ملك يديك .. لقد قلنا للواء نجيب هذا .. قلنا له شبيك لبيك وكل ما تطلبه بين يديك وطلب أن يكون فكان .

وفى اللحظة الاولى التى وطئت فيها أقدام (نجيب) مبنى رئاسة الجيش كانت أبواب التاريخ كلها قد فتحت على مصاريعها أمامه ... كان قد أصبح زعيما وهو الذى كان لا يعلم » .

ولا شك ان هذه الرواية قد ظلمت محمد نجيب ظلما بينا بهذه العبارات القاتلة الممزوجة بالتهكم والسخرية والتى كتبها السادات بلا شك عقب تنحية محمد نجيب عن منصبه فى ١٤ نوفمبر ٥٤ كوسيلة للنيل من تاريخه والزراية بشأنه والاستخفاف بدوره بالنسبة لحركة الجيش ولارضاء عبد الناصر وزملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة .

لقد كان بقاء قائد الحركة فى بيته حتى انتهاء المرحلة الاولى منها أمرا طبيعيا اذ لا مكان لضابط فى مثل رتبته بين الوحدات المشتركة فى الحركة والتى كانت قد توزعت كلها الى سرايا وفصائل تولى قيادتها ضباط من صغار الرتب وانطلقوا بها فى الشوارع لتنفيذ المهام المكلفين بها ..

وحق القائد العام فى عدم مرافقته للقوات المشتركة فى العمليات والاكتفاء بقيادتها وتوجيهها من أمكنة بعيدة فى الخلف حق طبيعى معترف به للقادة على هذا المستوى بالنسبة لجميع الجيوش وليس هو محل خلاف بين العسكريين ولا حاجة بنا لضرب عشرات من الامثلة على

ذلك ، ومن العجيب أن يوجه مثل هذا النقد لقائد الحركة ولا يوجه لبعض أعضاء لجنة القيادة الذين نأوا بأنفسهم عن مسرح الاحداث اتقاء للمسئولية ولم يكتفوا بذلك بل أعدوا فى احكام وبراعة أدلة النفى التى تثبت براءتهم من الاشتراك فى هذه المغامرة كى ينجوا برقابهم فى حالة فشلها .

لقد كان المقر الطبيعى المفترض أن يتواجد فيه قائد الحركة هو مبنى رئاسة الجيش بكوبرى القبة وحينما تم الاستيلاء عليه وعلى المنطقة العسكرية من العباسية الى الماظة دعى اللواء محمد نجيب كى يحضر الى مقر قيادته الجديدة ليتولى عبء مسئوليته . ولم يكن الرجل خلال تلك الساعات الحرجة راقدا فى فراشه يغط فى نوم عميق بل كان كما ذكر فريسة للقلق ونهبا للترقب والانزعاج ساهرا فى صمت ثقيل يدخن غليونه وقد تركزت نظراته على التليفون الذى سوف يحمل له أهم خبر فى حياته وقد عبر نجيب بصدق عمـــا خالجه من مشاعر خلال تلك اللحظات القلقة فى الصفحة ٣٤ من كتـــابه « كلمتى للتاريخ » فقال :

« ولم تمض دقائق حتى علا رنين التليفون واستبدت بى الاثارة فقد خامرنى يقين بأن اللحظة الحاسمة التى كنت أترقبها قد حانت وأمسكت التليفون بلهفة شديدة وسرعان ما دب الاطمئنان الى قلبى فقد طرق سمعى صوت الرائد جمال حماد هو يهنئنى بنجاح المرحلة الاولى للخطة .. وكان الرائد جمال حماد أركان حربى بسلاح المشاة وأحد الضباط الاحرار المسئولين عن تنفيذ خطة الثورة .. وأبلغنى جمال حماد وقتئذ انه سيرسل لى ثلاث عربات مدرعة لاحضارى من المنزل » .

ولم يتردد القائد فى الحضور حينما دعى الى مقر قيادته لتولى مسئولياته ولم ينتظر وصول العـــربات المـدرعة بل ركب فى الحـــال ســيارته الاوبل السوداء الصغيرة وتوجه بها الى مبنى رئاسة الجيش فقد كان الوقت لا يحتمل التأخير . هذا وان تصوير الوضع بأن الامر كان أشبه بمصباح علاء الدين أو خاتم سليمان وان الضباط الاحرار قالوا لمحمد نجيب شبيك لبيك ما تطلبه بين يديك .. هذا التصوير كان يخـالف الواقع تماما فعندما حضر محمد نجيب الى مقر رئاسة الجيش لم يكن الطريق أمامه مفروشا بالورود ولم تكن الاخطار قد زالت وربما لم تكن أبواب التاريخ هى التى ستفتح أمامه كزعيم .. ربما كان سيفتح أمامه باب الزنزانة التى لن يتحرك منها الا الى الساحة التى سيتلقى فيها فى قلبه رصاص فرقة الاعدام .

عندما حضر محمد نجيب الى رئاسة الجيش قبل فجر ٢٣ يوليـــو ٥٢ لم تكن حركة الجيش قد تم لهـــــا السيطرة بعد على الاغلبية العظمى من وحدات الجيش .. لقد كانت هناك قوات كبيرة فى قلب القاهرة لم تعلن عن انضمامها بعد وكانت قوات الفـــرقة الاولى المشاة فى سيناء لا تدرى شيئا بعد عن هذه الحركة اما قوات الاسكندرية فلم تكن قد سمعت بالمرة أية أنباء عن هذه الحركة وقد ثبت أنها لم تعلم بها الا عن طريق البيان الاول الذى أذاعه السادات من دار الاذاعة فى السابعة والنصف صباحا ـ وكانت الخطـــورة الاولى كامنة فى الاسكندرية حيث مقر الملك والحكومة والقـــائد العام للقوات المسلحة وحيث توجد أكثر القوات ولاء للملك كما

كان مفترضا وهى قوات الحرس الملكى والسلاح البحرى وخفر السواحل وقد ثبت ان البيان الاول للحركة الذى صدر باسم اللواء محمد نجيب من دار الاذاعة كان هو العامل الحاسم فى انضمام جميع قوات الجيش غير المشتركة فى الحركة الى القوات الثائرة .

ولكن حتى بعد أن انضمت قوات الجيش بأكملها الى الحركة صباح ٢٣ يوليو .. هل كان يمكن الجزم بأن المخاطر قد انتهت ؟ لقد كان الجيش المصرى بأكمله تحت قيادة أحمد عرابى عام ١٨٨٢ حينما أعلن ثورته على الخديو توفيق ولكن تواطؤ توفيق مع الجيش البريطانى أدى الى كارثة التل الكبير والاحتلال البريطانى .. كيف كان يمكن ضمان النتائج صباح يوم ٢٣ يوليو ٥٢ مع تواجد فاروق بالاسكندرية فى نفس الموقف الذى كان عليه سلفه الخائن توفيق منذ سبعين عاما وكان الفرق الوحيد أن قوات الغزو البريطانى كانت فى عام ١٨٨٢ محمولة على ظهر سفن الاميرال سيمور فى عرض البحر فى طريقها الى شاطىء مصر بينما كانت قوات الاحتلال البريطانية التى كانت تزيد على ثمانين ألف مقاتل بمنطقة القناة لا تفصلها عن القاهرة الا مسافة مائة كيلو متر على الاكثر . كيف كان يمكن ضمان عدم استعانة فاروق بالانجليز مثل ما فعل توفيق أو ضمان عدم تفكير الانجليز أنفسهم فى اغتنام الفرصة والزحف على القاهرة لاستعادة سيطرتهم المفقودة وتكرار مأساة أحمد عرابى ؟

ان مجرد اذاعة البيان الاول باسم محمد نجيب فى السابعة والنصف صباحا من دار الاذاعة معناه ان الرجل قد حمل على عاتقه مسئولية الحركة بأكملها تاريخيا أمام

حكم التاريخ وجنائيا أمام الملك وحكومته وأصبح هو الرمز المجسد لها ينتصر اذ دان لها النصر واذا فشلت فسيكون عليه تحمل وزرها وعواقبها مثل ما تحملها سلفه احمد عرابى من قبل فهو أقدم المتمردين رتبة وأول من كانت المسئولية سوف تلقى على كاهله كيف لا وهو الذى نصب نفسه قائدا عاما للقوات المسلحة ـ رغم أنف الملك ـ وهو الذى أذيع البيان باسمه على الشعب من دار الاذاعة بهذه الصفة التى انتحلها لنفسه قوة واقتدارا .

هذا ولم يكن فى الامكان القول بأن الحركة قد دان لها النجاح وان المخاطر قد زالت الا فى الساعة السادسة مساء يوم ٢٦ يوليو ٥٢ حينما استقل فاروق اللنش البخارى الى المحروسة وأنزل العلم الملكى من فوق سارية قصر رأس التين . وحتى يمكننا الحكم على مدى شجاعة محمد نجيب فى تحمله مسئولية الثورة علينا ان نتذكر الكلمة التى وجهها اليه اللواء فؤاد صادق عقب نجاح الحركة وهو الرجل الذى لا يتطرق الشك الى شجاعته فقد قال : « لقد قبلت القيام بما لم أجرؤ على مجرد التفكير فيه » كما أن هناك واقعة أخرى لا يدرى بها الا افراد قلائل من الضباط الاحرار وهى ذهاب عبد الحكيم عامر صباح يوم ٢٣ يوليو الى منزل العميد أ.ح عبدالحميد نعمت وكان رجلا معروفا بوطنيته وشجاعته فى حرب فلسطين عام ٤٨ وعرض عبد الحكيم على الرجل منصب رئيس هيئة أركان حرب الجيش وكان عبد الناصر يهدف من وراء ذلك الى زيادة ثقل قيادة الحركة بضم هذا الضابط الكبير الرتبة الموموق الشخصية الى جانب

القائد العام محمد نجيب .. وعلى الرغم من أن الامور فى القاهرة كانت قد استقرت بانضمام قوات الجيش وتأييد الشعب الجارف للحركة فان الدهشة والذهول أصابا عبد الحكيم عامر عندما أبدى العميد اعتذاره عن تولى ذلك المنصب الخطير فان شجاعته لم تستطع أن تزيل من نفسه عوامل القلق والخوف من العواقب التى لا تزال فى باطن الغيب . وهكذا تغلب صوت العقل عنده على دوافع المخاطرة والاقدام فى سبيل الوطن وضاعت من العميد فرصة العمر ليدخل التاريخ من أوسع أبوابه .

خطة الثورة وكيف تأهبت الأحداث لتنفيذها؟

في الثالثة من بعد ظهر الثلاثاء ٢٢ يوليو اجتمع في منزل خالد محيي الدين بشارع فوزي المطيعي بمصر الجديدة عشرة من الضباط الاحرار كان ستة منهم من أعضاء لجنة القيادة وهم عبد الناصر وعبد اللطيف البغدادي وكمال الدين حسين وحسن ابراهيم وخالد محيي الدين وعبد الحكيم عامر الذي كان يعمل برئاسة الفرقة برفح وكان في أجازة ميدان بالقاهرة وحضر الاجتماع أربعة ضباط من خارج اللجنة هم : عبد المنعم امين من سلاح المدفعية وحسين الشافعي من سلاح الفرسان وزكريا محيي الدين من سلاح المشاة وابراهيم الطحاوي من سلاح خدمة الجيش .. وكان موعد اللقاء محددا من قبل ويمكن اعتباره بمثابة اجتماع عقده القائد لمجموعة الاوامر ليصدر لهم أمر العمليات الذي يحدد الواجبات المخصصة لوحداتهم كما هو متبع في فن التكتيك الحربي . ولذا كان من المفترض أن يتولى عبد الناصر بصفته الرئيس المنتخب للجنة القيادة مهمة قراءة الامر على زملائه الحاضرين ولكنه آثر ترك هذه

المهمة لزكريا محيى الدين أستاذ التكتيك الحـربى بكلية أركان الحرب . وكانت الخطة مسجلة فى ست صفحات فولسكاب ومكتوبة بخط عبد الحكيم عامر ووضعت عليها بعض التعـــديلات بخط زكريا محيى الدين مع بعض الملاحظات بخط عبد الناصر .

واقتصر الاجتماع على مناقشـــة المرحلة الاولى من الخطة والتى كانت تستهدف فى جملتها السيطرة على القوات المسلحة وكان تنفيذها يبدأ فى الساعة الواحدة صباحا بتحرك سرية مشاة من الكتيبة ١٣ من معسكر العباسية لاحتلال مبنى رئاسة الجيش بكوبرى القبة الذى كان يقع فى الطابق الاول منه مكاتب ادارة الجيش بينما يقع فى الطابق الثـانى منه مكتب الفريق حسين فريد رئيس أركان حرب الجيش وهيئة مكتبه وعينت مقدمة كتيبة مدافع الماكينة الاولى المشاة القـادمة من معسكر الهاكستيب لتكون قوة احتياطية للمعاونة فى تنفيذ هذا الواجب . وفى ساعة الصفر المحددة كان على وحدات المدفعية بأقسامهـا المختلفة التحرك من معسكراتها فى ألماظة والهاكستيب لضرب حلقة من الحصار حول المنطقة العسكرية الممتدة من معسكر العباسية جنوبا الى منطقة معسكرات الجيش بألماظة شرقا والى منطقة هاكستيب شمالا واغلاق جميع مداخل القاهرة الشرقية والشمالية التى تؤدى الى مناطق المعسكرات وآلى رئاسة الجيش . وكان سلاح الفرسان مكلفا بالاشتراك مع سلاح المدفعية فى احكام هذا الحصـــار بوحـــدات تعين من الدبابات والســـيارات المدرعة والكتيبة الميكانيكية ــ وخصصت سرية مشاة من الكتيبة ١٣ لاحتلال مبنى قيادة سلاح

الحدود الذى كان يرأسه اللواء حسين سرى عامر عميل السراى وخصم الضباط الاحرار اللدود وكان المبنى يقع خلف رئاسة الجيش بكوبرى القبة ونظرا لتوقع حدوث مقاومة من جنود سلاح الحـدود لذلك وضع تروب من الدبابات الشيرمان فى معاونة سرية الكتيبة ١٣ مما أدى الى تأجيل عمليـة الاستيلاء على المبنى الى أول ضـوء يوم ٢٣ يوليو ليتيسر استخدام الدبابات .

وكان احتلال دار الاذاعـة بمكاتبها بشارع الشريفين وباستوديوهاتها بشـارع علوى موكـولا الى فصيلة من الكتيبة ١٣ مشاة بمعاونة تروب من السيارات المدرعة من سلاح الفرسان .

وكان دور سلاح الاشارة بالخطـة هو السيطرة على مصلحة التليفونات بشارع الملكة نازلى (رمسيس حاليا) عن طريق تروب من السيارات المدرعة من سلاح الفرسان بهدف تعطيل شبكة التليفونات بالمصلحة لمنع حدوث اية اتصالات بين الاسكندرية والقاهرة وكذا السيطرة على تحويلة التليفونات العسـكرية الموجـودة بالدوز الارضى بمبنى رئاسة الجيش بكوبرى القبة لمنع اجراء اية اتصالات بين قادة الجيش ووحداته .

وفى الوقت الذى تجرى فيه وحدات الاسلحة المقاتلة هذه التحركات لتنفيذ مهامها مستخدمة عربات نقل الجند التى يتم تجهيزها واعدادها بالوقود بواسـطة سلاح خدمة الجيش حدثت مجموعات صغيرة من الضباط للقيام بعمليات اعتقال كبار قادة الجيش والطيران فى

بيوتهم لضمان عدم توجههم الى وحـــداتهم ومنعهم من اصدار أية أوامر لتحريك قوات عسكرية يمكن أن تتصدى للحركة .

وكان دور سلاح الطيران ينحصر في السيطرة على مطاراته الثلاثة الرئيسية حول القاهرة وهى ألماظة ومصر الجديدة وغرب القاهرة ليلة ٢٣/٢٢ يوليو بمعـــاونة وحدات من السيارات المدرعة وعلى أن يبدأ استخدام الطائرات المقاتلة صباح يوم ٢٣ يوليو بالقيام بعدة طلعات فوق القاهرة والاسكندرية على ارتفاع منخفض لاحــداث التأثير المعنوى المطلوب وهو تشجيع القوات المشتركة فى الحركة وفى نفس الوقت بث روح اليأس فى نفوس الملك وحكومته وأعوانه لحثهم على الاستسلام . وكان من أهم أهداف الطيران القيام بطلعات استطلاع فوق مداخـل القاهرة الشرقية لاستكشاف أية تحركات بريطانية فى اتجاه العاصمة تمهيدا للابلاغ عنها والتصدى لها والعمل فى الوقت نفسه على احباط أية محاولة يقوم بها الملك للهروب من مصر عن طريق البحر أو الجو .

واستكمالا لتنفيذ الخطة كانت الاوامر الصادرة لجميع قوات الحصار تقضى بمنع أى ضابط من رتبة مقدم فما فوق من اجتياز نطاق الحصار والدخول الى أماكن تجمع الوحدات بالمعسكرات حتى لا يفكر احدمن الضباط القدامى فى القيام بأعمال مضادة للحركة .. وكان أمل قيـــادة الحركة فى انضمام باقى وحدات الجيش معقـودا على وصول الضباط الشبان من رتب الرائد والنقيب والملازم الي وحداتهم فى الصباح حيث سيكون من السهل عليهم

السيطره على وحداتهم واعلان انضمامها الى القوات الثائرة فان مشاعرهم وأمانيهم لا تختلف عن تلك التى تملأ نفوس زملائهم من الضباط الاحرار وسوف يكون المجال أمامهم متسعا بعد غياب القادة والضباط القدامى عن أنظارهم فان قوات الحصار سوف تكون قد تكفلت بابعادهم ومنع دخولهم الى المعسكرات . هذا ولم يكن واردا فى الخطة الاستيلاء على مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة بثكنات قصر النيل (بمكان فندق هيلتون ومقر الجامعة العربية حاليا) فقد كان المبنى خاليا بسبب وجود الفريق محمد حيدر القائد العام وهيئة مكتبه جميعا فى المقر الصيفى للقيادة العامة بثكنات مصطفى باشا بالاسكندرية . وكانت السيطرة على وحدات الجيش بالمناطق الخارجية وخاصة فى سيناء والاسكندرية موكولة الى الضباط الاحرار بهذه الوحدات على أساس تنحية قادتها وتوليهم قيادتها بأنفسهم بمجرد ابلاغهم اشارة النجاح ، ومن أجل اخطار ضباط لجنة القيادة الثلاثة فى سيناء بموعد الحركة وحتى يتأهبوا لتنفيذ واجبهم أرسل عبد الناصر أحد زملائه بلجنة القيادة وهو قائد الاسراب حسن ابراهيم على متن الطائرة المتجهة الى العريش صباح يوم ٢١ يوليو برسالة عاجلة تلقاها جمال سالم وأنور السادات فى مطار العريش كانت تقضى بنزول السادات الى القاهرة يوم ٢٢ يوليو لتنفيذ الواجب الموكول الى سلاح الاشارة فى تعطيل شبكة التليفونات ليلة ٢٢/٢٣ يوليو طبقا للخطة وتكليف جمال سالم وصلاح سالم بالسيطرة على قوات العريش ورفع بمجرد ابلاغهما اشارة النجاح .

ومن اجل الاتصال بالضباط الاحرار بالاسكندرية استدعى عبد الناصر النقيب أحمد حمروش الضابط بالآلاى المضاد للطائرات بالاسكندرية وكلفه بنقل رسالة الى الضباط الاحرار بالاسكندرية لابلاغهم بموعد الحركة وبالدور المطلوب منهم من اجل تأمين المنطقة والسيطرة عليها .

وكانت الخطة فى اجمالها تتميز بالبساطة والواقعية وتحددت فيها الواجبات وفقا للامكانيات المتاحة ولو كانت قد سارت بالطريقة التي رسمت لها لأمكن للضباط الاحرار السيطرة على القوات المسلحة دون أية مقاومة ولتم اعتقال قادة الجيش فى بيوتهم ولكانت المفاجأة مذهلة للملك والحكومة فى الاسكندرية عند استماعهم الى البيان الاول للحركة فى السابعة والنصف من صباح ٢٣ يوليو من دار الاذاعة بالقاهرة ولكن الاقدار تدخلت وتسرب سر الحركة الى الملك واعوانه قبل ساعة الصفر بثلاث ساعات على الاقل مما كاد يهدد الحركة بالفشل بل ويقضى عليها قبل أن تبدأ ولكن عناية الله كانت فى صف شعب مصر وجيشها فحدثت وقائع ومصادفات أغرب من الخيال مما أتاح للحركة فرصة الفوز والنجاح ورغم وقوع بعض الارتباك فى بادىء الامر الا أنه سرعان ما استقرت الاوضاع وجرى تنفيذ الخطة الموضوعة كما رسمت تماما .

ولكن الخطأ الوحيد الذى لم يظهر فى الخطة الا خلال مرحلة التنفيذ كان هو عدم ادراك واضعى الخطة ان استوديوهات الاذاعة وقتئذ بشارع علوى كانت تعتمد فى بثها على خطوط تليفونية متصلة بمحطة الارسال

الرئيسية بضاحية « أبو زعبل » ولذا فان من يسيطر على محطة الارسال هذه كان فى امكانه بث الارسال او قطعه كما حدث فعلا صباح يوم ٢٣ يوليو عندما انقطع الارسال قبل القاء المقدم السادات البيان الاول للحركة الصادر باسم اللواء محمد نجيب وقد تم تدارك هذا الخطأ عن طريق عملية جريئة قام بها الرائد مجدى حسنين كما سيرد فيما بعد .

وكانت المرحلة الثانية من الخطة تقضى بالعمل على السيطرة على جهاز الحكومة المدنى عن طريق حكومة مدنية يثق فيها الشعب ويكون ولاؤها فى نفس الوقت مكرسا للجيش .

أما المرحلة الثالثة فكانت تقضى بالتخلص من الملك فاروق وكان لابد من اخفاء هذا الهدف حتى اللحظة الاخيرة ريثما يتم اعداد الخطوات التى تضمن تنفيذه تجنبا لتدخل القوات البريطانية اذا ما لجأ اليها الملك طالبا تدخلها لحمايته أو بمبادرة من جانبها لاغتنام الفرصة واستغلال الظروف .

وحددت ساعة الصفر لبدء التحركات الساعة الواحدة صباح ٢٣ يوليو واختيرت كلمة السر للعملية (نصر) .

وبعد أن انتهى زكريا محيى الدين من قراءة الخطة وضعها فى جيبه وقال « على بركة الله » وقبل أن ينصرف الضباط الحاضرون تبادلوا الاحضان والقبلات اذ كان من المحتمل أن يكون هذا اللقاء هو آخر لقاء بينهم .. وعندما انصرف زكريا التفت عبد الناصر الى الحاضرين قائلا :

الحكاية مش أقدمية ؟ . اذ انه كان المفترض أن يلقى عبد الناصر بنفسه أمر العمليات على زملائه ولكنه ترك

هذه المهمة كما ذكرنا لزكريا محيى الدين ونظرا لان زكريا كان أقدم منه فى الرتبة فقد خشى من تأثير ذلك على زملائه الحاضرين .

كيف تأهبت القوات المدرعة ؟

فى الخامسة مساء وعقب انتهاء الاجتماع الذى عقد فى منزل خالد محيي الدين بمصر الجديدة اتجه حسين الشافعى الى منزل زميله ثروت عكاشة ببيوت الضباط بثكنات العباسية وعكفا معا على دراسة الخطة التى عرف حسين تفصيلاتها أثناء الاجتماع المذكور ، ومضى الزميلان يستخلصان الواجبات المنوطة بسلاح الفرسان وكانت هامة وخطيرة وقد دون ثروت عكاشة بخط يده الخطوات التنفيذية على وريقات صغيرة عددها عشر يمثل كل منها عملية من العمليات ووضع على رأس كل عملية اسم قائدها . وفى الثامنة مساء انضم الى الزميلين زميلهما الثالث فى قيادة الفرسان خالد محيى الدين ولم يكن الرجل قد تخلف عن الحضور اليهما بعد انتهاء الاجتماع الذى عقد فى منزله الا تلبية لواجبه الابوى نحو ابنته المريضة فقد حملها الى الطبيب بميدان الاسماعيلية (التحرير حاليا) كما كانت عادته كل يوم — وبمجرد عودته من عند الطبيب ارتدى ملابسه العسكرية واسرع بالانضمام الى زميليه فى منزل ثروت ومضوا جميعا يراجعون تفصيلات الخطة ويقومون بتوزيع المهام على الوحدات المدرعة التى تقرر اشتراكها فى الحركة .

وخلال انهماك الضباط الثلاثة فى عملهم دخل عليهم عبد الناصر فجأة وكان يرتدى قميصا وبنطلونا ولم يكن

قد ارتدى ثيابه العسكرية بعد ــ وقــدم ثروت عكاشة لزملائه طعاما خفيفا وعندما اطمأن عبد الناصر على قوة روحهم المعنـــوية انصرف وابتسامة الامل ترتسم على جميع قسمات وجهه ونظرا لما كان يعهده فى زميله ثروت من رقة العاطفة فقد التفت اليه قائلا « ثروت أرجو ألا تجعل للعواطف أى تأثير عليك » وعندما حلت الساعة العاشرة مساء أنهى الزملاء الثلاثة الاجتماع وتوجه حسين الشافعى وثروت عكاشة الى ثكنات سلاح الفرسان بينما اخذ خالد محيى الدين طريقه الى بوابة الفرســان التى تؤدى الى الكتيبة الميكانيكية التى كان يعمل قائدا ثانيا لها وفوجىء حسين وثروت بمجرد وصولهما الى ثكنات سلاح الفرسان بانطفاء الانوار فجأة وكان أول خاطر جال بأذهان الضباط ان ما حدث كان متعمدا وان الخطة قد انكشفت وان اطفاء الانوار ما هو الا وسيلة لاحباط المخطط الذى ينوون تنفيذه غير ان ذلك الامر لم يفت فى عضدهم بل دفعهم الى مزيد من الحماس وعلى ضوء الشموع ومصابيح اليد بدا ثروت عكاشة يصدر الاوامر التنفيذية الى جميع الضباط المشــــركين من وحــدات الدبابات والسيارات المدرعة بينمـــا كان حسين الشافعى يشرف على سرعة وسلامة التنفيذ ، ولم تلبث الانوار أن أضيئت بعد أقل من نصف ساعة مما أكد للضباط أن انطفاءها كان عطلا طارئا وأمرا غير متعمـــد ــ وكان الحظ حليف القوات المدرعة فى تلك الليلة فان دور خدمة الطوارىء بين وحدات القاهرة كان منوطا بكتيبة من الدبابات من سلاح الفرسان مما عاون على نجاح الخطة .

كيف بلغت ساعة الصفر خطـــأ
الى قـوة مدافع الماكينـــــة ؟

كانت مقدمة كتيبة مدافع الماكينة الاولى قد وصلت من العريش الى معسكر هاكستيب يوم ١٣ يوليو ٥٢ وهى وحدة ادارية ضعيفة لا يتجاوز عدد أفرادها المسلحين بالبنادق ٦٠ جنديا وكانت مهمتها اعداد المعسكر لباقى القوة الاساسية التى كان مقدرا وصولها يوم ٢٦ يوليو .

وكانت التعليمات الصادرة من قيادة الضباط الاحرار تقضى بتواجد قائد هذه القوة المقدم يوسف صديق هو وضباطه الساعة الثامنة مساء بمقر الوحدة بهاكستيب حيث يصله النقيب زغلول عبد الرحمن مندوبا عن قيادة التنظيم لابلاغه الاوامر النهائية الخاصة بســاعة الصفر والواجب الذى حدد للقوة وفقا لخطة التحركات . ولم يكن احد من ضباط قوة مدافع الماكينة ـ كما ذكر يوسف صديق فى مذكراته ـ يدرى شيئا عن الحركة المزمع القيام بها عدا قائدها بالطبع يوسف صديق والضابط الذى يليه فى الأقدمية النقيب عبـد المجيـد شـديد . واستغل يوسف صــديق فرصة الخطـأ الذى ارتكبه الضـابط المنوب فى الليلة الســابقة بزوغانه من المعســـكر ومبيته بالخارج فى ايجـــاد المبرر المعقـــول امام الضباط فى تكليفه لهم بالتواجد جميعا فى المساء بالمعسكر لقضاء الليل به بحجة أن ذلك سيكون فيه عبرة للجميع حتى لا يفكر احد فى مخـــالفة الاوامر مرة أخرى ـ وتصادف حضور ثلاثة من الضباط الجدد فى هذا اليوم للانضمام الى قوة الكتيبة واستقر راى يوسف بعد تردد على اشراكهم فى العمل الكبير المنتظر ليفخر كل منهم بعد

ذلك أمام أولاده وأحفاده بما قام به فى أول يوم من خدمته بالجيش .

وحدد يوسف لضباطه الساعة السادسة مساء كى يلتقوا بميدان صلاح الدين بمصر الجديدة حيث يركبون العربات التى ستنقلهم الى معسكر هاكستيب .. ووصل يوسف الى مكان اللقاء مبكرا خمس عشرة دقيقة عن الموعد واشترى حقنة من صيدلية مجاورة لوقف نزيف الرئة الذى كان قد عاوده فى الايام الاخيرة وبعد أن حقنه التومرجى الموجود بعيادة أحد الاطباء بالميدان شعر بالهدوء والراحة . وفى تمام السادسة اكتمل عقد الضباط الذين بلغ عددهم اثنى عشر ضابطا فاستقلوا العربات الى معسكرهم .

وفى الساعة الثامنة مساء وصل النقيب زغلول عبد الرحمن مندوب قيادة التنظيم وكان يحمل معه بطيخة كبيرة ولما حاروا فى قطعها لعدم وجود سكين استخدموا سونكى بندقية فى ذلك . وفى الوقت الذى انهمك فيه الضباط فى تقطيع وتوزيع البطيخة انفرد زغلول عبد الرحمن بالمقدم يوسف صديق وأفضى اليه بأمر القيادة الذى كلف بنقله اليه :

ساعة الصفر منتصف الليل الواجب المخصص للقوة مساندة سرية الكتيبة ١٣ المشاة فى تنفيذ واجبها فى الاستيلاء على مبنى رئاسة الجيش بكوبرى القبة .

وقد ارتكب زغلول عبد الرحمن خطأ جسيما فى مفهوم الفن العسكرى بابلاغه ساعة الصفر مبكرة عن موعدها الصحيح بمقدار ساعة كاملة اذ أن تقديم ساعة الصفر أو تأخيرها عن الموعد المحدد فى خطة العمليات قد يؤدى الى

فشل العملية بأكملها وقد يتعرض مرتكبها الى تقديمه للمحاكمة العسكرية ولكن الله سلم فبدلا من أن يؤدى هذا الخطأ غير المقصود الى الفشل كان من اهم عوامل النجاح للحركة .

كيف استعدت الكتيبة ١٣ مشاة لأداء دورها التاريخى ؟

على اثر الزيارة التى قام بها عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وجمال حماد لمنزل العقيد أحمد شوقى بمصر الجديدة قبيل الحركة ببضع ساعات والتى انتهت بانضمامه الى الحركة كما سبق أن وضحنا انتقل الجميع الى سيارة عبد الناصر للتوجه بها الى منزل الرائد صلاح نصر أركان حرب الكتيبة ١٣ بشارع الدويدار بحدائق القبة حيث كان من المقرر وصول زكريا محيى الدين حوالى السادسة مساء لالقاء أمر العمليات الذى سوف يحدد المهام التى أوكلت الى سرايا الكتيبة ١٣ وفقا للخطة الموضوعة .

وما كاد جرس الباب يدق ببيت صلاح نصر بحدائق القبة فى السادسة مساء حتى تملكته الدهشة بمجرد ان فتحه فقد وجد امامه قائد كتيبته العقيد احمد شوقى ولم يكن لديه أية فكرة ان رئيسه مشترك معه فى الحركة فقابله بالعناق والترحيب . وبمجرد وصول زكريا محيى الدين بدا الاجتماع الذى حضره مع صلاح نصر كل من احمد شوقى وجمال حماد والنقيب جمال القاضى واتم زكريا تحديد الواجبات التى خصصت لسرايا الكتيبة

وفقا للخطة الموضوعة وأنتهى الاجتماع فى السابعة مساء وانصرف زكريا محيى الدين .

وفى منيل الروضة كان نحو عشرة من ضباط الكتيبة ١٣ مشاة ينتظرون وصول المندوب الذى سيحمل لهم الأوامر التفصيلية منذ السادسة مساء فى شقة زميلهم الرائد صلاح سعده بشارع خلوصى بمنيل الروضة :

وكانت أولى المفاجآت بالنسبة للضباط الذين بكروا فى الحضور عندما انفتح باب الصالون الذى يجلسون فيه ليجدوا امامهم النقيب عمر محمود على قائد السرية الرابعة ومعه ثلاثة من ضباط الكتيبة الملازمين ، وكان سر المفاجاة ان احد الضباط الثلاثة المرافقين له كان الملازم اول واصف لطفى حنين . وكان واصف ضابطا مسيحيا يخدم بالسرية التى يقودها عمر محمود ولم تكن له اية صلة بتنظيم الضباط الاحرار .. وروى النقيب عمر لزملائه وقتئذ قصة انضمام هذا الضابط التى تعتبر مثلا فى البطولة وصدق الوطنية .. فعندما استقل عمر محمود الاوتوبيس من ميدان المحطة مع زميليه نهاد منير ومصطفى أبو القاسم فى طريقهم الى اجتماع ضباط الكتيبة الاحرار فى منيل الروضة تصادف أن وجدوا فى نفس الاوتوبيس زميلهم واصف حنين .. ونظرا لما كان يتصف به هذا الضابط من رجولة ووطنية لذلك لم يخف عليه عمر محمود وجهتهم عندما بادره واصف بالسؤال عن ذلك وابلغه انهم فى طريقهم لتلقى الاوامر الخاصة بقيام الحركة تلك الليلة .. وفى شجاعة نادرة وبدون ادنى تردد انضم واصف حنين الى زملائه الاحرار

وقصد معهم الى منزل صلاح سعده حيث كانت المفاجأة التى استقبلها زملاؤه بالفرحة والثقة فى النجاح . واسهم واصف مع زملائه ضباط الكتيبة ١٣ فى الحركة ونفذ الواجب الذى أوكل اليه شخصيا فى تلك الليلة وهو الاستيلاء بفصيلته على بوابة معسكر العباسية التى كانت تواجه كلية الشرطة وقتئذ ، وكانت المفاجأة الثانية بالنسبة لضباط الكتيبة ١٣ حينما انفتح الباب فى حوالى الثامنة مساء ليروا أمامهم قائدهم العقيد أحمد شوقى وأركان حرب الكتيبة صلاح نصر .. وكانت فرحتهم غامرة حينما حضر معهم الاجتماع الرائد ا . ح جمال حماد أركان حرب سلاح المشاة فقد ارتفعت روحهم المعنوية وادركوا أن الحركة التى سيشتركون فيها مخططة ومرسومة على أعلى المستويات . وأدخل صلاح سعده الضباط الموجودين الى قاعة الطعام التى كانت تتوسطها مائدة طويلة أشبه بموائد المؤتمرات فجلسوا حولها واستمر المؤتمر منعقدا حتى التاسعة والنصف مساء وتم توزيع المهام واصدار جميع الاوامر التفصيلية واتفق على ان يتقابل الجميع فى الحادية عشرة والنصف فى ميس الكتيبة ١٣ بمعسكر دودج بالعباسية.

وعندما انفض الاجتماع استقل احمد شوقى وجمال حماد والنقيب القاضى السيارة الجيب التى كانت بصحبتهم الى منزل جمال القاضى بالمنيل حيث ارتدى ثيابه العسكرية ثم الى منزل جمال حماد بالجيزة ليرتدى ثيابه العسكرية .

وواجهت جمال حماد فى منزله محنة حادة لم يكن يتوقعها اذ وجد زوجته تعانى آلام المخاض وقد واشكت

على الوضع ولما فوجئت بارتداء زوجها ملابسه العسكرية في مثل هذا الوقت من الليل وعلل لها ذلك بأنه نوبتجى في رئاسة المشاة انبأته ان قلبها يحدثهـا بأنه ذاهب للاشتراك في حركة انقلاب عسكرى .. واشتد به القلق خشية ان يكون سر الحركة قد انكشف الى الدرجة التي جعلت زوجته في بيتها تطلع على ما كانوا حريصين على اخفائه ولكن الاطمئنان لم يلبث ان عاود نفسه حينما تأكد بعد استجواب زوجته من ان ما ذكرته لم يكن الا مجرد احساس من جانبها وأراد أن يبعد عن خاطرها أية أفكار أو شكوك فرد عليها قائلا « وهو احنا عندنا رجاله عشان نعمل انقلاب » وعلى الرغم مما ذكره لها فانها لم تشأ أن يغادر باب الشقة حتى جاءته بمصحف صغير وضعته في جيبه وهى منخرطة فى البكاء فاشتد تأثره وطلب منها تقبيل أولاده وهو يهرول نازلا على السلم فى الوقت الذى توالت دعواتهـا له بالتوفيق . واتجه الركب الى مصر الجديدة حيث منزل العقيد أحمد شوقى فارتدى ملابسه العسكرية وبقى الضيفان عنده فى صالون المنزل حتى الحادية عشرة مساء فاستقلوا جميعا السيارة الجيب وفى الطريق الى المعسكر عرج احمد شوقى على محل ليمونيا بمصر الجديدة حيث اشترى لكل منهم بعض الشطائر والمخللات التى حملوها معهم الى ميس الكتيبة ١٣ .

ولم تصادف السيارة لحسن الحظ أية عقبات عند دخولها معسكر العباسية وعندما وصل الرفاق الثلاثة الى ميس الكتيبة وجدوا باقى الضباط فى انتظارهم فجلسوا معهم فى هدوء وراحة بال يأكلون الشطائر ويشربون المرطبات ويستمعون فى سخرية واستهزاء الى الراديو

الذى كان يذيع بلا انقطاع مراسم تشكيل الوزارة الجديدة التى كانوا يعلمون جيدا انهم قد أعدوا لها أكفانها وهيأوا لها لحدها .

كيف تأهب رجال المدفعية ؟

لم تنقطع اجتماعات ضباط المدفعية قبل بدء الحركة بأيام وحرصا على دواعى السرية والامن تحدد لاجتماع الضباط يوم ٢٢ يوليو مكانان فى السادسة مساء بمصر الجديدة أحدهما منزل النقيب محسن عبد الخالق وثانيهما منزل النقيب فتح الله رفعت .

وعندما غادر عبد المنعم امين وكمال الدين حسين منزل خالد محيى الدين عقب الاجتماع الذى تم فيه مناقشة الخطة النهائية اتجها معا الى منزلى الضابطين اللذين تجمع فيهما ضباط المدفعية الاحرار حيث عقدا اجتماعين متواليين لم ينتهيا الا قرب الثامنة مساء .

وتلقى ضباط المدفعية خلال الاجتماعين المهام التى كلفوا بها وحددت لهم واجبات وحداتهم بالتفصيل وفقا لخطة العمليات واتفق على تواجد الضباط بوحداتهم قبل منتصف الليل ليبدأ التحرك فى الواحدة صباحا وهى ساعة الصفر المحددة بالخطة . ونظرا لان معظم الضباط الاحرار بالمدفعية كانوا من الرتب الصغيرة (نقيب وملازم) فقد لاحظ عبد المنعم امين أن بعضهم كان يخالجه التردد بالنسبة لتبرير سبب وجودهم فى وحداتهم فى هذه الساعة من الليل اذا ما فاجأهم أحد قبل ساعة الصفر . وذكر عبد المنعم امين انه ازاء هذا التردد

الذى كان يشكل خطورة على روح الضباط المعنوية بادر بتوقيع أوامر كتابية للضباط باعتباره الضابط العظيم المنوب لسلاح المدفعية يأمرهم فيها بالتواجد فى وحداتهم عند منتصف الليل مدعيا قيام حالة طوارىء وكان عبد المنعم أمين يعمل وقتئذ قائدا ثانيا للدفاع المضاد للطائرات التى تقع رئاسته فى منطقة العباسية ولم يكن بالطبع ضابطا عظيما لسلاح المدفعية فى تلك الليلة ولكنه وقع الاوامر الكتابية للضباط بهذه الصفة على مسئوليته وكان لذلك تأثير فعال فى رفع الروح المعنوية للضباط ولم يكن هذا الامر المزور كما قدر عبد المنعم وهو يشكل جناية عسكرية هى التزوير فى أوراق رسمية بأمر ذى بال اذا ما قورن بالادعاءات الاخرى التى كانت ستوجه ضده ـ اذا ما فشلت الحركة ـ والتى عقوبتها الاعدام .

سر الحركة يتسرب إلى الملك

في حوالى التاسعة مساء يوم ٢٢ يوليو تعرضت الحركة لاكبر خطر يمكن أن تصادفه بل وكاد يقضى عليها قبل ان تبدأ فلقد بلغ الملازم أول حسن محمود صالح زملاءه ضباط مدفعية الميدان انه ما كاد يرتدى ملابسه العسكرية ويتأهب للنزول من البيت ليلحق بزملائه الذين كانوا ينتظرونه في عربة لورى أسفل المنزل وعندما هم بتوديع والدته طالبا دعواتها فاض به التأثر الى الحد الذى دب معه الشك الى نفسها فأسرعت الى التليفون تحدث نجلها الاكبر العقيد طيار صالح محمود صالح حيث أنبأته بشكها في أن أخاه حسن ذاهب مع بعض زملائه الليلة للاشتراك في عمل ثورى ضد السلطات .. وقد ذكر النقيب ابو الفضل الجيزاوى انه حاول تدارك الموقف باعطاء الملازم أول حسن سيارته واعادته الى والدته للبقاء معها كوسيلة لازالة شكوكها وهواجسها .. لكن ذلك كله كان عديم الجدوى فان العقيد طيار صالح لم يشأ أن يضيع الفرصة الذهبية التى هيأها له القدر للعودة الى الخدمة العاملة فلقد كان محالا على الاستيداع منذ يناير ٥١ وكان من المنتظر احالته على التقاعد وأسرع

صالح الى التليفون حيث طلب من عامل التحويلة بمطار مصر الجديدة ايصاله على وجه السرعة بضابط الحرس الملكى المنوب فى قصر القبة وعنـدما تم الاتصال اخطره بالنبا المثير عن اعتزام بعض ضباط الجيش القيام بحركة ضد السلطات فى تلك الليلة وطلب منه ابلاغ المسئولين بالاسكندرية وعلى رأسهم الملك بالطبـــع لتدارك الامر واتخاذ الاجراءات المناسبة مع التأكيد عليه بضرورة ذكر اسمه باعتباره أخلص الضباط لصاحب العرش كى يجنى الثمار عندما يتم القضـاء على أولئك المتمردين . وبات صالح تداعبه أحلامه بقرب تحقيق أمانيه وانفتـاح باب الترقى على مصراعيه أمامه لتولى أخطر المنـاصب فى سلاح الطيران ولكن آماله لم تلبث ان تبددت فى الصباح بمجرد ان استمع الى البيان الاول للحركة من الراديو وسرعان ما حول مفتاح الولاء فى ضميره من الملك الى قائد الحركة الجديد محمد نجيب فهرول الى مبنى القيادة بكوبرى القبة طالبا لقاءه بعد أن أعد فى ذهنه ما سيعدده له من الوان الظلم الذى حاق به بسبب وطنيته واصراره على اتباع جانب الحق حتى أحالوه على الاستيداع ظلما وعدوانا . ولكن مفاجأة أليمة كانت فى انتظاره فما كاد يذكر اسمه ويوضح مطلبه حتى وجد نفسه مقبوضا عليه ثم موضـوعا فى السجن رهن الاعتقال وكان الفضل فى انكشاف أمره وفقا لما رواه البغـدادى فى مذكراته فى الصفحة ٥٣ راجعـــا الى عامل التليفون بمطـار مصر الجديدة الذى اتصل به صالح فى مساء اليوم السابق فقد استمع ـ كما هى عادة معظم عمال التليفونات ـ الى الحديث التليفونى الذى دار بينه وبين ياور الملك

النوبتجى فى سراى رأس التين بالاسكندرية وبلغ عامل التليفون مضمون الحديث صباح يوم ٢٣ يوليو الى عبد اللطيف البغدادى حيث أعد لصالح محمود صالح القصاص العادل واستطرد البغدادى فى مذكراته فى الصفحة ٥٣ قائلا : « هذا وقد قام صالح محمود بهذا الابلاغ ليحصل على ميزة مقابل هذا الدور منه خاصة انه كان محالا الى الاستيداع وكان معروفا بين زملائه ضباط الطيران بسوء السمعة والسلوك » .

وليس هناك اى خلاف فى القصة التى وقعت فعلا وبين تلك التى رواها البغدادى فى مذكراته سوى فى اتصال صالح محمود بالسرآى فالثابت انه اتصل بضابط الحرس الملكى المنوب بقصر القبة بالقاهرة وليس بالياور المنوب فى رأس التين كما ذكر البغدادى فقد كان صالح حريصا على سرعة اجراء الاتصال حتى لا يسرقه الوقت علاوة على ان الملك وياورانه كانوا موجودين وقتئذ فى قصر المنتزه بالاسكندرية ولم يغادروه الى رأس التين الا يوم ٢٥ يوليو ٥٢ هذا وقد اثبت العقيد حسن جميعى قائد الحرس الملكى بالقاهرة ليلة الثورة واقعة اتصال صالح محمود صالح بالضابط المنوب بسراى القبة للابلاغ عن حركة الجيش وذلك فى المذكرة التى أرسلها الى لجنة تسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو . ومما يسترعى النظر انه لا يؤرخ لحركة الجيش الا وتذكر واقعة اتصال صالح محمود صالح بالسراى للابلاغ عنها أى انه قد دخل التاريخ ولكن من أضيق ابوابه ودون فى سجلاته ولكن فى اتعس فصوله وصفحاته . هذا وقد ثبت ان سر الحركة لم يتسرب الى السراى عن طريق صالح محمود وحده فقد حدث التسرب عن طريق آخر وان كان ذلك

الطريق لم يقيض له ذيوع الشهرة والانتشار مثلما حدث لطريق صالح محمود . وقد جرى التسرب الثانى بحسن نية وبدون قصد عن طريق أحد الضباط الاحرار فى سلاح الفرسان وكان يعتقد ان أحد رملائه فى السلاح وهو النقيب فؤاد كرارة من الضباط الاحرار ولذا تحدث امامه بصراحة وبدون حذر عن الحركة التى سيشتركون فيها بعد بضع ساعات .. وكانت أسرة كرارة معروفة بصلتها الوثيقة وعلاقتها الخاصة باللواء أحمد طلعت حكمدار القاهرة ولذا لم تمض فترة قليلة الا وكانوا قد طيروا النبأ المثير الى أحمد طلعت فارتدى ثيابه وغادر منزله فى الحال الى مكتبه حيث أقام الدنيا واقعدها .

هذا ولم يعلم عبد الناصر بنبأ تسرب سر الحركة الى السلطات العليا الا قبيل منتصف الليل وقد ذكر هذه الواقعة بالتفصيل فى خطابه بمناسبة العيد العاشر للثورة فقال : « الساعة حداشر ونص فى هذا اليوم جاءنى أحد الضباط الاحرار اللى كانوا فى المخابرات (المقصود هو الرائد سعد توفيق) فى البيت وقال لى ان الثورة اكتشفت وان الملك فى الاسكندرية اتصل بقائد الجيش وان قائد الجيش طلب عقد مؤتمر لكبار الضباط فى كوبرى القبة وان لابد أن نلغى كل شىء .. ماكانش ممكن بأى حال من الاحوال ان احنا نلغى كل شىء .. كان الضباط وصلوا الى وحداتهم وكان لابد ان نستمر فى عمليتنا الى النهاية .. قلت له ان احنا لن نستطيع أبدا .. العجلة دارت ولن يستطيع انسان أن يوقف هذه العجلة » هذا ولم يخامر عبد الناصر اليأس عندما تلقى هذه الانباء المزعجة المثبطة للعزائم بل على العكس هداه تفكيره الى ضرورة تعديل الخطة وانتهاز فرصة تجمع

القادة فى مبنى رئاسة الجيش لاقتحـام المبنى بأقــرب فرصة دون انتظار ساعة الصفر لاعتقال جميع القــادة الموجودين بضربة واحـــدة وأسرع بســيارته الى منزل عبد الحكيم عامر بالعباسية واستقل الاثنان عربة جمال وكان هدفهما هو محاولة الحصول على قــوات عسكرية بأسرع وقت ومن أقرب المعسكرات ولذا اتجه تفكيرهما على الفور الى معسكر الكتيبة ١٣ مشاة بالعباسـية التى خصص لها الدور الاكبر فى تحركات المشاة بالخطة . ١٠

ولكن عبد الناصر وعبد الحـكيم لم يتمكنا من دخــول معسكر العباسية فقد شاهدا قوة من البوليس الحربى تحتل البوابة الرئيسية وتسد الطريق الى المعسكر ممــا جعلهما يعدلان عن فكرتهما خشية وقوعهما فى الاسر . وذكر عبد الناصر انه على اثر ذلك اتجه تفكيرهما الى التوجه الى كمال الدين حسين فى الماظة ليحصلا منه على قوات من المدفعية لتنفيذ فكرة الهجوم على مبنى رئاسة الجيش .

هذا وتدل تصرفات عبد الناصر وعبد الحكيم فى مواجهة الموقف بعد أن فشلا فى دخول معسكر العباسية على مقدار ما أصاب تفكيرهما من اضطراب نتيجة لادراكهما مدى الخطر الجسيم الذى تتعرض له الحــركة بعد ان انكشف سرها للسلطات مما قد يؤدى الى قيام قيــادة الجيش باتخاذ اجراءات مضادة ربما يكون فيها القضاء عليها قبل أن تبدأ . . ويدل على ذلك تفكيرهما فى التوجه الى كمال الدين حسين فى الماظة لاحضار قوات من المدفعية كما ذكر عبد الناصر فى خطابه وغاب عن ذهنهما الحل السريع المباشر الذى كان من المفترض أن يتبعاه لو كانا يفكران فى هدوء وبدون ارتباك أو انفعال اذ أن ثكنات

سلاح الفرسان كانت فى خط سيرهما الى مصر الجديدة والماظة ولم تكن تبعد عن ميدان العباسية الا حوالى كيلو مترين تقطع فى دقيقتين بالسيارة وكانت بوابة سلاح الفرسان تواجه مبنى رئاسة الجيش مباشرة حيث مكتب حسين فريد والقادة المجتمعين معه ـ وكان الضباط الاحرار فى سلاح الفرسان قد أحكموا سيطرتهم على ثكناتهم منذ بضع ساعات وأعدوا الدبابات والسيارات المدرعة استعدادا للتحرك فى ساعة الصفر وكان موجودا وقتئذ داخل هذه الثكنات حسين الشافعى وثروت عكاشة وخالد محيى الدين وحوالى ثلاثين ضابطا من الضباط الاحرار على أتم الاهبة والاستعداد ... ولم يكن الحرس الذى يتولى حراسة القيادة وقتئذ يتكون من اكثر من ستة جنود والحكمدار مسلحين بأسلحتهم الشخصية وهى البنادق وليس فى حوزة كل منهم سوى خمس طلقات ولم يكن الامر يحتاج لبضع دقائق ليتمكن تروب واحد فقط من السيارات المدرعة من الخروج من بوابة الفرسان واجتياز شارع الخليفة المأمون بعرض الطريق ... وكان ظهور السيارات المدرعة امام باب مبنى رئاسة الجيش كافيا لاستسلام الحرس دون الحاجة الى اطلاق نيران الرشاشات من داخل السيارات المدرعة بقصد احداث التأثير المعنوى .. ولو لجأ عبد الناصر وعبد الحكيم الى سلاح الفرسان كما كان الواجب لانتهت مقاومة حرس رئاسة الجيش فى دقائق ولامكن لرجال المدرعات اعتقال جميع القادة الموجودين وعلى راسهم الفريق حسين فريد دون جهد أو عناء .

ولكن الاقدار شاءت أن يغفل عبد الناصر وزميله عن التوقف عند بوابة الفرسان وأن يواصلا السير بسيارتهما

فى اتجاه مصر الجديدة وبدلا من أن يقابلا كمال الدين حسين كما كان هدفهما التقيا صدفة وفى ظروف غريبة بطابور طويل من العربات ... وأيقن عبد الناصر ان هذا الطابور هو من القوات التى حركها حسين فريد بلا شك لضرب الحركة فان ساعة الصفر التى يبدأ فيها تحرك قوات الحركة باق عليها ما لا يقل عن نصف ساعة كما ان على راس الطابور سيارة ركوب يخفق عليها علم القيادة وداخلهـــا قائدان يرتديان الكابات الحمراء فاقترب عبد الناصر وزميله خطوات من الطابور المتحرك لاستطلاع حقيقة امره واذا بهما يجدان نفسيهما بعد لحظات أسيرين وسط مجوعة من الضباط والجنود المجهولين والبنادق والسونكيات مشهرة فى وجهيهما وأسقط فى يدهما وأدركا أنهما قد وقعا فى كمين محكم أعدته لهمـا القوات الموالية للملك وان الحـــركة قد فشلت ولكن الموقف الحقيقى لم يلبث أن تكشف لهما وجاءهما الفرج على غير انتظار ولمحا يوسف صـديق ينزل من سيارته الجيب فى أول الطابور ليخرجهما من هذه الورطة ويخبرهما ان الطابور الذى شاهدوه هو طابور قواته من كتيبة مدافع الماكينة الاولى القادم من الهاكستيب وان القائدين اللذين فى العربة بمقدمة الطابور هما قائد الفرقة الثانية وقائدها الثانى وان قواته قد اسرتهما أثناء التحرك . واكتشف يوسف صديق لاول مرة انه قد بلغ ساعة الصفر خطأ وانه تحرك مبكرا ساعة عن الموعد المحدد وبلغه عبد الناصر بنبأ تسرب سر الحركة الى الملك وأعوانه وان حسين فريد فى مكتبه برئاسة الجيش فى اجتماع مع قادته لاتخاذ الاجراءات المضادة للحركة ـ وكان هذا اللقاء دليـــلا واضحا على تدخل القدرة الالهية لانقاذ حركة الجيش

من الفشل وتم الاتفاق بين عبد الناصر ويوسف صديق على أن يواصل الطابور تحركه الى مبنى رئاسة الجيش لاقتحامه واعتقال جميع القادة الموجودين فى مكتب الفريق حسين فريد .

ماذا فعل اللواء احمد طلعت حكمدار القاهرة ؟

ما كاد اللواء أحمد طلعت يصل اليه نبأ الحركة فى حوالى التاسعة مساء حتى أسرع الى مكتبه بالدور الثانى بديوان المحافظة القديم بباب الخلق وأرسل فى استدعاء ضباط البوليس السياسى الذين كانت مكاتبهم تقع فى الدور الاول من المبنى والذى كان يرأسهم اللواء محمد ابراهيم امام .. ولم يكن أحد منهم فى مكتبه سوى المقدم محمد الجزار والرائد حسين الريحانى اللذين أدركا من حالته مدى ما كان يعانيه من توتر عصبى واضطراب .. وكان الحكمدار تتصارع فى أعماقه عوامل متضاربة فهو يعلم مقدار ما سوف يناله من حظوة وشهرة لدى رؤسائه لو صدق البلاغ الخطير الذى وصله عن حركة ضباط الجيش المنتظرة ومن جانب آخر كان يخشى ما سوف يجره عليه مثل هذا البلاغ من نكبات اذا ما اثبتت الوقائع عدم صحته فان ما ينتظر من ابلاغه على الفور الى الملك وما سيتبع من اعلان حالة الطوارىء واستنفار قوات الجيش والبوليس وانشغال الملك ورئيس الوزراء وأعضاء الحكومة بهذا الامر ... كل ذلك سيزيد من سوء موقفه ويظهره بمظهر الطيش والخفة اذا لم يثبت صحة بلاغه مما قد يعرضه لفقد منصبه . واشرك احمد طلعت الضابطين الجزار والريحانى فيما كان يدور فى أعماقه

من خواطر بعثت فى نفسه الحيرة وسببت له القلق ولكن المقدم الجزار لم يلبث أن نصحه أن يتوكل على الله ويبلغ السلطات فليس أمامه خيار آخر ما دام يثق فى معلوماته تلك الثقة الكاملة .. واقتنع الحكمدار بهذه النصيحة فطلب من عامل التحويلة بقصر عابدين ايصاله على الفور بالعميد أحمد كامل رئيس بوليس القصور الملكية بقصر المنتزه بالاسكندرية وبعد فترة وجيزة كان احمد كامل معه على الخط .. ونقل الحكمدار الىأحمدكاملالنبأالمثير الذى تردد رئيس بوليس القصور الملكية فى تصديقه فى بادىء الامر حتى أكد له أحمد طلعت ثقته الكاملة فى مصادره مما دعاه الى الاقتناع أخيرا ووعده بأنه سيسرع بنقل هذه المعلومات الخطيرة الى الملك ووزيرى الداخلية والحربية وسيطلب من الوزيرين الاتصال به شخصيا .

ويتضح من مجرى الاحداث أن تسرب الانباء عن حركة الجيش المنتظرة الى السراى ــ رغم أن التسرب حدث من مصـــدرين مختلفين ــ الا أن توقيت ابلاغهما النبأ الى السلطات جاء فى وقت واحد تقريبا وهو حوالى التاسعة والنصف مساء وسار البلاغان فى خطين متوازيين أحدهما عن طريق الجيش وقد بدأه صالح محمود صالح بالابلاغ الى ضابط الحرس الملكى المنوب بقصر القبة وانتهى عند الياور النوبتجى بقصر المنتزه والثانى عن طريق البوليس وقد بدأه فؤاد كرارة بالابلاغ الى الحكمدار أحمد طلعت وانتهى عند العميد أحمد كامل رئيس بوليس القصور الملكية . ومن العجيب ان الخطين المتوازيين قد التقيا فى النهاية عند شخص واحد ولم يكن هذا الشخص هو رئيس الوزراء أو رئيس الديوان الملكى كما كان المفترض

بل كان هــو محمــد حسن السليماني شماشرجى الملك وأمينه الخاص وحلقة الاتصال الوحيدة به .

ولم يكن فاروق فى تلك الليلة يعانى من اية هموم او مشكلات بل على العكس كان منشرح الصدر بادى المرح فقد انتهت مراسم تشكيل وزارة نجيب الهلالى بادائها اليمين الدستورية أمامه فى قصر المنتزه منذ ســاعات قلائل وكان ينتظر على يديها عودة الهدوء والاستقرار الى البلاد وكانت الليلة موعدا لاقامة حفل ساهر بالبهو الكبير بالدور الثانى من قصر المنتزه ابتهاجا بتقلد زوج شقيقته اسماعيل شيرين منصب وزير الحربية فى وزارة الهلالى وكان قد ضغط على الهلالى ضغطا شديدا لقبوله بالوزارة كما راينا من قبل . وكان الحفل الساهر مقتصرا على أفراد الاسرة المالكة فحضرته الملكة ناريمان وشقيقتا الملك فوزية وفايزة وزوجاهما اسماعيل شيرين ومحمد على رءوف .

وعندما استمع محمــد حسن الى النبأ العجيب من الياور النوبتجى نقلا عن العقيد طيار صالح محمود صالح تردد فى بادىء الامر فى ابلاغ الملك خشية افساد الحفل الساهر الذى بذلت كل الجهود وأنفقت الاموال ليخرج فى أتم الروعة والبهاء علاوة على أن مصدر النبأ لم يكن موضع الثقة فربما يكون هذا الضابط الطيار قد جمح به الخيال ولذا طلب محمد حسن من الياور المنوب أن يتأكد من صحة النبأ ولكن بلاغ العميد أحمد كامل رئيس بوليس القصور الملكية نقــلا عن اللواء أحمــد طلعت حكمدار القاهرة لم يلبث ان قضى على كل تردد عند محمد حسن ففاجأ الملك واسرته بدخوله الحفل دون توقع أو انتظار

مما دل على حـدوث أمر خطير فسكتت الموسيقى عن العزف وكف الراقصون عن الرقص واستمع فاروق فى انزعاج الى النبأ المثير من خادمه الخاص ولكنه لم يلبث أن تمالك أعصـابه وهز كتفيـه وأطلق ضحكته المدوية المعروفة عنه قائلا :

ـ مش معقول الكلام ده .. الجيش فى جيبى ... على كل حال اتصلوا بحيدر وحسين فريد يشوفوا الحكاية ايه ويبلغونى .

وبدأت اتصالات أحمد كامل من مكتبه بقصر المنتزه بالاسكندرية تتركز على رجلين بالقاهرة انتقل اليهما كل محور الاهتمام والتركيز وهما اللواء أحمد طلعت حكمدار القاهرة والفريق حسين فريد رئيس هيئة أركان حرب الجيش ... وأخذ تليفون أحمد طلعت باعتبار المصدر الرئيسى للأنباء يرن فى مكتبه دون انقطاع وكان المتحدثون هم وزير الداخلية ووزير الحربية الذى انسحب فترة من الوقت من الحفل الساهر للاطمئنان على الموقف ثم الفريق حسين فريد من مكتبه برئاسة الجيش بكوبرى القبة .. وتحدث اليهم أحمد طلعت الواحد بعد الآخر ولاقى عنتا وارهاقا شديدين حتى حملهم على قبول تلك المعلومات العجيبة على علاتها اذ كيف يصدقون أن تجرى مثل تلك الامور فى مصر ومن ضباط ذلك الجيش المطبوع على ولائه لقـائده الاعلى ؟ ومع ذلك وفى نهـاية حديث وزير الداخلية والحربية اتفق على اعلان حالة الطوارىء بالجيش والبوليس فى وقت واحـد وقام مرتضى المراغى وزير الداخلية بابلاغ أحمد طلعت بتعليمات الحكومة التى كانت تقضى باعلان حالة الطوارىء وضرورة تواجد جميع

قوات البوليس فى مواقع عملها بأسرع وقت ممكن على أن يضع الحكمدار فرقة الامن المدرعة وهى القوة الضاربة الوحيدة لدى البوليس تحت قيادته المباشرة . كذلك نصت الاوامر على ضرورة دفاع رجال البوليس عن الاقسام والوحدات الخاصة بهم وعدم السماح للمتمردين من احتلالها أو الاقتراب منها وطلب وزير الداخلية من الحكمدار ضرورة تعاونه وجميع القوات التابعة له مع قوات البوليس الحربى وسلاح الحدود الموالين للملك فى احباط أية تحركات للمتمردين ـ كما أطلقوا على القوات القائمة بالحركة .

الفريق حسين فريد يساعد بتصرفاته على نجاح الحركة

لم يعلم الفريق حسين فريد بأى نبأ عن الحركة قبل الساعة التاسعة والنصف مساء وكان ذلك عن طريق العميد أحمد كامل رئيس بوليس القصور من الاسكندرية. واستقبل حسين فريد النبأ الخطير وهو بمنزله بمصر الجديدة ، وكان أول ما فعله هو الاتصال بمدير مكتبه العقيد عبد العزيز فتحى لارسال سيارته وليلتقى به فى مكتبه برئاسة الجيش . وبادر حسين فريد بالاتصال تليفونيا باللواء طلعت حكمدار العاصمة ليستفسر منه عن حقيقة ما وصله من أنباء تلك الحركة التى ينوى بعض ضباط الجيش القيام بها ولكن اللواء طلعت لم يشف غليله فان المعلومات لديه كانت قاصرة والتحركات والاهداف بالنسبة لنوايا الضباط غير محددة أو واضحة .

وارتدى حسين فريد ملابسه العسكرية بسرعة

وهرول الى مكتبه بكوبرى القبة حيث وجد مدير المكتب فى انتظاره ولم يكن فى مبنى رئاسة الجيش وقتئذ من الضباط غيرهما سوى المقدم نائب الاحكام حسن سرى من ادارة الجيش الذى أوقعه سوء طالعه ليكون الضابط العظيم المنوب برئاسة الجيش فى هذه الليلة فمكث بجوار مكتب الفريق حسين فريد منتظرا أية تعليمات تصدر اليه ليتولى تنفيذها .

وكانت امام الفريق حسين فريد ساعتان من الزمن على الاقل قبل أن يبدأ أى واحد من الضباط الاحرار فى التحرك بقواته من أى معسكر من معسكرات القاهرة فقد كانت الاغلبية العظمى من الضباط الاحرار لا يزالون فى بيوتهم ينتظرون حلول الوقت المناسب للتحـــرك الى المعسكرات كى يصلوا اليهـا وفقا للتعليمات فى حوالى منتصف الليل ليتم لهم أعداد قواتهم وتجهيزها كى يبدأ التحرك فى الواحدة صباحا طبقا للخطة . ولم يكن موجودا داخل المعسكرات فى هذه الساعة سوى الضباط الاحرار بسلاح الفرسان الذين كانوا مقيمين بثكناتهم لم يغادروها منذ يومين وكان حسين الشافعى وثروت عكاشة وخالد محيى الدين قد انضموا اليهم حوالى العاشرة مساء . كذلك كان داخل معسكر الفرقة الثانية الواسع الارجاء فى الهاكستيب المقدم يوسف صديق ومعه ١٢ ضابطا من ضباط مقدمة كتيبة مدافع الماكينة الاولى المشاة الذين كانوا قد وصلوا الى معسكر كتيبتهم قبل الثامنة مساء .

وكانت الفرصة سانحة أمام حسين فريد وكان الوقت لا يزال متسعا أمامه لاجهاض ضربة الضباط الاحرار قبل ان تبدأ وكان فى مقدرته اتخاذ عدة اجراءات سريعة وفعالة

لضمان سيطرته على الموقف فقد كان المفترض أن يتركز اهتمامه على أمرين أولهما سرعة السيطرة على الوحدات داخل المعسكرات وذلك يتأتى باعلان حالة الطوارىء فى الجيش واصدار التعليمات الفورية الى قادة الاسلحة والوحدات بالتوجه فورا الى قياداتهم للسيطرة على وحداتهم وثانيهما التحكم فى بوابات ومنافذ الدخول الى المعسكرات بتعزيز قوة البوليس الحربى التى تتولى حراستها واصدار الاوامر باعتقال جميع الضباط الذين يحاولون دخول المعسكرات بدون تصاريح معتمدة من قادتهم .. وكان الدفاع الفعال عن مبنى رئاسة الجيش الذى يقع فيه مكتب حسين فريد أمرا جوهريا كان ينبغى عليه سرعة اتخاذ التدابير اللازمة لتحقيقه وتعزيزه فليس من المعقول أن تصل اليه أنباء عن حركة تمرد داخل الجيش ثم يظل مبنى رئاسة الجيش الذى كان عليه مقاومة التمرد فى حراسة ستة من الجنود يتولى قيادتهم حكمدار برتبة عريف وليس فى حوزتهم سوى سبع بنادق مخصص لكل منها خمس طلقات ... وكانت الفرصة سانحة أمامه لطلب نجدة قوية من قائد اللواء السابع العميد رشدان محمد رشدان الذى يقع معسكره داخل العباسية بالقرب منه وكان فى امكانه ارسال سرية مشاة كاملة التسليح فى أقل من نصف ساعة لتتولى عملية الدفاع عن مبنى رئاسة الجيش .

لو قام الفريق حسين فريد بهذه الاجراءات أو بأية اجراءات مماثلة تتفق معها فى الهدف لتغير وجه التاريخ ولفشلت الحركة ولوقع معظم الضباط الاحرار فى الاسر فى أيدي البوليس الحربى عند البوابات والمنافذ الرئيسية للمعسكرات وهم وقتئذ فى اضعف احوالهم ..

متفرقين ومجردين من السلاح وبعيدين عن جنودهم .. ولم يكن يوسف صديق فى هذه الحالة سيواجه بقوته الصغيرة الضعيفة التسليح حرس القيادة المكون من سبعة جنود يحملون سبع بنادق ومعهم جميعا خمس وثلاثون طلقة بل كان سيواجه سرية مشاة كاملة التسليح مما كان سيعرض قوته الى خطر الابادة أو التسليم .. هذا اذا افترضنا انه كان فى امكانه التحرك أصلا بقوته من معسكر هاكستيب بعد اتخاذ مثل هذه الاجراءات التى ذكرناها . ولكن لحسن طالع الضباط الاحرار وحسن حظ مصر أن الفريق حسين فريد رغم ما كان يتميز به من روح الجد والانضباط وما يتحلى به من نبل فى الاخلاق الا انه كان يفتقد أهم صفات القيادة التى كانت تؤهله لمواجهة موقف خطير مثل ذلك الذى واجهه تلك الليلة وهى سعة الافق والسرعة فى التفكير واتخاذ القرار .. وكان ذلك عاملا فعالا أدى الى أن تسير حركة الجيش فى طريقها المرسوم وفقا للخطة دون أن تتخذ للتصدى لها أية اجراءات مضادة جدية أو فعالة .

لقد أعرض حسين فريد عن كل الحلول المنطقية التى كان فى مقدرته اتباعها للقضاء على الحركة التى كانت وقتئذ فى أضعف حالاتها وبدلا من تركيز جهوده فى السيطرة الفورية على المعسكرات عن طريق القادة واستنفارهم للجنود ليظلوا تحت سيطرتهم الفعلية مما كان يضيع الفرصة على الضباط الاحرار فى تحريك اية وحدات من المعسكرات خاصة وان ضباط الصف والجنود لم يكونوا على اتصال بتنظيم الضباط الاحرار ولم يكونوا على علم بحركة الجيش فى تلك الليلة ولم ينجح

الضباط الاحرار فى السيطرة الفعلية على جنودهم وكسبهم الى جانبهم الا بعد أن أيقظوهم من رقادهم عند منتصف الليل وتولوا تحريكهم عند حلول ساعة الصفر الى الاهداف المحددة بالخطة .. ولو كان القادة بتعليمات من الفريق حسين فريد قد نجحوا فى انتزاع السبق من الضباط الاحرار ووصلوا قبلهم الى المعسكرات لأمكنهم السيطرة بسهولة على وحداتهم بما لهم من حق القيادة ولكان من المستحيل قيام حركة الجيش . ولكن الفريق حسين فريد بدلا من ذلك راح ينفق جهده وجهود قادته المرءوسين فى تصرفات لا جدوى من ورائها بدد خلالها الوقت الثمين الذى كان فى متناول يده ومضى يلهث وراء خيالات وأوهام ، لقد أسرع حسين فريد بمجرد وصوله الى مكتبه بالاتصال بكبار قادة الجيش فعلا ولكن لا ليذهبوا على الفور الى مراكز قياداتهم حيث يسيطرون على وحداتهم كما كان المفترض ولكن لكى يسبقوه الى ميدان عابدين . وليس من الواضح حتى اليوم السبب الذى دعا الفريق حسين فريد الى تركيز اهتمامه على ميدان عابدين فقد يكون ذلك راجعا الى خطأ البلاغ الذى تلقاه من العميد أحمد كامل من الاسكندرية والذى ربما تضمن أن هدف الحركة هو الزحف الى ميدان عابدين وقد يكون ذلك عائدا الى تصور شخصى خاطىء من الفريق حسين فريد جعل فكره يتأثر بمظاهرة أحمد عرابى منذ سبعين عاما عندما زحف على رأس الجيش الى ميدان عابدين وأيا كانت الدوافع فقد كان تفكيرا خاطئا بلا شك اذ ما الذى يدعو الضباط الى التجمع فى ساحة قصر عابدين اذا كان القصر خاليا

والملك في الاسكندرية ؟ وفى طريقه الى عابدين مر حسين فريد على مبنى البوليس الحربى بميدان باب الحديد (رمسيس حاليا) وطلب من الضابط المنوب اعداد كل ما لديه من جنود واللحاق به على وجه السرعة الى ميدان عابدين . وفى مكتب النوبتجية بالطابق الارضى بقصرعابدين التقى حسين فريد بكبار قادة الجيش الذين سبقوه الى هناك وكان على رأسهم اللواءات على نجيب قائد قسم القاهرة والسيد عبد المجيد مدير الامدادات والتموين وتوفيق مجاهد والسيد طه مدير العمليات وعباس حلمى زغلول رئيس ادارة الجيش وكانت قوة البوليس الحربى المكونة من اربعين صف ضابط وجندى برشاشاتهم قد وصلت الى عابدين فأمر حسين فريد باطفاء أنوار الميدان وأمر قائد القوة باخفائها فى قشلاق الحرس الملكى المشاة المجاور لقصر عابدين (محافظة القاهرة حاليا) على أن تكون على اهبة الاستعداد للتدخل بمجرد وصول الضباط المتمردين . ويبدو أن ظن حسين فريد كان متجها الى ان بعض الضباط سوف يتحركون بسياراتهم فى مظاهرة الى ميدان عابدين لتقديم انذار الى الملك عن مطالب خاصة بالجيش ولم يتخيل قيام حركة انقلابية كاملة يشترك فيها الضباط على راس وحداتهم للاطاحة بالعهد كله .

واتجه تفكير حسين فريد الي اللواء محمد نجيب ليطمئن على وجوده بمنزله خشية أن يكون قادما اليه على رأس المظاهرة العسكرية التى كانت فى خياله فدعا اللواء على نجيب للسؤال تليفونيا عن شقيقه فى منزله وعندما تم الاتصال بمحمد نجيب التفت على نجيب الى حسين

فريد ليحدث محمد نجيب اذا شاء فلقد كان على نجيب يدرى الهدف الحقيقى من وراء سؤال حسين فريد عن شقيقه ولكن حسين فريد طلب منه انهاء المكالمة شاكرا ـ واراد ضابط الحرس الملكى المنوب بقصر عابدين أن يخطر رئيسه بالاسكندرية بكل ما يدور من وقائع فاتصل تليفونيا بالعميد أحمد كامل بقصر المنتزه وبلغه ان الفريق حسين فريد بالقصر الملكى وبرفقته قادة الجيش وان قوة من الشرطة العسكرية قد احتلت الميدان فطلب احمد كامل الاتصال بحسين فريد وسأله عن الحالة فأجابه فى ثقة واطمئنان : « الحالة عال وانا معى قوة وسأتحرك الى مكتبى برئاسة الجيش » .

وكان الفريق حسين فريد والقادة الذين برفقته قد امضوا فترة من الوقت وهم فى انتظار ذلك الصيد الثمين من الضباط المتمردين والذين نصب لهم رئيس هيئة اركان حرب الجيش شباكه القاتلة ورصد لهم رجال البوليس الحربى ليطبقوا عليهم بمجرد وصولهم الى ميدان عابدين تمهيدا لاعتقالهم والقائهم فى غياهب السجن الحربى رهن المحاكمة العسكرية وعندما طال الانتظار وضاع الوقت ادرك حسين فريد متأخرا أن فكرة المظاهرة العسكرية ليست واردة فى تخطيط الضباط المتمردين وانه اضاع الوقت الثمن هباء فطلب من القادة ان يسرعوا بالتوجه الى المعسكرات لتفقد الحال واخطاره بما يكتشفونه وبدأ على الفور اللواء على نجيب بصفته قائد قسم القاهرة القيام بجولة فى المعسكرات بدأها بمعسكر العباسية ثم دخل معسكر الفرسان بكوبرى القبة فوجد نشاطا غير عادى وصادف على نجيب الملازم أول توفيق عبده اسماعيل وكان عائدا بمفرده من ميس الضباط المعروف

باسم الميس الاخضر بعد أن أيقظ بعض زملائه من الضباط الاحرار لينضموا الى وحداتهم بعد أن أزفت ساعة التحرك . وسأل على نجيب الملازم أول توفيق عن سبب وجوده فأجابه بأن المقدم توفيق عابد أركان حرب قسم القاهرة أبلغه تليفونيا أن حالة الطوارىء قد أعلنت ـ

ويبدو ان اللواء على نجيب قد اطمأن بعد أن رأى بنفسه مدى استعداد وحدات سلاح الفرسان التى خال أنها نتجية لاعلان حالة الطوارىء ولم يدر بخلده حقيقة الامر ولذا انصرف مسرعا من سلاح الفرسان ومضى يتم جولته فى معسكرات المدفعية بألماظة حيث وقع فى الاسر ـ

وعاد حسين فريد الى مكتبه بعد أن أضاع فى رحلته الى قصر عابدين وفى اعداد البوليس الحربى ما لا يقل عن ساعة ونصف وكان قد جرى اتصاله بقيادة التشكيلات المقاتلة لسرعة التوجه الى قياداتهم ومنهم اللواء عبد الرحمن مكى قائد الفرقة الثانية واللواء حافظ بكرى قائد المدفعية والعميد حسن حشمت قائد اللواء المدرع والعميد رشدان محمد رشدان قائد اللواء السابع المشاة بمعسكر العباسية والعميد محمود حمزة قائد اللواء السادس بمعسكر الماظة . وبدأ هؤلاء يتصلون بوحداتهم لارسال عرباتهم اليهم وسرعان ما توجهوا الى قياداتهم قبيل منتصف الليل .

ولكن هذه الاتصالات المتأخرة لم تؤد الى أية نتائج لوقف الحركة فان العجلة كانت قد دارت فعلا كما قال عبد الناصر واصبح من المستحيل وقف دورانها .. ولعب حسين فريد دون أن يدرى دورا فعالا فى مساعدة حركة الجيش على النجاح فلقد أصدر تعليماته الى قادة الجيش ورجال البوليس الحربى بالتوجه جميعا الى ميدان عابدين

حيث احتجزهم هناك ما لا يقل عن ساعة . وهكذا أصدر رئيس هيئة اركان حرب الجيش تعليماته الى أولئك القادة والجنود الذين كانوا أخطر العناصر على الحـــركة بالابتعاد عن مسرح العمليات بالعبـاسية وكوبرى القبة والماظة فى افضل توقيت ممكن وأتاح للضباط الاحرار الفرصة للنفاذ من البوابات وهم فى أضعف وقت لهم ثم من الوصول الى وحداتهم بسلام دون أن يعترضهم أحد .

وعندما أدرك حسين فريد اليأس من وصول المظاهرة العسكرية التى بدد الوقت فى انتظارها فى ميدان عابدين وعاد مرة أخرى الى مكتبه برئاسة الجيش بكوبرى القبة بعد أن أصدر أوامره الى القـــــادة بالتوجه الى مراكز قياداتهم داخل المعسكرات والى قائد البوليس الحربى بسرعة سحب قواته من ميدان عابدين واحضارها على وجه السرعة الى ميدان العباسية كانت الامور قد تغيرت وكان الضباط الاحرار قد أتيحت لهم الفرصة للدخول الى المعسكرات والسيطرة على وحداتهم واصبحوا قـوة لا يمكن قهرها وبدلا من أن يقعوا فى الشباك التى خال حسين فريد انه قد أعدها لهم فى مهـــارة وحذق اذا بالقــــــادة الذين أرسلهم حسين فريد للسيطرة على المعسكرات هم الذين أخذوا يتساقطون بلا استثناء غنيمة سهلة فى أيدى الضباط الأحرار .

وانتظر حسين فريد بلا جدوى حضور القادة الذين أمر باستدعائهم لعقد مؤتمر عاجل فى مكتبه لمواجهة الموقف وشعر بوحدة أليمة ووحشة مفزعة وهو جالس وحده فى حجرته لا انيس له سوى العميد حمدى هيبة مدير كلية أركان الحرب الذى نجح وحده فى الوصول اليه بسبب حضوره الى رئاسة الجيش مبكرا والمقدم نائب

الاحكام حسن سرى الضابط العظيم المنوب برئاسة الجيش الذى هيأه القدر ليشارك الفريق حسين فريد مصيره فى تلك الليلة وحتى العقيد عبد العزيز فتحى مدير مكتب حسين فريد كان غائبا بالخارج اذ كان وقتئذ أسيرا فى أحد عنابر سلاح الفرسان .

وانتاب حسين فريد الشعور بأنه بات فى عزلة مربرة عما يجرى حوله من أحداث فقد كفت الاتصالات وخرس رنين التليفون وأحس بالخطر الذى أوشك ان يداهم المبنى الذى يضم مقر قيادته فقد يتعرض فى اية لحظة لهجمات أولئك الثوار الذين لا يدرى شيئا عن حقيقتهم وان كان يحس بوجودهم فى كل مكان حوله .. وخالجه الندم لأنه لم يحاول طلب النجدة فى الوقت المناسب لتحضير قوة كافية تتولى الدفاع عن مبنى الرئاسة الذى لم يكن يدافع عنه سوى سبعة جنود مسلحين بالبنادق لن يكون فى امكانهم الصمود سوى دقائق قليلة اذا تعرض المبنى لاى هجوم .

وكان المقدم حسن سرى الذى اوقعه سوء حظه ليكون الضابط العظيم المنوب لرئاسة الجيش فى تلك الليلة منهمكا فى غرفة مجاورة لمكتب حسين فريد فى اجراء بعض الاتصالات التليفونية لتدبير اية نجدات يمكن ارسالها للدفاع عن رئاسة الجيش .

وعاد بعد فترة من اتصالاته ليبث الاطمئنان فى نفس رئيسه فان ثلاث مجموعات مختلف من القوات فى طريقها الان الى رئاسة الجيش لتعزيز الدفاع عنها الاولى قوة البوليس الحربى التى كانت فى ميدان عابدين والتى صدرت لها الاوامر بالانتقال فى عرباتها على وجه السرعة

الى رئاسة الجيش . والثانية قوة من ادارة الاسلحة والمهمات تتكون من خمسين جنديا وبحوزة كل منهم مائة طلقة بقيادة الرائد الدسوقى ابراهيم الضابط المنوب بالادارة وابن شقيقة أم كلثوم وكان المقدم حسن سرى قد نجح فى الاتصال به وطلب منه حشد كل من عنده من الجنود لنجدة رئيس هيئة اركان حرب الجيش أما القوة الثالثة فقد كانت قوة من جنود السلاح الجوى على رأسها الضابط المنوب بمطار الماظة الحربى وقد صدرت له التعليمات تليفونيا من القيادة بالاسكندرية بحشد كل ما لديه من جنود فى المطار والتحرك بهم فى الحال الى مبنى رئاسة الجيش . وداعب الامل حسين فريد فى قرب زوال المحنة التى يواجهها وفى وصول قوات الانقاذ التى كان على يقين من انها فى الطريق اليه لتدافع عن مقر قيادته حتى لا يسقط فى أيدى الثوار .

ولكن الاقدار ابت أن تتيح الفرصة لأية قوة من هذه القوات للوصول الى مبنى رئاسة الجيش فقد أوقفت السيارات المدرعة على بوابة سلاح الفرسان قوة الشرطة العسكرية التى كان يقودها المقدم عبد الهادى ناصف وجردتها من سلاحها ووضعت افرادها أسرى فى أحد عنابر الفرسان ـ واحتجزت فصيلة مدافع الماكينة عند كوبرى السيوفى قوة الاسلحة والمهمات التى كان على رأسها الرائد الدسوقى ابراهيم ـ اما قوة السلاح الجوى فقد أوقفتها فصيلة مدافع الماكينة عند كوبرى القبة أمام المستشفى العسكرى .

ولم يكن حسين فريد يدرى أن القوات التى كان يترقب وصولها فى تلهف قد وقعت كلها أسرى فى أيدى

الثوار وعندما استمع الى وقع أقــدام الجنود وهدير السيارات المدرعة امام مقر قيادته ظن فى بادىء الامر أن قوة الانقاذ قد وصلت وان المحنة قد ولت ولكن الحقيقة المرة لم تلبث أن تكشفت واذا بالشيــاطين الاحرار يصلون اليه فى مقر قيادته وفى قلب مكتبه ويقتادونه أسيرا الى غرفة مظلمة بالكلية الحربية وانتهت المعركة ولم تستطع أية قوة انقــاذ الفريق حسين فريد من قــدره المرسوم ومصيره المحتوم .

تحركات الوحدات الثائرة ليلة ٢٣ يوليو

كيف سقطت رئاسة الجيش فى أيدى الثوار ؟

كان ضباط قوة مدافع الماكينة فى معسكر الهاكستيب (بالقرب من مطار القاهرة الدولى) قد تجمعوا منذ الساعة الثامنة مساء فى مقر كتيبتهم وكان مندوب قيادة التنظيم النقيب زغلول عبد الرحمن قد ابلغ قائدهم المقدم يوسف منصور صديق خطأ ان موعد التحرك هو منتصف الليل وليس الواحدة صباحا كما كان محددا بالخطة .

وقبل انتصاف الليل بنصف ساعة امر القائد بايقاظ الجنود من رقادهم وقسم قوته الصغيرة التى لم تكن تزيد عن ستين جنديا مسلحين بالبنادق الى ثلاث فصائل كل منها يتكون من عشرين جنديا ووزع الضباط على الفصائل وأمرهم بتجهيزها للتحرك فى الموعد وصرف مائة طلقة لكل جندى من مخزن الذخيرة .

ولم يحاول يوسف صديق اخفاء الموقف على ضباطه وجنوده قبل التحرك فجمعهم وخطب فيهم ليستثير حماستهم وعرفهم لاول مرة انهم سيتحركون للاشتراك فى عمل خطير لصالح الوطن وسيكون موضع فخر كل منهم فى المستقبل . وقبل التحرك بثوان علم يوسف بأن اللواء

عبد الرحمن مكى قائد الفرقة الثانية على وشك الوصول فان سيارته قد غادرت المعسكر منذ نصف ساعة بعد أن طلبهـــا من عامل التليفون مباشرة ... وأسرع يوسف بالتحرك خشية وصول قائد الفرقة حتى لا يفاجىء القوة وهى لا تزال فى المعسكر فتكون له اليد العليا والامر النافذ بما له من سلطات القيادة .

وتحرك طابور مدافع الماكينة من المعسكر وكان ذلك عند منتصف الليل وكان يوسف فى المقدمة بعربته الجيب ومعه ضابطان وتبعته ثلاثة لوارى تحمل الفصائل الثلاث مع ضباطهم وفى المؤخرة سارت عربة كان بها النقيبان زغلول عبد الرحمن وعبد المجيد شـــديد .. وما كادت مقدمة الطابور تجتاز بوابة المعسكر حتى شوهدت سيارة اللواء مكى قادمة بأقصى سرعة وما كاد يرى العربات أمامه حتى أخذ ينادى بصوته الجهورى « وقف عندك يا جدع انت وهوه » .. واعترض يوسف عربة اللواء مكى بعربته الجيب وفتح السائق عليها النور المبهر ونزل الضابطان المرافقان ليوسف وهما يصوبان سلاحهما نحو القـــائد الذى ما كاد يتبين شبح يوسف خلفهما وكان يعرفه جيدا حتى صاح بصوت امتزج فيه الخوف بالدهشة « مين .. يوسف !! » .. واستسلم قـــائد الفـــرقة بعد أن رأى الاسلحة مشهرة فى وجهه وكان طلبه الوحيد أن يؤمنوه على حياته فوعده يوسف بذلك ما دام يطيع الاوامر — وادخل يوسف عربة اللواء مكى ضمن عربات الطابور خلف عربته الجيب مباشرة بعد أن أصدر اوامره باطلاق النار عليها ان حاولت الخروج من خط السير وفات يوسف ان ينزع عن مقدمتها علم القيـــادة ثم استأنف سيره

وقبل دخول مصر الجديدة مباشرة التقى الطابور بقائد ثان الفرقة العميد عبد الرءوف عابدين فى سيارته وكان فى طريقه الى المعسكر فلما رأى القوة قـادمة نزل من سيارته وتوجه الى أول لورى وسـأل الضباط الذين كانوا يركبون بجوار السائق عن وجهتهم فأجابوه بأنهم طوارىء واشاروا له على سيارة اللواء التى كانت أمامهم وعندما وصل الى سـيارة اللواء مكى أدى له التحيـة وحاول الرجوع الى عربته ولكن قائد الفرقة سهل الامر ففتح باب عربته وأجلسه الى جانبه .

وعلى الرغم من نجاح القوة فى أسر القائدين مما كان له أثر بالغ فى رفع معنويات الضباط والجنود الا أن القلق والتوتر العصبى دبا بشدة الى نفس يوسف فلقد وصل الى مصر الجـديدة دون ان يلتقى بأية قوة من قـوات الاحرار التى قيل له انها ستضرب نطاقا من الحصار حول جميع المناطق العسكرية وانها ستمنع المرور كلية على الطرق الا لمن يحمل كلمة السر فكيف استطاع القائدان المرور والتقدم فى اتجاه المعسكر لولا تعرض قوته لهما واسرهما ؟ ثم لماذا يفكر القائدان فى الذهاب الى المعسكر فى هذا الوقت المتأخر من الليل ــ على غير العادة ــ الا يدل ذلك على حدوث أمر غير عادى ؟ ..

وأدى ما يعانيه يوسف من اضطراب الى اختيـاره طريقا خاطئـا للسير رغم معارضة سـائقه فقد أمره بالانحراف الى شارع السلطان حسين ولما ادرك خطأه بعد فترة عزم على تصحيح وضعه فى أول فرصة يتيحها له الطريق . ولم يكد الطابور يستقيم على الطريق الجديد حتى اكتشف يوسف ان القوة قد توقفت خلفه فنزل

من عربته ليرى سبب التوقف فوجد امامه مشهدا لم يكن يتوقعه وقد وصفه فى مذكراته فقال بالحرف الواحد :

« لم أكد أجتاز عربة الاسرى التى تتبعنى حتى رأيت امام اللورى الاول الذى يحمل رجالى جمهرة وسمعت غوغاء فلما أسرعت الى مكانها وجدت بعض ضباطى وجنودى يحيطون برجلين يرتديان ثيابا مدنية عبارة عن قمصان بيضاء وبنطلونات وتجرى بينهم مناقشة كلامية حامية فلما اقتربت لأتبين الوجوه فى الظلام رأيت عجبا كان الرجلان جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر » .

وخلص يوسف الرجلين وانتحى بهما جانبا حتى لا يكون الحديث فى دائرة الأسيرين وعلم يوسف من عبد الناصر أن أمر الحركة قد انكشف للملك فى الاسكندرية وانه تم الاتصال بالقيادة فى القاهرة وان هذه القيادة مجتمعة فى مقرها بمبنى الجيش لاتخاذ اجراءات مضادة عاجلة .

وقبل أن ننتقل لمتابعة مجرى الاحداث يجدر بنا ان نناقش ثلاثة اسئلة هامة تتعلق بهذا اللقاء الذى تم مصادفة بين يوسف صديق وقوته وبين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر اذ ان الاجابة على هذه الاسئلة ستوضح لنا الكثير من المسائل التى ما زالت يكتنفها الغموض حتى اليوم .

واول هذه الاسئلة هى هل كان عبد الناصروعبدالحكيم يرتديان الملابس المدنية حقا كما ذكر يوسف صديق ؟ .. لقد شاع هذا القول لدى البعض حتى غدا بمثابة حقيقة مؤكدة واتجهت بهم الظنون الى اتجاهات شتى فى تفسير وجودهما فى هذه الساعة الخطيرة من ساعات الحركة

وهما يرتديان ثيابا مدنية . . . ولكن لو ناقشنا هذا الامر مناقشة موضوعية لادركنا استحالة تصديق هذا الادعاء فان عبد الناصر وزميله كانا فى طريقهما الى الماظة لمحاولة الحصول من كمال الدين حسين على قوة من المدفعية يمكن تحريكها على وجه السرعة للانقضاض على القادة المجتمعين فى مكتب رئيس هيئة أركان حرب الجيش بمبنى الرئاسة بكوبرى القبة والقيام بأسرهم قبل أن ينجحوا فى اتخاذ الترتيبات المضادة للقضاء على الحركة.
فهل كان عبد الناصر وزميله يتصوران امكان السماح لهما بدخول منطقة الماظة المكتظة بمعسكرات الجيش والمليئة بنقاط وبوابات التفتيش التى يتولى أمرها رجال البوليس الحربى وهما يركبان عربة عبد الناصر الملاكى ويرتديان الملابس المدنية ؟ وكيف تيسر لهما ارتداء الثياب العسكرية فى الفترة الزمنية القصيرة التى لم تتجاوز نصف الساعة وهى الواقعة بين لقائهما بقوة يوسف صديق فى مصر الجديدة وبين لقائهما بمجموعة كبيرة من الضباط الاحرار عند بوابة مبنى رئاسة الجيش بكوبرى القبة بعد انتهاء عملية اقتحام المبنى وأثناء نزول حسين فريد من مكتبه فى طريقه الى المعتقل بالكلية الحربية . . لقد شاهدهما كل الضباط الموجودين وقتئذ على بوابة رئاسة الجيش ومنهم كاتب هذه السطور وكانا يرتديان الملابس العسكرية .

قد يزعم قائل انهما ربما قد تمكنوا من تبديل ثيابهما فى الفترة التى استغرقتها عملية اقتحام رئاسة الجيش خاصة وقد ثبت انهما كانا يقفان فى الارض الفضاء المجاورة لمبنى رئاسة الجيش وقتئذ (المقام عليها حاليا

مسجد عبد النـــاصر) وكانا يرقبـان سير العملية ولا يستبعد أن تكون ثيابهما العسكرية موجودة وقتئذ داخل سيارة عبد الناصر وأنهمـا ارتدياها خلال هـذه الفترة . ولكن هذا الزعم تدحضه شهادة ثلاثة من ضباط قوة مدافع الماكينة الذين اشتركوا مع يوسف صديق فى فى تلك الليلة والذين حضروا واقعـة لقاء عبد الناصر وعبد الحكيم بقوتهم فى مصر الجديدة وهؤلاء الضباط هم النقيبان زغلول عبد الرحمن وعبـد المجيـد شديد والملازم محمد متولى غنيم ، فقد شهدوا بأن عبد الناصر وعامر كانا يرتديان الملابس العسكرية ولا يمكن تجريح شهاداتهم فقد أدلوا بهـا بعـد وفاة عبد الناصر وعامر بسنوات عديدة . وقد ذكر الملازم ثان محمد متولى غنيم وهو الضابط الذى ألقى القبض على عبد الناصر عند اقترابه من طابور كتيبة مدافع الماكينة الاولى ليلة ٢٣ يوليو أن سبب القائه القبض عليه انما يعود الى رؤيته له مرتديا ملابسه العسكرية برتبة المقدم وكانت الاوامر الصادرة اليه من قائده يوسف صديق تقضى بالقبض على كل ضابط برتبة المقدم فما فوق لحين أن تتضح هويته ونظرا لعدم معرفته لجمال عبد الناصر من قبل فقد بادر بتنفيذ التعليمات والقى القبض عليه بينما طلب من الرائد الذى كان برفقته (عبد الحكيم عامر) الابتعاد عن طابور الكتيبة ــ واكد محمد متولي غنيم ان عبد الناصر لو كان يرتدى ملابس مدنية لما تعرف على رتبته ولما القى القبض عليه . وفى اعتقادى انه بعد هذه الشهادات التى لا يمكن أن يتطرق الشك الى صدقها وبعد ما أوردناه من أدلة

وأسانيد منطقية فانه ينبغي ان يكف أولئك الذين يرددون هذه الشائعة الظالمة عن ترديدها ، ومما يثير العجب ان يوسف صديق نفسه قد اعترف فى حديث له فى مجلة المصور فى العدد ٢٤٩٤ الصادر فى ٢٨ يوليو ١٩٧٢ ثم فى العدد ٢٦٥٠ الصادر فى ٢٥ يوليو ٧٥ بأن عبد الناصر وعامر حينما التقيا بقوته ليلة ٢٣/٢٢ يوليو كانا يرتديان الملابس العسكرية .

والسؤال الثانى الذى يثير التساؤل هو من صاحب فكرة تقدم يوسف صديق بقوته لاقتحام مبنى رئاسة الجيش ؟ ان التناقض قد يبدو واضحا اذا ما عقدنا مقارنة بين ما أورده يوسف صديق فى مذكراته وبين ما ردده عبد الناصر فى خطبه فكل منهما قال انه صاحب الفكرة والحقيقة ان الاثنين صادقان فيما ذكراه فان عبد الناصر كما رأينا كان فى طريقه الى الماظة لمحاولة الحصول على قوة توجه لاقتحام مبنى رئاسة الجيش بكوبرى القبة لاعتقال القادة المجتمعين وفى الوقت نفسه كان يوسف صديق متجها على رأس قوته الى كوبرى القبة لتعزيز سرية الكتيبة ١٣ التى عهد اليها اقتحام مبنى رئاسة الجيش والاستيلاء عليه اى ان هدفه المكلف به وفقا للخطة هو مبنى رئاسة الجيش ولذا كان امرا طبيعيا أن يلتقى تفكير عبد الناصر مع يوسف فى الاسراع باقتحام مبنى رئاسة الجيش .

أما السؤال الثالث فهو متى علم يوسف انه تحرك مبكرا عن موعده بمقدار ساعة ؟ هل من المعقول بعد أن وصف لنا يوسف صديق فى مذكراته قلقه البالغ بسبب عدم التقاء قوته بأية قوة من قوات الحصار الذى كان مفروضا أن يتم حول المناطق العسكرية الى الحد الذى

جعله يشك في قيام الحركة أصلاً وكانت أمنيته أن يلتقى بعبد الناصر بالطبع ليزيح عن فكره هذا الغموض الذى يكتنفه من كل جانب ثم عندما هيأت له الظروف لقاء عبد الناصر مصادفة اليس المفترض أن يكون سؤاله الاول له أن يفسر له هذا السر الذى شغل باله طويلا ؟ لقد ذكر عبد الناصر انه أخطره فى هذا اللقاء بأن الوحدات لم تتأخر وانما هو الذى تحرك مبكرا عن الموعد وهذا القول يتمشى تماما مع العقل والمنطق ولذا فاننا فى دهشة لما أورده يوسف صديق فى مذكراته من انه لم يعلم بأنه قد تحرك مبكرا عن موعده الا عقب انتهاء عملية اقتحام مبنى رئاسة الجيش وكان ذلك أثناء جلوسه للراحة مع احد زملائه على درج القيادة الحجرى عندما أوضح له هذا الزميل سر ما حدث .

نعود بعد ذلك الى متابعة الاحداث . . لقد عدل يوسف صديق خطته بالاتفاق مع عبد الناصر وبدلا من أن تكون قوته قوة احتياطية لسرية الكتيبة ١٣ فقد أصبحت منذ هذه اللحظة هى القوة الاساسية المكلفة بواجب اقتحام مبنى رئاسة الجيش واعتقال الفريق حسين فريد وكل من معه من القادة . وأعد يوسف صديق فى خلال طريقه الى كوبرى القبة الذى لم يستغرق سوى بضع دقائق خطته للهجوم على مبنى القيادة ولم تكد قوة مدافع الماكينة تصل بعرباتها الى منطقة الكوبرى الذى يواجه المستشفى العسكرى العام حتى فوجئت بوجود تروب من السيارات المدرعة فى مواجهتها ــ وخشى يوسف فى بادىء الامر ان يكون ما اعترضه هو قوة معادية وكاد يحدث اشتباك بين القوتين لولا أن تدارك قائد التروب المدرع الملازم أول فاروق الانصارى الموقف وذكر كلمة السر « نصر » واتضح

ان سلاح الفرسان خصص هذه القوة لمعاونة المشاة فى اقتحام مبنى رئاسة **الجيش** .

وكانت الخطة التى أعدها يوسف للاقتحام ـ كما ورد فى مذكراته ـ تتميز بالبساطة فقد عين الفصيلة الثالثة لقطع الطريق عند الكوبرى أمام مستشفى الجيش لمنع تدخل أية قوات من ناحية مصر الجديدة كما عين الفصيلة الاولى لقطع الطريق عند كوبرى السيوفى لمنع تدخل أية قوات من ناحية العباسية . وقرر يوسف مهاجمة مبنى رئاسة الجيش على رأس الفصيلة الثانية ولم يكن لديه بعد ذلك أية قوة أخرى ليحتفظ بها كاحتياط كما هو المفترض فى مثل هذه العمليات . ووفقا لمذكرات يوسف صديق وطبقا لكل ما نشر من روايات عن عملية اقتحام الرئاسة طوال الثلاثين عاما الماضية نجد أن الجميع قد اتفقوا على ان يوسف صديق على رأس فصيلة مدافع الماكينة المكونة من عشرين جنديا اقتحم باب مبنى الرئاسة واجرى عملية تفتيش الطابق الارضى ثم صعد على رأس عشرة جنود الى الطابق الثانى واقتحم مكتب الفريق حسين فريد حيث ألقى القبض عليه هو وثلاثة من الضباط .

وبالتحقيق الدقيق فى هذه الواقعة وبعد الاستماع الى أقوال الشهود الذين اشتركوا فيها اتضح ان تروب السيارات المدرعة بقيادة الملازم أول فاروق الانصارى هو الذى اقتحم بوابة رئاسة الجيش وتمكن من تجريد حرس البوابة من سلاحهم وكان الحرس يتكون من ستة جنود والحكمدار وقد ظلت بنادق الحراس محفوظة فى سلاح الفرسان لمدة اربعة أيام حتى أعيدت لأصحابها .

وبعد ان انفتحت البوابة على مصراعيها تقدم يوسف

صديق على رأس الفصيلة الثانية وقام بتفتيش الطابق الارضي ووضع بعض جنوده فى الاماكن الحساسة وكانت القوة الباقية تحت قيادته بعد ذلك اقل من عشرة جنود وعندما بدأ يتهيأ لصعود الطابق الثانى وكان برفقته الرائد حسن الدسوقي وصلت فى هذه اللحظة عربات السرية الرابعة من الكتيبة ١٣ بقيادة النقيب عمر محمود على وكانت أولى الفصائل التى دخلت من البوابة هى فصيلة الملازم أحمد فؤاد عبد الحى الذى لحق بالمقدم يوسف صديق على السلم المؤدى الى الطابق الثانى وعندما رأى يوسف صديق الملازم فؤاد عبد الحى قال له : « ده حسين فريد فوق حطلع أجيبه تعالى معايا » وباضافة فصيلة فؤاد عبد الحى الى قوة يوسف أصبح يملك قوة كافية لاستئناف العمل وعلى سلم الدور العلوى اعترض صعود القوة رقيب حاول منعها من الصعود وأصر على انهم لن يمروا الا على جثته فاضطر يوسف صديق الى اطلاق رصاصة على قدمه حتى يفسح الطريق .

ولما وصل يوسف الى باب مكتب الفريق حسين فريد وجده موصدا وأحس بمقاومة وراءه فأطلق بعض الجنود نيران بنادقهم على الباب بدون اوامر وتبين أن المقاومة كانت بسبب كرسي وضع خلف الباب .. وبعد اطلاق النار فتح الباب واضيئت الحجرة وذكر يوسف صديق انه وجد حسين فريد ومعه ثلاثة من الضباط مختبئين خلف برافان ويلوحون بمناديل بيضاء علامة على التسليم بينما ذكر فؤاد عبدالحى انه شاهد الفريق حسين فريد جالسا على مكتبه والضباط واقفين حوله وأيا كان الامر فان الثابت انه كان بالمكتب الفريق حسين فريد والعميد

حمدى هيبة مدير كلية أركان الحرب والمقدم حسن سرى ضـابط عظيم منوب رئاسة الجيش وضـابط آخر لم نستطع الاهتداء الى اسمه .. واختتم يوسف صديق مذكراته عن واقعة اقتحام مبنى رئاسة الجيش قائلا : « وقمت ومعى الأخ حسن الدسوقى لنجلس فى مكتب القيادة ولم تمض دقائق حتى حضر حارس من رجال الشرطة العسكرية ليخبرنى بوجود ضابطين على الباب يريداننى وكان أحدهما هو المقدم عبد الناصر والثانى هو الرائد عبد الحكيم عامر وكانا فى هـذه المدة يرتديان الملابس العسكرية » .

ومما يؤسف له من الناحية التاريخية أن يكون ختام مذكرات يوسف صديق هذه الواقعة التى تخالف الحقيقة تماما فان المجموعة الكبيرة من الضباط الاحرار ومن بينهم بعض أعضاء لجنة القيادة الذين كانوا جميعا موجودين أمام بوابة مبنى الرئاسة بعد انتهاء عملية اقتحامها شهدوا بأنفسهم الفـريق حسين فريد وزملاءه وهم يهبطون درج رئاسة الجيش وقد سار خلفهم يوسف صديق وبعض الجنود شاهرين السلاح وعندما وصل امامهم أدوا له التحية العسكرية وكان من بينهم جمال عبد النـاصر وعبد الحكيم عامر ــ وبمجرد أن غادر حسين فريد المبنى انطلق الضباط الاحرار الموجودون يصعدون وثبـا على السلم حتى وصلوا الطابق الثانى ودخلوا غرفة حسين فريد ثم لحق بهم بعد ذلك يوسف صديق بعد أن سلم الاسرى الى عبد المجيد شديد ونظرا لان ما رويته هو حقيقة تاريخية ثابتة وليست موضع شك أو اختلاف وقد شاهدت تفاصيلها بنفسى فكيف يمكن اذن تصديق رواية يوسف صديق ؟

وربما كانت أكثر الروايات غرابة وبعدا عن الحقيقة هي الرواية التى ذكرها أنور السادات عن معركة رئاسة الجيش والتى وردت فى كتابه « قصة الثورة كاملة » فى الصفحات ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ :

« لم يقل لى عبد الحكيم فى تلك اللحظة انه هو الذى قاد معركة رئاسة الجيش وانه هو الذى احتلها بجنوده او هو الذى قاد الجنود ثم تقدمهم واقتحم بهم المبنى وهو يحمل طبنجته تماما مثلما فعل ذات يوم فى فلسطين انه فى يوم نيتساليم (بفلسطين) بمسدسه وعساكره خلفه وفى يوم رئاسة الجيش بمسدسه وعساكره من خلفه وانطلقت رصاصات جنود عبد الحكيم عامر حول مبنى رئاسة الجيش وسقطت القلعة المنيعة فى ثوان وبقوادها . لقد وفر لنا كشف المخابرات لخطتنا وقتا طيبا كما وفر علينا جهودا ضخمة فى نفس الوقت ـ بعد ان علم جمال باجتماع قواد الوحدات لمواجهة الثورة واخمادها قرر القبض على هؤلاء القادة فى مبنى رئاستهم وبهذا يوفر التنظيم جهودا ضخمة فى الرجال والوقت كانت ستبذل للقبض على هؤلاء القواد فى منازلهم كل على حدة . لقد اصطاد جمال عصافير عديدة بحجر واحد اما الحجر فكان عبارة عن مجموعة من الجنود فوجىء جمال بهم ليلة الثورة وهم يتقدمون تحت رئاسة ضابطهم النقيب محمد شديد نحو مراكز تجمع قوات الضباط الاحرار ـ ويعرف جمال ان النقيب شديد جاء بتلك القوة التى تعمل تحت رئاسته من تلقاء نفسه وبلا أوامر من أحد عندما علم بأنباء الثورة فقرر أن يشترك بجنوده فى المعركة قبل موعد بدئها بساعة .

واتخذ القرار في الحال بعد وصول قوة الضابط شديد

بأن تتوجه نفس القوة برئاسة عبد الحكيم عامر وتحتل مبنى رئاسة الجيش ثم تلقى القبض على القـــــادة أثناء اجتماعهم العاجل ــ وفعــلا قام عبد الحكيم عامر وهو يشهر مسدسه وتقدم الجنود ثم اقتحم بهم مبنى الرئاسة وانتصر التنظيم فى المعركة الاولى وهى كانت اول معركة حاسمة تكسبها الثورة » ولا يحتاج الامر الى عناء كبير لاثبات مدى بعد هذه الرواية عن الحقيقة اذ يكفى اغفالها لاسم يوسف منصور صديق وطمس معــالم دوره طمسا تاما رغم ما يعلمه الجميع من انه قائد العملية بل وبطلها دون منازع . والذى يستلفت النظر هو اقحام اسم عبد الحكيم عامر فى هذه العملية اقحاما لا شك ان عبد الحكيم عامر قد خجل منــه اذ نسبت اليه بطـولة لا يستحقها اذ كيف يرضى أن يكتب عنه انه هو الذى قاد المعركة وهو يحمل مسدسه على راس جنوده واقتحم مبنى الرئاسة والقى القبض على حسين فريد والقادة الذين معه فى الوقت الذى كان فيه عبد الحكيم عامر اول من يعلم انه لم يشترك فى هذه المعركة اطلاقا لانه كان واقفا مع عبد الناصر يراقبان الموقف من موقع مجاور لمبنى رئاسة الجيش كما ان عبد الحكيم لم يكن يحمل مسدسا فى تلك الليلة فقد كان مسدسه فى مخزن السلاح برئاسة الفرقة الاولى برفح التى كان يعمل بها وكان فى القاهرة وقتئذ فى أجازة ميدان .

اما ما قرأناه عن تلك المجموعة المجهولة من الجنود التى كان يقودها النقيب محمد شديد والتى فوجىء جمال بوصولها الى مراكز تجمع الاحرار والتى احضرها قائدها من تلقاء نفسه وبلا اوامر من أحد عندما علم بنبأ الثورة فقرر ان يشترك بجنوده فى المعركة قبل بدئها بســاعة فهذه عبارة بعيدة للأسف عن الحقــائق التاريخية فان

الضابط المقصود فى العبارة اسمه النقيب عبد المجيد شديد محمد رضوان وليس محمد شديد ولم يحضر هذا الضابط من تلقاء نفسه وبلا أوامر بل جاء ضمن طابور قوة مدافع الماكينة من هاكستيب بأمر من قائده يوسف صديق وكان هدف القوة التقدم الى مبنى رئاسة الجيش وليس الى مراكز تجمع الاحرار لانه لم يكن فى الخطة ذكر لأية مراكز بهذه الصفة .

كيف ادت الكتيبة ١٣ دورها التاريخى ؟

قبل أن ينتصف الليل بقليل وصل المقـــدم زكريا محيى الدين الى ميس الكتيبة ١٣ بمعســــكر دودج بالعباسية حيث كان ضباط الـكتيبة الاحرار ينتظرون حلول موعد التحرك وكان معهم العقيد أحمد شوقى قائد الكتيبة والرائد جمال حماد أركان حرب سلاح المشاة الذى كان موفدا من القيادة لمرافقة الكتيبة خلال عملياتها فى تلك الليلة . وحذر زكريا الضباط من أن بعض قادة الجيش يتجولون فى المعسكرات كما حمل اليهم نبأ افعم قلوبهم بالسرور وهــو أسر العميد حسن حشمت قائد اللواء المدرع على أيدى رجاله .. وكان المقدم زكريا قد توجه من قبل الى ثكنات سلاح الفرسان ليستحث تروب السيارات المدرعة الذى تقــرر الحاقه على الكتيبة على سرعة الحضور الى معسكرها . وما كاد الليل ينتصف حتى هب ضباط الكتيبة ١٣ الى عنابر جنودهم حيث ايقظوهم من رقادهم وأمروهم بتجهيز انفسهم استعدادا للتحرك نظرا لاعلان حالة الطوارىء . وبعد قليل وصلت

الذخائر محملة فى سيارات النقل التابعة لسلاح خدمة الجيش وكذا عربات نقل الجند لنقل سرايا الكتيبة بقيادة الرائد حمزة البسيونى .

وقبيل ساعة الصفر اصطفت سرايا الكتيبة فى الساحة الفضاء التى تتوسط المعسكر والقى العقيد أحمد شوقى خطابا حماسيا على الضباط والجنود أعلنهم فيه انهم سيقومون فى تلك الليلة بعمل عظيم من أجل مصر . وفى الساعة الواحدة تماما تحركت السرية الرابعة المكلفة بواجب احتلال مبنى رئاسة الجيش فى ثلاث عربات نقل جند يتقدمها قائدها النقيب عمر محمود على فى حمالة مدرعة واتبعت الطريق الخلفى لمعسكر العباسية الذى قادها الى الشارع المجاور للمستشفى العسكرى وعند الكوبرى المواجه للمستشفى التقى قائد السرية بالرائد عبد الحكيم عامر الذى أمره بسرعة التوجه الى مبنى رئاسة الجيش والاشتراك فى عملية اقتحامه مع قوة مدافع الماكينة وطلب منه اخطاره بمجرد نجاح العملية واتمام الاستيلاء على المبنى .

وأسرع النقيب عمر بسياراته حتى وصل الى بوابة مبنى الرئاسة فنزل الجنود من عرباتهم وانطلق الملازم فؤاد عبد الحى بفصيلته يصعد الدرج الكبير الذى يواجه البوابة حيث التقى بالمقدم يوسف صديق عند أول السلم الذى يوصل الى الطابق الثانى واشترك معه على راس فصيلته فى عملية صعود السلم واقتحام مكتب الفريق حسين فريد كما ذكرنا من قبل .

اما باقى السرية فقد تولى النقيب عمر عملية توزيعها على مبنى القيادة لتتولى الحراسة فى الاماكن الهامة وتمكن

من اتمام الاستيلاء على المبنى بأكمله بعد قليل .

وفى نفس الوقت الذى بدأ فيه تحرك السرية الرابعة من المعسكر تحركت سرية أخرى بعرباتها لاداء الواجب الذى خصص لها وهو احتلال البوابة الرئيسية لمعسكر العباسية والبوابة الفرعية المجاورة لكلية البوليس . وراى المقدم زكريا محيى الدين ضرورة تحرك قيادة الكتيبة للتأكد من تنفيذ القوات للواجبات المخصصة لها فى الخطة فركب العقيد احمد شوقى عربة جيب تولى قيادتها وجلس بجواره المقدم زكريا بينما جلس فى المقعد الخلفى الرائد جمال حماد يحمل مدفعا رشاشا كان قد استلمه قبل التحرك من مخزن سلاح الكتيبة ١٣ ولم يوافق أمين المخزن على تسليمه له الا بعد أن وقع له ايصالا بالاستلام ـ وقد تركت القوة الباقية من الكتيبة فى المعسكر تحت قيادة الرائد صلاح نصر اركان حرب الكتيبة نيشرف على باقى التحركات فى مواعيدها . ومرت لحظات رهيبة والعربة تشق طريقها فى شوارع معسكر العباسية التى غمرها الصمت وفجأة شق السكون دوى بعض الطلقات فأطفأ أحمد شوقى أنوار العربة ولم يلبث ان هز أرجاء المعسكر صوت البروجى وهو يضرب نوبة الكبسة من مكان مجهول بالمعسكر تلك النوبة التى تعنى أن خطرا داهما يواجه القوات وان على جميع الضباط والجنود أن يستيقظوا لدفعه وان يهرعوا الى اسلحتهم .

وانتشر نبأ خطير سبب القلق لكل الضباط الاحرار الذين كانوا وقتئذ فى معسكر العباسية عندما بدأوا يبحثون عن سر ضرب نوبة الكبسة ـ لقد استطاع العميد

رشدان محمد رشدان قائد اللواء السابع المشاة ان يصل الى مقر قيادته وسط معسكر العباسية وبدأ على الفور فى استدعاء ضباطه استعدادا لتحريك اللواء وفقــــا لتعليمات الفريق حسين فريد للقضاء على حركة التمرد .
ووصلت السـيارة الجيب بعـد قليل الى بوابة معسكر العباسية من ناحية كلية البوليس فساد الاطمئنان لنجاح الفصيلة المشـــاة المعينة من الكتيبة فى احتلالها واتجه احمد شوقى بعد ذلك بالعـــربة الى البوابة الرئيسية للمعسكر ولشد ما كانت دهشة راكبى السيارة عنـدما وجدوا رجال البوليس الحربى ما زالوا يحتلونها بقـوة كبيرة اى ان قوة الكتيبة ١٣ التى أرسلت لاحتلالها لم تصل اليها بعد .

ومرت بالضباط الثلاثة لحظات رهيبة فقد خشوا اذا هم عادوا بالعربة أن يثيروا شكوك رجال البوليس الحربى فيتعرضوا لاطلاق النار عليهم كما قدروا اذا هم تابعوا السير فسوف يتعـرضون حتما لالقاء القبض عليهم .
وتمهل أحمد شوقى على مقربة من البوابة واذا بالمقـدم حسن عبد الوهاب قائد البوليس الحربى يتقدم نحــو العربة مبتعدا قليلا عن رجاله وأسرع زكريا فى اقتناص الفرصة التى سنحت أمامه عندما رأى حسن عبد الوهاب زميله ودفعته بالكلية الحربية فصاح بلهجة أخوية مليئة بالحفاوة والترحيب « اهلا يا حسن .. انا زكريا .. تعالى اركب معانا » وتأثر حسن بدعوة زميله الحارة وسرعان ما وجد نفسه بحركة لا شعورية واقفا على سلم العربة التى انطلق بها أحمد شوقى يسابق الريح ومرت السيارة بنطاق البوليس الحربى دون أن يعترضها أحد

بعد أن رأوا قائدهم بنفسه واقفا على سلمها .. وكان قائد البوليس الحربى لا يكف طوال تحرك السيارة عن الصياح « يا اخوانا بس فهمونى ايه الموضوع » ولكن العربة استمرت فى سيرها دون توقف حتى وصلت الى قرب بوابة سلاح الفرسان .. ونزل حسن عبد الوهاب ليفاجأ بركاب السيارة وليذهله مشهد الدبابات والسيارات المدرعة التى كانت منتشرة بجوار البوابة ـ ولما استفسر منه زكريا عن سر وجوده فى هذه الساعة عند مدخل معسكر العباسية أجاب فى اضطراب انه علم من الفريق حسين فريد ان هناك دوشة من بعض الضباط الصغار ولكنه لم يطرأ على باله انها بكل هذه القوة والتنظيم وانه بناء على الاوامر الصادرة اليه أرسل قوات كبيرة من البوليس الحربى الى سراى عابدين التى كانوا يتوقعون أن تحرك المتمردين سيكون اليها ولما أحسوا أخيرا ان الحركة ستكون قريبا من رئاسة الجيش بكوبرى القبة أصدروا الامر لقواته بالتوجه من عابدين الى مدخل معسكر العباسية حيث كان واقفا هناك فى انتظار وصول القوة . وعندما أبدى حسن عبد الوهاب استعداده للتعاون مع الاحرار قال له زكريا ان خير معاونة يسديها للحركة هو أن يسرع بالاتصال بقواته فى سراى عابدين ويصدر لها الامر بالبقاء فى مكانها .

ويبدو ان قائد البوليس الحربى أصابته الحيرة بشأن الموقف الذى يتخذه والجانب الذى ينضم اليه فاستقر رأيه على أن أحسن الحلول هو أن يتوجه الى بيته ويبتعد عن جميع هذه المشاكل ـ ولو كان حسن قد أطاع نصيحة زكريا وأمر قواته بالبقاء فى عابدين لجنب هذه القوة

ما حاق بها بعد ذلك حينما تقدمت بقيــــادة المقــدم عبد الهادى ناصف فى اتجاه رئاسة الجيش حيث أوقفتها قوة من السيارات المدرعة بالقرب من بوابة سلاح الفرسان وجردوا أفرادها من أسلحتهم واحتجزوهم أسرى فى أحد عنابر الفرسان .

ولم يغب عن بال زكريا محيى الدين أمر اللواء السابع الذى كان قائده يعده للقضاء على الحركة ولا توجد قوة كافية من المشاة لصده فطلب من ثروت عكاشة تخصيص وحدة من السيارات المدرعة لهذا الفرض على أن تكون جاهزة فى مدى نصف ساعة للتحرك فوعد ثروت عكاشة باعدادها فى الموعد .

واستمرت السيارة الجيب فى طريقها الى مبنى رئاسة الجيش حتى وصلت الى البوابة الرئيسية للمبنى ونزل الضباط الثلاثة حيث التقوا بمجموعة كبيرة من الضباط الاحرار ومنهم عبد الناصر وعبد الحكيم عامر والبغدادى وحسن ابراهيم وبعض ضباط قوة مدافع الماكينة ولم يكادوا يصافحون زملاءهم حتى شاهدوا الفريق حسين فريد رئيس هيئة أركان حرب الجيش يهبط سلم المبنى الرئيسى فى خطوات ثابتة وبجواره العميد حمدى هيبه مدير كلية أركان الحرب والمقدم نائب أحكام حسن سرى الضــابط العظيم المنوب لرئاسة الجيش فى تلك الليلة وخلفهم بقليل كان يسير المقــدم يوسف صديق وبعض الجنود شاهرين السلاح وعندما وصل الفــريق حسين فريد ورفاقه الى الباب الخارجى اصطف جميع الضباط الاحرار الموجــودين وأدوا له التحية العسكرية فى آخر لحظة من رئاسته والتفت الفريق حسين فريد الى الضباط

وقال لهم فى هدوء وهو يرد لهم التحية العسكرية « طيب أنا متشكر قوى » .. وتسلم النقيب عبد المجيد شديد الاسرى الثلاثة حيث توجه بهم الى الكلية الحربية التى غدت منذ تلك الليلة معتقلا لقادة الجيش ضمانا لعدم تدخلهم لعرقلة الحركة .

ولم يكد يغيب هذا الموكب الفذ عن أنظار الضباط الاحرار حتى اتجهوا الى داخل المبنى يصعدون الدرج وثبا الى الطابق الثاني حيث مكتب الفريق حسين فريد .. ودخل الضباط المكتب الذى لم تسعدهم الظروف من قبل برؤيته واخذوا يتأملون الصورة الضخمة للملك فاروق المعلقة فوق المكتب بينما ثبتت تحتها لوحة زجاجية تحمل شعار الجيش المعروف وقتئذ « الله . الملك . الوطن » وفى وسط هذا الجو الملىء بالاثارة والحماسة طلب عبد الناصر من جمال حماد الاتصال باللواء محمد نجيب على الفور لاخطاره بنجاح المرحلة الاولى واتمام احتلال رئاسة الجيش كما طلب منه التوجه الى منزله بحلمية الزيتون لاحضاره الى مبنى القيادة العامة .

وبادر جمال حماد بالاتصال بمحمد نجيب من التليفون المباشر الموجود بمكتب الفريق حسين فريد ولم يستغرق رنين الجرس سوى ثوان فقط فقد رد اللواء نجيب فى الحال وكأنه كان يترقب المكالمة وعندما علم نجيب باسم محدثه بدا الاطمئنان فى نبراته وسرعان ما غمره السرور حينما أنبأه بنجاح المرحلة الاولى من الخطة وانه يحدثه من مكتب حسين فريد وعندما أنبأه بأنه سيرسل اليه ثلاث عربات مدرعة لاحضاره الى مبنى رئاسة الجيش أجاب بأنه لا داعى لذلك وانه سوف يحضر بعربته الاوبل الصغيرة .

وفي الوقت الذي سقطت فيه رئاسة الجيش في ايدي الثوار تحركت من معسكر الكتيبة ١٣ بالعباسية . القوة المكلفة باحتلال دار الاذاعة بقيادة النقيب جمال القاضي وكانت تتكون من فصيلة مشاة من الكتيبة بقيادة الملازم مصطفى ابو القاسم وتروب سيارات مدرعة من سلاح الفرسان بقيادة الملازم أول احمد المصري .

وفي منتصف الثالثة صباحا وصلت القوة الى دار الاذاعة بشارع الشريفين فوجدت في حراستها قوة من رجال الشرطة ولم يلبث قائدهم العقيد السيد عارف ان سأل جمال القاضي عن سبب حضور قوة الجيش فأجابه بأنها حالة طوارىء وطلب منه سحب الشرطة الموجودة في الحراسة فأجابه انه ليس لديه اوامر بسحبها فقال له القاضي « الافضل أن تسحبها منعا للاحتكاك » وعندما صعد النقيب القاضي الى الادوار العليا من المبنى اسرع خلفه العقيد عارف وقال له : « متفهمني ايه الحكاية وازاي اسحب قواتي بدون أوامر من رؤسائي » » فرد عليه النقيب القاضي : « بكره مفيش حد حيحاسبك » فأبدى العقيد عارف دهشته قائلا : « ازاي يعني انا مش فاهم » فقال له القاضي : « افهمها زي ما تفهمها » .

وتمكن جمال القاضي بعد فترة قصيرة من اتمام احتلال مكاتب الاذاعة وانتقل بعد ذلك الى الاستوديوهات بشارع علوي ووضع الحراسة اللازمة عليها وضرب بجزء من قوات المشاة والسيارات المدرعة نطاقا من الحصار حول مبنى الادارة والاستديوهات لمنع وصول أحد من الخارج اليها . واضطر العقيد عارف الى تجميع قوة الشرطة التي كانت تقوم بالحراسة وبعد الاتصال برؤسائه سحب قواته وغادر المنطقة .

كيف تمت السيطرة على اللواء السابع ؟

ما كاد اللواء محمد نجيب يصل بعربته الاوبل الى مبنى رئاسة الجيش حتى قابله جميع الضباط الاحرار الموجودين فى القيادة بحماس شديد وجلس على مكتب رئيس هيئة أركان حرب الجيش يمارس دوره فى قيادة الحركة والتفت حوله مجموعة من الضباط الاحرار من مختلف الاسلحة .

وكانت أنباء تجميع اللواء السابع المشــاة بمعسكر العباسية بواسطة قائده العميـــد رشدان استعدادا للانقضاض على الحركة لا تزال تثير كثيرا من القلق والاضطراب بين الضباط الموجودين وقتئذ والذين كانوا يقدرون خطورة هذه العملية على الحركة اذ لم تكن توجد قوات كافية من المشاة لصده . ووقع اختيار المقدم زكريا محيي الدين الذى كان يتولى فى هــذه الليلة مسئولية ادارة عمليات الحركة بأكملها على الرائد جمال حمــاد للتوجه فى الحال على رأس وحدة من السيارات المدرعة الى معسكر اللواء السابع وكلفه بمهمة اعتقال قائد اللواء والســـيطرة على وحدات اللواء وضمه الى صفوف الحركة . وكان سر اختيار زكريا للرائد جمال حمــاد هو انه كان وقتئذ اركان حرب سلاح المشاة ولديه القــدرة على التعامل مع ضباط هذا اللواء بحكم طبيعة عمله معهم ولانه كان الضابط المسئول عن عقد فرق التاهيل للترقى ولدخول كلية أركان الحرب لضباط المشاة مما جعل له معرفة وثيقة بمعظم ضــباط المشاة علاوة على انه كان عضــوا منتخبا عن سلاح المشاة فى مجلس ادارة نادى الضباط الذى صدر القرار بحله يوم ١٦ يوليو ٥٢ واوصى

اللواء محمد نجيب الرائد حماد قبل خروجه بضرورة تجنب اراقة الدماء بقدر الامكان وايضاح الموقف لضباط اللواء السابع حتى لا يغرر بهم قائدهم العميد رشدان وتمنى له فى مهمته التوفيق . وعند بوابة سلاح الفرسان وجد جمال حماد وحدة السيارات المدرعة التى وعد ثروت عكاشة باعدادها للتحرك وعلى رأسها قائدها النقيب صبرى القاضى وركب أول سيارة مدرعة منها وانطلق فى المقدمة تتبعه خمس سيارات مدرعة يشق الطريق الى معسكر العباسية .

وعندما وصل جمال حماد الى الساحة الفسيحة التى تتوسط معسكر اللواء السابع وزع السيارات المدرعة الست على طول الطريق الموازى لساحة المعسكر بفواصل منتظمة وأوقف السيارات بحيث تكون مقدمتها ومدافعها الرشاشة مواجهة للساحة التى تتوسط ثكنات كتائب اللواء الثلاث ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ — واكتشف جمال حماد ان مجموعة من ضباط اللواء متجمعة فى الساحة مما اوضح له أن العميد رشدان قائدهم استدعاهم من بيوتهم وقد سهل له هذه المهمة ان عددا كبيرا منهم كانوا يقطنون فى مساكن الضباط فى المنطقة المخصصة لهم داخل معسكر العباسية . وكف ضباط اللواء عن النقاش الذى كان محتدما بينهم بصوت مرتفع بعد أن شاهدوا السيارات المدرعة وهى تحاصرهم على الطريق الموازى لمعسكرهم ورشاشاتها مصوبة فى اتجاههم ويبدو ان هذا المنظر أثار ثائرة أقدمهم رتبة وهو المقدم نظيم ابراهيم فاقترب من السيارات المدرعة وهو يلوح بيده وقد بدرت منه بعض العبارات التهديدية . وكانت الخطة التى رسمها جمال حماد فى ذهنه أن يستخدم الكياسة فى التعامل مع

ضباط اللواء مع الظهور فى نفس الوقت بمظهر القوة وباشارة متفق عليها نزل النقيب صبرى القاضى قائد السيارات المدرعة مع رقيبين مسلحين من جنوده حيث تولوا القبض على المقدم نظيم وعادوا به أسيرا الى احدى السيارات المدرعة وهو يصيح بصوت عال طالبا اطلاق سراحه متوعدا الضابط الذى أسره بأشد العقوبات . وأسرع جمال حماد بدخول الساحة حيث تجمع حوله الضباط على الفور واكتشف ان معظم الموجودين من زملاء سلاحه وأصدقائه الذين تربطه بهم صلات وثيقة فسألهم عن قائدهم العميد رشدان فأجابوه انه قد ذهب منذ فترة الى ادارة قسم القاهرة ولم يعد بعد فأدرك انه لابد قد وقع أسيرا فى يد القوة المكلفة باحتلال مبنى قسم القاهرة . وبادر الضباط بسؤاله عن الموقف اذ ان العميد رشدان قد ابلغهم عقب استدعائهم الى المعسكر بأن حالة الطوارىء قد أعلنت بسبب قيام أفراد من الاخوان المسلمين بعمل فتنة واضطرابات داخل الجيش وأمرهم رشدان بتجهيز جنودهم على وجه السرعة استعدادا للتحرك وانه ذاهب الى قائد قسم القاهرة لتلقى التعليمات منه .

وكان عدد كبير من ضباط الصف والجنود قد تجمعوا بأسلحتهم فى مجموعات فى الساحة الفسيحة التى كان الضباط يقفون فى ركن منها بينما وقفت مجموعات اخرى امام العنابر بالادوار العليا يطلون على الساحة بدورهم . ووجد جمال حماد الفرصة سانحة امامه لمخاطبة ضباط وجنود اللواء مباشرة وايضاح الموقف لهم بطريقة تجعلهم على يقين من ان الحركة قد نجحت وان الامور قد استقرت حتى لايكون هناك مجال لاحد للتردد فى

الانضمام للحركة . وانتقل جمال حماد الى وسط الساحة ورفع يده اشارة الى أنه سيوجه كلمة للجميع فسكتت الاصوات وألقى فى الجمع المحتشد كلمة حماسية أوضح لهم فيها ان الجيش قد قام بالثورة ضد الاوضاع الفاسدة فى البلاد بقيادة اللواء محمد نجيب مدير المشاة وان رئاسة الجيش قد سقطت وجميع قوات الجيش انضمت الى الثورة وجميع قادة الجيش قد تم اعتقالهم وأكد لهم ان الحركة خاصة بالجيش ولا علاقة لها بأى حزب أو هيئة وان غرضها الاساسى هو تحرير مصر من الظلم والاستعمار . واشتد الحماس بالضباط والجنود بعد هذه الكلمة وأسرع البروجية يضربون نوبة جمع واندفع بعض جنود المشاة يعانقون جنود السيارات المدرعة الذين نزلوا من سياراتهم لمبادلتهم مشاعرهم وكان منظرا تاريخيا فذا . وأبدى المقدم نظيم تجاوبا كاملا واعتذر عن تصرفه فى بادىء الامر الذى عزاه لعدم ادراكه وقتئذ حقيقة الموقف فأطلق سراحه وانضم لزملائه ضباط اللواء ولم تمض فترة قصيرة حتى كانت كتائب اللواء الثلاث مصطفة بأسلحتها فى الساحة التى تتوسط ثكنات الكتائب . وأمر جمال حماد أقدم الضباط بفتح مخزن الذخيرة لتوزيعها على الجنود ولما اعتذر لعدم وجود المخزنجى الذى يحتفظ بالمفاتيح أمره بكسر باب المخزن والاشراف على توزيع الذخيرة بواقع مائة طلقة لكل جندى ـ وكانت مفاجأة سارة غير متوقعة عندما لمح جمال حماد طابورا طويلا من عربات نقل الجند التابعة لسلاح خدمة الجيش واقفة فى الانتظار على يمين

الطريق بالقرب من معسكر العباسية فوجه الطابور مباشرة الى معسكر اللواء السابع .. وبعد ان عهد جمال حماد الى أقدم ضابط فى كل كتيبة بتولى قيادتها بادر بالاتصال تليفونيا باللواء محمد نجيب في مكتبه برئاسة الجيش فأبدى تهنئته وابتهاجه عندما علم بانضمام وحدات اللواء السابع الى الحركة وأمسك المقدم زكريا محيى الدين بسماعة التليفون وبدا الاهتمام فى نبرات صوته وهو يستعلم عن حقيقة موقف اللواء ـ واوضح له جمال حماد ان كتائب اللواء الثلاث ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ مصطفة فى ساحة اللواء وان الجنود مزودون بأسلحتهم وذخيرتهم كما ان الحملة اللازمة لتحركهم قد امكن تدبيرها مما يجعل الوحدات جاهزة للتحرك بمجرد صدور الامر اليها .

واصدر زكريا محيى الدين تعليماته بارسال سرية مشاة على وجه السرعة الى دار الاذاعة لتعزيز فصيلة الكتيبة ١٣ التى قامت باحتلالها ـ واوضح زكريا ان وحدات اللواء السابع قد اصبحت منذ هذه اللحظة الاحتياطى العام للحركة وان على وحدات اللواء البقاء بجوار العربات انتظارا لأية تعليمات تصلهم للتحرك الى أية جهة .

احتلال رئاسة سلاح الحدود

فى معسكر الكتيبة ١٣ بالعباسية تحركت عند أول ضوء يوم ٢٣ يوليو آخر سرية مشاة بالكتيبة وسرية المعاونة تحت قيادة الرائد صلاح سعده وفى معاونته تروب من الدبابات الشيرمان وكان الهدف هو احتلال مبنى رئاسة سلاح الحدود بكوبرى القبة ـ وكانت

العملية مؤجلة حتى اول ضوء كى يمكن اشتراك الدبابات التى لم يكن فى قدرتها وقتئذ العمل فى الظـــلام لعــدم تزويدها بأجهزة الرؤية الليلية ، وكان الفرض من اشتراك الدبابات هو احباط اية نية للمقاومة عند جنود الحدود فقد كان مدير الحدود وقتئذ هو اللواء حسين سرى عامر عميل السراى وخصم الضــباط الاحرار اللدود . ونجح الرائد صلاح سعده بفضل لباقته مع جنود الحدود فى الاستيلاء على المبنى بدون مقاومة ووجد هناك اللواء عازر جرجس قائد ثانى سلاح الحدود فاعتقله وأرسله تحت الحراسة الى المعتقل بالكلية الحربية .

القوات المدرعة فى ليلة الثورة

فى حوالى منتصف الليل كانت وحدات سلاح الفرسان متاهبة للتحرك لتنفيذ واجباتها طبقا للخطة وكانت كتيبة دبابات من السلاح معينة فى خدمة الطوارىء فى تلك الليلة وفوجىء الملازم اول توفيق عبده اسماعيل بمرور اللواء على نجيب قائد قسم القاهرة داخل السلاح ولما ساله عن سبب وجوده رد عليه بانه طوارىء . ولا يمكن ان نعرف حقيقة ما كان يدور فى ذهن على نجيب فى تلك اللحظــات بعـد أن شهد بعينيه مظـــاهر الجلبة والاستعداد داخل سلاح الفرسان فقــد خرج ليواصل مروره على الوحدات .

وونع الحادث الثانى فى سلاح الفرسان عندما اراد العميد حسن حشمت قائد اللواء المدرع الدخول من بوابة السلاح فقد تصدى له الملازم ابراهيم العرابى المسئول

وقتئذ عن حراسة بوابة المعسكر وكان حسن حشمت يتمتع بشخصية جبارة فى سلاح الفرسان وكان الجميع يخشونه الى الحد الذى لم يجعل اى ضابط من السلاح يجرؤ على منافسته لتمثيل سلاح الفرسان فى انتخابات مجلس ادارة نادى الضباط مما جعله يفوز بالتزكية ـ ولذا كان موقفا مثيرا أن يتصدى ملازم ثان حديث الخدمة للعميد حسن حشمت ويمنعه من دخول سلاحه ... وبمجرد ان علم حسين الشافعى وثروت عكاشة بالموقف أسرعا بسيارة جيب الى البوابة لشد أزر الضابط الصغير وما كاد حسن حشمت يرى حسين الشافعى حتى صاح فيه قائلا : « حتى انت كمان يا حسين حتودوا البلد فى داهية » وتم اعتقال حسن حشمت واركباه معهما فى السيارة الجيب ووضعاه بغرفة تحت الحراسة فى تكنات اورطة السيارات المدرعة التى كان يقودها وقتئذ حسين الشافعى ومن المفارقات أن ثروت عكاشة اكتشف بعد عودته ان الرشاش الخفيف الذى كان يشهره على حسن حشمت كان بدون خزنة . ولا شك ان عملية اسر العميد حسن حشمت كان لها تأثير بالغ على احكام السيطرة على وحدات الفرسان وفى رفع الروح المعنوية للضباط فلو قدر له الدخول والتخاطب مع الجنود لأحدث بلبلة كبرى .

وعندما حلت ساعة الصفر اشرف حسين الشافعى وثروت عكاشة على تحرك وحدات السيارات المدرعة وفقا للواجبات المكلفة بها فى الخطة بينما بدأ الرائد خالد محيى الدين فى التحرك على رأس الكتيبة الميكانيكية

التى تولى قيادتها بمعـــاونة النقيب وجيه رشدى وهى عبارة عن قوات من المشاة تحملهـا عربات نصف جنزير وكانت مهمة الكتيبة تنحصر فى سد جميع الطرق المؤدية الى منطقة المعسـكرات ومنع مرور أى أفراد سواء من ناحية العباسية او كوبرى القبة أو مصر الجديدة . وقسم خالد قواته الى ثلاثة أقسام رابط أولها على مقربة من سينما روكسى عند المنحنى المواجه لمحطة البنزين لسد المنافذ بين منطقة مصر الجديدة ومنطقة الجيش ورابط القسم الثـانى عنـد المستشفى العسـكرى لسد منافذ كوبرى القبة بينما رابط القسم الثالث عند ادارة التجنيد القديمة (المدينة الجامعية بعين شمس حاليا) لسد المنفذ بين العباسية ومنطقة المعسكرات .

رجال المدفعية فى كل مكان

قبل منتصف الليل توجه الرائد كمال الدين حسين ومعه بعض ضباط المدفعية الاحرار فى عربة جيب الى مدرسة المدفعية التى كان قد سيطر عليهـا النقباء على فوزى يونس ومبارك رفاعى وأحمد كامل والملازم محمد المكاوى وأخرج ضباط المدفعية المضادة للطائرات مدافع البوفرز على طريق السويس حيث منعوا المرور الا لمن يعرف كلمـة السر . بينما عاد أحمـد كامل ومصطفى عبد المحسن ورجاله الى أول طريق الماظة حيث احتلوا نقطة البوليس الحربى وقطعوا أسلاك التليفون وأغلقوا طريق السويس تماما .

وفى نفس الوقت احتل النقيب فؤاد صالح بقوته موقعا عند الكيلو ٥ر٤ على طريق السويس بجوار معسكر الحدود كان يستعد قائده ليحرك قواته للقيام بحركة مضادة للثورة فبادر فؤاد صالح بقطع أسلاك التليفون الموصلة للمعسكر وانذر قائده باطلاق النيران اذا ما بدرت منه أية بادرة للتحرك .

وتمكن المقدم مصطفى راغب مع ضباطه الاحرار من السيطرة على مركز تدريب المدفعية وأثناء وجود كمال الدين حسين داخل المركز وصل اللواء على نجيب قائد قسم القاهرة الذى كلفه الفريق حسين فريد بالمرور على الوحدات وبرفقته المقدم يوسف العجرودى أركان حرب القسم (الحاكم الاداری العام لقطاع غزة فيما بعد) واحدث وصول على نجيب نوعا من الارتباك بين الضباط الاصاغر الموجودين ولكن سرعان ما وصل كمال الدين حسين فشهر مسدسه على اللواء على نجيب قائلا « باسم اللواء محمد نجيب انت معتقل » وهنا ارتسمت على وجه على نجيب امارات الغضب وصاح « أنتم عاوزين تودوا البلد فى داهية ؟ منتوش عارفين ان الانجليز على طريق السويس عاوزين ترجعوا أيام عرابى ؟ » .

ودارت مناقشة طويلة استمرت نحو عشرين دقيقة بين على نجيب وضباط المدفعية الموجودين جرى فيها النقاش عما هو متوقع من الملك والانجليز من عمل مضاد للقضاء على الحركة وأثناء هذه المناقشة الطريفة وصل المقدم عبد المنعم امين واشترك فى الحوار الدائر بين الضباط وقائد قسم القاهرة واراد عبد المنعم امين انهاء هذا

الموقف بسرعة فطلب من على نجيب أن يصحبه كى يقابل قائد الحركة شقيقه اللواء محمد نجيب فركب معهم السيارة حيث قادوه الى أحد المكاتب هو وأركان حربه وعندما أحس أنهم سيضعونه فى الاعتقال وانه لن يقابل محمد نجيب صاح بهم ثائرا « أهم حاجة فى الضابط كلمة الشرف بتاعته » ورد عليه المقدم عبد المنعم أمين قائلا : « الحرب خدعة يا سيادة اللواء » .

وعند تقاطع رئيسى للطرق بالقرب من مصر الجديدة كانت تسيطر عليه وقتئذ وحدة مضادة للدبابات بقيادة النقيب خالد فوزى وقع الصيد الثمين الثانى وكان قائد المدفعية اللواء حافظ بكرى وبرفقته المقدم عبد الفتاح كاظم أركان حربه حيث تولى كمال الدين حسين ورجاله عملية القبض عليهما وتجريدهما من سلاحهما بعد أن أبدى حافظ بكرى تعجبه من اشتراك كمال الدين حسين فى هذا التمرد ضد قيادته واقتيد الاسرى الى نفس المكتب الذى كان بداخله على نجيب والعجرودى وفى نفس المنطقة ايضا تم القبض على العقيد طيار محمد فرج وبعض ضباط الجيش والطيران حتى تحولت المكاتب الى شبه معتقل . وتولى النقيب مصطفى كامل مراد مهمة حراسة القادة المعتقلين وتولى ترحيلهم تحت الحراسة الى معتقل الكلية الحربية . وفى ساعة الصفر خرجت وحدات مدفعية الفرقة المدرعة للاشتراك فى فرض نطاق الحصار حول المنطقة العسكرية بألماظة وكانت تتكون من وحدات النقباء جمال نظيم وحمدى محمود وعزت عبد الغنى وربيع عبد الغنى وصلاح عبده .. وفى منطقة هاكستيب صادفت وحدات المدفعية المضادة للدبابات بعض المتاعب

عندما حرك ضابط عظيم المحطة الرائد المعتز بالله الكامل قوات البوليس الحربى لاحتلال كشك التفتيش عند بوابة معسكر هاكستيب الرئيسية لمنع خروج أية وحدة من المعسكر بناء على تعليمات من الفريق حسين فريد ولكن مجموعة المدفعية التى تحركت تحت قيادة النقباء فتح الله رفعت ومحسن عبد الخالق وعيسى سراج الدين وعلى الشريف وعبد الستار أمين أمكنهم اعتقال الرائد المعتز بالله وعندما وصلوا الى كشك البوليس الحربى عند بوابة المعسكر أطلقوا نيران بعض الرشاشات فى الهواء واقتحموا البوابة المغلقة بجرار احد المدافع فحطموها وانطلقوا بقوتهم على طريقى جسر السويس وشارع سليم الاول ، واشتركوا فى نطاق الحصار المضروب فى ميدان روكسى وكوبرى القبة وميدان العباسية الذى وضعت فيه وحدة مدفعية مضادة للدبابات بقيادة الملازم يوسف زين الذى أمكنه بفضل التهديد بالضرب ايقاف مجموعة من رجال البوليس الحربى فى عرباتها وكانت فى طريقها من العباسية الى كوبرى القبة لتعزيز الحراسة على مبنى رئاسة الجيش . وبعد منتصف الليل اتصل من الاسكندرية الفريق محمد حيدر القائد العام للقوات المسلحة وطلب الاتصال باللواء حافظ بكرى قائد المدفعية ورد عليه النقيب ابو الفضل الجيزاوى منتحلا شخصية حافظ بكرى ودار بينهما الحديث التالى :

حيدر : ايه الموقف عندكم يا حافظ بيقولوا فيه دوشه وفيه ضباط عاملين ثورة .

الجيزاوى : ابدا يا معالى الباشا انا جيت هنا والموقف

كويس فى الماظة وحنعلن حالة الطوارىء ممكن معاليك تطمئن .

حيدر : انا متشكر على الهمة دى يا حافظ وحبلغ مولانا وخليك على اتصال بنا .

وهنا قال المقدم عبد الفتاح كاظم الذى كان يستمع الى الحديث مع القادة المعتقلين « ايه اللى انت بتعمله ده » وقال الجيزاوى لقائد المدفعية معتذرا : « انا متأسف انى استغل شخصيتك لكن تعلمنا هذه الحيل من اليهود عام ٤٨ فقد كان اليهود يأسرون بعض عساكر الاشارة ويطلبون منهم ارسال اشارات لاسلكية بالانسحاب » ولم يجب حافظ بكرى وارتسم الهم على وجهه بينما انفرجت اسارير على نجيب وقال للجيزاوى « هات لنا يا ابنى شاى وقهوة وكازوزة » .

وفى الساعة الواحدة صباحا اتصل الفريق حيدر مرة ثانية طالبا الافادة عن الموقف واجابه الجيزاوى محتفظا بشخصية حافظ بكرى :

ـ الموقف مطمئن وقادة الوحدات والضباط وصلوا .

وقال حيدر : انا سامع انه فيه دوشة عند القيادة .

وأبلغه الجيزاوى ان هذه المعلومات عنده وانه سيرسل قوة لضرب هذا التجمع فشكره وأبلغه انه سيداوم الاتصال ولم تمض ساعة حتى عاود حيدر الاتصال وقال له الجيزاوى انه ارسل قوات الى العباسية وان الموقف مسيطر عليه فى الماظة والعباسية وان هناك بعض الضباط متجمعون امام القيادة وسيجرى اعتقالهم .

وفى الرابعة صباحا تلقى الجيزاوى من حيدر مكالمة

رابعة وكان فى حالة نفسية سيئة ولما سأله عن الموقف وأجابه الجيزاوى بأن الموقف عال صاح غاضبا :

ـ عال ايه دول بيقولوا خدوا كوبرى القبة انت لازم مش حافظ بكرى .

ـ أبدا معالى الباشا أنا حافظ بكرى .

ـ طيب ادينى علامة .

ـ علامة ايه يا معالى الباشا .

ـ ادينى علامة بخصوص العيد .

ـ بعد العيد ما ينفتلش كعك .

وقال حيدر غاضبا وهو يقفل التليفون بشدة « مش عيب يابنى كده » . ولكن كان كل شىء قد انتهى .

أين كان أعضاء لجنة القيادة ليلة ٢٣ يوليو؟

لم يشترك من اعضاء لجنة القيادة فى الخطة الفعلية للتحركات سوى كمال الدين حسين الذى تحرك مع وحدات سلاح المدفعية واشرف بنفسه على تنفيذ وحداتها للخطة وكذا خالد محيى الدين الذى تولى قيادة الكتيبة الميكانيكية التابعة لسلاح الفرسان واشترك بقوته ضمن نطاق الحصار الممتد من ميدان روكسى الى العباسية .

ولم يكن لعبد الناصر وعبد الحكيم عامر دور معين فى الخطة لعدم ارتباطهما بوحدات فى خطة التحرك فقد كان عبد الناصر مدرسا بكلية أركان الحرب وكان عبد الحكيم عامر من رئاسة الفرقة الاولى برفح وكان موجودا فى القاهرة فى أجازة ميدان . ولكن عبد الناصر توجه الى منزل عبد الحكيم بالعباسية بعد الحادية عشرة والنصف مساء على اثر علمه بانكشاف الحركة واجتماع حسين فريد بالقادة فى مكتبه بمبنى رئاسة الجيش بكوبرى القبة وخرج الاثنان كما ذكرنا من قبل بعربة عبد الناصر وهما يهدفان الى احضار قوة من الجنود للانقضاض على القادة واعتقالهم اثناء تجمعهم فى مكتب حسين فريد . وعندما فشلا فى دخول معسكر

العباسية لوجود قوة من البوليس الحربى عند بوابته الرئيسية انطلقا شمالا فى اتجاه ألماظة لمحاولة الحصول على قوة من المدفعية من كمال الدين حسين ولكنهما التقيا صدفة بقوة مدافع الماكينة التى كان يقودها يوسف صديق وتم تعديل الخطة على الفور والاستفادة من تحرك يوسف بقوته مبكرا ساعة عن الموعد المحدد كى يقوم فى الحال باقتحام مبنى رئاسة الجيش واعتقال القادة الموجودين بمكتب حسين فريد .

وفى الوقت الذى قام فيه يوسف صديق على راس قوته بمعاونة تروب من السيارات المدرعة بعملية اقتحام مبنى رئاسة الجيش كان عبد الناصر وعبد الحكيم عامر يرقبان العملية وهما يقفان قرب الكوبرى المجاور للأرض الفضاء المقام عليها حاليا مسجد عبد الناصر — وقد كان لوقفتهما فى هذا المكان دون الاشتراك فى عملية اقتحام رئاسة الجيش مجال لتوجيه النقد اليهما لتقاعسهما عن الاشتراك فى المعركة .

وعلى الرغم مما فى هذا النقد من وجاهة الا أنه ثبت أن وجودهما خارج العملية قد حقق فوائد عديدة فهو الذى أتاح الفرصة للنقيب عمر محمود قائد السرية الرابعة من الكتيبة ١٣ لسرعة الاندفاع الى مبنى رئاسة الجيش بعرباته بمجرد وصوله الى الكوبرى قادما من الطريق المجاور للمستشفى العسكرى عندما تصدت لايقافه فصيلة مدافع الماكينة التى وضعها يوسف صديق لسد الطريق على القادمين من مصر الجديدة الى كوبرى القبة فقد كان لتدخل عبد الحكيم عامر بين القوتين الفضل فى عدم حدوث اشتباك بينهما وفى سرعة وصول سرية

الكتيبة ١٣ الى مبنى رئاسة الجيش فى الوقت المناسب مما أتاح الفرصة لفصيلة منها بقيادة الملازم فؤاد عبد الحى فى الاشتراك مع يوسف صديق وقوته فى الصعود الى الطابق الثانى وأسر الفريق حسن فريد والذين كانوا معه بالمكتب .

وبمجرد أن تم الاستيلاء على مبنى رئاسة الجيش صعد جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر الى مكتب الفريق حسين فريد وأرسل عبد الناصر فى استدعاء اللواء محمد نجيب قائد الحركة وعندما وصل وجلس على مكتب الفريق حسين فريد جلس حوله عبد الناصر وعامر ومجموعة من الضباط الاحرار واخذوا فى التشاور بخصوص الخطوات القادمة واشتركوا فى جميع الاتصالات التليفونية التى كانت تدور بين الحكومة فى الاسكندرية وقيادة الحركة فى القاهرة والتى انتهت بتكليف على ماهر بتشكيل الحكومة الجديدة . وعلى الرغم من أن عبد اللطيف البغدادى وحسن ابراهيم ذكرا أن الخطة كانت تقضى بوصولهما الى مبنى القيادة العسكرية بكوبرى القبة فى ساعة الصفر للالتقاء بعبد الناصر وعبد الحكيم عامر للاشتراك فى عملية اقتحام مبنى القيادة العسكرية والاستيلاء عليه بمساعدة احدى وحدات الجيش الا أنهما أوضحا بأن انكشاف الخطة وتبكير يوسف صديق فى عملية اقتحام القيادة غير ما كان مقررا من قبل ولذا لم يتمكنا من الاشتراك فى العملية وفقا لما كان مرسوما فى الخطة .

والأمر الذى جرى فعلا انهما حضرا بعد الواحدة صباحا بسيارة البغدادى الخاصة بعد أن مرا على بيوت بعض زملائهما الطيارين لاخطارهم بموعد الحركة ولكى

يقوموا بتأمين المطارات فى الصباح ـ وعندما وصلا الى مبنى رئاسة الجيش وقعا فى أسر بعض الجنود الذين كانوا يتولون حراسة المبنى وعندما استمعا الى صوت عبد الحكيم أخذا يصيحان باسمه حتى حضر اليهما وأطلق سراحهما وانضما بعد ذلك الى عبد الناصر وعبد الحكيم وباقى زملائهما الذين كانوا فى رئاسة الجيش .. أما جمال سالم وصلاح سالم فقد كان الاثنان بعيدين فى تلك الليلة عن مسرح الاحداث اذ كان جمال فى العريش بينما كان صلاح فى رفح وكان موكولا اليهما مهمة السيطرة على قوات رفح والعريش بمجرد وصول اشارة النجاح .

وحوالى الثانية صباحا وصل أنور السادات الى مبنى رئاسة الجيش بعد أن تعثر طويلا بين نطاقات الحصار فى العباسية وكوبرى القبة وأخيرا استطاع الوصول الى الكوبرى الذى يواجه المستشفى العسكرى وكاد يفشل فى المرور من الكردون الموضوع فوق الكوبرى لولا سماعه من بعيد صوت عبد الحكيم عامر فناداه بصوت عال وأتاح له عامر فرصة المرور فوق الكوبرى والانضمام الى زملائه الضباط الاحرار الموجودين بمبنى رئاسة الجيش . وكان السادات قد وصل الى القاهرة فى الرابعة بعد ظهر الثلاثاء ٢٢ يوليو فى القطار القادم من غزة بعد أن استقل القطار من رفح حيث كان يعمل بآلاى اشارة الفرقة الاولى . وكان عبد الناصر قد أرسل اليه حسن ابراهيم بالطائرة يوم ٢١ يوليو والتقى به فى مطار العريش حيث أبلغه رسالة عبد الناصر بالنزول الى القاهرة للاشتراك فى الحركة ليلة ٢٢/٢٣ يولية والقيام بالدور الموكول

اليه فى الخطة وهو تعطيل شبكات التليفونات وقد أكد حسن ابراهيم انه أخطر جمال سالم وانور السادات فى مطار العريش بأن موعد الثورة هو ليلة ٢٣/٢٢ يوليو ولكن السادات روى رواية أخرى وذلك فى الصفحة ١١٩ من « البحث عن الذات » عن واقعة لقائه مع حسن ابراهيم فى مطار العريش ونزوله الى القاهرة اذ قال : « فى يوم ٢١ يوليو أرسل عبد الناصر رسالة لى مع حسن ابراهيم تسلمتها فى مطار العريش يطلب منى فيها أن انزل الى القاهرة يوم ٢٢ يوليو لان الثورة قد تحدد لقيامها ما بين ٢٢ يوليو و ٥ اغسطس .. وفعلا وصلت القاهرة يوم ٢٢ يوليو .. ولكنى لم اجد عبد الناصر فى انتظارى على محطة السكة الحديد كعادته فقلت فى نفسى لابد ان الوقت لم يحن بعد .. ولذلك توجهت الى بيتى واصطحبت زوجتى الى السينما ولكني عندما عدت الى البيت فى منتصف الليل وجدت بطاقة من عبد الناصر يطلب منى فيها ان اقابله فى منزل عبد الحكيم عامر الساعة ١١ مساء وعلمت من البواب الذى سلمنى هذه البطاقة ان عبد الناصر قبل أن يترك البطاقة اتى الى بيتى مرتين » .

كيف تصرفت الجبهة المعادية للثورة ؟

لم يستغرق وصول نبأ سقوط مبنى رئاسة الجيش فى ايدى الثوار واعتقال جميع القادة الموجودين بها الى اللواء احمد طلعت حكمدار القاهرة الا بضع دقائق فقد كان الحكمدار قد ارسل الرائد حسين الريحانى من البوليس السياسى الى حى العباسية وكوبرى القبة حيث

منطقة معسكرات الجيش لمراقبة الحال ولم يستطع حسين الريحاني الاقتراب من كردونات الجيش التي ضربت الحصار حول المنطقة العسكرية بأكملها خشية وقوعه في الاسر فاكتفى بالمراقبة من بعيد ـ وعندما استمع الى صوت الطلقات النارية وتحركات السيارات والمدرعات ادرك ان مبنى رئاسة الجيش قد سقط في يد الضباط الثائرين وان الفريق حسين فريد وجميع من معه من القـــادة قد تم اعتقالهم ، واسرع حسين الريحاني الى اقرب تليفون وكان في محطة البنزين التي تقع أمام المستشفى العسكرى من الناحية الاخرى من شريط المترو ـ وما كاد حسين ينقل النبأ الى اللواء احمد طلعت حتى أحس بأن رئيسه يكاد يطير من الفرحة ليس تضامنا مع الثوار وانما ليثبت صحة النبأ الذي أبلغه الى المسئولين فلم يصدقوه في بادىء الامر وقبلوه في النهاية على مضض وها هي ذى الفرصة قد سنحت له ليظهر شماتته فيهم حتى يصدقوا أخباره في المستقبل وكم كان تفكيره سقيما في تلك اللحظة وأفقه ضيقا فاني لهم بعد ما حدث أن يحدثوه أو يصدقوه بعد أن هوت الكراسي من تحته وتحتهم ؟ المهم أن اللواء طلعت أمر الريحاني وقد بدا في صوته الانفعال أن يستمر في عملية الملاحظة وأن ينقل اليه أولا بأول كل ما يقع تحت سمعه وبصره من احداث .

وكان فاروق وأسرته لا يزالون في الحفل الساهر الذي أقيم بقصر المنتزه ابتهاجا بتقلد اسماعيل شيرين زوج الاميرة فوزية وزارة الحربية ولكن رغم تظاهر فاروق بالشجاعة وعدم الاكتراث كانت نفسه من الداخل نهبا

للخوف والفزع فقد توالت الانباء التى تؤكد خروج بعض وحدات من الجيش من معسكراتها بالقاهرة .

وامر فاروق باستدعاء اللواء عبد الله النجومى وعندما حضر أمره بالاتصال فورا بالفريق حسين فريد بالقاهرة ليسأله عن حقيقة الموقف . واخذ الوجوم يسيطر على ناريمان وفوزية وفايزة واسماعيل شيرين ومحمد على رءوف وضاعت بهجة الحفل الساهر لكثرة ما استمعوا اليه من الانباء السيئة التى كان ينقلها اليهم محمد حسن السليمانى وتوقفت الموسيقى وخيم صـــمت حزين على الاسرة المالكة واخيرا انصرفوا جميعا مهمومين .

وفى الثانية صباحا جاء النجومى يحمل انباء سارة الى الملك فقد اتصل برئاسة الجيش فى القاهرة وقال له الضابط المنوب ان الفريق حسين فريد نجح فى معالجة الحال وان كل شيء هادىء الآن .

كما نقل حيدر الى الملك تليفونيا نتيجة اتصالاته مع اللواء حافظ بكرى قائد المدفعية فقد اكد له سلامة الموقف وان حالة الطوارىء قد أعلنت وان قوات المدفعية كلهـــا رهن اشارة القائد الاعلى . ودب بعض الاطمئنان الى نفس فاروق واستسلم قليلا للرقاد ولو كان قد عرف ان الذى رد على النجومى كان جمال عبد الناصر وان الفريق حيدر كان بسلامة نيته ضحية لخدعة من النقيب الجيزاوى لما عرف النوم سبيلا الى عينيه . وكان مرتضى المراغى وزير الداخلية من ناحية اخرى على اتصال دائم باللواء احمد طلعت حكمدار القاهرة الذى كان اول من أبلغه انباء حركة الجيش فنقل الخبر فى حوالى العاشرة مساء الى رئيس الوزراء نجيب الهلالى وفى الثانية صباحا وصلت الانباء الى مرتضى المراغى من حكمدار القاهرة بأن رئاسة

الجيش قد سقطت وان حسين فريد وبعض القادة قد اعتقلوا وان تحركات قوات الجيش قد ازدادت في المنطقة العسكرية بشكل خطير .

وبادر مرتضى المراغي بالاتصال تليفونيا من الاسكندرية بمحمد نجيب فى منزله بالقاهرة وقال له « ان بعض أولادك قائمون باضطراب فى كوبرى القبة ورجاؤنا أن تمنعهم حرصا على مصلحة الوطن » .

ورد نجيب قائلا « أنا معنديش أولاد ولا حاجة » .

قال المراغى « فيه شوية ضباط متهورين عاملين دوشه » .

قال نجيب « اعرف منين الكلام ده يمكن حد مدبر مكيدة ضدى علشان أروح وتمسكونى وتقولوا ده شريك معاهم » فرد المراغى بأنه سيحضر نجيب الهلالى ليتحدث اليه بنفسه ويعطيه الضمان الذى يريده ـ وبعد قليل دق التليفون من جديد وتكلم رئيس الوزراء بنفسه قائلا « أنا أستاذك يا نجيب ومستقبل الوطن متوقف عليك فارجوك تعمل على تهدئة الموقف لان الانجليز سيحتلون القاهرة وتبقى مسألة خطيرة » فطمأنه محمد نجيب قائلا « انى ذاهب لأرى الحالة بنفسى » .

واستيقظ فاروق مبكرا على نبأ استيلاء الضباط الاحرار على مبنى رئاسة الجيش واعتقال الفريق حسين فريد وكبار قادة الجيش والاستيلاء على محطة الاذاعة كما علم أن بيانا سيذاع منها فى السابعة صباحا باسم قيادة الثورة فاتصل فاروق بكريم ثابت وطلب منه بحكم صلاته السابقة بالاذاعة كمستشار لها منع اذاعة البيان بأية وسيلة وبادر كريم بالاتصال بمحطة الارسال فى « أبو زعبل » وطلب من المهندس الجارحى القشلان

المسئول عن ادارة المحطة فى هذه الليلة فك المحطة قائلا له انه سيرسل له ثلاثة لوارى وثلاثة تاكسيات لاخذ المحطة . وقد ذكر المهندس الجارحى القشلان ان الغرض من ارسال اللوارى كان هو تحميلها بقطع التشغيل الرئيسية والاحتياطية للمحطة حتى لا يمكن ادارتها اما الغرض من ارسال التاكسيات فكان هو نقل المهندسين وعددهم سبعة ومثلهم من الفنيين من منازلهم لابعادهم عن « أبو زعبل » وبذا يضمن تماما عدم تشغيل المحطة . وفى نفس الوقت وبناء على تعليمات مرتضى المراغى وزير الداخلية اصدر رئيس البوليس السياسى اللواء محمد ابراهيم امام أمره الى المختصين فى محطة كهرباء « أبو زعبل » بقطع التيار الكهربائى فلما أجابوه بأن معنى ذلك حرمان مستشفى الجزام ومستشفى العمال وشركة ماركونى من الكهرباء قال لهم — « كل ده مش مهم فاهمين ! » .

وفى أول ضوء يوم ٢٣ يوليو وبناء على تعليمات الملك طار حسن عاكف طيار الملك الخاص بطائرة داكوتا من مطار النزهة بالاسكندرية وهبط فى مطار الماظة الحربى قرب حظيرة السرب الملكى وكان الغرض من حضوره كما ذكر قائد الاسراب حسن ابراهيم فى حديثه المنشور بمجلة المصور فى ٨ اغسطس ١٩٥٨ هو معرفة حقيقة ما يحدث بالقاهرة وليستعين بطائرات السرب الملكى فى القضاء على الثورة حيث يطير به الى انشاص ومن هناك توضع خطة لاحباط عمليات وتحركات الضباط الثائرين .. وقد ذكر حسن عاكف انه بمجرد وصوله الى الماظة حوالى الفجر يوم ٢٣ يوليو اتصل بضباط السرب الملكى

للحضور الى مطار الماظة على وجه السرعة فأبلغوه ان كردونات الجيش تقبض على الضباط فى العباسية ومصر الجديدة فطلب منهم تفادى هذه الكردونات او الحضور بتاكسيات الى مطار امبابة ليطير اليهم بالطائرة الداكوتا لاخذهم رغم صغر حجم المطار . وفشلت محاولات معظم ضباط السرب الملكى فى الوصول الى حسن عاكف بحظيرة السرب الملكى بمطار الماظة . وقد ذكر قائد الجناح مدكور أبو العز قائد السرب الملكى عند قيام الثورة انه توجه صباح ٢٣ يوليو الى مطار الماظة فى عربته الخاصة وكان برفقته قائد الاسراب فوزى الجبالى وقائد السرب مهندس عبد الحميد محمود والنقيب عبد المجيد نعمان والملازم مالك متو شالح وعندما حاولوا الدخول من الباب الرئيسى للمطار اعترضهم قائد الاسراب حسن ابراهيم تعززه قوة من الدبابات والمشاة وطلب منهم العودة الى منازلهم ورفض مدكور أبو العز تنفيذ هذا الطلب ودارت مناقشة حادة بينه وبين حسن ابراهيم انتهت باصطحاب حسن ابراهيم لمدكور أبو العز ورفاقه الى مبنى رئاسة الجيش بكوبرى القبة حيث صدر امر القيادة بوضعهم فى المعتقل بالكلية الحربية مع باقى القادة والضباط الذين تم اعتقالهم من قبل من الجيش والطيران .

ولكن بعض الضباط تمكنوا من الوصول وبدأوا مع حسن عاكف فى تجهيز طائرات السرب الملكى للاقلاع بها الى الاسكندرية ــ ولكن أنباء وصول حسن عاكف وتجهيز طائرات السرب الملكى للاقلاع لم تلبث ان وصلت الى اسماع قيادة الثورة فأرسلوا لوريا محملا بجنود من

الجيش بقيادة ملازم للقبض على حسن عاكف ومنع الطائرات من السفر ، وبمجرد وصول جنود الجيش انتشروا بأمر قائدهم وبدأوا فى اطلاق النار من أسلحتهم على الطائرات فأصابوا الطائرة الملكية ببعض الطلقات وكان بها قائد الاسراب سعد الدين الشريف ولكنه لم يصب بأذى وازاء ذلك بادر حسن عاكف بالقفز الى طائرة هليوكوبتر من طراز سيكورسكى ٥١ » وحلق بها على ارتفاع بضعة أمتار من سطح الارض ولمقاومة النيران المنهالة على الطائرة اكتسح حسن عاكف بالهليوكوبتر الجنود بهجومه عليهم قريبا جدا من الارض مما اضطرهم الى الانبطاح والزحف الى داخل الحظيرة . ونظرا لاصابة الهليوكوبتر ببعض الطلقات فى غطاء الماكينة اضطر حسن عاكف الى الطيران على ارتفاع منخفض حتى تمكن من النزول سالما فى مطار انشاص .

وكانت بالمطار طائرة قديمة من طراز « سى ٤٦ » تركها الامريكان بعد الحرب فأدار عاكف الطائرة بعد عناء شديد لكبرها اذ تحتاج لاكثر من شخص لادارتها وقبل اقلاعه اتصل تليفونيا بقصر عابدين من تليفون سرى تحت الارض متصل رأسا بعابدين طالبا ايصاله بالسرب الملكى بالماظة باعتبار انه يتكلم من مطار فاروق (القاهرة الدولى حاليا) وليس من انشاص للتضليل وبالفعل ارسلت قوة من الجيش الى مطار فاروق لاعتقاله ولكنها لم تعثر له بالطبع على اثر ... وحلق بعد ذلك حسن عاكف بطائرته فى اتجاه الصحراء الغربية خشية مطاردته بالطائرات المقاتلة ودار دورة كبيرة نزل على اثرها الى مطار الدخيلة حيث التقى بقائد المطار قائد الاسراب عدلى الشافعى لاعب

التنس الدولى المعروف وطلب منه الاتصال بقيادة الثورة مع ابداء استعداده للنزول بالهليوكبتر قرب مبنى رئاسة الجيش لمعرفة طلبات الضباط الثائرين لابلاغها الى الملك على شرط اعطاء الضمان له بعدم اعتقاله . وبادر عدلى الشافعى بالاتصال بقائد الجناح عبد اللطيف البغدادى ولكنه رفض طلب حسن عاكف . وخشى حسن عاكف من القبض عليه بعد ان علمت القيادة بأنه فى مطار الدخيلة فاستقل عربة جيب من المطار وأسرع بها الى قصر المنتزه وفوجىء الملك بدخول حسن عاكف عليه ببنطلون وقميص مفتوح وهو طويل الذقن منكوش الشعر وأخذ فى ذهول يستمع اليه وهو يروى له مغامرته المثيرة .

عملية الاستيلاء على المطارات

كان الضباط الطيارون قد وصلوا فى ساعة مبكرة صباح ٢٣ يوليو الى المطارات الحربية الثلاثة (الماظة ـ مصر الجديدة ـ غرب القاهرة) وفقا لتعليمات عبد اللطيف البغدادى وحسن ابراهيم اللذين كانا قد قاما بالمرور قبل منتصف الليل على عدد كبير منهم فى بيوتهم لابلاغهم بموعد الحركة كى يبادروا فى الصباح الباكر بالقيام بعملية الاستيلاء على المطارات الحربية الثلاثة بالقاهرة وتولى قيادتها وتأمينها بفرض الحراسة المشددة عليها وعدم تنفيذ اية اوامر تأتيهم من قياداتهم القديمة .

وقام الضباط الطيارون وعلى راسهم المقدمون وجيه اباظة وعمر الجمال ومحمد شوكت والرائد محمد صادق القرموطى بتنفيذ الواجب المحدد لهم وتمكنوا من السيطرة

على المطارات وتأمينهـا فى وقت مبكر من الصباح .. وسرعان ما اتصل بهم البغدادى وحسن ابراهيم لابلاغهم بنجاح الحركة ولكى يقوموا بتعزيز قوات الثورة بطائراتهم فى الجو ـ واستبدت الفرحة بنسور مصر فانطلقوا يشقون الفضاء بطائراتهم فى مختلف انحاء البلاد مما ترك أثرا عميقا فى رفع معنويات الجيش والشعب وعلى العكس اصاب الملك واعوانه بخيبة الامل واليأس ومنعه من التفكير فى الهروب .

الاستيلاء على محطة الارسال ومحطة الكهرباء فى ((ابو زعبل))

اثار وجود معسكر الحدود بالجبل الاصفر المجاور لمحطة الارسال الخاصة بالاذاعة فى ابى زعبل مخاوف الرائد مجدى حسنين خشية ان تصدر اوامر من حسين سرى عامر قائد سلاح الحدود من الاسكندرية الى قوة الحدود بالجبل الاصفر بالاستيلاء على محطة الارسال مما يتيح لهم فرصة التحكم فى الاذاعة وتعطيلها لمنع اذاعة البيان الاول للثورة ـ وبادر مجدى حسنين بمقابلة جمال عبد الناصر فى الثالثة صباحا أمام مبنى رئاسة الجيش وشرح له مخاوفه فكلفه بالاستيلاء على المحطة وأن يأخذ معه تروب من السيارات المدرعة وقاد مجدى حسنين العملية بمعاونة تروب من السيارات المدرعة بقيادة النقيب عبد الفتاح على أحمد الذى كان يرافقه النقيب مهندس احمد جمال علام . وحينما وصل مجدى حسنين الى محطة الارسال وجدها مضاءة ومغلقة

ووجد بها اثنين من المهندسين كان أحدهما الجارحي القشلان فأبديا تجاوبا معه واستعدادا لمعاونته . ولكن التيار الكهربائي لم يلبث ان انقطع عن المحطة فأسرع مجدى حسنين الى محطة الكهرباء فوجد المسئول عن ادارتها يتحدث بالتليفون فهدده بمسدسه فأدار المحطة على الفور .

ومن الطريف انه بعد استيلاء قوة الجيش على محطة الارسال فى حوالى السادسة صباحا وصلت اللوارى والتاكسيات التى كان كريم ثابت قد سبق اتفاقه مع الجارحى القشلان على ارسالها لنقل المحطة بعد فك اجزائها ولما توجه المسئول عن العملية آلى الجارحى وسأله عن الامانة قال له « مفيش » ولما طلب منه أجر التاكسيات أجابه الجارحى أيضا « مفيش » .

مجموعة اعتقالات قادة الجيش

كانت مجموعة الاعتقالات تقوم بواجبها طبقا لتطور الخطة وكانت تتكون من الرائد كمال رفعت والرائد محمد البلتاجى ووضع تحت قيادتهما تروب من السيارات المدرعة بقيادة الملازم اول آمال المرصفي ... وفى الطريق الى مصر الجديدة توقفت المجموعة أمام مبنى رئاسة الجيش بعد انتهاء عملية اقتحامها فاستلموا كبار القادة المعتقلين وتوجهوا بهم الى مبنى الكلية الحربية المواجه لرئاسة الجيش حيث سلموهم الى المجموعة التى تعينت لادارة المعتقل الجديد بالكلية الحربية وكانت تتكون من الرواد حمدى عاشور وعبد الحليم عبد العال وحسين حمودة وكمال الحناوى .

وتوجهت مجموعة الاعتقالات بعد ذلك الى مصر الجديدة حيث تم اعتقـال اللواء سـعد الدين صبور مدير هيئة التدريب الحربى فى منزله والعميد طيـار حقى هارون الذى حاول أن يقاوم وأن يستخدم مسدسه مما اضطر كمال رفعت الى استخدام القوة معه وتم اعتقاله بعد ان كسرت ترقوته وتم للمجموعة كذلك اعتقال قادة الجيش والطيران الآخرين ونقلهم الى المعتقل بالكلية الحربية .

كتابة البيان الاول للثورة

نظرا لأن هذا الموضوع قد أحيط بكثير من الاقوال والروايات المتناقضة الى درجة يخشى معها من ضياع الحقيقة لذلك قررت الاعتماد فى السرد التاريخى على الحقائق الاسـاسية التى وردت فى البحث القيم الذى اعده العميـد أ . ح مصطفى ماهر رئيس مركز التاريخ العسكرى السابق عن «الجيش المصرى وثورة ٢٣ يوليو» والذى القـاه فى ندوة الـكلية الحربية فى يوليو ١٩٨١ ويعتبر خلاصة لشهادات الضـباط الاحرار امام لجنة تسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو . فى حوالى الرابعة صباحا كان مكتب اللواء محمد نجيب بمبنى رئاسة الجيش الذى تم الاستيلاء عليه اشبه بخلية النحل فقد جلس حـول المـكتب عدد من قادة الضباط الاحرار وكانت المناقشات تدور بينهم بشأن الموقف بأصوات مرتفعة فى الوقت الذى كانت فيه التليفونات الموجودة على المـكتب لا تكف لحظة عن الرنين فقد كان الجميع فى القـاهرة والاسـكندرية يريدون الاتصال بقيادة الضابط الثائرين لمعرفة مطالبهم واكتشـاف اهدافهم ومراميهم .

وكان عدد من مندوبى الصحف والمصورين قد سمح لهم بدخول الغرفة حيث التقطوا بكاميراتهم عشرات من الصور لقائد الثورة وضباطه .

وفى هذا الجو المليء بالضجيج انسحب ضابطان من وسط المجموعة التى كانت فى مكتب محمد نجيب همـا عبد الحكيم عامر وجمال حماد ودخلا غرفة المؤتمرات التى كانت تواجه مباشرة مكتب اللواء محمد نجيب وأغلقا باب الفـرفة عليهما من الداخل وجلسا على مقعـــدين متجاورين على ما ئدة المؤتمرات الخشبية الفخمة يلتقطان أنفاسهما ويستعيدان الهدوء الذى افتقداه خلال وجودهما بمكتب اللواء محمد نجيب .

وكان الغرض من هذه الجلسة المغلقة هو كتابة البيان الاول للثورة الذى سيوجه من اللواء محمد نجيب الى الشعب المصرى من دار الاذاعة فى السابعة صباحا ... واتفق الزميلان على النقاط الاساسية التى ينبغى أن يضـمها البيان ودوناها فى ورقـة صغيرة ثم لم يلبث عبد الحكيم أن ترك زميله وحده بالغرفة ليتيح له فرصة صياغة البيان الاول للثورة فى هدوء .

وعكف جمال حماد على صياغة البيان وفقا للنقاط التى تم الاتفاق عليها مع عبد الحكيم وبعد عدة مسودات استقر رأيه على الصيغة النهائية التى كتبها على ورقـة فولسكاب بيضاء بقلمه الحبر ولم يستغرق ذلك اكثر من نصف ساعة عاد بعدها عبد الحكيم الى الغرفة حيث قرا البيان فى اهتمام وابدى رضاءه التام ... وعندما عرض البيان على اللواء محمد نجيب وافق على الصيغة ولكنه

راى اضافة بعض الكلمات الى البيان فأخرج قلمه وكتب هذه الكلمات حشرا بين السطور المكتوبة ثم وقع البيان بامضائه ـ وانحصر التعديل فى عبارة واحدة كانت فى الاصل « وانى اؤكد ان الجيش اليوم كله اصبح يعمل لصالح الوطن مجردا من اية غاية » فأصبحت بعد التعديل « وانى اؤكد (للشعب المصرى) أن الجيش اليوم كله اصبح يعمل لصالح الوطن (فى ظل الدستور) مجردا من اية غاية » .

وكان المتفق عليه بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ان يتولى جمال حماد اذاعة البيان بنفسه باعتباره كاتبه ولثقتهما التامة فى اجادته النطق السليم باللغة العربية بصفته أديبا وشاعرا واخبره عبد الحكيم أن سيارة ستكون فى انتظاره الساعة السادسة صباحا لنقله الى دار الاذاعة ـ ولكن الظروف تدخلت لتغيير الامر الذي كان متفقا عليه فقد طلب زكريا محيى الدين من جمال حماد أن يكون متأهبا فى اية لحظة للتحرك الى معسكر اللواء السابع المشاة بالعباسية اذ ان نجيب الهلالى خلال اتصالاته التليفونية من الاسكندرية حذر من الانباء التى وصلته عن تحركات تقوم بها القوات البريطانية على طريق السويس فى اتجاه القاهرة ـ واكد زكريا انه فى حالة التحقق من صحة هذه الانباء عن طريق طلعات الاستطلاع الجوى فى الصباح الباكر فانه من المنتظر تحريك اللواء السابع الذى أصبح الاحتياطى العام للحركة الى طريق السويس لاحتلال مواقع دفاعية على عجل لصد الهجوم الانجليزى المحتمل بالاشتراك مع الدبابات السنتوريون من سلاح الفرسان ووحدات المدفعية وان عليه اعطاء أمر انذارى لكتائب

اللواء السابع المشاة بالاستعداد للتحرك ــ ولما أبلغه جمال حماد بأنه قد عين لاذاعة البيان من دار الاذاعة رفض ذلك بشدة واخبر زميله بأنه سيتفق مع عبد الناصر لتكليف ضابط آخر للقيام بمهمة اذاعة البيان .. وبعد قليل تسلم انور السادات البيان لاذاعته .

اذاعة البيان الاول للثورة

فى حوالى السادسة والربع صباحا يوم ٢٣ يوليو وصل أنور السادات الى استديوهات الاذاعة بشارع علوى مكلفا من عبد الناصر وعبد الحكيم وعندما حضر مذيع الفترة الصباحية فهمى عمر قال له السادات انه سيجرى بعض التغييرات فى برامج الاذاعة لان هناك بيانا مطلوب اذاعته فلم يستطع فهمى عمر فى ظل الحراسة العسكرية المشددة التى كانت تحيط به من كل جانب سوى أن يجيب « الاذاعة تحت أمرك » ودخل السادات الاستديو وكان يعتزم اذاعة البيان بعد المارش العسكرى الذى يعقب افتتاح المحطة والذى كان ينتهى فى السادسة واثنتين وثلاثين دقيقة ــ ولكن فهمى عمر علم من المهندسين تليفونيا أثناء اذاعة المارش العسكرى ان الارسال قد قطع من محطة (أبو زعبل) ولما علم السادات خرج من الاستديو حيث ابلغ الموقف للقيادة واستمر فهمى عمر فى تقديم فترات البرنامج وفقا لمواعيدها رغم علمه بانقطاع الارسال . وبعد حوالى أربعين دقيقة من انقطاع الارسال أشار المهندسون لفهمى عمر انه على الهواء وكان ذلك فى حوالى السابعة وثلاث عشرة دقيقة

فبادر فهمى عمر بابلاغ السادات بعودة الارسال فسأله هل يمكن القاء بيانه فقال فهمى عمر انه بعد دقيقتين ستنهى اذاعة القرآن الكريم وسوف يتلوه حديث دينى لمدة عشر دقائق فقال السادات « لا أحاديثكم هى التى خدرت الناس وانا سأذيع البيان بعد القرآن مباشرة » وفى السابعة والربع تماما تأهب فهمى عمر لتقديم السادات لاذاعة البيان واذا بالمهندسين يبلغونه مرة أخرى ان الارسال قد قطع ثانية ولكن فى هذه المرة من مصلحة التليفونات وليس من (أبو زعبل) ـ وثار السادات غاضبا وقال « ايه ده تانى » واسرع الى التليفون حيث عاود اتصاله بالقيادة .

وفى الساعة السابعة وسبع وعشرين دقيقة عاد الارسال مرة أخرى وكان ذلك من المصادفات الحسنة لان نشرة الاخبار كان موعدها فى السابعة والنصف صباحا وهو أفضل موعد يستمع فيه الناس الى نشرة الاذاعة ـ وعندما كانت تدق ساعة القاهرة وقتها معلنة النصف بعد السابعة تأهب فهمى عمر لتقديم أنور السادات بالصفة التى طلبها منه وهى أنه مندوب القيادة فقد رفض أن يقدمه باسمه ـ وبعد اجراء التقديم قرأ السادات البيان الاول للثورة فى مستهل نشرة الاخبار واستغرقت تلاوته دقيقتين ونصفا واختتم القراءة بذكر اسم موقع البيان اللواء أركان الحرب محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة . واستمر فهمى عمر فى قراءة نشرة الاخبار التى كان معظمها خاصا بمراسم تشكيل وزارة نجيب الهلالى ومقابلات الملك مع رئيس الوزراء والوزراء وكان المذيع قد سأل السادات قبل قراءة النشرة هل

يحذف منها شيئا فقال له : « اقرأها كلها كما هى » ـ وما كاد السادات ينتهى من قراءة البيان حتى تركه لاحد الضباط القائمين على حراسة الاذاعة وقفل راجعا الى مبنى رئاسة الجيش . هذا ولم يتم تسجيل البيان عند القائه فى المرة الاولى بصوت أنور السادات لانه لم يكن معروفا لدى الاذاعة وقتئذ نظام التسجيل بالاشرطة البلاستيك بل كان التسجيل يتم بأشرطة صلب بماكينات كبيرة وصغيرة بعد وصول المهندس المختص بعد الساعة التاسعة صباحا يوميا .

والآن ما هى القصة الحقيقية للرائد محيى عبد الرحمن الذى ذكر اللواء محمد نجيب انه أول من أذاع البيان ؟ لقد كان الرائد محيى الدين عبد الرحمن هو قائد السرية المشاة من اللواء السابع التى أرسلها الرائد جمال حماد قبل الفجر الى دار الاذاعة لتعزيز القوة التى سبق تحركها لاحتلال هذه الدار بقيادة النقيب جمال القاضى والمكونة من فصيلة مشاة من الكتيبة ١٣ وتروب سيارات مدرعة من سلاح الفرسان .

وعلى اثر مغادرة المقدم السادات دار الاذاعة بعد القائه البيان الاول كثرت الاتصالات مع الاذاعة لاعادة اذاعة البيان نظرا لان فئات عديدة من الشعب لم تتح لها فرصة الاستماع اليه ـ وعندما استأنفت الاذاعة ارسالها فى فترة الضحى التى تبدأ فى العاشرة صباحا وتنتهى فى الحادية عشرة والنصف كان المهندس أحمد عواد المختص بالتسجيل قد وصل وطلب المذيعون من احد الضباط القائمين بالحراسة القاء البيان بصوته ليسمعه أولئك الذين فاتهم الاستماع اليه فى الفترة الصباحية . وتقدم

الرائد محيى الدين عبد الرحمن حيث ألقى البيان على الهواء مباشرة فى العاشرة صباحا وتمكن المهندس احمد عواد من تسجيله وبدأت محطة الاذاعة تذيعه على فترات ليسمعه اكبر عدد من المواطنين . ولكن قراءة الرائد محيى الدين عبد الرحمن كانت مليئة بالاخطاء اللغوية الى الحد الذى اثار ثائرة الكثيرين وجعلهم يتصلون بالقيادة لتدارك الموقف وبالفعل تم اتصال الرائد جمال حماد بالرائد محيى الدين عبد الرحمن بالاذاعة وطلب منه وقف تلاوة البيان بصوته فورا وتكليف واحد من المذيعين بتلاوة البيان بطريقة صحيحة . وكان أول مذيع يقرأ البيان بصوته هو المذيع صلاح زكى كما أذاعه المذيع جلال معوض بصوته فى نشرة اخبار الثامنة والنصف مساء . هذا ولم يسجل البيان بصوت أنور السادات كما ذكر فهمى عمر الا خلال الاحتفال الذى أقيم بمناسبة مرور ستة اشهر على قيام الثورة أى فى يوم ٢٣ يناير ١٩٥٣ .

الاتصال بالمناطق الخارجية

لم تعرف معظم المناطق الخارجية انباء نجاح الحركة الا متأخرا فان منطقة العريش ومنطقة القنال لم يعرفا بنجاحها الا من محادثة تليفونية تمت فى الثالثة صباحا وفيها أبلغ العقيد احمد شوقى الرائد توفيق عبد الفتاح فى منطقة القناة بنجاح العملية ثم طلب منه عبد الناصر ابلاغ الرائد صلاح سالم فى رفح لتعذر الاتصال به تليفونيا ولم ينجح توفيق عبد الفتاح فى ذلك الا فى أول ضوء يوم ٢٣ يوليو . وبمجرد ان علم صلاح سالم بنجاح

الحركة بادر بالاتصال بالعقيد رشاد مهنا وبقائد الجناح جمال سالم فى العريش وأبلغهما بذلك . وكان رشاد مهنا يعمل قائدا لمدفعية الفرقة الاولى بالنيابة لوجود القائد فى فرقة ضباط عظام بالقاهرة . ونظرا لان قائد الجناح جمال سالم كان ضابطا طيارا ولم يكن فى امكانه السيطرة على وحدات الجيش بالعريش لعدم وجود صلات وثيقة بينه وبين الضباط لذلك تم الاتفاق بين صلاح سالم ورشاد مهنا على أن يتولى صلاح مسئولية السيطرة على وحدات الجيش فى رفح بينما يتولى رشاد مهنا مسئولية السيطرة على وحدات الجيش بالعريش . وبادر رشاد مهنا بابلاغ نبأ نجاح الحركة الى جميع الآيات المدفعية وكتائب المشاة المرابطة فى منطقة العريش بمعاونة النقيب محمد أحمد غنيم أركان حرب مدفعية الفرقة .

وقام رشاد مهنا باعتقال العميد مجدى الزارع قائد لواء المشاة بالعريش ووضعه تحت الحراسة حتى تم ترحيله بالقطار الى القاهرة .

وفى رفح قام الرائد صلاح سالم بالتعاون مع العقيد عبد الفتاح فؤاد بالسيطرة على وحدات منطقة رفح وتم ابلاغ اللواء ا . ح محمد ابراهيم سيف الدين قائد الفرقة الاولى بنبأ قيام الحركة ونظرا لانه كان يتمتع بشخصية قوية ومحبوبة ولذا لم يحاول احد المساس به وبادر اللواء سيف الدين بارسال برقية تأييد الى اللواء محمد نجيب باسم وحدات الفرقة الاولى فى سيناء . واقتنع قائد الفرقة بضرورة تركه قيادة الفرقة بسلام فقد كان الوضع شديد الحساسية والخطورة نظرا لوجود القوات الاسرائيلية على الحدود . . وسافر اللواء سيف الدين الى القاهرة وحضر الى مقر القيادة بكوبرى القبة وفوجىء

جميع الضباط الموجودين فيها بحرس القيادة يخرج تحت السلاح وبالبروجى يضرب نوبة سلام اللواء وأسرعوا الى الشرفة ليروا اللواء الوحيد منذ ٢٣ يوليو الذى يدخل الى مقر القيادة بسيارته وتجرى له مراسم التحية فقد كان جميع زملائه ما زالوا فى المعتقل بالكلية الحربية .
وكانت الاسكندرية تعتبر اخطر المناطق بالنسبة لوضعها الفريد اذ ان فيها الملك والحكومة وقوات الحرس الملكى والقائد العام للقوات المسلحة وقوات السلاح البحرى وخفر السواحل بخلاف وحدات الجيش المرابطة بها ولذا كانت فى الواقع اشد المناطق حساسية - وكان عبد الناصر قد ارسل احد أشقائه الى النقيب أحمد حمروش الضابط بالآلاى المضادة للطائرات بالاسكندرية لمقابلته بالقاهرة - وقد ذكر حمروش انه التقى بجمال عبد الناصر فى حوالى الخامسة والنصف مساء يوم٢٢يوليو أمام منزله بكوبرى القبة وكانت مفاجأة له عندما أخطره بأن الجيش سيتحرك فى نفس الليلة وكلفه بالاتصال بالضباط الاحرار فى الاسكندرية واستفسر منه حمروش عن طبيعة الدور الذى يمكن أن تقوم به قوات الاسكندرية فأجابه بأن المطلوب هو تأمين المنطقة والسيطرة عليها دون تحريك للقوات أو حدوث تناقضات بين حامية الاسكندرية وحامية القاهرة . وكان عبد الناصر يتوقع بالطبع ان يبادر أحمد حمروش بعد أن حمله الرسالة بالسفر فورا الى الاسكندرية للاتصال بالضباط الاحرار هناك والعمل على تنفيذ توجيهاته ولكن أحمد حمروش اضاع الوقت الثمين فى مقابلات بالقاهرة مع بعض زملائه من أعضاء منظمة حدتو فى بيوتهم وهم أحمد فؤاد وخالد محيى الدين ويوسف صديق

وسيد سليمان رفاعى مما جعله لا يصل الى الاسكندرية الا بعد منتصف الليل .

ونتيجة لتصرف أحمد حمروش البعيد عن روح المسئولية لم يعرف ضباط الاسكندرية بقيام الحركة الا بعد استماعهم الى البيان الاول للثورة من الراديو فى السابعة والنصف صباح يوم ٢٣ يوليو — وتم عقد مؤتمر لضباط الاسكندرية فى آلاى الانوار الكاشفة استقر فيه الرأى على تعيين المقدم عاطف نصار قائدا للمنطقة الشمالية والرائد عبد الحليم الاعسر أركان حرب للمنطقة . وبدأت القيادة الجديدة تمارس مسئوليتها من رئاسة المنطقة بمعسكر مصطفى باشا بعد أن قاموا بابعاد جميع القيادات القديمة بمن فيهم الفريق محمد حيدر باشا وتم لها السيطرة على مصلحة التليفونات وشبكاتها والميناء البحرى ومطارى الدخيلة والنزهة وجميع المرافق الحيوية بالمدينة . وتم توجيه المدافع الساحلية على قصرى رأس التين والمنتزه لمنع فاروق من الهرب كما وجهت بعض قطع من المدفعية الى عدة قطع بحرية كان الاعتقاد انها ستساند الملك ولكن ضباط البحرية سرعان ما أعلنوا جميعا تأييدهم للثورة وتم عزل اللواء محمود بدر قائد البحرية وتعيين العقيد بحرى حمدى ناشد قائدا بالنيابة وانضمت قوات الاسكندرية بأكملها الى الحركة .

كلمة ختامية :

ان ثورة ٢٣ يوليو كانت بداية مرحلة مجيدة فى نضال الشعب المصرى ذلك النضال المتواصل على مر الاجيال .

ان هذا الشعب فى ذلك اليوم الخالد بدا تجربة ثورية فى جميع المجالات وسط ظروف صعبة وخطيرة فتمكن هذا الشعب بصدقه وايمانه وبارادته الثورية أن يغير حياته تغييرا اساسيا وعميقا فى سبيل تحقيق آماله الانسانية الواسعة . ان فجر ٢٣ يوليو كان حدثا بارزا لا فى تاريخ مصر فحسب بل وفى تاريخ الامة العربية ... كانت ثورة قائمة على أسس متينة شملت كافة نواحى الوجود الانسانى كانت تغييرا أساسيا وجذريا فى حياة المجتمع المصرى ولم تكن مجرد انقلاب لتغيير وجوه الطبقة الحاكمة ـ كانت ثورة استهدفت احداث التغيير فى المجتمع فى كافة نواحى نشاطه وانظمته ومنظماته وطبقاته .

واذا كان لنا أن نضع تقييما عاما لهذه الثورة فانه يمكننا أن نلخص هذا التقييم فى السطور التالية :

لقد كان لهذه الثورة اب روحى .. وهو الفريق عزيز على المصرى .

وكان لهذه الثورة قائد .. وهو اللواء ا . ح محمد نجيب .

وكان لهذه الثورة صانع .. وهو المقدم أ . ح جمال عبد الناصر .

وكان لهذه الثورة جنود مجهولون .. وهم ضباط الصف والجنود الذين خرجوا تحت قيادة ال... الاحرار ليلة ٢٢/٢٣ يوليو وحققوا لهذه الثور... ولكن لم تسجل لهم أسماء ولم تسمع عنهم أنباء

بيان

من اللواء أ. ح. محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة الى الشعب المصرى :

اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم. وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش وتسبب المرتشون والمغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين

وأما فترة ما بعد الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش وتولى أمره إما جاهل أو خائن أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها

وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولى أمرنا فى داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم وفى خلقهم وفى وطنيتهم ولابد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب.

أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر وسيطلق سراحهم فى الوقت المناسب.

وانى أؤكد للشعب المصرى أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور مجردا من أية غاية

وانتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف لأن هذا ليس فى صالح مصر.

وان أى عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل وسيلقى فاعله جزاء الخائن فى الحال. وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاونا مع البوليس.

وانى أطمئن اخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم ويعتبر الجيش نفسه مسئولا عنهم والله ولى التوفيق

لواء أ.ح. محمد نجيب
٢٣/٧/٥٢

النسخة الاصلية لمسودة البيان الاول لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢
ه من اللواء أ· ح· محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة
الشعب المصرى ·
البيان من صياغة وبخط الصاغ أ· ح· جمال الدين حماد
والاضافة بخط اللواء أ· ح· محمد نجيب » ·
ملحوظة : جميع الصور التى نشرت من قبل نقلت عن هذه المسودة

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب : ٢٥٤١ ــ ١٩٨٣
الترقيم الدولى : ٤ ــ ٠٢٧ ــ ١١٨ ــ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيونى زغلول - الكويت - الصفاه - ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة - ص - ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
Bishopsthrose Road
London S.E 26 ENGLAND

البرازيل : Q. Miguel Maccul Cury. B. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406 São Paulo. BRASIL.

اسعار البيع فى الخــارج للعدد الممتاز فئة ٥٠٠ مليم :

سوريا ٩٠٠ ف.س، لبنان ٩٠٠ ق.ل ، الاردن ٩٠٠ فلس ، الكويت ١٢٠٠ فلس ، العراق ١٢٠٠ فلس ، السعودية ٨ ريالات، السودان ١٠٠٠ مليم، تونس ١٢٥٠ مليما ، المغرب ١٢٥٠ فرنكا ، الجزائر ١٢٥٠ سنتيما ، الخليج ٨٠٠ فلس ، غزة ١٢٠ ليرة ، الصومال ٨٠ بنى ، داكار ٦٠٠ فرنك ، لاجوس ٨٠ بنى ، اســمرة ٦٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٨٠ بنى ، اديس ابابا ٦٠٠ سنت ، باريس ١٠ فرنكات ، لندن ١٠٠ بنى ، ايطــاليا ١٥٠٠ ليرة ، سويسرا ٤ فرنكات ، اثينا ٧٠ دراخمة، قبرنا ٤٠ شلنا ، فرانكفورت ٥ مارك ، كوبنهاجن ١٥ كرونه ، اســتوكهولم ١٥ كرونة ، كندا ٣٠٠ سنت ، البرازيل ٤٠٠ كروزيرو ، نيويورك ٣٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٤٠٠ سنت ، استراليا ٤٠٠ سنت ، هولندا ٥ فلورين



هــذا الكتــاب

ان ثورة ٢٣ يوليو بدون جـدال او نقاش ـ ومهما اختلفت نظـرة الناس اليها ـ هي اهم حـــدث في ملحمة الكفـــاح الوطني للشعب المصرى في تاريخه الحديث • لقدصدرت في الماضي عشرات من الكتب عن هذه الثورة ولكن الكثير منها تنقصه روح التجرد والحياد والبعد عن التحليل الموضوعي وكان جانب من ذلك يرجـــع الى تأثر بعض الكتاب بميولهم واهوائهم الشخصية كما يرجع جانب آخر منه الى عدم قدرة الكثيـــرين منهم عن ادراك العديد من الحقائق والاسرار بسبب الظروف والاوضاع الســياسية في مصر ـ وقتئذ ـ التي لم تكن تسمح بنشر حقيقة كل ما جرى • واليوم وبعد مرور ثلاثين عاما على قيام هذه الثورة يقدم لنا المؤرخ المعروف جمال حماد في هـــذا الكتاب ادق الحقـــائق والاسرار التي لم ينشر معظمها من قبل عن احـــداث تلك الليلة الخالدة « ٢٣ يوليو » وذلك في أسلوب شيق وبتحليل موضوعي فذ للوقائع والاحداث •

ولا يقدم لنا جمال حماد دراسته المتعمقة الشاملة ككـاتب او مؤرخ او باحث بقـــدر ما هو احـــد الذين شاركوا في صنع الحـــدث الكبير وأحـد الذين كان لهم دور هام في نجاح الجيش في حركتـــه في تلك الليلة •

٥٠ قــرشـــا

كتاب الهلال

الخلافة

ونشأة الأحزاب الإسلامية

الدكتور محمد عمارة



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمى

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٨٩ ـ رجب ١٤٠٣ ـ مايو ١٩٨٣

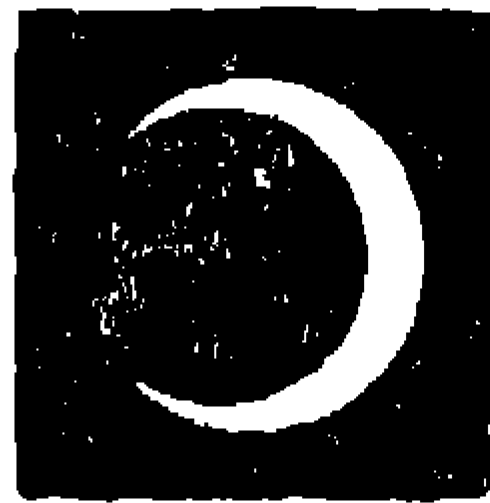
No. 389 — May 1983

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ـ ١٢ عددا ـ فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادى . وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان خمسة جنيهات مصرية او مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشـــــــة
الفنـــانة سميحة حســنين

الدكتور محمد عمارة

الخلافة
ونشأة الأحزاب الإسلامية

دار الهلال

مقدمة

عن الموضوع ومنهجنا فى بحثه

لا نغالى اذا قلنا أن موضوع أصول الحكم وفلسفته ، ونظرية الامامة ، قد كان ، ولا يزال ، أخطر قضايا الفكر الاسلامى ، بل وأشد هذه القضايا تعقيدا عندما توضع فى الممارسة والتطبيق .

وناهيك بقضية كانت أولى القضايا التى اختلف عليها المسلمون يوم لحق نبيهم ، عليه الصلاة والسلام ، بالرفيق الاعلى .. ومارسوا حولها الجدل ولجأوا فيها الى الاجتهاد . واحتدم بينهم بسببها الصراع حتى قبل أن يواروا رسولهم قبره الشريف .. !

ثم ان ما استقروا عليه يومئذ من تنصيب ابى بكر الصديق خليفة عليهم لم يكن خاتمة لجدلهم حولها وصراعهم الذى شب بسببها ، بل ظلت بؤرة للنزاع والصراع منذ ذلك التاريخ ، وعلى امتداد هذا التاريخ .

كما أن الصراع من حول هذه القضية لم يقف عند حد الجدل الفكرى والحجاج النظرى ، بل كانت أولى القضايا وأهم القضايا التى جرد المسلمون سيوفهم كى تحسم خلافاتهم فيها ، حتى ليصح لنا أن نقول : ان هذه السيوف لمَ تسل فى قضية من القضايا كما سلت وجردت

فى صراع المسلمين على الامامة والحكم . وخلافهم حول أصوله وفلسفته ، فصاحبها وامتزج على أرضها الجدل الفكرى بالصراع الدامى لعدة قرون .

واذا كانت نشأة الفرق والاحزاب الاسلامية قد فرقت كلمة المسلمين وأضعفت شوكتهم . وفى ذات الوقت أثرت حياتهم الفكرية وأكسبتها خصوبة ولدها الجدل والمناظرة والحجاج . فان النشأة السياسية لهذه الفرق والاحزاب تعود فتجعل من هذه القضية ، قضية الامامة وفلسفة الحكم وأصوله . السبب الاول والاهم فى نشأة هذه الفرق وتلك الاحزاب .

واذا كان سعى الانسان على درب التقدم والتطور قد كان ولا يزال دائبا ودائما فى سبيل الرشد . وتجاوز الطوق . والتحرر من الوصاية ، وتسويد العقل ، فان الجدل حول هذه القضية فى الفكر الاسلامى كان تكيثفا للتيارين المتصارعين على الانسان :

١ ـ ذلك الذى يريد بقاءه تحت الوصاية ، فتظل شئون حكمه وسياسة مجتمعه من اختصاص السماء ، تعين له الامام ، وتختار له الوصى . وتحدد له الحجة ، وليس على الانسان الا أن يطيع ويخضع لهذا الامام الذى يحكم بسلطان السماء وينطق بقانون الحق .

٢ ـ وذلك الذى يجاهد ليؤكد ـ فى مجال السياسة ـ معنى كون محمد ، عليه الصلاة والسلام ، خاتم الانبياء ، وما يعنيه ذلك من رفع الوصاية عن البشر ، وتسويد العقل الذى هو وكيل الحق لدى الخلق ، ومن ثم الدخول فى طور جديد من أطوار التطور الانسانى ، طور بلوغ الانسانية رشدها ، حيث لن يأتيها بعد اليوم وحى جديد

ولا رسول جديد يهدى ضالهـــا وينبه غافلها ويقوم معوجها ، وانمــا مرد جميع ذلك وعلاجه لدى العقــل الراشد فى ضوء الرسالة الخالدة .. وهذا الطور الجديد يعنى ويستلزم — فى السياسة والحكم والدولة — : أن يحكم الانسان ، وأن يختار المسلمون حاكمهم ، ويراقبوه. ويحاسبوه ويعزلوه ان انحرف عن الطريق المستقيم .. فبلوغ الانســان مرحلة الرشــد . على درب تطوره ، يعنى : أن يجتهد بالعقــل فى أمور دينه ودنياه . وأن ينهض بمسئولية الحكم فى مجتمعه نهوض الراشد ، وهو الامر الذى تحقق فى نظام الخلافة الاسلامية ، بل لعله هو الذى أعطاها وصفها عندما سميت بالخلافة الراشدة ، لان الناس الراشــدين قد اختــاروا لهم يومئذ خلفــاء راشدين ؟! فتميزوا وامتازوا عن العبرانيين — مثلا — الذين كانوا يعاملون « كخراف ضالة » يحكمها « ملوك أنبياء » تعينهم السماء ، ولا شأن لهذه «الخراف الضالة» فى شئون الحكم أو أمور التشريع !

وهذان التياران اللذان تجاذبا الانسان ، ولا يزالان ، قد دار صراعهما وصراع أنصارهما من حول قضية : الامامة ، وأصول الحكم وفلسفته ، فكان ، لذلك ، هذا المبحث جوهر الصراع الــدائر حــول : بلوغ الانسانية رشدها ؟ أو فرض الوصاية والحجر — مرة أخرى — على الانسان ؟ ..

فهو اذن موضوع الانســـان ، وقضية الــدنيا .. ولا تكليف بلا انسان مكلف . ولا دين بلا دنيــا ، اذ أن صلاحها هو الأساس لصلاح الدين ! .

هذا عن اهمية الموضوع ..

أما عن المنهج الذى حكم أسلوب معالجتنا له ، والصعوبات التى حاولنا تذليلها أثناء هذه المعالجة ، فان أبواب هذا البحث وفصوله خير من يتحدث عنهما .. واذا كان لابد من اشارات فى هذا التقديم فيكفى أن نقول :

أولا :

لقد كان الحديث عن نظرية الامامة وأصول الحكم وفلسفته عند المعتزلة ، مع المقارنة لفكرهم بفكر الفرق والاحزاب الاسلامية الاخرى ، يعنى أننا لابد أن نقدم صفحة تصور جانبا من الفكر الاسلامى لم تحظ المكتبة الاسلامية بدراسة عنه من قبل .. وللريادة هنا صعوباتها وعقباتها ، كما أن لها الحوافز والمغريات التى تعين على تذليل الصعوبات وتخطى العقبات .

ثانيا :

لقد كانت الصفحات التى كتبت عن المعتزلة فى الفكر الحديث ، سواء من المستشرقين أو العرب ، على قلتها وندرتها ــ وليس منها ما تناول الامامة وفلسفة الحكم وأصوله ــ تعتمد دائما وأبدا على تلمس فكرهم فى مصادر الخصوم الذين ناصبوا المعتزلة والاعتزال العداء . وكان العذر لأصحاب هذه الابحاث قائما، فلم تكن للمعتزلة آثار متاحة كى يستقوا منها فكرهم ومقالاتهم ، أما اليوم . ومنذ أن كشفت لنا مخطوطات اليمن وكنوز مخطوطات مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ــ خاصة عن التراث الذى بقى محفوظا من آثار المعتزلة المتأخرين ــ منذ النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ــ فلقد أصبح بالامكان أن ندرس المعتزلة من تراثهم ، وأن نلتمس مقالاتهم لدى

والرأى الاصوب لفكر المعتزلة وحركتهم ، ومن ثم أصبح متاحا لنا أن نصحح المواقف الخاطئة ، وأن ننصف هذه الفكرة المظلومة ، بل وأن نبرز تلك الصفحة التى ربما كانت أكثر صفحات تراثنا العربى الاسلامى اشراقا ، واجدر بالعناية والاستلهام .

فهنا ، أيضا ، ريادة ، لها صعوباتها وعقباتها ، ولها كذلك الحوافز التى تعين .

ثالثا :

أن بحثا يكون موضوعه : الامامة ، وفلسفة الحكم ، واصوله ــ وهو أخطر موضوعات الفكر الاسلامى ، وجماع جانبه السياسى ــ اذا ما ركز على فرقة كالمعتزلة ــ وهى فى مقدمة الفرق الاكثر أهمية ــ .. ان بحثا كهذا لابد أن يكون بمثابة اعادة تقييم لكثير من المفاهيم والآراء والنظريات التى شاعت فى هذا الحقل ، وخاصة أن المصادر الاعتزالية التى يستند اليها كانت مجهولة للباحثين المحدثين من قبل ، فاذا أضفنا الى ذلك أن هذا البحث يقارن فكر المعتزلة بفكر غيرهم من الفرق الاخرى ، ادركنا كيف أن هذا البحث يعيد تقييم هذا الجانب من جوانب الفكر الاسلامى ، ويصحح عددا من المفاهيم التى شاعت ، مع خطئها ، لا بالنسبة للمعتزلة فحسب ، بل وفرق الاسلام على وجه العموم .

ومن هنا نستطيع أن نقول : ان طبيعة البحث ، واهميته ، وعناصر الجدة فى المعلومات والحقائق التى اتاحتها لنا مصادره قد اسهمت بسهم وافر فى أن يأتى اصحابها ، وأن نقدم ، ولاول مرة ، الصورة الادق

تخطيطه وهيكله على النحو الذى تمثل فى الابواب والفصول التى تكون منها .

فللدخول الى هذا المبحث ، من بابه الطبيعى ، ولتحقيق الوضوح والدقة فى استخدام مصطلحاته ، كان لابد من (تمهيد) عن « مصطلحات هذا المبحث » .. تعالج فيه معانيها ، وتاريخ نشأتها ، ودلالة هذه النشأة على ضوء ملابساتها وتاريخها . وخاصة أن العادة قد جرت على استخدام مصطلحات مثل : « الخليفة » و «أمير المؤمنين» و « الامام » كما تستخدم المترادفات . ولقد عالجنا فى هذا (التمهيد) دلالة نشأة هذه المصطلحات وغيرها ، واثبتنا ما لكل منها من دلالة خاصة ، واستندنا الى أوثق مصادر ذلك العصر : القرآن ، والوثائق السياسية لدولة الخلافة الراشدة ، وما بعد من الحديث النبوى عن شبهة الوضع لاسباب تعلقت بالصراع السياسى . وكانت ثمرة هذا المبحث فى المصطلحات هامة وجديدة ، اذ وضعت يدنا على المفاتيح الحقيقية لتفسير الفروق الجوهرية بين فكر المعتزلة ، الذين قالوا بالشورى واختيار الناس لامامهم ، وبين فكر الشيعة ، الذين قالوا بالنص من السماء على الامام ، ورفضوا سلطان البشر وسلطتهم فى مجتمعاتهم .. وهو الخلاف الجوهرى الذى نراه قائما وبارزا فى كل صغيرة وكبيرة من جزئيات هذا المبحث وموضوعاته .

ولما كانت دولة الخلافة الراشدة ، التى قامت بعد وفاة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، هى ، بحق ، بداية التطبيق العربى الاسلامى لروح الاسلام وقواعده الكلية والعامة فى ميدان السياسة ، كما كانت « السابقة

الدستورية » التى استلهمتها مختلف الفرق الاسلامية ، واتخذت من أحداثها ووقائعها أدلة فى جدلها ومناظراتها وحجاجها ، كما كان التقييم لهذه الدولة عنصرا من العناصر التى أثمر الجدل حولها افتراق الفرق وائتلافها . لكل ذلك كانت دراسة هذه الدولة مدخلا ضروريا وهاما لفهم كثير من أمور الامامة واصول الحكم وفلسفته ، لانها بمثابة جذور الفكر السياسى الاسلامى ، وبدونها لا نستطيع وعى مصادر هذا الفكر وأصوله . ومن ثم فلقد كان (الباب) الذى عالجنا فيه النظام السياسى وأصول الحكم فى دولة الخلفاء الراشدين بمثابة اكتشاف الميدان الذى سيدور من فوقه صراع فرق الاسلام حول الامامة وفلسفة الحكم وأصوله .

وفى (الفصل الاول) من هذا الباب عالجنا موضوع « الميراث العربى فى أصول الحكم » ، فأبرزنا عناصر الجدة فى التجربة العربية الاسلامية ، بعد مقارنتها بفلسفة الحكم فى فارس وبيزنطة وميراث العرب القديم فى الحكم وشئونه .

وفى (الفصل الثانى) عالجنا فلسفة الحكم فى هذه الدولة الجديدة ، ومعنى الشورى التى استندت اليها هذه الفلسفة ، وكيف تناولت أصولها الفكرية : القرآن والسنة ، هذه الشورى . وكذلك قضية : لمن كانت حقوق الشورى وامتيازاتها ؟ .. وهو البحث الذى كشف — للمرة الاولى فى ابحاثنا — عن اقدم هيئة دستورية فى تاريخنا الاسلامى ، وهى : « هيئة المهاجرين الاولين » .. ثم مصير هذه الشورى فى التطبيق .

وفى (الفصل الثالث) عالجنا قضية الصراع على

السلطة فى دولة الخلافة الراشدة ، وطبيعة هذا الصراع ، والعوامل التى أثمرته وحددت مساره ، ـ وخاصة العوامل : القبلية ، والاقتصادية والقومية ـ مما وضع يدنا على جذور الخلافات الجوهرية التى ظلت محور الصراع بين المعتزلة ـ ومعهم أهل السنة ـ وبين الشيعة طيلة عصور الجدل والصراع حول الامامة وفلسفة الحكم وأصوله فى تاريخ العرب والمسلمين .

أما (الباب) الذى يليه فقد عقدناه لدراسة العلاقة بين قضية الامامة وفلسفة الحكم وأصوله وبين نشأة الفرق الاسلامية التى دار بينها الصراع حول هذا الموضوع .

وفى (الفصل الاول) من هذا الباب عالجنا الفرق الاسلامية ، والطابع السياسى لهذه النشأة ، ودلالة هذا الطابع .. كما عالجنا قضية عدد هذه الفرق ، وما دار حول قضية العدد هذه من أفكار خاطئة فقدمنا اسهاما لعله غير مسبوق فى تصحيح ما شاع وذاع من أفكار خاطئة بهذا الخصوص .

وفى (الفصل الثانى) عالجنا الحديث عن فرقة الخوارج ، وأشرنا الى أهم ثوراتهم ، وذلك فى اطار قضية الامامة وفلسفة الحكم وأصوله .

وفى (الفصل الثالث) عالجنا النشأة السياسية لفرقة الشيعة ، وارتباط هذه النشأة بنشأة فلسفتها الخاصة والمتميزة ، فى الامامة ، ودلالة ذلك فى تحديد تاريخ هذه النشأة ، وما لهذا التاريخ من أهمية تتجلى فى القاء الضوء على عناصر التأثير غير العربية وغير الاسلامية فى فكر الشيعة السياسى .

وفى (الفصل الرابع) عرض للنشأة السياسية لفرقة

« المرجئة » ، وعلاقة فكر هذه الفرقة بالفكر السياسى الاسلامى الذى دار من حوله الجدل يؤمئذ ، والذى كان محوره الصراع على الامامة والحكم .. كما عرضنا لما فى حركة الارجاء وفلسفته من تيارات ، وهو الامر الذى يمثل اضافة جديدة فى هذا المجال .

أما (الباب) التالى المذلك فلقد خصصناه لفرقة المعتزلة .

فتناولنا فى (الفصل الاول) منه دراسة : نشأة هذه الفرقة ، من حيث : البيئة التى ظهر فيها الاعتزال ، والرواد الاول الذين اعتنقوا هذا الفكر ، وعلاقة هذه الفرقة بالحركة التى سبقتها والتى كان يسميها خصومها « بالقدرية » ، وتطور تبلور نظرية المعتزلة واصولهم الفكرية . ثم عرضنا لقضية تسميتها باسم : « المعتزلة » ، ففندنا ما شاع فى كتابات بعض اساتذة الاستشراق عن هذه التسمية ، وابرزنا دلالة الحقائق التى عرضناها عن هذه النشأة وتلك التسمية ، وما تقدمه من معنى يرتبط بطبيعة فكرهم فى موضوع الامامة بالذات .

وفى (الفصل الثانى) عرضنا لقضية الدلالة الاجتماعية والفكرية والسياسية ، ومن ثم الحضارية ، لنشأة فرقة المعتزلة فى المجتمع العربى الاسلامى ، وذلك عندما خصصنا هذا الفصل للاجابة على سؤال : «ماذا يمثل المعتزلة ؟» . فهذه الفرقة التى برز فى قيادتها عدد من الائمة الموالى المنحدرين من اصلاب غير عربية .. ومع ذلك رفضت الفكر الشعوبى ، وقدمت بواكير الفكر القومى العربى ، والتى درس قادتها الفلسفة ، ثم لم يهملوا الدين ، بل

كانوا فلاسفة الهيين ، تفلسف عندهم الدين وتدينت الفلسفة ! .. ماذا كانوا يملثون اجتماعيا وحضاريا ؟ وما هو مقام العقل عندهم ؟وهم كخاصة و«ارستقراطية» فكرية ـ ما هو موقفهم من جماهير الناس وعامتهم ؟ .. والدلالة السياسية لكل هذه القضايا ، وعلاقتها بمبحث الامامة على وجه الخصوص .

وفى (الفصل الثالث) عرضنا لنشاط المعتزلة الفكرى ، واجتهدنا كى نرسم صورة ذلك الجهد الكبير الذى صنعته هذه الفرقة ثم تحالف على طمسه الاستبداد السياسى والتخلف الفكرى وضياع أغلب التراث الذى صنفوه .. كما حاولنا تجميع ما تيسر من حقائق عن التنظيم « السياسى الفكرى » للمعتزلة ، وأسلوبه فى الدعوة والتبشير .. وأشرنا كذلك ، فى ايجاز ، الى نظرية هذا التنظيم ، التى عرفت بالاصول الخمسة لمذهب الاعتزال.

وهذه هى موضوعات القسم الاول من هذه الدراسة .

ثم تبدأ الدراسة لصلب قضية الامامة وجوهرها . وذلك فى (الباب) الذى خصصناه للبحث فى موضوع « تمييز الامام وتثبيته » .

وفى (الفصل الاول) من هذا الباب عرضنا لقضية « وجوب الامامة » بمعنى : الحاجة الى وجود سلطة حاكمة فى المجتمع ، وما دار حول هذه القضية من خلاف ، سواء الخلاف حول مبدأ الوجوب ، أو حول طريق هذا الوجوب ، وهل هو الشرع أو العقل ؟ وميزنا مواقف الفرقاء فى هذا الخلاف ، خاصة : المعتزلة ، والشيعة ، وأهل السنة ، وابرزنا دلالة المواقف المتعددة

وعلاقة كل ذلك بمذهب كل فريق فى طبيعــة السلطة وفلسفة الحكم .

وفى (الفصل الثـانى) عرضنا لصلب القضية التى فرقت بين المعتزلة وبين الشيعة ، عندما قال المعتزلة : ان الاختيار البشرى هو طريق المجتمع الى تنصيب الامام والحاكم ، بينما قالت الشيعة : ان البشر لا شأن لهم بهذا الامر ، وأن التعيين من السماء هــو السبيل الى تنصيب الامام .. وأوضحنا دلالة هذا الخلاف وعلاقته بمذهبى : « الحق الطبيعى » و « الحق الالهى » فى الحكم وفلسفته . وبينا كيف انحازت كل الفرق غير الشيعية الى مذهب المعتزلة ورددت حججها ، فتبلور الفــكر الاسلامى فى هذه القضية الرئيسية فى تيارين اثنين . ثم تناولنـــا تفصيلا كل حجج الشـــيعة ورد المعتزلة عليها .

وفى (الفصل الثالث) أجبنا عن سؤال : « كيف يتم اختيار الامام ؟ » فتناولنـا بالدراسة : طريق اختيار الامام .. ووصلنا الى تحديد تلك الهيئة الدستورية الغامضة التى سماها أسلافنا « أهل الحل والعقــد » فتحدثنا عن صفاتهم وشروطهم ، وعددهم وتنظيمهم ، وكذلك عن علاقتهم بعـــامة النـــاس ، وبالصفوة الذين يسمون : «أهل الاختيار» .. كما عرضنا لمعنى « العقد »، وشروطه ، وضرورته .. ومعنى « البيعة » .. وكذلك قضية « ولاية العهد » .. ثم الموقف من تعدد الامام ، ومذهب الفرقاء المتددين فى وحدة السلطة العليـا فى بلاد الاسلام .

أما (الباب) التالى لذلك فجعلناه خاصا بالحديث عن « شروط الامام وسلطاته » .

فعرضنا فى (الفصل الاول) منه لشروط الامام وصفاته عند مختلف الفرق الاسلامية ، وهو الامر الذى أثبت أن الخلاف الجوهرى ـ هنا أيضا ـ يقوم بين المعتزلة ـ ومعهم أهل السنة ـ من جانب ، وبين الشيعة من جانب آخر ، وقدمنا ردود المعتزلة عن دعاوى الشيعة حول «عصمة الامام» ، وقياس الامامة على النبوة،وعلاقة الائمة بالسماء ! كما عرضنا لموقف المعتزلة من شرط « النسب القرشى » فى الامام ، وخلافهم حوله ، والدلالة السياسية لهذا الخلاف .. ثم تناولنا خلافهم مع ذلك الفريق من أهل السنة الذين أجازوا امامة الفاسق ، وتجاوزوا عن « شرط العدالة » اذا تغلب متغلب واغتصب السلطة واستبد بأمور الناس .

وفى (الفصل الثانى) تناولنا قضية « الفضل » وطابعه الدينى ، ومعنى « الافضل » .. ثم خلصنا الى دلالة مذهب المعتزلة ـ ومن وافقهم من أهل السنة ـ فى جواز امامة « المفضول دينيا » اذا كان هو « الافضل سياسيا » دلالة ذلك على مذهبهم فى طبيعة السلطة ، وكذلك دلالة رفض الشيعة لهذا المذهب الذى يجيز امامة المفضول .

وفى (الفصل الثالث) عرضنا لحصيلة الخلاف الجوهرى ـ الذى حكم كل مراحل البحث وقضاياه ـ بين المعتزلة وبين الشيعة ، وثمرة هذا الخلاف ، عندما نشأ فى الفكر الاسلامى مذهبان :

١ ـ مذهب « الحق الطبيعى » الذى قال به المعتزلة ،

الذين انكروا صبغ السلطة السياسية بالصبغة الدينية ، عندما قاسوا الامامة على الحكم والولاية والامارة .. فجعلوها شأنا من شئون الدنيا يقوم بمصالح الدنيا لا بمصالح الدين .

٢ ــ ومذهب « الحق الالهى » الذى قالت به الشيعة ، عندما جعلت طبيعة الامامة ومهامها هى طبيعة النبوة ومهامها ، فقاست الاولى على الثانية ، وجعلتهما معا من شئون السماء لا علاقة لهما بالبشر ولا أثر فيهما لارادة الانسان .

وفى هذا الفصل عرضنا لحجج كل فريق ، وأبرزنا النتائج الايجابية المترتبة على الاخذ بمذهب المعتزلة ، والآثار السلبية التى ستصيب المجتمع الاسلامى اذا ما سادت فيه نظرية « الحق الالهى » .. كما أنصفنا فكر الشيعة عندما أبرزنا الفارق بين نظرية « الحق الالهى » عند الشيعة ونظيرتها فى الحضارة الاوربية المسيحية ، وكيف كانت نظرية الحق الالهى فى أوربا : تبريرا للسلطة المستبدة ، بينما كانت عند الشيعة تعبيرا عن رفض سلطة البشر المستبدة ، وحلما مثاليا بسلطة عادلة تختارها السماء كى تملأ الارض عدلا بعد أن ملئت جورا !

وهذه هى مادة القسم الثانى من هذه الدراسة .

وفى (الباب) الاخير عرضنا للنشاط السياسى لفرقة المعتزلة ، ولمحاولتهم وضع فكرهم ومذهبهم فى الامامة موضع التطبيق .

ففى (الفصل الاول) عرضنا لحدود اختصاصات الامام والمهام المفوضة اليه من الامة بمقتضى عقد الامامة .

وكذلك لحدود اختصاصات الفرد ومجالات حريته ، وحدود هذه الحرية .. وطبقنا القول النظرى على أمثلة عدة ، منها : مجال الاحكام ، والحدود ، والاموال والثروة فى المجتمع ، وسلطات التشريع والتنفيذ .. الخ ثم عرضنا لنتائج المذاهب المختلفة فى هذه القضايا عندما يتعلق الامر بالرقابة على الامام من قبل الامة .. وحق هذه الامة فى محاسبة امامها ، والاخذ على يديه ، وكذلك حقها فى خلعه واستبداله بآخر ، ومبررات ذلك ، وأيضا الموقف من الثورة والخروج المسلح كطريق لتغيير السلطة واستبدال الامام .

ثم تحدثنا فى (الفصل الثانى) من هذا الباب عن « حقبة المعارضة لبنى أمية » فعرضنا لتقييمهم لطبيعة السلطة فى الدولة الاموية ، ورأيهم فى الفروق بين طبيعتها وطبيعة هذه السلطة فى دولة الخلافة الراشدة .. ثم ذكرنا موقف اعلامهم الاول من قضية الثورة المسلحة على بنى أمية ، واسهامهم فى الثورات التى شبت فى ذلك التاريخ .. وكذلك موقفهم من عمر بن عبد العزيز ثم المعارضة التى قادوها بعد عهده ، والمحنة التى أصابتهم على عهد هشام بن عبد الملك بن مروان .

وفى (الفصل الثالث) تحدثنا عن أولى الثورات التى قادها المعتزلة ضد الدولة الاموية ، وهى ثورة « زيد بن على » سنة ١٢٢ هـ ، وكذلك ثورة ابنه يحيى فى سنة ١٢٥ هـ . ثم عن ثورتهم الثالثة التى أطاحت بحكم الوليد بن يزيد ، ونصبت بدلا منه خليفة معتزليا هو يزيد بن الوليد سنة ١٢٧ هـ .

وفى (الفصل الرابع) عرضنا لحقيقة تاريخية لم يعرض

لها بحث من قبل ، فذكرنا كيف خطط المعتزلة كي يكون انتقال السلطة من الدولة الاموية مؤذنا بالعودة بها الى الخلافة الشورية ، وكيف جمعوا البيعة لامام منهم يختاره الناس بالشورى والعقد والبيعة ، وكيف كان العباسيون ، يومئذ ، معتزلة ، بايعوا لهذا الامام المعتزلى .. ثم كيف أجهض التيار الشعوبى الخراسانى الذى قاده أبو مسلم الخراسانى تلك المحاولة الاعتزالية، فأزاح المعتزلة عن طريق الخلافة ، ودفعها الى الفرع العباسى فى الحركة الهاشمية .. ثم كيف عارض المعتزلة ذلك الاغتصاب العباسى للسلطة ثم ثاروا ثورة مسلحة على عهد أبى جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ .

وفى (الفصل الخامس) عرضنا لموقف المعتزلة من الدولة العباسية بعد فشل ثورتهم ضدها سنة ١٤٥ هـ ، وكيف كان ظهور مدرسة المعتزلة البغداديين ذا دلالة سياسية ، لانه كان يعنى الرفض والمقاومة ـ غير المسلحة ـ للدولة العباسية .. ثم علاقة « نكبة البرامكة » بانحسار نفوذ التيار الشعوبى ، واثر ذلك فى تقرب الدولة العباسية من المعتزلة ، وافراج الرشيد عن زعمائهم الذين كانوا فى السجون .. ثم ظهور مدرسة «المعتزلة البصريين» على عهد المأمون والمعتصم والواثق ، الذين كانوا معتزلة ، وتقييم هذه المدرسة الاعتزالية لطبيعة السلطة العباسية على عهد هؤلاء الخلفاء الثلاثة . وأخيرا : ذلك الانقلاب الذى قام به المتوكل العباسى ضد المعتزلة ، فكان بداية محنتهم التى تصاعدت بها الدولة العباسية من نطاق السياسة الى مستوى العقيدة والدين ؟! .

وفى ختام هذا الفصل أشرنا الى صحوة مذهب المعتزلة

وفرقتهم فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وكيف تكونت لفكرهم مدرسة تزعمها القاضى عبد الجبار المتوفى سنة ٤١٥ هـ ، وهى المدرسة التى حفظت لنا أصول تراثهم الذى دمرته الدولة العباسية وأهل الحديث منذ انقلاب المتوكل .. والى هذه الصحوة الاعتزالية ومدرسة القاضى عبد الجبار ، بالذات ، يعود الفضل فى استطاعة بحث كهذا أن يقدم صورة صادقة ووافية عن نظرية المعتزلة فى الامامة وفلسفة الحكم وأصوله ، مقارنة بنظريات الفرق الاخرى فى هذا الموضوع .

وأخيرا .. تناولنا فى خلاصة البحث النقاط الاساسية والجوهرية التى توجز أهم المواقف الفكرية للمعتزلة فى قضية السلطة والامامة والدولة وكيف عالجوا أصول الحكم وفلسفته على نحو ميز مذهبهم فيه عن مذاهب غيرهم ، وعن مذهب الشيعة بالذات .

ذلك هو الهيكل العام الذى قدمنا البحث من خلاله وفى اطاره .. وهو الهيكل الذى حددته طبيعة المبحث ، وأهميته ، والمنهج الذى استخدمناه فى معالجته ، كى نفى بالهدف الذى أبتغيناه .. والذى نرجو أن يكون قد حالفنا فى تحقيقه التوفيق .

د . محمد عمارة

فى مصطلحات المبحث

مصطلحات هذا المبحث ، من حيث كثرتها ، والفروق بينها ، وتاريخ نشأتها ، ودلالة تلك النشأة وذلك التاريخ، تتطلب أن نفرد لها هذا التمهيد . وخاصة اذا علمنا ان العـــادة قد جرت على استخدام هـــذه المصطلحـــات كمترادفات ، وأن هذا الاستخدام المعتاد هو أمر بعيد عن الدقة . مسبب للكثير من الاخطاء .

ومن بين المصطلحات العديدة التى أطلقت على صاحب السلطة ورئيس الدولة فى الفكر الفلسفى الاسلامى كثرت وشاعت المصطلحات الثلاثة : «الخليفة» و «أمير المؤمنين» و « الامام » .

أما المصطلحات الاخرى التى تقل عن هذه فى الشيوع ، أو تنفرد باستعمالها واطلاقها على صاحب السلطة فرقة بعينها من بين فرق الاســلام فهى : « خليفــة الله » و « الوصى » و « الملك » و « ولى الامر » و « سلطان الله » .

واذا كانت العـــادة قد جرت على تناول البحث فى موضوع «صاحب السلطة ورئيس الدولة» ، بل وموضوع « الدولة ومؤسساتها » بوجه عام تحت عنوان « الامامة »

فان هذا الامر ـ لدى فرق اسلامية عدة ـ لا يتعدى الخضوع لخطأ قد شاع فى هذه الابحاث وتلك الدراسات .. فالشيعة ، والامامية منهم بالذات ، هم الذين آثروا استخدام مصطلحى « الامامة » و « الامام » فى هذا المبحث ، حتى كان « القول بالامامة » دالا عليهم ، وتهمة يبرأ منها خصومهم ومخالفوهم ، حتى أن «ابن الراوندى» يقول عن « الاسوارى » ، المعتزلى ، انه « قد حكى عنه القول بالامامة » فيكذبه أبو الحسين الخياط ، ويدفع عن الاسوارى ذلك الاتهام ويقول : « هذا كذب وباطل ، وما يبالى من حكى القول بالامامة عن الاسوارى أن يحكى القول عنه بالاجبار والتشبيه ! » (١) .

ولكن .. لما كان الشيعة قد استخدموا مصطلحى « الامامة » و « الامام » ، ولما كانت جميع الفرق الاسلامية قد تصدت لفكر الشيعة فى الامامة بالدرس والنقض والتفنيد ، فلقد شاعت فى البحث مصلطحات الشيعة عند كل الباحثين من كل الاتجاهات الفكرية .. بل لقد شاع كذلك لدى مختلف الفرق ، الاطار الذى اتخذه الشيعة مكانا لهذا المبحث ، وهو اطار علم الكلام ، الباحث فى أصول العقائد ، رغم أن كل الفرق ، ما عدا الشيعة ، يرون هذا المبحث من الفروع التى اطارها الفقه لا علم الكلام . ولكن .. لما كان الشيعة هم الطرف الذى دار الصراع بينه وبين مختلف الفرق الاخرى ، تقريبا ، شاع كذلك الاطار الذى حددوه لهذا المبحث عند غيرهم ، كما شاعت المصطلحات .

---

(١) الخياط (الانتصار ، والرد على ابن الراوندى الملحد) ص ٩٩ تحقيق د. نيبرج . طبعة دار الكتب ، القاهرة سنة ١٩٢٥ م .

ولما كانت المصطلحات الاساسية فى هذا المبحث هى : « الخليفة » و « أمير المؤمنين » و « الامام » ، فان تتبع نشأتها ، ودلالة هذه النشأة فى الفكر الاسلامى مما يلقى الكثير من الضوء على الفروق الهامة بين هذه المصطلحات، وهى الفروق التى تميز وتباعد بين الفرق التى أدارت هذا الصراع حول هذا الموضوع .

مصطلح « الخليفة » :

وأول هذه المصطلحات ، وهو مصطلح « الخليفة » ، نجده فى المصادر الاصلية الثلاثة التى يجب أن نطلبه ونبحث عنه فيها ، وهى : القرآن ، والسنة ، والادب السياسى فى عصر صدر الاسلام .

ففى القرآن يخاطب الله نبيه داود فيقول : « يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » (٢) . ولكن المقام هنا لا يستدعى بالضرورة أن يكون المراد بالخلافة تلك الوظيفة السياسية التى نشأت فى عاصمة الاسلام بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهى التى يدور حولها البحث ، وتختلف فى موضوعها فرق الاسلام .. لان معنى الخلافة فى هذه الآية قد يراد به الخلافة عن الله ، لا عن الناس ، فتكون النبوة هى المرادة ، وليست تلك الوظيفة السياسية ، اما اذا كان المراد بها خلافة من سبقه فى منصب ملك بنى اسرائيل فان الملك

---

(٢) ص : ٢٦ .

هو المراد (٣) ، ولكن يبقى الفرق بين تجربة بنى اسرائيل فى « الملك » وبين تجربة العرب المسلمين فى « الخلافة » ، وكذلك الفـرق بين طبيعة المنصبين والسلطتين . وهو ما يجعل من مضمون مصطلح « الخليفة » هنـا شيئا مختلفا عن مضمونه فى مبحثنا هذا .

وفى القرآن كذلك : « الاستخلاف » فى قوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منـكم وعملوا الصـالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنـا ، يعبـدوننى لا يشركون بى شيئا » (٤) وفى قوله سـبحانه : « وهو الذى جعلـكم خلائف الارض » (٥) ، وقوله : « هو الذى جعلكم خلائف فى الارض » (٦) وقوله : « عسى ربـكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الارض » (٧) ، وقوله : « وربك الغنى ذو الرحمـة أن يشـأ يذهبـكم ويستخلف من بعـدكم ما يشاء (٨) .. ولـكن المعنى المراد هنا هو الخلافة عن الله فى عمارة الارض ، وهى الوظيغة الانسـانية العامة لبنى الانسان ، وليست الوظيفة السـياسية المحـددة لصاحب السلطة ورئيس الدولة كما يتناولها البحث الذى نحن بصدده .

---

(٣) الماوردى (ادب القاضى) جـ ١ ص ١١٧ ، ١١٨ تحقيق محيى هلال سرحان . طبعة بغداد سنة ١٩٧١ .

(٤) النور : ٥٥ .

(٥) الانعام : ١٦٥

(٦) فاطر : ٣٩ .

(٧) الاعراف : ١٢٩ .

(٨) الانعام : ١٣٣ .

اما السنة المروية فان عددا من احاديثها يتضمن مصطلح « الخليفة » فعن أبى حازم قال : قاعدت ابا هريرة خمس سنين ، فسمعته يحدث عن النبى .. قال : « كانت بنو اسرائيل تسوسهم الانبياء ، كلما هلك نبى خلفه نبى ، وانه لا نبى بعدى ، وستكون خلفاء ، فتكثر ، قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : بيعة الاول فالاول ، واعطوهم حقهم ، فان الله سائلهم عما استرعاهم » (٩) .

وهذا الحديث يحدد أن طبيعة نظام الخلافة فى الاسلام يختلف عن طبيعة نظام الحكم لدى العبرانيين ، فعند العبرانيين كانت السلطة الدينية متحددة بالسلطة السياسية ، لان بنى اسرائيل « كانت تسوسهم الانبياء ، كلما هلك نبى خلفه نبى » أما فى الاسلام فالخلفاء غير الانبياء ، لانه لا نبوة بعد الرسول عليه الصلاة والسلام .

اما فى الادب السياسى لعصر صدر الاسلام فاننا نجد لقب « خليفة رسول الله » هو اللقب الوحيد المستعمل فى مكاتبات أبى بكر الصديق ووثائق الفترة التى حكم فيها ، لم يرد فى مكاتباته ووثائق عصره لقب سواه ، كما أن لقب « أمير المؤمنين » هو اللقب الوحيد الذى استخدم فى مكاتبات عمر بن الخطاب ووثائق عصره ، لم يستخدم فيها لقب سواه (١٠) .

ونحن نميل الى أن نجعل من وثائق عصر النبوة

---

(٩) (صحيح مسلم) بشرح النووى . ج ١٢ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ، كتاب الامارة ، طبعة القاهرة ، على نفقة محمود توفيق . بدون تاريخ .

(١٠) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ص ٢٥٩ ــ ٣٥٦ جمعها الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادى . الطبعة الثانية . القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

والخلافة الراشدة أوثق المصادر فى التاريخ لنشأة مصطلح « الخليفة » ، وهو المصدر الذى يحدد تاريخ نشأة هذا المصطلح بخلافة أبى بكر الصديق ، ومن ثم لا نميل الى التماس هذا المصطلح فى الحديث النبوى ، لان هناك أحاديث تتحدث عن « الخلافة » وأخرى عن « الامامة » وأخرى عن « الامارة » وكذلك « الوصاية » ، ولان المصطلح الذى استخدمه القرآن للتعبير عن السلطة والحكم والسياسة كان مصطلح « الامر » الوارد فى آية « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » (١١) ومصطلح « الامر » هذا يشيع وينتشر فى المصادر الاولى التى أرخت لتلك الفترة المبكرة من ظهور ذلك النظام السياسى عند العرب المسلمين .

فاذا كانت الخلافة كنظام حكم ، قد بدأت بأبى بكر ، واذا كانت مكاتبات أبى بكر وثائق عصره قد خلت الا من لقب « خليفة رسول الله » فان ذلك هو التاريخ الحقيقى لميلاد هذا المصطلح السياسى فى الفكر الاسلامى .

أما الطبيعة السياسية لهذا المصطلح فانها تتضح من ملابسات ومناسبات كثيرة ، فى مقدمتها رفض أبى بكر دعوة الناس له بخليفة الله ، عندما قال : « لست بخليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله » (١٢) .. فخلافة الله ، فى هذا المقام ، تعنى النبوة والرسالة والتبليغ ، وهى الامر الذى انتهى بموت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبقى الجانب الزمنى والسياسى من سلطاته ، وهو ما تحمل به أبو بكر عندما اختاره المسلمون .

---

(١١) النساء : ٥٩ .

(١٢) الماوردى (الاحكام السلطانية ، والولايات الدينية) ص ١٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م . وأبو يعلى محمد بن الحسين الفراء (الاحكام السلطانية) ص ١١ تحقيق محمد أحمد الفقى . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م

مصطلح ((أمير المؤمنين)) :

اما مصطلح (أمير المؤمنين » ، واطلاقه على صاحب السلطة العليا فى الدولة الاسلامية ، فان نشأته لم تسبق عصر عمر بن الخطــاب . وأغلب الروايات تميل الى أن الصدفة هى التى جعلت عمر بن الخطاب يختار لنفسه لقب « أمير المؤمنين » ، فابن خلدون يقول : انه قد « اتفق أن دعا بعض الصــحابة عمر بأمير المؤمنين ، فاستحسنه الناس ، واستصوبوه ، ودعوه به..» (١٣) ، وأنا لا أميل الى أن الصدفة هى التى وقفت وراء هذا الاختيار .. وذلك لعدة أسباب أهمها :

أولا : ان مصطلح«الامارة» ولقب«الامير»كان مستخدما ومعروفا فى أدب السنة النبوية قبل نشأة نظام الخلافة ، ففى الدولة الاسلامية ، على عهد الرسول ، كانت هناك « امارة » فى الجيوش ، وعلى المدن والاقاليم ، وكان هناك ، بالتالى « أمراء » .. وفى الحديث : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » ، وفى حديث آخر : « من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر ، فانه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت الا مات ميتة جاهلية » ، وفى حديث ثالث يقول الرسول لعبد الرحمن بن سمره : « لا تسأل الامارة ، فانى أن أعطيتها عن مسألة وكلت اليها ، وان أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها » .. وكما يقول بن خلدون ، فلقد

(١٣) (المقدمة) ص ١٧٩ . طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

« كانوا يسمون قواد البعوث باسم الامير .. وقد كان الجاهلية يدعون النبى : أمير مكة وأمير الحجاز » (١٤) .

ولكن هؤلاء الامراء كانوا أمراء الرسول ، معينين من قبله ، أو عن أمر منه ، وبترتيب حدده .

ثانيا : فى أواخر عهد أبى بكر وأوائل عهد عمر اجتمع جمهور المؤمنين فى جيش «القادسية» تحت قيادة أميرهم سعد بن أبى وقاص ، فدعاه الصحابة لذلك أمير المؤمنين « لامارته على جيش القادسية ، وهم معظم المسلمين يومئذ » (١٥) .. فاللقب كان اذن معروفا قبل أن يكون خاصا بعمر بن الخطاب .

ثالثا : ان عمر بن الخطاب كان واعيابالفروقبينالالقاب التى تطلق على صاحب السلطة العليا فى الدولة ـ فهو فى مواطن كثيرة يرفض لقب « ملك » لما يعنيه من القهر والجبر والتكبر والظلم ومنافاة البيعة والشورى .. ففى الخطبة التى خطبها بعد أن جاءه نبأ نصر المسلمين فى القادسية يقول : « ... انى ، والله ، ما انا بملك فأستعبدكم ، وانما أنا عبد الله عرض على الامانة» (١٦)، أى الامارة .. وعندما يعرض له أحد أصهاره ان يعطيه شيئا من بيت مال المسلمين يغضب وينتهره قائلا :

---

(١٤) (صحيح البخارى) كتاب الاحكام ج ٩ ص ٧٧ ، ٧٨ . طبعة دار الشعب ، القاهرة . و (صحيح مسلم) كتاب الامارة ج ١٢ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ .

(١٥) (المقدمة) ص ١٧٩ .

(١٦) المرجع السابق ص ١٧٩ .

« أردت أن ألقى الله ملكا خائنا ؟ » (١٧) .

فالوعى بالفروق فى مضامين الالقاب كان موجودا لدى عمر بن الخطاب وهو المقـــدمة الطبيعية لاعمال الفكر والاختيار الواعى لاحد هذه الالقاب .

ومن هنا فاننا نميل الى أن عمر قد اختـــار لقب « أمير المؤمنين » على لقب « خليفة رسول الله » ، لان هذا اللقب كان أكثر تحديدا فى التعبير عن الطبيعـة الدنيوية لهذا المنصب ، وأكثر بعدا عن الظن بأن لصاحبه سلطات دينية مثل تلك التى كانت للرسول عليه الصلاة والسلام .. وسيأتى فى الفصل الذى سنتحدث فيه عن طبيعة السلطة أن عمر بن الخطاب كان واعيا كل الوعى بالفروق بين المواقف والاتجاهات فى هذا الموضوع .

ولعل الحوار الذى ألفه الجاحظ ، أو رواه ، والذى دار بين عمر بن الخطاب والمغيرة بن شعبة ، لعل هـذا الحوار أن يكون التعبير عن الاختيار الواعى من جانب عمر للقب « أمير المؤمنين » .

« قال المغيرة لعمر : يا خليفة الله

فقال عمر : ذاك نبى الله داود !

قال : يا خليفة رسول الله !

قال : ذاك صاحبكم المفقود !

قال : يا خليفة خليفة رسول الله !

قال : ذاك أمر يطول !

قال : يا عمر !

---

(١٧) الطبرى (تاريخ الامم والملوك) ج ٣ ص ٥٨٤ بتحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . طبعة دار المعارف بمصر .

قال : لاتبخس مكانى شرفه ، أنتم المؤمنون وأناأميركم!
فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين » (١٨) .

والامر الذى يؤكد أن اختيار عمر لهـذا اللقب كان اختيارا واعيا ، وأنه قد اختاره كبديل للقب « خليفة رسول الله » ، وليس كمرداف له ولقب ثان يستخدم معه ، ان جميع مكاتبات عصره ووثائقه ـ كما سبق أن أشرنا ـ يسمى فيها « أمير المؤمنين » ، ولم يسم فى أى منها بخليفة رسول الله أو بالخليفة (١٩) .

مصطلح « الامام » :

أما لقب « الامام » فان الاتجاه العام لدى الباحثين وكتاب الفرق هو أن نشأته قد ارتبطت بنشأة الفكر النظرى الشيعى فى موضوع الامامة ، فهذا اللقب لم يطلق على رأس الدولة لا فى عهد أبى بكر ولا فى عهد عمر ، ولم تستخدمه مكاتباتهما السياسية ولا وثائق عهديهما ، لا وحده ولا كمرداف للقب «خليفة» أو «أمير المؤمنين» .

صحيح أن القرآن قد وردت به كلمة « امام » و « أئمة » ، ولكن معنى هذه الكلمات فى القرآن ـ خلافا للشيعة ـ لا ينطبق على ما نعنيه الآن ، فى هذا المبحث ، عندما نقول : « الامام » .

فالامام فى الاصل اللغوى للمصطلح هو المقدم ، المقدم

(١٨) ابن سعد (الطبقات الكبرى) ج ٣ ق ١ ص ٢١٩ طبعة دار التحرير ، القاهرة .

(١٩) (التاج ، فى أخلاق الملوك) تحقيق محمد أديب . هامش ص ١٦٢ . طبعة بيروت سنة ١٩٥٥ م .

فى أى شيء والمقتدى به فى أى سبيل « ومن ذلك قيل : امام الصلاة ، لانه يقتدى به ، وكذلك يقال للخشبة التى يعمل عليها الاسكاف : امام ، من حيث يحذو عليها ، وكذلك للشاقول (٢٠) الذى فى يد البناء : امام ، من حيث يبنى عليه ويقدر عليه .. » (٢١) .

أما القرآن فانه يستخدم مصطلح « الامام » فى مقام المسئوليات الدينية لا السياسية ، فهو خاص بالنبوة والتقوى أكثر مما هو دال على رأس الدولة وأمير المؤمنين.

فالامام فى قوله تعالى : « فانتقمنا منهم وانهما لبامام مبين » (٢٢) . معناه : « الطريق الواضح » (٢٣) .. وفى قوله : « كل شيء احصيناه فى امام مبين » (٢٤) ، معناه « اللوح المحفوظ » (٢٥) ، وفى قوله : « واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمن ، قال انى جاعلك للناس اماما » (٢٦) « انما يراد به النبوة » (٢٧) .. وفى قوله : « ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة » (٢٨) معناه « كتابا مؤتما به فى الدين » (٢٩) .

---

(٢٠) (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) ص ٣٠٢ ـ ٣٥٦ .

(٢١) الشاقول : هو ميزان اعمال البناء ، يزنون به استواء الجدار واعتداله .

(٢٢) الطوسى (تلخيص الشافى) ج ١ ق ١ ص ٢٠١ . تحقيق السيد حسين بحر العلوم . طبعة النجف سنة ١٣٨٣ ـ سنة ١٣٨٤ هـ .

(٢٣) الحجر : ٧٩ .

(٢٤) (تفسير البيضاوى) ص ٣٧٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م .

(٢٥) يس : ١٢ .

(٢٦) البيضاوى . ص ٦١١ . (٢٧) البقرة : ١٢٥ .

(٢٨) القاضي عبد الجبار (المغنى فى أبواب التوحيد والعدل) ج ٢٠ ق ١ ص ١٩٥ . طبعة القاهرة .

(٢٩) هود : ١٧ .

وفى قوله : « واجعلنا للمتقين اماما » (٣٠) ، معناه : « ويقتدون بنا فى أمر الدين .. » (٣١) .. وفى قوله : « يوم ندعو كل أناس بامامهم » (٣٢) ، معناه : « بمن ائتموا به من نبى أو مقدم فى الدين أو كتاب أو دين ، وقيل بكتاب أعمالهم التى قدموها » (٣٣) .

ذلك عن معنى مصطلح « الامام » فى القرآن ، وهو معنى لا يمت بصلة وثيقة الى معناه فى مبحثنا هذا .

أما فى السنة فاننا نلتقى بمصطلح الامام كيثرا ، وفى أغلب المواطن يكون معناه المقدم فى الدين والتقوى والهدى والارشاد ، فحديث ابن عوف الذى يروى فيه عن الرسول قوله : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، ويصلون عليكم وتصلون عليهم . وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » (٣٤) ، هذا الحديث ليس هناك ما يجعلنا نفهم أن المراد بالأئمة فيه أئمة الحكم والسياسة وقادة الدولة ، وليس كونهم هم المرادون به بأولى من أن يكون المراد به أئمة الدين والوعظ والهدى والارشاد ، ووضع « مسلم » له فى كتاب الامارة من صحيحه لا يخصصه بأئمة الحكم والسياسة بحال من الاحوال .

اما قول الرسول عليه الصلاة والسلام ، فى الحديث الذى رواه بن عمر : « من بايع اماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ان استطاع ، فان جاء آخر ينازعه

---

(٣٠) البيضاوى ص ٣٢٠ .
(٣١) الفرقان : ٧٤ .
(٣٢) البيضاوى ص ٥١٤ .
(٣٣) الاسراء : ٧١ .
(٣٤) البيضاوى ص ٤٠٧ .

فاضربوا عنقه » (٣٥) ، فهو ـ وجميع هذه الاحاديث احاديث آحاد ، لا تلزم فى الاعتقادات ـ يعالج قضية قد نشأت بعد عصر الرسول ، وبالذات ابتداء من زمن على بن ابى طالب فما بعد ذلك ، ويشرع لقضية خلافية فى مبحث الامامة ، وهى امامة المتغلب الخارج على الامام ، فمظنة الوضع فيه ليست بعيدة .. وحتى او سلمنا بصحته فاننا نلاحظ عددا من الاحاديث تروى فى الموضوع الواحد وبالمعنى المتحد ، ثم تتفاوت الروايات فى استبدال لفظ بلفظ ، وفى موضوعنا هذا نرى الحديث يروى مرة وفيه لفظ « الامام » ، ثم يروى ثانية وبدل لفظ « الامام » نرى لفظ « الامير » مثلا ، وهناك اجماع على استعمال مصطلح « الامير فى السنة المروية ، لأنه كان حقيقة واقعة فى الدولة على عهد الرسول ، وليس هناك ما يلزم فى الاعتقاد بأن مصطلح « الامام » قد استخدم فى السنة المروية بالمعنى الذى نقصده فى مبحثنا هنا ، فالاولى أن نرى فى استخدام لفظ « الامام » بدلا من « الامير » مجرد استبدال لفظ بلفظ من جانب الرواة .. فالحديث الذى يرويه البخارى فى كتاب الاحكام : « الا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالامام الذى على الناس راع ، وهو مسئول عن رعيته » (٣٦) الخ .. يرويه مسلم فى كتاب الامارة : « الا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالامير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته » (٣٧) .. الخ .. فالذين دونوا هذه الاحاديث قد دونوها فى عصر شاع فيه مصطلح « الامام » ، واستخدمه الفكر الاسلامى

(٣٥) (صحيح مسلم) جـ ١٢ ص ٢٢٤ .
(٣٦) المصدر السابق . جـ ١٢ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .
(٣٧) (صحيح البخارى) جـ ٩ ص ٧٧ .

والمفكرون المسلمون عامة لرئيس الدولة ورأس الامة ، تبعا وتأثرا بمباحث الشيعة فى هذا المجال ، ومن ثم حل مصطلح « الامام » محل مصطلح « الأمير » دون حرج ، واستخدما كمترادفين .. وهـذا لا يلزمنـا أن نقطـع باستخدام السنة النبوية لمصطلح « الامام » فى مجال السياسة ، خاصة بعد أن ثبت أن القرآن ، وهو المصدر المنزه عن شـبهات الوضع واختـلافات الرواة ، لم يستخدم هذا المصطلح ذلك الاستخدام .

أما حديث « الائمة من قريش ... » فسيأتى فى فصل شروط الامام ــ بالقسم الثانى من هـذه الدراسة ــ انه ليس بحديث ، وانه عبارة من المأثورات السياسية التى اضيفت الى الاحاديث ، كغيرها من الاضافات ، وان ابا بكر لم يحتج به فى اجتماع السقيفة ، كما زعم بعض كتاب الفرق ، وانما الذى رد به على قول الانصار : « منا امير ومنكم أمير » ، هو قوله : « ان العرب لا تدين الا لهذا الحى من قريش » أو « ان العرب لا تعرف هـذا الامر الا لهذا الحى من قريش » .. فلقد كان مصطلح « الامر » هو المصطلح الذى أطلقه القرآن على ما نسميه الآن ب « الامامة » ومن ثم استخدمه أبو بكر فى اجتماع السقيفة فى الرد على الانصار .. كما استخدم الانصار مصطلح « أمير » ولم يقولوا « امام » ولا خليفة .. لان السياسة كانت هى « الامر » ، وهذا « الامر » ــ على عكس « الدين » ــ فيه الشورى وأعمال البشر للفكر والرأى واتخاذ القرار ، بينما « الدين » فيه اسلام الوجه والامتثال التعبدى ، لان مصدره الغيب ووحى السماء .

ومما يزيد اطمئناننـا الى ان مصطلحى « الامر »

و « الامير » هما المصطلحان اللذان عرفهما الفكر الاسلامى فى حياة الرسول ، قرآنا وسنة دون مصطلحات «الخليفة» و « الامام » .. الخ .. ان بين «الامر» و «الامير» علاقة وثيقة .. فأبو عبيدة يقول فى معنى قول الله سبحانه : « ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » : « اى يتشاورون عليك ليقتلوك .. ويقال : ائتمروا به ، اذا هموا به وتشاوروا فيه ، والائتمار والاستئمار : المشاورة ... وآمره — « بفتح الميم والراء » — فى امر ، ووامره، واستأمره : شاوره ... وآمرته فى امرى مؤامرة : اذا شاورته وفى الحديث : « اميرى من الملائكة جبريل » اى صاحب امرى ووليى . وكل من فزعت الى مشاورته ومؤامرته فهو اميرك .. » (٣٨) .

ذلك هو مصطلح القرآن : « الامر » ، وعلى القرآن يجب أن تعرض السنة ، حتى يتميز الصحيح حقا من المحرف والموضوع .. فموضوع « الامامة » يعبر عنه القرآن « بالامر » ، ومن ثم فاننا نميل الى ان المصطلح الذى استخدمته السنة الصحيحة هو مصطلح « الامير »، وهو المصطلح الذى اختاره عمر بن الخطاب عندما استبدل لقب « خليفة رسول الله » بلقب « أمير المؤمنين » واذا كان لقب « خليفة رسول الله » قد نشأ مع تولى أبى بكر الصديق لهذا المنصب ، فان مصطلح « الامام » لم يطلق على صاحب هذا المنصب السياسى الا بعد ان أصبحت فى الاسلام فرق ، وفى هذه الفرق شيعة ، ولهؤلاء الشيعة فكر نظرى فى هذا الموضوع .. فبسبب من الطابع الدينى الذى يدل عليه مصطلح « الامام » فى القرآن ، اذ

(٣٨) (صحيح مسلم) جـ ١٢ ص ٢١٣ .

هو قد دل به على : النبوة ، والتقوى والهداية .. وبسبب من اختيـــار الشيعة الامامية للامامة بمعناها الدينى والروحى ، ورفضهم الخروج كما فعلت الزيدية ، فضلا عن الخوارج والمعتزلة ، كان اختيارهم لمصطلح « الامام »، وكذلك حتى يعطوا لأئمتهم الفضيلة الدينية على الامراء والخلفاء .

فليست هذه المصطلحات الثلاثة ، اذن ، بالمترادفة ، لأن لقب « خليفة رسول الله » كان يشير الى الصلة القريبة بين صاحبه وبين الرسول مؤسس الدولة ، ومن هنا أعتبره عمر خاصا بأبى بكر ، الذى ولى الرسول فى حكم الدولة .. كما ان لقب « أمير المؤمنين » كان الاكثر دلالة على من له سلطة « الحرب ورئيس الادارة المدنية » خاصـــة ، اما لقب « الامام » فانه يعنى ان لصـــاحبه « فعالية دينية » ليست لغيره من الناس .

ومما يؤكد غلبة المضمون الدينى على مصطلح « الامام » أن الامام ، حتى عند الشـــيعة ، كان يلقب « بأمير المؤمنين » عندما يصل الى السلطة ويرأس الدولة .. فالشيعة كانوا يطلقـون لقب « الامام » على من يدعون الناس لبيعته ، فاذا انتصرت دعوته لقبوه «بأمير المؤمنين» .. ففى الدعوة العباسية كان ابراهيم « امام » ، أما أخوه « أبو العباس » ، وهو اول من حكم واسس الدولة، فلقد لقب بأمير المؤمنين ... وفى الدعوة الفاطمية كانوا « أئمة » »حتى أبى عبد الله الذى ظل « اماما » الى أن ظهرت دعوته فى القيروان سنة ٩٠٩ م فسمى نفســـه « خليفة » و « امير المؤمنين » (٣٩) .

(٣٩) ابن منظور (لسان العرب) مادة (امر) .

ذلك عن النشأة والمضمون لكل من مصطلحات : « الخليفة » و « أمير المؤمنين » و « الامام » .. وذلك هو معنى ما ذهب اليه القاضي عبد الجبار من انه « لا يمكن أن يدعى في لفظ « الامامة » التعارف ، من جهة اللغة ، لانه لا يعقل في اللغة أنها تفيد القيام بالامور التى تختص الامام ، ولا يمكن ادعاء العرف الشرعى فيه ، فالذى حصل فيه من التعارف انما حصل باصلاح ارباب المذاهب ، وما حل هذا المحل لا يجب حمل الخطاب عليه، ولذلك لم يرو عن الصحابة ذكر الامامة ، وانما كانوا يذكرون الامير والخليفة ، ولذلك قالوا يوم السقيفة : منا امير ومنكم امير ، وقالوا لابى بكر : خليفة رسول الله ، ولعلى : امير المؤمنين ، ولم يصفوا أحدا منهم بالامام » (٤٠) .

واما قول مفكرى الشيعة بأن مصطلح « الآمامة » مرادف لمصطلح « الخلافة » مساو له فى تاريخ النشأة ، وان « عدولهم عن لفظ الامامة الى الخلافة ، وتسميتهم بـ « أمير المؤمنين » فانما كان كذلك لان كل واحد منهما يقوم مقام صاحبه ، فهم مخيرون بين جميع ذلك (٤١) فهو مردود بما قدمنا ، وبما ثبت من أن الشيعة أنفسهم يؤثرون لفظ الامامة ، بل ويذهبون الى أنها أخص من الخلافة ، اي أكمل منها ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان كانوا خلفاء لا أئمة (٤٢) .. وبما أشرنا اليه من اطلاقهم لقب

---

(٤٠) ابن خلدون (المقدمة) ص ١٨٠ ارنولد (الخلافة) ص ١٩ طبعة دمشق سنة ١٩٤٦ .

(٤١) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ١٢٩ .

(٤٢) تلخيص الشافى) جـ ١ ق ٢ ص ١٦٣ .

« أمير المؤمنين » على من اجتمعت له السلطة الزمنية ، أما من له عندهم السلطة الروحية ، دون أن يراس الدولة بانتصار دعوته ، فان لقب الامام هو لقبه دون « الخليفة » أو « أمير المؤمنين » .

وليس معنى القول بأن مصطلح « الامام » لم يظهر الا بعد أن تكونت الشيعة كفرقة وأصبح لها فكر نظرى فى الامامة ، وهو ما حدث فى النصف الثانى من القرن الاول للهجرة ، أن هذا المصطلح لم يظهر فى عهد الراشدين .. صحيح أنه قد خلت منه المكاتبات والوثائق فى عهدى ابى بكر وعمر ، ولكنه قد وصف به عثمان أحيانا ، وتردد فى كلام على ومراسلاته وخطبه ، بمعنى المقدم على الناس، سواء أكان يستحق التقديم أم لا ، وسواء أكان على الحق أم على الضلال ، أى بالمعنى اللغوى لا الاصلاحى ، فعائشة تحرض أهل البصرة ضد قتلة عثمان فتتحدث عن قتل امام المسلمين بلا ترة ولا عذر » (٤٣) .. وعلى يتحدث عن النبى فيقول : « هو امام من اتقى » (٤٤) وعن معاوية فيقول : ان « عدو الله امام المتعصبين » (٤٥) وعن نفسه فيقول لاصحابه : « .. مع أى امام بعدى تقاتلون ؟ » (٤٦) كما يكتب الى معاوية قائلا : « ... وانما الشورى للمهاجرين والانصار ، فاذا اجتمعوا على رجل فسموه

---

(٤٣) التفتازانى (شرح العقائد النسفية) ص ٤٨٤ طبعة القاهرة ، الاولى ، سنة ١٩١٣ م .

(٤٤) تاريخ الطبرى . ج ٤ ص ٤٦٢ من طبعة المعارف (أحداث سنة ٣٦ هـ) .

(٤٥) (نهج البلاغة) ص ٥٦ تحقيق محمد احمد عاشور ومحمد ابراهيم البنا ، وشرح الامام محمد عبده . طبعة دار الشعب ، بالقاهرة .

(٤٦) المصدر السابق . ص ٢٢٩ .

اماما كان ذلك الله رضا .. واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة » (٤٧) .

فلفظ « الامام » يذكر هنا بمعنى المقدم ، بصرف النظر عن استحقاقه التقدم ، وهو ما يغاير المعنى الاصطلاحى الذى اكتسبه هذا اللفظ عندما أصبح المصطلح الشائع فى هذا المبحث لدى مختلف فرق المسلمين .

مصطلح « خليفة الله » :

ولم يكن مصطلح « الامام » هو وحده الذى استجد واستحدث فى هذا المبحث ، فوصف « خليفة الله » ، المعبر عن ان الخليفة يحكم بسلطان « الحق الالهى » . وهى الفكرة الغريبة عن روح الاسلام ، هذا الوصف الذى رفضه أبو بكر عندما وصف به ، عاد الى الظهور فى الادب السياسى بعد أن تحول نظام الحكم عن طبيعة الخلافة واقترب اقترابا شديدا من نظام الملك .. فالزجاج يجيز ان يقال للخلفاء « خلفاء الله فى راضه » مستدلا على جواز ذلك بخلافة داود لله فى الارض « يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض » مع ان ذلك لا يدل له ، فهى هنا اما نبوة ، واما ملك جمعه أنبياء بنى اسرائيل الى النبوة ، واختلفت عنه وعن طبيعته الخلافة الاسلامية ، التى كانت سلطة دنيوية ليس لصاحبها سلطان الرسالة الدينى والروحى .

والشاعر جرير يخاطب الخليفة فيقول :

خليفة الله ماذا تأمرون بنا ؟

---

(٤٧) المصدر السابق . ص ٥٦ .

ويقول كذلك : خليفة الله يستسقى به المطر .

وبشار يتهكم :

ضاعت خلافتكم ، يا قوم ، فالتمسوا
خليفة الله بين الرق والعـــــود !

ويذكرون أن لقب « خليفة الله » قد دخل المكاتبات الرسمية ، بعـد أن شاع فى غيرها ، زمن المعتصم بن الرشيد (٢١٨ ـ ٢٢٨ هـ) والجاحظ يتحدث عن الادب مع « الخلفاء ـ الملوك » فيقول : أنه « يجب أن يقـال فى مخاطبتهم : يا خليفة الله ، ويا أمين الله ، ويا أمير المؤمنين » (٤٨) . ويخـاطب الفتح بن خاقان ، وزير المتوكل فيقول : « .. فأمتع الله بك خليفته ، ومنحنا وإياك محبته » (٤٩) .

مصطلح « الوصى » :

أما مصطلح « الوصى » فقد نشأ فى نطاق الفـكر الشـيعى ، كمـا نشأ مصطلح « الامام » ، ولـكنه ظل مقصورا على فكر الشيعة ، لانه ارتبط بفـكرة « الوصية » من الله أو من الرسول لعلى بالامامة ، وهى الفكرة التى رفضتها كل فرق الاسلام ، غير الشيعة .

والشيعة يلقبون عليا «بالوصى» ، ويضيفون الى الفاظ بعض الاحاديث لفظ « وصيى » ، كما صنعوا فى روايتهم

(٤٨) نصر بن مزاحم (وقعة صفين) ص ٢٩ . تحقيق وشرح عبد السلام هارون . طبعة القاهرة ، سنة ١٣٨٢ هـ .

(٤٩) (التاج) ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

لحديث : « أنت أخي ووزيري .. » الذي سيأتي الحديث عنه في مكانه من القسم الثاني من هذه الدراسة ، ولكننا لا نجد في خطب علي وكلامه ومراسـلاته ـ التي ضمها « نهج البلاغة » ـ وصفه بهذا اللفظ ، وان كنا نجد له حديثا عن الاوصياء ، يفهم منه أنهم كانوا ذوى صلات خاصة بالانبياء السـابقين ، فهو يقـول متعجبا : « .. يا عجبا ـ ومالى لا أعجب ـ من خطأ هذه الفرق على اختـلاف حججها في دينها ! لا يقتفـون اثر نبى ، ولا يقتدون بعمل وصى ، ولا يؤمنون بغيب .. » الخ (٥٠) ويخطب قائلا : « .. أيها الناس ، انى قد بثثت لـكم المواعظ التي وعظ الانبياء بهـا اممهم ، وأديت اليكم ما أدت الاوصياء الى من بعدهم » (٥١) .

ولكن ظهـور فـكرة تعين الامامة في على عن طريق « الوصية » له بها من الله أو من الرسول أو منهما ، وهى قد ظهرت بعد عصره ، كمـا سيتضح في « الفصـل الثانى » من « باب تمييز الامام وتثبيته » قد ملأ الادب الشيعى بلفظ « الوصى » لقبا لعلى بن أبى طالب .

فمن الشعر المنسوب الى زحر بن قيس الجعفى :

فصـلى الاله على أحمـد
رسول المليك تمـام النعم
رسول المليك ومن بعـده
خليفته القـائم المـدعم
عليـا عنيت وصى النبى
يجالد عنـه غـواة الامم

(٥٠) (رسائل الجاحظ ـ رسالة (مناقب الترك) جـ ١ ص ٨ تحقيق عبد السلام هارون البلاغة • طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ •
(٥١) (نهج البلاغة) ص ١٠٠ •

وينسب الى الاشعث بن قيس قوله :

أتانا الرسول ، رسول الانام
فسر بمقدمه المسلمونا
رسول الوصي ، وصي النبي
له السبق والفضل في المؤمنينا

وينسب له كذلك :

أتانا الرسول رسول الوصي
علي المهذب من هاشم
وزير النبي وذو صهره
وخير البرية والعالم (٥٢)

كما ينسب الى ابي الاسود الدؤلي قوله :

أحب محمدا حبا شديدا
وعباسا وحمزة والوصيا

والى الكميت ينسب قوله :

والوصي الذي أمال التجو
بي به عرش امة لانهدام
قتلوا يوم ذاك اذ قتلوه
حكما لا كغابر الحكام

كما ينسب لابن قيس الرقيات :

نحن منا النبي أحمد والصد
يق منا التقي والحكماء
وعلي وجعفر ذو الجنا
حين هناك الوصي والشهداء

كما يطلق كثير عزة لقب « الوصي » على محمد بن الحنفية ، فيقول فيه عندما حبسه ابن الزبير في « سجن عارم » .

(٥٢) المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

تخبر من لاقيت انك عائــــــــذ
بل العائذ المحبوس فى سجن عارم
وصى النبى المصطفى وابن عمــــه
وفكاك اعناق وقاضى مفــارم (٥٣)

مصطلح ((الملك)) :

اما مصطلح « الملك » فلقد ظل بعيدا عن الفكر النظرى لمختلف الفرق الاسلامية التى بحثت فى الامامة ، وذلك لان القرآن قد قال « ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها، وجعلوا أعزة اهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » (٥٤) ، وقال كذلك « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » (٥٥) ولان الرسول قد قال لمن ارتعد بحضرته كما يرتعد الناس فى حضرة الملوك : « هون عليك فما أنا بملك ولا جبار ! » .. ولأن على بن أبى طالب كان يحذر الناس من أن معاوية وبنى امية يريدون تحويل الخلافة الى ملك ، فيخطب قائلا : « والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل .. » .. ولأن الملك كان يسمى عند العرب : « الجبار » لقهره وتجبره وجبره الناس على طاعته فى المعــــاصى ، والقرآن يقــــول : « واذا بطشتم بطشتم جبارين » (٥٦) ... » (٥٧) .

(٥٣) ابن أبى الحديد (شرح نهج البلاغة) جـ ١ ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م .

(٥٤) المبرد (الكامل) (باب الخوارج) ـ مطبوع وحده ـ ص ٤٤ ، ٤٢ ، ٤٣ طبعة دمشق ، الثانية سنة ١٩٧٢ .

(٥٥) النمل : ٣٤ .

(٥٦) الكهف : ٧٩ .

(٥٧) الشعراء : ١٣٠ .

وسابقة الملك التى تحدث عنهـــا القرآن بغير ذم ولا تجريح هى تجربة عبرانية « ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا » (٥٨) ، ولقد سبق أن أشرنا الى حديث الرسول الذى يقطع بتغاير الحكم فى « الخلافة » عنه فى ملك بنى اسرائيل ، حيث كان الانبياء هم الملوك ، وحيث لا نبوة بعد الرسول وانما خلفــاء .. والنموذج العـــربى الذى تحدث عنه القرآن ، من أنظمة الحــكم السابقة على الاسلام ، وقــدمه فى صــورة حسنة كان نموذج دولة سبأ ، التى كانت تحكمها « بلقيس » حكما شوريا ، وتصف النظام الملكي بأن أصحابه « اذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » .

وهذا أبو ذر الغفارى ، عندما يرى ما لا يعجبه من عثمان بن عفان يحكم بأن فى الامر انحرافا وميلا عن الخلافة الى الملك ، فلقد حدث أن حظر عثمان « على الناس أن يقاعدوا أبا ذر ، أو يكلموه ، فمكث كذلك أياما ثم أمر أن يؤتى به ، فلما اتى به وقف بين يديه ، قال : ويحك يا عثمان ! اما رايت رسول الله ، صلى الله عليه ، ورايت أبا بكر وعمر ! هل رأيت هذا هديهم !! انك لتبطش بى بطش جبار ! » (٥٩) .

وحتى عندما كان بعض « الخلفاء » يصف نفسه بوصف « الملك » ، كما فعل الرشيد عندما قال لمحمد بن ابراهيم : « يا محمد ، أنا ، معشر الملوك ، اذا غضبنا على احد من بطانتنا ثم رضينا عنه بعد ذلك ، بقى لتلك الغضبة أثر

---

(٥٨) د. محمد ضياء الدين الريس (النظريات السياسية الاسلامية) ص ١٠٠ ـ ١٠٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
(٥٩) البقرة : ٢٤٧ .

لا يخرجه ليل ولا نهار » (٦٠) ، حتى بعد أن شاع ذلك المصطلح فى الاستعمال ، فانه قد ظل بعيدا عن اطار مبحث الامامة لما بين مضمونه ومضمون الخـــلافة من فروق تجعلهما على طرفى نقيض .

مصطلح « الامر » :

واذا كان مصطلح « الامام » قد حدث فى هذا المبحث بعد انقضاء عصر صدر الاسلام ، فلقد حدث أن ظهر معه كذلك مصطلح « الامامة » ، وعندما كانوا يتحدثون من « موضوع هذا المبحث » ، فانهم كانوا يذكرون مصطلح « الامر » ، أمر المسلمين الذين لهم ، بل من واجبهم ، التشاور والائتمار فيه ، وهو المقابل للدين الذى لا مشاورة ولا ائتمار فيه .

ولما كان الله ورسوله قد تركا هذا « الامر » لائتمار المسلمين وشوراهم ، فان القرآن ، الذى لم يفرط فى شيء من شئون الدين ، قد اكتفى فيما يتعلق « بالامر » بآيتين اثنتين تحدثت أولاهما الى « أولى الامر » حديثا عاما قالت فيه : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى اهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، ان الله نعما يعظم به ، ان الله كان سميعا بصيرا » (٦١) ، و « الامانة » هنا هى « ولاية أمر المسلمين » بدليل قول عمر بن الخطاب وهو يتحدث عن طبيعة المنصب الذى وليه : « ... انى ، والله ، ما انا بملك فاستعبدكم ، وانما انا عبد الله عرض على الامانة .. » (٦٢) وهى اذ تخاطب « أولى الامر » تأمرهم بأمرين :

---

(٦٠) (شرح نهج البلاغة) جـ ٣ ص ٥٧ .
(٦١) (التاج) ص ١٧٢ .
(٦٢) النساء : ٥٨ .

اولهما : أن يؤدوا الامانات الى أهلها .. أى ان يكون عائد الولاية والسلطة وثمرتها لاهلها الذين اختاروا « أولى الامر » ، وبتعبيرنا الحديث « ان تكون السلطة فى خدمة الشعب ولمصلحته » .

وثانيهما : أن يكون حكم« ولى الامر» بين الناس بالعدل.

أما ما عدا ذلك من أمر « الولاية » و « ولاة الامور » فهو متروك لاجتهاد الناس وائتمارهم ومشورتهم بعضهم مع بعض .

هذا عن آية « ولاة الامر » ، اما آية « الرعية » فانها تقول لهم : « يا أيهــا الذين آمنوا أطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » (٦٣) .. وهذه الآية تطلب :

١ ــ طاعة الله سبحانه وتعالى ..

٢ ــ طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ..

٣ ــ طاعة اولى الأمر منا ..

أما عند حدوث النزاع فى شيء فانها تطلب رده الى الله والى الرسول ، أى الى القرآن الموحى به والسنة الثابتة، ولم تجعل أولى الامر جهة تطلب الرد اليها عند التنازع ، وذلك يوحى أن طاعة الله ورسوله شيء ، وطاعة اولى الامر شيء آخر ، وأن طاعة الله ورسوله انما هى فى الدين ، ولذلك كان المرد هو الكتاب والسنة ، وأن طاعة أولى الامر انما فى أمور الدنيا ، ولذلك ترك امرها وامر التنازع فيها والفصل فيه ، لائتمار الناس وشاورهم وفق الآية التى شرعت ذلك عندما قال الله فيها : « وأمرهم شورى

---

(٦٣) تاريخ الطبرى . ج ٣ ص ٥٨٤ من طبعة المعارف .

بينهم » (٦٤) . وامرهم هنا هو : سياستهم وشئونهم الدنيوية .

وليس مثل استقراء الادب السياسى للفترة المبكرة من صدر الاسلام دليلا يؤكد قولنا : ان مصطلح « الامر » كان هو المصطلح الذى عبر عنه الفكر الاسلامى فيما بعد بمصطلح « الامامة » . فعقب وفاة الرسول مباشرة ، وقبل اجتماع السقيفة ، خطب ابو بكر الناس فقال : « أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فانه حى لايموت » ، « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » » (٦٥) . الاية . ثم قال : « وان محمدا قد مضى بسبيله ، ولابد لهذا الامر من قائم يقوم به ، فانظروا وهاتوا آراءكم ، يرحمكم الله » فناداه الناس من كل جانب ، « صدقت يا ابا بكر ، ولكنا نصبح وننظر فى هذا الامر ونختار .. » (٦٦) .

وعندما يقترب اجل ابى بكر يقول : « وددت انى يوم سقيفة بنى ساعدة قذفت الامر فى عنق أحد الرجلين — « اى عمر وأبى عبيدة » — فكان أميرا وكنت وزيرا .. ووددت أنى كنت سألته — « اى رسول الله » — فى هذا الامر ، فلا ينازع الامر أهله .. ووددت أنى سألته : هل للانصار فى هذا الامر نصيب فنعطيهم اياه .. » (٦٧) .

وعندما يعزم على البيعة لعمر ، يقول للصحابة : « تشاوروا فى هذا الامر .. ثم وصف عمر بصفاته ،

---

(٦٤) النساء : ٥٩ .

(٦٥) الشورى : ٣٨ .

(٦٦) آل عمران : ١٤٤ .

(٦٧) الشهرستانى (نهاية الاقدام فى علم الكلام) ص ٤٧٩ . تحقيق الفرد جيوم . طبعة بدون تاريخ وبدون ذكر مكان الطبع .

وعهد اليه ، واستقر الامر عيله » (٦٨) .

وفى أول خطبة لعمر بعد البيعة له يقول : « .. ليعلم من ولى هــذا الامر من بعــدى أن سيريده عنه القريب والبعيد .. » (٦٩) وفى موطن آخر يقول : « ان هــذا الامر لا يصلح الا بالشدة التى لا جبرية فيها وباللين الذى لا وهن فيه .. » (٧٠) .

ويتحدث على بن أبى طالب عن أن موت الرسول قد أعقبه « أن تنازع المسلمون الامر من بعده » .. » ولم يكن يخطر بباله « أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله عن أهل بيته .. » (٧١) .

ومن بعده يخطب الحسن ابنه فى أهل العراق : « أما والله لو وجــدت أعوانا لقمت بهــذا الامر أى قيــام ، ولنهضت به أى نهوض » (٧٢) .

وفى المفاوضات بين الحسن ومعاوية يكتب اليه معاوية يقول : « .. فادخل فى طاعتى ولك الأمر من بعدى » (٧٣) .

ذلك هو المصطلح الذى استخدمه القرآن ، وشاع فى الادب السياسى زمن صدر الاسلام ، وقبل أن يشيع مصطلح « الامامة » فى كتابات الفرق الاسلامية عن هذا الموضوع .

---

(٦٨) المسعودى (مروج الذهب) ج ١ ص ٥١٨ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

(٦٩) (نهاية الاقدام) ص ٤٧٩ .

(٧٠ ، ٧١) طبقات ابن سعد) ج ٣ ق ١ ص ١٩٧ . ص ٢٥٠ .

(٧٢) (نهج البلاغة) ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

(٧٣) د. أحمد محمود صبحى (نظرية الامامة لدى الشيعة الاثنى عشرية) ص ٣٢٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

نظام الحكم

في عصر الخلفاء الراشدين

الفصل الاول :

الميراث العربى في أصول الحكم

لقد بدأت الجماعة المسلمة تكوين الدولة العربية الاسلامية منذ أن تمت « بيعة العقبة » بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين ممثلى الاوس والخزرج .. ولكن نظام الخلافة الذى قام عقب وفاة الرسول قد اختلف اختلافا جوهريا عن نظام حكم هذه الدولة على عهد الرسول ، فلقد كانت للرسول سلطات الدولة الى جانب سلطان الدين ، ثم اختتمت بوفاته حقبة الوحى الذى يصل الارض بالسماء ، وترك الناس وعقولهم يدبرون بها شئونهم ــ وخاصة شئون الدنيا ــ فى ضوء الوصايا والارشادات والقواعد الكلية للدين .

ولم تكن دولة الخلافة أول دولة يعرفها العرب فى شبه الجزيرة ، ولم يكن نظامها أول نظام من نظم الحكم يقيمه العرب فى تلك البلاد ، ولكنها كانت دولة من نوع مختلف ، وكان نظاما مبتكرا ، فى عدد من أسسه وجوانبه ، الى حد كبير .

فلقد عرفت شبه الجزيرة ، قلبها واطرافها ، أنظمة عديدة للحكم فى القرون التى سبقت قيام نظام الخلافة ودولتها فيها .. عرف تراث هذه المنطقة نظاما ملكيا فى

بابل ، على عهد حمورابى ومن جاء بعده ، كان العرش فيه ميراثا فى أبناء الملك ، وبين العرش والعامة طبقة من كبار الملاك أو التجـــار والاثرياء ، يدعمون العرش ، ويقفون بالعامة عند حدود لا يتخطونها (١) .

وفى جنوب شبه الجزيرة عرفت دولة سبأ نظاما ملكيا، ولكنه لا يغـــالى فى المركزية ، تعلو فيه سـلطة الاسر الارســـتقراطية ، حتى أن الملك لا يبرم أمرا دون مشورتها .. (٢) .

وفى بادية الشام تعاقبت النظم والـدول الملـكية . الانباط ، ثم تدمر ، ثم الغساسنة .. وكان ذلك أيضا هو شأن الاطراف التى سكنها اللخميون على الحـدود العراقية بين العرب والفرس (٣) .

وفى مكة قامت ، قبيل الاسلام ، حـكومة ملأ قريش وأثريائها وأصحاب النفوذ الحربى والتجـارى والدينى فيها ، ضمت ممثلين لبطون قريش العشرة ، هاشم ، وأمية ، ونوفل ، وعبد الدار ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم، وعدى ، وجمح ، وسهم (٤) .

اما يثرب وواحاتها الزراعية فانها كانت قد خضعت لما يشبه السيطرة العبرانية منذ أن زحفت اليها هجرات اليهود فى القرن الاول بعد الميلاد ، عندما بدأ شتاتهم

---

(١) ول ديورانت (قصة الحضارة) جـ ٢ م ١ ص ٢٠٧ ترجمة د. زكى نجيب محمود . طبعة القاهرة .

(٢) كارل بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية) ص ١٦ ترجمة نبيه امين فارس ، ومنير البعلبكي . طبعه بيروت ، الخامسة ، سنة ١٩٦٨ م .

(٣) المرجع السابق . ص ٢٠ ــ ٢٣ .

(٤) رفاعة رافع الطهطاوى (انوار توفيق الجليل) جـ ١ الفصل الذى كتبه عن العرب قبل الاسلام . الطبعة الاولى .

الذى أعقب تدمير دولتهم على يد الرومان ، فاستعمروا تيماء ، وخيبر ، ويثرب ، وفدك ، واجتذبوا أجزاء من قبائل يثرب العربيه الى ديانتهم ، وتكلموا العربية ، ولكنهم ظلوا بمعزل عن الاندماج فى المجتمع العربى الاصلى (٥) ، فاستمرت لهم سيطرة السادة على العرب الذين كانوا موالى لهم ؟! .. يحكى ابن اسحاق عن بيعة العقبة الاولى فيقول ان الرسول عليه السلام « بينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج .. فقال لهم : من انتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أمن موالى يهود ؟! قالوا : نعم ! .. وكان يهود معهم فى بلادهم .. وكانوا قد غزوا بلادهم ، فكانوا اذا كان بينهم شيء قالوا لهم : ان نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم . فلما كلم رسول الله أولئك النفر ، ودعاهم الى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلموا والله أنه الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم اليه ، فأجابوه فيما دعاهم اليه ! » (٦) .

فهذه البيعة التى أنشأت الدولة العربية الاسلامية كان من أسبابها الجوهرية ، الى جانب العامل الدينى ، السعى الى تغيير الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى سيطر من خلالها اليهود على يثرب وما حولها .. وهى ملابسات تجعل نشأة هذه الدولة وطبيعتها مختلفة اختلافا أساسيا عن غيرها من الدول ونظم الحكم التى كانت قائمة يومئذ فى شبه الجزيرة ، أو تلك التى عرفها التراث السياسى لتلك البلاد .

وكما اختلفت طبيعة دولة الخلافة ونظام الحكم فيها

(٥) بروكلمان (تاريخ الشعوب الاسلامية) ص ٢٨ .

(٦) النويرى (نهاية الارب) ج ١٦ ص ٣١٠ ، ٣١١ طبعة القاهرة .

عنهما فى الدول والانظمة العربية التى سبقتها ، فلقد اختلفت ، فى الطبيعة والنظام ، عن الامبراطيتين اللتين تقاسمتا النفوذ والقوة والشهرة فى ذلك التاريخ : كسروية فارس ، وقيصرية الروم البيزنطيين .

ففى فارس كانت الامبراطورية تقوم على فلسفة النظام الملكى الذى تدعم سطوة الملك فيه وجبروته وتنميها قواعد ثلاث :

١ ـ عقيدة الحق الالهى التى كان الملك يحكم بموجبها، فلقد كان الاعتقاد أن قراراته وأحكامه انما هى وحى من الاله « أهورا ـ مزدا » .

٢ ـ الجيش ، الذى كان من أهم مؤسسات الامبراطورية ، والذى كان منبع النظام الملكى ذاته ، ولقد كان الملك هو راس هذه المنشأة العسكرية ، ولقبه «أوخشترا» أى المحارب ، ولقادة الجيش ـ «الاصابذة» ـ ولنخبة رجاله ـ « الاساورة » ـ أكبر النفوذ فى البلاد .

٣ ـ النظام الطبقى الثابت ، الذى حدد لكل طبقة اطارا اجتماعيا واقتصاديا وأدبيا لا تخرج عنه ، وحدودا لا تتعداها .. فبعد ملك الملوك تأتى طبقة الاشراف الاولى ، وهم ملوك الاقاليم التسعة فى الامبراطورية .. ومن بعدهم طبقة الاسر والعائلات القوية ـ «واسبوران» التى يقودها مجلس مؤلف من رؤساء سبع عائلات. ومن بعدهم طبقة النبلاء ـ « خوذايان » ـ وكبار موظفى الدولة والاقاليم ـ « المرازبة » ـ ومن بعدهم طبقة ملاك العقارات ومحتكرى الادارة والمصالح فى الريف ـ

« الدهاقنة » ـ .. ثم رجال الدين ـ الموابذة » ـ ومعهم مديرو المراسم الدينية فى المعابد ـ الهرابذة » (٧) فهى دولة اقطاع حربى ، تدعم سطوتها عقيدة الحق الالهى ، ويشد من أزرها نظام طبقى صارم وعريق .

ولم يختلف جوهر الدولة فى القيصرية الرومانية البيزنطية عنه فى الكسروية الفارسية .. فقبل اعتناقها المسيحية كان الحكم أوتوقراطيا ، غدت فيه ذات الامبراطورية « مقدسة الهية ، وفوق مستوى البشر ، محوطة بالمراسم ، بل أصبح فى نظر رعيته الها ؛ ولا يقترب الفرد من حضرته الا ساجدا .. » ، ولم تغير المسيحية من جوهرها وطبيعتها كثيرا بل لقد طوعت هذه الدولة المسيحية ولم تتطوع هى للمسيحية ، وكما يقول القاضى عبد الجبار : ان المسيحية عندما دخلت روما ، لم تنتصر روما ، ولكن المسيحية هى التى ترومت ؟!

فاحتفظت ذات الامبراطور بقداستها عن طريق نظرية الحق الالهى ورئاسته للكنيسة ، وانفراده بتفسير الشريعة ، وغدت الاوتقراطية القديمة « قيسية ملكية وبابوية قيصرية » (٨) ؟!

وكان للجيش والنظام الطبقي الصوت الاعلى فى تقرير الامور .

---

(٧) (قصة الحضارة) ج ٢ م ١ ص ٤١٥ ـ ٤١٨ . و د. محمد ضياء الدين الريس (الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية) ص ٦٢ ـ ٦٦ طبعة القاهرة . الثانية سنة ١٩٦١ م .

(٨) (الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية) ص ٣٠ ـ ٣٢ . وأرنولد (الخلافة) ص ٢٠١ .

وعلى العكس من كل انظمة الحكم هذه ، عربية أو فارسية أو بيزنطية كانت دولة الخلافة ونظامها : جديدة جدة الظروف التي ولدتها وأحاطت بنشأتها ، ومبتكرا بفعل الطبيعة الجديدة للدين الجديد والآثار الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى أحدثها فى شبه الجزيرة ظهور الاسلام .

فلم تكن ملكيه وراثية ، ولم تكن قبيلة عشائرية . ولم تكن حكومة حربية يختار فيها الجيش رأس الدولة .. ولم تكن قائمة على نظرية الحق الالهى ، بل لقد أخرج قادتها بوعى ، الخلافة من بيت النبوة ، فى البداية حتى لا تجتمع النبوة والخلافة ، لا فى شخص واحد ، بل ولا فى بيت واحد فتتأبد فيه بفعل عوامل الدين وقداسته .. ولم يكن النظام الطبقى عمادها بل لقد قامت على فلسفة مناقضة له الى حد كبير .. وحتى هذه الفئة المتميزة التى استأثرت بالقرار الحاسم فى اختيار الخليفة ، وانفردت بحق تولى هذا المنصب ، وهم المهاجرون الاولون ، ثم البدريون ، وعلى رأسهم العشرة الذين قيل انهم المبشرون بالجنة ، حتى هذه الفئة كان « شرفها » نابعا من البلاء والسبق فى نشر الدين وتأسيس الدولة ، لا من نظام طبقى ، أو أصل عرقى ، أو نعرة قبلية ، أو ثروة كبيرة .. فحتى لو سلمنا بأن حكومة الخلافة هى « حكومة اشراف » ، فان « الشرف » هنا كان ذا مضمون جديد لا وجه للمقارنة بينه وبين « شرف » الدولة والانظمة التى عاصرت او سبقت حكومة الخلافة .

كانت اذن حكومة مبتكرة الى حد كبير ، ونظاما مستحدثا من حيث الشكل والمضمون الى حد بعيد ، وكما

يقـول أرنولد ، فانه « خـلافا للامبراطورية الرومانية المقدسة ـ التى لم تكن الاحياء واعيا متعمدا لمؤسسة سياسية كانت فى عالم الوجود قبل ميلاد المسيحية ، فبعثت من جديد تحت طابع مسيحى ـ خلافا لذلك ، لم تكن الخلافة تقليـدا مقصودا لشـكل سبق وجوده من الحضارة والتنظيم السـيـاسى ، بل كانت .. وليـدة زمنها .. » (٩) .

كان الفكر السائد ، والمقـدس ، فى هـذه الدولة الجديدة يرفض الانظمة السياسية السابقة والمعاصرة ، ويوجه هجومه على أكثرها بشاعة : النظـام الملكى ، وخاصة فى صورتيه الكسروية والقيصرية .. فالملوك « اذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » . وعلى حين كان كسرى « ملك الملوك » فان الرسول يقول : « اخنع ـ « أى أوضع » ـ اسم عند الله تعالى يوم القيامة رجل يسمى ملك الاملاك » ؟! ويقول : « اشتد غضب الله على من قتل نفسه ، واشتد غضب الله على رجل تسمى بملك الملوك ، لا ملك الا الله تعالى .. » (١٠) .. وكلما لاحت شبهة انحـراف عن النهج الجديد للدولة الجديدة تساءل النقاد والمعارضون : أكسروية هى ؟ أم هرقلية ؟!

ويدرك قـادة هـذه الـدولة ، فى وعى ، الفـروق الاجتماعية الجوهرية بين نظـامهم فى الخلافة والنظـام الملكى ، فيسأل عمر بن الخطاب سلمان الفارسى ـ الذى

---

(٩) (الخلافة) ص ١ ، ٢ .

(١٠) الحديثان برواية أبى هريرة ، والاول فى مسند أحمد ، والثانى فى البخارى ـ كتاب الادب ـ أنظر مقدمة تحقيق (أدب القاضى) للماوردى ، جـ ١ ص ٤١ .

عرف الملك الكسروى وعاش فى ظله ـ يسأله : « أملك أنا ؟ أم خليفة ؟؟ » فيقول له سلمان : « ان أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل او اكثر ثم وضعته فى غير حقه ، فأنت ملك غير خليفة !! » وفى موطن آخر يسأل عمر عن الفرق بين الملك والخليفة ، فيأتيه الجواب « الخليفة لا يأخذ الا حقا ، ولا يضعه الا فى حق .. والملك يعسف الناس فيأ خذ من هذا ويعطى هذا .. فأنت بحمد الله خليفة » (١١) لا ملك !

ويدرك الذين أظلتهم راية هذه الدولة الجديدة الفروق الجوهرية بينها وبين أنظمة الحكم التى عرفوا ، ف « ذو الكلاع » ، ملك حمير يفد على أبى بكر بالمدينة ، فى موكب ملكه وتاجه وأبهته ، ومن ورائه ـ غير عشيرته ـ ألف عبد ، فيتأثر ببساطة الدولة الجديدة وفلسفتها فى المساواة فيخلع أبهة الملك ، ويمشى فى سوق المدينة وعلى كتفيه جلد شاة ، وعندما تفزع عشيرته لذلك ، ويقولون له : قد فضحتنا بين المهاجرين والانصار ، يحدثهم عن ذلك الفرق الجوهرى بين ملك الجاهلية وخلافة الاسلام فيقول : « أفأردتم منى أن أكون ملكا جبارا فى الجاهلية جبارا فى الاسلام ؟! لا ها الله ، لا تكون طاعة الرب الا بالتواضع لله والزهد فى هذه الدنيا ! .. (١٢) .

وتدرك الرعية ، حتى فى أطراف الدولة ، تلك الفروق ، فعندما بلغ أهل اليمن والبحرين وعمان نبأ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، سألوا عن نوع نظام الحكم فى الدولة الجديدة ، وعن الرجل الذى ولى السلطة فى المدينة

---

(١١) (طبقات ابن سعد) ج ٣ ق ١ ص ٢٢١ .

(١٢) (مروج الذهب) ج ١ ص ٥١٦ .

« فقالوا لعمال رسول الله : هذا الذى بايعه الناس بعد رسول الله : ابنه أو أخوه ؟ فقيل لهم : لا ، قالوا : فأقرب الناس منه ؟ قيل لا ، قالوا : فما شأنهم ؟ قيل : اختاروا أخيرهم فأمروه عليهم » .. عند ذلك أدركوا طبيعة النظام الجديد ، والفرق بينه وبين النظم التى عرفوا . فقالوا على الفور : « لن يزالوا بخير ما صنعوا هذا ! » (١٣) .

فلقد كانت دولة الخلافة ، بكل المقاييس ، ومن جهة نظر الاطراف المختلفة ، وفى الفكر والتطبيق ، نظاما جديدا يختلف عن الدول والانظمة التى عاصرته أو سبقته الي حد كبير .

---

(١٣) القاضى عبد الجبار (تثبيت دلائل النبوه) ج ١ ص ٢٧٢ تحقيق د. عبد الكريم عثمان ، طبعة بيروت سنة ١٩٦٦ .

الفصل الثانى :

فلسفة الحكم الشورى

نستطيع القول بأن فلسفة الحكم فى دولة الخلافة قد ارتكزت على الشورى ، وأن الشورى قد حظيت بتزكية القرآن وتحبيذه ، وبتطبيق الرسول ودعوته ، وأنها قد عرفت طريقها الى الحياة السياسية كفلسفة للدولة فى عصر صدر الاسلام .

ولكن هذا التعميم لا يغنى كثيرا .. فلابد من معرفة : لمن كانت الشورى ؟ وما هى المعايير التى جعلت الخاصة خاصة . فقدمتهم على العامة فى حقوق الشورى وامتيازاتها ؟ ثم .. ما هو مصير هذه الفلسفة ، التى أسست عليها الدولة الجديدة ، بعد الرسول ، ثم بعد عصر الخلفاء الراشدين ؟ ..

تلك هى القضية .. وان كان يحسن أن نقدم بين يديها عرضا موجزا لموقف القرآن والسنة من الشورى . جاءت مادة « الشورى » بالقرآن الكريم فى مواطن ثلاثة ، أحدها خاص بالحديث عن الاسرة ومشكلاتها ، فجعل القرآن « التشاور » وسيلة من وسائل الفصل فى هذه المشكلات ، وذلك عندما قال عن الرضاعة ونظامها ومسئولياتها : « والوالدت يرضعن أولادهن حولين

كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تكلف نفس الا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك، فان أراد فصالا ، عن تراض منهما وتشاور ، فلا جناح عليهما ، وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ، واتقوا الله واعلموا ان الله بما تعلمون بصير » (١) .. فلا جناح عليهما فى الفصال اذا كان عن تراض وتشاور .

أما الموطنان الآخران فان الشورى فيهما تقترن « بالامر » الذى هو السياسة والشئون البشرية ، وجوانبها الدنيوية بالذات .

ففى الحديث عن غزوة أحد ، ونتائج القتال فيها ـ وكان الرسول قد رغب البقاء بالمدينة ولقاء عدوه فيها ، فأشار عليه أصحابه بالخروج ، كما أنهم خالفوا أمره الذى رتب به بعض مواقع الرماة ، كما هو مشهور ، عن هذه الاحداث يتحدث القرآن ، ثم يخلص الى القول متحدثا الى الرسول عليه الصلاة والسلام : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الامر، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » (٢) .. فالرسول قد استمع الى مشورة أصحابه فتحقق الضرر ، ولكن القرآن ينبه أن هذا الضرر ، رغم فداحته ، هو أخف الضررين ، لانه لو لم يستجب لرايهم ومشورتهم لتفرقوا وانفضوا من حوله ، وهذا ضرر أعظم . فالشورى . اذن ، هى سبيل الالفة والوحدة ،

---

(١) البقرة : ٢٣٣ .

(٢) آل عمران : ١٥٩ .

وهــذا هو الكسب الجوهرى والاعظم بصرف النظر عن الاضرار التى تحدث فى الطــريق الى نيل هذا الهــدف العظيم .. انها فلسفة فى الاصلاح والتطور والتقدم ترفض اختيار الطريق الاقصر ، والزمن الاقــل ، والمــكسب العاجل ، وتضع عينها على الهدف الاسمى ، وتربط بين شرف الوسائل وشرف الغايات .

والموطن الاخير الذى تحدث فيه القرآن ، باللفظ ، عن الشورى جاء فى معرض تعــداد أوصـــاف المؤمنين « الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » فقال الله سبحانه وتعالى فى تعداد أوصافهم : « والذين استجابوا لربهم ، واقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » (٣) ففى الجانب الدينى استجابوا الله فآمنوا به ، ثم أقاموا الصـــلاة التى صدقت ودلت على هذا الايمان .. وفى أمورهم وسياستهم وشئونهم الدنيوية التزموا الشورى كفلسفة وسلوك .. وفى الاموال سلكوا طريق الانفاق بعد أن اقتصروا فى الكسب على «مارزقناهم» أى الكسب المشروع والحلال .

ذلك هــو موقف القرآن من « الشــورى » كفلسفة وسلوك ..

ولقد زخرت السنة النبوية ، قولا وفعلا ، بالنماذج والمواقف العـــديدة التى جاءت تطبيقا والتزاما بفلسفة الشورى .. فالرسول عليه الصلاة والسلام يقــول : « المستشير معان ، والمستشار مؤتمن » ، وهو قد شاور أصحابه فى مختلف المواطن ، وبصدد معضلات متنوعة.. شاورهم فى اختيار مواطن القتال يوم بدر .. وفى الموقف

(٣) الشورى : ٣٨ .

من أسرى بدر .. ويوم غزوة الاحزاب .. وفى اتخـــاذ وسيلة للاعلام بأوقات الصلاة . وفى حد الزنى والسرقة قبل أن ينزل فى حدهما قرآن ... حتى أن الاجماع قد استقر على أن جميع أمور الدنيا ومصالح النـــاس قد خضعت ، على عهد الرسول ، لمبدأ الشورى وسلطانها، وحتى أن بعضهم قــد ذهب الى أن الشورى قــد امتد نطاقها فشمل كذلك بعضا من أمور الدين ... وأيا كان الصواب فى هذا الخلاف فان المقطوع به أن أمور الدنيا وكل ما لم يخضع لقرار صريح من وحى السماء فهو مادة للشورى وموضوع لها . وعندما شاور الرسول أهل المدينة يوم غزوة الاحزاب شاورهم « فى أمرين : أحدهما: فى حفر الخندق ، حتى اتفقوا عليه . والثـــانى : فى صلح الاحزاب على ثلث ثمار المدينة ، فقالوا : « ان كان الله أمرك بهذا فالسمع والطاعة لأمر الله ، وان كان غير ذلك فلا تطمعهم فينا ، فانهم فى الجاهلية لم يكونوا يصلون الى ثمرة الا بشراء أو قرى » فامتنع رسول الله عما كان ذهب اليه من مصالحتهم على ثلث المدينة » (٤) .

ولكن هل خرجت الشورى ، على عهد الرسول ، من النطاق الفردى ، غير المنظم ، الى نطاق التنظيم المحكوم بمؤسسة من المؤسسـات ؟ .. نعم ، فهناك ما يشير الى

---

(٤) الماوردى (أدب القاضى) جـ ١ ص ٢٥٦ ـ ٢٦٠ . وانظر كذلك (تفسير البيضاوى) ص ٧٤ ، ١١٩ ، ٦٧٣ ، وأيضا : (الاعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ ٥ ص ٨٠ دراسة وتحقيق محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

وأيضا : أبو جعفر الاسكافى (مناقضات أبى جعفر الاسكافى لبعض ما أورده الجاحظ فى العثمانية) ص ٣٢٣ جمع وتحقيق عبد السلام هارون . مطبوع فى نهاية كتاب (العثمانية) للجاحظ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

وجود مجلس للشورى فى عهد الرسول كان عدد أعضائه سبعين عضوا (٥) ، كما كانت تلك الهيئة التى عرفت فى كتب التاريخ ومباحث الامامة باسم « المهاجرين الاولين ». وهى الهيئة التى كانت أشبه بحكومة الرسول ، والتى استأثرت بمنصب الخليفة ، ترشحه من بين أعضائها وتختاره هى ، ثم يبايعه بعد ذلك ويصدق على قرارها من حضر المدينة من المهاجرين والانصار .. فما حقيقة هذه الهيئة التى لعبت أخطر الادوار فى دولة الخلافة الرشدة ، والتى أصبحت بمثابة « السابقة الدستورية » و « النموذج الشرعى » الذى يقيس عليه مفكرو الفرق الاسلامية فى موضوع الامامة وأحكامها ؟ ..

تكونت هذه الهيئة من عشرة من كبار الصحابة هم : أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن يزيد بن نفيل ، وأبو عبيدة بن الجراح .

ولقد ظلت سلطة دولة الخلافة الراشدة فى هذه الهيئة حتى انتهت هذه الدولة وزال نظامها بانتقال الامر الى معاوية بن أبى سفيان .

ففى السقيفة قال أبو بكر : « ان العرب لا تدين الا لهذا الحى من قريش » أى الحى الذى تكون فى المدينة من مهاجرة قريش ، والذى تتزعمه هذه الهيئة من المهاجرين الاولين .. وفى السقيفة كذلك بايع اثنان من

---

(٥) فان فلوتن (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية) ص ٩٦ ترجمة د. حسن ابراهيم حسن ومحمد زكى ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

هذه الهيئة ـ هما عمر وأبو عبيده ـ لثالث منها أيضا ـ هو أبو بكر ـ فتم لهم وله الامر .. وعندما حضرت المنية أبا بكر استشار هذه الهيئة وعهد الى أحدها بالخلافة ، وهو عمر ، وعندما حضرت المنية عمر كان قد بقى منهم سبعة : عثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد بن نفيل ، فكون عمر منهم مجلس الشورى ، الذى اشتهر أمره ، بعد أن أخرج منه ابن عمه سعيد بن يزيد ، ووضع فى المجلس ابنه عبد الله ، على ألا يكون له الا المشورة فقط دون الولاية ، حتى لا يلى الخلافة من عدى أكثر من واحد .. ولقد اختار هذا المجلس من بينه عثمان فولى الخلافة .

وعندما احدث عثمان الاحداث التى أغضبت منه غالبية الناس ، كانت هـذه الهيئة فى مقـدمة المحـرضين على الخروج عليه ، وابن قتيبة يذكر أن الرسالة التى خرجت من المدينة الى الامصار تدعو الثوار للقدوم والخروج على عثمان قد خرجت باسم هذه الهيئة ، ونصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من المهـاجرين الاولين وبقية الشورى الى من بمصر من الصحابة والتابعين .. اما بعد . أن تعالوا الينا ، وتداركوا خلافة رسول الله قبل أن يسلبها أهلها ، فان كتاب الله قد بدل ، وسنة رسوله قد غيرت ، واحكام الخليفتين قد بدلت ، فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية اصحاب رسول الله والتابعين باحسان الا أقبل الينا وأخذ الحق لنا واعطاناه . فأقبلوا الينا ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وأقيموا الحق على المنهاج الواضح الذى فارقتم عليه الخلفاء . غلبنا

على حقنــــا ، واستولى على فيئنا ، وحيل بيننا وبين أمرنا ، وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة وهى اليوم ملكا عضودا ، من غلب على شيء أكله » (٦) .

فنحن هنا بازاء بيان أصــدرته هيئة ذات ســلطات وحقوق عندما رأت أن خروجا قد حدث عن العرف ، واعتداء قد تم على مالها من سلطات وحقوق .

وبعد مقتل عثمان أراد الثوار الذين كانت المدينة تحت احتلالهم بيعة على ، فأنبأهم ان الامر لبقية هذه الهيئة ، وكانوا بالمدينة يومئذ — بالاضافة الى على — هم الزبير وطلحة ، فذهبوا اليهم ، فجاوءا وبايعوا عليا ، ثم دار الصراع بينهم بعد ذلك على الخلافة ، كما هو مشهور .. أى أن الصراع دار بين من بقى من هذه الهيئة .. هيئة المهاجرين الاولين .. وبعد موت طلحة والزبير ، بقى على وحده فى الميدان ، فدار الصراع بينه وبين معاوية ، ولما استشهد على ، آخر أعضاء هيئة المهاجرين الاولين ، انتهت دولة الخلافة ونظامها ، وانتقل الامر الى معــاوية وبنى أمية ملكا عضودا .

والآن .. لنحاول أن نجيب على ســؤال : على أى أساس تكونت هيئة المهاجرين الاولين ، هذه ؟ ولماذا هؤلاء العشر بالذات ؟؟ ..

ان مصادر الفكر والتاريخ الاسلامى قد اكتفت فى تعليل امتياز هــؤلاء العشرة بسبب لا نعتقــد انه هو السبب والمعيار فى هذا التحديد والاختيار ، تقول هذه المصادر أن هؤلاء العشرة هم الذين بشرهم الرسول بالجنة ، وهم الذين مات الرسول وهو عنــه راض ، وأنه قــد قال :

(٦) (الامامة والسياسة) ج ١ ص ٣٢ . طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ .

« أبو بكر فى الجنة ، وعمر فى الجنة ، وعثمان فى الجنة ، وعلى فى الجنة ، وطلحة فى الجنة ، والزبير فى الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة ، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة ، وسعيد بن زيد فى الجنة ، وأبو عبيدة بن الجراح فى الجنة » (٧) .

ولكن .. اذا كان الامر يتعلق بالبشرى بالجنة ، فلماذا ينحصر الامر فى هؤلاء النفر ؟ ولماذا يكونون من قريش وحدها ، ومن ذوى النفوذ فى قريش بالتحديد ؟ وأين الذين آووا ونصروا وأخضعت سيوفهم شبه الجزيرة ـ ومنها قريش ـ لسلطان الاسلام ؟ وأين الارقاء الذين دخلوا الاسلام فى زمن مبكر وتحملوا من العذاب ما لم يلقه أحد من مسلمة قريش ؟

ان هـذا التعليل ـ البشرى بالجنة والرضى النبوى عنهم ـ لا ينهض سببا مقنعا وجوابا شـافيا على ذلك السؤال ..

ونحن نعتقد أن هذه الهيئة ، هيئة المهاجرين الاولين ، قد تكونت كما تتكون الهيئات السياسية ، فى مثل الفترة الزمنية والبيئة التى تكونت فيها .. وأنها كانت أقرب

---

(٧) (أسد الغابة فى معرفة الصحابة) لعز الدين بن الاثير . ج ٢ ص ٣١٩ ، ٣٢٠ تحقيق محمد ابراهيم البنا ، ومحمد أحمد عاشور . ومحمود عبد الوهاب فايد . طبعة دار الشعب ، بالقاهرة . والتفتازانى (شرح العقائد النسفية) ص ٤٩١ ، طبعة القاهرة ، الاولى سنة ١٩١٣ م . ويقول الاشعرى : ان الناس قد (اختلفوا فى قول النبى : (عشرة فى الجنة) . فقال قائلون بانكار هذا الخبر وابطاله ، وهم الروافض . وقال قائلون : هو فيهم ، على شريطة ان لم يتغيروا عما كانوا عليه حتى يموتوا ، وان ماتوا على الايمان . وقال قائلون ـ وهم أهل السنة والجماعة ـ هو فى العشرة ، وهم فى الجنة) . انظر (مقالات الاسلاميين) ج ٢ ص ١٦٣ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

الى حكومة الدولة العربية الاسلامية التى قامت بيثرب وهيئتها التأسيسية منها الى جماعة من التقاة المبشرين بالجنة ..

ولنا على ذلك شواهد ، من أهمها :

اولا :

ان هؤلاء العشرة كانوا من قوم الرسول ، قريش .. صحيح أن دعوة الاسلام كانت ترمى الى تخطى الحواجز القومية ، فضلا عن القبلية ، ولكن ظروف الدعوة فى نشأتها ، وصراعها مع خصومها قد فرضت عليها أن تلجأ للاستفادة من التأييد والنصرة المستمدين من العلاقات والروابط القبلية — فهناك من سادة قريش من أجار الرسول عندما استجار به ، مع اختلاف الدين ، لاسباب قبلية .. والعباس عم الرسول ، وهو على دين الشرك، يحضر بيعة العقبة ويستوثق للرسول من مؤمنى الاوس والخزرج ؟ ..

ثانيا :

ان هؤلاء العشرة يمثلون أهم بطون قريش .. فأبو بكر وطلحة من تيم ، وعمر وسعيد بن زيد من عدى ، وعبد الرحمن وسعد من زهرة ، وعلى من هاشم ، وعثمان من أمية ، والزبير من أسد ، وأبو عبيدة من فهر .

ثالثا :

ان الجهاز السياسى والادارى للدولة الجديدة قد نشأ

بيثرب واستقر فى مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعندما بنى هذا المسجد تحلقت من حوله بيوت أعضاء هذه الحكومة ، أو غلبها ، وكانت لبيوتهم ابواب تفضى الى ساحة المسجد ، الذى كان دار ندوة الحكومة ، وميدان تدريب جيشها ، ومقر دعوتها ومدرسة علمها وهديها وارشادها .. فلقد كانت لبيوت كل من أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد أبواب تفضى الى داخل المسجد (٨) .

رابعا :

ان هؤلاء العشرة لم يكونوا فقط وزراء الرسول ومجلس شوراه ، وانما كانوا يديمون الوقوف خلفه مباشرة فى الصلاة ، كما يلتزمون الوقوف أمامه عند الحرب والقتال. ويتحدث سعيد بن جبير عن هذه الحقيقة الهامة فيقول : « كان مقام أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد ، كانوا أمام رسول الله فى القتال ووراءه فى الصلاة » (٩) .

خامسا :

ان هؤلاء العشرة قد شهد معظمهم بدرا ، ولقد جعل الرسول من لم يشهدها منهم فى حكم من شهدها فى السهم والاجر ، فهم جميعا بدريون .

---

(٨) أبو حنيفة النعمان المغربى (دعائم الاسلام) جـ ١ ص ١٧ . تحقيق آصف بن أصغر فيضى . طبعة دار المعارف ، بمصر ـ سنة ١٩٦٩ م .

(٩) (أسد الغابة) جـ ٢ ص ٣٨٩ فى ترجمة سعيد بن زيد .

سادسا :

ان هؤلاء العشر هم المهاجرون الاولون حقا .. الاولون فى الاسلام لا فى ترتيب الهجرة ، كما يتبادر من الاسم الذى أطلق عليهم .. فلم يكونوا أول من هاجر من مكة الى يثرب . فأول من هاجر الى يثرب : أبو سلمة عبد الله بن عبد الاسد بن هلال بن عبد الله المخزومى .. ثم تتابعت الهجرة وتواصل قدوم المهاجرين فرادى وجماعات .. وأول من هاجر من العشرة عمر بن الخطاب ، ثم سعيد بن زيد ، ثم طلحة ، ثم عبد الرحمن ، ثم الزبير ، ثم عثمان ،ثم أبو بكر ، ثم على (١٠) .. ولكن هؤلاء العشرة فيهم أول ثمانية دخلوا فى دين الاسلام ، فهم أولون فى الاسلام ، ومهاجرون ، الى جانب الصفات والامكانيات التى امتازوا بها وحازوها ..

ولقد عرض ابن قتيبة للمعيار الذى استحقوا به تسمية المهاجرين الاولين فأضاف أن هؤلاء قد سموا بتلك التسمية لانهم أدركوا بيعة الرضوان ، ثم نقل عن سعيد بن المسيب قوله : « من صلى الى القبلتين فهو من المهاجرين الاولين » (١١) .. ولا شك أن هناك من شهد بيعة الرضوان ، وصلى الى القبلتين غير هؤلاء العشرة ، فاما ان نرفض هذا المعيار ، أو أن نفرق بين المهاجرين الاولين وبين تلك الهيئة السياسية التى أطلق عليها اسم المهاجرين الاولين .

---

(١٠) (نهاية الارب) جـ ١٦ ص ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(١١) (المعارف) ص ٥٧٢ تحقيق د. ثروت عكاشة . طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩ .

لقد كان المعيار الذى أختير على أساسه هؤلاء النفر العشرة من كبار الصحابة لتكوين تلك الهيئة هى مجمل الاسباب التى قدمناها ، وهى التى يلخصها ويجمعها ما كان لهم من نفوذ وامكانيات فى هذا الحى من قريش ، الذى هاجر ، وكون قبيلة قريش فى المهجر ، والنفوذ والعصبية هو معيار الاختيار الاول فى هذا المقام ، « لان الشورى والحل والعقد لا تكون الا لصاحب عصبية يقتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك » (١٢) كما يقول ابن خلدون .

تلك هى الهيئة التى انتقلت اليها أزمة السلطة وقيادة الدولة بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، والتى اصبحت مسئولة عن فلسفة الشورى التى قام عليها نظام دولة الخلافة الجديد . .

وهذه الهيئة التى استأثرت بأمر قيادة الدولة العربية الاسلامية ، لم تستأثر بالشورى من دون الناس ، ولكنها استأثرت باصدار القرار الاخير ، وحصرت تولى منصب الخليفة فى واحد منها . . فكانت تتسع بنطاق الشورى ليشمل ما هو أوسع من دائرتها ، من المهاجرين والانصار على السواء . . فأبو بكر عندما شرع يشاور الناس فيمن يعهد اليه بالخلافة من بعده ، عندما دنا منه الموت ، وكان قد عزم على العهد الى عمر ، استشار ، فيمن استشار « أسيد بن حضير فى رهط من الانصار » (١٣) وعندما سمع اعتراض بعض أعضاء هيئة المهاجرين الاولين ــ خاصة طلحة ــ على استخلاف عمر ، لشدته وغلظته ــ

---

(١٢) (المقدمة) ص ١٧٧ .

(١٣) القاضى عبد الجبار (تثبيت دلائل النبوة) ج ١ ص ٢٧٤ .

خيرهم بين ان يرضوا بتفويضه كي يختار لهم وبين أن يجتمعوا فيختاروا هم .. قال لهم « أيها الناس ، قد حضرني من قضاء الله ما ترون ، وانه لابد لكم من رجل يلي أمركم .. فان شئتم اجتمعتم فـائتمرتم ثم وليتم عليكم من أردتم وان شئتم اجتهدت لكم رأيي .. قالوا : يا خليفة رسول الله ،أنت خيرنا وأعلمنا ، فاختر لنا »(١٤) فاختار عمر ، وعهد اليه ، بعد أن أتم المشاورة ورضي به اعضاء هيئة المهاجرين الاولين .

وفي انتقال الخلافة بعد عمر بن الخطاب الى عثمان بن عفان تتأكد فلسفة الشورى في دولة الخلافة ، ويتسع نطاقها ليشمل كل من ضمته العـاصمة من المسلمين ، مهاجرين كانوا أم أنصارا ، ولكن يظل القرار الحاسم للهيئة التي تميز المرشح وتختاره ، وهي هيئة المهاجرين الاولين ، وكانت يومئذ تتكون من : عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ، وكان الحضور منهـا خمسـة ؛ اذ كان طلحة غائبا عن المدينة ..

وكان عمر قد أكد على ضرورة المشورة ، وحذر من تكرار البيعة الفجائية التي تمت لابي بكر ، فقال : « أيما رجل بايع رجلا بغير مشورة من الناس فلا يؤمر واحد منهما » (١٥) .. وقبل أن يلقى ربه جمع الخمسة الحاضرين من هيئة المهـاجرين الاولين وقال لهم : « يامعشر المهاجرين الاولين ، اني نظرت في أمر الناس

(١٤) (الامامة والسياسة) ج ١ ص ١٩ . و (شرح نهج البلاغه) ج ١ ص ١٦٤ .

(١٥) (شرح نهج البلاغة) ج ٢ ص ٤٠ .

فلم أجد فيهم شقاقا ولا نفاقا ، فان يكن بعدى شقاق ونفاق فهو فيكم . تشاوروا ثلاثة أيام ، فان جاءكم طلحة الى ذلك والا فأعزم عليكم بالله ألا تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم ، فان أشرتم بها الى طلحة فهو لها أهل (١٦) . وليصل بكم صهيب هذه الثلاثة أيام التى تتشاورون فيها ، فانه رجل من الموالى لا ينازعكم أمركم » .

ثم أراد عمر أن يوسع دائرة الشورى ، لا على صورتها العامة غير المنظمة ، انما فى صورة اضافة أعضاء جدد الى هذه الهيئة ، ولكن دون أن يكتسب الاعضاء الجدد حق التصويت واتخاذ القرار ، فخاطب الهيئة فى اجتماعه هذا قائلا : « وأحضروا معكم من شيوخ الانصار ، وليس لهم من أمركم شىء ، وأحضروا معكم الحسن بن على وعبد الله بن عباس ، فان لهما قرابة ، وأرجو لكم البركة فى حضورهما ، وليس لهما من أمركم شىء ، ويحضر ابنى عبد الله مستشارا ، وليس له من الامر شىء » (١٧).

ولعل تقلص عدد أعضاء هذه الهيئة من عشرة الى خمسة هو الذى وقف وراء اضافة عمر لاعضائها هؤلاء المستشارين ، ولعله كذلك الذى جعل عمر يطلب من عمار بن ياسر والمقداد ابن الاسود أن يقودا ثلاثين من المهاجرين ، ويطلب من أبى طلحة الانصارى أن يقود خمسين من الانصار كى يقوموا بحراسة البيت الذى تتم فيه اجتماعات هيئة المهاجرين الاولين ، والاشراف على

---

(١٦) أى هو أهل للشورى ، فليشارك فيها ، لانه عضو هيئة المهاجرين الاولين .

(١٧) (الامامة والسياسة) جـ ١ ص ٢٢ ، ٢٣ .

أمر العاصمة ، والعمل على تمام اختيار الخليفة الجديد في مدة أقصاها ثلاثة أيام (١٨) .

وعندما اجتمعت هيئة المهـــاجرين الاولين ، ورضى أعضاؤها بمن يختاره عبد الرحمن بن عوف ، بعد أن أخرج نفسه من الامر ، اجتهد عبد الرحمن فى استقصاء آراء من كان بالمدينة من المسلمين .. وفى اليوم الثالث ، خاصة، طلب من أعضاء الهيئة المكث فى مكان الاجتماع ، وقال لهم : « كونوا مكانكم حتى آتيكم ، وخرج يتلقى الناس فى انقاب المدينة ، متلثما لا يعرفه أحد فما ترك أحدا من المهاجرين والانصار وغيرهم من ضعفاء الناس ورعاعهم الا ســـــألهم واستشارهم .. أما أهل الرأى فأتاهم مستشيرا ، وتلقى غيرهم سائلا يقول : من ترى الخليفة بعد عمر ؟ » (١٩) لقد أمضى الايام الثلاثة « يستعلم من الناس ما عندهم » .. (٢٠) .

فنحن هنا أمام هيئة تستأثر بالترشيح للخلافة من بين أعضائها وحدها ، وتتخذ القرار الحاسم فى الاختيار ، ولكنها لا تستأثر بالشورى . بل أن عملها ، فيما يتعلق بالشورى ، هو تنظيمها ومد نطاقها كى يشمل ما كان ممكنا فى ظروف ذلك العصر الذى لم يكن يسمح بمد هذا النطاق الى ما وراء حدود العاصمة .

وعلى أى الاحوال فاننا نلحظ أن مرور السنوات ، ونقصان عدد الاحياء من أعضاء هيئة المهاجرين الاولين

---

(١٨) (طبقات ابن سعد) جـ ٣ ق ١ ص ٢٦٥ ٠ و (تثبيت دلائل النبوة) جـ ١ ص ٢٧٩ ٠ و (صحيح البخارى) جـ ٩ ص ٩٧ ٠ كتاب الاحكام ٠

(١٩) (الامامة والسياسة) جـ ١ ص ٢٤ ٠

(٢٠) الماوردى (الاحكام السلطانية) ص ١٢ ٠

قد اقترن بادخال عناصر جديده فيهـــا . ولعل انتشار الاسلام وثبات قواعد دولته ، وتغلغل عقائده فى القلوب قد خلق من عوامل الاستقرار والاطمئنان ما جعل قــادة الدولة ، وبالذات عمر بن الخطاب ، يفكرون فى مد نطاق الهيئة التى انيط بها أمر اختيار خليفة المسلمين .. ويشهد لذلك قول عمر قبيل وفاته : ان « هذا الامر فى أهل بدر ما بقى منهم أحد ، ثم فى أهل أحد ما بقى منهم أحد ، وفى كذا وكذا . وليس فيها لطليق ولا اولد طليق ولا لمسلمة الفتح شىء » (٢١) .

فهنا أخذت قاعدة الشورى فى الاتســاع ، لان الظروف قد تغيرت . والولاء للدولة الجديدة قد تزايد وانتشر ، ولان عدد الصفوة الذين تكونت منهم هيئة المهــاجرين الاولين قد أخذ فى الانقراض .

ولقد بدأت تجربة على بن أبى طالب مع الشورى من حيث انتهت وصايا عمر بن الخطاب واضافاته .. فلقــد أصبح الصحابة الاحياء من الذين حضروا غزوة بدر هم أصحاب الحق فى اختيار الخليفة ، وللمهاجرين والانصار عامة حق الشورى والاشتراك فى البيعة وعليهم اظهــــار الرضى بالخليفة الجديد .

وبعد مقتل عثمان ذهب الناس الى على يطـــــلبون مبايعته . وقالوا : « نبايعك ، فمد يدك ، لابد من أمير ، فأنت احق بها » ، فأنكر عليهم ممارسة حق ليس لهم ، وقال : « ليس ذلك اليكم ، انما هو لاهل الشورى وأهل بدر ، فمن رضى به أهل الشورى وأهل بدر فهو الخليفة، فنجتمع وننظر فى هذا الامر » (٢٢) ..

---

(٢١) (طبقات ابن سعد) ج ٣ ق ١ ص ٢٤٨ .

(٢٢) (الامامة والسياسة) ج ١ ص ٤١ .

ويكتب الى معاوية ، فيؤكد المبادىء التى قررها عمر أواخر عهده ، فيقول : « .. وانما الشورى للمهاجرين والانصار ، فاذا اجتمعوا على رجل فسموه اماما كان ذلك لله رضى ... واعلم يا معاوية انك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا تعقد معهم الامامة ولا تعرض فيهم الشورى .. » (٢٣) .

وفى الحوار الذى نهض به القراء مع كل من معاوية وعلى ، وهم معسكرون بـ « صفين » نلمح بروز ضرورات كانت تقتضى توسيع قاعدة الشورى لتشمل نطاقا أبعد مما سمح به عمر ووقف عنده على .. فلم يكن قد بقى من البدريين يومئذ الا عدد قليل ، وعدد من بقى من المهاجرين البارزين قد اعتزل الصراع الدائر بين على ومعاوية ، والدولة العربية الاسلامية قد اتسعت أرجاؤها ، وثبتت قواعدها ، واكتسبت ولاء الكثيرين من سكان الحواضر والبوادى خارج وسط شبه الجزيرة ، ومن ثم فان بقاء حق الشورى محصورا فى المهاجرين والانصار الموجودين بالعاصمة فقط ، مع حرمان حتى أبنائهم الذين شبوا وأصبحوا رجالا منه وبقاء سلطة اختيار الخليفة وترشيحه وتمييزه فى بقية الشورى والبدريين قد أصبح أمرا مضيقا على الناس ، من حقهم أن يضيقوا به ويتململو منه ، وبصرف النظر عن نوايا معاوية ، فلقد ركب هذه الموجة ، وتحدث باسم الذين يريدون أن تتسع قاعدة الشورى لتشملهم ، فقال للقراء حين حاوروه : ان عليا قد « ابتز الامر دوننا،على غير مشورة منا ولا ممن ها هنا معنا » بالشام ، بمن فيهم « من ها هنا من المهاجرين

---

(٢٣) (المصدر السابق) ٠ جـ ١ ص ٨٠ ، ٨١ ٠

والانصار » وعندما عرض القراء هذه المطالب على على رفضها ، وتمسك بأن هذا الحق انما هو « للبدريين دون الصحابة ! » (٢٤) .. ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان قوة حجة معاوية . وحديثه باسم الواقع الجديد ، وتعبيره عن المستقبل الذى يطلب لقاعدة الشورى أن تتسع ، كل ذلك قد أكسبه الانصار والمؤيدين ، وذلك رغم اختلاف النوايا عن المطالب المعلنة .. لقد كسب معاوية بطلبه توسيع قاعدة الشورى ، وخسر على برفضه ذلك ، مع أن عليا كان أقرب الى روح الشورى من معاوية بكثير ، وعندما آل الامر الى معاوية طويت صفحة دولة الخلافة ونظامها الذى أسس على فلسفة الشورى ، وتحولت الدولة الى ملك وراثى احتكره الامويون .. وسادت ، بدلا من الشورى ، تلك النظرية التى تقول : ان « كل ما أمكن الملك أن ينفرد به دون خاصته وحامته (٢٥) فمن أخلاقه ألا يشارك أحدا فيه .. كذا حكى عن أنوشروان ومعاوية .. وحكى عن الرشيد ما يقرب من هذا ؟! (٢٦) .

أجهضت اذن تجربة الشورى فى الدولة العربية الاسلامية ، وبدلا من أن تعيش وتتطور الهيئة التى تكونت ونهضت بمهام ترشيح الخليفة وتنظيم الشورى لاختياره وتقرير الاختيار وعقد البيعة له ، بدلا من أن تعيش وتتطور بتوسيع قاعدة الشورى ذهبت بذهاب دولة الخلافة ونظامها وفلسفتها فى الشورى ، ولم نعد نسمع عن الشورى الا حديثا تردده الفرق الاسلامية

---

(٢٤) (شرح نهج البلاغة) ج ٤ ص ١٦ .
(٢٥) عامته .
(٢٦) (التاج) ص ٩٧ .

المناهضة لنظم الحكم التى سادت ، وهو حديث نظرى ، وأكثر من ذلك فانه حديث يتناول الشورى دون أن يقدم تصورا لشكل تنظيمى يجسد الشــورى فى مؤسسة من المؤسسات .

ولكنا نعتقد أن التراجع الذى حدث لتجربة الشورى وفلسفتها لا يعنى أن التفكير فى اعادتها ، واعادتها منظمة من خلال مؤسسات متخصصة قد عاب تماما عن ساحة الفكر ومحاولات التطبيق .. فهنــــاك تجربة لعمر بن عبد العزيز عندما ولى أمر المدينة ، قبل توليه الخلافة ، شرع فيها بتكوين مجلس محلى للشورى تعـلو سلطته سلطة الوالى .. وخبر هذه التجربة يورده ابن سعد فى طبقاته عندما يقول : « لما قدم عمر بن عبد العزيز المدينة، واليا عليها ، كتب حاجبه الناس، ثم دخلوا فسلموا عليه، فلما صلى الظهر دعا عشرة نفر من فقهاء البلد : عروة ابن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ، وأبا بكر بن سليمان بن أبى حثمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله ، وعبد الله بن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد بن ثابت .. فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « انى دعوتكم لامر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانا على الحق ، ما أريد أن أقطع أمرا الا برأيكم أو برأى من حضر منكم ، فان رأيتم أحدا يتعدى ، أو بلغكم من عامل ظلامة ، فأحرج بالله على أحد بلغه ذلك الا ابلغنى ! » (٢٧) .

فهو مجلس من حقه وواجبه المراقبة ورصد التعدى

(٢٧) (طبقات ابن سعد) جـ ٥ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

وظام العمال ، ومن حقه كذلك على الوالى الا يقطع أمرا الا برأيه .. وللمرء أن يسأل : لماذا جعل عمر بن عبد العزيز عدد أعضاء هذا المجلس عشرة ؟ ألأنه كان عدد أعضاء هيئة المهاجرين الاولين ؟! .. ربما كان ذلك هو السبب ، فهى التراث الذى يقاس عليه فى هذا المقام.

وفى الفكر النظرى تطرق الحديث الى المفاضلة بين ممارسة الشورى فى صورتها الفردية ، عندما يستعين الحاكم بآراء أهل الشورى كل على انفراد ، وبين ايجاد الشكل المنظم لاجتماع أهل الشورى كى يدور الحوار وتدرس القضايا وتؤخذ الآراء وهم مجتمعون .. والماوردى .. وهو معتزلى - يعرض لهذه القضية الخلافية ، وينبه فيها الى مذاهب الامم ، ثم يعرض مذهبه فيها .. فيقول : ان مذهب الفرس هو الاجتماع المنظم لاهل الشورى ، وهناك أمم أخرى تفضل استشارتهم كأفراد وعلى انفراد ، أما مذهبه هو ففير هذين المذهبين ، يقوم على الجمع بينهما والاستفادة من محاسنهما ، حسب طبيعة القضية المطروحة للاستشارة، ولأهمية هذا التصور ، الذى لا نلتقى بمثله كثيرا فى تراثنا نقدم عبارة الماوردى ، اذ يقول :

ان الحاكم « لا ينبغى أن يتصور فى نفسه أنه ان شاور فى أمره ظهر للناس ضعف رأيه وفساد رويته ، حتى افتقر الى رأى غيره ، فان هذه معاذير النوكى (٢٨) . وليس يراد الرأى للمباهاة به ، وانما يراد للانتفاع بنتيجته ، والتحرز من الخطأ عند زلله ، وكيف يكون عارا ما أدى الى صواب ، وصد من خطأ ؟!

(٢٨) النوكى : هم الحمقى .

فاذا استشار الجماعة ، فقد اختلف اهل الراى فى اجتماعهم عليه وانفراد كل واحد منهم به .

فمذهب الفرس : أن الاولى اجتمــاعهم على الارتياء واجالة الفكر ، ليذكر كل واحد منهم ما قدحه خاطره . وأنتجه فكره ، حتى اذا كان فيه قدح عورض ، أو توجه عليه رد نوقض ، كالجدل الذى تكون فيه المناظرة ، وتقع فيه المنازعة والمشاجرة ، فانه لا يبقى فيه ، مع اجتماع القرائح عليه ، خلل الا ظهر ، ولا زلل الا بان .

وذهب غيرهم ، من أصناف الامم : الى أن الاولى استسرار كل واحد بالمشورة ، ليجيل كل واحد منهم فكره فى الرى ، طمعا فى الحظوة بالصواب ، فان القرائح اذا انفردت استكدها الفكر ، واستفرغها الاجتهاد ، واذا اجتمعت فوضت ، وكان الاول من بدائهها متبوعا .

ولكل واحد من المذهبين وجه ، ووجه الثانى أظهر .

والذى أراه فى الاولى غير هذين المذهبين على الاطلاق ، ولكن ينظر فى الشورى ، فان كانت فى حال واحدة : هل هى صواب أم خطأ ، كان اجتماعهم عليهــــا أولى ، لان ما تردد بين أمرين ، فالمراد منه الاعتراض على فساده ، او ظهور الحجة فى صلاحه ، وهذا مع الاجتماع أبلغ ، وعند المناظرة أوضح ... وان كانت الشورى فى خطب قد استبهم صوابه ، واستعجم جوابه ، من امور خافية ، واحوال غامضة ، لم يحصرها عدد ولم يجمعها تقسيم ، ولاعرف لها جواب يكشف عن خطئه وصوابه ، فأولى فى مثله : انفراد كل واحد بفكره ، وخلوه بخاطره ، ليجتهد فى الجواب ، ثم يقع الكشف عنه : أخطأ هو ام صواب ؟ فيكون الاجتهــــاد فى الجواب منفردا ، والكشف عن

الصواب مجتمعا . لان الانفراد فى الاجتهـاد أوضح . والاجتماع على المناظرة أبلغ ! .. » (٢٩) .

فهو مع تنظيم جهاز الشورى ، يحبذ الدراسة الفردية للقضايا المشكلة ، ثم عرضها مدروسة فى الاجتماع العام لهيئة الشـورى .. ولعل دراسة مفصلة ومتخصصة لموضوع الشورى — وليس هذا مقامها — أن تضع يدنا على نمـاذج أخرى ، فى التطبيق — غير تجربة عمر بن عبد العزيز — وفى الفكر النظرى عن الشورى كمؤسسة منظمة — غير فكر الماوردى — وكفى بهما هنا مثلين على بقاء قضية الشورى حية فى الواقع والفكر الاسلامى بعد موت تجربتها الاولى بانقضاء دولة الخلفاء الراشدين .

(٢٩) (أدب الدنيا والدين) ص ٢٩٢ . ٢٩٣ تحقيق مصطفى السقا . طبعة القاهرة ، الرابعة سنة ١٩٧٣ م .

الفصل الثالث :

الصراع على السلطة

بدأت خلافات المسلمين بعد الرسول ، فى السياسة وليس فى الدين ، وتركزت الخلافات وما أدت اليه من صراعات فى موضوع الخلافة وأصول الحكم وفلسفته بالذات .. لم يختلفوا على أن « لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » ولا على الايمان بالغيب والملائكة والجزاء ، ومن سبق من الانبياء والرسل وما نزل عليهم من الصحائف والكتب والالواح .. كما أنهم لم يختلفوا على الصلاة والصوم والحج الى بيت الله الحرام .. وحتى الخلاف الذى حدث حول الزكاة ، على عهد أبى بكر والذى أدى الى الحروب التى سميت ب « حروب الردة » ، حتى هذا الخلاف كان سياسيا ، لا دينيا ، والحرب والصراع من حوله دار بين « أهل القبلة » .

والاشعرى يقول : ان « أول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين ــ بعد نبيهم صلى الله عليه وسلم ــ اختلافهم فى الامامة .. كان الاختلاف بعد الرسول فى الامامة ، ولم يحدث خلاف غيره فى حياة أبى بكر وأيام عمر . الى أن ولى عثمان بن عفان ، وأنكر قوم عليه ، فى آخر أيامه ، أفعالا .. ثم بويع على بن أبى طالب ، فاختلف الناس فى

أمره ، فمن بين منكر لامامته ، ومن بين قاعد عنه ، ومن قائل بامامته ، معتقد لخلافته .. ثم حدث الاختلاف فى أيام على فى أمر طلحة والزبير .. وحربهما اياه ، وفى قتال معاوية اياه .. » (١) .

وهذا الخلاف السياسى لم يكن فقط أول خلاف ، بل كان كذلك « أعظم خلاف » . والمسلمون لم يقاتل بعضهم بعضا لاسباب دينية ، وانما جردوا السيف فقط لهذا السبب السياسى ، والشهرستانى يقرر هـذه الحقيقة فيقول : « ... وأعظم خلاف بين الامة خلاف الامامة ، اذ ماسل سيف فى الاسلام على قاعدة دينية مثل ماسل على الامامة فى كل زمان .. » (٢) .

ونحن نضيف : ان هذا الخلاف قد ظل الوحيـد والاعظم حتى أمد طويل فى عمر الاسلام والمسلمين ، وحتى تمت الفتوح وتفاعلت الافكار العربية الاسـلامية ثم تصارعت مع الملل والنحل والعقـائد الاخرى ، فظهر الخلاف فى العقائد ، من نحو التجسيد والتنزيه ، وقدم الكلمة وخلقها ، وغيرها من خلافات الاصول .. اما قبل ذلك فلقد ظل الخلاف فى الامامة ومن حولها هو الخلاف الوحيد بين المسلمين .

ففى السقيفة ، وقبل دفن جثمان الرسول عليه الصلاة والسلام ، حدث بين المهاجرين والانصار أول خلاف على الامارة .

وبعد البيعة لابى بكر مباشرة حدث الخلاف بينه وبين

---

(١) (مقالات الاسلاميين) حـ ١ ص ٣٤ و ٣٩ و ٤٧ و ٤٩ و ٥٤ و ٥٥ و ٦٠ و ٦١ .

(٢) (الملل والنحل) حـ ١ ص ٢٨ .

أنصاره ، من جانب ، وبين نفر من بنى هاشم ، ومعهم فئة قليلة ، أرادوا أن تكون البيعة لعلى بن أبى طالب ، من جانب آخر .

وبعد أشهر من هـذه البيعـة الاولى حدثت حروب « الردة » للخلاف حول سلطة الخليفة الجديد . عنـدما استمرت بعض القبـائل تدين بالاسلام ولـكنها رفضت الانصياع لما حدث فى المدينة من نقـل سـلطة الرسول الزمنية ألى أبى بكر ، وقال قائلهم :

أطعنا رسول الله اذ كان بيننا
فيا لعباد الله ما لابى بـكر
أيورثها بكرا اذا مات بعـده
فتلك لعمرو الله قاصمةالظهر؟!

وعهد عمر وان لم يشهد « خلافا » حول الامامة الا أنه قد شهد « جدلا » من حولها وما يشبه الصراع عليها .

وفى السنوات الاخيرة من عهد عثمان بن عفان برم الكثيرون بما أحدث من أحداث ، وطلب البعض خلعه ، ورفض هو محتجا بما يشبه منطق القـائلين « بالحق الالهى » وحجتهم ، ثم انتهى هذا الخلاف تلك النهاية الدامية التى نقلت الصراع حول الخـلافة من نطاق الخاصة الى نطاق العامة ، ومن رحاب العاصمة ليعم جميع الاصقاع والاطراف ، ومن الصراع بالوسـائل السلمية الى الاستعانة بالقتال .

وكان عهد على سلسلة من الخـلافات والصراعات والحروب حول الخلافة .. بينه وبين بقيـة الشورى ، اذ حاربه بعضهم واعتزاله البعض الآخر .. وبينه وبين

معاوية واهل الشـــــام .. وبينه وبين الخوارج بعــد التحكيم .

وفى أواخر عهد على ظهر الخـــلاف النظرى من حول الامامة ، عندما ظهرت فكرة الغلو فى على ، المنسوبة الى عبد الله بن سبأ ، والتى ربمـــا كانت رد فعل لبواكير الفكر النظرى عن الخـــلافة التى ظهرت بتكون الخوارج كأول فرقة منظمة من فرق الاسلام .

ثم كان ظهور الفكر الجبرى على عهد معاوية ، ومن بعده ملوك بنى أمية ، تبريرا لانتقال السلطة الى الطلقاء ، وتغير طبيعتها ، اذ كان معاوية يقول : « لو لم يرنى ربى أهــلا لهذا الامر ما تركنى واياه ، ولو كره الله تعالى ما نحن فيه لغيره ! .. وأنا خازن من خزان الله تعالى ، أعطى من أعطاه الله ، وأمنع من منعه الله ، ولو كره الله أمرا لغيره !؟ » .

وعندما اشتدت ثورات الخوارج وانتشرت ضد سلطة بنى أمية ، ظهرت نظرية الخوارج فى تكفيرهم ، وظهر الارجاء ردا على الخوارج ، ثم ظهرت نظرية المنزلة بين المنزلتين .. كل ذلك فى خضم الصراع على السلطة ، وبسبب الخلافة ومن حولها .

وهكذا كان خلاف المسلمين حول السلطة والخــلافة وأصول الحكم وفلسفته : أول خلاف ، وأعظم خلاف ، وأطول خلاف .

الصراع على السلطة فى عهد ابى بكر :

حتى نفهم ونحلل ونعى أبعاد الخلاف الذى حدث على السلطة فى سقيفة بنى ساعدة ، بين المهاجرين والانصار ،

لابد أن نستحضر عناصر البنية التى تكونت منها الدولة العربية الاسلامية فى يثرب بعد الهجرة ، وأوثق مصدر لمن يريد ذلك هو « دستور » هذه الدولة ، الذى أصدره الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسماه « الصحيفة » أو « الكتاب » ، وهو تعاقد تم بين أطراف عدة اجتمعت على تكوين هذه الجماعة الجديدة ودولتها الجديدة .

والسطور الاولى لهذا الدستور تقول : « هذا كتاب من محمد النبى ، بين : المؤمنين والمسلمين من قريش ، ويثرب ، ومن تبعتهم ، ولحق بهم ، وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس .. » .

ثم يمضى الدستور ليعدد ، بالتفصيل ، لبنات هذا الكيان الذى حولته هذه الدولة الى « أمة واحدة من دون الناس » .. فيذكر المهاجرين من قريش كحى مستقل ، له ذاتية متميزة ، وبين أفراده روابط خاصة بهم لا يشتركون فيها مع غيرهم من أعضاء هذه الامة الجديدة « فالمهاجرون من قريش على ربعتهم (٣) ، يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم (٤) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .. » .

ثم يذكر قبائل المدينة وأحياءها ، فيجعل لكل حى تلك الذاتية المتميزة ، ويقر أفراده على نفس الروابط الخاصة التى تربطهم والتى لا يشتركون فيها مع أعضاء الامة الجديدة .. وفى هذا الصدد يذكر أحياء : بنى عوف .. وبنى الحارث .. وبنى ساعدة .. وبنى جشم

(٣) أمرهم الذى كانوا عليه (وضبط « ربعتهم » : بكسر الراء وفتح الباء والعين .

(٤) أى أسيرهم .

.. وبنى النجار .. وبنى عمرو .. وبنى النبيت ... وبنى الاوس .

ثم يقرر الدستور نوعا من الاتحــاد الذى يجمع بين المؤمنين ، المهاجرين منهم والانصار ، فى صورة حقوق مشتركة وواجبـــات واحدة وميزات متساوية وعلائق متحددة .. فيقرر « أن المؤمنين لا يتركون مفرحا (٥) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل .. وانه لا يحالف مؤمن مولى مؤمن من دونه .. وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ظلم (٦) ، أو اثم ، أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم .. ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن .. وأن ذمة الله واحدة ، يجير عليه أدناهم .. وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس..وأن سلم المؤمنين واحدة،لايسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله عز وجل الا على سواء وعدل بينهم .. وأن المؤمنين يبىء (٧) بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله .. وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .. وان من اعتبط (٨) مؤمنا قتلا ، عن بينة ، فانه قود به ، الا أن يرضى ولى المقتول ، وان المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم الا القيام عليه .. وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه .. وانكم مهما اختلفتم فيه من شىء فان مرده الى الله والى محمد » .

---

(٥) المفرح ـ بضم الميم وسكون الفاء وفتح الراء ـ هو المثقل بالديون والكثير العيال .

(٦) الدسيعة : العطية .

(٧) البواء ـ بضم الباء ـ : المساواة .

(٨) اى قتل بلا موجب .

ثم يمضي الدستور فيتحدث عن يهود المدينة ، الذين يكونون لبنة من لبنات هذه الجماعة الجديدة ، فيذكر احياءهم ، كما ذكر أحياء الانصار .. يهود بني عوف .. ويهود بنى النجار .. ويهود بنى الحارث .. ويهود بنى سعادة .. ويهود بنى جشم .. ويهود بنى الاوس .. ويهود بنى ثعلبة .

ثم يتحدث عما لليهود بعضهم مع بعض من روابط خاصة وعلائق متميزة .. وعما يجمعهم مع المؤمنين من روابط ومسئوليات وحقوق وواجبات تكون وحدتهم فى هذه الجماعة الجديدة .

وكذلك يمضي الدستور الى الحديث ، بنفس المنهج ، عن الموالى الذين يتبعون تلك القبائل وهذه الاحياء (٩) . فالوحدة التى تكونت على أساسها هذه الجماعة الجديدة هى مزيج من « وحدة القبيلة » و « الوحدة الدينية » و « الوحدة السياسية » التى تجمع المسلمين واليهود ضد مشركى قريش وحلفائهم .. قبائل المسلمين كان منها وحدة بذاتها .. ثم المسلمون جميعا وحدة واحدة .. وقبائل اليهود ـ أو بالاحرى الاجزاء والاحياء اليهودية من هذه القبائل ـ كل منها تكون وحدة ـ ثم اليهود معا يكونون وحدة واحدة .. ثم المسلمون واليهود جميعا يكونون وحدة هذه الجماعة الجديدة ، وبتعبير الصحيفة: « ان يهود أمة مع المؤمنين » !

لقد بقيت ، اذن ، وعاشت داخل هذه الوحدة الجديدة ، ذاتية القبيلة ، ونعراتها ، ومصالحها ، وتقاليدها ، وطموحاتها ، ولم تكن السلطة ، فى عهد الرسول ، مطمح أحد ، لانه المتلقى عن السماء . الذى

(٩) (نهاية الارب) ج ١٦ ص ٣٤٨ ـ ٣٥١ .

ضم السلطة الزمنية الى سلطان الدين . أما وقد انتقل الى بارئه والتقى المهاجرون والانصــــار فى سقيفة بنى ساعدة ، فما كان غريبا ولا شاذا أن يحــدث التنافس والخلاف والصراع على السلطة والامارة .. فهم جميعا مسلمون ، ولم يختلفوا فى الدين ، ولـكنهم أبناء دولة واحدة ، احتفظ دستورها لكل قبيلة من قبائلها بذاتية متميزة ولقد جمعهم بالامس الولاء لسلطان الرسول فى حياته ، فخلافهم على هذا السلطان ، فى جانبه الزمنى ، بعد وفاته ، هو أمر مشروع لا يقدح فى ايمانهم بالله ولا فى وفائهم لرسوله عليه الصلاة والسلام .

ليس بالشاذ ، اذن ، أن يقع الخـلاف بين قريش والانصار ، بل لقــد كان الطبيعى والمنتظر أن يقع هــذا الخلاف .. فقريش كانت تشعر بأن الانصـــار ، بعـد الهجرة وبالاسلام ، يحاولون أن يحتلوا بين العرب مكانتهما هى قبل الاسلام ، ومدينتهم يثرب قــد انتزعت أهمية العاصمة من مكة ، ناهيك عن دخول الانصار فى جيش الفتح على قريش فى عقر دارها ، الامر الذى أدخل مسلمة الفتح القرشيين فى الدين الجديد رهبة من سيف الاسلام الذى كان أغلب حملته يومئذ من الانصار !

بل ان موقف سعد بن عبادة الذى طمح الى الامارة يوم السقيفة قبل أن تنتزعها منه قريش لابى بكر ، أن موقفــه من قريش يوم فتح مكة ليعد مقــدمة لخــلاف السقيفة ، مقدمة منطقية تفضى الى احداث هذا الخلاف .. فلقد كانت راية جيش الفتح فى ذلك اليوم مع سعد ابن عبادة ، وكانت أوامر الرسول الا يبدأ المســلمون بقتال ، ولكن يبدو أن سعد بن عبـــادة كان يريد أن يستأصل شأفة القرشيين الذين لم يدخلوا بعد فى الاسلام

ـ وهم الذين سبق أن قبضوا عليه عند رجوعه ليثرب من بيعة العقبة وعادوا به لمكة وعذبوه « فجعلوا يده الى عنقه بنسعة ، وجعلوا يضربونه ويجرون شعره ، وكان ذا جمة » (١٠) وعندما مر بأبى سفيان ، زعيم قريش ، نظر اليه سعد وقال : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا » ! .

فلما حاذى موكب الرسول مكان أبى سفيان ، فزع اليه وناداه : « يا رسول الله ، أمرت بقتل قومك ؟! فان زعم سعد ومن معه حين مر بنا أنه قاتلنا ، وقال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا ! وانى أنشدك الله فى قومك ، فأنت أبر الناس وأوصلهم وأرحمهم » !

وذهب العباس بن عبد المطلب الى الرسول يقول : « يا رسول الله ، هلكت قريش ، لا قريش بعد اليوم ، ان سعد بن عبادة قال كذا وكذا ، وانه ضيق على قريش ، ولابد أن يستأصلهم » ! .

وذهب عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف الى الرسول فقالا له : يا رسول الله ، والله ما نأمن سعدا أن تكون منه فى قريش صولة » ! .

فهدأ الرسول من روع أبى سفيان ، وقال له : « يا أبا سفيان ، اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله فيه قريشا » ! .. وعالج الرسول الامر بحكمته « فأمر أن تنتزع الراية من سعد بن عبادة ، وتدفع الى ابنه قيس بن سعد ، لئلا يجد فى نفسه شيئا » ! .

---

(١٠) (نهاية الارب) جـ ١٦ ص ٣١٧ . و (النسعة) بكسر النون وسكون السين ـ السير المضفور يجعل زماما للبعير . والجمة من شعر الرأس ماسقط على المنكبين .

ولقد صور الشاعر ضرار بن الخطاب الفهرى نزعه الانتقام التي كانت عند سعد من قريش ، والتى كادت أن تتحول الى ملحمة تستأصل قريشا يوم الفتح فقال :

يا نبى الهـــدى اليك لجـــا
حي قريش ولات حين لجـــاء
حين ضاقت عليهم ســـعة الار
ض وعاداهم اله الســـــماء
والتقت حلقتـا البطان على القو
م ونودوا بالصيلم الصلعاء (١١)
ان ســعدا يريد قاصمة الظهـ
ـر بأهـل الحجون والبطحـاء
خزرجى لو يستطيع . من الغيـ
ظ رمانا بالنسر والعـــواء (١٢)
وغر الصـــــدر لا يهم بشىء
غير ســفك الدما وهتك النساء
قد تلظى على البطـــاح وجاءت
عنه هنـد بالسـوءة السـوآء
اذ ينــــادى بذل حى قريش
وابن حرب بدا من الشـــهداء
فلئن أقحم اللــــواء ونادى
يا حمــــاة اللواء اهل اللواء
ثم ثابت اليه من بهم الخــــز
رج والاوس أنجم الهيجـــاء

---

(١١) التقت حلقتا البطان : مثل يضرب فى بلوغ الامر . والبطان : حزام يجعل تحت بطن البعير . والصيلم : الداهية الشديدة .
(١٢) النسر والعواء : كوكبان .

لتكونن بالبطـــــــاح قريش
فقعة القاع فى أكف الاماء (١٣)
فانهينــــــه فانه أســــد الا
ســد لدى الغاب وألغ فى الدماء
أنه مطرق يريد لنا الامر سكو
تا كالحيــة الصـــماء (١٤) !

لقد كانت ضعينة فى نفس سعد بن عبادة ضد قريش، فى غزت المدينة يوم الاحزاب ، وقتلت من قومه يوم حد ، وحاربها الانصار عشر سنوات قبل يوم الفتح .. إذا جاز للباحثين والمؤرخين أن يروا فى بغض مسلمة الفتح لعلى بن أبى طالب شعورا له ما يبرره ، لقتله بعض أهلهم وهم على الكفر ، افلا نجد لبغض سعد بن عبادة ذكى قريش ما يبرره وهم الذين قتلوا من قومه أبطالا ذبوا تحت رايات الاسلام ؟!

وموقف ثان يجسد المشاعر غير الودية التى كانت لدى سعد بن عبادة وقومه الانصار تجاه قريش ، قوم مسوم ، فعقب غزوة حنين قسم الرسول غنائمها فى قريش وقبائل أخرى واستثنى الانصار « فوجد هذا الحى الانصار فى أنفسهم . حتى كثرت منهم القالة » فذهب سعد بن عبادة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « يا رسول الله ، ان هذا الحى من الانصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم بما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت :

---

(١٣) الفقعة ـ بكسر الفاء وسكون القاف ـ ضرب من الكماة ، وهى بيضاء الرخوة . يشبه بها الرجل الذليل .

(١٤) (نهاية الارب) جـ ١٧ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ . وابن عبد البر (الدرر فى اختصار المغازى والسير) ص ٢٣١ . تحقيق د. شوقى ضيف . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

قسمت فى قومك وأعطيت قوما من العرب عطايا عظاما ولم يكن فى هذا الحى من الانصار منها شىء ؟! .. » ، وأراد الرسول أن يعلم : هل وجد سعد كما وجد الانصار ؟ فسأله : « فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ فقال يا رسول الله ، ما أنا الا من قومى ! » .. عند ذلك طل الرسول من سعد أن يجمع الانصار ، وخطبهم فطيب خاطرهم عندما قال : « ألا ترضون ، يا معشر الانصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول ا الى رحالكم ؟! والذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكن أمرأ من الانصار . ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصا شعبا لسلكت شعب الانصار .. فبكى القوم وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظا ! .. » (١٥) .

كانت الانصار قد أدركت منذ بيعة العقبة أنها بهجر الرسول الى يثرب انما تؤسس ملك العرب بقيادتها وتجع من مدينتها عاصمة الرسول والعرب ومنارة الاسلام ومنذ ذلك اليوم كانت تخشى أن تعود القيادة والعاص الى قريش ومكة من جديد .. فلقد استوثق من الرسول منذ تلك البيعة أن انحيازه اليهم ليس موقوتا وذلك عندما سألوه : هل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ـ فوفي بما عاهدناك عليه ـ ثم أظهرك الله ، أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟! فأجابهم رسول الله : بل الدم الدم ، الهدم الهدم ! أنتم منى وأنا منكم ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .. (١٦) .

كانت الانصار قد طمحت الى القيادة ، وكان سعد

---

(١٥) (الدرر فى اختصار المغازى والسير) ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ .
(١٦) تاريخ الطبرى . ج ٢ ص ٣٦٣ . طبعة المعارف .

ادة ، زعيم الخـــزرج ، والمتحدث فى المواطن باسم
صار ، وأحد النقباء الاثنى عشر الـذين بايعوا باسم
مهم رسول الله فى بيعة العقبة ، كان مؤهلا للقيـــادة
امحا اليها كذلك ، وكان هذا الحى من قريش الـذى
عمه المهاجرون الاولون هو الند المنافس فى هذا المقام .

وبينما المهاجرون الاولون فى شغل بأمر تجهيز الرسول
نه ، وبأمر تهدئة النفوس التى أفزعها موته ، وبعد أن
دوا على ارجاء البت فى أمر الامارة الى الغـــد ..
معت الانصار فى سقيفة بنى ســـاعدة كى يتدبروا
هم والامارة وموقفهم من المهـــاجرين اذا هم نازعوهم
ر . وفى الاجتماع ، ومن بين الانصار ، كانت هناك
يون » لابى بكر ، تحبه . وترى أحقيته فى الخلافة .
هذه «العيون» رجلان من الانصار ، ممن شهد بدرا ،
: عويم بن ساعدة ، ومعن بن عدى . كاناهذانالرجلان
حب لابى بكر فى حياة رسول الله ، واتفق مع ذلك بغض
حناء كانت بينهما وبين سعد بن عبادة .. فلما نصب
صار سعدا ، قال عويم بن ساعدة : يا معشر الخزرج ،
كان هذا الامر فيكم فعرفونا ذلك ، وبرهنـــوا حتى
كم ، وان كان لهم ــ « المهاجرين » ــ دونكم فسلموا
، فوالله ما هلك رسول الله حتى عرفنا أن أبا بكر
فة .. فشتمه الانصار وأخرجوه ، فانطلق مسرعا حتى
ق بأبى بكر ، فشحذ عزمه على طلب الخلافة « ..
عرف أبو بكر لمعن بن عدى وعويم بن ساعدة صنيعهما
مهما فى خلافته ، بينما « أقبلت الانصـــار عليهما
وهما بانطلاقهما الى المهـــاجرين ، وأكبروا فعلها فى
؟! » (١٧) .

(١٧) (شرح نهج البلاغة) ج ٦ ص ١٩ ، ٢٦ .

كان الانصار قد استمعوا الى خطبة سعد بن عبادة التى كان يجهر بها نيابة عنه ـ لمرضه ـ ولده قيس سعد .. وفى هذه الخطبة اجتهد أن يضيف الى الانص الميزة التى يفخر بها المهاجرون الاولون ، ميزة « السا فى الدين » .. فحدثهم ان الذين أسلموا بمكة قبل الهجر فى بضع عشرة سنة ، هم نفر قليل ، كانوا ضـــعفاء لايستطيعون الجهر بدينهم ، ومن ثم فان لكم ـ للانصار « سابقة فى الدين ، وفضيلة فى الاسلام ليست لقبيلة العرب » ، وتحدث عن دور الانصار فى نشر الاسلام وتأي رسوله ، ثم خلص الى الغاية المرجوة فقال : « .. فشد أيديكم بهذا الامر ، فانكم أحق الناس وأولاهم به » .

ولقد وافق الانصار ، جميعا ، سعدا على رأيه ، واختاروه هو للامارة .. نعم ، فكتب التاريخ ومصـاد تشير الى أن هناك ما يشبه البيعة أو الشروع فى البي قد حدث من الانصار لسعد بن عبادة ، فابن قتيبة يقول انهم « أجابوه جميعا : أن قد وفقت فى الرأى وأصبت القـول ، ولن نعـد ما رأيت ، نوليك هـذا الامر ، فا مقنع (١٨) ولصالح المؤمنين رضى » .. وعبارة الطبرى « فأجابوه بأجمعهم : ان قد وفقت فى الرأى ، وأصبت القول ، ولن نعد ما رأيت ، نوليك هذا الامر ، فانك ف مقنع ولصالح المؤمنين رضى » .

ثم تدارس الانصار ما يصنعون باعتراض المهاجرين ع استئثار الانصار بالامارة ، وظهر فيهم تياران ، تيار ير طرد المهـــاجرين من المدينة أن هم أبوا الانصياع لاما

(١٨) المقنع ـ بفتح الميم وسكون القاف وفتح النون ـ هو الشا العدل .

سعد بن عبادة ، وتيار يرى اقتسام الامارة معهم ، يليها مهاجرى ، فاذا هلك وليها أنصارى ، وهكذا دواليك .

وعندما سمع سعد بن عبادة هذا الحل الوسط ، رأى فيه تراجعـــا من الانصار عن تصميمهم على الاستئثار بالامارة ، وقال : « هذا أول الوهن ! » .

وفى تلك الاثناء دخل الى اجتماع السقيفة ثلاثة من هيئة المهاجرين الاولين ، هم : أبو بكر ، وعمر ، وأبو عبيدة بن الجراح .. فتحدث أبو بكر عن حق المهاجرين الاولين فى هذا الأمر ، وتقدمهم فيه على الانصار ، دون أن ينكر فضل الانصار وبلاءهم ، ولكنه وضعهم ، فى الترتيب ، بعد المهاجرين الاولين .. « فليس بعد المهـــــاجرين الاولين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الامراء وأنتم الوزراء ، لانفتات دونكم بمشورة ولا تنقضى دونكم الامور .. » وتحدث عن امتياز المهاجرين الاولين بأنهم « أول الناس اسلاما » ، وأنهم «عشيرة رسول الله» ، واشار الى ضرورة سياسية تجعل من وضع الامارة فى قريش عامل توحيـــد للعرب اكثر مما لو وضعت الامارة فى غير قريش ، فقال : « لاننا « نحن أوسط العـــرب أنسابا ، ليست قبيلة من قبائل العرب الا ولقريش فيها ولادة .. » .

وعند ذلك عرض الانصار حلهم الوسط : تعاقب امير من الانصار بعد امير من قريش ، وهكذا .. فرفضه ابو بكر وعمر ، وقدما بدلا منه اقتراح : « نحن الامراء ، وأنتم الوزراء ، لانفتات دونكم بمشورة ، ولا تنقضى دونكم الامور » .. فأعلن الحباب بن المنـــذر بن زيد بن حرام اقتراحه طرد المهاجرين من المدينة واستئثار الانصـــار بالامارة ، ورد عليه عمر : « انه والله لا ترضى العرب أن

تؤمركم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا ينبغى أن تولى هذا الامر الا من كانت النبوة فيهم وأولو الامر منهم .. من ينازعنا سلطان محمد وميراثه، ونحن أولياؤه وعشيرته الا مدل بباطل أو متجانف لاثم أو متورط فى هلكة .. » .

وعند هذا الطور من المناظرة والجدال ، عملت بعض التناقضات فى صفوف الانصار عملها ، فساعدت على حسم الموقف لصالح المهاجرين اذ يجمع المؤرخون على أن بشير ابن سعد كان يخشى امارة ابن عمه سعد بن عبادة ، حسدا له ، وعلى أن الاوس ، وزعيمها أسيد بن خضير ، كانت تخشى استئثار الخزرج بتأمير سعد بن عبادة حذرا من بقاء الامارة فى الخزرج دون الاوس .. وعندما زكى بشير بن سعد امارة المهاجرين ، وبادر عمر الى طلب البيعة لابى بكر ، فسبق بشير بن سعد الى بيعته، بايعت الاوس، والخزرج ، وكل من بالسقيفة خلا سعد بن عبادة ... الذى ظل على موقفه ، بل غدا « لا يصلى بصلاتهم ، ولا يجمع معهم ، ويحج ولا يفيض معهم بافاضتهم » حتى قتل بالشام فى عهد عمر بن الخطاب .

وعندما انطلق الخبر الى أحياء المدينة « اجتمعت بنو امية الى عثمان واجتمعت بنو زهرة الى سعدوعبدالرحمن، واجتمعت بنو هاشم الى بيت على بن أبى طالب » — والاربعة من أعضاء هيئة المهاجرين الاولين — فطاف عمر وابو عبيدة على هؤلاء المجتمعين ودعوهم الى بيعة ابى بكر ، فبادر بنى امية وبنو زهرة الى البيعة ، وتأخرت بيعة على ورهطه الى حين (١٩) .

---

(١٩) انظر فى خبر السقيفة (الامامة والسياسة) ج ١ ص ٦ — ١١ و (تاريخ الطبرى) ج ٣ ص ٢٠٧ — ٢١٠ . طبعة القاهرة ، الاولى . و (شرح نهج البلاغة) ج ٦ ص ٥ — ١٣ ، ١٨ — ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٩ ، ٤٠

ذلك أن بنى هاشم ، بل وبعض بنى أمية ، الـذين يلتقون مع الهاشميين فى النسب عند جدهم عبد مناف ، قد اعترضوا على تولى « تيم » الخلافة ، ممثلة فى أبى بكر ، ونصرة « عدى » لهـا فى ذلك ، ممثلة فى عمر بن الخطاب ، ورأى الهاشميون أن هذا الفوز الذى احرزته قريش على الانصـار فى السقيفة يجب ان يكون من نصيبهم هم ، لسبب اوحد يميزهم ويمتازون به وهو القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهذا الموقف من على بن ابى طالب ، ومن وقف معه ، قد طرح فى الفكر الاسلامى ، منذ ذلك الوقت المبكر ، ذلك السؤال : ما علاقة الدنيا بالدين ؟ وما هو الموقف من قضية الجمع بين الخلافة ، كمنصب سياسى والقرابة النسبية والعرقية برسول الله عليه الصلاة والسلام ؟ ؟ تلك القضية التى اختلف المسلمون من حولها طوال عصـور تاريخهم ، ولا زالوا عليها يختلفون !

فعلى لم يمتنع عن بيعة أبى بكر الا لانه قد رأى نفسه الاحق بهذا الامر ، وهو لم ير نفسه الا حق لانه اكثر علما او بلاء أو اسبق اسلاما الخ .. الخ .. فهذه أسباب تحدث عنها الذين اتوا من بعد عندما فصلوا وبلوروا الحجج والنظريات ، وهو ان ذكر بعض هذه الاسباب فانما كان يذكرها كأمور ثانوية مساعدة .. اما حجته على انه الاحق فتتركز فى علاقته النسبية بالنبى وقرابته للرسول عليه السلام .. فهو ممثل بنى هاشم فى هيئة المهاجرين الاولين التى تكونت فى عهد النبى الهـاشمى وفوق صفته الهاشمية فانه زوج بنت الرسول ، ووالد النسل الباقى للنبى الحسن والحسين ، ومن ثم فانه الوحيد من بين

اعضاء هـذه الهيئة الذى ينطبق عليـه أنه من « بيت الرسول » وهى صفة اخص من القرشية بل واخص من الهاشمية أيضا .

فنحن ، اذن ، بازاء « نظرية » تريد الاستمرار ، على نحو ما . لما كان على عهد رسـول الله من الجمع بين السلطتين . الدينية والدنيوية فى « بيت واحد » ، وأنه اذا كان رحيل رسول الله عن الدنيـا قد انهى جمع السلطتين فى « ذات واحدة » ، فيجب أن نستبدل بذلك جمعها فى « ذات البيت » بدلا من « ذات الفرد » .. ولذلك كانت حجة على الاولى والاخيرة فى اول مواجهة ناظر فيها الاعضاء الثلاثة ، من هيئة المهاجرين الاولين ، الذين أداروا دفة السلطة واقامة نظام الخلافة ، ابو بكر ، وعمر ، وأبو عبيدة بن الجراح .. كانت حجة على الاولى والاخيرة ، بل الوحيدة : أن الخلافة يجب أن تكون فى « بيت الرسول » ، وانه هو الوحيـد من هـذا البيت الموجود فى « هيئة المهاجرين الاولين » فهو الاحق بها .

وفى هذه المناظرة التى دارت عندما أحضر على الى مجلس ابى بكر كى يبايع .. اشتد عليه عمر فقال : « انك لست متروكا حتى تبايع ! » والان ابو بكر له القول فقال له : « ان لم تبايع فلا أكرهك ! » ، وعرض عليه ابو عبيدة منطقه وحجبه فقال : يابن عم ، انك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالامور ، فانك أن تعش ويطل بك بقاء فانت لهذا الامر خليق وحقيق فى فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك ! » .

وهنا قدم على حجته موجزة فى نظرية « احقية اهل البيت » فقال : « الله الله يا معشر المهاجرين ! لا تخرجوا

سلطان محمد فى العرب من داره وقعر بيته الى دوركم وقعور بيوتكم ، وتدفعون اهله عن مقامه فى الناس وحقه، فوالله ، يا معشر المهاجرين ، لنحن أحق الناس به ، لانا اهل البيت ، ونحن أحق بهذا الامر منكم ما كان فينا القارىء لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المتطلع لامر الرعيــــة الدافع عنهم الامور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية .. والله انه لفينا ، فلا تتبعوا الهوى فتضوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعدا .. » .

كانت تلك حجة على ونظريته .. وكان سلاحه الذى شهره فى سعيه لانتزاع الخلافة من « تيم » وأبى بكر الى بيت الرسول واليه ، كان سلاحه هو ذلك الرباط الذى يربطه بالرسول ويجعله من بيته ، اى فاطمة بنت الرسول عليه السلام .. فكان يخرج بها ، ليلا ، راكبة جملا ، ويطوف بها على مجالس الانصار واحيائهم « تســألهم النصرة » لعلى فى قضية الخلافة ، ولكنهم كانوا « يقولون لها : يا بنت رسو الله ، قــد مضت بيعتنا لهـــــــذا الرجل » (٢٠) أبى بكر الصديق .

كانت تلك حجة على ونظريته التى داوم على تكرارها مدة امتناعه عن بيعة أبى بكر ، وظل يذكر الناس بها بعد ذلك فى مواطن التذكرة .. فعندما تجدد الصراع معه على الامارة ، مع معاوية بن أبى سفيان ، ذكر الناس بذلك الصراع القديم ، وبأحقيته فى الامر ، فقال : « .. أما الاستبداد علينا بهذا المقام ، ونحن الاعلون نسبا، والاشدون برسول الله نوطا — « اى تعلقا واثرة » — فانها كانت

(٢٠) (الامامة والسياسة) جـ ١ ص ١٢ ، ١٣ . و (شرح نهج البلاغة) جـ ٦ ص ١٣ .

اثرة شحت عليها نفوس قوم .. » (٢١) .. وفى موطن آخر يتعجب من حجة الآخرين فيقول « واعجباه ! اتكون الخلافة بالصحابة ولا تكون بالصحابة والقرابة ؟!

فان كنت بالشورى ملكت أمورهم
فكيف بهـــذا والمشيرون غيب ؟!
وان كنت بالقربى حججت خصيمهم
فغيرك أولى بالنبى وأقــرب (٢٢)

وكلماته فى « نهج البلاغة » ، وكذلك مراسلاته مع معاوية ، بالذات فى كتاب « وقعة صفين » مليئة بنظريته هذه : الاحق هو بيت محمد .

والامر الذى يؤكد أن تلك كانت نظرية على الوحيدة ، وأن وجود فاطمة زوجة له كان سلاحه الاول والاقوى فى طلب الامارة يومئذ ، ان موت فاطمة قد افقده هــذا السلاح ، فانهارت مقاومته وبايع أبا بكر ودخل فيما دخل فيه المسلمون .. والطبرى يتحدث عن هذا التطور الهام فى موقف على فيقول : « وكان لعلى وجه من الناس فى حياة فاطمة ، فلما توفيت انصرفت وجوه الناس عن على ! » (٢٣) .

فموت فاطمة لم يغير من صفات على وكفاءته شيئا ، وهو لم يؤثر فى انتسابه الى الفرع الهاشمى من قريش ، بل ولا فى علاقته ببيت الرسول ، لانه ظل الاب الوحيد للنسل الوحيد الباقى للرسول : الحسن والحسين .. ولكن تقاليد العرب وعاداتهم كانت تقيم وزنا كبيرا لعلاقة النسب المتمثلة فى وجـــود امراة من قبيلة لدى قبيلة

(٢١) (نهج البلاغة) ص ٨٦ ١٠
(٢٢) المصدر السابق ٠ ص ٣٩١
(٢٣) (تاريخ الطبرى) ج ٣ ص ٢٠٢ الطبعة الاولى ٠

اخرى ، فالعلاقة قائمة لان فلانة عند القبيلة الفلانية ، والعلاقة حميمة وخاصة لان فلانة تحت فلان !! .

اما وقد ماتت فاطمة فان العلاقة المباشرة والخاصة التي ربطت عليا ببيت محمد قد زالت ، ومن هنا كانت المعاني التي حملها على كلماته وهو يدفن فاطمة ، عندما ناجى أباها فقال : « أما حزني فسرمد ، وأما ليلى فمسهد ، الى أن يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم .. وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها ، فأحفها ـ اى استقصها » ـ السؤال ، واستخبرها الحال ! (٢٤) » ! .

ويستطرد الطبري فيتحدث عن ارتباط بيعة على لابى بكر بموت فاطمة فيقول : « فلما رأى على انصراف وجوه الناس عنه ضرع الى مصالحة أبى بكر ، فأرسل الى أبى بكر أن ائتنا ، ولا يأتنا معك أحد .. فانطلق أبو بكر فدخل على على ، وقد جمع بنى هاشم عنده ، فقام على فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : اما بعد ، فانه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر انكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله اليك ، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الامر حقا فاستبددتم به علينا .. » ثم تواعدا على البيعة ، بالمسجد ، فى العشية ، فتمت (٢٥) .. وعند ذلك اقبل الناس على على فقالوا : « أصبت يا أبا حسن وأحسنت » (٢٦) .

ولكن هناك شبهة على تفسيرنا هذا لسبب انتهاء مقاطعة على لبيعة أبى بكر ، تأتى من كلمات عدة رويت

(٢٤) (نهج البلاغة) ص ٢٥٤ .
(٢٥) (تاريخ الطبرى) جـ ٣ ص ٢٠٢ ، الطبعة الاولى .
(٢٦) (الامامة والسياسة) جـ ١ ص ١٦ .

عن على تفسر سبب تغييره لموقفه بأنه الخوف من تفرق كلمة المسلمين وضياع دولة الاسلام ، وتشير الى انه قد بايع عندما برزت مخـــاطر « حروب الردة » بالذات ، وليس بسبب موت فاطمة وانقطاع السبب المتين الذى كان يجعله جزءا من « بيت محمـــد » وليس من هاشم فقط ..

وهذه الشبهة تعتمد على ان فاطمـــــة قد ماتت بعد الرسول بستة اشهر ، وهو القـــول المشـــهور فى تاريخ وفاتها ، بينما حروب « الردة » قد حدثت قبل ذلك .. فالثابت أن الرسول قد توفى فى ربيع الاول ، والثابت كذلك أن بدايات «حروب الردة » قد حدثت فى جمادى الأولى أو جمادى الآخرة ، اى بعد ثلاثة أشهر أو اربعة من وفاة الرسول عليه السلام ، والثابت يضا أن على بن ابى طالب قد أسهم فى المشورة لابى بكر فى هذه الحروب، ونهض بواجباته العملية فيها ..

ونحن نعتقد ان هناك سبيلين لازالة هذه الشبهة :

أولهما : أن نقول ان عليا قد نهض بواجباته كمسلم ومواطن فى الدولة العربية الاسلامية ازاء الخطر الذىهدد وجود هذه الدولة ووحدتها ، خطر الزحف الذى قامت به القبائل الرافضة لخلافة أبى بكر على المدينة .. نهض بواجباته ولم يكن قد بايع بعد لابى بكر .. وهو أمر ممكن ، وموقف لائق بمكانته وعقله وتقديره للظروف ..

وثانيهما : وهو الارجح فى نظرنا ـ أن حروب «الردة» قد حدثت بعد وفاة فاطمة وبيعة على لابى بكر ، ذلك ان تاريخ وفاة فاطمة فيه خلاف كبير .. صحيح ان المشهورة نها قد ماتت بعد ستة أشهر من وفاة الرسول عليه السلام ، ولكن هناك رايا ثانيا يقول : أنها ماتت

بعد وفاته بثلاثة أشهر ، ورأيا ثالثا يقول: بل «عاشت بعده سبعين يوما (٢٧) » فقط .. وهذا الرأى الاخير ، وكذلك الذى قبله يجعل من وفاتهـــا أمرا سابقا على حروب « الردة » ، فتكون تلك الحروب قد نشبت بعد أن ماتت فاطمة ، وانصرفت وجوه الناس عن على ، وبايع بالخلافة أبا بكر الصديق ..

فأبوا بكر قد انفذ جيش اسامة بن زيد فى آخر شهر ربيع الاول ، وعاد هذا الجيش « بعد أربعين يوما من شخوصه ، ويقال : بعد سبعين يوما » وعقب عودة جيش أسامة خرج أبو بكر فى أولى جولاته بحروب « الردة » ، وهى الجولة التى حدثت فى المكان المعروف بذى القصة .. وكانت أبواب المدينة وثغراتها ـ « أنقابها » ـ يومئذ تحت حراســـــة على والزبير وطلحة وعبـــد الله ابن مسعود (٢٨) .. فعلى أن جيش اسامة قد مكث فى ارض الشراة ، بالشام ، أربعين يوما تكون جولة « ذى القصة » فى جمادى الاولى ، وعلى انه قد مكث سبعين يوما تكون هذه الجولة فى جمادى الاخرة .. وعلى الرأى الاول ـ انها أربعون يوما ـ تكون حرب الردة قد حـــدثت بعد وفاة فاطمــــة حتى ولو كانت قـــد عاشت بعد الرسول سبعين يوما فقط ، وعلى الرأى الثانى ـ ان مكث جيش أسامة كاسبعين يوما تكون حروب « الردة » قد حدثت بعد وفاة فاطمة ، اذا جرينا على أن وفاتها كانت بعد النبى بثلاثة أشهر ..

ففى كل الحالات يستقيم لنا التفسير الذى قدمناه

---

(٢٧) (أسد الغابة) جـ ٧ ص ٢٢٥ (ترجمة فاطمة رضى الله عنها) .

(٢٨) (تاريخ الطبرى) جـ ٣ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ . طبعة المعارف .

لعدول على بن ابى طالب عن موقفه ، ودخوله فيما دخل فيه الناس ..

ولقد كان هذا التغيير ايذانا بتدعيم حجج النظرية التي ولدت منذ ذلك التاريخ فى مواجهة نظرية على .. اذ فى مواجهة الدعوة لجمع السلطتين فى بيت واحد كانت هناك النظرية الداعية للفصل بين مواطن كل من هاتين السلطتين ، وهى النظرية التى عبر عنها عمر بن الخطاب عندما قال لعبد الله بن عباس : « يا عبد الله ، أنتم أهل رسول الله ، وآله ، وبنو عمه ، فما تقول فى منع قومكم منكم ؟؟ قال : لا ادرى علتها ، والله ما أضمرنا لهم الا خيرا » فقا عمر ، معبرا عن نظرية فصل السلطتين : « ان قومكم كرهوا أن تجتمع لـــكم النبوة والخلافة ، فتذهبوا فى السماء شمخا بذخا » (٢٩) .

بل ان في كلام على بن أبى طالب نفسه ما يؤكد قيام هذه النظرية منذ ذلك التاريخ ، وما يؤكد أن قريشا قد اتخذت هذا الموقف ، ففصلت بين بيت النبوة وبيت الخلافة ، وانتقلت بالخلافة من بيت الى بيت ، متحاشية بيت النبوة حتى لا تكون شبهة توحد السلطتين وتربط بينهما ربطا دينيا ، أى أبديا ، ولقد ظل هذا الموقف حتى حدوث الثورة على عثمان ، وتولية على الخلافة من قبل الثوار .. يعبر على عن هذه الحقيقة الهامة فيقول فى مداولات هيئة المهاجرين الاولين التى افضت الى تنصيب عثمان ، بعد وفاة عمر ، يقول : « انى لا اعلم ما فى أنفسكم (٣٠) ان النـــاس ينظرون الى قريش ،

---

(٢٩) (شرح نهج البلاغة) جـ ١٢ ص ٩ ، جـ ١ ص ١٨٩ .

(٣٠) انفسكم : من المنافسة ، أى جعلكم تنفسون هذا الامر على .

وقريش تنظر فى صلاحها ، فتقول : ان ولى الامر بنو هاشم لم يخرج منهم أبدا ، وما كان فى غيرهم فهـو متداول فى بطون قريش ؟ » (٣١) .

وهنا يثور سؤال : اذا كان علي وعدد من وجوه بني هاشم قد عادوا فبايعوا أبا بكر ، فان امتناعهم قد دام شهورا عدة ، فاذا كانت بيعتهم ضرورية لانعقـــــــاد الاجماع ، ولو اجماع كبار الصحابة ، فان هذا الاجماع كان غير قائم .. وهو أمر لابد مؤثر فى شرعية سلطة الخليفة خلال تلك الشهور .

وحتى بعد بيعة علي ورهطه ، وحتى بعد انتهاء حروب الردة ، فلقد ظل سعد بن عبادة ، وهو من هو صحبة وبلاء فى الاسلام ، ناهيك عن انه أحد النقباء الاثنى عشر الذين عقدوا عقد تأسيس الدولة الاسلامية مع الرسول عند العقبة ، ظل سعد هذا على خلافه مع أبى بكر ، حتى مات أبو بكر ، وعلى خلافه مع عمر ، حتى « لقى عمر فى خلافته ، وهو على فرس ، وعمر على بعير ، فقال له عمر : هيهات يا سعد . فقال سعد : هيهات يا عمر .. والله ما جاورنى أحد هو أبغض الى من جوارك . فقال عمر : فانه من كره جوار رجل انتقل عنه . فقال سعد : انى لارجو ان اخليها لك عاجلا الى جوار من هو أحب الى جوارا منك ومن أصحابك . فلم يلبث سعد بعد ذلك الا قليلا حتى خرج الى الشام ، فمات بحوران ، ولم يبايع لاحد ، لا لابى بكر ولا لعمر ولا لغيرهما (٣٢) » . وكان ــ كما مر ــ لا يصلى بصلاة القـــوم ، ولا يجمع بجمعهم ، واذا حج لا يفيض معهم .. وعنـــدما قتـــل

(٣١) المصدر السابق : ج ١ ص ١٩٤ .
(٣٢) (شرح نهج البلاغة) جـ ٦ ص ١٠ ، ١١ .

بحوران قال البعض : ان الجن قد قتلته ، لانه بال ، ليلا ، قائما فى الصحراء ، ونسب هذا البعض الى الجن شعرا عربيا فى هذا القتل يقولون فيه :

نحن قتلنا سيد الخز رج سعد بن عبادة
ورميناه بسهمين فلم نخطىء فؤاده

« ويقول قوم : ان أمير الشام يؤمئذ كمن له من رماه ليلا وهو خارج الى الصحراء بسهمين ، فقتله ، لخروجه عن طاعة الامام » وعبر بعض الشعراء ، من الانس ، عن وجهة النظر هذه فقال :

يقولون سعد شكت الجن قلبه
الا ربما صححت دينك بالغدر
وما ذنب سعد انه بال قائما
ولكن سعدا لم يبايع أبا بكر !
وقد صبرت عن لذة العيش انفس
وما صبرت عن لذة النهى والامر ؟ (٣٣)

ولا يستبعد ابن أبى الحديد أن يكون خالد بن الوليد هو المدبر لقتل سعد بن عبادة ، تقربا لابى بكر الصديق ، دون أن يكون لابى بكر أو لعمر علاقة أو علم بهذا الاغتيال (٣٤) ..

وفى كل الحالات ، فان موقف سعد بن عبادة قد ظل ثغرة تمنع انعقاد الاجماع على خلافة أبى بكر ، طوال مدة هذه الخلافة ، والسنوات التى عاشها من خلافة عمر .. فهل استندت خلافة أبي بكر الى الاجماع ؟ وهل كان العهد الى عمر من خليفة تم له الاجماع ، فيستند هذا الانتقال فى السلطة الى ذلك الاجماع !

---

(٣٣) المصدر السابق جـ ١٠ ص ١١١ .
(٣٤) المصدر السابق جـ ١٧ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

ان من المعتزلة من يرى حدوث الاجماع على امامة أبى بكر ، ويرتب هذا الاجماع على نص من السنة النبوية استند اليه الناس فى اجماعهم . ولكن لما كان هذا النص غير موجود ، أو موجود ولكن المعتزلة ، لا يصححونه قالوا : ان الرواة قد استغنوا بشهرته عن روايته (٣٥) .. وليست هذه بالحجة المقنعة ، خصوصا بمقاييس المعتزلة فى الاحتجاج والاقناع .

ولقد هون هذا الفريق من خلاف على ورهطه على أبى بكر ، وقال : ان هذا الخلاف قد انتهى بعدول على عن موقفه .. ولكن يبقى أنه قد كان هناك خلاف يمثل ثغرة فى هذا الاجماع ، ويحول بين السلطة وبين الشرعية فى اتخاذ القرارات ، اذا كان لابد لشرعيتها من حدوث الاجماع .. وخصوصا أن الذين تأخروا عن البيعة كانوا كثرة ، وكانوا من جلة الصحابة ، ففضلا عن عامة بنى هاشم كان هناك ، غير على : العباس عم الرسول .. ومن بنى أمية : خالد بن سعيد بن العاص ، وكان على اليمين عندما مات الرسول ، أى أنه كان من « ولاة الامور » فى الدولة ، والبعض يقول انه امتنع عن البيعة سنة كاملة (٣٦) .. والزبير بن العوام وهو أحد العشرة الذين تتكون منهم هيئة المهاجرين الاولين .. كما كان هناك رأس بنى امية ابو سفيان بن حرب ، وكان النبى قد عينه مباشرا لجمع الصدقات فى بعض الانحاء ، ولقد امتنع من بيعة ابى بكر ، وأرادها لعلى ولم يبايع حتى طلب عمر من ابى بكر أن يمنحه ما جمعه من صدقات

---

(٣٥) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٣ .

(٣٦) (شرح نهج البلاغة) جـ ٦ ص ٤١ .

لقاء بيعته ، اذ قال عمر لابى بكر : « ان أبا سفيان قد قـدم ، وانا لا نأمن من شره ، فدفع له ما فى يده ، فتركه ، فرضى (٣٧) ؟ » .. كما كان هناك من غير بنى هاشم وبنى أمية : أبو ذر ، وحذيفة ، والمقداد (٣٨) ، وعمار وذلك فضلا عن سعد بن عبادة الذى استمر خلافه حتى عهد عمر بن الخطاب ..

وهذا الفريق الذى يجتهد لاثبات الاجماع على خلافة أبى بكر فيقول : انه قد « اشتهر الامر فى امامة أبى بكر الى أن لم يـكن فى الزمان الا راض بامامته وكـاف للنكير (٣٩) .. » يحاول التهوين من شأن هؤلاء المخالفين الذين امتنعوا عن البيعـة لابى بكر ، فيقول مثلا عن سعد بن عبادة : « انه لم يبق على الخلاف » .. وهو أمر تنكره كل المصادر .. او يقول : انه لا يعتد بخلافه » .. وهو أمر لا يستقيم مع مكانة سعد ، ومع التمسك بمبدا الاجماع وضرورته .. او يقول : ان الاجماع الذى حدث في عهد عمر ، وخاصة بعد موت سعد ، يستدل به على الاجماع على أبى بكر ، لان خلافة عمر فرع عن خلافة أبى بكر ، و « اجماعهم على فرع الاصل يتضمن تثبيت الاصل (٤٠) .. » وهو عكس للقضية الصحيحة ، فصحة الاصـل تزكى الفرع لا العـكس ، اذ ربما صح الفرع لعوامل جديدة لم تتوافر للأصل ..

---

(٣٧) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٤ .

(٣٨) (المغنى) ج ٢٠ ق ١ ص ٢٨٢ .

(٣٩) المصدر السابق . ج ٢٠ ق ١ ص ٢٨٠ .

(٤٠) المصدر السابق . ج ٢٠ ق ١ ص ٢٨١ .

ولا شك ان ضعف حجج هذا الفريق انما نبعث من تمسكه بضرورة استناد بيعة أبى بكر الى الاجماع ، لانها السابقة الاولى التى تستند البيعات الاخرى اليها .. وهم قد جاهدوا لاثبات ان هناك اجماعا حتى يردوا هجوم الشيعة على شرعية خلافة أبى بكر وصحة بيعته التى لم تستند الى الاجماع ، فقالوا انه قد حدث اجماع واطباق ، و « أن الصحابة توقفت فى الامامة ، ثم أطبقت على امامة أبى بكر .. » (٤١) .

ومع فريق المعتزلة هذا وقف فريق من أهل السنة ، فقالوا : انه « قد أجمع المهاجرون والانصار واهل بيعة الرضوان على امامة أبى بكر الصديق ، وسموه خليفة رسول الله ، وبايعوه ، وانقادوا له .. (٤٢) » .

ولكن فريقا آخر ، من المعتزلة وأهل السنة أيضا ، يقول بصحة امامة أبى بكر ، وباستنادها الى الاختيار ، وان مخالفة البعض عن البيعة ، لحين أو دائما ، هو امر لا يقدح فى صحة هذه الامامة والبيعة بها ، وان قدح فى الاجماع ، الذى هو غير ضرورى ، بل وغير مقصود ولا منتظر كذلك .. وان هجوم الشيعة على بيعة أبى بكر لافتقارها الى الاجماع هو سلاح أولى أن يرتد الى حجتهم وموقفهم ومنطقهم ، لان الخلاف على امامة على أوضح واوسع وأعمق وأشهر من الخلاف على امامة أبى بكر بما لا يقبل المقارنة والقياس !

---

(٤١) أبو الحسين البصرى ، المعتزلى (كتاب المعتمد فى أصول الفقه) جـ ٢ ص ٥١٨ تحقيق محمد حميد الله وأحمد بكير ، وحسن حنفى . طبعة دمشق سنة ١٩٦٥ م .

(٤٢) الاشعرى (الابانة عن اصول الديانة) ص ٦٧ . طبعة القاهرة . ادارة الطباعة المنيرية . بدون تأريخ .

ويعبر الجاحظ عن هذا الاتجاه فيقول : ان « اجماع الناس كلهم على الصواب امر لا ينال ، ولكن اذا كانت الامة قد اطبقت على طاعة رجل ، على غير الرغبة والرهبة ، ثم لم يكن اغترار ولا اغفالا ، فليس فى شذوذ رجل ولا رجلين دلالة على انتقاص امره وفساد شانه ، وليس يحتج بهذا وشبهه الا رجل جاهل بطبائع الناس وعللهم . ولو كان هذا وشبهه ناقضا لامامة أبى بكر كانت امامة على انقض وافسد ! .. » (٤٣) .

وابن أبى الحديد يفصل الرأى عند هذا الفريق فيقول: انه « اذا احتج أصحابنا على امامة ابى بكر بالاجماع ، فاعتراض حجتهم بخلاف سعد ـ « بن عبادة » ـ وولده وأهله اعتراض جيد ، وليس يقول اصحابنا ، فى جوابه : هؤلاء شذاذ ، فلا نحفل بخلافهم ، وانما المعتبر بالكثرة التى بازائهم . وكيف يقولون هذا ، وحجتهم الاجماع ، ولا اجماع ؟؟ ولكنهم يجيبون عن ذلك : بأن سعدا مات فى خلافة عمر ، فلم يبق من يخالف فى خلافة عمر فانعقد الاجماع عليها ، وبايع ولد سعد وأهله ومحال ان يصح الفرع ويكون الاصل فاسدا ، فهكذا يجيب اصحابنا عن الاعتراض بخلاف سعد ، اذا احتجوا بالاجماع . اما اذا احتجوا بالاختيار فلا يتوجه نحوهم الاعتراض بخلاف سعد واهله وولده ، لانه ليس من شرط ثبوت الامامة بالاختيار اجماع الامة على الاختيار .. وبهذا الطريق يثبت عندهم امامة على ، ولم يحفل بخلاف معاوية واهل الشام فيها .. » (٤٤) .

---

(٤٣) الجاحظ (العثمانية) ص ١٩٥ . تحقيق عبد السلام هارون . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

(٤٤) (شرح نهج البلاغة) جـ ٣ ص ٦ .

ومع ثبوت امامة أبى بكر وصحتها بالاختيار ـ دون اشتراط الاجماع الذى لم يتوافر لها ـ يقف أمام الحرمين الجوينى ، فيقول « اعلموا انه لا يشترط فى عقد الامامة الاجماع ، بل تنعقـــــد الامامة وان لم تجمع الامة على عقدها . والدليل عليه أن الامامة لما عقدت لابى بكر ابتدر لامضاء أحكام المسلمين ولم يتأن لانتشار الاخبار الى من نأى من الصحابة فى الاقطار ، ولم ينكر عليه منكر ، ولم يحمله على التريث حامل (٤٥) » .

ونحن نعتقد أن الرأى الذى عبر عنه الجاحظ وابن أبى الحديد والجوينى هو الرأى الصحيح ، لان تصور امكان حدوث لاجماع على أبى بكر فى ظروف ذلك العصر وتلك البيئة التى لا يربطها رابط يذهب بأنباء عاصمتها الى الاطراف ويعود بجواب الاطراف الى العاصمة ، وفى مثل ذلك المجتمع الذى تغلب عليـــه البداوة التى تمنع الناس حتى من استكناه مضمون ذلك الشكل الجديد من اشكال الحكم وتنظيم المجتمعات ، أن تصور الاجماع على امارة ابى بكر فى مثل تلك الظروف والملابسات هو ضرب من طلب المحال ، والقول بانه « لم يكن فى الزمان الا راض بامامته أو كاف للنكير » هو حكم لا يستند الى بينة ، فاصدار مثل هذا الحكم ، حتى فى عصرنا الحديث ، ومجتمعاته المتقدمة ، أمر بعيد عن الدقة والصواب ..

ومما يزيدنا اطمئنانا الى ما نقول تلك الصورة التى يقدمها الجاحظ لذلك المجتمع الذى بويع فيه أبو بكر

---

(٤٥) الجوينى (كتاب الارشاد الى قواطع الادلة فى أصول الاعتقاد) ص ٤٢٤ . تحقيق د. محمد يوسف موسى ، وعلى عبد المنعم عبد الحميد . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠ م .

بالخلافة ، عندما يقول : « ان النبى لما توفى كان الناس على طبقات :

من رجل مؤمن ، عالم ، ناصح لله ورسوله .

ومن رجل مطاع ليس له علم بالامامة ، وما السبب الذى به تنعقد من السبب الذى به تنحل .

ومن رجل مكانه فى قريش اشرف من مكان ابى بكر ، وليست غايته صلاح المسلمين ، وانما غايته أن يكون الامام من أقرب القبائل اليه ، ليزداد هو وقومه بذلك شرفا وفخرا .

ومن رجل له قرابة ، فهو يرى أنها تغنيه عن العلم والعمل .

ومن رجل شديد فى بأسه ، ضعيف فى دينه ، مخف فى ذات يده ، بعيد الهمة ، خامل فى هدوء الناس وامنهم ، فهو لا يألوا اضرام الفتنة ، وتهييج السفلة ، يرى أن فى الهيج ظهور نجدته ، وخروجه من الخمول الى النباهة ، ومن الاقلال الى الاكثار .

ومن رجل دخل فى الاسلام مع من دخل فى دين الله من الافواج ، لا يعرف حقيقته ، ولا يستريح به الى الثقة .

ومن رجل أخاف السيف ، واتقى الذل والقتل باسلامه ونفاقه ، كمنافقى المدينة ومن حولها من أهل القرى والبادية ، يعضون على المسلمين الانامل بالغيظ ، وهم البطانة لا يألون خبالا ، يترقبون الدوائر ، وينفرجون الى الاراجيف ، ويستريحون الى الامانى .

ومن رجل صاحب سلم ، يدين لمن غلب ، لا يدفع

مبطلا ، ولا يعين محقا ، يرى أن صلاح خاصته هو صلاح العامة » (٤٦) .

ففي مجتمع هذه صورته ، وفى زمن ذلك مبلغ حظه من التقدم فى الوعى بنظم الحكم وشئون السياسة يكون الحديث عن الاجماع ، بالمعنى الجاد والدقيق ، ضربا من المبالغة التى لا تستقيم ..

فلقد صحت امامة أبى بكر لأن الجمهور أقرها ، سواء ظهر هذا الاقرار بموقف ايجابى كموقف من بايع ، أو كان ضمنيا كالرضا بها والتسليم للسلطان الذى تولاه بمقتضاها .. وذلك لا ينفى أن هناك صراعات قد حدث على السلطة فى عهد ابى بكر ، وأن هناك من تخلف عن البيعة حينا من الدهر أو كل الدهر ، وهو الصراع الذى قدمنا نماذجه الشهيرة فى هذا المقام ..

الجدل على السلطة فى عهد عمر :

لم يحدث فى عهد عمر صراع على السلطة ، بالمعنى الدقيق والعميق ، ولكن حدث فيه جدل من حولها وتطلع واستعداد لتلقفها أو اقتناصها .

فطلحة بن عبيد الله ، عضو هيئة المهاجرين الاولين ، وهو تيمى كأبى بكر ، كان يتطلع اليها عقب وفاة الخليفة الاول ، ولقد جادل أبا بكر فى مرضه عندما استشارهم فى العهد الى عمر ، وقال لابى بكر : ماذا تقول لربك ، اذا لقيته ، وقد وليت علينا فظا غليظا ؟ .. وفى عهد عمر كانت لطلحة بطانة تسعى كى يخلف عمر فى امارة

(٤٦) (العثمانية) ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

المؤمنين ، ويروى المؤرخون انه كان « فى أيام عمر قوم يجلسون الى طلحة ، ويحادثونه سرا فى معنى الخلافة ، ويقولون له : لو مات عمر لبايعناك بغتة ، جلب الدهر علينا ما جلب وبلغ ذلك عمر ،وكان«بمنى»،يؤدى فريضة الحج ، فقال : انى لقائم العشية فى الناس فمحذرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغصبوا الناس أمرهم » وبعد العودة للمدينة ، صعد المنبر ، وخطب الناس فقال : « ان قوما يقولون : ان بيعة أبى بكر كانت فلتة ، وانه لو مات عمر بايعنا فلانا .. أما ان بيعة أبى بكر كانت فلتة ، الا أن الله وقى شرها ، وليس فيكم من تقطع اليه الرقاب كأبى بكر ، فأى امرىء بايع امرأ من غير مشورة المسلمين فانهما بغرة أن يقتلا .. » (٤٧) .

وغير تطلع طلحة الخاص كان هناك من يروج لعثمان كى يليها بعد عمر ، والقاضى عبد الجبار يروى هذه العبارة ذات الدلالة .. يقول : « روى عن حذيفة أنه قال : قال لى عمر : من ترى الناس يؤمرون بعدى ؟ قال : قلت : قد سموا لها عثمان . قال : فسكت » .

وروى عن حارثة بن مضرب ، قال : فسمعت الحادى يقول : ألا أن الأمير بعده ابن عفان (٤٨) ؟ أى أن حداة الابل وأراجيزهم كانت أجهزة دعاية تهيىء الامر للطامحين فيه ..

وملأ قريش ، أولئك الذين ارادوا استثمار الاستئثار السياسى لقريش بالامارة فى الثراء وحيازة الاقطاعات .. هؤلاء قد تطلعوا للانتشار فى البــــلاد المفتوحة وجمع

---

(٤٧) (شرح نهج البلاغة) جـ ١١ ص ١٣ . و (تاريخ الطبرى) جـ ٣ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ الطبعة الاولى .

(٤٨) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ ص ٣٠ .

الثروات ، ولقد تصدى لهم عمر كما تصدى لتطلعات الذين يبيتون لاقتناص الامارة دون مشورة للمسلمين .. حتى لقد بلغ تصدى عمر لملأ قريش ، وللمهاجرين منهم خاصة ، أن « حبسهم » بالمدينة ، ومنعهم من مغادرتها، حتى ولو كانت مغادرتهم لها تحت ستار الغزو فى سبيل الله ؟ .. والمؤرخون يروون « أن عمر كان قد حجر على اعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان الا باذن وأجل .. حتى ان الرجل كان يستأذنه فى غزوة الروم والفرس ، وهو ممن حبسه بالمدينة ، ولا سيما من المهاجرين ، فيقول له : ان لك فى غزوك مع رسول الله ما يكفيك ! » وأن ملأ قريش المهاجرين قد شكوا منه ذلك فقال « ان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات على ما فى انفسهم . الا أن فى قريش من يضمر الفرقة ، ويروم خلع الربقة . أما وابن الخطاب حى فلا ، انى قائم دون شعب الحرة ، آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار » ولذلك « لم يمت عمر حتى ملته قريش .. فلما ولى عثمان خلى عنهم فانتشروا فى البلاد .. فلذلك كان عثمان أحب الى قريش من عمر ! » (٤٩) .

الصراع على السلطة فى عهد عثمان :

والامر الذى كان يخشاه عمر ، ويجاهد للحيلولة دون وقوعه ، حدث منذ أن ولى الخلافة عثمان بن عفان ،

(٤٩) (شرح نهج البلاغة) جـ ١ ص ١٢ ، ١٣ ، و جـ ٢ ص ١٥٩ . (وهو ينقل عن الطبرى) .

فلقد وثبت قريش على السلطة واستأثرت بها ، سواء أكانت متمثلة فى الخلافة العامة أم فى ولاية أمور الناس فى الاقاليم والامارات والعمالات ..

وليس لقائل أن يقول : لقد كان عثمان قرشيا كما كان عمر وأبو بكر فليس هناك جديد ، ذلك أن عثمان كان امويا ، وفى أمية ، دون غيرها من البطـــون ، كانت عصبية قريش .. وابن خلدون يذكر هذه الحقيقة الهامة فيقول : « ان عصبية مضر كانت فى قريش ، وعصبية قريش فى عبد مناف ، وعصبية عبد مناف انما كانت فى بني أمية (٥٠) .. » ، فاذا أضفنا الى ذلك ضعف الخليفة الجديد ، اذا ما قيس بأبى بكر وعمر ، أدركنا المدى الذى بلغته قريش ، وأمية خاصة ، فى الانفراد بالسلطان والسلطات .. اما ولاة الاقاليم فيكفى أن نقارن بين أنسابهم القبلية على عهـــد عمر وأنسابهم على عهد عثمان لتتأكد لنا هذه الحقيقة ..

* فمكة كان واليها على عهد عمر نابع بن عبد الله الخزاعى .. وهو ليس من قريش ..

* والطائف كان واليها سفيان بن عبد الله الثقفى .. وهو ليس من قريش ..

* والكوفة كان واليها المغيرة بن شعبة ، وهو من ثقيف ، لا قريش .

* والبصرة كان واليها ابو موسى الاشعرى ، وهو ليس من قريش ، بل يمنى ..

* وحمص كان واليها عمير بن سعد ، وهومن الانصار ، لا من المهاجرين ..

---
(٥٠) (المقدمة) ص ١٧١ .

* وفلسطين كان واليها عبد الرحمن بن علقمة ، وهو كنانى .

* والبحرين وماوالاها كان واليهـا عثمان بن أبى العاص ، وهو ثقفى ، لا قرشى ..

أما الولاة من قريش ، فى عهد عمر ، فكانوا ثلاثة :

* والى دمشق ، وهو معاوية بن أبى سفيان .. من أمية ..

* ووالى مصر ، وهو عمرو بن العـاص ، من بنى سهم ..

* ووالى الجند ، باليمن ، وهو عبد الله بن أبى ربيعة .. من مخزوم ..

أما والى صنعاء فكان قرشيا بالحلف لا بالصليبة ، وهو يعلى ابن منية ، حليف بنى نوفل بن عبد مناف ..

فمن بين احدى عشرة ولاية لم يكن لامية سوى ولاية واحدة ، ولم يكن لقريش سوى ثلاث ولايات .. ولم يكن لعدى ، فرع عمر ، ولاية واحدة من هذه الولايات ..

وكان عمر قد أوصى أن تظل الولايات دون تغيير فى اشخاص ولاتها عاما من خلافة الخليفة الجديد .. وبعد هذا العام حدثت تغييرات عهد عثمان لصالح قريش ، والامويين بالذات .. فمعاوية بعد أن كان واليا على دمشق ضمت اليه الشام كلها (دمشق ، وحمص ، والاردن) فغدت فى أمية الولايات الثلاث .. وغدت الكوفة تحت ولاية الوليـد بن عقبة ، الاموى .. كما ولى البصرة عبد الله بن عامر ، الاموى .. وولى مصر عبد الله بن أبى سرح ، الاموى .. وفضلا عن أن هؤلاء الولاة من أمية ،

فلقد كان منهم أخو عثمان لأمه ، وأخوه فى الرضاعة (٥١) .. وأهم من ذلك قبض مروان بن الحكم ، الاموى ، على زمام الامور عندما عمل كاتبا لعثمان ، أى وزيره الاول، ومصرف الامور نيابة عن الخليفة الصالح الضعيف ..

وبعد سنوات ست من حكم عثمان ظهرت آثار هذه التغييرات فى شكل سخط عام على استئثار قريش بالسلطة .. فأهل الكوفة ينقمون على واليهم سعيد بن العاص قوله : « ان السواد بستان لقريش وبنى أمية » ، وعندما يستبدله عثمان بأموى آخر هو الوليد بن عقبة ، يقول شاعر الكوفة :

فررت من الوليد الى سعيد
كأهل الحجر اذا فزعوا فباروا
يلينا من قريش كل عام
أمير محدث أو مستشار
لنا نار تحرقنا فنخشى
وليس لهم ، ولا يخشون ، نار (٥٢)

ويحاول عثمان تفادى اشتعال الفتنة بنفى زعماء الكوفة الى الشام كى يؤدبهم معاوية بن أبى سفيان (٥٣) .. وتحدث بين معاوية وعثمان وبين أبى ذر تلك الاحداث الشهيرة الشائعة فى مصادر التاريخ ، حتى انتهى الامر بنفيه الى الربذة والتنبيه بمقاطعته والامتناع عن وداعه (٥٤) ..

---

(٥١) د. طه حسين (الفتنة الكبرى) جـ ١ ص ٧٣ ، ٧٤ ، ١٣٥ . طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٠ م . وناجى حسن (ثورة زيد بن على) ص ١٢ ، ١٣ . طبعة بغداد سنة ١٩٦٦ م .

(٥٢) (شرح نهج البلاغة) جـ ٢ ص ١٢٩ . و جـ (١٧) ص ٢٤٢ .

(٥٣) (المصدر السابق) جـ ٢ ص ١٢٩ ـ ١٣١ .

(٥٤) (مروج الذهب) جـ ١ ص ٥٥٠ ، ٥٥١ .

ويجمع عثمان ولاته يستشيرهم فى علاج السخط الذى تفشى والذى يكاد يعصف بمنصب الخلافة وولايات الولاة، ويقول لهم : « ان لكل أمير وزراء ونصحاء ، وأنتم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى ، وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا الى ان اعزل عمالى ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبون ، فاجتهدوا رأيكم » ». فأما عبد الله بن عامر ، الاموى ، فقال : « أرى لك يا أمير المؤمنين ان نشغلهم عنك بالجهاد ، حتى يذلوا لك ، ولا تكون همة أحدهم الا فى نفسه وما هو فيه من دبر دابته (٥٥) وقمل فروته (٥٦) ؟ » .. واما معاوية فانه يخير الخليفة بين امرين : اما أن يسمح لجيش من فرسان أهل الشام ، أتباع معاوية ، قوامه أربعة آلاف فارس باحتلال المدينة ، وتأمين سلطته فيها .. واما أن ينفى عن العاصمة « شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول الله وبقية الشورى » حتى « لا يجتمع منهم اثنان فى مصر واحد » ، ثم أردف قائلا لعثمان : « واضرب عليهم البعوث (٥٧) والندب حتى يكون دبر بعير أحدهم أهم عليه من صلاته (٥٨) ؟ » .

وأمام هذا الرفض من قبل الولاة الامويين لمطالب الساخطين ودعاة الاصلاح ، وأمام استسلام عثمان لولاته هؤلاء ، تصاعد السخط ، وارتقت مطالب الثائرين من طلب تغيير الولاة الى طلب التغيير فى قمة السلطة ، فطلبوا

(٥٥) أى قرحتها .

(٥٦) (شرح نهج البلاغة) ج ٢ ص ١٣٥ .

(٥٧) أى الانخراط فى الجيوش والانتداب للحروب .

(٥٨) (الامامة والسياسة) ج ١ ص ٢٨ ، ٢٩ .

من عثمان أن يعتزل الامارة كي يختار المسلمون خليفة سواه .. وتحدث عثمان فقال : ان الثائرين « يخيروننيبيناحدى ثلاث . اما ان يقيدوني بكل رجل أصبت خطأ أو عمدا ، واما أن أعتزل عن الامر فيؤمروا واحدا ، واما أن يرسلوا الى من أطاعهم من الجنود وأهل الامصار .. »(٥٩) .

ولما لم يستجب عثمان لاحد المطلبين الاولين ارسل زعماء الثائرين بالمدينة الى انصارهم فى الاقاليم ، فزحف هؤلاء الثوار على المدينة ، فى سنة خمس وثلاثين من الهجرة ، جاء من الكوفة مائتا رجل يقودهم مالك ابن الحارث النخعى ، ومن البصرة مائة رجل يقودهم حكيم بن جبلة العبدى ، ومن مصر ستمائة رجل يقودهم عبد الرحمن بن عديس البلوى .. ثم تطورت الاحداث حتى انتهت باحتلالهم المدينة ، وحصار عثمان ، ثم تسور بيته وقتله (٦٠) ، فانفتح باب الفتنة على مصراعيه فى طول البلاد وعرضها .

ثم انتقلت الخلافة ، تحت تأثير الذين قتلوا عثمان وبسعى منهم — وكانت المدينة فى قبضتهم — الى على ابن أبى طالب ، وبدأت صفحة جديدة من صفحات الصراع على السلطة فى دولة الخلفاء الراشدين .

الصراع على السلطة فى عهد على :

اذا كانت الخلافة الراشدة قد شهدت صراعا على السلطة فى عهد ابى بكر ، ثم اتجه هذا الصراع الى الوفاق والمصالحة فى جزئه الهام ، ثم شهدت جدلا على السلطة

(٥٩) المصدر السابق ج ١ ص ٣٧ .
(٦٠) (مروج الذهب) ج ١ ص ٥٥٢ .

وطموحا فيها فى عهد عمر بن الخطاب ، تحول الى صراع حاد ودموى فى نهاية عهد عثمان بن عفان ، فان عهد على بن ابى طالب كان قمة الصراع على السلطة ، بل كانت كل سنواته صراعا داميا على هذه السلطة .. بدأ بالصراع مع شركاء الشورى من هيئة المهاجرين الاولين : طلحة والزبير ، فلما أنهت موقعة الجمل هـذا الجـانب من الصراع ، استأثر صراع معاوية مع على ببلوغ أكثر درجات هذا الصراع حدة ، ثم أفرز هذا الصراع فرقة الخوارج التى مثلت الثورة المستمرة والخروج الدائم على السلطة والسلطان فى تاريخ الاسلام ، كما مثلت فاتحة ظهور الفرق والاحزاب المنظمة فى تاريخ المسلمين .. ثم انتهى هذا الصراع بين على ومعاوية بموت على ، وتحول الخلافة الى ملك يتوارثه الامويون .

فعقب البيعة لعلى بالخلافة خطب الناس فأعلن منهاجه فى الحـكم وقراراته لتغيير الاوضاع التى ثار ضـدها الذين قتلوا عثمان .. فعزل ولاة عثمان على الامصـار والاقاليم .. واعلن العودة الى نظام التسوية فى العطاء الذى كان يطبقه الرسول عليه السلام وأبو بكر الصديق ، ولما احتج زعماء قريش على التسوية بينهم وبين مواليهم قال لهم : « أنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، لا فضل فيه لاحد على أحد » كما أعلن عزمه على العودة الى شدة عمر تجاه الذين أطلقهم حلم عثمان وضعفه فجمعوا الثروات فى الامصار ، وقال : « الا لا يقولن رجال منكم غدا ، قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار ، وفجروا الانهار ، وركبوا الخيـول الفـارهة ،

واتخذوا الوصائف الروقة (٦١) ، فصار ذلك عليهم عارا وشنارا ، اذا منعتهم ما كانوايخوضون فيه،وأصرتهم(٦٢) الى حقوقهم التى يعلمون ، فينقمون ذلك ، ويستنكرون، ويقولون : حرمنا ابن أبى طالب حقوقنا (٦٣) » وأعلن عزمه على انتزاع المال الذى احتازه أشراف قريش دون حق ، وقال : « والله لو وجدته قد نزوج به النساء ، وملك به الاماء ، لرددته .. فان فى العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق (٦٤) ! » .

وفى اليوم التالى لخطبته الاولى هذه بدأ خلافه مع طلحه والزبير ومن ناصرهما فى هذا الصراع .. وعندما احتج على عليهما بالبيعة التى بايعاه ، « قال الزبير : ما بايعتك قط ، وان كنت على يقين أنك أولى بها فاجعلها شورى . وقال طلحة : بايعت واللج (٦٥) على قفى (٦٦)» يشير الى ضغط الثوار عليه كى يبايع عليا .

وانضمت عائشة الى طلحـة ـ وكانت تيمية تأمل ان يليها طلحـة التيمى ـ (٦٧) ـ وسارت الاحداث حتى انتهت بمصرع قادة هذا الخلاف فى موقعة الجمل بالبصرة .. ولما فرغ منها على استدار الى خلاف معاوية الرابض بالشام .

---

(٦١) الروقة ـ بضم الراء مشددة ، وفتح الواو مشدده ـ الحسان .
(٦٢) أى قيدتهم .
(٦٣) (نهج البلاغة) ص ٤٠٨ .
(٦٤) المصدر السابق . ص ٤١ . ولقد استوفينا مواقف على هذه فى دراسة لنا عن فكره الاجتماعى ، نشرناها بكتاب (على بن أبى طالب .. نظرة عصرية جديدة) طبعة بيروت . سنة ١٩٧٤ .
(٦٥) أى السيف .
(٦٦) (العثمانية) ص ١٧٣ .
(٦٧) (شرح نهج البلاغة) جـ ٩ ص ١٩٩ و جـ ١٠ ص ٦ .

كان على يدرك أن صراعه مع طلحة والزبير هو صراع مع اكفاء ، ضمتهم واياه هيئة المهاجرين الاولين ، وهو ، رغم كل شىء ، صراع فى اطار دولة الخلافة ونظامها . . ولقد ولد هذا الصراع حركة واسعة من الاعتزال السلبى والبعد عن المشاركة فى القتال ، انتشرت فى صفوف الصحابة الذين اشفقوا من تطورات الصراع . . وكان من الذين اعتزلوا عضوان من هيئة المهاجرين الاولين ، هما : سعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد بن نفيل .

ولكن ذلك لم يفت فى عضد على ، خصوصا عندما تعلق الامر بحرب معاوية ، لانه كان يدرك ويعلن أن معاوية ليس من أهل الشورى ولا ممن تحل لهم الخلافة ، فهو من الطلقاء ، الذين طالما كادوا للاسلام ، وهو انما يحارب كى يحول الخلافة الى ملك عضود يتوارثه بنو أمية ، ويتخذ من الطلب بدم عثمان ستارا يدارى به هذه الاغراض .

وفى صفين التقى الجمعان ، ودارت رحى حرب ضروس اكلت من الفريقين فوق ما توقع الناس ، وأكثر مما يتحملون استمراره ، وأوشك النصر أن يتحقق لجيش على ، لولا أن ظهرت دعوة التحكيم ، التى يميل بعض الباحثين الى أنها كانت مؤامرة مدبرة ضد على ، شارك فيها معاوية وعمرو بن العاص مع بعض الاشراف من جيش على ، الذين كان هواهم مع معاوية ، وفى طليعتهم « الاشعث بن قيس » سيد جند اليمن والمطاع فيهم .

كان الاشعث بن قيس عاملا لعثمان على اذربيجان « وبعض الرواة يقول : ان عثمان كان قد ترك له خراجها » . . فلما ولى على امارة المؤمنين عزل الاشعث

عن عمله برسالة شديدة اللهجة قال له فيها : « انما غرك من نفسك املاء الله ، فمازلت تأكل رزقه وتستمتع بنعمه وتذهب طيباتك فى أيام حياتك ، فأقبل ، واحمل ما قبلك من الفىء ، ولا تجعل على نفسك سبيلا (٦٨) » .

والرواة يذكرون أن دعوة الاشعث بن قيس الى الكف عن قتال معاوية قد سبقت اعلان الدعوة الى التحكيم على لسان معاوية وأنصاره فلقد ذهب صبيحة يوم تواصل قتاله مع الليل الذى سبقه والنهار الذى قبله ، ذهب الى على فقال : « يا أمير المؤمنين ، والله لقد لقيت الحرب فى الجاهلية والاسلام ، فما رايت حربا قط كحرب يومنا هذا وليلتنا هذه . اللهم انك تعلم انى لا أقول هذا فزعا من الموت . والله لقد اشتبكت الرماح بيننا حتى لو اردنا أن نجرى الخيل عليها لجرت ! ولئن التقى المسلمون يومنا هذا لا يبقى لاهل الشام والعراق بقية ، وليركبن الروم على الشام وأهله ، وفارس على العراق وأهله (٦٩) .. » .

وعندما علت صيحات جيش معاوية طالبة تحكيم كتاب الله فى هذا النزاع ، وحقن دماء المسلمين الذين كانوا يوقفون قتالهم كى يصلوا الى قبلة واحدة ، ويسبحون الها واحدا ، ويصلون على نبى واحد ، ثم يعودون للاقتتال ! .. عندما علت صيحة التحكيم ـ وكان على يرفض الاستجابة لها ويحذر من مغبتها والمكيدة

---

(٦٨) د. طه حسين (الفتنة الكبرى) ج ٢ ص ١٥٠ . طبعة المعارف . بمصر سنة ١٩٦٩ م .

(٦٩) أبو يعلى (كتاب الامامة) ص ٢٠٦ . وهو جزء من كتابة (المعتمد فى أصول الدين) . نشره يوسف أيبش فى ص ١٩٥ ـ ٢٣٤ من كتاب (نصوص الفكر السياسى الاسلامى) طبعة بيروت سنة ١٩٦٦ م .

الكامنة وراءها — « أقبل الاشعث بن قيس فى أناس كثيرين من أهل اليمن ، فقالوا لعلى : لا ترد ما دعاك القوم اليه ؛ قد أنصفك القوم ، والله لئن لم تقبل هذا منهم لا وفاء معك ، ولا نرمى معك بسهم ولا حجر ، ولا نقف معك موقفا ! (٧٠) .

فاضطر على للموافقة على وقف الاقتتال ، وعلى التحكيم — رغم معارضة فريق من قومه — بل لقد اضطروه كذلك الى أن يكون مندوبه فى التحكيم أبو موسى الاشعرى — وهو يمنى كالاشعث بن قيس — وكان على يريد أن يكون مندوبه عبد الله بن عباس .

وهنا اضطرب أمر على ، وامر من معه من المسلمين .. فجمهور غفير من جيشه قد نكص أو تباطأ عن القتال .. وقطاع من هذا الجيش أراد أن يدين التحكيم وقبوله، حتى قبل ظهور نتائجه ، وأن يعتبره خطيئة وقع فيها من قبل بها ، ولقد ضم هذا القطاع عددا من الذين رفضوا التحكيم منذ البداية ، كما ضم عددا من الذين قبلوه ، وها هم يعودون للندم على قبولهم له ، والتوبة من هذه الخطيئة ، ثم طلبوا من على التوبة من ذنبه هذا ، واستئناف القتال ضد معاوية ، وأهل الشام . ورفض على الاقرار على نفسه بالذنب والخطيئة ، فخرج عليه الذين يريدون استئناف القتال ، وبقى معه المترددون ، الذين هواهم مع معاوية ، وقضى بقية أيامه يحرضهم دون جدوى ، ويستحثهم دون فائدة ، ويوبخهم بأشد كلمات التوبيخ لعلهم يتأهبون لقتال أهل الشام دون أن يفلح فى تحريكهم هذا التوبيخ ! .

أما هؤلاء الذين رفضوا التحكيم — وكانت غالبيتهم من

(٧٠) (الامامة والسياسة) جـ ١ ص ١٠٨ .

القراء — فقد اجتمعوا حول عبد الله بن وهب الراسبى — وهو من الصلحاء الذين أدركوا الرسول عليه الصلاة والسلام — ثم « اخترطوا سيوفهم ووضعوها على عواتقهم ، وقالوا لعلى : اتق الله ، فانك قد أعطيت العهد وأخذته منا لنفنين أنفسنا ، أو لنفنين عدونا ، أو يفىء الى أمر الله . وانا نراك قد ركنت الى أمر فيه الفرقة والمعصية لله والذل فى الدنيا ، فانهض بنا الى عدونا فلنحاكمه الى الله بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين ، لا حكومة الناس (٧١) .. » .

ولقد كان هوى على ، ومصلحته ، مع استئناف القتال ، ولكن أنصار استئناف القتال كانوا يدعونه الى الاقرار بذنبه والتوبة منه ، وقالوا له : انه « قد كانت منا خطيئة وزلة حين رضينا بالحكمين ، وقد تبنا الى ربنا ورجعنا عن ذلك ، فارجع كما رجعنا ، والا فنحن منك براء ، فقال على : ويحكم !؟ بعد الرضا والعهد والميثاق ارجع ؟! » .

كان على قد قبل بمبدأ التحكيم ، فرفض الرجوع عن العهد والميثاق الذى قطعه ، وقال له أنصار التحكيم على لسان محرز بن جريش بن ضليع : « يا أمير المؤمنين ، ما الى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ، فوالله انى لاخاف ان يورث — (الرجوع) — ذلا ؟! فقال على : أبعد أن كتبناه ننقضه ؟! ان هذا لا يحل ! (٧٢) ..

ولقد كان القبول بالتحكيم فى شهر صفر سنة ٣٧ هـ

(٧١) (الامامة والسياسة) جـ ١ ص ١٠٨ .
(٧٢) (وقعة صفين) ص ٥١٧ ، ٥١٩ .

والاجل المضروب لاجتماع الحكمين بعد ثمانية أشهر ، أى فى شهر رمضان .

وفى رمضان ، انتهى التحكيم نهايته الشهيرة ، فعزل أبو موسى امامه ، كى يعود الامر شورى بين المسلمين ، وخطب فقال : « أيها الناس ، انا قد نظرنا فى أمر هذه الامة ، فلم نر أصلح لامرها ، ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه ، وهو ان نخلع عليا ومعاوية، وتستقبل هذه الامة هذا الامر ، فيولوا منهم من أحبوا عليهم . وانى قد خلعت عليا ومعـــاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الامرأهلا(٧٣) . . » .

وفى الحقيقة فان هذا القرار لم يخلع سوى على ، لان معاوية لم يكن للمؤمنين أميرا ، ولم تكن له فى أعناق المسلمين بيعة ، وانما كان واليا للشام عزله أمير المؤمنين على ، ثم تمرد على الخليفة وجيش لقتاله الجيوش . . واكثر من ذلك فان عمرا اعتلى المنبر فخطب ، بعد أبى موسى ، فأقر أبا موسى على خلع على ، وثبت هو معاوية فى امارة المؤمنين !؟

وزادت نتائج التحكيم الرافضين له الحاحا على على أن يعلن خطأه فى قبوله ، وينهض لقيادتهم فى استئناف القتال . . ولكنه رفض الاقرار على نفسه بالذنب . وفى ذات الوقت كان يريد القتال . . وأصبح موقفه غريبا . . فالذين يوافقونه على انه غير مذنب ، يخالفونه فى الحماس لقتال معـــاوية . . والذين يطلبون منه الاعتراف بذنبه والتوبة منه ، يتوقون مثله لقتال أهل الشام ! . . ولما

(٧٣) (تاريخ الطبرى) حـ ٥ ص ٧٠ ، ٧١ . طبعة المعارف (أحداث سنة ٣٧ هـ) .

يئس هؤلاء من استجابته لهم ، فارقوا معسكره ، وأعلنوا الخروج عليه وعلى أهل الشام معا ، وقال له ــ بلسانهم ــ (الخريت بن راشد الناجى (: « لا والله لا أطيع أمرك ، ولا أصلى خلفك ، وانى غدا لمفـــارق لك ! » ، ولما استوضحه على أسباب الخروج ، قال « لانك حكمت فى الكتاب ، وضعفت عن الحق اذ جد الجد ، وركنت الى القوم الذين ظلموا انفسهم ، فأنا عليك راد ، وعليهم ناقم ، ولكم جميعا مباين (٧٤) .. » ».

وتعالت فى أنحاء عدة من معسكر على صيحة الخوارج وشعار فرقتهم الجديدة (لا حكم الا لله) ، ولم يكن هذا الشعار يعنى رفض التحكيم ونتائجه فقط ، بل رفض امارة على كذلك ، ولذلك كان تعليق على على هذا الشعار، عندما سمعه : « كلمة عادلة ، يراد بها جور ، انما يقولون: لا امارة ، ولابد من امارة برة أو فاجرة ! » (٧٥) .

هم قد رفضوا ، اذن ، امارة على ، ولكنهم اختاروا أميرا جديدا للمؤمنين هو عبد الله بن وهب الراسبى . اجمعوا عليـــه ، وانتخبوه لعشر بقين من شوال سنة ٣٧ هـ ، أى فى الشهر التالى لظهور نتائج التحكيم .

ويعد انتخاب الخوارج لعبد الله بن وهب هذا أميرا للمؤمنين حدثا ذا دلالة هامة فى موضوعنا هذا .. فهو لم يكن قرشيا ، وانما كان من الازد (٧٦) ، فللمرة الاولى

(٧٤) (شرح نهج البلاغة) جـ ٣ ص ١٢٨ .

(٧٥) (باب الخوارج من كتاب الكامل) ص ٤٥ .

(٧٦) أنظر : ابن الاثير (اللباب فى تهذيب الانساب) جـ ٢ ــ ترجمة « (الراسبى » طبعة دار صادر ببيروت . وأنظر كذلك مادة (الازد) فى (دائرة المعارف الاسلامية) الطبعة الثانية للترجمة العربية ، دار الشعب بالقاهرة .

ينتخب جماعة من المسلين اميرا للمؤمنن من غير قريش ، وليس فقط من غير هيئة المهاجرين الاولين .. والامر الجدير بالتنبيه ، لاهميته القصوى أن جميع المناظرات التى جرت مع هؤلاء الخوارج سواء أكانت من على بن أبى طالب أم من عبـد الله بن عبـاس ، وجميع الانتقادات والاتهامات التى وجهت اليهم فى ذلك التاريخ لم تشر بالنقد أو التجريح الى انتخابهم أميرا للمؤمنين غير قرشى .. ونحن نعتقد انه لو كانت عبارة : « الائمة من قريش » حديثـــــا نبويا صحيحا لكان فى مقـدمة الاعتراضات والانتقادات التى وجهت للخوارج يومئذ هو أنهم خارجون على السنة بهذه السابقة التى ارتكبوها عندما انتخبوا غير قرشى لامارة المؤمنين .

ولقد نجح أنصار على الذين تخاذلوا عن قتال معاوية فى أن يوجهوا جيشه لقتال الخوارج الذين أعلنوا هم كذلك الثورة المستمرة على على وعلى معاوية فبدأت الحرب بين على وبين الخوارج حيث قتل أميرهم عبد الله بن وهب فى ٧ صفر سنة ٣٨ هـ ، ثم تكررت ثوراتهم ومواقعهم ضد جيش على ، فقادهم أشرس بن عوف فى موقعه الانبار فى ربيع الاول سنة ٣٨ هـ .. وابن علفة التيمى بموقعة ماسبذان فى جمادى الأولى سنة ٣٨ هـ .. والاشهب بن بشر بموقعة جرجرايا فى جمادى الآخرة سنة ٣٨ هـ .. وآخر يسمى « سعد » فى موقعـــة حدثت فى رجب سنة ٣٨ هـ .. وأبو مريم السعدى بموقعة قرب الكوفة فى رمضان سنة ٣٨ هـ (٧٧) .. الخ .. الخ .

وهذه المعارك التى انشغل بها على وجيشه فى قتالهم للخوارج ، لم تؤد فقط الى اتاحة الفرص والامكانيات

(٧٧) الاشعرى (مقالات الاسلاميين) جـ ١ ص ٢١٠ ـ ٢١٢ .

لمعاوية كي يرتب أمره ويمد نفوذه الى مصر واليمن ، بل واطراف العراق ، وانمـا أوقعت كذلك الوهن والحزن والالم فى صفوف انصار على من أهل العراق .. فأهل العراق كانوا عامة جند على ، والخوارج كانوا جزءا من أهل العراق وقطاعا من قبائله . ولذلك يروون أن عليا قد أصبح بعد موقعـة النهروان التى انتصر فيها على الخوارج فوجد أصحابه يبكون ، فقال لهم : « أتأسون عليهم ؟! قالوا : لا ، انا ذكرنا الالفة التى كنا عليها . والبلية التى أوقعتهم ، فلذلك رققنا عليهم (٧٨) ! » ..

وهكذا أصبح المسلمون فاذا الصراع على السلطة فى مجتمعهم قد وصل الى طور جديد لم يصل اليه من قبل .. فبدلا من أمير واحد للمؤمنين هناك ثلاثة : على فى العراق ، ومعاوية فى الشام ، وأمير انتخبه الخوارج ثائر على أهل الشام والعراق ، والحرب قائمة بين جيوش هؤلاء الامراء .

أثر العصبية القبلية فى الصراع على السلطة

رأينا عندما أشرنا الى « الصحيفة » التى كانت بمثابة الدستور الذى نظم حياة الدولة العربية الاسلامية بيثرب عقب الهجرة ، رأينا كيف كانت « القبيلة » هى اللبنة الاولى فى بناء هذه الجماعة السياسية ، ذلك أن الاسلام وان يكن قد رام تخطى حواجز القبيلة والعنصر والعرق

(٧٨) د. برنارد لويس (أصول الاسماعيلية) ص ١٠٥ . ترجمة خليل أحمد جلو ، وجاسم محمد الرجد . طبعة دار الكتاب العربى . بمصر ، بدون تاريخ .

واللون ، بل والقومية ، الا أنه قد بدأ وعاش فى واقع كان فيه « للقبيلة » الصوت الاعلى والمكان الارفع فى مقام العلائق التى تربط بين الناس .

فالذين هاجروا من مكة الى المدينة ، كونوا حيا لقريش بيثرب ، وأصبحوا قبيلة قريش فى الوطن الجديد .. ولم يكن المجتمع يعترف بالفرد دون أن تكون له قبيلة ينتسب اليها ، حتى الموالى ، من غير العرب ، التحقوا بقبائل عربية ، أو كونوا لهم قبائل بعد أن زاد عددهم فى ظل الفتوحات التى أتت بعد ذلك ، ولذلك روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم « أنه كان لا يترك المرء مفرجا (٧٩) حتى يضمه الى قبيلة يكون اليها (٨٠) .. »، وهذا عمل سياسى من أعمال التنظيم للمجتمع ، لا علاقة له بالدين ، كعقيدة ، لان الايمان بالدين لا ينقص منه ألا يكون المرء منتميا الى قبيلة محددة ، أما تنظيم المجتمع . من الناحية السياسية والاجتماعية ، فلقد تطلب من الرسول ، كحاكم ، أن يلحق كل امرىء بقبيلة من القبائل كى يكون مشمولا فى الوحدة الاساسية التى يتكون منها المجتمع الاسلامى الاول .

ولقد كانت للعصبية القبلية تأثيرات لا يستطيع أن يحيط بأبعادها أفقنا العصرى المستنير .. واذا شئنا أن نضرب مثلا واحدا للتقريب والايضاح فلنا أن نقول : ان المرء كان ينكر الحق ، وهو على يقين منه ، لاسباب قبلية ، الحق المتعلق بأمر الله ، فما بالك اذا تعلق هذا

---

(٧٩) المفرج ـ بضم الميم وسكون الفاء وفتح الراء ـ الذى لاينتمى الى قبيلة محددة .

(٨٠) (أدب الدنيا والدين) ص ١٥١ .

الحق بأمر الناس ؟! .. فكثيرون كانوا يعلمون ان الله واحد ، كما يقول الرسول ، وان القرآن وحى ، كما يعلن الرسول ، وأنه صادق لا ينطق عن الهوى ، ومع ذلك كانوا يعبدون الاصـــنام ويرفضون الانخراط فى موكب الدعوة الجديدة لان صاحبها ليس من القبيلة التى اليهـا ينتسبون ؟

وعن هؤلاء يتحدث سهيل بن عمرو فيقول : « ان الحمية والانفة وحب الرئاسة ممـا منعهم من الدخـول فى الاسلام .. وكان يقول : وأبو سفيان يعرف من هذا الحق ما أعرف ، ولكن حسد بنى عبد المطلب قد ختم على قلبه . وكان أبو سفيان يتحدث بمثل ذلك .. » ولا ينكره ، كان يقول : لقد أقبلت من سفر « حتى قدمت الطائف ، فنزلت على أمية ــ (بن الصلت الثقفى) ــ فقلت له : قد كان من أمر هذا الرجل ــ (أى الرسول) ــ ما قد بلغك وسمعت : قال : قد كان ، قلت : فأين أنت ؟ قال : والله ما كنت الأومن لرسول ليس من ثقيف (٨١) !؟»

فالمجتمع الذى يرفض فيه الرجل أن يؤمن برسول الله ، لان هذا الرسول لم يبعثه الله من أبنـاء ثقيف ، طبيعى فيه ، من باب أولى ، أن يرفض الرجل امارة أمير لانه ليس من قبيلته ، أو من البطن الـذى ينتمى اليه والعشيرة التى يعتز بها .. ولم يغير الاسلام ــ وما كان باستطاعته أن يغير ــ فى سنوات قليلة ذلك الامر المركوز فى طباع العرب ، كمجتمع قبلى ، منذ قرون وقرون .. ولذلك لعبت العلاقات القبلية والمشاعر القبلية ، وماخلفها من مصـــالح قبلية ، لعبت دورا هاما فى الصراع على

---

(٨١) (تثبيت دلائل النبوة) جـ ٢ ص ٥٨٩ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ .

السلطة ، وخاصة ما دار منه بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان .

كان صراعا سياسيا على سلطة يتنازعها بطنان من بطون قريش ، لكل منهما مبادئه وأهدافه والمصالح التى يمثلها .. وعلى هو القائل : « نحن وآل ابى سفيان قوم تعادوا فى الامر (٨٢) .. » .

حقيقة ان بنى هاشم وبنى امية يجتمعان فى عبد مناف ، ولكن عليا يرد على معاوية تذكيره اياه بهذه الحقيقة ، فيعترف بها ولكنه يذكر الفروق فيقول : « .. وأما قولك : انا بنو عبد مناف ! فكذلك نحن ، ولكن .. ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبى طالب .. فأنا صنائع ربنا ، والناس بعد صنائع لنا ، لم يمنعنا قديم عزنا ، ولا عادى (٨٣) طولنا على قومك أن خلطناكم بأنفسنا ، فنكحنا وأنكحنا ، فعل الاكفاء ، ولست هناك ، وأنى يكون ذلك ، ومنا النبى ، ومنكم المكذب (٨٤) ، ومنا أسد الله (٨٥) ، ومنكم أسد الاحلاف (٨٦) ، ومنا سيدا شباب أهل الجنة (٨٧) ، ومنكم صبية النار ، (٨٨) ، ومنا خير نساء العالمين (٨٩) ، ومنكم حمالة الحطب (٩٠) ، فى كثير

---

(٨٢) (شرح نهج البلاغة) جـ ٤ ص ٧٩ . ٨٠

(٨٣) أى قديم وتالد .

(٨٤) المراد ابو سفيان .

(٨٥) أى حمزة بن عبد المطلب .

(٨٦) المراد عتبة بن ابى ربيعة .

(٨٧) أى الحسن والحسين .

(٨٨) المراد أولا مروان بن الحكم .

(٨٩) أى فاطمة بنت الرسول .

(٩٠) المراد أم جميل بنت حرب .

مما لنا وعليكم . فان اسلامنا قد سمع وجاهليتنا لا تدفع (٩١) » .

فالرجل الربانى ، امير المؤمنين ، على بن أبى طالب يفاخر ببنى هاشم ، لا فى الاسلام وبالاسلام وحده ، بل وبهم فى الجاهلية ايضا . فما بالنا بغيره من غير الربانيين ؟!

ولقد كانت — كما يقول ابن خلدون — « عصبية مضر فى قريش ، وعصبية قريش فى عبد مناف ، وعصبية عبد مناف انما كانت فى بنى أمية (٩٢) .. » ، ومن هنا كانت شكوى على الدائمة من قريش ، التى اغتصبته حقه ، انما تعنى الشكوى ، فى الدرجة الاولى ، من الامويين ، فعندما يختارون عثمان ، الاموى ، للخلافة ، بدلا من على ، يقول على : « اللهم انى أستعديك على قريش ومن أعانهم ، فانهم قطعوا رحمى ، وصغروا عظيم منزلتى ، وأجمعوا على منازعتى أمرا هولى » (٩٣) وعندما ينشب النزاع بينه وبين معاوية يقول : « مالى ولقريش ! والله لقد قاتلتهم كافرين ، ولأقاتلنهم مفتونين ، وانى لصاحبهم بالامس كما أنا صاحبهم اليوم (٩٤) » .. وفى موطن آخر يكتب الى اخيه عقيل ، فيقول : « .. دع عنك قريش ، وتركاضهم فى الضلال (٩٥) ، وتجوالهم فى الشقاق .. فانهم قد أجمعوا على حربى كاجماعهم على حرب رسول

(٩١) (نهج البلاغة) ص ٢٩٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ .
(٩٢) (ألمقدمة) ص ١٧١ .
(٩٣) (نهج البلاغة) ص ١٩٨ .
(٩٤) المصدر السابق . ص ٦٠ .
(٩٥) التركاض — بفتح التاء المشددة وسكون الراء — الجرى والاسراع.

الله قبلى (٩٦) .. » .. ومن هنا كانت دقة تعبير عمر بن الخطاب وهو يتحدث الى عبد الله بن عباس عن نظرة قريش لبنى هاشم ، عندما قال له : « انهم ينظرون اليكم نظر الثور الى جازره ؟! » (٩٧) .

ويصور على غاية قريش فى صراعها ضده على السلطة، فيقول لجندب بن عبد الله الازدى : « .. ان الناس انما ينظرون الى قريش فيقولون : هم قوم محمد وقبيله. وأما قريش بينها فتقول : ان آل محمد يرون لهم على الناس بنبوته فضلا ، ويرون أنهم أولياء هذا الامر دون قريش ، ودون غيرهم من النـاس ، وهم ان ولوه لم يخرج السلطان منهم الى أحد ابدا ، ومتى كان فى غيرهم تداولته قريش بينها .. والله لا يدفع الناس الينا هذا الامر طائعين أبدا (٩٨) ! » .. فالقبلية تلعب دورها الهام فى هذا الصراع على السلطة والسلطان .

ولقد اعتمد على ، فى صراعه هذا ضد قريش ، على الانصار ، وهم الذين استأثرت منهم قريش بالامارة منذ اجتماع السقيفة ، فولى الامصار الهامة فى الدولة ــ البصرة ، والشام ، ومصر ــ ولاة من الانصار .. فولى عثمان بن حنيف على البصرة ، واخاه سهل بن حنيف على الشام ، وقيس بن سعد بن عبادة على مصر (٩٩) .. وعندما خرج على لقتال أصحاب الجمل

---

(٩٦) (نهج البلاغة) ص ٣٢٠ ، ٣٢١ . و (الامامة والسياسة) جـ ١ ص ٤٩ .

(٩٧) (شرح نهج البلاغة) جـ ١٢ ص ٩ .

(٩٨) المصدر السابق . جـ ٩ ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٩٩) (الفتنة الكبرى) جـ ٢ ص ٢٢ .

كان خليفته على المدينة الانصارى سهل بن حنيف(١٠٠).

ولقد ظهر ولاء الانصار لعلى ونصرتهم له وبلاؤهم معه كأوضح ما يكون ، فقيس بن سعد بن عبادة قد قاد قومه فى كل مواقــع على وحروبه : فى الجمــل ، وصفين ، والنهروان ، وغيرها ، وهو القائل يوم صفين :

هذا اللواء الذى كنـــا نحف به
مع النبى وجبريل لنـــــا مدد
ما ضر من كانت الانصـــار عيبته
الا يكون له من غيرهم أحد (١٠١)
قوم اذا حاربوا طالت أكفهـــم
بالمشرفية حتى يفتـــح البلد

وبعد مقتل على ، بايع الانصار لابنه الحسن ، وعندما نزل عن الامر لمعاوية غضبوا ، وفارقوا عسكره فى خمسة آلاف يقودهم قيس بن سعد ، بعد أن واجــه الحسن بكلام خشن يعيب عليه فيه تنازله عن الامر لمعاوية ، وكان هؤلاء المقاتلون من الانصار « قد حلقــوا رؤوسهم بعد ما مات على ، وتبايعوا على الموت ! » (١٠٢) .

ولم ينس معاوية ، ولا الامويون ، للانصـــار موقفهم هذا .. ففى عهد معاوية وفدت جماعة من الانصار على رأسهم النعمان بن بشير يشكون الفقر وضيق العيش ، وقالوا له : « لقـــد صدق رسول الله فى قوله لنا : « ستلقون بعدى أثرة » ، فقد لقيناها ! فقال لهم معاوية

(١٠٠) شرح نهج البلاغة) ج ٩ ص ٣٢١ .

(١٠١) عيبته : أى موضع سره .

(١٠٢) رفاعة رافع الطهطاوى (نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز) ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، طبعة القاهرة ، الاولى .

فماذا قال لكم ؟ قالوا : قال لنا : « فاصبروا حتى تردوا على الحوض » قال : فافعلوا ما أمركم به عساكم تلاقونه غدا عند الحوض كما أخبركم ! وحرمهم ولم يعطهم شيئا ؟! (١٠٣) .

هكذا صنعت العصبية القبلية صنيعها فى هذا الصراع على السلطة والسلطان .

اثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية فى الصراع على السلطة

وغير العصبية القبلية ، كانت هناك مصالح اقتصادية ومطامح اجتماعية لعبت دورها كأحد الاسباب فى الصراع الذى دار على السلطة ، وخاصة فى عهد على بن أبى طالب .

ذلك أن عهد عثمان كان قد شهد تغييرا اجتماعيا فى نظرة الناس الى الثروة والمال ، وسعيهم لتحصيلها من كل سبيل ــ ولقد أشرنا الى طرف من ذلك ــ وشهد هذا العهد كذلك تغييرا فى الفكر الذى يحكم موقف السلطة من مال الدولة العام .. فبعد أن كان التحرج الشديد هو الذى يسيطر على موقف أبى بكر وعمر من هذا المال بدأنا نسمع عن أن « السواد بستان قريش وأمية .. » وتطالعنا مناقشات أبى ذر مع معاوية الذى كان يرى أن المال مال الله ، وانه وكيله ، فعطاؤه بأمره ومنعه بأمره ؟! وقوله لاهل الشام : « .. انى أزعم أن جميع ما تحت يدى لى ، فما اعطيت فقربة الى الله ، وما امسكت فلا جناح

(١٠٣) (شرح نهج البلاغة) جـ ٦ ص ٣٢ .

على فيه (١٠٤) » .. والجدل الذى دار بين عثمان وخازن بيت المال ، وهل خازن بيت المـال هـو خازن الامة ؟ بمعنى هل المال مال الامة أم الخليفة ؟ وهو الجدل الذى انتهى باستقالة خازن بيت المال ، فلقد « روى أبو مخنف أن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبى العيص بن أمية : قدم على عثمان من مكة ، ومعه ناس ، فأمر لعبد الله بثلثمائة ألف ، ولكل واحد من القوم بمائة ألف ، وصك بذلك على عبـد الله بن الارقم ، وكان خازن بيت المال ، فاستكثره ، ورد الصك به . ويقال أنه سأل عثمان أن يكتب عليه بذلك كتابا ــ (أن يكون المال دينا على عثمان لبيت المال) ــ فأبى ، وامتنع ابن الارقم أن يدفع المال الى القوم ، فقال له عثمان : انما أنت خازن لنا ، فما حملك على ما فعلت !؟ فقـال ابن الارقم : كنت أرانى خازن المسلمين ، وانما خازنك غلامك ! والله لا الى لك بيت المال أبدا ، وجاء بالمفاتيح فعلقها على المنبر ! (١٠٥).

وتنشأ حول علاقة الخليفـــة بمال الامة أفكار نظرية شبيهة بما عرفته نظرية « الحق الالهى » فى هذا الموضوع، وهى الافكار التى ترى أن تطلق يد الخليفة يتصرف فى « فضول الاموال » كما يشاء ، حتى ولو كان هذا التصرف لمصلحته الذاتية وحسابه الخاص .. والزبير بن بـكار يروى فى كتابه « الموفقيات » عن ابن عباس قوله : « لمـا بنى عثمان داره بالمدينة ، أكثر الناس عليه فى ذلك فبلغه ، فخطبنا .. فقال : أتانا عن أناس منكم أنهم يقولون : أخذ فيئنا ، وأنفق شيئنا ، واستأثر بأموالنا .. مالي ولفيئكم

(١٠٤) (الامامة والسياسة) ج ١ ص ٧١
(١٠٥) شرح (نهج البلاغة) ج ٣ ص ٣٥ ، ٣٦ .

واخذ مالكم ! ألست من أكثر قريش مالا !؟ . . وهبونى بنيت منزلا من بيت المال ، أليس هو لى ولكم ؟! ألم أقم أموركم ، وانى من وراء حاجاتكم ؟! فلم لا أصنع فى الفضل ـ « الزيادة » ـ ما أحببت ؟! فلم كنت اماما اذن ؟! . فمالى لا أفعل فى فصول الاموال ما أشاء ؟؟! » (١٠٦) .

كما كان عثمان اول من أقطع أرض الصوافى ، التى كانت ملكا لبيت المال ، وكان دخلها على عهده ٥٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، وأول من أقطع كذلك أرض سواد العراق (١٠٧) ، وفاز بنو أمية من هذه الاقطاعات بأوفى نصيب . .

ومن هنا كان تحرك الفئات التى استفادت من هذه التغيرات الاجتماعية والاقتصادية ، كان تحركها ضد على ابن ابى طالب ، عندما أعلن فى أول خطبة له عقب تولية الخلافة الغاءه لكل ما أحدث عثمان من أحداث .

لقد بدأ على بنفسه ، فأعلن التزامه بموقف أبى بكر وعمر من المال العام ، وقال لاخيه عقيل : « والله مالى مما ترى شيئا الا عطائى ! » (١٠٨) .

وأعلن للذين حازوا الاقطاعات على عهد عثمان الغاءه لهذه التصرفات الاقتصادية ، بصرف النظر عن تاريخها ، وما لحق أعيان الاموال والارض والعقارات من تغييرات ، فقال فى خطبته تلك : « الا ان كل قطيعة أقطعها عثمان ، وكل مال أعطاه من مال الله ، فهو مردود فى بيت المال ،

---

(١٠٦) المصدر السابق . ج ٩ ص ٦ ، ٢٣ .

(١٠٧) (الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية) ص ١٤٨ .

(١٠٨) (الامامة والسياسة) ج ١ ص ٧١ .

فان الحق القديم لا يبطله شيء ، ولو وجدته وقد تزوج به النساء ، وفرق فى البلدان ، لرددته الى حاله ، فان فى العدل سعة ، ومن ضاق عنه الحق فالجور عليه أضيق ! » (١٠٩) .

وعندما شرع على فى وضع خطته وأعلانه هذا موضع التنفيذ « فأمر أن ترتجع الاموال التى اجاز بها عثمان ، حيث أصيبت أو أصيب أصحابها ، بلغ ذلك عمرو بن العاص ، وكان « بأيلة » من أرض الشام ، فكتب الى معاوية : ما كنت صانعا فاصنع ، اذ قشرك ابن أبى طالب من كل مال تملكه كما تقشر عن العصا (١١٠) لحاها !؟ » .. فتحركت المعارضة ، وكان المال فى مقدمة عوامل حركتها ضد الخليفة الجديد .

وعندما عاد على الى فلسفة التسوية فى العطاءبين العربى والعجمى ، والاشراف والموالى ، والذين سبقوا الى الاسلام أو أبطأ بهم أمر عن السبق اليه ، وأدخل فى سجلات العطاء من لم يكن فيها ، وأعلن للناس قوله : « أنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، لا فضل فيه لاحد على أحد .. » كان ذلك — كما يقول أبو جعفر الاسكافى — « أول ما أنكروه من كلامه .. وأورثهم الضغن عليه ، وكرهو اعطاءه وقسمه بالسوية .. » (١١١) .

ولقد كان طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام من بين الذين اعترضوا على اعلان على وتطبيقه التسوية بين

---

(١٠٩) (شرح نهج البلاغة) ج ١ ص ٢٦٩ .

(١١٠) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٧٠ .

(١١١) (شرح نهج البلاغة) ج ٧ ص ٣٧ .

الناس فى العطاء ، فتخلفا عن حضور القسمة للعطاء ، وتخلف معهما سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم ، ورجال من قريش أنكروا هذه القسمة (١١٢) .. ودار بين على وبين طلحة والزبير جدل حول هذه القضية ، كشف عن دورها وتأثيرها فى خروجهم عليه وحربهم له .

قال لهما على : « ما الذى كرهتما من أمرى ، حتى رأيتما خلافى ؟! » .

قالا : « خلافك عمر بن الخطاب فى القسم ، انك جعلت حقنا فى القسم كحق غيرنا ، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا .. » .

فقال على : « أما القسم والاسوة فان ذلك امر لم احكم فيه بادىء بدء ، فقد وجدت أنا وأنتما رسول الله يحكم بذلك ، وكتاب الله ناطق به .. وقديما سبق الى الاسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم ، فلم يفضلهم رسول الله فى القسم ولا آثرهم فى السبق ، والله ، سبحانه ، موف السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم ، وليس لكما ، والله ، عندى ولا لغيركما الا هذا ! » .

فقال الزبير : ــ فى ملأ من الناس ــ : « هذا جزاؤنا من على ! قمنا له فى أمر عثمان حتى قتل ، فلما بلغ بنا ما أراد جعل فوقنا من كنا فوقه (١١٣) .

وكما راسل عمرو بن العاص معاوية طالبا منه الوقوف فى وجه على وقراراته الاقتصادية ، كذلك صنع طلحة والزبير ، فلقد « استنجدا عليه بالرؤساء من المسلمين ــ

---

(١١٢) المصدر السابق ، ج ٧ ص ٣٨ .
(١١٣) المصدر السابق ، ج ٧ ص ٤١ ، ٤٢ .

وكان عمر يفضلهم وينفلهم فى القسم على غيرهم - والناس أبناء الدنيا ، ويحبون المال حبا جما - فتنكرت على أمير المؤمنين بتنكرهما قلوب كثيرة ، ونخلت عليه نيات كانت قبل سليمة » كما يقول ابن أبى الحديد !

ولقد أدرك نفر من أصحاب على وأكثر الناس اخلاصا له - وفى مقدمتهم الاشتر النخعى - دور المال فى ميل قلوب كثيرة الى معاوية ، قلوب الذين « اغتموا من العدل ! » فطلب من على أن يبذل المال ليميل اليه أعناق الرجال ويستخلص ودهم ، ولكنه رفض قائلا : « انه لا يسعنا أن نؤتى امرءا من الفيء أكثر من حقه ! » (١١٤).

كما أدرك هذه الحقيقية عبد الله بن عباس ، فكتب الى الحسن بن على ، بعد موت أبيه ، يقول : « .. واعلم أن عليا أباك رغب الناس عنه الى معاوية أنه آسا - (أى ساوى) - بينهم فى الفيء ، وسوى بينهم فى العطاء ، فثقل عليهم ! (١١٥) .

وهكذا لعب العامل الاقتصادى واجتماعى دورا هاما فى تحريك الصراعات على السلطة فى ذلك التاريخ .

اثر العامل « القومى » فى الصراع على السلطة

كان على قد نقل مقر حكمه من المدينة الى الكوفة ، بالعراق ، وعلت فى الشام أصوات تطلب الاستقلال به عن امارة على ، والحيلولة دون خضوعه لحكم الكوفة ، ودون خضوع أهله لاهل العراق .. أى انه قد ظهرت

(١١٤) (نظرية الامامة عند الشيعة الاثنى عشرية) ص ٢٩٨ ، ٢٢٩ .
(١١٥) (شرح نهج البلاغة) جـ ١٦ ص ٢٣ .

فى ساحة الصراع على السلطة عوامل محركة لهــذا الصراع يمكن أن نسميها « بالعــامل القــومى » ـ اذا استعملنا ذلك المصطلح بموازين ذلك العصر ـ فانضم الى « العامل القبلى » و « العامل الاقتصادى » كى تكون الاسباب الرئيسية الاهم فى تحريك هذا الصراع .

وبديهى أن دمشق العاصمة ستكون لها من المميزات ولاهلها من المزايا أكثر مما سيكون لها ولهم اذا تبعت الكوفة كولاية من الولايات ، ولم يكن للكوفة ذلك الرصيد الدينى الذى للمدينة . والذى يجعل التبعية لها أمرا مقبولا ، خصوصا من عاصمة عريقة كدمشق غدت مقرا لحكم معاوية الذى استمر منتظما وقويا ومهيبا منذ عهد عمر بن الخطاب ، والذى تتبعه فى عهد عثمان الاردن وحمص ، ثم تبعته مصر عندما استمادها وأمر عليها عمرو بن العاص[1] .

ونحن واجدون فى المراسلات المتبادلة بين معــاوية وعلى رسالتين تصلان فى الاهمية الى مستوى الوثائق السياسية ، لما فيهما من حديث صريح ومبــاشر من معاوية يطلب فيه الاستقلال التام للشام ، ورفض على لهذا الاســتقلال ، اى أن القضية التى طرحت كانت تقسيم الدولة الى امارتين لكل منهما تمام الاستقلال .

يقول معاوية فى الرسالة التى حملها عنه الى على رجل من السكاسك يدعى عبد الله بن عقبة : « أما بعد . فانى أظنك أن لو علمت أن الحــرب تبلغ بنا وبك ما بلغت ، وعلمنا ، لم يجنها بعضنا على بعض ، وأنا وان كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقى لنا منها ما نندم به على ما مضى ، ونصلح به ما بقى ، وقد كنت سألتك الشام ، على الا يلزمنى لك طاعة ولا بيعة ، فأبيت ذلك

على ، فأعطانى الله ما منعت ، وأنا أدعوك اليوم الى ما دعوتك اليه أمس ، فانى لا أرجـو من البقـــاء الا ما ترجو ، ولا أخاف من الموت الا ما تخاف ، وقد ، والله ، رقت الاجنـــاد وذهبت الرجال . ونحن بنو عبد مناف ، ليس لبعضنا على بعض فضل الا فضل لا يستذل به عزيز ولا يسترق به حر ، والسلام » .

فمعاوية يعلن : أنه قد سبق أن طلب الاســتقلال بالشام استقلالا تاما ويقول انه وعليا من بنى عبدمناف ، وأنه كفء لعلى ، فليس هناك ما يمنع من أن يكون على أمير المؤمنين بالعراق ومعاوية أمير المؤمنين بالشام ، وهو يعيد عرض اقتراحه هذا بعد أن كادت الحرب أن تهلك قوى الطرفين ـ وذلك يشير الى ان هذه الرسالة كانت عقب صفين وقبل ظهور نتائج التحكيم .

ولكن عليا رفض هذا الاقتراح ، وكتب الىمعاويةيقول:

« أما بعد .. فقد جاءنى كتابك ، تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض ، فأنا واياك منها فى غاية لم تبلغها . وانى لو قتلت فى ذات الله وحييت . ثم قتلت ثم حييت سبعين مرة لم أرجع عن الشدة فى ذات الله . والجهاد لاعداء الله .. وأما قولك انه قد بقى من عقولنا ما نندم به على ما مضى ، فانى ما نقصت عقلى ، ولا ندمت على فعلى ، فأما طلبك الشام ، فانى لم أكن لاعطيك اليوم ما منعتك منها بالامس ، وأما استواؤنا فى الخوف والرجاء ، فانك لست أمضى على الشك منى على اليقين ، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة . وأما قولك : أنا بنو عبد مناف ، ليس لبعضنا على بعض فضل .. فلعمرى أنا بنوأب واحد ، ولكن ليس أمية

كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبى طالب ، ولا المهاجر كالطليق ، ولا المحق كالمبطل ، وفى ايدينا ، بعد ، فضل النبوة التى اذللنا بها العزيز وأعززنا بها الذليل .. والسلام .. » (١١٧) .

ولم يكن هذا المطلب باستقلال الشام خاصا بمعاوية فقط ، معبرا عن طموحه السياسى دون غيره من أهل الشام ، بل كان مطلب أناس من قادة الرأى فى الشام ، وذوى القدر والنباهة الذين لا يتهمون بالكيد والعداء لعلى بن أبى طالب كما يتهم بذلك معاوية بن أبى سفيان .. فلقد جاء الى على وفد من أهل الشام « وفيهم رجل يقال له حوشب ذو ظليم له قدر ونباهة » وعرض هذا الوفد على على مطلب أهل الشام فى الاستقلال من خلال خطبة حوشب التى قال فيها : « ألا ترى ، يا على ، أن الله قد قسم لك قسما حسنا ؟ فخذه بشكر . ان لك قدما فى الاسلام ، وسابقة ، وقرابة من رسول الله ، وصهرا ، وتجربة ، وسنا ، فان تتلف بيننا غدا فانه لبوار للعرب ، وضيعه للحرمات ، ولكن انصرف راشدا ، وخل بيننا وبين شامنا ، واحقن دماءنا ودماء أصحابك » .

ويجيب علي «حشوب» ، فيرفض اقتراحه واقتراح قومه ، دون أن يشكك فى اخلاص « حوشب » فى النصح قدر اجتهاده .. يجيبه على فيقول : « انك لم تأل عن النصيحة بجهدك .. ولو علمت أن ذلك يسعدنى فى دينى اجبتك ، ولكان أهون على من المؤونة .. ولكن الله لم يرض لاهل القرآن أن يعمل بمعاصى الله فى أكناف الارض وهم سكوت لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن

(١١٧) (وقعة صفين) ص ٤٧٠ ، ٤٧١ . و (نهج البلاغة) ص ٢٩٤ .

منكر . واعلم ، يا حوشب ، أني قد ضربت الامر ظهره وبطنه وأنفه وعينه ، حتى لقد منعني من نوم الليل ، فما وجدته يسعني الا قتالهم أوالكفر بما جاءبه محمد(١١٨).

لقد كان الحديث ، خلال هذا الصراع على السلطة ، يجرى عن « الشـــــام » كوحدة سياسية وقومية واقتصادية متميزة ومستقلة ، ولابد لاهلهـا من دفع المخاطر المحدقة بها من التبعية لاهل العراق . وكذلك كان الحديث يجرى عن « العراق » .. فمعاوية يخطب ليعبىء مشاعر أهل الشام للقتال ، فيقول : « يا أهل الشام ، انكم قد سرتم لتمنعوا الشام وتأخذوا العراق!؟» وفى المقابل يتحدث على الى أهل العراق فيحذرهم من التهاون فى حرب عدوهم ، لان أهل الشام اذا هزموا فلهم فى أرض الروم ـ الذين عاهـــدوهم ـ ملجـــأ ، أما اذا هزم أهل العراق فان مصيرهم الذل أو الفنـاء .. يقول : « وقد وادع القوم الروم ، فان غلبتموهم استعانوا بهم ، ولحقوا بأرضهم ، وان غلبوكم فالغاية الموت ، والمفر الى الله العـزيز الحكيم ! » (١١٩) .. فالحـديث عن « الشام » كذاتية مستقلة ، وكذلك عن العراق ، لا عن قضية خلافية تجد لها انصارا فى كل من العراق والشام.

ومعاوية بن أبى سفيان يكتب الى أبى أيوب خالد بن زيد الانصارى صاحب منزل الرسول ، وأحد سادات الأنصار الذين يحـــاربون فى صفوف على ، فيتوعد الانصار على دورهم في قتل عثمان ، ولا ينسى أن يهجو العراق كعراق ويمتدح الشام كشام ، يقول معاوية من شعر ذيل به رسالته الى أبى أيوب :

---

(١١٨) (تثبيت دلائل النبوة ج ١ ص ٢٩٠ ، ٢٩١

(١١٩) (الامامة والسياسة) ج ١ ص ٨٩ .

انى حلفت يمينـــــــا غير كاذبة
لقد قتلتـــــــم اماما غير ذى أود
لا نحســـــبوا أننى أنسى مصيبته
وفى البلاد من الانصـــــار من أحد
قد أبدل الله منـــــكم خير ذى كلع
واليحصبيون أهل الحق فى الجند(١٢٠)
ان العراق لنـــــــا فقع بقرقرة
أو شحمة بزها شاو ولم يـكد (١٢١)
والشام ينزلهـــــا الابرار ، بلدتهـــا
أمن وحومتهــــا عزية الاسد (١٢٢)

وشاعر أهل الشام « كعب بن جعيل » يفصح عن دور العامل القومى فى صراع الشام والعراق وكيف أن الناس قد تصاعدوا بكراهية بعضهم للبعض الآخر حتى بلغت خلافاتهم مبلغ الخلاف فى الدين ، وكيف البسوا السياسة لباس الدين ؟! فيقول من قصيدة ذاعت وانتشرت ، حتى استشهد بها معاوية وذيل بها احدى رسائله الى على بن أبى طالب .. يقول كعب :

أرى الشام تكره أهل العـــــــراق
وأهل العــــــــراق لهم كارهونا
وكـــل لصـــــاحبه مبغض
يرى كل ما كان من ذلك دينـــــا

(١٢٠) الكلاعيون واليحصبيون ، من قبائل اليمن . اتخذ معاوية منهم أنصارا كما كانوا الانصار لعلى . والجند ـ بفتح الجيم والنون ـ مدينة باليمن .
(١٢١) الفقع ـ بالفتح ـ نوع من أردأ الكمأة . والقرقرة : الارض اللينة المطمئنة .
(١٢٢) (وقعة صفين) ص ٣٦٧ .

اذا ما رمونا رمينـــــــاهم
ودناهم مثــــل ما يقـــرضونا
وقــالوا : على امام لنــــــا
فقلنــا : رضينا ابن هنـد رضـــينا
وقالوا : نرى أن تدينوا لنـــــا
فقلنـا : ألا لا نرى أن ندينــــــا
ومن دون ذلك خـــرق القتـــــاد
وطعن وضرب يقـــــــر العيونا
وكـل يسر بمـــا عنـــده
يرى غث ما فى يديه سـمينا ؟! (١٢٣)

فهو صراع على السلطة والامارة ، تحركه عوامل كثيرة، بعضها قبلى ، وبعضها اقتصادى ، وبعضها قومى ، ولكن القوم قد غلفوا عوامل صراعهم هذا وأسبابه بغلاف من الدين والعقيدة ، كى يشحذوا الهمم فتحارب كما يحارب الناس فى المعارك المقدسة لنصرة الغايات المقدسة ولكن شاعرهم قد أماط اللثام عن جوهر الصراع وسببه عندما قال :

وكل لصــــــــاحبه مبغض
ويرى كل ما كان من ذاك دينا ؟! ..

ذلك هو الصراع على السلطة فى دولة الخلافة الراشدة، وهو قد أودى بهذه التجربة الجديدة فى عالم « الدولة والسياسة » فى شبه الجزيرة العربية ، وكان مقتل على ابن أبى طالب سنة ٤٠ هـ .. بداية تحـــول الخلافة الشورية الى ملك عضود يتوارثه الامويون .

---

(١٢٣) (شرح نهج البلاغة) جـ ٢ ص ١٢٧ ، ١٢٨ . و (وقعة صفين) ص ٥٦ .

الإمامة

ونشأة
الفرق
الإسلامية

الفصل الاول

نشأة الفرق وتعدادها

لم يختلف المسلمون فى الدين ، على عصر صدر الاسلام، وانما كان خلافهم فى السياسة ، ولقد رأينا أن خلافهم الاول ، والاساسي ، والمستمر تقريبا ، كان حول الامارة والخلافة والامامة ، وبصدد الصراع على السلطة العليا فى الدولة .

ولقد رأينا كيف نشأت اولى الفرق الاسلامية وهى المحكمة « الخوارج » ـ على عهد » على ابن أبى طالب بسبب الخلاف حول الامارة والصراع الدائر عليها ، ولقد ظلت تلك القضية ـ طوال تاريخ المسلمين ، الفكرى والعملى ـ وهى المنبع الذى تصدر منه الفرق والاحزاب .. أى أن قضية الامارة والخلافة والامامة ، وقضايا الصراع على السلطة العليا فى الدولة ، كانت دائما مصدر تكوين الفرق ونشأة المذاهب وظهور الاحزاب .

والتأريخ للفرق الاسلامية ، من حيث النشأة والتعداد وتمييز مقالاتها ومواقفها ، من الفنون التى ألفت فيها الكتب والرسائل من علماء ومفكرين ينتمون الى مختلف الفرق والتيارات .

ومن بين القضايا التى عرض لهـــــا مؤرخو الفرق والمذاهب قضية عدد الفرق التى توزعت ملة الاسلام ، والفتره الزمنية التى بدأ فيها تكون الفرق وظهورها .. فبينما يرى مؤرخو الفرق من الشيعة أن نشأة الفرق قد ارتبطت بالخلاف على الامامة يوم السقيفة ، اذ تكونت الشيعة مع على وفرقه « الامرة والسلطان » مع سعد بن عبادة من الانصار ، وفرقة مالت لابى بكر (١) ، نجد مؤرخى الفرق وكتاب مقالاتها من المعتزلة والاشعرية والظاهرية وأصحاب الحديث والخوارج — أى كل من عدا الشيعة — يؤرخون بظهور فرقة الخوارج ، على عهد على ، لنشأة الفرق فى الاسلام وهو الرأى الصواب .. ذلك أن الفرقة ، وهى اجتماع أناس متفرقين حول موقف ومبدأ وفلسفة ونمط متحد أو متقارب من أنماط التفكير ، هى امر يختلف عن الموقف الذى يتخذه فرد أو أفراد من قضية معينة ، ثم يتغير هذا الموقف وتتبدل ازاءه مواقع الافراد ، وهذا هو ما حـدث الذين طلبوا الامارة لسعد بن عباده ، واذا كان بعض الانصار قـد ظل على اعتقاده بأن حالهم وحال المسلمين كان سيصبح أفضل لو وليها سعد بن عبادة ، ومع ذلك فان احدا لا يستطيع ولا يحق له أن يسمى هذا البعض فرقة ومذهبا ، فان بقاء البعض على اعتقاده ان عليا هو الاولى بالامارة ، وأن صلاح المسلمين فى تأميره لا يكفى كى نقول ان هذا البعض قد كون أو يكون فرقة ، بالمعنى الدقيق لهذا المصطلح .. اما نشأة الخـوارج فلقد ارتبطت ، بل نبعت من قضية

---

(١) النوبختى (كتاب فرق الشيعة) ص ٢ . ٣ تحقيق هـ . ريتر . طبعة اسطانبول سنة ١٩٣١ م .

مثارة ، وهم قد جمعتهم فلسفة موحدة ، ومجموعة من المقالات والمواقف ، وانماط متحدة أو متقاربة فى السلوك، ثم كان لهم استمرار فى عصور الصراع الاسلامى حول هذه القضية التى سببت نشأتهم الاولى .. وكذلك كان الحال مع الفرق الرئيسية التى تلت ظهور الخوارج على مسرح السياسة .

تلك اذن قضية خلافية بين مؤرخى المقالات من الشيعة وغيرهم من المؤرخين .

أما القضية التى اتفق فيها جمهور مؤرخى المقالات ، رغم غرابتها وافتقارها الى القواعد الثابتة ، فهى عدد هذه الفرق . فلقد اتفق هؤلاء المؤرخون على ان عدة فرق المسلمين ثلاث وسبعون فرقة ، وأن هذا الرقم هو نهاية ما وصلت وتصل اليه الامة فى التفرق وتعدد الاتجاهات ولقد استندوا جميعا فى ذلك الى حديث قالوا انه قد روى عن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول فيه : افترقت اليهود على احدى وسبعين ـ « أو اثنتين وسبعين » ـ فرقة ، وتفرقت النصارى على احدى وسبعين ـ « أو اثنتين وسبعين » ـ فرقة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » (٢) .

ونحن لا نميل الى التصديق بأن هذا الحديث هو من

---

(٢) أخرج هذا الحديث أبو داود . والترمذى ، وابن ماجة من حديث أبى هريرة ، وأخرجه الحاكم وابن حبان فى صحيحه بنحو هذا اللفظ ، كما اخرجه فى المستدرك ، عن أبى هريرة بهذا اللفظ .. وله رواية أخرى عن عوف بن مالك عن الرسول ، بمثل هذا اللفظ .. وقال عنه البيهقى : انه حسن صحيح . أنظر (خطط المقريزى) جـ ٣ ص ٢٨٢ طبعة دار التحرير ، بالقاهرة ، عن طبعة بولاق . و (الفرق بين الفرق) للبغدادى ص ٤ ، ٥ . طبعة دار الافاق الجديدة ، بيروت .

الاحاديث الصحيحة التى قالها الرسول صلى الله عليه وسلم .. وذلك لعدة أسباب :

أولها : أنه ، ككثير من الاحاديث المشابهة ، حديث آحاد ، وليس بالمتواتر ، وأحاديث الآحاد وان جاز أن نأخذ بها فى الامور العملية فانها غير ملزمة فى الاعتقادات .

وثانيها : أن الحديث يثير قضية خطيرة وخلافية وشائكة ، وهى : هل كان الرسول عليه الصلاة والسلام يعلم الغيب ، وهل كان التنبؤ بالغيب من بين معجزاته ؟؟ .. ونحن مع الذين يرون أن القرآن هو معجزة الرسول التى لم يتحد قومه بمعجزة سواها ، وانه فى حياته وسلوكه كان بعيدا عن ادعاء علم الغيب ، بل ان آيات القرآن تنفي أن يعلم الرسول الغيب الا اذا كان وحيا أوحاه الله اليه ، والوحى الذى لا خلاف عليه هو المودع فى القرآن ، يخاطب الرسول قومه فيقول : « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك ، ان أتبع الا ما يوحى الى .. » (٣) .. ويقول لهم كذلك « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء ، ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (٤) ويقول أيضا : « ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك .. » (٥) .. وأكثر من عدد هذه الآيات ، التى ينفى فيها الرسول علمه بالغيب ، عدد الآيات التى تقطع باختصاص الله سبحانه وتعالى بعلم

---

(٣) الانعام : ٥٥ .
(٤) الاعراف : ١٨٨ .
(٥) هود : ٣١ .

الغيب ، يقول سبحانه : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو .. » (٦) ويقول : « ويقولون : لولا أنزل عليه آية من ربه ،فقل : انما الغيب لله » .. (٧) .. ويقول : « ولله غيب السموات والارض ، وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب ، ان الله على كل شيء قدير » (٨) ويقول : « قل : لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون » (٩) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تحصر علم الغيب ومعرفته فى الله سبحانه وتعالى .. وحده .

أما الآية التى يقول فيها : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد الا من ارتضى من رسول فانه يسلك بين يديه ومن خلفه رصدا » (١٠) ، فان نطاق الاستثناء فيها يجب أن تحكمة الآيات التى تنفى علم الرسول للغيب ، وتلك التى تقطع باستئثار الله به ، وفى كل الاحوال فان الاستثناء لا يعنى الا جواز أن يوحى الله للرسول بنبأ من أنباء الغيب ، وفى هذه الحالة يكون موضعه هو موضع النبأ المقطوع بأنه وحى ، وهو القرآن الكريم .. وليس فى القرآن شيء يتعلق بافتراق المسلمين الى ثلاث وسبعين فرقة ؟!

ثالثا : أن الحديث يحدد عدد الفرق اليهودية والفرق النصرانية بواحدة وسبعين ــ أو اثنتين وسبعين ــ

---

(٦) الانعام : ٥٩ .
(٧) يونس : ٢٠ .
(٨) النحل : ٧٧ .
(٩) النمل : ٦٥ .
(١٠) الجن : ٢٦ ، ٢٧ .

فرقة ، وليس بين مؤرخى الفرق المسلمين ـ وهم قد اهتموا بالملل والنحل جميعها ـ ولا بين مؤرخى الفرق من غير المسلمين من عد هذه الفرق فى الديانتين بهذا العدد .

رابعا : أن واقع الفرق الاسلامية الذى كتب عنه وأرخ له هؤلاء الذين رووا هذا الحديث ، واعتمدوا عليه ، هذا الواقع يتناقض مع انقسام المسلمين الى هذا العدد ، واذا كان المسلمون فى تاريخ ظهور الفرق والاحزاب لديهم قد جاء عليهم يوم وصلت فيه فرقهم الى العدد الثالث والسبعين وهذا طبيعى ، فان هذه الفرق قد زادت ثم نقصت ، ولا يزال المسلمون فى حياتهم الفكرية ، قادرين وصالحين لان تنشأ لديهم فرق جديدة أو تزول من حياتهم فرق قديمة .. المهم أن فرق الاسلام ، التى استخدم هؤلاء المؤرخون مصطلح « فرقة » فى وصفها ، قد زادت عن الثلاث والسبعين فرقة .. وهذه نماذج لذلك التناقض الذى وقع فيه هؤلاء المؤرخون بين الحديث الذى صدروا به دراستهم للفرق وبين الواقع الذى جسدوه لنا عند تعداد هذه الفرق وحياتها :

ا ـ عندما نبحث عن عدد الفرق الاسلامية ، كما ارخ لها الاشعرى فى « مقالات الاسلاميين » نجد هذا العدد يتعدى المائة .. ففرق الشيعة عنده وحدها تبلغ خمسا وأربعين فرقة (الغالية = ١٥ والامامية = ٢٤ والزيدية = ٦) .. وعدد فرق الخوارج ستا وثلاثين فرقة .. والمرجئة فرقها اثنتا عشرة فرقة .. وذلك غير : المعتزلة ، والجهمية ، والضرارية ، والحسينية ، والبكرية ، والعامة واصحاب الحديث ، والكلابية (١١) .. على حين يذكر الاشعرى ، نفسه ، وفى ذات الكتاب

(١١) (مقالات الاسلاميين) جـ ١ ص ٦٥ وما بعدها ..

أنها احد عشر فرقة ، تتفرع الى ثلاث وسبعين ، ولكنها في الدراسة ، دراسته هو ، تتعدى المائة كما رأينا ؟!

٢ ـ وفي « الملل والنحل » للشهرستاني يبلغ تعداد الفرق ستا وسبعين فرقة « المعتزلة ـ وهم الذين عدهم الاشعرى فرقة واحدة ، عدهم الشهرستاني ثلاث عشرة فرقة ، وعدهم البغدادى عشرين فرقة !! » ، والخوارج سبع عشرة فرقة .. والشيعة اثنتين وثلاثين فرقة .. والمرجئة خمس فرق .. ثم : الجبرية ، والجهمية .. والنجارية ، والضرارية ، والصفاتية ، والكرامية ، والاشعرية ، وأصحاب الحديث ، وأصحاب الرأى .

٣ ـ أما ابن حزم فانه يعدها خمس فرق :

١ ـ أهل السنة . ـ ٢ ـ والشيعة . ـ ٣ ـ والمعتزلة .ـ٤ ـ والمرجئة .ـ٥ ـ والخوارج(١٢).

٤ ـ والملطى وهو من أقدم مؤرخى الفرق ، يعدها اربعا فقط :

١ ـ القدرية . ـ ٢ ـ والمرجئة . ـ ٣ ـ والشيعة ـ ٤ والخوارج (١٣) .

٥ ـ أما القاضي عبد الجبار فانه يعدها خمس فرق :

١ ـ المعتزلة ـ ٢ ـ والخوارج ـ ٣ ـ والمرجئة ٤ ـ والشيعة ـ ٥ ـ والنوابت (١٤) « ويقصد بهم الحديث » ـ ولكن فرقة الشيعة التى يذكرها هنا واحدة يصل عدد فرقها ـ نعم فرقها ـ عنده في

(١٢) (الفصل في الملل والاهواء والنحل) جـ ٢ ص ١٠٦ · طبعة القاهرة الاولى سنة ١٣٢١ هـ ·

(١٣) د· عبد الكريم عثمان (قاضي القضاة : عبد الجبار بن احمد الهمذاني) ص ١٠٤ · طبعة بيروت ١٩٦٧ م ·

(١٤) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٥٢ · تحقيق فؤاد سيد · طبعة يونس سنة ١٩٧٢ م ·

« المغنى » الى احدى وستين فرقة وخلافاتها ليست فى الفروع حتى نقول انها فـروع لفرقة وليست فرقا تستحق هـذا الاسم ، بل ان خلافاتهـا فى الامامة ، وبالذات شخص الامام ، والامامة عندها كالنبوة ، بل وأكثر اهمية عند بعضها ، ومن لم يعرف امامه مات ميتة جاهليـــــة ؟! .. ففرق الامامية تبلغ عند القاضى تسعا وأربعين (١٥) ، وفرق الزيدية اثنتى عشرة فرقة (١٦) .

٦ ـ والمقريزى الذى يروى الحـديث ويجمع طرق روايته ويوثقه يقول عن احدى هذه الفرق ، وهى الرافضـــــة : انهم « اختلفوا فى الامامة اختـلافا كثيرا ، حتى بلغت فرقتهم ثلثمائة فرقة ، والمشهور منها عشرون فرقة ! » ويقول عن احـدى الفرق التى انقسمت من الرافضة ، وهى « الخطابية » : « .. اتباع أبى الخطـاب محمـد بن أبى ثور .. وأتباعه خمسون فرقة ؟! » .. ويقول عن المعتزلة « وهى عشرون فرقة .. » ولا يذكر فيهم القدرية ، اذ يذكرها كفرقة مستقلة عن المعتزلة (١٧) .

٧ ـ أما الخوارزمى فانه يعدد الفرق الرئيسية فتبلغ عنده سبعا هى :

١ ـ المعتزلة « وهى عنده تنقسم الى ست فرق » .

٢ ـ والخوارج « وتنقسم عنـده الى أربع عشرة فرقة » .

٣ ـ وأصحاب الحديث « وتنقسم عنـده الى أربع فرق » .

---

(١٥) (المغنى) ج ٢٠ ق ٢ ص ١٧٦ ـ ١٨٢ .
(١٦) المصدر السابق . ج ٢٠ ق ٢ ص ١٨٤ ، ١٨٥ .
(١٧) (خطط المقريزى) ج ٣ ص ٢٨٣ ـ ٢٩٤ .

٤ ـ والمجبرة ـ وهى عنده خمس فرق » .
٥ ـ والمشبهة « وهى عنده ثلاث عشرة فرقة » ،
٦ ـ والمرجئة « وهى عنده ست فرق » .
٧ ـ والشيعة « وهى عنده خمس فرق تتفرع الى أصـــناف ... فالزيدية ٥ ، والـكيسانية ٤ ، والعباسية ٢ ، والغالية ٩ والامامية ٤١ » .

فاذا عددنا « الأصناف » « فرقا » بلغ مجموعها جميعا عند الخوارزمى اثنتين وسبعين فرقة ، واذا لم ندخلها فى تعداد هذه الفرق ، ينبع من الافتقار الى منهج يحدد وفى كلا الحـالين فهى ليست ثلاثا وسبعين كمـا يقول الحديث (١٨) .

وهذا الاضطراب الذى يتجلى لدى مؤخى الفرق ، فى تعداد هذه الفرق ، ينبـع من الافتقار الى منهج يحـدد المعيار الذى على أساسه يتم الحكم بأن هذه الجمـاعة « فرقة » ، أو أن الذى بينهم وبين أصولهم هو مجرد اختلاف فى فروع الاصول العامة التى اتفقت عليها الفرقة الأم ..

فالمعتزلة ، مثـــلا ، الذين يصل أغلب كتاب الفرق والمقالات بعدد فرقهم الى العشرين ، هم فرقة واحدة ، تجمعها أصول خمسة ، لا يعد من أهلها الا من اعتقد بهذه الاصول الخمسة ، وفى اطار هذه الفرقة اختلافات واجتهادات حول عديد من القضـــايا الفرعية ، مثل : الطبع .. والتولد .. والطفرة .. والجزء الذى لا يتجزأ .. والموقف من : أيهما أفضل ، على أم أبى بكر ؟ .. أما العدل ، والتوحيد ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين

---

(١٨) (مفاتيح العلوم) ص ١٨ ـ ٢٢ . طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ

المنزلتين ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر . فانهـــا الاصول الخمسة التى لا يصبح معتزليا الا من اعتقد بها .

وهذا المثال يزيد من وضوح الاضطراب الذى وقع فيه مؤرخو المقالات عندما شرعوا فى تعدادها . ولقد ساعد على هذا الاضطراب ـ الى جانب غياب المنهج المحــدد للمعيار الدقيق فى التقسيم ـ الالتزام « بالحديث » الذى يجعل هذه الفرق ثلاثا وسبعين فرقة .. فبدأوا حديثهم بهذا العدد ، فلما استقصوا الواقع وقفوا دونه او تجاوزوه .

ونحن لا نستبعد أن يكون الرسول عليه الصــلاة والسلام قد تنبا بافتراق الامة واختلافها ، اذ أن اتحاد أمة من الامم وأهل دين من الاديان كفرقة واحدة هو أمر مستحيل بحكم التجربة الانسانية الســابقة وما تطرحه الحياة المتجددة من قضايا ومعضلات ، وما فيهـــا من مصالح تستلزم بالقطع الاجتهاد والاختلاف والاتفاق .. فهو نوع من النبوءة الفكرية والسياسية تخرج عن الغيب وأنبائه ، بل وتخرج عن أن تــكون خاصية من خواص الرسل والانبياء .. أما أن يكون الرسول عليه الصــلاة والسلام قد حدد عدد الفــــرق بثلاث وسبعين فهو ما لا نميل الى تصديقه . لما قدمنا من أسباب .

ولقد أدرك الشهرستانى ذلك الاضطراب الذى وقع فيه مؤرخو الفرق ، وافتقار البحث الى « قانون » يميز الفرق ويجعل تعدادها أمرا دقيقا ـ وعبر عن هذا الادراك فى عبارات واضحة نوردها كاملة لاهميتها قال :

« اعلم أن لاصحاب المقــالات طرقا فى تعديد الفرق الاسلامية ، لا على قانون مستند الى نص ، ولا على قاعدة

مخبرة عن الوجود ، فما وجـدت مصنفين متفقين على منهاج واحد فى تحديد الفرق . ومن المعلوم الذى لا مراء فيه أن ليس كل من تميز عن غيره بمقالة ما فى مسألة ما عد صاحب مقالة ، والا فتكاد تخرج المقالات عن حد الحصر والعد ، ويكون من انفرد بمسألة فى أحكام الجواهر مثلا معدودا فى عداد أصحاب المقالات .. فلابد اذن من ضابط فى مسائل هى أصول وقواعد يكون الاختـلاف فيها اختلافا يعتبر مقالة ، ويعد صاحبه صاحب مقالة .

وما وجدت لاحد من أرباب المقالات عناية بتقرير هذا الضابط ، الا أنهم استرسلوا فى ايراد مذاهب الامة ، كيف اتفق ، وعلى الوجـه الذى وجـد ، لا على قانون مستقر وأصل مستمر ، فاجتهـــدت على ما تيسر من التقدير ، وتقدر من التيسير ، حتى حصرتها فى أربع قواعد ، هى الاصول الكبار .

« القاعدة الاولى » : الصفات والتوحيد فيها .. وهى تشتمل على مسائل الصفات الازلية ، اثباتا عند جماعة ونفيا عند جماعة ، وبيان صفات الذات وصفات الفعل ، وما يجب لله تعالى وما يجوز عليه وما يستحيل وفيها الخـلاف بين : الاشعرية ، والـكرامية ، والمجسمة ، والمعتزلة .

« القاعدة الثانية » : القدر والعدل ــ وهى تشتمل على مسائل القضاء ، والقدر ، والجبر ، والكسب فى ارادة الخير والشر ، والمقدور والمعلوم ، اثباتا عند جماعة ونفيا عند جماعة ، وفيها الخلاف بين : القدرية ، والنجارية ، والجبرية ، والاشعرية ، والكرامية .

« القاعدة الثالثة » : الوعد والوعيـــد ، والاســماء

والاحكام .. وهى تشتمل على مسائل الايمان ، والتوبة، والوعيد . والارجاء ، والتكفير ، والتضليل ، اثباتا ، على وجه ، عند جماعة ونفيا عند جماعة ، وفيها الخلاف بين المرجئة ، والوعيدية ،والمعتزلة،والاشعريةوالكرامية.

« القــاعدة الرابعة » : السمع والعقل ، والرسالة والامامة ــ وهى تشتمل على مســـائل التحسين ، والتقبيح ، والصلاح والاصلح ، واللطف ، والعصمة فى النبوة ، وشرائط الامامة ، نصا عنـد جماعة واجماعا عند جماعة وكيفية انتقالها على مذهب من قال بالنص، وكيفية اثباتها على مذهب من قال بالاجماع ، والخلاف فيها بين : الشيعة ، والخوارج،والمعتزلة،والكرامية،والاشعرية.

فاذا وجدنا انفراد واحد من أئمة الامة بمقالة من هذه القواعد عددنا مقالته مذهبا وجماعته فرقة ، وان وجدنا واحدا انفرد بمسألة فلا نجعل مقالته مذهبا وجماعته فرقة ، بل نجعله مندرجا تحت واحد ممن وافق سواها مقالته ، ورددنا باقى مقالته الى الفــروع التى لا تعــد مذهبا مفردا فلا تذهب المقالات الى غير نهاية .

واذا تعينت المسائل ، التى هى قواعد الخلاف ، تبينت أقسام الفرق ، وانحصرت كبــارها فى أربع ، بعــد أن تداخل بعضها فى بعض .

كبار الفرق الاسلامية اربع ، القدرية ، الصفاتية ، الخوارج ، الشيعة (١٩) » .

---

(١٩) (الملل والنحــل) جـ ١ ص ٩ ــ ١٣ . مطبــوع على هامش ، الفصل فى الملل والاهواء والنحل) لابن حزم . طبعة القاهرة الاولى سنة ١٣٢١ .

هذه عبارات الشهرستانى ، ونحن نتفق تماما مع المنهج الذى وضعه لتحديد الفرق بين « المقالة » التى يؤدى الانفراد بها الى قيام الفرقة والمذهب ، وبين « المسألة » التى تتدرج أطراف الخلاف حولها فى فرقة أعم وأشمل منها .. فقط لنا على نتائجه ملاحظتان :

الاولى : انه انتهى الى أن كبار الفرق هى : القدرية ـ « المعتزلة » ـ والصفاتية ـ (أى أصحاب الحديث ، أو « النوابت » كما يسميهم القاضى عبد الجبار) ، والخوارج ، والشيعة .. وهو بذلك يغفل مكان «المرجئة» .. اذ المعلوم أن اندراج المرجئة تحت أهل الحديث ، وهو ما يبدو أن الشهرستانى قد عناه وقصد اليه هو أمر غير دقيق ، ذلك أن الارجاء قد بدأ كموقف سياسى من الصراع الذى دار حول السلطة على عهد الاموين ، وتكونت لذلك فرقة ، بل لقد ظهر فى الارجاء أكثر من مذهب وأكثر من تيار ، واذا كانت الفرق الاسلامية قد ظهرت لاسباب سياسية وليس لجدل دينى معزول عن قضايا المجتمع ، فان اغفال « المرجئة » ونحن بصدد تعداد الفرق الكبرى لا يجوز .. ومن هنا فنحن نرى أن تعداد القاضى عبد الجبار لهذه الفرق عندما قال : « .. ومعلوم أن فرق الامة ، فى الجملة ، المعتزلة ، والخوارج ، والمرجئة ، والشيعة ، والنوابت » (٢٠) هو التعداد الادق ، وهو مبنى على ذات المنهج الذى حدده الشهرستانى فى عمق وابتكار .

والثانية : أن الشهرستانى ، بعد أن حدد هذا المنهج وطبقه على واقع الفرق الاسلامية ، عاد ليخضع المنهج

(٢٠) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٥٢ .

والواقع لذلك الحديث الذى رووه عن ان عدد فرق الامة ثلاثا وسبعين فرقة ، فقال : ان هـذه الفرق الـكبار « يتركب بعضهـا مع بعض ، ويتشعب عن كل فرقة أصناف فتصل الى ثلاث وسبعين فرقة (٢١) » .. وهو موقف يعكس التناقض بين « الدراية » و « الرواية » : ومحاولات « التوفيق » بين « الواقع » وبين « النص » حتى لو أبى الواقع ذلك التوفيق . وحتى لو كان هـذا النص حدثا من أحاديث الآحاد .

---

(٢١) (الملل والنحل) ص ١٣ .

الفصل الثانى :

الخوارج وثوراتهم

نشأت الخوارج نشأة سياسية ، كما أسلفنا ، ولقد ظلوا ، رغم اختلافهم فى المكان الذى يعلنون منه الخروج، وفى الزمان الذى يتم فيه الخروج ، وفى التباين ازاء بعض المسائل الفكرية بين تياراتهم .. ظلوا أوفياء ومجمعين على القضايا الاساسية التى اســـتدعت نشأة فرقتهم وأعطت هذه الفـــرقة ما يميزها عن سواها من فرق الاسلام :

١ ــ فهم مع امامة الصالح ، بصرف النظر عن نسبه ولونه .

٢ ــ وهم مع الثورة المستمرة والخروج الدائم وتجريد السيف ضد أئمة الجور .. وهو المبدأ الذى وافقهم فيه آخرون تكونت فرقهم من بعد .

٣ ــ وهم فى تقييم التاريخ السياسى الاسلامى ــ مع امامة أبى بكر وعمر ، ومع امامة عثمان قبل أن يحدث الاحداث فى السنوات الست الاخيرة من امارته ، ومع امامة على قبل التحكيم ، أما سنوات عثمان الاخيرة فانهم يبرأون منه فيها ، واما على بعد التحكيم فانهم يكفرونه، بعضهم يكفره كفر شرك وبعضهم يقول : انه كفر نعمة

فقط .. وهم يبرأون من أصحاب الجمل ، وكذلك من معاوية وبنى أمية ومن والاهم .

٤ ــ وهم مع الاختيار والبيعة ، كطريق لنصب الامام .. وضد فكر الشيعة فى الوصية والنص .

٥ ــ وهم يرون أن الامامة من الفروع ، وينكرون قول الشيعة انها من أصول الدين ، فمصدرها عندهم ليس الكتاب ولا السنة وانما و « الرأى » .

٦ ــ وهم يرون ان مرتكبى الذنوب الكبيرة كافرون مخلدون فى النار . وكانوا يعنون بهم أساسا بنى أمية ، وولاتهم وعمد نظامهم السياسى والعسكرى .

٧ ــ وهم يقولون بالعدل والتوحيد ، والوعد والوعيد، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٨ ــ وفوق ذلك فان الخوارج تجمعهم تقاليد اشتهرت عنهم فى القتال .. وزهد اتصفوا به فى الثروة فحررهم من قيود الحرص على الاقتناء وأعانهم على الانخراط فى الثورات والرحيل فى ركاب الجيوش الثائرة .. ونسك وتقوى سجلها لهم حتى خصومهم من كتاب المقالات .. وصدق وشجاعة طبعت سلوكهم ، وبرزت فى شعر شعرائهم فميزته عن شعر غيرهم الى حد كبير .

والذى يعنينا من أمرهم هنا هو ما يرتبط بموضوع الامامة الذى نبحث علاقته بنشأة الفرق الاسلامية ، وفى مقدمته ــ فيما يخص الخوارج ــ امران :

أولهما : فلسفتهم فى اختيار الائمة الذين نصبوهم عليهم فى ثوراتهم والمجتمعات التى نجحوا فى اقامة سلطانهم عليها .

وثانيهما : الثورات الكثيرة ، وشبه المستمرة ، التى

قاموا بها ، وعلاقتها بالصراع على السلطة ، ومنصب الامامة بالذات .

أما فلسفتهم فى الامامة فانها الأصل فى القواعد التى حكمت موقفهم منها ، وهى التى أشرنا اليها .. فهم يختارون من تتوافر فيه شروطها ، دون التقيد بالنسب أو الجنس أو اللون ، وهم يعزلونه اذا افتقدت فيه الشروط (١) .. ولما كانت أغلب ثورات الخوارج قد قامت ضد بنى أمية التى تتركز فيها عصبية قريش . فان صراع الخوارج قد كان ضد العصبية القرشية فى جانب كبير منه ، ولذلك لم يختاروا أميرا واحدا من القرشيين فمن امرائهم وخلفائهم ، مثلا :

* عبد الله بن وهب الراسبى (٣٨ هـ - ٦٥٨ م) ، وهو من الازد .

* حوثرة بن وداع بن مسعود (٤١ هـ - ٦٦١ م) ، وهو من أسد .

* المستورد بن علفة بن سعد بن زيد بن مناة (٤٣ هـ - ٦٦٣ م) ، وهو من تيم الرباب .

* زحاف الطائى (٥٠ هـ - ٦٧٠ م) ، وهو من طىء .

* قريب بن مرة (٥٠ هـ - ٦٧٠ م) ، وهو من الأزد .

* حيان بن ظبيان السلمى (٥٩ هـ - ٦٧٨ م) .

* أبو بلال مرداس بن حدير بن عامر بن عبيد بن كعب الربعى الحنظلى (٦١ هـ - ٦٨٠ م) ، وهو من تميم .

---

(١) أنظر فى ذلك : د. يحيى هويدى (تاريخ فلسفة الاسلام فى القارة الافريقية) ج ١ ص ٣٠ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

* نافع بن الازرق بن قيس الحنفى (٦٥هـ ـ ٦٨٥م) وهو مس بكر بن وائل .

* عبيد الله بن بشير بن الماخور السليطى اليربوعى (٦٥ هـ ـ ٦٨٥ م) وهو من تميم .

* الزبير بن على السليطى (٦٨ هـ ـ ٦٨٧ م) ؛ وهو من تميم .

* نجدة بن عامر الحنفى (٣٦ ـ ٦٩ هـ ـ ٦٥٦ ـ ٦٨٨ م) وهو من بكر بن وائل .

* ثابت التمار ـ الذى بويع له بعد نجدة بن عامر ـ وهو من الموالى .

* أبو فديك (٧٣ هـ ـ ٦٩٢ م) .

* أبو الضحاك ، شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس الشيبانى (٢٦ ـ ٧٧ هـ ـ ٦٤٧ ـ ٦٩٦ م) .

* أبو نعامة ـ واسـمه « جعونة » ـ قطرى بن الفجاءة بن مازن بن يزيد ، الكنانى المازنى (٧٨ هـ ـ ٦٩٧ م) ، وهو من تميم .

* عبد ربه الصغير ـ الذى انشق على قطـرى ، وبويع له بامرة المؤمنين ـ وهو أحـد موالى قيس بن ثعلبة .

* أبو سماك ، عمران بن حطان بن ظبيان السدوسى الشيبانى الوائلى (٨٤ هـ ـ ٧٠٣ م) .

* عبد الله بن يحى بن عمر بن الاسود (١٣٠ هـ ـ ٧٤٨ م) ، وهو كندى (٢) .

---

(٢) (شرح نهج البلاغة) ج ٤ ص ١٣٢ ـ ٢٧٨ . و ج ٥ ص ٨٥ ـ ١٣٥ . ويوليوس فلهوزن (الخوارج والشيعة) ص ٣٩ ـ ١٣٠ ترجمة د. عبد الرحمن بدوى . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م . والزركلى (الاعلام) طبعة بيروت ، الثالثة .

فهم جميعا ما بين عربى ، غير قرشى ، وما بين مولى من الموالى اشترك فى البيعة له بامارة المؤمنين العـــرب والموالى على حد سواء .. وهذه سابقة فى فلسفة الحكم لم يسبق لها مثيل فى المجتمع العربى الاسلامى ، ولعلها التطبيق الاول لروح فلسفة الاسلام فى هذا المقام .

اما فلسفتهم فى الحكم ، بمعنى العدل الذى خرجوا لاقامته بدلا من الجور الذى ثاروا عليـــه ، فان لهم فى الحديث عنه الخطب والاشـعار المتناثرة الـكثيرة فى كتب التاريخ ، وهذه الكلمات التى خطب بها أبو حمزة الشارى (٣) على منبر مسجد المدينة توجز معنى الجور الذى ثاروا ضده والعدل الذى طلبوه .. قال : « يا أهل المدينة ، سألناكم عن ولاتكم هؤلاء ـ « ولاة بنى أمية » ـ فأسأتم القول فيهم ، وسألناكم : هل يقتلون بالظن ؟ فقلتم : نعم ، وسألناكم : هل يستحلون المال الحرام ، والفرج الحرام ؟ فقلتم : نعم ، فقلنا لكم : تعالوا ، نحن وأنتم ، نلقاهم ، فان نظهر نحن وأنتم يأت من يقيم لنا كتاب الله وسنة نبيه ، ويعدل فى أحكامكم ، ويحملكم على سنة نبيكم ، فأبيتم ، وقاتلتمونا ، فقاتلناكم وقتلناكم .. مررت بكم فى زمن هشام بن عبد الملك ، وقد أصابتكم عاهة فى ثماركم ، فركبتم اليه تسألونه أن يضع خراجكم عنكم ، فكتب بوضعه عن قوم من ذوى اليسار منكم ، فزاد الغنى غنى والفقير فقرا . وقلتم : جزاه الله خيرا ، فلا جزاه خيرا ولا جزاكم ! .. يا أهل المدينة ، الناس منا ونحن منهم ، الا مشركا عباد وثن ، أو كافرا من أهل

(٣) هو المختار بن عوف بن سليمان بن مالك الازدى السليمى البصرى (١٣٠ هـ ـ ٧٤٨ م) من بنى سليمة بن مالك . كان من أتباع طالب الحق عبد الله بن يحيى بن عمر الاسود الكندى .

الكتاب . أو اماما جائرا .. أخبرونى عن ثمانية اسهم فرضها الله فى كتابه على القوى والضعيف (٤) ، فجاء تاسع ليس له منها سهم ، فأخذها جميعها لنفسه ، مكابرا محاربا لربه ، فما تقولون فيه ، وفيمن أعانه على فعله ؟! ..

ان بنى أمية قد اصابوا امرة ضائعة ، وقوما طغاما جهالا لا يقومون لله بحق ، ولا يفرقون بين الضلالة والهدى ، ويرون أن بنى أمية ارباب لهم ، فملكوا الامر وتسلطوا فيه تسلط ربوبية ، بطشهم بطش الجبابرة ، يحكمون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويأخذون بالظن ، ويعطلون الحدود بالشفاعات ، ويؤمنون الخونة، ويعصون ذوى الامانة ، ويتناولون الصدقة من غير فرضها ، ويضعونها غير موضعها ، فتلك الفرقة الحاكمة بغير ما انزل الله ، فالعنوهم ، لعنهم الله !

واما اخواننا من الشيعة ، وليسوا باخواننا فى الدين، ولكنى سمعت الله يقول : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » (٥) ، فانها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وآثرت الفرقة على الله ، لا يرجعون الى نظر نافذ فى القرآن ، ولا عقل بالغ فى الفقه ، ولا تفتيش عن حقيقة الثواب ، قد قلدوا امورهم أهواءهم ، وجعلوا دينهم العصبية لحزب لزموه واطاعوه فى جميع ما يقوله لهم ، غيا كان أو رشدا ، ضلالة كان أو هدى ، ينتظرون الدول فى رجعة الموتى ،

---

(٤) يشير الى مصارف الصدقات كما حددها القرآن (انما الصدقات للفقراء والمساكين ..) الاية .

(٥) الحجرات : ١٣ .

ويؤمنون بالبعث قبل الســـــاعة ، ويدعون علم الغيب لمخلوقين لا يعلم واحدهم مافى بيته ، بل لا يعلم ما ينطوى عليه ثوبه ، أو يحويه جسمه ، ينقمون المعـــاصى على أهلها ، ويعملون بها ، ولا يعلمون المخرج منها ، جفاة فى دينهم ، قليلة عقولهم ، قد قلدوا أهل البيت من العرب دينهم . وزعموا ان موالاتهم لهم تغنيهم عن الاعمـــال الصالحة ، وتنجيهم من عقاب الاعمال السيئة ، قاتلهم الله انى يؤفكون ! » (٦) .

فهو هنا :

اولا : يعلن أن بنى أمية قد تولوا السلطة اغتصابا . ودون استحقاق وان جورهم قد عطل الحـدود واضر بالرعية حتى أغنى الغنى وأفقر الفقير .

وثانيا : يعلن وجوب الخروج ، بالسيف ، على هذه السلطة الجائرة لازالتها ، ثم يرد الى النـاس امرهم ، يختارون بالشورى امامهم بأنفسهم ولانفسهم (٧) .

وثالثا : يعلن ان الخوارج يبغون وحدة الامة فى هذا الصراع . فهم « من الامة والامة منهم » »، لا يستثنى من الناس الا المشرك واهل الكتاب والامام الجائر .

ورابعا : يعلن رفض القعود ويهاجم القعـدة الذين يئنون تحت النير الاموى دون أن يخـــرجوا عليـــه ويقاوموه .

وخامسا : يهاجم فرقة الشيعة ــ بعد ان هاجم الفرقة

(٦) (شرح نهج البلاغة) ج ٥ ص ١١٤ ، ١١٨ ، ١١٩ .

(٧) بين فرق الخوارج اختلافات جزئية فى حكم الخروج على أئمـة الجور ، فبعضهم يتشدد وبعضهم يعتدل .. أنظر : د. يحيى هويدى (تاريخ فلسفة الاسلام فى القارة الافريقية) ج ١ ص ٥٨ ، ٥٩ .

الاموية الحاكمة ـ لانها تخلت عن مقـاومة السـلطة والخروج عليها ، وتدينت بالتعصب لآل البيت ، واتخذت من حبهم عبادة ترجو القربة بهـا ، وابتدعت عقـائد : الرجعة ، وعلم الائمـة للغيب ، وغيرهمـا من العقـائد الغريبة عن الاسلام .

والى جانب هذه الافكار والمبادىء التى طرحتها فلسفة الخوارج السياسية ، كانت آراؤهم فى مرتكب الكبيرة ـ وهى آراء سياسية عنوا بها تكفير بنى أمية ومن سلك سلوكهم فى الجور ـ والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وامامة غير القرشى ، والبراءة من عثمان بعد الاحداث ومن على بعد التحكيم ، ومن أصحاب الجمل وصفين ، كانت هذه الآراء السياسية عنـاصر مذهب وفلسفة فى الحكم أثارت الجدل الفكرى والصراع السياسى الذى بلور فرق الاسلام الاولى فى القرن الاول للهجرة ، وبالذات تلك الفرق التى نشأت نشأة سياسية ، وفى مقدمتهـا : الشيعة ، والمرجئة ، والمعتزلة .

أما الثورة والخروج ، كطريق سلكه الخوارج لتسود افكارهم ، فان فرقة من فرق الاسلام لم تسلك هـذا الطريق كمـا سلكوه ، حتى لقـد أصبحت ثوراتهم وانتفاضاتهم اشبه بالثورة المستمرة فى الزمان والمنتشرة فى المكان ضد الامويين ، بل وضد على بن أبى طالب قبل سنة ٤٠ هـ .

فنتيجة التحكيم بين على ومعاوية قد ظهرت فى رمضان سنة ٣٧ هـ ، وفى شوال بايع الخوارج لأول أمرائهم : عبد الله بن وهب الراسبى ، الذى قـادهم فى حرب

النهروان (٨) فى صفر سنة ٣٨ هـ ضد جيش على بن أبى طالب .

وبعد هزيمة الخوارج فى النهروان بشهرين تجددت ثورتهم ، فقاتلوا جيش على ثانية فى « الدسكرة » (٩) (فى ربيع الثانى سنة ٣٨ هـ) وكان قائدهم فى «الدسكرة» اشرس بن عوف الشيبانى .

وفى الشهر التالى لهزيمة « الدسكرة » تجددت ثورتهم بقيادة هلال بن علفة وأخيه مجالد ، فقاتلوا جيش على مرة ثالثة عند « ماسبذان » (١٠) فى جمـــادى الاولى سنة ٣٨ هـ .

وبعد هزيمة « ماسبذان » قادهم الاشهب بن بشر البجلى فى خروج آخر فى نفس العام ــ ٣٨ هـ ــ فحاربوا فى « جرجرايا » على نهر دجلة .

وفى رمضان سنة ٣٨ هـ زحفوا بقيادة « أبو مريم » ــ من بنى سعد تميم ــ الى أبواب الكوفة ، فحاربوا جيش على ، وهزموا هناك . وبعد مقتل على ، وتنازل الحسن لمعاوية . بدأت حرب الخوارج لاهل الشام ، ولقد كادوا يهزمون جيش معاوية فى أول لقاء لهم به ، لولا أن استعان عليهم بأهل الكوفة .

وفى سنة ٤١ هـ قاد سهم بن غالب التميمى والخطيم الباهلى تمردا ضد الامويين استمر حتى قضى عليه زيادة ابن أبيه قرب البصرة سنة ٤٦ هـ .

---

(٨) أسفل موقع بغداد .
(٩) بارض خراسان .
(١٠) بارض فارس .

وفى اول شعبان سنة ٤٣ هـ قاتل الخوارج ، بقيادة أميرهم « المستورد بن علفة » جيش معــاوية ، وكانت الكوفة يومئذ يتولاها المغيرة بن شعبة .

وفى سـنة ٥٠ هـ ثار بالبصرة جماعة منهم بقيادة قريب الازدى .

وفى سنة ٥٨ هـ ثار الخوارج من بنى عبد القيس ، فذبحوا من قبل جيش عبيد الله بن زياد .

وفى سنة ٥٩ هـ ثاروا بقيادة حيان بن ظبيان السلمى، وقاتلوا حتى قتلوا جميعا عند « بانقيا » قرب الكوفة .

وفى سنة ٦١ هـ كانت المعركة التى قتل فيها ابو بلال مرداس بن ادية ، الذى خرج بالاهواز على عهد والى البصرة عبيد الله بن زياد ... وكان مقتله وقودا زاد من ثورات الخوارج وكثر من أنصارهم .

ثم خرجوا بالبصرة بقيادة عروة بن ادية ، وهو اخو بلال بن أدية .

ثم خرجوا بالبصرة كذلك بقيادة عبيدة بن هلال ، الذى خرج « كشيخ على دين أبى بلال ؟! » .

وفى آخر شوال سنة ٦٤ هـ بدأت ثورة الازارقة بقيادة نافع بن الازرق ، وهى الثورة التى بدأت بــكسر أبواب سجون البصرة ، ثم خرجوا يريدون الاهواز .

وفى سنة ٦٥ هـ ثاروا باليمامة يقودهم «أبو طالوت» .

وفى شوال سنة ٦٦ هـ حاربوا ضد جيش المهلب بن ابى صفرة شرقى نهر دجيل .

وفى سنة ٦٧ هـ قاد ثورتهم نجدة بن عامر . فاستولوا على أجزاء من اليمن وحضرموت والبحرين .

وفى أوائل سنة ٦٨ هـ . قادهم الزبير بن على السليطى فى حربهم ضد جيش مصعب بن الزبير عنـد سـابور واصطخر ، ثم البصرة .

وفى نهاية سنة ٦٨ هـ ثار الخوارج الازارقة . وهاجموا الكوفة .

وفى سنة ٦٩ هـ استولوا على نواحى من أصفهان ، وبقيت تحت سلطانهم وقتا طويلا .

وفى سنة ٦٩ هـ ثار الخوارج فى الاهواز بقيادة قطرى ابن الفجاءة .

وفى آخر شـعبان سنة ٧٥ هـ حاربوا المهلب بن ابى صفرة ، ولما هزمهم ، انسحبوا الى فارس .

وفى صفر سنة ٧٦ هـ قاد ثورتهم فى « دارا » الناسك صالح بن مسرح ، وقاتلوا فى قرية « المدبج » من أرض الموصل .

وفى سنة ٧٦ وسنة ٧٧ هـ تمكنوا بقيادة شبيب بن يزيد بن نعيم من ايقاع عدة هزائم بجيوش الحجاج بن يوسف .

ثم تكررت ثورتهم بقيادة شوذب ، وحاربوا فى الكوفة، على عهد يزيد الثانى .

وفى عهد هشام الثانى ثاروا وحاربوا فى الموصل بقيادة بهلول بن بشر ، ثم بقيادة الصحارى بن شبيب حيث حاربوا عند « مناذر » (١١) .

ولقد أدت هذه الثورات المتكررة ، شبه المتصلة ،

(١١) مناذر : اسم يطلق على بلده كبرى وأخرى صغرى ، بنواحى خوزستان .

الى ضعف الدولة الاموية ، وتعدد الفـــــرق والاحزاب المعارضة . كما أدت الى اتساع نطاق الثورة الخارجية بين الناس ، فلم تعد قاصرة على قلة من الناس يؤمنون بفكر هذه الفرقة ويخرجون تطبيقا لهذا الفكر ، وانما شاركت الجماهير الفقيرة فى هذه الثورات المسلحة .

ففى سنة ١٢٧ هـ حارب فى جيش الخوارج الذى قاده الضحاك بن قيس الشيبانى مائة وعشرون ألفا من المقاتلين ، وحاربت فى هذا الجيش نساء كثيرات !؟ ، وانتصر هـــذا الجيش على الامويين بالـــكوفة فى رجب سنة ١٢٧ هـ وبواسط فى شعبان سنة ١٢٧ هـ .

وفى سنة ١٢٩ هـ ثاروا باليمن بقيادة عبد الله بن يحيى الكندى ، واستولى على حضرموت واليمن وصنعاء ، وأرسل عبد الله بن يحيى جيشا يقوده حمزة الشارى فدخل مكة ، وانتصر فى المدينة الى ان هزمه جيش أموى جاءه من الشام فى جمادى الاولى سنة ١٣٠ هـ (١٢) .

وهذه الثورات الخارجية وان لم تنجح فى اقامة دولة يستمر حكم الخوارج فيها طويلا الا أنهـــا قد أصابت الدولة الاموية بالاعياء حتى انهـــارت انهيارها السريع تحت ضربات ثورة العباسيين فى سنة ١٣٢ هـ .

واذا أردنا ان نعرف كم كلفت ثورات الخوارج بنى أمية كفـــانا ان نذكر أنهم لم يستطيعوا احراز النصر على الخوارج الا بقائدهم المهلب بن بى صفرة ، ولم يستطع المهلب أن يهزم الخوارج الا بعد ان اخذ الارض وخراجها اقطاعا له ولجنده المحاربين . ويروى المسعودى انه « لما

(١٢) (الخوارج والشيعة) ص ٣٩ وما بعدها .

غلبت الخوارج على البصرة ، بعث اليهم عبد الملك جيشا فهزموه ، ثم بعث اليهم آخر فهزموه » فقال : للبصرة والخوارج ؟

فقيل له : ليس لهم الا المهلب بن أبى صفرة ، فبعث الى المهلب ، فقال :على أن لى خراج ما أجليتهم عنه !

فقال عبد الملك : اذن تشركنى فى ملكى !

فقال المهلب : فثلثاه !

فقال عبد الملك : لا !

قال المهلب : فنصفه ، والله لا أنقص منه شيئا ، على أن تمدنى بالرجال ، فاذا اخللت فلا حق لك على ! » (١٣)

أى أن الدولة قد وضعت كل ما لديها فى خدمة الجيش والقائد الذى حاربهم فى العراق . ومع ذلك فلقد ظلت شرارة ثورتهم المستمرة تولد الانتفاضة اثر الاخرى ، كما ظلت فلسفتهم السياسية تشعل الجدل الذى أصبح وقودا يذكى نار الصراع على السلطة بين الفرق المعارضة وبين الامويين .

---

(١٣) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ٩٧ .

الفصل الثالث :

الشيعة والإمامة

ذهبت الشيعة الى انها ، كفرقة ومبادىء أساسية ، قد نشأت وظهرت عقب اجتماع السقيفة ، وبمجرد أن ذاع خبر البيعة لابى بكر الصديق ، وهم يعنون موقف علي ومن تبعه فى الامتناع عن البيعة لابى بكر . تجمع على ذلك مصادرهم وتتفق فيه فرقهم (١) . ويتفق معهم فى ذلك علماء الاستشراق (٢) .

ولكن غير الشيعة ، والمعتزلة خاصة ، ينكرون ان تكون الشيعة قد نشأت ، كفرقة ، فى ذلك الزمن المبكر ، ويؤرخون بعصر جعفر الصادق (٨٠ – ١٤٨ هـ ٦٩٩ – ٧٦٥ م) وهشام بن الحكم (المتوفى سنة ١٩٠ هـ سنة ٨٠٥ م) ظهور الشيعة كفرقة يعنى ذكرها ما يعنيه التشيع بالمعنى المتعارف عليه الآن (٣) .

---

(١) النوبختى (فرق الشيعة) ص ٢ ، ٣ . و (تلخيص الشافى) ج ١ ق ٢ ص ١٠٩ – ١١٢ .

(٢) (أصول الاسماعيلية) ص ٨٣ – ٨٦ .

(٣) (تثبيت دلائل النبوة) ج ٢ ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ . و (المغنى) ج ٢٠ : ١ ص ١٢٧ ، ٢٢٣ . وابن المرتضى (باب ذكر المعتزلة – من كتاب المنية والامل) ص ٤ ، ٥ ، تحقيق أرنولد . طبعة الهند سنة ١٣١٦ هـ . و د. على سامى النشار (نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام) ج ٢ ص ١ ، ٢ . الطبعة الرابعة . دار المعارف . سنة ١٩٦٩ م .

والحق أننا اذا قصدنا بالتشيع والشيعة معنى الميل الى امارة على بن أبى طالب ، والطموح الى تقـــديمه وتفضيله على غيره من الصحابة فاننا سنجد جماعة غير منظمة تجمعها هذه الآراء والامانى منذ ان طرحت قضية الامارة عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . ولقد استمرت هذه الجماعة غير المنظمة ، واستمر هواها مع على وبنى هاشم دون أن يتعدى ذلك نطـــاق الهوى والامنيات . حتى اذا ما بويع على بالخـــلافة بعد مقتل عثمان بن عفان ، وقامت الصراعات على السلطة بينه وبين طلحة والزبير ، ثم بينه وبين معاوية ، ثم بينه وبين معاوية من جانب والخوارج من جانب آخر ، وجدنا ان انصار على الذين حاربوا معه ونصروه ضد خصومه من الممكن أن يطلق عليهم شيعة على ، أى انصار امارته للمؤمنين .

ولكن هذا الرباط الفضفاض ليس هو المراد ولا المتبادر الى الذهن اذا نحن تحدثنا ، فنيا ، عن الشيعة والتشيع، فليس الذى يميز الشيعة عن غيرهم تفضيل على على أبى بكر وعمر وعثمان ، ولا الميل الى نصرته ودوام امارته للمؤمنين . ذلك ان مدرسة البغداديين من المعتزلة التى تكونت منذ امامهم بشر بن المعتمر (المتوفى سنة ٢١٠ هـ ـ سنة ٨٢٥ م) قد تميزت عن مدرسة معتزلة البصرة بتفضيل على على كل الصحابة ، ومع ذلك فهم ليسوا شيعة بالمعنى الفنى لهذا المصطلح ، بل هم أعداء الشيعة، سياسة وفكرا ، رغم انهم قد رضوا أن يتسموا أحيانا باسم « شيعة المعتزلة » ! . فليس تفضيل على ، اذن ،

هو الذى يميز بين الشيعة وغيرهم من فرق الاسلام ، حتى يكون صالحا كى نؤرخ به نشأتهم الاولى .

أما الامر الذى يميز الشيعة عن غيرهم فهو عقيدة « النص والوصية » . واذا كان التاريخ لنشأة « البكرية » « والراوندية » لابد يرتبط بادعاء طلائع هذه الفرق وزعمهم بالنص على ابى بكر ، والعباس بن عبد المطلب ، فكذلك التأريخ لنشأة الشيعة مقترن بالفترة الزمنية التى نشأت فيها عقيدة النص ودعوى الوصية من الرسول الى على بن ابى طالب . ومن هنا كان صواب ما ذهب اليه المعتزلة عندما قالوا : ان فترة امامة جعفر الصادق ، وهى التى نهض فيها هشام بن الحكم بدور واضع قواعد التشيع ومهندس بنائه الفكرى ، هى الفترة التى يؤرخ بها لهذه النشأة . فالقول بالوصية لم يعرف قبل هشام ابن الحكم ، وهو الذى « ابتدع هذا القول ، ثم اخذه عنه » معاصروه ومن أتوا من بعده مثل « الحداد » و « أبو عيسى الوراق » و « ابن الراوندى » (٤) . فهذا المذهب ، كما يقول القاضى عبد الجبار ، قد « حدث قريبا ، وانما كان من قبل يذكر الكلام فى التفضيل ، ومن هو أولى بالامامة ، وما يجرى مجراه ... » (٥) . وكما يقول ابن المرتضى فان « مذهب الرافضة قد حدث بعد مضى الصدر الاول ولم يسمع عن أحد من الصحابة من يذكر ان النص فى على جلى متواتر ، ولا فى اثنى عشر ، كما زعموا » (٦) .

---

(٤) (تثبيت دلائل النبوة) جـ ٢ ص ٥٢٨ ، ٥٢٩ .
(٥) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ١٢٧ ، ٣٢٣ .
(٦) (باب ذكر المعتزلة) ص ٤ .

اما قبل هذا التاريخ ، تاريخ ظهور عقيــــدة النص والوصية ــ وهي العقيدة الوحيدة التى تميز الشيعة عن غيرهم فى الحقيقة وواقع الامر ــ فلقد كان هناك من يميل الى امامة أبى بكر ، ومن ناصر طلحة على عهد عمر ، ومن هيأ الاذهان لعثمان ، وكان هناك أيضا ، كما هو معروف ، من كان هواه مع على ، يتمنى أن « يختاره » المسلمون و « يبايعوه » .

أما قول الشيعة : ان عقيدة النص قد وجدت قبل زمن هشام بن الحكم وجعفر الصادق ، وأن عصر هشام قد أضاف اليها ظهور التصنيف فيها والنصرة لها ، ولم ينشئها انشاء ، فانه قول مردود ، وسيأتى تفصيل الرد عليه وتفنيده فى الحديث عن « طريق الامامة : الاختيار . لا النص » فى (الفصل الثانى) من (الباب الرابع) .

ويكفى أن نقول هنا اننا قد لاحظنا ونحن نبحث فى أسانيد الاحاديث التى روتها الشيعة عن النص والوصية ــ وهى التى يضمها كتاب « الكافى » للكلينى ، وهو اهم مصادرهم وأوثقها عندهم فى هذا الباب على الاطلاق ــ لاحظنا أن أغلب الروايات الشيعية عن النص والوصية ترجع لتنتهى عند جعفر الصادق ووالده أبو جعفر محمد ابن على (١١٤ هـ ــ ٧٣٢ م) فأبو جعفر ، وأبو عبد الله جعفر الصادق وكذلك الرضا (١٥٣ ــ ٢٠٣ هـ ــ ٧٧٠ ــ ٨١٨ م) ، هؤلاء الائمة الثلاثة اليهم تنسب أغلب الروايات التى رواها الشــــيعة في صــورة احاديث عن النص والووصية .

وهناك موقف ثالث فى التاريخ لنشاة التشيع ، غير موقف الشيعة وعلماء الاستشراق الذى يرجعها الى يوم

السقيفة ، وغير موقف المعتزلة الذى يقرنها بنشأة عقيدة النص والوصية فى عهد هشام بن الحكم .

وهـذا الموقف الثالث يؤرخ لنشـأة التشيع بدعوى عبد الله بن سبأ التى ظهرت فى أواخر عهد عثمان . ويعبر المقريزى عن هذا الموقف فيقول : « وكان ابتداء التشيع فى الاسلام ان رجلا من اليهود فى خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان اسلم فقيل له عبد الله بن سبأ ، وعرف بابن السوداء ، وصار يتنقل من الحجـاز الى امصار المسلمين يريد اضلالهم » (٧) .

وتنسب اغلب مصادر التاريخ والفكر الاسلامي الى ابن السوداء هذا نشاطا عظيما وجهدا خرافيا ، فتقول : انه اتى الحجاز وتقشف ، وقام بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، طلبا للرئاسة ، ثم لعب دورا كبيرا فى ايقاع الفتنة بين الصحابة وعثمان بن عفان ، وجازت حيله ومؤامراته على جلة الصحابة واكابرهم ، ثم حرض على قتل عثمان وحرك الناس فى هذا السبيل ، وفى خلافة على افسد المحاولات التى كادت تنجح للصلح ، فى البصرة ، بين على وطلحة والزبير ، ثم جاء دوره فى ظهور التشيع عندما جاء الى الكوفة « يظهر تعظيم على بمـا لا يرضاه على ، ويستغوى بذلك من ليست له صحبة ولا فقه فى الدين ، كالبوادي وأهل السواد ، ويتحدث بينهم ، وربما استقصر عندهم فعل ابى بكر وعمر وعثمان ، ويقدم أمير المؤمنين – (على بن ابى طالب) – عليهم فى الفضل ، وكان يدعى ان علينا يستخصه ، ويخرج اليه بأسرار لا يخرج بها الى

(٧) (خطط المقريزى) جـ ٣ ص ٢٦٢ .

غيره ، وعلى لا يعلم بذلك (٨) .. الى آخر اوجه النشاط التى تعزى اليه ، والتى يبدو فيها منفذا لمخطط محكم التدبير تشرف عليه وتنفذه هيئة سرية تبتغى هدم دولة الاسلام .

وهناك من الباحثين من هالتهم هذه الصورة فبحثوا عن شخصية عبد الله بن سبأ هذا وعن نشاطه ، وقاد هذا البحث البعض الى انكار وجود هذه الشخصية كلية، ورأى ان مؤرخي السنة قد اخترعوها كي يعلقوا فى عنقها الاحداث والصراعات والدماء التى سببها الصراع على السلطة ، حتى تظل لصحابة رسول الله قدسيتهم وصورتهم المثلى فى النفوس . كما قاد هذا البحث البعض الآخر الى التسليم بوجود هذه الشخصية ، ولكن مع رفض المبالغة فى الدور الذى لعبه فى تلك الاحداث (٩) .

أما فيما يختص بموضوعنا ، موضوع التاريخ لنشأة التشيع ، فان وجود ابن سبأ ــ على فرض التسليم بوجوده ــ وظهور آرائه ، سواء على عهد عثمان أو عهد على ، لا يصلح دليلا على ان التشيع قد ظهرفى ذلك التاريخ، فلم تنسب المصادر المعتمدة فى التاريخ والفكر الاسلامى الى ابن سبأ القول بالنص والوصية ، بل نسبت اليه فقط القول بتفضيل على على الصحابة وتقديمه على أبى بكر وعمر وعثمان . وحتى الشيعة أنفسهم لا يروون عنه شيئا من ذلك . فدعوى عبد الله بن سبأ ــ على فرض وجوده ووقوعها ــ « لم تكن من دعوى هشام بن الحكم بسبيل » كما يقول القاضى عبد الجبار ، ومن هنان فان

(٨) (تثبيت دلائل النبوة) جـ ٢ ص ٥٤٥ ، ٥٤٦ .
(٩) (أصول الاسماعيلية) ص ٨٧ ، و (الفتنة الكبرى) جـ ٢ ص ٩٣

عصره لا يصلح أن يتخذ بدءا لتاريخ ظهور الشـيعة والتشيع بالمعنى الفنى المعروف .

ولما كانت الامامة عند الشيعة قد أصبحت عقيدة دينية ، وقدمت صفتها تلك على صفتها السياسية ، بل وأطلقوا ــ كما سبق أن قدمنا ــ لقب « أمير المؤمنين » على من تولى من « الائمة » شئون الحكم والسلطان ، فاننالا نستطيع أن نرى في الحركات السياسية التى قام بها الشيعة قبل عهد جعفر الصادق دليلا على وجود فرقة الشيعة بالمعنى الدقيق . لان هذه الحركات السياسية لم تقم على أساس قاعدة التشيع الاسـاسية ، وهى الوصية ، وانما قامت على اساس أن الحسن أو الحسين أولى بالامارة من معـاوية ويزيد ، أو على طلب الثأر للحسين تكفيرا عن ذنب خذلان أهل العراق له وقعودهم عن نصرته بعد أن بايعوه واستقدموه .

فبعد ان تنازل الحسن لمعاوية ، على أن يكون له الامر من بعد معاوية ــ أى أن يكون وليا للعهد ، أو الخليفة التالى كما كان اقتراح الانصـار فى السقيفة ــ بتبادل الخلافة ــ بعد هذا التنازل أعلن معاوية أن وعده للحسن كان ضرورة حرب ، حتى تجتمع كلمة الامة ، أما وقد اجتمعت وسمي العام عام الجماعة ، فلقد أعلن تنصله من وعده ، وقال : « انى كنت شرطت شروطا ووعدت عدات، ارادة لاطفاء نار الحرب ، ومداراة لقطع هذه الفتنة ، فأما اذ جمع الله لنا الكلمة والالفة ، وأمننا من الفرقة ، فان ذلك تحت قدمى !! » .

ويومها جاء الى الحسن وفد من أشراف العـراق يلومونه على انه لم يستوثق من معاوية بوعد مكتوب ،

يشهد عليه وجوه اهل المشرق والمغرب ، ثم عرضوا عليه الشروع فى حرب معاوية ثانية، فان معه من شيعته اربعين ألف مقاتل من اهل الكوفة ، كلهم يأخذ العطاء ، ومعهم مثلهم من ابنائهم وأتباعهم ، سوى شيعة الحسن من أهل البصرة والحجاز .

فنحن هنا ازاء « شيعة » لهـا جيش منظم ، يأخـذ العطاء ، ويتكلم باسمها سليمان بن صرد يطلب من الحسن النهوض لقتال معاوية .. ومن الباحثين من يرى أن هذا الموقف وذلك التاريخ هو بدء ظهـور التشيع بمعنـاه المعروف (١٠) .

ولكننا نقول ، ان هذه « الشيعة » لم يقم تنظيمها على القاعـدة الاولى والاساسية للتشيع ، قـاعدة النص والوصية ، ومن ثم فلم يكونوا « شيعه » بالمعنى المعروف لنا الآن والذى عرف منذ عهد جعفر الصادق وهشام بن الحكم .. ولو كان الامر غير ما نقول ، لقال سليمان بن صرد يومها للحسن : انه ماكان لك ان تتنازل لمعاوية ، لان هذا التنازل مناقض للنص والوصية على امامتك ، ومن ثم فـان هـذا التنازل باطل دينيـا ، ومن ثم سياسيا ، فاستغفر من ذنبك ، وانهض بنا نقاتل معاوية ابن ابى سفيان .

لو كانوا شيعة ، ولو كانت الشيعة قد ظهرت يومئذ لقالوا ذلك ، ولكان هذا هو منطلقهم الفكرى .. ولكنهم لم يكونوا كذلك ، بل كانوا بقية جيش على ودولته ، الذين بايعوا الحسن ، قبل تنازله لمعاوية ، فلما تنازل على ان

---

(١٠) (تثبيت دلائل النبوة) جـ ٢ ص ٥٨٦ .

تكون له الامرة من بعده ، استمروا من حوله في انتظار قضاء الله أن يسبق الى معاوية فتعود الامرة للحسن ، وتعود لهم الحكومة والسلطان . لقد كانوا ــ كما يقول البعض فى أدبنا السياسي الحديث ــ « حكومة الظل » التي تعيش بجيشها وفى عاصمتها تنتظر موت معاوية كي تلي أمر الامة وفقا للعهد الذى قطعه معاوية للحسن . ومن ثم فلم يكن موقفهم هذا ولا عهدهم ذلك هو موقف الشيعة ولا العهـــد الذى يؤرخ به ظهور هذه الفرقة بمعناها وفكرها المعروف .

اما عندما بدأ « القول بالامامة » ، وكان ــ كما قدمنا سمة على الشيعة ، وتهمة يبرأ منهــا خصومهم ــ وبدأ التأليف فيها ، ورواية الاحاديث والقصص التى تدور حول النص والوصية لعلي وبنيه . عندما بدأ ذلك نشأت عقيدة الشيعة التى ميزتهم ولا زالت تميزهم عن الفرق الاخرى ، وتكون التنظيم الشيعى الذى اعتنق أهله هذا الاعتقاد .

وابن النديم ، وهو يؤرخ لنشأة التأليف ، يذكر أن « أول من تكلم » فى مذهب الامامة : على بن اسماعيل بن هيثم الطيار . صحيح انه يذكر أن هذا الرجل قد كان « من جلة أصحاب علي رضى الله عنه » . ولكن لم يقل أحد أن عهد على قد شهد التأليف فى الامامة أو غيرها من الفنون . أما بعد ذلك فلقد كتب على بن اسماعيل بن ميثم الطيار ــ كطليعة للقائلين بالامامة والمتكلمين فيها ــ كتب « كتاب الامامة » و « كتاب الاستحقاق » (١١) . ثم جاء بعد ابن ميثم : هشام بن الحكم ، الذى ــ كما يقول ابن النديم ــ : « فتق الكلام فى الامامة ، وهذب

(١١) (الفهرست) ص ١٧٥ . طبعة ليبزج .

المذهب والنظر » وألف في هذا المقام : « كتاب الامامة » و « كتاب الرد على من قال بامامة المفضول » و « كتاب اختلاف الناس فى الامامة » و « كتاب الوصية والرد على من أنكرها » و « كتاب الحكمين » و « كتاب الرد على المعتزلة فى طلحة والزبير » (١٢) .

فللمرة الاولى ترد كلمة « الوصية » فى عنوان كتاب هشام بن الحكم . أما قبل هذا العهد فان المرء لا يستطيع العثور على أثر لهذه العقيدة لا فى فكر المسلمين الذى ارخ ابن النديم لظهـــوره وذكر عنــاوين مصنفاته ، ولا فى الجدل الذى دار حول السلطة والامارة ، ولا فى المواقف العملية لدى اى فريق من الفرقاء .

ثم توالى تأليف الشيعة فى الامامة . فكتب أبو جعفر الاحول ــ محمد بن النعمان ــ شيطان الطاق كما يسميه أهل السنة ومؤمن الطاق كا تسميه الشيعة ! . (١٦٠ هـ ٧٧٧ م) كتب : « كتاب الامامة » و « كتاب الرد على المعتزلة فى امامة المفضول » ، و « كتاب فى امر طلحة والزبير وعائشة » . كما كتب « الشكال » ــ وهو من أصحاب هشام بن الحكم ــ : « كتاب الامامة » و « كتاب على من ابى وجوب الامامة بالنص » . ثم كتب أبو جعفر ابن محمــد بن قبة : « كتاب الانصـــاف فى الامامة » و « كتاب الامامة » ... ثم توالى فيها تأليف أئمة الفكر الشيعى من أمثال : ابو سهيل النوبختى ، والحسن بن موسى النوبختى . والسوسنجردى ، والطاطرى ، وهشام الجواليقى (١٣) . الخ . الخ .

ودليل آخر على أن عقيدة الشيعة فى الوصية ــ وهى التى قام عليها ونشأ تنظيمهم كفرقة ــ قد تأخرت فى

(١٢ ، ١٣) المصدر السابق . ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

النشأة عن عصر صدر الاسلام ، ويتمثل هذا الدليل فى احتواء هذه العقيدة على تأثيرات ومواريث « اسرائيلية » و « مانوية » و « فارسية » قد خلا منهـا ومن أمثالها الفكر الاسلامى البسيط فى عصر صدر الاسلام .

ففى صدر الاسلام لم يكن قد تم بعد التفاعل بين الفكر القرآنى والنبوى وبين فكر الفرس ، كما لم تكن قد قامت بعد أبنية فكرية وعقائد نظرية اسلامية تتيح فرص التفاعل والامتزاج ببعض مواريث الاسرائيليين .

فالشيعة يذكرون فى عقيدتهم عن الوصية ، أنه لما دنا اجل على بن أبى طالب « قال : خلونى واهل بيتى ، أعهد اليهم ، فقام النـاس الا اليسير ، فجمع اهـل بيته ، وهم اثنا عشر ذكرا ، وبقى قـوم من شيعته ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : ان الله تبارك وتعالى أحب أن يجعل فى سنة نبيه يعقوب ، اذ جمع بنيه ، وهم اثنا عشر ذكرا ، فقال : انى أوصى الى يوسف ، فاستمعوا له وأطيعوا أمره . وانى أوصى الى الحسن والحسين ، فاسمعوا لهما وأطيعوا أمرهما (١٤) ! » .

وهذا ميراث اسرائيلى دخل الى عقائدهم السياسية .

وهم يروون عن جعفر الصادق قوله : « لا تذهب الدنيا حتى يخرج رجل منى يحكم بحكومة آل داوود ، ولا يسأل بينة ، يعطى كل نفس حقها » . كما يروون عنه جوابه عن سؤال من سأله : « بم تحكمون اذا حكمتم ؟ » قال : « بحكم الله وحكم داوود ، فاذا ورد علينا الشيء الذى ليس عندنا تلقانا به روح القدس (١٥) ! » .

---

(١٤) المصدر السابق . ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(١٥) المسعودى (اثبات الوصية) ص ١١٧ . طبعة طهران ١٣١٨ هـ .

ولقد سبق أن أشرنا الى أن الرسول قد قطع بان الحكم من بعده غير الحكم فى تاريخ بنى اسرائيل ، فلقد كانت النبوة والملك سلطتين متحدتين لتعاقب الانبياء على الحكم ، أما بعد ختام الرسالة فلا نبوة ، ومن ثم فان طبيعة السلطة ستتغير . ولكننا نطالع هذا الميراث الاسرائيلى ، الذى عرف طريقه الى الفكر الاسلامى بعد عصر صدر الاسلام فى عقيدة الشيعة عن الوصية والحكم، وهناك نماذج أخرى .

وعقيدة الرجعة التى قالَ بها الشيعة كي يبرهنوا على ان امامهم الغائب سيعود ، أو أن بعض الموتى من آل البيت سيبعثون قبل يوم القيامة ، هى عقيدة اسرائيلية ، أخذها الشيعة ، بل ولا ينكر متأخرو علمائهم أخذها عن اليهود . فهم يقولون عنها : « ان الذى تذهب اليه الامامية أن الله يعيد أقواما من الاموات الى الدنيا فى صورهم التى كانوا عليها فيعز فريقا ويذل فريقاآخر .. ». ويقولون لمن يتهمهم بأن « اليهودية قد ظهرت فى التشيع بالقول بالرجعة » : « انه لابد أن تظهر اليهودية والنصرانية فى كثير من المعتقدات والاحكام الاسلامية ، لان النبى جاء مصدقا لما بين يديه من الشرائع السماوية (١٦) .. » . وهم ينسون فى ردهم هذا أن الاسلام قد جاء مصدقا لما بين يديه فيما يتعلق بالالوهية، والتوحيد ، والرسالات . لا مصدقا للعقائد الدخيلة على الفكر الالهي فى صورته النقية التى نزل عليها . ولكنهم على اية حال يعترفون بتلك التاثيرات الاسرائيلية التى دخلت الى عقائدهم .

---

(١٦) (الكافى) للكلينى . جـ ١ ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ . طبعة طهران سنة ١٣٨٨ هـ .

وابن النديم يتحدث عن « اختلاف المانوية فى الامامة بعد مانى » فيقول :

« قال المانوية : لما ارتفع مانى الى جنان النور اقام قبل ارتفاعه « سيس » الامام بعده ، فكان يقيم دين الله وطهارته الى أن توفى ، وكانت الائمة يتناولون الدين واحدا عن واحد ، لا اختلاف بينهم ، الى أن ظهرت خارجة منهم يعرفون بالديناورية فطعنوا على امامهم وامتنعوا عن طاعته ، وكانت الامامة لا تتم الا ببابل ، ولا يجوز أن يكون امام فى غيرها ، فقالت هذه الطائفة بخلاف هذا القول (١٧) ! .

ونحن اذا عرضنا هذا الفكر المانوى فى « الوصية » ، وفى « توارث الامامة » ، ثم فى « الخروج » على الامام صاحب الوصية . اذا عرضنا هذا الفكر على تجربة الحكم فى دولة الخلافة الراشدة ، كما تحدثنا عنها فى الباب السابق ، ثم على فكر الشيعة فى الوصية ، ادركنا للوهلة الاولى انه ميراث للفكر الشيعى بقدر ما هو غريب عن فكر العرب المسلمين فى الحكم والسياسة على عهد صدر الاسلام .

ووجود هذا الميراث فى الفكر الشيعى عن الوصية يسهم فى تحديد الفترة الزمنية التى نشأ فيها فكر الشيعة هذا ، فلقد نشأ بعد أن عرف المسلمون هذا الميراث .

---

(١٧) محمد رضا المظفر (عقائد الامامية) ص ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٤ . طبعة النجف . منشورات دار النعمان للطباعة والنشر . بدون تاريخ .

(١٨) (الفهرست) ص ٣٣٤ .

الفصل الرابع :

المُرجِئَــــة

كما نشأت الخوارج نشــأة سياسية فى الصراع على السلطة ، وكما كانت عقيدة الشيعة فى الامامة هى التاريخ الحقيقى لنشأة هذه الفرقة ، كذلك كانت نشأة المرجئة نشأة سياسية ارتبطت بقضايا السياسة ، سواء منهـا ما اتصل بالخلافة مباشرة أو ما تعـلق بموقف الدولة الاموية من الشعوب غير العــربية التى دخلت فى الاسلام .

ولكن قبل أن نثبت الطابع السياسى لنشأة المرجئة ، ونعرض للخلاف حول هــذه القضية ، لنبحث أولا عن المرجئة ، من هم ؟ وعن الارجاء ، ماذا يعنى ؟؟ .

ان الشائع فى كتب المقالات أن الارجاء هو فك الارتباط ما بين العمل والايمان ، حتى لا تتوقف صحة الايمان على الاعمال التى تعرب عنه وتدل عليه ، فلا تنفع مع الـكفر طاعة ولا تضر مع الايمان معصية .

ولكن ... بالرغم من شيوع هذا الامر وشهرته ، فاننا نجد ان كتاب المقالات ومؤرخى الفرق لم يضطربوا ــ ولا نقول فقط : اختلفوا ــ فى شىء كمـا اضطربوا فى الحديث عن المرجئة والارجاء .

فالاشعرى يقول ان فرق المرجئة اثنتا عشرة فرقة ، وهى :

١ ـ الجهمية . أصحاب الجهم بن صفوان . القائلون بأن الايمان هو المعرفة بالله ورسله وما جاء من عنده ، وما عدا ذلك ليس من الايمان ، والكفر هو الجهل بالله ورسله وما جاء من عنده .

٢ ـ الصالحية . أصحاب ابو الحسين الصالحى .
٣ ـ اصحاب يونس السمرى .
٤ ـ الشمرية . أصحاب ابى شمر ويونس .
٥ ـ الثوبانية . اصحاب ابى ثوبان .
٦ ـ النجارية . اصحاب الحسين بن محمد النجار .
٧ ـ الغيلانية . أصحاب غيلان .
٨ ـ الشبيبية . أصحاب محمد بن شبيب .
٩ ـ الحنفية . اصحاب ابى حنيفة .
١٠ ـ المعاذية التومنية . اصحاب ابى معاذ التومنى .
١١ ـ المريسية . أصحاب بشر المريسى .
١٢ ـ الكرامية . أصحاب محمد بن كرام (١) .

اما البغدادى فيقول : انهم « ثلاثة أصناف » :

١ ـ المرجئة الذين قالوا بالقدر مع الارجاء . ومنهم : غيلان ، وأبو شمر ، ومحمد بن أبى شبيب البصرى . (فهؤلاء عنده صنف واحد ، بينما هم عند الاشعرى فرق ثلاث : الشمرية ، والغيلانية ، والشبيبية ..) .

٢ ـ والمرجئة الذين قالوا بالجبر مع الارجاء . مثل جهم بن صفوان وفرقته .

---

(١) (مقالات الاسلاميين) جـ ١ ص ٢١٣ ـ ٢٢٢ .

٣ ــ والمرجئــة الذين قالوا بالارجاء وحــده ، ولم يخلطوه لا بالقدر ولا بالجبر . وهؤلاء عند البغدادى ، خمس فرق :

(أ) اليونسـية . اصحاب يونس السمرى .

(ب) والفسـانية .

(جـ) والثوبانية . اصحاب ابى ثوبان .

(د) والثومنية . او التومنية . اصحاب ابى معــاذ التومنى .

(هـ) والمريسـية . اصحاب بشر المريسى .

وحتى لو جمعنا الفرق الخمس التى قالت بالارجاء فقط ، الى الجهمية ، الى الفرق الثــلاث التى قالت بالارجاء والقدر ، فانها تبلغ ، عند البغدادى ، تسع فرق ، بينما بلغت عند الاشعرى اثنتى عشرة فرقة . ولقد زاد البغدادى واحدة لم يذكرها الاشعرى وهى : الفسـانية (٢) .

وعند الشهرستانى نجد « المرجئة اربعة أصناف » :

١ ــ مرجئة الخوارج .

٢ ــ ومرجئة القدرية .

٣ ــ ومرجئة الجبرية .

٤ ــ والمرجئة الخالصة .

وأبو مروان غيلان بن مروان الدمشقى ــ زعيم القدرية ــ يأتى عند الشهرستانى فى القائلين بمقالة «الثوبانية» ، أصحاب ابى ثوبان فى الارجاء ، وهى المقالة التى تقرر أن الايمان هو المعرفة والاقرار بالله ورسله وكل ما لا يجوز

---

(٢) (الفرق بين الفرق) ص ١٩٠ ، ١٩١ .

فى العقل أن يفعله وما جاز فى العقل تركه فليس من الايمان ، وان العمل كله مؤخر عن الايمان .

وعند الشهرستانى أن غيلان الدمشقى هـذا قد جمع بين : القدر ، والارجاء ، والخروج ؟! ؟. وعنده غيلان آخر هو غيلان بن حرث ، الذى نجده عند الخوارزمى : غيلان بن خرشة الضبى . وهو عند الشهرستانى ممن جمع بين القدر والارجاء (٣) .

أما الخوارزمى فان المرجئة عنده ست فرق :

١ ـ الغيلانية . أصحاب غيلان بن خرشة الضبى .

٢ ـ الصالحية . أصحاب صالح بن عبد الله ،المعروف بقنه ـ (وفى كتب المقالات الاخرى : قبة) .

٣ ـ أصحاب الرأى . وهم أصحاب أبى حنيفة النعمان بن ثابت البزاز .

٤ ـ الشبيبية . أصحاب محمد بن شبيب .

٥ ـ الشمرية . نسبوا الى أبى شمر سالم بن شمر .

٦ ـ الجحدرية . أصحاب جحدر بن محمد التميمى (٤) .

أما بن حزم فانه يتحدث عن أن غلاة المرجئة طائفتان :

١ ـ الكرامية : أتباع محمد بن كرام السجستانى ، الذين قالوا : ان الايمان قول باللسان ، وان اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن عند الله . ولى له . من اهل الجنة . وكانت مواطنهم بخراسان والقدس .

---

(٣) (الملل والنحل) جـ ٢ ص ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٤ ـ ٦٨ . و (مفاتيح العلوم) ص ٢٠ .

(٤) المصدر السابق . ص ٢٠ ، ٢١ .

٢ ـ الجهمية : اصحاب الجهم بن صفوان ، الذين قالوا : ان الايمان عقد بالقلب ، وان أعلن الكفر بلسانه ، بلا تقية ، وعبد الاوثان أو لزم اليهوديه أو النصرانية فى دار الاسلام وعبد الصليب واعلن التثليث فى دار الاسلام ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الايمان عند الله . ولى له . من أهل الجنة . وهم بخراسان . ويذكر ابن حزم ان الاشعرية يقولون بقول جهم هذا (٥) .

ذلك هو مبلغ الاضطراب الذى وقع فيه كتاب المقالات ومؤرخو الفرق فى تاريخهم للمرجئة ومقالاتها . ونحن نعتقد أن مفتاح الخروج من هذا الاضطراب هو فى ادراك الطابع السياسى لنشأة فكرة الارجاء وفرقتهم، وأن غياب الاهتمام بهذا الطابع هو الذى أشارع ذلك الخلط بين تيارات الارجاء ، فلقد بدت عقائد المرجئة مجرد أبحاث دينية فى الايمان والكفر وعلاقة العمل الصالح بالايمان ، بينما كانت السياسة والصراعات من حول السلطة هى التى أفرزت فكر المرجئة وتياراتها المختلفة ، ومن ثم فلا سبيل الى فهمهم الا اذا وضعناهم فى الاطار الذى نشأوا فيه وأبصرنا تياراتهم على ضوء الظروف السياسية التى بلورتها .

لقد نشأ الارجاء أول ما نشأ فى عهد بنى أمية ، وأول من قال به هو الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب ، أى الحسن بن محمد بن الحنفية (٩٩ هـ أو ١٠٠ هـ) فلقد روى أنه أول من قال بالارجاء ، وأنه كتب بذلك كتابا كان يقرأ نيابة عنه فى الامصار ؟! فهل كانت قضية دينية ، تتعلق بالايمان القلبى وعلاقته بالعمل ، تلك التى يكتب

---

(٥) (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) جـ ٤ ص ٢٠٤ .

حولها الحسن بن محمد رسالة تقرأ عنه فى الامصار ؟! .
ان الامر الذى يليق بالمنطق ان الامر يتعلق بالسياسة وقضاياها المثارة فى ذلك الحين .

والقاضى عبد الجبار يقول عن الحسن بن محمد ـ الذى كان أستاذا لغيلان الدمشقي ـ : « ولم يكن مخالفا لابيه ـ محمد بن الحنفية ـ وأخيه ـ أبو هاشم أستاذ واصل بن عطاء ـ الا فى شيء من الارجاء أظهره (٦) » . ويقول عنه ابن سعد : « انه كان من ظرفاء بنى هاشم وأهل العقل منهم . وكان يقدم على أخيه أبى هاشم فى الفضل والهيئة . وهو أول من تكلم فى الارجاء (٧) » . ويقول المقريزى :« وكان الحسن بن محمد بن الحنفية يكتب كتبه الى الامصار يدعو الي الارجاء » ثم يردف قوله هذا بالنص الهام عن طبيعة ومعنى الارجاء الذى كان يدعو اليه الحسن بن محمد ، فيقول : « الا أنه لم يؤخر العمل عن الايمان ، كما قال بعضهم ، بل قال : أداء الطاعات وترك المعاصى ليس من الايمان ، لا يزول بزوالها (٨) » . فهو نوع متميز ، اذن ، من الارجاء .

لقد كانت أفكار الشيعة التي تغلو في علي وآل البيت ، كرد فعل لمحنة آل على ، قد بدأت فى الانتشار ، وكان تفضيل على على الخلفاء الثلاثة : أبى بكر وعمر وعثمان، قد بدأ مع ابن سبأ وزاد انصاره والقائلون به ، كما بدات أفكار الشيعة عن الوصية والنص ، ومحاولاتهم صبغ الامامة بالصبغة الدينية تظهر وتتحول الى كتب

---

(٦) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢١٥ .
(٧) (الطبقات الكبرى) جـ ٥ ص ٦٧ ـ ٢٤١ .
(٨) (خطط المقريزى) جـ ٣ ص ٢٩٢ .

ومصـــنفات . وعلى الجانب الآخر كان الخوارج قـد حولوا موقف على السياسى من التحكيم الى كفر ، كفر شرك أو كفر نعمة ، وكذلك صنعوا مع عثمـــان بعـد الاحداث . فنقلت الخوارج والشيعة القضية التى ابتلى بها المسلمون من اطار السياسة الى اطار الدين ، ومن دائرة الصـــواب والخطأ فى شئون الحـكم الى أحكام يصدرونها على العقائد تتعلق بالكفر والايمان .

وكان الحسن بن محمد بن الحنفية من بيت يرفض الغلو فى هذه القضية وسواها . فأبوه قـد وضعها فى اطارها السليم عندما أشار الى دور الصراع القبلى فيها فقال : « نحن اهل بيتين من قريش نتخذ من دون الله أندادا ، نحن وبنو أمية ! .. أهل بيتين من العـــرب يتخذهما الناس أندادا من دون الله : نحن وبنو عمنـا هؤلاء ــ (يعنى بنى أمية) (٩) ــ وسيأتى أنه قد رفض مزاعم البعض عن أنه هـو « المهدى » بالمعنى الشيعى لفكرة المهدى ، كما رفض ما نسبوه الى أهل البيت من الاختصاص بعلم موروث لا يعلمه غيرهم من الناس (١٠).

ولذلك فاننا نرى أن « الارجاء » الذى أظهره الحسن ابن محمد بن الحنفية كان ذا طابع سياسى ، دعابة الى التمييز ما بين قضايا العقيدة واستخدام أحكام الكفر والايمان وما بين قضايا السياسة ، والامامة بالذات . فهذه هى القضايا التى تكتب فيها الكتب كى تقرأ فى الامصار .

---

(٩) (طبقات ابن سعد) جـ ٥ ص ٩٨ .

(١٠) أنظر ذلك فى الفصل الاول) من (الباب السادس) . (بالقسم الثالث من هذه الدراسة) .

ونحن اذا نظرنا فى نوع الارجاء الـذى قال به غيلان الدمشقى ، والذى اخذه عن أستاذه الحسن بن محمد بن الحنفية ، اتضح لنا الفرق بين هذا الارجاء وغيره مما قال به آخرون . فغيـلان كان يرى الامامة فى قريش وغيرها ، كان يرى « أنها تصلح لغير قريش ، وكل من كان قائما بالكتاب والسنة كان مستحقا لها ، وأنهـا لا تثبت الا باجماع الامة (١١) . ويستفاد من رأيه هذا انه لم يكن يفضل عليا على أبى بكر وعمر وعثمان ، بل يؤخره عنهم ، بل ان اشتراط الاجماع من الامة لاثبات الامامة يقدح فى صحة امامة على وثبوتها ، لان الخلاف عليه ، سواء بالمعارضة أو اعتزال الفتنة وأطرافها كان قائما منذ اليوم الاول لتوليه الخلافة . وهذا الموقف قد وقفه كثير من المعتزلة والقـدرية ، بل ان محمد بن الحنفية ، والد الحسن ، قد اشترط على من طلبوا منه ان يبايعوه بالامارة على عهـد ابن الزبير وعبد الله بن مروان ، قد اشترط لقبوله الامارة الا يختلف عليه واحد من الامة . فهذا الموقف الذى يؤخر عليا عن الخلفـاء الثـلاثة ، ويرتب فضلهم حسب ولايتهم الامر ، وهو موقف سياسى ، نرى أنه هو ذلك النوع من الارجاء الذى قال به الحسن بن محمـد وغيلان ، والذى اشتهر عن الغيلانية اصحاب مروان . وفى « الكافى » نص هام ، يشهد لهذا التفسير ، يقول : « وقد تطلق المرجئة على من أخر أمير المؤمنين عليا عن مرتبته (١٢) » .

فالقدرية ، وهم اسلاف المعتزلة ، قد قالوا بالوعـد

---

(١١) (الملل والنحل) جـ ٢ ص ٦٢ .

(١٢) (الكافى) جـ ١ ص ١٦٩ (هامش رقم ٢) .

والوعيد ، واتفقوا فيه كأصل من أصـــولهم العـــــامة والهامة ، وهو الاصلّ الذى يتنافى مع الفصـــل ما بين الايمان والعمل . أما الامر الذى تفاوتت فيه اجتهاداتهم وآراؤهم فهو الحكم على احداث الفتنة التى وقعت فى صدر الاسلام ، وترتيب الخلفاء الراشدين فى الفضل ، وهو معنى الارجاء عند من قال منهم بالارجاء ... ! انه موقف سياسى بلور موقفا وقولا بالارجاء ذا طابع سياسى كذلك . وأصحاب هذا الموقف والقول كانوا فى صفوف المعارضة للأمويين .

وتيار ثان من تيارات الارجاء ، نشـــأ هو الآخر نشأة سياسية ، وفى اطار الصراع ضد سلطة بنى أمية ومظالمها قال أصحابه : ان الايمان تصـــديق بالقلب ، ولا تأثير للعمل على هذا الايمان ، فأخروا العمـــــل وفصلوه عن الايمان ، وقالوا : انه لا تضر مع الايمان معصية كمـــا لا تنفع مع الكفر طاعة على ما هو مشهور من مقالتها — ومع قـــولهم هـــذا بالارجاء قـــالوا ، أو قال أغلبهم بالجبر ، وابرز عنـــاصر هـــذا التيار جهم بن صـــــفوان (المتوفى سنة ١٢٨ هـ سنة ٧٤٥ م) وفرقته الجهمية .

وتيار الارجاء هذا قد نشأ هو الآخر نشأة سياسية ، وفى خضم الصراع ضد سلطة الامويين ومظالمهم . ففى خراسان ، موطن ظهور هذا التيار ، كان يتولى أمرها سنة ١١٠ هـ الوالى « أشرس » ، وكان يبغى نشر الاسلام بين مواطنيها الذين كانوا لا يزالون على الكفر والوثنية ، فأقام هيئة للدعوة الى الاسلام ترأسها أبو الصيداء صالح ابن طريف ، مولى بنى ضبة ، الذى استعان بالربيع بن عمران التميمى ، لاجادته الفـــــــارسية . واشترط

ابو الصيداء على الوالى أن تسقط الجزية عمن يدخل فى الاسلام ــ وكان الامويون يأخــذون الجزية ممن أسلم باستثناء فترة حكم عمر بن عبد العزيز ــ وتعهد الوالى لأبى الصيداء بذلك ، فدخل أهل خراسان فى دين الاسلام أفواجا ، وبنيت المساجد فيهــا . فشكا عامل الخراج « غوزك » الى الوالى أشرس قلة حصيلة الجزية ، وقال له : « ان الخراج قــد انــكسر » . وكان بعض دهاقين خراسان وأثريائها قد ساءهم انكسار الخراج لما فى زيادته من منافع لهم يقتسمونها مع ولاة بنى أمية ، ولما فى اسلام عامة الناس من تحــول قومى عن تراثهم الذى يقدسه ويتمســك به ، ولو سرا ، هــؤلاء الــدهاقين . فجــاء هـــؤلاء الدهـــاقين الى الوالى « أشرس » وقالوا له : « ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربا !؟ » ، اذ كان الاسلام والعروبة فى نظرهم شيئا واحدا ؟! . وعند ذلك تراجع الوالى عن وعده باسقاط الجزية عمن أسلم ، وفى تراجعه هذا وضع « مواصفات » للايمان السليم الذى تعترف به الدولة ، وتسقط الجزية عن صاحبه ، فكتب الى عامل الخراج « ابن أبى العمرطة » يقول : « ان فى الخراج قوة للمسلمين ، وقد بلغنى أن أهل « السغد » وأشباههم لم يسلموا رغبة ، وانما دخـلوا فى الاسلام تعوذا من الجزية ، فانظر من اختتن ، وأقــام الفرائض ، وحسن اسلامه ، وقرأ سورة من القرآن ، فارفع عنه خراجه ! » .

فهو هنا قد وضع للاسلام الذى تعترف به الدولة ويعترف به عامل الخراج عدة شروط :

١ ــ أن يكون صاحبه مختتنا . والذين كانوا يسلمون

لم يكونوا أطفالا ولا صبية حتى يسهل عليهم يومئذ الاختتان !

٢ ـ واقامة الفرائض تتطلب مستوى أعلى من مستوى ادائها ، فالاداء أسهل من الاقامة بما لا يقاس ، كما يقول الامام محمد عبده (١٣) .

٣ ـ وحسن الاسلام شرط يصعب وضع المقاييس الدالة على بلوغ اسلام المرء حده ودرجته !

٤ ـ وقراءة سورة من القرآن بالنسبة لقوم لا يعرفون العربية هو نوع من التعجيز ! .

ومعنى هذه الشروط التى وضعتها الدولة للاسلام الذى تعترف به أنها قد ربطت بين الايمان كعقيدة وبين الاعمال التى تصدر عن المؤمن وجعلت العمل شرطا لصحة الايمان ، ولم تؤخر العمل عن الايمان أو تفصل بينهما .. وهنا يصبح الارجاء ، بمعنى تأخير العمل عن الايمان والفصل بينهما موقفا وفكرا سياسيا يعارض موقف الدولة الاموية ، بل يصبح فكرا ثوريا يتحدى تلك المفاهيم التى ابتدعتها الدولة كى تجعل من الايمان والكفر مسائل يستفتى فى صحتها وفسادها عمال الخراج بدلا من أن تكون رقابتها والاطلاع عليها من الامور التى لا يعلمها الا الله .

وعندما كتب عامل الخراج الى الوالى : « ماذا نصنع ، والناس قد أسلموا وبنوا المساجد ؟! » اجابه بقوله : « خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه منه ! » .

وعندما بلغ الامر هذا المبلغ خرج على سلطان الدولة

---

(١٣) (الاعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ ٤ ص ٤٣٤ . دراسة وتحقيق محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

من أهل « السغد » الذين أسلموا حديثا سبعة آلاف ، وعسكروا على سبعة فراسخ من سمرقند ، ولحق بهم من القراء والفقهاء كل الذين أنكروا صنيع الدولة معهم ، مثل : أبو الصيداء صالح بن طريف ، وربيع بن عمران التميمى ، والقاسم الشيبانى ، وأبو فاطمة الازدى ، وبشر بن جرموز الضبى ، وخالد بن عبد الله النحوى ، وبشر بن زنبور الازدى ، وعامر بن بشير — أو قشير — الخجندى ، وبيان العنبرى ، واسماعيل بن عقبه ، وثابت قطنة ، لينصروا هؤلاء الذين أسلموا حديثا .

وفى بخارى تكررت الصورة ، ولجأ المسلمون الجدد الى المسجد الجامع يصيحون بأعلى أصواتهم : « أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ! » ولم يصحح الولاة اسلامهم بل شنقوا منهم اربعمائة ، ولم يشفع لاسلامهم عند الولاة أن الذين فروا من الموت فى هذه المذبحة لم يرتدوا عن الاسلام ، بل ثبتوا على الايمان به !

وفى البصرة تكررت المأساة عندما أمر الولاة باجلاء الموالى عن المدينة واعادتهم الى قراهم الاصلية ، فخرجوا وعسكروا فى العـراء يبـكون وينادون : يا محمداه ! يا محمداه ! . . وخرج الى معسكرهم قراء البصرة يبكون معهم وينتصرون لهم !! .

وكانت تلك هى المظالم التى دفعت عظيم الازد الحارث ابن سريج الى الثورة والخروج على هشام بن عبد الملك سنة ١١٦ هـ . . وهى الثورة التى كان وزيره الاول فيها وكبير دعاته الذى يقص ويخطب ويقرأ سيرة الثورة

والثوار : الجهم بن صفوان (١٤) .. كانت ، اذن ، ثورة المرجئة ، خرجت تدعو الى الفصل بين الايمان والعمل ، لان الربط بينهما كان يعنى تحكم عمال الخراج وجباة الجزية فى عقائد الذين دخلوا حديثا فى دين الله .. ومن هنا كانت نشأة هذا التيار من تيارات الارجاء نشأة سياسية كما كان موقف دعاته وأنصاره موقفا سياسيا عارض ، بالثورة المسلحة ، سلطة بنى أمية وسيرتهم فى ظلم الناس .

ومما يدعم تفسيرنا هذا لدلالة تيار الارجاء هذا أن ثورة المرجئة هذه بعد أن استولى جيشها على « الفارياب » و « بلخ » و «الجوزجان» و «الطالقان» و «مرو الروذ» ، هزم هذا الجيش فى « مرو » ، فانسحب الحارب بن سريج مع الجهم بن صفوان وثلاثة آلاف من جنـــده الى بلاد الترك ، واعتصموا بها اثنى عشر عاما خارجين على سلطة بنى أمية ، وعندما انتصرت ثورة القدرية الغيلانية ــ الذين يمثلون تيارا فى الارجاء كما ذكرنا ــ عندما انتصرت هذه الثورة وقتلت الوليد بن يزيد ونصبت بدلا منه يزيد بن الوليد سنة ١٢٧ هـ بعث يزيد بن الوليد بالامان الى الحارث بن سريج ورجاله ، فعادوا الى « مرو » من جديد .. ولما انتكست ثورة القــدرية هــذه بعد موت يزيد بن الوليد ، وتولى مروان بن محمد الخلافة ، توجس الحارث بن سريج خيفة ، لان مروان لن يجدد له الامان الذى أعطاه اياه يزيد .. وعاد الحارث الى الثورة ، وطلب

(١٤) (تاريخ الطبرى) جـ ٨ ص ٣٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ . و (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات) ص ٥٣ ــ ٥٥ ، ٦٥ ، ٦٧ . و (تاريخ الجهمية والمعتزلة) ص ٧ ــ ٩ تاليف جمال الدين القاسمى ، طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ .

ان يعود « الامر شورى » ، وأن تغير العمـــال ، وتعزل الشرطة ، وأن يشترك الناس فى اختيار الولاة .. ورفضت مطالبه ، وتطورت الاحداث الى قتـــــال قتل فيه هو والجهم بن صفوان .. (١٥) .

وهكذا كان القدرية الغيلانية يقولون بالقدر والاختيار .. وكان الجهم بن صفوان وفرقته يقولون بالجبر المحض .. ولكن الارجاء كان لدى التيارين موقفـــــا سياسيا يناصب ظلم بنى أمية العداء ، فقارب بينهما هذا الموقف السياسي رغم الاختلاف العميق بينهما فى أمور هى من صميم الدين .

واذا كانت كتب المقالات قد اهتمت بآراء الجهم فى الجبر أكثر مما اهتمت بآرائه فى الارجاء فان مصـــادر التاريخ قد حفظت لنا قصيدة لشـــاعر المرجئة « ثابت قطنة » الذى خرج مع القراء لينصروا مسلمى « السغد » ضد ولاة بنى أمية .. ويقول الرواة : ان ثابت قطنة هذا كان قد جالس قوما من الشراة ـ « الخوارج » ـ وقوما من المرجئـــة ، كانوا يجتمعون فيتجادلون بخراسان ، فمال الى قول المرجئة وأحبه ، فلما اجتمعوا بعد ذلك انشدهم قصيدة قالها فى الارجاء :

يا هند انى أظن العيش قـــد نفـــدا
ولا أرى الامر الا مدبرا نــــــــكدا
انى رهينـــة يوم لست ســـــــابقة
الا يكن يومنا هذا فقــــــد أفدا (١٦)
بايعت ربى بيعـــــــــا ان وفيت به
جاورت قتلى كراما جاوروا احـــــدا

(١٥) (تاريخ الجهمية والمعتزلة) ص ١٠ ، ١١ .
(١٦) أى ازف .

يا هنـــد فاستمعى لى ان سيرتنا
أن نعبـد الله لم نشرك به أحـــدا
نرجى الامور اذا كانت مشـــبهة
ونصدق القــول فيمن جار أو عنــدا
المســـلمون على الاســلام كلهم
والمشركون استووا فى دينهم قــــددا
ولا أرى أن ذنبـــا بالغ أحـــدا
م الناس شركا اذا ما وحدوا الصمدا
لانســـفك الدم الا أن يراد بنـــا
سفك الدماء طريقا واحدا جددا (١٧)
من يتق الله فى الدنيـــا فــان له
أجر التقى اذا وفى الحســـاب غدا
وما قضى الله من أمـــر فـليس له
رد وما يقض من شىء يكن رشـــدا
كل الخوارج مخط فى مقــــالته
ولو تعبـد فيمـــا قال واجتهـــدا
أمـــا على وعثمـــان ـفانهما
عبدان لم يشركا بالله مذ عبــــدا
وكان بينهما شغب وقد شــــهدا
شق العصـــا وبعين الله ما شـــهدا
يجـــزى على وعثمـــان بسعيهما
ولســـت أدرى بحـق أيـة وردا
الله أعلم مـــاذا يحضران بـــه
وكل عبد ســيلقى الله منفردا (١٨)

---

(١٧) أى مستويا .

(١٨) الاصفهانى ، أبو الفرج (كتاب الاغانى) جـ ١٤ ص ٥١٣٦ - ٥١٣٨ . تحقيق ابراهيم الابيارى . طبعة دار الشعب ، بالقاهرة .

فهو فى هذه القصيدة يضع عددا من قواعد الارجاء الذى يتميز به هذا التيار :

فأولا : موقف الارجاء عنده يصاحبه الاعتراض على الظلم وانكاره :

نرجى الامور اذا كانت مشبهة
ونصدق القول فيمن جار أو عندا

وثانيا : هو يشير الى ايمانه بالجبر ، عندما يقول :

وما قضى الله من أمر فليس له
رد وما يقض من شىء يكن رشدا

وثالثا : يقف من على وعثمان والصراع الذى نشب بينهما موقفا لا هو موقف الخوارج ولا هو موقف الشيعة، ولا هو موقف الامويين .

أما على وعثمان فانهما
عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا

كما يحكم بأن ما حدث بينهما انما كان بغير ارادة منهما ـ وهو موقف المجبرة .

وكان بينهما شغب وقد شهدا
شق العصا وبعين الله ما شهدا !

أما التيار الثالث من تيارات الارجاء ذات الطابع السياسى والنشأة السياسية فهو تيار الارجاء المحض ، وهو ليس ارجاء محضا لانه لم يخالطه القول بالقدر ـ كما عند الغيلانية ولا القول بالجبر ـ كما عند الجبرية ـ لان أصحابه ـ وهم بنو امية وانصارهم ـ كانوا جبرية أيضا .. ولقد قيل عنه أنه ارجاء محض لتمييزه عن الارجاء الذى كان اصحابه فى صفوف المعارضة .. وابن أبى الحديد ينقل عن شيخ المعتزلة أبى عبد الله قوله : ان

« اول من قال بالارجاء المحض معاوية وعمرو بن العاص . كانا يزعمان أنه لا يضر مع الايمان معصية ، ولذلك قال معاوية لمن قال له : حاربت من تعلم ! وارتكبت ما تعلم ؟! .. فقال : وثقت بقول الله تعالى : « ان الله يغفر الذنوب جميعا .. » (١٩) كما يتحدث فى مواطن أخرى عن فسق معاوية ، و « ما تظاهر به من الجبر والارجاء .. » (٢٠).

فالارجاء هنا يعنى الفصل بين الايمان والعمل ، وتأخير العمل عن الايمان ، كما هو معناه عند الجهم بن صفوان ، ولكن الجهم كان يضع هذا المبدأ وهذه العقيدة وذلك الموقف فى صف المستضعفين الذين يئنون من ظلم الحكام، وأما معاوية وعمرو بن العاص ومن وقف موقفهما فى الارجاء فانهم كانوا يبررون للسلطة والجور ، ويدفعون ادانة الخوارج لهم بالكفر ، لارتكابهم الكبائر ، وادانة المعتزلة لهم بالفسق ، وادانة الحسن البصرى لهم بالنفاق .

فهو كذلك تيار فى الارجاء ، نشأ نشأة سياسية ، وعاش فى خضم الاحداث التى ولدتها الصراعات على السلطة فى ذلك التاريخ .

واذا كانت هذه هى العلاقة بين الارجاء وبين السياسة فان القول بأن هذا « المذهب لم يكن ينظر الى أحداث السياسة الجارية فى عصره ، ولم يكن يقصد أن يبرر سياسة الحكومة القائمة (٢٢) » هو قول بعيد عن

---

(١٩) الزمر : ٥٣ .

(٢٠) (شرح نهج البلاغة) جـ ٦ ص ٣٢٥ .

(٢١) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٤٠ .

(٢٢) د. محمد ضياء الدين الريس (النظريات السياسية الاسلامية) ص ٧٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م .

الصواب .. فالارجاء كان دائما موقفا سياسيا . وهو عند البعض كان تبريرا لسياسة الحكومة القائمة ، وعند البعض كان موقفا فكريا وعمليا ضد مظالم هذه الحكومة.

ومن هنا نستطيع أن نفهم كلمة الخليفة المأمون التى قال فيها « ان الارجاء دين الملوك ! » ، فلقد كان مراده : ان الارجاء الذى يبرر للسلطة هو دين الملوك اللازم لجورهم وجبروتهم ، ولم يكن مراده : « انه مذهب التسامح » (٢٣) كما فهم البعض ، فلقد كان المأمون على مذهب أهل العدل والتوحيد ، ولم يكن يقول بالارجاء ، وكان يعلم أنه قد كان مذهب معاوية وبنى امية .. ومن ثم فلا يستساغ أن يمدح خصومه الفكريين والسياسيين.

تلك هى نشأة المرجئة السياسية ، وعلاقة ظهورها وظهور الارجاء بقضية الامامة وصراعات السلطة التى دارت حولها فى صدر الاسلام وعلى عهد الامويين .

(٢٣) المرجع السابق . ص ٧١ .

المعتزلة

الفصل الاول :

النشأة والتسمية

كانت الركائز الفكرية التى اعتمدت عليهـــا الدولة الاموية تتمثل أساسا فى « الجبر » و « الارجاء » تبرر بالاول مظالمها اذ تنسبها لقضاء الله وقدره ، وتحاول أن تفلت بالثانى من الحكم على ايمانها بعد أن ارتكبت تلك المظالم .. ومن ثم فان نشأة المعتزلة ومن بين أصولها الفكرية الاولى القول بالاختيار والمنزلة بين المنزلتين هو موقف معاد للدولة الاموية ، يضع المعتزلة منذ نشأتها حركة من حركات المعارضة التى نشأت فى المجتمع العربى على عهد الامويين .

ولم يكن التناقض الوحيد بين المعتزلة وبين السلطة ، والجبرية والمرجئة الذين يبررون لها أو يغضون الطرف عن مظالمها ، بل تناقضت كذلك مع حركات المعـــارضة الاخرى .. فاختلفت مع الخـــــوارج فى المنزلة بين المنزلتين ، كما اختلفت مع الشيعة فى الامامة ، وهى قاعدة فكرها الذى تتميز به ، كمـــا اختلفت مع بعض الشيعة المشبهة فى التوحيد والتنزيه .

والنشأة الاولى للمعتزلة لا تزال موضع غموض ، ولقد اسهم فى هذا الغموض ضياع أغلب تراثهم الفكرى بعد محنتهم زمن المتوكل العباسى (٢٣٣ ـ ٢٤٧ هـ ٨٤٧ ـ ٨٦١ م) ، وقضية الاسم الذى أطلقه عليهم خصومهم ـ وهو اسم « القدرية » ـ حتى ينفروا الناس منهم ، بعد أن رووا حديث الرسول الذى يقول فيه : « القدرية مجوس هذه الامة » .. ورفض المعتزلة لهذا الاسم الذى عرفوا به فى كتب الخصوم زمنا طويلا ، وخاصة قبل أن نشيع تسميتهم بالمعتزلة وأهل العدل والتوحيد .. وأسهم فى غموض هذه النشأة كذلك قضية : ماهو الاصل الفكرى والمبدأ الذى بدأت به هذه الفرقة اذ أن أصولها الخمسة قد ظهرت بالتدريج ؟؟

ولكن .. لعل فى تتبع كل الخيوط التى تتيحها لنا كل المصادر التى تيسرت لنا ما يكشف هذا الغموض ، ويضع يدنا على حقيقة نشأة هذه الفرقة فى القرن الهجرى الاول .

تجمع كل المصادر على أن مشكلة القدر كانت أقدم مشكلة ميز الموقف منها العناصر الاولى التى بدأت السير فى الطريق الذى انتهى بتكوين فرقة المعتزلة .. فهناك ثلاثة من الاعلام الذين يذكرهم المعتزلة فى طبقاتهم المبكرة ، ويذكرهم خصوم المعتزلة كذلك فى هذه الطبقات؛ قيل عن كل منهم : انه أول من تكلم فى القدر .

وأول هؤلاء الثلاثة : أبو الاسود الدؤلى ظالم بن عمرو (٦٩ هـ ـ ٦٨٨ م) ، وهو أحد الموالى التابعين الذين صحبوا على بن ابى طالب فى حروبه ضد أصحاب الجمل

وصفين .. ويروى الرواة فيقولون : كان « أول متكلم فى القدر أبو الاسود الدؤلى » (١) .

وثانى هؤلاء الثلاثة هو : معبد الجهنى ، عبد الله بن حكيم — أو عديم (٢) — (المتوفى سنة ٨٠ هـ أو سنة ٩٠ هـ سنة ٦٩٩ م أو سنة ٧٠٨ م) على خلاف فى ذلك — وهو عربى من قبيلة جهينة ، من قضاعة .. وهو من أهل المدينة الذين عاشـــوا بالبصرة .. ويروى الرواة فيقولون : « وكان أول من قال بالقدر فى الاسلام معبد بن خالد الجهنى » .. ويحرص البعض على أن يذكر أن معبدا قد أخذ القول بالقدر عن فارس من الاساورة هو « أبو يونس سنسويه » المعروف بالاسوارى .. كما تنسب كتب المقالات اليه ميزة امتاز بها عن أبى الاسود ، اذ تذكر أن أناسا كثيرين من أهل البصرة قد تبعتـــه على رأيه ، وخاصة بعد أن « رأوا عمرو بن عبيد ينتحله » ، اى ينتحل رأيه فى القدر .

ولقد شارك معبد الجهنى فى الثـــورة التى قادها عبد الرحمن بن الاشـــعث (المتوفى سنة ٨٥ هـ سنة ٧٠٤ م) ضد بنى أمية ، ووقع فى قبضة الحجــاج بن يوسف الثقفى ، وقتله الحجاج صبرا فى سنة ٨٠ هـ أو سنة ٩٠ هـ (٣) .

وثالث الثلاثة هو ، أبو مروان غيلان بن مسلم الدمشقى (المقتول بعد سنة ١٠٦ هـ) وهو من والموالى ، كان مولى

---

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٧٥ ، ٣٢١ .

(٢) ويقال معبد بن خالد . وقيل معبد بن عبد الله بن عويمر .

(٣) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٨٥ . و (خطط المقريزى) جـ ٣ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ و (صـــحيح مسلم) بشرح النووى جـ ١ ص ١٥٠ ـ ١٥٦ ، (تاريخ الجهمية والمعتزلة) ص ٥٥ .

لعثمان بن عفان .. وهو زعيم الفـرقة التى اشتهرت بـ « القدرية » قبيل ظهور أصل المنزلة بين المنزلتين على يد واصل بن عطاء وشيوع اسم المعتزلة على هذه الفرقة.

ويشهد لوجود هذه الفرقة ، كفرقة ، ولرفض غيلان التسمية التى أطلقها عليها خصومها ، ما كتبه من سجنه لاحد أتباعه عندما يقول له : « .. انك ونحوك ، خلقت فى زمن ابتلى الله العباد فيه بجهل لا علم معه ، وضلالة لا هدى معها ، ولبس لا بيان معه ، الا قليل ، فاجتمع العباد على الهلكة وسموا الدين وأهل الدين بغير أسمائهم ، واجتمعت منهم عليه الجماعة فليس يلتفت ملتفت الا الى ضال مضل ، الا فرقة يسيرة .. » (٤) .

ولقد كان القول بالقدر يعنى ، عند غيلان وفرقته ، اكثر من تقرير الاختيار للفرد ، والخوض فى هذه المشكلة فى اطار الفرد ، كان يعنى التصدى لعقيدة الجبر التى تبرر مظالم السلطة ، والتى استند اليها الامويون فى اغتصابهم هذه السلطة ، وفى الجدل الذى دار بين الخليفة هشام بن عبد الملك وبين غيلان ، كان هشام يرى أن مافى يد بنى أمية من السلطة والسلطان هو عطاء الله لهم ، فسأل غيلان ــ معترضا ــ : « زعمت أن مافى الدنيا ليس هو من عطاء الله لنا ؟! » فقال له غيلان : «أعوذ بجلال الله أن يأتمن خوانا ، أو يستخلف الخلفـاء من خلقه فجارا ، أن أئمته القوامون بأحكامه ، الراهبـون لمقامه ، الذين كابدوا بالعـدل الدول ، وخافوا مقاما لا يجدون عنه حولا ، ولا يتعللون بالعلل ، باتوا ومقامهم المحمود ، وليلهم المشهود ، بطول القيـام والسجود ،

---

(٤) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢١٨ .

لم يول الله وثابا على الفجـــور ، ولا ركابا للمحظور . ولا شهادا بالزور ، ولا شرابا للخمور ! .. » وعنـــد ذلك أمر هشام بسجن غيلان ، ثم صلبه ، وقطع يديه ورجليه ولسانه حتى مات على الصليب ؟! » (٥) .

هؤلاء هم الثلاثة الذين تتردد أسماؤهم في المصادر الاولى ، وعن كل منهم يقول البعض : انه أول من تكلم في القدر .. والبعض يفسر هذه الاولية بأنها نسبية ، خصوصا وهم متعاصرون ، ونحن نضيف أن الاشـــكال ينحل اذا قلنا : ان أبا الاسود الدؤلي هو أول من تكلم به في الكوفة .. وغيلان أول من تكلم به في دمشق .. ومعبد هو أول من تكلم به في البصرة ، فهي المواطن التي شهدت نشاطهم الواسع في هذا المقام .

وليس يعني أن هؤلاء أول من تكلم في القدر أن هذه القضية ــ قضية الجبر والاختيار ــ لم تكن مثارة من قبل .. فمعاوية ــ كما سبقت اشـــارتنا ــ قد حاول استخدام عقيدة الجبر كي يبرر انتقال السلطة له وتغير طبيعتها على يديه .. وفي كلام الامام على جدل دار بينه وبين شيخ سأله عن هذه القضية (٦) .. والحسن البصري عندما كتب اليه عبد الملك بن مروان ينكر عليه اظهار القول بالقدر ، ويقول له : ان السلف لم يظهروا هذا القول ، رد عليه بأنهم لم يظهروه لعدم وجود القائلين بالجبر ، أما وقد فشا الجبر وكثر القائلون به فلابد من اظهار القول بالاختيار والحديث في أمر القدر .. (٧) .

---

(٥) المصدر السابق . ص ٢١٥ ـ ٢١٩ .

(٦) (نهج البلاغة) ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ .

(٧) (رسائل العدل والتوحيد) للحسن البصري ، والقاسم الرسي ، والقاضي عبد الجبار ، والشريف المرتضى . دراسة وتحقيق محمد عمارة . جـ ١ ص ٨٢ وما بعدها ، طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م .

لقد كانت القضية موجودة قبل هؤلاء ، ولكن الجدل قد احتدم من حولها فى عصرهم ؛ « فأظهروا » القول فيها ، « واذاعوه » ، و « دعوا الى مذهبهم فى القدر » .. وهذا معنى أنهم أول من تكلموا فى القدر ، حسب عبارة القدماء .

هذا عن أبى الاسود الدؤلى ، ومعبد الجهنى ، وغيلان الدمشقى . فماذا عن الحسن البصرى (٢١ ـ ١١٠ هـ ٦٤٢ ـ ٧٢٨ م) الامام الذى تنازعت نسبته اليها وتمسكت بأنه من أوائلها : السنة والمعتزلة على السواء ؛ وهو الرجل الذى يخيل للمرء أن أغلب علماء عصره قد تخرجوا من حلقته فى مسجد البصرة .

ان المعتزلة يذكرون الحسن البصرى فى الطبقة الثالثة من طبقات رجالهم ، وهى الطبقة التى فيها التابعون ، ويثبتون له رسالته التى كتبها فى القدر ، ردا على رسالة عبد الملك بن مروان (٨) ولكن هناك من يشككون فى هذه النسبة فيقولون : « كان أهل القدر ينتحلون الحسن ابن أبى الحسن .. وكان قوله مخالفا لهم » (٩) ؛ وهناك من يقولون : انه قال بالقدر ثم عدل ورجع عن القول به (١٠) .

ولكن الدراسة لاسس هذا الخلاف حول الحسن البصرى تؤكد أن الرجل كان من أئمة الذين قالوا بالقدر على مذهب أهل العدل ، وأن مثله مثل معبد الجهنى ـ وكان معبد « يجالس الحسن البصرى » (١١) ـ وغيلان

---

(٨) انظرها فى المصدر السابق جـ ١ ص ٨٢ وما بعدها .
(٩) (طبقات ابن سعد) جـ ٧ ق ١ ص ١٢٧ .
(١٠) (طبقات ابن سعد) جـ ٧ ق ١ ص ١٢٧ .
(١١) (خطط المقريزى) جـ ٣ ص ٣٠٢ .

الدمشقى ، وأبى الاسود الدؤلى فى القول بالقـــدر « الاختيار » أما الشكوك التى أحاطت بنسبته هـذه فان مصدرها الشبهة ليس الا .. فابن سعد يروى فى طبقاته عن « أيوب » قوله : « أنا نازلت الحسن فى القدر غير مرة حتى خوفته السلطان ، فقال : « لا اعود فيه بعد اليوم .. » كما يقول أيوب : « ادركت الحسن والله وما يقوله » أى ما يقول القـدر .. ويروى مثل هـذا الكلام عن حميد الطويل .. فلقد كان أيوب وحميد ـ وهما من الرواة أصحاب الحسن ـ يريان فى القول بالقدر « العيب الوحيد » الذى يمكن أن يعاب به الحسن ، يقول ايوب : « لا أعلم احدا يستطيع أن يعيب الحسن الا به »، اى بالقـدر .. ويتحـدث أبو هلال فيقول : « سمعت حيمدا وايوب يتكلمان ، فسمعت حميدا يقول لايوب : لوددت أنه قسم علينا غرم وأن الحسن لم يتكلم بالذى تكلم به .. قال أيوب : يعنى فى القدر » (١٢) .

كما يروى حماد عن أيوب قوله : « ما أعيانى الحسن فى شىء ما أعيانى فى القدر ، حتى خوفته بالسلطان »(١٣).

فأيوب ، الراوية ، صاحب الحسن ، قد خوف الحسن ، بعد أن أعياه أمره فى القول بالقـدر ، خوفه بالسلطان ، حتى ترك القول به ، وقال : لا أعود فيه بعد اليوم .. ومن هنا فهم البعض رجوع الحسن عن القول بالقدر .. ولكن الامر لم يكن على هذا النحو .. فأيوب وحميد ، مثل الحسن ، يقولون جميعا بالقدر .. وأيوب قد خوف الحسن من القول بالقدر اشفاقا عليه من سطوة السلطان ، سلطان بنى أمية ، وليس عن مخالفة له فى

(١٢) (طبقات ابن سعد) جـ ٧ ق ١ ص ١٢٢ .
(١٣) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٨٣ .

الراى وتهديد له بابلاغ السلطان عنه ، فهو يخوفه من السلطان لا بالسلطان .. ويضع « البلخى » يدنا على هذه الحقيقة عندما يقول : ان « ايوب لم يخوفه بالسلطان على سبيل سعاية به اليه ، كان أعظم قدرا من ذلك ، ولكنه خوفه لسطوة عليه ان علم به ، هذا على جهة النصح له ، لان بنى أمية كانت مجمعة — الا من عصم الله — على الاجبار » (١٤) وعلى ضوء هذه الحقيقة نستطيع أن نفهم معنى قول الحسن : « لا أعود فيه بعد اليوم » ، اى لا أعلنه الاعلان الذى يعرضنى لعقاب السلطان . وأن نفهم كذلك معنى قول أيوب : « أدركت الحسن والله وما يقوله ! » فالحسن كان ، بلا جدال ولا شك ، من أوائل الذين قالوا بالقدر على مذهب المعتزلة ، أهل العدل والتوحيد .. كل ما فى الامر أنه قد اختلف معهم فى أصل آخر هو المنزلة بين المنزلتين ، وفى قضايا اخرى مثل قضية تجريد السيف والخروج المسلح ضد بنى أمية .. وعلى ضوء هذه الحقيقة نفهم ذكر المعتزلة للحسن فى الطبقة الثالثة من طبقات رجالهم ، ونفهم قول الذين أرخو لفرق المعتزلة عندما يذكرون « فرقة الحسنية » — نسبة للحسن — كاحدى فرق المعتزلة » ..(١٥) .

وفى البصر تكلم بالقدر ودعا اليه — غير معبد الجهنى ، والحسن البصرى — عمرو بن عبيد (٨٠ — ١٤٤ هـ ٦٩٩ — ٧٦١ م) وكان من حضور حلقة الحسن فى مسجد البصرة ، وهو الذى خلف معبد الجهنى فى زعامة تيار القدرية بالبصرة بعد مقتل معبد . اذ سلك أهل البصرة

(١٤) المصدر السابق . ص ٨٣ .
(١٥) (مفاتيح العلوم) ص ١٨ .

مسلك الاعتقاد بالقدر « لما راوا عمر بن عبيد ينتحله .. » (١٦) .

ولكن مؤرخي المقالات يجمعون على أن تبلور فكر المعتزلة ، وبناء تنظيمها كفرقة متميزة ، قد تم على يد قيادتها التي تمثلت في أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال (٨٠ ـ ١٣١ هـ ـ ٦٩٩ ـ ٧٤٨ م) .

لقد نشأ واصل في المدينة ، في بيت محمد بن علي بن ابي طالب ـ محمد بن الحنفية ـ وكان مولى لهم ، وتعلم مع ابي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية في المكتب ، وكان خلاله ورفيقا ، كما أخذ عنه العلم الذي أخذه أبو هاشم عن أبيه .. وفي الواحدة والعشرين من عمره ذهب الى البصرة ، أي في سنة ١٠١ هـ ، والتقى بعمرو ابن عبيد وزامله في حلقه الحسن ، وفي دعوة القدر ، وتزوج أخت عمرو ، ودامت صحبتهما حتى مات واصل بعد ثلاثين عاما في سنة ١٣١ هـ .

وفي العقد الاول من القرن الثاني ، أي في حياة الحسن البصري ، الذي توفي سنة ١١٠ هـ ، كان واصل قد أكمل البناء الفكري الذي عرفت به المعتزلة على عهده ، اذ يروى كتاب المقالات : أنه قد « فرغ من الرد على مخالفيه وهو ابن ثلاثين سنة .. (١٧) .

كان هناك اتفاق اذن بين الحسن وعمرو وواصل في القدر ، وكذلك في التوحيد والتنزيه ، ولكن الانقسام قد حدث عندما قال واصل في مرتكب الكبيرة : انه لا مؤمن ولا كافر ، وانما هو في منزلة بين المنزلتين ، وان يكن

---

(١٦) (صحيح مسلم) بشرح النووي جـ ١ ص ١٥٣ .
(١٧) (باب ذكر المعتزلة) ص ٢١ .

مخلدا فى النار فى درجة من العذاب دون درجة الكافرين .. بينما كان الخوارج يكفرونه ، ويرى الحسن أنه منافق ، ويصحح ايمانه القائلون بالارجاء .

اختلف واصل مع الحسن ومع عمرو حول هذا الاصل .. وبعد مناظرة بين واصل وعمر تبع عمرو واصلا ، وترك مجلس الحسن البصرى وبقى الحسن مخالفا لهما فى هذا الموضوع .

وواقعة اعتزال مجلس الحسن ، التى سببت اطلاق اسم المعتزلة ينسبها البعض الى واصل ، فيقولون : انه اعتزل مجلس الحسن ، بعد ان قال بالمنزلة بين المنزلتين، وان الحسن قد قال : اعتزلنا واصل ، وظهر اسم المعتزلة على هذه الفرقة .. وهذا امر شهير فى كتب المقالات والفرق بينما ينسب البعض الاعتزال لمجلس الحسن الى عمرو بن عبيد ، وذلك انه « قد جرت بين واصل بن عطاء وبين عمرو بن عبيد مناظرة فى هذا ـ (اى فى المنزلة بين المنزلتين) ـ فرجع عمرو الى مذهبه ، وترك حلقة الحسن ، واعتزل جانبا ، فسموه معتزليا ، وهذا أصل تلقيب أهل العدل بالمعتزلة .. » (١٨) .. وسيأتى تفصيل ذلك الحديث عن اسم المعتزلة .

والذى يعنينا هنا هو القول بأن قيادة هذه الفرقة ، التى تميزت بعد هذا الانقسام ، كانت لواصل بن عطاء ، فهو الذى انجز فى العقد الاول من القرن الثانى صياغة ردود المعتزلة على الخوارج والجبرية والمرجئة والشيعة والمانوية ، ومختلف الفرق المعادية للاسلام .. وهو ـ كما

---

(١٨) القاضى عبد الجبار (شرح الاصول الخمسة) ص ١٣٨ . تحقيق د. عبد الكريم عثمان . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

يقول القاضي عبد الجبار ـ « أول من صنف وتبتل للرد على المخالفين بالكتب الكثيرة .. » (١٩) وهو الذى قاد بناء « التنظيم » الذى ضم صفوف المعتزلة فى مختلف البلاد والاقاليم ـ كما سيأتى فى (الفصل الثالث) من هذا الباب .. وهو الــذى تبلورت للمعتزلة فى عهــده أصول أربعة هى :

١ ـ التوحيد والتنزيه .

٢ ـ قدرة الانسان على أفعاله وخلقه لها ـ (القدر) .

٣ ـ المنزلة بين المنزلتين .

٤ ـ القول بخطأ احد الطرفين فى الصراعات التى دارت بين عثمان وخصومه ، وعلى وخصومه ، مع التوقف فى تحديد من هو الطرف المخطىء .. (٢٠) .

وهذه الاصول هى التى تطورت بالتداخل والزيادة حتى أصبحت خمسة فى ظل قيادة ابى الهذيل العلاف (المتوفى سنة ٢٣٥ هـ سنة ٨٤٩ م) لفرقة المعتزلة (٢١) .

تلك هى النشأة الاولى للمعتزلة ، فكرا وتنظيما ، فبهؤلاء الرجال الذين ضمهم عصر واحد وتوزعتهم المدن والاقاليم ، وهم : ابو الاسود الدؤلى فى الكوفة .. ومعبد الجهنى ، والحسن البصرى وعمرو بن عبيد فى البصرة .. وغيلان الدمشقى فى دمشق والمــدينة .. وواصل بن عطاء فى المدينة ، والعراق ، والبصرة .. ثم بواســطة التنظيم الذى بناه واصل امتد نشاط المعتزلة الى اغلب انحاء الدول العربية الاسلامية .

---

(١٩) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٥٠ .

(٢٠) (الملل والنحل) جـ ١ ص ٦٨ ـ ٧٤ .

(٢١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٨٦ ، ٢٠١ ، ٢١٢ ، ٢٢٦ .

ولقد سبق أن ذكرنا أن غيلان الدمشقى ، الذى كون فرقة القدرية قد تعلم على يد الحسن بن محمــــد بن الحنفية ، ثم ذكرنا أن واصل ابن عطاء تعلم على يد ابى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية .. فالاعتزال ، اذن ، قد خرج من بيت محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب ثم حمله الى الناس مجمــــوعة من الرجال ، بعضهم من اصل عربى ، وأغلبهم من الموالى ، ثم انتشر ولعب دوره المتميز فى حياة هذه الامة منذ ذلك التاريخ .

واسم « المعتزلة » ، بالرغم من الابحاث التى كتبت حول نشأته ، وسبب تسمية واصل وأصحابه به ، سواء تلك الابحــاث والآراء التى كتبهــــا المستشرقون فى العصر الحديث أو كتاب المقالات فى تراثنا العربى الاسلامى .. اسم « المعتزلة » هذا لا يزال ميدانا مفتوحا قابلا لمزيد من البحث ، فلا زال فى نشأته وسبب اطلاقه على واصل وجماعته الكثير من الغموض واختلاف وجهات نظر القدماء والمحدثين .. وليس صحيحا ما يقوله الدكتورعبدالرحمن بدوى من أن البحث الذى وضعه المستشرق الايطــــالى « نلينو » عن اسم المعتزلة قــد وصل الى النتائج التى لا يوجد مايدعو الى مراجعتها أو تغييرها أو رفضها (٢٢).

تقوم وجهة نظر الاستاذ « نلينو » على رفض الافكار الشائعة فى كل ما كتبه القدماء ، وهى الافكار التى تقول ان اسم المعتزلة قد اطلق على واصل واصحابه عنــدما احدثوا القول بالمنزلة بين المنزلتين ، وهو الامر الذى

---

(٢٢) د. عبد الرحمن بدوى (مذاهب الاسلاميين) ج ١ ص ٣٧ ـ طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .

ادى الى انشقاقهم عن حلقة الحسن البصرى وجماعته.. وهو يسلم بأن معنى كلمة المعتزلة : « المنشقون » .. ولكن منشقون عن من ؟؟ ولماذا ؟ هذا ما يحاول الاستاذ « نلينو » أن يأتى فيه بالمبتكر والجديد .

فهو لا يوافق على أن هذا الانشقاق قد حدث من واصل وجماعته على جماعة القدرية التى تكونت فى القرن الهجرى الاول ، لان المعتزلة عنده لم يكونوا فرعا أو استمرارا لحركة القدرية هذه ، ويرفض أن تكون نقطة البدء عندهم هى قضية الاختيار والقول بالقدر (٢٣) .. والرأى البديل الذى يقدمه يذهب الى أن هؤلاء المعتزلة الجدد ، أصحاب واصل . انما هم الامتداد لحركة الزهاد الذين انشقوا على أطراف الصراع السياسى :علىوأصحاب الجمل ، وعلى ومعاوية ، واعتزلوا هذا الصراع فلقد اتخذ هؤلاء المعتزلون القدامى موقفا محايدا من أحداث ذلك الصراع وأطرافه ، واتسمت حياتهم بالزهد والنسك ، ولما كان واصل وأصحابه قد اتخذ موقفا وسطا ، بين أهل السنة والخوارج ، من تقييم أحداث الصراع بين على وخصومه ، فلم يكفرهم جميعا كما قال الخوارج ، ولم يصوبهم جميعا كما انتهى الى ذلك أهل السنة ، وانما قال بفسق أحد الفريقين دون تحديد .. لما كان واصل قد اتخذ هذا الموقف الوسط من احداث هذا الصراع واطرافه ، فهو الامتداد لموقف الزهاد المحايدين الذين اعتزلوا هذه الصراعات .. ويستدل على ذلك ، أيضا ،

---

(٢٣) نلينو (بحوث فى المعتزلة) ـ ترجمة د. عبد الرحمن بدوى . ونشره فى كتاب (التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م . انظر ص ١٩٢ .

بأن اسم المعتزلة قد أطلقه واصل وأتباعه على أنفسهم ، ولم يطلقه عليهم خصومهم من أهل السنة .. فهم الذين اعتزلوا ، بموقفهم هذا المحايد والوسط . وهم الامتداد لهؤلاء الاسلاف المعتزلين .. (٢٤) .

ونحن نتفق مع الاستاذ « نلينو » على أن معنى كلمة « المعتزلة » هى « المنشقون » ، وعلى ان الذين ينشقون ويعتزلون لا يخجلون من تسمية أنفسهم بالمعتزلة ، وهو ما صنعه المعتزلة فى الواقع ، ونضيف أنهم قد اجتهدوا ليقولوا ان اسم « المعتزله » هو اسم الفرقة الناجية من بين فرق الاسلام الثلاث والسبعين .. وأن أصل الحديث : « ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، أبرها وأتقاها الفئة المعتزلة » وان استبدال كلمة « الناجية » فى الحديث بدلا من « المعتزلة » انما حدث من غيرهم بعد أن عرفوا هم باسم « المعتزلة » ويضيفون : ان الله لم يذكر الاعتزال الا بمعنى الاعتزال عن الشر ، فنبى الله ابراهيم يقول : « واعتزلكم وما تدعون من دون الله » (٢٥) وأهل الكهف معتزلة يقول الله لهم : « واذا اعتزلتموهم وما يعبدون من دون الله » (٢٦) .. وذكروا ان المعتزلة هم المقتصدة ، أصحاب الموقف المجتنب لكل من الافراط والتقصير ، وان طريقهم هو طريق الادلة ، وأنهم ذهبوا الى أن أول من اعتزل فى الاسلام هو الرسول صلى الله عليه وسلم وطائفته (٢٧) .

نحن نتفق مع الاستاذ « نلينو » فى معنى الكلمة ،

---

(٢٤) المرجع السابق . ص ١٧٩ ، ١٨٣ ـ ١٨٥ .
(٢٥) مريم : ٤٨ .
(٢٦) الكهف : ١٦ .
(٢٧) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

وفى عدم تحرج المعتزلة انفسهم من اتخاذها علما لفرقتهم .. ولكنا نختلف معه فى هـذا الربط الذى يقيمه بين واصل واصـحابه ـ المعتزلة الجدد ـ وبين المعتزلة القدامى ، الذين كان طابعهم الزهد واتخاذ الموقف السلبى او المحايد ، من الحياة بمعناه السلبى .. وحتى نقدم حجتنا فى اطارها الطبيعى نقدم بين يديها بايضـاح عن الاشخاص والمواقف التى دخلت فى عداد هؤلاء المعتزلة القدماء :

١ ـ عندما تمت البيعة لعلى بالمدينة ، وانشق عليه بعدها طلحة والزبير واخذ على فى التجهز لموقعة الجمل اعتزل الخروج معه ، وتوقف عن المشاركة فى هذه الحرب، واتخذ موقفا محايدا ومعتزلا عدد من الصحابة أبرزهم : سعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر . وأسامة بن زيد ، وزيد بن ثابت ، وحسـان بن ثابت ، ورافع بن خديج ، ومحمد بن مسلمة ، وكعب بن مالك ، ومسلمة ابن عبد الله ، وأبو سعيد الخدرى ، والنعمان بن بشير ، وصهيب وفضالة بن عبيد ، وكعب بن عجرة ، وسلمة بن سلامة بن دقش .. وبعض المصادر تذكر أنهم لم يبايعوا عليا ، وتوقفوا فى بيعته ، ثم اعتزلوا الفتنة ، ولكن أغلب المصادر ترى انهم بايعوا ، وأن توقفهم كان عن القتـال وحيادهم كان فى النزاع بين على وطلحة والزبير ، أما فى النزاع بينه وبين معاوية فكانوا يدينون معاوية بالبغى وان لم يشتركوا فى القتال لان الطرفين المتقاتلين من أهـل الصلاة (٢٨) .

(٢٨) (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) جـ ٤ ص ١٥٩ . و (شرح نهج البلاغة) جـ ٤ ص ٩ ، ١٠ . و (تلخيص الشافى) جـ ٤ ص ١٦٦ و (مقدمة ابن خلدون) ص ١٦٩ . و (الفتنة الكبرى) ـ جـ ٢ ص ٩ ، جـ ١ ص ٥ . (فرق الشيعة) ص ٥ .

ولقد كان موقف هؤلاء « المعتزلة القدامى » هو الحياد بمعناه السلبى فى هذا الصراع ، وعلى بن ابى طالب قد وصف حيادهم السلبى هذا وصفا دقيقا عندما قال عنهم: انهم « خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل ! » (٢٩) .

وفى موقعة الجمل اعتزل الاحنف بن قيس القتال هو وقومه من بنى تميم ، طلبا للسلام .. كما يقول النوبختى ـ « لا على التدين بالاعتزال » (٣٠) .

وبعد وفاة على اعتزل قوم آخرون كلا من الحسن بن على ومعاوية بن أبى سفيان : « لزموا منازلهم ومساجدهم ، وقالوا : نشتغل بالعلم والعبادة ، فسموا بذلك معتزلة .. » (٣١) .. وعلى رأس هؤلاء عامر بن عبد الله ، الذى يقال له عامر بن قيس (المتوفى سنة ٥٥ هـ) .

فهو اعتزال بمعنى الخروج من حلبة الصراع ، والتفرغ لشئون النفس الخاصة ، دينية كانت أو دنيوية .. اى انه موقف سلبى من صراعات السياسة والحروب التى كانت دائرة بشأنها .

وفى يوم صفين اعتزل الطرفين المتصارعين نفر من أصحاب عبد الله بن مسعود ، على رأسهم عبيدة السلمانى واصحابه ، خرجوا مع جيش على ، ولكنهم طلبوا أن يعسكروا فى مكان منعزل ، وقالوا لعلى : اننا نريد « أن ننظر فى أمركم وأمر أهل الشام، فمن رأيناه أراد ما لا يحل

---

(٢٩) (نهج البلاغة) ص ٣٦٧ .

(٣٠) (فرق الشيعة) ص ٥ .

(٣١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٣ ، ١٦ (مقدمة المحقق ـ نقلا عن الملطى فى (التنبيه والرد) .. وابن دريد فى « الاشتقاق » ...) .

له أو بدا منه بغى كنا عليه » فوافقهم على ، وقال لهم : « هذا هو الفقه فى الدين ، والعلم بالسنة ، ومن لم يرض بهذا فهو خائن جبار .. » .

وفريق آخر من صحاب ابن مسعود طلبوا من على ان يوجههم لثغر من الثغور ، بدلا من القتال فى صفين ، وقالوا له : « انا قد شككنا فى هذا القتال .. » .. فوافقهم ، وعقد لقائدهم الربيع بن خثيم اللواء فتوجهوا الى ثغر « الرأى » (٣٢) .

فاعتزال الصراع هنا موقف سلبى وحياد بالمعنى السلبى لكلمة الحياد ، لانهم شكوا ولم يتبينوا ، ولم يعرفوا أين الحق وأين الضلال فى هذا الصراع .

ويفصح عبد الله بن عمر عن طبيعة اعتزاله وحياده عندما يكتب الى معاوية ، فيقول : « .. ولكنى عهد الى فى هذا الامر عهد ، ففزعت فيه الى الوقوف ، وقلت : ان كان هذا هدى ففضل تركته ، وان كان ضلالا فشر نجوت منه » (٣٣) .

ويفصح محمد بن مسلمة عن طبيعة اعتزاله وحياده وتوقفه ، فيقول فى خطابه لمعاوية : انه لما حدث ما حدث « كسرت سيفى ، وجلست فى بيتى واتهمت الرأى على الدين ، اذ لم يصح لى معروف آمر به ، ولا منكر أنهى عنه » .. فهو توقف من لا يعرف الحق من الباطل ، ولا المعروف من المنكر ، هرب صاحبه الى منزله ، فكسر سيفه واتهم رأيه ؟! . وهو يقول ذلك عن الاحداث التى وقعت بين على وطلحة والزبير ، أما عن موقف معاوية فهو يدينه ،

---

(٣٢) (شرح نهج البلاغة) ج ٣ ص ١٨٦ .
(٣٣) المصدر السابق . ج ٣ ص ١١٣ .

ويقول له فى نفس الرسالة : « .. وأما أنت ، فلعمرى ما طلبت الا الدنيا ، ولا اتبعت الا الهوى ، وان تنصر عثمان ميتا فقد خذلته حيا ! .. » (٣٤) .

وعلى درب هذا اللون من الاعتزال سار الخريت بن راشد عندما قال : « اعتزل وأكون مع من يدعو الى الشورى بين الناس ، فاذا اجتمع الناس على رجل هو لجميع الامة رضا ، كنت مع الناس » (٣٥) .

ولقد قال عمرو بن العاص يومئذ لمعاوية : ان أهل المدينة ومكة : « ثلاثة نفر . رجل راض بعلى . ورجل يهوى عثمان . ورجل معتزل » (٣٦) .

ذلك هو الاعتزال الذى ارتبط بالزهد والتقوى والتعبد فى عصر صدر الاسلام ، وهؤلاء هم « المعتزلة » الذين توقفوا فى الصراع بين على وخصومه ، ولزموا موقف الحياد بمعناه السلبى ، وانتهى بهم اعتزالهم ، فى واقع الامر ، الى الخروج من حلبة الصراع ، فهل بين موقف هؤلاء وبين موقف واصل بن عطاء والمعتزلة الجدد وجه واحد من وجوه الشبه حتى يكونوا هم أسلاف المعتزلة الجدد ، ويكون واصل وجماعته هم « الاستمرار فى ميدان الفكر والنظر لهؤلاء المعتزلة السياسيين أو العمليين » كما يقول الاستاذ نلينو ؟!

٢ ـ ان المعنى الذى يفهم من اصل « المنزلة بين المنزلتين » ـ وهو السبب المباشر لانشقاق واصل ـ وحجته وملابسات نشأته ، وأساليب القول به ، لا تدع

---

(٣٤) المصدر السابق . ج ٣ ص ١١٥

(٣٥) المصدر السابق . ج ٣ ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٣٦) المصدر السابق . ج ٣ ص ١٠٩ .

مجالا للشك فى انعدام الصلة الفكرية والعملية ما بين اولئك المعتزلة وهؤلاء المعتزلة الجدد .

فالمنزلة بين المنزلتين ليست توقفا ولا حيادا سلبيا فى تقييم مواقف أطراف الصراع فى الفتنة التى حدثت فى صدر الاسلام . وانما هى موقف وسط ، ولكنه ايجابى ، فى معالجة الخلاف حول حكم مرتكب الكبيرة ، وكان الوقت وقت اشتداد ثورة الخوارج الازارقة ضد بنى أمية ، وكان المطروح فى الدوائر الفكرية والسياسية وساحات القتال ، من قبل الازراقة : أن بنى أمية ، وهم أهل كبيرة وفسق ، هم كفار مخلدون فى النار . ورد عليهم المرجئة بأنهم مؤمنون . ورأى الحسن والقدرية ــ وفيهم عمرو بن عبيد ــ أنهم فسقة منافقون . فجاء واصل بن عطاء بالقول بالمنزلة بين المنزلتين ، عندما تمسك بوصفهم بالفسق ، لاتفاق الخوارج والقدرية عليه ، ثم حكم بأن منزلتهم هى بين المؤمنين وبين الكافرين ، وهم مع ذلك مخلدون فى النار . والموقف الذى يقول ان طرفا من أطراف الصراع فى المجتمع الاسلامى : فاسق مخلد فى النار ، لا يوصف بأنه موقف سلبى أو محايد أو امتداد لتلك المواقف التى عميت الامور على أصحابها فتوقفوا عن الحكم والفصل فى أحداث الصراع .

٣ ــ ان القدرية ، قبل هذا الانشقاق الذى سموا بعده بالمعتزلة ، وكذلك المعتزلة بعد هذا الانشقاق ، لم يكونوا محايدين فى الموقف من الصراع على السلطة والامامة فى ذلك الحين ، حتى يكونوا الامتداد لاصحاب ذلك الاعتزال السلبى والحياد الذى كان أشبه بالشلل

والتوقف عن التعامل مع الاحداث . والمشاركة الايجابية للقدرية وللمعتزلة قد بلغت مستوى الثورة وسل السيف ضد بنى أمية ، ثم ضد بنى العباس . وسيأتى فى الفصول الثلاثة الاولى من (الباب السادس) ذكر لمعارضتهم ونقدهم للدولة الاموية ، وادانتهم لها ولولاتها ومظالمها . ومشاركتهم ـ أو مشاركة تيار منهم فى ثورة ابن الاشعث. وثورة القدرية ونشاطها زمن عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك . ثم ثورة زيد بن على . ثم ثورتهم التى نصبت يزيد بن الوليد بعد أن قتلت الوليد بن يزيد . ثم محاولتهم بناء دولتهم على أنقاض الدولة الاموية ، ثم صراعهم ضد بنى العباس عندما اختطف هؤلاء الامارة من المعتزلة . كل هذه الحقائق ـ وجانب كبير منها يدرس ويعرض للمرة الاولى ـ تنفى نفيا قاطعا تلك الصورة التى يقدمها الاستاذ « نلينو » عن موقف المعتزلة من الصراع على السلطة والامامة وتقييمهم لاطراف الصراع عليها . ومن ثم ينفى أن يكونوا امتدادا لأولئك المعتزلة الاول . ولا نعتقد أن اتصاف واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد بالزهد والتقوى والورع ـ وهم كانوا كذلك ـ يكفى ليجعلهم ، فى الفكر والسياسة ، الامتداد لمن كان زهدهم سببا فى حيادهم السلبى ازاء أحداث العصر الذى عاشوا فيه .

وفرق بين أن يكون القول بالمنزلة بين المنزلتين تعبيرا عن موقف أقل تطرفا من موقف الخوارج الازارقة ، وبين أن يكون حيادا سلبيا كحياد المعتزلة القدماء . والا فماذا تصنع بتشدد هذا الموقف ، بل وتطرفه ، اذا ما قيس

بموقف القـــدرية ، قبل الانشقاق ، فضلا عن موقف المرجئة ؟!

٤ ـ ثم ان النصوص التى ظهرت حـديثا لمفـكرين معتزلة ، والتى اكتشفت مخطوطاتها بعد أن كتب الاستاذ « نلينو » بحثه ، تقطع بأن سبب هذه التسمية انما هو ذلك الانشقاق الذى حدث فى حركة أهل العدل والتوحيد، فالذين أضافوا الى أصول : العدل ، والتوحيد ، والوعد والوعيد ، أصل : المنزلة بين المنزلتين ، اختصوا باسم المعتزلة ، أما الذين رفضوا هذا الاصل الـذى قال به واصل بن عطاء فظلوا من أهل العدل والتوحيد دون أن يسموا بالمعتزلة ، كما هو وضع الحسن البصرى ومن ظل على موقفه . والبلخى يقول عن « سببتسميةالمعتزلة بالاعتزال : والسبب الذى سميت له المعتزلة بالاعتزال أن الاختلاف وقع فى أسماء مرتكبى الكبائر من أهل الصلاة ، فقالت الخوارج : انهم كفار مشركون ، وهم مع ذلك فساق . وقال بعض المرجئة : انهم مؤمنون ، لاقرارهم بالله ورسوله وبكتابه وبما جاء به رسوله ، وان لم يعملوا به . فاعتزلت المعتزلة جميع ما اختلف فيه هـؤلاء ، وقالوا : نأخذ بما اجتمعوا عليه من تسميتهم بالفسق ، وندع ما اختلفوا فيه من تسميتهم بالكفر والايمان والنفاق والشرك (٣٧) . وهذا هو الموقف والتفسير الذى نجده عند القاضى عبد الجبار وغيره من أصحاب الآثار الفكرية الاعتزالية التى اكتشفت مؤخرا (٣٨) .

٥ ـ ان أهل العدل والتوحيد ، بالبصرة ، كانوا على

---

(٣٧) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١١١ .
(٣٨) المصدر السابق . ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

الراى القائل بأن مرتب الكبيرة منافق ، اما المنزلة بين المنزلتين فهو موقف جاء به واصل بن عطاء من المدينة ، أخذه عن أستاذه أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية. وفى ذلك يقول القاضى عبد الجبار ، وهو يتحدث عن الموقف من صاحب الكبيرة : « ذهب الحسن البصرى الى أنه ليس بمؤمن ولا كافر ، وانما يكون منافقا ، والى هـذا ذهب عمرو بن عبيد ، وكان من أصحابه . وذهب واصل ابن عطاء الى أن صاحب الكبيرة لا يكون مؤمنا ولا كافرا ولا منافقا ، بل يكون فاسقا . وهذا المذهب أخذه عن أبى هاشم عبد الله بن محمـد بن الحنفية ، وكان من اصحابه . وقد جرت بين واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد مناظرة فى هذا ، فرجع عمرو بن عبيد الى مذهبه ، وترك حلقة الحسن ، واعتزل جانبا ، فسموه معتزليا . وهذا أصل تلقيب أهل العدل بالمعتزلة (٣٩) » .. فالمعتزل هنا عمرو ، وليس واصلا .. لان عمرا كان هو الاصيل فى حلقة الحسن ، لانه كان بصريا .

٦ ــ بل ان هناك من يذهب الى ان هذه التسمية قد اطلقت بعد موت الحسن ، اذ ان مجلس الحسن وحلقته قد انفرد بهما قتادة بن دعامة السدوسى ، وهو من أهل العدل والتوحيد ــ (القدرية) ــ فاعتزل عمرو بن عبيد حلقة قتادة ، واعتزله نفر معه ، « فسماهم قتـادة : المعتزلة » (٤٠) .

٧ ــ ثم ان اطلاق اسم « المعتزلة » على الزهاد الذين توقفوا فى الفتنة أيام على ، ثم أطلاق هذا الاسم على

---

(٣٩) (شرح الاصول الخمسين) ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٤٠) (خطط المقريزى) جـ ٣ ص ٢٨٣ .

واصل وصحبه ليس دليلا على وجود صلات فكرية أو علمية أو شبه فى الموقف واسلوب معالجة الاحداث بين الفريقين .. فمثلا عندما فر مروان بن الحكم ، بعد مقتل عثمان ، الى معاوية مع بعض أنصار عثمان ، كتب معاوية الى عمرو بن العاص يقول : « وقد سقط الينا مروان بن الحكم فى رافضة أهل البصرة ! (٤١) » .. فهؤلاء « رافضة » هواهم مع عثمان ومعاوية ، ولا أحد يستطيع أن يقول بوجود شبه بينهم وبين « الرافضة » الذين نشأوا من بعد وكان هواهم مع على ضد الامويين وغيرهم من الفرقاء ، فالاتفاق فى اللفظ لا يكفى دليلا على التشابه أو التقارب ، فضلا عن الاتحاد ، فى مثل هذه الامور .

٨ ــ وأخيرا .. فان القول بالمنزلة بين المنزلتين لم يكن هو الاصل الذى يضم تقييم واصل بن عطاء وجماعته لاحداث الفتنة التى وقعت على عهد على ، حتى يكون هو الامتداد لموقف المعتزلة القدماء .. ذلك أن « توقف » واصل فى تحديد من هو المخطىء أو من هو الفاسق من أطراف ذلك الصراع كان يمثل أصلا مستقلا غير أصل « المنزلة » الذى سبب الانشقاق فى صفوف القائلين بالعدل التوحيد .. فأصول الفرقة كما كانت على عهد واصل هى :

١ ــ التوحيد .

٢ ــ العدل .

٣ ــ المنزلة بين المنزلتين .

٤ ــ قوله فى الفريقين من اصحاب الجمل واصحاب صفين : ان أحدهما مخطىء ، لا بعينه ، وكذلك قوله فى

---

(٤١) (وقعة صفين) ص ٣٤ .

عثمان وقاتليه وخاذليه : ان أحدهما فاسق لا محالة ، كما أن أحد المتلاعنين فاسق لا يعينه (٤٢) .

وهكذا نرى أن تسمية فرقة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد بالمعتزلة ، بعد انشقاقهم عن أصحاب الحسن ، انما كان أمرا آخر يختلف فى المضمون عن اطلاق تلك التسمية على أولئك الزهاد الذين توقفوا فى الفتنة زمن على .. واتخذوا من أحداثها موقفا هو اللاموقف ، فكان وجودهم فيها هو والعدم سواء بسواء .

لقد نشأت المعتزلة كامتداد متطور الفرقة القديمة التى كان يطلق عليها خصومها « القدرية » ، وكان هذا التطور ناتجا عن القول بالمنزلة بين المنزلتين ، الذى أحدث الانشقاق فى صفوف أصحاب الحسن فى العقد الاول من القرن الثانى الهجرى .

فسلف المعتزلة هم : أهل العدل والتوحيد القدامى، وليس معتزلة الصراع والفتنة التى حدثت فى صدر الاسلام .

---

(٤٢) (الملل والنحل) جـ ١ ص ٦٨ ـ ٧٣ .

الفصل الثانى :

ماذا يمثل المعتزلة ؟

رفضت الخوارج عصبية قريش التى تركزت فى بنى امية ، واستئثارها بالسلطة ، ومن ثم لعبت القبائل العربية ، غير قريش ، دورا بارزا فى حروب الخوارج ضد بنى أمية وعصبيتها ، وبالرغم من انكار الخوارج للتعصب القبلى ، وتمثيلهم روح الاسلام الداعية الى المؤاخاة والمساواة بين الشعوب والقبائل ، وبالرغم من انضمام الموالى الى حركتهم وحربهم فى صفوفهم على قدم المساواة مع العرب ، بالرغم من ذلك نلاحظ أن قبيلة بكر ، مثلا ، قد لعبت أهم الادوار فى قيادة ثورات الخوارج ضد الامويين فى عصرهم الاخير (١) . كما لا نجد قرشيا واحدا من بين الذين تولوا امارة الخوارج فى ذلك التاريخ .

ولقد رفضت الشيعة كذلك عصبية قريش واستئثارها بالسلطة دون آل البيت ، وضمت فى صفوفها كثرة من الموالى ، فكانت موطن كثير من الافكار والحركات الشعوبية ، بالمعنى العرقى ، والتى لا تطلب المساواة

---

(١) (الخوارج والشيعة) ص ١٢٩ .

بالعرب فقط ــ وهذا تيار مشروع فى الشعوبية ــ وانما طلبت أن تكون السيادة للعنصر الفارسى ، وأن يرتد مركز العنصر العربى فى الدولة الى الوراء .

اما المعتزلة ، فانهـــا قد نبعت من بيت عربى قرشى هاشمى ، هو بيت محمد بن الحنفية : علم ابنه الحسن غيلان الدمشقى ، الذى انطلق ليكون « القدرية » ، بعد أن تباهى به الحسن فى موسم الحج وقال : انه حجة على أهل الشام . ولكن هذا الفتى مقتول (٢) ؟! . وأخذ واصل بن عطــاء عن أبى هاشم عبــد الله بن محمد بن الحنفية ، حتى قال عنه القاضى عبد الجبار : لقد كان واصل كتابا صنفه أبو هاشم !؟ (٣) .

نبعت هذه الدعوة من هذا البيت العربى ، فتلقفها جيل من الموالى كان من بينه أبرز فرسانها الذين جعلوا منها تيارا فكريا لعله أهم التيارات الفكرية التى شهدها الاسلام ، وليجعلوا منها فرقة وحزبا على جانب هام من التنظيم ، ولتقوم على يديهم وتحت قيادتهم بأهم الادوار واخطرها فى تاريخ العرب والمسلمين .

فأبرز أئمة أهل العدل والتوحيد ، والمعتزلة فى نشأتها المبكرة ومرحلة شبابها ونضجها كانوا من الموالى :

* فأبو مروان غيلان الدمشقى . كان من موالى عثمان ابن عفان . وهو من أصل مصرى (قبطى) ، ولذلك يلقب أحيانا بغيلان القبطى (٤) .

* وابو حذيفة واصل بن عطاء . هو من موالى بنى

---

(٢) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢١٥ .
(٣) المصدر السابق . ص ٢١٢ .
(٤) (المعارف) ص ٤٨٤ .

هاشم . والبعض يقـول انه من موالى ضبة ، ويقـول آخرون انه من موالى مخزوم (٥) .

* والحسن بن أبى الحسن البصرى . من الموالى ، وكان أبوه من سبى ميسان (٦) .

* وأبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب ، من موالى بنى العدوية ، وكان أبوه من سبى كابل ، أحد ثغور بلخ (٧) .

* وأبو بكر أيوب بن أبى تميمة السختيانى (١٣١ هـ) كان من موالى عنزة . وهو من أهل العدل الذين لم يتبعوا واصلا فى القول بالمنزلة بين المنزلتين ، وتبع الحسن عند انشقاق المعتزلة (٨) .

* وأبو عبد الله يونس بن عبيد (١٣٩ هـ) . هو من موالى عبد القيس . وكان ممن تبع الحسن عند انشقاق المعتزلة (٩) .

* وأبو المعتمر سليمان بن طرخان التيمى (١٤٣ هـ) .. كان من موالي عمرو بن مرة بن عبادة ، من ضبيعة (١٠) .

* وأبو بكر محمد بن سيرين (١١٠ هـ) . كان مولى

---

(٥) الشريف المرتضى (أمالى المرتضى) ق ١ ص ١٦٣ . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤ م .
(٦) (المعارف) ص ٤٤١ .
(٧) (أمالى المرتضى) ق ١ ص ١٦٩ . و (طبقات ابن سعد) ج ٧ ق ٢ ص ٣٣ و (فضل الاعتزال) ص ٦٤ .
(٨) (طبقات ابن سعد) ج ٧ ق ٢ ص ١٤ .
(٩) (طبقات ابن سعد) ج ٧ ق ٢ ص ٢٣ .
(١٠) المصدر السابق . ج ٧ ق ٢ ص ١٨ .

لانس بن مالك ، وكان أبوه عبدا لانس من سبى عين تمر بميسان (١١) .

* وعطاء بن يسار (٩٤ هـ) . كان مولى لميمونة بنت الحارث الهلالية ، زوج الرسول عليه الصلاة والسلام (١٢) .

* وأبو محمد عمر بن دينار (١١٥ هـ) . كان من موالى جمح (١٣) .

* وهشام بن أبى عبد الله الدستوائى (١٥٣ هـ) من موالى بنى سدوس (١٤) .

* وأبو النصر سعيد بن أبى عروبة (١٥٧ هـ) . من موالى بنى عدى بن يشكر (١٥) .

* وأبو عبيدة حميد بن طرخان الطويل (١٤٢ هـ) . كان من موالى طلحة بن عبد الله بن خلف ــ (طلحة الطلحات) ــ من خزاعة (١٦) .

* وأبو يسار عبد الله بن أبى نجيح (١٣١ هـ) . كان من موالى ثقيف (١٧) .

---

(١١) المصدر السابق . جـ ٧ ق ٢ ص ١٤٠ ــ ١٥٠ و (المعارف) ص ٤٤٢ ، ٤٤٣ .

(١٢) (طبقات ابن سعد) جـ ٧ ق ٢ ص ١٣ ، ١٢٩ ، ١٣٠ .

(١٣) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٧٨ . و (المعارف) ص ٤٦٨ .

(١٤) (طبقات ابن سعد) جـ ٧ ق ٢ ص ٣٧ . و (المعارف) ص ٥١٢ .

(١٥) (طبقات ابن سعد) جـ ٧ ق ٢ ص ٣٣ . و (المعارف) ص ٥٠٨ .

(١٦) (طبقات ابن سعد) جـ ٧ ق ٢ ص ١٧ . و (المعارف) ص ٢٣٤ .

(١٧) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٧٩ .

* ومكحول الدمشقي (١١٣ هـ) . كان من سبي كابل ، مولى لامرأة من هذيل (١٨) .

* وغندر : محمد بن جعفر (١٩٤ هـ) . كان من موالي هذيل (١٩) .

* وأبو عبيدة عبد الوارث بن سعيد التنوري (١٨٠ هـ) . كان من موالي بني العنبر . من تميم (٢٠).

* وصالح المري ، كان من موالي بني مرة ، من عبد القيس (٢١) .

* وأبو عبد الله محمد بن اسحاق (١٥١ هـ ٧٦٨ م) كان مولى لقيس بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وكان جده من سبي عين تمر (٢٢) .

* وأبو خالد مسلم بن خالد الزنجي (١٨٠ هـ) . كان من موالي مخزوم (٢٣) .

* والعلاف ، أبو الهذيل محمد بن الهذيل (٢٣٥ هـ ٨٤٩ م) . كان من موالي عبد القيس (٢٤) .

* والنظام ، ابراهيم بن سيار (٢٣١ هـ ٨٤٥ م) . كان من موالي الزياديين (٢٥) .

* والجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ

---

(١٨) (طبقات ابن سعد) جـ ٧ ق ٢ ص ١٦٠ ، ١٦١ . و (المعارف) ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

(١٩) (طبقات ابن سعد) جـ ٧ ق ٢ ص ٤٩ .

(٢٠) (المعارف) ص ٥١٢ .

(٢١) (طبقات ابن سعد) جـ ٧ ق ٢ ص ٣٩ . و (المعارف) ص ٤٢٠

(٢٢) (المعارف) ص ٤٩١ ، ٤٩٢ .

(٢٣) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٨٠ .

(٢٤) (أمالي المرتضى) ق ١ ص ١٧٨ .

(٢٥) المصدر السابق . ق ١ ص ١٨٧ .

٨٦٨ م) . كان مولى لابن القلمس عمر بن قلع الكنانى ثم الفقيمى (٢٦) .

هذا نفر من أعلام المعتزلة الاوائل الذين كانوا من الموالى .

وجدير بالملاحظة كذلك أن عددا من هؤلاء الموالى كانوا « رواة » ، أى كانوا مؤرخين ، ومن هنا كان تعرضهم بالدراسة والنقد والتقييم لاحداث الصراع السياسى الذى عرفته الامة فى صدر الاسلام . فالحسن البصرى كان أبرز علماء التاريخ فى عصره ، حتى اشتهر بأنه العالم فى « الفتن والدماء » ، أى فى الثورات والحروب ، وكذلك اشتغل بالرواية : عمرو بن عبيد ، وهشام الدستوائى ، وحميد الطويل ، وعبد الله بن أبى نجيح ، ومكحول الدمشقى « الشامى » ، وعبد الوارث بن سعيد ، وغندر : محمد بن جعفر ، ومحمد بن اسحاق (٢٧) .

وفى الوقت الذى أدى انخراط الموالى فى حركة الشيعة الى ظهور الشعوبية فيها ، فكرا وعملا ، فان المعتزلة ، رغم هذا العدد من الموالى فى قيادتها ، لم تعرف الفكر الشعوبى ولا المواقف الشعوبية على الاطلاق ، وعلى العكس من ذلك قدم كثير من مفكريها مفاهيم جديدة عن العلاقات القائمة والتى يجب أن تقوم بين الشعوب التى تتكون منها الامة والجماعة المسلمة ، فتخطوا بهذه المفاهيم عصبيات العرق والجنس واللون ، وفضلوا العلاقات القائمة على التفاعل الحضارى ، وكانوا طلائع

---

(٢٦) المصدر السابق . ق ١ ص ١٩٤ .

(٢٧) انظر فهارس أعلام (تاريخ الطبرى) ففيها أسماء هؤلاء الرواة وغيرهم ..

المفكرين الذين قدموا مفهوم العروبة ، بالمعنى الحضارى والثقافى ، فى مواجهة معناها العرقى والقبلى ، فى نفس الوقت الذى هاجموا فيه فكر الشعوبية ومواقف الشعوبيين .

فالجاحظ ، مثلا ، وهو من الموالى ، يهاجم الشعوبية فيقول : « واعلم أنك لم تر قوما أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نصبا ، ولا أقل غنما ، من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكنادهم ، وتوقد نار الشنآن فى قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطرمة ، ولو عرفوا أخلاق كل ملة ، وزى كل لغة ، وعللهم فى اختلاف اشاراتهم وآلاتهم ، وشمائلهم وهيآتهم ، وما علة كل شيء من ذلك ، ولم اختلقوه ؟ ولم تكلفوه ؟ لاراحوا أنفسهم ، ولخفت مئونتهم على من خالطهم » (٢٨) .

كما يتحدث عن أثر التعايش والتفاعل بين الاجناس المختلفة ، والاشتراك فى اللغة والثقافة والولاء الحضارة الجديدة ، وكيف يثمر ذلك « أخلاقا وشمائل » جديدة ومتحدة ، وكيف تقوم هذه الروابط مقام النسب والولادة من رحم واحدة ، فيقول : ان العرب قد جعلت « اسماعيل ، وهو ابن اعجميين ، عربيا ، لان الله فتق لهاته (٢٩) بالعربية المبينة ، ثم فطره على الفصاحة ، وسلخ طباعه من طبائع العجم . وسواه تلك التسوية ،

(٢٨) (البيان والتبيين) جـ ٣ ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ · طبعة بيروت سنة ١٩٦٨ م ·

(٢٩) اللهاة : جزء من أقصى سقف الفم مشرف على الحلق ·

وصاغه تلك الصياغة ، ثم حباه من طبائعهم ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم ، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها فكان أحق بذلك النسب وأولى بشرف ذلك الحسب ... وأن العرب لما كانت واحدة فاستووا فى التربية وفى اللغة والشمائل والهمة وفى الانف والحمية، وفى الاخلاق والسجية ، فسبكوا سبكا واحدا ، وكان القالب واحدا ، تشابهت الاجزاء وتناسبت الاخلاط ، وحين صار ذلك أشد تشابها فى باب الأعم والاخص ، وفى باب الوفاق والمباينة من بعض ذوى الارحام ، جرى عليهم حكم الاتفاق فى الحسب ، وصارت هذه الاسباب ولادة أخرى ، حتى تناكحوا عليها وتصاهروا من أجلها ، وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بنى اسحق ، وهو أخو اسماعيل ، وجادوا بذلك فى جميع الدهر لبنى قحطان ، وهو ابن عابر (٣٠) ، ففى اجماع الفريقين على التناكح والمصاهرة ، ومنعهما من ذلك جميع الامم : كسرى فمادونه ، دليل على أن النسب عندهم متفق ، وأن هذه المعانى قد قامت عندهم مقام الولادة والارحام الماسة ، وان الموالي بالعرب أشبه ، واليهم أقرب ، وبهم أمس ، لان السنة جعلتهم منهم ... ان الموالى أقرب الى العرب فى كثير من المعانى ، لانهم عرب فى المدعى والعاقلة (٣١) ، وفى الوراثة ، وهذا تأويل قول الرسول : « مولى القوم منهم » و « مولى القوم من أنفسهم » و « الولاء لحمة كلحمة النسب » ، وعلى شبيه ذلك صار حليف القوم

(٣٠) عابر هو والد قحطان ، وابوه شالح بن ارفكشاد . كذلك جاء فى العهد القديم ، الاصحاح ١١ : ١٢ .

(٣١) العصبة ، وكان القاتل تتحمل عاقلته ، اى عصبته ، دية قتيله .

منهم ، وحكمه حكمهم ... واذا عرف ذلك سامحت النفوس ، وذهب التعقيد ومات الضغن ، وانقطع سبب الاستثقال ، ولم يبق الا التنافس » (٣٢) .

***

ومن القسمات التى امتاز بها المعتزلة أنهم كانوا فى الفكر العربى الاسلامى طلائع ذلك النوع من المفكرين الذين نسميهم « الفلاسفة الالهيون » .

فهم قد نشأوا ونشأت المعتزلة بعد الفتح واختلاط العرب بشعوب البلاد المفتوحة ، وتصادم الملل والنحل والمذاهب فى هذا المجتمع الجديد ، وكان للجدل الحر فى هذه البيئة سوق رائجة وأندية عديدة يتنافس على استضافتها فى قصورهم الخلفاء والامراء والولاة والاثرياء. ثم هم قد انحدر عدد كبير منهم من أصول غير عربية، ثم أصبحوا عربا ومسلمين بالفكر والثقافة والحضارة والولاء ، فجمعوا بين ميراث الشعوب المفتوحة ــ فى غير تعصب شعوبى ــ وبين اضافات الفكر القرآنى والاسلامى ومميزات العرب فى بساطة التفكير .

ولقد وجد المعتزلة أن السبيل الى نصرة العقائد الاسلامية فى صراعها مع النحل والمذاهب الاخرى يتطلب التسلح بذات الاسلحة التى يتسلح بها الخصوم ، وفى مقدمتها أسلحة الفلسفة اليونانية فى الجدل والبرهنة والحجاج . فدرسوا الفلسفة كى يدافعوا بها عن الدين ، وجمعوا بين الفكر الدينى الاسلامى وبين علوم الاوائل ، فكان لنا منهم ذلك المزيج الجديد من الفلاسفة الالهيين .

---

(٣٢) (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٢٩ ــ ٣١ ، ١١ ــ ١٤ ، ٣٤ .

وعلى حين كانت نقطة الضعف عند أهل السنة وخاصة اصحاب الحديث هى عجزهم أمام الخصـــوم ، لجهلهم بأسلحة الفلسفة التى رفضوا التسلح بها ، كان اقدام المعتزلة على ارتياد هذا المجال هو السبب فى قوتهم وقوة عارضتهم ، والعـامل الذى جعل منهم أبرز المدافعين عن الاسلام ، وكما يقول (جيوم) ، فان « قوة الحـــركة الاعتزالية مردها جهود أولئك الذين حاولوا أقصى ما فى طوقهم اقامة علم الـكلام الاسلامى على أسس ثابتة من الفلسفة ، مصرين فى الوقت نفســه على أن تـكون تلك الاسس منطقية ، ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة التى يجب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية»(٣٣) .

لقد حاول المعتزلة أن ينهضوا بالمهمـة الصعبة ، بل بأصعب المهام التى تطرح فى أى ثقافة من الثقافات . فمن السهل أن ينحو الانسان منحى يكتفى فيه عن الفلسفة بالدين ، أو العكس ، أما أن يجتهد كى تتدين الفلسفة ويتفلسف الدين ، دون تزيد أو احتلال أو تلفيق ، فتلك أصعب المهـــــام . وتلك هى المهمة التى ارتاد المعتزلة ميدانها فى حضارتنا العربية الاسلامية . وكما يقـــول الاستاذ الدكتـــــور مدكور فان « المعتزلة المخلصين لم يستخدموا العقل هذا الاستخدام المفرط ، وبذلوا جهدهم فى أن يوفقوا بينه وبين الدين ، وأن يردوا على شـــبه الزنادقة والملحدين بكل ما أوتوا من حجــة بينة وبرهان قاطع » (٣٤) .

---

(٣٣) الفريد جيوم (الفلسفة وعلم الكلام) بحث منشـــور بكتاب (تراث الاسلام) ص ٣٧٩ . ترجمة جرجس فتح الله طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

(٣٤) ابراهيم بيومي مدكور (فى الفلسفة الاسلامية) ص ٨٣ . طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨ م .

والحديث عن صعوبة تلك المهمة ليس من مكتشفات عصرنا الحديث ، الذى يدرك أهله صعوبة التوفيق بين الفلسفة والدين ، وانما المعتزلة أنفسهم قد اكتشفوها ، ومع ذلك ارتادوا ميدانها ، لادراكهم أن لا سبيل سواها لخلق التوازن لدى المفكر والمجتمع على السواء .

والجاحظ يتحدث عن هذه المهمة ، فيضع يدنا على نهج المعتزلة وسبيلهم عندما يقول فى عبارات جامعة يصف المتكلمين ، وما يجب أن يكونوا عليه ، فيقول : « .. وليس يكون المتكلم جامعا لاقطار الكلام ، متمكنا من الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة . والعالم عندنا هو الذى يجمعهما ، والمصيب هو الذى يجمع تحقيق التوحيد واعطاء الطبائع حقهـا من الاعمال . ومن زعم أن التوحيد لا يصلح الا بابطال حقائق الطبائع ، فقد حمل عجزه على الكلام فى التوحيد ، وكذلك اذا زعم أن الطبائع لا تصح اذا قرنها بالتوحيد ، ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام فى الطبائع . وانما ييأس منك الملحد اذا لم يدعك التوفر على التوحيد الى بخس حقوق الطبائع ، لان فى رفع أعمالها رفع أعيانها ، واذا كانت الاعيان هى الدالة على الله فرفعت الدليل ، فقد ابطلت المدلول عليه ، ولعمرى ان فى الجمـع بينهما لبعض الشدة ! . وأنا أعوذ بالله تعالى أن أكون كلما غمز قناتى باب من الكلام صعب المدخل ، نقضت ركنـا من أركان مقالتى ! ومن كان كذلك لم ينتفع به » ! (٣٥) .

---

(٣٥) (الحيوان) جـ ٢ ص ١٣٤ ، ١٣٥ . تحقيق عبد السلام هارون . طبعة القاهرة ، الثانية .

وقد يتبادر الى الذهن أن تلك الميزة قد جاءت الى المعتزلة متأخرة ، بعد أن ترجمت الفلسفة اليونانية على عهد العباسيين ، والمأمون بالذات . ولكن الحقيقة تدعو الى القول بأن هذه الميزة قد تدعمت ونمت بترجمة فلسفة اليونان ، غير أن المعتزلة ، ومن قبلهم أسلافهم من أهل العدل والتوحيد ، حتى قبل الانشقاق المعتزلى ، قد امتازوا بالنظر الفلسفى فى أمور الدين منـــذ نشأتهم الاولى ، فهذه السمة كانت لهم منذ النشأة الاولى . فهم تيار العقل فى الفـــكر الاسلامى حتى قبل حركة الترجمة عن اليونان وغيرهم من القدماء . فكتاب الطبقات يصـــفون الحسن بن محمـــد بن الحنفية ـ أستاذ غيلان الدمشقى بقولهم : « .. وكان من ظرفاء بنى هاشم وأهل العقل منهم ! » (٣٦) .

ومعبد الجهنى (٨٠ هـ)وأتباعه ، وهو الذى اجمع الرواة على أنه أول من تكلم بالقدر فى البصرة ، يصف خصومه طريقته وطريقة أتباعه فى البحث عن الحقيقة فيقولون : « انه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ، ويتقفرون العـــلم » (٣٧) أى يطلبونه ، ويتتبعونه ، ويجمعونه ، ويبحثون عن غامضـــــه ، ويستخرجون خفية ! .

فهو موقف قديم ، ونهج عريق ، وقسمة أصيلة من قسمات أهل العدل والتوحيد .

ولقد نبعت هذ القسمة الاعتزالية من مكانة العقل عنـــــدهم ، والمركز الذى احلوه اياه اذا ما قيس بالنصوص والمأثورات .

---

(٣٦) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٦٧ .

(٣٧) (صحيح مسلم) بشرح النووى ج ١ ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

وفى الحق ، فان مقام العقل عند المعتزلة هو صفحة من الصفحات المشرقة فى حضارة العرب والمسلمين ، ان لم يكن أكثر هذه الصفحات شرفا وتشريفا . فالعقل عندهم هو « وكيل الله » عند الانسان ، جعل اليه ازمة اموره (٣٨) وقيادة نشاطاته . وهم يطلبون أن يدعم الانسان عقله الغـــريزى بعقله المكتسب ، فذلك هو السبيل لبلوغ غاية الكمال (٣٩) .

وعندما يعرض المعتزلة للأدلة وترتيبها ، يختلفون اختلافا أصيلا عن أصحاب الحـــديث وأهل السنة فى تعداد هذه الادلة وترتيبها ، فهى عند أهل السنة : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، على هذا الترتيب . بينما هى أربعة عند المعتزلة ، يضيفون العقل الى هذه الثلاثة، ويقدمونه عليها جميعا ، بل ويرون أنه الاصل فى جميع هذه الادلة . يقولون :

« الادلة ـ أولها : دلالة العقل ، لان به يميز بين الحسن والقبيح ، ولان به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة ، والاجماع . وربمـــا تعجب من هـــذا الترتيب بعضهم ، فيظن أن الادلة هى الكتاب ، والسنة، والاجماع ، فقط ، أو يظن أن العقل اذا كان يدل على امور فهو مؤخر ، وليس الامر كذلك ، لان الله تعالى لم يخاطب الا أهل العقل ، ولان به يعرف أن الكتاب حجة وكذلك السنة والاجماع ، فهو الاصل فى هـــذا الباب . وان كنا نقول : ان الكتاب هو الاصل من حيث

---

(٣٨) (رسائل الجاحظ) جـ ١ ص ٩٢ .
(٣٩) المصدر السابق جـ ١ ص ٩٦ .

ان فيه التنبيه على ما فى العقول ، كما أن فيه الادلة على الاحكام . وبالعقل يميز بين احكام الافعال وبين احكام الفاعلين ، ولولاه لما عرفنا من يؤاخذ بما يتركه او بما يأتيه ، ومن يحمد ومن يذم ، ولذلك تزول المؤاخذة عمن لا عقل له . ومتى عرفنا بالعقل الها منفردا بالالهية ، وعرفنا حكيما ، نعلم فى كتابه أنه دلالة ، ومتى عرفناه مرسلا للرسول ومميزا له بالاعلام المعجزة من الكاذبين ، علمنا أن قول الرسول حجة . واذا قال صلى الله عليه وسلم : « لا تجتمع أمتى على خطأ ، وعليكم بالجماعة » . علمنا أن الاجماع حجة (٤٠) .

فالعقل هو أول الادلة ، وليس ذلك فقط ، بل هو أصلها الذى به يعرف صدقها ، وبواسطتها يكتسب الكتاب والسنة والاجماع قيمة الدليل وحجيته .

وكذلك الحال فى معرفة الاصول الشرعية ، اذ يرى المعتزلة أن العقل هو سبب معرفة هذه الاصول ، بل سببها شبه الوحيد ، لاننا لا نحتاج معه فى معرفتها الا الى حذق اللسان العربى عندما يتعلق الامر بحجج السمع خاصة . يقولون : أما وقد « ثبت وجوب النظر فى الاصول الشرعية ، فالسبب المؤدى الى معرفتها والعمل بها شيئان :

أحدهما : علم الحس ، وهو العقل ، لان حجج العقل ، أصل لمعرفة الاصول ، اذ ليس تعرف الاصول الا بحجج العقول .

والسبب الثانى : فى معرفة الاصول الشرعية : معرفة

(٤٠) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٢٧ .

لسان العرب ، وهو معتبر فى حجج السمع خاصة(٤١)».

وهذه المكانة العالية التى وضع المعتزلة العقل فيها ، وتقديمهم له على غيره من الادلة ، أدلة المعرفة الدينية ، ما تعلق منها بالاصول أو بالفروع ، قد قادت المعتزلة الى حيث تميزوا عن أهل السنة وأصحاب الحديث فى الموقف من نوع العلاقة بين « المعقول » و « المنقول » ، وايهما الاصل والاساس ؟ ومن منهما الذى جاء بيانا وتفصيلا للثابت والاولى والاصيل ؟؟ . وهذه القضية قد عرض لها القوم فى مجالات عدة ، من أشهرها قضية : الحسن والقبح ، هل هما ذاتيان ، أى يدركان بالعقل دون توقف على النص والمأثور — ؟ وهو مذهب المعتزلة — أو أن الشىء حسن أو قبيح لان هناك نصا يقول لنا : ان هذا حسن وهذا قبيح ؟ — وهو موقف أهل السنة وأصحاب الحديث .

لقد اعتمد المعتزلة على العقل .. ووثقوا بحكمه فى التحسين والتقبيح دونما حاجة الىالنصوص والمأثورات، بل وأوجبوا عرض هذه النصوص والمأثورات على العقل ، فهو الحكم الذى يميز صحيحها من منحولها ، ولا عبرة بالرواة ورجالات السند ، مهما كانت هالات القداسة التى أحاطها بهم المحدثون ، انما العبرة بحكم العقل فى هذا المقام .

وهذا التقديم للعقل وبراهينه على النقل ونصوصه قاد المعتزلة الى القول بأن الشرع لم يأت ، بما يخالف العقل ، بل ان ما جاء به اما ان يكون واجبا بالعقل أو جائزا فى نظره .. « فلم يرد الشرع الا بما أوجبه

(٤١) (أدب القاضى) جـ ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

العقل أو جوزه ، ولم يرد بما حظره العقل أو أبطله »
واحتجوا على ذلك بأن أدلة الشرع وأمثاله لا يعقلها الا العالمون وذو العقول والنهى ، وهذا هو المراد بقوله سبحانه : « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » (٤٢) ، وبقوله تعالى : « ان فى ذلك لآيات لأولى النهى » (٤٣) . وهكذا كانت حجج العقل وبراهينه قاضية على حجج السمع وحاكمة فى أمرها ، أى ــ بعبارتهم ــ « صارت حجج العقول قاضيا على حجج السمع ، ومؤدبة على علم الاستدلال ، ولذلك سمى كثير من العلماء العقل : بأم الاصول » (٤٤) .

واذا كان مستحيلا ، عند المعتزلة ، ان يأتى الشرع بما يحيله العقل أو يبطله ، فما وظيفة الشرع اذن ؟ ان وظيفته أن يفصل ما هو مجمل فى العقل ، ويقرر ما هو مركب فيه ، ويؤكد ما أودعه فيه الخالق سبحانه ، ذلك « أن ما تأتى به الرسل لا يكون الا لتفصيل ما تقرر جملته فى العقل .. ان وجوب المصلحة وقبح المفسدة متقرر فى العقل ، الا أننا لما لم يمكننا أن نعلم ، عقلا ، أن هذا الفعل مصلحة وذلك مفسدة ، بعث الله الينا الرسل ليعرفونا ذلك من حال هذه الافعال ، فيكونوا قد جاءوا بتقرير ما قد ركبه الله تعالى فى عقولنا ، وتفصيل ما قد تقرر فيها . وصار الحال فى ذلك كالحال فى الاطباء ، اذا قالوا : أن هذا البقل ينفع وذلك يضر ، وكنا قد علمنا قبل ذلك أن دفع الضرر عن النفس واجب وجر النفع الى النفس حسن ، فكما لا يكون ، والحال

(٤٢) العنكبوت : ٤٣ .
(٤٣) طه :٥٤ ، ١٢٨ .
(٤٤) (ادب القاضى) ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

ما قلناه ، قد أتوا بشيء مخالف للعقل . فكذلك حال هؤلاء الرسل » (٤٥) .

كما رفض المعتزلة اتخاذ النقل ، من دون العقل . سبيلا للمعرفة ، كذلك رفضوا طريق التقليد ، لان التقليد كما يكون فى الحق يكون فى الباطل . وكما يكون فى الصحيح يكون فى الفاسد ، وكما يكون فيما ثبت بالدليل يكون فيما لا دليل عليه ، فالتقليد ، عندهم « ليس بطريق للعلم ، لان الباطل كالحق فى ذلك » (٤٦) وهذا معلم هام من المعالم المميزة بينهم وبين أهل السنة وأصحاب الحديث .

وكان لابد للمعتزلة ، وهذا هو مقام العقل عندهم ، أن يعرضوا للموقف من السنة المروية فى كتب الاحاديث، لان الباحث عن القضايا الخلافية فى تراثنا الاسلامى لابد واجد الاحاديث المتعارضة والمتناقضة المروية ، وبالاسانيد المعتمدة ، فى كل قضية من هذه القضايا .

فهناك الاحاديث التى تفضل أبا بكر على جميع الصحابة ، وتلك التى تفضل عليا عليهم ، وأخرى تفضل عليهم عمر بن الخطاب .

وهناك الاحاديث التى تفضل العرب ، وتلك التى تفضل الفرس ، وأخرى تمدح المصريين وتتحدث عن خصائصهم فى الجندية مثلا .. الخ .

وهناك أحاديث الوصية والنص فى الامامة : بعضها ينص على على .. وبعضها على أبى بكر .. وبعضها على

---

(٤٥) (شرح الاصول الخمسة) ص ٥٦٥ . وانظر كذلك (أدب الدنيا والدين) ص ٩٤ .

(٤٦) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٧٠ .

العباس بن عبد المطلب .. الخ .. الخ .. ومن ثم كان لابد للمعتزلة ،وهذا مقام العقل عنـدهم ، وذلك هو موضعه من النصوص والمأثورات المروية ـ وهو موضع القاضي والحاكم ـ كان لابد لهم من التعرض للموقف من الحديث .. وهم عندما عرضوا لهذه الجزئية ، قرروا عدة مبادىء ، من أهمها :

١ ـ التنبيه الى أن هنـاك الـكثير من الاحاديث الموضوعة والمنحولة ، والتى نسبت زورا وكذبا لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، ورووا عن « شعبة » ـ وهو الذى يقال : أنه أمير المؤمنين فى الحديث ـ انه قال : « ما أنا من شيء أخوف منى أن يدخلنى النـار من الحديث . لا تكاد تجد أحدا فتش هذا الحـديث تفتيشي ، وقد نظـرت فيه فوجـدت لا يصح منه الثلث ! » (٤٧) .

٢ ـ التنبيه الى انه ليس معنى ان الرسول قد قال هذا الحديث ، وأن الراوى قد سمعه منه ، أن الاستدلال به صحيح ، فهناك الملابسات التى قيل فيها الحديث ، والظروف التى قيل لاجلها ، والراوى قد يصدق فى الرواية ولكنه لا يضع الحديث فى موضعه ، لان كتب الحديث قد صنفت الاحاديث تصنيفا موضوعيا ، ولم تحفل ، فى الغالب ، بما يقـابل أسباب النزول فى القرآن ، وهى أسباب قول الحديث وظروف التحدث به ويروى المعتزلة عن عروة بن الزبير قوله فى ابى هريرة « .. وهو يحدث الحديث الكثير : صدق ، وكذب !

---

(٤٧) المصدر السابق . ص ١٨١ .

فقيل له : ما المراد بذلك ؟ فقال : أما أن يكون سمع بذلك من النبى فلا شك فيه ، ولكن منهـا ما وضعه على موضعه . ومنها ما لم يضعه فى موضعه » (٤٨) .

٣ ـ انهم ، وقد قدموا دليل العقل على دليل الكتاب والسنة والاجماع ، يطلبون عرض الاحاديث على الكتاب، فما وافق القرآن قبلناه ، وما خالفه وخالف السنة العملية رفضناه ، ويروون ، فى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « سيأتيكم عنى حديث مختلف ، فما وافق كتاب الله تعالى وسنتى فهو منى ، وما كان مخالفا لذلك فليس منى » .. (٤٩) .. كما يرون قوله : « سيفشو الكذب بعدى ، فما جاءكم من الحديث فأعرضوه على كتاب الله » (٥٠) .

٤ ـ يميزون ما بين الاحاديث التى موضوعها الدين والعقائد ، وتلك التى موضوعها السنة العملية ، فيرفضون الاستدلال بأحاديث الآحاد ـ والاغلبية الساحقة من الاحاديث أحاديث آحاد ـ على أمور الدين والعقائد ، ويقبلون الاستدلال بها فى العمليات .. « لان ما طريقه الدين لا يجب قبول خبر الواحد فيه أصلا » (٥١) .

٥ ـ المعتزلة لا يكرهون للعلماء أن يطلبوا الحديث ويشتغلوا بصناعته .. ولكنهم فى ذات الوقت لا يوجبون طلبه والاشتغال به ، لان طلبه هو من فروض الكفايات ، بل يقولون : « أن السعيد فيه قد كفى بغيره ؟! » ، فاذا

(٤٨) المصدر السابق . ص ١٥١ .
(٤٩) المصدر السابق . ص ١٨١ ، ١٨٢ .
(٥٠) (رسائل الجاحظ) جـ ١ ص ٢٨٧ .
(٥١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٨٢ .

حدث وطلبه المرء واشتغل به فانهم يوجبون عليه « ان يميز بين الذى يجوز أن يصح ، ويصح تأويله اذا لم يصح ظاهرا ، وبين ما ليس هذا حاله » (٥٢) .

٦ ـ انهم ، وقد جعلوا العقل هو الحكم والقاضي على صحة المرويات والمأثورات ، يحذرون من الاغترار بأسماء رجال السند ورواة الحديث ، فالعبرة بحكم العقل على هذا النص المروى ، لا بالهالات التى أحاطت بالرواة ، فقد يتحد حديثان فى رجل السند الراوى ، ولكن العقل يقبل أحدهما ويصححه بينما يرفض الثاني ويطرحه .

ولقد حدث بين أبى على الجبائى (٢٥٥ ـ ٣٠٣ هـ) وبين معاصر له يدعى « التركاني » محاورة حول الموقف من حديثين اتحدا فى السند والراوى ، فرفض الجبائى احدهما وصحح الآخر .

قال التركاني لابى على : يا أبا على ، ما تقول فى حديث ابى الزناد ـ عبد الله بن ذكوان القرشي (١٣٠ هـ) ـ عن الاعرج عن أبى هريرة أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال : لا تنكح المراة على عمتها ولا على خالتها » .

فقال أبو على : هو صحيح .

قال التركاني : فبهذا الاسناد جاء حديث : « ان موسى لقى آدم فى الجنة ، فقال : يا آدم ، انت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، واسكنك جنته ، واسجد لك ملائكته ، افعصيته ؟ فقال آدم : يا موسى ، اترى هذه المعصية فعلتها انا ؟ ام كتبها الله على قبل ان اخلق بألفى عام ؟ قال موسى : بل شيء كان كتب عليك ، قال : فكيف

---

(٥٢) المصدر السابق . ص ١٨٢ .

تلومنى على شيء كان قد كتب على ؟ .. فحج آدم موسى » .. ــ (والحديث ينتصر للجبر ضد الاختيار) ــ

فقال أبو على : هذا باطل .

قال التركانى : حديثان ، باسناد واحد ، صححت احدهما وأبطلت الآخر ؟!

فقال أبو على : ما صححت هذا لاسناده ، وأبطلت ذلك لاسناده ، وانما صححت هذا لوقوع الاجماع عليه ، وأبطلت ذلك لان القرآن يدل على بطلانه ، واجمـــاع المسلمين ، ودليل العقل .. وانما أبو هريرة رجل من المسلمين .

قال التركانى : كيف ذلك ؟

فقال أبو على : أليس فى الحديث أن موسى لقى آدم فى الجنة ، فقال : يا آدم ، أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ــ (الخ الحديث) ــ .. أفليس الحديث هكذا ؟

قال التركانى : بلى .

فقال أبو على : أفليس اذا كان ذلك عذر لآدم ، يجب أن يكون عذرا لكل كافر وعاص ؟! وأن يكون من لامهم محجوجا ؟! .؟

فخرس التركانى : وكف عن الجدال (٥٣) .

ذلك هو موقف المعتزلة من مأثورات الحديث ، وهو موقف يمثل مدرسة فى نقد النصوص ودراستها تستحق بحثا مفصلا ، وخاصا .

والدليل على أن هذا الموقف النقدى من الاحاديث ،

---

(٥٣) المصدر السابق . ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ . و (باب ذكر المعتزلة) ص ٤٦ .

الذى وقفه المعتزلة ، انما كان ثمرة لموقفهم من العقل ، تقديمه على كل الادلة وسبل المعرفة الاخرى ، أن المعتزلة قد اهتموا بالحديث وعنوا به ، رواية ودراسة وشرحا.

فأعلامهم الاول الذين اشتغلوا بالرواية للقصص والسيرة والتاريخ ، رووا الحديث كذلك .. وفى البخارى ومسلم احاديث كثيرة رواها رواة معتزلة ، من أمثال :

١ ــ بشر بن السرى .
٢ ــ وثور بن زيد المدنى .
٣ ــ وثور بن زيد الحمصى .
٤ ــ وحسان بن عطية المحاربى .
٥ ــ والحسن بن ذكوان .
٦ ــ وداود بن الحصين .
٧ ــ وزكريا بن اسحق .
٨ ــ وسالم بن عجلان .
٩ ــ وسلام بن عجلان .
١٠ ــ وسلام بن مسكين .
١١ ــ وسيف بن سليمان المكى .
١٢ ــ وشبل بن عباد .
١٣ ــ وشريك بن ابى نمر .
١٤ ــ وصالح بن كيسان .
١٥ ــ وعبد الله بن عمرو .
١٦ ــ وعبد الله بن ابى لبيد .
١٧ ــ وعبد الله بن ابى نجيح .
١٨ ــ وعبد الاعلى بن عبد الاعلى .
١٩ ــ وعبد الرحمن بن اسحق المدنى .
٢٠ ــ وعبد الوارث بن سعيد التنورى .

٢١ ــ وعطاء بن أبى ميمونة .
٢٢ ــ والعلاء بن الحارث .
٢٣ ــ وعمرو بن أبى زائدة .
٢٤ ــ وعمران بن مسلم القصير .
٢٥ ــ وعمير بن هانىء .
٢٦ ــ وعوف الاعرابى .
٢٧ ــ وكهمس بن المنهال .
٢٨ ــ ومحمد بن سواء البصرى .
٢٩ ــ وهارون بن موسى الاعور النحوى .
٣٠ ــ وهشام الدستوائى .
٣١ ــ ووهب بن منبه .
٣٢ ــ ويحيى بن حمزة الحضرمى .

ومن هؤلاء الرواة المعتزلة من وردت احاديثه فى كتب السنة الستة ، ومنهم من روى عنه أحمد بن حنبل ، امام أصحاب الحديث (٥٤) .

فالمعتزلة لم يهملوا الحديث ، وان لم يشتهروا بصناعته ، وكما يقول القاضى عبد الجبار : « وأما ظن من يظن فى اصحابنا أنهم ليسوا من أهل الحديث ، فليس كما قاله ، وذلك كظن بعضهم أنهم ليسوا من أهل الفقه . وانما أتى هذا القائل من أجل أنهم لم يشهروا أنفسهم بالفقه ، وتوفروا على ما هو ، عندهم ، أجدى فى الدين من ذلك ، وكذلك القول فى طلبهم الحديث » (٥٥) !

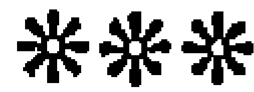
انه أثر لسيادة العقل وتقدمه عندهم على جميع الادلة، فمقامه أولا ، ثم يأتى : الكتاب ، والسنة ، والاجماع .

---

(٥٤) (تاريخ الجهمية والمعتزلة) ص ٥٧ ، ٥٨ .
(٥٥) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٨٣ .

ولقد كان طبيعيا لمن يقدمون العقل فى أمور الدين أن يقدموه فى أمور الدنيا ، وأن يكون هو الاساس والعماد فى كل ما يتعلق بهما جميعا . وكما يقول الماوردى : « فان لكل فضيلة أسا ، ولكل أديب ينبوعا ، وأس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل ، الذى جعله الله تعالى للدين أصلا وللدنيا عمادا ، فأوجب التكليف بكماله ، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه ، وألف به بين خلقه ، مع اختلاف هممهم ومآربهم ، وتباين أغراضهم ومقاصدهم ، وجعل ما تعبدهم به قسمين : قسما وجب بالعقل ، فأكده الشرع ، وقسما جاز فى العقل ، فأوجبه الشرع ، فكان العقل لهما عمادا » (٥٦) .

ذلك هو مقام العقل عند المعتزلة ، قدموه وسودوه ، وكان تقديمه وسيادته قسمة من القسمات التى امتاز بها عن غيرهم ، أو أكثر من غيرهم ، من فرق الاسلام .



وما كان لقوم هذا مقام العقل عندهم ومكانه من المأثورات أن يشيع مذهبهم وتنتشر أفكارهم ونظرياتهم بين عامة الناس وجماهيرها ، ذلك لان الاستعانة بالعقل وتسويده من قبل الفلاسفة الالهيين انما تأتى بحكم الضرورة التى تقتضيها طبيعة المباحث وصعوبتها واباؤها الاستقامة مع ظاهر المرويات ومألوف المأثورات . ومن هنا كان المعتزلة فقراء فى الجمهور والاتباع اذا ما قيسوا بأهل السنة وأصحاب الحديث ، لانهم كانوا ،فى مجتمعهم، أشبه ما يكون « بالارستقراطية الفكرية » التى تمارس

(٥٦) (أدب الدنيا والدين) ص ١٩ .

صناعة وتحترف مهنة صعبة الفهم على الجمهور . لقد كان « المتكلمون » يمثلون الخاصة بالنسبة للعامة ، وكان المعتزلة خاصة المتكلمين ؟! .

والجاحظ يشير الى ذلك عندما يقول : « انه لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الامم ، ولولا مكان المعتزلة لهلك المتكلمون من جميع النحل ! » (٥٧) .

واذا كانت الحقائق مبذولة للجميع بين دفتي الكتب . يستطيع الاطلاع عليها العام والخاص ، فان الفهم والوعي بهذه الحقائق لا يتأتى الا للخاصة الذين لهم من «الطبيعة» ما ليس لغيرهم من الناس ، وعند النظام : « أن الكتب لا تحيي الموتى ، ولا تحول الاحمق عاقلا ، ولا البليد ذكيا ، ولكن الطبيعة اذا كان فيها ادنى قبول ، فالكتب تشحذ وتفتق ، وترهف وتشفي ! » .

وهذا الموقف الواعي بطبيعة مباحث الكلام وصعوبتها يملي عليه الدعوة الى التخصص ، لان من شاء أن يعلم كل شيء فهو ولا شك مريض يستحق العلاج ، وعلى المرء أن يختص ببعض الفنون يوسعها بحثا واستقصاء حسب قدراته ، ثم يحيط علما بالضروري من المعارف والفنون الاخرى « فيكون عالما بخواص ، ويكون غير غافل عن سائل ما يجري فيه الناس ويخوضون فيه ! » (٥٨) .

ولقد اتخذ خصوم المعتزلة من قلة عدد أتباعهم دليلا على بطلان مذهبهم ، وعلى أنهم مفارقون « للجماعة » . وردت المعتزلة ذلك الطعن بتقديم مفهوم آخر لمعنى

---

(٥٧) (الحيوان) جـ ٤ ص ٢٠٦ .
(٥٨) المصدر السابق . جـ ١ ص ٥٩ ، ٦٠ .

الجماعة غير مفهوم العدد الكثير ، فقالوا : ان المراد بالجماعة هو ما اجتمعت عليه الامة ، وثبت ذلك من اجماعها ، أما ما لم يثبت اجماعها عليه ، فليس أهله بالجماعة حتى ولو كانوا الاكثرين عددا . ورووا فى هذا المقام عن ابن مسعود قوله : الجماعة ما وافق طاعة الله ، وان كان رجلا واحدا ! . وعن على بن أبى طالب قوله : الجماعة مجامعة أهل الحق وان قلوا ، والفرقة متابعة أهل الباطل وان كثروا ! . كما استشهدوا بمدح القرآن للقلة وتقديمه لها على الكثرة فى مواطن كثيرة عبرت عنها آياته :(وما آمن معه الا قليل) (٥٩) و (قليل ما هم) (٦٠) و (مافعلوه الا قليل منهم) (٦١) (وما وجدنا لاكثرهم من عهد) (٦٢) و (وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله) (٦٣) و (ولكن أكثرهم لا يعلمون) (٦٤) .

كانوا ، اذن ، « أرستقراطية فكرية » ، حكمت بأن « الكثير قد يقع منهم الخطأ ، ومن القليل الصواب » (٦٥) .

ولكن هذه « الارستقراطية » التى تمثلت فى المعتزلة، كفلاسفة الهيين ، كانت « فكرية » ، ولم يكن مصدرها ولا مصدر شرفها « حسب » ولا « نسب » ولا « ثروة » ولا (سلطان) . فالفكر ، والامتياز فيه ، هو الذى رفع

---

(٥٩) هود : ٤٠

(٦٠) ص : ٢٤ .

(٦١) النساء : ٦٦ .

(٦٢) الاعراف : ١٠٢ .

(٦٣) الانعام : ١١٦ .

(٦٤) الطور : ٤٧ .

(٦٥) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٧٣ ـ ١٧٧ .

هؤلاء الرجال ، موالى وعربا ، من صفوف العامة الى صدر الخواص فى ذلك المجتمع ، وتلك حقيقة تثير السؤال عن موقف المعتزلة من العامة والجماهير فى المجتمع الذى عاشوا فيه ؟ فهذه العامة وهؤلاء الجماهير كانوا وقود كثير من الفتن والهياج اللذين قادهما أهل السنة وأصحاب الحديث فى صراعهم الفكرى والسياسى ضد المعتزلة ، وكانت العامة كذلك جيش التدين بالعقائد التى هاجمها المعتزلة ، وخاصة عقائد الجبر والتشبيه ، وما تفرع عن التشبيه من القول بقدم القرآن ، ورؤية الله . الخ . الخ .

والمعتزلة يقولون : انهم كثرة بالنسبة لخاصة الناس وعلمائهم وأهل الحذق والرأى منهم ، ولكن أتباعهم من العامة قليل بالقياس الى أتباع خصومهم من هؤلاء العوام . ويرجعون ذلك الى دور سلطة بنى أمية وسلطانهم فى نشر عقيدتى الجبر والتشبيه ، والى الارهاب الذى قام به الامويون ضد أوائل المعتزلة وأهل العدل والتوحيد ، من أمثال : غيلان الدمشقى ، والحسن البصرى . وواصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، مما جعل الكثيرين من أعلامهم يؤثرون اعتزال دوائر السلطة والسلطان ، ويبتعدون عن كثير من المجتمعات « فاستمر ذلك الانقباض ، وقلت العوام فى الاعتزال لهذا السبب »(٦٦) .

ولقد ساعد على كثرة العوام فى الفرق التى ناهضت المعتزلة ، وخاصة أهل الجبر والتشبيه ، ان قادة هذه الفرق قد أشاعوا الافكار الملائمة لمدارك العامة الساذجة

(٦٦) المصدر السابق . ص ٣٧٣ .

والبسيطة ، بقصد كسب الانصار والاعوان ، « وأملوا أن ينالوا بذلك بشاشة العامة ، وتستوى لهم الرياسة على طغام الناس ورعاعهم (٦٧) » . ولقد عرفوا أن العامة يسهل استحواذ الفتنة عليهم ، وأنهم أميل الى التقليد . « لا يدينون بالحقيقة ، ولا يحمدون الا ظاهر الحلية (٦٨) » ، فاستغلوا ذلك فيهم ، ودخلوا لهم من هذه الابواب .

والجاحظ يتحدث فيستعرض تاريخ المعتزلة وفكرهم وتنظيمهم مع العامة ، فيقول : انه قد جاء حين من الدهر استطاع خصوم المعتزلة فيه ـ بواسطة جهلة الملوك ، والعوام والسفلة والطغام ـ أن يخيفوا علماء الكلام من المعتزلة ، بل وان يسقطوا « شهادات الموحدين » ـ أى أهل التوحيد (المعتزلة) ـ ... ثم دالت دولة هؤلاء الخصوم ، « ووضع الله من عزهم ، ونقص من قوتهم » فتحول رجال من أعلامهم وقادتهم الى صف المعتزلة ، وتردد وارتاب فى عقائدهم منهم آخرون ، ولجأ فريق منهم الى منافقة أهل العدل والتوحيد ... ولكنه يحذر من أن قوة هؤلاء الخصوم لا تزال كبيرة ، وأن عددهم لا يزال على ما كان عليه من الكثرة « فان عدد الجماجم على حاله،وضمير أكثرهم على ما كان عليه ، والذين ماتوا قليل من كثير ؟! ، ونحن لا ننتفع بالمنافق ! ولا نستعين بالمرتاب ، ولا نثق بالجانح . وان كانت المباداة قد نقصت فان القلوب أفسد ما كانت ! . وهم اليوم الى المنازعة اميل ، وبها أكلف ! (٦٩) » .

---

(٦٧) (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٣٣٩ .

(٦٨) المصدر السابق . ح ٢ ص ١٩٦ .

(٦٩) المصدر السابق ج ١ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٨ .

أما السبيل الذى يراه المعتزله كفيلا بتجنب أضرار العامة وتقليل آثار فتنتها على الفكر وأهله فيتلخص فى تحقيق أمرين :

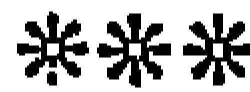
والهما : الابتعاد بالعامة عن التدخل فى شئون الخاصة الفكرية ، وقصر اهتماماتهم على صنائعهم وحرفهم ، والتخطيط لتفرقتهم والحيلولة دون اجتماعهم ، ويروون فى هذا الامر عن واصل بن عطاء قوله : « ان العامة ما اجتمعوا الا ضروا ، ولا تفرقوا الا نفعوا ... فقيل له : قد عرفنا مضرة الاجتماع ، فما منفعة الافتراق ؟ . قال : يرجع الطيان الى تطيينه ، والحائك الى حياكته ، والملاح الى ملاحته ، والصائغ الى صياغته ، وكل انسان الى صناعته ، وكل ذلك ترفق للمسلمين ، ومعونة للمحتاجين » .

وثانيهما : العمل على كسب ود العامة بواسطة كسب ود قادتها ، الذين هم عادة ، أعلى منها مستوى ، وادنى من الخاصة وأهل المعرفة . فوجود هؤلاء القادة فيه « صمام أمن » يسهل عملية السيطرة على هؤلاء العامة وكبح جموحهم . فهناك غاية يسعى اليها المعتزلة وهى حرمان خصومهم من قوة العامة التى يستخدمونها ، والسعى لتحويل هذه القوة لخدمة فكرهم هم ، ولما كانت العامة أعجز من أن تتفهم فكر المعتزلة « الفلسفى ـ الالهى » ، فان السبيل الي تحقيق هذه الغاية هو كسب تأييد قادة العامة من « أنصاف المثقفين » ـ بتعبيرنا المعاصر ـ !

والجاحظ يتحدث عن هذه القوة الخطرة التى يحاولون السيطرة عليها فيقول : « .. والعوام اذا كانت نشرا

فأمرها أيسر ، ومدة هيجها أقصر . فاذا كان لهـــا رئيس حاذق ومطاع مدبر ، وامام مقلد ، فعند ذلك ينقطع الطمع ، ويموت الحق ، ويقتل المحق ! . فلولا أن لهم متكلمين ، وقصاصا متفقهين ، وقوما قد باينوهم فى المعرفة بعض المباينة ، لم يلحقوا بالخاصة ، ولا بأهل المعرفة التامة ، ولكنا كما نخافهم نرجوهم ، وكما نشفق منهم نطمع فيهم ! .. (٧٠) » .

فنحن بازاء مشكلة المشكلات الجـــادة التى واجهت المعتزلة عندما لم تكن لهم دولة وعنـــدما أصبحت لهم دولة . مشكلة اتقاء أخطار العامة الذين كانوا وقودا فى الصراع الذى دار بين المعتزلة ، كأرستقراطية فكرية ، لا يتفهم الجمهور فكرها ، ولا تستسيغ العـامة ثمرات نظرها ، وبين خصومهم الذين كانوا أهل حشو وأنصار جبر وتشبيه .



وقبل أن نختم هذا الفصل الذى حاولنا فيه البحث عن وضع المعتزلة فى الحياة الفكرية ، وماذا كانوا يمثلون ؟ لابد أن يبرز ذلك السؤال : جماهير هذه الفرقة التى لعب الموالى ، غير الشعوبيين ، فيهـــا دورا بارزا ورئيسيا ، والتى كان فكرها طليعة الفكر القـــــومى والمباحث العقلية فى الفكر الاسلامى ، ماذا كانوا يمثلون اجتماعيا بين طبقات الامة وفئاتها ؟ . ان التفكير العقلى ، والايمان بالعقل ، وتقديم براهينه على ظواهر النصوص

(٧٠) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٨٣ .

المأثورة هى سمات تنفر منها مثلا حياة البدو النازعة الى البساطة والسذاجة ، كما تنفر منها البيئة الزراعية التى تروج فيها الخرافة ويشيع فيها الايمـــــان بالخوارق واللامعقول . فهـــل كان للمعتزلة ، رجالا وتنظيما ، وللبيئة التى عاشوا فيها ، وخاصة المدن التى غلب عليها فكرهم وشاعت فيها أصولهم علاقة اجتماعية ، مثلا ، بالحرف والصناعات والتجارة التى تؤهل أصحابها ، فى مثل تلك المجتمعات والبيئات ، لان ينزعوا الى العقـل والعقلانية أكثر مما تؤهل لذلك بيئة البدو وحياة الزراعة والريف ؟ وبالتحديد : هل الطابع التجارى والصناعى والحرفى ملحوظ فى صفوف المعتزلة وبالذات فى بيئاتهم والمواطن التى انتشر فيها فـــكرهم ؟ وهل نستطيع أن نقول : ان أصحاب هذه النزعة العقلية كانوا متميزين اجتماعيا ، وأن هذا الوضع الاجتماعى المتميز كان أحد العوامل التى ميزتهم ذلك التميز الفكرى الذى أشرنا الى أبرز قسماته ؟؟

ان الاجابة على هذا السؤال تصطدم بندرة الحقـائق والوقائع والمعـــــلومات . فالتأريخ للمعتزلة ورجالهم وجمهورهم هو من أصعب الامور ، لانه تأريخ لتنظيم سرى تقريبا ، ومضطهد فى أغلب عهوده ، كمـا سيتضح من الفصل القادم فى هذا الباب . ولقد زاد من هذه الصعوبة أن ما كتب من مواد فى ذلك التاريخ قد باد بعد المحنة العامة التى تعرضوا لها فى عصر المتوكل العباسى . ومع ذلك فـان البحث المستقصى يضـع يدنا على عـدد من الحقائق ترشح الاجابة بنعم وبالايجاب عن ذلك التساؤل الذى طرحنـــاه ، وتشير الى أن جمهور البيئات التى

انتشرت فيها هذه النزعة العقلانية قد كانوا ذوى صلة اجتماعية وثيقة بالتجارة والحرف والصناعات ، وأن المدن والقرى التى غلب عليها الاعتزال كانت ذات صلة بالتجارة والتجار فى تلك العصور . فمثلا :

١ - فى أسماء عدد غير قليل من ائمة المعتزلة نلحظ ألقابا تربطهم بصناعة من الصناعات أو حرفة من الحرف أو لون من ألوان التجارة . أو على الاقل بقطاعات المدن والاحياء السكنية الخاصة بأصحاب هذه الصناعات والحرف والتجارات .

* فواصل بن عطاء . يلقب بالغزال . وحتى الذين ينفون عنه الاشتغال بصناعة الغزل يعللون تلقيبه بهذا اللقب بعلل لا تبتعد به عن الغزالين . فالبعض يقول : انه كان يسكن فى حى الغزالين ، أى أنه قد كان للغزالين حى خاص بهم ، سكن فيه واصل - واتخاذالحرفوأصحابها للأحياء الخاصة هو سمة من سمات المدن فى تلك العصور - ومنهم من يقول أنه كان يلزم حانوت غلام له يشتغل بصناعة الغزل وحرفته (٧١) . وفى كل الاحوال والتفسيرات فهناك اتفاق على أنه كان يسكن حى الغزالين ويعيش بين دكاكينهم . ولقب الغزال لقب اشتهر به فى حياته ، وذكره به بشار بن برد فى شعره عندما قال :

مالى اشايع غزالا له عنق
كنقنق الدو ان ولى وان مثلا (٧٢)

كما ذكره بعض انصاره فقال :

---

(٧١) (باب ذكر المعتزلة - من كتاب المنية والامل) ص ١٧ .
(٧٢) النقنق - بكسر النونين - ذكر النعام . والدو : البرية .

تلقب بالغزال واحد عصره
فمن لليتامى والقبيل المكاثر ؟! (٧٣)

﴿ وعمرو بن عبيد بن باب . هناك من يقول ان اباه كان تاجرا ، صاحب دكان ، ومن يقول : انه كان نساجا صناعته النسيج .

﴿ وابراهيم النظام . سمى بالنظام لان نظم الخرز كان صناعته .

﴿ وأبو الهذيل العلاف . سمى بالعلاف ، اما لانها كانت حرفته ، أو لانه كان يسكن فى حى العلافين ، على خلاف فى ذلك .

﴿ وهشام بن عمرو الفوطى . هناك من يقول ان تسميته بالفوطى جاءت من أنه كان يتاجر فى « الفوط » .

﴿ ومحمد بن سيرين ، هناك اتفاق على أنه كان تاجرا من تجار النسيج (بزازا) .

﴿ وعثمان الطويل . كان من كبار التجار فى تنظيم المعتزلة ، وهو الذى ذهب يبشر بالاعتزال فى أرمينية ، ومارس التجارة هناك .

﴿ وابو رجاء مصر بن طهمان ، الوراق (١٢٩ هـ) كانت الوراقة حرفته وتجارته .

﴿ وابو عبد الله الحسن بن على بن ابراهيم ، الكاغدى (٣٠٨ ـ ٣٩٩ هـ) ، لتلقيبه بالكاغدى علاقة بهذه الحرفة، سواء أكانت العلاقة له أم للأسرة التى نشأ فيها .

﴿ وابو يعقوب يوسف بن عبد الله ، الشحام ، يوحى تلقيبه بالشحام بما له بهذه الحرفة من علاقة .

---

(٧٣) (البيان والتبيين) جـ ١ ص ٢٦ .

* وأبو الحسين بن أبى عمر ، الخياط . هو الآخر دو علاقة بهذه الحرفة ، سواء أكانت مباشرة أم عن طريق أسرته .

* وابو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ ، يقول عنه ياقوت : انه رؤى يبيع الخبز والسمك فى حى سيحان ، من أحياء البصرة (٧٤) ، كما أن من بين آثاره الفكرية « كتاب التبصر بالتجارة » ، الذى لعله من أقدم الآثار التى افردت للبحث فى هذه الحرفة فى تراثنا .

هذه النماذج ، وان كانت قد جاورتها أسماء اعلام آخرين ملكوا الارض أو ورثوها ، مثل أبى بكر بن الاخشيد (٣٢٦ هـ) وجعفر بن حرب « من الطبقة السابعة » ـ الا انها تعطى دلالة على الوضع الاجتماعى لعدد من ائمة المعتزلة ومفكريهم ، والبيئة الاجتماعية التجارية والحرفية والصناعية التى كانت أكثر البيئات فى ذلك العصر نزوعا للعقلانية واقبالا على ثمار العقل واستخداما لبراهينه فى البحث والتنقيب .

٢ ـ والحقيقة الثانية التى تؤكد ما نذهب اليه ، ترقى بهذا الرأى الذى نراه الى مرتبة الحقيقة التى تبعث على الاطمئنان . ذلك أن المدن والمناطق والقرى التى غلب عليها الاعتزال والتى ذكرها وعدد أهمها البلخى (٧٥) ـ والتى سنذكرها فى الفصل التالى ـ ان هذه المواطن تلفت نظرنا الى تمركزها وارتباطها بطرق التجارة الرئيسية التى كانت تمر عبر الدولة الاسلامية

(٧٤) (معجم البلدان) جـ ١٦ ص ٧٤ .
(٧٥) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٠٤ ـ ١١٠ .

كى توصل تجارة آسيا الى أوربا ، والتى كانت أهم طرق للتجارة العالمية فى ذلك التاريخ .

فحول طريق التجارة البرى القادم من الصين شرقا الى بغداد انتشرت مدن المعتزلة وقراهم ومواطن نفوذهم فى اقليم فارس ، الذى هو الاقليم الجنوبى من ايران . وحول طريق التجارة البحرى القادم من الصين والهند الى الخليج العربى ، انتشر الاعتزال فى الموانى ، التى قامت على الشاطىء الشرقى للخليج مثل « تيز » و « سيراف » وغيرهما من الموانى ، والمدن التى جاورتها فى اقليم فارس . كما انتشر الاعتزال كذلك فى ميناء البصرة والابلة ، وهى موانىء العراق التى كانت تستقبل التجاره التى يأتى بها هذا الطريق البحرى الآتى من الهند والصين .

ومع هذا الطريق التجارى انتشر الاعتزال حتى أرمينية التى كانت على مقربة من منطقة انتقال هذه التجارة الى القسطنطينية .

أما طريق التجارة الثانى الذى كان يأتى ، بحرا ، من الهند والصين ، ليصل الى جنوبى اليمن ، ثم يصعد الى صنعاء فمكة والمدينة فدمشق فحلب ، فان التوزيع الجغرافى لمناطق نفوذ المعتزلة فى شبه الجزيرة وفى الشام يلفت نظرنا الى اقتران مناطق الاعتزال بطريق التجارة هذا أوثق اقتران . فكل محطات تجارة هذا الطريق كانت مواطن نفوذ للاعتزال ، والثورة التى قامت بها القدرية الغيلانية ضد الوليد بن يزيد ونصبت فيها يزيد بن الوليد قد قامت من الاصقاع التى غلب عليها وعلى أهلها

القول بالعدل والتوحيد الى الشمال من دمشق ، وعلى الطريق التجارى الذى يربطها بحلب ، ثم يصعد بعد ذلك الى آسيا الصغرى ثم القسطنطينية (٧٦) .

وعلى سبيل المثال ، فنحن نعد من مدن المعتزلة وقراها الكبرى على الطريق التجارى البرى الآتى من الصين شرقا الى بغداد : مدن وقرى مثل : السوس ، والبيلقان ، والصيمرة ، وعسكر مكرم ، ورامهرمز ، وجندى سابور ، والدورق ، وأرجان . الخ . الخ .

وعلى الطريق التجارى الآتى من الهند والصين ، بحرا ، بعد دخوله الى اقليم فارس ، نستطيع أن نذكر من مدن الاعتزال ، على سبيل المثال : توز ، وسيراف ، وعبدان ، وجيرفت ، والسيرجان ، وهراة ، وتيز . الخ . الخ .

وعلى الشاطىء الغربى للخليج نستطيع أن نذكر من مدن التجارة ومحطاتها ، التى كانت مواطن انتشر فيها الاعتزال : البحرين ، وهجر ، والبصرة ، والابله .

فاذا صعد طريق التجارة من بغداد شمالا ، وجدنا على متنه من المدن التى غلب عليها الاعتزال : ميافارقين ، أشهر مدن ديار بكر ، وبرذعة ، بأرمينيا . الخ . الخ .

كما نعد من حواضر التجارة ومحطاتها قرب البصرة وعلى طريقها مع واسط ، مدنا مثل : الملح ، وعبدسى ، والمذار . الخ . الخ .

---

(٧٦) انظر خرائط الطرق للتجارة العالمية فى نهاية كتاب (طرق التجارة بين الشرق والغرب) للدكتور نعيم زكى فهمى · ص ٥٠٦ ومابعدها طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م ·

اما طريق التجارة الذى يصعد من عدن ، شمالا ، حتى يصل الى آسيا الصغرى فأوربا ، فان من بين محطاته ومدنه التى ظهر فيها الاعتزال او غلب عليها مدنا ومحطات مثل : صنعا ، وتيس ، ونيسان ، وتدمر ، ونهيا ، وأرك ، وعرض ، وسمنة ، والعربيس ، وبلاد المدارج . ودارِيا ، وبيت لهيا ، وكفر سوسية . الخ . الخ .

وحتى الاجزاء التى انتشر فيهـــا الاعتزال بالمغرب . مثل البيضاء ، وطنجة ، كانت مواطن التجارة بين أفريقيا وبين الاندلس ..

فلن نكون مغالين اذا قلنـــا ان خريطة المواطن التي انتشر فيها المعتزلة وسادتها نزعتهم العقلانية كانت هى خريطة التجارة وطرقها ومواطن التجار ومحطاتهم .. وذلك يلقي ضوءا ، ربما كان خافتا ، ولكنه مؤشر للطبيعة الاجتماعية المتميزة التى أثمرت تلك القسمة العقـلانية المتميزة فى فكرنا العربى الاســـلامى .. ويضع فى يدنا خيوطا . قد لا تكون كثيرة ولا متينة ، ولكنها تستحق مواصلة البحث عن أبعادها الحقيقية والمدى الذى يمكن أن تقودنا اليه فى البحث عن الوضع الاجتماعى والفكرى للمعتزلة فى المجتمع الذى ظهروا فيه (٧٧) .

***

تلك هى أهم الملامح الخاصة التى تميزت بها فرقة المعتزلة ..

---

(٧٧) وبالطبع فنحن لانقصد الى القول بأن أئمة المعتزلة ورواد فكرهم العقلانى كانوا بالضرورة تجارا أو أصحاب صناعات ، وانما الذى نريد الاشارة اليه أن البيئة التجارية ومناخ الحرف والصناعات كانت هى المواطن التى استجاب أهلها أكثر من غيرهم لهذا الفكر الذى يقدم العقل ويعلى سلطانه على سلطان النصوص والمأثورات .

فالموالى منهم .. كانوا عربا بالحضارة والولاء ،ناصبوا الشعوبية العداء ، وقدموا بواكير الفكر القـومى الذى يؤلف ويبلور الشخصية العربية ، على أسس غير عرقية، وانما بمفهوم حضارى متقدم .

والرواة منهم .. كانوا أولى مدارس البحث التاريخى فى تراثنا العربى الاسلامى ..

والفلسفة عندهم .. كانت فلسفة الهية ، تدينت فيها الفلسفة ، وتفلسف بها الدين ، وقدمت أولى محاولات التعايش والتآخى بين الحكمة والشريعة فى تراثنا ..

ومقام العقل عندهم .. كان عاليـــا .. وصفات « الارستقراطية الفكرية » وسمات العلماء كانت واضحة فى أوساطهم كل الوضوح .. كما أن موقفهم من «العامة»، ثم ارتباط مواطنهم ، وأسماء عدد من اعلامهم ، بالمواطن التجارية ، وبألقاب الحرف والصناعات . يؤكد أن هذا التيار العقلانى قد ارتبط فى النشأة والانتشار بالطبقة التجارية وفئات الحرف والصناع الـذين كونوا البيئة الاكثر قابلية للعقل والعقلانية ــ على عكس البدو والفلاحين ــ فى تلك المجتمعات ..

وهكذا كان المعتزلة كوكبة من أهل الفـكر والنظر ، اتخذوا من الفلسفة والفكر والرقى فى المعرفة بديلا عن الاحساب والانساب ، فتحقق فى فرقتهم تعايش العرب والموالى دون تفاخر او عصبية أو تنافر ، وكان الفكر العقلانى هو السلم الذى ارتقوا عليه الى مستوى اصبح دونه مستوى « الاشراف » الذين يستند « شرفهم » الى الأحساب والأنساب ..

الفصل الثالث :

النشاط الفكرى والتنظيم

هناك صعوبة ، ربما وصلت الى درجة الاستحالة ،تقف دون اكتشاف الابعاد الحقيقية للنشاط الفكرى الذى قام به المعتزلة فى حياة هذه الامة ، والاسهام الذى قدموه فى العلم الدينى والفلسفى والسياسة ومختلف أوجه الابداع . .

ومرد هذه الصعوبة ليس فقط فقدان مكتبتنا العربية الاسلامية الكثير من آثارهم الفكرية التى بادت بعد محنتهم فى عهد المتوكل (٢٣٣ ــ ٢٤٧ هـ) وانما ــ بالاضافة لضياع هذا التراث ــ ترجع الصعوبة الى أن الاضطهاد الذى أصاب المعتزلة ، منذ نشأتها ، وطوال أغلب فترات حياتها ، قد جعل الكثير من أعلامها يستخفون بنشاطهم ، ويدارون آراءهم ، فلم يعرف الناس عنهم أنهم معتزلة ، ولم تشر اليهم كتب الطبقات التى رصدت أبرز أئمة الاعتزال . .

فالمعتزلة قد عاشوا طوال العصر الاموى مضطهدين يتعرضون للمحن التى وصلت الى النفى الجماعى فى جزيرة منعزلة تجاه الساحل اليمنى هى جزيرة «دهلك»،

كانت مخصصة لعزل أهل الرأى الـذى لا ترضى عنه الدولة .. كما وصلت المحن الى التعليق على الصليب كما حدث لغيلان الدمشقى وصاحبه صالح ..

وفى العصر العباسى ، ظلوا مضطهدين ومطاردين من عهد السفاح حتى عهد المأمون ، ولم يتمتعوا بشىء من الامن والحرية الا فى عهود المـأمون ، والمعتصم ، والواثق ، فقط .. وحتى فى هـذه الفترة كان كثيرون منهم فى صفوف المعارضة ، ينتقدون السـلطة ، ويرفضون الاشتراك فيها ، وبينهم وبين زملائهم ، فى الفكر ، الذين تولوا مناصب فى الوزارة والادارة عداء وشحناء أوصلت بعضهم الى غياهب السجون فى كثير من الاحيان .. ثم جاء عهد المتوكل فبدأت محنتهم المتصلة التى باد فيها تراثهم الفكرى فلم يبق الا النزر اليسير .

وهذا الاضطهاد الذى عاشه المعتزلة قد فرض على كثير من أعلامهم اخفاء بعض الآراء والنظـريات .. وحتى واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد فان القاضى عبد الجبار يقول ان الاضطهاد الذى عاشوا فى ظله لم يتمكنوا بسببه الا من « اظهار القدر الذى كان منهم ! » (١) .

أما كثيرون غيرهم فلقد اضطروا الى الاسـتخفاء بآرائهم ومذهبهم ، وكما يقول القاضى عبد الجبار ، فان « أصحابنا . لبسوا طريقة الاستتار والاتقاء من الخوف .. واستمر على أصحابنا هذا الانقباض ! » لان الخصوم اختلطوا بالظلمة واسـتعانوا بهم على أهل العـدل والتوحيد (٢) ، جتى أصبحت معرفة مذهب كثير من

(١) (فضـل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٣١ .
(٢) المصدر السابق . ص ٣٣١ .

المعتزلة لا تاتى عن طريق اعلانهم مذهبهم . بل من خلال اتهام خصومهم لهم بأنهم على مذهب الاعتزال ، وعندما أخذ القاضى عبد الجبار فى التفتيش عن أسماء أئمة المعتزلة كى يكتب طبقاتهم وصل الى هذه الحقيقة . فأدخلها عنصرا من عناصر منهجه فى الكشف عن مذهب الاعلام الذين تمذهبوا بالاعتزال ولم يستطيعوا الاعلان عنه ، وقال : « وعند الفتيش ، عرفنا موافقة من سمينا ، ممن يقول بالعدل والتوحيد ، من صفة المخالفين، من حيث اتهموهم بهذا المذهب . ولولا ما ذكرنا من الانقباض لظهروا به ولا ظهروه » (٣) .

ولقد ذهب المعتزلة فى سبيل التخفى مذاهب شتى .. فعلم الكلام كان صناعتهم التى نشأت على أيديهم ، وكان الاشتغال به مظنة من المظان التى يطلبون عندها ، فكان الواحد منهم يدارى مذهبه بأن يجعل شهرته : « النحوى » أو « الفقيه » مثلا ، وذلك « خيفة من اظهار أدلة الله فى العدل والتوحيد ، والدعاء اليه ! .. » (٤) ولقد نجأ بعضهم الى اقامة مدارسهم الفكرية وحلقات دروسهم فى مزارع خاصة بهم ، بعيدا عن المدن ، وأعين الشرطة (٥) ، فأعادوا الى الذهن صورة أخرى — وان تكن مختلفة — لمن رفضوا وقاوموا بالهجرة الى الصحراء حيث بنوا الاديرة والصوامع هناك ..

والمفكر المعتزلى أبو الحسن الماوردى (٣٦٤ — ٤٥٠ هـ ٩٧٤ — ١٠٥٨) نموذج لهؤلاء الاعلام الذين تمذهبوا

(٣) المصدر السابق . ص ٣٣١ .
(٤) المصدر السابق . ص ٢٩٣ ، ٣٣١ .
(٥) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

بمذهب المعتزلة ، ثم لم يستطيعوا الاعلان عن مذهبهم . فلقد كان فى خدمة الدولة العباسية السنية التى كانت قد أصدرت فى ذلك العهد مرسوما يحرم فكر المعتزلة ، وكان يتولى منصب « أقضى القضاة » ، وكان اذا كتب وعرض للآراء والمذاهب يذكر رأى المعتزلة تحت عنوان : علماء الكلام ، ولا يقول مثلا قال المعتزلة ، أو قال أهل العدل والتوحيد .. ولقـــد اتهمه خصوم المعتزلة بالاعتزال ، وحقق ابن الصلاح (المتوفى سنة ٦٤٢ هـ) هذا الاتهام وأثبته من خلال دراسته لتفسير الماوردى للقرآن (٦) . وآراء الماوردى ، خصوصا فى (أدب القاضى) و (أدب الدنيا والدين) تقطع باعتناقه الاصول الخمسة ، ومع ذلك أدت مداراته الى عدم ذكره فى كتب طبقاتهم والى حسبان الكثيرين أنه غير معتزلى ، بل والى محاولة البعض أن يدفع عنه هذا الاتهام ؟ (٧) .

تلك هى الصعوبة فى الوقـوف على الحجم الحقيقى للنشاط الفكرى الذى قام به المعتزلة فى حياة هذه الامة.. ولكن ذلك لا يمنع من تقديم عدد من النقاط المعبرة عن بعض الحقائق فى هذا المقام ، وهى الحقائق التى وجدنا عليها الشواهد والادلة واضحة كل الوضوح .

فأولا : على يد المعتزلة كانت نشأة علم الكلام ، وهو العلم الذى عبر عن أصالة هذه الامة وذاتيتها ، فلم يكن تقليدا للفلسفة اليونانية وترديدا لمقولاتها ، ولم يكن وقوفا عند ظواهر نصوص الكتاب والسنة ، وانما كان معالجة

---

(٦) مقدمة تحقيق (أدب القاضى) ج ١ ص ٣٣ ـ ٣٦ ، ومقدمة تحقيق (أدب الدنيا والدين) ص ٥ ـ ٦ .
(٧) مقدمة تحقيق (أدب الدنيا والدين) ص ٦ .

فلسفية ، بأدوات الفلسفة ، لقضايا الدين والحيـــاة الخاصة بهذه الامة .. ومن ثم فان فيه المادة لمن يريد أن يلتمس ما أبدعه العرب والمسلمون فى الفلسفة والفكر الدينى على السواء .. ولا يستطيع أحد أن ينازع فى أن نشأة هذا العلم كانت من ابداع المعتزلة ، وأنهم ظلوا دائما وابدا أعظم الفرسان فى ميدانه ، وكما يقول الحاكم أبو السعد محسن بن كرمة الجشمى (٤١٣ — ٤٩٤ هـ ١٠٢٢ — ١١٠١ م) : « وجملة القول : ان المعتزلة هم الغالبون على الكلام الغالبون على أهله . فالكلام منهم بدأ، وفيهم نشأ ، ولهم السلف فيه ، ولهم الـكتب المصنفة المدونة ، والائمة المشهورة ، ولهم الرد على المخالفين من أهل الالحاد والبدع ، ولهم المقامات المشهورة فى الذب عن الاسلام ، وكل من أخذ فى الكلام ، أو ما يوجد من الـكلام فى أيدى النـاس ، فمنهم أخذ ، ومن أئمتهم اقتبس .. (٨) .

وثانيها : ان فرقة من فرق الاسلام لم تتصد لمناهضة خصومه كما تصدت لهم المعتزلة ، وفى مقـدمة أسباب انفراد المعتزلة ، تقريبا ، بهذه المهمة ، أنهم كانوا الفرقة الوحيدة المؤهلة لذلك والقادرة على انجاز هذا الهدف بنجاح .. فالخـــوارج كانوا فى شغل عن ذلك بالحرب المتصلة التى لا تدع وقتا ولا جهدا للفكر النظرى ومجادلة خصوم الاسلام .. والشيعة كانوا فى شغل باتقـــاء اضطهاد الامويين وتجسيد أحزانهم ومأساتهم كى تتحول الى رباط عاطفى يكسب الانصار ويديم لفرقتهم البقاء ، كما شغلوا بنظريتهم فى الامامة وحكايات فضل أهـل البيت عن أغلب الامور الاخرى .. والمرجئة والجبرية

(٨) , فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٧١ .

الاموية كانوا « أهل حشو » يقفون عند ظواهر النصوص، ومن ثم فلا جلد لهم ولا قدرة على جدل خصوم المسلمين بمنطق أرسطو وحكمة الفرس وفلسفة الهند واليونان .. أما المعتزلة فقد كانوا هم الفـــرقة الاسلامية التى تصدت للدفاع عن الاسلام ضد خصومه ، بل واتخـذت موقع الهجوم على هؤلاء الخصوم .. واذا كانت كتب المقالات والفرق التى كتبها خصومهم وتكاد أن تكون كل ما بقى لنا فى هذا الفن ـ لم تذكر جهود المعتزلة فى الدفاع عن الاسلام ، فان هناك بعض الوقائع ذات الدلالة فى هذا الميدان ..

ـ ففى العهد العباسى انتعشت مذاهب المانوية وفرقها، واستعادت قوتها ، ودخلت فى صراع فكرى ضد عقائد الاسلام ، واســــــتند هذا الصراع المانوى الى عصبية شعوبية ، مستترة أو ظاهرة ، كانت تحتل المراكـــــز الحساسة فى جهاز الدولة العباسى .. فاستطاعت المانوية ان تشيع الزندقة والالحاد والاستخفاف بالدين فى الحياة الفكرية ، وأن تشيع الفكر الشعوبى فى الحياة القومية والسياسية ، وتصدى المعتزلة للمانوية وفرقها ، فدرسوا منطق أرسطو وفلســــــفة اليونان ـ التى هى أسلحة الخصوم ـ وأطلعوا على مؤلفـــــات الجدل المسيحى فى العصر « الهلنستى » حتى استطاعوا « أن يقارعوا الثنوية حجة بحجة ، وأن يفحموهم ، وأن يسندوا ـ (بل نقول: أن ينشئوا) ـ الفلســـــفة الاخلاقية المســـتمدة من القرآن .. » (٩) .

(٩) هاملتون جب (دراسات فى حضارة الاسلام) ص ١٦ . ترجمة د. احسان عباس ، و د. محمد نجم . و د. محمود زايد . طبعة بيروت سنة ١٩٦٤ م .

ـ ويكفى أن نشير الى أن الجزء الخامس من (المغنى فى أبواب التوحيد والعدل) الذى صنفه القاضى عبدالجبار، قد أفرد للرد على الفرق غير الاسلامية . من ثنوية ـ تضم : المانوية ، والمزدقية ، والديصانية . والمرقيونية. والماهانية . والصيامية ، والقلاصية ـ ومن مجوس ، ومن صائبة ، وكذلك النصارى وأهل الاوثان .. الخ .. الخ . وأن هذا التناول لم يكن كتناول مؤرخى الملل والنحل والمقالات ، عرضا للآراء وتقريرا للمذاهب ، وانما كان بيانا لحجج المعتزلة التى قدمتها فى صراعها الفكرى الحضارى مع هؤلاء الخصوم المفكرين .

ـ والمعتزلة لم يدفعوا فقط هذا الهجوم عن عقائد الاسلام ، بل طاردوا هؤلاء الخصوم ، وكسبوا الى الاسلام أنصارا جددا كثيرين ، حتى كانوا هم أبرز من عمل على نشر الاسلام فى تلك البلاد المفتوحة ، والوحيدين الذين استطاعوا أن يقنعوا بالاسلام أولئك الذين عرفوا الفلسفة وأسلحة الاقدمين فى الجدل .. ومما يروى عن أبى الهذيل العلاف (٢٣٥ هـ ٨٤٩ م) ـ وهو الذى اكتملت فى عصره أصول المعتزلة الخمسة ـ « أنه قد أجابه وأسلم على يديه زيادة عن ثلاثة آلاف رجل ! » .. أما أبو سهل بشر بن المعتمر الهلالى (٢١٠ هـ) فانه قد « وظف على نفسه أن يدعو كل يوم نفسين الى دين الله ، فان أخطأه يوما قضاه » (١١) .

بل و يذكر الذين يؤرخون لهذا العصر أن نفوذ المعتزلة قد ترك آثاره الفكرية البارزة على فكر علماء الكلام اليهود،

(١٠) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٤١ .
(١١) المصدر السابق . ص ٢٥١ .

حتى شابهت آراء المعتزلة فى كثير من القضايا . لا لاخذ المعتزلة عن اليهود ـ كما يروج خصومهم ـ وانما لما تمتع به المعتزلة من « نفوذ عميق على مفكرى اليهود (١٢)» .. الذين كانوا قد تعايشوا واندمجوا فى الدولة الجديدة، وخاضوا فى الجدل مع مختلف القوى الفكرية فيها .

ـ وللبرهنة على أن المعتزلة ، وحدهم ، كانوا هم المؤهلين لمناظرة خصوم الاسلام وافحامهم تروى قصة وقعت أحداثها فى عهد الرشيد ، وكان قد سجن أئمة المعتزلة لميول علوية خشى من مغبتها . فلقد كتب اليه ملك السند يعيب عليه الاسلام ، ويتهمه بأنه رئيس لقوم تقوم عقيدتهم على التقليد لا النظر ، وأن دينهم قد انتشر بالسيف دون الحجة ، ويتحداه أن يكون فى استطاعته ارسال من يناظر ويحاجج عن الاسلام وعقائده بالمنطق والحجة والبرهان .. وختم خطابه بأن علق على نتائج المناظرة : أن يتبع المهزوم دين الغالب ودولته ؟ .. وكان الذى أوحى الى ملك السند بهذا التحدى زعيم من زعماء « السمنية » (١٣) .. فبعث الرشيد أحد القضاة الى ملك السند كي يناظر زعيم السمنية .. ودار الجدل بين السمنى والقاضى على هذا النحو :

السمنى : أخبرنى عن معبودك ، هل هو قادر ؟

القاضى : نعم ..

السمنى : فهل هو قادر على أن يخلق مثله ؟

---

(١٢) جيوم (الفلسفة وعلم الكلام) ص ٣٨٤ (بحث منشور فى كتاب « تراث الاسلام » ..) .

(١٣) فرقة هندية تنكر النبوة والرسالة .

القاضي : هذه المسألة من الكلام ، والكلام بدعة ، وأصحابنا ينكرونه ..

السمنى : ومن أصحابك ؟

القاضي : محمد بن الحسن ، وأبو يوسف ، وأبو حنيفة .

وعند ذلك قال السمنى لملك السند : « قد كنت أعلمتك دينهم ، وأخبرتك بجهلهم وتقليدهم ، وغلبتهم بالسيف » ولما عاد القاضي الى بغداد بعث معه ملك السند برسالة الى الرشيد يقول فيها : « انى كنت ابتدأتك ، وأنا على يقين مما حكى لى ، والآن ، قد تيقنت ذلك بحضور هذا القاضي » .. فاستاء الرشيد من نتيجة التحدى والمناظرة « وقامت قيامته ، وضاق صدره . وقال : ليس لهذا الدين من مناظر عنه ؟ » فأخبره خاصته بأن المناظرين عن الدين « وهم الذين تنهاهم — يا أمير المؤمنين — عن الجدال ، وجماعة منهم فى الحبس » ، فأمر باحضار سجناء المعتزلة ، وعرض عليهم « مسألة » السمنى ، فأجابه شاب منهم عنها قائلا : « هذا السؤال محال ، لان المخلوق لا يكون الا محدثا ، والمحدث لا يكون مثل القديم ، فقد استحال أن يقال : يقدر أن يخلق مثله أو لا يقدر كما استحال أن يقال : يقدر أن يكون جاهلا أو عاجزا » .. فأمر الرشيد بأن يتوجه الى مناظرة السمنية فى بلاط ملك السند عدد من المعتزلة على رأسهم معمر بن عباد (٢١٥ هـ) ، بعد أن فك عنه قيود السجن « وازاح علته ، وامر له بثلاثة آلاف دينار (١٤) .

(١٤) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ .
و د. ابراهيم بيومى مدكور (فى الفلسفة الاسلامية) ص ٧٩ .

ـ وكما كان المعتزلة هم دعاة الاسلام وحججه تجاه خصومه وفى المواطن التى يغلب عليها هؤلاء الخصوم ، كانوا كذلك المدافعين عن قيمه وأخلاقياته فى المواطن التى يعيشون فيها .. فلقد كانوا هم قادة الفكر فى بيئاتهم ، وحتى تأديب الصبيان والشباب كانوا هم أبرز من نهض به ، حتى أن خصومهم الفكريين كانوا يبعثون بأبنائهم ليأخذوا أدب المعتزلة وينهونهم عن أخذ مذاهبهم ، فكان المعتزلة « يعطون ـ هؤلاء الابناء ـ مذاهبهم قبل آدابهم .. » (١٥) كما كانوا يطاردون دعاة الشك والزندقة والالحاد ، مثل بشار بن برد (٩٥ ـ ١٦٧ هـ) وصالح بن عبد القدوس (١٦٠ هـ ـ ٧٧٧ م) ، ومحمد ابن مناذر الذى « تهتك وخلع وقذف أعراض أهل البصرة » بعد أن كان ناسكا « .. ولما عدل عن النسك والتأله وعظته المعتزلة فلم يتعظ وأوعدته بالمكروه فلم يزدجر ، ومنعوه دخول المسجد ، فنابذهم وطعن عليهم ، وكان يأخذ المداد بالليل فيطرحه فى مطاهرهم ، فاذا توضئوا به سود وجوههم وثيابهم ؟ (١٦) .. وغيرهم من الذين يتنافى سلوكهم مع خلق الاسلام .

ـ ومن يقرأ كتب الجاحظ ، وخاصة « الحيوان » يرى فى المعتزلة روادا لميادين من البحث كثيرة ، غير علم الكلام ، فلهم تجارب وملاحظات واستقراء فى العلوم ، وفى دراسات الحيوان بالذات .. ولبعضهم فى الفلك والنجوم جهود وأبحاث (١٧) .. كما أن منهم الفقهاء

---

(١٥) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٦٣ .
(١٦) (الاغانى) جـ ٢٠ ص ٦٩٥٧ ـ ٦٩٥٩ .
(١٧) أنظر اشارات لعلم الجبائى فى ذلك فى (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٠٢ .

والادباء والشعراء والرواة والنقاد ، وان كانت شهرتهم قد كانت وظلت في علم الكلام ، لانهم رأوه أشرفهـا ؛ لموضوعه الذي هو أشرف الموضوعات .

فالجاحظ يسخر من ذلك الذي يعيب اشتغال عدد من أئمـة المعتزلة بالبحث عن « قدر الكلب ومقـدار الديك » وهم ـ أي البـاحثون ـ من « جلة المعتزلة . أشراف أهل الحكمة » ويقـول : ان مثل هـذا العلم « يتفرغ للجدال فيه الشيوخ الجلة والكهول العلية ؛ وحتى يختاروا النظر فيه على التسبيح والتهليل ، وقراءة القرآن ، وطول الانتصاب في الصلاة ، وحتى يزعم أهله أنه فوق الحج والجهاد ، وفوق كل بر واجتهاد » (١٨) .

ـ كما كانت للمعتزلة ، وهم فرسان المنهج العقلي ، جهود كبيرة في حرب الخـرافة والشعوذة في المجتمع الاسلامي .. فهم عندما تصدوا لدحض حجج الشيعة حول « عصمة الامام » وعلمه الذي لا يحـد ، وعلاقته بالغيب ، وظهور الاعلام والمعجزات على يديه ، قد أسهموا اسهاما عظيما في اعلاء شأن العقل وتوجيه السهام الى فكر الخرافة الذي شاع في تلك المجتمعات .. كمـا أسهموا ، بالتأليف والمناظرة ، في اقحام المنجمين الذين راجت بضاعتهم على الخاصة والعامة في ذلك التاريخ(١٩) .

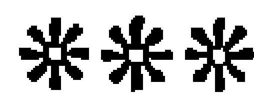
فالمعتزلة كانوا ، بحق ، هم فرسان الدفاع عن الاسلام ؛

---

(١٨) (الحيوان) جـ ١ ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(١٩) أنظر رد العلاف جعفر بن حرب على المنجمين في حضرة المأمون (تثبيت دلائل النبوة) جـ ٢ ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ . وكذلك حديث القاضي عبد الجبار عن (كرامات) (الحلاج) وغيره في (المغنى) جـ ص ٢٣٦ ـ ٢٧٨ .

وتقرير حججه . والدعوه اليه .. وهم قد غطوا بنشاطهم هذا مختلف الميادين ، وكانت لهم حججهم العقلية التى صاغوها ببلاغتهم الجديدة . التى لا نغالى ان قلنا انهم اخترعوها وأضافوها الى تراثنا ، فللجدل لغتـــــه ومصطلحاته وأساليبه وآدابه ، وهم قد أنشأوا هذا الفن من فنون تراثنا العربى الاسلامى، لانهم كانوا رواد ميدانه .. ومن الكلمات ذات الدلالة فى هذا المقام تعريف البلاغة الذى عرفها به عمرو بن عبيد عندما أجاب عن سؤال : ما البلاغة ؟ فقال : « انها تقرير حجة الله فى عقول المكلفين، وتخفيف المؤنة على المستمعين ، وتزيين تلك المعــانى فى قلوب المريدين . بالالفـــــاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الاذهان ، رغبة فى سرعة استجابتهم ، ونفى الشواغل عن قلوبهم ، بالموعظــة الحســنة ، من الـكتاب والسنة (٢٠) » .. فهو تعريف جديد ، لبلاغة جديدة ، تنبع جدتها من الميدان المتميز الذى نشأت له واستخدمت فيه .



ولقد أدى نشاط المعتزلة الفكرى والعملى الى انتشار مذهبهم وقوة حركتهم وعظم شأن فرقتهم .. فبالرغم من الاضطهاد الذى وقع عليهم ، والذى ألمحنــا اليه ، وبالرغم من أن فكرهم « الفلسفى ــ الدينى » هو فــكر للخاصة ، لا يتناسب مع طبع العـــامة القاصر ولا مع مستوى ادراك الجماهير العريضة وقدراتها ، الا أننا نرى ــ رغم ندرة المصـــــادر التى بقيت من تراثهم وتراث

(٢٠) ابن قتيبة (عيون الاخبار) مجلد ٢ ص ١٧٠ ، ١٧١ . طبعة دار الكتب المصرية .

منصفيهم — سيطرتهم ونفوذهم ، لا فى البصرة فقط . وبغداد طوال عهود المأمون والمعتصم والواثق ، وانما فى كثير من البلاد والمدن والكور والقرى والانحاء ..

وأبو القاسم البلخى يذكر فى كتابه (مقالات الاسلاميين طرفا من البقاع والبلدان التى « غلب عليها الاعتزال والقول بالعدل » ومنها :

١ — **مدينة عانه** : وهى مدينة كبيرة من مدن الجزيرة تشرف على الفرات ، تقع بين « الرقة » و « هيت » ، وتتبعها عدة قرى .. وعن هذه المدينة يقول المقدسى (٣٣٦ — ٣٨٠ هـ (: « انها كثيرة المعتزلة » ، ويقول الخياط (٣٠٠ هـ ٩١٢ هـ) : « أن أهلها يقولون بقول جعفر بن مبشر » (٢٣٤ هـ — ٨٤٨ م) .

٢ — **تدمر** : وهى من المدن الاثرية الشهيرة فى برية الشام ، كانت تسكن بها قبائل كلب التى غلب عليها الاعتزال والقول بالعدل والتوحيد .

٣ — **بلاد المدارج ، بأجمعها** : وهى تقع بين دمشق وحلب ، فى منتصف الطريق بينهما .

٤ — **نهيا** : بالشام ، وتقع بين الرصافة والقرشية من طريق دمشق ، على الصحراء .

٥ — **أرك** : قرب تدمر ، فى طريق صحراء حلب .

٦ — **عرض** : من أعمال حلب ، بين تدمر والرصافة والهشامية ، فى صحراء الشام .

٧ — **سمنة** : قرب وادى القرى ، بين المدينة والشام.

٨ — **العريبس** : بالشام .

٩ ـ **بعلبك** : فى لبنان .

١٠ ـ **طلمة** :

١١ ـ **البرة** : وهما قريتان من قرى اليمامة : البرة العليا والبرة السفلى .

١٢ ـ **داريا** :

من القرى الكبيرة المشهورة بغوطة دمشق ، ومنها بدأت ثورة المعتزلة التى نصبت الخليفة الاموى المعتزلى يزيد بن الوليد بعد قتل الوليد بن يزيد . وعن هذا الحدث يقول المسعودى : « كان خروج يزيد بن الوليد بدمشق مع شائعة من المعتزلة وغيرهم من أهل داريا والمزة من غوطة دمشق على الوليد بن يزيد » .

١٣ ـ **بيت لهيا** : من القرى المشهورة فى غوطة دمشق .

١٤ ـ **كفر سوسية** : احدى قرى مدينة دمشق .

١٥ ـ **البيضاء** :

وهى مقاطعة ومنطقة كبيرة ببلاد المغرب العربى ، غلب عليها الاعتزال . حتى قيل : انه كان بها مائة ألف تحمل السلاح يقال لهم : الواصلية ، نسبة الى واصل بن عطاء .. وسكن مع المعتزلة بها طائفة من الخوارج يقولون بالعدل والتوحيد ، يدعون بالمرورية ، وهم فرع من الخوارج الصفرية ، اتباع زياد الاصفر .

١٦ ـ **طنجة** :

وهى المنطقة المواجهة للساحل الاسبانى ، عند جبل طارق .. ولقد بدأ الاعتزال بها بعد القضاء على ثورتهم التى قادها فى المدينة والبصرة محمد وابراهيم ابنا

عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن ابى طالب . فهاجر جماعة من المعتزلة الى منطقة طنجة ، وقادهم هناك اسحاق بن محمود بن عبد الحميد ، تم استقبلوا أحد أحفاد عبد الله بن الحسن ، وهو ادريس بن عبد الله ابن الحسن ، حيث انضم الى مذهبهم ، وثاروا تحت قيادته .

١٧ ـ **تيس** : من بلاد اليمن .

١٨ ـ **تيسان** : من بلاد اليمن .

١٩ ـ **ميافارقين** : احدى المدن الكبيرة بالجزيرة ، وأشهر مدينة بديار بكر .

٢٠ ـ **برذعة** : بأرمينيا ، وهى عاصمة لمجموعة كبيرة من القرى ، اعتنق أهلها جميعا مذهب المعتزلة .

٢١ ـ **البيلقان** : احدى مدن أذربيجان . غلب على أهلها . وجاورهم بعض الخوارج الذين وافقوهم فى القول بالعدل والتوحيد .

٢٢ ـ **الصيمرة** :

احدى المدن الواقعة على الطريق من همذان الى بغداد ، بين ديار الجبل وديار خورستان ، وقال عنها الملطى . . وهو من أقدم مؤرخى المقالات : « انها من الكور التى يغلب عليها الاعتزال ، حتى لا يظهر فيها غير الاعتزال » .

٢٣ ـ **الملح** : من المدن الكبرى بين البصرة وواسط .

٢٤ ـ **عبدسى** : شمال البصرة ، وهى مجموعة قرى نشأت حول مدينة قديمة حملت هذا الاسم .

٢٥ ـ **المذار** : مدينة كبيرة تقع الى الشرق من عبدسى .

٢٦ ـ عبدأن :

ثغر كبير على الخليج العربى بالشاطىء الفارسى .

٢٧ ـ عسكر مكرم :

كورة من كور الاهواز ، اشتهرت بكثرة أهلها من اصحاب الحرف والصناعات . وكل أهلها معتزلة .

٢٨ ـ رامهرمز : مدينة الى الشرق من الاهواز ، بنواحى خوزستان ، قال عنها المقدسى :ان أكثر أهلها معتزلة .

٢٩ ـ أورميس :

٣٠ ـ تستر : على مسافة ستين ميلا الى شمال الاهواز . وهى من أعظم مدن خوزستان . . ولقد غلب الاعتزال على كل مقاطعة خوزستان التى تتألف من سبع كور . . وعنها يقول الاصطخرى : ان الغالب بخوزستان الاعتزال .

٣١ ـ السوس :

من بلاد خوزستان ، تقع بالقرب من نهر كرخة .

٣٢ ـ جندى سابور : من مدن خوزستان ، قال عنها المقدسى : أن بعض أهلها معتزلة .

٣٣ ـ الدورق :

من كور خوزستان ، قال المقدس : ان أكثر اهلها معتزلة .

٣٤ ـ ارجان :

من كور فارس ـ جنوبى ايران ـ تقع على نهر طاب الذى يفصل بين مقاطعتى فارس وخوزستان . .

٣٥ ـ توز : من مدن اقليم فارس ، على نهر شابور . بالقرب من كازرون . .

٣٦ ــ سينيز :

بالقرب من البصرة ، على شاطىء الخليج العربى .

٣٧ ــ سيراف :

من المدن الكبرى على الخليج العربى ، وهى وما حولها الى مهروبان الى ارجان والجروم ، يقولون جميعا ــ كما ذكر الاصطخرى ــ بالعدل والتوحيد ، ويذهب بعضهم مذهب المعتزلة فى المنزلة بين المنزلتين ..

٣٨ ــ جهـــرم :

من مدن فارس ، بينها وبين شيراز ثلاثون فرسخا ، ويقـول الاصطخرى : انه يغلب عليهم الاعتزال ... وهم من أتباع أبى الهذيل العلاف .

٣٩ ــ جيرفت : من أهم مدن اقليم كرمان ، الواقع بين فارس ومكران وسجستان وخراسان ..

٤٠ ــ اصطخر : فى اقليم كرمان ، قال الاصطخرى : ان أغلب أهلها معتزلة ، وباقيهم خوارج ..

٤١ ــ السيرجان : فى اقليم كرمان : يقول المقدسى عن أهلها : ان أكثرهم معتزلة .

٤٢ ــ هراة : فى اقليم كرمان ، يقول الملطى : ان أغلب أهلها معتزلة ، وباقيهم من الخوارج ..

٤٣ ــ المنصورة : مدينة كبيرة من مدن اقليم السند، الواقع بين الهند وكرمان وسجستان ، وتقع على بعـد أربعين ميلا الى الشمال الشرقى من حيدر أباد .

٤٤ ــ مكران :

اقليم كبير فى الشمال الشرقى لبلاد الهند ، شرقى

كرمان وجنوب سجستان ، به مدن وبلاد كثيرة .

٤٥ ــ **تيز** : ميناء على ساحل بحر مكران ، وتقابلها فى جهة الغرب عمان .

٤٦ ــ **الملتان** : احدى المدن العظيمة باقليم مكران ، على أحد روافد نهر السند العليا .

٤٧ ــ **هجر** : احدى مدن البحرين الشهيرة .

٤٨ ــ **البحرين** : وهى المنطقة الممتدة على الخليج العربى ما بين عمان والبصرة .

٤٩ ــ **صعده** : باليمن ، احدى أهم مدنها .

٥٠ ــ **السروات** : باليمن ، مدينة كبيرة .

٥١ ــ **صنعاء** : عاصمة اليمن .

٥٢ ــ **سواحل الحرمين** :

٥٣ ــ **الابلة** :

بلدة قرب البصرة ، فى زاوية الخليج الذى يدخل الى البصرة ، على شاطىء دجلة .

هذا غير البصرة ، وغيرها من المدن التى كان للمعتزلة فيها شأن كبير أو قليل ، مثل : بغداد ودمشق والكوفة (٢١) .. الخ .. الخ .

والامر الذى لا شك فيه أن هذه الحقائق التى يقدمها لبلخى عن الانتشار « الجغرافى » لمناطق نفوذ المعتزلة لفكرى والسياسى ، تصحح الافكار الخاطئة الشائعة التى صور ان البصرة وما جاورها هى التى غلب عليها الاعتزال

---

(٢١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٠٤ ــ ١١٠ .

.. فنحن هنا أمام حقائق تؤكد انتشار الاعتزال فى طول الامبراطورية الاسلامية وعرضها ، من الهند الى فارس الى العراق الى الشام الى المغرب العربى .. ونحن نضيف الى ذلك أن نشأة هذا المذهب كانت بالمدينة ، لا البصرة ، وأن واصل بن عطاء قد حمل فكره معه من المدينة الى البصرة ، وكذلك حمل غيلان الدمشقى مذهبه من المدينة الى دمشق ، وأن المدينة قد شهدت ثانية ثورات المعتزلة الكبرى التى قادها محمد بن عبد الله بن الحسن ، النفس الزكية (٩٣ ـ ١٤٥ هـ ٧١٢ ـ ٧٦٢ م) كما أن نفوذهم قد عظم بمكة ، ويشير اليه ما رواه الشافعى عن علية من قوله « قدمت مكة ، فقلبت علينا المعتزلة ؟ .. وكذلك قول أحمد بن حنبل الذى رواه عن ابن عينية : لما مات عمرو بن دينار كان ابن أبى نجيح يفتى الناس .. (٢٢) أى ان عمرو بن دينار ، ومن بعده ابن أبى نجيح كان فيها منصب الافتاء ومركزه بمكة . وهما من المعتزلة .

وحتى الاندلس ذات الطابع المحافظ والسلفى ؛ فى الفقه وغيره من فنون الفكر الاسلامى وعلومه ، قد دخلها فكر المعتزلة بعد فترة من الزمن بواسطة الدارسين الاندلسيين الذين تتلمذوا فى بلاد المشرق ، « وسرعان ما لاقت المذاهب الاعتزالية ترحابا من الطبقة المثقفة » (٢٣) .

هذا عن الانتشار الجغرافى لفكر المعتزلة ونفوذهم ، أما هذا الفكر الذى كان بمثابة الخيوط التى ربطت أجزاء ذلك التيار الواسع والفرقة الكبيرة ، رغم اختلافات فى التفاصيل ، فهى التى اشتهرت باسم الاصول الخمسة للاعتزال .

---

(٢٢) المصدر السابق . ص ٧٩ .

(٢٣) جيوم (الفلسفة وعلم الكلام) ص ٣٧٧ .

وبالطبع فان هذه الاصول لم تكتمل دفعة واحدة ، ولم نصل الى عددها هذا فى زمن واصل بن عطاء (٨٠ـ١٣١هـ) وانما كانت على عهده أربعة اصول ، هى : التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين ، وتقييمه لاحداث الصراع السياسى الذى حدث فى صدر الاسلام ورأيه فى أطراف هذا الصراع .. ثم اكتملت هذه الاصول ، ووصلت الى خمسة فى عهد قيادة أبى الهذيل العلاف لفرقة المعتزلة .

لقد اتفق المعتزلة على هذه الاصول الخمسة : العدل ، والتوحيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والوعد والوعيد ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأجمعوا على نفى صفة الاعتزال عن المخالف ولو فى أحدها ، وعلى أن مدلول اسم (أهل العدل والتوحيد) أعم من مدلول أسم « المعتزلة »، اذ يدخل تحت الاول كثير من الخوارج والشيعة ، بينما لا يدخل تحت الثانى الا من جمع الاعتقاد بالاصول الخمسة جميعا ، دون أن يضر بعد ذلك الاختلاف فى التفاصيل .. هذا الاتفاق الذى حدث منهم جميعا يجعل من المعتزلة فرقة واحدة ، لا فرقا متعددة ، فلا اعتبار عندهم للخلاف فى التفاصيل ما دام هناك اتفاق على الاصول ، والقاضى عبد الجبار يعالج هذا الامر فيقول : « أعلم أن الاصول : هي التي يجمع عليها المعتزلة ، وتتفق عليها ، مما لا يختار عليه ولا ريب فيه ، وان كان الاختلاف الواقع بينهم فى فروع ذلك ، وشبه وردت عليه (٢٤) .. ومن هنا فان مؤرخى المقالات الذين جروا فى تاريخهم للمعتزلة على عادة تقسيمهم الى عشرين « فرقة » هى : الواصلية ، والعمرية، والهذيلية ، والنظامية ، والاسوارية ، والمعمرية ،

---

(٢٤) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٣٢ .

والثمامية ، والجاحظية ، والحايطية ، والحمـــارية ، والخيـــاطية ، والشحامية ، وأصحاب صالح قبـة ، والمويسية ، والكعبية ، والجبائية ، والبهشميه ، نسبة الى عدد من أعلام المعتزلة وائمتهم (٢٥) .. ان هـذا التقسيم خاطىء ، لان الاختلاف بين هؤلاء هو فى «مسائل» و « تفاصيل » و « فروع وشبه تعلقت بالفكر أثناء بحث « الاصول » الخمسة التى هى بمثابة « النظرية » التى اعتقد بها الجميع .

ولقد وقف المعتزلة بأصولهم عند هذه الخمسة لانهم رأوها المبادىء الاساسية التى يقع فيها الاختلاف بينهم وبين كل من خالفهم من فرق الاسلام وغيره ، فللعدد هنا حكمة واسباب ، والقاضى عبد الجبار يجيب من سأله : « ولم اقتصرتم على هذه الاصول الخمسة ؟؟ » فيقول : انه « لا خلاف أن المخالف لنا لا يعدو أحد هذه الاصول ، الا ترى أن خلاف الملحدة والمعطلة والدهرية والمشبهة قد دخل فى التوحيد ؟؟ وخلاف المجبرة بأسرهم دخل فى باب العدل ؟؟ وخلاف المرجئة دخل فى باب الوعد والوعيد ؟؟ وخلاف الخوارج دخل تحت المنزلة بين المنزلتين ؟؟ وخلاف الامامية دخل فى باب الامر بالمعـــروف والنهى عن المنكر (٢٦) ؟؟ » .

١ ـ أصل العدل :

ويختص مبحث هذا الاصل بقضايا الحرية والاختيار، بالنسبة للانسان ، وقضايا التعديل والتجوير ، بالنسبة للذات الالهية ، والمعتزلة يقررون بمبحثهم فى العدل أن

---

(٢٥) (الفرق بين الفرق) ص ١٨ .
(٢٦) (شرح الاصول الخمسة) ص ١٢٤ .

للانسان قدرة وارادة ومشيئة واستطاعة ، قد خلقهــا له خالقه ، وأنها تؤدى وظائفها ، بشكل مستقل وحر ، فيما يتعلق بالافعال المقدورة للانسان ، ومن ثم فان الانسان خالق أفعاله ، على سبيل الحقيقية لا المجاز ، ونسبة هذه الافعال اليه هى نسبة حقيقية ، ومن ثم فان الجزاء ، ثوابا وعقابا ، هو أمر منطقى ، ليست فيه شبهة جور تلحق بالبارى سبحانه ، كما هو الحال اذا قال المرء برأى المجبرة فى هذا الموضوع .

فهم لم يتحرجوا ـ كمـــا صنع غيرهم ـ عن وصف الانسان « بالخلق » لافعاله ، لانهم فرقوا بين « الخلق » وبين « الاختراع » و « الابداع » على غير صورة ومثال سابق ، « فالخلق » هو : الفعل والصنع على أساس من « التقدير والتخطيط » السابق على التنفيذ ، وأوردوا شواهد اللغة التى تصف الانسان بالخلق ، وقالوا : ان الخلق هو « التقدير .. ولهذا يقال : خلقت الاديم .. وقال زهير : ولانت تفرى ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى » (٢٧) .

كما استدلوا من القرآن على « ان العبد فى الحقيقة يوصف بأنه يخلق ، بقوله تعالى : « وتخلقون افكا » (٢٨)، وقوله : « فتبارك الله أحسن الخالقين » (٢٩) ، وقوله : « وان تخلق من الطين كهيئة الطير » (٣٠) وبينوا أن التعلق بقوله تعالى : « هل من خالق الا الله » (٣١) ، وقوله « أفمن يخلق كمن لا يخلق » (٣٢) ، لا يصح ، فهذا كلام من جهة العبارة ، فأما من جهة المعنى ، فانما

---

(٢٧) المصدر السابق . ص ٣٨٠ .
(٢٨) العنكبوت : ١٧ .
(٢٩) المؤمنون : ١٤ .
(٣٠) المائدة : ١١٠ .
(٣١) فاطر : ٣ .
(٣٢) النحل : ١٧ .

يجب أن نبين أن العبد يحدث الشيء ، وأنه يصح ان يحدثه مقدورا » (٣٣) . كما بينوا السر فى انصراف لفظ « الخالق » الى الله سبحانه ، دون الانسان ، وكيف ان اجراءه على هذا النحو فقط انما هو « من جهة التعارف .. كما لا يطلق قولنا « رب » الا عليه » وأن « ذلك غير مانع من ان يجرى على غيره ، وانما لم يجر الا عليه . مرسلا ، للايهام ، ولولاه كان لا يمتنع ذلك فيه » لان معنى « الخلق » انما هو وقوع الفعل « من فاعله مقدرا ، وان العبد قد يحدث الفعل بمقدار ، كما أنه تعالى يحدث ذلك ، فيجب أن يوصف بهذا الوصف . فاذا ثبت ذلك ، وكان عندهم أن الحركة المكتسبة مخلوقة ، فيجب أن يكون لها خالق وخالقها قد يكون الانسان ، كما أن خالق الحركة الضرورية هو الله تعالى (٣٤) .

وكما أثبتوا للانسان القدرة على « الخلق » اثبتوا له القدرة على الافناء ، بل قالوا انه يستطيع مثلا أن يفنى حياته ، بالانتحار ، فيكون قد أفنى فعل الله سبحانه « ذلك أن الواحد منا يجوز أن يفنى فعل الله تعالى ، الذى هو القدرة ، بفناء الحياة ، بأن يقتل نفسه .. ويجوز أن يبطل فعل الغير للسكون بتحريك المحل » (٣٥) .

ولقد أفاض المعتزلة فى دراسة هذا الاصل وفى تفصيل مباحثه ، وخلصوا الى ان أفعال الانسان غير مخلوقة لله سبحانه ، وأنها متعلقة بالانسان على جهة الاحداث ، وأنها واقعة منه بحسب قصده ودواعيه ، ومن ثم فهو فاعل

(٣٣) (المغنى) ج ٨ ص ١٦٣
(٣٤) المصدر السابق . ج ٨ ص ٢٨٣ .
(٣٥) المصدر السابق . ج ٨ ص ٢٨٨ .

لها على جهة الحقيقة .. الى آخر ما كتبوا فى هذا الاصل من أصولهم الخمسة (٣٦) .

٢ ـ اصل التوحيد :

وفى مبحث التوحيد هذا قدم المعتزلة للذات الالهية تصورا بلغ قمة « التنزيه » و « التجريد » فى الفكر الاسلامى ، بل الانسانى على الاطلاق .. فهم قد ناقضوا فكر « المشبهة » « الحشوية » الذين عجزت بهم مداركهم فلم يرتقوا بتصور الذات الالهية عن حدود المحدثات والمخلوقات . ولقد استند المعتزلة فى فكرهم « التنزيهى » هذا الى نقاء عقيدة التوحيد فى الاسلام ، كما صورتها الآيات المحكمة فى القرآن الكريم ، فصاغوا تصورهم هذا فى مواجهة عديد من الاديان والفرق والنحل التى تردت فى هاوية التشبيه .

فلقد رأوا فى التثليث المسيحى تشبيها بلغ حد القول « بالحلول والاتحاد » ، بل رأوا أن جوهر الخلاف بين الاسلام والمسيحية منحصر فى هذا الموضوع ، ومن هنا كان قول القاضى عبد الجبار : أن الكلام مع « النصارى » يقع فى موضعين :

أحدهما :

فى التثليث ، فانهم يقولون : انه تعالى جوهر واحد : وثلاثة أقانيم : اقنوم الاب ، يعنون به ذات البارى ، عز اسمه ، وأقنوم الابن اى الكلمة ، وأقنوم روح القدس ،

---

(٣٦) تناولنا تفاصيل هذا الاصل فى كتابنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية) طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م . وهو فى الاصل البحث الذى حصلنا به على درجة الماجستير فى يونيو سنة ١٩٧٠ م .

اى الحياة . وربما يغيرون العبارة ، فيقولون : انه ثلاثة أقانيم ذات جوهر واحد .

والموضوع الثانى :

فى الاتحاد ، فقد اتفقوا على القول به ، وقالوا : انه تعالى اتحد بالمسيح ، فيحصل للمسيح طبيعتان : طبيعة ناسوتية ، وأخرى لاهوتية ... (٣٧) .

وفى اطار عرض المعتزلة لفكرهم « التنزيهى » فى التوحيد نقضوا فكر المسيحية فى التثليث ، والاتحاد ، والحلول ، وهاجموا فكرة « قدم كلمة الله » ـ (المسيح) ـ وظهورها وحلولها فى الجسد ، وتتبعوا بالنقد فكر المسيحية التشبيهى والتجسيدى عند النساطرة والملكانية وغيرهما (٣٨) .

كما هاجموا القول باللاثنينية عند « الثنوية » القائلين بالهين ، أحدهما للخير والاخر للشر ـ « النور والظلمة » ـ وتتبعوا فكر الثنوية لدى فرقها المختلفة ، من «مزدقية» و « ديصانية » و « مرقيونية » و « ماهانية » و «صيامية» و « مقلاصية » وكشفوا عن العلاقات بين فكر مانى ، الذى ادعى النبوة فى القرن الثالث الميلادى ، بفارس ، وبين كل من « المجوسية والنصرانية » .. (٣٩) كما كشفوا عن آثار التشبيه المسيحى فى معتقدات الفرق الاسلامية المشبهة ، من غلاة الشيعة ، والمرجئة ، مثل : فروع « الرافضة » ، و « الشيطانية » ، و « البنانية » ، و « المغيرية » و « اليونسية » و «العبيدية» و «الكرامية»

---

(٣٧) شرح الاصول الخمسة) ص ٢٩٢ .
(٣٨) (المغنى) جـ ٥ ص ٨٠ ـ ١٥١ .
(٣٩) المصدر السابق . جـ ٥ ص ٩ ـ ٧٠ .

وغيرهم ، وكيف وصل بهم التشبيه الى القول بأن الله « جسم لا كالاجسام ، وهو مركب من لحم ودم لا كاللحوم والدماء ، وله الاعضاء والجوارح ، وتجوز عليه الملامسة والمصافحة والمعانقة للمخلصين » وأنه « جسم ذو هيئة وصورة يتحرك ويسكن ، ويزول وينتقل » الى آخر هذه التصورات المرتكزة الى التجسيد والتشبيه والتجسيم .. (٤٠) .

كما هاجموا تشبيه اليهود أيضا .. واكثر اليهود مشبهة ، كما يقول الفخر الرازى (٤١) .

وفى معارضة هذه الاديان والفرق جميعا قدم المعتزلة تصورهم التنزيهى والتجريدى عن الذات الالهية .. وهو التصور الذى ارتكز على رفض كل ما يوهم تعدد القديم ، او مماثلة القديم لاى محدث من المحدثات .. فقالوا بوحدة الذات والصفات .. ورفضوا امكانية رؤية الله ، فى الدنيا او الآخرة ، لانها تستلزم التحيز والمكان والجهة ، وهى أشياء وحالات حكموا باستحالتها وانتفائها بالنسبة لله .. كما كان قولهم بخلق القرآن ثمرة لرفضهم قدم الكلمة ،

(٤٠) عن هذه الفرق المجسمة ، انظر : (مقالات الاسلاميين) ـ طبعة استانبول ـ ج ١ ص ٥ ـ ٧ ، ٢٣ ، ٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٣ . و (كشاف اصطلاحات الفنون) للتهانوى ، ص ٨٠٥ ، ٧٨٧ ، ١٠٩٢ ، ١٥٤٤ ، ٩٤٩ ، ١٢٦٦ . طبعة كلكتة بالهند سنة ١٨٩٢ م . و (التعريفات) للجرجانى . ص ٤٠ ، ١٩٩ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م . و (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) للفخر الرازى ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٧ . طبعة القاهرة ١٩٣٨ م . (الانتصارات) للخياط ص ٨١٧ . تحقيق نيبرج طبعة القاهرة ١٩٢٥ م .

(٤١) (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) ص ٦٣ .

التى أدت الى شبهة قدم المسيح ، ثم التشبيه والتجسيد المسيحى (٤٢) .

٣ ــ أصل : الوعد والوعيد :

وفى مبحث المعتزلة هذا رفضوا فكر المرجئة ، الذين فصلوا ما بين الايمان والعمل ، فقال المعتزلة : ان الوعد يعنى أن من أطاع الله دخل الجنة ، وأن وعد الله بذلك صدق لا يمكن أن يتخلف عن الوقوع ، لان « حقيقة الوعد : كل خبر يتضمن وصول نفع الى الموعود ، سواء كان على طريق الاستحقاق أو على طريق التفضل .. فالله قد وعد المطيع بالثواب الذى يستحقه ، ووعده زيادة على المستحق بطريق التفضل » .

أما الوعيد فانه يعنى : أن من عصى الله دخل النار ، وخلد فيها أبدا اذا كانت ذنوبه كبائر لم يتب منها قبل مماته ، وهذا الوعيد صدق لن يتخلف وقوعه أبدا ، اذ الوعيد « هو الخبر المشتمل على وصول ضرر الى المتوعد . والغرض منه ما قد ورد عن الله فى معنى العصاة ولا يتوعد جل وعز الا بالمستحق ، لانه اذا خرج عن المستحق دخل فى حد الظلم » .

وكما ينطبق الوعيد على الكفار ينطبق كذلك على « الفسقة » مرتكبى الكبائر من المسلمين ، « وذلك لان آيات الوعيد هى واردة بلفظة ، تتناول الفسقة كتناولها الكفرة » (٤٣) .

---

(٤٢) تفصيل موقف المعتزلة فى (التوحيد) تناولناه فى كتابنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية) ص ٤٧ ــ ٦٣ .

(٤٣) القاضى عبد الجبار (المحيط بالتكليف) السفر التاسع والعشرون مخطوط مصور بدار الكتب المصرية . اللوحة ٦٠ ب .

ولقد رتب المعتزلة على هذا الاصل انكار نفع «الشفاعة» من الرسول أو غيره ، يوم القيامة ، لاحد من «الفسقة» ، وقصروا امكان حدوث هذه « الشفاعة » « للمؤمنين » دون « الفسقة » ، وقالوا : ان « الذى عندنا أن هذه الشفاعة تثبت للمؤمنين دون الفاسقين » ، (٤٤) ومن تم فانها لا تفيد الاخراج من النار الى الجنة ، وانما يقتصر أثرها على رفع درجات المؤمنين فى النعيم .

ولقد سبق أن أشرنا الى الطابع السياسي للصراع الذى دار بين المعتزلة والمرجئة حول هذه القضية ، وكيف كان فكر المرجئة يملى للظالمين ويمد لهم حبال الامل فى النجاة ، بينما كان فكر المعتزلة يحكم عليهم بالفسق والخلود فى النار . على حين حكم عليهم فكر الخوارج بالكفر والشرك بالله . .

٤ ـ أصل : المنزلة بين المنزلتين :

وأصل المنزلة بين المنزلتين ، هو الذى جاء به واصل بن عطاء . فأحدث ذلك الانشقاق فى صفوف القائلين بالعدل والتوحيد ، فنشأت المعتزلة كفرقة مستقلة ، هى أخص من القائلين بالعدل والتوحيد . ويعنى هذا الاصل : ان مرتكب الكبيرة ، الذى أجمع الخوارج ، والمرجئة وأهل العدل على تسميته « بفاسق » ، ثم اختلفوا بعد ذلك ، فقال الخوارج هو : فاسق كافر ، وقالت المرجئة : هو فاسق مؤمن ، وقال أصحاب الحسن البصرى : هو فاسق منافق . يعنى أصل المنزلة بين المنزلتين ، عند واصل والمعتزلة ، الاخذ بما اتفق عليه الجميع من أن مرتكب

---

(٤٤) المصدر السابق . السفر التاسع والعشرون . اللوحة ٧٨ ب ، ٧٩ أ .

الكبيرة « فاسق » ، رفض ما عدا ذلك من الآراء المختلف فيها وعليها ، ثم الحكم بأن هذا الفاسق هـو فى منزلة وسط بين منزلتي « الـــكفر » و « الايمان » ، لمباينته درجات الكفار وأحكامهم ودرجات المؤمنين وصفاتهم ، وأنه بعد ذلك مخلد فى النار ، وان يـكن فى درجة من العذاب دون درجة المشركين .

ولقد أخطأ البغدادى عندما قال ان النزاع الذى دار حول مرتكب الكبيرة كان بصدد تقييم أطراف النزاع على السلطة زمن على بن ابى طالب . يقول البغدادى : « ثم ان واصلا فارق السلف ببدعة ثالثة ، وذلك أنه وجد أهل عصره مختلفين فى على وأصـــحابه ، وفى طلحة والزبير وعائشة وسائر أصحاب الجمل فزعمت الخوارج ان طلحة والزبير وعائشة وأتباعهم يوم الجمل كفروا بقتالهم عليا ، وأن عليا كان على الحق فى قتال أصحاب الجمل ، وفى قتال أصحاب معاوية فى صفين ، الى وقت التحكيم ، ثم كفر بالتحكيم . وكان أهل السنة والجماعة يقولون بصحة اسلام الفريقين فى حرب الجمل . وأن عليا كان على الحق. وأصحاب الجمل كانوا عصاة مخطئين ، ولم يكن خطؤهم كفرا ولا فسقا . فخرج واصل عن قول الفريقين(٤٥)الخ» .

أخطأ البغدادى فى قوله هذا ، لأن القضية التى أدت الى نشأة أصل المنزلة بين المنزلتين لم تكن المجادلة من حول تقييم تلك الاحداث وأطرافها ، وانما كان الامر متعلقا بالحكم على ايمان بنى أمية ، الذين فشت مظالمهم ، وأصبح الجميع شبه متفقين على أنهم من مرتكبى الكبائر، وعلى أنهم « فسقة » ، ونشأ الخلاف على ما يأتى بعد

---

(٤٥) (الفرق بين الفرق) ص ٩٩ ، ١٠٠ .

الحكم « بالفسق » الذى اتفقوا عليه . وكان ذلك أواخر الدولة الاموية عندما اشتدت ثورات الخوارج الازارقة ، فطرحت هذه القضية بالحاح على دوائر الفكر الاسلامى ، ويقطع بصحة ما نقول ان « النموذج » الذى كان يدور الجدل حول « ايمانه » كانت الاطراف كلها قد اتفقت على « فسقه وفجوره » ، ولم تتفق الاطراف جميعها أبدا على « فسق وفجور » أصحاب الجمل ، أو على ، او معاوية وأهل الشام . والخياط يفصل الحديث عن نشأة هذا الاصل فيقول : « ان الخوارج ، وأصحاب الحسن ـ (البصرى) ـ كلهم مجمعون ، والمرجئة على أن صاحب الكبيرة فاسق فاجر ، ثم تفردت الخوارج وحدها فقالت: هو ، مع فسقه وفجوره ، كافر . وقالت المرجئة وحدها : هو ، مع فسقه وفجوره مؤمن . وقال الحسن ومن تابعه: هو ، مع فسقه وفجوره ، منافق . فقال لهم واصل : قد أجمعتم أن سميتم صاحب الكبيرة بالفسق والفجور ، فهو اسم له صحيح باجماعكم ، وقد نطق القرآن به فى آية القاذف وغيرها من القرآن ، فوجب تسميته به . وما تفرد به كل فريق منكم من الاسماء فدعوى لا تقبل منه الا ببينة من كتاب الله أو من سنة نبيه صلى الله عليه .. ثم قال واصل للخوارج : وجدت أحكام الكفار ، المجمع عليها ، المنصوصة فى القرآن ، كلهـــا زائلة عن صاحب الكبيرة ، فوجب زوال اسم الكفر عنه بزوال حكمه .. ثم قد جاءت السنة المجتمع عليها ان أهل الكفر لا يوارثون ولا يدفنون فى مقابر أهل القبلة ، وليس يفعل ذلك فى صاحب الكبيرة . وحكم الله فى المنافق : انه ان ستر نفاقه فلم يعلم به ، وكان ظاهره الاسلام ، فهـو عندنا مسلم ، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وان اظهر

كفره استتيب ، فان تاب والا قتل ، وهذا الحكم زائل عن صاحب الكبيرة ، وحكم الله فى المؤمن : الولاية والمحبة والوعد بالجنة .. وحكم الله فى صاحب الكبيرة ، فى كتابه ، أن لعنه وبرىء منه وأعد له عذابا عظيما .. فوجب أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ، بزوال أحكام الايمان عنه فى كتاب الله ، ووجب أنه ليس بكافر ، بزوال أحكام الكفر عنه ، ووجب انه ليس بمنافق ، فى زوال أحكام المنافقين عنه فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجب أنه فاسق فاجر لاجماع الامة على تسميته بذلك ، وبتسمية الله له به فى كتابه » (٤٦) .

تلك هى مناسبة ظهور هذا الاصل من أصول المعتزلة . . وهو عندهم من المسائل الشرعية التى لا مجال للعقل فيها، لانه « كلام فى مقادير الثواب والعقاب ، وهذا لا يعلم عقلا (٤٧) .. » وكانوا يطلقون عليه اسم « الاسماء والاحكام » (٤٨) أحيانا ، لدورانه حول أسماء مرتكبى الكبائر وأحكامهم ..

فهو أصل من أصول المعتزلة الفكرية ، ذات الطابع السياسى ، والطابع السياسى العام على وجه التحديد ، لانه نشأ كموقف « فكرى — سياسى » فى صراع سياسى كان محتدما ، يومئذ ، ضد الامويين ، ولم يكن مجرد موقف من الانسان العادى الذى يرتكب ذنبا من الذنوب الكبائر ثم يموت دون أن يتوب منه الى الله تعالى .

كما كان هذا الاصل هو أحد ما لقب المعتزلة بسببه بالاعتزال (٤٩) .

---

(٤٦) (الانتصار ، والرد على ابن الراوندى الملحد) ص ١٦٥ — ١٦٧
(٤٧) (شرح الاصول الخمسة) ص ١٣٨ .
(٤٨) (مروج) الذهب) جـ ٢ ص ١٧٤ .
(٤٩) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٣٦ .

٥ ــ أصل : الامر بالمعروف والنهى عن المنكر :

لا خلاف بين فرق الاسلام جميعها فى وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لان القرآن يقول : « ولتكن منكم أمة يدعون ألى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (٥٠) ، ويقول : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » (٥١) ، ولان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره . بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » .

ولكن الخلاف وقع حول وسيلة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبالذات فى استخدام القوة والثورة والخروج المسلح للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. كما وقع فى بعض الجزئيات والتفاصيل ..

فأصحاب الحديث انفردوا وحدهم ، دون فرق الاسلام ، بتحريم السيف ، وانكار الخروج المسلح على ائمة الجور وظلمة الحكام ، وقالوا : « ان السيف باطل ، ولو قتلت الرجال وسبيت الذرية ، وأن الامام قد يكون عادلا ، ويكون غير عادل ، وليس لنا ازالته وان كان فاسقا وأنكروا الخروج على السلطان ولم يروه .. » (٥٢) .

والشيعة الامامية قيدوا جواز استخدام السيف والخروج المسلح بحالة قيام الامام . « فاذا خرج الناطق وجب سل السيوف حينئذ معه » أما قبل خروجه فلا تسل السيوف (٥٣) .

---

(٥٠) آل عمران : ١٠٤ . (٥١) آل عمران : ١١٠ .

(٥٢) (مقالات الاسلاميين) ــ طبعة استانبول ــ جـ ٢ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ . (٥٣) (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) جـ ٤ ص ٣١

وبعض أهل السنة ـ وخاصة الصحابة الذين اعتزلوا صراع على وخصومه واتخذوا من ذلك الصراع موقفهم السلبى المعروف ـ ومنهم سعد بن أبى وقاص ، وأسامة ابن زيد ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة .. الخ .. الخ وتبعهم من أهل الحديث أحمد بن حنبل وجماعة من أتباعه .. يقولون ان وسيلة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر هى القلب فقط أو باللسان ، ان قدر على ذلك، وينكرون أن يكون ذلك باليد ، فضلا عن السيف .

اما جميع المعتزلة والخوارج والزيدية ، وطوائف من اهل السنة فانهم يوجبون الامر بالمعروف والنهى عن المنكر بالوسائل الثلاث : السيف ، فاليد ، فالقلب ، الذى هو أضعف الايمان (٥٤) واستدلوا على جواز الخروج بالسيف بقول الله سبحانه : « وتعاونوا على البر والتقوى (٥٥) وقوله : « فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله » (٥٦) ، وقوله : « لا ينال عهدى الظالمين »(٥٧).

والمعتزلة البغداديون يلتمسون فى كلام الامام على الادلة على وجوب الخروج بالسيف على أئمة الجور ـ بعد القرآن والسنة ـ خاصة قوله : « أيها المؤمنون ، من راى عدوانا يعمل به ، ومنكرا يدعى اليه ، فأنكره بقلبه فقد سلم وبرىء ، ومن انكره بلسانه فقد اجر ، وهو افضل من صاحبه ، ومن انكره بالسيف لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الظالمين هى السفلى ، فذلك الذى اصاب سبيل الهدى ، وقام على الطريق ، ونور فى قلبه اليقين » وكذلك قوله يتحدث عن أصناف الناس ، » .. فمنهم :

(٥٤) المصدر السابق . جـ ٤ ص ٣١ .
(٥٥) المائدة : ٢
(٥٦) الحجرات : ٩ .
(٥٧) البقرة : ١٢٤ .

المنكر للمنكر بيده ولسانه وقلبه ، فذلك متمسك بخصلتين من خصال الخير ، ومضيع خصلة ، ومنهم المنكر بقلبه ، والتارك بيده ولسانه ، فذلك الذى ضيع أشرف الخصلتين من الثلاث وتمسك بواحدة ، ومنهم : تارك لانكار المنكر بلسانه وقلبه ويده ، فذلك ميت الاحياء .. فما أعمال البر كلها ، والجهاد فى سبيل الله ، عند الامر بالمعروف والنهى عن المنكر الا كنفثة فى بحر لجى ، وان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقربان من أجل ، ولا ينقصان من رزق ، وافضل من ذلك كله كلمة عدل عند امام جائر (٥٨) » .

والمعتزلة يرون فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « اصلا عظيما من أصول الدين » ، ويرجعون اليه والى الوفاء بحقه كل الجوانب الثورية التى نهضت بها فى الصراع السياسى والاجتماعى مختلف فرق الاسلام ، حتى من غير المعتزلة .. فهم لا يعيبون خروج الخوارج وتجريدهم للسيف ـ فيما عدا الشبهة التى عابوها عليهم فى على والتحكيم ـ لانهم قد « خرجوا على السلطان ، متمسكين بالدين وشعار الاسلام ، مجتهدين فى العبادة .. خرجوا لما غلب على ظنونهم ، أو علموا جور الولاة وظلمهم ، وأن أحكام الشريعة قد غيرت ، وحكم بما لم يحكم به الله .. » .. كما يرجعون الى أصل الامر بالمعروف والنهى عن المنكر « تبنى الاسماعيلية قتل ولاة الجور غيله » . كما يرونه الدافع للزاهدين الى الانكار على الامراء والخلفاء بالكلام الغليظ ، بعد أن عجزوا عن الانكار باليد .. ثم يخلصون ، كما خلص الامام على ،

(٥٨) (نهج البلاغة) ص ٤١٤ ، ٤١٥ .

الى قولهم : « .. وبالجملة .. فهو أصل شريف . أشرف من جميع أبواب البر والعبادة .. » (٥٩) .

وعندهم أن الهدف المبتغى من تطبيق هذا الاصل من أصولهم الفكرية « هو ان لا يضيع المعروف ، ولا يقع المنكر » . أى أن تظل معالم الحق والهدى بينة يهتدى بها الناس ، وان يختفى المنكر من حياة الناس ومجتمعاتهم ، فاذا تحققت هذه الغاية برىء الناس من تبعة وجوب هذا الاصل ، فهو واجب على الكفاية ومن فروضها (٦٠) .. ومعلوم أن فروض الكفاية أكثر أهمية وأشد تأكيدا من فروض الاعيان ، لان تخلف قيام فرض العين يأثم به من أهمل فيه ، أما تخلف قيام فرض الكفاية فالذى يأثم به الامة جمعاء .

وهم بعد اتفاقهم على وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يختلفون فى طريق العلم بهذا الوجوب .. أهو العقل ؟ أم السمع ؟ فأبو على الجبائى يرى أنه يعلم بالعقل والسمع معا فى كل الحالات ، أما ابنه أبو هاشم فيرى أن السمع هو طريق العلم به الا فى حالة واحدة هى التى ينضم فيها طريق العقل الى طريق السمع ، وهى تلك التى يرى الانسان فيها ظلما يقع على غيره ، فتحرك رؤية هذا الظلم فى قلب الرائى المضض والامتعاض ، عند ذلك يجب النهى عن المنكر عقلا ، كما وجب عن طريق السمع أيضا (٦١) .

واذا كان الامر بالمعرف — كأصل عام — هو واجب :

---

(٥٩) (سرح نهج البلاغة) جـ ١٩ ص ٣١١ .
(٦٠) (شرح الاصول الخمسة) ص ١٤٨ .
(٦١) المصدر السابق . ص ١٤٢ .

فان الامر يختلف عندما ندخل فى التفاصيل .. ذلك أن الوجوب المتقدم هو بمعنى انه مطلوب ومدعو الى النهوض به من قبل الشارع ، اما اذا انتقلنا الى حكمه من حيث هو فرض او سنه او مندوب ، فان بعض المعتزله يرون اختلاف درجته باختلاف الامر الذى نحن بصدد الامر به ـ فالامر بالشيء الواجب واجب ، والامر بالقيــــام بالسنه سنه ، والامر بأداء المندوب مندوب .. اما النهى عن المنكر فهو واجب ، اى فرض فى كل الحـــــالات ، وبصرف النظر عن نوع المنكر ودرجته فى التحريم بين المحرمات .. وهذا لتفصيل وتلك التفرقة اضافة من ابى على الجبائى ، وأفقه عليها القاضى عبد الجبار ، أما من سبقهم من المعتزلة فانهم قد أوجبوا الامر بالمعـــروف والنهى عن المنكر بلا تفرقة ولا تمييز بين الافعال المأمور بها ، وبصرف النظر عن حكمها ، واجبة كانت أم سنة أم مندبا اليها (٦٢) .

وفيما يتعلق بالمنكر الذى يجب النهى عنه ، فهو اما أن يقع على مثلا ، أو يقع لغيرى من الناس ، فان وقع على منكر طفيف لا يعتد به ، كأن غصبنى شخص ما دراهم معدودة . والحال أن لى ثروة طائلة ، فان لى أن أتجاوز عن النهى عن هذا المنكر ، ووجوب النهى عن المنكر فى هذه الحالة وان كان قائمـــــا « شرعا » فهو غير قائم « عقلا » لانتفاء الاضرار الحقيقى بتفاهة الدراهم المعدودة قياسا الى الثروة الطائلة ...

أما اذا كان المنكر الذى وقع على «مما يقع به الاعتداد» ويحدث به التضرر ، كاغتصاب الدرهم من الفقير المعسر ،

---

(٦٢) المصدر السابق ، ص ١٤٦ .

فان النهى عن المنكر ، الذى وقع لى ، فى هذه الحالة يجب على « عقلا » و « شرعا » .. هذا فيمـــا يتعلق بالمنكر اذا وقع على من نتحدث عن وجوب النهى عنه عليه .

أما اذا وقع المنكر على الغير فان أبا الجبائى يوجب النهى عنه عقلا وشرعا ، فى كل حالاته ، ويختلف معه ابنه ابو هاشم ، فيرى الوجوب شرعا فقط ، الا اذا كان المنكر من البشاعة بحيث يبعث على الامتعاض والمضض ، عند ذلك يكون العقل والشرع معا متضافرين فى وجوب النهى عن وقوعه ..

وكذلك ميزوا بين المنكر الذى يلحق ضرره بالغير وذلك الذى تقتصر أضراره على الذات ، من حيث جواز تغير الموقف منه بحدوث الاكراه عليه .. فاذا أكره الانسان على فعل منكر لا يتعدى ضرره ذاته ، كأن يكره على أكل الميتة أو شرب الخمر ، أو التلفظ بكلمة الكفر ـ بشرط ابطان ضدها ـ جاز الخضوع للاكراه .. أما اذا أجبر على فعل منكر يتعدى ضرره الى الغير ، كالقتل والقذف ، مما لا يمكن تدارك آثاره ، فلا يجوز له الخضوع للاكراه ، أما اذا أكره على اغتصاب مال الغير ، وهو أمر يمكن فيه الضمان والتعويض بعد زوال الاكراه ، فيجوز له الخضوع للاكراه ، مع الضمان للمال المغصوب (٦٣) .

وهناك اختلاف بين الامر بالمعـروف وبين النهى عن المنكر فى حالة أخرى .. ذلك أن المطلوب فى الامر بالمعروف هو الامر به فقط ، وليس مطلوبا حمل الغير على الامتثال لهذا الامر ، فالواجب هو الامر باقامة الصلاة ، لا حمل

(٦٣) المصدر السابق . ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

تاركها على القيام بها .. اما المنكر فان الواجب هو النهى عنه ، وحمل فاعله على الانتهاء عنه ، باللسان ، ثم اليد ، ثم السيف ، حسب مقتضيات الاحوال (٦٤) .

ولقد عرض المعتزلة لرأى الذين قالوا ان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر هو من سلطات الامام ، لا الافراد ، وأن ذلك موقوف عليه متوقف على وجوده ، فأنكروا هذا الرأى « لان الدلالة التى دلت على وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، من الكتاب والسنة والاجماع ، لم تفصل بين أن يكون هناك امام وبين أن لا يكون » .. ثم فصلوا الامر فى مثل تلك الحالة فقالوا : « ان القضية لا تتعلق بوجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر أو تخلف هذا الوجوب ، وانما تتعلق بأن هناك أمورا يختص بها الامام وأخرى تجب على عامة الناس .. فمثلا : اقامة الحدود ، والدفاع عن الدولة وثغورها وحفظ بيضة الاسلام ، وتجييش الجيوش وتسييرها ، وتنصيب القضاة والامراء ، ومثلها من الامور العامة التى تجل عن سلطان الافراد وقدراتهم ، هى من متعلقات الامام وواجباته ، أما الامور التى يستطيع فيها الفرد أن يكون مؤثرا مثل النهى عن الخمر والزنا والسرقة وغيرها مما ماثلها ، فان القيام بها واجب على الجميع ، وان كان الرجوع الى الامام والدولة هو الاولى فى كل الحالات (٦٥) .

ولقد فصل المعتزلة فى حالات مرتكب المنكر ، فهناك منكر يرتكبه فرد أو افراد متفرقون ، لا تضمهم رابطة قامت لفعل هذا المنكر ولا يجمعهم حزب قد تألف لهذا

---

(٦٤) المصدر السابق . ص ٧٤٤ ، ٧٤٥ .
(٦٥) المصدر السابق . ص ١٤٨ .

الغرض .. والنهى عن هذا المنكر واجب على كل من شاهده من فاعلية أو سمعة من قائليه .. أما اذا كانت هناك عصبة قد تألفت وتحزبت لفعل هذا المنكر ، فان أبا بكر الاصم ــ (من الطبقة السادسة) ــ هو وحده من بين المعتزلة الذى يشترط أن يقود أمام عدل مهمة الانكار على هــذه العصبة المتحزبة ، على حين يقــول غيره من المعتزلة ان انكار المنكر هنا والنهى عنه واجب ، سواء وجد الامام أم لم يوجد (٦٦) فموقف الاصم هنا يلتقى مع موقف الشيعة الذين يرون الاحجام عن الانكار بالقوة على فعلة المنكر الا اذا ظهر أمامهم المنتظر .. أما موقف أصحاب الحديث فهو أن ــ « الاولى بالانســـان أن يكون كافا ممسكا ، وملازما لبيته وادعا ،غيره نكر ولا مستقر»(٦٧).

وأخيرا .. فان وجــوب الامر بالمعــروف والنهى عن المنكر مقيد عنــد المعتزلة ومرهون بتوافر الشروط التى تجعل هذا الامر وذلك النهى مثمرا مخافة أن يأتى الامر والنهى بضد المطلوب .. وهذه الشروط هى :

أولا : أن نعلم ان ما نأمر به هو من « المعروف » ، وما ننهى عنه هو « المنكر » ، ولا يكفى فى ذلك غلبــة الظن ، اذ لابد من بلوغ درجة العلم بقيام « المنكر » .. فيجب النهى عليها .

---

(٦٦) هذا دليل على آن الاصم لم ينكر وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر كما يقول الاشعرى ، فهو يشترط وجود الامام العادل كى يقود التصدى لاهل المنكر المتحزبين المتعصبين .. وفرق بين هذا الموقف فى هذه الجزئية وبين ما يفهم من قول الاشعرى : (واجمعت المعتزلة ، الا الاصم ، على وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مع الامكان والقدرة ..) انظر : (مقالات الاسلاميين) ج ١ ص ٣٣٧ .

(٦٧) (أدب الدنيا والدين) ص ١٠١ ــ ١٠٣ .

ثانيا : أن « المنكر » الذى يجب النهى عنه « قائما ، مشاهدا » كأن نرى الخمر أو أدواتها مثلا .. وحكموا بأن غلبة الظن تقوم مقام العلم .

ثالثا : أن نعلم ان نهينا عن « المنكر » لن يؤدى الى حدوث « منكر » أشد من المنهى عنه فلا يصح أن ننهى عن « منكر » ، مثل شرب الخمر ، اذا علمنا ، أو غلب على ظننا ، أن هذا النهى سيؤدى الى قتل أو فساد أشد من شرب الخمر .. عندئذ لا يجب النهى ولا يحسن .

رابعا : ان نعلم أن نهينا سيحدث تأثيرا ايجابيا ، وأنه لن يذهب عبثا وادراج الرياح ، أو على الاقل يغلب على ظننا ذلك .. والا فلم يجب النهى .. وفى حالة انتفاء الوجوب قال بعض المعتزلة يحسن النهى لانه بمنزلة استدعاء الفير للدين ، وقال آخرون لا يحسن ، لانه عبث ..

خامسا : ان نعلم ، او يغلب على ظننا ، ان النهى عن المنكر لن يؤدى الى وقوع ضرر فى المال او النفس للناهين عن المنكر .. والضرر المعتبر هنا يختلف باختلاف قدرات الناس وحالاتهم ومنازلهم ، فالشتم والضرب قد يكون ضررا بالنسبة للبعض يبرر له الاستناع عن التعرض للنهى عن المنكر ، وقد لا يكون ضررا بالنسبة للآخرين .. واذا انتفى الوجوب اتقاء للضرر ، فانه يحسن النهى عن المنكر ، خاصة اذا علم أن وقوع الضرر على الناهى عن المنكر مما يزيد فى اعزاز الدين بابراز النماذج التى تضحى فى سبيل اقامة شرعته .

وفى الحالات التى ينتفى فيها وجوب النهى عن المنكر ، لفقدان الشروط الواجب توافرها فان اظهار الكراهية

والرفض للمنكر وأهله هو واجب على الجميع ، وخاصة على من يتوهم منه الرضى بالمنكر ، أما من لا يتوهم منه ذلك فان انكاره ورفضه معلومة حتى دون اظهار واعلان (٦٨) .

وحتى نفهم قصد المعتزلة من وراء اشتراط هذه الشروط ، لابد أن نعى أنهم قد استهدفوا بها ضمان تحقيق الفرض المنشود من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فهم مثلا ، مع سل السيف ضد الامام الجائر ، ويوردون فى هذا الباب الحديث الذى رواه حذيفة : « قلت : يا رسول الله ، أيكون بعد الخير الذى أعطينا شر ، كما كان قبله ؟ قال : نعم قلت فيمن نعتصم ؟ قال : بالسيف » (٦٩) ومع ذلك يشترطون للثورة على أئمة الجور أن يكون الثوار جماعة يقودها أمام والنصر محتمل بالنسبة لثورتها ، فقالوا : « اذا كنا جماعة ، وكان الغالب عندنا أنا نكفى مخالفينا ، عقدنا للامام ، ونهضنا ، فقتلنا السلطان وأزلناه ، وأخذنا الناس بالانقياد لقولنا » .. (٧٠) . فهى شروط تمثل الضمانات الضرورية كي يؤتى الامر والنهى ثمرنه ، وحتى تتميز الثورة عن الفوضى والتمردات ..

ذلك هو الاصل الخامس من أصول المعتزلة الفكرية .. وهى الاصول التى كونت نظرية هذه الفرقة ، بشرت بها، وحاولت وضعها موضع التطبيق .

ولقد كان وراء النشاط الفكرى والعملى الذى قام به المعتزلة تنظيم اقاموه لجماعتهم وفرقتهم فى طول البلاد

(٦٨) (شرح الاصول المخسة) ص ١٤٢ ــ ١٤٤ .
(٦٩) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ ص ٧٤ .
(٧٠) (مقالات الاسلاميين) ــ طبعة استانبول ــ جـ ٢ ص ٤٦٦ .

وعرضها ، فكان لهم الاداة الفعالة فى بث فكرهم وتجميع الانصار حول أصولهم الخمسة ، والسعى للوصول برجالاتهم الى مراكز التأثير فى الدولة ، بل واقامة دولة المعتزلة والاستئثار بامارة المؤمنين ..

حقيقة ليست هناك ، حتى الآن ، معلومات كافية لتقديم دراسة وافية عن هذا التنظيم ، ففى ضياع أغلب تراث المعتزلة ثغرة تحول دون الوصول الى هذه المعلومات ، وفى سرية هذا التنظيم ، بسبب ما تعرضت له الفرقة من اضطهاد سبب آخر لا يفسح الامل فى العثور على كثير من المعلومات فى هذا الباب ..

ولكن هناك اشارات هامة الى أن واصل بن عطاء هو الذى نهض بمهمة قيادة بناء هذا التنظيم .. وأن هذا التنظيم قد امتدت ركائزه وميادين نشاطه من حدود الصين شرقا الى خلف بلاد البربر غربا .

له خلف شعب الصين فى كل ثغرة
الى سوسها الاقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم
تهكم جبار ولا كيد ماكر (٧١)

وان قيادة واصل لهذا التنظيم ، وحب رجاله له وطاعتهم اياه قد بلغت درجة عظمى فى الامتثال والتنفيذ لما يريد ، حتى ليقول عثمان الطويل (من الطبقة الخامسة) ـ وهو احد الدعاة فى ذلك التنظيم ، على عهد واصل ، ان واصلا كان يملك نفوس المعتزلة دون أصحاب هذه النفوس ؟ يقول : « ما كنا نرى أن لنا على انفسنا ملكا

(٧١) (البيان والتبيين) جـ ١ ص ٢٨ .

حياة واصل ، حتى مات ، لقوله للواحد منا : أخرج الى بلد كذا فما يراه » (٧٢) .

ولقد كانت البصرة مقر قيادة هذا التنظيم المعتزلى . حتى لقد وصلت سيطرة المعتزلة عليها الى الحد الذى صاروا ينفون منها ويخرجون كل من ينـــاوىء مذهبهم ويناصبهم العــداء ، فعبد الــكريم بن أبى العرجاء ــ وكان من أعلام المتكلمين فى البصرة ــ قد ترك الطريق السوى ، ومال الى المجــون والفسق ، وأخذ يفســد الاحداث بالبصرة ، فقال له عمرو بن عبيد : « قد بلغنى أنك تخلو بالحدث من أحداثنا فتفسده وتستزله ، (٧٣) وتدخله فى دينك ، فان خرجت من مصرنا والا قمت فيك مقاما آتى فيه على نفسك ؟ ففادر ابن أبى العرجاء البصرة الى الكوفة ، حيث لقى جزاء فسقه هناك (٧٤) .

ومن البصرة هذه ، عاصمة تنظيم المعتزلة ، يبعث واصل بن عطاء بالدعاة وقادة التنظيم الى المدن والاقاليم يدعون للاعتزال ، ويناظرون الخصوم ، ويؤلفون القلوب من حول الاصول الخمسة . .

* بعث الى المغرب ، عبد الله بن الحارث .
* والى اليمين : القاسم بن السعدى .
* والى الجزيرة : أيوب بن الاوثر ــ (أو : الاوتر) ــ . . وهو الذى تولى قيادة المعتزلة فى المدينة والبحرين كذلك .
* والى خرسان : حفص بن سالم .
* والى الكوفة : الحسن بن ذكوان ، وسليمان بن أرقم .

---

(٧٢) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٢٣ .
(٧٣) أى توقعه فى الزلل .
(٧٤) (الاغانى) جـ ٣ ص ٩٩٢ ، ٩٩٣ .

* والى أرمينية : عثمان بن أبى عثمان الطويل .

وكان هؤلاء الدعاة يمارسون شئون حياتهم اليومية . تجارة وصناعة وحرفا ، الى جانب العمل الفكرى الذى كلفوا النهوض به .. ومؤرخوا طبقات المعتزلة ومقالاتهم يروون ، مثلا ، أن عثمان الطويل ـ المبعوث الى أرمينية ـ كان « بزازا » ، فأراد الاعتذار عن الذهاب الى أرمينية كى لا تتعطل شئون تجارته ، ولكن واصلا ألح عليه فامتثل ، وربحت تجارته كذلك فى موطنه الجديد .. وهو عندما أراد الاعتذار عن البعثة عرض أن يعطى تنظيم المعتزلة نصف ما يملك كى ينفقه التنظيم على مبعوث آخر غيره .. ولكن واصلا قال له : « امض يا طويل ، فلعل الله أن يصنع لك . قال عثمان الطويل : فخرجت، فربحت مائة ألف درهم عن صفقة فى يدى ، وأجابنى أهل أرمينية » .

وكانت لهذا التنظيم تقاليد مرعية فى اساليب الدعوة دعت اليها البيئة المحلية وطبيعة المهمة الموكولة الى هؤلاء الدعاة .. فواصل ، مثلا ، يوصى عثمان الطويل ، عندما يرسله الى أرمينية ، أن يسلك سبيل التدرج فى الدعوة الى الاعتزال ، فيقول له : « الزم سارية من سوارى المسجد سنة تصلى عندها ، حتى يعرف مكانك، ثم أفت بقول الحسن البصرى سنة ، ثم اذا كان يوم كذا من شهر كذا فابتدىء بالدعاء للناس الى الحق ، فانى أجمع أصحابى فى هذا الوقت ، ونبتهل فى الدعاء الى الله ، والله ولى توفيقك ؟ » .. فهو هنا يطلب منه أن يكسب ثقة الناس أولا ، بالصلاة فى مكان محدد بالمسجد، لمدة عام .. ثم يشرع فى الافتاء على مذهب الحسن

البصرى ، أن يبشر بالعدل والتوحيد ، دون المنزلة بين المنزلتين التى اختص بها المعتزلة ، لمدة سنة ثانية ... ثم ينتقل بالاتباع والمريدين الذين اجتمعوا له الى أفكار المعتزلة وما يتميزون به ويختصون ..

وعندما بعث واصل حفص بن سالم الى خراسان ، موطن الجهمية طلب منه أن يناظر الجهم بن صفوان ، ويقطع حجته ، وأوصاه أن يمهد لهذه المناظرة فقال له : « اذا وصلت الى بلده ـ « بلد جهم » ـ فالزم سارية فى الجامع سنة ، حتى يعرف موضعك ، فيشتاق الناس الى السماع ، ثم استدع مناظرة جهم بن صفوان ؟ « فنفذ حفص الوصية ، ولزم سارية مسجد خراسان سنة كاملة ، حتى وثق به الناس « واشتهوا أن يكلموه » ثم ناظر جهما فقلبه ، وكما يقولون : لقد رجع جهم عن القول بالجبر ، ولكنه عاد اليه ثانية لما رجع حفص بن سالم الى البصرة .

ولقد كانت لبعض النساء مهام فى تنظيم المعتزلة هذا .. والمعتزلة يذكرون فى الطبقة العاشرة من طبقاتهم بنت أبى علي الجبائى ، أخت أبى هاشم ، ويقولون عنها : انها « قد بلغت فى العلم ان سألت أباها عن مسائل ، وأجابها ، وكانت داعية فى النساء ، وينتفع بها فى تلك الديار » اى انه قد كانت هناك دعوة وداعيات ومدعوات فى صفوف النساء .. (٧٥) .

ومن المأثورات التى بقيت ، والتى حفظت لنا اشارات

---

(٧٥) انظر فى المعلومات عن هذا التنظيم : (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ ، ٣١٦ . و (باب ذكر المعتزلة ـ من كتاب المنية والامل) ص ١٩ ، ٢٠ .

الى تنظيم المعتزلة هذا ، تلك القصيدة التى تحدث فيها صفوان الانصارى عن واصل بن عطاء ، عندما ساءت العلاقة بين واصل وبين بشار بن برد ، بعد عودة بشار الى آراء الثنوية وقوله بالرجعة .. فلقد هم واصل أن يأمر باغتيال بشار ، ولم يثبه عن ذلك الا « أن الفيلة خلق من أخلاق الغالية (٧٦) ! » .. فأخذ بشار فى هجاء واصل بعد أن كان قد مدحه ، وقال فى الهجاء :

مالى أشـــــايع غـــزالا لــه عنق
كعنق الدو ان ولى وان مثـــلا (٧٧)

فرد عليه صفوان الانصارى بقصيدة وردت فيهـــا اشارات الى تنظيم المعتزلة .. قال :

متى كان غزال لــه يابن حـــــوشب
غلام كعمرو ، أو كعيسى بن حـــاضر
اما كان عثمان الطـويل بن خـــالد
او القـــرم حفص نهيـــة للمخاطر
له خلف شعب الصين فى كل ثغـــــرة
الى سوسها الاقصى وخلف البرابر (٧٨)
رجال دعـــاة لا يفـــل عزيمهم
تهكم جبـــار ولا كيـــد ماكر
اذا قال : مروا فى الشتاء ، تطـاوعوا
وان كان صيفا لم يخف شهر ناجر (٧٩)

---

(٧٦) (باب الخوارج ـ من كتاب الكامل) ص ٣٤ .
(٧٧) النقنق ـ بكسر النونين ـ ذكر النعام ، والدو : البرية .
(٧٨) السوس الاقصى : بلدة بالمغرب كان الروم يسمونها : قمولية .
خلف البرابر : وراء بلاد البربر .
(٧٩) الناجر : كل شهور الصيف ، لان الابل تنحر فيه أى تعطش من الحر .

بهجـــــرة أوطان وبذل وكلفـــــة
وشدة أخطار وكـــد المســـــافر

فانجح مســـــــاعاهم وأثقب زندهم
واورى بفلج للمخـــــاصم قاهر (٨٠)

وأوتــــــاد أرض الله فى كل بلدة
وموضع فتياها وعلم التشـــاجر (٨١)

وما كان سحبان يشق غبــــــارهم
ولا الشدق من حبى هلال بن عامر (٨٢)

تلفب بالغزال واحـــد عصــــــره
فمن لليتـــــامى والقبيل المـكاثر ؟!

ومن لحـــــرورى وآخـــــر رافض
وآخر مرجى وآخـــر حـــــائر ؟

وأمر بمعروف وانـــــكار منـــــكر
وتحصين دين الله من كل كافــــــر

يصيبون فضل القـــول فى كل منطق
كما طبقت فى العظـــــم مدية جازر

تراهم كأن الطير فوق رءوســـــــهم
على عمـــة معـــــروفة فى المعـــاشر

وســـيماهم معــــــــروفة فى جوههم
وفى المشى حجاجا ، وفـــــوق الاباعر

---

(٨٠) الفلج ـ بفتح الفاء ـ من معانيه : السهم . والظفر ، والفوز ، والحجة .

(٨١) أى علم الكلام .

(٨٢) سحبان وائل المضروب به المثل فى الفصـــاحة عند العرب . والشدق : لقب لاثنين من البلغاء الخطباء فى بنى عامر .

وفى ركعـــــة تأتى على الليـــل كله
وظـاهر قول فى مثال الضــــــمائر
وفى قصر هداب واحفـــــاء شارب
وكور على شيب يضيء لنـــاظر (٨٣)
وعنفقــــة مصــــلومة ولنعــله
قبالان فى ردن رحيب الخواطر (٨٤)
فتلك علامات تحيـــــــط بوصــفهم
وليس جهول القـــول فى جرم خابر

هذه هى فرقة المعتزلة . . نشأة ، وتسمية ، ونشاطا فى الفكر والعمل ، وأصولا فكرية كونت نظريتها العــامة ونظرتها للكون والمجتمع والانسان ، وتنظيما اجتهد كى ينصر هذا اللون من ألوان التفكير .

---

(٨٣) الكور ــ بفتح الكاف ــ الدور من العمامة .

(٨٤) العنفقة المصلومة : الرقبة الشديدة . والقبال ــ بكسر القاف ــ زمام النعل . والردن . من معانيه الكيس كانت العرب تضــع فيه الدنانير .

رقم الايداع بدار الكتب ٢٩٦٠ ــ ١٩٨٣
الترقيم الدولى : ٠٠ ــ ٠٢٩ ــ ١١٨ ــ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ الصفاه ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

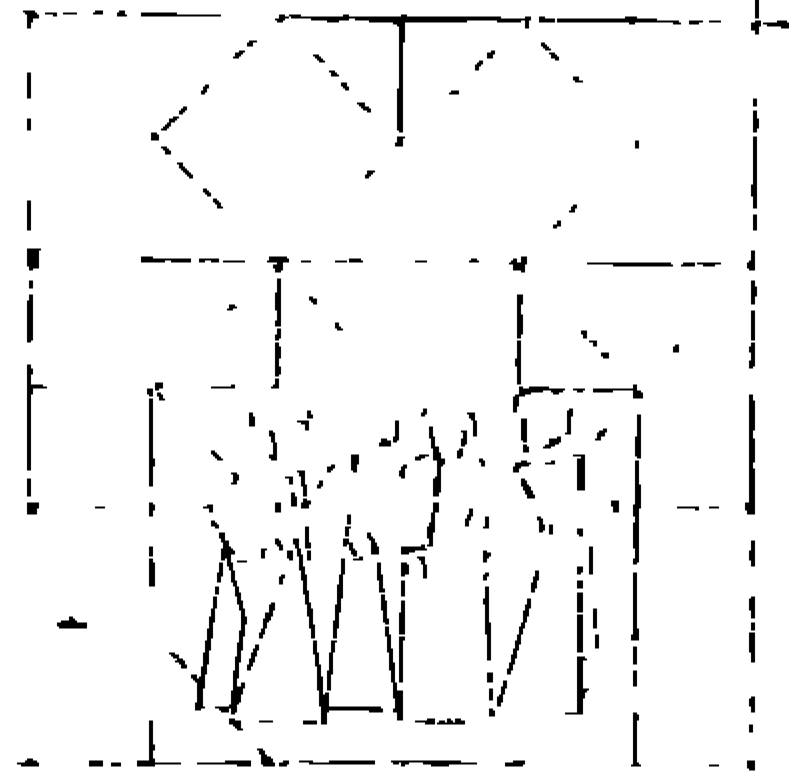
جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury. B. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

أسعار البيع فى الخارج للعدد الممتاز فئة ٦٠٠ مليم : ـ

سوريا ١١٠٠ ق . س ، تونس ١٥٠٠ مليما ، لبنان ١١٠٠ ق.ل ، المغرب ١٥٠٠ فرنكا ، الاردن ١٠٠٠ فلسا ، الخليج ٨٠٠ فلس ، الكويت ١٣٠٠ فلسا ، غزه والضفة ٣٥٠ ليرة ، العراق ١٤٠٠ فلسا ، داكار ٦٠٠ فرنك ، السعودية ٩ ريال ، ايطاليا ٢٠٠٠ ليرة ، السودان ١٢٠٠ مليمـــــا ، البرازيل ٤٠٠ كروزيرو



هـذا الكتـاب

انها قضية القضايا ؟!

علاقة « الدين » « بالدولة » •• وفلسفة الحكم فى الاسلام ••

فمنذ عصر صدر الاســـلام •• وحتى الصحوة الاسلامية المعاصرة •• تتكون الفـــرق والجمـــاعات الاسلامية ، ويحتـدم الصراع حول هذا الموضوع ••

فالمسلمون لم يختلـــفوا فى « العبادات » •• ولكن ســياسة الدولة وفلسفة الحـــكم هى التى فجرت الصراعات وبلورت الآراء :

- هل هى الحكومة الدينية •• الشبيهة « بالكهانة » ، التى سادت أوربا فى العصور الوسطى ؟
- أم هى « العلمانية » ، التى تعزل الدين عن الدولة •• وتفصل بين ما لقيصر وما لله ؟!•
- أم أن للاسلام مذهبا وسطا •• ونهجا فى فلسفة الحكم غيـر الذى تعارفت عليه الحضارات الاخرى ؟؟•

فى هذا الموضوع يقدم المفكـر الاسلامى الدكتور محمد عمـارة •• اضافة فكرية جـديدة ، تسهم فى ترشيد « الفكر » و « الحركة » فى صفوف الاسلاميين •

انه : « ديوان الاسلام » السياسى •• يتصـدى لأهم قضاياه : فلسفة الحكم فى الاسلام •• ويدعو مختلف الفرقاء الى كلمة سواء ؟!

٦٠ قـرشـــا

كتاب الهلال

سلسلة
ثقافية
شهرية

الإسلام
دين الفطرة والحرية

الشيخ عبد العزيز جاويش



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمي

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٩٠ - شعبان ١٤٠٣ - يونية ١٩٨٣

No. 390 — June 1983

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى - ١٢ عدداً - فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادى ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان خمسة جنيهات مصرية او مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال

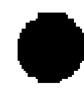


سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشـــــة
الفنــانة سميحة حســنين

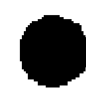
الإسلام

دين الفطرة والحرية



تأليف

الشيخ عبد العزيز جاويش



دار الهلال

الإهداء

بقلم نجل المؤلف

المرحوم ناصر جاويش

الى الجيل الذى عاصر أبى ، والبقية الصالحة التى نستمد منها العون والهدى فى طريق الحياة .

الى الجيل الذى نشأ بعد أبى ، ولم يتح له أن يعرف شيئا ، أو عرف القليل عن جهـــاده فى سبيل الوطن والعروبة .

أقدم بعض آثار والدى فى ميدان الاصلاح الدينى والعلمى ، الذى حمل لواءه ، فى عهد كان عبء الدعوة فيه الى الاصلاح فادحا لا ينهض به الا المجاهدون ، من أولى العزم والقـوة ، الذين يستسهلون كل صعب فى سبيل أداء رسالتهم ، لا يثنيهم عنها ما يعترض طريقهم من أهوال ، وبخاصة فى تلك الحقبة التى قام فيهـا بالدعوة الى الاصلاح .

وهى رســائل تحمل أسماء مختلفـة ولـكنها تهدف جميعا الى غرض واحد ، هو الكشف عما فى الاسلام من سمو ورفعة ، وما فى أحكامه من علم وحكمة ، وما فى روحه من بر بالانسانية وهداية لأبنائها .

ولعل من توفيق الله ، ان تتهيأ الفرصة لنشر هـذه الرسائل فى الفترة التى تطورت فيها الروح المصرية ، واتجه فيها تفكير المثقفين الى المباحث الدينية على أسلوب علمى ، كان يلتزمه ــ رحمه الله ــ فى كل مباحثه ودراساته .

وليس من حقى فى هـذا المقـام أن اطرى هذه الآثار العلمية ، لأنها آثار ابى ، وهأنذا أقدمها للقراء أثرا عليه طابع منشئه وحسب ، وفيه قوة روحه وايمانه وكفى .

ناصر جاويش

المؤلف فى سطور

* ولد المؤلف فى ٣١ أكتوبر سنة ١٨٧٦ من اسرة مغربية بمدينة الاسكندرية .

* بدأ حياته التعليمية بالأزهر سنة ١٨٩٢ ثم تخرج فى مدرسة دار العلوم سنة ١٨٩٧ .

* عين مدرسا فى مدرسة الزراعة ثم ارسلته وزارة المعارف فى بعثة الى جامعة (برورود) بانجلترا .

* عاد من البعثة سنة ١٩٠١ وعين مفتشا بوزارة المعارف .

* عين استاذا للغة العربية بجامعة اكسفورد واثناء وجوده بانجلترا دعيت الحكومة المصرية لحضور مؤتمر اللغة العربية فى بلاد المغرب فمثلها فى هذا المؤتمر .

* عاد عام ١٩٠٦ وعين مفتشا أول بوزارة المعارف واستمر الى أن استقال فى ابريل سنة ١٩٠٨ .

* رأس تحرير جريدة اللواء فى ٢ مايو سنة ١٩٠٨ خلفا للزعيم الوطنى مصطفى كامل .

* قدم للمحاكمة أمام محكمة عابدين سنة ١٩٠٨ فى قضية (الكاملين) لنشره مقالا تحت عنوان (دنشواى اخرى فى السودان) وقد حكم عليه ابتدائيا بتغريمه

عشرين جنيها نظير اهانة نظارة الحربية المصرية وبرىء استئنافيا .

* قدم للمحاكمة فى سنة ١٩٠٩ بسبب نشره مقالا فى اللواء تحت عنوان (ذكرى دنشواى) اعتبرته النيابة اهانة فى حق بطرس غالى و فتحى زغلول ، وصدر الحكم استئنافيا بحبسه حبسا بسيطا ثلاثة أشهر .

* فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٠٩ قدم له الشعب وساما فى حفل خاص أقيم فى فندق شبرد تقديرا لوطنيته .

* فى فبراير سنة ١٩١٠ أنشأ مجلة الهداية لافهام المسلمين أسرار القرآن وأنشأ المدارس الاعدادية الثانوية والليلية لتعليم اللغة الفرنسية وآدابها للأزهريين .

* فى سنة ١٩١٠ قدم للمحاكمة بسبب وضعه مقدمة لكتاب (وطنيتى) تأليف الشيخ على الفاياتى وحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر حبسا بسيطا مع التنفيذ .

* وفى سنة ١٩١٢ أبعد الشيخ جاويش الى تركيا حيث أعاد اصدار مجلة (الهداية) و (الهلال العثمانى) و (الحق يعلو) .

* وفى سنة ١٩١٢ تزعم الشيخ جاويش وبعض زملائه أنصار الحزب الوطنى جمع التبرعات وارسال الذخائر وتهريب القواد الاتراك الى طرابلس لمقاومة الغزو الايطالى .

* سنة ١٩١٣ طلبت الحكومة المصرية تسليم الشيخ جاويش لمحاكمته عن تهمة ارسال منشورات ضبطت مع أحد الطلبة المصريين القادمين من تركيا وتم تسليمه فعلا للحكومة المصرية وأودع سجن الحدرة ثم أفرج عنه .

* وفى سنة ١٩١٤ أنشأ الجـــامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ووضع أساسها واعاد اصلاح كلية صلاح الدين بالقدس الشريف وعهد اليه بادارتها .

* وفى سنة ١٩١٤ سافر الشيخ جاويش الى انجلترا حيث اتفق مع أحد أغنياء الهنود على انشاء أسطول اسلامى وأثناء ذلك حصل اعتداء على الخديو عباس حلمى فشعر بأن السلطات البريطانية تنوى القبض عليه لاتهامه فاختفى وتمكن من الهرب الى باريس .

* وفى سنة ١٩١٥ أعدت حملة من الجيش التركى لتخليص مصر من الاحتلال الانجليزى واشترك فيها الشيخ جاويش وبعض رجال الحـــزب الوطنى الذين تمكنوا من السفر خلسة بعد اعلان الحرب .

* وفيما بين سنتى ١٩١٥ و ١٩١٨ كان يتنقل ما بين المانيا وتركيا والشـــام وقد أنشأ مجلات احداها تصدر باللغة الالمانية باسم **Die Islamische Welt** وثانية فى اسطنبول باللغـــة العربية باسم (العـــالم الاسلامى) وفى سويسرا مجلة باسم **L'Egypte** بالاشتراك مع رجال الحزب الوطنى للدفاع عن اســتقلال مصر ، وكذلك استخلص الاعتراف باستقلال مصر من مجلس المبعوثان بالآستانة والريخستاغ بألمانيا فى عام ١٩١٧ ، كما اشترك فى مؤتمر الدفـــاع عن الأمم المهضومة الحقوق فى استكهولم .

* وفى سنة ١٩١٨ غادر الشيخ جاويش ومعه رجال الحزب الوطنى تركيا خفية بعد انتهاء الحرب الى ألمانيا عن طريق روسيا ثم الى سويسرا حيث قاموا بالاتصـــال بالوفد المصرى بباريس وقـــدموا له مذكرة بما قاموا به فى أوربا .

* وفى سنة ١٩٢٢ استدعاه الغازى مصطفى كمال باشا وعينه رئيسا للجنة الشئون التأليفية الاسلامية بأنقرة .

* وفى سنة ١٩٢٣ حصل خلاف بينه وبين الغازى مصطفى كمال فى شأن الغاء الخلافة ، وكان الدستور قد أعلن بمصر فحاول العودة للوطن وتمكن من العودة الى مصر خفية فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٣ . ونشرت جميع الصحف مقالا تحت عنوان (تجديد العهد) بتوقيع الشيخ جاويش وبعد عشرة أيام صرحت الحكومة للشيخ جاويش بالاقامة بمصر وكان يتولى الوزارة وقتذاك يحيى ابراهيم .

* وفى سنة ١٩٢٥ عين مراقبا عاما للتعليم الأولى بوزارة المعارف العمومية وقام باصلاحاته المعروفة .

وفى ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩ توفى رحمه الله بعد حياة حافلة بالجهاد والوطنية وسنه لا تتجـــــــاوز الثالثة والخمسين .

دين الفطرة

تمهيد

زارني ذات يوم ، وأنا في اكسفورد من بلاد الانجليز ، لفيف من نجباء طلبة العلم فى كليتها الجامعة ، فما كاد يستوى بهم المجلس حتى أخذنا نتحادث فى أمر الشرق والشرقيين ، وما لهم من الأخلاق والعادات والاحوال ، التى تباين فى كثير من الوجوه ، ما عليه أهل أوربا ، حتى افضى بنا المقام الى الكلام فى الاسلام ، فوجدت من خلال حديث القوم انهم لا يكادون يفقهون للاسلام معنى ، سوى انه دين الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات ، وأن المسلمين يعبدون محمدا كما يعبد النصارى المسيح ابن مريم ، وما زادونى فيهم بصيرة ، فلطالما قابلت من أمثالهم ما أوقفنى على مبلغ على معظم القوم بهذا الدين الحنيف .

فأخذت اذ ذاك ابين لأولئك الافاضل ، أصول الدين الاسلامى وقواعده وحكم بعض تكاليفه ، فكنت أرى القوم يتدبرون ما أقص عليهم ، من غير أن يستهوى نفوسهم تعصب ، ولا يعمى قلوبهم عناد أو جحود ، بل نبذوا وراء ظهورهم جميع ما كانوا يلقنونه منذ المهد من النقائص ، التي مثلت لهم الاسلام فى أبشع صورة وأقبحها ، ولم يكد

ينتهي بنا الحديث ، حتى انطلق أحدهم قائلا : « يخيل الى أيها الشيخ أن هذا الدين لا ينافي الفطرة في شيء » . فأجبته إذ ذاك بما تذكرته من قوله عليه السلام : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا تجدعونها » . وترجمت لهم ذلك الحديث الشريف .

والذي يفهم من الحديث أن التهويد أو التنصير صفة تطرأ على الانسان بكسب أبويه كالجدع الذي يصيب الشاة بعد أن تولد على الفطرة سليمة لا عيب فيها .

ويدل على ذلك ما نص عليه الشرع الاسلامي من عدم تكليف القاصرين والا يؤاخذوا بما فعل آباؤهم من التهويد والتنصير ، حتى يبلغوا راشـــدين راضين بدين آبائهم فيؤاخذوا اذ ذاك وقد ألقيت على كواهلهم أعباء التكاليف بما كسبت أيديهم .

فترى الاسلام قد اعتبر القاصرين ، حتى أبناء النصارى او اليهود أو المجوس ، مسلمين ناجين حتى يكلفوا . فالدين الفطري لـكل مولود هو الاسلام الا فيما يتعلق ببعض المعاملات الدنيوية كالارث ونحوه ، فان الاطفال في ذلك تابعون لآبائهم .

(وبعد) فانا نريد أن نذكر لك وجه كون الاسلام دين الفطرة ، وأنه لو ترك الطفل وشأنه حتى كبر غير مهود ولا منصر لما اختار بفطرته الا الاسلام ، ولا يمكن توضيح ذلك الا بالبحث في بعض أصول الاسلام وقواعده والاغراض التي يرمي اليها الشارع في تكاليفه ، فنقول :

الفطرة والتوحيد

كل انسان يشعر بفطرته أن ثمة واحدا قد نظم هـذا العـالم ودبره ، لا يمكن أن يشابه الممكنات فى شيء من صفاتها ، فليس بجسم ولا عرض ولا محدود ولا متحيز . ولا يستطاع ادراكه الا بآثاره الشاخصة ، وهو غير قابل للحلول ولا للصعود ولا للنزول .

الى ذلك اهتدى الاعرابى بفطرته فقال : « البعرة تدل على البعير ، وأثر الاقدام يدل على المسير . فسماء ذات أبراج . وارض ذات فجاج ، كيف لا تدلان على اللطيف الخبير » . فجاء الاسلام مصدقا لما اقتضته الفطرة السليمة ولم يزد فى الاستدلال شيئا سوى أن أيقظ العقول ونبهها الى النظر فى آثار الله تعالى ، فما عليك الا أن تتصفح القرآن الكريم فتجد ذلك فى أكثر من آية من آياته .

نعم ربما قال انسان انه لو كان التوحيد فطريا لما اختلف الناس فى عقائدهم وتباينوا فى تصوير آلهتهم ، فذهبوا كما نعلم مذاهب شتى حتى لا تكاد تجد تشابها بين آلهتهم ، وسنحقق لك بعد أن هـذا مباين لمقتضى الفطرة ، اذ منشأ ذلك أن الانسان ميال الى الاعتماد على ما يقع تحت حواسه من الكائنات والى انكار ما ليس له فى ذهنه صورة ولا حدود محصورة .

فمن ذلك ما قصه الله فى شأن معاندى أهل الكتاب حيث قال : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات » .

ومن البديهي أن الشيء لا يصح انكاره الا اذا ثبت بالبرهان القطعي عدم وجوده ، أما مجرد عجز المدارك عن تصوره وتحديده والاحاطة به فمن العجب أن يتخذه ذو عقل برهانا ينفي به وجود الشيء ، واعجب من ذلك ان ترى اكثر المتحككين بأهل العلم في هذا العصر على هذا المذهب العجيب الذي هو آية الجهل ونهاية الحمق .

جاء الاسلام في وصف الحق واثباته بما يطابق مقتضى الفطرة والعقل تمام المطابقة ، أفلا تدبرت قوله تعالى : « الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم » .

لقد جمعتني المصادفة برجل مسلم من الانجليز ، لم يرج من اسلامه شيئا من حطام الدنيا ، ولا أن ينال جاها يتخذه عدة لنيل شيء من الرغائب السياسية ، فقال لي : « ان في القرآن آية لا أمل من تكرارها ولا من ترديد النظر فيها ، جاءت في وصف الله تعالى بما ليس في استطاعة أحد من أئمة الاديان الاخرى ، على ذكائهم وسعة اطلاعهم ، أن يأتوا به » ، ثم تلا بالانجليزية تلك الآية الكريمة آية الكرسي. فبأبيك أيها العربي هل مرت تلك الآية مرة على سمعك الا وأنت لاه عنها تلعب ، أو حركت بها لسانك الا وأنت بها تعجل .

هذا وتتميما لموضوع التوحيد اريد أن آتيك هنا بكليمات

عثرت عليها (*) للورد ماكولى الكاتب الانجليزى الشهير اذ قال ما ترجمته :

« ان علماء المنطق قد بنوا عقائدهم وقضاياهم على البرهان العقلى ، فأمكنهم أن يسلموا القول بأن من الاشياء ما لا يمكن للعقل أن يحيط به ، بخلاف السواد الاعظم من العامة فان معظم أفكارهم وقضاياهم اما خيالية أو وهمية أو شعرية فلا يكادون يبنون شيئا من مذاهبهم ومعتقداتهم على نظر صحيح وفكر سليم ، ومن هنا نشأت كما يظهر الأديان الوثنية فى كل أمة وفى كل جيل فى كل زمن ؛ فاختلفت لذلك صورة الآلهة باختلاف ما صوره خيال معتقديها .

« ولطالما اذن فينا التاريخ ببيان ما أدخل اليهود قديما فى دينهم من البدع ، مستمسكين بما أملاه عليهم خيالهم الفاسد من ضرورة أن يكون لهم اله محسوس ملموس يقصدونه بالعبادة والاجلال . ويمكن القول بأن معظم الاسباب التى ذكرها (جيبون) وجعلها أساس انتشار الدين النصرانى لم تؤثر ذلك الأثر ولم تنشر ذلك الدين فى أطراف الارض الا لأنها كانت مشفوعة بكثير من تلك القضايا الوهمية التى كان لها أكبر سلطان على نفوس السذج من العامة ، فان الها لم يخلق وكائنا لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الظنون لم يقل به الا الفلاسفة العالمون، أما الأخلاط ضعاف العقول من الناس فانهم ضاقت دائرة أفكارهم وانقطعت سلسلة ادراكهم عن أن تصل الى القول باله ليس له صورة محدودة فى نفوسهم ، فكانوا يتأففون

See the essay on Milton *

ويهزأون ويضحكون من أولئك الفلاسفة ويرمونهم بالبله أو قصور الذهن .

« طاشت النفوس فى الأزمنة القديمة ، وضلت الصراط السوى ، وقست القلوب ، وانتهكت الحرمات ، فجاء المسيح عليه السلام وأخذ يعلم الناس ويدعوهم الى ما جاء به من الهدى فمنهم من آمن ومنهم من كفر .

« ولم يسلم تابعو المسيح من النصارى أن يصيبهم فى ايمانهم مثل ما أصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم ، فتمثل الاله لهم فى صورة آدمى مشى بينهم وشاركهم فى أغراضهم وما يعتريهم من الانحلال والاضمحلال ، كما كان يبكى على القبور وينام فى الحظائر ، ثم صلب حتى سال دمه على أعواد الصليب ، فظهروا بذلك للعالم فى لباس جديد من الوثنية ، ثم كان لهم من القسيسين والرهبان بعد ذلك لفيف من الآلهة على مثال ما كان لليونان ، فكان القديس جورج لديهم اله الحرب كما كان المريخ عند اليونان ، وكذلك اتخذوا العذراء وسيسيليا Cicilia وغيرهما آلهة للجمال وفنون الادب كما كانت الزهرة وسبع كواكب أخرى the muses آلهات لدى اليونان .. وهلم جرا ..

« ولطالما أخذ المفكرون من رؤساء الدين يزيلون ما لصق بعقول العامة من تلك الصور الوهمية ، ولكنهم لم يفلحوا .

« تجد العامة فى هذا اليوم يتعشقون سماع كثير مما لا معنى له من الخزعبلات ، ويتهافتون على تلقف سير بعض من لا قيمة لهم فى سوق الفضائل والمكرمات ، أكثر

مما يميلون الى تعـــرف وتفهم شيء من قواعـد الدين الأساسية » .

هذا ما قاله اللورد ماكولي في شأن الدين الذى يعتنقه ويذعن اله ، وفى الأمم التى شاركته فى الاخذ به وبيان أحوالهم و قد ذكرنيهذا ـ والحديث ذوشجون ـماأصاب عقول المسلمين من المس الذى أصاب عامة غيرهم ، أفرأيت الذين يذهبون الى الأضرحة فيعفرون وجوههم بترابهـــا ويتضرعون الى من فيها متوسلين بهم الى من هو أقرب اليهم وأسمع لدعائهم وأقدر على اصابتهم وأحق بعبادتهم وخشوعهم ؟ « قل أفاتخـــذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . أالله مع الله . . أمر أن لا تعبدوا الا اياه ذلك الــدين القيم ولـكن أكثر الناس لا يعلمون » .

والخلاصة أن السبيل التي جاء بها الشرع الاســلامى فى الايمان بالله وتقديسه عن الحلول ومشابهة الغير وتوحيده بالعبادة دون كائن غيره هى السبيل التى يصل اليهــا الانسان بفطرته متى خلى وشأنه غير مضلل ببعض الأباطيل ولا مدفوع الى غير تلك السبيل .

بسم الله الرحمن الرحيم (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد) .

النبوة والفرض الفطرى منها

ظهر النبى صلى الله عليه وسلم فى أمة أمية ، دينهـا الوثنية ، ومن أخلاقها الكبر والفطرسة والعناد ، ووسائل ارتزاقهـا السلب والنهب ، فلما جاءهم الرسول بالحق الواضح اختلفوا ، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه .

كان معـاندو اليهود والمشركين يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام أن يثبت دعواه النبوة بشيء من المعجزات الخارقة للمادة ، فكان صلى الله عليه وسلم يرجع بهم الى الجواب عما هو من حدود وظيفة الرسل ، اذ لا علاقة عقلية بين دعوى الرسالة والقدرة على شق الارض ونحوه من المعجزات ، ولقد نقل عن ابن رشد ان الآيات الاقتراحية الخاصة بطلب المعجزات لا تدل دلالة قطعية على دعوى الرسالة اذ جاءت منفردة لانها ليست من أفعال الصفة التى سمى بها النبى نبيا أو الرسول رسولا ، ولذا كان النبى عليه السلام يرجع بالقوم الى ما هو من حدوده والى تدبر ما جاء به القرآن الـكريم من الهـداية ، فان دلالة القرآن على هذه الصفة كدلالة الابراء على الطب لمن يدعيه، قال تعالى : « وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ، قل انما الآيات عند الله ، وانما انا نذير مبين ، او لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » . ولطالما تنصل النبى صلى الله عليه وسلم من اجابة مطالب العرب ، وارشدهم الى ما قصد من شريعته وهو اصلاح شأن العالم الانسانى والقضاء على ما كان سائدا فيهم من الضلال المبين ، قال تعالى : « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم أنى ملك أن أتبع الا ما يوحى الى · **قل هل يسـتوى** الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » وجاء فى سورة الاسراء : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ، او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسـفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى

فى السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » .

كم حذر النبى صلى الله عليه وسلم الناس من اللجاج فى طلب المعجزات وبين لهم وخامة عواقبها وسوء نتائجها ، فمن ذلك قوله تعالى : « وما نرسل بالآيات الا تخويفا » وقال : « قل انى على بينة من ربى وكذبتم به ما عندى ما تستعجلون به ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ، قل لو ان عندى ما تستعجلون به لقضى الامر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين » .

لم يكن طلب المعجزات من النبى عليه السلام ناشئا عن ترو من العرب وصدق رأى وسلامة فطرة واصرار منهم على ألا يقبلوا شيئا الا ببرهان ، ولكنهم كانوا يقترحونها اما عبثا أو عنادا أو عملا بما تلقفوه عن الجاهلية الاولى وما أملت عليهم نفوسهم التى أخذ الضلال بتلابيبها ، فكان النبى عليه السلام يدعوهم الى العمل بمقتضيات الفطرة الانسانية ويطلب ما لا يخالف سنة الله التى لن تجد لها تبديلا ، قال تعالى : « وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل انما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون . ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » . أراد الله الحكيم أن يبين للناس أن تلك الآيات التى يطلبونها لا تصلح مفحما لهم وحجة قائمة تلزمهم اتباع شرعه ، اذ مثلها فى ذلك مثل من ادعى أن ٢ + ٢ = ٥

وبرهن على ذلك بابرائه مريضا من داء عضال ، فان المدعى بها أتى من الامور العجيبة وخوارق العادات ما لا يستطيع أن يحمل أحدا على اعتقاد صحة دعواه التى أتى بها ، ومن هناك كان الأقدمون من اليهود وغيرهم يؤولون ما يأتى به انبياؤهم من المعجزات ، فقائل انها سحر وقائل انها من اعمال الجن المسخرة لهم ، حتى اذا ضاقت عليهم الأسباب لجأوا الى التماس أسباب أخرى غير معقولة كاعتذارهم بعجز افهامهم عن ادراك معنى تلك الآيات مع اصرارهم على الجحود والانكار ، كما قال تعالى : « وقالوا قلوبنا غلف » وقال تعالى : « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » فكانوا يقفون بعد أن تأتيهم الآيات موقف المحارب الله العابث بآياته فيصيبهم ما يصيبهم من العذاب والانتقام لما حاربوا الله ورسله وسخروا منهم وتلاعبوا بما جاءوا به من الآيات .

طالما كذب المشركون النبى صلى الله عليه وسلم ، كما فعل أسلافهم ، وناله من عنائهم ولجاجهم فى طلب المعجزات ومغالاتهم فى العناد ما كان يحزنه ويكاد يطلق لسانه أن يستعجل بهم السوء ، ولو كانت الخوارق فى يد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت من البراهين التى تصح لالزام الخصم وافحامه ، لما قعد بالنبى عليه السلام أمر عن الاتيان بها ، ولكنها كلمات الله التى لا مبدل لها وسنته التى لا تتغير ، وفطرته التى فطر الكون عليها « وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الارض او سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » .

والخلاصة أننا نرى القرآن في غير موضع يؤذن في أرباب العقول بالتدبر وأن لا يشطوا في مطالبهم ولا يعتسفوا في اقتراحاتهم ، بل أوجب عليهم أن يسلكوا الجادة الموصلة الى ما يريدون من الغايات . ومن البين أن القرآن هو المعجزة الخالدة الابدية التي جاء بها ذلك النبي الأمي عليه الصلاة والسلام حجة بالغة بين يديه ونورا مبينا يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ولذلك نرى القوم كلما اشرأبت نفوسهم الى نزول احدى المعجزات أمرهم الله بتدبر آيات القرآن الكريم .

القرآن والفطرة البشريه

نزل القرآن الكريم ليؤدى ما قصد منه حسب الفطرة البشرية والسنة الالهية من الهداية من الضلالة والشفاء من الجهالة ، وما زال القرآن اماما يتبع وفيصلا يحكم في النوازل ، حتى ساد الجهل وأخذ من المسلمين مأخذه ، فاستعملوا آيات من القرآن في غير ما وضعت له ، فاتخذوها للتطبيب والفتك بالأعداء وكشف عالم الغيب وقضاء الحاجات وحل الطلسمات وتسخير الجن وتوسيع الرزق ، وليتهم وقفوا عند ذلك الحد ، بل تراهم تطرفوا واجترأوا على القرآن ومنزله ، فأولوا القرآن طبقا لأهوائهم وأخرجوا كثيرا من آياته عن معانيها التى تفهم من لغته وأسلوبه وسياقه ، أما رأيتهم كيف يفهمون قوله تعالى : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » وقوله : « شفاء لما في الصدور » وقوله : « لهم ما يشاءون عند

ربهم » وقوله : « حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجـدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما » وقـوله : « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » وقوله : « ألم نجعل الارض مهادا والجبال أوتادا » الى نحو ذلك من الآيات .

وان شئت أن تعرف ما أتى به بعض المفسرين فى تفسير هذه الآيات وأمثالها من الافك المبين والجهل الفاضح فارجع الى ما كتبوا . ولنضرب لك مثلا شيئا مما كتبوه فنقول:

١ ــ جاء فى الجزء الثانى عشر من تفسير الطبرى عند الكلام على قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » حديث موضوع فى وصف سفينة نوح حيث قال عن ابن جريج انه قال كانت السفينة أعلاها للطير ووسطها للناس وفى اسفلها السباع وكان طولها فى الجو ثلاثين ذراعا ودفعت من عين وردة يوم الجمعة لعشر ليال مضين من رجب وأرست على الجودى يوم عاشوراء ومرت بالبيت فطافت به سبعا وقد رفعه الله من الغرق ثم جاءت اليمن ثم رجعت . . . اهـ .

٢ ــ وجاء فى كثير من التفاسير فى **تأويل قوله تعالى** : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » ــ فى سورة الرعد ــ أن الضمير فى « له » عائد الى من ذكر اسم الله وان المعقبات الملائكة تتعقب على العبد ، وذلك أن ملائكة الليل اذا صـعدت أعقبتها ملائكة النهـار . فاذا انقضى النهار صعدت ملائكته ثم أعقبتها ملائكة الليل ، ورووا فى ذلك حديثا عن كنانة العدوى قال : دخل عثمان بن عفان على رسول الله فقال : أخبرنى عن العبد كم معه من

ملك . قال ملك على يمينك على حسناتك وهو أمين على الذى على الشمال ... وملكان من بين يديك ومن خلفك . يقول الله « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » وملك قابض على ناصيتك ، فاذا تواضعت لله رفعك ، واذا تجبرت على الله قصمك، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك الا الصلاة على محمد عليه الصلاة والسلام ، وملك على فيك لا يدع الحية تدخل اليه ، وملكان على يمينك ، فهؤلاء عشرة ملائكة على كل آدمى وابليس بالنهار وولده بالليل .. اه

ولا يخفى أن هذا الحديث مكذوب على حضرة النبى(ص)، على انه مع ذلك سخيف العبارة ساقطها . وأغرب من ذلك حمل القرآن عليه وتأويله به ، مع أن سياق الآية لا يكاد يحتمله بوجه من الوجوه ، فان سياق الآية كان فى التكلم على علم الله واحاطته بجميع الكائنات ، وعلى عظمته وتعاليه المتناهى الذى يغلب معه كل مغالب ولا يقى الانسان دونه اى حافظ ، اذ قال : « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » . فالمستخفى بالليل والسارب بالنهار المتخذان لهما حرسا سواء عند الله فلا الاستخفاء بحاجب المستخفى عن الله ولا الحرس يدفع عن الانسان ما يقضى به الله على عباده . ثم بينت الآية أن سنة الله فى خلقه ربط الاسباب بمسبباتها ، فخفاء الاسباب أو كتمانها لا يحول دون تحقق نتائجها ، فان الله الذى جعل ذلك الرباط ـ رباط السببية ـ مطلع على خفايا الامور محيط بما تخفيه الضمائر ، فلا يغير الله ما بقوم حتى

يغيروا ما بأنفسهم ، فاذا تحققت أسباب أى قضاء وأراد الله تعالى تحقيق ذلك فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ، فلا ينفع الانسان اذ ذاك حرس كثيف يتعقب عليه دائما يقيه شر الحوادث .

هذا ما يفهم من الآية وسياقها فعجبا لأولئك المفسرين ارادوا أن يؤولوها ذلك التأويل الشاذ ، فلما لم يساعدهم على ذلك نظم الآية قالوا ان الضمير فى قوله تعالى « له معقبات » يعود على من ذكر اسم الله تعالى ، وهذا لا أثر له أصلا فى الآية .

٣ — ومن ذلك ما قاله بعضهم في تأويل قوله تعالى : « تنزل الملائكة والروح فيها » بسورة القدر — حيث فسر الروح بأنه ملك لو التقم السموات السبع والارضين السبع كانت له لقمة واحدة ، أو هو ملك رأسه تحت العرش ورجلاه فى آخر الأرض السابعة وله ألف رأس كل رأس أعظم من الدنيا وفى كل وجه ألف فم .. الى آخر السلسلة المعروفة ، فانظر الى هذه الخزعبلات التى يحملون عليها كتاب الله تعالى .

٤ — ومن ذلك أيضا ما أتى به كثير من المفسرين فى تأويل قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » اختلف أهل التأويل فى ذلك . فقال بعضهم : يمحو الله ما يشاء من أمور عباده فيغيره الا الشقاء والسعادة فانهما لا يغيران ، وزاد بعضهم الحياة والموت ، ثم انقسموا فقال بعضهم ان ذلك فى ليالى القدر ، وقال بعضهم انه فى ليلة النصف من شعبان . وقال آخرون ان ذلك فى كل ليلة . ففى تفسير ابن جرير عن أبى الدرداء قال : (قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله ينزل فى ثلاث ساعات يبقين من الليل ، يفتح الذكر فى الساعة الاولى الذى لم يره أحد غيره يمحو ما يشاء ريثبت ما يشاء . وقال أيضا : ان الله يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يبقين من الليل فى الساعة الاولى منهن ينظر فى الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء) واذا شئت أن تستقصي ما قالوه فى أمثال هذه الموضوعات فعليك بكتبهم .

دعاء نصف شعبان

ولعلك تتطلع نفسك الى تفهم معنى المحو والاثبات هنا ، فنقول : قبل أن نحقق لك معناهما نذكر لك الآية بتمامها ليتجلى لك معناها .

قال تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » .

انقسم أهل الكتاب على النبى عليه الصلاة والسلام فمنهم احزاب كانوا يفرحون بما أنزل عليه من الاحكام ، كما كان من الاحزاب من ينكر بعضها ويستقبح ما كان يفعله المصطفى صلى الله عليه وسلم من التزوج والاكل والشرب ونحوها من اعمال الدنيا « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق » وكذلك كانوا كلما سألوا المصطفى صلى الله عليه وسلم شيئا من الآيات الخارقة للعادة كاغاضة المياه ونقل الجبال واحياء الموتى لا يجيبهم الى شيء من مطالبهم واقتراحاتهم كما قدمنا ، فكانوا يستضعفونه وينزلون من

شأنه ويعتبرونه عاجزا لا ينبغى له أن يدعى النبوة ، فرد الله على أولئك القوم ، وبين لهم أن تلك الاشياء لا تنافى الرسالة فى شيء فقال : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » كما بين أن التصرف فى الكون والاتيان بخوارق العادات ليس الا الله تعالى فقال « وما كان لرسول ان يأتى بآية الا باذن الله » فهو الذى يمحو ما يشاء محوه ، ويثبت ما يشاء اثباته ، طبقا لما سبق فى علمه القديم ، كما يدل عليه قوله تعالى : «وعنده أم الكتاب» . اذ معنى أم الكتاب أصله ، وأصله هو العلم القديم الذى لا تتعلق قدرة ولا ارادة بشيء الا طبقا له . وبالجملة انه لم يقصد من قوله تعالى « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » الا مجرد تأكيد ما استفيد من قوله قبل ذلك : « وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله » . هذا هو معنى الآية الكريمة فاضرب بغيره عرض الحائط ولا تبال ، ولأحذرك مما يعتقده بعض الناس مستدلين بهذه الآية من ان الله تعالى قد يغير ما سبق فى علمه الا الشقاءوالسعادة، فان هذا يفضى الى القول بأن علم الله القديم ينقلب جهلا ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. فالحذر الحذرمن قراءةالدعاء المشهور المعتاد قراءته فى ليلة النصف من شهر شعبان اذ ورد فيه : « اللهم ان كنت كتبتنى عندك فى أم الكتاب شقيا أو محروما أو مطرودا أو مقترا علىفى الرزق فامحاللهم بفضلك شقاوتى وحرمانى الخ » فان معنى ذلك ان الداعى يسأل الله ان يغير ما سبق علمه أزلا الى ما هو من مشتهيات نفس الداعى ، وان انقلب علم الله بذلك جهلا .

اعداء القرآن

عاش النبى صلى الله عليه وسلم ما عاش ، ثم مضى السلف الصالح من بعده ، فما سمع أن أحدا منهم فهم من القرآن الا ما يدل عليه من حيث هو كتاب عربى مبين ، ثم خلف من بعدهم خلف افتأتوا على النبى وصالح أتباعه. وبرزوا للعالم فيما شاءوا من القحة والدعارة مدعين أنهم أعلم بما فى غضون كتاب الله ممن أنزل عليه ذلك الكتاب، فتجلوا للقرآن أعداء فى ثياب أصدقاء ، يلزمونه بما ينكره، ويحملونه ما لا يحتمله ، ويفسرونه طبقا لأهوائهم ، ويكلفونه من التأويل ما يكاد يخرجه عن الغرض الذى أنزل لأجله ، والله يقول : « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا » ويقول : « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » ويقول : « الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا » وكذلك يقول : « قد جاءكم من الله نور وكتـــاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه » ولقد أتى القرآن بما يضيق المقام عن استقصائه من أمثال تلك الآيات التى تنطق ببيان الغرض الذى جاء له القرآن الكريم .

غفل أكثر المفسرين ، أو جهلوا الفرض الذى أنزل له هذا الكتاب الكريم ، كما كلت أفهامهم عن ادراك أمثال تلك الآيات الناطقة بما يرمى اليه ، فقالوا ان القرآن لم يترك فنا من الفنون العلمية الا أتى بشىء من مسائله ،

فجعلوه كتاب جغرافيا وتاريخ وطبيعة ورياضة وهلم جرا، وادعو انه أتى من كل فن بطرف ، فحملوا من التأويل ماينبو عنه ، ثم ذيلوا آياته بأشياء أملاها عليهم جهلهم ، ووسوست لهم بها شياطينهم ، فشوهوه وألبسوه غير لباسه ، وصبغوه صبغة أبرزت القرآن والدين وصالح المسلمين بما هم براء منه ، فكانوا أضر عليهم من العدو المبين .

لنرجع الى ما ذكره أولئك المفسرون فى شرح ارم ذات العماد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، والى ما قالوه فى أمر الزلازل والثور الحامل للأرض ، ووصف يأجوج ومأجوج وما سيقيمون من الحرب العوان حينما يرمون السماء بالنبال لمحاربة الحق تعالى فيأمر الله السماء أن تمطر عليهم دما ، الى آخر ما قالوا ، كما ألفتك الى ما قالوه فى تعليل ما يشعر به الانسان من سخونة مياه الآبار فى الشتاء ، وبرودتها فى الصيف ، اذ عللوا ذلك بأن ليالى الشتاء طويلة ، ولما كانت الشمس تغرب فتدخل فى جوف الارض كان تأثيرها فى المياه التى فى جوف الارض أثناء الشتاء أكبر من تأثيرها فى أثناء الصيف ، هذا بعض ما أتى به أولئك المفسرون ليتمموا به كلام الله تعالى ، فأضحكوا منهم الصبية والبله ، فضلا عن العقلاء من الناس ، كما أنهم حملوا غير المسلمين على الاستهزاء بالدين والسخرية بالقرآن الحكيم ، فلقد رأيت للقرآن ترجمة بالانكليزية يأتى واضعها بما سطر أولئك الجهلة المتعالمون ، ثم يعقب ذلك بما شاء من الانتقاء والتشهير بدين ذلك الكتاب ، وأولئك ائمته ، فيا لله من الصديق الجاهل .

كبر على كثير من الناس القول بأن القرآن كتاب مبين يفهمه كل من يعرف لسانه ، فجعلوا يحومون حول المعانى

البعيدة ليحملوا عليها آيات القرآن . ألم تر الى الذين ضلوا وأضلوا فجعلوا للقرآن تفسيرين : أحدهما باطنى ، والآخر ظاهرى ، وادعوا أن الرسول الذى أتى به لم يصل الى ادراك ما فيه من المعانى الباطنية ، مع انه يقول ما معناه : أنا أعلم بكتاب الله تعالى ، ولو علمت بأعلم منى لرحلت اليه ، أو كما قال .

أرعني سمعك أقص عليك أن المتدبر للقرآن يرى أن النبى صلى الله عليه وسلم ما سئل فى شىء مما لم يبعث لأجله الا صرف السائل عن قصده ، وتلقاه بغير ما يترقب تنبيها الى أنه الأولى بالقصد والأليق بما هو من حدود الرسل ، ووظائفهم من الهداية والارشاد وتبليغ الشرائع، ينوه الى ذلك قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » وقوله : « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » وقوله : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها . فيم أنت من ذكراها . الى ربك منتهاها . انما أنت منذر من يخشاها » فبين الله فى هذه الأيات أن وظيفة الرسل الانذار وتحذير العالم من تلك الساعة التى هى آتية لا ريب فيها ، وليس وظيفتهم تعيين وقتها . ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا . فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا امتا » تدل هذه الآية وما سبق على ما قلناه لك آنفا من ان النبى صلى الله عليه وسلم فى اجابته أمثال أولئك السائلين كان يعلمهم أن لا يسألوا الا عما هو من خصيصات الرسالة ومتعلقاتها ، رجوعا بهم الى السنة الفطرية .

هل أسس الاسلام على السيف ؟

لهج معظم الاوربيين ، وضعاف العقول من المسلمين ، بأن الاسلام لم ينتشر ولم ترسخ قدمه فى عالم الوجود الا لأنه سعى والسيوف أمامه تمهد له السبيل ، وتذلل بين يديه العظماء ، وتلجىء المستضعفين الى اعتناقه حقنا لدمائهم ، وصيانة لأملاكهم وأسبابهم ، وقد ضربوا الامثال بما قام به النبى صلى الله عليه وسلم من سراياه ومغازيه، ثم بما عمل خلفاؤه من بعده ، على أنهم لو قرأوا القرآن ، وشيئا من التاريخ ، وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وعرفوا شيئا من أخلاق العرب وعاداتهم فى ذلك الوقت ، لما تطرق ذلك الخطأ الى عقولهم ، ولا استحوذت عليهم وساوس صدورهم ، حتى يرموا النبى صلى الله عليه وسلم وصالح سلفه بما هم براء منه . نعم انه لا يسعنى أن أنكر انه قد وجد من امراء المسلمين من شوهوا وجه الاسلام ، ودنسوه بما جنت أيديهم عليه ، ولكننى اريد ان أتكلم هنا فى الاسلام من حيث هو ، كما اريد أن آتى على نبذ من تاريخ أسباب غزوات النبى صلى الله عليه وسلم وحروبه، لترى أنه صلى الله عليه وسلم ما بدأ أحدا بعدوان فى جميع ما أقامه من الحروب ، وما يتذكر الا أولو الالباب.

لا حاجة الى أن أذكر هنا ما كان عليه فى بدء الدعوة من الانفراد والضعف ، وما اصابه من أهله وأقاربه من الاذى، فان هذا ما لا يرتاب فيه أحد .

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، فجعل النبى يسر بدعوته الى من يثق بتوقد فكره ، وتمكن الانصاف من قلبه ، فلم يسل لتأييد رسالته الا سيف الهدى والحجة

الدامغة ، فممن آمن به ابو بكر وعثمان والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وأبو ذر الغفارى ، ومن الســابقين الى الاســــلام خالد بن الوليد جاء النبى فقال له : « الام تدعو يا محمد ؟» فقال : « أدعوك الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، والاحسان الى والديك ، وأن لا تقتل ولدك خشية الفقر ، وأن لا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن ، وأن لا تقتل نفسا حرم الله قتلها الا بالحق ، وأن لا تقرب مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأن توفى الكيل والميزان بالقسط ، وأن تعدل فى قولك ولو كان على ذوى قرباك ، وأن توفى لمن عاهدت » ، فأسلم ، وهكذا دخل هؤلاء الأشراف فى الاسلام غير مهددين ولا ملجئين ، ولكن طائعين منصفين مدركين الفرق بين ما كانوا عليه من الضلال ، وما أتاهم به هذا الدين الحنيف . ولم يدفعهم الى الدخول فى الاسلام اذ ذاك رغبة فى جاه ، ولا توقع ثروة ولا فقــــر مدقع ، فان أكثرهم كانوا أوسع ثروة ، وأعظم جاها ، وأقوى عصبية ، وأنفذ كلمة من ذلك الفرد الذى اطاعوه ، وتبعوا شرعه ، واحتملوا الاذى فى تأييده « لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » .

ثم جهر النبى صلى الله عليه وسلم بالدعوة ، فسخرت منه قريش ، وكانوا يضحكون منه فى مجالسهم ، وهو مع ذلك لا يثنى عزمه ، ولا يرجع عن تسفيه أحلامهم ، وتقبيح آلهتهم ، فاضمروا له العداء والبغضاء ثم جاءوا الى أبى طالب عمه وقالوا له : ان لك شأنا وشرفا ومنزلة منا ، وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا

وعيب آلهتنا ، فاما أن تكفه أو ننازله واياك ، حتى يهلك أحد الفريقين . ثم انصرفوا ، فعظم على أبى طالب فراق قومه ، ولم تطب نفسه بخذلان ابن أخيه . فقال له : يا ابن أخى ، أبق على نفســـــك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيقه . فظن الرسول أن عمه خاذله ، فقال : والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الامر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه . ثم بكى وولى . وقد صادف النبى على أثر ذلك من أذى قريش ومناوأتهم واعتسافهم ومؤامراتهم ما خلد فى التاريخ . ومن ذلك ما رواه البخارى قال : « بينما النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فى حجر الكعبة اذ أقبل عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه فى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر حتى اخذ بمنكبه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » .

ولقد عم الأذى جميع من أسلموا حتى لم يبق أحد الا أصابه منه حظ كبير . ذلك أبو بكر الذى كان فى الجاهلية سيدا شريفا اشتد عليه أذى قريش ، حتى أجمع رأيه على الهجرة الى الحبشة لولا أن عاقد له ابن الدغنة على أن يعبد الله فى داره فيصلى فيها ما شاء ، ويقرأ ما شاء ولا يؤذى قريشا بالاستعلاء به خشية أن تفتن نساؤهم وأبناؤهم ، فلما ابتنى أبو بكر مسجدا بجوار داره يتعبد فيه أتى ابن الدغنة أبا بكر فقال : قد علمت الذى عاقدت الله عليه ،

فاما أن تقتصر على ذلك ، واما أن ترجع الى ذمتى ، فانى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له . فقال أبو بكر : فانى أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله (كما فى البخارى بتصرف) .

تفاقم الخطب ، وأحدقت الفتن بالمسلمين ، حتى عجزوا عن احتمالها ، فأشار النبى صلى الله عليه وسلم عليهم بالهجرة الى بلاد الحبشة ، فهاجر منهم عشرة رجال وخمس نسوة ، فلما أعيت قريشا الحيل ، عزموا على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب واخراجهم من مكة والتضييق عليهم حتى يسلموا محمدا صلى الله عليه وسلم للقتل . وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها فى جوف الكعبة ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة . فهاجر معظمهم .

ولما رأى النبى صلى الله عليه وسلم من قريش ما رأى جعل يخرج فى الاسواق العربية ، ويعرض نفسه على القبائل ليحموه ، فكان منهم من يرده ردا جميلا ، ومنهم من يلقى عليه قولا ثقيلا ، حتى اذا جاء رؤساء الأوس الى مكة ليحالفوا قريشا على الخزرج جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « هل لكم فى خير مما جئتم له ، أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئا » ثم تلا عليهم القرآن ولم يمض الا قليل حتى آمن به بعضهم وصدقوه فيما جاء به ، ثم أخذ عدد المسلمين من الاوس والخزرج يزداد قليلا قليلا ، فأثار ذلك من حنق قريش وسخطهم حتى لقد جعلوا يغلون فى ايذائهم للنبى على ما هو فى

كتب السنة الصحيحة . فلما علموا بما حالف الانصار عليه النبى صلى الله عليه وسلم أجمعوا أمرهم على أن يقتلوه ، واتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة شابا جلدا ويجتمعوا امام داره ، فاذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يقدر بنو عبد مناف على محاربة قريش كلها ، فألهم الله النبى صلى الله عليه وسلم جميع ما دبر له أعداؤه ، فخرج هو وصاحبه أبو بكر الى المدينة لينزل فيمن عززوه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه .

أسباب الغزوات

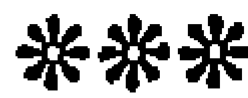
هكذا كان مجمل بدء الدعوة الاسلامية ، واننى هنا لواثق أنه لا يكاد يوجد من المعارضين من يستطيع التبجح فينكر شيئا من ذلك ، أو يدعى أن سيفا أعمل فى خلال تلك السنين . فما على الا أن أسرد لك أسباب ما كان بعد ذلك من الغزوات والسرايا مختارا أشدها وأهمها في اظهار الدين ، فأقول : أباح الله لرسوله محاربة من آذاه من كفار قريش ، وأخرجوه هو وأصحابه من ديارهم فقال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » وقال : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فان

الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » فلم يبح الله للنبي مقاتلة غير كفار قريش لما ناله منهم ، فلما تمالأ على المسلمين غيرهم من قبائل العرب ، أباح الله للنبى أن يقاتل كل معتد عليه فقال : « **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم** كافة » وقال : « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » فانظر الى ما شرعه الله للمسلمين من القتال، أتجده يخالف فى شيء ما يسمى فى هـذا الزمان بقتال المدافعة عن النفس ؟ كلا . فلقد نهى الله المسلمين عن الاعتداء ، ولم يبح لهم الا مقـــاتلة الظالمين البادئين بمقاتلتهم .

شرع الله قتال أهل مكة لما اعتدوا على النبى صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله ، **وأخرجوه من دياره هو وأصحابه** لأجل اضعاف شوكتهم وفل غرورهم ، حتى لا يتمكنوا من العودة الى محاولة قضاء مآربهم من النبى صلى الله عليه وسلم ، فانه كبر عليهم خروجه ووجوده فيمن حالفوه على النصر والتأييد ، فكانوا يتحينون الفرص للايقاع به والقضـــاء على دينه وشيعته ، فلو تركوا بلا مناوشة لاستفحل أمرهم ، ولضاق ذرع المسلمين عن مقاومتهم ، فكان من الحزم وسداد الرأى أن يقعد النبى صلى الله عليه وسلم لهم كل مرصد ويضيق عليهم السبل ، فكان يرسل السرايا ، ويخرج بنفسه فى المغازى ، حتى لا تمر عير لقريش الا صادرها ، وحرم المشركين مما فيهـــا من الامتعة ، فكان مرة يصيب منهم ، وتارة يخطئهم . فمن

اكبر الغزوات التى انتصر فيها المسلمون غزوة بدر الكبرى، خرج النبى صلى الله عليه وسلم مترصدا أعظم عير لقريش آتية من الشـــــام جمع فيهــــا غالب أموال قريش حتى لم يبق بمكة قرشى ولا قرشية لهما مثقال فصاعدا الا بعثا به فى تلك العير .

فلما علم أبو سفيان بخروج الرسول فى رجاله أرسل الى قريش فنفروا سراعا لحماية تجارتهم ، وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا ، فالتقى الجمعان ، وكان ما كان من نصرة المسلمين على ضعفهم وقلة عددهم « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » .



وكان يهود المدينة يضمرون البغضـــــاء للمســـلمين ويتشوقون أن يصيبهم من أهل مكة ما لا قبل لهم به ، فلما كانت وقعة بدر الكبرى التى أيد الله فيها نبيه عليه الصلاة والسلام والمسلمين نبذوا ما كانوا عاهدوا عليـــه الرســــول ، فبدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ، فلقد قال رؤساؤهم للنبى صلي الله عليه وسلم ، وقد حذرهم عاقبة البغى : « لا يغرنك يا محمد ما لقيت من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب ولئن لقيتنا لتعلمن من تلاقى » فبنقضهم ميثاقهم ، وبدئهم بالعداء سار اليهم النبى صلى الله عليه وسلم وحاصرهم خمس عشرة ليلة ، فلما آنسوا من أنفسهم الضعف ، واستولى على أفئدتهم الرعب ، سألوا الرسول أن يخلى سبيلهم فيخرجوا من المدينة ، ولهم النساء والذرية ، وللمسلمين الاموال ، فقبل منهم ذلك .

وقد عزم النبى صلى الله عليه وسلم على الذهاب الى مكة ، لتأدية نسك العمرة ، فخرج فى ألف وخمسمائة من اصحابه ومعهم الهدى ايذانا بأنه لم يذهب الى مكة محاربا، فساروا حتى نزلوا بأقصى الحديبية ، ثم أن الرسول اختار عثمان بن عفان سفيرا الى قريش ليعلمهم مقصده ، فذهب عثمان وبلغ ما حمل ، فقالت قريش : ان محمدا لا يدخلها عنوة أبدا ، ثم أنهم حبسوه . فشاع أن عثمان قتل ، فقال عليه الصلاة والسـلام حينما بلغه ذلك الخبر : « لا نبرح حتى نناجزهم الحرب » . وبايع أصحابه على القتال ، فخافت لذلك قريش ، فأرسلت سهيل بن عمرو فى طلب الصلح ، فوضعت الحرب أوزارها على ما تراضوا عليه من الشروط التى منها وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنين .

ثم انصرف النبى والمسلمون قافلين الى المدينة فى تلك السنة ، وعادوا لقضاء عمرتهم فى العام التالى ، ثم عمل النبى صلى الله عليه وسلم بمقتضى شروط الصلح ، فلم يخفر ذمة ، ولم ينقض عهـدا ، حتى بدأت قريش بالعدوان .

ذلك أنه قد دخل فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم قبيلة يقال لها خزاعة ، كما دخل فى عهد قريش قبيلة أخرى يقال لها بكر ، وكان بين هاتين القبيلتين أضغان كثيرة ، وترات قديمة ، فاتفق أن رجلا من بكر وقف يتغنى ذات يوم بهجاء النبى صلى الله عليه وسلم على مسمع من رجل خزاعى ، فقام هذا فضربه ، فأثار ذلك كامن أحقاد بكر

واستشاطوا غضبا . فاستعانوا بقريش على الفتك بقبيلة خزاعة . فأمدتهم قريش بالعدة والرجال ، ثم انقضوا على خزاعة على غرة منهم . وقتلوا منهم ، فأرسلت خزاعة الى النبى صلى الله عليه وسلم تخبره بما جرى من قريش وبكر حليفتها .

أما قريش فانها استيقظت فرأت أنها قد نقضت بفعلتها هذه شرائط عقد الصلح الذى تم بينها وبين المسلمين ، فندمت على هذه الفارطة التى ارتكبتها بلا ترو ولا تبصر ، فأرسلت اذ ذاك أبا سفيان زعيمها الى المدينة ليوثق عرى الصلح ، ويمــــد فى أجله ، فخرج حتى جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم وعرض عليه ما جاء به الى المدينة ، فقال له عليه الصلاة والسلام : هل كان من حدث بعد. قال : لا . فقال الرسول : فنحن على مدتنا الاولى وصلحنا السابق ، ولم يزد على ذلك . ومن المعلوم أن قريشا بفعلتها قد اعتبرت محاربة حسبما تقتضيه شروط الصلح السابق، وقد شعر زعيمها بما أضمره النبى صلى الله عليه وسلم لقريش ، فتوسل اليه ببعض وجوه العرب وزعمائهم فلم يفلح .

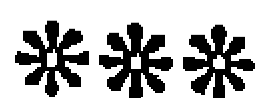
أما الرسول عليه الصلاة والسلام فانه أمر أصحابه أن يتأهبوا للسفر ، وأخبر أبا بكر بما عزم عليه ، فقــال له ابو بكر : او ليس بينك وبين قريش عهد ؟ قال : نعم ، ولكن غدروا ونقضوا . ثم استنفر الاعراب الذين حــول المدينة ، وسار النبى صلى الله عليه وسلم فى عشرة آلاف مقاتل الى مكة ، حتى اذا وصل اليها أمر خالد بن الوليد

ان يدخل من أسفل مكة ، ودخل هو من أعلاها ، ونادى مناديه : « الا من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » . نعم انه أهدر دم جماعة وان تعلقوا بأستار الكعبة ، لأنه اعتبرهم ، كما يقال فى هذا العصر «مجرمين سياسيين»

واعلم أنه لم يقاتل فى هذا الفتح الا جيش خالد بن الوليد ، ولكن بعد أن تعرضت له قريش ليصدوه عن دخول مكة ، فقتل منهم أربعة وعشرين رجلا ، وقتل من جيشه اثنان ، فكان دخوله مكة عنوة .

ثم أخذ النبى عليه الصلاة والسلام يطهر الكعبة مما كان عليها من الاوثان والادناس ، ثم خطب فى الناس ، فبين كثيرا من الاحكام ، ثم ختم خطبته بقوله تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » .

ومن آدابه صلى الله عليه وسلم وشيمه الكريمة ، ماورد فى كتب السنة الصحيحة من أن رجلا جاء عقب فتح مكة ، ليبايع النبى عليه الصلاة والسلام ، فجاء وهو يرتعد خوفا، فقال له الرسول : « هون عليك فانى لست بملك ، انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

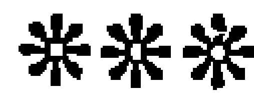


وعلى أثر هذا الفتح المبين ، وتدمير عصابة الوثنيين ، أخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، الا بعض قبائل أدركتها حمية الجاهلية الاولى ، فلقد اجتمعت أشراف هوازن وثقيف ، وقالوا : لقد فرغ محمد (صلى الله عليه وسلم) من قتال قومه ، ولا ناهية له عنا ، فلنغزه قبل أن

يغزونا . أما النبى صلى الله عليه وسلم فانه لما بلغه خبر استعدادهم لحربه ، أجمع رأيه على المسير اليهم ، فخرج فى اثنى عشر ألفا حتى وصل الى العدو ، فالتحم الجمعان وذلك يوم حنين اذ أعجب المسلمين كثرتهم ، فلم تغن عنهم شيئا ، وضاقت عليهم الارض بما رحبت حتى ولوا مدبرين ، لولا ان الله أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأيدهم بروح منه ، فلم ينته القتال حتى جعل الله كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمته هى العليا ، والله عزيز حكيم .

هذه هى جل الغزوات واقواها فى تأييد الاسلام واعلاء كلمته وتقوية سلطانه . فهل رايت فى جميع ما قصصته عليك ، وانه لحق ، ان النبى بدأ أحدا بعدوان ؟ كيف وهذا كتاب الله يقول : « لا عدوان الا على الظالمين » .

ارجع الى كتب السير ، وجرد نفسك من شوائب التحيز ، فلن تجد مغمز ابرة للشك فيما قصصته عليك .



وخلاصة القول أن البصير بالتاريخ ، يشهد معنا ان المصطفى عليه الصلاة والسلام لم يسل فى حياته سيفا لارغام أحد من الناس على الدخول فى دينه ، ولكن الهدى هدى الله يهدى من يشاء .

ما كان للنبى والمؤمنين أن يدعوا الى الله ودينه ، سالكين طرق العسف والارهاب ، وهذا كتاب الله يأمرهم بالحسنى فى الدعوة ، كما قال : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » ، وقال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » .

انظر الى ابداع كتاب الله فى الرد على أهل الكتاب القائلين بأبوة الله للمسيح ، مع اشتماله على أحسن آداب المحاجة ، حيث يقول : « ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة تم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

دعوة النبى ((ص)) عامة لجميع المكلفين

اعتاد الناس أن يقيسوا أحكام الله السماوية بقوانين البشر الوضعية ، فتراهم يتشدقون بأن الاحكام يجب أن تكون مناسبة للأزمان ، مختلفة باختلاف أهلها ، فيراعى فى القوانين والشرائع الاماكن ، وطبقات العالم ، ودرجات ارتقائها فى التحضر ، والفضل والتهذيب ونحوها من الصفات ، التى تتفاضل فيها الامم ، وتتفاوت طبقاتها باعتبارها ، ثم كأنك بهم وقد طفرت عقولهم ، فحكموا بأن شرائع الاسلام وسننه جاء بها نبى عربى ، لم يعرف من أحوال الامم الاخرى الا قليلا جدا ، كما أنه لم يعلم ما سيتوالى بعده من الامم المختلفة ، والاحوال المتباينة ، والعصور التى تكاد تكون متباينة فى مقتضياتها ومطالبها وأحكامها .

فكأنى بأمثال أولئك القوم ، قد أقاموا على أنفسهم الحجة ، بأنهم لا يفقهون ما يتلى عليهم من كتاب الله تعالى، يسمعون القرآن ، وانما مثله فيهم كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء ، ويرون آياته بأعينهم ، وانها لا تعمى الابصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

فبما بسطت لك هنا من أمر أولئك القوم ، أريد أن آتيك هنا بوجه كون الدين الاسلامى ، دين الفطرة البشرية التى فطر الله الناس عليها فى كل زمان ومكان ، صالحا لكل أمة وكل جيل ، مصلحا لكل من استمسك بسببه المتين ، وعمل بكتابه المبين .

اعلم أن دين الله فى كل الامم واحد لا تختلف أصوله باختلاف الامم وأحوالها وأزمانها وأمكنتها ، وانما الذى يختلف باختلاف ذلك هو الاحكام الفرعية ، يشير الى ذلك قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » وقوله تعالى : انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » الآية .

جاء الرسول عليه الصلاة والسلام لتقرير الحق والاعتراف به ، وتذكير الناس أن يتمسكوا به ، فما كان له ان يبطل حقا ، أو ينكر صالحا ، أو يجحد نبيا ، أو يستقبح حسنا ، ولكنه جاء مؤذنا فينا بأنه قد آمن بما أنزل الله من كتاب ، وأنه آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله غير مفرق بين أحد من رسله ، كما أخبرنا عليه الصلاة والسلام بأن الله أوحى اليه ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وبأن من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا . فلم يأت النبى صلى الله عليه وسلم ببدع من الشرائع ، ولكن بما قرره الله من الحق ، وأوحى به الى أنبيائه من قبل ، كما قال عز من قائل : « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا

لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » على اننا نعلم ما تقرر في الاسلام من أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ ، فترى من جميع ما تقدم أن الاسلام لم يخالف مقتضى الفطرة السليمة فى اعتبار ما سبق من الشرائع والاخذ بما تقرر من النواميس العادلة ، سواء ورد بها دين ابراهيم ، أو دين عيسى بن مريم أو غيرهما . نعم ان الاسلام نسخ بعض ما فرض الله على الماضين من الكلف الشاقة ، التى جلبها عليهم عنادهم وظلمهم ، كما قال تعالى : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات ، أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم اموال الناس بالباطل » ، فانهم لم يزالوا كذلك ، حتى جاء المصطفى عليه الصلاة والسلام حريصا على المؤمنين رؤوفا بهم رحيما لهم ، فأباح الطيبات من الرزق ، ولم يكلف نفسا الا وسعها ، فكان دينه بذلك أكثر الاديان ملاءمة للطباع ، والعادات ، والقوى البشرية على اختلافها . ولذا كان عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين .

ربما قيل كيف ذلك ؟ مع أن أكثر الاحكام النظامية ، والنواميس التعاملية ، قد وضعها بعد النبى الفقهاء والخلفاء والامراء ، فلم يحط الاسلام فى بدء نشأته بكل ما يلزم البشر ، من القوانين والاحكام . فنقول : ان جميع ما وضعه الفقهاء والخلفاء والامراء من الاحكام ، انما بنوه على ما أباح لهم الشرع الشريف ، من الاجتهاد والقياس كما قدروه واعتبروه بالاحكام العامة ، التى قررها لهم الشرع ، على ما سنأتى على تفصيله قريبا ، فكل ما جاء

مبنيا على قواعد الدين ، فهو دين ، سواء نص عليه الشارع نفسه ، أو استنبطه أهل الفكر والنظر الصحيح ، وهذا هو كون الدين الاسلامي دين الابد وختام الاديان . ولنأت لك الآن بشيء من أصول الاسلام لترى منها وجه ما قلناه لك آنفا فتتدبره ، فان للدين ، كما سترى ، قواعد أصلية ثابتة ، تقدر بهـــا الاحكام ، حسبما تقتضيه الاحوال المختلفة ، فى الازمان المختلفة ، بين الامم المختلفة .

أصول الاسلام

١ ـ الاصل الاول : الاجتهاد ، وأعنى به أن تستنبط الاحكام من الكتاب الكريم ، والسنة الصحيحة ، حسبما تصل اليه الافهام السليمة ، فكل من يعرف لغة القـرآن ، لا ينبغى له بحال ما أن يقلد غيره تقليدا متى قدر على فهمه ، وفهم الكتب الصحاح فى السنة ، فلم ينسد ، ولن ينسد ، باب الاجتهاد ، برغم أنف من أرادوا أن يحجروا على العقول البشرية ، ويقيموا عليها أوصياء من الاولين ، حتى تسير كما ساروا ، وتقول بما قـالوا ، فان السلف الصالح رضى الله عنه ، ما كان مقلدا ولكن تصدى لكتاب الله ، فعمل بما وصل اليه ادراكه ، وبلغه جهده ، ولو كان بعض ذلك خطأ فى الواقع ، فان الله لم يحرم من الاجر أى مجتهد . نعم انه جعل لمن اجتهد فأخطأ أجرا واحدا ، ولمن اجتهد فأصاب أجرين . ان أمر انسداد باب الاجتهاد أمر ابتدع بعد انقراض الصـــدر الاول منه لاسباب منها : انتشار العجمة فى المسلمين ، وعدم استطاعة كثير منهم ـ وكانوا لايحسنون العربية ـ أن يفهموا القرآن على وجهه ،

ومن الاسباب أيضا فيما اظن ، جهل كثير ممن قالوا بعدم جواز الاجتهاد للقرآن الكريم ، وعدم معرفتهم أحكامه ولغته ، والا فكيف عموا عن قوله تعالى : « ولقد يسرنا ـ سهلنا ـ القرآن للذكر ـ للتذكر ـ فهل من مدكر » أى فهل من طالب علم منه ، ومتفهم له فيعان عليه ، أم كيف غفلوا عما قبح الله به القدماء من المشركين وندد عليهم اذ قلدوا آباءهم ، وقصروا أنفسهم على محاكاتهم فيما اعتقدوا ، وفيما عملوا حيث قال : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » ، واذا شئت ان تستقصى ما ورد عن الله من تسفيه أحلام المقلدين ، والتشهير بهم ، فعليك بقراءة القرآن الكريم ، فستجد منه ما فيه مقنع . وما يتذكر الا أولو الالباب .

٢ ـ الاصل الثانى : القصد فى الاعمال ، واقامة ما لا يشق على النفوس من التكاليف ، فلقد طالما نص القرآن الكريم على أن الله لا يكلف نفسا الا وسعها ، فكل ما ليس فى وسع الانسان أن يقوم به ، فلا تكليف فيه . والمراد بالوسع أن يكون العمل بحيث لا يجهد فاعله ، ولا يوقعه فى العناء والتعب ، فان هذا هو ما يفهم من التعبير ، بكلمة وسع التى معناها السعة . وعدم الضيق . ولقد نهانا الله تعالى عن الغلو فى الدين ، فقد ورد فى البخارى : « لن يشاد الدين أحد الا غلبه » وورد فيه أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيئا من الدجلة والقصد » ومن هنا

لا ينبغى لمسلم أن يتغالى فى دينه ، وأن يتباعد عن المباحات ، وأن يحمل نفسه فوق طاقتها ، فان هذا ليس من الدين في شيء ٠ واعلم أن المتغالين فى دينهم ،أقرب الناس الى العجز عن القيام به ، واحتمال تكاليفه ، ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أحب الاعمال الى الله أدومها وان قل » وقال : « ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » وقال تعالى : « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » وقال أيضا : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . ومما يناسب هذا الموضوع ، نازلة كانت موضوع بحث أهل العلم ، ومنتحليه فى مصر ، وذلك لبس القبعة فلقد هاج وماج بعض مدعى العلم من قال بحل لبسها للمسلم . فسلهم بأبيك كيف لهم أن يتقولوا على الله وينسبوا ذلك لدينه . ان القبعة ليست لباسا دينيا وانما هى لباس أمم مختلفة الملل والنحل ، فمنهم النصرانى ، ومنهم المجوسى ، ومنهم اليهودى ، ومنهم العربى المسلم ، بسكن بعض الجهات الحارة من صحراء أفريقية وغيرها . نعم انها تختلف أشكالها وصورها ، ولكنها ذات اسم واحد ، تندرج تحت نوع واحد .

فان كان شبهة اولئك القوم أنها لم تكن معروفة للنبى صلى الله عليه وسلم ولا لسلفه الصالح ، قلنا ان هذا لا يقتضى التحريم ، فهل رأى النبى صلى الله عليه وسلم العمائم التى فوق رؤوسنا او القفاطين التى تتدلى أكمامها ، أو الجبب (الفرجيات) .

فليفقه أولئك القوم أنهم يقفون ما ليس لهم به علم ، والله تعالى يقول : « ولا تقف ما ليس لك به علم » ، ان الطيالسة التى استعملها العلماء فى خلافة العباسيين انما حاكوا فيها رهبان اليهود وأحبارهم ، كما ان هذه الجبب الواسعة المستعملة فى مصر ، انما حاكوا فيها علماء وبطارقة بعض المذاهب النصرانية .

واعلم ان من موضوع هذا الباب ، تحرج بعض شبيبة المسلمين ، أن يؤدوا ما فرضه الله عليهم من الصلاة حتى اذا سألتهم فى ذلك، قالوا : اننا لا يمكننا التحـــرز من النجس ، لا سيما قطرات البول ، وكثيرا ما يقضى الانسان حاجته ، فلا يجد من الماء ما يتطهر به . ومنهم من يقول : ان من المشقة أن أخلع نعلى ، وألبسهما عند كل صلاة ، ولا يمكننى أن أصلى بهما حسبما يفتينا علماء المسلمين ، لأنه يغلب على الظن عدم سلامتهما من النجاسة ، التى تكون عادة فى الطرقات . فترى أولئك الفتية يتركون الفريضة التى هى سمة المسلم ومذكرته بالحق تعالى ، وناهيته عن الفحشاء والمنكر ، انصياعا لما أفتاهم به أولئك الجهلة المتغالون والدعاة المعطلون .

فمن لى أن يرى أحداث المسلمين ما رواه البيهقى مرفوعا « اذا جاء أحدكم المسجد ، فليقلب نعليه ، فلينظر أفيهما خبث ، فان وجد فيهما خبثا فليمسحهما بالارض ثم ليصل فيهما » وما رواه البيهقى أيضا عن أم سلمة : « انها سئلت عن المرأة تطيل ذيلها وتمشى فى المكان القذر ، فقالت أم سلمة : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم يطهره ما بعده » وفى رواية له عن أبى هريرة رضى الله عنه : قلنا يا رسول الله انا نريد المسجد فنطأ الطريق النجسة ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام : « الطرق يطهر بعضها بعضا » وفى حديث البيهقى مرفوعا : « اذا وطىء أحدكم بنعليه فى الاذى فان التراب له طهور » وقد رأى المالكية أن المعتمد فى مذهبهم ان ازالة النجاسة سنة أعنى أنها لا تبطل الصلاة بوجـــودها وان كانت مكروهة معها. فلم لا يصلى ذلك المسلم فى نعليه؟ولم لايصلىوفى سراويله قطرات البول ، ولم لا يسهل عليه التحرز منها ، ولم لا يصلى المسلم فى بلاد لم يستطع أن يستنجى فيها ، ايظنون ان الله يريد بهم العسر مع ان الله يقول فى قرآنه : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

٣ ــ الاصل الثالث : من أصـــول الاسلام انه لا ضرر ولا ضرار ، فلا يجوز لمسلم أن يفعل ما فيه ضرر لجسمه أو عرضه أو ماله ، كما لا يجوز له أن يضار غيره ، فيدخل فى ذلك تكليف الجسم بما لا يطيق ، وشرب المســكر ، والمقامرة ، وايذاء الغير بأى نوع من ضروب الاذى حسبما تعارفه القوم الذين يعيش فيهم ، كقتل النفس،والسرقة، والرشوة ، والخداع ، والتمويه ، والتدليس ، وشهادة الزور .. وهلم جرا .

لعلك أطلعت على ما قرره الفقهاء من اباحة التخلف عن الجمعة لأسباب كثيرة . منها أن يكون بالانسان بخر ، أو رائحة ثوم أو بصل ، أو به مرض معد كالجذام والبرص ونحوهما من كل ما يضر ، أو تشمئز منه نفوس المصلين ،

ولا يخفى أن هذا الاصل ينبني عليـــــه كثير من الاحكام الفرعية ، والنوازل اليومية فى كل عصر .

٤ ــ الاصل الرابع : سد الذرائع واعطاء الوســـائل احكام المقاصد والغايات ، فكل ما أفضى الى مباح فهو مباح ، وكل ما وصل بك الى مكروه فهـــو مكروه وكل ما أوقعك فى محرم فهو محرم ، فكلما اردت أن تحكم على وسيلة بحكم فقدرها بمعيار غايتها . ولنضرب لك مثـلا ما جاء به الشرع من اباحة تعـدد الزوجات ، فان هـــذه الاباحة قد قيدها الشرع بقيود منها : العدل ، ومنها : أن لا يفضى التزوج الى ضرر أو محرم أو فســـاد ، فاذا قسنا ذلك بما يحصل عادة على أثر التعدد من الشقاق ، وافساد ذات البين واغفـــال الرجل امر أولاد احـــدى الزوجات ارضاء لغيرها ، أو قسوته عليهم ، وايذائه لهم ، واذا قدرنا تلك الوسيلة وهى تعـــدد الزوجات بما تفضى اليه من المضار ، فيمكن الحكم بأنه لا يباح للرجـــل تزوج غير واحدة .

٥ ــ الاصل الخامس : من أصول الدين الحنيف اعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به ، فاذا غلب على الظن أن العمل مفض الى محرم أو مكروه فانه يعطى حكم غايته، فيحرم أو يكره ، فلا يعترض علينا هنا بأن أمر المضارة مع تعدد الزوجات ليس بالامر المحقق ، حتى ينبنى عليه تحريم ذلك على الرجال ، فاننا على تسليم أنه غير محقق جدلا ، لا يسعنا أن ننكر أنه أمر غالب على الظن حتى يوشك أن يكون يقينا .

٦ ــ الاصل السادس : من أصول الاسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض . وأولى بى هنا أن أقتطف ما جاء لأستاذنا الحكيم الشيخ محمد عبده فى مقالات الاسلام والنصرانية اذ قال ما نصه :

اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ننظر اليه ، على انه اذا تعارض العقل والنقل ، أخذ بما يدل عليه العقل ، وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول ، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الامر الى الله فى فهمه . والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل ، وبهذا الاصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى صلى الله عليه وسلم ، كل ذلك مهد بين يدى العقل السبيل ، وأزيل من أمامه جميع العقبات ، واتسع له المجال الى غير حد . فماذا عسى يبلغ اليه نظر الفيلسوف حتى يذهب الى ما هو أبعد من هذا ، وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم ، اذا لم يسعهم هذا الفضاء ، ان لم يكن فى هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ، ولا سماء بأجرامها وأبعادها » .

ولا يخفى أن تقرير هذا الاصل فى الاسلام ، يدلك دلالة واضحة على أن الدين المحمدى لم يلزم العقل أن يخالف ما يقتضيه نظره وبحثه ، بل إنه فوق ذلك قدمه فى العمل والاعتقاد على ظاهر المنقول .

٧ ــ الأصل السابع : وجوب امتثال ما قاله النبى صلى

الله عليه وسلم شرعا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأى .

وقد تقدم لنا بيان ان وظيفة الرسل ارشاد العالم الى طريق النجاح والاستقامة ، واقامة العدل فيهم ، وتربيتهم على الاخلاق الفاضلة والشيم الكريمة . وبينا أيضا أن الاسلام يقدم العمل بمقتضى العقل على ظاهر الشرع عند التعارض . وقد علمنا النبى صلى الله علبه وسلم أن نمتثل كل ما جاء به عن الله وانه لا يجب الاخذ بما ورد عنه فى امور الدنيا ، ولنأتك بشىء مما ورد فى ذلك :

(روى) مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال : مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم على رؤوس النخل فقال ما يصنع هؤلاء ؟ فقالوا : يلقحون ، يجعلون الذكر فى الأنثى فتلقح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما اظن يغنى ذلك شيئا . قالوا : فأخبروا بذلك ، فتركوه ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فانى انما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فانى لن أكذب على الله عز وجل .

وروى مسلم أيضا عن رافع بن خديج قال : قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يأبرون النخل ، فقال : ما تصنعون ؟ قالوا : كنا نلقحه . قال : لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا . فتركوه فنقصت ، قال فذكروا ذلك له ، فقال: انما انا بشر اذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به واذا أمرتكم بشىء من رايى فانما انا بشر .

وروى أيضا عن أنس ان النبى صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون ، فقال : لو لم تفعلوا لصلح . قال فخرج شيصا ، فمر بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا ، قال : أنتم أعلم بأمور دنياكم .

كأنى بك ترى ما حكم به النبى صلى الله عليه وسلم على نفسه ، وهو سيد المنصفين ، صرح لك الرسول بأنه انما هو بشر ، وأن أهل كل حرفة أو صناعة أدرى بمسائلها وبخفاياها من غيرهم ، وان عصمة الرسل انما تجب فيما اذا بلغوا عن الله شيئا من شرائعه ونواميسه . ومن هنا نعلم أنه لا يجب الاخذ بما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم من أمور الدنيا وأحوالها وحرفها وطبعها وصنائعها لأن هذا ليس مما يوحى به اليه من الشرائع .

٨ ـ الاصل الثامن : المساواة بين المسلمين فى الاحكام وكذا بينهم وبين جميع من لهم ذمة وعهد ، فان لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، فلا يفضل أحد أحدا فى اعتبار الشرع الا بالتقوى والعمل الصالح «ان أكرمكم عند الله اتقاكم» فقد جعل الله الغنى والفقير ، والمأمور ، والامير ، والعزيز والحقير ، سواء فى أحكامه ، سواء فى ذلك الاحكام الدنيوية والاخروية ، واعتبر ذلك بصيغ العموم، التى تراها فى غير موضع من القرآن الكريم نحو قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . ومن الغريب ان الفقهاء الذين يدعون فهم كلام الله ، ويظهرون للعالم بسبحهم وسواد موضع السجود من جباهم ، طالما حابوا الملوك والامراء وتأولوا كتاب الله بما يوافق أغراضهم حرصا

منهم على استرضــــــاء من لا يضرون ولا ينفعــون . راضين بما سخط الله عليهم ، اذ فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، فشحنوا كتبهم بما تضارب من الاقوال ، وخالفوا أمر القرآن كما فى قوله : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات » وقال تعالى : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » وقال تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » واذا أردت أن تأتى على ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الاتفاق وعدم الفشل والاختلاف فعليك بكتب السنة الصحيحة .

٩ ــ الاصل التاسع : أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، ففى سورة الطور : « كل امرىء بما كسب رهين » وفى سورة المدثر : « كل نفس بما كسبت رهينة » وقال تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وفى سورة النجم : « ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للانســــــان الا ما سعى وأن سعيهسوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى » .

ولا يقـــال أن من أحكام الشريعة ما لا يقتصر على الجانى كما فى دية القتيل فانها على عائلة القاتل ، وكمــا يؤخذ من قوله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » لأنا نقول فى امر الدية انما ألزمت بها العائلة في الشعوب التي لها عصبية قائمة ووحدة وعهد بحيث أنهم يكونون يدا واحدة على من سواهم . فاذا أصاب أحدهم شىء تعاهد الباقى على الاخذ بثأره او المطالبة بديته ، كما هو الشأن بين البدو وكثير من

العرب حتى الآن ، ولذلك نجد الفقهاء ينصـــون على انه لا عاقلة فى الامم التى لا تتضامن قبائلهـــا كالفرس والفرنجة والمصريين وغيرهم من الامم التى لا أثر فيها لتلك اللحمة التى تجعل الحى او البطن أو القبيلة كأنها رجل واحد فأخذهم الشرع كما أخذ لهم وانتقم منهم كما انتقم لهم • وهذا من الوجوه التى تبين لك كيف جاء الاسلام مطابقا للأحوال البشرية ، ملائمـــا لها على اختلافها .

١٠ ـ الاصل العاشر ان جميع الزواجر تقدر حسبما يراه الامام أو من ينصبه من القضاة للفصل بين الناس طبقا لما يقتضيه العرف العام كما أن من أصوله جواز التحكيم .

واعلم أن الشرع الشريف قد حدد بعض العقوبات كجزاء القتل والسرقة ونحوهما وهى قليلة جدا بالنسبة لما ترك الشارع أمر تحديده الى الحكام ونوابهم ، فقد أجمع الائمة على أن التعزير مشروع فى كل جناية لا حد فيها ولا كفارة ، وجوز الامام مالك للامام الحاكم أن يبلغ بالتعزير أعلى درجات الحدود المقدرة •

أما التحكيم فقد أجازه الشـــارع فى الاصـــول المالية وذلك أن يحكم رجلان بينهما خلاف رجلا من أهل النظر والرأى فيما شجر بينهما ، وقد ذهب بعضهم الى اعتبار قول الحكم أمرا مقضيا لا يتوقف فى تقريره وثبوته على أن يقرره قاض شرعى ولا أمير ولا حاكم .

١١ ـ الاصل الحادى عشر : تقدير كثير من الاحكام

بما تعورف بين الناس . ولا يخفى أن هذا الاصل قد وسع دائرة الاحكام الشرعية حتى وسعت تقريبا جميع النوازل على تغاير أشكالها وتباين أحوال أربابها ، فمن ذلك أمر النفقات الزوجية فانه يراعى فى تقديرها عند الحكم بتقريرها حالة الزوجين ، فرب نفقة تلائم زوجة على أنها لا تلائم أخرى ، وقد كثر التعبير بكلمتى « المعروف » و « العرف » فى القرآن العزيز ، وعلق عليهما تقرير كثير من الاحكام ، ومن البديهى أنه لا معنى للمعروف والعرف الا ما كان متعارفا مألوفا غير مستنكر ، كما أن المنكر هو ما لا يجرى به عرف وألفة من الآيات المحتوية عليهما قوله تعالى : « طاعة وقول معروف » وقوله : « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » وقوله : « الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس » وقوله : وعاشروهن بالمعروف » وقوله تعالى : « فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » وقوله : « وأتمروا بينكم بمعروف » وقوله : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » وقوله : « وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » وقوله فى شأن الاوصياء : « ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف » فترى فى هذه الآيات ، وفى كثير غيرها ، ان الله تعالى فوض أمر تقدير كثير من المعاملات ، الى ما جرى به العرف والعادة من غير تقييد بأهل مكة أو أهل المدينة أو غيرهما ، بل أطلق الامر اطلاقا ، ولا ريب ان العرف

يختلف باختلاف أهله وطبقاتهم وما اعتادوه بينهم حسبما يقتضيه الزمان والمكان ، واذن كان من القصور تعرض بعض الفقهاء الى تحديد مثل متعة المطلقة أو نفقة الزوجة ، وتقدير كثير من الاحكام بما جرى عليه عرف أهل المدينة المنورة محتجين بعلمهم وأنهم أعلم الناس بما مات عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، كما أن من جمود القريحة وقصور النظر تفسير هذه الكلمات بغير ما يتبادر منها ، فان هذا تخريج للكتاب العربى المبين على غير ما أريد منه . ومما يناسب هذا المقام أن القرآن قد أتى بألفاظ أخرى عامة لتكون صالحة للحمل على ما يناسبها من النوازل والاحوال . فمن ذلك كلمات « الصالحين » و « الصالحات » و « صالحا » فى كثير من الآيات ، فان المراد من مادة الصلاح هنا ما ليس سيئا ، كما يؤخذ من قوله تعالى : « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا » فان هذه الآية ناطقة بأن كل عمل سيىء فهو غير صالح وان كل سيىء فهو غير صالح وأنه لا صلاح فى سوء ، فيدخل فى ذلك الملك الجائر ، والحاكم الذى أغفل أمر دولته حتى تمكن الضعف منها وجرى الفساد فى عروقها وتمشى الخلل فى أطرافها حتى أصبحت لا تزداد الا نقصا ولا تعظم الا فسادا ، فلا جرم أن مثل هذا الحاكم لا شائبة صلاح فيه ، ولو قطع الليل تسبيحا وقرآنا . ومن هنا فسر أستاذنا قوله تعالى : « أن الارض يرثها عبادى الصالحون » بأن المراد الصالحون لعمارتها بأن امتثلوا أمر الله فأعدوا لانفسهم

ما استطاعوا من القوة وأحسنوا الى أنفسهم فكاتفوا الامم فى الاخذ بوسائل القوة والمجد فلم يلتمسوا المسببات الا من أسبابها ، ولم يأتوا البيوت الا من ابوابها .

التوكل غير التقاعد

ومما ينخرط فى هذا الباب خطأ كثير من المسلمين فى فهم التوكل الذى حض عليه القرآن غير مرة اذ قالوا ان التوكل هو تفويض الآمر الى القادر المدبر سبحانه وتعالى وترك الاسباب المألوفة ، ثم ان منهم من اكتفى بعد ذلك بالبلغة من العيش الخشن ولم يستزد حتى مات . ومنهم من اتخذ من أسماء الله مصادر للرزق فظن أن من يذكر اسم الوهاب كذا كذا مرة وهبه الله من المال ما يزيد على حاجته ، ومن قرأ : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه »كفاه الله مؤونة السعى لطلب الرزق من معاهده العادية . ولقد كثر هؤلاء فى المسلمين فكثرت بهم المفاسد وانحطت بسببهم الهمم وازال الله عنهم كثيرا من النعم وان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

نددت الأمم الغربية وكثير من الشرقيين بالاسلام والمسلمين ، لما نزل بهم من الضعف ، وانحلال العقدة والفشل ، وزعموا أن منشأ ذلك هو أصول الدين الاسلامى ، محتجين بأعمال اولئك الطوائف من المسلمين ، وبما كذبوا على الله فى تأويل آياته الكريمة نحو : « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ونحو : « انى توكلت على الله

ربى وربكم » ونحو : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » ونحو ما ورد فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » .

اننى لا يسعنى هنا أن أفند جميع ما قيل فى هذا المقام لضيقه ، ولكن حسبى أن انبهك الى ان الاستدلال على فساد هذا الدين بما أصاب أهله حجة داحضة ، وبرهان واهن ، فان نظرة قليلة فيما مضى من تاريخ المسلمين يوم كانوا متوكلين على الله تعالى تلجم هؤلاء المتقولين على الاسلام وتلزمهم الحجة بأن ما طرأ على المسلمين بعد ، لم يصبهم الا بعد أن تركوا التوكل على الله فلم يعملوا بما أرشدهم اليه من وجوب الاخذ بالاسباب العادية ، فانه سبحانه وتعالى خلق الاسباب والمسببات ، وخلق ما بينهما من لحمة السببية . فالتماس تلك الاسباب لا ينافى التوكل فى شىء ، بل انه نفس التوكل ، وما تفسير أولئك الناس للتوكل بالتفويض المطلق ، والتقاعد عن الكسب والتحصيل ، مما أفضى بهم الى الاضمحلال ، انما منشؤه الجهل بلغة القرآن الكريم .

ذلك الرسول وهو سيد المتوكلين يرشدنا بقرآنه ، وبجميع أعماله الى أن لكل شىء سببا لا يمكن الحصول عليه الا باتخاذ ذلك السبب . أو ما سمعت قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » وقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو

الله وعدوكم » ونحو : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » الى غير ذلك من الآيات .

على انك لو تأملت قليلا فى قوله صلى الله عليه وسلم: لرزقكم كما يرزق الطير .. الحديث ، لتجلى لك الامر واضحا لا لبس فيه ، فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يقل - لرزقكم كما يرزق الطير تمكث فى أوكارها والله يرسل اليها اغذيتها - بل قال : تغدو خماصا وتروح بطانا .

وفى صحيح البخارى عن على رضى الله تعالى عنه قال كنا جلوسا مع النبى صلى الله عليه وسلم ومعه عود ينكت به الارض وقال : ما منكم من أحد الا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة . فقال رجل من القوم : الا نتكل على كتابنا وندع العمل يا رسول الله ! قال : لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له . ثم قرأ : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » .

على أن الله سبحانه وتعالى بين لنـــا ضرورة علاقة المسببات بأسبابها صراحة ، وأنها من الامور الفطرية التى فطرت الممكنات عليها . فقال فى الكتاب العزيز : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا (أي أكثرنا) مترفيها ففســـقوا فيها فحق عليهـــا القول فدمرناها تدميرا » فليتق الله المسلمون فى دينهم ، وليتباعدوا به عن النقائص التى شوهوه بها ، وعرضوه بسببها الى طعن الطاعنين وغلو الآفكين .

والخلاصة ان الدين الاسلامى ، لما احتوى عليه من تلك القواعد الكلية والاصول العامة وأشباهها ، جاء صالحا لأن يبتغى بواسطته كل خير فى كل زمان ومكان . ومن هنا يتضح لك جليا وجه كون الرسول عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين ، وان شرعه خاتم الشرائع الالهية ، كما أنه لم يخالف فى شيء من أصوله وقواعده سنن الله الفطرية التى فطر العالم عليها ، ولذلك لا حرج علينا فى تسميته « دين الفطرة » .

صفات المؤمنين

وبعد فاعلم ان هناك بعض احكام جاء بها الشرع فكانت مطعن الجاهلين من الامم ، قصار النظر ، فرأينا أن نأتى عليها هنا تتميما للفرض الذى وضعنا له هذه العجالة ، الا اننا نريد قبل ذلك أن نأتيك بما ورد فى القرآن الكريم من صفات المؤمنين ، وما يجب أن يكونوا عليه ، وأكل اليك بعد ذلك الحكم فى اعتبار مؤمنى هذا الزمان، والله يوفقك الى سبيل الرشاد :

١ — قال تعالى فى سورة المائدة خطابا للمؤمنين : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، واتقوا الله » أى لا يحملنكم بغض قوم صدوكم عن الدخول فى المسجد الحرام ، على أن تعتدوا عليهم ، بل يجب عليكم العدل ، كما يجب عليكم أن

تتعاونوا على الاحسان واتقاء ما يسخط الله من مخالفة اوامره . وفى معنى ذلك قوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى » فان الله يأمرنا هنا أن لا نطيع ما تكنه صدورنا من بغض احد على الاعتداء عليه ،بل يجب أن يوفى كل ذى حق حقه، وأن تقدر المعاملة بمعيار العدل ، فانه أقرب للتقوى .

٢ ـ وجاء في سورة النور « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون . وأن يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون . انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون » . نزلت هذه الآية فى قوم ادعوا انهم مؤمنون مذعنون لقضاء الله وأحكامه ، حتى اذا دعوا الى شريعته لتفصل بينهم ألقى الشيطان فى ضمائرهم أنهم ربما ظلموا فأخذتهم العزة بالاثم ، فأعرضوا عن احكام الله وهم ظالمون ، ولكن اذا كان لهم الحق جاءوا الى المحاكم سراعا مذعنين ، وقد بين الله تعالى هنا ان تلك ليست من صفات المؤمنين فى شىء ، وما كان للمؤمنين الا أن يسمعوا ويطيعوا وينصاعوا الى قضاء الله واحكامه سواء اكانوا ظالمين أم مظلومين .

٣ ــ وجاء في افتتاح سورة (المؤمنون) : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون » ، الى أن قال : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون » فليت شعرى كيف يكون مؤمنى هذا الزمان أن يتبجحوا بأنهم في اعتبار الشرع مؤمنون ، مع ان الله تعالى لم يصف المؤمنين بأنهم الذين عن صلاتهم لاهون، والذين هم على اللغو مقبلون ،والذين هم للزكاة مانعون ، والذين هم لشهواتهم مرضون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم خائنون .

٤ ــ وجاء في سورة الانفال : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا » الى أن قال : «أولئك هم المؤمنون حقا » .

٥ ــ وفي سورة الحجرات : « قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم » الى أن قال : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » فانظر كيف وصف المؤمنين بما وصف ، وانظر الى استعمال الحصر هنا في قوله « انما » ثم تأكيده ذلك بقوله « أولئك هم الصادقون » .

٦ ــ وجاء في سورة الممتحنة : « يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا

ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معــروف فبايعهن » يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن ليس الايمان مجرد النطق بالشهادة والمبايعة على أن محمدا رسول الله ، فان هذا لا يكفى ، ولقد بين الله فى هذه الآية البيعة التى يكون بها المؤمن مؤمنا ، فتدبرها حتى تعلم مبلغ ايمان الذين قالوا آمنا بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم. فبأبيك أيها المؤمن أتجد فيما وصف الله به المؤمنين: اتخاذ المسابح ، واطالة اللحى ، واختضاب الشعر ، وتحديب الظهر ، وملازمة الزوايا ؟ ألا أن الويل كل الويل لمن حرفوا الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به .

الخلاصة : ان من آثار الايمان القلبى الصادق اقامة ما وقع الايمان به ، وملازمة حدوده ، ومخالفة وساوس الصدور ، فمتى رأيت من ينقاد الى شيطانه ، ويتكل على غير ربه ويحارب شريعته ، فاعلم أنه غير مؤمن . أو ما رأيت ما قاله تعالى فى قرآنه الكريم : « انه ــ أى الشيطان ــ ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » فكل من وجدت للشيطان سبيلا عليه فاعلم انه غير مؤمن . أفيحسب أولئك الضالون أنهم على شىء، وقد جاء فى البخارى عن سفيان بن عيينة قال : ما فى القرآن أشد على من قوله تعالى : « يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم » ــ أى القرآن ــ ومعنى اقامة هذه الكتب امتثال جميع ما فيها ، والاتيان به على وجهه ، فان جاء

العمل دون ذلك ، فانه لا يسمى اقامة ، لما حوته تلك الكتب الشريفة من الاحكام ، فكيف لاحد بعد ذلك أن يدعى انه على شيء من الايمان بالله وكتبه ورسله حتى يمتثل ما فيها .

ومن هنا يتضح ان الايمان الصادق يستدعى الانقياد والعمل ، وهذا والله أعلم سر ما رواه البخارى فى صحيحه من قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » .

قال القسطلانى : الايمان هو التصديق بالقلب ، والاعتراف باللسان ـ وتقرره الاعمال الصالحة ـ واجتناب المناهى ، فاذا زنى ، أو شرب الخمر ، أو سرق ، ذهب نوره وبقى فى الظلمة فان تاب رجع اليه .. ا هـ . ومثال ذلك فى الكتاب الكريم والسنة كثير ، ولكنها لا تعمى الابصار .

هذا والمستقرىء لعبارات القرآن الكريم ، قلما يجد فعلا أو وصفا مشتقا من الايمان الا وهو مشفوع بعمل الصالحات ، فمن ذلك قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » وقوله : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا » وهلم جرا . يريد الله بذلك وهو أعلم أن يوقظ العقول الى أن مجرد معنى الايمان فى اللغة ، أى الاعتقاد ، لا يكفى فى الحاق صاحبه بفئة المؤمنين حتى يقرن اعتقاده بصالح الاعمال . وقد ضمن الله تعالى الامن والهداية لمن لم يشب ايمانه بظلم ولا جور ، فقال :

« الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

الرق فى الاسلام

كانت القوانين فى الازمان السالفة من الاوضاع البشرية ، فكان الفرد أو الافراد يسنون ما شاءوا من النواميس التى لم يراعوا فيها عدلا ولا نصفة ولا مساواة ببين أفراد الانسان فيما لهم وما عليهم .

كان محض ارادة القوى وسلطانه هو القانون والسنن التى يسار على مقتضاها ، فكان عدم تساوى الافراد فى القوى الجسمية والعقلية ، الذى اقتضته سنة الكائنات الحية ، هو منشأ تسخير القوى للضعيف ، وغلبته عليه ، حتى أفضى ذلك بعد الى وجود ناموس عادى اقتضى أن يكون ثمة مالك ومملوك ، وقاهر ومقهور .

ان استخدام شخص لآخر ، واستمتاعه بقواه الجسمية بلا أجر ، هو ولا ريب أساس الاسترقاق الذى نشأ مع نشأة الانسان ، فان من استقرأ التاريخ وجد انه لا يكاد يخلو عصر من العصور من وجوده فى أهله ، وجدت اجرامه فى كل جاهلية ، ثم تعدتها الى ما كان معها من الامم المتحضرة ، وبقيت فيها حتى بعد انقضاء الحاجة اليه وزوالها أصلا ، فلقد عرف الاسترقاق عند اليهود واليونان والرومانيين ، كما عرف بين قدماء الالمان ولقد أفرط الاخيرون فى استخدام الرقيق حتى ضرب بهم المثل فى ذلك .

ولقد وجد عند اليهود منذ نشأتهم نوعان للاسترقاق: احدهمـــا استرقاق بعض أفراد منهم لسبب ارتكابه خطيئة من الخطايا المحظورة شرعا أو فى دين عليه ، وكان لهذا الرقيق أن يتحرر بعد مضي ست سنوات عليه فى خدمة من هو فى ملكه الا أنه فضل البقاء رقيقا . والنوع الآخر : استرقاق غير اليهـــود ممن قضى عليهم أن يصيبهم شيء من عسف اليهـود وحروبهم التى كانوا يقيمونها بلا مسوغ سوى الشره على السيادة وارضاء نفوسهم الخبيثة بما شاءت من الظلم ، فكانوا يبيعونهم كما يباع المتاع ، ويعاملونهم أقبح من معاملة الحيـوانات العجم ، سواء فى ذلك العبيد المستخدمة فى المنازل ، وعبيد الحقول والمزارع ، فانهم كانوا يقضون حياتهم مبغضين ، مهينين ، معزولين ، محقرين ، مسخرين ، ثم جاء المسيح عليه السلام ، فلم يمنع الاسترقاق ، ولم يضع حدودا تراعى ولا وسيلة تؤدى يوما الى نسخه أو تقليله ، نعم انه جاء ببعض كلمات تتعلق بعدم طاعة الرقيق، وببعض نصائح للسادة ، ليمكنوا الرقيق من تلقى ما جاء به المسيح عليه السلام من قواعد دينية ، على أن كثيرا من الامم المسيحية كانوا أشره الناس على اتخاذ الرقيق ، وأقساهم فى معاملته .

وانتشر الاسترقاق بين الرومان ، منذ نشأتهم الاولى، من غير تفريق بين من كان رومانيا أو أجنبيا ، فكانوا يملكونهم اما بحرب أو شراء أو اختطاف ، فلقد كانوا يعتبرونهم متاعا ، وتغالوا فى السيطرة عليهم ، فكان

للسيد أن يتصرف فى عبده حتى كان له أن يقتله ، نعم، انه قد هذب هذا القانون بعد ، حتى خفف فى الجملة عن الارقاء أعباء ما كانوا يحتملون ، ولكنهم مع ذلك كانوا تحت سلطة سادتهم المطلقــة ، وكان الأمراء الرومان وأشرافهم الالوف من الارقاء ، يستخدمونهم فيمـــا شاءوا ، ويوقعون بهم من الآلام ما شاءوا غير مسئولين عما فعلوا .

ان دخول الدين المســيحى فى أوربا لم يقــلل من الاسترقاق الا من جهة واحدة ، ذلك أن الرقيق كان يصير حرا بالرهبانية ، وانقطاعه الى خدمة الدين ، على شرط أن لا يظهر له سيد يدعيــه فى خلال ثلاث سنوات ، أما من الجهات الاخرى فان الاسترقاق بين مسيحيى أوربا لم يكن بأخف بطشا ولا أسلم عاقبة مما كان بين الوثنيين والمجوس ، ولقد جاء فى جملة قوانينهم المدنية أن الاسترقاق من الامور الطبيعية ، كما انهــا قدرت أثمان العبيد ، واعتبرت فى تقديرها ما يحسنه الرقيق من المهن والاعمال ، ومنها عدم اباحة التزاوج بين الارقاء ، ولا بينهم وبين الاحرار ، وقد قدر القـــانون أشد العقـوبات صرامة فيمـــا اذا تزوج الرقيق حرة ، فقضى على الحرة المتزوجة بالعبد بالقتل ، وقضى على الزوج أن يحرق حيا . كان ذلك حال الاسترقاق فى أوربا فى القرن الثالث عشر للمسيح عليه السلام .

فلما تقوضت أركان المملكة الرومانية ، وأسست على انقضاضها المملكتان الشرقية والغـربية ، لم يقف امر

الاسترقاق عند الحد الذى كان مألوفا عند سلفهم ، بل كان لاشراف الأمتين وأمرائهما القول الفصل ، والرأى الاعلى والكلمة النافذة فى الفلاحين الذين تحت أيديهم ، فكانوا ملاكهم وحماتهم وسادتهم وحكامهم . فلم يكن فى ذلك الوقت من هو أرقى منهم حكمة وأعلى سلطانا سوى نفس الحكومة التى قلما وضعت بين المالك والمملوك شيئا من الحدود .

على ان الكنائس فى أوربا قد اتخذت الارقاء ، وأباحت لغيرها اتخاذهم ، كما أن كثيرا من الناس كانوا يذهبون الي استحسان ذلك ، واعتباره من أحسن الوسائل لمنع الناس من السؤال ، ولقطع دابر السارقين قطاع الطرق . (واعلم) ان أقبح أنواع الاسترقاق ماكان فى أمريكا الشمالية ، ولم يزل فاشيا فيها ، حتى كانت الحروب الدينية ، التى تأججت نارها فى سنة ١٨٦٥ الميلادية .

نحا كثير من الامريكيين نحو ما كان عند الامم السالفة من اليهود والفرس والرومان على ما هم عليه من العلم الغزير ، والتحضر الذى لم يسبقوا اليه ، فكان الامريكى الابيض النصرانى يملك الامة السوداء ، ويولدها البنين على انه مع ذلك لا يعتبرها أم ولده كما فعل الاسلام ، بل كان لابنه الابيض أن يبيعها ويبيع ذريتها الذين هم أخوته من صلب أبيه .

***

وبالجملة يمكن الحكم بأن الدين النصرانى لم يأت بما يقضى دابر الاسترقاق أو ينافيه ، كما أن الامم

المسيحية . على اختلافها وتباين مشاربها ، كانت لا تبالى ان تسترق من شاءت ، وأن تستخدم الرقيق كيف شاءت . وتعامله كما شاءت ، ولم يزالوا كذلك حتى انتشر أمر التعليم فيهم ، فهذب من نفوسهم وأضعف من قسوتهم فتعاهدوا وغيرهم من الامم المتحضرة على حماية نوع الانسان ، والحيلولة بين أفرادهم أن يسيطر بعضهم على بعض الا بقدر ما تقتضيه النواميس الشرعية .

واذ قد فرغنا من بعض المقدمات التمهيدية ، فدونك ما فعل الاسلام فى الرقيق والاسترقاق :

سوى الاسلام بين الامم من غير اعتبار لاختلاف اصنافها والوانها ، فسوى بين الابيض والاسود ، والبدوى والمتحضر ، والرعاية والمرعيين ، والرجال والنساء ، والمسلمين واليهود والنصارى ، ما داموا فى سلم .

أنظر الى المسلمين وهم فى المسجد يؤدون فريضة الصلاة ، أو فى مكة وهم يحجون البيت الكريم ، أو فى المحاكم الشرعية فى صدر الاسلام ، أفتجد فيهم من مقدم ومؤخر ، أو من فاضل ومفضول ؟ كيف والله تعالى جعل المؤمنين اخوة كما لم يجعل بينهم تفاوتا الا بقدر ما يتفاضلون به من الحق ، فلقد قال عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع :

« أيها الناس ، انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس ، فلا ترجعن بعدى كفارا

يضرب بعضكم رقاب بعض ، فانى قد تركت فيكم ما لو تمسكتم به ـ كتاب الله وسنتى ـ لن تضلوا بعدى . أيها الناس أن ربكم واحد ، وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى الا بالتقوى » .

أين هذا مما يفعله أهل أمريكا ، وهم فى مقدمة الامم حضارة وعلما ؟ ازدرى البيض منهم السود وامتهنوهم لسواد ألوانهم ، وتجنبوهم وحرموهم كثيرا من المزايا التى استمتع بها البيض ، ولطالما نشرت الجرائد ما يفعلون بهم من الفتك والمقت والتجافى عن مخالطتهم ، حتى لقد خصصوا لهم فى مراكب السكك الحديدية مقاصير خاصة بهم ، لا يجوز لهم أن يتجاوزوها الى غيرها .

زعم كثير من الناس ، ولا سيما من غير المسلمين ، أن الاسلام أباح للناس اختطاف غيرهم من السود أو البيض ، مستدلين على ذلك بما كان يفعله النخاسون من أهل البادية ، وأهل السودان ، وكثير من الاتراك ، وقد تقدم لنا أنه لا ينبغى الاستدلال على صحة الدين أو فساده ، بما يفعل أهله ، فان هذا من العبث الذى ينبغى أن تصان عقول العقلاء عنه .

ان الشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلا ، ثم انه لا يبيح بعد ذلك الا استرقاق أسرى حرب شرعية ، لم تقم الا لاعلاء كلمة الله تعالى ، مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم . فمن هنا يؤخذ

ان اسرى الحروب ، التى اقامها كثير من امراء المسلمين وخلفائهم ، لا لغرض سوى النهب والسلب والبطش ، مع العدوان على الغير ، لا يجوز استرقاقهم بحال ، سواء أكانوا مسلمين أم غيرهم ، كتابيين أو وثنيين او مجوسا .

اما استرقاق غير المحاربين ، ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كتاب ، كعبدة الاوثان ، فقال مالك والشافعى وأحمد فى احدى روايتيه ان ذلك لا يجوز مطلقا . فماذا ترى فيمن يذهبون الى الصحارى ويختطفون من وصلت اليه أيديهم من السودان وغيرهم ، ثم يجلبونهم ، كما يجلبون المتاع ، فيعرضونهم فى الاسواق عرض الحيوانات العجم ، وكثير منهم مسلمون ، وماذا ترى فى كثير من الامراء وشيوخ المسلمين ، يجيئون اليهم ويسومونهم كما يسوم المتاع ، ثم يسوقونهم الى بيوتهم أما للخدمة واما للافتراش ؟ وماذا ترى فى الذرية التى ينتجها افتراش بنى على هذا الاسترقاق الفاسد ؟ ان الدين لبرىء مما جنى عليه أولئك الطغاة الجهلة ، وطاهر مما الصقوه به من ذلك الدنس والرجس ، قد سولت لهم نفوسهم الخبيثة ما شاءت أن تسول ، فافتأتوا على الله ونسبوا اليه ما نسبوا ، متقولين عليه ، وهذا قرآنه الكريم قائم ناطق بتكذيبهم وتأنيبهم .

(واعلم) أن هناك نوعا من الاسترقاق ، فشا فى المسلمين أيضا ، وهو لا يبيحه الشرع أيضا ، ذلك أن بعض أمم آسيا كالقوقاز وغيرهم ، قد يحدو بهم الفقر

المدقع ، الى جلب بناتهم بأيديهم الى أسواق بعض المدن الاسلامية وهن صغار جدا ليبيعوهن الى الامراء والمثرين من الرجال ، ولقد يكون منهن المراهقات والنساء ، حتى اذا صارت احداهن فى ملك أحد استباح منها واتخذها فراشا ، يخادع الله بما عقده من البيعة الفاسدة ، وما يخدع الا نفسه من حيث لا يشعر ، فيظل طول حياته مستبيحا ما حرمه الاسلام ، ويدخل فى دينه ما أملته عليه وساوس الاوهام .

وقد كرم الاسلام الاسرى فشرع ان كل من أسلم من الاسرى عصم نفسه وماله ، وان مجرد دخول العدو المحارب دار الاسلام أمان له من السبى عند مالك والشافعى وأحمد بن حنبل .

وان للرقيق فى الاسلام أن يتزوج بنت سيده ، فيقلب بذلك سيد البيت .

أين هذا مما سبق لنا نقله ، من قوانين أوربا فى القرن الثالث عشر ، من تحريم التزاوج بين الارقاء ، وكذا بينهم وبين الاحرار وانه يجب قتل المرأة التى يتزوجها عبد ، كما يجب احراقه حيا .

وقد وضع الاسلام من الاصول والنواميس ، ما كاد يقضى على الاسترقاق ، لولا ان الامم العربية وغيرها كانت اذ ذاك على ما نعلم فى أمر الاسترقاق ، وبديهى انه لا يمكن أن يزيل النبى عليه الصلاة والسلام فى بضع سنين أمرا ألفته النفوس ، واستولى عليها ذلك الاستيلاء . لذلك كان النبى عليه الصلاة والسلام يرغب

الناس فى العتق ، كما جعل هناك احوالا يلزم فيها السيد بالاعتاق . فمن ذلك :

١ ــ أخبار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه غير مرة بأن العتق من أجل العبادة ، وأقربها قبولا عند الله .

٢ ــ انه جعل كفارة لبعض الخطايا والحنث فى بعض الايمان .

٣ ــ أن مكاتبة العبد مستحبة بالاجماع ، وللامام احمد فى رواية أنها واجبة متى دعا العبد سيده اليها على قدر قيمته أو أكثر ، وأن للعبد الاستقلال ؛ ليحصل على ما يدفعه لسيده نظير الكتابة ، وأن على سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء .

٤ ــ اذا امتنع المكاتب عن الاداء ومعه ما بقى ، فالحنفية تجبره على الاداء . واذا لم يكن معه مال ، ولكنه قادر على الكسب ، فالمالكية تجبره على الكسب ، لأنه ليس له تعجيز نفسه عنه ما دام قادرا عليه .

٥ ــ يراعى فى عقد الكتابة حالة الرقيق ، فأقل وعد من السيد ، أو أقل احتمال للوعد بالتحرير ، يجعل التحرير ضروريا .

٦ ــ اتفق الائمة على انه لو كان فى يد انسان غلام بالغ عاقل وادعى عليه أنه عبده فكذبه الغلام ، فالقول قول المكذب مع يمينه أنه حر . فترى فى هذه الصورة أن قاعدة « البينة على المدعى واليمين على من انكر »

قد خولفت مراعاة لحالة الرقيق ، فلم يطلب الشرع من المدعى البينة أولا بل جعل القول للمنكر بيمينه ، ولا يخفى ما يدل عليه هذا من شدة حرص الشارع على تحرير الرقاب ، ما وجد لذلك سبيلا .

٧ ـ قد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب بأن يعطى الحاكم للرقيق المكاتب ما يستعين به على فك رقبته ، أو أن يشترى الحاكم العبيد المملوكين ويعتقهم .

٨ ـ أن من افترش أمة ، وأتى منها بأولاد ، فهى أم ولده لا يجوز له أن يبيعها ، ولكنها لا تتحرر تماما الا بعد موته .

٩ ـ استوصى النبى صلى الله عليه وسلم بالارقاء خيرا ، فجعل حقوق العبد على سيده كحقوق المترافقين والمتجاورين والمسافرين ، فلا يجوز للسيد أن يكلف رقيقه ما لا يطيق من العمل ، أو أن يدعوه بألقاب الازدراء والتحقير ، كما لا يجوز للسادة أن يفرقوا بين أنفسهم وبين عبيدهم في الأكل والملبس ونحوهما .

المرأة في نظر الإسلام

شـــــذرات

قبل التكلم عن المرأة فى الاسلام ، نأتيك بشذرات تبين لك شأنها قبل ظهور ذلك الدين الحنيف فى الامم المختلفة، ثم نردف ذلك ببيان ما منح الله المرأة فى الاسلام ، غير معولين فى جميع ذلك الا على كتاب الله تعالى والسنة الصحيحة :

كلنا يعلم ما كانت عليه أمة الفرس من الحضارة القديمة ، كما نعلم ما اشتهر به بعض ملوك فارس من العدل والفضل ، حتى ضربت بهم الامثال . أفأدلك على ما كانت المرأة تعامل به فيهم ؟ كان للرجل أن يتزوج من النساء من شاء ، من غير وقوف عند حد ، ولا تقيد بشرط ، ولا سؤال عن حق ، ولقد كان له أيضا أن يتخذ من الاخدان من شاء .

فاذا اعتبرنا العرب الذين ظهر فيهم النبى صلى الله عليه وسلم ، نجد حالة المرأة فيهم أبشع وأشنع ، فلقد كانت المرأة بين وثنيى العرب معتبرة سلعة محضة ، فاذا مات رجلها ورثت فيما يورث ، حتى كان للابن الوارث أن يفترش زوجة أبيه أو أمته ، كما كان له أن يهبها لمن شاء ، وان يبيعها لمن شاء ، هذا عند وثنيى العرب .

ولم تكن منزلة البنت اليهودية عند أبيها أرفع شأنا

من ملك اليمين ، فلقد كان للأب أن يبيع ابنته قبل بلوغها ، كما كان لابنه الذكر أن يفعل ذلك .

وقد كانت العرب تئد البنات ، اما من فاقة أو خشية عار يأتينه متى كبرن ، حتى قال قائلهم « دفن البنات من المكرمات » .

هكذا كان شأن المرأة بين أكثر قبائل العرب وغيرهم ، فلم تكن بين الفرس والرومان الشرقيين أهنأ بالا ولا أعز شأنا ولا أكثر حرمة منها بين العرب .

ومن المعلوم أن أحسن القوانين ما لا يشتمل على التضييق ، ويلائم فريقا دون فريق ، وكذلك جاء القرآن الكريم والسنة المحمدية بتلك النواميس التى تلائم ، بلا ريب ، أرقى الامم تحضرا وأصدقهم فكرا ، كما تلائم وتنطبق على الامم الذين لا يزالون فى مهد الفطرة الاولى .

المساواة

ساوى الاسلام بين الذكران والاناث فى جميع التكاليف الشرعية ، الا فى أحوال خاصة قليلة ، كما ساوى بين الصنفين فى الحقوق المدنية ، وجعل لكل ان يتقاضى حقه من الآخر ، وأن يبيع ويشترى ويعقد ما شاء من العقود ، ما دام عاقلا رشيدا .

جاء بذلك الاسلام منذ أربعة عشر قرنا ، فتمتعت النساء بما ملكت ايمانهن من أموال وأعيان من غير توقف على اذن زوج أو تقرير مسيطر ، مع أن معظم امم أوربا

لم يطلقوا العنان للمرأة ان تتصرف فيما ملكت يدها ، اللهم الا ما أدخلته الحكومة الانجليزية ، وقليل غيرها من أهل أوربا ، منذ خمسين سنة ، من القوانين التى خولت للمرأة فيها شيئا من ذلك ، ولم يكن هذا معروفا فيهم من قبل .

وقد كانت المرأة لا تكاد تمتاز عن الحيوانات العجم ، لا تقرأ ، ولا تفهم ، ولا تستفتى فى أمر ، ولا تقضى ولا تأمر ولا تنهى ، فهلا علمت ما فعل الاسلام ؟ جاء النبى فكان فى بيته أحسن أسوة للمسلمين ، وما زال صلى الله عليه وسلم تنزل عليه الآيات فى شأن النساء ، حتى أصبحن « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » .

أوجب الله تعالى تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة ، كما أوجب على امهات المؤمنين أن يعلمن الناس ذكورهم وأناثهم « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة » فكان الرجل « وكان ما كان فى الجاهلية » يأتى إليهن ويستفتيهن ويتلقى ما يلقينه من أحكام الله ومكارم الاخلاق ، وبذلك أخذت عقول الرجال ترجع الى رشدها ، وتعلم أن لا دخل لاختلاف الصنف ، أو الشعوب أو الامم ، فى التفاضل . فقد جعل الله التفاضل بين الكائنات تابعا لما فيها من الفضل والمزايا والخصيصات « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » لم يقل الله ان الرجال قوامون على النساء ، مسيطرون عليهن

بمقتضى الفطرة البشرية ، او لان عقـــولهم تخالف عقولهن ، ولكن الله جعل انفـاق الرجل على المرأة من علل الفضل ، كما جعل من العلل أيضـــا ما قد يمنح الله القوامين على النســـاء من المزايا ، ولولا ذلك ما كان للرجل قوامة على المرأة ، ومن ذا الذى يستطيع أن يعتقد فضل بدوى عقله أخلى من أرض البادية على المرأة التى وصلت الليالى بالايام فى طلب العلم ، حتى تثقف عقلها وتهذبت نفسها . كلا ان الله لم يجعل التفاضل الا حيث يكون ما منح من الفضل كمـا قـال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقال : « هل يستوى الاعمى والبصير . أم هل تســتوى الظلمـات والنور » .

أباح الشرع للمرأة ، ما دامت من اهل التصرف فى مالها ، أن تتزوج بنفسها ، وأن توكل غيرها فى زواجها، ولا اعتراض عليها الا أن تضع المرأة نفسها فى يد غير كفء ، فهناك يعترض الولى عليهـا ويطلب من القاضى فسخ زواجها .

جعل الشارع للمرأة أن تشترط فى صلب عقدها أن يكون أمرها بيدها تطلق نفسها من الرجل متى شاءت .

ففى الدر « ان تزوجها على أن أمرها بيدها صح » قال ابن عابدين : « هذا مقيـد بما اذا ابتدأت المرأة فقالت : زوجتـــك نفسى على أن أمرى بيدى ، فقال الزوج : قبلت » .

ولقد يعترض على قسمة المواريث من لم يتدبر ، اذ قضى للمرأة أن يكون لها نصف نصيب الرجل فيتوهم ان فى هذا اجحافا بحقوقها ، ولكنا عند التأمل نجدها قد

زاد حظها وجل نصيبها ، وذلك ان المرأة كما سيأتى عالة على الرجل فى معظم أدوار حياتها ، فيجب عليه شرعا أن ينفق عليها ، ويأتى اليها بمطالبها ، كما يقتضيه عرف القبيل الذى هما فيه . فاذا كلف الشرع القوامين عليها من الرجال أن يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف ، فتقدير الشارع لها حظا من المواريث غاية فى الرأفة بها ورعى جانبها والعناية بشأنها .

فأين حجر الاسلام على المرأة وأين التضييق عليها من هذه المسامحة ؟

تعدد الزوجات فى الاسلام

تقدم لنا التلميح الى ما حشا به الاوربيون كتبهم من الطعن فى الاسلام ، متمسكين بما أباحته الشريعة من اباحة تزوج أكثر من واحدة ، ولو كانوا يعرفون العربية، ويفقهون كتاب الله وقواعده ، ما استطاعوا ان يلصقوا بالاسلام ما ليس من شيمه .

ان النقائص التى مثلت بالاسلام فى أعين غير أهله ، انما نشأت من اعتبار أعمال الخلف الصالح ، ميزانا لتقدر بها قوانين الشرع ونواميسه ، فمن قائل بسد باب الاجتهاد ، ومن امام او خليفة قضت عليه اغراضه البهيمية أن ينتهك حرمات الله ثم يحارب الله فينسب اليه ما ليس من دينه فى شيء ، ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة ، فأفتى بما يطابق أهواء ملك أو أمير تذرعا الى الزلفى منه ، ومن احمق ارعن لم يرض من اليسر ما رضى الله لعباده فشط بالناس واعتسف

بهم ، حتى ضاقت نفوسهم ، وأيقنوا بالعجز عن احتمال تكاليف الدين فانقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون .

جاء القرآن فأباح أن يتزوج الانسان مثنى وثلاث ورباع ، ولكن الله تعالى يقول : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » فتراه قد شرط اباحة تعدد الزوجات بالعدل، كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سببا كافيا فى تحريم التعدد ، ثم نراه قد اعتبر البشر عاجزين عن العدل بين النساء ولو حرصوا . فما بالنا مع جميع ذلك نرى كثيرا من المسلمين يفقهون بعض آيات الكتاب دون بعض ؟ عجبا أغفل الناس كثيرا من القواعد الاسلامية التى يجب تقدير الاعمال بها وزنة التصرفات الانسانية بميزانها .

واعلم أن المعتزلة ، وهم كما تعلم من المسلمين ، يقولون بعدم جواز أن يتزوج الرجل ثانية ما دامت الاولى فى عصمته ، كما ذكره الامير على فى كتابه «سر الاسلام» وما ذلك الا لأنهم تتبعوا ما يجلبه ذلك من المفاسد والمضارة ، وعرفوا أن من أصول الشريعة المحمدية اعطاء الوسائل ما للغايات من الاحكام ، فرأوا آثار تعدد الزوجات كثيرة سيئة لا يستحسنها عقل ، ولا يرضى بها شرع فحكموا بتحريمه .

لم يصرح القرآن بتحريم تعدد الزوجات بتاتا ، وذلك لأنه أرسل رسوله للناس كافة بشيرا ونذيرا ، ولا ريب أن ثمة أحوالا يحسن أو يجب فيها تعدد الزوجات ، ولا يمكن لأحد الفرار من الاعتراف بوجود كثير من الاحوال التى تقتضى ذلك . ولأضرب لك مثلا : رجلا تزوج امرأة فأصابها مرض مزمن ، ورجلا تزوج امرأة

فكان يستمر معها الحيض الى خمسة عشر يوما ، ورجلا تكره امرأته المباشرة فى كثير من أشهر الحمل ، وهلم جرا . فأمثال هؤلاء الرجال اما أن يصبروا مع العنت والشقة ، وقليل الصابرون ، واما أن يأتوا الفاحشة ، وأولئك هم الخاطئون .

انني الأرى ، كما يرى كل عاقل ، أن تعدد الزوجات بالغة مثالبه ما بلغت ، أسلم عاقبة من اتيان الفاحشة ، ومن الشواهد التى يحسن ذكرها ما نقله الامير على فى كتابه « سر الاسلام » عن السيدة غوردون الانجليزية: أنها تأملت فى أحوال كثير من البلاد الاسلامية او الشرقية اجمالا ، فرأت أن تعدد الزوجات أكثر ما يكون فى البقاع التى تكثر فيها الفاقة ، وتقل فيها المرافق ، فيصعب على النساء الاعتماد على أنفسهن فى تحصيل المرافق والاخذ بأسباب العيش ، وقد رأت تلك السيدة أن هذه احدى الضرورات التى يخول معها التعدد .

جمعتنى المصادفات برجل أسبانى قابلته فى لندن ، فمكثنا نتحادث فى كثير من مسائل الدين الاسلامى ، فمما خضنا فيه أمر تعدد الزوجات ، فقال : انه يتمنى لو كان مسلما فيتزوج امرأة غير زوجته . فسألته فى ذلك فقال : ان امرأتى قد أصيبت بجنون ، وها هى تلك تعالج فى بيمارستان « مجريط » ولها على ذلك سنون كثيرة . ولقد اضطرنى الامر أن أتخذ بعض الأخدان لعدم استطاعتى التزوج بأخرى ، فلو أن هذا كان مباحا لنا لكان لى عقب شرعى يرثنى فيما لدى من المال الكثير ، ويكون لى قرة عين وخير رفيق أطمئن به وأسكن اليه .

ثم تقابلت فى اكسفورد مع دكتور فاضل ، وقد جرت

عادة الانجليز أنهم متى رأوا غريبا سـألوه فى جميع ما يلج فى صدورهم . سألنى ذلك الدكتور عن وجه تعدد الزوجات فى الاسلام ، وذكر أنه يستقبحه ، فما زلت به حتى كاد يذعن لما أبديت له من الاسباب ، ثم قال : اننى أكاد أرى وجه ما تقوله ، ولكن لى كلمة فى نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فقلت : ما هى ؟ قال : ان منزلة النبوة التى ادعاها كان يجب أن تحول بينه وبين اكثاره من عدد الزوجات . فعند ذلك قلت له : اننى يا سيدى كثير التجارب ، وقد رأيت فى الانجليز وفى المصريين والاتراك والفرنسيس وغيرهم من الامم من لا يقنع بواحدة ولا يعكف على ما أحل الله ما دام يملك شيئا من المال ، وهذا أيها السيد احد الاسباب فى قلة ذرارى الاغنياء والمثرين وكثرة عيال الفقراء والمعوزين ، ولو ملكت أيديهم فضلا عن المال والسعة لما قنعوا بما أوتوا . افتنكر بعد ذلك أن تعـدد الزوجات أدعى للعفـة والحصانة ، وأضمن لنمو بنى الانسان ؟ فما كان من ذلك الفاضل الا أن قال : ان معظم ما قلته حق لا مراء فيه . ثم ذكرت له أسباب اكثار النبى من النساء مما سنأتى عليه بعد ، وانما لم أبدا بذكر تلك الاسباب لاننى قصدت الزامه من أول الامر بضرورة تعدد الزوجات فى بعض الاوقات أخذا بما عليه الناس فى أحوالهم الدنيوية ، التى لا يسعه انكار شىء منها ، فلما أضعفت من قوة تعصبه ، وفللت من حدته ، أخذت أسرد له الاسـباب التى لم يجد لانكار شىء منها سبيلا .

***

والخلاصة ان اعتبار كون تعـدد الزوجات مصدرا

لكثير من المفاسد . انما هو أمر اضافى . ولا يمكن اتخاذه حكما عاما . فان ذلك يختلف باختلاف الامم والازمنة والامكنة والاحوال . أنظر الى ما كان معروفا فى بدء النصرانية من استقباح الزواج رأسا وتقبيح المتزوجين وتفضيل الرهبانية .

ولقد قضت الرهبانية فى الاعصر الخالية ان يقبر فى الديور كثير من العقول الزكية ، التى لم يجن منها عالم الحياة الدنيا أقل فائدة ، أما منشأ ذلك فقد كان اما تقليدا للمسيح عليه السلام ، أو لبعض أسباب أخرى كالتفرغ المطلق الى عبادة الحق تعالى ، ولا يزال قساوسة الكاثوليك يذهبون ذلك المذهب ، ويزدرون المتزوج لما دنس نفسه بميله الى الشهوات الحيوانية ، قالوا : ان المسيح عليه السلام روح الله ، فكان أقدر الناس على غلبة شهواته ، قارنوا بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم القائل : « لا رهبانية فى الاسلام » ثم انتهى بهم القياس الى الحط من كرامة الاخير . وقالوا : شتان بين من غلب نفسه ، وبين من استرسل مع هواها فأرضاها ، ولا يخفى بطلان هذه القضية فانه لا تنافى بين الصلاح والزواج . على ان تقليد المسيح فى رهبانيته لا يبلغ غايته الا بخراب البيوت وتلاشى الامم وانقراض النوع الانسانى ، ولا يخفى أن هذا ينافى مقتضيات العمران ، ومطالب نظام الاكوان .

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فيما أتاه بدعا من الرسل ، فان موسى وداود عليهما السلام تزوجا كثيرا من النساء ، وهما الرسولان اللذان لا يسع نصرانيا ولا يهوديا انكار نبوتهما ، أو احتقار ما أتيا به من الصحف السماوية الاولى .

زوجات النبى

هذا ونذكر لك فى زوجات المصطفى صلى الله عليه وسلم ما فيه غناء ان شاء الله تعالى . فنقول : اعلم أن أكثر المسلمين اتفقوا على أن للنبى صلى الله عليه وسلم من الخصائص ، ما لم يكن لغيره من أمته ، وذكروا أشياء منها تجاوزه بالزوجات العدد الذى أباحه لغيره بشروطه ، ولا يخفى أن مثل هذا لا يكفى لاقناع غير المسلمين ، الذين ندّدوا بالنبى عليه الصلاة والسلام ، ولم يجدوا فى كتب المسلمين ما ينهض حجة لهم ، اللهم الا قليلا ممن أيده الله بروح منه . فنريد أن نذكر لك من أسباب ذلك ما فيه مقنع ان شاء الله .

فاعلم ان أول أزواج النبى صلى الله عليه وسلم خديجة تزوجها قبل البعثة وهو ابن خمس وعشرين على أنها كانت بنت أربعين سنة .

قضى النبى صلى الله عليه وسلم شبيبته ، وطائفة من كهولته ، ولا زوج له الا خديجة ، ماتت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات ، بعد أن مكثت مع النبى صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة ولدت له فيها جميع اولاده ، ما عدا ابراهيم ، فلم يتزوج النبى قبل بعثته من شاء ، وهو فى ريعان شبابه ، وقد كانت العرب ، على ما علمت ، يكثرون من الزوجات حتى ان منهم من كان تحته العشرون فى وقت واحد . فلو كان هناك سلطان للهوى ، على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، لاتخذ من الزوجات من شاء ، وهو فى مقتبل شبابه ، واستكمال قواه الطبيعية ، لا شرع يحول بينه

وبين بغيته ، ولا عادة تمنعه مراعاتها ، من قضاء مآربه، ولا سيما وقد كان مرغوبا فيه بين الناس لما اشتهر به من مكارم أخلاقه ، وجميل خصاله .

بعد أن ماتت خديجة ببضعة أشهر ، تزوج النبى صلى الله عليه وسلم سودة ، وكانت ايما مات عنها زوجها عقب رجوعه من الهجرة الثانية الى الحبشة ، وكانت قد اسلمت رضى الله عنها وخالفت بنى عمها وأقاربها ، فما أجمل ما عمله النبى من الرحمة بها وتعويضها خيرا مما فقدت ، فقد مات عنها زوجها ولا حامى لها دون أقاربها الذين اسلمت رغم أنوفهم ، فكان تزوج النبى بها حماية لها أن تصل اليها يد الاذى، كما كان ذلك أكبر سلوان لها على فقد زوجها .

مات أبو طالب لشهر من موت خديجة ، ففقد النبى بموته رجلا كان يناضل عنه ، ويدفع عنه أعداءه ما استطاع ، فأخذ الامر اذ ذاك يشتد على النبى صلى الله عليه وسلم ، فرأى أن يوثق الرباط بينه وبين قريش ، فعقد على عائشة ، وهى اذ ذاك بنت سبع ، فان أباها الصديق رضى الله عنه كان صدرا وجيها فى قريش ، واسع المال ، عزيز الجانب ، يدلك على ذلك مسارعة النبى صلى الله عليه وسلم بالعقد عليها ، مع أنها قاصر وانه لم يبن بها الا بعد ذلك بنحو سنتين ، فلم تكن وقت ذاك مطمعا لقضاء شىء من المآرب الشهوية ، حتى يطمح اليها نظر النبى أو غيره .

ومن هذا القبيل تزوجه صلى الله عليه وسلم بأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت ببلاد الحبشة فى الهجرة الثانية . مات عنها زوجها هناك ، وما هو الا أن انقضت

عدتها حتى أبلغها النجاشي أنه قد كتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليزوجه اياها .

كل من أطلع على التاريخ يعلم مقدار ما كان بين النبى وبين بنى أمية من العداء ، كما يعلم أنه قد كان أبو سفيان ألد بنى أمية عداوة لرسول الله والمسلمين ، فانه لم يدخل فى الاسلام الا بعد أن نال المسلمين ما نالهم من أذاه الشديد ، فتزوج النبي عليه السلام أم حبيبة ليكون بينه وبين ألد أعدائه لحمة نسب ، تكون له فى الجملة وسيلة الى حملهم على تقليل الاذى عنه ، كما أنه صلى الله عليه وسلم اختارها لنفسه ، لانها خرجت من ديارها فارة بدينها ، ففى عدم حمايتها ووقايتها — وقد مات زوجها — تعريض لها الى مقاساة المصاعب والاهوال ، وانما اختارها النبى لنفسه لمكانتها فى قومها ، فلو أنها زوجت بغير كفء لاتخذ بنو أمية ذلك شبهة يوغرون بها صدور بيوتاتهم ، ويحرشونهم بالمسلمين على قلتهم وضعفهم .

وكانت الأسرى من النساء يتخذن اماء لا يسوى بينهن وبين الحرائر فى شيء ، كما أنهن قلما اعتقن ، فأراد النبى أن يعلم المسلمين بالعمل ما ينبغى أن يصنعوا بما فى أيديهم من الاسرى من التحرير والكرامة ، وأن يجعلن سيدات البيوت ، فمن ذلك تزوجه بجويرية . قالت عائشة رضى الله عنها : أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبى بنى المصطلق فأخرج الخمس منه ثم قسمه بين الناس فأعطى الفارس سهمين والرجل سهما ، فوقعت جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار فى سهم ثابت ابن قيس ، فجاءت الى الرسول فقالت : يا رسول الله

أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه ، وقد اصابني من الامر ما قد علمت ، وقد كاتبني ثابت على تسع أواق فأعني على فكاكي ، فقال : أوخير من ذلك ، فقالت : ما هو ؟ فقال : أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك ، فقالت : نعم يا رسول الله فقال : قد فعلت ، وخرج الخبر الى الناس ، فقالوا : أصهار رسول الله يسترقون ، فأعتقوا ما كان فى أيديهم من سبى بنى المصطلق ، فبلغ عتقهم مائة بيت بتزوجه عليه السلام اياها . فانظر الى ما قصد الرسول عليه السلام من تزوجه بها .

ومن ذلك أيضا تزوجه بصفية بنت حيى ، وكانت من أشراف بيوت اليهود ، ثم صارت سبيا بعد وقعة خيبر ، وكانت مما اصطفاه صلى الله عليه وسلم من الغنائم .

وعن ابراهيم بن جعفر عن أبيه قال : لما دخلت صفية على النبى صلى الله عليه وسلم قال لها : لم يزل أبوك من أشد اليهود لى عداوة حتى قتله الله . فقالت يا رسول الله : ان الله يقول فى كتابه « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فقال لها رسول الله : « اختارى فان اخترت الاسلام أمسكتك لنفسى ، وان اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقى بقومك » . فقالت : « يارسول الله ، لقد هويت الاسلام ، وصدقت بك قبل أن تدعونى حيث صرت الى رحلك وما لى فى اليهودية أرب ، وما لى فيها ولد ولا اخ ، وخيرتنى الكفر والاسلام فالله ورسوله أحب الى من العتق ، وان أرجع الى قومى . قال فأمسكها رسول الله لنفسه ، وقد رضيته بعلا ، مع أنه كان لها أن ترجع الى أهلها بعد العتق .

هذا واعلم ان امر الثأر فى الجاهلية معروف ، وقد حاول كثير من الانبياء كموسى والسيد المسيح وغيرهما حقن الدماء - ونسخ تلك العادة القبيحة ، فلم يفلحوا ، لما أن ذلك كان أمرا راسخا فى نفوس العرب أشربته قلوبهم فلم ينجع فيهم دواء ، حتى أتى النبى فجعل من عقود أنكحته ما ربط كثيرا من القبائل بعضها الى بعض، فبذا قرب ما بينها ، وأزال كثيرا من أحقادها ،وأطفأ ثورة ما فى صدورها من الغل والضغائن ، حتى قلت فى ايامه صلى الله عليه وسلم الغارات ، وكاد يتناسى أمر الثارات .

زواج النبى بامراة زيد

هذا وتتميما لهذا الموضوع نريد ان نذكر كلمة فى تزوج النبى صلى الله عليه وسلم بزينب امراة مولاه زيد :

قال الشيخ محمد عبده (١) أن زينب كانت بنت عمة النبى صلى الله عليه وسلم ، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها لأول الامر ، حتى انه اختارها لمولاه زوجة مع ابائها واباء أخيها وعد هذا عصيانا ، وما زال كذلك حتى نزل فى شأنها آية : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » .

ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم

(١) أنظر تفسير سورة الفاتحة .

لـكان أقوى سلطان عليه جمال البكر فى روائه ونضرة جدته ، وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجـــاب ، ولا يخفى عليه شىء من محاسنها الظاهرة ، فكيف يمتد نظره اليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم الله عليه بالعتق والحرية ؟ لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر أن تعظم شـــهوة القريب وولعه بالقريب الى أن تبلغ حد العشق خصوصا اذا كان عشيره منذ صغره بل المألوف زهادة الاقرباء بعضهم فى بعض متى تعاشروا ، فكيف نظن أن نتوهم أن النبى الذى يقول الله له : « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا » يخالف مألوف العادة ، ثم يخالف أمر الله فى ذلك ؟ أم كيف يخطر بالبال أن من عصم الله قلبه عن كل دنيئة يغلب عليه سلطان شهوة فى بنت عمته ، بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده ؟

« أن النبى لم يبال بإباء زينب ورغبتها عن زيد ، وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة ، وتفسد به شئون المعيشة ، فمــا كان له وهو سيد المصلحين أن يرغم امرأة على الاقتران برجل ، وهى لا ترضاه مع ما فى ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين ، لولا أن النبى يجد من نفسه ان هذا القران مقدمة لتقرير شرع وتنفيذ حكم الهى ، ذلك أن التصاق الادعياء بالبيوت ، واتصالهم بأنسابها كان أمرا تدين به العرب ، فكانوا يعطون الدعى جميـــع حقـــوق الإبن ويجرون عليه وله جميع الاحكام التى يعتبرونها للابن حتى من الميراث وحرمة النسب ، فأراد الله محو ذلك بالاسلام ، حتى لا يعرف من النسب الا الصريح

« وما جعل أدعياءكم أبناءكم » ثم قال : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عنــد الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم » فبين الله أن ليس للمتبنى الا حق المولى والأخ فى الدين .

« وكان من عادة المصطفى أن يبادر فى كثير من شرائعه الى اقامتها بنفسه ، ليكون قدوة حسنة ، ومثلا صالحا تحاكيه النفوس ، وتحتذيه الهمم ، وحتى يخف وزر العادة ، وتخلص العقول من ريب الشبهة . وعلى هذه السنة جاء تزوجه بزينب ، اذ ألهمه الله تعالى أن يتولى الامر بنفسه فى أحد عتقـــائه ، لتسقط العادة بالفعل ، كمــا ألغى حكمها بالقــول الفصل . فبعد أن صـــارت زينب الى زيد لم يلن اباؤهـــا الاول ، ولم يسلس قيادها ، بل شمخت بأنفهـــا ، وذهبت تؤذى زوجها ، وتفخر عليه بنسبها ، وبأنها أكرم منه عرقا ، وأصرح منه حرية ، لانه لم يجر عليها رق ، كما جرى عليه . فشكا ذلك الى النبى غير مرة وهو يقول له : « امسك عليك زوجك واتق الله » الا أنه لم يستطع الصبر على معاشرتها فطلقها ، ثم تزوجها النبى ليمزق من حجاب تلك العادة ، كما قال تعالى : « لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » وأكد ذلك بالتصريح فى نفى الشبهة بقوله : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » وقد قال العرب اذ ذاك تزوج محمد حليلة ابنه .

« قال أبو بكر بن العربى : فأما قولهم أن النبى صلى الله عليه وسلم رآها فوقعت فى قلبه فبــاطل ، فانه كان معها فى كل وقت وموضع ، ولم يكن ثمة حجاب ، فكيف

تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها فى كل ساعة ولا تقع فى قلبه الا اذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله ، فكيف يتجدد هوى لم يكن .. » اهـ ملخصا .

***

وهكذا كانت سنة النبى صلى الله عليه وسلم فى جميع زيجاته فلم يكن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه السنوات التى أكثر فيها من الزوجات أخضع لشهوته منه وقد كان فتيا لم يكلف بشىء من أعباء الرسالة ، ولم ينزل به من أذى قريش وعدائهم ما كان يضعف عن احتماله ، لولا أن جعله الله من الصابرين ، هذا كله على فرض أن أنكحة النبى صلى الله عليه وسلم كانت كلها أو بعضها بعد نزول آية : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » أما اذا كانت قبل ذلك كما حققه الامير على فى كتابه « سر الاسلام » فلا حاجة الى التماس شىء من تلك الاسباب . قال الامير على : أن ميمونة بنت الحارث كانت آخر من تزوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك فى السنة السابعة للهجرة ولم تكن الآية نزلت بعد ، ثم أن الله تعالى بعد ذلك لم يبح للنبى أن يتزوج على من عنده ، كما فرض عليه الا يتبدل بهن أزواجا أخريات فقال : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من ازواج ولو أعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك » أى الا من سبق لك التزوج بهن .

وهنا مسألة أولع بايرادها كثير من أحداث هذا الزمان ، قالوا : لم جاز تعدد الزوجات على شرط دون تعدد الازواج ؟

فاعلم ان ذلك يفضى بداهة الى اختلاط الانساب ، فيقع اللبس فى نسبة النسل ، ولا يخفى أن ذلك يفضى الى تعطيل كثير من الاحكام الدنيوية ، كالنفقة والارث وغيرهما .

وهنا مسألة أخرى وهى أنه لم جاز للمسلم أن يتزوج كتابية بخلاف العكس ؟ وجوابها ان الاسلام جعل لكل كتابى أن يبقى على دينه ، فالكتابية فى يد المسلم آمنة على دينها بخلاف العكس ، فان المسلمة فى يد الكتابى لا تؤمن أن تفتتن فى دينها ، فانه لا وازع له من دينه يحول بينه وبين فتنة غيره ، ولا سيما من له عليه سلطان كزوجته ، والناظر لما يفعل دعاة النصرانية فى العصر الحاضر يرى جليا وجه ما قلناه ، ومن هنا يعلم أن المراة لم تبخس شيئا مما منحه الرجل .

الطلاق

مما عد وصمة فى الاسلام اباحة الطلاق ، ولذا ينبغى لنا أن نأتى ببيان ما سيكشف لك ان شاء الله وجه الصواب فيه ، فنقول :

اعلم ان الطلاق أباحه الله للمسلمين لانه قد تدعو اليه الضرورة ، أما حيث لا ضرورة فسماه النبى صلى الله عليه وسلم أبغض الحلال الى الله ، كما أن المسلمين اتفقوا على النهى عنه عند استقامة الزوجين ، فمنهم من قال أنه نهى كراهة ، ومنهم من قال نهى تحريم وقد رأت الحنفية تحريم الطلاق بلا سبب ، ويؤيد ذلك أنه اضرار ، وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عنه فى قوله : « لا ضرر ولا

ضرار » ولقد كره النبى صلى الله عليه وسلم أن يطلق زيد زوجتــه زينب ، مع أنهــا كانت تكثر من ايذائه والاستخفاف به حسبما تقدم لنا آنفا ، اما الطــلاق بسبب فلم يرفضه أحد ، ولكن اختلفوا فى بيان الاسباب، قال ابن عابدين : واما الطلاق فالاصل فيه الحظر أى الحرمة ، والاباحة للحــاجة الى الخلاص ، فاذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة الى الخلاص ، بل يكون حمقا وسفاهة رأى ومجرد كفران للنعمة وايقاع الايذاء بها وبأهلها وأولادها ، ولذا قالوا ان سببه الحاجة الى الخلاص عند تباين الاخلاق وعروض البغضاء الموجبــة عدم اقامة حدود الله تعالى ، فحيث تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر ، ولذا قال تعالى : « فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » أى لا تطلبوا الفراق • أهـ

أما غير المسلمين ، فمنهم من لم يجوز الطلاق أصلا الا للزنا ، كالأمة الانكليزية ، فأيهما اقترفه كان للآخر ان يرفع الامر الى المحكمة ليفصل القاضى بينهما . أما اهل الولايات المتحدة بأمريكا فكانوا على هذه السنة ، ثم وجدوا أن هناك اسبابا أخرى يتحتم معها الطلاق ، ولكن لا فرقة عندهم الا بقضاء قاض ، ولابد لجميعهم أن يرجعوا الى ما قرره الاسلام من الاسباب .

نعم ان الشريعة الاسلامية لم تقف تنفيذ الطلاق على حكم الحاكم ، وقصار النظر من الناس يرون أن الاول اعدل ، لان فيه محاسبة الرجل والمرأة على ما يعملان ، فلم يخل السبيل للرجــل يفعل ما يريد . ولــكن دين الاسلام أقوى ركنا وأحكم وضعا وابعد مرمى ، فلم يفعل

ذلك الا لحكمة صالحة ، ذلك أن فى تطبيق الطلاق على حكم القاضى بثبوت الزنا أقبح تشهير للمقترف وأشنع سبة تنفر عن مرتكبه القلوب ، وتشوه سمعته فى العالم ، ولا سيما فى مثل هذا العصر الذى تطوف جرائده فى الشوارع والازقة والدكاكين والبيوت والمصانع ، وتنتقل من أرض الى أخرى ومن يد الى غيرها ، مشحونة بتفاصيل ما يعرض فى المحاكم من هذه القضايا ، آتية على ما قل منها وما جل فمن ذا الذى يقبل على تزوج رجل أو امرأة قطعت سمعتها الشنعاء المشارق والمغارب؟ يقضى ذلك الرجل وتلك المرأة ما بقى من العصر مرذولين مجفوين ولو استقاما بعد ذلك وأصلحا ، أما الاسلام فانه جعل للقاضى فسخ الانكحة فى أمور لا بأس فى اعلانها ، بل ان اعلانها هو المصلحة الكبرى ، من ذلك : العنة والجنون والبرص والجذام والاعسار بالنفقة والكسوة والمسكن ، مما تراه مبسوطا فى كتب الفقه متى رجعت اليها . أما غير هذه الاسباب مما قد يزول أو لا كبير خطر في بقائه ، فللرجل أن يطلق من غير أن يكلف بيانا فيه . فما أجمل ستار الشرع الذى يخفى كثيرا من النقائص ، رجاء أن تزول من قبل أن يظهر عليها أحد ، وما أرأفه بالانسان الذى قد يهفو ثم يبدو له فينيب .

هذا . واعلم ان الديانة المسيحية لم تمنع الطلاق أصلا ، وغاية ما ورد فى الانجيل أن من طلق امراته وتزوج أخرى فهو زان ، وهذا لا تعرض فيه لحكم الطلاق أصلا .

واعلم ان الطلاق فى الاسلام ، كما هو معلوم ، حق من حقوق الزوج « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » ولكن

الاسلام مع ذلك قد جعل للمرأة ، كما تقدم ، ان تشترط في العقد أن تملك ذلك كما عليه الحنفية ، فاذا لم تشترط ذلك هى أو وليها فقد أقرت الرجل على الحق الذى خوله له الشرع ، ولكن مع ذلك لا يجوز له ان يوقعه الا حيث يراه الشرع حسنا صالحا .

هذا ولم يعتبر الاسلام زنا الرجل من الاسباب التى تطلب بها المرأة فسخ الزواج ، ولا العكس ، الا ممن قذف امرأته أو رماها بالزنا أو نفى حملها ، ولا بينة له ، فان له أن يلاعن زوجته وتلاعنه ، ثم يفرق القاضى بينهما . والسبب فى ان هذه التفرقة لم تبن على مجرد الزنا من حيث هو زنا بل من حيث ما يستتبعه من الاحكام الدنيوية المتعلقة بما عسى أن يكون من الاولاد ، ولذا كان رمى المرأة الرجل بالزنا لا يصلح علة للفرقة بل ان لهذا حكما آخر ليس هذا موضوع الكلام فيه .

***

فمما تقدم لنا هنا نرى ان الاسلام لم يجر فى جميع ما سردناه عليك هنا الا على مقتضى أصل الفطرة . فرفع شأن النساء حتى ساوين الرجال فيما يمكن من المزايا والحقوق ، ثم لم يبخسهن شيئا ، كما اباح للرجال ما أباح من تعدد الزوجات والطلاق مقرونا بما وضعه وقرره من الشروط — ولكن لو انصف الناس لاستراح القاضى — حارب المسلمون دينهم وما شرط لهم ، فكان اكثرهم اباحيين لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ماكانوا يفعلون .

كان الطلاق قبل الاسلام منتشرا فى جميع امم العرب يهوديها ومسيحيها ووثنيها ، وكذا بين الرومانيين ، فلقد

اعتبر قانون « الموائد الاثنتى عشرة » الطلاق جائزا . أما ما تشدق به بعض المتشيعين لهم من انهم لم يعملوا بهذا القانون الا بعد خمسة قرون مضت من عهد تأسيس مدينتهم « رومة » فلم يكن سببه ما يدعون من بغضهم للطلاق ، ولكن لان الرجل فى تلك القرون كان له أن يقتل امراته عقابا لها على بعض الجرائم كالسكر ، فكانت عند الرجل كالرقيق ، كما انها اذا طلبت من زوجها الطلاق اعتبر ذلك منها قحة ونشوزا يخول له عقوبتها . نعم ان الرومانيين فى أخريات امرهم اصلحوا كثيرا من شأن المراة وانصفوها ، اذ ساووا بينها وبين الرجال فى كثير من الاشياء .

يقول الامير على : ان المعتزلة لا يجوزون وقوع الطلاق الا بحكم القاضى الشرعى العادل ، فلا بد أن يمتحن الاسباب بلا تحيز ، فيوقع الطلاق أو يرفضه حسبما يراه صالحا . ومن هنا يظهر أن من طوائف الاسلام من يعلقون وقوع الطلاق بحكم القاضى ، فلا يصح عندهم وقوع الطلاق من الزوج الا بعد محاسبته وامتحان أسباب ما يريده من الفرقة .

تعدد الطلاق

واعلم ان من أكبر الدلائل على بغض الشرع للطلاق أن جعل للرجل ان يسترجع امرأته فى الطلقةالاولىوالثانية، لانه ربما كان التطليق لثورة غضب ثارت فلم يملك نفسه حتى يتروى ويتدبر ، فرجا الشرع أن يرجع اليه رشده فيتدارك ما فرط منه حتى اذا طلق الثالثة وجبت عقوبته

بعدم جواز الرجعة حتى تتزوج غيره لما تبين من انه سفيه الرأى ضعيف العزم ، ولا يخفى ما فى هذا الشرط من السر الحكيم ، واذا أردت بزيادة بيان فتدبر قوله تعالى : « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها أن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما » أيقول الله ان يريدا طلاقا يفرق الله بينهما أم ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ؟

وتفهم قوله تعالى : « خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » فقال لتسكنوا اليها ولم يقل لتطلقوها ، وقال وجعل بينكم مودة ورحمة، ولم يقل بغضا وقسوة ، وقوله تعالى : « امسك عليك زوجك » أمر النبى عليه السلام زيدا بأن يمسك زوجته فلا يطلقها ، مع انها كما تقدم كانت تكثر من مضارته واساءته ، وقال تعالى : « فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » أى فلا تطلقوهن ، ومن هنا استنتج ان الاصل فى الطلاق التحريم ، الا لسبب كما تقدم لنا .

خاتمة

ونريد أن نأتيك هنا بملخص ما كتبه الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، مما يناسب هذا المقام ليكون له احسن ختام :

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه ، وقرر أن لكل نفس ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » « وان ليس للانسان الا ما سعى » وأباح لكل أحد أن يتناول

من الطيبات ما شاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ، ولم يحظر عليه الا ما كان ضارا لنفسه أو لمن يدخل فى ولايته أو ما تعدى ضرره الى غيره وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة ، فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها ، اللهم الا حقا محترما تصطدم به . أنحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عند القدر ، فبدت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم ، وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هياكل الوهم « نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والأزواد قليلة » .

علا صوت الاسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام ، أعلام الكون ودلائل الحوادث ، وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون .

صرح فى وصف أهل الحق بأنهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا مما علموا أحسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ، ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ، ووضعهم تحت انظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون ويمتحنون

مزاعمهم حسـبما يحكمون ، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون .

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العـرفان ولا مسميا لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان ، وانما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من اسلافه وآبائه ، وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها اهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذي وصل اليهم بما اقترفه سلفهم « قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وان ابواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب .

عاب ارباب الاديان في اقتفائهم اثر آبائهم ووقوفهم عندما اختطته لهم سير اسـلافهم وقولهم « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » .

أثر القرآن
في تحرير الفكر البشري

حرية الفكر قبل الإسلام

لعل من المستحسن ـ قبل ان اتكلم فى اثر القرآن الكريم فى حركة الفكر البشرى وتحريره ـ ان الم بنبذة تاريخية فيما كانت عليه الامم الكبرى فى طائفة من القرون التى سبقت ظهور الاسلام من التطورات ، وما تعاقب على العقول فيها من المد والجزر ، والتحرير والاستعباد، فان فى ذلك ما يعيننا على ادراك مدى ما فعل القرآن فى انصاف العقل الانسانى واحلاله المقام الذى خوله خالقه منذ فطره واوجده .

كان أساس القانون العام السياسى فى الامبراطورية الرومانية اباحة علنية الاديان وجميع العقائد والافكار وما زال الامر هنالك كذلك حتى دخلت باوربة الديانة المسيحية التى ابتدأ بها عهد الحجر والحظر على ما سيأتى تفصيله .

لقد كان من اهم الدعاة الى تحرير الافكار من قيود الخرافات والتقاليد ، والقصص المزعجة التى كان يستعملها بعض شعراء اليونان ، ورجال الاديان فيهم : « هرقليتوس » و « ديمقراط » ، ولقد تناول هذان بالبحث ـ بعد المادة الطبيعية ـ احوال النفس البشرية

والشئون السياسية ، وكان هدفهما ورائدهما في جهودهما العنيفة امتحان كل شيء بالعقل والفكر . وكذلك ظهر « انكساجوراس » فجعل يعلم الناس أن الشمس التى يصلون لها صباح مساء انما هى كتلة من النار ملتهبة لا اله يعبد .

ومعلوم أن حركة هؤلاء الفلاسفة فى سبيل تحرير العقل مهدت الطريق لعلماء التربية المعروفين بالصوفية أو السفسطائية ، الذين اخذوا يظهرون فى القرن الخامس للميلاد ، والذين وضعوا فى النصف الثانى من هذا القرن قواعد وأصولا للحياة الاجتماعية من ناحيتى « الاخلاق والسياسة » وبحثوا في الخطأ والصواب والعقل وقانون التفكير والخطابة وهلم جرا ، ولكن جميع ذلك كان لا يتجاوز الاقلية المطلقة التى هى طبقة المفكرين والعلماء، أما الدهماء والعامة فكانوا فى كل مكان أسارى الخرافات والعقائد الضالة ، على أنه لا ينبغى أن نغفل ما كان لأثينا فى ذلك العصر من التمتع بحرية الفكر والمناقشة فى الشئون السياسية وبخاصة لعهد زعيم نهضتها الحرة « بريكل » الذى كان يحمى أرباب التفكير الحر ، حتى لقد كان حصنا للفيلسوف الجاحد لآلهة أثينا ، « انكساجوراس » من المحاكمة .

ومن وقائع ذلك الزمن وأحداثه ما يدلنا على أن النزوع الى الخروج على الاديان كان آونة لا ينجو من العقوبة ، وان ما كان ينشر من الكتب فى ذلك كان يجمع ويحرق او يحرم بيعه علنا ، ولكن الاضطهادات والتنكيلات المنظمة التى كانت تقام فى أوجه المنطقيين Rationalists اللادينيين كادت في أواخر ذلك القرن تختفى ، وذلك

لوفرة عدد هؤلاء واطراد نموهم وتكاثرهم . ولقد كان من القضايا المسلمة لدى الاغريق ، ثم الرومان حتى فى أرقى عصورهم علمـــا ومدنية ومادية ان الدين نافع وضرورى لعامة الشعوب مطلقـــا ، ولذلك كان يقول بفائدتها ، كركن للسياسة العامة . حتى من لا يدينون بها ، كما ان فلاسفتهم ما كانوا يقدمون على نشر اية عقيدة او نظرية ، من شأنها احداث اضطراب ما فى الحيـــاة الاجتماعية . ومن الافراد البارزين فى هذا الميدان من الاغريق سقراط . الذى يعتبر بحق أجل أولئك المربين فكان مما امتاز به وتفرد شديد تعلقه بطريق المناقشة والنقد ، واجتذاب كل من يحادثونه ومن يستمعون اليه. الى طريق استعراض العقائد المعروفة المألوفة ، وامتحانها بمحك الفكر ، مع افساح صدر العقل لكل بحث واحتمال، دون تقيد بشىء من التقاليد ، ولا وقوف عند رغبـــات الجماهير ، وانما سلك سقراط هذا الطـريق فى نشره للعلم ، واقتياده شباب زمانه الى وجوه الحقيقة ، ومناهج التفكير الصحيح ، لان بلاد اليونان منذ حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد العيسوى ، كانت ميدان حركة فكرية ، ابتدعها افراد من اليونان ، كانوا فى أول هذه الحركة ، اما مسترزقين او طلاب شهرة وسمعة ، ثم اخذوا يسرفون فى أســـاليبهم الجـــدلية وطرائقهم التشكيكية ، غير مبالين ما يصيب العقول من التضليل، ولا حاسبين حسابا لوخيم عواقبها ومنكر نتائجها .

ولقد أكثر هؤلاء من الخلط والتخبط وتجاوز ما بين الحق والباطل وما بين الفضيلة والرذيلة من الحدود . حتى التبس الامر على العقول وخفيت عن بصائرها معالم

العلم الصحيح وحدوده . ولم يتركوا شعبة من شعب التفكير ولا ميدانا من ميادين المعرفة حتى اعملوا فى اساسها واركانها معاول التشكيك لا لعلم يبلغونه ولا لصواب ينشدونه ولكن ضلالا وتضليلا ، وجهلا وتجهيلا ، فلما جاء سقراط ، بما أوتى من العقل الراجح والرأى السديد والعلم الصحيح ، لم يجد بدا أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ، ويسلك فى هدايتهم تلك السبل التى سلكها أولئك فى تشكيكهم وتضليلهم ، ولو أنه انتهج فى تعليمهم وارشادهم غير هذه المناهج التى فتنوا واغرموا بها لما استطاع أن يجتذبهم الى طريقه ، أو يبلغ بهم شيئا من مقاصده ، والى عهد سقراط لم تكن التربية العالية من أغراض السياسيين والمفكرين من اليونان .

ومع كون أثينا فى ذلك العصر كانت اشهر البلاد فى الديمقراطية وأكثرها تسامحا وحرية ، نجد التاريخ يسجل لنا ما لا يكاد يصدقه الوهم من الاضطهادات التى كانت تنال المتصدين للدعوة الى حرية الفكر والاحتكام الى العقل .

اشتهر سقراط بطريقته التحاورية ، وبالجدل والتشكيك ، والنقد وعدم التقيد بما عليه الناس اذ ذاك من التقاليد والافكار ، ولكن كان لدى اليونانيين من الروح المعادى لتلك الحياة العقلية الجديدة ما أفضى الى محاربة الفلاسفة (وفى مقدمتهم سقراط) بسائر الوسائل ، ولا سيما الروايات التى وضعوها للسخرية منهم والاستهزاء بهم ، وتصوير مثل سقراط زنديقا غير تقى وداعيا مضرا ، حتى لقد ثارت عليه الامة اليونانية آخر الامر ، واعتبرته ملحدا ومفسدا لعقائد الشباب

وقتلوه سنة ٢٩٩ قبل الميلاد ، لهذه الاسباب ، كما تدل عليه محاكمته ، وما قدمه فى الدفاع عن نفسه ، وقد علمنا من التاريخ انه قدم لدرء ما اتهم به من افساده لعقائد الشباب هذين الدفعين :

١ ـ يجب على كل فرد مهما تكن النتيجة أن يقاوم كل ما يراد عليه مما يراه ظلما ، سواء أصدر عن شخص صاحب نفوذ أم عن محكمة .

٢ ـ ان لا ينزل مطلقا عن القول بأن فى المناقشة الحرة مصلحة للفائدة العامة ، وضمانا للعلم الصحيح .

بعد ذلك بسبعين عاما ، اضطر أرسطو أن يفارق أثينا أيضا ، حذر أن يساق الى ذلك المصير ، لاعتباره فيها ملحدا أيضا .

ولقد جاءنا افلاطون ، انجب تلاميذ سقراط ، فى آخر أيامه بصدمة تراجعت بها الحركة التقدمية لحرية الفكر والمناقشة بعض الشيء ، فانه يرينا فى « المدينة المثالية » انه لابد لأهل المدينة من قبول الدين الذى رسمه هو وصوره ، وأن من لا يؤمن به يعاقب بالقتل والسجن ، وأن حرية الجدل والحوار معاقب عليها على النحو الذى وضعه . الخ . على أن تعاليم سقراط فى محادثاته ظلت ينبوعا غزير المادة ، ترعرعت به عدة مذاهب فى الفلسفة ، وصدر عن مرتواه جلة من الفلاسفة المعدودين ، كأفلاطون وارسطو واستويقس وامثالهم ، ممن انبثت مذاهبهم فى أطراف بلاد الاغريق منذ ابتداء القرن الثالث قبل الميلاد ، وفتحوا لهذه البلاد مصاريع أبواب الحياة العقلية ، وانعشوا فى اهليها حركة التفكير والتدبر .

ولقد سبقت لنا المامة بما ترك افلاطون وارسطو من

الأثر فى تحرير عقول الاثينيين ، ولكن من المفيد ايضا أن نورد هذا أن أبيقور ــ على رغم جحوده قيام السلطان الالهى فى هذا الوجود للتدبير والتعريف ونبو بصره عن كل موجود سوى المادة والماديات ـ قد تخطى بالعقول الخــــاملة فى اقدامه المدهش السريع عقبات استعصى تخطيها على الاجيال والقرون . ولقد وجد أحد الشعراء من الرومانيين فى فلسفته وحيا والهاما مستطابا أودعه قصيدته المسماة « فى طبيعة الدنيا » .

ولم تكن فلسفة استويقس فى تحرير العقل الانسانى بأقل حظا من المذاهب المذكورة آنفا ، بل الحقيقة أنها جاءت منظمــة ومفصلة لجملة من القوانين الاجتمــاعية التى لم يأت ســــــقراط على بيان شيء منهــا أيام كان يقرر أن القــــوانين قد تكون غير عدل وأن الناس يجرمون . ولقد كان لفلسفة استويقس أثرها فى الشرائع الرومانية ، فان أساس القـــانون المدنى فى الامبراطورية الرومانية ، كان ، كما قدمنا سابقا ، اباحة علنية جميع الاديان والجهر بسائر الافكار .

قدمنا أن حرية الدين ، وحرية الجهر بالفكر ، لازمتا الشرائع الرومانية حتى دخلت الديانة المســـــيحية فى اوربا ، فضربت هنالك حولها نطاق الحجر والحظر ، لمــا كانت عليه من التقاليد الوثنية .

ابتدأ بها الحجر لأن الرومانيين كانوا يعتبرونها شعبة من اليهودية التى تنافر بطبيعتها التقـــــاليد الوثنية الرومانية ، والتى ما كانت تتمثل لابصـــــارهم سهلة سمحة .

ولشدة نفور الرومانيين منها ، وبغضهم لهــــــا ،

وأعتقادهم أبتعادها عن روح التسامح ، أصدر تراجان قانون حكم القتل على من يدين بالنصرانية ، وقد أحاطه بقيود لم تيسر السبيل الى الاسراف فى القتل ، ولكن الإمبراطور بيوكلتيان أراد تأييد دين الحكومة . وتثبيت قدم الحرية التى ألفوها قديما ، فكان ما قرره من تنظيم المذابح فى المسيحيين بكل فظاعة وقسوة . وفى الحق آن الذى دفع ذلك الامبراطور الى هذه الجرائم . أن المسيحية كانت تقبح ما أعتيد من عبادة الرومانيين أباطرتهم ، على حين أن ملوك الرومان كانوا يرون ضرورة أن تخصهم الشعوب بالعبادة ، توحيدا لكلمتهم ، وتعلقا خالصا بعروشهم التى تمثل الامبراطورية جميعها . ولكن بدخول قسطنطين الكبير فى النصرانية دارت الدائرة على العقل ، فكان أول عهده بالاعتقال والاسترقاق . وبعد ان كان رجال المسيحية فى القرنين اللذين سبقا ذلك ينادون بأن التسامح الدينى واجب ، وان العقائد ليست مما يلزم به الانسان جبرا ، فتنوا بدخول قسطنطين فى النصرانية ، وانقلب الأمر رأسا على عقب ، فكان الحكام والملوك ، لأسباب سياسية غالبا ، كما كانت الطوائف المختلفة لما بينها من الاختلافات المذهبية ، يوقدون نيران الفتن ، ويقيمون المذابح المروعة هنا وهناك ، حتى سلب من الدنيا الامن والسلام ، وفقدت الانفس الراحة والطمأنينة . ولقد كان من تعاليمهم أن النجاة لا تكون الا بقبول المسيحية ، وأن من لا يقبلها لا ينجيه فداء من عذاب الدنيا ، ولا عذاب الآخرة ، مهما بلغت من الفضائل ، ومهما يقدم من الخيرات والحسنات ، وانه اذا مات

الطفل قبل التعميد فانه فى الآخرة يمشى على بطنه فى ارض جهنم أبد الآبدين .

ومن اقدس رجالهم (سانت أوغسطين) الذى مات سنة ٤٣٠ ميلادية ، فانه وضع نظام اضطهاده من لا يقبل النصرانية ، واستمر ذلك من بعده متبعا الى القرن الثانى عشر ، وكلما حدثت بين النصارى بدعة أو عقيدة تقلل من دخل الكنيسة ، اشتد القساوسة على أصحابها وغلوا فى ايذائهم والتنكيل بهم .

ولقد أمر البابا أنوسنت الثالث « كونت تولوز » ، أن يستأصل طائفة من رعاياه ذات بدعة مذهبية ، فلما لم يطع أمره اقام عليـه حربا صليبية كادت تفنى قومه ، وفيها صودرت أملاك ذلك الكونت ، وكسرت شوكته ، ولم يصالحه البابا الا على شرط استئصال آثار ذلك المذهب من ملكه .

كذلك أقيم نظام التفتيش فى المنازل وغيرها للبحث عن الملحدين سنة ١٢٣٣ ميلادية ، وتم تنظيمه لعهد أنوسنت الرابع سنة ١٢٥٢ وأدخل فى سائر المدن والممالك النصرانية ، وعين لذلك المفتشون من القساوسة ، ومنحوا من قبل البابوات السيطرة المطلقة غير مسئولين عن شىء يفعلونه ، وساعدهم على ذلك ما وضعه الأباطرة لعقاب الملحدين من القوانين القاسية الجائرة .

ومع كون فريدريك الثانى الكبير كان حر الفكر ، أصدر أمرا يقضى بأن كل من ينكر أو يبتدع شيئا فى النصرانية يعتبر خارجا ، ويحرق منهم من لم يتب ، ويحبس من تاب ، ومن ارتد قتل ، وتصادر املاك الجميع وتدمر بيوتهم ، وكذلك أطفالهم لا يستحقون الرحمة ، لا هم

ولا انسالهم ، الا اذا أخبروا عن ملحدين أو مبتدعين ولو كانوا آباءهم . وقد جعل فريدريك (الخازوف) عقوبة الالحاد والابتداع ، وطبق ذلك الامر فى ايطاليا والمانيا خلال ١٥ عاما (١٢٢٠ ــ ١٢٣٥ م) ثم عمم نظام التفتيش فى غرب اوربا ٠ ولعهد هنرى الرابع والخامس عوقب الالحاد بالخازوق فى انجلترا بقانون أصدر سنة ١٤٠٠ ونسخ سنة ١٥٣٣ ، ثم اعيد لعهد الملك مارى ، ونسخ نهائيا عام ١٦٧٦ ٠

واستمر تطبيق هذه القوانين على المسلمين واليهود ، بأفظع الطرق الوحشية ، ولم تنسخ الا فى القرن التاسع عشر ، وكانت خلال ذلك تطبق بوحشية على من حملتهم على الردة من البيوتات الاسلامية واليهودية . وبالجملة فقد كانت القاعدة التى بنى عليها نظام التفتيش « خير أن يقتل مائة أبرياء من أن يلحد فرد واحد » وبهذه القاعدة صاروا يقتلون ويحرقون لأقل شبهة ، ولم يكن لأحد حق الدفاع عن نفسه ، ولا كان لمحكمة أن تقبل فى حال ما شاهد نفى .

وكما فعل بمخالفى العقيدة النصرانية ، كذلك فعل بطوائف السحرة ، فمن ذلك أن البابا « أنوسنت الثامن » نشر فى سنة ١٨٨٤ بلاغا يؤكد فيه أن الطاعون والمواصف من عمل السحرة ، فتتبعوهم فى كل مكان فاتكين بهم الفتك الذريع ، وبخاصة فى انجلترا واسكوتلانده .

***

وفى أواخر القرن الثانى عشر جاء للعقول قبس من دنيا أخرى ليفك عنها أغلالها وسلاسلها ، اذ أخذت فلسفة ارسطو بواسطة العرب تبسط نفوذها فى غرب اوربا ،

ولقد كان لابن رشد وأمثاله حظ كبير فى تحرير عقول أهل أوربا ، كما نالهم كثير من مناهضة البابوات لتعاليمهم ، فاننا نجد البابا يوحنا الحادى عشر ، يقبح تعاليم ابن رشد ، ويحكم بضرر وجودها ونشرها ، كما أن القس توماس قسيس أكوينو بجنوب ايطاليا سنة ١٢٧٤ ، قام فأسس للكنيسة فلسفة ازاء فلسفة أرسطو والعرب ، وهذه لا تزال تتمسك بها الكنيسة الرومانية . والحقيقة أن فلسفته ما كان من شأنها تثبيت العقول البشرية على قرار ، بل انها فى أغلب المواطن كانت تتركها كريشة فى مهب الرياح ساقطة لا تستقر على حال من القلق .

وقد أجمع المؤرخون على أن الحركة الفكرية ، والنهضة العلمية ، دخلتا أوربا فيما حول القرن الثانى عشر الميلادى من طريقين : أحدهما الاحتكاك الذى ظل نحو قرنين مستمرا بين أمم أوربا والشرق الاسلامى خلال الحروب الصليبية ، والآخر طريق المعاهد العلمية التى أقامها العرب فى الاندلس ونابولى وجزيرة صقلية . والمحققون من المؤرخين يقررون أن من بدىء بهم تاريخ النهضة العلمية فى أوربا — كروجر بيكون وأمثاله — كانوا من الواقفين على اللغة العربية وعلى اللغة اللاتينية التى كانت تنقل اليها علوم العرب ومباحثهم فى كل فن . واذا انتحل هؤلاء أو عزى اليهم بعض الابتكارات ، فانما سبب ذلك ما تعمدوه غالبا من اغفال المصادر التى أخذوا عنها ، حتى لقد رجح أئمة التاريخ أن روجر بيكون الراهب الانجليزى الذى يعزو اليه الفرنجة ابتكار العدسات والنظارات ، انما أخذ هذا عن الحسن بن الهيثم ، صاحب

المباحث العظيمة فى الطبيعيات ، ولا سيما الضوء والبصريات . فمجاورة أهل أوربا لاهل القرآن الذى حرر العقول ، واقام صروح العلوم ، وزين الدنيا بجميل الفنون ، هى التى فتقت بصائرهم ، وكشفت عن حديد ابصارهم أغشية الجهالة ، التى حجبتهم عن أنوار الهداية أدهارا طويلة . ولو أن هؤلاء الغربيين وقفوا من العقل الانسانى موقف اهل القرآن من كل وجه ، لما تأخرت نهضتهم الفكرية الصادقة عن ذلك الوقت الذى اتصلوا فيه بالمدنية العربية وحرية الفكر الاسلامية ، ولكن كان لسلطان رجال الدين فى تلك العصور ، واسترقاقهم لعقل الدنيا المسيحية خلالها ، ما قاوم تقدمهما واضعف تأثيرهما . فلقد وجهوا الفلسفة الواغلة فيهم الى المناحى الدينية ، وقصروها على المباحث الكنسية ، وبذلك صرفوها عن وجودها الاصلية ، وقصدوا بها الى غير غاياتها الطبيعية .

ومع أن المرسوم الذى أصدرته الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٥٢٩ م ، قاضيا بوجوب الانصراف عن جميع المجادلات ، والا تفسر التوراة والأناجيل الا بما تقرره الكنيسة ، قد أغضب كثيرا من الأمم النصرانية ، وبرغم أن هذا القرار فى الواقع كان من أهم أسباب ولادة المذهب البروتستنتى ، فان لوثر صاحب هذا المذهب لم يلبث ان قرر أن للحكومة حق اجبار الشعب على قبول ما رأى أنه العقيدة الصحيحة ، وأن لها استئصال الملحدين المنكرين لها .

بذلك الكيد المبيد للعقل الانسانى والغدر الأثيم به ، لم تقو الحركة الفكرية على المضى فى سبيل حريتها ،

والظهور على ما كان يبيت لها رجال الدين من الحروب الشعواء ، حتى كانت أواخر القرن الســـادس عشر ، حينما ظهر فرنسيز بيكون الفيلسوف الانجليزى بحملاته العنيفة ، على الفلسفة الدينية ، مصدعا بمعاوله صروحها الشامخة الرهيبة ، داعيا الناس الى تحرير العقــول ، ومعالجة المسائل العلمية بأساليبه الجديدة التى وضعها ، واقتاد الباحثين اليها ، فبدأ بذلك عهد التجديد العلمى، والتحرير العقلى ، الذى لا تزال المشارق والمغارب حتى اليوم تنعم بشهى ثماره الدانية القطوف .

عهد التحرير العقلى

يبتدىء تاريخ العهد الجديد بأوربا ، كما هو معلوم ، عام ١٥٤٣ م ، ذلك حينما نشر كتاب كوبر نيقوس الذى يثبت به دورة الارض حــول الشمس ، ثم زاد غاليليو بواسطة تلسكوبه اثبات أقمار المريخ ، واثبات دورة الارض حول نفسها ، مستدلا على ذلك بالبقع المظلمة التى رآها فى جسم الشمس ، فبمـــاذا قابلته الكنيسة ؟ لقد قرر المجمع المقــدس فى فبراير ســـــنة ١٦١٦ أن مذهب كوبر نيقوس سخيف ، وبمقارنته بمــا جاء فى الوصية (وصية المسيح) يعد هرطقة • ولقد حــرمت رومة تعليم نظام المجموعة الشمسية الى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر . وقد أربك هذا التحريم دراسة العلوم الطبيعية فى ايطاليا . وكذلك أقام البابا الــكسندر الرقــابة على المطبعة سنة ١٥١٠ ، كيلا تنشر ما لا نرضاه البابوية من الافكار الحرة ، ولو كانت حقــائق علميــة ثابتة . وفى

فرنسا كان الملك هنرى الثانى يعاقب بالقتل كل من يطبع شيئا بدون ترخيص . والحقيقة أن الطبع لم يصر حرا فى القرن التاسع عشر ، وهو العصر الذى ضعفت فيه سيطرة الكنيسة ، وقويت شوكة الملوك والامراء المدنية ، وسادت النظم والقـــوانين الدستورية ، ولما تأسست الجمهورية الديمقراطية فى فرنسا (١٧٩٢ م) أعيد وايد القانون القاضى بعدم الاعتراف بالسلطة البابوية ، ولكن وجــدت بجانب ذلك حركة شــديدة ضد الكنائس ، اذ امرت حكومة باريس باغلاق ســـــائر المعابد بلا تفرقة ولا استثناء ، مستعملة فى ذلك القوة القاهرة والصرامة الماضية ، ولكن حينما جاء روبسبيير على رأس الحكومة قرر أن يكون دين الحكومة عبادة العلى الكبير (ابريل سنة ١٧٩٥) ، وبعد قليل احدث دين وضعى جديد ، يسمى دين الفطر ، وهو دين فلاسفة ذلك القرن ودين شعرائه ، مثل فولتير ، وقواعده هى القول بالله ، وخلود النفس ، والاخوة الانسانية (الرحمة) والا تهاجم هــذه الديانة غيرها من الاديان والمذاهب ، ويسمى هذا الدين الجديد دين محبة الله **Theophilanthropy** ولما كان عام ١٨٠١ جاء نابليون فقلب هذا الدين رأسا لعقب ، واظهر البابوية ثانية فى الميدان ، ولم يكن يقصد من ذلك الا الانتفاع بالســـلطة الروحانية ، والاستفادة منها فى حروبه المستقبلة ، وتوسيع امبراطوريته فى عالم الكثلكة .

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، زلزلت عقيدة جماعات من المسيحيين ، لما كان يذاع اذ ذاك من ان فى التوراة والأناجيل من التضــارب والتنافر ما لا تقــوى العقول على قبوله . فتفشى بذلك انكار الوحى ، وسادت

المناقشات العلمية هنا وهناك . وفى القرن التاسع عشر انتظمت الحملات على التقاليد القديمة ، فاجتثت كثيرا من أصولها ، وان يكن علماء تلك العصور اختلفوا فيما بينهم بعض الشيء ، فمنهم من أنكرها بتاتا واعتبرها غير معقولة وسخيفة ، ومنهم من لم يصل الى هذا الحد الغشوم . فبسكال الفرنسى كان من المؤمنين بها ، وبيكون الانجليزى كان يعلن اللاهوتية وان يكن مضمرا الالحاد . وهناك ديكارت كان من ناحية أخرى يحاول أن يوفق بين العقل والكنيسة .

ولقد نقتفى فى بعض الآونة أثر تغلب العقل على الكنيسة ، فى معاملة السحرة ، فاننا بعد أن رأينا كيف كان جيمس الاول ، عملا بآية الانجيل « لا تبقوا على حياة السحرة » Than shalt not suffer Them to live يطارد هؤلاء بكل صرامة وغلظة ، نشهد فى أواخر أحداث عام ١٧١٢ كيف اعتبر المحلفون الساحرة (جان ونهام) من أهالى هرتفورد شير مجرمة تستحق عقوبة القتل ، فرفض القاضى قولهم وبرأها غير متأثر بتعاليم الكنيسة ، ولا متقيد بالتقاليد السائدة اذ ذاك .

ولقد نسخ هذا القانون نسخا سنة ١٧٣٥ ، ولكن فى سنة ١٧٥٢ حكمت محاكم اسكوتلاندة باحراق امرأة ساحرة .

ومن المذاهب الجديرة بالذكر ، ما أحدثه فى هولندا فيلسوف يهودى اسمه (سبينوزا) وأعلنه الى الناس عندما حل عقال الفكر ، وألقى حبله على غاربه . وعقيدته أن هناك الها ليس قائما بذاته ، وانه ليس للانسان ارادة حرة ، وان القول بالعلة الاولى أو علة العلل خرافة ،

وبعبارة اخرى كان يقول كما هو الظاهر بوحدة الموجود . او وحدة الوجود ، ولابد أن يلاحظ أن هذه الكلمة كانت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر رمزا الى صاحب الفكر الحر ، فكانت عبارة مقت وتكفير الا فيما ورد منها فى بعض الكتب الدقيقة ، ولكن الحقيقة ان الذين سموا اذ ذاك بذلك الاسم لم يكونوا الا الهيين ، بيد أنهم ينكرون الوحى فقط .

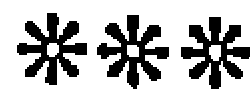
ومن معاصريه (اوك) ومغزى كتابه الذى وضعه سنة ١٦٩٠ أن العلم جميعه ليس الا نتيجة التجارب ، وقد أخضع الاعتقاد فى جميع أحواله للحكم العقلى ، وقرر رفض ما يخالف الحكم العقلى من الوحى ، لأن الوحى لا يعطى علما صحيحا كالذى يعطيه النظر العقلى ، وقد وضع كتابا فى موافقة النصرانية للعقل . ولقد حذا هذا الحذو معاصره « بايل » الذى وضع بعد نفيه من فرنسا الى هولند كتابه « القاموس الفلسفى Phylosophical Dictionary ومن كلامه أن فضيلة الاعتقاد تنحصر فى الايمان بقدرة الله وسلطانه وحده ، ويقول انه يستحيل أن يتصور الالهيون تطبيق صفات الارثوذكس على الاله الذى ثبت بالعقل وجوده . ولما قبل فريق من الارثوذكس تحكيم العقل ضـــــلوا ، وسقط منهم كثير فى هاوية الالحاد . وقد تطابق الالهيون و (سبينوزا) فى القول بأن الكتب السماوية تفسر كغيرها من الكتب .

ولقد ظلت أفكار الالهيين خفية مكتومة الى سنة ١٦٨٥م حين ابطلت قوانين المطبوعات ، فابتدات اذ ذاك تظهر بعض الظهور ، برغم ما كان أمامها من العقبـــات الادارية الاخرى ، وهى :

١ ــ انه كان لرجال الدين حبس كل من يطعن فى المسيحية ، أو يظهر آراء تخالف ما لديهم من تقاليدها ، أو يأتى بالحاد ، أو سب للمسيح .

٢ ــ ترجمة القانون العام سنة ١٦٧٦ (ترجمة قاضي القضاة هيل فى قضية رجل يدعى تيلر) القاضية بأن أى عمل أو قول أو رأى يخالف تعاليم الكنيسة ، يعتبر مخالفا للقانون العام ، اذ النصرانية ركن من أركان القانون العام الانجليزى .

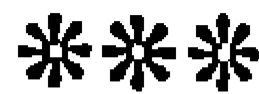
٣ ــ صدر قانون عام ١٦٩٨ يقضى بأن كل نابت فى النصرانية لا يجوز له أن يعلن مخالفته الأصول الكنيسة وتعاليمها ، ومن يفعل ذلك يعاقب لأول مرة بالحرمان من الخدمة فى الوظائف العمومية ، وفى الثانية يحرم من الحقوق المدنية العامة من حبسه ثلاث سنوات .



ولقد تولى فولتير ، وروسو ، فى القرن السابع عشر قيادة حركة تحرير الفكر . وللأخير يعزى كتاب «اميل» الذى أحرق علنا فى باريس وصدر أمر الحكومة بالقبض على مؤلفه فما وسعه غير صدر فردريك ملك بروسيا ، ولكن رجال الدين هناك ما زالوا يضـــيقون الارض عليه حتى اضطروه الى مفارقة بروسيا . ولقد كان لروسو أعظم تأثير فى الحياة الاجتماعية ، بعد الذى نشر من نظرياته الاشتراكية فى كتابه « العقـــــد الاجتماعى » Social Contract الذى أحرق علنا فى جنيف .

وفى سنة ١٧٧٠ فوجىء القراء الفرنسيون بالدهشة يوم ظهر كتاب البارون دى هولباخ « نظـــام الطبيعة » System of nature الذى أنكر فيه وجود الله وخلود

الروح ، وقد انتشرت فى القرن الثامن عشر حركة الالحاد وحرية الفكر رغم مطاردة زعماء هذه الحركة واضطهادهم. على أن ذلك استمر الى ما بعد هذا القرن ، فقد حوكم كارلايل سنة ١٨١٩ ، وسجن ثلاث سنوات عندما نشر كتابه (عصر العقل **age of reason**) ثم قدمت امرأته وبنته وكثير من بائعى الكتب للمحاكمة بسبب ذلك الكتاب .



وفى أواسط القرن الثامن عشر ، ابتدأت حركة الحرية الفكرية ، بعد اذ كانت العقول هنالك مكبلة مغلولة ، وبعد ان رأينا كيف نفى أبو فردريك ملك بروسيا الفيلسوف وولف ، لمجرد أنه مدح ديانة كونفشيوس الصينية ، وما كان لأحد فى رأيه أن يمدح دينا غير النصرانية . وبعد ذلك جاء ابنه على أثره بالتسامح الذى جعل أرضه موئلا ومعاذا لسائر المضطهدين والمطاردين من البلاد الاخرى . ثم جاء شكسبير وغوتة بما قدما لعالم الادب، فخطوا بالعالم فى حرية الفكر خطواتهما الواسعة . وقد زلزل الثقلين (كانت الفيلسوف) اذ بين فى كتابه (نقد العقل الصحيح **critic of pure reason** بطلان الاستدلال على وجود الله بهذه الكائنات ، وبطلان الادلة التى أقيمت على خلود الروح ، وادعى ان لا مصدر للعلم سوى التجارب ، وان يكن فى آخر امر وضع كتابا آخر روحه الهية ، وذلك حرصا منه على الاخلاق فى الشعب التى هى ميزان الحياة الاجتماعية ، والتى لا سبيل الى اصلاحها وتقويمها فيما ارتأى سوى أن تصبغ بصبغة روحانية ، وتسند الى مصادر سماوية .

مما تقدم يفهم أن العلوم العصرية فى البلاد الغربية ترجع الى القرن السادس عشر ، الذى شهد ثبوت نظرية كوبرنيقوس ، وشهد القوة المركزية الجاذبة ، ونظام الدورة الدموية ، والقواعد الحديثة للكيمياء والطبيعة ، كما شهد معرفة كنه الكواكب والشهب وكيفية تولدها . ولكن هذه المكتشفات ظلت الى القرن التاسع عشر لا تفسر المسائل الكونية الغامضة ، التى وردت فى كتب العهدين الا بدرجة محدودة ، بيد انها مع ذلك قادت الافكار الى البحث فى الروايات التاريخية ، التى جاءت بها، كطوفان نوح وسفر التكوين . فلقد جاء لابلاس فى أوائله كما قدمنا ، فقرر أن أبحاثه تفضى الى رفض نظرية وجود الخالق ، ثم تقدمت مباحث علم الجيولوجيا ، وجاءت بفروض ناطقة بما يناقض فى الجملة سفر التكوين وقصة الطوفان .

وفى عام ١٨٦٣ أوضح الاستاذ ليبل الفرنسى Lyell فى كتابه « قدم الانسان » ان الانسان سكن الارض قبل العصر الذى عينته التوراة بأزمان مترامية فى القدم ، ولكنه رأى امكان الجمع بينهما باعتبار اليوم الذى جاء فى التوراة طويلا جدا ، لا كأيامنا المألوفة ، واعترض عليه بأن هذا لا يمكن تطبيقه على الايام التى خلق فيها الانسان ، فان التوراة تفيد انها كانت كأيامنا .

وقد زعم الفلاسفة المحدثون أن علم الجيولوجيا زعزع أركان الاناجيل ، ولكنها تركت بابا للقول بوجود النوع البشرى « قبل التاريخ » وما زالوا على هذا المذهب حتى جاء علم الحيوان ، مبينا أصل الانسان ، فطبقوا على البشر قانون النشوء والارتقاء ، وسائر النواميس

الطبيعية ، وكاد يعتبر هذا من الحقائق الثابتة منذ ظهر كتاب دارون أصل الاجناس **Origin of Species** عام ١٨٩٥ .

وازدادت الثورة الفكرية ، وتأججت نيران الجدل عندما ظهر في عام ١٨٧١ كتاب دارون منشأ الانسان **The Descent of man** بين الدينيين وغير الدينيين ، حتى لقد يؤثر عن غلادستون في تلك الآونة قوله : « اذا قلنا بنظرية النشوء والارتقاء تكون وظيفة الاله باعتباره خالقا قد انتهت ، ولو سلم القول بعدم تغيير القوانين الكونية ، وانها قارة خالدة على حالة واحدة لأصبحت حكومة الرب في العالم مما لا حاجة اليه » . واذا أردنا ان نعرف مركز العقل ، ومدى حرية الفكر في البلاد الغربية ، غير الاسلامية ، حتى في أواسط القرن الاخير ، فحسبى ان اقتبس كيف صور المؤرخون بلاغا أذاعه أحد الكرادلة من الانجليز اذ يقولون :

« في سنة ١٨٦٤ أدهش الكردينال مانبج الانجليزى عالم النصرانية ببلاغ يقول فيه : ان لكل انسان أن يعتقد ما يراه بنظره صحيحا ، وانه ليس للكنيسة حق الاكراه على العقائد ، وان علم ما وراء الطبيعة يمكن بل يجب الا يتقيد بالوحى ، ولا برغائب الكنيسة ، وان للكاثوليكيين حق دعوة من يشاءون من مهاجرى الملل الاخرى ، وان لهؤلاء أن يقيموا صلواتهم جهرة ، وانه يجب على البابا ان يقيم في سلام مع الرقى العلمى والحرية والمدنية » .

فلننظر كيف اعتبر المؤرخون نشر ذلك البلاغ من الاحداث الكبرى التى ادهشت عالم النصرانية ، مع انه

عند التدبر لم يأت بأكثر مما عرفه العالم الاسلامى ، وألفه منذ أشرق نور القرآن على القلوب ، وتجلت تعاليمه الفطرية على العالم الانسانى ، تفرض التفكير ، وتقبح التقليد ، وترفع الحجر عن العقول .

مما أسلفنا نعلم ما كان بين الفكر البشرى ، وبين ملل الغرب ، من الجدل العنيف ، والصراع الدائم فى العصور العديدة ، حتى كاد ينتهى النصر فى العاقبة للعقل ، ويكتب الغلب لحرية الفكر .

وانما قلنا (كاد) لاننا لا نزال نرى فى بعض ممالك أوربا ، وفى أمريكا الجديدة ، أقواما لا ينفكون ينصرون القديم ، ويفضلون الجمود على ما كان عليه الاولون ، ولو عارض المشهودات العينية ، وناقض الحجج المنطقية . وهل نسى أحد منا كيف عاملت فى العام الفارط احدى جامعات أمريكا كبيرا من أساتذتها ، لترويجه مذهب دارون ، يوم قامت من حوله ضجة وعجة ، لم يخفت لها صوت ، حتى انتهت بفصله عن كرسيه فى تلك الجامعة .

الحرية فى الشرق الاقصى

حسبنا تلك النبذة الموجزة لتصوير ما كان عليه العقل البشرى فى الغرب ، من الازمات التى احتمل ما لا يوصف من آلامها وشرورها أدهارا طوالا فى سبيل حريته واستقلاله . والآن الم المامة خفيفة بما كان عليه العقل فى الشرق الاقصى فى ذلك الوقت الذى انتعشت فيه الحركة الفكرية ببلاد الاغريق ، اى فيما حول القرن

الخامس قبل الميلاد فأقول : بينما قام فى الشرق الادنى اكسينوفانيس فهاجم آلهة اليونان ممطرا اياها وابلا من التهكم والسخرية ، داعيا الناس الى ترك عبادتها والزراية بسخافاتها،وبينما كان هيركيلتوس وديموقريتوس يعالجان العقول البشرية لتحريرها من أسر التقليد الجاهلى ، واجتذابها الى حظيرة التفكير فى ملكوت السموات والارض ، نجد فى الطرف الآخر من الشرق مثل تلك الحركة العقلية والنفسية ، تنبه الهمم الخامدة وتقتاد الشعوب الضالة الجاهلة ، فى سبيل التفكير والبحث عما فيه صلاح حياتهم الاجتماعية : ففى الهند يظهر بوذا بتعاليمه ، وفى الصين يحارب كونفشيوس ما كان فى قومه وحكام عصره من التفاوت فى الطبقات، والنزوع الى الفوضى السياسية والاجتماعية ، ويهذب ما كان يرى فى أمراء زمنه من القسوة والفلظة والجور واستعباد الناس .

ومما يلاحظ هنا أن الشرقين ، وان اتحدا أو تقاربا فى زمن نهوضهما ذلك ، فقد تشابها فى كنه تلك النهضة وطبيعتها ، الا انها كانت فى الهند أشد عناية بتهذيب النفس ، وتطهيرها من أدران الاخلاق الفاسدة منها بغيرها من الشئون العامة المادية ، كما أن النهضة الكنفوشيوسية فى الصين كان هدفها وضع النظم وتقرير الدساتير لضبط الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والمظاهر المادية .

كما جاء رجال الدين فى الشرق الادنى والبلاد الفربية بما بسطنا سالفا من البدع والمظالم والمغارم والطقوس العبادية ، والعقائد التى ارهقت العباد ، وأزهقت الارواح ، واستعادت استعباد العقول ، وجعلت القرون الوسطى شر القرون وأشقاها ، كذلك فعل زملاؤهم

فى الصين والهند وما حولهما مثل ما فعلوا ، فكان من حكمة العليم الحكيم ، ورحمة الرفيق الرحيم ، أن يشرق على عباده وخلائقه الحائرين فى ظلمات الضلالة ، الهائمين فى أودية الجهـــالة ، ليفك أغـلال عقــولهم ، ويرفع منزلة نفوسهم ، ويكلهم الى وحيه المنقذ لا الى تجاريبهم العاثرة ، وأن يقيهم مصارع المجالدات والمصادمات التى فنيت فيها الملايين من طلاب الحرية والمساواة والعـدل من أصحاب الملل والنحل الاخرى .

القرآن والحرية

شاء جلت حكمته ذلك فكتب أن يرسل القرآن بدين الفطرة ، ليحرر بأوامره القدسية النفوس المغلولة ، وينجى من معاثر الجهالة العقول الضالة .

وسيتبين مما أقصه كيف سار القرآن الكريم بالعقل البشرى فى سبيل الحرية ، وأين حل بالعقل من المنازل العلية . بيد أنه يجمل أن ننتهز هذه الفرصة لنناقش ما قد يجيش بخلد البعض من أنه اذا كان دين القرآن هو دين الفطرة ، واذا كان مقياس صحة الاحكام فى نظر القرآن هو العقل والمنطق . فماذا عسى أن تكون فائدة الدين ؟ ولماذا لا يترك العقل البشرى يجاهد وحده فى سبيل الحق والحقائق ، حتى يبلغهما ، وينقب عن الخير والشر والنافع والضـــار ، حتى يفقه كنهها ، ويدرك حدودها ، ويعلم ما بينها من الفوارق والميزات ؟

الى أمثال هؤلاء نقول ان من الممكن أن تصل العقول البشرية بالبحث والتنقيب والتجارب الى ما تصبو اليه

النفس الانســــــانية ، من مراتب الكمال فى الاحكام ، والتصورات والنظم الاجتماعية ، والمسائل العـــلمية والآداب الخلقية ، ولكن فى سبيل ذلك عقبتان لابد من تسنمهما حتى تتحقق مثل تلك الامنية : احداهما عادية والاخرى طبيعية .

فأما الاولى فهى ضرورية انسلاخ عدة من القرون فى التجارب والبحوث التى يقتضيها الوصــــول الى ما تنشده النفس البشرية من وجوه الصواب المطابقة للمصلحة .

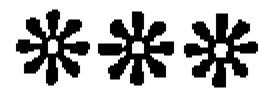
واما الثانية فهى ناموس النشوء والارتقاء ، أو التطور التدرجي الذى بالاعتماد عليه وحده فى عالم المعقولات والمعنويات ، لا يمكن أن يصل العقل البشرى الى مرحلة، حتى يكون قطع ما قبلها من المراحل .

على ان ثمة عوامل تكتنف سير العقـــل فى أحكامه وابحاثه ، وكثيرا ما تقوم منها العواثير التى قلما ينجو معها من السقوط والزلل . وأهم تلك العوامل الانفعالات النفسية ، والاضطرابات العصبية ، التى لا يجهل أحد منا آثارها فى شعب الحياة الاجتماعية والعقلية والادبية. ومن المغالطة أن نبرىء أنفسنا أو ندعى بلوغ الكمال فى شىء من أفكارنا وأحكامنا وعواطفنـــــا ، ما دمنا نجمع بين جنوبنا نفوسا جامحة ، الى قلوب متقلبة ، الى شهوات مطاعة ، الى هوى متبع .

فالدين فيما أراد منزله جل شأنه ضرورى لأصحاب تلك الأهواء المتقلبة والنفوس الجامحة .

لذلك ، وللسلوك بالناس أقصر طريق واقومه واسلمه، يرسل الخالق صفوة خلقه بالهدى ودين الحق رحمـــة بعبـــاده أن تزل اقـــدامهم ، وتضل احلامهم ، وتفتنهم

اهواؤهم ، وتضييع مئات السنين أو آلافها فى البحث عما تصبو اليه نفوسهم من العلم والحـــرية والمساواة والعدل ، وسائر الفضائل والكمالات .



جاء القرآن بدين الفطرة فى كل شيء ، فطابقت قواعد احـكامه وأصــول آدابه وشرائعه ، مقتضيات الفطرة البشرية ، حتى لقد كان من أمهات أصوله فيمـــا هو خاضع لتأثير المؤثرات ، وعرضة لتعاقب التطورات ، أن يكون العرف فى كل أمة مقياس تقديرها ، ومن هنا كان لابد أن تختلف المسائل الفرعية باختلاف الازمنة والامكنة والعرف الخاص فى الشعوب والاقوام المختلفة ، وبذلك طابق القرآن مطالب العقل ، غير متنكر لما فطرت عليـه طبيعته ، ولا متجاهل مبلغ سلطانه وآثاره فى الحياة الاجتماعية بجميع شعبها .

عرف القرآن ان الانسان مفطور ، منذ بدأ احساسه وشـــعوره ، على البحث عن علل ما تدركه حواسه من الاحداث والكائنات ، فزاد تلك الغريزة تنشيطا وانعاشا، وما انفك يقرع الجامدين على المنقولات ، المحصورين فى مضايق التقليد ، فلا يكاد يخلو له مقام من دعوة الى تدبر وتفكير ، ولا تنفرد له مجادلة عن حجة يقيمها على الخصم ، أو برهان يحاكمه به اليه .

لم يـكن من منافرات العقل ان يأتى القرآن فيدعو الناس الى الايمان بالرسل والانبياء ، والاخذ بما كلفوا تبليغه من الاحكام والشرائع والآداب والفضائل ، فان ذلك للمتدبر من مقتضيات العقــل وطبيعته . فمن ذلك أن

العقل مفطور على الشعور بالحاجة الى ما يدفع عادية الافراد والجماعات بعضهم على بعض « ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الارض .. الخ » كذلك هو مسوق بغريزته الى أن يضع أو يقبل كل ما يرى فيه ضمانا لنظام الحياة الاجتماعية فى العالم الانسانى ، وبما أن عقل الانسان معرض للافلاس والزلل فى معالجة الشعب التشريعية والادبية والعلمية ، على ما بسطناه فى محاضرة أخرى ، كان بطبيعة الحـــال ميـالا الى الطمأنينة ، والسكون الى من يثق به ، والى قبـول ما يكفيه عناء البحث والتنقيب ، ويقيه المغامرات التى تستلزمها الظنون والتجاريب ، شاخصا الى وحى ينزله المحيط بما عليه البشر من الفطر والغرائز والطبـاع ، العليم بما فيه صلاح شأنه واسعاد حياته ، وان حرص الانسان بفطرته على التماس أقصى الطـرق المؤدية الى ما ينشده من الرغائب والكمالات ليدفعه الى طلب القدرة التى تسكن اليها نفسه ، وتقبل ما يصدر عنها من الاقوال الحكيمة ، والنصـــائح القويمة وهذا هو سر اندفاع العامة ، وأكثر الخاصة ، الى الاعتقاد فى أفراد من النـاس يرجون أن يبلغوا بهم منازل الكمال ، ويعيشوا بهديهم فى سعادة وسلام من الانبياء والرسل ، وممن على قدمهم من الدعاة . وانما طبع الانسان على ذلك لأنه يكره أن يتدرج فى تعرف الفضـــائل وطلابها تدرجا قد لا يدرك فى غضونه صواب أمره أو لا يضـــمن سـلامة سبيله ، فهو حذر الوقوع فيما يخشى عواقبه من شتى الاعمال والتصرفات والاحكام يميل بفطـــــرته الى الاصاخة والاستماع الى المبشرين والمنذرين من الدعاة عسى أن

يجد فيما يدعونه اليه ضالته المنشودة التى يصبو اليها، وقلما عرف لها سبيلا اذا ترك هو وشأنه .

فالانسان بفطرته السليمة وعقله الحر ، مدفوع الى الطمأنينة ، والاعتقاد فيمن يسلك به سبل السلامة ، من الخطأ والخطل والزلل ، حذر أن يفوت عليه جهله وضلال فكره ومعوج سعيه بعض ما تصبو اليه نفسه من طيبات الرغائب وجميلات المطالب ، وبمقتضى هذه الفطرة أقيمت المدارس والجمعيات التهذيبية ورجال المذاهب الصوفية وانكب الناس عليها من جميع الطبقات ، ومختلف الاسنان فى سائر الازمان .

القرآن يخاطب العقل

تقدم أن القرآن لم يذر وسيلة موصلة الى انعاش العقل وتحرير الفكر الا تذرع بها ، فهو اذا تحاكم فالى العقل ، واذا حاج فبحكم العقل ، واذا سخط فعلى معطلى العقل، واذا رضى فعن أولى العقل .

جادل القرآن من جادل من أرباب الملل والنحل ، والماديين والدهريين، فما قارعهم الا بالبرهان ، ولا دعاهم الا الى البحث والنظر ... من ذلك آية « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » . وكم من آية قرع فيها أولئك الضالين لالغائهم عقولهم أو لاحتباسهم اياها على ما وجدوا عليه آباءهم ، ولو جيئوا بأهدى منه كما فى آية « واذا قيل

لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » .

ومن الآيات التى هزمت أشياع التقليد ، المعطلين لعقولهم فى كل زمان ومكان شر هزيمة ، قوله تعالى فى الآيات « ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » و « منهم من ينظر اليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » .

ولا تكاد تمر بك آية فى المجادلات الا وهى مختومة بمثل « بل أكثرهم لا يعلمون » . « قليلا ما تذكرون » . « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » . « انى يؤفكون » « لو تشعرون » . « أفلا تسمعون » . « انما يتذكر أولو الالباب » وهلم جرا .

وقف القرآن الكريم فى جميع مقاماته ، لدى ما اقتضته طبيعة الدين الذى جاء به ، فاذا دعا الى عقيدة ، أو ركن من أركان الدين ، تجافى عن الالزامات التى لا تحيط بها العقول ولا تدركها الافهام . وكلما هم بتلقين أصل من اصوله ، بدأ بالمقدمات النظرية ، ثم ينتهى بالتحذير من جحودها عنادا وكفرا وذلك كما يقول فى آية « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » وآية « لكيلا يكون للناس على الله حجة » .

ولم يكن منزل القرآن جلت حكمته ، وهو خالق الانسان ومالك القلوب والاسماع والابصار ، لم يكن فى شىء مما أوحى من آياته الا مثال الكمال المطلق اللائق بأسمائه الحسنى التى منها العدل والحق والخبير ، فهو الذى لم يجعل من رسله جبارين مسيطرين ، ولكن

مبشرين ومنذرين « فذكر انما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر » . « فهل على الرسول الا البلاغ المبين » . « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » . « وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق » . « ما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

ان أول ما بدأ به القرآن فى التحاكم الى العقل الايمان بوجود الله ، فان القرآن ، ومن ورائه علماء الكلام وأصول الدين ، كلهم مجمع على ضرورة طلب تلك العقيدة من طريق النظر والاستدلال ، حتى ان منهم من لم يقبل الايمان التقليدى بالله وان أفتى الغزالى وأمثاله بقبول الايمان التقليدى من العامة والدهماء الذين لا يستطيعون البحث والنظر اما لجهلهم بوسائله أو لضيق مداركهم عن شرائطه ، فاكتفوا من هؤلاء بالايمان الثابت رحمة بهم ، ووقوفا معهم عند مدى موسوعاتهم ، وان كان تقليدا لم يقم على شىء من دعائم العلم الصحيح والبحث النظرى .

فأما دعوة القرآن الكريم الناس الى البحث والنظر والتحاكم معهم الى التفكير والعقل ، فانهما لا تكاد تخلو منهما سورة من السور ، واستيعاب ذلك مما يضيق عنه هذا المقام ، فلنجتزىء هنا باقتباس شىء من هذا فيما يلى من الآيات :

١ ـ « وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الارض قطع متجاورات

وجنات من أعنـــاب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بما واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل . ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

٢ ــ « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » .

٣ ــ « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الارض كيف سطحت » .

٤ ــ « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

٥ ــ « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

٦ ــ « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء » .

ولا يتسع هذا المقام لاستقصاء ما جاء من ذلك فى القرآن الكريم ، فلنكتف بما اقتبسناه هنا ، منتقلين الى البحث فى مسألة تخبط فيها كثير من الباحثين . تلك هى : ما مصير من لم يقصر فى النظر والبحث ، ولكنه مع ذلك لم يستطع الوصول الى العقيـــدة الحقة فى الدين ؟

للعلماء فى هذا المقام آراء مبسوطة في الكتب المختصة بها ، ولا يعنينى هنا الا أن أعتمد على آيات القرآن دون ما قالوه ، فأستفتيها فى حكم ذلك الفريق من الناس ،

الا انني قبل ذلك استرعي ذهن القارىء الى المسلمات الاولية التالية :

١ ـ أنه ليس في استطاعة العقل البشري ، اذا قام عنده الدليل الصحيح على حكم ، أن يرتاب فيه .

٢ ـ أنه ليس في مقدور العقل البشري أن يقول بجواز صحة أمرين متناقضين معا .

٣ ـ اذا تعارض حكمان يعتمد أحدهما على الحجج القاطعة ، كان من المستحيل تكليف العقل أن يغلب على سواه .

لاحظ دين الفطرة جميع هذه القضايا الفطرية ، وجاء كتابه السماوي مصدقا لها ، ثم جاء الخلف من العلماء يؤيدونها ، ولكنهم ان اختلفوا بعض الشيء فيما عن لهم من الآراء ، تجدهم أجمعوا على قاعدة أنه يجب أن يؤول الى حكم العقل من الشرعيات ، ما ظاهره يخالف العقل .

وهل هذا الا وقوف عند حدود المسلمات العقلية ، ونزول على حكم الفطرة البشرية ، وهل كان للعقائد أن تكون بالجبر والارغام ؟ أم هل كان لدين الفطرة ، دين البحث والنظر ، أن يكلف بالعقيدة من قصرت عقولهم عن ادراكها ، أو من تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات ، حتى عجزوا عن صدها ومدافعتها ؟

وهل يقول بهذا القول ذلك الدين ، الذي قوض دعائم الايمان بغير المعقولات ، وأقام على أنقاضها عقيدة الايمان اليقيني المتحصل من طريق العقل والنظر ؟ .

ان الله تعالى لأحكم وأعدل أن يكلف الناس ما ليس

فى طاقتهم ، او ان يلزمهم الايمان بما لم يهدهم الى حجته وبرهانه ، يفقه ذلك من يتدبر قوله تعالى : « لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

اذن فلنعد الآن الى سرد آى القرآن الكريم المناسبة لهذا المقام مكتفين منها بما يلى :

١ ــ « قال يا قوم ارايتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم ، انلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ » .

٢ ــ « نحن نعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

٣ ــ « قد بينا الآيات لقوم يعقلون . انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » .

٤ ــ « ان عليك الا البلاغ » .

٥ ــ « انما أنت منذر » .

وخلاصة القول أن القرآن ، الذى هو كتاب دين الفطرة ، ما كان ليأتى بما ينافى الآراء القويمة ، أو تغم حكمته على العقول السليمة ، ولم يكن ليكلف العقل الايمان بما لا يعقل ، أو يحمل الجسم ما لا طاقة له به ، او أن يفترض على الانسان ما ليس من موسوعات فطرته . اذا فوظيفته فى البشر رسم أقرب الطرق الى الهداية وحفظ العباد عن مواطن الهلك التى يغشاها طلاب الحق والحقيقة ، لا من طريق الوحى بل من طرائق التجارب ، ومصارعة شياطين الانس من الحكام الجائرين ، وعصابات رجال الدين المضللين . ولنا على ذلك ما نشاء من الأدلة والشواهد ، لننظر كيف ومتى صحت عزيمة الأمم الغربية ازاء الطلاق وتحريم الخمر والقمار ، وكيف ومتى تحررت فيهم العقول البشرية ، أو أبيحت حرية التفكير

والنشر ، وتقررت بينهم حقوق الانسان ، سائلوا الثورات الدينية والسياسية تنبئكم مبلغ ما أريق فيهـــا من الدماء ، وأزهق فى سبيلها من الارواح . سلوها تصف لكم فواجعها وأهوالها ، وما أصاب الامم من شرورها ونكباتها .

موقف القرآن الكريم ازاء المعجزات

لست هنا فى مقام المتعرض للبحث فى امر وجوب المعجزات وخوارق العادات اثباتا أو نفيا ، ولا انا فى مقام المعرف بكنهها المحصى لأنواعها وأقسامها ، فان شيئا من ذلك ليس مما نقصد اليه هنا ، ولكن الفرض الذى نرمى اليه فى بحثنا الحـاضر هو موقف القرآن الكريم ازاء المعجزات والخوارق . ذلك لنعلم هل يرى فيهـا القرآن ما رأته الاديان الاخرى من اعتبـارها أسسا للعقائد الـدينية ، وآيات قاطعة تـكفى أن يعتمد عليها الرسل والانبياء فى افحام المتحدين لهم من الأمم التى يرسلون اليها ؟ أم هل يرى فى طبيعتها وقوة حجتها ـ مع دعوته الى التعقل وحضه على النظر والتـدبر ـ ما يخرجها عن دوائر الأدلة العقليـة والبراهين البينة القطعية الملزمة للخصوم بما تقصد له من النتائج ؟

فلا يلتبسن الامر على القراء ولا يغيبن عن أفكارهم هذا المقصد .

امتاز الاسلام من بين الاديان ، كما أسلفنا غير مرة ، بأنه دين الفطرة والعقل ، كمـا امتاز رسوله من بين الرسل بأنه الرسول الفطرى الذى أرسل بالحق والهدى

بشيرا ونذيرا . فميزان صحة هذا الشرع الحنيف وقسطاسه المستقيم ، هو أن جميع ما جاء به من الاحكام والمراسم ، وضروب المواعظ والارشاد ، ليس منها ما ينافر العقل الصحيح ، ولا تأباه النفوس السليمة . اذن فما كان له أن يتأيد بما ليس من حدوده ، ولا أن يطابق ما ليس على شاكلته .

كذلك جاء القرآن الكريم بهذا الدين ، دين العلم والحكمة ، دين البيان والبرهان ، ولكن الاقوام الذين انزل فيهم كانوا اهل جهالة وعناد ، وعباد أهواء وشهوات جهلوا سر الاسلام وروحه ، فاستمسكوا بما استمسك به آباؤهم الأولون من طلاب المعجزات والخوارق . ولم يكن طلب تلك المعجزات من الرسول ناجما عن ترو وصدق رأى ، ولكنهم كانوا يقترحونها اما عبثا أو عنادا ، أو التزاما لما ارضعتهم الجاهلية الاولى من الضلالات والاباطيل ، وفقدان العلم ، « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية . كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون. انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم . ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير » .

ظل النبى عليه الصلاة والسلام كلما طلبوا منه المعجزات يدعوهم الى العمل بمقتضيات الفطرة ، ويرشدهم الى كنه وظيفته النبوية ، وما هى سوى الهداية الى السبيل القويم وارشاد الناس قاطبة الى ما فيه الخير والسلامة فى معاشهم ومعادهم « قل

لا اقول لـكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك ان اتبع الا ما يوحى الى . قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تفكرون » »

راى القرآن انه لو كانت المعجزات الخارقة للعادة كافية مقنعة لما كذب بها الاولون بعد اذ ألحوا فى طلبها ، واجيبوا اليها ، فرأتها ابصارهم راى العين . ولكن عدم وجود صلة عقلية بين تلك الآيات وبين ما أريدت له من اثبات رسالات الرسل كان من نتائجه القريبة أنه لا تكاد تنزل الآيات لطلابها حتى يسارع الى نفوسهم الشك فيها بعد الاصرار على طلابها واللجاج فى استنزافها ، فمنهم من يراها من أنواع السحر ، ومنهم من يكذب بها بغيا وعدوانا « واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله ومايشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون . ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشـــاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » .

ولو أن جهل أولئك الأقوام كان جهل المستفيد المتدبر المستهدى ، لما اصروا على طلب ما قـد طلبه اسـلافهم ملحفين ، ثم تولوا عنه بعد اذ جاءهم مدبرين مكذبين . لكن كان ذلك منهم جهل عناد واعنات ، ولهذا لم تفدهم هـدايات القرآن الـكريم ، ولم تزدهم بيناته الا عتـوا واستكبارا « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف

او ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » ، « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » .

يقص علينا القرآن فى غير موضع انه طالما كذب المشركون واهل الكتاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وامعنوا فى اعناته وايذائه ، ولجوا فى زعمهم انه لو جاءتهم آية ليؤمنن بها . كما يقص علينا أنه لو كانت المعجزات الخارقة من البراهين التي لا يفر المعاند من الخنوع لهـا لأمد الله بها رسوله ، ولأيده بما لا يحيط به الحصر من ضروبها . ولكن علمه الله أن هذه الآيات قد نزلت بمن قبلهم فظلموا بها ،واستنكرتهـا أنفسهم بغيا وعلوا . ولهذا يبين لنا فى صراحة ووضوح أن الله سبحانه وتعالى ابى أن يؤيد هذا الدين الا بالمعجزة التى لا تنافر فطرته ، ولا يقوى معاند على معارضتها . تلك هى القرآن الكريم نفسه « أو لم يكفهم أنا نزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » .

والمتتبع لآيات الكتاب الكريم يجد ان الرسول عليه السلام ما سئل معجزة من المعجزات الا تلطف بطلابها وارشدهم فيها الى الأخذ بأسباب العلم والهدى وسماهم تارة بالجاهلين ، وأخرى بالذين لا يعلمون . ولا ترى فى القرآن جميعه أن الرسول عليه السلام جارى أولئك الحمقى فى سبيل مطالبهم ، وجاءهم بشىء من المعجزات التى سألوها ، وقد جاء هذا صريحا فى قوله « وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون . وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفا »

قال ابن جرير الطبرى فى تفسيره لهـذه الآية : « يقـول تعالى ذكره وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التى سألها قومك الا ان من كان قبلهم من الأمم المكذبة سألوا مثل سؤالهم ، فلما أتاهم ما سألوا عنه كذبوا رسلهم فلم يصدقوا مع مجىء الآيات فعوجلوا فلم نرسل الى قومك بالآيات لأنا لو أرسلنا بها اليهم فكذبوا بهـا سلكنا فى تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلهم » .

وما كان مبعث الاضراب عن اجابة مطالبهم والحافهم فى سبيل المعجزات عجز الله تعالت قدرته عن تبديل شىء من ظواهره الكونية العادية . ولكن علم الله منهم ما علم من آبائهم الأولين ، لجاج فى الطلب ، وجنوح عن التصديق ، وجهل بمكانة دين الفطرة ، وضلا عن ركنه المتين ، وهو مطابقته التامة لمقتضيات العقل السليم ، « وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ، قل ان الله قادر أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون » وقد أسلفنا أنه لو كانت دلالة المعجزات الخارقة للعـــادة على الرسالة أو النبوة قطعية اقناعية ، لما أمعن المعاندون فى تأويلها تارة وانكارها أخرى ، وما قوله تعالى « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » الا لبيان هذه الحقيقة . ذلك أن الخوارق للعادة ضروب شتى . فمنها ما يظهر على أيدى المصطفين الأخيار من أنبياء الله ورسله ، ومنها ما يظهر على أيدى غيرهم من السحرة والمشعوذة ، ومنها ما يظهر على أيدى ارباب الرياضـــات الروحانية ، حتى من المجـــوس والمشركين .

لهذا كان من المحتملات القريبة أن يتشكك الناس

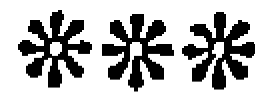
فيما يقارن دعوى الرسالة من المعجزات التى يراد منهـا اقناع المدعوين الى صحة الرسالة ، واثبات أن الرسل صادقون فى دعواهم السفارة بين الله وبين خلائقه فى تبليغ أحكامه وآدابه ، ولا يكفى فى التفرقة بين المعجزات وغيرها من الخوارق التى تظهر على أيدى غير الانبياء انهم مبعوثون من قبل الله الى خلائقه لتبليغهم أحكامه وعظاته . فقد عرفنا من آيات القرآن أن الكافرين كانت تأتيهم الآيات بعد اذ يطلبونها من أنبيائهم ورسلهم ، فتارة يقولون هى سحر مبين ، وأخرى ينكرونها معاندين .

فالاسلام فيما يصوره القرآن الحكيم قد امتاز عن غيره من الاديان الاخرى بأنه دين اليقين والنظر ، لا دين خوارق العادات ، وما وراء العقل من الآيات . ذلك قوله تعالى « قد بينا الآيات لقوم يعقلون . انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا » .

فآيات القرآن الكريم لم تنزل ليقتنع بها من شغلتهم اوهامهم ووساوسهم ، وتعطلت فى حنايا جماجمهم عقولهم ومداركهم ، فسبحوا فى لجج من الوهم ، وحجبوا بعنادهم عن النظر والفهم ، ولكنه جاء لمن يعقلون ويفقهون أن الله لا يرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين، وان معيار صحة رسالات الرسل صحة ما يأتون به من البلاغ السماوى ، وضمان ذلك لسعادة الانسان فى حياتيه الدنيا والاخرى .

ولقد بلغ حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على قومه حدا كان يكبر عليه فيه أعراضهم عن دعوته ، واصرارهم على مخالفته ، والكفر بآياته حتى كأنما هو بلا مراء مسئول عنهم ، وحامل لأوزارهم ، فأنزل الله فى

تسليته واراحة نفسه من عناء الحزن عليهم وآلام الرحمة بهم قوله : « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » . « ان عليك الا البلاغ » . « انما أنت نذير » .



ولكم شق على المصطفى صلى الله عليه وسلم انصراف قومه عن هدايته بسبب تخلف المعجزات ، فكانت نفسه الشريفة تطمح آونة فى أن ينزل الله شيئا من آياته مجاراة لاولئك الضالين المعاندين ، ولكن الله الذى أدب رسوله واكمل عقله أراه فى آيه « وان كان كبر عليك أعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الارض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على ألهدى فلا تكونن من الجاهلين » . أراه فى هذه الآية الكريمة أن من الجهل مجاراة الجاهلين ، وأن ليس للعاقل أن يحرص على الخراف الضالة من أشباه الانسان .

وهل كان للرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد اذ بلغ رسالات الله على وجهها أن يضيق صدره بما كانوا يعرضون ، وأن يحزنه الذى يقولون ، أو مصيرهم الذى يوعدون ، فانهم ما كانوا يكذبونه ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، فما عليه اذن من حسابهم من شىء ، بعد اذ قام بما حمله من التبليغ المبين : « واما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب » .

لا اكراه فى الدين

وهنا مبحث يجب أن نعجل الالمام به لكثرة ما خاض فيه الخائضون ، ذلك أن آيات القرآن الكريم جميعها

ناطقة صراحة بأنه لا اكراه فى الدين ، وأن الرسول غير مكلف بشيء سوى التبليغ المبين ، والتذكير بآيات الذكر الحكيم « فذكر انما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر ، وهل كان للرسول عليه الصلاة والسلام أن يقوم فى قومه مقام الجبارين ، فيقتلهم أو يحرقهم لمجرد أعراضهم عن دينه بعد آية : « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

فالاسلام الذى هو دين الفطرة ، ومجموع الكمالات القدسية ، والآداب الالهية ، ليس بذلك الذى يتذرع اليه بالقسوة والغلظة ، ويروج فى العالم بالسيوف والنيران .

ومن الأوليات المسلمة أن العقائد لا تتكون فى نفوس العقلاء بالقوة والقهر ، ولكن لها وسائل معروفة لا تلتمس الا بها ، فمنها البرهان العقلى ، والخطابة والشعر والتقليد ، ولكن من هذه الانواع تأثير فى نفوس الناس ، بمقدار ما فيهم من العقول والتجارب والذكاء والتحصيل ، وانما اعتبرنا التقليد من وسائل اليقين ، لما نعلمه من أن من العامة من لا يكاد يمكن زحزحته عن عقيدته التى ورثها بمحض التقليد والاقتداء ، ولو كانت غير معقولة ، ومنافرة للعقل السليم ، وأقرب دليل على ذلك ما عليه النصارى من عقيدة التثليث ، وقولهم أن عيسى صلب ليفتدى أتباعه بدمه ، وليكفر عن العالم جميعه ما ورثوه كرها من سيئات آدم أبى البشر ، وهكذا من العقائد غير البينة .

كذلك من عامة المسلمين من لا يمكن أن يتطرق الريب والمرية الى عقيدته على جهله ، وعدم تحصيله وقصور

عقله ، وما هى سوى قول تلقفه ممن يثق به ، أو أمة وجد عليها آباءه فاقتفى فيها آثارهم .

ما كان للعقائد أن تتكون بالارغام والقهر ، ولا للاسلام الذى هو دين البحث والنظر أن يقول بقتل من لا يدينون به ممن قصرت عقولهم عن دركه ، أو تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات حتى عجزوا عن صدها ومدافعتها .

أما المشركون وأهل الكتاب فقد أرتنا السنة المطهرة والقرآن الحكيم أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اكتفى منهم فى حقن دمائهم واحترام حقوقهم بالجزية اذا أبوا الاسلام ، يدفعونها فى سبيل حماية أرواحهم وأموالهم واستمتاعهم بما للمسلمين وعليهم ، فهم اذا ما دفعوها كان لهم ما للمسلمين من الحقوق ، وعليهم منها ما عليهم .

اهل الردة

أما أهل الردة الذين دانوا لله ، والتزموا الاسلام ، ثم ارتدوا عنه ــ اما الى غيره من الاديان لشبهات وشكوك قامت بصدورهم فصدتهم عن البقاء على شىء من أصوله ، ويسمى الفقهاء جميع هؤلاء بالمرتدين ويفتون فيهم بالقتل ، اما بعد الاستتابة أو دونها على خلاف لهم فى ذلك ــ أما هؤلاء فان علينا أن نبين هنا رأينا فيهم طبق ما يدل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية فنقول :

ان ذكر الردة جاءنا فى موضعين من القرآن الكريم ؛ ففى سورة البقرة جاءت آية : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن

دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وفى سورة المائدة جاء قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » .

وظاهر أن هاتين الآيتين لا تدلان على معاملة أهل الردة بما أفتى الفقهاء من القتل لمجرد الرجوع عن الدين ، وكل ما دلت عليه آية البقرة ـ المذكورة آنفا ـ أن المرتدين مطرودون من رحمة الله تعالى ، ومعنى الردة هنا ـ على ما يظهر من سياق الآية ومن روح الكلمة ـ أن معناها الارتداد عن الدين ، أى الكف عن الجهاد فى سبيله ، والارتداد عن منازلة الأعداء الذين كانوا لا يفتأون يقاتلون الرسول واتباعه ليفتنوهم عن دينهم ويرجعوهم كفارا بعد اذ آمنوا .

يدلك على هذا التأويل ما جاء قبل ذلك من الآيات . قال تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » .

يستنبط من ظاهر هذه الكلمات الكريمة أنها نزلت فى قوم من المسلمين كانوا يهمون بالكف عن القتال ، ويرغبون عن ان يدافعوا عن دينهم ، وأن يبذلوا مهجهم وارواحهم

فى نصرته وتأييده ، بغضا للقتـــال ، وضنا بالارواح ، وما علموا لجهلهم أنه ليس وراء اخلادهم الى العــــدو واعراضهم عن صده سوى أن يستذلهم ذلك العــــدو ويتعبدهم ، وأن الموت الذى يفرون منه لا ريب ملاقيهم، الى ذلك يشير قوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » .

ولو أن أولئك النفر ادركوا بسهولة ، ما وراء هاتين الكلمتين القدسيتين من الحكم البالغة ، والمنافع العظيمة، ما سألوا بعد ذلك رسولهم عن القتال فى سبيل الله خلال الاشهر الحرم ، ولكن وهنت قلوبهم ، وتمكن حب الحياة من نفوسهم ، وقصرت أبصارهم عن درك ما وراء ذلك من الذل الخالد والمسكنة الابدية ، واستهانوا بأمر الفتنة فى الدين ، فجنحوا الى التسليم ، واغمـاد السيوف ، سائلين الرسول عليه الصلاة والسلام عن القتال خــلال الشهر الحـــرام ، كأنهم يريدون بذلك أن يجـد لهم من تحريم هذا الشهر معذرة عن القعود عن مقارعة الاعداء ، وحماية دين الله من الاذى والمكر السيىء .

ولما كان ذلك الرهط على ما وصفنا من الضعف والجنوح الى النزول على حكم أعـداء دينهم من المشركين وأهــل الكتاب ، جاء فى استنفارهم وحثهم على منازلة أعدائهم قوله تعالى بعد ذلك ، « ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمـــالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ذلك حكم الله فى المسلمين ، اذا ما فتنوا عن دينهم ، وقاتلهم عن البقاء عليه أعداؤهم ، وما جزاء من يجبن عن لقاء عدوه ، ويرغب عن بذل روحه فى سبيل حمـاية

دينه وملته « الا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيـــامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما يفعلون » .

فالردة فى هذه الآية الكريمة ليست الفســـوق عن العقائد الاسلامية لشبهة قامت بأنفس المرتدين ، ولكنها ردتهم عن نصرة الاسلام ، وتخلفهم بأنفسهم عن تأييده ، وحماية ذماره ، بينما أعداؤه لا يفتأون يناوئونه ويكيدون له ، ولا يزالون يحاربون رسوله والقوامين عليه .

وهذه الآية وان لم تنص على قتل أولئك المرتدين ، فقد أرتنا السنة المطهرة كيف قاتلهم الرسول وخليفتاه أبو بكر وعمر من بعده ، وكيف نكلوا بهم اذ كفوا عن الدفاع عنه ، ثم انقلبوا خوارج عليه ، يحـاربونه ويقتلون أهله تأييدا للمشركين من أقوامهم وتوهينا لبنيانه ، بعـــد اذ ظهروا على عورات المسلمين ، ووقفوا على مواطن الضعف فيهم . ذكر صاحب الكشاف أن احدى عشرة فرقة من العرب ارتدت عن الاسلام ، ثلاث فى زمن الرسول عليه السلام ، وسبع فى خلافة أبى بكر ، وواحدة فى عهد عمر ، وقد كفى الله الاسلام ما أرادوه من تخذيله وتوهينه ونقض أركانه .

ذلك قولنا فى آية البقرة . أما آية المائدة فان المتدبر للآيات السابقة لها فى القرآن الكريم ، يتبين انها لا تكاد تخرج عن المعنى الذى نزلت فيه آية البقرة ، ذلك أن قوما من منافقى المسلمين قد وهنت قلوبهم وعزائمهم ، فجعلـوا يخشون أن تصيب المسلمين دائرة فيظهر عليهم اعداؤهم من أهل الكتاب ، هنالك جعلوا يخالطون اليهود ويسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، يريدون بذلك أن يتخذوا لهم يدا عندهم ، حتى اذا كان ما حسبوا وخشوا ،

سلموا من بطشهم واذاهم . وفى هؤلاء نزلت الآيات : « يآيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . ويقـــول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد ايمـــانهم انهم لمعكم حبطت أعمـــالهم فأصبحوا خاسرين » .

اتخذ هؤلاء المنافقون بطانة لهم من غير المســلمين ، ليكونوا لهم شفعاء اذا وقع ما خشوا وحسبوا ، وأسرعوا خفية الى الاندماج فى سلك أهل الـكتاب لتوقعهم سرعه غلبهم وظفرهم بالنبى عليه الصلاة والسلام وأشياعه ، فكفوا بذلك عن نصرته وتأييده ومظاهـرته على أعـــداء دينه من اليهود والنصارى ، ولولا أن الله تعـــالى أتى للمسلمين « بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » لأصاب المسلمين من ذلك المكر السيىء الذى بيته أولئك المنـــافقون ، ومن تخلفهم وارتدادهم ، وتوليهم عمدا عن نصرة دين الاسلام ومناصرة أهله ، ما قد كان يمحو آثار التوحيد ، ويرفع منار الشرك فى الارض .

فالارتداد فى آية المائدة ــ كما رايت من السياق ومن نظم تلك الآية نفسها ــ انما أريد به تولى أولئك المرتدين عن نصرة الاسلام ، والتخلف عن درء الأذى عن اخوانهم المسلمين ، تاركيهم لغارات أعدائهم .

ومن الآيات التى جاءت فى هذا الموضوع ، واختلف فيها أهل التأويل قوله تعالى : « فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا ، أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا ، الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم ان يقاتلوكم ، أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم ، فما جعل الله لكم عليهم سبيلا . ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ، كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها ، فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم ، فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » .

اى ما شأنكم أيها المؤمنون فى أهل النفاق فئتين (١) والله ردهم الى أحكام أهل الشرك المحاربين فى اباحة دمائهم .

نزلت هذه الآيات على رأى فيمن تخلفوا عن الحرب فى وقعة أحد ، وانصرفوا الى المدينة قائلين : « لو نعلم قتالا لاتبعناكم » ، وهذا التأويل يلحق هؤلاء المتخلفين بالفارين من الحرب الذين تبيح القوانين الحربية فى كل زمان ومكان ودولة دماءهم . على أن الآيات السابقة قد جاءتنا بحقن دماء طائفتين من هؤلاء وهما : من يصلون

---

(١) تفسير الطبرى جزء ٥ صفحة ١١٢ الى ١١٨ مع بعض تصرف

الى قوم بينهم وبين المسلمين موادعة وميثاق وعهد . ومن جاءوا المسلمين وقد حصرت صدورهم أى ضاقت عن الميل الى مقاتلة المسلمين أو مقاتلة أقوامهم ، فلم يجعل الله بذلك سبيلا للمؤمنين على أنفس هؤلاء وأموالهم وذراريهم ونسائهم .

وقال آخرون : بل كان اختلاف المؤمنين فى قوم من أهل الشرك كانوا أظهروا الاسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين ، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم ، فقالوا ان لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس .

فأصحاب هذا التأويل على ما وصفنا يرون أن الآيات الكريمة نزلت فى منافقين غير مسلمين ولكنهم خونة غدارون .

والقول السديد الذى ارتضاه الطبرى فى تفسيره ، وهو الذى أراه ، أنها نزلت فى قوم من أهل مكة لا المدينة ارتدوا بعد اسلامهم فكانوا حربا على المسلمين مع قومهم ويؤيده قوله تعالى : « فلا تتخذوا منهم اولياء حتى يهاجروا » فان الهجرة لم تكن فرضا على أهل المدينة ومع ذلك فهى مقيدة باستثناء الطائفتين الواردتين فى قوله : « الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أوجاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أويقاتلوا قومهم ، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ، فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » .

ومن هنا يتبين انه لا علاقة لهذه الآية بمسألة الارتداد عن الاسلام لمجرد شبهة لم يستطع صاحبها ردها ، وفكرة عجز عن دفعها .

ذلك ما جاء فى القرآن الكريم ، فلننتقل الى ما ورد فى السنة فى هذا الباب ، فنقول :

ان الأحاديث التى وردت فى هذا الباب كثيرة ، وجلها من الآثار المروية عن عمر أمير المؤمنين وعلى بن أبىطالب، وابن عباس رضى الله عنهم . أما ما عزى الى الرسول عليه السلام فى ذلك وصح سنده ، فقليل جدا ، ومنه أن قد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل المرتدين المحاربين .

روى فى ذلك البخارى حديث النفر عن عكل ، اذ قدموا على الرسول عليه السلام ، فأسلموا فاجتووا المدينة ، فأمرهم أن يأتوا ابل الصدقة فيشربوا من البانها ففعلوا ، فصحوا ثم ارتدوا وقتلوا رعاتها واستاقوا الابل، فبعث فى آثارهم ، فاتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ، ثم لم يحسمهم حتى ماتوا .

وورد هذا الحديث لغير البخارى مع بعض تغيير زهيد .

ولا مراء أن ذلك الحديث صحيح السند والمتن ، ولكن ذلك النفر من عكل ، فضلا عن ردتهم ، كانوا من أولئك الخائنين المحاربين ، الذين يسعون فى الارض فسادا ، المنطبق عليهم آية : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض» .

فلم يكن منشأ ما فعل الرسول (ص) لهم طروء شبهة لهم أوهنت فيهم عقيدة الاسلام ، أو حجة أرتهم صحة ما كانوا عليه من عبادة الاوثان ، ولكن لما رأينا من ارتدادهم الى محاربة المسلمين وايذائهم ومحاولة اللحاق

بأقوامهم لمناصرتهم ومؤازرتهم . فهم خائنون ومحاربون وساعون بالفساد فى الارض تنطق بذلك كله عبارات الحديث المروى آنفا عن البخارى فى شأنهم .

أما غير المحاربين من المرتدين ، فللعلماء كلام طويل فى جزائهم ، فالجمهور من الفقهاء يقولون بقتل المرتد والمرتدة ، عملا بعموم حديث (من بدل دينه فاقتلوه) . وخصه الحنفية بالذكور وتمسكوا بنهى الرسول عن قتل الاناث . وأما جميع ما ورد من الاحاديث فى قتل الرسول لبعض النساء المرتدات فأسانيدها ضعيفة . بل لقد قال ابن الطلاع فى الاحكام انه لم ينقل عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قتل مرتدة .

وجمهور الفقهاء ، وان قالوا بقتل المرتد ، اختلفوا فى أمر استتابته قبل القتل ، فمنهم من أوجب أن يستتاب أولا فان لم يتب قتل ، وذهب الحسن وأهل الظاهر وكثير غيرهم الى القتل فى الحال . قال الشوكانى فى نيل الاوطار ، وعليه يدل تصرف البخارى ، فانه استظهر بالآيات التى لا ذكر فيها للاستتابة والتى فيها أن التوبة لا تنفع ، وبعموم قوله (من بدل دينه فاقتلوه) . ويرى النخعى أن المرتد يستتاب أبدا (أى فلا يقتل) .

تلك أقوالهم فى هذا الباب ، ولهم تفصيلات كثيرة لا حاجة الى استيعابها ، والذى نراه فى ذلك قد يخالف ما قالوه من وجوه ، ولكن لا حرج علينا فيما نرجو ما دام عمدتنا فى ذلك كتاب الله الكريم وسيرة الرسول عليه السلام .

***

وخلاصة رأينا فى ذلك أن القرآن الكريم لم ينص فى

آية ما على قتل المرتدين عن دين الاسلام الى دين آخر على النحـو الذى شرحنـــاه فى تفسير آيتى الارتداد السابقتى الذكر . وأما الاحاديث التى سردها البخارى واستدل بها على وجوب قتل المرتد فورا ، فليس شيء منها فيما نرى جاء نصا فى القول بالقتل ، ولا فى بيـــان حدود الردة وكنهها والتعريف بها ، ولقد نستوفى الكلام فيها فيما بعد بما لا غبار عليه ، بيد انه يجمل بالباحث أن يتدبر المقدمات الآتية قبل استنباط حكم قاطع فى هذا الباب .

اولا — ان القرآن ليس فيه نص قاطع على أن المرتد بالمعنى الذى يريده الفقهاء يقتل .

ثانيا — ان لبدء ظهور الاسلام من الاحكام ما ليس لغيره . ذلك أن المرتدين عن الاسلام يوم بدأ رسولنا الاكرم الدعوة الى التوحيد كانوا يعودون الى ما كانوا عليه من اليهودية أو النصرانية أو الوثنية ، وكانوا اذ ذاك يلحقون بأقوامهم ويحـــاربون المســـلمين فى صفوفهم أو يظهرونهم على عوراتهم ، فارتداد من كانوا يرتدون اذ ذاك عن الاسلام لم يكن لمجرد الخروج عن هـذا الدين ، ولكن كان دائما مشفوعا بمظاهرة من يلحقون بهم من اقوامهم .

والمستقرىء لاحاديث الباب لا يكاد يجدها تخرج عما قلنا ، فمعاملة رسولنا الاكرم وخلفائه من بعده للمرتدين ، تلك المعاملة كانت فيما نرى لأنهم ينقلبون خائنين محاربين لله ورسوله والمسلمين . واننا لنرى اليوم أن الفار من الحرب أو الملتحق بجيوش العدو المحارب لحكومته يعتبر خائنا ويقتل من فوره ، ولو لم يرتد عن دينه ، فما بالنا لا ندرك سر قتل الرسول وخلفائه للمرتدين عن الاسلام

الذين لم يقتلوا اشتدت بهم الفتنة وظاهروا قومهم على المسلمين ، وكشفوا لهم عن عورات هؤلاء ، ودلوهم على مواطن الوهن فيهم .

ولقد كان منهم طائفة يؤمنون بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهـــار ويكفرون آخره لعلهم يرجعون ، فالمرتدون فى صدر الاسلام كانوا فى الغالب ممن دخلوا فى الاسلام نفاقا ، وخرجوا منه للفتنة وكشف الاسرار .

ثالثا ـ ان الردة التى جاءت فى آيات البقرة وغيرها كانت ارتدادا عن نصرة المسلمين والاشـتراك معهم فى محاربة أهل الكتاب ، لما كانوا يخشونه من ظهور هؤلاء على المسلمين ، وظفـــرهم بهم يوما ، فأرادوا بذلك أن يتخذوا عندهم من الايادى ما يحقنون به دماءهم ويعصمون أرواحهم .

رابعا ـ ان رسول الله صلى الله عليهم وسلم علمنا كيف نتصرف فى الحوادث ، ونقف عند حدود مقتضيات الاحوال . ولنا من سيرته السامية وأعماله الحكيمة آلاف من الادلة والآيات ، ولكننا ابتلينا بالجمود ، وضعفنا عن ادراك أسرار سيرته ودينه الفطرى ، ووقفنا عند حدود الالفاظ ، واخذنا نتقيد ببعض الروايات . ولقد كان لنا من حكمة رسـولنا الحكيم وعلمه الالهى ما يرشـــدنا الى أيسر السبل واقومها لو كنا نعقل . ولنضرب لك ايها المتدبر المفكر فى ذلك بعض الآيات والشواهد .

بدأ النبى صلى الله عليـــه وسلم يدعو النـــاس الى الاسلام ، وهم على ما نعلم من الجهالة والضلال والشرك المبين ، فكان عليه الصلاة والسلام يتدرج بالاقوام رويدا رويدا ، كما يلين لهم من جانبه ، ويتســـاهل فى

مطالبهم ، تأليفا لقلوبهم واستمالة لهم الى التوحيد . ومن ذلك ما روى عن نضر بن الليث عن رجل منهم . أنه اتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسلم على أن يصلى صلاتين لا خمسا فقبل منه ، رواه الامام احمد . وفى لفظ آخر له على ألا يصلى الا صلاة فقبل . وعن وهب قال : سألت جابرا عن شـأن ثقيف اذ بايعت فقال : اشترطت على النبى أن لا صدقة عليها ولا جهاد ، وأنه سمع النبى عليه الصلاة والسلام يقـول : « بعد ذلك سيتصدقون ويجاهدون » رواه أبو داود .

وعن انس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل : « اسلم » . قال : « أجدنى كارها » . قال : « اسلم وان كنت كارها » رواه أحمد . قال الشوكانى ـ بعد أن سرد هذه الاحاديث ـ فيها دليل على أنه يجوز مبايعة الكافر وقبول الاسلام منه وان شرط شرطا باطلا، وأنه يصح اسلام من كان كافرا .

فعل ذلك الرسول الكريم ، لما يعلمه من ان من المنفرات تكليف المدعو جميع احكام الله فى آن واحد ، وأنه لا حرج أن يشترط المدعو ما شاء من الشرائط ، ولو باطلة ، فان دخوله فى الاسـلام على أى وجه جدير ان يوجد فى نفسه من الميل للاسـلام والعطف على اخوانه المسلمين ما يدفعه الى بذل ما ضن به ونقض ما قدم فى بيعته من الشرائط . ينبىء بذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث جابر المذكور آنفا (سيتصدقون ويجاهدون) .

فانظر كيف فعل ذلك الرسـول الحكيم ، فراعى مقتضيات الاحـوال ، واتى بمـا هو الاصلح للاسـلام والمسلمين .

وناهيك بما فعله فى صلح الحديبية ، من قبوله شروط قريش الاربعة ، ورضاه أن يرد الى المشركين من يجيئه منهم مسلما ، على ألا يردوا هم من فر اليهم من المسلمين، فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فيه من الاسرار والحكم البالغة ، مما لم يفقه الذين شهدوا ذلك الصلح من الصحابة الا بعد أمد غير قصير .

لقد كان الاسلام يوم بدا غريبا ضعيفا ، فكان لابد من اتخاذ كل ما يمكن من ضروب التحوطات والشدة ، حتى يشتد ويقوى ، ويسلم مما كان يراد به من الفتنة والاذى . ولقد اقتضت حكمة الحكيم العليم ، أن يقيم الرسول الكريم عليه السلام ، فى ذلك من الاحكام ما يضمن سلامة الاسلام ، فلما أيد الله دينه ورفع منار كلمته ، كان لابد أنْ تكون هناك أحكام أخرى تناسب ما صار اليه المسلمون من القوة والمنعة ، وما أصبح فيه الاسلام من السلامة والامان ، من ذلك ما رواه البخارى بسنده عن ابن عمر ان رجلا جاءه ، فقال : يا أبا عبد الله ألا تصنع ما ذكر الله فى كتابه « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » (الآية) فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه ؟ فقال : يا ابن أخى : اعير بهذه الآية ولا أقاتل أحب الى من أن أعير بآية « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها » . قال فان الله يقول « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » قال عبد الله بن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ كان الاسلام ضعيفا ، وكان الرجل يفتن فى دينه اما أن يقتلوه واما أن يوثقوه حتى كثر الاسلام ، فلم تكن فتنة .

فانظر كيف كان عبد الله يفسر الفتنة ، ويفرق فى الاحكام بين عهد الاسلام بالقلة والضعف ، وما صار اليه لعهده من العزة والمنعة . ولعل ما ذكرناه هنا هو سر قول الامام النخعى بأن المرتد يستتاب أبدا ولا يقتل . ذلك أن الاسلام على عهده ما كان لتضره ردة المرتدين ، بعد اذ أصبح فى مأمن من أن تؤذيه مكايد المشركين ، ومن يرتدون اليهم من منافقى المسلمين .

ولو كان حديث (من بدل دينه فاقتلوه) ، الذى رواه البخارى وغيره على نصه غير مختص بزمان ولا معقود بمقتضيات غير مطردة ، ما وسع النخعى ولا غيره مخالفته .

واذ مهدنا امامك السبيل ، بتلك المقدمات التى اسلفنا ، فاعلم ان الذى نراه ، أن المرتد اما أن يرتد عن دينه ، فلا ينضم الى المدافعين عنه من المسلمين ، ولا يقف منهم موقف المسالم غير الخائن ، كما كان يفعل اولئك الذين نزلت فيهم آيات البقرة والمائدة ، فهذا لا جرم يقتل . واصرح ما نزل فى ذلك قوله تعالى : « ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ، كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها ، فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم ، فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم واولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » .

ومثل هذا القسم من يرتدون ويحاربون ، كما سبق فى حديث النفر من عكل . ولا ريب أن المرتد من احد هذين القسمين منافق خائن أو محارب ، فلابد أن يقتل من فوره .

وكذلك تفعل الممالك جميعها فى الوقت الحاضر ، مع امثال هؤلاء من افراد شعوبهم ورعاياهم .

الزنادقة

ويلحق بهذا النوع الزنادقة ، الذين كانوا على عهد على ابن أبى طالب رضى الله عنه . فقد روى من طريق عبد الله ابن شريك العامرى عن أبيه ، قوله لعلى : ان هنا قوما على باب المسجد يدعون أنك ربهم ، فدعاهم فقال لهم : ويلكم ما تقولون ؟ . قالوا : أنت ربنا وخالقنا ورازقنا ! . فقال : ويلكم انما أنا عبد مثلكم ، آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون ان أطعت الله أثابنى ان شاء ، وان عصيته خشيت أن يعذبنى ، فاتقوا الله وارجعوا . فأبوا، فلما كان الغد غدوا عليه ، فجاء قنبر فقال : قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام . فقـــال : أدخلهم . فقالوا كذلك . فلما كان الثالث ، قال : فان قلتم ذلك لاقتلنكم بأخبث قتلة ، فأبوا الا ذلك فقال : يا قنبر أعنى بفعلة معهم . فخد لهم أخدودا بين باب المسجد والقبر ، وقال احفروا وابعدوا فى الارض ، وجاء بالحطب فطرحه بالنار فى الاخدود ، وقال : انى طارحكم فيها أو ترجعوا . فأبوا أن يرجعوا ، فقذف بهم فيها .

وكان يقال لهذه الطائفة سبئية ، نسبة الى كبيرهم عبد الله بن سبأ الذى أظهر الاسلام وابتدع هذه المقالة . وانما ألحقنا هؤلاء الزنادقة بالقسمين قبلهم لانهم ظهروا والاسلام غض العهد بالوجود كثير الاعداء والمحاربين .

فلو أن على بن أبى طالب ، ابن عم الرســـول وختنه ، واصل العترة النبوية ، أبقى عليهم ، او خفف العقوبة عنهم ، لانمحت آيات التوحيد من ظهر الارض ، ولما وجد فى العالم أحد من المسلمين ، ولكان للناس من على بن أبى طالب ، ما كان لليهود من عزير .

أما أمثال هذه الفرق اليوم ، وقد اشتد ساعد الاسلام ، وقويت شوكته وتبينت للناس حقائقه وأصوله ، فلا خوف عليه منهم ، ولو كثرت جموعهم وعظم سلطانهم ، اللهم الا اذا أخذوا يفتنون المسلمين عن دينهم بالقتل أو السجن أو التنكيل ، فهناك يحق على المسلمين مناهضتهم وتقتيلهم اينما ثقفوهم .

وأما الذين لم يرتدوا عن تأييد الاسلام ، ولم يخرجوا عليه ، ولم ينضموا الى صفوف أعدائه ، ولم يخونوه فى شيء ، ولكن أضلتهم بعض الشبهات ، التى لم يستطيعوا لها ردا ، والشكوك التى لم يقووا على مدافعتها بالحجة والبرهان ، فان سبيلهم فيما نرى الا يعتبروا كالمرتدين ، ما داموا لم يهتدوا الى الصواب ، ولم يقم من أهل الذكر والعلم من يبين لهم فيها الرشد من الغى .

والله سبحانه وتعالى أحكم وأعدل أن يكلف الناس ما ليس فى طاقتهم ، أو أن يلزمهم الايمان بما لم يهدهم وجه الصواب فيه . يدرك ذلك من يفقه سر قوله تعالى : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » فان الرسل قد بعثهم الله لخليفته وكلفهم البلاغ المبين ، اذا فلا تكليف الا حيث البلاغ المبين . فاذا ابتلى العامة بأمثال بعض علماء هذا العصر الجامدين ، وازدحمت الشكوك والشبهات على صدور الناابتين من المسلمين ، فكيف يؤاخذون اذا ضلت أحلامهم بعد اذ فقدوا أركان الاسلام، وأساطين علمائه الذين يقتدرون أن يدرأوا الشبهات ، ويهدوا الهائمين فى أودية الضلالات .

جمود المتصدين للفتوى

أقول ذلك بعد اذ رأيت من الشبان المسلمين ، من كانوا يطرقون أبواب شيوخ العلماء ، ويغشون مجالس أئمة الاسلام ، لا لغرض سوى استفتائهم في بعض أصول الاسلام ، والفرار الى معاقل علمهم وهدايتهم ، يتقون بها هجمات جيوش الشكوك والاوهام ، حتى اذا استفتحوا عليهم بكلمة واحدة في ذلك ، سمعوا من فحشهم وسبهم وتقريعهم ، ما كان يصد أولئك الحائرين عن مجالسهم ، وقد تنازعتهم ضلالات الحيرة ، ودفعتهم معاملة الشيوخ الى اليأس من بلوغ غايتهم وصلاح عقيدتهم .

ونحن على ثقة من أنه لو درس شيوخ المسلمين العلوم الكونية ، وعرفوا أسرار سنة الله في خليقته ، لما كثرت الملاحدة وفشت المنكرات ، فكيف لنا ـ مع جمود هؤلاء المتصدين للفتيا والارشاد ـ أن نؤاخذ النشء الصغار وغيرهم ، ممن لم يستوعبوا أصول الدين ، ولم يهتدوا الى صواب اليقين ، وهم عاجزون عن مدافعة ما لا قبل لهم به من غارات الشكوك والشبهات .

انه قد تعرض لنفس المسلم شبهة لا يستطيع دفعها ، على حين لم يقصر في التنقيب عن وجه الصواب والحق فيها ، فهل هناك دين غير الاسلام ، يحكم بنجاة هذه النفس الحائرة ، ويقول ما قال القرآن : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » . « لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها » . « لا اكراه في الدين » ؟ .. أفلم يعتبر القرآن التفكر في ملكوت الله من كبريات العبادات ، يزدلف بها الى الله ؟

أولم يقل رسوله صلى الله عليه وسلم : « تفكر ساعة خير من قيام ليلة » الى نحو ذلك مما علم المسلمين، أن من أعظم العبادات قراءة كل ما يعين الانسان على معرفة حكم الله فى خلائقه ، وادراك البدائع من صنعته، ككتب الطب والتشريح وعلم الحياة وعلم وظائف الاعضاء وعلم النفس وأشباهها ؟ أليس ذلك يخول المسلم ، متى أحسن النية ، أن تكون أكثر أيام تحصيله للعلم ، وأعماله للفكر ، عبادة الله تعالى وتعرفا اليه ، بما يفهم من بدائع آثاره ، وما يدرك من دقائق صنعته ؟ اذن فالانسان فى نظر القرآن كلما ازداد علما وبحثا ، ازداد عند الله تعالى اقترابا وحظا .

مقام القرآن الحكيم ازاء العلوم والمعارف الكونية

كثيرا ما نسمع من خطبائنا المصريين ، ونقرأ فى صحفنا ومجلاتنا الحديثة ، ما يمثل لنا العلم والدين كدولتين فى حرب قائمة دائمة ، لا يستقر لها صلح ، ولا تتخللها مهادنة .

يلهج بذلك أشباه المحصلين ، وتلاميذ آثار الغربيين ، ممن يطيرون لكل هيعة ، ويفتنون بكل بدعة ، ولو كبلت عقولهم بأغلال التقليد ، واحتبست أفهامهم عن التدبر والتفكير .

ليت شعرى أفما كان الاجدر بمن منحوا فطرة الانسان، ورفعوا عن مراتب العجم من الحيوان ، أن يتساموا بعقولهم ويتحاكموا الى بصائرهم فيما يعرض لهم من النظريات ؟ بلى ، ولكنهم أبوا الا أن يجمدوا على الثقة

بالمباحث والاقوال الغربية دون سبر لاغوارها ولا تفكر فى مبلغها من الصدق ، وما يتبع أكثرهم فى ذلك الا الظن وما تهوى الأنفس . وليت هؤلاء يكتفون بخزى الجمود أمام الحديث فيقفون ازاءه سلبيين صامتين لا يبدون حراكا ولا ينتحلون فهما ، بل نراهم على ضلالهم الكثيف وجهلهم الفاحش يملأون الفضاء بالدعاوى الجوفاء ، ويدعون لأنفسهم علوم الارض والسماء ثم لا ينفكون يقذفون مع ذلك برجوم تهكمهم وسخريتهم قديم المأثورات ويغضون ابصارهم حتى عن آياتها البينات .

جهل ذلك الرهط من المتفيهقين تاريخ الأمم الغربية ومصدر تقلباتهم وتطوراتهم التى تعاقبت فيهم ، جهلوا ما انبعث عنه أحكامهم وأقوالهم فى مختلف المواقف الدينية والسياسية والاجتماعية ، جهلوا جميع ذلك ، كما جهلوا ، اللباب من أمر دينهم وبيض الصحائف من تاريخ أسلافهم ، وليتهم مع ذلك الجهل المؤكد أنصفوا الطائفتين فسووا بينهما حبا أو كرها ، وانتظموهما فى سلك واحد من المعاملة الحرة البريئة من شوائب التحيز ، ولكننا نجدهم اذا عرض لهم شىء ليس بغربى لووا رؤوسهم وثنوا أعطافهم ، وقالوا فى عنجهية شوهاء ونعرة حمقاء : « لا حاجة لنا بما لم يصدر عن أوروبا ، ولا نولى ثقتنا من لم يرد مناهلها ولم يتخرج على أساتذتها » .

وانه لحسب أحدهم اذا ما شئت اقناعه أن تقول له « بذلك يقول المستر فلان الانجليزى ، أو المسيو فلان الفرنسى ، أو الهر فلان الالمانى » . فليكفينك هذا وحده مشقة التدليل وتوفير البراهين ، وليسلسن لك ذلك مجردا ما شئت من أعنة كل عصى شموس .

ولو أن أسارى التقليد ممن تصدوا لزعامة الحركة الفكرية والنهضة العلمية ، كانوا طلقاء العقول ، أحرار التفكير ، لما ابتاعوا من محصول العقول الغربية الا ما أمنوا غشه ، واستوثقوا من نقاء معدنه ، وكمال صلاحه بعد اذ عرضوه على محك الاختيار ، وناقشوا أصحابه دقيق الحساب ، وميزوا ما فيه من النافع والضار ، ذلك كيلا يقبلوا قولا ولا يرفضوا رأيا الا وأفئدتهم مطمئنة وأقدامهم ثابتة ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة • ولكنها فيما نرى نوبات عصبية ، وغضبات جاهلية ، ملكت أعنة قلوبهم ، ولعبت بموازين أفهامهم ، فأطلقت السنتهم بالأراجيف ، وسولت لهم كل رأى سخيف .

زعموا أنه لا يجوز للدين أن يقف فى سبيل الرقى العلمى ، وأنه اذا لم يتنح عن سبيله فستكون الهزيمة المنكرة مصيره •

كذلكم يقولون أيضا فيما يرجفون انه لابد من فصل الدولة عن الدين وان حرية الفكر الانسانى تستلزم انقلابه ماديا طليقا لا يتقيد بشىء من قيود الاديان .

هذه هى الدعائم التى يقيم عليها اولئك الحائرون والاباحيون فى هذه البلاد واشباهها صروح نهضتهم ومعاقل دعوتهم ، ولقد بينا مبلغ ضلال أحلامهم فى تلك المقالات ، وخيبة ما بيتوا من الكيد السيىء لاهل القرآن ، كما أوضحنا أن هؤلاء المستخفين والطاعنين ، لو كان لهم علم بأصول القرآن ووقوف على ما مكن للعقل والوجدان، وأرسى من قواعد الحرية الصادقة فى سائر شعب الحياة، لما زلت لهم قدم فى مزالق التقليد ، ولفقهوا جلال ذلك

الكتاب الذى يقول : « ولا تقف ما ليس لك به علم » والذى يقول : فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .

معلوم ان الحكمة فى ظهور الانبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، انما هى دعوة اممهم الضالة الى اصلاح ما فسد من أمرها ، ومعالجة ما مرض من أخلاقها، وكبح ما جمح من أهوائها وشهواتها .

ولقد جاء أكثر الانبياء والمرسلين برسالات خاصة ، كما جاء بعضهم لمعالجة أمراض معينة فى أقوامهم ،جلها فيما يحدثنا القصص اجتماعي وخلقى ، ولم يكن فى موسوعات رسالات أكثرهم البحث فى العلوم الكونية والظواهر الطبيعية ، بل ولا النظم والقوانين المدنية .

واذا كانت رسالات أكثر الانبياء انقطعت بانقطاعهم ، ودرست معالمها بفنائهم ، حتى لم يبق سبيل الى ضبط ما جاء منها ، ضبط احصاء واستيعاب ، فان لنا أن نستأنس بتاريخ رسالة سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام ، فانها مرآة غيرها من سائر الرسالات التى سبقتها .

ظهر المسيح عليه السلام فى جزء من المملكة الرومانية ذات القوانين المدنية والدساتير السياسية ، بيد أنه ظهر فى أمة اليهود ، بعد أن انصرفوا الى عبادة أحبارهم ، وتقطعت فيهم أواصر الارحام ، وتفسخت الاخلاق عن النفوس ، وتفشت المنكرات ، وأعوز الناس الرحمة والحنان ، حتى لم يكد يبقى لهم في الحياة من مطلب سوى الملاذ البهيمية والمآرب الشهوية .

لقد كانت أمة المسيح من اليهود على تلك الحالة يوم جاءهم بالتنفير من زخرف الدنيا ، وتزهيدهم فى باطل

متاعها ، وعندما ضرب لهم الامثـــال والقصص ، ليقيم الحرب على الشهوات والماديات التى كانت مالكة لأعنة قلوبهم ، ومضللة لعقولهم ونفوسهم .

ولقد كان من تعاليم أولئك الانبياء والمرسلين ، ومن حذا حذوهم من المصلحين ما جاء عقوبة لأممهم المتفحشة زجرا لهم عن رجس الشهوات التى عكفوا على مرضاتها ، وأسلموا مقاليدهم لها ، حتى أنستهم أنفسهم ، وهبطت بهم الى مراتب سائر الحيوان الأعجم . فللعقوبة والتنكيل كان ما جاءوا به من الحض على الرهبانية ، والترغيب في الخصاء ، والحث على افناء القوى العقلية والبدنية بالصوم المرهق والتعذيب بالتحرج عن أكثر مطالب الحياة. وما كانت امثال هذه التعاليم فى سبيل المصلحة العامة العمرانية ، ولا مقصودة لغير من نزلت فيهم من أشرار الناس وعبدة الشـــهوات ، والا فهى منقصة للنسل ، مذهبة للعمران ، سبيل الى الخراب والزوال . ولذلك يمكن القول بأن رسالات السيد المسيح ، وأكثر من تقدمه من الانبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ، كانت فى جوهرها مقصورة على قسم الجهاد النفسى ، والتربية الخلقية ، كما أنها جاءت لطوائف من أقوامهم بعقوبات وزواجر بلغت فى شدتها وفداحتها مثل الذى بلغه هؤلاء من الفساد والفجور .

ومع ذلك لم يكد المسيح وكثير غيره يأتون الناس فى الاخلاق بدساتير تبين الخير من الشر ، وتوضح للناس ما يفعلون وما لا يفعلون ، بل لم يكادوا يأتون بشىء كبير فى باب العقائد الالهية . أفلا نذكر كيف استأثر رجال الدين بعد السيد المسيح بالأمر ، وكيف اختصوا أنفسهم

بتقرير العقائد وموسوعات الوجدان الانســاني ، وكيف وضعوا (طقوس) العبادات ، وحرموا على الناس حق تفسير كتب العهدين ، كما حرموا عليهم معارضة ما تأمر به الكنيسة ، ولو كان من غير المعقولات ، الى أشباه ذلك مما ضجت الامم النصرانية من هوله ، وثارت للتخلص منه ثوراتها الدموية التاريخية ، سياسية كانت أو دينية .

لم نر فيما سجل لنا تاريخ الأديان السماوية ، دينا تجاوز تلك الحدود التى وصفنا ، فتناول شــيئا من الشرائع المدنية أو علما بالشئون الكونية سوى دين موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، وذلك لم يكن فيما يخيل الينا خروجا عن الحدود العـــــادية للرسالات السماوية ، الا انه لمن تدبره لم ينزل به الروح الامين عبثا ، ولم يرسله الحكيم العليم اعتباطا ولا فضولا ، ولكن كان فيمن بعث اليهم هذان الرسولان الكريمان من الشئون والاطوار ما اقتضى أن يمدا من قبل القوى العزيز بما لابد منه فى مصارعة أفكارهم الضـــالة ، وهداية عقولهم الهائمة ، واصلاح شئونهم التعاملية الفاسدة .

كان بنو اسرائيل بمصر متأثرين بالتقاليد والعقــائد والعلوم والعبادات المصرية ، فكانوا يعبدون الاوثان والصور ويعلمون من العلوم الكونية ما كان معروفا بين الناس فى هذه الديار ، فلما خرجوا الى سيناء ، ولم يكفهم تأديبا ولا عقابا مالاقوه فى التيه من صـــنوف العذاب والشدة ، جاءهم موسى ، بعد مناجاة الطور ، بالالواح يدعوهم فيها الى توحيد الله ، والنهى عن عبادة غيره ، ويحرم عليهم أن يشركوا به شيئا . ولقد كان لابد أن يأتيهم بشىء من العلوم الكونية ، لما كان لهم من الالمام بها والوقوف على

نتف من غثها وسمينها وفاسدها وصحيحها ، فاذا جاءهم بسفر التكوين فانما ذلك لتبديد ما تزاحم فى صدورهم من الضلالات والخرافات المصرية والكريتية التى أبعدتهم عن العلوم بقيوم الارض والسماوات ، وسولت لهم عبادة الصور والاوثان ، وما فى الفضاء من الثوابت والسيارات، واذا جاءهم موسى مع هذا بشىء من الشرائع والاحكام التعاملية ، فانما جاءهم بما كان ضروريا لهم فى تدبير وسياسة أرض كنعان ، التى كتب الله لهم . ولو أن موسى عليه السلام عاش حتى ظهر قومه على الكنعانيين ، واندمج فى نطاق ملكهم ما شمله بعد موته حكم يوشع وداود وسليمان ، لكن فى توراته اليوم من الاحكام التعاملية والتعاليم السياسية الشىء الكثير .

وهل كان فى استطاعة موسى عليه السلام ، لولا ما أمده الله به من ذلك العلم والشرع ، أن يعيد اقوامه الهائمين فى أودية الجهالة الى حظيرة القدس الربانية ، أو يشرق على نفوسهم الضالة بالانوار الالهية ؟ كذلكم جاءت رسالة موسى عليه السلام للبلاد . أما محمد عبد الله ورسوله الى الناس كافة ، فان لرسالته التى دامت عشرين عاما ونيفا ، ولدعوته التى ستبقى ما بقى الانسان فى الارض ، من الشئون والخصائص والمقاصد ما لا يشاكلها فيه دين ولا تشبهها شريعة .

وسيكون بحثنا فى هذا المقام خاصا بموقف القرآن ازاء المسائل الكونية والعلوم العقلية . ولا نعنى بهذا انه جاءنا فى هذه المقاصد بما تجىء به الكتب الفنية ، تبويبا وتفصيلا وتدليلا وتعليلا . فان هذا كما هو معلوم ما كان يوما ما من المقاصد الاولى للكتب الالهية ، ولا من اغراض

الرسالات السماوية ، وانما يعنينا فيما يلى مدى ما بين القرآن الكريم والعلوم الكونية من الصلات ، وهل وقف كتاب الاسلام يوما ما فى سبيل رقى العلم وحرية الفكر، كما يتشدق الخراصون ! أم انه على العكس من ذلك كان محرر العقول الاسيرة ، ومنير البصائر المظلمة ، ومثبت الافكار القلقة ، ومنعش الهمم الخامدة ، ومحرك الافهام الجامدة ؟! . كذلك يعنينا أن نصف مقامه فى هذه الاغراض ، وأن نأتى على بعض آياته التى لم يفسرها الا الزمان ، ولم يكشف دقائنها سوى ما أحدثته الحركة العقلية الجريئة التى انهزمت أمامها ظلمات التقليد ، وخفى بها على الابصار ما كان يعد لدى القدماء علوما صحيحة ، ونظريات ثابتة ، وما كان أكثرها سوى ظنيات اخترعها الخيال والتخمين ، أو أساطير خرافية توارثها الاخلاف عن آبائهم الأولين .

جاء القرآن بما جاءت به سائر الرسالات السماوية من التعريف بالخالق ، وتقرير العقائد ، وأمهات الشرائع، واساس الأدب والاخلاق ، جاء بجميع ذلك ، قصدا الى هداية العالم الانسانى ، وارشاده الى ما يضمن له السعادة والنعيم فى حياته . الا أن القرآن حينما جاء كان الناس فى جميع الارض ، كما هو معلوم للمؤرخين ، نهبا مقسما بين رجال الدين وبين المتغلبين المسيطرين .

كذلك كان شأن الناس فى تلك القرون الوسطى يوم هبط وحى الله فى مكة بالقرآن . فاذا جاء القرآن لما سردنا من المقاصد التى نزلت بها الرسالات السماوية الاخرى ، فلقد جاء كذلكم لتحرير العقول البشرية من رق التقليد واخراج الوجدان الانسانى من نطاق الحجر الذى

ضربه من حوله رجال الدين ، جاء لانهاض العقل الآدمى واستحثاثه فى سبيل التفكير والنظر . جاء يخفر النفس البشرية ويسوقها ، لتقرأ صحف الطبيعة ، وتتدبر آيات صنعتها البديعة . بغض القرآن الى الانســـــان ، كما أسلفنا ، رذيلة التقليد ، ونعى عليه الجمود على ما ورثه آباؤه الاولون ، أو شاءه الاحبار والربانيون ، حتى لقد سمى القرآن هـؤلاء أربابا لمقلديهم فى آيـة : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » .

ولكم عير القرآن الغافلين من معطلى العيون عن الابصار والآذان عن حسن الاستماع والافئدة عن الفهم والتدبر ، بأنهم كالانعام بل هم أضل .

عهد البحث والنظر

جاء القرآن والناس فى الارض بين أمى لا يعلم الكتاب الا ظنونا وأمانى ، ومقلد ملكت فؤاده تعاليم الاحبـــار والرهبانيين وأساطير الآباء الاولين ، وأباحيون حيث لا قيود استرقتهم الشهوات والاهواء ، فهو عدو لكل وازع وخصم لكل مصلح ، ودهرى يقـــول : ان هى الا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا الا الدهر . ثم قام بجانب هؤلاء أقوام كانوا يرون الخطر كل الخطر فى أن تستنير البصائر ، وتتحرر العقول ، وأن يعرف الناس أن الناس عباد الله كلهم لآدم وآدم من تراب ، وان يعلموا أنه لا تغنى نفس عن نفس شيئا وأن الله أقرب الى الانســــان من حبـل الوريد ، يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون .

جاء القرآن والناس فى كل أرض كما وصفت لكم ، فكان لابد له من الحيلولة بين أغوال المسيطرين المفترسين من أشباه الناس ، وبين فرائسهم المسكينة الصرعى ، تلك التى تزعجهم يقظتها ويهولهم انتعاشها ويهدم صروح مطامعهم فيها بعثها ونشورها .

ولقد كان ما شاء الحكيم الرحيم بعباده المستضعفين فى الارض ، فان البعثة المحمدية لم تختم الا والناس كافة طلقاء عقلا وضميرا ، أحرار قولا وفعلا .

بهذا الجهاد المشكور القرآن ورسول القرآن بدىء عهد البحث والنظر وولت دولة الجمود ، فوطئت بذلك الاكناف للفلسفة الاغريقية وتحصيل علوم الكون العقلية بعد أن ماتت أو كادت . فهى بأهل القرآن عاشت ، وفى أرض القرآن نمت ، وفى ظل القرآن عزت وسادت .

سلوا التاريخ هل لقيت من القرآن وأهل القرآن فلسفة هرقليتوس وديمقريط وانكساجوراس ما لقيته هى نفسها فى بلاد الاغريق التى هى مهد الفلسفة ومنبتها ؟ .. أم هل لقيت منهما فلسفة سقراط وافلاطون وأرسطو وارسترخوس وكليانتوس وبطليموس ما لقيته من الكنيسة الرومانية فلسفة هؤلاء الاساطين ، ثم فلسفة العرب بعدهم من الاضطهاد والمطاردة ؟ .. وهل اضطهد القرآن وأهل القرآن أمثال برونو وغاليليو ، وامعنوا فيهم تنكيلا وتحريقا لغير علة سوى أنهم ، بعد اذ اعتمدوا على الحس والمعاينة وتسلحوا بالآلات المكبرة والمقربة ، استنكروا عتيق الخرافات وأعلنوا الدعوة الى المشهودات وآذنوا بالحرب والقطيعة أصحاب الظنيات ؟

ظهر القرآن أول ما ظهر فى أمة أمية ، لم تألف المباحث العقلية ، ولم تعرف علوم الكون والمسائل الطبيعية ، فلما جاءهم بما ذكر لهم من اشاراتها أو صريح عباراتها ـ ولم تتسع لها مداركهم بعد ـ ذهبوا فى أمرها مذهب التفويض والتسليم وأبوا أن يقفوا ما ليس لهم به علم ، فتقبلوها مؤمنين . وتركوا أمر تأويلها وفهمها الى أهل العلم آخذين بقوله تعالى « ان الظن لا يغنى من الحق شيئا » وقوله « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » وقوله « وفوق كل ذى علم عليم » الى اشباه ذلك من الآيات التى علمهم بها الله أن العقل ليس بعربى ولا عجمى ، وأن العلم ليس بشرقى ولا غربى .

وقف السلف الصالح بتعاليم هذه الآيات القرآنية عند حدود التفويض فيما لم يعلموا ، حتى فتحت أبواب بلاد الروم لعقول المؤمنين ، بعد اذ أعدها الاسلام لاغتنام ثروتها العلمية وذخائرها الفلسفية، فتفجرت لاهل القرآن عيونها النضاخة وتقدمت الأيديهم قطوفها شهية دانية ، فكان ما شاء الله أن يكون لعباده المؤمنين ، سبق فى كل مضمار ، ونقابة خالصة لهم فى سائر شعب الحياة ، وقيادة عامة فى ميادين الحضارة والسياسة والصناعة والزراعة والأدب وفنون الجمال .

اجل ! ولكن بقايا الصدر الاول ، المسمى بالسلف ، قلقت نفوسهم يوم رأوا الفلسفة الاغريقية تجد سبيلها بين المؤمنين ، حتى رأوا الكثير فيها خطرا على دين الاسلام ، وحربا على تعاليم القرآن ، كما خفت اذ ذاك احلام طارت بها الاهواء والزعازع الفكرية الى مسالك

متشعبة من الشك والابتداع والالحاد، حتى اذا ركدت تلك الاعاصير ، وثابت العقول الى رشدها ، وامتحن الناس موقف القرآن ازاءها ، سكنت النفوس القلقة ، واطمأنت الافئدة المضطربة ، اذ وجدوا فى آياته المحكمة ما كان جنة لهـذا الدين ، ومنـارا للمحصلين ، وحجة قـائمة على الجامدين ، ورجوما لشياطين المرجفين من الجاحدين .

ثم أخذ أمراء المؤمنين وخلفاؤهم ءهم القوامون على دين الاسلام الحامون لحماه ، يهتمون بأمر تلك العلوم ، ويترجمون الى العربية ما كان موضوعا منها باللغـات الاخرى ، كما أخذوا يتدارسونها ، ويقربون من مجالسهم أساتذتها وفطاحلها ، ولو كانوا من غير المؤمنين . ففى ظل القرآن وصادق دعوته الحارة الى الدرس والبحث والتفكير العميق ، تعانق العلم ودين الاسلام عدة قرون، لم تتخللها وحشة ولم يعوزها صفاء ولا سلام . وما زال ذلك الامر قائما فى البلاد الاسلامية حتى فسدت الملكة العربية ، وعجز الناس عن تفهم كتاب الله وادراك تعاليمه ومقاصده بمستقبل مداركهم وحر عقولهم . هناك حيل بين العقول والعلوم ، وبخاصة فى بغداد ، فنصب طائفة من الفقهاء انفسهم للفتيـــا والتفسير ، حاجرين على المدارك ان تتحرك فى ميادين المعقولات ، وعلى الابصار ان تتقلب فى صحائف الارض والسـموات . وما زال شيوخ الدين ، باسم الدين هنالك يستأثرون بكل أمر ، والخلفاء والامراء الترك من ورائهم يجنون ثمار الجهالة التى تفشت فى اممهم ، ويستغلون العامة من شعبهم ، استغلال بهم الانعام ، حتى عاد الاسلام غريبا كما بدأ ، وانقلب الناس الى جاهليتهم الاولى . ولقد حذا المسلمون

فى هذه النوبة حذو المسيحيين فى البـــلاد الغربية ، فأقاموا فى بغداد ما أقــامه الأوربيون فى ممالــكهم من محاكم التفتيش وأوقدوا نيران العداوة والبغضاء على من خالفوهم فى الرأى والاجتهـــاد ولو كان مرجعهم فى ذلك كتاب الله وسنة رسوله الكريم . فلقد أوصدوا أبواب الاجتهاد أمام العقول وقطعوا للناس فى العقــائد والاحكام بأشياء وضعتهــا أيديهم ، ثم قالوا هــذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكذبون .

احتكرت هذه الطائفة ــ ولا سيما فى بغداد ــ علم العقائد والشرائع وتأويل الكتاب والسنة ، كما احتكروا علم السنن الــــكونية والمباحث الطبيعية ، وتبعــوا فى استبدادهم بالعامة بل بكثير من الخاصــة ســـنن رجال الكنيســة ، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، فحرموا وحللوا وفسقوا وكفروا ، وحذروا الناس عواقب مخالفتهم فيما ينهون ويأمرون ، فأقاموا بذلك لأنفسهم ســـلطانا على النفوس والسرائر والعقول ، واتخذوا من مقاماتهم الدينية للترك المتغلبين والامراء الجاهلين آلات يبلغونهم بها مآربهم السياسية ومطامعهم المادية . فلأغراض سياسية صــبغت بألوان دينية كان أكثر ما شهدته بغداد من المصادمات والاضطهادات الدموية التى قامت باسم الدين ، وما هى من الدين فى شىء ولــــكنها شــهوات المتغلبين ومطامع الجبارين ، قضت بأن يعطل فى بغداد القرآن ، ويطفأ بها نوره الساطع الذى جعلهــــا فى عدة قرون كعبة المحصلين ، ومثابة المستنيرين ، ومهاد توامى العـــلم والدين .

ولما جاء المغول بغاراتهم الساحقة الماحقة ، كتب الفوز والغلب للجهل وتم النصر للسيف على العقل ، فهام الناس فى أودية الضلال ، ورجعت العقول الى جاهليتها الاولى، انقطاعا عن التحصيل ، وتقيدا بالتقليد ، وأخذا بالخرافات والاضاليل .

بهذه النظرة العامة التاريخية لموقف القرآن ازاء العلوم العقلية والكونية ، يتبين أن حياة تلك العلوم وذيوعها فى سائر البلاد التى شملها ظل القرآن كانا معقودين بمبلغ وقوف الناس على معانى هذا الكتاب ، ومدى ادراكهم لاسراره وأخذهم بتعاليمه . ولعل القارىء لاحظ كيف ابتدأ تقلص ظلالها عن الربوع الاسلامية ، ومتى انطمست معالمها فى الحواضر التى بها كانت زاهية زاهرة ، تضرب اليها آباط الابل من كل صوب ، ويقصدها طلاب المدنية والعرفان من أطراف الارض .

ولقد يدرك المؤرخ البصير أن أرواح الامم وعقلياتها ، يعدى بعضها بعضا ، ولا سيما ما كان منها خبيثا ، فالشعوب الاسلامية فى الشرق ، عندما غشت أبصارها ظلمات الجهالة فعل فيها رجال الدين ما فعل فى الغرب رجال الكنيسة بالمسيحيين ، وكم من مرة أتحدت أو تقاربت فيها الاوقات التى كانت تقام فيها محاكم التفتيش فى أواسط أوربا ، والاضطهادات المذهبية فى بغداد وما حولها .

ومالى لا أتحدث بما فعل الكاثوليك بأمر شارل التاسع ملك فرنسا عام ١٥٧٢ م بالبروتستانت من المذابح التى أحصيت ضحاياها ، فبلغت سبعين ألفا عدا ، مقارنا ذلك بالجناية الكبرى ، التى جناها السلطان سليم عام ١٥١٣م

فى بلاد العجم ، يوم أحصى الشيعة فى تلك البقاع بطريقة سرية لم يشعر بها أحد ، حتى اذا عرفت مساكنهم وأشخاصهم ، أمر السلطان فأبيدوا فجأة عن آخرهم ، وكانوا نحو أربعين الفا ، ولم يكن لذلك من سبب ، سوى القصد الى اثارة نفس عميد الشيعة الشاه اسماعيل ملك العجم ، واستفزازه للمحاربة ، طمعا فى ملكه ، وقصدا الى ابادة دولته . فالسبب فى هذا المثل كما ترون سياسى بحت ، ظهر للناس فى شكل دينى . ولهذا المبحث من الاحداث والشواهد ، ما يخرجنا سرده عما قطعناه على انفسنا هنا من الايجاز والاجتزاء بالعجالات والامثال .

كذلك كان شأن القرآن ازاء العلوم ، وقد كان من موسوعاتها العلوم العقلية من الرياضيات والطبيعيات وما وراء الطبيعة ، فهو الذى قام بالدعوة اليها ، والترغيب فى البحث عن دقائقها واسرارها ، وهو الذى ببركته وجد بين المؤمنين آلاف من أمثال : الكندى ، ومحمد بن موسى الخوارزمى ، ويحيى بن أبى منصور ، والعباس بن سعيد الجوهرى ، وأحمد بن كثير الفرغانى ، وجعفر بن محمد البلخى ، ونصير الدين الطوسى ، وثابت بن قرة ، وعمر ابن الخيام ، وابن سينا ، وأبى نصر الفارابى ، وابن رشد ، والحسن بن الهيثم ، وأشباه هؤلاء من فطاحل العلوم الرياضية والطبيعية والأثقال والموسيقى وغيرها .

القرآن والعلوم الحديثة

لم يبق علينا اذن الا البحث فى موقف القرآن الكريم ، ازاء ما يسمى الآن بالعلوم « Sciences » وهل فى طبيعة

دراستها بالاساليب الحديثة ، ما يجعل بينها وبين القرآن وتعاليمه سدا لا يتعانقان معه ، وقتالا لا يرجوان سلاما بعده ؟ أجل ! بيد أنه لابد لنا قبل الدخول فى تفاصيل ذلك البحث أن نعرف لكم معنى كلمة (العلم) المألوف للعرف الحاضر فى الغرب وكذا فى الشرق الذى يسير على أثر الغرب فى كل شىء ، فان لكل زمان اصطلاحه وعرفه، ولكل عرف حدوده وحكمه . ولنعتمد فيما نقدم لكم من أهل أوربا ، فانهم محدثو هـذه الفلسـفة ، ومبتـدعو اصطلاحاتها ، وواضعو تعاريفها ، فنقول :

١ ـ يقول هكسلى : « العلم » فيما اعتقد ، ليس سوى الذوق الانسانى بعد تربيته وتنظيمه ، ويطلب هذا العلم حقائق الكائنات الطبيعية بواسطة الحواس ، مع الاستعانة بجميع ما عرف لهذا العهد من أنواع الآلات العجيبة المدهشة ، مثل المناظير المكبرة Microscope والمناظير المقربة Telescope ، وهل أقيمت اكتشافات كبلر ونيوتون الا على تلك القواعد الثابتة ، قواعد الشهود بهذه المناظير ؟ » .

٢ ـ ويقول الاستاذ بلفور فى خطبة له :

ـ يتوقف « العلم » فى تحصيله والتثبت منه على المقاييس فكل ما لا يقبل القياس من الاشياء ، فهو خارج أو يكاد يكون خارجا عن حدوده الطبيعية ، ومعلوم أن الحياة والجمال والسرور ليست مما يقاس ، فهى اذن لا تكون من موضوعات « العلم » .

٣ ـ ويقول الاستاذ وندل : « العلم ـ سـواء استعان بالآلات أم لم يستعن ـ عماده ما يلاحظه الانسان ويحسه

من الكائنات ، وما تهديه اليه فى المعامل الكيميائية والمعامل الطبيعية التجـــاريب والآلات ، التى تمكنه من انتزاع غوامض أسرار الطبيعة من مكامنها العميقة ، مع بلوغهـا من الدقة والضآلة ، ما يكاد يحجبها عن أبصار الرائين .

واذا أردنا أن نبحث فى باطن النظام الآلى للطبيعة أو فى خارجه ، أو قصدنا معرفة ما انبعث عنه هذا النظام ، وكيف كان وما مصيره ، أو حاولنا أن ندرك كنه هــذا الكون ، ومبلغ شعورنا به ، ولم وجد ولم خلقنا نحن هنا ؟ اذا أردنا ذلك ، فان العلم الحديث ليس لديه جواب عن شىء منه ، اذ لا دخل لشىء من ذلك فى الحــدود المصطلح عليها للعلم ، واذا كان لا علاقة للعلم الحديث بشىء من تلك المباحث ، ولا جواب لديه من امثال ما قدمنا من الامثلة ، فليس بالطبع لأحد ممن يتكلمون باسم العلم أن يدعى أن « العلم » أقام البرهان على عدم وجود الله ، أو أنه ليس هناك أرواح ، او ان هنالك او ليس هنالك بعد هذه الحياة الدنيا بعث ولا نشور ، ولا جنة ولا نار الخ ... » .

مما أقتبسناه هنا من أقوال أساطين التجديد الغربيين فى تعريف كلمة « العلم » وتحديد مداها وموســوعاتها يتبين أن من الجهل الفاضح واللفظ الطائش ان يتعرض باسم هذه الكلمة ــ ورقعتها من الضيق على ما رأيتم ــ الى المباحث العقلية البحتة ، وبخاصة ما وراء الطبيعة منها ، فان « العلم » بالمعنى الذى وصفه وعرفه واضعوه كما أسلفنا لا يعرض لشىء من هذه المباحث بنفى أو اثبات ولا يتناولها بامتحان ولا مناقشة ، وكيف وهو لا يصل

المحسوسات ولا يعرف موضوعا غير الماديات ، ولا منطقا سوى المعامل والآلات .

***

ولقد وقفت الكنيسة فى بدء بناء « العلم » على تلك القواعد الجديدة وقفة المحارب العنيد أيام حكمت بالكفر شعبة الالهيات فى جامعة توبنجن بألمانيا على الفيلسوف كبلر سنة ١٥٩٦ ، وأصدرت محكمة التفتيش قرارها المشهور الذى خلاصته :

١ ـ ان النظرية القائلة بأن الشمس مركز الدنيا وانها لا تتحرك من مكانها هذيان . وأنها كذلك هرطقة لأنها بلا ريب مناقضة للكتاب المقدس .

٢ ـ أن النظرية القائلة بأن الاوض ليست مركز الدنيا، وانها غير قارة ، ولكنها متحركة ومتنفلة ، هذه النظرية مساوية فلسفيا لسابقتها فى هذيانها وخطئها ، ومن الوجهة الدينية تعتبر على أقل فرض عقيدة خاطئة .

ولم تهبط ثورة الحركة العدائية للعلم وأبحاثه الجديدة الا فى نحو الثلث الاول من القرن السابع عشر بعد اذ أخذ رجال الدين يتبينون خطأهم فى فهم عبـــارة « العلم » ويفقهون ألا علاقة لها بغير الماديات والآليات من الكائنات أصلا ، فهنـــا نرى القسيسين الكاثوليكيين : بليالدو وغسيندى ، يتوليان علنا فى الاعوام (١٦٣٩ ـ ١٦٤٥) الدفاع عن نظرية كوبرنيك ، فلا يصابان بأذى ، ولايتهمان بهرطقة .

بعد الذى قدمنا فى هذا المقام من البيان ، نود أن نقرر بكل توكيد ان موقف القرآن الكريم تجاه « العلم » فى

العصر الحديث ، هو عين موقفه أزاء « العلم » فى القرون الوسطى الى عهد التجديد الغربى ، فهو كما كان قبلا لا يفتأ يدعو العقل الى التفكير ، والأبصار الى الاعتبار ، والآذان الى الاستماع ، ثم هو مع ذلك لا ينفك يستدرج الناس الى التحسس من أسرار الكائنات ، ويحفزهم الى الكشف عن غوامضها ، والتنقيب عن دقائقها ، فهم بحكم تعاليمه الخالدة يفقهون انهم لم يؤتوا من العلم الا قليلا ، وان الله يخلق ما لا يعلمون ، وأن الكائنات خلقت مما يعلمون ومما لا يعلمون ، وأنه ليس للعلم صورة خاصة ولا حدود حاصرة . كذلكم يجد المؤمنون أنفسهم بحكم آياته الحكيمة منهيين عن التقليد فى عقائدهم ، واتباع الظن فى أحكامهم ، والميل مع الاهواء فى تصرفاتهم .

على أنهم مع هذا كله يجدون فى كثير من آى القرآن ما يرشدهم الى مواطن التفكير والبحث ، ويعرفهم ما يتطلبون الوصول اليه من أسرار العالم ودقائق حقائقه . واذن كان استقصاء ما جاء من ناحية النظريات الحديثة فى القرآن الكريم ، وبيان القول فيه كما ينبغى مما لا يتسع له هذا المقام ، فاننا نكتفى هنا بالاتيان على طوائف منها اجمالا لا تفصيل له ، وايجازا نجتزىء بالاشارة فيه . ففى هذه الحدود التى رسمنا لأنفسنا نقتبس من الآيات الكريمة ما له علاقة وتناسب بأمهات تلك النظريات الفلسفية . وقبل انجاز ما وعدناكم هنا نرى أن نجمل لكم ما سبق تفصيله فنقول :

١ ـ ليست مهمة القرآن كسائر الكتب السماوية البحث فى الشئون الكونية والمسائل العلمية والفنية على النحو المألوف فى الكتب الخاصة الموضوعة فيها

٢ ــ لما جاء القرآن الكريم كان فى جزيرة العرب من العقائد الفاسدة والعلم الخـــاطىء بالكونيات أضعاف أضعاف ما كان منها لدى بنى اسرائيل عندما أخرجهم موسى عليه السلام من مصر ، فكان من الحكمة الالهية أن يتنزل على محمـــد فى سبيل تصحيح تلك العقـــائد والمعلومات أضعاف ما تنزل على موسى فى سفر التكوين . والحكمة البالغة فى ذلك أن الدعوة الى توحيـد الخـالق ، وتقرير الحق من العقائد ، وقبول ما يلى ذلك من الشرائع والاخلاق ما كانت لتجد سبيلها الى قلوب عرفت للاجرام العلوية وأصلها والوهيتها وتزاوجها وما كان من انسالها فى تكوين هذه الكائنات ونظامها ما قررته العقلية القديمة فى بلاد مصر والاغريق وما بثته فى جزيرة العرب وما حولها من أساطير الاشوريين البابليين والكلدانيين . اذن كان لزاما أن يسترعى القرآن الناس الى رجه الخطـــأ فى عقدئدهم ، وأن يشككهم فى الباطل الذى اتبعوه ، لانهم وجدوا عليه آباءهم ، وان يطلقهم بذلك من الحجر الذى أشقاهم وألحقهم بالانعام من الحيوان .

٣ ــ كانت اذن مهمة القرآن الحـــكيم ، التى أرادها لتمهيد السبيل الى التعريف بالخالق جل شأنه ، أن يبين للعقول بضرب الامثال لم تفكر وفيم تفكر وكيف تفكر ؟ فهو فى جهاده هذا كأنما يخطط أرض العلم لتقيم العقـــول البشرية عليها صروحه الشامخة المتينة ، ويرسم الخطوط الاساسية للصور كى يملأها الرسام بما يلزم لها من الالوان والظلال ومعالم الجمال .

٤ ــ لم يقف القرآن الكريم عند هذا الحد فيما ضرب لنا من الامثال فى بيان بعض غوامض الحقائق الكونية ،

بل جاء فى ذلك بحقائق أمر الاميين وغير المحصلين بالتسليم بها والتفويض فيها ، كما أمر العقول الناضجة المقتدرة بطلابها والوقوف على دقائقها والعلم بوجوب الصواب فيها . ثم نصح للفريقين أن يعترفا بعجز عقولهما ، وألا يقطعا فى شىء فيما لا تبلغه أبحاثهم وسعيهم ، بل يتهمون أنفسهم بالعجز والقصور ، ويسألون اهل الذكر فيما لا يعلمون أو يكلون امر ما لا يدركون الى من يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

٥ ـ ان المسيحيين حينما ثاروا فى وجه العلم ونظام الحكم ثورتهم التجديدية فى أوربا لم يكونوا ليشبهوا فى شىء من مواقفهم تلك أحدا من الشعوب الاسلامية ، فانما كان مبعث حركتهم العنيفة ومصدر ثورتهم الدموية ، أن رجال الكنيسة باسم الدين حجروا على العقول والوجدان، وقرروا للكنيسة فلسفة حرموا على الناس حتى استيضاح ما غمض عليهم منها ، ثم قرروا تكفير من يقول بغيرها ، ولو اعتمد فى رايه على الحس والمعاينة . حتى لقد كان منهم ميلانشتون وكيرمونينى اللذان رفضا أن ينظرا الى السماء بتلسكوب (الآلة المقربة) .

وقد روى عن غاليليو أن من تلاميذ المذهب الأرسطى من كانوا ينكرون وجود أجسام علوية مرئية بالفعل ، وانهم كانوا يعتبرون فلسفة أرسطو كتلة واحدة لا تقبل التفكيك ، اذا نقض منها حجر انهار سائر بنيانها على اثره ، فكان ذلك سبب مغالاتهم فى التمسك بها والحرص عليها مجتمعة .

والآن ، وقد فرغنا من هذه المقدمات التمهيدية ، ننجز ما سبق لنا الوعد به ، فنقول :

(أ) تكون جميع أصول الكائنات من زوجين اثنين وبلسان العلم الحديث من : الكترون ، وبروتون .

وفى القرآن : « ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين » فما من شيء فى الوجود الا منه الذكر والأنثى سواء فى ذلك النبات والحيوان والجماد وغيرها مما لانعلم .

وجاء فى بيان اجمال ذلك قوله تعالى : « سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » وفى عبارة « ومما لا يعلمون » من المعانى ما يسكن اليه عقل الانسان فى كل زمان ، وتطابقه كما رأينا أحدث نظرية فى أصول الاكوان .

(ب) تتولد الحياة من الماء .

وفى القرآن : « وجعلنا من الماء كل شيء حى » فهذه الآية تطابق العلم الحديث فى هذا الموضوع . ولقد وقفت عقول قدماء المفسرين ازاء هذه الآية حائرة قلقة ، فلم تدرك منها ذلك المعنى على ظهوره ووضوحه . ولذلك وقع لهم فى تأويلها خلط كثير نضرب عنه صفحا هنا .

(ج) تعدد الارضين .

لم يذكر القدماء شيئا فى أمر تعدد الارضين سوى ما نقله ابن سينا عن قدماء حكماء الفرس من أن هنالك اراضى كثيرة غير أرضنا ، وما زال الرأى السائد بين سائر الحكماء والفلاسفة يقول بعدم تعددها ، حتى جاء غاليليو المتوفى سنة ١٦٤٢ بمناظيره المكبرة والمقربة ، وكذلك من جاءوا بعده فأثبتوا بمشاهدتهم العينية الصادقة أن السيارات جميعها أراض كأرضنا ، وقد يكون بها ما بأرضنا من الجبال والوهاد والماء والهواء

والخلائق والعمران . ولم يعتمدوا فى هذا التجويز الا على الحدس والظن ، فان مناظيرهم لم تثبت لهم ذلك بعد .

أما القرآن فقد صرح بتعدد الارضين فى آية « الله الذى خلق سبع سـماوات ومن الارض مثلهن » ففى تفسير أبى السعود (من مفسرى القرن التاسع للهجرة) أن الجمهور على أنها سبع أرضين بعضها فوق بعض . وفى تفسير النيسابورى أنها سبع ارضين ما بين كل واحدة منها الى الاخرى مسيرة خمسمائة عام (١) وفى كل ارض منها خلق .. الى ان قال : وهم يشاهدون السماء من جانب ارضهم ويشهدون الضياء منها ، الخ . ومن أصرح الآيات فى أن السيارات اراض مأهولة آية الشورى : « ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة » اذ المراد بالسموات هنا السيارات على ما يأتى لنا من التأويل . ومن الآيات البينة فى هذا الموضوع قوله تعالى : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض وما فيهن ، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » .

ومن قصرت عقولهم من القدماء استبعدوا وجود الحيوان فى الاجرام السماوية ، ولكن نفى الزمخشرى والبيضاوى وغيرهما استبعاد أن يخلق الله فيها صنوفا

---

(١) مسألة تقدير المسافات التى بين السيارات مثلا بمسير خمسمائة عام يفسرها الشهرستانى بالدابة تسير فرسخا اسلاميا فى كل ساعة على ماهو معروف ومصطلح عليه فى سائر الكتب الاسلامية مما يبلغ مجموعه نحو ١٦ مليون ميل تقريبا وهو قريب جدا من تقديرات المتاخرين للمسافات الفاصلة بين السيارات كما يقول ذلك الاستاذ فى كتابه المسمى (الهيئة والاسلام) صفحة ٩٠ جزء أول .

من الحيوان يمشـــون فيها مشى الانســـان على الأرض ، فالله خلق كما قالوا ما نعلم وما لا نعلم .

(د) السيارات هى التى تدور فى مدارات وهمية ، وليست كما يقول قدماء الفلاسفة ثابتة فى أفلاك دائرة بها ، وهذه الافلاك لا تقبل الخرق والالتئام ، الى آخر ما جاء للقدماء فى وصفها والتعريف بها : أما القرآن الكريم فيطابق الفلسفة الجديدة فى آية « كل فى فلك يسبحون » وآية « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق » .

(هـ) الشمس جسم مشتعل تبث النور والنـار من ذاتها وترسلهما الى سياراتها المرتبطة بها وان اقتضى ذلك اضاعة أضعاف أضعاف ما يحتاجه كل سيار من أشعتها . والأجرام الكونية جميعها حادثة بالذات والزمان، وقابلة للفساد والفنـــاء . ومن الثابت بالحساب أن الشمس تفقد من مادتها فى الثانية على أقل تقدير أربعة ملايين طن . ولا ينبغى أن يزعج هذا عشاق الحيـــاة الدنيا ، فان الشمس على هذا الحساب تحتاج فى فقدها جزءا من مائة جزء من حجمهـــا الى مائة مليون سنة وخمسين ألف سنة . على أنها بعد أن تصل الى هـــذه الحالة نجدها لا تزال ترسل من نورها وحرارتها ما يجعل الحياة فى أكثر أجزاء هذه الارض صالحة طيبة .

وفى القرآن ما معناه فى ذلك : « وجعل الشمس سراجا» « وجعلنا سراجا وهاجا » قال مقاتل فى تفسير الوهج : مجمع النور والحر ، وفى القـاموس : وهجت النار اتقدت .

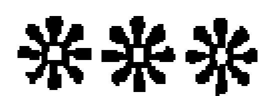
ومن الآيات « اذا الشمس كورت » أى ذهب حرها ونورها ، وآية « اذا السماء انفطرت . واذا الكواكب

انتثرت » « فاذا النجوم طمست . واذا السماء فرجت . واذا الجبال نسفت » الى أمثال هذه من آيات القرآن الكريم . وهنا يجمل ان اذكر بالخير أحد مجتهدى الشيعة هبة الله المشهور بالشهرستاني ، وهو من علماء عصرنا فقد وضع كتابا فيما بين الهيئة الحديثة والاسلام من الاتصال ، فأتى على بعض مباحث قيمة مفيدة يحسن ان اقتبس منها ما جاء له في بيان معنى السماء فى القرآن اذ يقول : ـ

١ ـ اذا وردت السماء والارض معا ومفردتين فى آية ، كان الظاهر من الارض أرضنا ومن السماء ما علاها من الهواء والأجرام .

٢ ـ واذا ورد لفظ الارض مفردا ومعه السماء مجموعة ، كان الظاهر من الارض ارضنا ومن السموات الكرات والاجرام مطلقا .

٣ ـ واذا ورد لفظ الارضين مع السماوات مجموعتين ، كان الظاهر من الاراضى السماوات والكرات البخارية المحيطة بها .



هذا وتطلق اللغة كلمة السماء على كل ما يعلو الارض . قال القزوينى : كل ما فوق الارض فهو سماء ، وقال الطبرسى فى مجمع البيان ، كل ما علاك واظلك فهو سماء وجملة القول فيما قصده القرآن من كلمة السماء ان السماء :

١ ـ نفس الجو كآية « وجعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا » .

٢ ــ الاجرام السماوية والسيارات كما فى حديث « ان فى السماء آدم كآدمكم ونوحا كنوحكم » وكما فى آية « ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة » .

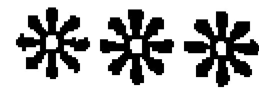
٣ ــ جسم عظيم مكور محيط بالارض ، ولكن اختلف الناس فى فهم كنهه والمفهوم من بعض الاحاديث أنها كرة بخارية غازية ، وهذه مع كرة الهواء التى فى جوفها تتحركان مصاحبتين للأرض بجميع حركاتها ، وفيها يقول الاستاذ فاندايك (جزء ثالث ــ النقش فى الحجر) :

« انا عائشون فى قعر اقيانوس سيال معدل عمقه على الاقل مائة مثل لعمق أوقيانوس الماء الغامر للكرة الارضية» وفى هذا المعنى جاءت آية « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » ففى مروج الذهب وابن ميثم فى شرحه على نهج البلاغة أن المفسرين اتفقوا على أن الدخان الذى تكونت منه السماء كان عن تنفس الماء وتبخره ، وفى كليات أبى البقاء : كل دخان يسطع من ماء حار فهو بخار وكذلك الندى . وبهذا المعنى أتت الآيات الكريمة : (١) « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر»(٢) « يوم تشقق السماء بالغمام» و (٣) « وانزلنا من السماء ماء » (٤) « أو لم يرو أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي » (وذلك فى رأى بعض المفسرين) وكذلك جاء قول الشاعر :

اذا نزل السماء بأرض قوم   رعيناه وان كانوا غضابا

ولقد رويت بهذا المعنى أحاديث كثيرة تختلف درجات صحتها ، وفيها تسمى تلك الطبقة البخارية بالبحر

المكفوف ، اى الذى لا يهبط ولا يسقط لانه فى حالة بخارية .



فائدة الجبال فى الارض وحكمتها انها مقام الانسان وغيره من الكائنات الحية أو شرط بقائها وحياتها ، اذ هى الجزء الجامد المرتفع الراسى الثابت المتماسك الاجزاء والعناصر الصلبة . ولولا هذه الخصائص والصفات لمادت الارض ببحارها ولاضطربت بأمواجها كما يشاهد فى القسم المائى منها وهنالك لا يكون للانسان بها مستقر ولا للعمران فيها سبب ولا مكان .

ومن الآيات الواردة فى ذلك المعنى : (١) « وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بكم » و (٢) « وجعلنا الجبال أوتادا » و (٣) « والقى فى الارض رواسى أن تميد بكم » .

وذلك أن الجبال لصلابتها وتماسك عناصرها وارتفاعها عن سطح البحار تكون للانسان مقاما حصينا لا يهدده طغيان البحار ولا يجترفه مضطرب الامواج . ثم انها لشهوقها ومختلف درجات ارتفاعها لها من الفوائد العظمى والشرائط الجوهرية الضرورية للحياة والعمران والحضارة ما لا يخفى على المصلحين . ومن الخطأ أن تتخيل الجبال كالاوتاد تغرز فى الارض أو الحائط لتربط بها الدواب خشية فرارها أو الخيمة لبنائها واقامتها على أعوادها فان هذا المعنى ليس مما يخطر للعقل السليم . وما لنا نأخذ بهذا التأويل السقيم ، ولنا فى معانى الوتد لغة مالا يلجئنا اليه ؟

لقد سمى العرب الهنية الناشزة فى مقدم الاذن وتدا ،

فيقال « ما أملح وتدى أذنه » كما استعملوا أوتاد البلاد لرؤسائها الظاهرين فيها وأوتاد الفم لأسنانه المثبتة فى فكيه . اذن لماذا يقذف بنا الشطط فى التأويل حتى نحمل كتاب الله العربى من المعانى ما هو بعيد عن نظمه البديع ومراميه الطبيعية ؟ أفلا يعلم أولئك أن الجبال هى المثبتة فى الارض كما يثبت وتد الدابة أو الخيمة فى الارض والحائط ، وأن الامر بهذا ينعكس عليهم اذ تكون الارض هى الوتد الذى تثبت به الجبال لا العكس .

ثم ما عسى أن يكون مبلغ تأثير الجبال فى الارض من ناحية حفظ توازنها ووقايتها ما يحل بها من الميدان والاضطراب كما يقول أولئك الواهمون . اننا نعلم أن الله سبحانه وتعالى رفع السماوات والارض بما قدر لها من القوانين الكونية وما أقام بينها من التجاذب ، فهو الرافع لها ، كما فى القرآن ، بغير عمد مرئية للأبصار ، ولكن جعلها سابحة فى الفضاء محفوظة من السقوط والاضطراب والميدان ، فهى تسبح بقدر فى مدارها سبحا لا يعتريه نشوز ولا نكوب ما دامت تلك النواميس قائمة معقودة بمشيئة مبدع الكائنات وفاطر الارض والسموات « ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ، ولئن زالتا ان امسكهما من أحد من بعده » .

على أن نظرة واحدة الى نسبة ارتفاع أعظم الجبال الى قطر الارض تدلك على أن الجبال فى الارض ما هى الا كالهانات الناشزة فى سطح جسم الانسان لا تقيم بضآلتها وزنا لاعتداله ولا توازنه ، فان رفعة تلك الجبال الشاهقة فى كرة الارض على قلة عددها تتراوح بين

خمسة آلاف من الامتار وتسعة آلاف متر تقريبا وبعبارة اخرى تتراوح بين جزء واحد وبين جزء ونصف جزء من ثلاثة آلاف جزء متساوية يقسم اليها قطر الارض تقريبا (١) .

ومن هنا يتجلى مبلغ ضآلة تلك الجبال فى الارض . اما الحكمة فى وجودها فقد سبق الكلام فيها ، واجماله أن الفرض هو اعدادها لعالم الحياة والعمران فى كرة الارض واستخدامها لتخفيف البلاء والجهد عن سكانها من الأحياء واقامة معالم الزينة والجمال فى اقطارها وربوعها .

يشير الى ذلك قوله تعالى : « والارض مددناها والقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج » ».

***

وبعد ..

فقد آن لنا أن نكتفى بما قدمنا لكم من العجالات والامثال فان فى استقصاء هذه المباحث ما يحتاج الى ضخام المطولات • فحسبنا هنا ما تيسر لنا منها والله المسئول أن يوفقنا الى اكمال هذه الموضوعات وايفائها حقها من الشرح والبيان خدمة للدين وهداية للمستهدين من المؤمنين •

الآيات الواردة حول الموضوعات السابقة

١ ــ « أمن خلق السموات والارض وانزل من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أاله مع الله بل هم قوم يعدلون . امن جعل

(١) قطر الارض يساوى ٣٠٠٠ فرسخ .

الارض قرارا وجعل خلالها انهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أاله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ».

٢ ـ « قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الارض ، أم لهم شرك فى السماوات ، أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ، بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا » .

٣ ـ « أاله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » .

٤ ـ « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » .

٥ ـ « انها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

٦ ـ « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » .

٧ ـ ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » .

٨ ـ وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

٩ ـ « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا

قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة » .

١٠ ــ « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء اتقولون على الله ما لا تعلمون » .

١١ ــ « لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

١٢ ــ « أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » .

١٣ ــ « ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا امانى وان هم الا يظنون ، فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا » .

١٤ ــ « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير » .

١٥ ــ ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

١٦ ــ « قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء » .

١٧ ــ « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر اولو الالباب » .

١٨ ــ « هل يستوى الاعمى والبصير ، أم هل يستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ » .

١٩ ـ « قال الذين أوتوا العلم ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين » .
٢٠ ـ « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .
٢١ ـ « ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .
٢٢ ـ « يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا » .
٢٣ ـ « وقل رب زدنى علما » .
٢٤ ـ « سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » .
٢٥ ـ وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » .
٢٦ ـ « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » .
٢٧ ـ « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » .
٢٨ ـ « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » .
٢٩ ـ « تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم » .
٣٠ ـ « وقالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » .
٣١ ـ « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » .
٣٢ ـ « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » .

٣٣ ـ « وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون » .

٣٤ ـ « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم » .

٣٥ ـ « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد » .

٣٦ ـ « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم » .

٣٧ ـ « فذكر انما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » .

٣٨ ـ « فانما على رسولنا البلاغ المبين » .

٣٩ ـ « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، ما لكم كيف تحكمون ؟ » .

وهنالك كثير من آيات القرآن الكريم مختومة بمثل العبارات الآتية « قليلا ما تذكرون » ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ، « ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صادقين » ، « ان فى ذلك لآيات للعالمين » ، « ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » الى أشباه ذلك مما تجدونه فى ثنايا الكتاب العزيز .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على رسوله المبعوث بالآيات المنجيات .

رقم الايداع فى دار الكتب ٣٢٦٧ ـ ١٩٨٣
الترقيم الدولى ٩ ـ ٠٢٣ ـ ٣١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ
الصفاة ـ ص٠ ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : R. Miguel Maceul Cury. B. 25 de Maroc.
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

أسعار البيع فى الخارج للعدد الممتاز فئة ٣٥٠ مليم :

سوريا ٧٠٠ ق٠س ـ اديس ابابا ٥٠٠ سنت ـ لبنان ٧٠٠ ق٠ل ـ باريس ٨ فرنكات ـ الاردن ٦٠٠ فلس ـ لندن ٨٠ بنس ـ الكويت ٩٠٠ فلس ـ ايطاليا ١٢٠٠ ليرة ـ العراق ١٠٠٠ فلس ـ سويسرا ٣ر٥ فرنكات ـ السعودية ٧ ريال ـ اثينا ٨٠ دراخمة ـ السودان ٦٠٠ مليما ـ فيينا ٣٥ شلن ـ تونس ١٠٠٠ مليم ـ فرانكفورت ٣ر٥ مارك ـ المغرت ١٠٠٠ فرنك ـ كوبنهاجن ١٠ كرونات ـ الجزائر ١٠٠٠ سنتيم ـ استوكهولم ١٤ كرونة ـ الخليج ٤٥٠ فلس ـ كندا ٢٥٠ سنت ـ غزة ٨٠ لبرة ـ البرازيل ٣٥٠ كروزيرو ـ داكار ٤٠٠ فرنك ـ لوس انجلوس ٣٠٠ سنت ـ لاجوس ٦٠ بنى ـ استراليا ٣٠٠ سنت ـ اسمرة ٥٠٠ سنتا ـ هولندا ٤ فلورين ـ اليمن الشمالية ٥٠ بنى ـ نيويورك ٢٥٠ سنت ـ الصومال ٥٠ بنس ٠



هذا الكتاب

يعد هذا الكتاب « الاسلام بين الفطرة والحرية » اثرا نفيسا من اثار العالم الجليل والزعيم الوطني النابغة المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش • فقد طوى حياته في الجهاد الوطني، لتحرير مصر من ربقة الاستعمار ، والسعي لحريتها وكرامتها واستقلالها التام ، واحتمل اعظم التضحيات • ولكنه الى جانب جهاده الوطني لم ينس واجبه العلمي والديني ، فكتب وحاضر كثيرا ••• وكان من ذلك تاليفه لهذا الكتاب ، الذى نقدمه اليوم لقراء هذه السلسلة ، وهو يتناول عدة موضوعات هامة عن الاسلام والقرآن ، كالفطرة والتوحيد ، والنبوة والغرض الفطرى منها ، واثر القرآن في تحرير الفكر البشرى وموقف القرآن من العلوم الكونية •

وقد كتبه المؤلف باسلوب عصرى ناضج ، وبعبارة سلسة فصيحة ـ فقد كان رحمه الله من كبار الكتاب وقادة الفكر وعالما ممتازا من اعلام الوطنية والوطن ـ ويسرنا ان نقدمه لقراء العربية وهو وان كان يهم المسلمين خاصة ، فان فيه لغير المسلمين مجالا للثقافة النافعة وميدانا للرياضة الفكرية والوقوف على ما في اصول الاسلام من مثل عليا ومعان انسانية رفيعة •

٣٥ قرشا

